

موسوعة

مقدمات العلوم والمناهج

محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل

الجزء العاشر

تاريخ اليقظة الإسلامية

يسجل هذا البحث ثلاث مراحل لليقظة الاسلامية :

الأولى : منذ سيطرة الاستعمار الغربي على الوطن الاسلامي وإلى مطالع الحرب العالمية الأولى .

الثانى : مرحلة التغريب التى امتدت خلال ما بين الحربين الأولى والثانية .

الثالث : مرحلة الغزو الفكرى الغربى والماركسى والصهيونى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى اليوم .

وفى هذه الصفحات يكشف المؤلف عشرات الحقائق التى يحتاج إليها كل باحث

الجزء الحادى عشر : تقييم كامل لقضايا الفكر والصحافة

أنور الجندى

دار الأنصار
مكتبة طباعة نشر توزيع
٥٤ ش البستان ناصية ش الجمهورية
أمام قسم عابدين ت ٩٢١٥٨١

مقدمات العلوم والمناهج

المجلد العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

يقتضينا حق الأمانة التى حملها هذا القلم بعد هذه الجولة الواسعة فى الفكر الاسلامى من أجل بناء منهج متكامل له أن نتوقف قليلا لنقدم هذه الحقائق :

أولا : إن كل ما فى هذه الموسوعة نتاج عقول مفكرى الاسلام ، التى استوعبتها واعتصرتها سلكتها فى هذا النهج على أساس مفهوم أساسى هو أن الفكر الاسلامى : يملك منظوراً جامعاً ربانياً واسع الأفق ، عريض الجوانب ، مرن مرونة حقيقية ، قادر على تقبل كل المتغيرات التى يواجهها المجتمع البشرى ، وأن هذا المنهج يختلف عن مناهج الفكر البشرى فى عدة مواقع أهمها : تكامله الجامع فى وجه انشطارية الفكر الغربى أو الشرقى أو وقوفه عند جناح واحد من جناحى الفكر الاسلامى فهو إما روحى خالص (كالفكر الشرقى المتمثل فى البوذية والهندوكية) أو مادى خالص (كالفكر الغربى الليبرالى الماركسى . ومن هنا فكل منهما يمثل جزئية لا تستطيع أن تقدم النظرة الجامعة ، ويتمثل فى فكرة التطور المطلق ، أو التحول الدائم ، وهى ظواهر لا تقدر على التكامل الجامع الذى يمثله الاسلام ، بل هى أحياناً لا نستطيع أن نستوعبه أو نفهمه لكثرة ما احتوتها مفاهيم التجزئة والانشطارية .

ثانياً : هذا الفكر يبدأ بكلمة واحدة هى أن الاسلام منهج حياة ونظام مجتمع وأن الفكر الاسلامى متكامل العناصر ، من إقتصاد واجتماع وسياسة وأدب وفن وتربية يخضع لثوابت الاسلام وضوابطه وحدوده ويقيم حركته ومتغيراته من داخل دائرة الثوابت .

ثالثاً إن الأستاذ حسن البنا (رضوان الله عليه) هو صاحب المدخل الحقيقى والأول لهذا المنهج ونحن تلاميذه فى هذا الطريق على الخط الذى رسمه رسول الله ﷺ واتباعه وهو الذى علمنا وفتح لنا هذا السبيل إلى فهم الاسلام كما نزل به القرآن الكريم وبلغه نبيه العظيم إيماناً بأن الباحث المسلم يجمع بين عمل الفكر والدعوة يسلك كل عناصر التخصصات فى إطار جامع بين قيم الروح والمادة والعقل والقلب .

• • •

واقد أمكن بفضل الله وتوفيقه دراسة هذه المنطلقات العشر للفكر الإسلامى فى محاولة بناء منهج جامع على طريق الاصالة والتماس المنابع وفى ضوء القرآن والسنة ، وهو عمل بدأ منذ عام ١٩٦٣ (المرحلة الثانية فى حياة المؤلف) وتضمن :

(١) الفكر الإسلامى (٢) تاريخ الإسلام (٣) عالم الإسلام المعاصر (٤) اللغة العربية والأدب والثقافة (٥) التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة (٦) المجتمع الإسلامى (٧) الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية (٨) طوابع الإسلام بين الأديان والأيدلوجيات (٩) المنهج الغربى : أخطائه وشبهاته (١٠) تاريخ اليقظة الإسلامية .

وقد تم إنجازه (١٩٧٣ — ١٩٨٨) فى خمسة عشر عاماً وهى مرحلة خطيرة فى حياة الدعوة الإسلامية انتقلت فيها من مرحلة اليقظة إلى مرحلة الصحوة ، ومن هنا فقد كان لا بد لهذه الموسوعة أن تمد أجنحتها لتستكمل الإضافات والدراسات والمعارك والقضايا التى أثيرت وشاركنا فيها ، ومن هنا فقد تقرر بعون الله تعالى متابعة العمل بإصدار خمس حلقات جديدة هى :

الجزء الحادى عشر : تقييم الكتابات العصرية فى الصحافة والفكر .

الجزء الثانى عشر : العواصف والأعاصير التى أثيرت فى وجه الإسلام .

الجزء الثالث عشر : التراث الإسلامى ، حضارة وتاريخ وأعلام .

الجزء الرابع عشر : أخطر وجوه الاختلاف بين الإسلام والفكر الغربى .

الجزء الخامس عشر : العودة إلى المنابع .

هذا ونسأل الله تبارك وتعالى أن يمد عونه الربانى الكبير الذى مكن لنا حتى أنجزنا هذا العمل حتى نتمه ونوفى به على الغاية ليكون مرجعاً نافعاً . هذا وبالله التوفيق .

(اقرأ دراسة عن حياة المؤلف فى نهاية المجلد) .

أنور الجندى

الفهرس

آفاق البحث

الموضوع	الصفحة
الكتاب الأول : اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار . خطة البحث	١
الفكر الإسلامى والثقافة العربية	٤
الباب الأول : اليقظة فى مواجهة الاستعمار (مدخل تاريخى سياسى)	٨
مرحلة تطويق عالم الإسلام	١٠
مرحلة الاستعمار والغزو العسكرى	١٤
الفصل الثانى : بواكير اليقظة	١٦
الفصل الثالث : حركة الفكر الإسلامى	٢٦
الفصل الرابع : دعوة التوحيد	٣١
الفصل الخامس الفكر السياسى والاجتماعى	٣٨
الفصل السادس : حركة التصوف (التصوف السنى)	٥٠
٢ — الطرق الصوفية	٥٥
الفصل السابع : تيار الحرية والوحدة الإسلامية	٤٧
الفصل الثامن : صراع الطورانية والعربية والإسلامية	٧٣
نظرية ضيا كوك الب (الطورانية)	٧٩
الفصل التاسع : المنحنى الخطير	٨٥
الفصل العاشر تغريب اليقظة العربية	٩٣
الفصل الحادى عشر : المدارس الثلاث : جمال الدين ، محمد عبده ، الكواكبى	١٠١
الفصل الثانى عشر : من الوحدة الإسلامية إلى الوحدة العربية	١٢٤
الفصل الثالث عشر : من دائرة اليقظه إلى دائرة التغريب	١٤٦
تمزيق حركة اليقظة	١٦٧
الفصل الرابع عشر : تطور حركة اليقظة (من ١٩٠٥ إلى الحرب العالمية)	١٧٥
دعم حركة اليقظة	١٨٧
الفصل الخامس عشر : دحض الشبهات التى أثارتها مدرسة كرومر	٢٠٤
الكتاب الثانى : حركة اليقظة فى مواجهة التغريب (مرحلة ما بين الحربين)	
مقدمة البحث	٢١٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

الكتاب الأول

اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار

منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى

دراسة الفكر الإسلامى فى العصر الحديث تصدر فى ثلاث مراحل :

الأولى : فى مواجهة الاستعمار . الثانية : فى مواجهة التغريب .
الثالثة : فى مواجهة الأيدلوجيات الغربية والماركسية والصهيونية .

خطة البحث

هناك عدد من الحقائق الهامة التى نحتاج إلى الإلمام بها فى مقدمة هذا العرض :

أولا : إن الفكر العربى الإسلامى هو فى مجموعه وحدة كاملة ، وأن ما يطلق عليه الفكر العربى المعاصر أو الحديث إنما هو حلقة من حلقاته ومرحلة من مراحله، لا تنفصل فى بواعثها أو أهدافها أو مضامينها عنه ، فهى متصلة به اتصالا طبيعياً هو اتصال الزمان والمكان واتصال العقل العربى الإسلامى والنفس العربية الإسلامية حيث لا سبيل إلى إقامة حاجز بين هذه المرحلة والمراحل السابقة لها ، والفكر العربى الحديث فى هذا الاتصال العضوى بالفكر الإسلامى منذ مطالعه يختلف اختلافا واضحاً عن صلة الفكر الأوربى الحديث بالفكر اليونانى والرومانى القديم الذى انفصل عنه ألف عام ثم عاد فاتصل به واعتمد عليه وجدده وبنى عليه .

ثانياً : إن يقظة الفكر العربى الإسلامى التى جاءت بعد مرحلة الضعف والتخلف ، إنما انبثقت من قلب المجتمع العربى الإسلامى نفسه ، وإنها لم تبدأ من خلال حركة خارجية ، أو إنها جرت بمحض الصدفة . وهى خطوة طبيعية للفكر العربى الإسلامى وفق قانونه الطبيعى الذى يعطيه دائماً القوة على التجدد من الداخل والقدرة على انبعاث اليقظة مستأنفة طالما وصلت المرحلة السابقة إلى غايتها وإن ما يقال من أن مصادر هذه اليقظة إنما جاءت من الغرب مع الغزاة هو قول باطل لا يؤيده دليل واحد ، وأبسط رد على ذلك هو أن اليقظة بدأت فعلا مبكرة عن الحملة الفرنسية بل عن الثورة الفرنسية ذاتها بأكثر من نصف قرن

لا ريب إذن فى الصلة الجذرية والاتصال العضوى المتد بين الفكر العربى الحديث والفكر الإسلامى منذ فجره الأول .

ومن العسير أن نفهم حركة اليقظة دون هذه الخلفية الطبيعية التي تحرك فيها الفكر من خلال قيمه وقضاياه، خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن (مفتاح اليقظة) كله قد اختصر في كلمة تاريخية خالدة هي:

(إلتماس منابع الفكر الإسلامي استمداداً من القرآن والسنة الصحيحة).

إذن، فليست حركة اليقظة كيان مستقل، أو منهج مؤقت وإنما هي استمداد طبيعي، وارتباط أصيل، وحلقة جديدة في فكر عميق الجذور قد تشكل قبل بضعة عشر قرنا وأرسى قواعده الأصيلة في ظل دعوته الأولى، وقبل أن يختار حامل لواءه محمد بن عبد الله، رسول بالإسلام والمنزل عليه القرآن إلى العالمين - الرفيق الأعلى متماً هذه الدعوة يوم أنزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم).

في خلال هذه المرحلة، ومن خلال محكم التنزيل تشكلت أصول هذا الفكر، ومن هنا فإن الحقيقة الأولى التي لا سبيل إلى تجاوزها هي أن (القرآن): هو حجر الأساس في بناء الفكر الإسلامي، حيث لا يمكن تصور هذا الفكر في أصوله أو تطوره منفصلا عن القرآن الذي أتى إلى الأمة العربية والإنسانية جميعاً تلك الحصيلة الضخمة الجديدة من القيم والمفاهيم المتكاملة الشاملة التي ترسم (منهج حياة) الإنسان والمجتمع، وهي حصيلة تختلف بالحق في جوهرها وأسلوبها وطريقة عرضها عما كانت عليه البشرية، وإن كانت هي دعوة الله الأولى إلى الأنبياء جميعاً.

• • •

وقد مر الفكر الإسلامي بعد ذلك بمرحلتين أساسيتين:

المرحلة الأولى: مرحلة بناء الفكر الإسلامي واستكمال دعائمه، وهي المرحلة التي بدأت فيها العلوم: علوم العقائد والتشريع والكلام، والأخلاق ثم العلم التجريبي.

ويمثل الفكر الإسلامي في هذه المرحلة المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح الإسلام من مصادره الأصلية: القرآن والسنة الصحيحة عن طريق التفسير والاستنباط للأحكام التي اقتضتها ضرورة المجتمع وتطوره.

المرحلة الثانية: وفي هذه المرحلة استطاع الفكر الإسلامي أن يستوعب عصارات الفكر الإنساني والبشري في أعماقه وأن يعيد تشكيلها على نحو جديد من التوحيد وفي إطار الأصول الأصيلة للإسلام وتصفيتها من عناصر الوثنية والثنائية والإلحاد والإباحية.

ولقد امتدت هذه المرحلة فترة طويلة استطاعت في نهايتها أن تشكل منهجاً متكاملا، تكامل

الإسلام نفسه ، هو ما أطلق عليه : مذهب أهل السنة والجماعة ، استصفى في داخله دعوات المعتزلة والجهمية والمتصوفة والمتكلمين وصهرها وحررها مما علق بها من انحرافات ، ومن خلال هذه المرحلة واجه الفكر الإسلامي أزمة من أضخم أزماته هي (أزمة الشعوبية) وهي أزمة خطيرة قابلها العلماء المسلمون في قوة ومرونة بالغين ، وظهر فيها أعلامهم : الحسن البصري في مواجهة التحلل والانحراف وواصل والعلاف والنظام في مواجهة الزنادقة وابن حزم في التحرر من التقليد وأحمد بن حنبل في مواجهة المعتزلة ، والجاحظ في الرد على الشعوبية ، والأشعري في مواجهة انحراف التوحيد والغزالي في دحض دعوة الباطنية وفلسفة الالهيات الوثنية ، وابن تيمية في مقاومة انحرافات التصوف الفلسفي.

وقد استطاع المفكرون المسلمون صياغة الفكر الإسلامي وفق منهجه الأصيل وإقامته على أساس قواعده الطبيعية : التكامل والوسطية والحركة حيث تتلاشى النزعات المختلفة ولا يصير جانب العقل فيها جانب الوجدان بل يتوازنان مع تصفية الشوائب وإزالة القشور والكشف عن الجوهر الأصيل وإقامة (وحدة الفكر) مع دحض الشبهات المثارة وتجنبها .

• • •

هذه معركة القرن الرابع الهجري :

غير أن الفكر الإسلامي لم يلبث في القرن الثاني عشر أن وقع في أزمة جديدة : وهي أزمة الجبرية ، التي جاءت بعد انتصار المسلمين في غزوات الصليبيين والتتار جميعاً وبرز كيانهم الضخم ممثلا في الوحدة العربية الإسلامية العثمانية التي امتدت خمسة قرون ، وإذا قيل أن أزمة الفكر الإسلامي الأولى : إنما كان مصدرها إعلاء شأن الفلسفة والوثنيات الوافدة من مترجمات الفكر اليوناني الوثني . فإن أزمة الفكر الإسلامي الثانية : إنما كان مصدرها إعلاء شأن جبرية التصوف الفلسفي وما يتصل بها من القول بوحدة الوجود والحلول وهي من الفكر الوافد من برهمية الهند ومجوسية الفرس ووثنية الاغريق أيضاً .

وفيما كان عالم الاسلام من الناحية السياسية يسجل أعظم توسعاته وأقوى قوته العسكرية والحربية كانت تهزة مفهوم الفكر الإسلامي عاملا من عوامل ضعفه وانحداره السريع إلى الانحلال والتمزق وسيطرة القوى الأجنبية المتقدمة من أوربا والمتربصة به بعد انتصاره عليها في الحروب الصليبية وبعد إمعان الدولة العثمانية في الأراضي الأوربية .

هذه هي أزمة الجبرية التي واجهت الفكر الإسلامي قبل مطالع العصر الحديث ، والتي كانت اليقظة العربية الإسلامية في أوائل القرن الثالث عشر من قلب الجزيرة العربية صيحتها القوية بحيث تهدمنا على مطالع عصر جديد ومرحلة جديدة .

ولقد حققت اليقظة كبرى غاياتها حين قاومت « أزمة الجبرية » وأدالت منها ومهدت الفكر الإسلامي الطريق إلى نهضة كبرى نحن اليوم على أبوابها ، قوامها : إلتماس منابع الفكر الاسلامي إستمداداً من القرآن والسنة الصحيحة » .

غير أن هذه الحركة لم تكد تجد طريقها السوى ، حتى واجهتها حلة من أضخم الحلات ، تلك هى حلة الغزو الاستعمارى الغربى : السياسى والاجتماعى والثقافى فى حركة من أضخم حركات الاحتلال والسيطرة .

كيف إذن واجه الفكر الاسلامى العربى هذه الأزمة الجديدة :

ذلك ما نود أن نتحدث عنه فى هذه الدراسة « اليقظة الإسلامية » .

الفكر الاسلامى والثقافة العربية

ويمكن القول فى هذا المجال بأن الفكر الإسلامى قد ألق إلينا تراثاً خصباً فى مختلف جوانب الاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون والتربية والنفس والأخلاق ، هذه الحصيلة التى استوعبها الفكر الغربى الحديث وشكل بها مفاهيمه دون أن يبق على طابعها الإسلامى ، وأبرز هذه المعطيات : مذهب المعرفة الاسلامى والمذهب العلمى التجريبى الاسلامى الذى أنشأ الحضارة الصناعية التكنولوجية الحديثة .

غير أن الفكر الاسلامى لم يبق فكراً إسلامياً خالصاً طوال هذه القرون ولكنه إلتمس لغات الأمم التى دانت به فظهرت ثقافات مرتبطة بلغاتها : كالثقافات الفارسية والتركية والهندية ، ومن ثم فقد برزت الثقافة العربية أيضاً ، لاريب كانت هذه الثقافات المرتبطة باللغات والقوميات ، وليداً شرعياً للفكر الاسلامى تستمد منه مقوماتها وأسسها غير منفصلة عنه .

أما « الثقافة العربية » فقد كانت أعمق إتصالا بالفكر الاسلامى وأكثر تحرراً من إضافات الفلسفات القديمة ، وأعمق فهماً لمعطيات القرآن الكريم وبلاغته وقيمه ، ولذلك فإنه يمكن القول أن الثقافة العربية هى وليدة الفكر الاسلامى بل هى روح هذه اليقظة وعمادها فتنها بدأت حركة اليقظة إستمدادها بالعصر واتصالها بالجذور فى وقت واحد .

ومن هنا غلب على هذه الدراسة تعبير الفكر العربى « الاسلامى » الجذور أو الفكر الاسلامى « العربى اللغة » وكلها تؤدى إلى معنى واحد ومفهوم واضح ، ذلك أن أهم قوائم الفكر الاسلامى

والثقافة العربية هي أن هذه الروافد هي في مجموعها متكاملة وأنها وهي تتصل بالمجتمع والانسان الذي تجمعهما في بناء متكامل لا تنفصل ولا تجزئ، بل تتواصل وتتكامل .

والفكر الإسلامي في أصوله : هو فكر خالص له ذاتيته القائمة على أساس مفاهيم القرآن ومقومات الإسلام ، صدر عنهما قبل الاتصال بالفلسفة اليونانية أو تيارات الفكر القديم الثقافة وهو وليد وهدم عن « التوحيد » و « النبوة » ويقوم على أساس الحق والعدل .

ويمثل الفكر الإسلامي العربي وحدة متكاملة في أبعادها وأعماقها ، أبعادها الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية ، وأعماقها الزمنية والتاريخية ومعنى هذا أن مختلف الحركات العسكرية والمدارس والمذاهب والفرق ، ليست في الواقع إلا من أجل تطوير هذا الفكر في سبيل انطلاقه إلى هدفه الحتمي وغايته الأصيلة التي يمضي دؤوبا على تحقيقها وهي قيام وحدة فكر بها معتنق الإسلام والذين يعيشون في مجتمعه .

ويتحرك الفكر الإسلامي على قاعدة قوامها :

« الثبات في الأصول والتطور في الفروع » .

يتمثل الثبات في « المفاهيم الأساسية والقيم الأصلية » التي يقوم عليها الإسلام وهي تتصل بالعقائد العامة والقواعد الكلية للشريعة ، أما التطور والحركة ففي مجال الفقه وفي كل ما لا يصادم التوحيد والنبوة والعدل والحرية والحق .

ويتطور الفكر الاسلامي وفق قاعدة مضطردة واضحة عبر مراحل التاريخ الاسلامي وهي سنة واضحة قوامها : التجدد من الداخل في كل مرحلة من مراحل الضعف أو أزمة من أزمات الغزو الخارجي .

وقد أشرنا إلى هذا القانون الطبيعي من قوانين التاريخ الإسلامي في كتابنا : « الاسلام وحركة التاريخ » حين قلنا : « إن من أبرز سنن التاريخ الاسلامي : القدرة على الخروج من دائرة الضعف والتخلف بالتماس جوهر القيم الأساسية فكلما ضعفت حياة « المجتمع الاسلامي » وانحرف ظهرت « قوة شابة دافعة » تحمل اللواء وكلما تحول منهج « الفكر » واضطرب ظهر مصلح مجدد يرده إلى الجادة وهكذا عاش تاريخ الاسلام بين التحدي ورد الفعل ، تتعاوره الأحداث قوة وضعفاً ، ولكنها لا تقضي عليه ، مواجهة القوى من الخارج فتؤثر فيه حثيثاً ، ولكنه لا يلبث أن يتماسك في مواجهتها فينتصر عليها ويذيبها في بوتقته ، وتصارعه القوى من الداخل والخارج فتبرز مقوماته مجددة مرة أخرى قادرة على إعادة صياغة الحياة » .

ومن هنا فإن هذه الأمة قد تأهلت لحمل أمانة اليقظة بعد أن ضعفت الدولة العثمانية وأدت دورها خلال قرون أربع متصلة ، ففي منتصف القرن الثامن عشر بدأت دعوة التوحيد من قلب الجزيرة العربية ومن الأزهر في القاهرة في وقت متقارب .

ولقد ظهرت في الفترة الأخيرة مؤلفات أجنبية وعربية كثيرة تعرضت لهذه الحركة ، وحاولت أن تفسرها بأكثر من تفسير ، عارضة وجهات نظر أغلبها مستمد من نظرة الاستعمار والتغريب في التعرض بالقول بأن اليقظة العربية هي يقظة مصدرها : الحملة الفرنسية أو الثورة الفرنسية والغزو الغربي والارساليات التبشيرية ، ولما كان الحق غير ذلك وأن حركة اليقظة قد انبثقت أساساً من قلب الفكر العربي الاسلامي واستمدادانه من القرآن والاسلام ، وإنها مضت تشق طريقها في أصالة وعمق حتى صادمها ، حجب ، التغريب الذي انطلق من خلال سيطرة الشاميين المارونيين على الصحافة في مصر ، وامتد من داخل مفاهيم كرومر وتلاميذه الذين كونتهم مفاهيمه وسيطرتهم على الصحافة والتعليم ، وإدعاؤهم أنهم من أتباع جمال الدين ومحمد عبده .

هنا ظهر أن حركة اليقظة المرنة قد ضربت من داخلها دائرة مغلقة تدور في فلك الغرب والاستعمار والتغريب ، هذه الدائرة التي تصدر من بعد لم تكن هي وجه حركة اليقظة الحقيقي وإنما إستمدت قوتها وصدارتها من النفوذ الغربي الحاكم من خلف حكومات هذه المرحلة فقد أعطاها النفوذ والسيطرة على الثقافة والفكر من خلال الصحافة والمدرسة والحكم .

ولما كانت قضية اليقظة من كبرى القضايا التي يقوم على أساسها بناء الفكر الاسلامي والثقافة العربية في العصر الحديث ، من حيث التعرف الحقيقي على أصالة اليقظة وعلى دخائلها المسماة باسمها من أصحاب التبعية للفكر الغربي ودعاة التغريب ، فقد كان لابد من الكشف عن حقيقة هذه المرحلة وإعادة كتابة تاريخها على نحو أقرب إلى الحق والانصاف مما تداوله كثير من الأبحاث والدراسات التي اعتمدت على مراجع المستشرقين ومالت إلى مفاهيم التغريب ودسائسه دون أن تعرف وجه الحق .

ولما كانت اليقظة قد مرت الآن في مراحل ثلاث منذ فجرها هي :

المرحلة الأولى : منذ بدء اليقظة إلى الحرب العالمية الأولى .

المرحلة الثانية : فترة ما بين الحربين العالميتين (١٩١٩ — ١٩٣٩) .

المرحلة الثالثة : مرحلة ما بعد الحرب الثانية إلى اليوم .
فقد عنينا في هذه الدراسة بالمرحلة الأولى ، وأطلقنا عليها « اليقظة في مواجهة الاستعمار »

وحاولنا من خلالها إرساء عدد من الحقائق التاريخية والفكرية أهمها :

أولا : تجديد الدعوة إلى التوحيد وتحرير العقيدة .

ثانياً : تجديد الدعوة إلى الحرية والوحدة الاسلامية .

ثالثاً : تجديد اللغة العربية أسلوباً ومضموناً .

رابعاً : بعث الفكر الاسلامي الأصيل إلتماساً لمنابعه الأصيلة .

خامساً : بناء الثقافة العربية على أساس قيم الفكر الاسلامي .

سادساً : مقاومة الغزو الثقافي الغربي .

سابعاً : تجديد الأزهر ودفعه إلى الحركة والنهضة .

ثامناً : مقاومة الاقليمية والحيلولة دون إنفصال الاسلام عن المجتمع والثقافة

تاسعاً : ترابط العروبة والاسلام وتكاملهما .

الباب الأول

اليقظة فى مواجهة الاستعمار

الفصل الأول

مدخل تاريخى سياسى

فى مختصر موجز أن الوحدة الإسلامية العثمانية كانت موجة جديدة من موجات الإسلام فى حركة التاريخ ، وكان لابد أن تتسم بالقوة من ناحية وبالنقص من ناحية أخرى شأن كل موجة تاريخية ، فقد بدأت قوية شابة ثم اعتورها الضعف والركود والتحول ، وكان أبرز مظاهر ضعفها وتحولها إعتمادها على القوة العسكرية وحدها دون أن تعتمد على عملية الصهر والبلورة الفكرية والاجتماعية للأمم والشعوب والأجناس التى كانت فى أحضانها .

وميزة الفكر الإسلامى هو قدرته القادرة على تشكيل وحدة الأمة من خلال وحدة الفكر ، غير أن العثمانيين لم يصلوا فى ذلك إلى قدر كبير ، وإن كانوا قد حاولوه ، فقد غلب مزاجهم العسكرى الذى عاش بين معركتين : إحداهما الهجوم والتوسع ، والأخرى الدفاع والتراجع وذلك خلال فترة طويلة بدأت عام ٦٠٩ هـ ١٢٠٠ م وظلت قائمة حتى إنتهت عام ١٣٣٦ هـ — ١٩١٨ م حين تحولت من الامبراطورية العثمانية إلى الدولة التركية خلال ستمائة عام كاملة تمثل دورة واسعة من دورات التاريخ ومرحلة تحول ضخمة انطوت فيها أمور السياسة والحضارة والمجتمعات من وضع إلى وضع . غير أن الانصاف يقتضينا أن نذكر أن الدولة العثمانية الاسلامية ظلت صامدة حتى منتصف القرن الثامن عشر بالرغم من هزائمها فى بعض المواقع الفاصلة مثل ليبنتو وارتدادها عن أسوار فيينا مرتين .

ولما آن لهذه الوحدة الإسلامية العثمانية أن تضعف ، كان لابد أن تحل محلها قوة جديدة شابة ، هنالك برز من أعماقها صوت جديد هو صوت الوحدة العربية التى كانت قد تركت مكان القيادة السياسية للفرس والترك قبل سقوط بغداد وإن لم تتخل عن مكان القيادة الفكرية الإسلامية العربيه .

ومن هنا يمكن القول بأن اليقظة التى بدأت فى منتصف القرن الثامن عشر (١٧٤٠ م) على وجه التحقيق فى قلب الجزيرة العربية ، إنما كانت تمثل علامة الفجر على ذلك الدور الذى تلعبه الأمة العربية على مسرح الأحداث منذ ذلك التاريخ إلى اليوم فى مجال القيادة الفكرية والسياسية للعالم الاسلامى على أساس أن دور القيادة قد عاد إليها مرة أخرى لا إستعلاء ولا تسيداً ولكن بحكم مفهوم تاريخى تحليل الأحداث أشار إليه مفكرو الاسلام من غير العرب وفى مقدمتهم كتاب الهند والترك وغيرهم وفلاسفتهم ، وكان العلامة محمد إقبال من أعلى هذه الاصوات بين هؤلاء جميعاً الذين تطلعوا إلى أن بواكير اليقظة العربية الاسلامية الحديثة لابد أن تنبثق من قلب الأمة العربية صاحبة الفصحى لغة القرآن ، وحيث ما يزال الفكر الاسلامى العربى يحمل طابع الوسيطة والتكامل والحركة ، دون أن ينحرف إنحراف ثقافات الأمم الإسلامية الأخرى ولم تغلب عليه طوابع الجمود أو الجبرية أو التعارف ولم تسيطر عليه تيارات الفكر الغربى والثقافات الاوربية والامريكية ولا فلسفات اليونان والفرس والهنود القديمة فتصبغه بصبغتها أو تفسد جوهره أو تؤثر على شخصيته ومفاهيمه وقيمه الاساسية .

ومن الحق أنه لكى تكون الصورة كاملة واضحة يجب علينا أن نعود إلى القرن التاسع الهجرى (١٥م) لتتابع تطور الأحداث ومن المعروف أن الدولة العثمانية بدأت فى القرن الثامن الهجرى ، واستطاعت فى القرن التاسع أن تسيطر على القسطنطينية ٨٥٧ ﻫ - ١٤٥٣ م فكان ذلك من أضخم الاحداث فى تاريخ عالم الاسلام والوطن العربى فى نفس الوقت . كانت هذه الأحداث إنما تمثل فى تاريخ الاسلام رد فعل عميق لحركة إستعادة الأندلس التى سقطت بعد ذلك كلية فى يد الاسبان (٨٩٨ ﻫ - ١٤٩٢ م) وفى القرن العاشر الهجرى (١٦ الميلادى) إتجه العثمانيون إلى الوطن العربى فتخلصه من الغزو الاسبانى البرتغالى المنطلق فكان أن اندمجت الوحدات العربية مع الوحدة العثمانية واجتمعتا تحت راية الوحدة الاسلامية العثمانية مصر وجزيرة العرب وبلاد الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة وبذلك إستكملت الدولة العثمانية جناحها الاسلامى ووقفت عند حدود العراق أقصى إتساع لها حين قامت الدولتان الصفوية فى فارس والمغولية فى الهند وبذلك تم اللقاء والانصهار بين القوتين العثمانية والعربية كما إلتقت الثقافتين العربية والتركية فى وحدة واحدة إستمرت منذ ١٥١٧ م إلى ١٩١٧ م وكانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى نهاية توسعها فى أوربا فاستولت على بلاد الصرب والمجر وبلغت فتوحاتها إلى أسوار فيينا عاصمة النمسا ، ثم لم يلبث العثمانيون أن حاصروا فيينا ١٦٨٢ ثم ارتدوا عنها وكان هذا أول علامات التحول من الهجوم إلى الدفاع حيث أخذت الدولة العثمانية تفقد ما لها من قوة بين دول العالم ، وفى نفس الوقت الذى توغل المسلمون بالدعوة لها من بين دول العالم . ولم يتقدم الزمن إلا قليلا حتى بدأت الأطماع تجتاح الدولة العثمانية وكان ذلك علامة على إنهيار الوحدة الاسلامية العثمانية .

• • •

ذلك أن خطوات الزحف الأوربي كانت قد بدأت في القرن التاسع الهجري نفسه (القرن ١٥ م) حيث التحم نفوذ الملك فرديناند الخامس وزوجه إيزابيلا فاجتاح ملك بني الأحمر في غرناطة وأخذ يضيق الخناق على الدولة الإسلامية العربية في أسبانيا حتى أسقطها قبل نهاية القرن وفي البرتغال ومن نفس المناطق التي تحررت من حكم المسلمين ، بدأت حركة قوية مضادة ، قوامها تجهيز عسكري حربي بحري لغزو سواحل إفريقيا وانتزاعها من حكامها المسلمين (٨٠٣ — ١٤٠٠ م) وقد بدأت بهذا الجهد حركة ضخمة استمرت طويلا واستطاعت تطويق إفريقيا .

ثم امتدت حتى بلغت شواطىء الهند وسيطرت على جزائر الملايو وكانت مقدمة الاستعمار الهولندي والبريطاني

(٢)
مرحلة تطويق عالم الاسلام

لا شك كانت محاولة الغرب في السيطرة على (عالم الإسلام) خطة قديمة متجددة ، وقد مرت بمراحل متعددة ، وكانت أخطر مراحلها (الحروب الصليبية) التي انتهت بالهزيمة والانسحاب بعد قرنين من السيطرة على الشريط الساحلي للبحر الأبيض بين اللاذقية وغزة ثم كانت موجة الوحدة الإسلامية العثمانية التي امتدت إلى البلقان وقلب أوربا حتى بلغت أسوار فينا بمثابة رد فعل للحروب الصليبية وقد ظلت أوربا منذ الحروب الصليبية التي توقفت في المشرق تحارب المسلمين دون توقف أو هوادة على جبهة المغرب الإسلامي ، هذه الحرب التي وجهت بعنف وشراسة إلى الدولة العربية الإسلامية في الأندلس لاقتلاعها والتي استطاعت بالسيطرة على طليطلة عام ٤٧٨ هـ ١٠٨٥ م أن تبدأ مرحلة عنيفة من الصراع انتهت باستعادة الأندلس وسقوط غرناطة عام ٨١٨ هـ ١٤١٢ م وتخليص الجناح الغربي الأوربي من النفوذ العربي الإسلامي بعد مقاومة دامت ٤٢٠ عاماً ، كذلك كان الأمر بالنسبة للزحف العثماني الإسلامي على أوربا والذي بدأ باحتلال العثمانيين القسطنطينية ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) فقد امتدت المعركة بين الغرب وعالم الإسلام ، حتى استطاعت أوربا أن تقضي على الدولة العثمانية ١٩١٨ م = ١٣٦٦ هـ .

غير أن المعركة في هذه المرة قد مرت بمرحلتين أساسيتين :

المرحلة الأولى : مرحلة تطويق عالم الإسلام وقد بدأت عام ١٦٠٠ وامتدت إلى ١٧٩٨ أي حوالي قرنين كاملين ، وقد بدأت هذه الحركة من نفس نقطة تصفية الأندلس فإن الدولتين اللتين قامتا على أنقاض الأندلس : أسبانيا والبرتغال هما اللتان حملتا لواء العمل للسيطرة على السواحل الافريقية واحتلال شواطىء المغرب والجزائر وتونس على البحر الأبيض والمواجهة لأوربا ثم الذهاب إلى أبعد المدى في تطويق عالم الاسلام من هذا المنطلق بعيداً عن نفوذ الدولة العثمانية وسيطرتها

التى كانت فى الأغلب مركزة فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ولم تكن حركة الكشف الجغرافى التى تذخر بالاشارة إليها كتب التاريخ العربى المكتوبة فى ظل النفوذ الأجنبى إلا حملة صليبية جديدة قوامها الوصول إلى أقصى مكان فى الشرق الأقصى لتطويق العالم الاسلامى ، ولم يكن الأمير هنرى الملاح يرمى إلا إلى استمرار الحركة الصليبية بواسطة التغلب على دار الاسلام حربياً وتجارياً وابتزاز تجارة الذهب وغيره من أيدى المسلمين والاتصال من جيوب الصحراء بنجاشى الحبشة للاستعانة به على مواجهة المسلمين من الجنوب على حد تعبير (جون كيرك) .

كان الهدف الأساسى إذن هو :

- القضاء على الدولة العثمانية وتمزيقها والسيطرة على وحداتها المختلفة .
- إقامة حصار اقتصادى كامل حول عالم الاسلام وذلك بنقل طريق التجارة من قلبه فى مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح .

يقول جان بول رو : مؤلف كتاب الاسلام والغرب : لم يكن القضاء على الدولة العثمانية إلا مظهراً من مظاهر الهجوم العام الذى يشنه الأوربيون على الدول الاسلامية ، ومن جزر الفيليبين إلى قلب إفريقيا عمل الرجل الأبيض على بسط سيطرته على الرجل المسلم وفرض عليه مفاهيمه فى الوجود وطرق معيشته وتفكيره وخططاته . وقد بدأت هذه المرحلة بحركات الكشف التى قادها البرتغال والاسبان وردت فيها أسماء فاسكو دى جاما والبوكرك وهنرى الملاح ، ولم تكن هذه المرحلة منفصلة عن مخططات قديمة مدروسة ، ففى عام ١٢٤٩ رفعت إلى ملك فرنسا وثيقة ترسم خطة حربية للسيطرة على عالم الاسلام بشق قناة فى برزخ السويس تكون ملكاً للعالم الغربى كجزء من خطة الحرب الصليبية .

وفى ١٤٩٨ استطاع فاسكودى جاما عن طريق بعض الملاحين العرب وفى مقدمتهم وأحمد بن ماجد ، أن يصل إلى الهند طوافاً حول رأس الرجاء الصالح ، وبذلك حدث تحول خطير فى التاريخ . والحق إنه منذ عام ١٤٩٠ (القرن التاسع الهجرى) وخلال القرن العاشر بدأ البرتغاليون والاسبان فى الاستيلاء على موانى شاطىء إفريقيا (مراكش والجزائر) : سبته ، طنجه ، مليله ، المرسى الكبير ، ثم امتدت محاولات البرتغاليين لاحتلال البحرين ومسقط لمحاصرة الأساطيل العربية فى البحر الأحمر والخليج الفارسى ، غير أن قوة الدول العثمانية وسبقها إلى ضم المغرب إليها هو الذى أوقف تقدم البرتغاليين والاسبانيين فى شواطىء إفريقيا ولكن خطط البرتغال والاسبان امتدت حول إفريقيا فاستولى ألفونسو البوكرك على مدينة هرمز وسيطر البرتغاليون على الخليج الفارسى . وبدأ الصراع بين انجلترا والبرتغال حول هرمز ولم يتردد البرتغاليون من تدمير الموانى العربية والسيطرة على التجارة العربية وخنق العرب فى مياههم الداخلية فقد احتلوا نقطاً أساسية حساسة فى

مجال التجارة والاستراتيجية واتخذوها قواعد للإغارة ، واستطاعت القوة البحرية العثمانية أن تصد القوى البحرية البرتغالية والأسبانية غير أنه منذ عام ١٦٨٣ بدأت قوة جديدة هي قوة بريطانيا وفرنسا وهولندا تأخذ مكان القوة الأسبانية البرتغالية ، وكانت خطة استعمار الشرق قد بدأت عن طريق تأسيس الشركات التجارية ، وكانت هولندا قد سبقت بريطانيا إلى هذه الفكرة ، فقد أسس الهولنديون في فجر القرن السابع عشر ١٦٠٠ الشركة الشرقية ، ثم أسسوا شركة الهند الغربية ١٦٢١ فامتلكوا غينيا وسورينام وهوكاب وسيلان وفي ١٦٥٣ جزائر مالقه و ١٦٨٠ استولوا على جاوة .

أما خطة التطويق التي بدأها هنري الملاح فقد سارت في طريقها بعد دورانهم عام ١٤٤٥ حول الرأس الأخضر وبلوغهم خط الاستواء عام ١٤٧١ إلى كاليكوت على الساحل الغربي للهند وسيطرتهم عام ١٥١١ على بوغاز ملقا واندفاعهم في غربي المحيط الهادي ليرفعوا علمهم في كانتون عام ١٥١٦ وعلى شاطىء اليابان عام ١٥٤٢ .

وهكذا استطاع البرتغاليون في الفترة من ١٤٢٠ - ١٥٤٢ من انتزاع السيادة البحرية العربية الاسلامية على المحيط الهندي ، وبذلك أمكن في أواخر القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري) من تطويق العالم الاسلامي .

إذا كان العرب والدولة العثمانية قد قاوموا الزحف مقاومة فعالة فمن الحق أن يقال بأنها كانت أقل من مستوى حركة الزحف الأوربي الذي كان يعتمد على الوسائط الحديثة والبخار والأسلحة البعيدة المدى بينما كان العرب والعثمانيون لا يملكون أسلحة بنفس الدرجة من القوة ، وكان أهم عامل من عوامل ترجيح كفة أوربا والغرب واضطراب التوازن بين عالم الاسلام والغرب هو التطور الضخم الذي بلغته أساليب الحرب وفنونها وآلاتها ، هذه القوة الحديثة هي التي فصلت في الموقف وأعطت الأوربيين ذلك التفوق ، وكان العرب والعثمانيون قد تخلفوا في هذا الميدان طويلا بحيث جاءت مختلف الهزائم التي أصابت الدولة العثمانية منذ معركة ليبانتو ١٥٧١ نتيجة التفوق الحربي الأوربي وتخلف المسلمين والعثمانيين والعرب .

ويصور باركر مؤرخ الحروب الصليبية هذا الموقف حين يقول إن أوربا لم تجد في الحروب الصليبية سبيلا للاتحاد الداخلي فحسب ، أو مؤثراً جديداً في شتى مرافقها الداخلية ولكنها كسبت نظرة جديدة واسعة للحياة وقد كان الاتساع في مدى النظر أكبر ما كسبته أوربا من الحروب الصليبية إذا أضفنا إليه نمو روح الكشف وتقدم الجغرافيا ، بعد أن بدأ عصر الكشف ويقول إن أملا جديداً تراءى للغرب الذي لا ييأس ، وكان الأمل الجديد سبباً في أكبر انقلاب عرفه التاريخ وتساءل الأوربيون : إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوربا طريق البحر ، لماذا لا تبحر إلى الشرق وتهاجم الإسلام من الخلف . وكان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على صدورهم واعتقدوا أنهم بزحفهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضي المقدسة . وإذا كان كولومب قد

وجد الجزائر الكاريبية بدلا من الهند ، وإنه يمكننا أن نقول أن المسيحيين الذين قاموا بهذا العمل (أى بالإلتفاف حول الشرق ومهاجمته من بحار الجنوب) قد كسبوا قارة للمسيحيين وأن الغرب استطاع أن يعيد ميزان الأمور لما فيه خيره بسبيل لم يكن يخطر على بال ، هكذا كانت أوربا ترسم مخططها الجولة جديدة فى غزو عالم الإسلام استمراراً لخدمة الحروب الصليبية وبأسلوب آخر ، ولذلك فإن مرحلة التطويق كانت من عمل الأسبان البرتغال الذين حملوا لواء النقمة والانتقام على المسلمين من أسبانيا والمغرب ، ولقد استطاعت القوة العثمانية الإسلامية أن تخفف كثيراً من الدفاع هذه المرحلة وأن تؤخر المرحلة الثانية طويلا ، ذلك أن العثمانيين كانوا متجهين أول الأمر بفتوحاتهم إلى أوروبا ولم يتجهوا إلى الوطن العربى إلا فى أوائل القرن السادس عشر حين ظهر الخطر البرتغالى الأسبانى وبدأ عجز العرب عن دفعه ولقد تنازل العرب عن القيادة لهم راضين وسلموا راية الإسلام الأتراك العثمانيين » .

ولم يكن هذا احتلالا أو استعماراً من العثمانيين للعرب كما يحلو لكثير من الكتاب المحدثين أن يسميه وإنما كان محاولة إنقاذ من قوة إسلامية لقوة إسلامية أخرى ، ولقد انضوى العرب تحت لواء العثمانيين دون غضاضة إذ كانت مفاهيم الفترة لا تحمل طابع الاستعمار أو الاحتلال ، وكانت الرابطة الاسلامية تغطى على غيرها من الروابط .

وكان هذا الاندماج عامل قوة وليس بعامل ضعف ، فليس عيبا أن تقود قوة إسلامية ما حركة الوحدة والمقاومة فى مواجهة الغزو الغربى المنطلق ، وكان العرب ينظرون الى الأتراك نظرة إعجاب باعتبارهم حماة الدين ، ومن هنا قويت الفكرة الاسلامية وانطوت الفكرة العربية فى أعماقها إلى حين

وقد أكد العثمانيون إلى فترة طويلة - ما عدا السنوات الأخيرة قبل الحرب العالمية الأولى - وفى ظل القوة الاتحاديين المحافظة على كيان العرب ولغتهم وتقدير دورهم فى القيادة الفكرية ودور اللغة العربية والقرآن . وقد بدأ فى هذه المرحلة : (مرحلة تطويق عالم الاسلام) الذى استمرت قرنين تقريبا كيف كانت الدول الغربية حريصة على أمرين :

الأول : أن تصل إلى أبعد مدى لا تستطيع الدولة العثمانية اللحاق به وتركز أعلامها كما فعلت فى جنوب أفريقيا وغربها وفى المحيط الهندى .

الثانى : أن تقضى على القوة العثمانية نفسها حتى لا تكون قادرة على الوقوف فى وجه عمليات الغزو وهو ما تحقق فى الفترة التالية حين سيطرت على الجزائر ومصر وتونس ثم ليبيا دون أن تستطيع الدولة العثمانية مقاومتها . ولم تكن الخطة الأوربية هى تخليص البلقان من الدولة العثمانية فحسب ، بل كان عليها أن تتابع بعد ذلك السيطرة على الوطن العربى نفسه واتزاعه وإيقاع الخلاف الشديد والصراع العميق بين العثمانيين والعرب .

وقد مضت الدول الأوربية فى تمزيق الدولة العثمانية بحسبانها قاعدة الوحدة الإسلامية وكبرى دولها وظل هذا العمل مستمراً منذ ١٩٦٣ - إلى ١٩١٨ خلال ١٣٤ عاما وفى نفس الوقت كان النفوذ الغربى يقضى على الامبراطورية الإسلامية الثانية فى الهند وهى الدولة المغولية . ولما كانت أوربا حريصة على تمزيق الدولة العثمانية فإنها كانت حريصة أيضا على القضاء على أى قوة عسكرية أو فكرية شابة تظهر فى الوطن العربى بالذات الذى كان مطمح الغرب بحسبان أنه مصدر القيادة الأساسى فى العالم الإسلامى والقوة الفاعلة فيه ، ولذلك فقد أطاح النفوذ الأوربى بحركتين من أضخم حركات التحرر واليقظة هما :

الحركة المصرية العسكرية بقيادة محمد على والحركة العربية السياسية بقيادة محمد بن عبد الوهاب وضرب إحداهما بالأخرى ، للخلاص منهما أو من إحداهما على الأقل ، وفى خلال مرحلة تطويق عالم الإسلام أستطاع النفوذ الغربى الزاحف القضاء على مختلف القوى العربية القادرة ، لحول طريق التجارة عن مصر كوسيلة لحصار الاقتصادى ، وقضى على أسطول عمان ومسقط ، وكان أهل عمان سادة البحار العظمى الثلاثة : البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج الفارسى ، وكان لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالى وموقه إربا وشقت شمل البرتغاليين وأجلاهم عن جميع الثغور الهندية والفارسية والافريقية وكان مؤلفا من الأشمائة قطعة بين بارجة وفرقاطة ونسافة وحراقة ، وذلك قبل ظهور أساطيل الدولة العثمانية وبعد أساطيل المماليك وقد عملت بريطانيا فى مدى ثمانين عاما على أضعاف هذه الدولة والقضاء عليها ووضعها تحت الحماية البريطانية

(٣)

مرحلة الاستعمار والغزو العسكرى

لم تلبث مرحلة تطويق عالم الإسلام أن مضت إلى غايتها حتى بدأت مرحلة الاستعمار والغزو العسكرى تتمثل فى سيطرة شركات تجارية هولندية على « أندونيسيا » وبريطانية على « الهند » ثم لم تلبث الشركتان إن تحولتا إلى استعمار سافر واحتلال عسكرى الملايو والهند جميعاً .

وفى نفس الوقت بدأت حركة سيطرة واسعة على أفريقيا الشرقية والغربية والجنوبية بين الدول الأوربية ، كما تم احتلال الجزائر ومصر وتونس الخليج العربى بحيث لم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت هذه المناطق جميعاً فى يد الاستعمار الغربى بدأت هذه الحركة بغزو نابليون لمصر ١٧٩٨ وتوالت فى صور مختلفة من حملة فريزر البريطانية على مصر ١٨٠٧ ثم فى احتلال فرنسا الجزائر سنة ١٨٢٠ وحروبها بقيادة الأمير عبد القادر إلى عام ١٨٣٥ ثم احتلال بريطانيا الكابل سنة ١٨٣٩ وفى منتصف القرن التاسع عشر كانت بريطانيا قد سيطرت على الهند وهولندا على الملايو .

ثم كان احتـــلال بريطانيا لمصر والسودان ، وفرنسا لتونس ، وإيطـــاليا

ليبيا فى أوائل هذا القرن، ثم احتلال فرنسا المغرب قبيل الحرب العالمية الأولى . وكان قد بدأ وصول أول مندوب لشركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى الهند عام ١٦٢٠ ثم انتهى نفوذ البرتغاليين فى الهند وبدأ نفوذ البريطانيين وفى نفس الوقت تم إنشاء الشركة الهندية الهولندية ١٦٢٠ م التى اقتفت أثر البرتغاليين فانتزعت منهم تجارة الهند واستولت على جزر الاوقيانوس من جاوة وغيرها . وبدأ أمراء الهندوس بمساعدة شركة الهند الانجليزى فى السيطرة على مناصب الحكم وانقسمت البلاد إلى ولايات صغيرة فسهل على الشركة الهندية الإستيلاء عليها ولاية بعد ولاية .

وكان آخر حكم الدولة المغولية ١٢٢١ - ١٨٠٦ عندما توطدت سيادة شركة الهند الانكليزية على دلهى حتى انتقلت إلى الحكومة الانجليزية ١٨٥٦ م ١٢٧٤ هـ . لقد بدأت شركة الهند عام ١٦٠٠ وسيطرت عام ١٨٠٦ وبدأ الإحتلال الانجليزية ١٨٥٦ وبذلك تكون الصفقة قد تمت فى ٢٥٦ سنة . وفى نفس الوقت اقتسمت بريطانيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا والبرتغال ساحل أفريقية الشرقية ووقعت جزيرة العرب فى دائرة النفوذ البريطانى فيما عدا اليمن وكذلك قلب الجزيرة الذى كان يحكمه الوهابيون ، بعد أن امتلك البريطانيون سواحلهم وجزائرها وبسطوا عليها حمايتهم . ثم تعرضت فارس (إيران) لضغط شديد من بريطانيا وروسيا كما ابتلعت روسيا ما وراء القوقاز بسلسلة من الغارات ، حيث فقدت الدولة العثمانية أغلب أملاكها فى أوربا كما فقدت الجزائر ومصر وتونس وقامت الدولة المصرية التى بناها محمد على وتوسعت ، غير أن النفوذ الغربى كان حريصا أن يقضى عليها تمهيداً للسيطرة على الوطن العربى كله وتمزيقه وقد حاولت الدولة العثمانية الإصلاح وتجديد الجيش ولكن أوربا حالت بينهما وبين الوصول إلى القوة وظلت تصارعها فى كل مكان حتى لا تتمكن من التجدد والبناء .

الفصل الثاني

بواكير اليقظـة

من خلال مرحلة الضعف والتخلف التي كانت تسود الفكر الإسلامي وعالم الإسلام كله، انطلقت موجة اليقظة تلقائياً وفق قانون أصيل في الفكر الإسلامي حقق تجربته أكثر من مرة، كانت الدولة العثمانية قد ضعفت كقوة سياسية وعسكرية قائدة للإسلام، فكان لا بد من قوة جديدة. وكان مفهوم الإسلام قد انحرف عن وسطيته وتكامله وتوقف عن الحركة في ظل «الجبرية» التي أفسدها طابع الصوفية الغالب في هذه المرحلة على الحياة الفكرية الإسلامية فكان لا بد من صوت جديد ينبعث ليصحح المفاهيم ويلتمس مفهوم الإسلام الأصيل مستمداً من جوهره «القرآن» .. ولقد انطلق القوة الجديدة التي تحمل لواء اليقظة من قلب الجزيرة العربية، وكانت الحركة الجديدة التي تحمل لواء تصحيح مفهوم الإسلام هي دعوة التوحيد.

ومن هنا بدأت «مرحلة اليقظة» من قلب الوطن العربي في منتصف القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) هذه الحركة التي امتدت ولا تزال ممتدة إلى اليوم تحت أسماء مختلفة وعناوين متعددة «الإصلاح الإسلامي، التحرر الإسلامي، الحركة السلفية» والتي انبثقت منها مختلف الحركات الوطنية وحركات التحرر العربي والقومي والتجديد والنهضة وغيرها غير أن هذه الحركة لم تنطلق في طريقها لتحقيق رسالتها على النحو الذي رسمته من تجديد مفهوم الإسلام وتحرير الفكر الإسلامي من قيود الجمود والتقليد، ولكنها واجهت تحديان خطيران:

التحدي الأول: وهو الغزو الاستعماري الواسع المدى الذي أصاب العالم الإسلامي منذ حملة نابليون ١٧٩٨ والذي دفع حركة اليقظة الإســلامية إلى أن تحمل لواء حركة المقاومة السياسية والوطنية.

التحدي الثاني: المخطط الاستعماري الفكري في مجال التبشير والتغريب والذي خلق حركة موازية لحركة اليقظة الإسلامية: هي حركة التجديد الغربي. هذه الحركة التي أخذت تحمل لواء الدعوة إلى تقبل الحضارة الغربية والفكر الغربي ككل وتحمل لواء الخصومة الواضحة للفكر الإسلامي ومقوماته وأسسه، وتثير الشبهات المختلفة للانتقاص من اللغة العربية والإسلام والتاريخ والتراث. ومن هنا أصبح على حركة اليقظة الإسلامية أن تعدل مناهجها بحيث تستطيع أن تعمل في مختلف هذه الميادين وتواجه هذه التحديات المختلفة. وكان أقسى ما واجهها هو قوة الدعوة المعارضة، وقدرتها على الذيوع والانتشار من حيث قدرة الاستعمار والنفوذ الغربي نفسه على فرضها في مجال المدرسة والصحافة

وإذاعتها فى كل مكان حيث عجزت الحركة الاسلامية أن تصل إلى مثل مجالها. غير أن هذا التيار لم يلبث أن تحلل وتحول كثير من رجاله حثيثاً إلى العمل فى صف حركة الاصلاح الاسلامى وأضاف من قواه وأسلحته قوة لها. ويمكن القول بأن حركة اليقظة (الاصلاح والتجديد) جرت متكاملة المراحل والحلقات فإن كل مصلح بدأ من حيث انتهى من سبقه وكل مجدد حاول أن يعالج النقطة الحادة التى يواجهها عصره، وكانت هذه الزوايا المختلفة تتجمع كلها وتصب فى تيار واحد متجدد، حيث ظلت فى مجموعها حركة واحدة متكاملة مستمرة، سارت فى طريقها تنمو من الداخل وتتحرك على النحو الذى يعطيها القوة والتوسع والتكامل، ولو أنها تركت دون ضغط خارجى لحققت الكثير غير أن الاستعمار وإدارة التغريب استطاع أن يفتح ثغرة ويخلق تياراً منفصلا بحيث أصبح هناك تياران :

١ - تيار طبيعى ممتد وفق مفاهيم الفكر الاسلامى وعلى أساس مقوماته.

٢ - وتيار غربى اعتمد على كل المفاهيم الغربية واستمد قدرته على الحركة من النفوذ الأجنبى ليحمل لواء الدعوة إلى الفصل بين الدين والسياسة وبين الشريعة والمجتمع وبين ثقافة العقل وثقافة القلب. كما حمل لواء الدعوة إلى الالحاد والاباحية والعلمانية واللامنتمية. هذا هو التصدع الذى أحدثه النفوذ الغربى فى صفحة الفكر العربى الاسلامى، وذلك عن طريق مؤسساته وإرسالياته وجامعاته التابعة له والقائمة فى قلب الوطن العربى والتى تضم المئات من أبنائه، فضلا عن سيطرته على مناهج التربية والتعليم فى مختلف الأقطار المختلفة وتوجيهها فضلا عن سيطرته على الصحافة والتيارات الثقافية برجاله ونفوذه. ومن هنا أصبح الغرب يستطيع أن يقول : إن هناك تيارين، وإن التيار الغربى هو السائد والدائم وصاحب الصوت الأعلى هذا التيار هو الذى أسلمت إليه مقاليد الأمور بعد الحرب الأولى. والحق أن هدف النفوذ الغربى إنما كان يرمى إلى تحقيق أغراض ثلاثة أساسية فى توجيه الثقافة العربية والفكر الاسلامى. أهمها :

- × هدم التوحيد بالالحاد والوثنية.
- × فصل الدين عن الأخلاق والسياسة والمجتمع والتربية.
- × خلق تيار من الاباحية والانطلاق باسم الحرية لهدم القيم والمقومات جميعاً.

وهكذا تعطى جميع الوقائع الدليل على أن حركة اليقظة (الاصلاح والتجديد) لم تكن قادرة على الانطلاق، بإطلاق حريتها لتحقيق هدفها، فقد كانت قوة النفوذ الأجنبى تحول بينها وبين العمل وتحطم كثيراً من خططها وتقصى القادة العاملة وتؤيد بقوة تيارها التغريبى فيصبح أكثر قوة من ناحية النفوذ بحيث يستطيع أن يصارع الحركة الأصيلة ويدخل معها فى معارك ومساجلات ويحول دون قدرتها على النمو، ويفرض عليها الكثير من القيود

وهكذا استطاع الاستعمار عن طريق جهازه الثقافي «التغريب» العمل في ميدانين: هدم الفكر الإسلامي وتمزيق المجتمع. وهنا بدأت محاولة جادة لإعادة تصحيح المفاهيم والتماس القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية المستمدة من جوهر الإسلام، ومن القرآن أصلا، حيث ظهرت دعوة مماثلة تحمل مفاهيم أخرى منحرفة لتواجه الدعوة الأصلية وتناهضها حتى إذا جاء وقت قيل «بأن هناك حركة إصلاحية أخرى تذهب إلى العكس وتدعو إلى تغيير جذري، وهذه الحركة تستهدف العلمانية الأوربية كنموذج، تلك (العلمانية) التي اتخذت من مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة شعاراً لتنظيم الدولي والاجتماعي في الغرب».

وسرعان ما تبدو تركيا هي الدولة الجريئة الأولى (في العالم الإسلامي) كله التي اتجهت نحو النهضة، وفي مجال إبراز حركة اليقظة الحقيقية القائلة بأن الإسلام دين ومدنية، سرعان ما يبرز الغرب أسماء كتاب أعلام من الأزهر يقولون: بأن الإسلام دين روحاني فإذا جرى البحث حول مناهج الفكر الإسلامي في التربية ظهرت أسماء من المفكرين المسلمين كعلامة على أن هناك اتجاهاً آخر أو التشكيك في أن هذا هو الاتجاه الوحيد.

ومعنى هذا أن هناك محاولة خلق منهجين أحدهما هو الأصيل يرمى بالجمود والآخر وهو المغرب يوصف بالتقدم، وهكذا يبدو أنه ليس هناك إجماع على رأى ما في أى مسألة من مسائل الفكر الإسلامي، وبذلك يثيرون الشبهات حول رأى صحيح برأى زائف، وقد كانوا قادرين دائماً على إيجاد قوة زائفة ذات صوت جهير مستمد من نفوذهم لمواجهة القوة الصحيحة الأصيلة.

بدأت اليقظة في الفكر الإسلامي والثقافة العربية في مجالاتها المختلفة ولم يقتصر فقط على مجال الفكر الديني وكانت في أول مراحلها تتمثل في مجالات اللغة والفقه والاجتماع: ففي مجال اللغة والأدب والترجمة ظهر رفاعة الطهطاوي، وفارس الشدياق والبارودي. وفي مجال الفقه والعقائد والتشريع ظهر الألوسي ومحمد عبده ورشيد رضا. وفي مجال الاجتماع والسياسة ظهر خير الدين التونسي وجمال الدين والكواكبي، غير أن أبرز ما واجه اليقظة ليس هو تحرير الأسلوب الأدبي بقدر ما هو تحرير الفكر كله من قيد التقليد، ذلك أن الفكر الإسلامي هو كل متكامل، فقد كان أثر مرحلة الجمود والجبرية التي فرضتها مرحلة التخلف عن مفهوم التكامل والوسطية والحركة في الإسلام، كان من آثرها الانحراف إلى إعلاء ثقافة القلب دون ثقافة العقل - وهما متكاملتان في الفكر الإسلامي والثقافة العربية - وكان أثر هذه المرحلة عميقاً في النفوس والبيئات والمجتمعات، وكانت الوراثيات التقليدية قد فرضت على جوهر الإسلام والفكر الإسلامي غطاء وتركته قشرة جامدة، وكان لا بد لكي يكشف الفكر الإسلامي عن قيمه الأساسية أن يزيل هذا الغطاء الكثيف وأن يبرز أصالته.

وزاد من ذلك أهمية كونه سلاحاً يمكن أن يواجه الغزو السياسي والعسكري والفكري الغربي الذي فرض نفسه على عالم الإسلام ، ومن هنا فإن عوامل اليقظة قد ارتبطت أساساً بمفهوم الاسلام وجوهره وكان التحدي الاستعماري من أهم الدوافع إلى التأكيد عليها وتحريرها بحسبانها منطلقاً إلى اليقظة أساساً ، وإلى مقاومة النفوذ الاستعماري وقد كان الاستعمار حريصاً على أن يظل الفكر الاسلامي والثقافة العربية غارقين في مفاهيم جامدة إتصلت بالاسلام من خلال رحلة طويلة مع الزمن واتصلت بثقافات أمم متعددة . وقد كان الانحراف عن مفهوم الإسلام « فكرياً » بالتجزئة ، وبالفصل بين ثقافة العقل وثقافة الروح ، أو بالانحراف عن مفهوم الإسلام « إجتماعياً » بالتخلف في مجال العلم والجيش والقوة ، كان ذلك كله من عوامل التمزق الذي أتاحت الفرصة لقوى الغزو الغربي الكبرى بالتقدم على مختلف جبهات العالم الإسلامي .

ومن الحق أن يقال أن يقظة الفكر الإسلامي والثقافة العربية وقد تكاملت وشملت ميادين عدة :

١ — تحرير العقل من قيود التقليد وهو ما أطلق عليه دعوة التوحيد أو السلفية وغيرها (الشوكاني والآلوسي) . ٢ — الفكر السياسي وهو ما دعا إليه (رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي) . ٣ — التصوف السني . (السنوسي والمهدي) وقد استهدف تحرير التصوف من قيود الجبرية ثم توسع نطاق اليقظة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري (أوائل القرن العشرين) وأضاف ميادين جديدة :

١ - ميدان الوحدة الإسلامية السياسية (جمال الدين الأفغاني) . ٢ - ميدان العربية ودورها في مقاومة الاستعمار (عبد الرحمن الكواكبي والوهراني) . ٣ - ميدان التربية والتعليم وإصلاح اللغة العربية والأزهر (محمد عبده) ومدرسة المنار . ٤ - الميدان السياسي الوطني (مصطفى كامل) والوطني القومي في سوريا . ٥ - العلم والحضارة : فريد وجدي

أنظر آخر الكتاب « فصل : مفهوم السنة الجامعة » .

(٢)

بدأت اليقظة العربية من خلال مفهوم الفكر الإسلامي المتجدد على مدى العصور ، ومن خلال الدعوة المستمرة الدائمة إلى إلتماس منهج القرآن ومفهومه ، هذه الدعوة المتجددة التي حمل لواءها الأشعري وابن حزم والغزالي وابن تيمية وابن خلدون وكان ابن تيمية وابن رشد وابن خلدون أبرز الأسماء التي ظهرت في القرن السابع والثامن غير أن مجموعة كبيرة من الأسماء ظلت تتواتر على مدى العصور : في مقدمتها ابن القيم الجوزية والشاطبي والبلقيني وابن الوزير اليمني (القرن التاسع)

والكوراني ، والمقبلي اليمني (القرن الحادي عشر) . فلما كان القرن الثاني عشر الهجري ظهر مرتضى الحسيني الزبيدي ، وعلي الصعيدي ومحمد بن عبد الوهاب ، والحق أن هذا القرن كان حافلا وكان أبرز المجددين ابن عبد الوهاب في العالم العربي والدهلوي في الهند . غير أن القرن الثالث عشر الهجري كان أشد إحتفالا بهؤلاء المجددين من أمثال الآلوسي وخير الدين التونسي ومحمد بن علي السنوسي والشوكاني اليمني .

ثم عرف الرابع عشر مجموعة أكبر قوة وأبعد أثراً في مقدمتها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبد الوهاب ورشيد رضا .

والملاحظ أن دعوة ابن تيمية كانت علامة اليقظة وأن جميع هؤلاء إتصلوا بها ، بل يمكن القول أن كلمة ابن تيمية في القرن السابع ظلت تدوي بقوة خلال القرون حتى حققت في القرن الثاني عشر الهجري أكبر إنتصار لها فكان ذلك علامة على اليقظة العربية الاسلامية التي تتمثل اليوم في يقظة الفكر العربي الاسلامي .

غير أن دعوة ابن تيمية لم تكن وحدها في نفوس هؤلاء الدعاة وعقولهم بل كانت متوجة بدعوة الغزالي فكانت بذلك تكمل مفهوم الاسلام الجامع بين الجناحين الأساسيين لمقومات الفكر الاسلامي وهما ثقافة القلب وثقافة العقل .

وإذا كان ابن تيمية قد عاد إلى أساس منهج القرآن في مفهوم الاسلام فانه يلتقي مع الغزالي في هذا المفهوم الأساسي وإن اختلف في الطريقة والمنهج ، هذا الالتقاء من شأنه أن يركز على معنى واضح هو أن العقل وحده ليس مصدراً مستقلا للمعرفة ولا بد له من التكامل مع : « الثقافة ، القلب ، الروح ، الوحي ، الضمير » كما يرى الغزالي ، وهو نفس مفهوم ابن تيمية المتمثل في ربطه بين العقل والنقل بحسبان أن النقل إنما يعني (القرآن والسنة والوحي) وأن العقل والنقل لا يختلفان ولا يتعارضان .

ومما يؤكد هذا أن جميع الدعاة إلى التجديد والاصلاح منذ ابن تيمية إلى محمد عبد الوهاب ورشيد رضا ومن بعدهما كانوا صوفية أصلا . وأن المفهوم الصوفي الاسلامي الصحيح البعيد عن الاضافات والزيوف كان يعمر قلوب هذه الشخصيات ، بينما كان فكرهم وعقلهم يتمثل مفهوم القرآن أساساً وقد كان كل داعية ومصلح ومجدد في الاسلام إنما تنبعث الدعوة في نفسه من مصدر واحد هو الاحساس الواضح والادراك العميق بأن الفكر الاسلامي قد انحرف عن مقوماته الأساسية باستعلاء جانب منه على جانب آخر ، وفي فترات كثيرة استعلى مفهوم العقل كما حدث عند المعتزلة وأصحاب الكلام ، وفي فترات أخرى استعلى مفهوم القلب كما حدث عند الصوفية في العصر السابق لحركة اليقظة .

وقد تمثل هذا الانحراف فى إضافة مفاهيم جديدة من مصادر الفلسفات والأديان الأخرى (اليونانية والهندية والفارسية) هذه المفاهيم التى حاولت أن تفقد الفكر الإسلامى توازنه الأصيل المتمثل فى الوسطية والتكامل ، بين العقل والقلب ، وبين العلم والدين .

وتمثل اليقظة العربية الإسلامية التى تعتمد مفهوم القرآن أساساً لها — والتى برز لها دعاة كثيرون أكثرهم صدى محمد بن عبد الوهاب من قلب الجزيرة العربية — تمثل مدلولا جديداً هو أن الأمة العربية تعود مرة أخرى إلى مكان الصدارة فى الفكر الإسلامى من خلال الثقافة العربية التى امتدت بعد بروز ثقافات الفرس والترك والهنود ، أصيلة متجددة ومتحررة مما أصابها من الجمود والجبرية سليمة الجذور لتستمد مقوماتها من القرآن والإسلام والفكر الإسلامى الأصيل .

ويمكن القول أن مفهوم يقظة الفكر العربى الاسلامى قد تطور بين أيدى هؤلاء المجددين ، فأضاف كل تابع لسابقه إضافة جديدة باعدت بين الوقوف عند محور معين وخففت المغالاة ، وقاربت بين المحورين (السنة والتصوف) إلى قريب من نقطة الوسط حتى جاء إلتماس التكامل بين ثقافة العقل وثقافة القلب من بعد على يد مصلح مجدد .

ولا يمكن إنكار أثر التصوف فى هذه المرحلة فى كلا جانبيه ، (الجانب الأول) الذى بلغ فيه الغلو حداً كبيراً من ناحية سيطرته على المجال الفكرى والثقافى للعالم الاسلامى واستخدام الأمراء له كوسيلة لإنامة الشعوب ومن ناحية غلوه فى الجبرية وبلوغه غاية الانحراف بعد إستسلامه لمفاهيم التواكل والقدر والانعزال عن المجتمع وبعده كل البعد عن مفهوم الاسلام واتصاله بمفاهيم فاسدة كالحلول والاتحاد ووحدة الوجود .

(الجانب الثانى) هو أثر التصوف فى نشر الاسلام وإذاعته فى مناطق شاسعة فقد كان المتصوفة هم دعاة الاسلام الحقيقيين الذين استطاعوا أن يمدوا الاسلام إلى أوسع مدى وكان أكبر مجالين لهم فى جنوب شرق آسيا وفى قلب أفريقيا حتى ليمكن القول أن الصوفية أدخلت فى هذه المرحلة إلى الاسلام ضعف عدد المسلمين .

(٤)

ظهرت اليقظة الفكرية الاسلامية قبل بوادر حركة النفوذ الأجنبى بوقت طويل وجاءت حركتها منبثقة من ضمير الفكر العربى الاسلامى ، وله سوابقه ، وكان للفكر الاسلامى والثقافة العربية موقف ورأى من كل ما استقدمه الاحتلال من حضارة وفكر ، لم يكن هناك تسليم كامل أو تقبل كامل لحضارة الغرب أو فكره ، وإنما كانت هناك مراجعة وتقدير للموقف وعرض له فى ضوء مفاهيم الاسلام وقيمه . ولقد واجه العرب والثقافة العربية ، كما واجه المسلمون والفكر الاسلامى هذه الحملة الغربية الاستعمارية مواجهة شاملة فى مختلف الميادين وأهمها ميادين الحرب والسياسة والفكر .

كانت المقاومة العسكرية هي سلاح المقاومة الأول ، وقد توقف هذا السلاح ، بعد أن قدم الضحايا والشهداء لأن الأسلحة الحديثة الغربية كانت أكثر قدرة على الانتصار ، بالإضافة إلى سلاح المؤامرة والغدر الذي حقق به العدو انتصاره في المعارك الفاصلة ، مع عبد القادر الجزائري في الجزائر وعرابي في مصر ويوسف العظمة في الشام ، وعبد الكريم الخطابي في المغرب ، وكان التفوق العسكري الغربي عاملا هاماً في دفع المسلمين والعرب إلى الجهاد في ميدان السياسة بهدف بناء وحدة أو جامعة أو رابطة تقف في وجه النفوذ الغربي الزاحف .

ومن هنا ظهرت حركة الجامعة الإسلامية كمحاولة سياسية للتجمع غير أن الغرب استطاع أن يفل هذا السلاح ويحول دون تحقيق الوحدة بسيطرته على الأقطار المختلفة وعزلها عن جاراتها وإقامة حكومات خاضعة لنفوذه ، هنالك تحولت المقاومة إلى السلاح الأقوى : سلاح الثقافة والفكر ، هذا السلاح الذي كان أكثر قدرة على المقاومة ، وكانت الحركات المختلفة : ذات الطابع الإسلامي الخالص ثم ذات الطابع القومي الخالص ، وذات الصبغة السياسية الثقافية ، وذات الصبغة الفكرية الخالصة وفي مجالات التربية والصحافة والخطابة والكتابة ، كلها تمثل في مجموعها تحركاً بالغ المرونة والصلابة في مواجهة النفوذ الأجنبي الزاحف للسيطرة والاستعمار ، وهذا النفوذ أيضاً لم يكن نفوذاً سياسياً ولا عسكرياً فحسب ولكنه كان إلى ذلك نفوذاً ثقافياً يعرف مدى الخطر الذي ينبعث من آفاق الفكر الإسلامي ومن قيمه كقوة بعيدة المدى في المعاونة وللمواجهة والمقاومة .

ومن هنا برزت خطط النفوذ الأجنبي المتمثلة في خلق تيارات التغريب والشعوبية وتغذيتها وذلك كسلاح أكثر خطورة وأشد فتكاً من سلاح الجيوش القاتلة للقضاء على الروح المعنوية ، والقيم الأساسية المواجهة ، وخلق طابع من تمييع القيم ، وإعلاء مفاهيم الغرب ، وبناء جماعات التقاء في منتصف الطريق ترضى بالحلول الوسط ، والتنازل عن الحقوق والحريات ، وترضى بصداقة المستعمر وتعلي ثقافته ، وتحتقر مقوماتها الأصلية ، وتقبل تاريخه ومثله ومفاهيمه .

هذه هي المحاولة الخطيرة التي حرص الاستعمار على تحقيقها عن طريق الثقافة ، وهي تمثل نفس الهدف الذي حرصت الثقافة العربية المنبعثة من الفكر الإسلامي أن تقاومها في إصرار ، لم تكن هذه المقاومة مقاومة متعصبة مغلقة ، ولكنها كانت مقاومة مرنة نيرة ، فالمسلمون والعرب لم يرفضوا الفكر الغربي كلية وإنما رفضوا قيمه المتعارضة مع مثلهم العليا وانتفعوا بأساليبه ومناهجه ، وكانوا وفق مفهومهم الأساسي قادرون على الانفتاح على مختلف الثقافات وفق مفهوماتهم الأساسية يأخذون ويدعون ، وقد كانت لهم تجربة سابقة ، في مرحلة الترجمة والنقل من الثقافات اليونانية والهندية والفارسية ، وأن هنالك خلافاً جذرياً بين الموقفين ، الموقف الحاضر والموقف الأول ، فقد كانت لهم إذ ذاك الحرية الكاملة في النقل والاقتباس والاستيعاب والصهر والبلورة والتمثل للفكر الإنساني ، حيث هم الذين سعوا بإرادتهم إليه ونقلوه ، أما اليوم فليس لهم مطلق الحرية في الاقتباس والنقل ،

فقد غزاهم هذا الفكر غزواً وفرض وجوده عليهم فرضاً، ونقل إليهم عن طريق القوى المحتلة المسيطرة القادرة بإرادتها وأساليبها على فرض هذا الفكر وإذاعته، وهى قوى ذات قيود لا تريد أن تنقل إلى العرب والمسلمين إلا المفاهيم والقضايا البالغة الاضطراب والمبنية بالشكوك والشبهات بقصد الإثارة والبلبلة، وهزيمة الفكر الإسلامى فهى لا تعنى إلا بنقل قضايا الإلحاد والإباحة وكل ما يتصل باحتقار الأديان والأخلاق والقيم وإثارة الأهواء حول القيم الأساسية العربية والاسلامية. وقد حجبت من حضارتها وفكرها عن المسلمين والعرب الجوانب الايجابية القوية فى ميدان العلم والتكنولوجيا هذه التى أعطت ثمرات الصناعة والقوة والسيطرة المادية.

فالالتقاء بين الفكر الغربى والفكر الاسلامى فى مرحلة النفوذ الأجنبى لم يكن التقاء حراً مطلقاً ولم يكن متاحاً للفكر الاسلامى فيه أن يأخذ جوانب القوة والحيوية، بل على العكس من ذلك كان النفوذ الأجنبى قادراً بالسيطرة على وسائل الثقافة: المدرسة والصحيفة وعن طريقها أخذ يبث دعويين خطيرتين، دعوى الانتقاص للتاريخ واللغة العربية والاسلام بإثارة الشبهات والشكوك ودعوى إذاعة مذاهب الالحاد والاباحة والمادية.

ولقد كان حرص النفوذ الاستعمارى قوياً على أن يركز فى هذا الغزو الثقافى على الأمة العربية بعد أن زلزل الرابطة القائمة بين الدولة العثمانية والأمة العربية وأرث بينهما خصومة أساسية اتصلت بكثير من المفاهيم والقيم.

وكان مصدر هذا الحرص هو اليقين بأن الأمة العربية هى أقدر أجزاء عالم الاسلام قوة على فهم الاسلام وفيها تتمثل أصدق مفاهيمه وأصفى مقوماته، ومن قلبه برزت دعوة التوحيد وتوالت دعوات الوحدة الاسلامية والاصلاح وتحرير الفكر من القيود والتقليد.

ولقد كانت الدعوة إلى الوحدة العربية فى أول أمرها سلاحاً أراد به الاستعمار أن يمزق وحدة العرب والترك المتمثلة فى (الدولة العثمانية) فلما حمل المسلمون لواء الوحدة العربية، عمد إلى تدمير هذه القوة الجديدة التى استهدفت إقامة وحدة جديدة بعد أن افترقت الجامعة الكبرى فأخذ يثير حولها الشبهات ويضربها من الداخل بتحريف مفهومها وعزله عن جذور الثقافة العربية أو إثارة الخلافات بين العناصر العربية.

ولم يكن مفهوم الدين فى الفكر الاسلامى شبيهاً بمفهوم الدين فى الفكر الغربى، وليس الاسلام أساساً ديناً فحسب، ولكن الدين جزء منه، وهو نظام مجتمع وحضارة وفكر. هذا المجتمع ليس مجتمع المسلمين وحدهم بل مجتمع كل من أظلتهم الدولة الاسلامية، وليس هذا الفكر هو فكر المسلمين وحدهم ولكنه فكر المنطقة كلها. وقد انصهرت فيه كل الفلسفات والمذاهب والعلوم والثقافات القديمة جميعاً وتبلورت فى إطاره، وليست الوحدة العربية إلا (وحدة فكر) قبل أن

تكون وحدة سياسية أو وحدة اقتصادية ، والثقافة العربية مستمدة أساساً من الفكر الإسلامى ولها كل مقوماته وقيمه الأساسية وجوهره ومضمونه ، وإذا كان بعض المفكرين يرى أن اللغة والتاريخ هما أساس الوحدة فالواقع أن اللغة والتاريخ ليسا فى الحقيقة إلا عنصر الثقافة العربية فليس هناك انفصال بين الوحدة العربية وقاعدتها . ولا سبيل لأن تقوم الوحدة العربية بعيدة عن وحدة الثقافة العربية أو قاعدة الفكر العربى الإسلامى ، وهذا هو الخطأ فى الفهم الذى جر إلى كثير المساجلات والمجادلات .

وإذا كانت الوحدة العربية هى وحدة لغة ، فاللغة العربية أساس للفكر الاسلامى والثقافة العربية جميعاً ، ومن هنا فإن تحرير الوحدة العربية من الفكر الاسلامى أمر مستحيل ، وإذا كانت الوحدة الاسلامية وحدة يقوم بها الاسلام كفكر ودين وحضارة فإن الوحدة العربية وحدة أمة قاعدة تاريخها ولغتها مستمدة من الاسلام كفكر وحضارة ، ومن هنا فإن العمل للوحدة الاسلامية كان مرحلة جاءت فى ظل قيام الدولة العثمانية ، أما العمل للوحدة العربية فهى مرحلة تالية بعد سقوط هذه الدولة وعلى مستوى أكثر تناسقاً ، ولكنها فى مجموعها وفى مختلف صورها ، ليست إلا محاولة لمقاومة النفوذ الأجنبى ، سياسياً وفكرياً ، وهى مرحلة من مراحل الوحدة الاسلامية .

والحق أن الأمة العربية حين استيقظت فى منتصف القرن التاسع (١٧٤٠) إنما كانت تتطلع إلى أن تعود إلى مكانها فى قيادة الفكر الاسلامى ، وهو دور طبيعى فى دورة التاريخ ، غير أن هذا العمل لم يتأتى له أن يتحقق على الوجه الصحيح ، فقد جاءت سيطرة النفوذ الأجنبى على العالم الاسلامى ، لتضاعف عمل اليقظة وتضيف إليه بعداً جديداً فى ميدان المقاومة ، ومن هنا فإن الفكر الاسلامى والثقافة العربية واجهت مرحلة خطيرة إذ كان عليها أن تعمل فى ميدانين فى وقت واحد .

- اليقظة وتحرير العقيدة والفكر .
- مقاومة النفوذ الأجنبى .

وقد كانت كل واحدة من القضيتين ، تحقق نتائج هامة فى محيط الأخرى ، فتحرير العقيدة والفكر يعطى النفس العربية والاسلامية القوة على المقاومة ، والمقاومة تشحذ الهمة للكشف عن جوهر الفكر الاسلامى فى مواجهة الحملة عليه ولدحض الشبهات المثارة حوله .

ومن هنا يصدق القول بأن جميع حركات اليقظة دينية أم وطنية أم ثقافية ، وكل حركات المقاومة سواء فى نطاق الجامعة الاسلامية أو الجامعة الشرقية أو الجامعة العربية ، أو القومية الضيقة ،

أن الوطنية ، إنما كانت جميعها تستهدف القضاء على النفوذ الأجنبي أساساً ولم تكن في مجموعها مغلقة وإنما كانت مرحلية تستهدف أن تتوسع بعد أن تحقق هدفها الفرعي ، ومما استرعى النظر أن يفهم هذا المضمون كثير من مفكري الغرب أمثال الفريد كانتول سميث حين يقول (بدأت الحركات القومية جماعة تهدف إلى التخلص من التدخل الأجنبي . ولم تكن هذه الحركات مطابقة للإسلام فحسب ، بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الاسلام) .

• • •

وبعد : فقد بدت حركة الفكر الاسلامي منذ مطالع اليقظة تعمل في مجالات ثلاثة :

أولها : (دعوة التوحيد)

ثانيها : (مجال الفكر السياسي والاجتماعي) .

ثالثها : (الحركة الصوفية) .

الفصل الثالث

حركة الفكر الاسلامى

تجرى حركة الفكر الإسلامى حتى قيام الحرب العالمية الأولى فى مرحلتين : المرحلة الأولى : (١٧٤٠ — ١٨٧٥ م) .

أولا : بدأت اليقظة من قلب الجزيرة العربية — بصيحة من الامام محمد بن عبد الوهاب ، هذه الصيحة كانت علامة على الدور الذى بدأت الأمة العربية تقوم به بعد ضعف الدولة العثمانية ، مقدمة للدعوات المختلفة التى توالت وأبرز معالم دعوى التوحيد هو التلاحم الدعوة بالدولة هذا التلاحم الذى أعطاها الاستمرار والقوة حتى أواخر القرن .

ثانياً : فى أوائل القرن التاسع عشر بدأت حركة ثقافية واسعة شملت الوطن العربى كله مستمدة من التوحيد لتجديد الفكر الاسلامى وكان طابعها شاملا ، فى مختلف العلوم وفى قطاعات العالم العربى .

ففى العراق (الألوسى) : الذى دعا إلى تجديد دعوة التوحيد وتصحيح المفاهيم فى مجال الفقه والتصوف والعقائد .

وفى مصر : رفاعة الطهطاوى فى مجال : الترجمة والتربية والفكر الاجتماعى والسياسى .

ثالثاً : واجه الوطن العربى حملة نابليون على مصر ١٧٩٨ وحملة احتلال الجزائر (١٨٣٠ - ١٨٤٤) وفى خلال ذلك ظهرت الدعوة السنوسية فى طرابلس كرد فعل جديد ومكملة للدعوة الوهابية ومضافاً إلى حركة التصوف .

وقد استمرت هذه المرحلة إلى عام ١٨٧٥ تقريباً ، ويمكن أن ندرس على أنها حركة متكاملة منبثقة من الحركة الوهابية وامتداداً لها بعد خمسين عاماً من ظهورها .

المرحلة الثانية (١٨٧١ - ١٩١٨ م) ، وهى مرحلة متكاملة تتميز عن المرحلة التى جاءت بعدها : قوامها ظهور جمال الدين الأفغانى فى مصر ١٨٧١ م وظهور السلطان عبد الحميد فى تركيا ١٨٧٥ ودعوته إلى الجامعة الاسلامية حيث بدأ الصراع العنيف بين قوى الهدم للدولة العثمانية ممثلة فى حركات كتاب الشام الوافدين إلى مصر ، ودور الاتحاديين بعد سقوط عبد الحميد ١٩٠٩ وتحديهم

العرب ثم اتساع نطاق الصراع بين الترك والعرب وذيوع الحركة الطورانية واتساعها .

فى هذه المرحلة ظهر : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى كما اتسعت آفاق الدعوة السلفية فى المغرب .

وفيها وقعت الثورة العرابية . واحتلال تونس سنة ١٨٨١ وحرب طرابلس سنة ١٩١١ واحتلال المغرب ١٩١٢ وسقوط الشام والعراق فى يد الاستعمار خلال وبعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا فيها .

كانت صيحة محمد بن عبد الوهاب رأس حلقة متتابعة لحركات التجدد وتصحيح المفاهيم المتصلة فى تاريخ الإسلام والفكر الإسلامى والتى لم يخل عصر منها حيث لم يخل جيل من مجدد وداعية ومصلح وكانت دعوة عبد الوهاب إلى تحرير مفهوم الإسلام من انحرافه إلى الجبرية الصوفية وسيطرة مفاهيم الاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

ولقد سبق عبد الوهاب كثيرون أمثال (السرهندى) فى الهند وفى مصر سجل الجبرتى أن عالماً قام فى مسجد المؤيد ودعا إلى التوحيد الخالص ، وقد تتابعت أسماء كثيرة فى هذا المجال ، غير أن غلبة طابع الجمود كان مما يحول دون انتقال أى دعوة إلى مجال العمل والتنفيذ ، ومن هنا فقد كانت قوة الدعوة التى حمل لواءها محمد بن عبد الوهاب راجعة إلى حد كبير إلى القدرة على إقناع وأمير نجد بها مما حقق انتقالها من مجال الدعوة إلى مجال الحركة وأتاح لها فرصة التفاعل فى المجتمع المحلى والتأثير فى المجتمع الإسلامى كله عندما استطاعت السيطرة على مكة : مثابة المسلمين من مختلف أنحاء العالم واستطاعت العقلية العربية أن تكشف مدى أثر الجمود الذى ارتبط إلى حد كبير بانحراف الإسلام عن مفهومه ، وغلبة مفهوم جزئى عليه لا يمثل بمفرده جوهر الإسلام .

ماذا كان صدى حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب :

أولا : كانت بالنسبة للمسلمين التقليديين صدمة ، فقد واجهوها من خلال مفاهيمهم الموروثة ، وكان طبيعياً أنها تمثل حركة تغيير ، فلم تجد فى المجموعات الشعبية صدى متقبلا ، بل ربما وجدت صدى معارضاً ، وكان لا بد أن يمر وقت طويل حتى تستطيع أن تكشف عن جوهرها وحقيقتها ، وكان لا بد من مرور جيل على الأقل حتى تصل المفاهيم الجديدة التى أثارتها إلى النفوس بعيدة عن الانفعال العاطفى المتصل بالإسلام الصوفى بما يحمله من جبرية وانحراف وبما يتصل بموقف الدولة العثمانية نفسها .

ثانياً : بالنسبة للدولة العثمانية فقد ووجهت هذه الدعوة بكثير من الخوف والمعارضة ، لأنها كانت تحمل مفهوماً معارضاً للسيطرة العثمانية وللنفوذ السياسى الذى كان يدعو الناس إلى التسليم

وقبول الواقع والزهد والانسحاب من الحياة والتطلع إلى حياة أخرى .

ثالثاً : بالنسبة للنفوذ الاستعماري ، فقد كان إحساسه بخطرها عظيما جداً ذلك أنه كان قد بدأ حركة تطويق لعالم الإسلام من نقطة تحرر الأسبانيين والبرتغاليين في حركة بحرية تجارية حول أفريقيا إلى الهند تاركاً الجزء الشمالي الشرقي من البحر الأبيض والواقع في قبضة العثمانيين إلى حين ، وكان من مطامع النفوذ الاستعماري والسيطرة على أطراف الجزيرة العربية ومواقعها الحصينة في (جنوب الجزيرة العربية وإمارات الخليج) وهو في نفس الوقت يتطلع إلى المضي في خطته إلى النهاية دون أن يصطدم بحركات يقظة جديدة تحول بينه وبين السيطرة الكاملة على عالم الإسلام والمنطقة العربية بالذات .

لذلك فقد حرص الاستعمار (وكان الاستعمار البريطاني هو المسيطر في ذلك الوقت) إلى إغراء الدولة العثمانية بالحركة الجديدة ومحاولة القضاء عليها .

وكانت الدولة العثمانية تتطلع إلى عمل عسكري لمقابلة الدعوة الوهابية خاصة بعد أن سيطرت سياسياً واتسعت كدولة وهددت أطراف الشام والعراق ، كما هددت البحرين والكويت حيث تطمع بريطانيا في السيطرة .

وقد زاد الأمر عنفاً سيطرة الوهابيين على المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) وانتزاعهما من السلطان العثماني ، حيث كان يلقب بخادم الحرمين الشريفين ويستمد منهما قوته ونفوذه وسلطانه على العالم الاسلامي كله

كان هذا هو الموقف في نهاية القرن الثامن عشر ، وبعد ظهور الدعوة الوهابية أكثر من ستين عاماً ، غير أن الصورة لا تبدو مستكملة إلا إذا درسنا التحدي الخطير الذي دفع الدعوة الوهابية إلى محيط الأحداث في العالم الاسلامي كقوة تغير فكري وسياسي .

بلغ الفكر الاسلامي في خلال القرن الحادي عشر الهجري (١٧ م) مرحلة كبرى من الضعف والتخلف نتيجة لغلبة مفهوم الصوفية على مفهوم الاسلام نفسه ثم انحراف مفهوم الصوفية بانفصاله عن جوهر الاسلام وتغلب عنصرين قويين عليه هما :

١ — الجبرية .   ٢ — وحدة الوجود والحلول والاتحاد .

وكان الفكر الاسلامي في مجموعه قد أصيب بالانحراف عن قطبية الأساسيين : العقل والقلب ، الروح والمادة ، الدنيا والآخرة ، وذلك بالانصراف إلى محور واحد هو القلب والآخرة ، مع ما اتصل بهما من مفاهيم فلسفة يونانية وفارسية وهندية قديمة عقدت مفهومه ، وأبعدته عن جوهره الأصيل وبساطته ونقائه ، وكان مفهوم وحدة الوجود والاتحاد والحلول الذي استشرى في هذه الفترة معارضاً

معارضة أكيدة للتوحيد الخالص ، وقد اتصل أمره برفع التكليف عن فريق من العباد ، وإضافة مفاهيم جديدة في ظل التأويل ، كما غلب مفهوم التوسل والاستغاثة والشفاعة بالأولياء والصالحين ، وغلب الحديث عن قضايا الذات والصفات والجبر والاختيار وتجمد الفقه تجمداً بالغ الخطورة في ظل مفاهيم المذاهب الأربعة .

ثم كان مفهوم (الجبرية) هو أشد هذه المفاهيم خطراً وأبعدها أثراً في تخلف العالم الإسلامي وجموده ، فالجبرية هي مفهوم التسلم الكامل للواقع والانسحاب الفرد من المجتمع والاعتقاد بسقوط الارادة الانسانية سقوطاً كاملا وتقبل الأوضاع تقبلا كاملا بحسبان أنها إرادة الله مع الاستسلام للظلم والذل ، والانفصال عن المجتمع وإيثار العزلة في الخوانق والتكايا ، على نحو قريب من الرهبانية والاتصال بالأولياء على نحو قريب من الوثنية ، وقد اتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم وغلا للأيدي ، فقد أذاعت الجبرية أن الزمان قد أقبل على آخره وأن الساعة أوشكت أن تقوم فلا فائدة من السعي ولا ثمرة للعمل ولا حركة إلا إلى العدم .

وبذلك علا شأن النظرية الاستبدادية علواً كبيراً وسيطر الأمراء عن طريق هذه المفاهيم واستمدوا منها قداسة وسلطاناً ، وكان شأن العلماء في هذه المرحلة شأن القوة الأضعف فقد انطووا تحت الفرق الصوفية الذين كانوا هم أصحاب النفوذ الأقوى لدى الأمراء والحكام وساد الفكر الاسلامي ضعف وانحراف شديدين ، وراجت من خلال ذلك مفاهيم بعيدة كل البعد عن جوهر الاسلام وغلبت خرافات وبدع واستطاعت الدعوات المنحرفة والفلسفات القديمة أن تبرز وأن تضيف انحرافاتها إلى الاسلام نفسه .

وكانت البلاد العربية - حاملة لواء الاسلام واللغة العربية والقرآن - والقادرة على فهمه وتفسيره تمر بمرحلة الضعف والتخلف ، بينما سيطرت العناصر غير العربية وهي أقل قدرة وفهماً للإسلام ومقاصده وتعمقاً للغة العربية والقرآن ، واتصل بهذا إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية والانصراف انصرافاً كاملا إلى المجادلات الفلسفية والصوفية ، وبذلك غلب طابع (التقليد) وظهرت في هذه المرحلة دراسات وكتابات مليئة بالجمود والتخلف سيطرت على مجال الحياة الفكرية وحجبت ما قبلها من أبحاث متجددة ، واجتهادات مستنيرة ، وقد ظلت هذه الكتابات تسيطر على الفكر الاسلامي مرحلة طويلة .

ويقوم التصوف في نظر الحلوليين على أساس أن الخالق يحل في شخص الحلول ، ومنه انبثقت فكرة تأليه بعض أفراد عوالم الوجود . هذا المفهوم التصوف المبني على عقيدة الحلول أجنبي عن الاسلام والعقيدة الاسلامية ومغاير لها كل المغايرة . وركن العبادة في التصوف الحلولي مبني على هجران الدنيا بكل ما فيها وقوامه التقشف وحرمان النفس والرياضة القاسية ، ومعظم عبادات النحل الحلولية تهاويل ورموز وليس في الاسلام تصوف من هذا النوع ، وقد حاول بعض الشعوبيون أن يدسوه

فى المفاهيم الإسلامية وقد غلب فى هذه المرحلة واستشرى وكان ابن تيمية قد واجه هذه الانحرافات ثم لم تلبث أن غلبت مرة أخرى .

وقد كشف ابن تيمية عن « أن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع ، لأن الخالق والمخلوق إذا اتحدا فإما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله وهذا تعدد وليس باتحاد ، وإما أن يستحيلا إلى شيء ثالث كما يتحد الماء واللبن والنار والحديد فيلزم أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر مايتحد مع غيره وهذا ممتنع عن الله تبارك وتعالى إذ الاستحالة تقتضى عدم ما كان موجوداً والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته الملازمة له التى هى كال ، والتى إذا عدمت كان ذلك نقصاً يتنزه الله تعالى عنه» ، كما رفض ابن تيمية ومن تابعه من المصلحين فكرة التحلل من الشعائر وإسقاط التكاليف وهى إحدى قضايا الانحراف الذى أصاب الفكر الإسلامى ، وهى مرفوضة أساساً فى الإسلام وغير مقبولة .

ورد ابن تيمية على شبهة وحدة الوجود وهى القول بأن العالم والله شيء واحد ، فقال إن الوجود وجودان : « واجب الوجود ، وهو ما كان وجوده لذاته أزلى أبدى ، وممكن الوجود ، وهو ماوجد لسبب : محدث فان ، وهذا يعنى (اثنينية الوجود) أى « الله والعالم » فالله خالق والعالم مخلوق ، والله مدبر ، والعالم مدبر ، وليس الله حالا فى العالم وإنما هو خالقه ومدبره ، والله بيده الخير والشر يثيب الناس ويعاقبهم جزاء لما كانوا يعملون ، أما مذهب الحلول فيرى أن الله والعالم امتزجا وأن الله والقوى الداخلة الفاعلة فى العالم مترادفان .

وقد أيدت الأديان (الاثنينية) : الله والعالم ، والخالق والمخلوق ، والروح والمادة ، عنصران اثنان لا عنصر واحد .

على هذا النحو من الجمود والجبرية كانت صورة الفكر الإسلامى فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) وكانت دعوة محمد بن عبد الوهاب بمثابة رد فعل لها ، وقد جاءت إلى المسلمين إجابة ابن تيمية وترسمت فيها . ومن هنا كانت أهميتها وخطرها فى جهتين :

الأولى : أهميتها من ناحية تصحيح الفكر الإسلامى على النحو الذى يمكن من مقاومة كل الفوضى وتحريره من قيود التقليد .

الثانى : خطرها على الكيان العثمانى السياسى الجامد المضطرب ولا شك كان الفكر الاسلامى فى مرحلة الجبرية والجمود عاملا فعالا مرغوبا فى حركة الغزو الاستعمارى العسكرى وحركة تطويق عالم الاسلام كمقدمة للسيطرة عليه .

الفصل الرابع

دعوة التوحيد

كان ظهور الإمام محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) في قلب الجزيرة العربية بالدعوة إلى التوحيد علامة على فجر اليقظة العربية الإسلامية ، ونهاية لمد « الجبرية » التي فرضت على العالم الإسلامي مرحلة الضعف وختاما لمد « التقليد » الذي فرض على العالم الإسلامي « مرحلة الجمود » .

والمعروف أن الفكر الإسلامي كان متصل الأواصر بالدعوة إلى الاجتهاد وتحرير الفكر من أسر التقليد ، ولكن صوت التوحيد لم يلبث أن خفت بعد عصر ابن تيمية ، ولم يصل جهد الدعاة إلى مكان التأثير والتغيير واجتاح عالم الإسلام طابع من الانحراف عن مفهوم الإسلام الأصيل : من التكامل والوسطية والحركة « دينا ودنيا ، وعقلا وقلبا ، وروحا ومادة » .

وكان غاية مفهوم القوة الفكرية في عصر الوحدة العثمانية الإسلامية ، أول انفصال عن تكامل الإسلام . ثم كان ضعف هذه القوة مرتبطا إلى حد كبير باستعلاء مفهوم الجبرية والجمود والتقليد .

ومن هنا كان مفهوم دعوة التوحيد التي نادى بها الامام محمد ابن عبد الوهاب حربا على الاستبداد والجمود والتقليد في مختلف ميادين السياسة والاجتماع والدين .

وكان أهم ما وجهته الدعوة : تنقية مفهوم الاسلام والفكر الاسلامي مما علق به من « مفاهيم » : الجبرية والاتحاد والحلول ووحدة الوجود في مجال العقيدة ، و « مفاهيم » : التقليد في [illegible] ال الفقه والشريعة .

وكانت دعوة عبد الوهاب إعلانا بمعارضة الاسلام الصريحة لكل هذه المفاهيم وتأكيداً بأنها انحرافا عن جوهره . وقد ظهر قبل حركة الشيخ عبد الوهاب رجلان هما عثمان النجدي ١٠٩٦ وإسماعيل الصنعاني مؤلف كتاب تطهير الاعتقاد .

وقد أعلن الشيخ محمد بن عبد الوهاب مفهوم الفكر الاسلامي الواضح بالنسبة لمسائل عدة :

أولا رفض الجبرية وتأكيد مسئولية الانسان من أعماله وتصرفاته فقد هاجم الرأي القائل بأن أناسا ممتازون قد وصلوا إلى درجة معينة ترفع عنهم تكليف أداء العبادة أو حق الشريعة .

ثانياً . أعلن أن وحدانية الربوبية يعني أن المؤمن لا يكون موحداً إلا إذا قصر عبادته على كائن واحد .

ثالثاً : أعلن أن التوسل والاستغاثة والشفاعة لا تكون بغير الله تعالى .

رابعاً : رفض إثارة قضايا الذات والصفات والجبر والاختيار كلية .

خامساً : فتح باب الاجتهاد والتماس الحلول لمختلف قضايا المجتمع من المصادر الأصلية رأساً وهى القرآن والسنة وإجماع المسلمين على حكم معين إلى آخر القرن الثالث الهجرى ، ودعا إلى عدم التقيد بمذهب من المذاهب الأربعة وأعلن أن من حق كل قاض أن يأخذ من أى مذهب بما يرى وبما هو أقرب إلى القرآن والسنة .

سادساً : كشف عن ضرورة استئناف العرب لدورهم فى حمل لواء الدعوة إلى الاسلام وقيادة حركة اليقظة وتصحيح المفاهيم .

وبذلك واجه الإنحراف الذى جرى فى الفكر العربى الإسلامى فى القرون الثلاثة الأخيرة وتمثل فى الانحراف نحو اقامة القلب والانفاق فيها على نحو حمل طابع الجمود والجبرية والتخلف والاستسلام هذه الانحرافات التى حملت معها طابع الاستسلام الظاهر والذل وتقبل الواقع دون معارضة . والانفصال عن المجتمع وإيثار العزلة والاعتكاف فى الخوانق والتكايا على نحو قريب من الرهبانية ثم الاتصال بالأولياء على نحو قريب من الوثنية .

ويمكن القول بأن أبرز معالم دعوة التوحيد التى قام بها محمد عبد الوهاب وجماعته وقد أطلقوا على أنفسهم « أهل العدل والتوحيد » هى :

• إلتماس مفهوم الاسلام على أساس البساطة والفطرة وربط تعقيدات المتكلمين والفلاسفة والصوفية .

• باب الاجتهاد مفتوح ولكل مسلم الحق فى أن يجتهد لفهم دينه .

• ضرورة القيام بواجب الجهاد .

• عدم الاعتراف بما تركه المفسرون بما يتعارض مع أصول الدين فى بساطته وسماحته وترك الطقوس وأنواع الإحتفالات والبدع الخاصة بتقديس المشايخ وأولياء الله .

• العنصر الأساسى للإسلام هو الوحدانية .

وقد وجهت دعوة التوحيد كفاحها فى مجالين أساسيين : مجال العقيدة ومجال الفقه .

ففى مجال العقيدة أعلنت التوحيد الخالص ورفضت الجبرية والحلول والاتحاد ووحدة الوجود

ومختلف الزيوت التي أدخلت على العقيدة مع رفض البحث في مسألة الذات والصفات . وفي مجال الفقه : دعت إلى أن يرجع الفقهاء والقضاة إلى المصادر الأصلية أساساً وهي القرآن والحديث واجتماع المسلمين على حكم معين إلى آخر القرن الثالث الهجري ، وفتحت باب الاجتهاد وأطلقت هذا الحق ، مع الدعوة إلى عدم التقيد بمذهب من المذاهب الأربعة .

ولا شك قد واجهت حركة التوحيد التي قادها عبد الوهاب معارضة شديدة من النفوذ الأجنبي والدولة العثمانية .

فقد كان النفوذ الأجنبي متطلعا إلى منطقة الخليج العربي حريصا في السيطرة عليها وانتزاعها من يد العثمانيين ، وكانت مؤامرات الاستعمار في هذه المرحلة تتحرك في قوة للاتفاق على وسيلة للقضاء على الدولة العثمانية وتمزيقها واقتسام أسلابها ، ومن هنا فقد كان ظهور هذه الدعوة باسم التوحيد عملا سياسياً خطيراً ، هو في نظر الاستعمار إيذان بظهور قوة جديدة يمكن أن تسيطر في المنطقة من حيث يريد الاستعمار القضاء على الدولة العثمانية « دولة الرجل المريض » .

لذلك فقد أغرى الانجليز — بوصفهم أكبر الطامعين في منطقة الخليج — الأتراك العثمانيون بهذه الحركة ودفعوهم إلى مقاومتها ومعارضتها ، وأذاعوا عنها في العالم الاسلامي حملة ضخمة اتهموها فيها بأنها خرجت عن مفهوم الاسلام « التقليدي السائد » ثم أغروا بها قوة عربية جديدة طامعة هي حركة محمد على في مصر ، الذي سار إليها وقاتلها في عقر دارها . ويروى الجبرتي في تاريخه أن محمد على لو لم يقدم الرشوة إلى قبائل العرب بالمال ويستعين بهم على الوهابيين لما استطاع التنكيل بهم .

وقد كان سقوط الدولة الوهابية قاضياً على واقعها السياسي وإن لم يقض على مضمونها الفكري والاجتماعي الذي انساب في العالم الاسلامي كله وكان له بعد الأثر في مختلف حركات اليقظة ودعوات الاصلاح .

في تقدير بعض المؤرخين أن القوتين الشابتين في مصر والجزيرة العربية (أي حركة محمد ابن عبد الوهاب وحركة محمد على) كان في الامكان أن يلتقيا . فقد جمعا أطراف الوسيلة إلى إعادة اليقظة العربية الاسلامية من الناحيتين الفكرية والحضارية ، غير أن النفوذ الاستعماري كان قادراً على اجهاضهما وإيقاع الخلاف بينهما حتى لا يلتقيا وحتى يصرعهما الواحدة بعد الأخرى ، وقد علق بعض الباحثين على هذا المعنى فقال : « لم يكن الاسلام لينهض إلا إذا اجتمعتا في يد واحدة وسيمضي على الأمم الاسلامية حين طويل حتى تعرف أن النهوض الصحيح لا يكون إلا باجتماع القوتين » .

وكان أخطر ما أخذت له الدولة العثمانية أن الدولة التي أقامتها الوهابية قد استطاعت أن تنتزع منها أقوى مراكز تأثيرها في العالم الإسلامي وهي ، مكة والمدينة ، وأنها مددت حدودها في العراق والشام .

وقد وصف دوزي نظرية عبد الوهاب على هذا النحو :

« إن الإسلام مهدد تهديداً بالاحتمال لما تطرق إلى أسسه الشريفة من بدع ولوثات ارتج على أبنائه من جرائها فهم حقيقة الدين الإسلامي وأهدافه الظاهرة السامية ، لذا لزم تطهير الإسلام من سفاسف المغرضين بنقاوته وقدسيته ومتانة قواعده وتعاليمه وإرجاعه إلى صفائه البكر ، وأنه بدأ دعوته في نجد حيث البدو لم تتطرق إليهم علوم الفلسفة » .

وقد استمرت هذه الحركة منذ أن نادى بها محمد بن عبد الوهاب حوالى عام ١٧٤٠ إلى أن قضى محمد على على الدولة السعودية الوهابية عام ١٨١٢ وكانت الدولة السعودية الحديثة ثمرة الحركة الوهابية قد استولت على الحجاز ١٩٠٢ - ١٩١٣ .

وقد أتاحت هذه الفترة الطويلة فرصة واسعة حيث ظل الوهابيون يبثون مفهوم دعوتهم في مئات الألوف من الحجاج الوافدين كل عام إلى مكة والمدينة واستطاعوا - على حد تعبير الأمير شكيب أرسلان - أن يبذروا بذوراً نلاحظ الاختمار الشديد في كل فج إسلامي حتى وصلت دعوتهم إلى أقصى المعمورة » .

ومن هنا كان لها ذلك الأثر البعيد المدى في مختلف حركات الإصلاح والتجديد واليقظة ويرى شكيب أرسلان أن أبرز عمل قامت به حركة التوحيد هو :

تنقية التفاسير الخاطئة التي وضعت في فترة الضعف ، والرجوع إلى الإسلام والأخذ من أوله وأصله ولبابه وجوهره والاستمساك بالوحدانية والاهتداء بالقرآن ، وعنده أن المصلح الديني لا يرى سبيلا للقيام بالإصلاح وبلوغ الغاية إلا بنسخ جميع البدع والأحكام اللاصقة بالدين دون اعتبار صفاتها وماهيتها .

ويؤكد الدكتور (توفيق برو) أن حركة محمد بن عبد الوهاب كانت تحمل أساساً لواء مقاومة الغزو الأوربي حين يقول : « لقد أحس القائمون على الحركة أن واجبهم يقضي بالدفاع عن حوزة الإسلام ضد الخطر الأوربي لما رأوه من الوهن الذي طرأ على الوحدة الاسلامية العثمانية في الآستانة .

وقال « إن محمد علي أخمد الحركة ولكن مذهب الموحدين بقي متعلقاً في النفوس » وقال : « إن

محمد بن عبد الوهاب رأى أن التوحيد وهو ميزة الاسلام الكبرى قد تزعزعت أركانه ودخله كثير من الفساد وكثرت الخرافات وفسدت العقائد ».

ويرى محمد رفعت أن الدعوة الوهابية دعوة دينية سياسية ، لأن الاسلام دين وقانون واجتماع في نظام واحد ، ومن العسير فصل هذه العناصر بعضها عن بعض ، ويرى أن الحركة الوهابية السعودية هي أول ثورة القائية من جانب العرب في العصر الحديث لخلع النير التركي ومحاولة إنشاء وحدة عربية وفقاً للمبادىء الوهابية ».

وقد ترك محمد بن عبد الوهاب في الفكر الاسلامي العربي المعاصر أثراً كبيراً وترك نفس الأثر في التاريخ السياسي بما يفوق ما كان يتطلع إليه أستاذه « ابن تيمية ».

غير أن دعوة التوحيد حين تحولت إلى حركة قد أخذ عليها اعتمادها على القوة العسكرية ، وأنها لم تقبل وجهة نظر الغير ، ورفضت المفاوضة وتشددت بالنسبة لمخالفيها ، ووضعت قاعدة في تعريف المسلم أخرجت بها العدد الكبير من عداد المسلمين كما قصرت عن مجاراة النهضة في مجال الصناعة والتسليح والحضارة بما مكن القوة عسكرية أخرى من القضاء عليها . فقد قصر الوهابيين في فهم العصر والتطور العظيم الذي شمل الدنيا والحضارة ، وحاربهم محمد على بهذه القوة الجديدة . ولكن هذا القول مردود بأن الدعوة لابد أن تأخذ بالعزائم ولا تستسلم لمرضاة الأهواء .

وفي صنعاء من الجزيرة العربية ظهر الامام الشوكاني « محمد بن محمد بن محمد » المتوفى ١٢٥٠ هـ داعيا إلى الاجتهاد وترك التقليد ومناديا بالرجوع إلى الكتاب والسنة ، وترك التعصب المذهبي .

وهو لم يدرس كتب الفقه وحدها ولكنه درس كتب الحديث والتفسير واللغة والنحو والعروض والمنطق وآداب البحث والمناظرة ، وقد تفقه على المذهب الزيدي (المنسوب إلى الامام زيد بن على زين العابدين) كما درس المذاهب الفقهية الأخرى ، وانتهت به الدراسة إلى « الاجتهاد ».

وهو الاجتهاد الذي يقوم على أساس تعرف الأحكام من مصادرها ، ولا يتقيد برأي أو مذهب معين بل يتجه إلى أخذ الأحكام من الكتاب والسنة مع الاستهداء بآراء الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين .

وقد توافرت له صفات الامام المجتهد ، وحفظ القرآن وتفسيره ، ودرس اللغة العربية وعلومها المختلفة ، وكان رحب الأفق ، صالحا راغباً عن الدنيا حارب التقليد حربا متصلة ، وهو يصور تجربته حين يقول في ترجمته لنفسه في مقدمة كتابه « البدر الطالع ».

« وقبل أن يبلغ صاحب الترجمة أربعين سنة ، ترك التقليد واجتهد برأيه اجتهاداً مطلقاً غير مقيد

وهو قبل الثلاثين ، وكان منجمعاً عن بنى الدنيا ، لم يقف بباب أمير ولا قاض ولا صحب أحداً من أهل الدنيا ولا خضع لطلب من مطالبها بل كان مشتغلا فى جميع أوقاته بالعلم درساً وتدريساً وإفتاء وتصنيفا ، راغباً فى ملاقاة أهل العلم والإستفادة منهم ».

ومن قوله : أن من تبع القرآن والأحاديث ، وجعل كل ذلك دأبه ووجه إليه همته واستعان بالله عز وجل واستمد منه التوفيق ، وكان معظم همه ومرمى قصده الوقوف على الحق ، والعثور على الصواب من دون تعصب لمذهب من المذاهب ، وجد فيها ما يطلبه فإنهما (أى القرآن والسنة) الكثير الطيب والبحر الذى لا يزف والنهر الذى يشرب منه كل وارد العذب الزلال والمعتصم الذى يأوى إليه كل خائف ».

وقد أمضى حياته مفتيا لأهل صنعاء ، وكان لا يأخذ على الفتيا شيئاً أجرها فإذا عوتب فى ذلك قال : « أنا أخذت العلم بلا ثمن فأريد إنفاقه كذلك » وقد فرغ نفسه لإفادة الطلبة فكانوا يأخذون منه فى كل يوم ما يزيد على عشرة دروس فى فنون متعددة واجتمع له فيها فى بعض الأوقات التفسير والحديث والأصول والنحو والصرف والمعانى والبيان والمنطق والفقه والجدل والعروض.

ومن أبرز مؤلفاته : (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) .

وقد كشف فيه عن هدفه من التأليف فقال :

« لما شاع على ألسن جماعة من الرعاع اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق فى العلوم دون خلفها حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة أو بعد المائة السابعة ، ولما كانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظ من علم وأنزر نصيب من عرفان ، لأنها تقصر الفضل الإلهى على بعض العباد دون بعض ، وعلى أهل عصر دون عصر وأبناء دهر دون دهر بدون برهان ، على أن هذه المقالة المخذولة تستلزم خلو هذه الأعصار المتأخرة عن قائم بحجج الله وترجمة عن كتابه وسنن رسوله ، ومبين لشرعه ، وقد تكفل بحفظ دينه وليس المراد حفظه فى بطون الصحف بل إيجاد من يبينه للناس ، فى كل وقت وعند كل حاجة ، حدانى هذا إلى أن أضع كتابا يشتمل على تراجم أكابر العلماء فى القرن الثامن ومن بعدهم ممن بلغنى خبرهم إلى عصرنا هذا ، ليعلم صاحب تلك المقالة أن الله ولى المنة قد تفضل على الخلف كما تفضل على السلف ، بل ربما كان فى أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة » وقد ضم كتابه هذا (٤٤١ ترجمة) .

وله : « القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد » وفيه هاجم المقلدين ، « التقليد هو الأخذ بأقوال الرجل من دون سؤال عن الدليل » وقال : « إن التقليد هو قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة ، فحاصل التقليد أن المقلد لا يسأل عن كتاب ولا سنة رسول الله بل يسأل عن مذهب إمامه فقط ، فإذا جاوز ذلك إلى السؤال عن الكتاب والسنة فليس بمقلد » .

ويمكن القول بأن الشوكاني : رفض كل رأي لا تنهض به حجة ، ورفض أن يأخذ الكتب القديمة قضية مسلمة ، ولم يعتبرها فوق مستوى النقد ، وقد ثار العلماء المقلدون عليه ، واتهموه بأنه يريد هدم مذهب آل البيت ، ولكنه جادل خصومه من الفقهاء بالحجة والبرهان ، وقد أعلن أنه لا يبغي إلا إحقاق الحق ، وأثبت بالحجة الدامغة أن التقليد حـــرام .

الفصل الخامس

الفكر السياسي والاجتماعي

في خلال أكثر من ستين عاماً تركت دعوة التوحيد أثرها في الفكر الإسلامي والثقافة العربية واستطاعت أن تصل مفاهيمها الفقهية إلى مختلف المسلمين في الهند (ثم بريطانيا وفرنسا في العالم العربي) والسياسية والاجتماعية.

ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة التي امتدت من ١٧٩٨ إلى عام ١٨٧١ تقريباً على مصر هي العلامة الواضحة لتحول حركة الغزو الغربي من مرحلة تطويق عالم الإسلام إلى مرحلة مواجهة مباشرة، وكان الغزو الغربي يتمثل في هذه المرحلة في قوى ثلاث هي: هولندة في أرخبيل الملايو، وبريطانيا في الهند (ثم بريطانيا وفرنسا في العالم العربي).

ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة التي امتدت إلى عام ١٨٧١ تقريباً «مرحلة اليقظة في مواجهة النفوذ الأجنبي». فقد كانت دعوة التوحيد في القرن الثامن عشر تواجه تحدياً أساسياً هو «الجمود والتقليد» كأساس فكري لخطر الجمود والضعف الذي منيت به الوحدة الإسلامية العثمانية التي تضم العرب والترك وكانت الدعوة انبعاثاً للعرب مرة أخرى لحمل رسالة اليقظة.

غير أن الغزو الفرنسي لمصر ثم الغزو الفرنسي للجزائر وما اتصل به من غزو بريطاني للخليج العربي وضغط في مصر وفي تركيا، وكل هذا كان علامة على أن حركة اليقظة قد أصبح لها عمل جديد أضيف إلى عملها الأساسي في تحرير الفكر، ذلك هو مقاومة النفوذ الأجنبي.

وقد برز في هذه المرحلة عدد كبير من الداعين إلى اليقظة والإصلاح والتجديد في مختلف الميادين: رفاعة الطهطاوي (مصر) في مجال الإصلاح السياسي والاجتماعي، خير الدين التونسي (تونس) في مجال الإصلاح السياسي والاجتماعي، الألوسي (العراق) في مجال الإصلاح الفكري عامة، السنوسي (طرابلس الغرب) في مجال الإصلاح الاجتماعي.

هذا بالاضافة إلى مصلحين متعددين في مجال اللغة والأدب، وفي مجال التجديد العقائدي والفقهي

وفي خارج مجال الوطن العربي كانت هناك دعوات متعددة أهمها في الهند، وكل هذه الدعوات قد التمست طريقها كحلقة تالية أو خطوة متصلة بدعوة التوحيد ويمكن أن يوصف أول القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) بأنه علامة على الحركة من خلال مفهوم أساسي هو تحرير

الفكر العربي الإسلامي ومنحه طابعاً جديداً قوامه ثقافة العقل لموازنة الأثر الذي تركته ثقافة القلب وهي تسيطر منفردة خلال ثلاث قرون وقد تركت آثاراً خطيرة ، وكان ذلك إيذاناً بالتماس قانون الفكر العربي الإسلامي الأصيل وهو : تكامل ثقافتي العقل والقلب والتوازن بين الروح والمادة والدنيا والآخرة والعلم والدين .

وقد أطلق بعض الباحثين على هذا التيار الجديد « تيار المعتزلة » يقول لوثروب ستوارت « عادت الحرية العقلية إلى الظهور ، في أوائل القرن التاسع عشر ، إدراك المصلحون منهج المعتزلة ، فنفخوا منها نسمة روحية فعادت إلى الحياة . . . وقد عادت المعتزلة إلى الظهور بظهور المصلحين الأحرار ، وقد أنشأ المسلمون الأحرار مذهبهم الحر على الأسس التي وضعها المعتزلة منذ ما يقرب من ألف سنة خلت ولم يخل الإسلام في جميع ماضيه ، حتى في أشد عصوره حلكاً من المفكرين الأحرار ذوي العقول النيرة والمدارك الثاقبة الذين كانوا يتوالون الحقبة بعد الحقبة » .

غير أننا نرى أن عبارة « لوثروب استوارت » غير دقيقة ، فالحق أن طابع المعتزلة لم يظهر في هذه المرحلة وإنما ظهر في المرحلة التي تلتها منذ ١٨٧١ وذلك بظهور جمال الدين ومحمد عبده .

أما هذه المرحلة فيمكن أن يطلق عليها مرحلة المزاوجة بين الجذور الاسلامية والمفاهيم الحضارية الغربية كما يتمثل ذلك في تجربتي رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي في نفس الوقت الذي كان يعمل فيه الألوسي على تحرير المفاهيم الاسلامية من الطابع الصوفي الجبري ، ويعمل السنوسي على تحرير التجربة الصوفية نفسها من طابع الانحراف نحو وحدة الوجود والحلول .

١ ـ أما رفاعة الطهطاوي فقد اتجه وجهة جديدة أساسها مفهوم اليقظة ، والدعوة التوحيد ، فهو وإن كان قد تعلم في الأزهر ـ والأزهر في هذه المرحلة قد غلب عليه الجمود وتأثر بآراء الجبرية والتقليد ـ فإن أستاذه حسن العطار كان قد عرف بتحرير فكره وتطلعه إلى النهضة ، وكانت كتابات محمد بن عبد الوهاب وصلت إلى القاهرة ودار حولها نقاش كثير في الأزهر واستطاعت أن تكسب لها بعض الأنصار .

ومن هنا فإن جذور رفاعة قبل سفره إلى فرنسا كانت أصيلة ، وكان فهمه الإسلام ، مفهوماً صحيحاً ، ولذلك فإن اصطدامه بالحضارة الغربية لم يذهب لبه أو ينحرف به ، بل على العكس من ذلك استطاع أن يقدم منهجاً قوامه المواءمة بين جوهر الفكر الاسلامي أساساً وبين روح العصر على نحو كان أرضية وقاعدة لكل من جاء بعده من المفكرين والمجددين .

وقد أولى رفاعه اهتمامه بالعمران وتجديد المجتمع ، والتربية ونقل المؤلفات الغربية التي تحتاج إليها نهضة الفكر العربي الاسلامي ، كما التفت إلى جانب هام جعله أكبر همومه ، فقد رأى أن يسهم في العمل على تعميق اليقظة عن طريق العلم والمعرفة ، ولذلك فقد وضع منهجه على أساس مكين حين

قرر أن كان التمدن والعمران له واسطتان (إحداهما) تهذيب الأخلاق والآداب والدين وفضائل الإنسان (الثانى) هى المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية (الجماعة)

وقد حرص فى كل آثاره وإنتاجه أن يجمع بين عناصر الفكر العربى الإسلامى وبين عصارات من الثقافة الغربية وأن يزج بينهما مزجاً ربما لم يصادفه التوفيق فيه .

وأولى اهتمامه لما كان يسميه أستاذه حسن العطار (تجديد المعارف) بحسبانها الأساس الأول للنهضة المصرية العربية الإسلامية الحديثة وقال : « إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها وتتجدد بها المعارف ما ليس فيها . . . كما أولى تربية النشء وتعليمه ووضع مناهج التربية الحقة اهتمامه الأول ، وجمع فى مفاهيمه التربوية بين النظرة الإسلامية والمستحدثات العصرية ويكاد يكون اتجاه رفاعة الطهطاوى على الجملة « بناء قاعدة فكرية عربية إسلامية أصيلة » ينقل على أساسها ويترجم ويقدم للفكر الاسلامى ما يثريه ويزيده خصوبة . وبالرغم من إعجابه بالحضارة الأوربية والنهضة الفرنسية فقد انتقد الغربيين فى كثير من أخلاقهم وعوائدهم وعقائدهم ؛ وفى مقدمة انتقاداته ما اتصل بالمرأة فى المجتمع الاوربى والعلاقة الحرة بين المرأة والرجل ، كما انتقد آراءهم التى تعلى من شأن بعض الحكماء والفلاسفة وترى أنهم أعظم من الانبياء .

ويمكن تلخيص دعوة رفاعة الطهطاوى إلى تجديد المعارف فى عدة عناصر هامة :

١ - الدعوة إلى تعليم المرأة على قدم المساواة مع البنين .

٢ - الدعوة إلى تمكين المرأة من أن تتعاطى من الأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر طاقتها وقوتها « لأن العمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة » .

٣ - دعوته إلى توجيه الأطفال بعد انتهائهم من التعليم الابتدائى إلى نوع الدراسة التى يؤهله لها قبوله واستعداده .

٤ - دعوته إلى التدريب العسكرى للشباب على وسائل الدفاع عن الوطن (والمحاماة عنه) .

٥ - دعوته علماء الأزهر وطلابه إلى دراسة العلوم الحديثة التى يسميها « العلوم الحكمية العملية » وقال إنها فى الواقع علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية .
« تكامل فلسفة رفاعة وفق مفهوم الفكر الاسلامى أساساً » .

لقد وجد رفاعة فى « الفكر الغربى » ثروة ضخمة أحس بحاجة أمته إلى نقلها إلى الفكر الاسلامى والثقافة العربية رغبة فى القضاء على مرحلة الضعف والجمود ، وقد التمسها وفق فلسفة أساسية هى أن

هذه المبادىء فى الحرية السياسية والاجتماعية هى ذات جذور أصيلة من الفكر الإسلامى والملاحظ أن رفاعة لم يتخل طوال حياته الفكرية عن هذا الربط الواضح بين الأساس العربى الإسلامى وبين الأفكار الى المستحدثة وأقام فلسفته على أساس الجمع بين المبادىء الفكرية المستمدة من جوهر الإسلام والمبادىء الاقتصادية المادية وكان من رأيه أن التمدن والعمران إنما يقومان على قاعدتين :

١ - تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية .

٢ - توفير الثروة القومية بتنمية المنافع العامة .

وقد جاء تقديره هذا بناء على إيمانه بأن أسباب الانحطاط تعود إلى النقص فى الأخلاق العامة وقصر فى موارد الثروة والخبرات . وبذلك جمع رفاعة بين قطبى الدين والاقتصاد فى الاصلاح واستمد ذلك الترابط من مفهوم الفكر الاسلامى الجامع .

وظل ذلك هو خطه الواضح فى سبيل بناء مدينة قوامها مزيج من : مادية عمرانية وروحية أخلاقية فى نفس الوقت . فساوى بين ضرورة إشاعة الازدهار فى الشعب كمجموع وبث الآداب الدينية والأخلاقية فى النفوس وربط الثروة القومية وإمكان الحصول عليها بالفضيلة وربط الفضيلة بالتربية .

وقد كان حرص رفاعة واضحاً فى أن يجعل النظريات التى قدمها فى مجال الفكر السياسى والاجتماعى وأفكار الحرية والتقدم والحضارة والوطنية ذات أسس مستمدة من الاسلام ، وظل يؤمن بضرورة المزاوجة بين القيم الأساسية للفكر العربى الاسلامى والحضارة الغربية الحديثة . وقد رفض رفاعة أن يجزىء وحدة الانسان إلى مادة وروح . ورفض أن يقوم بناء المجتمع والحياة الانسانية على أساس روحانى بحت ، وكذلك رفض أن يقتسم وحدة المعرفة إلى كلى وجزئى ، ونظرى وعملى ، كما رفض أن يقتسم وحدة المعرفة إلى معرفة إنسانية ومعرفة طبيعية ، ورفض أن يفصل الانسان عن الطبيعة ورفض أن يفصل الطبيعة عن الانسان . فبنى دعوته على أن كل علم وكل فن وكل فكرة وكل نشاط بشرى لا غناء عنه فى بناء الانسان ، لا فرق فى ذلك بين العقلى والنقلى ، وبين الفكرى والمادى ، وبين النظرى والعملى ، وبين الجميل والنافع ، كلها وجوه فى المعرفة تحقق التكامل الانسانى والسعادة الانسانية .

وليس مفهوم رفاعة هذا فى جوهره إلا مفهوم الاسلام وليس منهجه إلا منهج الفكر الاسلامى والثقافة العربية المتجددة وهو مستمد أساساً من جذورها . ومن هنا كان موقفه من العلم وإدلائه أن العلم بعامة هو ما دعى إليه الاسلام وليست العلوم الفقهية والشرعية فقط - يقول : « واعلم أن كل العلوم شريعة ولكل علم منها فضيلة ، والاحاطة بجميعها أمر محال » .

وكان رأيه هذا علامة على اليقظة الجديدة للفكر الاسلامى والثقافة العربية وفى ضوئها تطور أفكار

الأزهر نفسه فى أفكاره ومفاهيمه الأساسية من ينابيع الإسلام الأولى . وقد كان لذلك أثره فيما بعد فى مناهج جمال الدين ومحمد عبده وغيرهم .

وإن كان رفاعة قد جعل علوم الدين والآداب فى الدرجة الأولى من ترتيبه للعلوم فإنه رفض عزل أى فرع من فروع المعرفة عن الحياة وعن المجتمع وعنده أن للمعرفة لا قيمة لها إلا إذا كانت فى سبيل الحياة والمجتمع .

وهذه عبارته « أو علم ينتفع به » أى علم علمه الإنسان لغيره فصار نافعاً . والعلم النافع مرادف للحكمة المفسرة به ، فهو ما يوصل إلى الصفات العلية والمناقب السنية ، ويثمر الثمرات الدنيوية والأخروية . قال تعالى (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) حيث فسر العلماء الحكمة بتفاسير كثيرة ترجع إلى العلم النافع والأفعال الحسنة ، فالعلم بهذا المعنى يشمل العلوم النظرية والعملية ويعنى معرفة الحقائق والإقدام عليها ، فالعلم يجمع العلوم النافعة (عقلية ونقلية ونظرية وعملية) وبهذا المعنى فسر رفاعة قوله ﷺ « أو علم ينتفع به » .

ويمكن القول فى وضوح بأن رفاعة قرأ آراء السياسة والاجتماع والتربية والقانون فى الفكر الأوربى (والفرنسى خاصة) واستوعب آراء بنتام وروسو ومونتسكيو وقد وجد أنها جميعها مستمدة من الفكر الإسلامى وأن لها جذوراً إسلامية أساساً وأنه وهو الذى قرأ كتب الأزهر الصفراء القديمة سنوات قد اكتشف أن هذه الأفكار مستمدة منها ثم وجد أنها منشورة ومكتوبة فى الفكر الغربى ومطبقة وفق أسلوب جديد فى العالم الأوربى فلم يلبث أن قال : هذه بضاعتنا ردت إلينا مع اختلاف هنا أو هناك نتيجة موقف أوربا من الكنيسة وكراهيتها لربط الدين بالدولة .

ومن هنا فقد تخطى رفاعة خلافات أوربا مع الفكر الإسلامى وعاد يبشر بهذه الآراء من جديد بحسبانها إسلامية الأصول ، وأن فى إمكان المسلمين والعرب الانتفاع بها مع عزلها عن انحرافات الفكر الغربى على أساس أنها مستمدة من تراثنا الأصيل المهجور ، وقد وجد أنه لو حاول أن يحيى الفكر الإسلامى فى مفاهيم الحرية والعدل والشورى كما وجدت فإنه لن يستطيع ذلك بأكثر تأثيراً وقوة وفاعلية من أن ينقله على أنه فكر غربى جديد قد تحرك فعلا وأحدث أثره بدلا من يعرضه على أنه فكرنا المدفون فى بطون الكتب . ولا عجب إذن أن ترضى هذه الآراء رفاعة لأنها أساساً متصلة بفكره وثقافته .

والواقع أن الذى هز المفكرين المسلمين العرب فى هذه الفترة : أمثال رفاعة وخير الدين التونسى ومن جاء بعدهم أمثال جمال الدين وغيره إنما هو مفهوم الحرية السياسية والديمقراطية والمساواة وهو إسلامى أساساً .

كما حرص رفاعة على مهاجمة (الجبرية) الصوفية :

« أن القوم الذين رأوا الفضيلة فى الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم إما بملازمة المغارات فى الجبال أو ببناء الصوامع فى المفاوز للدروشة لا يحصل لهم شيء من الفضائل الإنسانية المعهودة، ذلك لأنه من لم يخالط الناس وربما كانهم فى المدن لا يظهر فيه هذه الفضائل من العفة والنجدة والسخاء والعدالة بل تصير قواهم وملكاتهم التى ركبت فيهم بالنسبة للخيرات المدنية والمنافع العمومية عاطلة لأنها لا تتوجه إلى خير ولا إلى شر بالنسبة للعموم فإذا تعطلت ولم تظهر أعمالها الخارجية بها صاروا بالنسبة لقصور صفاتهم عليهم وعدم عودها بالمنفعة على غيرهم بمنزلة الجمادات أو الموتى من الناس » .

وأعلن أن (الإقبال على المال لا تتعارض مع الدين) وأورد فى ذلك شأنه دائماً أمثلة من الفكر الإسلامى تأكيداً لنظرته المجددة الاجتهادية . قال مجاهد : الخير فى القرآن كله المال . فقوله تعالى (وإنه لحب الخير لشديد) يعنى المال ، وإنما يسمى المال فى القرآن خيراً إذا كان فى الخير مصروفاً لأن ما أدى إلى الخير فهو فى نفسه خير ، فالمال إذن لا دافع فيه » .

وحين عرض الأفكار السياسية والاجتماعية الأوربية الحديثة ربطها بالشريعة الإسلامية ، وفى عرضه النظام الجمهورى ومجالس الشورى قرر أن الشريعة الإسلامية تتقبل الأنواع الثلاثة : الملكية والملكية المقيدة والجمهورية . وأكد فى كل مناسبة أن الفكر الإسلامى عرف «حقوق الإنسان» كما تطبقها أوربا واستمد دفاعه عن المساواة بين المواطنين فى الحقوق والواجبات وحرية التملك والرأى والتعبير والعبادة واستقلال القضاء ، وفصل السلطات وسيادة القانون ، على أنها مفهوم أساسى فى الفقه الإسلامى .

وقد ربط فكرة الوطنية ، والمواطنة بالفكر الإسلامى فقال « إرادة التمدن للوطن لا تنشأ إلا عن حبه من أهل الوطن كما رغب فيه الشارع ، ففى الحديث : حب الوطن من الإيمان . وقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : عمر الله البلاد بحب الأوطان وفكرة الوطن عند الطهطاوى ترافق فكر الولاء لجماعة المسلمين ولا تتعارض معها يقول « جميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن ، يجب على أعضاء الوطن من حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الأخوة الدينية فيجب أدباً لمن يجمعهم وطن واحد ، التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن وإعظامه وغناه وثروته ، لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهى تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعاً بمزية النخوة الوطنية » .

وقد أوضح رفاعة أن هذه الأفكار جميعاً مستمدة من الفكر الإسلامى ، أخذها الفكر الغربى ونماها وحورها وطبقها فعلا فى مجتمعه ، بينما حجبتها فى العالم الاسلامى مرحلة الضعف والجمود والتقليد ، وقد اهتز إعجاباً لذلك أيما اهتزاز وحرص على نقلها والدعوة إليها ، وربط هذه المعانى

جميعها بالأساس المستقر في الشريعة الإســـلامية التي درسها في الأزهر أساساً ، وقد اهتم في عرض دستور فرنسا وأحداث ثورة ١٨٤٠ ومختلف هذه القضايا التي تمس نظام الحكم ، إلى نوع من المقارنة بين الواقع في مصر والعالم الإسلامي وبين هذا الواقع في الغرب .

كما كشف رفاعة عن الروابط العميقة بين الفكر السياسي الغربي وبين آراء ابن خلدون كما كشف عن روابط أخرى متعددة قوامها أن القانون الغربي الحديث والفرنسي خاصة له جذور أساسية تتصل بالفقه المالكي والشريعة الاسلامية أساساً وأن نظريات الماوردي ، والغزالي وابن تيمية وابن حزم ، وابن رشد كلها قد أعاد الفكر الأوربي صياغتها من جديد بروح العصر ، هذه المعاني جميعاً قد مرت بأعماق رفاعة .

وإذا كان أهم ما عرض له هو (الحرية) فقد قرر رفاعة في كتابه (تلخيص الابريز) أن الحرية لها أسس مقررة في الفكر العربي الاسلامي وعرض لعبارة عمر بن الخطاب (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً) وكان اهتمامه بشرح نظام الحكم في فرنسا محاولة المقابلة بينه وبين حكم محمد علي .

وكان أبرز ما اقتبسه رفاعة من الفكر الغربي ما يتصل بنظام الحكم والحرية وشجب الاستبداد وتحرير الفرد ومنحه القدرة على أن يقول الكلمة . والمساواة أمام القانون : وكان مفهوم ذلك كله عنده أن الفكر الاسلامي ذهب إلى أوربا وعاد مستحدثاً ، ومن هنا بدأ رفاعة في الدفاع عنه كواقع مطبق وهو في نفس الوقت إسلامي الجذور .

وقد حاول رفاعة من خلال كتابه (مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية) الذي يعد جامعاً لآرائه — بالاضافة إلى كتابه (مرشد البنين والبنات) — أن يرسم منهجاً كاملا لبناء أمة لها طابع سياسي ديمقراطي حر ، عن طريق التربية ، وقد ركز على التربية أساساً وبنى لها صرحاً كاملا بحسبانها الأداة الأساسية لبناء الأمم ، وذلك من خلال نظرة عميقة قوامها النظرية التربية الاسلامية التي قدمها من قبل : ابن سينا والغزالي . . . مع إضافة النظرة الحديثة ذات الجذور الاسلامية .

وقد حمل منطلقه من أن الانحطاط مصدره فقر في الأخلاق العامة وفقر في الثروة ، وأن التمدن والعمران يقومان على قاعدة تهذيب الأخلاق وتوفير الثروة ؛ وأن طريق الخلاص إنما يتم من طريق المنافع الحقيقية التي يتضمن حصولها نظرة جديدة في أمور الدنيا والدين .

وقد تركزت نظرية رفاعة أساسا على أن عملية البعث والاحياء واليقظة إنما تقوم أساساً عن طريق التربية والتعليم على أساس الفضائل التي أعطت المسلمين والعرب تقدم السالف وقد رأى

الطهطاوى أن نجاح حركة اليقظة إنما تتمثل فى قيام نظام جديد من التربية على أساس ، أن الفرد هو أساس النهضة الاجتماعية لأن الأفراد هم الذين يؤلفون فى مجموعهم الهيئة السياسية ، ولذلك يجب أن يصبح التعليم مصلحة عامة فلا يقتصر على فئة معينة من الناس بل يشتمل فى بعض مراحله عموم الشعب وبه الوعى فيهم » .

وعنده أن هدف التربية ليس حفظ المعلومات أو اقتباس فن من الفنون وإنما بناء الشخصية بكاملها جسديا وخلقيا وعقليا واجتماعيا ، مع إسقاط علوم الجدل والمناظرة لتحل محلها العلوم النافعة النظرية منها والعلمية — والعلم النافع عنده هو ما يؤول بالخير للأفراد والمجتمع ويسهم فى بلوغ التمدن والعمران .

ويرى رفاعة أن الإنسان ينشأ ونفسه ساذجة لم تنتقش بصورة فلا تتكون الإرادة على فعل الخير والشر ، ولا يقدر الحس الخلقى فى أساسه إلا عن طريق البيئة فإذا كانت صالحة دفعت الإنسان إلى الصلاح فتعود فعل الخير ، وإلا نشأ على الرذيلة ونمت فى نفسه المثالب التى يشكو منها المجتمع . والتربية تستطيع أن تبنى المجتمع على ما يليق بالمجتمع الفاضل وينمى فى الفرد الفضائل الشخصية التى تصونه من الرذيلة كما يرد ضعف الأفراد وانحطاطهم إلى انحطاط البيئة التى تحيط بهم — وعنده أن الإنسان لا يستطيع بقواه العقلية وحدها أن يضبط نفسه وأن يأخذها باعتدال فهو يحتاج إلى وازع أخلاقى يوجهه من الداخل ، يحبب إليه فعل الخير وينهاه عن المنكر .

وقد خالف رفاعة مفكرو أوربا فى منهجهم العلمانى وأقر النظرة الإسلامية التى ترى بأن الدين هو أثبت قاعدة لتنمية الفضيلة وأضمنها ، بحيثيته ، كما يتمثل فى الشريعة الإسلامية (كتاب المرشد الأمين) وركز على أن التربية الدينية تنمى فى الفرد الفضائل الشخصية التى تحفظه من الرذيلة وتخلق لديه القدرة على الإنضباط وحسن التصرف .

وغاية التربية فى نظره ليست تنمية الفضائل الشخصية السلبية فحسب ، وإنما تتعداها إلى تنمية الاستعداد الراسخ للإسهام فى الحياة الاجتماعية إسهاما مسئولا ، لذلك فهو يدعو إلى ضرورة ترسيخ الفضائل الاجتماعية التى تسهل قيام المعاملات الصحيحة بين الناس وهو فى نفس الوقت يعارض النظرية الجبرية ويرى أن التفرد والوحدة وترك مخالطة الناس كلها أمور منافية لطبيعة الإنسان ككائن اجتماعى . ويرى أن الفضائل الإيجابية هى وحدها التى تستطيع أن تنمى حياة إيجابية تتمثل فى العفة والعدالة والسخاء والنجدة .

ويرسم « خير الدين التونسى » منهجا قريباً من منهج رفاعة مع اختلاف يسير فى التفصيلات

ولكنه يبدو في نفس الوقت إصلاحي الجذور ، ويبدو فيه موقف خير الدين أكثر وضوحاً في عدة جوانب .

وقد بدأ منهج دعوته بالسؤال الأساسي :

لماذا تخلف المسلمون وكيف يستردون مجدهم وقوتهم ؟ .

وربما استطاع خير الدين أن يكون أبعد غوراً من رفاعة نظراً لأنه ولي العمل السياسي فعلا وذاق تجربته المريرة .

يقول : إن الباعث الأصلي لبحثه أمران يصلان إلى مقصد واحد :

(أحدهما) إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلم والعرفان وتمهيد طرق الثروة في الزراعة والتجارة ، وترويج سائر الصناعات ونفي أسباب البطالة وأساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه الأمن ، المتولد منه اتقان العمل المشاهد في الممالك الأوربية بالعيان .

(ثانياً) تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي أن يهجر حتى أنهم يتشددون الإنكار على اطلاقه خطأ محض ، فإنما الأمر إذا كان صادراً من غيرنا وكان صوابا فلا وجه لإنكاره وإهماله . بل الواجب الحرص على استعماله ، وكل متمسك بدينه وإن كان يرى خللا في ديانته فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنية ، كما تفعله الأمة الافرنجية ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها .

وقد وضع خير الدين قاعدة أساسية حين قال :

(إن التمسك بالدين لا يمنع من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يتعلق بالمسائل الدنيوية فليس بالناس يعرف الحق ولكن بالحق يعرف الناس والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث يجدها .

وعنده أن (على المسلمين الاستعداد لمقابلة العدو بمثل سلاحه وأن الأخذ بالعلم من أسباب العمران ولا مشاحة في الأخذ بالأساليب الغربية في الحكم والتنظيم والادارة والأسلحة ، كما أخذنا الحضارة في الملابس والأثاث والمخترعات) وأن (الأمة التي تجاري جاراتها في معداتها الحربية

وانظمها العسكرية توشك أن تقع غنيمة في أيديهم ، والإسلام لا يمنع من نقل حضارة الغرب ولا يمانع من الأخذ بنظم إدارتهم مع مراعاة الظروف وأن لهم أن ينقلوا ما يستطيعون هضمه . ثم يوسع هذا شيئاً فشيئاً بنمو أسباب التمدن » .

كما دعا إلى « الأخذ بنظام الشورى الذى يقيد الحاكم ، وأشار إلى عوائق التقدم وحصرها فى اثنتين أو فى معادلة .

يقول : أهم : العوائق فى تقدم المسلمين وجود طائفتين متعاندتين : رجال الدين يعلمون الشريعة ولا يعلمون الدنيا ويريدون أن يطبقوا أحكام الدين بحذافيرها بقطع النظر عما جد واستحدث ورجال السياسة يعرفون الدنيا ولا يعرفون الدين ويريدون أن يطبقوا النظم الأوربية بحذافيرها من غير رجوع إلى الدين فنقول الأولين : اعرفوا الدنيا ونقول للآخرين اعرفوا الدين ، فاعتزال العلماء شئون الدنيا ثم تحكمهم ضرر أى ضرر ، ومعرفة رجال السياسة بأصول الدين ضرورة والواجب امتزاج الطائفتين وتعاونهما ، فهناك أصول الدين يجب أن تراعى ، وهناك أمور لم ينص عليها تقتضيها مصالح الأمة يجب أن تقاس بمقياس المنفعة والمضرة ويعمل فيها العقل ، ثم دعا خير الدين إلى امتزاج الطائفتين وتعاونهما .

وعنده أن الإسلام لا يحول دون العلم والحضارة ، وأن تخلف المسلمين إنما جاء حين فقدوا إيمانهم بوسائل الإسلام فى النهضة وهى القوة والوحدة والقدرة على اللحاق بالزمن ، وبوسائله وأسلحته دون تخلف عنه . يقول : « الإسلام لا يمنع أن يقتبس الصالح من الأمر حيث كان وممن كان » .

يقول : « إن أوربا عندما بدأت نهضتها كانت أسوأ حالا منا والأمة الإسلامية لها عقليتها واستعدادها وسابق مدنيتها ما يمكنها من السبق فى هذا المجال ، إذا أدركت حريتها الكافية فالحرية والطموح غريزتان فى المسلمين تأصلتا منهم بتعاليم دينهم » وعنده أن من الأسس التى بنيت عليها المدنية الحديثة التى يمكن اقتباسها ونشرها فى المملكة الإسلامية كالحرية بنوعيها : وهما الحرية الشخصية وهى إطلاق التصرف الإنسان فى نفسه وكسبه ، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله ومساواته لأبناء جنسه فى الحقوق والواجبات .

ويؤمن خير الدين بأن الشريعة الإسلامية كافلة بمصالح الدارين ، ضرورة أن النظام الدنيوى أساس متين لاستقامة نظام الدين ، وأن علماء المسلمين مكلفون بمراعاة أحوال الوقت فى تنزيل الأحكام . ويربط الدكتور م . محمد حسين بين رفاعة الطهطاوى وخير الدين ، ويرى أنهما أول من جلبا هذه البذور الغربية وألقياها فى التربة الإسلامية

وأشار إلى أنهما ربطا مفاهيمهما بالأصول الاسلامية وقال إن الاشتباك مع الاسلام فى تقدير قيم السلوك الفردي والجماعة كانت دوافع الحكام والمفكرين على السواء هى طلب القوة المجتمع

الإســـلامي وابتغاء الوسيلة إلى أسباب النهضة التي تخلص المجتمع من ضعفه وجهله وفقره ، وكانت المبادىء الإسلامية في هذا الطور هي الميزان الذي يوزن به ما يراد استحداثه فيقبل أو يرفض .

وعنده أن الطهطاوي وخير الدين يبدأ كل منهما كلامه بالنص القرآني وبالحديث وبرأي الصحابة والفقهاء ونقطة البدء في تفكيرهما هي التماس الوسائل لقوة المجتمع الإسلامي حتى يصبح قادراً على الصمود أمام المنافسة الغربية . ويقول : (إن التماس الحلول للتخلص من عوامل الضعف يبدأ من الإعجاب ببعض ما شاهداه من النظم في المجتمع الغربي والرغبة في نقله إلى وطنيهما ثم إنهما يتساءلان : هل يسمح الإسلام بتقبل هذه النظم ؟ ومن الحق أن يذكر في هذا المجال العلامة (قبادو) ودوره عميق في النهضة .

(٣)

وفي نفس الفترة (١٨٠٣ — ١٨٥٤) يبرز إسم (الألوسي) في بغداد يحمل لواء الدعوة إلى الإصلاح والتجديد ، ويجد منطلقه من نفس طريق الإمام ابن عبد الوهاب عن طريق العقائد ومن نفس النقطة (التوحيد) ويجد في مجال البيان الأدبي وتفسير القرآن سبيلا إلى دعوته .

وقد وجد في تفسيره المسمى (روح المعاني) في تسع مجلدات سبيله إلى بث آرائه وقد كان يرى نفسه امتداداً في أوائل القرن التاسع عشر لحركة التوحيد فقد نفذت رسائل الشيخ عبد الوهاب إلى العراق وتلقاها كثير من الأعلام واستجابوا لها .

يقول (عباس العزاوي) : ظهر مذهب السلف في منتصف عام ١١٥٥ هـ (في العراق) بما أرسله الشيخ محمد عبد الوهاب من رسالة إلى البصرة يدعو فيها إلى دعوته . ومن عقائد أهل السنة تسمى الوهابية وأثرت على العراق وعلى حكومة المماليك كثيراً وتجاوزت حدود حكم المماليك إلى الموصل ، أما الدولة العثمانية فإنها حاذرت تأثيره على بلاد العرب خارج نجد فأغرت العلماء بالرد عليه والطعن في أهله فاختلقوا عليه ما شاءوا وبذوا مذهبهم بما أرادوا ، وأيده كثير من العلماء في الخفاء ، ومن العلماء الذين تأثروا به في بغداد الشيخ علي السويدي أستاذ (الثناء الألوسي) وقد دعا الشيخ السويدي إلى اتباع الحديث ، وهذا مذهب السلف)

وقال : إن ابن تيمية لما جاهر بمذهب السلف في الشام وكرر لزوم متابعته ناصره علماء كثيرون في بغداد ، وهذا المذهب استمر في العراق إلى أوائل المائة الثانية عشرة أي قبل ظهور الشيخ محمد عبد الوهاب وما كانت تتخوف منه الدولة العثمانية قد وقع فعلا) .

* * *

كان صوت (الشهاب الألوسى) فى العراق فى هذه الفترة بالغ الأهمية على تكامل منهج اليقظة بين إصلاح العقيدة وإصلاح الشريعة وإصلاح الفكر واللغة والآداب ، وأبرز ما يمثله هذا المعنى هو أن الأمة كلها قد تأثرت بالدعوة إلى التوحيد واستمدت منها خيوطاً مختلفة التكامل فى مجموعها بما يمثل يقظة الفكر الإسلامى والثقافة العربية فى مختلف مجالاتها .

فالجبرتى يجدد منهج كتابة التاريخ ، ورفاعة ينقل أفكار الغرب فى مجال السياسة والاجتماع والتربية ولكنه يربطها بجذورها الإسلامية وخير الدين التونسى يدعو إلى تلاقى رجال الدين ورجال السياسة فى سبيل حياطة النهضة ، ويدعو إلى النقل من الحضارة الأوربية وفق مفاهيم الفكر الإسلامى أما الألوسى فقد تابع دعوة التوحيد وأدمجها فى تفسير القرآن نفسه ، دون تعصب لها أو إعلاء ، ومع التقدير الكامل لجو الفكر الإسلامى المشحون بآثار مرحلة الجبرية فى العقائد والجمود فى الفقه وضرورة الترفق والمرحلية والدعوة بالحكمة حتى لا يصطدم بأهل الكلام أو أهل التصوف أو أهل الفلسفة فى محاولة التقريب بينهما جميعاً وإقامة نقطة التقاء يتحقق بها انصهارها فى فكر موحد .

ثم هو يحاول أن يحرر النصوص ، ويكشف زيف الأحاديث والروايات التى استند إليها دعاة الجمود أو دعاة الجبرية وذلك بمضاهاتها بآى القرآن الكريم المصدر الأساسى للفكر الإسلامى كما حاول فى رفق تأويلات المتكلمة والصوفية التى ليس لها دعامة من صحيح اللغة أو صريح النص .

وفى مجال الآداب والكتابة حرص على شجب منهج الكتابة الفردية العاطفية ودعا إلى تحرى الحقيقة العلمية المجردة ، وقال إن المؤرخ المحقق يجب أن يكون حيادياً لا ينساق مع التيارات المتنازعة وأن يتحلى بالروح العلمية الصحيحة ، ويرى عباس العزاوى أن الألوسى هو أول مؤرخ فى عهده بدأ عمله العلمى بنفسه ثم درب تلاميذه فاختطوا طريقه (ولولا أبو الثناء وآثاره والعصبة الأدبية التى التفت حوله من تلاميذه وغيرهم لتعذر وجود المؤرخين المعاصرين) وكان أبلغ حرصه على أن لا يتأثر المؤرخ بالنعرة السياسى الذى يمكن أن يؤثر على الحقائق .

كما حرر الأسلوب من السجع ، واقبل فى تفسيره وشرحه العلوم الجديدة ، وخاصة النظريات علم الفلك .

• • •

الفصل السادس

حركة التصوف

١ — التصوف السنى

بدأت الحركة السنوسية عام ١٨٤٠ تقريباً فى ظل جو ملىء باليقظة وقد ارتبطت بالدعوة إلى التوحيد من ناحية وبالتحدى الخطير الذى تمثل فى احتلال فرنسا للجزائر ، وهو أول احتلال له طابعه الخطير فى العالم الإسلامى فى هذه المرحلة ، حيث استمرت المقاومة الجزائرية الباسلة سنوات طويلة منذ بدأت محاولة فرنسا لاحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ إلى أن توقفت عام ١٨٤٦ وقد سبقتها محاولات فى مجال السواحل العربية بالإضافة إلى الحملة الفرنسية على مصر ، غير أن احتلال الجزائر كان رمزاً على خطورة أشد وأعنف ، كان لا بد أن يحسب لها حساب خطير فى عمل اليقظة وأن يكون لها أثرها الكبير فى مخططها .

هذه هى الحركة التى بدأت أساساً لإيقاظ الفكر الإسلامى والثقافة العربية وتحريرها من الجمود فى مجال الفقه ومن الجبرية فى مجال العقيدة عام ١٧٤٠ تقريباً ، ثم كان بينها وبين الحركة السنوسية خلال مائة عام حركات يقظة فكرية أساساً قوامها دعوات رفاعة فى مصر وخير الدين فى تونس .

وكلها دعوات فكرية فيما بين حركتين تمثل فيهما العمل على نحو (الحركة) فالحركة الوهابية عمل فكرى تحول إلى عمل سياسى خطير بقيام دولة باسمه تحتضن الدعوة وترعاها وتدفعها إلى الأمام وبعد مائة عام كانت السنوسية دعوة تحولت إلى حركة جماعية ، قوامها زوايا بلغت المائة والأربعين ممتدة فى تونس والجزائر وفارس وبرقة ومصر والحجاز واليمن والسودان والهند وتركيا وكلها متصلة اتصالا وثيقاً كاملا بمركزها العام فى زاوية جغبوب ، وتقوم هذه الزوايا على نظام عملى شامل قوامه العبادة والرزق والثقافة ، وكل زاوية تضم حقلا ومدرسة ومسجداً ومصنعاً للأسلحة .

ومن هنا كانت أهمية الحركة السنوسية فى تطوير يقظة الفكر الاسلامى فهى لم تكن مناهج دراسية أو فلسفية ترسم صورة لنظام مجتمع أو حكومة أو بناء فكرة الدولة أو القرية أو المجتمع على النحو الذى حاول رفاعة وخير الدين فحسب ، بل كانت تجسيداً فعلياً لذلك بالتكوين العملى الجماعى .

والسنوسية كانت بمثابة رد فعل إيجابى للاحتلال الفرنسى للجزائر ، فقد قادها رجل من الجزائر

هو (محمد علي السنوسي) الذي هزه حادث الاحتلال الفرنسي للأرض الجزائرية الاسلامية ودفعه إلى العمل السريع من أجل المقاومة على أساس حركة تجمع شاملة تعم العالم الإسلامي كله وتقاوم في محاولة الاستعمار لتجميده أو القضاء عليه

وقد بدأت الحركة السنوسية في برقة ولكنها مدت نفوذها إلى المغرب كله وإلى أفريقيا في الجنوب .

وكان سبيله إلى العمل — رحلة طويلة إلى المغرب حيث أمضى سبع سنوات (١٨٥٢ - ١٨٥٩) بين جامع القرويين في فاس ، ودراسة القادرية والشاذلية والدرقاوية والناصرية وغيرها من الطرق الصوفية وزيارة الزوايا على طول المنطقة حتى وصل (خطة توات) على مشارف الصحراء .

ثم بدأ رحلة أخرى إلى الشرق لاستكمال دراسته وبحثه فاتجه إلى القاهرة واتصل بالأزهر وعلمائه وأعلن آراءه محاولا إيجاد بيئة صالحة لدعوته ، غير أن علماء الأزهر - الذين كانوا غارقين في التقليد عارضوه وقاوموه ، فلم يلبث أن ولى وجهه نحو الجزيرة العربية فاتصل بالدعوة الوهابية والتقى معها في مفاهيم تحرير العقيدة وتطهيرها ، وفي مكة عرف أحوال المسلمين وأخلاقهم ، واستطاع أن يتصل بالكثير من القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي في مواسم الحج — وأن يخالطهم دارساً باحثاً مع مفكريهم .

ثم تبلورت له بعد هذه الدراسة الطويلة خطة عمل : تبين له أنه لا يوجد في العالم الاسلامي مرشد أو مصلح ، بعد أن قضى على الحركة الوهابية وبدأ ضعف الدولة العثمانية ماثلا في عجزها عن حماية الجزائر أو الدفاع عنها .

ومن هنا فقد بدأ في بناء قوة عربية إسلامية في صحراء ليبيا تقوم دعامتها على أساس الزوايا المتناثرة وتمتد لتطويق العالم الاسلامي كله على نحو يحمل صورة الطرق الصوفية ولكنه يعتمد أساساً على المفاهيم السلفية المتحررة متلمساً المنابع الأولى للإسلام في منهج متكامل قوامه :

- تطهير العقيدة من البدع والخرافات .

- توحيد المذاهب وجمع العالم الاسلامي في وحدة حقيقية .

- فتح باب الاجتهاد .

- نشر الاسلام في القارة الافريقية .

- مقاومة النفوذ الأجنبي .

ويمكن القول أن الدعوة السنوسية هى الوجه المتطور للدعوة الوهابية مع التقاء وخلاف بعض الوجوه :

فكلا الدعوتين قد بدأت من الصحراء أساساً ثم امتدت ، وكلاهما قام فى مواجهة التحدى بالخطر (الأولى) من الجمود والجهالة و (الثانية) من الغزو العسكرى .

أما وجه الخلاف فإن الدعوة الوهابية كان لها طابع تجمع غير صوفى ـ وكان لها مواقف حاسمة فى معارضة الحركة الصوفية جملة ، أما السنوسية فقد اعتمدت على إطار الصوفية وإن حررت مفاهيمها لأول مرة ودفعتها إلى مجال جديد قوامه التوحيد ، حيث اتخذ من الكتاب والسنة أساساً لها وتجنب مفهوم الاستسلام إلى الخوارق والكرامات والغلو فى تقديس الأولياء والمشايخ (أحياء كانوا أم أمواتاً) ويمكن القول أنها اتخذت مفاهيم التوحيد التى دعا إليها (ابن تيمية) ثم جددها محمد بن عبد الوهاب وهى مفاهيم إسلامية أصلا ، أساساً للطريقة الصوفية فلم تصبح الزوايا خوانق ولكنها أصبحت جامعات ومجال عمل ، فقد ربطت بين الثقافة والعبادة والعمل حيث أحيطت كل زاوية بمساحة من الأرض للعمل والزراعة .

وبذلك خالفت صوامع النسك وأديرة الرهبان ، وجاوزت منهج السابقين فى الانقطاع للعبادة ، واتخذت من هذه الزوايا مراكز للنشاط الاجتماعى (وحرمت على أهلها التسول وطالبتهم بالسعى والكد فى زراعة الأرض وتعميرها) وقد توسعت الدعوة السنوسية فى مناهج (الجهاد) ووضعته موضع العمل بأسلوب جديد : قوامه مقاومة النفوذ الأجنبى والتصدى لقتاله . والوقوف فى وجه ولاية الحاكم غير المسلم ومقاتلة العدوان الغربى .

ولم تتخذ أسلوب استخدام العنف بصفة عامة مع المسلمين وقصرته على أعدائهم ، ولا شك كان لهذه التعاليم أثرها البعيد المدى فى مقاومة الاحتلال الفرنسى السودان والصحراء الكبرى وحرب طرابلس الغرب عام ١٩١٧ واحتلال إيطاليا ليبيا عام ١٩٢٣ .

* * *

ويصور منهج الإمام محمد بن على السنوسى الخطوة التى خطاها الفكر فى هذه المرحلة نحو اليقظة فقد استطاع أن يجمع بين أمرين :

أولا : التحرر من الجمود والتقليد وتحرير العقيدة وتعميق مفهوم التوحيد .

ثانياً : تنقية الطرق الصوفية من مفاهيمها المنحرفة ودفعها إلى العمل الإيجابى البعيد عن مفاهيم الجبرية أو الاتحاد والحلول أو وحدة الوجود .

وقد أخذ الإمام محمد على السنوسى على متعصبى المذاهب الإسلامية خلافاتهم وخصوماتهم مؤمناً بأن ذلك من العوامل التى تمزق حركة اليقظة الإسلامية ، والنهوض بالمسلمين ومقاومة الغزو الاستعمارى الداهم ، وكان إيمانه واضحاً بأن الإسلام يجارى تطور الأزمان وتحول العصور ويأخذ مكانه الأول من كل تقدم تقتضيه سنة الحياة .

ولذلك فقد دعا إلى تحرير الفكر الإسلامى من (التقليد الأعمى والتسليم العاجز) وطهر السنة من الأقوال المشوبة والأساطير الموروثة ورفض مفهوم الصوفية التقليدى الواهم بأن الإسلام ليس من شأنه الدنيا أو أن المسلم ليس من شأنه المادة ، ودحض القول الذى ردده خصوم الإسلام من أن ما عليه المسلمون من ظلام الفكر وخدر الشعور إنما مصدره الدين أو روح الإسلام ، ويتمثل مفهوم الإسلام واضحاً فى مؤلفاته وأبحاثه وفى مقدمتها : المسائل العشر ، وإيقاظ الوسنان فى العمل بالحديث والقرآن ، فقد كشف هذه الأبحاث عن اجتهاده فى أمرين خطيرين فى حياة المسلمين هما : التصوف والفقه .

أما التصوف فقد حدد موقفه فى عبارات واضحة :

(الصوفية يزنون سلوكهم بمبادىء الشريعة ، ولا يعيبهم إلا الجهلة بعلومهم ، أو المتعصبون عليهم ، والسنة هى المرجع وهى الحاكمة على الخطأ والصواب لأنها حجة على الجميع ، وليس هناك أحد حجة عليها ، نعرض ما جاء عن الصوفية على الكتاب والسنة فما قبلاه قبلناه وإلا فلا نقبله ، نحفظ ود الصوفية ولا ننكر عليهم إلا ما خالفوا فيه الكتاب والسنة) .

وعنده (أن التصوف المعتدل المبنى على السنة هو طريق النفس إلى الخلاص من الآثام والارتقاء فى مراتب الكمال البشرى) وبهذه المفاهيم حرر التصوف من الشطح والغلو والتواكل المميت لشخصية المسلم والدافع له على الاعتماد على غيره فى رزقه .

ثم واجه أفكار وحدة الوجود والحلول والاتحاد التى دخلت على التصوف الاسلامى من فلسفات الهند القديمة ، يقول فى كتابه المسائل العشر :

(فالذى يفنى من العبد على التحقيق صفاته لا ذاته ، كما يفهمه الجاهلون الذين كذبوا على الله واعتقدوا (الحلول والاتحاد) وإن وقع من أصحاب الشطح ذلك فلا يعول عليه ، لأن الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى) .

وقد وجه السنوسى التصوف إلى معينه الأصيل الذى تمثل فى تاريخه كله وهو (التربية) متفقاً مع الامام الغزالى من حيث أن التصوف هو طريق الوصول إلى المعرفة الحقيقية .

• • •

أما بالنسبة للفقه فإن موقفه يكشف عن جوهر فكره كإمام مجتهد : فهو مؤمن بفتح باب الاجتهاد للقادرين عليه وإرجاع الأقوال كلها إلى مصدرها الأصيل من الكتاب والسنة ، وقد جاهر بالعداء للتقليد المطلق ، ورفض القول بتحريم الاجتهاد ، وضرورة تقليد أحد الأئمة الأربعة وبنى دعوته على أساسين اثنين : تاريخي وعقلي ، فقد أثبت أن السلف الصالح لم يكن يعتمد إلا على الكتاب والسنة وأثبت أن المجتهدين لم ينقطعوا في أي جيل من الأجيال الاسلامية ، وما دام هناك مجتهدون فقد سقطت دعوى القائلين بغلق باب الاجتهاد .

وفي كتابه (الإيقاظ) : دعا إلى وجوب الاجتهاد في كل زمان ، ووجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة ، وعنده أن على (العامي) أن يسأل المفتي عن دليله ، الذي استند إليه في فتواه ، أو حكمه ، فإذا أخبره بالدليل المقنع . وإلا تركه إلى غيره ممن هو أقدر منه على الإتيان بالدليل ، وهذا هو اجتهاد العامي ، وهو لا يرى اتباع الكتاب والسنة (وجوب الاتباع) بل يدعو إلى الاجتهاد ومباشرته فعلا ، ويرى أن الاجتهاد ضرورة عقلية لأن فتح باب الاجتهاد يجعل لدى المسلم حيوية وتمسكا بالإسلام حيث يجد فيه الحلول بالنسبة للمشاكل التي تتجدد في كل زمان .

• • •

أما الدور الكبير الذي قامت به السنوسية في حركة اليقظة فهو نشر الإسلام في قلب إفريقيا حيث أصبحت مدرسة (جغبوب) معهداً أساسياً لإعداد دعاة الإسلام وبثهم في مختلف الأنحاء .

وبالجملة فإن دعوة السنوسية قد حققت خطوة أوسع في مجال يقظة الفكر الإسلامي والثقافة العربية بعد مائة عام من صيحة الامام محمد بن عبد الوهاب ، ومن خلال حركات المصلحين والمجددين الذين توالوا خلال هذه الفترة .

وإذا كانت الوهابية فكرة إصلاح ودعوة إلى التوحيد تتمثل في حركة سياسية فقد كانت السنوسية (طريقة عمل) محتذية حياة الرسول ﷺ كنموذج أسمى لحياة المسلم ، ويمكن أن يقال إن محمد بن علي السنوسي عمل على تحرير الفكر الاسلامي من التقليد الأعمى ودعا إلى تنقية الاسلام مما علق به من البدع والطهر العقيدة مما ألصق بها من خرافات وأوهام وشوائب وطهر السنن المحمدية من الأساطير ومزج بين المذاهب السنية المعروفة الأربعة ، بما صح وكل من أقوالها ، ثم أضاف إليها ما استنبطه من السنة والمذاهب التي لم يعد هناك أتباع لها (١١٨٧ — ١٨٥٩) .

• • •

٢ — الطرق الصوفية

فى تاريخ الفكر الإسلامى ثقافتان كبيرتان متكاملتان : ثقافة العقل وثقافة القلب .

وقد نشأت كلتا الثقافتين من مصدر واحد هو (القرآن) بحسبانه حجر الأساس فى بناء الفكر الاسلامى ، فقد جاء القرآن مخاطباً العقل والوجدان معاً ، غير أن كلا من الثقافتين غلب فى عصر ما وكوّن حركة مستقلة ، أطلق على الحركة الاولى حركة المعتزلة أو أهل الكلام واتصل بها كل مايتعلق بالمفاهيم العقلية وأطلق على الحركة الثانية حركة التصوف أو المعرفة عن طريق الوجدان .

وقد ظل تاريخ الفكر الاسلامى يتحرك بين هذين القطبين . فيكون فى مكان القوة والحيوية والايمان حين يجمع بينهما ، وقد جمع بينهما باسم مفهوم أهل السنة والجماعة بعد مرحلة غلبت فيها النزعة العقلية ، ثم كان للفترة المتأخرة والسابقة لعصر اليقظة العربية أثرها فى غلبة النزعة الوجدانية باسم التصوف ، وقد كانت حركة اليقظة محاولة إلى تغليب مفهوم العقل من ناحية والسعى إلى التوازن والوسيطة والتكامل بين المفهومين على المدى الطويل .

ولا شك كان للحركة الصوفية أثرها الواضح فى الفكر المعاصر نتيجة لغلب مفاهيم المعرفة عن طريق الوجدان .

وأبرز ما يتصل تاريخنا بأثر الحركة الصوفية هو الدور الخطير الذى قامت به فى سبيل نشر الاسلام وإذاعته على نحو حقق توسعاً دائباً لا حد له وكسب العقيدة الاسلامية مجاميع ضخمة فى أفريقيا وآسيا .

وقد اتسعت الطرق الصوفية أو طرق الدراويش كما كانوا يطلقون عليها فى خلال العصر الأخير السابق لحركة اليقظة ، وكانت هذه الطرق قد بدأت منذ عهد بعيد حين أسس عبد القادر الجيلانى طريقته الأولى فى بغداد ، ثم امتدت طريقته القادرية إلى المغرب وإلى قلب إفريقيا ، وأنشأت مراكز متعددة نشرت الاسلام وشاركت فى توسيع رقعته مع الحركة السنوسية ودورها معروف ويوصف دعاة القادرية بأنهم أكثر مبشرى الدين الاسلامى حماسة فى غرب إفريقيا من السنغال إلى مصب النيجر ، وقد شهد المغرب طرقاً أخرى كالشاذلية والتيجانية .

أما (الشاذلية) فهى من أوليات الطرق التى أدخلت التصوف إلى المغرب ، ومن أبرز دعاتها (العربى الدرقاوى) المتوفى عام ١٨٢٣ والذى (أوجد عند مريديه حماسة دينية شديدة امتدت إلى المغرب الأوسط) وكان الدرقاوية دور فعال فى مقاومة الغزو والفتح .

أما الطريقة التيجانية فقد أسسها أحمد بن محمد التيجانى المتوفى عام ١٧٨٢ م . وقد قاومت نشاط

الآباء البيض من جماعة (لافيجري) وأمثالها من جماعات المبشرين وكان من أبرز دعاتها (الحاج عمر) ١٨٣٣ وقد دعا إلى عقيدة السلف، وكانت له انتصارات وتوسعات ومقاومة للوثنيين.

وقد خلف الطريقة التيجانية (سلطنة) إسلامية عظيمة في وسط بلاد الزنوج الفلتيين كما أثارت الأهالي على الاحتلال الفرنسي فكانت بذلك ذات خطر عظيم على النفوذ الاستعماري.

وقد قاوم الفرنسيون توسع التيجانية ويسروا سقوط السودان بين أيدي الاحتلال الغربي ويرى الباحثون أن إفريقية كانت تسارع إلى الإسلام على نحو أكثر قوة لولا قضاء فرنسا على سلطنة التيجانيين.

أما الطريقة القادرية: فإن دعاتها هم أكثر مبشري الإسلام الذين انطلقوا من إفريقية إلى السنغال خاصة وهم يبشرون بالإسلام عن طريق التجارة والتعليم.

ولا يمنع هذا النشاط الذي قامت به الطرق الصوفية من القول بأن بعض هذه الطرق قد حملت معها في خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري (في أواسط إفريقيا وجنوب آسيا) مفهوم الجبرية والتقليد، ولم تحمل معها بالطبع مفهوم التوحيد والاجتهاد وقد جاءت الدعوة إليها مع فجر اليقظة، وقد استطاعت الدعوة السنوسية أن تحرر هذه المفاهيم إلى حد ما. أما الحركات الصوفية السابقة لها كالقادرية والتيجانية، فقد كانت تحمل طابع التحرير في أوائل ظهورها ثم تحولت إلى التقليد وكان هذا المفهوم يحمل في طياته مفهوم وحدة الوجود والحلول والاتحاد، غير أن نمو دعوة التوحيد التي حملها محمد بن عبد الوهاب وما تفرع منها من دعوات وخاصة الدعوة السلفية التي اتسع نطاقها من بعد هذه المرحلة قد عدل كثيراً من مناهج الحركة الصوفية.

ولا شك كان نفوذ الطرق الصوفية بعيد الأثر في نشر الإسلام وتوسيع رقعته، فقد استطاعت الطرق أن تحفظ الإسلام في هذه البلاد خلال عصور الجهل والظلمات وعمل رجالها على تأسيس الزوايا (الرباطات) يرجعون إليها الضالين إلى سواء السبيل ويقومون فيها بتعليم الناشئة وبث العلم في صدور الرجال، يقول العلامة أحمد توفيق المدني في كتابه تاريخ الجزائر: (ولولا تلك الجهود التي بذلوها لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثراً للعربية ولا للعلوم الدينية، فالزوايا الكبرى هي التي كونت دائماً في هذه البلاد طبقة فاضلة من العلماء والفقهاء، وحفظ أوان الشريعة وكانت وساطة فعلية في نقل الإسلام إلى بلاد أقاصي الجنوب والسودان) غير أن الطرق لم تلبث أن قامت — في دور ضعفها وظهور أجيال من قادتها أقل يقظة وإيماناً — بدور خطير في مؤازرة النفوذ الأجنبي وخاصة في (المغرب والجزائر ومراكش) وكان لها في مصر نفس الدور إبان الاحتلال البريطاني (كالدمرداش وغيره) وقد كانت الحركة السلفية عاملا هاماً في مقاومة مفاهيم التصوف الجبري وفي الدعوة إلى تصوف أصيل يستمد مفاهيمه ومعالمه من الإسلام ويكون في ذاته قوة التحرر ومقاومة النفوذ الأجنبي، وقد كان الشيخ محمد عبده ورشيد رضا والشيخ الدوكالي وكنون ومحمد بن العربي العلوي وعبد الحميد بن باديس دور كبير في هذا العمل.

الفصل السابع

تيار الحرية والوحدة الإسلامية

(من ١٨٧١ إلى ١٩٠٨)

لم يلبث الفكر الإسلامي أن دخل مرحلة جديدة يمكن أن يقال أنها مرحلة « الصياغة العملية » لفكرة التوحيد ووضع مضمونها في قالب العصر ، وتوجيهها نحو النفاذ العملي إلى مجالات السياسة والاجتماع والأدب على نهج قوامه : تحرير الفكر وتحرير أسلوب الأداء ، ومواجهة النفوذ الغربي بخطة تهدم كامل .

وقد بلغ صدى الصيحات المتوالية في مجال الفكر السياسي والاجتماعي إلى محيط الدولة العثمانية وكان له أبعد الأثر في « استانبول » مصدر القيادة السياسية للوحدة العثمانية العربية فبدت في آفاقها دعوات إلى الحرية حمل لواءها بعض المستنيرين الذين اتصلوا بالفكر الأوربي بالرحلة إلى أوربا أو بالثقافة .

وكان ما قدمه رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي بمثابة « أرضية » صلبة لمحاولاتهم التي كانت أشد جرأة وقوة والتي وصلت إلى حد العمل السياسي والدعوة إلى الحرية بهذه الحركة التي وصفت أنها دعوة إلى « الدستور » في المملكة العثمانية ، في نفس الوقت الذي كانت الدعوة إلى الدستور تجري في مصر على لسان عبد السلام المويلحي ، وفي تونس على لسان خير الدين ثم في فارس على لسان جمال الدين الأفغاني .

ويمثل هذا تيار واضح هو أن القضية الكبرى كانت منذ أعلن الإمام عبد الوهاب دعوته هي قضية الحرية : باعتبارها منطلقاً أساسياً لتحقيق أمرين : شجب إستبداد الأمراء والقضاء على النفوذ الأجنبي .

ويمكن القول بأن حركة الدولة العثمانية كانت موازية لحركة جمال الدين الأفغاني في مصر وأن كلا الحركتين قد إستفادت من الأخرى وركزت أساساً على نقطة التوحيد التي إنطلق منها محمد عبد الوهاب والمنهج الذي حاول رسمه رفاعة الطهطاوي وخير الدين غير أن الحركة العثمانية ما لبثت أن إحتوتها القوى الماسونية عن طريق الدنمة ، غير أن ظهور « السلطان عبد الحميد » على مسرح السياسة عام ١٨٧٩ قد غير وجه المسألة ونقلها نقلة أخرى .

والمعروف أن الدولة العثمانية (المثلة الجامعة للعرب والأتراك) كانت هدفاً من أهداف النفوذ الغربي والغزو الاستعماري ، هذا الهدف الذي حركه تطويق عالم الإسلام ثم اتجه منذ عام ١٧٩٨ إلى الغزو المسلح حيث بدأت الحملة الفرنسية على مصر ، ثم توالت حركات الغزو وكان أبرزها احتلال فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ ومقاومة الجزائر التي امتدت إلى عام ١٩٤٦ ثم تحقق في هذا الوقت حفر قناة السويس وبدأ الصراع بين النفوذين الفرنسي والبريطاني على ميراث الدولة العثمانية ، ثم انتزاع الأجزاء الأوربية واحدة بعد أخرى من الدولة العثمانية ، وهنا كانت صيحة جمال الدين الأفغاني بالدعوة إلى الوحدة والتكتل في وجه النفوذ الاستعماري الزاحف ثم كانت محاولة السلطان عبد الحميد في تنفيذ فكرة التجمع على النحو الذي تم يؤيد به نفوذ « القوة العربية الإسلامية » القائمة باسم « الخلافة العثمانية » كقوة مقاومة للنفوذ الغربي ومن هنا أطلق الكتاب على هذه المرحلة ١٨٧٦ - ١٩٠٨ وهي فترة حكم السلطان عبد الحميد في تركيا اسم « تركيا الإسلامية » .

وقد ربط الكثير من الباحثين بين محاولة الغرب في القضاء على الدولة العثمانية وبين خطة الغزو الاستعماري الجديد ، التي تعد (طوراً جديداً للحروب الصليبية من ناحية والتوسع الغربي الجديد بعد ظهور عصر الصناعة الكبرى وما يتصل به من خامات وأسواق موجودة في العالم الإسلامي .

ومن هنا فقد كان القضاء على القوة السياسية للعالم الإسلامي الممثلة في « الدولة العثمانية » من الأهداف الأساسية حتى أن المؤرخ دجوفارا ذكر في كتابه « مائة مشروع لتقسيم تركيا) إن هذه الخطة القضاء على الدولة العثمانية قد بدأت عشية انتهت الحروب الصليبية عام ١٢٩١ م واستمرت حتى حققت هدفها عام ١٩١٨ وفي كتابه هذا ذكر في صراحة وجرأة (إن أصل العداوة المزمنة التي يضمرها الأوربيون للأتراك ويأولون أبداً من أجلها إلى حصرهم في آسيا راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والإسلام)

وقال دجوفارا إن الدعوة ظلت قائمة إلى (عمل مشترك لدحر الإسلام) وأنه في خلال فترة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية (الأوربية) تهاجم الدولة العثمانية وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يعدون برامج لتقسيم هذه السلطنة . وأن السلطنة العثمانية إن لم تكن سقطت كلها دفعة واحدة فقد تساقطت قطعة بعد قطعة مدة هذه الأعصر الطوال التي كانت أوربا خلالها تناصبها العداء .

وفي ضوء هذا الهدف نستطيع أن ننظر إلى حركة التاريخ في هذه المرحلة في استانبول ، وجمال الدين وتلاميذه في القاهرة إلى الحرية والوحدة ثم تغلب خطة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، التي يقودها السلطان عبد الحميد وقد صبغت الفكر الإسلامي كله في هذه المرحلة . وأثرت فيه حاضراً ومستقبلا .

الوحدة والحرية معا

وقد كان مفهوم اليقظة يتمثل فى تيار أصيل مستمد على خلاف فى الفروع من أرضية الفكر الإسلامى والثقافة العربية . يقوده سياسياً السلطان عبد الحميد وفكرياً جمال الدين الأفغانى ، يرى أن الأمة الإسلامية أساساً إذا التمست يقظتها على أساس التوحيد والقيم الإسلامية والمنهج القرآنى تستطيع أن تحقق هدف اليقظة متمثلا فى ثلاث قضايا كبرى : تحرير الفكر ، وتحرير الفرد ، ومقاومة النفوذ الأجنبى وقوام ذلك ترابط واتحاد ولقاء تقوده صفوة مستنيرة فى أى قطر عربى ، ولم يكن هذا التيار منعزلا عن الفكر العالمى بل كان يؤمن بالاتصال بالحضارة الأوربية والفكر الغربى والأخذ عنهما على النحو الذى يحقق القوة دون الانصهار فيهما .

ثم برز تيار يدعو إلى (الحرية) والدستور ويقوده مدحت ويلتمس مفاهيم من الفكر الغربى أصلا ، محاولا إيجاد أرضية وطنية لها كوسيلة لاقرارها ، غير أنه لا يدعو إلى الوحدة الإسلامية أو الوحدة بين العرب والترك ، وإنما يحمل فى أطوائه دعوة إلى القومية التركية متأثراً بالدعــوة إلى القوميات الغربية متابعاً منهجها دون تقدير لأوجه الخلاف والالتقاء .

والخلاف بين التيارين يكمن فى أن التيار الأفغانى أصيل وله أساس من الفكر الإسلامى العربى وله مضمون فى الوحدة ، أما تيار مدحت فإنه يرفض المفهوم الإسلامى كجوهر ، ويلتمس الفكر الغربى كأساس والفكرة القومية الغربية كنطاق للترك بصرف النظر عن الوحدة التركية العربية الممثلة فى الدولة العثمانية ، وعن الأرضية الإسلامية التى ينبثق منها أصلا جميع التيارات السياسية والاجتماعية .

وقد كان مفهوم السلطان قريباً إلى مفاهيم جمال الدين التى تحولت إلى عمل سياسى يركز على الدولة العثمانية كقوة جامعة للمسلمين أما تيار مدحت فقد إختفى إلى حين وظل يعمل فى الخفاء .

• • •

نظرية مدحت

ويمكن القول بأن حركة مدحت بدأت حوالى عام ١٨٧٠ واتسمت باسم محاولة إنقاذ الدولة العثمانية من الإنهيار والحكم الاستبدادى ، وتمثلت مقدمتها فى خطاب مصطفى فاضل الذى وجهه إلى السلطان والمطبوع تحت اسم « من أمير إلى سلطان » والذى دعا فيه إلى تحديد شباب الدولة بدستور يتساوى أمامه جميع طوائف الدولة فى الحقوق والواجبات ، ومما جاء فيه :

«إن نظامنا القديم قد أفسد طباع سياستنا وحط من نفوسهم فأفسدوا من طباع الدولة وحظرا

من مقامها فعلينا أن نخرج من هذا النظام ولا نعود إليه أبداً ».

وقد سار مدحت في نفس الاتجاه حين ترعم الحركة إلى إصلاح الدولة العثمانية في خطابه إلى السلطان : « إن التبذير في الدولة قد بلغ درجة لا تطاق . إن الدولة قد وقعت في أزمة شديدة لا سبيل إلى الخلاص منها إلا بتبديل الإدارة الحالية وإنما يكون تبديلها بإنشاء مجلس نيابي وجعل النظار مسئولين أمامه وبأن يكون هذا المجلس قومياً فلا يفرق في إنتخابه بين المذاهب والعناصر وبأن يوضع الولاة تحت المراقبة الشديدة فلا يعبثون بمصالح الرعية ، ثم واصل دعوته في المطالبة بتحقيق نظام شامل للإصلاح أورده في تقريره على هذا النحو :

« إذا أصدرتم خطاً همايونياً جديداً حتمتم فيه إتباع القوانين والنظام والمساواة بين الغنى والفقير والكبير والصغير في نظر القانون وأرجعتم المنشآت الخيرية إلى أصلها وصرفتم الأموال في سبيل ما خصصها له الواقفون ،، وأعدتم مرجع أمور الدولة إلى الباب العالي فيقر قراراته ويعرضها على جلالتكم ، ولم تستأثر جلالتكم بشيء من حقوق الدولة ، وجعل الوزراء مسئولين عن نتائج أعمالهم وحتمتم ذلك على خواصكم ورجال حاشيتكم حصلت النتيجة المطلوبة ».

هذا هو الصوت الذي إرتفع في الدولة العثمانية بالإصلاح ، والذي كان له أبلغ صدى في الوطن العربي ، وهو ليس منهجاً كاملاً لليقظة ولكنه منهج إصلاح سياسي يراد به إنقاذ الدولة العثمانية من الانهيار والتماس للنظام الغربي الديمقراطي .

غير أن مدحت أراد أن يطبعه بطابع إسلامي فقال : ليس الذي رفعنا فيه من طبيعة الإسلام ، فالإسلام يسوى بين الغنى والفقير في الحقوق والواجبات ويجعل أمرهم بينهم شورى ، والاسلام جعل من أهم قواعده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن الشورى الاسلامية (قد) انطبعت في العصر الحديث بما يسميه الأوربيون البرلمان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . يشكل في المدنية الحديثة حرية الصحف في النقد وحرية الأفراد والجماعات في التأليف وإبداء الآراء في صراحة ، يستحسنون ما يريدون ، ويستنكرون ما يريدون ، فلا أحد بمعصوم ، وإنما الذي يقومهم ويخيفهم ويلزمهم الجادة هو : يقظة الرأي العام وحريته في النقد وهذا هو ما سمى في القرآن (التواصي بالحق والتواصي بالصبر) .

وقال : إن سبب ضعف المسلمين هو فقدان الحرية وسبب تأخر المسيحيين هو فقدانهم الحرية ، فقدان الحرية للجميع يلزم خوفاً ويفقدهم رجولتهم ويخلقهم بأخلاق العبيد من ذلة ، ولا يتأتى العدل إلا بالقوانين العادلة ، وهذه لا تكون إلا بالحرية ، ولا تكون الحرية إلا (بالدستور) .

وقد إستطاع مدحت أن يحقق هدفه بإصدار الدستور عام ١٨٧٦ في نفس اليوم الذي تولى الحكم السلطان عبد الحميد غير أن هذا الدستور لم يلبث أن أوقف بعد أن انكشفت خلفيات الدعوة التي ترمي إلى تدمير الوحدة الجامعة بين المسلمين تحت لواء الخلافة .

وعلى الجملة فإن مدحت استوحى فى حركته النظام الإدارى واهتم بالإصلاح المدنى وقصر منهجه على إصلاح طرق الحكم السياسية ، وحصر الإصلاح فى مفهوم واحد : هو الرجوع إلى المدنية الحاضرة ، وأوقف خطته على تقييد سلطة السلطان بالدستور والمجلس النيابى واعتبر هذا هو الحل الوحيد لكل القضايا الاجتماعية والسياسية .

وكان هذا مفهوما جزئياً ، هو مفهوم الحاكم وليس مفهوم المصلح الذى تمثل فى شمول نظرية جمال الدين الأفغانى وأتباعه ، بالإضافة إلى أنها نبعت من مفهوم إسلامى أساساً كما قصر نظر مدحت عن الأخطار التى كانت تحيط بالدولة العثمانية كقوة صامدة فى مواجهة الغزو الاستعمارى الراغب إلى إسقاطها أو تمزيق الوحدة بين العرب والترك وما اتهم النفوذ الاستعمارى من فرصة لذلك من حياكة المؤامرات التى كان ضحيتها مدحت ورجاله .

وقد كشفت الوثائق فى السنوات الأخيرة حقائق كثيرة تضع مدحت فى صف المتآمرين على الدولة العثمانية على النحو الذى عرف من بعد من جماعة الاتحاد والترقى التى احتوتها الدونمة وأفسحت لها مجال العمل فى محافل الماسونية وحولتها بعد ذلك إلى خدمة أهداف الصهيونية ومن جانبها فتح الطريق لليهود إلى فلسطين .

• • •

نظرية جمال الدين :

أما نظرية جمال الدين فتختلف عن نظرية مدحت على النحو الذى استخلصناه ، وهو أن جماله كان امتداداً للخط الأصيل العميق المنبعث من التوحيد ومفهوم الإسلام والذى تطور خلال أكثر من مائة وثلاثين عاماً (١٧٤٠ ١٨٥١) .

وفى ضوء صراع النفوذ الأجنبى وغلبته على بعض أجزاء من عالم الإسلام إلى منهج عمل ، منهج دعوة ، موجه إلى الصفوة من المثقفين لتعميق فهمها ولتحرير الفكر الإسلامى من قيوده ودفعه خطوات عن طريق الكلمة ، وعن طريق إثراء الوجدان بالحماسة والإيمان وإثراء العقل بالمنطق والعلم وقد تمثلت غايته فى خطط واضحة عامة مقدمتها :

أولا : مقاومة الجبرية :

• قاوم ما رسخ فى عقول العوام والخواص من فهم بعض الكلمات الدينية على غير وجهها مثل مفاهيم القضاء والقدر على معنى يوجب ألا يتحركوا لطلب مجد ولا لتخلص من ذل ومثل فهمهم

لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمن وقرب انتهائه فيما يثبط هممهم عن السعي وراء الإصلاح وبالجملة تحرير العقول من قيود الجمود وتطهير العقيدة .

ثانياً : مقاومة النفوذ الأجنبي :

تخليص البلاد من نفوذ أوربا ، وخصوصاً نفوذ انجلترا وتخليصها من استبداد الملوك والأمراء وإقامة النظم الحرة الدستورية فيها وجمعها تحت زعامة واحدة .

. بناء روح الكرامة للمسلمين وإشعار أهل الشرق بعزتهم وحقهم في الحرية وزعزعة صروح الظلم .

. لا بد من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث تأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم.

* * *

لجمال الدين هو ثمرة الخطوات التي سبقته في طريق اليقظة ، غير أنه لم يكن صاحب منهج كامل أو نظرية شاملة للفكر الإسلامي ككل ، وظل عمله طوال حياته مقصوراً على بعض الجوانب ، وكانت السياسة أشغله الشاغل وكان تطلعه إلى تحقيق هدفه يرتبط بالثورة ، ومن هنا كان اصطفاؤه أسلوب الحماسة حتى العنف (وهو ما يتفق مع مزاجه الدموي وطبيعته) مما جعل عمله قاصراً إلى حد ما ، فلم يقدم يقظة الفكر العربي الإسلامي إلا خطوة واحدة ، حيث لم يكن جمال الدين قادراً على التطلع إلى منهج تربوي عمل طويل المدى على النحو الذي قام به محمد بن علي السنوسي ، وكانت اندفاعة النفوذ الاستعماري البالغة العنف في هذه المرحلة (مرحلة السبعينات) والأجواء العاصفة التي كانت تواجه الهند وفارس وأفغانستان والضغط العنيف الذي تعيشه تركيا ومصر . كل هذا كان لا يترك الفرصة أمام فكره لعمل تربوي طويل المدى ، إذ كان يتطلع إلى عمل موحد يواجه الغزو الاستعماري كقوة موحدة ، ويقف في وجهه ويعطل امتداده ونموه .

ولذلك فقد ركز أساساً على العمل السياسي ، وعلى الكلمة الجهيرة ، وعلى الصحافة بالذات ، والخطابة ، وجعل الخط الأول في عمله (مواجهة أو مقاومة خط السيطرة الأوربية على الشرق الاسلامي) ولذلك فقد جاءت عباراته الأساسية في العمل على هذا النحو :

(العالم الغربي على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية هو عدو مقاوم ومناهض للشرق على العموم ، والاسلام على الخصوص ، فجميع الدول (الغربية) متحدة معاً على دك دولة الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدورهم كمون النار في

البارود ، وروح التعصب لم تنفك حية متقدة في قلوبهم إلى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية الأوربية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها متغلغلا في أحشائها ومتمشياً في كل عرق من عروقها وهي أبداً ناظرة إلى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الديني للمقوت . جميع الشعوب (الغربية) مجمعة متفقة على عداء الاسلام ، وروح هذا العداء ماثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الاسلام محقاً .

إن ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً مذموماً محرماً ، هو عندهم في بلادهم وأوطانهم : العصبية الجنسية و"القومية المقدسة ، وأن ما يدعونه عندهم في الغرب إباءة النفس ، والشمم والشرف الوطني والعزة القومية يعدونه في الشرق غلواً مكروهاً وإفراطاً في حق الوطن ضاراً » .

هذا هو منطق حركة جمال الدين ودعوته التي نادى بها منذ عام ١٨٧١ تقريباً (ودعا إليها في القاهرة حتى عام ١٨٧٩) ثم ظل يواصلها حتى توفي عام ١٨٩٧ وفي خلال هذه المرحلة تحول كثيراً عن مفاهيمه الفرعية ووسائله وصحح كثيراً من عباراته ، وعدل فيها وفق ظروف التحول السريعة التي كانت تواجه العالم الاسلامي ، وتطور الفكر الاسلامي خلال هذه المرحلة الدقيقة التي وقع فيها احتلال مصر والسودان وتونس وتغير فيها كثير من مناهج الفكر والحياة ، تبعاً لحركات الاحتلال والغزو التي تمت وكان هدفه الأساسي المستخلص من منطوق فكراته ودعواته هو :

(إن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً مستمسك الأطراف وثيق العرى . ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى إنما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته) .

هـــذه الدعوة التي أطلق عليها من بعد إسم (الجامعة الاسـلامية) والتي التفت إليها السلطان عبد الحميد منذ عام ١٨٨٦ على وجه التقريب وحاول أن يوجهها على النحو الذي يحقق بها مواجهة أوربا بجبهة إسلامية ضخمة . ليست في حدود الدولة العثمانية وحدها ، بل لتشمل العالم الاسلامي كله وقد قبل جمال الدين الاندماج في العمل على النحو الذي رسمه عبد الحميد قبل دعوة الخليفة إلى زيارة استانبول والبقاء بها منذ عام ١٨٩٣ وحتى وفاته .

ماذا أضاف جمال الدين للفكر الاسلامي :

من الحق أن نتساءل في هذا البحث عن الاضافات التي قدمها جمال الدين الأفغاني للفكر الاسـلامي في عصر اليقظة ، هذه الاضافات تتمثل في مفاهيم الاسلام والحرية والمقاومة وتنبعث أساساً من محاولة الاجابة على سؤال واحد هو الذي شغل مختلف المفكرين والقادة :

وقد ركز جمال الدين على الاسلام أساساً كإطار اليقظة والاصلاح فدعا إلى :

١ ـ القضاء على انقسام المسلمين بين السنة والشيعة .

٢ ـ التوفيق بين الدين والعلم (إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله . حقائق العلم لا بد أن تتوافق مع القرآن . والقرآن يجب أن يجل عن مخالفته العلم الحقيق وخصوصاً في الكليات ـ مع الدعوة إلى تأويل الدين وتفسيره بما يطابق ضرورات العصر الحديث وروح المدنية الحديثة .

٣ ـ الدعوة إلى الاجتهاد والتبصير والتنفير من التقليد الأعمى لكل ما جاء به الأقدمون ، أو التمسك الحرفي بكل ما قاله المفسرون :

(إذا كان عياض وأمثاله سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم ، فلم لا نستنبط ونقول ما يوافق زماننا ، ما معنى باب الاجتهاد مسدود ، وبأى نص سد أو أى إمام قال : لا يصح لمن بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين ، ويهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمان وأحكامه ، إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ولكن لا يصح أن يعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة فى بحر .

ضرورة الدين :

التأكيد على ضرورة (الدين فى بناء المجتمعات) ومهاجمة دعاة المادية ودحض مذهبهم :

(إن الدين على العموم أكسب عقول البشر ثلاث عقائد وأودع فى نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية :

العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وأنه أشرف المخلوقات .

العقيدة الثانية : يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له على ضلال وباطل .

العقيدة الثالثة : جزمه بأن الانسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من العالم الدنيوى .

أما الخصال الثلاث : فهى (الحياء والأمانة والصدق) .

هذه الأسس التى أتت بها الأديان هى علة العمران وعليها تتوقف حياة الانسان ، وأن الماديين (أو الدهريين والنيتشريين) تؤدى تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس فتنزل الانسان منزلة الحيوان وتفقده الوازع على الخير وتعده لحياة ضيقة جافة لا قلب لها ولا سمو فيها وعنده أن فى هذا التكاسل

خلقه وعدم إمكيانه حيث أن الدين من المقومات الأساسية للبشر الذين لا غناء لهم عن سلطتين : زمنية وروحية وكلا السلطتين يستدعى مقام الحكم الشورى ، وإصلاح السلطة يستدعى الاهتمام بالتعليم (حياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الشرب فيهم ومدة الحجر عليهم والعكس بالعكس) .

وعنده أن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية يقول : لقد عم الجهل وتفشى الجمود فى كثير من المرتدين رداء العلماء حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة والقرآن يجب أن يجل عن مخالفة العلم الحقيق خصوصاً فى الكليات) .

رابعاً : امتياز الإسلام على سائر الأديان .

مزايا الاسلام : (أولها) صقل العقل بصقال التوحيد ، وتطهيرها من لوث الأوهام ، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان متوحد فى خلق الأفعال ، وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسان أو جماد — علوياً أو سفلياً — يكون له فى الكون من أثر من نفع أو ضر ، أو إعطاء أو منع ، أو إعزاز ، أو إذلال ، أو نحو ذلك من خرافات ، كل واحدة منهما كافية فى إعماء العقول وطمس أنوارها .

ثانياً : إن الاسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها ، وأباح لكل نفس الحق فى السمو ، ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف ، وقوم الناس بالكمال العقلى والنفسى ، فالناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأى شىء آخر ، وقد لا نجد فى الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة .

ثالثاً : إن الاسلام يكاد يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتتبعين الظنون ، فهو كلما خاطب ، خاطب العقل ، وكلما احتكم احتكم إلى العقل ، وتنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة .

رابعاً : إن الاسلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم وفرض نصب المعلم ليؤدى علم التعليم ، وإقامة المؤدى الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر فقال : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وقال : (ولولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) .

وقد نفى عن الدين حاقات رجال الدين ودعا إلى القرآن (القرآن) كأساس ، والتخفف من تفسيرات المفسرين التى دعت إلى الاختلافات والتفكك .

• دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم وهي ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

• الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم وإبطال زعم الواهمين أن المسلمين لا يتقدمون في المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

• تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينهم .

خامساً : الأمور التي تتم بها سعادة الأمم .

أما هذه الأمور التي تتم بها سعادة الأمم فيجمعه في عناصر أربعة أخرى :

الأول : صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام ، والإسلام يقتضي ذلك ، لأن أول ركن بني عليه هو : (صقل القلوب) بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام وخلع كل عقيدة بأن الله جل شأنه يظهر للناس بلباس البشر أو أن تلك الذات المقدسة تحل في بعض أطوارها شديد الإيلام وأليم الانتقام لمصلحة أحد من الخلق .

الثاني : أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف ، طامحة إلى بلوغ الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الإنساني ، ما عدا رتبة النبوة فإنها بمعزل عن الطمع ، فإذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة ، أعني الإقبال على وجوه الشرف ، تسابق كل مع الآخر في مجالات الفضائل ، وتمادت به المجاراة إلى محاسن الأعمال .

الثالث : أن تكون عقائد الأمة ، وهي أول رقم ينتقش في ألواح نفوسها مبنية على البراهين القوية والأدلة الصحيحة وأن تتحامى عقولهم مطابقة الظنون في عقائدها وتدفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها ، والإسلام يكاد يكون منفرداً بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون .

الرابع : أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة ، وطائفة أخرى تقوم على النفوس بتولي تهذيبها وتثقيف أولادها لا تني الأولى عن مكافحة الجهل وتنوير العقول بالمعارف الحقة ، وتدأب الثانية على الكشف عن الأوصاف الفاضلة وحدودها . فإن الشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد تقف عنده ولا لرغائب الأنفس غاية تنقطع عندها .

فإن فقد الإنسان مقوم النفوس ومعدل الأخلاق طغى سلطان الشهوة واندفع إلى الحيف والإجحاف ، ومن أهم أركان الإسلام نصب المعلم وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف .

أسباب الضعف والتخلف :

يرى عالم الدين أن هناك خمس عوامل عامة :

١ - عقيدة الجبر والخطأ فى فهم القضاء والقدر ، حتى صرفت النفوس عن الجد فى الأعمال .

٢ - ما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام فى القرنين الثالث والرابع فجعلوا المسلمين شيعاً وأحزاباً وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوا إليه من تعاليم فاسدة

٣ - ما عمله كذبة المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله ﷺ وفيها السم القاتل لروح العمل والإباء ، وفيها ما يستوجب ضعفاً فى الهمم ، وفتوراً فى العزائم .

٤ - ضعف التربية والتقصير فى إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم ولقصر العلم بينهم .

٥ - تفكك الروابط بين أجزاء الأمة ، فلا ترابط بين العلماء بعضهم وبعض ولا بين العلماء والأمراء .

٦ - الإسلام جعل أمته أمة مجاهدة قوية محاربة ، يأمرها الله بقوله : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فلما استهانت بهذا الأمر ، ولم تعد لكل موقف عدته ذلت بعد عزة .

الجامعة الإسلامية :

ملخص دعوته إلى الجامعة الاسلامية أن(قيام حكومة إسلامية واحدة تأتم بالاسلام وتعاليمه ، ولما كان ليس فى الامكان خضوعها لأمير واحد اكتفى بالدعوة إلى أن ترابط أجزاؤها بروابط محكمة ويكون لها مقصد واحد وتحكم الأقطار كلها بحكومات إمامها القرآن وأساسها العدل والشورى واختيار خير الناس لتولى الأمور (ولا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً وأن هذا ربما يكون عسيراً ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجه وحدتهم الدين وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخرين ما استطاع فإن حياته بحياتهم وبقاءه ببقائهم) .

وقد ضرب المثل فى هذه الدعوة بتوحيد الولايات الجرمانية بعد تشتيتها .

• • •

(إن التفاوت بين الشعوب واستعمار دولة لأخرى ليس قانوناً أزلياً لا يمكن تبديله ، بل هو حادث وقتى يزول بزوال مسبباته ، كغيره من الحوادث التاريخية والاجتماعية الخاضعة لقوانين التطور .

إن انقضاء أجل الاستعمار إنما يتم بزوال الأسباب التي مكنت أهله من التسلط وأكرهت الشعوب على الخضوع لها ، فهي إذا اتحدت واتحدت وتيقظت وقويت بدأت بالتمرد على الغاصب الدخيل .

ولما كان لحياة الأمم والدول أدوار وآجال لحدوثها وتكوينها ونمائها ثم ضعفها واضمحلالها أسباب وعوامل ، فقد وجب أن يكون الاستعمار خاضعاً لتلك النواميس الكونية بمعنى أنه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم .

مفهوم القرآن في الوحدة والتقدم :

أقام جمال الدين الأفغاني منهجه على نفس الأساس الذي أقام عليه كل من الغزالي وابن حزم وابن تيمية مناهجهم وهو التماس مفهوم القرآن وخلاصة منهجه :

« أن يكون سلطان جميع المسلمين (القرآن) ووجهة وحدتهم الإسلام ، والتمسك بالقرآن (١) كأساس موحد بين المسلمين من ناحية ، لاغ للعصبية المذهبية . (٢) التماس مفهوم القرآن كمنطلق للحياة

وعنده أن القرآن هو مصدر القوة على المقاومة ووسيلة للنهضة (وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق ، وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجهاً ولا يحصر لها طريقاً - فإننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم في فنون المنازلة والمنازلة والمصاولة ، حفظاً لحقوقهم ، وضنا بأنفسهم . عن الذل وملتهم عن الضياع » .

ويقول : « إن القرآن حي لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حده فهو محمود ، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه وحكموه في أحوالكم وطباعكم ، وفي الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة ، فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زمناً قليلا ووعظوا الكافة بتبيين معاني القرآن الكريم وإحيائها في نفوس المؤمنين . رأينا لذلك أثراً في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر . وشهدنا لها يوماً نسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا .

« إن حركتنا الدينية (بالدعوة إلى القرآن) كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها مثل : نصوص (القضاء) و (القدر) على معنى يوجب عليهم أن لا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه ، مما يثبط همهم عن

السعي وراء الإصلاح والنجاح ، بما لا عهد للسلف الصالح به . فلا بد إذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وأخرى » .

ويقول : « القرآن وحده هو سبب الهداية ، والعمدة في الدعاية ، وما تراكم عليه وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم ، فينبغي أن لا نعول عليه وإنما نستأنس به كرأي ولا نحمله على أكفنا مع القرآن في الدعوة إليه وإرشاد الأمم إلى تعاليمه » .

وهكذا يقيم جمال الدين دعوته في تجديد الإسلام وفي بعثه على أساس وطيد ، هو نفس الأساس الذي انتهجه كل المصلحين والدعاة : القرآن مصدر الوحي قبل أن تتفرق الآراء بكل مذهب ورأي .

فهو يرى الرجوع إلى القرآن بعد أن تحولت شروحه ودراساته ونظرياته السابقة إلى مذاهب فرقت الأمة إلى طوائف بما يحقق وحدة الأمة مع وحدة المصدر ، (والقرآن) عنده هو المصدر المؤكد (وما في منزلته من السنة المتواترة من أعمال النبي ﷺ التي تدخل في مفهوم القرآن) أما ما سوى القرآن والسنة الصحيحة ، فهو مصدر غير مؤكد يصح أن نستأنس به ولكن يجب ألا يؤخذ به .

ومفهوم القرآن عنده يدعو المسلمين (ألا يدينوا لسلطة من يخالفهم) والركن الأعظم فيه هو (طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم) بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته . والقرآن يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب المنعة من كل سبيل .

وهو يرى القرآن عاصماً المسلمين من الفرقة والخور والضعف والباعث للعزة والمنعة والشجاعة (ما يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية ، أليس هو الجبن ، ماذا يبسط أيدي الأدنياء الذليلة إلى الأعداء ، أليس هو الجبن ، إن أبناء الملة الإسلامية ينبغي أن يكونوا بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة المهينة ، فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضي الله وإنهم بما يعملون إنما يبتغون رضاه ، ويعلم من في القرآن هدايته أن الله قد جعل حب الموت من علامة الإيمان .

• • •

ويرسم جمال الدين فلسفة (اليقظة) مستمدة من القرآن :

« الديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها ، فالناظر في أصول

هذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من كتابها الأول يحكم حكماً لا ريب فيه ، بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة وإتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها ، ومن تأمل آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها ، والسعي إليها بقدر الطاقة البشرية ، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن لاحظ أن الشرع الإسلامي حرم المراهنة إلا في السباق والرماية انكشف رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها .

وجملة القول أن جمال الدين يرى أن الشخصية الإسلامية مصدرها (القرآن) وأن أسلوب الاستعمار الغربي يتخذ صوراً مختلفة للقضاء على هذه الشخصية التي تجمع المسلمين في رباط واحد .

مقاومة الإلحاد والجبرية معاً :

تمثل أفكار جمال الدين الأفغاني مرحلة أكثر تقدماً واتساعاً من مرحلة محمد بن عبد الوهاب والسنوسي ، وأكثر عمقاً من مرحلة رفاعة وخير الدين ، فقد انكشف في عصره مدى ضغط النفوذ الأجنبي وتسلطه في الهند وفي الجزائر وفي مصر ، وأتيح له أن يطوف العالم ويلتقي بالفلاسفة والملوك في لندن وباريس وألمانيا وروسيا ، ورأى العالم الغربي في مرحلة التهامه لعالم الإسلام ، وأتيح له أن يقرأ كل الفلسفات والأديان وتراث الحضارات والثقافات المختلفة فكان واعياً في مواجهة الخطرين معاً : الخطر الداخلي في عالم الإسلام وهو خطر الجمود والجبرية ، والخطر الخارجي وهو خطر الاستعمار والإلحاد .

ومن هنا فقد عمل في الميدانين :

أولا : أما في ميدان الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي فقد هاجم البدعة وحارب الجبرية واختلاف الحكومات وضعف العلماء واستبداد الأمراء والحكومات ودعا إلى ما أطلق عليه :
(١) تنقية الإسلام مما علق به من الشوائب . (٢) نقض اليأس الذين أشاعتهما الهزائم المتلاحقة نتيجة التواكل والجبرية وإشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح وإزالة ما حل بها من اليأس .

وقد ركز هجومه في هذا المجال على (أقوام بلباس الدين أبدعوا فيه وخلطوا بأصوله ما ليس منها فانتشرت قواعد الجبر ، وضربت في الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت عن الأعمال) وأضاف إلى ذلك ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع وما أحدثه (السفسطائيون الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ولا تثبتها الحقائق ، وذلك بالإضافة إلى ما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها إلى صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم

ويشوشونها فى الكتب وفيها السم القاتل لروح العزة) ويرى جمال الدين أن ضعف المسلمين بدأ حقيقة منذ ظهور الباطنية والعقائد الطبيعية والدهرية، وليست الحرب الصليبية هى بداية هذا الضعف وأماراته، بل كانت إحدى نتائج هذا الضعف، وهذه العقائد هى التى مهدت الحروب الصليبية وحروب التتار .

وفى هذا يقول : إن المسلمين أساءوا فهم نصوص القضاء والقدر وحملوا ألفاظها فوق ما تطيق من معنى، فأوجبوا بها (ألا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل) وجمدوا والعالم يتحرك، وأمنوا من محاكاة والتقليد، مع أن الإسلام يسفه من يعتقد بغير برهان أو من يتبعون الظن . ويقول: يكاد الإسلام أن يكون منفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بغير دليل، يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم وكلما خاطب، خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم العقل) وقد قاوم جمال الدين النظرية الصوفية السلبية والجبرية وقال عبارته الحاسمة : فناء الصوفى فى الله وفنائى فى خلق الله .

ثانياً : وهاجم الإلحاد بحسبانه السلاح الذى اصطنعه الاستعمار للقضاء على القيم الأساسية للفكر الإسلامى وتمييعه، (لقد طغى فى عصره مذهب المادية القائل بأن العالم له أساس واحد هو المادية ولا شىء وراءها، وكل شىء فى الحياة مظهر من مظاهرها فى الفكر والعاطفة، وأن المادة لا تتجدد ولا تفنى وقوانينها أبدية لا تتغير وهى قديمة أزلية، وليس فى العالم شىء يعتريه الفناء، وإنما تتغير الأشكال وبناء على ذلك فلا روح ولا دين ولا إله) وهذا قول باطل .

وقد سعى الاستعمار البريطانى بهذه النظرية إلى أجواء المسلمين فى الهند فبثها فيهم فى عنف وعرفت باسم (النيتشرية) وأما ما أطلقه عليها جمال الدين باسم (الدهرية) وقد رأى النفوذ الاستعمارى فى هذه النزعة أقرب وسيلة للوصول إلى تأييد سلطانه، وإذا كان الإسلام يطالب من أتباعه أن يكونوا أصحاب الشوكة والسلطان فى أوطانهم ولاحظوا أن ذلك طبيعة الإسلام التى لا يمكن انسلاخه عنها ولا انتزاعها من فطرة أبنائه، فلا سبيل إلى إضعاف هذه العقيدة إلا بنشر التعطيل بين المسلمين . إذ الدعوة إليه أنفذ إلى قلوبهم من التثليث .

وقال جمال الدين إن الإنجليز سعوا فى جعل المسلمين دهريين ولم يسعوا فى جعلهم مسيحيين لأنهم رأوا أن دعوة التبشير لم تنجح .

ولم يكن هدف جمال الدين الرد على دارون أو غيره، وإنما أراد إثبات قيمة الدين وضرورته الإنسانية وأثره فى رقيه وأثر الإلحاد فى انحطاطه .

ومن هنا فقد قاوم الإلحاد بصفة عامة وأوضح ضرورة الدين للمجتمع الإنسانى، وذلك فى محاولة لمقاومة هدف النفوذ الاستعمارى فى إفساد عقيدة المسلم إما بتشكيكه فيها أو بمحاولة صرفه عنها .

وبالجملة فإن أثر جمال الدين الأفغاني في اليقظة الفكرية العربية الإسلامية إنما يتمثل أساساً في أنه حلقة أوسع وأكبر وأشمل من الحلقات السابقة وأنه أول من نبه إلى خطة التقريب التي بدأها الاستعمار في الهند وفي تركيا معاً، بحيث استهدف بث الإلحاد وتمزيق الوحدة، وقد اختار جمال الدين وسائل الثورة السياسية كأسرع الطرق إلى تحرير الفكر الاسلامي والعالم الاسلامي، ورأى أن وسائل الاصلاح والتربية والعلم بطيئة، وحارب الجبرية الصوفية والاستبداد والالحاد، ودعا إلى الوحدة بين المسلمين والجمع بين السنة والشيعة، ونفى عن الدين أخطاء العلماء والصوفية، ودعا إلى الرجوع إلى القرآن ومجاوزة تفسيرات المفسرين التي دعت إلى الخلاف والتفكك والتوفيق بين الدين والعلم واعتبار الدين من المقومات الأساسية للبشر لا غناء عنه ومقاومة الاستعمار مع الأخذ بعلوم الحضارة. وحول الأسلوب الأدبي من السجع الخالص إلى الاهتمام بالمعاني، ومن العناية بالأداء إلى العناية بالمضمون، ووجه الأدب لخدمة قضية كبرى هي قضية الحرية، ولكن لم يكن دوره دور مفكر يتعمق المشكلات ولم يرسم برنامجاً كاملاً للاجتهاد والتجديد ولم يعمل على إصلاح الفرد.

الفصل الثامن

صراع الطورانية والعربية والإسلامية

من ١٩٠٨ الى ١٩١٨

بعد صدور الدستور العثماني عام ١٩٠٨ وسقوط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ من أبرز الأحداث في هذه المرحلة المؤثرة في [illegible]رى حركة اليقظة بعد وفاة جمال الدين الأفغاني عام ١٨٩٧ وهو نفس العام الذي ظهرت فيه الحركة الصهيونية بقيادة هرتزل .

وكان محمد عبده قد عاد إلى مصر من منفاه عام ١٨٨٥ فأمضى عشرون عاما حتى وفاته عام ١٩٠٥ في حركته الجديدة التي تكاد تكون عصارة مصفاة اليقظة العربية منذ صيحة محمد بن عبد الوهاب ومن خلال مراحل رفاعة وخير الدين التونسي ، والسنوسية ثم من خلال حركة جمال الدين الافغاني ، وقد رافق محمد عبده على الطريق مصلح آخر هو (الكواكبي) وقد جمعهما مفهوم واحد هو التجديد والاصلاح وقد اتكأ كل منهما على مسألة من المسائل وعدها الاكثر اهمية بحكم البيئة والظروف فالإمام محمد عبده بعد وقوع الاحتلال البريطاني وفي ظل خطواته الواسعة قد التمس منهجا جديداً مختلفاً في أساليبه ومناهجه عن خططه المشتركة مع جمال الدين وان كان متفقاً في غايته ، فقد تبين له أن أسلوب الثورة لم يعد صالحاً بعد مرور أكثر من اربعة عشر عاما ١٨٧١ — ١٨٨٥ ، فترك لصاحبه أن يجرب خطوات جديدة في فارس وتركيا ومضى يدق هو طريقه الآخر : « طريق التربية » ، واتخاذ منهج التعليم كأساس النهضة وقد إستطاع في خلال هذه المرحلة القصيرة أن يصل الى النتائج بعيدة المدى في مجال الفكر الإسلامي أساساً ، وفي المجتمع ، وفي الأزهر .

أما الكواكبي فقد كان يصدر عن موقف الشام ، التي إختارت الطابع العربي أساساً وفي مواجهة الخلاف مع السلطان عبد الحميد ومفاهيمه ودعوته .

ويمكن القول من خلال دراسة شاملة لأسباب الضعف والتخلف أن الكواكبي ركز على أمرين هامين هما : الاستبداد ، والجبرية الصوفية ، وقد شاركه محمد عبده في الأولى قبل الثورة العرابية وشاركه في الثانية في المرحلة الأخيرة من حياته .

وان كانت دائرة عمل محمد عبده أوسع أفقا وأطول زمناً فقد بدأ عمله عام ١٨٨٥ واستمر حتى وفاته عام ١٩٠٥ بينما بدأ الكواكبي عام ١٨٩٨ بقدومه إلى مصر وتوفى عام ١٩٠٢ فانهما كانا معا

يمثلان خط تطور اليقظة ، فعملهما يمثل مرحلة متكاملة من مراحلها وموجة واحدة من موجاتها ، فقد أضافا إليها وتحركا بها إلى الوجهة الأكثر إيجابية وتفاعلا ، فقد إستفادا فى ذلك من كل ما حققه السابقون ، والتقيا بتجربتهم ، وتخطوا أخطاءهم ، وأكملا ما لم يصلوا إليه أو يحققوه .

ولا يمكن تصور هذا الموقف دون تقدير كامل للتطور الذى كان يجرى فى الدولة العثمانية وهو تطور وثيق الصلة بالفكر الإسلامى ، وبالبلاد العربية ، التى كانت قد حملت فعلا لواء اليقظة والتقت بالرافدين : التركى والهندى .

* * *

كانت حركة الجامعة الإسلامية قد وصلت إلى موقف واضح بعد وصول جمال الدين الأفغانى إلى الأستانة العلية واندماجه فى حركة السلطان عبد الحميد التى كانت مظهراً لاتجاه الدولة الرسمى ، فى نفس الوقت الذى كانت حركة « الاتحاديين » الخفية التى تقلصت من فوق منبر الأحداث منذ أن انطوى دستور مدحت تعمل فى سلانيك وغيرها وتنفذ فى الخفاء بالاشتراك مع قوة أخرى مخططا يرمى إلى تقويض حكم عبد الحميد وتقويض أيدلوجيته نفسها ، وكانت الغلبة فى النهاية لحركة الاتحاديين لعدة أسباب : أولا لمؤازرة قوى مختلفة لها (كالاستعمار والصهيونية) لأنها كانت تهدف إلى الخروج بالدولة العثمانية عن مخطط القوة والوحدة الذى تعارضه أوربا ، وتعارضه الأقليات والعناصر غير المسلمة . وفى ظل حركة ضخمة تعمل على تمزيق الدولة العثمانية تقودها أوربا وتعمل القضاء على حركة السلطان عبد الحميد وحكمه أساساً لها ، ولهدف آخر أكبر أهمية وخطورة وهو تمزيق الجبهة « التركية العربية » التى كانوا يطلقون عليها (الجامعة العثمانية) بعد الجامعة الإسلامية وبعد إنفصال مختلف الأجزاء الأوربية عن السلطنة .

كان الهدف من تمزيق الوحدة بين الترك والعرب أساساً قوياً من أسس مخطط النفوذ الأجنبى الرامى إلى القضاء على الدولة العثمانية وعلى تقسيم الوطن العربى بين الدول الأوربية وعلى القضاء على الوحدة التى كانت قائمة فى وجه الغزو الأجنبى والقضاء على مقوم أساسى من مقومات الفكر العربى الإسلامى وهو (الخلافة) وما يتبعها من مفاهيم وقيم تترابط فى مواجهة النفوذ الأجنبى والغزو الفكرى الأجنبى باسم التغريب هذا إلى تغليب مخططات ومفاهيم جديدة من شأنها أن تخضع المسلمين للحضارة الغربية ، وكان التركيز أشد قوة ووضوحا على « العرب » باعتبارهم القوة الأساسية فى العالم الإسلامى وحملة لواء الفكر الإسلامى العربى الناصع ، ومن بينهم إنبعثت اليقظة ودعوة التجديد المعطلة لخطط النفوذ الاستعمارى القائم أساسا على القضاء على مقومات الفكر الإسلامى التى تحمل طابع المقاومة والاستقلالية وذات الطابع الواضح والقيم التى لا تندمج ولا تذوب ، وكل ذلك بمطل صهر الأمة العربية والفكر العربى الإسلامى فى الحضارة الغربية بقيمها وفكرها ومفاهيمها

لقد قامت الجامعة الطورانية المتخفية وراء حركة الاتحاديين أساساً بمثابة معارضة شاملة للجامعة الإسلامية وللجامعة العثمانية والجامعة العربية جميعاً . فقد دعت الترك إلى أنهم أمة عريقة في التاريخ - أشد عراقة من العرب - وغلبت عليهم المفهوم القومي الذي كان مسيطراً على الفكر الغربي وعلى أوربا في هذه الفترة ، والذي إنطبع في نفوسهم من خلال إتجاه خطير بالغ الخطورة قوامه صهر جميع عناصر الدولة العثمانية في الجامعة الطورانية أو تتريك العناصر ومن بينهم العرب ، ومن هنا بدأ ذلك الانقسام الذي هز الوحدة الإسلامية (التركية العربية) وأصابها بالتصدع والخلاف والخصومة .

ووجد النفوذ الغربي في هذه الخصومة بغيته فعمل على توسيع شقة الخلاف وتعميق هوة الخصومة .

كان حدث ١٩٠٨ المكمل ١٩٠٩ حدثاً خطيراً في العالم الإسلامي كله وفي الفكر العربي الاسلامي فقد أوقف القوى الجديدة وجهاً لوجه في مواجهة حركة اليقظة والتجديد ، وأعطى حركة التغريب قاعدتها العريضة في تركيا والعالم العربي كله . لا عن طريق الفكر وحده ولكن عن طريق المنهج الاجتماعي أيضاً .

فقد كانت اليقظة : (عربية إسلامية) تقوم على تجديد الفكر العربي الإسلامي وتدفعه إلى القوة والحياة ليغمر من جديد وليتجدد وليكشف عنه الغشاء الذي خالطه فترة الضعف ، خلاف الجبرية والتقليد معاً .

وكان الدعاة خاصة في المراحل الأخيرة قد وضعوا خطة واضحة هي إلتماس كل ما في الحضارة الغربية من عوامل القوة والحيوية والتجدد والعلم والانتفاع بها لبناء المجتمع الاسلامي من جديد على قاعدته الأصيلة من القيم الاسلامية العربية .

وقد التمس المفكرون المسلمون لكل وسائل التجديد والنهضة أساساً من جذور الاسلام والفكر العربي الاسلامي ، سواء أكان ذلك في مجال الشورى أو أسلوب التعبير أو المنهج العلمي أو مفهوم حرية المرأة ، أو التربية والتعليم أو تطوير الفقه والقانون .

غير أن خطة التطور التدريجي هذه كانت خطيرة في نظر النفوذ الأجنبي فهي عامل قوة من حيث بدأ الاسلام يكشف عن جوهره الخالص ويوحي بأن ما يعيشه المسلمون ليس هو الاسلام . وبذلك أخذ يدحض أكبر إتهام غربي للمسلمين إدعاء بأن تخلفهم ناتج من دينهم وأن الاسلام هو الذي دفع المسلمين إلى هذا التخلف . إستطاع المفكرون المسلمون أمثال جمال الدين ومحمد عبده والسكوا كبي نقض هذا الاتهام والكشف عن جوهر الاسلام والفكر الاسلامي العربي قادراً قوياً

إيجابياً فكان لا بد أن يبرز الاستعمار طائفة تحمل إسم النهضة واليقظة والتجديد لا تأخذ خط التطور الطبيعي والإيمان بالقيم الأساسية ولا تبنى عملها على الأرضية العربية الإسلامية فتكون أكثر إلتصاقاً بالغرب وأكثر تقبلاً له وخاصة من بين الذين درسوا في الغرب وإنما تدعو إلى تحرر كامل في النقل من الغرب والتماس خطته في الفكر والمجتمع ، ونقل حضارته وفكره معاً ، هذا هو الخلاف الأساسي بين الفريقين اللذين بدأنا تتصارعان، أما دعوة اليقظة الأصيلة التي قامت على التعاليم التي ابتعثها الإمام محمد بن عبد الوهاب فإنها كانت مؤمنة بأن « الأساس » الذي تبنى عليه النهضة هو « القيم الإسلامية العربية » وأن نهج ما في الحضارة ينقل لأنها ملك عام والعلم ينقل لأنه عالمي ، أما الثقافة والفكر فلكل من المسلمين والغربيين منهجه وأسلوبه وتراثه وتاريخه ودينه ولغته وقيمه الأساسية المستمدة من هذه المقومات .

أما دعوة التغريب (أو التجديد المتطرف) فقد كانت تدعو إلى إلتماس حضارة الغرب وفكره جميعاً دون التقيد بالقيم الأساسية الإسلامية أو التراث العربي ، بل لقد بلغت في تطرفها وعنفها إلى الغض من شأن هذه القيم وازدراء هذا التراث وإلقاء الشبهات حوله والحملة عليه والتشكيك فيه .

وقد بدأ هذا التمزق في جبهة اليقظة في الهند وفي تركيا أولاً ثم توالى في الوطن العربي .

وقد حمل لواءه في الهند أحمد خان وخلفائه وحمل لواءه في تركيا (جوك الب) وأتباعه ثم انتقل إلى الوطن العربي لحمل لواءه أساتذة وخريجو معاهد الإرساليات الأجنبية من أمثال صروف وزيدان وتبعهم بعض العائدين من البعثات الأجنبية من أمثال طه حسين ومحمود عزمي .

ولقد كانت نقطة التمزق الأولى هي دفع الخلاف بين الترك والعرب إلى ذروته ، ومحاولة التفرقة بين القومية والدين ، وبين العروبة والإسلام ، فقد إلتمس المفكرون الذين هم أكثر تطرفاً ما إلتمسته أوربا في العصر الحديث من إقامة جمعيتها على أساس وحدة الجنس واللغة ، ورأى أمثال كوك الب وغيره من الناظرين إلى ضرورة إلتماس مناهج الغرب أن الوحدة التي قامت على أساس الفكر الإسلامي قد ضعفت وأصابها الاضطراب (وعندنا أن ضعفها كان لنتيجة تخلف المسلمين عن مفاهيم فكرهم الأصيلة في هذه الفترة وليس لضعف في هذه المقومات ذاتها) وأن على العالم الإسلامي أن يلتمس قوته في القومية والرابطة الجنسية واللغوية .

وكان معنى هذا هو العمل على تمزيق الرابطة القائمة بين العرب والترك في إطار الدولة العثمانية وقد غذى النفوذ الغربي اتجاه هؤلاء الدعاة المتطرفين وأيدهم ، ووجد فيه ما يحقق هدفه من تمزيق هذا الكيان السياسي وتقسيمه والسيطرة عليه عن طريق الاحتلال وقد أتاح هذا فعلا للاستعمار أن يحقق هدفه خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها في السيطرة على وحدات العالم العربي وحكمها .

ولذلك فقد أطلق بعض المؤرخين على حركة صدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٧ وسقوط عبد الحميد سنة ١٩٠٩ وتسلم الاتحاديين زمام السلطة في الدولة العثمانية اسم الثورة الصغرى بحسبان أن الثورة الكبرى قامت من بعد بقيادة كمال أتاتورك .

وإذا كنا قد عنينا بتصوير هذه المرحلة في توسع ، فإنما يرجع ذلك إلى أهميتها بالنسبة للانفصال الحاسم بين العرب والترك وهو من أبرز الأحداث ذات الأثر العميق في الفكر الحديث ، وبحسبان أن تركيا عثمانية وكمالية قد استمرت وإلى فترة طويلة مؤثرة في الوطن العربي فكريا وسياسياً واجتماعيا فضلا عما ترتب على ذلك الانفصال من نتائج بعيدة المدى .

• • •

ومنها إشتراك دولة إسلامية في حرب الدول الأوربية دون مصلحة مباشرة فيها ، ثم كان أن عين الاتحاديون أحد رجالهم « جمال باشا » قائداً لجيوشهم في الشام « فجند الرجال وجمع الأموال واتبع سياسة استبدادية في حكمه ، وقاوم اتجاه العرب ونصب المشانق » .

وكان هذا أقصى مراحل التمزق في العلاقة بين العرب والترك في ظل الدولة العثمانية وكان الاتحاديون بالذات هم الذين قادوا حملة التتريك والقضاء على اليقظة العربية ممثلة في الدعوة التي حمل العرب لواءها إلى المركزية في ظل الدولة العثمانية ، وهنا ثبت الاعتقاد بأنه لا حياة للعرب مع الترك على هذا الوضع ، وأن العروبة يجب أن تعمل لإستقلالها ، ويجب أن تنتقل إليها الأمانة فتحمل هي عبء الدفاع عن الإسلام وأهله وتعيد مركز ثقافته ومصدر تأثيره .

ومن هنا كان اتجاه العرب إلى المحور الآخر : محور بريطانيا وفرنسا اللتين غذتا هذا الخلاف حتى بلغ مداه ، ثم استفادتا منه إلى أقصى حد ، فقد خدعتا العرب بأن يعملوا في صفهما ثم وقع الصراع الحربي بين العرب والترك تحت ظل الوعد بإقامة دولة عربية ثم نكث الحلفاء الوعد بعد الحرب ، وبعد انتصارهم على الأتراك ، ومزقوا العرب إلى دول صغيرة محتلة .

كما سقطت حكومة الاتحاديين بعد هزيمتهم واحتل الحلفاء القسطنطينية واحتلت اليونان بلاد الأناضول وأشرفت الدولة جملة على الهلاك .

وبدأت صفحة جديدة بعد الحرب العالمية الاولى في تاريخ تركيا بعد أكثر من ستمائة عام انتقلت فيها من النقيض إلى النقيض ومن دولة الخلافة الحاملة لواء الإسلام إلى دولة علمانية شبه خالصة .

• • •

وهكذا لم تكن حركة الاتحاديين ، ما بين عام ١٩٠٨ – ١٩١٦ إلا تحولا خطيراً كان مقدمة التطور الأشد خطورة الذى تم بعد الحرب العالمية وامتداداً له :

. الانفصال عن العرب والقضاء عليهم وتتريكهم .

. إعلان الدعوة الطورانية المتعصبة للجنس .

. اعتماد المناهج الغربية فى مجال الفكر والحضارة معاً .

وقد كان الظن أن خطوة الاتحاديين بالدستور وإطلاق الحريات بعد عبد الحميد هى بمثابة فجر جديد للوحدة العربية التركية ، ولكنها كانت على العكس حركة منظمة للقضاء على « اليقظة العربية » بحسبانها المنطلق الجديد للعالم الإسلامى ، وقد انتقل الاتحاديون بتركيا من النقيض إلى النقيض ، من الطابع الاسلامى الخالص فكراً وحضارة دون تطور أو تدرج ، فقد أغرقوا أنفسهم فى تبعية فكرية قضت أو كادت على كل مقومات الفكر الاسلامى وقيمه .

. . .

وكان إعلان الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ علامة على أمرين :

١ – على إطلاق الدعوة إلى الجامعة الطورانية كبديل للجامعة الاسلامية التى كان يدعو لها السلطان عبد الحميد .

٢ – على التمزق والانفصال بين العرب والترك .

والمعروف أن الحركة الطورانية التى يحمل لواءها الاتحاديون ، كانت قديمة جداً وأنها استمرت منذ دعا مدحت إلى الدستور عام ١٨٧٦ ولئن كانت قد اختفت تحت الأرض واتخذت مجال الدعوة لها فى بعض العواصم الأوربية كباريس ولندن – وفى القاهرة أيضاً بتأييد من النفوذ الأجنبى نفسه .

أما فى مصر فقد حمل الكتاب المارون القادمون من الشام ، لواء الحملة على عبد الحميد والدولة العثمانية ، كانت جريدة المقطم (١٨٨٩) وصحف سليم سركيس وفرح أنطون قد أخذت فى مواجهة مشروع الجامعة الاسلامية فى أسلوب عميق التعصب والدس والتآمر فى سبيل العمل على تمزيق الروابط بين الترك والعرب ، وكانت الدعوة إلى انفصال العرب عن العثمانيين قد حمل لواءها دعاة من داخل الجامعة الأمريكية فى بيروت نفسها .

والحق أن السلطان عبد الحميد قد حجب دعوة الاتحاديين خلال مدة حكمه من أن تبرز فى المجال السياسى الرسمى فى تركيا فلم تلبث أن شقت طريقاً طويلا وعمقت مفاهيمها وفارقتها القائمة على :

١ — أبرز الكيان التركى التاريخى بجذوره القديمة السابقة للإسلام والدعوة إليه وإلى اللغة التركية .

٢ — الاتجاه إلى الغرب إتجاهاً كاملا ونقل الحضارة الغربية والفكر الغربي دون تفرقة بينهما .

٣ — الانفصال عن الجامعة الاسلامية والخلافة والثقافة العربية واللغة العربية وخلق نظرية ثقافية باطلة قوامها أن الترك هم أصحاب الحضارة الأولى .

٤ - النظر إلى الإسلام كمعوق للنهضة ، ومحاولة إقامة منهج حضارى بعيداً عن الدين .

• • •

نظرية ضيا كوك ألب (الجامعة الطورانية)

- إحياء العصبية الجنسية والتقاليد القديمة .
- إعتبار لغة الأستانة هى اللغة العامة بين جميع الأتراك فى الشرق والغرب .

وقد حاول كتاب الأتراك الدفاع عن حركتهم فأشاروا إلى أنه كان لهذه الحركة هدف سياسى ناجم من تخوف تركيا مما أصابها من الدب الروسى فرأى الأتراك أنهم إذا احيوا الروح القومية فى جميع الأتراك أصبح لهم سناد فى خارج تركيا وفى قلب الروسيا يمكنهم الاعتماد عليه فى رد عاديات الدب الشمال وعلى هذا النحو تكون فكرة الجامعة الطورانية منبعثة على قاعدة الدفاع عن النفس .

ويمكن القول أن ما قام به مصطفى كمال أتاتورك بعد الحرب العالمية الأولى إنما كان تطبيقاً صريحاً لدعوة ضيا كوك ألب الذى دعا إلى إلغاء المشيخة الإسلامية والمحاكم الشرعية والمعاهد الدينية وتأسيس مدرسة الالهيات فى الجامعة ، وإلغاء نظارة الأوقاف ، بعد أن فرق بين الخلافة والسلطنة . وعرف الأولى بأنها الإمامة الكبرى وبأنها رئاسة جميع الأئمة الذين يصلون بالمسلمين فى جميع أنحاء عالم الإسلام .

وهو الذى دعا الأتراك إلى ترك اللغة الصناعية المؤلفة بين العربية والفارسية مع قليل من التركية والعودة إلى لغتهم الطبيعية الحقيقية .

وكان (ضيا كوك ألب) من أركان الاتحاديين الذين اعتقلهم الإنجليز أثناء إحتلالهم الأستانة وأرسلوهم إلى مالطة ، وله مجلتا (كنج قلملر) : الأقلام الفتية ، ومجلة كرجوك : المجلة الصغيرة ، وقد

خلف لواء دعوته ، وله كتاب تاريخ التمدن التركى والضوء الذهبى . وقد عين بعد الانقلاب الكمالى رئيساً لجنة التأليف والترجمة لوزارة المعارف التركية .

وقد امتعصب ضيا كوك ألب للجنس الطورانى حتى سارت كلماته فى ذلك مسار الأناشيد حين يقول : إن الشعور الذى يجرى فى دمى هو صدى ماضى ، وأن أعمال أسلافى المجيدة أتحسس آثارها فى الدم الذى يجرى فى عروقى وفى قلبى ، وأن أتيلا وجنكيز خان وهما مفخرة جنسى ومظهر عظمته ليساوون الاسكندر الأكبر .

كانت حركة ١٩٠٨ إذن من عمل جمعية الاتحاد والترقى وهى ثمرة الفكرة التى بعثها مدحت والتى ترمى إلى نقل الدولة العثمانية من وضع إلى وضع على أساس عملها على هدم اتجاه السلطان عبد الحميد الذى يقوم على الجامعة الاسلامية وقد ظل عبد الحميد يقمع هذا التيار طوال فترة حكمه غير أن هؤلاء الدعاة كانوا يعملون من خلف جمعية سرية وصفها جورج أنطونيوس بأنها كانت خليطاً من الأجناس والأديان يسودها الترك ويأتى بعدهم اليهود مباشرة ، ومعهم عثمانيون آخرون من أبناء الملل الأخرى يقول : وكانت الجمعية تسير بقوة خليط من الدوافع يماثل فى تنوعه الخليط الذى تتألف منه ولكنها مع ذلك كانت متحدة فى السعى لتحقيق هدفها الأول وهو القضاء على حكم عبد الحميد والتوصل إلى إقامة حكم جديد يحطم الوحدة الاسلامية ويحمل شعار العمل على دمج الأجناس المختلفة فى بوتقة واحدة على نحو ما أراده دستور ١٨٧٦ ، وكان الرأى الأول فى الجمعية العسكرية فى جيل انشأ على تجديد التعليم العسكرى تجديداً كبيراً .

ويقول الأمير شكيب أرسلان (حاضر العالم الإسلامى) إن أعضاء حزب الاتحاد والترقى كانوا فى الغالب من شباب تلقى تعليمه فى بيئات الغرب ، وقضوا شطراً من حياتهم فى أوربا فنشأوا مفتونين بنظم الغرب وثقافته وحشوا أدمغتهم بنظريات ومبادىء لا تصلح للتطبيق فى غير موطنها ، وكانت صلتهم بالإسلام ضئيلة وكان فهمهم لحقيقة مبادئه أو لطبيعة تاريخ أمتهم كان مختلا أو على غير أساس وأن جمعية الاتحاد كانت خاضعة لتأثير الجمعيات الماسونية وكان نفوذ اليهود غالباً وظاهراً فى وسط محيط تلك الجمعية ، فاليهود أمدوا الحركة وأعانوها ، بمختلف الوسائل فكانت فلسفة تلك الحركة خليطاً من مبادىء غربية نظرية ، وعواطف عنصرية ضيقة ، ولذا فإن الحركة لم يقدر لها النجاح فى الأمد الطويل ، بل أصابت الأمة بصدمة شديدة من خيبة الآمال ، وكانت فى النهاية كارثة أطاحت بالنظام الجديد كله وبرجاله بل بالدولة كلها وكانت تطبع بتركيا نفسها كأمة مستقلة ، وكانت الآفتان اللتان أودتا بالحركة هما : إنحرافها عن الاسلامى ونزعتها العصبية القومية الضيقة ، فقد عمد رجال العهد الجديد إلى إهمال شأن الدين وآثروا أن يقيموا سياسة مدنية أو زمنية أو حتى لا دينية وهذه إحدى الثمرات المباشرة لاتصالهم باليهود ، كما أنهم بذلوا الجهد لإحياء العصبية القومية وبثت فكرة التركية والاعتزاز بالأصل التركى وعملوا على صبغ الدولة كلها بالصبغة التركية وأرادوا أن يحاولوا المستحيل وهو محو العصبيات الأخرى وإزالة الأجناس المختلفة بمجرد إصدار التشريعات وسلطان الادارة بالإكراه .

ولم يتوقف الاتجاه الطوراني عند هذا الحد بل أنه أوغل في طريق العنف ، فكان من نتيجته ظهور القومية العربية كاتجاه مضاد أو كرد فعل ، فظهرت القومية العربية واضطر العرب إلى أن يقاوموا وكلما زاد إضطهادهم وكلما اقلت وطأة الاتحاديين عليهم إزدادت مقاومتهم .

ثم كان من أكبر أخطاء الاتحاديين دخولهم الحرب في صف ألمانيا وقد وجه إليهم الاتهام بالخطأ في هذا الاتجاه من ناحيتين :

اولا : أنهم دولة ناشئة ما كان لها أن تدخل نفسها في أتون الحرب .

وكانت حركة المغالاة في تمجيد العنصر التركي ورفعه فوق كل العناصر الأخرى وإذابة كل العناصر فيه محاولة نزقة متطرفة . والانتقال خطيراً من النقيض إلى النقيض ، ويمكن القول أن الدولة العثمانية كانت تتحرك بعد سقوط عبد الحميد حامل لواء الجامعة الاسلامية بين تيارين أو فكرين حولهما الاتحاديون :

١ — القومية العثمانية الاسلامية ويؤيدها : أنور وسعيد حليم .

٢ — القومية التركية الطورانية ويؤيدها طلعت ومدحت وإبارى .

وكانت دعوة القومية العثمانية الاسلامية قائمة في حيز الدعوة إلى الجامعة الاسلامية وهى نظرية الفئة الكبرى من علماء الترك المعاصرين أمثال « عبد الحق حامد ، وفائق عالى ، وشهاب الدين بك ، وجلال نورى ، والشاعر محمد عاكف ، وأنور باشا المؤرخ ، واسماعيل حقى ، ورضا توفيق .

والقوم الفكرة على أن « الأتراك العثمانيين » ولئن كانوا من الترك أصلا ومحتدا فقد أصبحوا باختلاط دمهم بسائر الأمم التى ساكنوها من قرون في غربى آسيا وجنوبى أوربا من فرس وعرب وكرج وروم وأرمن وبلغار أرناووط وبشناق « أمة قائمة بذاتها » قد ابتعدت كثيراً عن الترك الأصليين ولا سيما عن المغول وقد عرف الترك ـ دون المغول ـ بصباحة الوجوه وكرم الأخلاق ويزيدون على ذلك أن الثقافة التركية والأدب التركي العثماني هما خاصان بأتراك آل عثمان لأنهما مقتبسان من الآداب العربية والفارسية ولأن « لغة العرب » و « لغة الفرس » كانتا لغتى العلم والشعر عند الأتراك منذ هاجروا إلى غربى آسيا فلذلك قيل للغة الدولة : « اللغة العثمانية » لافتراقها كثيراً عن لهجة أتراك أواسط آســـيا — وبعض هذه الفئة تزعم أنه لا يوجد أدنى صلة نسب بين الترك العثمانيين والمغول وتميل إلى أن الترك هم أصلا من الجنس الأبيض الآرى ، وقد وصف بعض

مؤرخي الترك أعمال جنكيز خان وهولاكو وقومهما بمثل وصفهما به مؤرخوا العرب والفرس والافرنج ، ومما يمثل هذه المدرسة قول جلال نوري : « ان الترك العثمانيون هم مسلمون أولا وترك ثانياً » .

٢ ـ أما أصحاب نظرية « القومية التركية الطورانية » : فهم يخالفون هذه النظرية السابقة مخالفة تامة ويقولون : أن الترك أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً وأسبقها إلى الحضارة وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل ، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ومن دعاة هذه النظرية : ضيا كوك ألب وأحمد غايف ويوسف أقتشورا وجلال ساهر ويحيى كمال .

ولا شك كانت فكرة الوحدة الطورانية تتعارض كل المعارضة مع فكرة الوحدة العثمانية ، فالأولى تسعى وراء غاية تمجيد العنصر التركي وتأكيد القرابة القائمة بين الترك في الامبراطورية العثمانية وإخوانهم في الدم المقيمين في أواسط آسيا بالنسبة للعصر ، ومبدأهم منذ المغول بالنسبة التاريخ ، وقد انبثقت الدعوة الطورانية عن فكرة تقول أن نهضة الأمة التركية لا تتم إلا باتحادها مع الشعوب ذات الأصل الطوراني منها . أما دعوة الوحدة العثمانية فهي تسعى إلى توحيد العناصر المختلفة في المملكة وخلق أمة واحدة منها على أساس المساواة بين الجميع .

ويرى مؤلف يقظة العرب : أن خطأ الاتحاديين هو أنهم ساروا على سياسة مقتبسة استفادوها من عقائد الثورة الفرنسية ولكنهم حين أخذوها لم يلتفتوا إلى وجود فارق أساسي بين فرنسا كما كانت عام ١٧٨٩ والمملكة العثمانية عام ١٩٠٨ فلم يكن تمركز الادارة الجمهورية في باريس إلا إستمراراً لتدرج تاريخي . وهو تمركز منسجم مع القوى التي عملت خلال قرون عديدة على جعل باريس مركزاً ثقافياً واقتصادياً مما أدى إلى توحيد فرنسا سياسياً وإدارياً . أما في المملكة العثمانية فكان الوضع على النقيض ذلك تماماً . فان القوى التي ولدتها اليقظة القومية كانت تعمل باتجاه معاكس سائرة من المركز نحو الخارج . لأن المنابع التي تسق تلك القوى مازالت قائمة عن فوارق اللغة والعادات والأفكار .

ومع أن القسطنطينية كانت بوتقة لصهر تلك الفوارق إلا أنها لم تكن في حال من الأحوال مركزاً لوحدة فكرية . وكان وجود الأجناس المختلفة التي تتألف منها المملكة تتطلب حكما لا مركزياً يمنح العرب وغيرهم من أبناء الولايات غير التركية قدراً وافراً من الحكم الذاتي والحرية لمتابعة أمورهم السياسي والفكري كأعضاء مستقلين إستقلالاً ذاتياً ضمن الامبراطورية .

والواقع أن الاتحاديين لم يستطيعوا أن يصهروا وحدة فكرية مع أقرب الناس إليهم وهم العرب . نظراً للثنائية التي كانوا يعيشون في ظلها حيث أن جماعة منهم تؤيد الوحدة العثمانية والأخرى تؤيد الجامعة الطورانية .

وقد كانت هناك دعوة سنة ١٩٠٩ باسم الجمعية القحطانية : تحاول أن توفق بين العرب والترك ، وترمي إلى تحويل المملكة العثمانية إلى مملكة ذات تاج مزدوج ، ويكون الأجزاء العربية أن تشكل مملكة واحدة ذات برلمان خاص بها وإدارة محلية وتكون العربية لغة مؤسساتها وتكون هذه المملكة جزءاً من « امبراطورية تركية عربية » تشبه في تكوينها امبراطورية النمسا والمجر .

هذه صورة التحول الدقيق التي تم خلال (١٩٠٨ – ١٩١٦) بين تركيا الخلافة العثمانية الإسلامية ذات الوحدة بين العرب والترك وقائدة المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي بالجامعة الإسلامية وبين تركيا التي بدأت بحركة الاتحاديين إلى مصطفى كمال أتاتورك .

وكان هذا هو التحول الخطير في العالم الإسلامي كله من رابطة الإسلام إلى رابطة اللغات والأجناس تأثراً بالحركات القومية في أوربا . إتجاهاً طبيعياً لم يكن من اليسير إيقافه أو معارضته بعد الاضطراب الذي بلغته الدولة العثمانية بأجناسها المتعددة ، وفي ظل ضعفها ، وفي مواجهة الضغط الغربي الهائل الذي كان يرمي إلى القضاء عليها وتقسيمها ، وكانت تتخذ إلى ذلك تيارات داخلية تحمل طابع دعوات ، تتحول إلى حركات .

وقد أشفق كثير من المفكرين من تقبل هذا الاتجاه ، أو الرضى به وكان مفهومهم أن الوحدة العربية العثمانية مهما كانت ضعيفة أو مضطربة فهي لا شك تمثل جبهة مقاومة في وجه النفوذ الأجنبي الواحف بشدة .

غير أن التطور الطبيعي وتطرد الأحداث القائمة على نواميس لا تتغير كانت تتجه إلى الترابط القوي كوسيلة جديدة لليقظة والحركة والتقدم بعد مرحلة طويلة من التخلف والجمود . وكانت اليقظة تلتمس طريق الفكر وطريق المجتمع معاً وكان هذا هو المضطرب الخطير بين القيم الأساسية للمسلمين والعرب وبين القيم الوافدة والمفروضة في ظل النفوذ الاستعماري الواحف بفكره وحضارته ، وهذا الصراع الذي تحرك بقوة في فترة ما بين الحربين .

• • •

ويمكن القول أن الاتجاه الذي بدأه المتنورون العثمانيون نحو الغرب بدء قبل تقديم مدحت الدستور عام ١٨٧٦ بسنوات وأنه كان منذ أسس مصطفى فاضل حزب تركيا الفتاة عام ١٨٦٥ حين وجه خطابه الجريء المشهور إلى السلطان عبد العزيز ، وأن هذا الحزب قد حمل لواء اليقظة الأدبية التركية وكان أبرز شعرائه نامق كمال

وقد استمد مفاهيمه ودعوته من الفكر الإسلامي المتجدد في أوربا باسم الحرية والعدالة ، ثم كان للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ أثرها في تعميق هذا الاتجاه . الذي قام على تمجيد الجنس التركي

وهو ما تبلور من بعد في مفهوم الجامعة الطورانية . ويرى المؤرخون : أن تركيا الفتاة حزب يدخل كل عثماني اتقم على النظام القديم بدون ترابط أو توافق لعهود أو شروط .

وقد انبثقت منه جمعية الاتحاد والترقي عام ١٨٩٤ تقريباً وقد اتخذ دعاة الجمعية طرقاً شبيهة بالطرق الماسونية وقد جعلوا مقرهم في سلانيك وحلوا خارج الدولة في باريس ولندن .

لا شك قامت بين جمعية الاتحاد والترقي وحزب تركيا الفتاة علاقة شديدة لأنها تألفت أساساً من أعضائه فكل عضو من أعضائها عثماني حر أي من حزب تركيا الفتاة ومن كل عثماني في جمعية الاتحاد والترقي .

ويرى « لوثروب ستودارد » أن هذه الدعوة الطورانية نزعة عاطفية أكثر منها حقيقة علمية ، ويجب أن أقول أن القومية التركية ليست في الواقع سوى تقليد القومية الغربية في كثير من وجوهها وأن الدافع الحقيق لنشأة القومية التركية هو إحساس هذه الفئة المثقفة بأن القومية ستكون رباطاً يجمع ما تبقى من أوصال مفككة الامبراطورية التركية التي لم يكن لها أمل في أن تعيش إلا إذا أخذت بأساليب الحكم والادارة الأوربية » .

وهكذا يمكن القول أن هذا التيار قد شق طريقه منذ عام ١٨٦٥ حتى تبلور عام ١٩٠٨ في نظام حكم وفي عام ١٩٢٤ في الانقلاب الكمالي وأنه كله كان إمتداداً طبيعياً للمدرسة الغربية التي كانت تعلن بأن الطريق الوحيد للدولة العثمانية في مواجهة التخلف والضعف ومرحلة الجمود لن يتحقق إلا ببلوغ نهاية الطرف الآخر من الاتصال بالحضارة والفكر الأوربي — إنتقالا من مفهوم الوحدة الاسلامية إلى القومية الطورانية المتعصبة الأجناس ومن الفكر الاسلامي إلى الفكر الغربي ومن اللغة ذات الحروف العربية إلى اللغة ذات الحروف اللاتينية .

• • •

الفصل التاسع

المنحنى الخطير

بين الوحدة الإسلامية والدعوة الطورانية وبين القيم الإسلامية والقيم الغربية

تآمرت أوربا على الدولة العثمانية فترة طويلة تزيد عن ثلاثة قرون، واصطنعت لذلك كل وسائل الحرب والسياسة والاقتصاد وكانت أكثر الخطط فاعلية هي خطة التغريب والتحويل الفكري وقد جرى هذا مع اتجاه قام أساساً في الدولة العثمانية بين المثقفين والضباط الذين اتصلوا بأوربا وبعثوا إليها، فقد دفعهم الإحساس بالفارق البعيد بين الشرق والغرب في مختلف جوانب الثقافة والمجتمع والحضارة إلى الاعتقاد بأن الخطة الوحيدة الناجحة في تجديد الدولة العثمانية وبعثها هو التماس الحضارة الغربية .

وقد انقسموا في هذا الاتجاه إلى فريقين : فريق معتدل رأى الإبقاء على الأسس الأصلية للفكر الإسلامي والقيم والمفاهيم مع تقبل الحضارة واصطناع الأساليب الغربية في الحياة، وفريق متطرف دعا إلى خلع الجلد الإسلامي الشرقي كلية، وقد عزز التغريب دعوة هذا الفريق وآزرها ودفعها إلى الأمام بقوة حتى تحقق ذلك بعد الحرب العالمية الأولى في حركة الانقلاب التي قادها مصطفى كمال أتاتورك .

ولكن لما كانت هذه التجربة الخطيرة متصلة أوثق اتصال بالفكر العربي الإسلامي في هذه المرحلة وكانت لها آثارها البعيدة المدى فيه، فقد كان من الضروري تعمق هذا التحول الخطير، والمعتقد أن حركة اليقظة العثمانية، كانت تسير في أول الأمر في طريق التطور الطبيعي على قواعدها الأساسية من مقومات الفكر الاسلامي، غير أن (التغريب) وهو رسول النفوذ الأجنبي وأداته في ميدان الفكر والمجتمع فقد كان حريصاً على القضاء على حركة اليقظة الطبيعية لأنها سوف تعيد إلى تركيا قوتها وسوف تحقق خطوة إيجابية يتم بها قيام النهضة على أساس إسلامي عربي، تحفظ الوحدة الجامعة بين العرب والترك وتدفعها إلى الأمام .

أما والاستعمار يهدف أساساً إلى القضاء على تركيا كقوة ووحدة، ويعمل على تمزيق الوحدة بين العرب والترك ثانياً، ثم يهدف إلى التهام الأقطار العربية واحداً واحداً، وبذلك يقضي على الوحدة والقوة والكيان، ثم يقضي بعد ذلك على القيم الأساسية الممثلة في الفكر الاسلامي بعنوانه

أداة اليقظة، ولتفتيت العرب أنفسهم بحسبانهم مصدر اليقظة العربية الاسلامية الجديدة، فمن هنا كان عمل دعاة التغريب .

ودعاة التغريب في تركيا يتمثلون في (الدونمة) الذين يقطنون سالونيك وهم مجموعة ضخمة من اليهود الذين هاجروا من الأندلس بعد استرداد الأسبان لها . وفدوا على تركيا خلال حكم السلطان أبا يزيد الثاني ١٤٦١ — ١٥١٢ حيث رحب بهم هذا السلطان لأنهم يجلبون معهم ثروات مالية ، ومن هنا قويت الجالية اليهودية في تركيا وظهر من بينهم مستنبىء يهودى إسمه (شبتاى) ذهب إلى بيت المقدس والتف حوله اليهود وأعلن أن الأوان قد حان لعودة إسرائيل ، ثم جىء به عام ١٦٦٦ إلى استانبول حيث أسلم وأسلم معه جماعة كبيرة عرفت باسم (الدونمة) أى الذين تحولوا عن اليهودية ودخلوا إلى الاسلام .

وقد سجل التاريخ الحديث أن اليهود الذين هاجروا إلى تركيا قد دخل كثير منهم في الاسلام لتحقيق غاياتهم ومآربهم وقد استغل هؤلاء اليهود (الدونمة) النزعات التركية الحديثة فدخلوا بين أعضاء الجمعيات المختلفة، وقد اشتد نفوذ اليهود خلال حكم السلطان عبد الحميد وأخذوا يسعون ليسمح لهم بالهجرة إلى فلسطين، وقد طالب (قره صو) نائب سالونيك اليهودى مقابلة السلطان عبد الحميد نائباً عن اليهود ـ وذلك على أثر الخطوة التى خطاها (هرتزل) عام ١٨٩٧ بالدعوة إلى الدولة اليهودية في مؤتمر بال ، وقد عرض (قره صو) مبلغ خمسين مليوناً من الجنيهات الذهبية لخزينة الدولة وخمسة ملايين لخزانة السلطان . وقد رده السلطان عبد الحميد رداً عنيفاً ، وكان مما قاله : إنى لا أقبل أن يقتطع من هذه البلاد شبراً واحداً طالما حييت .

ثم كان هذا النائب اليهودى واحداً من اللجنة الخماسية التى أوفدها البرلمان إلى السلطان لتبليغه قرار خلعه عام ١٩٠٩ .

وقد تغلغل حزب الدونمة خلال حكم عبد الحميد ورشاد ووحيد الدين في المناصب واستغل التيارات الداعية إلى الاصلاح وبث سمومه .

وقد أشار إلى ذلك شكيب أرسلان حين قال : إن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الادراك أن (تركيا الفتاة) تدير دفة سفينتها عصبة من الجحدة الغربيين فانهم ليس من المسلمين إلا إسماً ، بل هم من زنادقة اليهود ، ففى سالونيك طائفة يقال لها الدونمة أى العائدون المنقلبون ، أصلهم يهود من مهاجرى أسبانيا ، أسلموا منذ نحو أربعمائة سنة إسلاماً مشوباً ببعض عقائدهم الأصلية . ولما كانوا المثل البعيد في الحصافة والذكاء والقيام بالأمور المالية بنوع خاص ، كان الدور الذى يمثلونه في الهيئة الاجتماعية التركية أعظم جداً مما يستحقه عددهم . وكان أثرهم في حركة الانقلابات الدستورى مهماً . فكان منهم أناس يعدون أركاناً في جمعية الاتحاد والترقى .

ويقول الكاتب الغربي (بهن هايس) : الدونما كثيرون ، منهم مدحت باشا حاكم ولاية الدانوب الذي كان ابن حاخام اليهود هنغاري ، وهو الذي أنشأ المدارس اليهودية في الشرق الأدنى ، وكان قادة حزب الاتحاد والترقي من الدونمة ، وكذلك مصطفى كمال ، والدكتور ناظم ، وفوزي ، وطلعت ، وادوم افندي ، وغيرهم .

وقد امتد سلطان الدونمة من بعد حتى حقق هدفه . ويقول أسامة عيناى : إن الدونمة يعتزون كثيراً بأتاتورك ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه منهم ، وحجتهم في ذلك أن أتاتورك أسفر عن نياته ضد الإسلام حين تولى الحكم .

• • •

ويرتبط بهذا النشاط ارتباطاً وثيقاً بأهداف الحركة الماسونية في البلاد العثمانية ، وقد جاء في كتاب (الماسونية في البلاد العثمانية) ما يأتي بالنص : « نحن العثمانيون مدينون الماسونية أكبر دين لأنها هي التي بثت في نفوس أعضاء (جمعية الاتحاد والترقي) روح الحرية . وبها - أي الماسونية - اقتدروا في إنشاء جمعيتهم التي فككت قيود الاستبداد . وقد اهتم جماعة من الماسون المصريين بإنشاء تذكار لذلك ، فأنشأوا محفلا جديداً في القاهرة سموه محفل نيازي باسم بطل الحرية العثماني .

وقال المؤلف : « أني بحلو بك بالتركية على الحكومة الاتحادية والأمة الانجليزية لأنها ساعدتا العثمانيين في هذا الانقلاب المبارك الذي قوض أساس الاستبداد ووطد أركان الحرية في الممالك العثمانية . وقال صريحاً : إن الماسونية كانت المحرك الأول والمرشد الأكبر لجمعية الاتحاد والترقي » .

والمعروف أن مدينة سالونيك كان بها من المحافل الماسونية خمس محافل تضم ٥٠ ألف يهودي ، وكان لها اتصالها بجمعية الاتحاد والترقي وتأثيرها فيها بأنظمتها وقادتها .

وقد أشار كثير من المؤرخين إلى استفحال النفوذ اليهودي في الدولة العثمانية بين عام عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٤ ، وكان هذا النفوذ قد بدأ منذ أواخر سني عبد الحميد داخل جمعية تركيا الفتاة السرية وهو النشاط وصف بأنه صهيوني سري ، وأنه كان قوياً ولكنه كان خفيا ، وكذلك في فلسطين إذ بدأ نشاطهم على نطاق واسع في شراء الأراضي ، وأنهم في الفترة ما بين عام ١٩٠٨ (إعلان الدستور العثماني) إلى صيف ١٩١٤ (الحرب العامة) تمكنوا من استمالة عدد من كبار الساسة الأتراك المسلمين الذين يرجعون بأصولهم الدموية إلى اليهود الذين أخرجوا من أسبانيا آخر القرن الخامس عشر وعرفوا باسم الدوامة » .

ومن أبرز المفكرين والدعاة الاتحاديين : ضيا كوك ألب — والميديه أحمد أغايف ويوسف أقجوره ، وهم جميعاً من الدونمة الذين يقيمون في سالونيك . أما أحمد غايف فهو روسي متجنس بالجنسية التركية ، وأما يوسف أقجورة فهو روسي درس في روسيا ، وفي ظلهم نشطت بعثات التبشير ودعوات الانفصال ، وبدأ اضطهاد العرب ودفعهم إلى الانفصال والتسليم بطرابلس الغرب لإيطاليا ، وقد رفضوا — بعد أن أصبح العرب أغلبية في الدولة — بعد حرب البلقان ضم عربي واحد إلى الوزارة مع ضم الاثنة من اليهود ، وظلت الصحف لا تكف عن التشهير بالعرب وكان الذكاء الاستعماري والنفوذ الأجنبي وراء كل هذه الخطوات ، فقد رفض الاتحاديون كل يد امتدت إليهم من العرب وواصلوا عملهم في تسليم البلاد العربية للاحتلال الأوربي ، وكان النفوذ الاستعماري قادراً على تأليب الترك على العرب والعرب على الترك .

صدام العربية والطورانية

في ظل المنحنى الخطير الذي مرت به تركيا ظهر التفاضل والاضطراب في الفكر الاسلامي العربي بين الدين والحضارة ، وبين الأتراك والعرب ، وبين القومية والاسلام ، فقد استجمعت المدرسة ذات الطابع التجديدي المتطرف أو الطابع الغربي الخالص . سواء أكان هذا الاتجاه صادراً عن إيمان بأنه السبيل الوحيد للتقدم بصرف النظر عن الاسلام والمقومات التي عاش عليها العرب والمسلمون من الفكر العربي الاسلامي ، أم بدافع من ضغوط داخلية وخارجية تتمثل في النفوذ الغربي ، وأداته في الداخل ممثلا في قوى الدونمة من ناحية وقوى أصحاب الأقلام من الصحفيين الطامعين من الموارنة وغيرهم المندفعين وراء النفوذ الأجنبي وأداته إلى تقليص ظل الوحدة العربية التركية ، أو القضاء على الدولة العثمانية بحسبان أنه قضاء على نفوذ الاسلام أو الفكر العربي الاسلامي أو اللغة العربية أو غيرها .

وإذا كان (الدونمة) قد قادوا حركة التغريب وعمقوا الاتجاهات الأولى التي بدأها كتاب تركيا وكانت متصلة نوعاً بالأرضية الفكرية الاسلامية — فدفعوها إلى التطرف وإلى التماس مصدر واحد للنهضة هو الغرب : حضارته وثقافته دون تفرقة في الاقتباس والنقل بين الحضارة والثقافة ، بل لقد بلغ الأمر إلى الدعوة بأنه لا بد من اقتباسهما جميعاً .

وإذا كان الدونمة قاموا بهذا الدور في تركيا فإن أصحاب الأقلام الطامعين من الموارنة وغيرهم قد حملوا لواء مثل هذا الدور في الوطن العربي (الشام ومصر) تؤازرهم ركيزة أساسية ضخمة هي معاهد المرسلين الكبرى في بيروت (الأمريكية والفرنسية) وفي مصر أيضاً ، وهذه جميعها قد بدأت تعمل منذ عام ١٨٦٠ تقريباً وتحمل لواء الدعوة إلى الاتجاه ناحية الغرب بوسائل شتى في مقدمتها المناهج

الدراسية التى كانت تملى بشأن أبطال الغرب وتاريخهم وتصور حضارتهم بصورة باهرة ، بينما تعرض لتاريخ العرب والمسلمين فى تحقير شديد مع إثارة الشكوك حوله والشبهات ، وبهذا يمكن أن يقال إن للمدرسة الغربية المتطرفة التى حماها النفوذ الغربى — إن لم يكن قد خلقها أساساً — قد استطاعت أن تسيطر فى مجالات ثلاث :

١ — المدرسة الإرسالية .

٢ — الصحافة .

٣ — الجمعيات والأحزاب والهيئات الثقافية وغيرها .

قد استطاعت هذه المدرسة أن تنمو وتقوى فى هذه المرحلة وخاصة بعد إعلان الدستور العثمانى عام ١٩٠٨ حتى استطاعت بعد الحرب العالمية الأولى أن تحقق أهدافها كاملة .

أما فى هذه المرحلة فقد بدأ ذلك العمل الخطير ، مؤثراً فى مدرسة اليقظة والتجديد والإصلاح التى سارت فى طريقها وحاولت أن تعمق مجراها ، وقد بلغ هذا التأثير حداً بالغاً سيطر على هذه الحركة عندما أعلن دعاته أنهم خلفاء الشيخ محمد عبده ، وسجل ذلك كرومر فى تقاريره حين قال : إن مدرسة الجريدة التى أنشأها لطفى السيد هى من خلفاء محمد عبده ، ولم يكن هذا فى الحق صحيحاً ولا صادقاً .

* * *

تمزق الرابطة بين العرب والترك

كان العمل الذى قام به الاتحاديون بالدعوة إلى الجامعة الطورانية عاملا هاماً فى تمزيق الوحدة بين العرب والترك وحلول الصراع بينهما بدلا من الاتحاد ، وبلوغ هذا الصراع ذروته فى انضمام العرب إلى فرنسا وانجلترا (خلال الحرب) فى مواجهة انضمام تركيا إلى ألمانيا ، ووقوع الحرب بين العرب والترك فى المنطقة ما بين قلب الجزيرة العربية إلى حدود الشام الشمالية وانتهاء ذلك إلى نتيجة خطيرة : هى إقامة دولة تركية خالصة ، وتمزيق الجزء العربى من الدولة العثمانية وتقسيمه بين فرنسا وانجلترا وإعلان تصريح بلفور بإقامة دولة صهيونية فى قلب الوطن العربى .

وقد تحقق بذلك عام ١٩١٨ ما كانت تتطلع إليه أوربا منذ أجيال وقرون وهو القضاء على الدولة العثمانية باعتبارها وحدة جامعة ذات طابع إسلامى تجمع العرب والترك ، وهكذا

سقوط أجزاء الوطن العربي نهائياً تحت الاستعمار الغربي وإقامة حاجز بشري يفصل بين أفريقيا وآسيا .

ولكن الصراع بين العرب والترك قد قام أساساً في ظل تقلص النفوذ العثماني وضعفه ، وفي ظل التسلط الذي قام به الاتحاديون للقضاء على العرب وتتريكهم ومحاولة صهرهم في بوتقة دعوتهم (الجامعة الطورانية) وهو ما كان مستحيلاً أصلاً نظراً لصلابة الكيان العربي وعجز القوى المختلفة عن صهره . وكان المثقفون الأتراك قد تطلعوا إلى الإصلاح والنهضة ، حين حاولوا التماس منهجاً لليقظة كما تطلع العرب ، غير أن عوامل متعددة دفعتهم إلى التماس منهج يغلب عليه الاقتباس الغربي ، وكان ذلك طبيعياً فلم يكن ممكناً كما حدث في المحيط العربي أن يبدأ الإصلاح بالتوحيد والنظر في العقيدة وتحريرها من قيود التقليد ، فقد ارتبطت في نفوسهم عوامل النقمة التي كانت تملأ نفوس المثقفين من ضعف الخلافة واضطرابها بكل ما يتصل بالدين والإسلام وما ارتبط به من مفاهيم سياسية حتى عزى - بالباطل - كل ما أصاب تركيا من جمود إلى الإسلام والخلافة والدين .

والواقع أن هذا المفهوم كان خاطئاً أساساً نتيجة حملات التشكيك التي أثارها دعاة التغريب وربطوا بها بين تخلف الدولة العثمانية وبين الاسلام ، ولقد حاول كثير من المصلحين تصحيح هذا المفهوم ورده إلى الحقيقة التي تقول إن تخلف تركيا والعالم الاسلامي كله إنما يرجع إلى انفصالها عن مفاهيم الاسلام وقيمه ، غير أنه لم يكن في الإمكان الوقوف في وجه حملة ضخمة يقودها الغرب أساساً على الدولة العثمانية والاسلام والخلافة ، يستهدف منها تصفية هذه الوحدة وهذه المقومات في سبيل بسط نفوذه على بقية أجزاء الوطن العربي والقضاء نهائياً على طابع هذه الدولة التي أثارت المتاعب والمخاوف في أوربا أكثر من خمسة قرون .

ولذلك فقد دفع المصلحون والمثقفون في الدعوة إلى القومية التركية الخالصة والاتجاه إلى الحضارة الغربية مع مد النفوذ الغربي ، بينما كان في الإمكان أن يجرى التجدد والاصلاح على سنة التطور مع تماسك القيم والمفاهيم الأساسية المستمدة من الاسلام والفكر الاسلامي لبناء مجتمع جديد وحضارة جديدة ، غير أن ضغط النفوذ الأجنبي وحركة التغريب كان قوياً وفعالاً وهادفاً إلى فصل حركة النهضة عن قاعدتها أساساً . وهذا هو ما تحقق بعد الحرب العالمية الأولى بالانقلاب الكمالي .

وأول ما ينظر إليه في هذا الأمر هو أن ضغط قوى الجبرية الصوفية ممثلة في الطرق الصوفية كان قد أفسد مفهوم الاسلام إفساداً كبيراً بالإضافة إلى جمود الفقهاء وضعف الأمراء وانعزالهم عن التطور الحضاري الضخم .

وقد نسب المثقفون الأتراك كل عوامل الضعف والتخلف إلى الاسلام بغير حق ، والمكن تياراً

عميقاً ضخماً خاضت لواءه حركة التغريب عاش عمراً طويلا — وما يزال حتى اليوم — كان يعتبر أن الدولة العثمانية هي الإسلام ، وأن الجمود والتخلف خلال مرحلة الضعف التي مر بها العالم الإسلامي وكانت من نتيجتها (الاحتلال الغربي) إنما كان مصدرها الإسلام لا الدولة العثمانية ، الإسلام بمفاهيمه ومقوماته .

وكانت دعاة التجديد والطورانية في تركيا يمسكون بهذا الخيط المضلل الواهي وينطلقون منه في التطلع إلى تقبل الحضارة الغربية والفكر الغربي كاملا — بحسبانه السبيل الوحيد إلى استنقاذهم من الضعف والتخلف .

وكان أسوأ ما فعله الاتحاديون في دعوتهم إلى الطورانية والاتجاه إلى الغرب هو (تتريك العرب) ومحاولة القضاء عليهم كأمة وقوة وثقافة ، والمغالاة في إعلاء النعرة الطورانية قضاء على الوحدة ودفعاً للعرب على الانتقاص ، بل وتمزيق العرب إلى مذاهب وطوائف .

والمعتقد أن النفوذ الاستعماري بالاشتراك مع حركة التغريب قد دفع بقواه دفعاً إلى تمزيق الكيان الموحد : بدعوة ترك وعرب في الشام ، ومصر المصريين في مصر . وكما عمد الاتحاديون إلى خطة مرتبة في سبيل دفع العرب إلى الانفصال ، إذ أصبح العرب هم الأغلبية في الدولة بعد أن انفصل البلقان ، فقد أثاروا عليهم الصحف التركية ، تحمل على اللغة العربية وتاريخ العرب من ناحية ، ودفعوا رجالهم في سوريا (جمال السفاح) إلى خطة خطيرة حيث بدأ أولا في محاباة العرب وخداعهم بهدف إحصاء خطواتهم والتماس أعماق أهدافهم ومخططاتهم ، ثم أخذ يكشف عن الوجه الحقيقي في خطابه الذي ألقاه في حفلة الشبيبة العربية حين قال :

« إن حركة الجامعة التركية التي شهدتموها في الآستانة وفي الجهات الأخرى الآهلة بالعناصر التركية لا تتضارب بشكل ما والمطامع العربية ، إن الامبراطورية العثمانية وجدت فيها حركات بلغارية ويونانية وأرمنية ، والآن توجد حركة عربية ، لقد نسي الأتراك وجودهم بالمرة إلى حد أنهم يخشون ذكر شعبهم ، فالروح الوطني رقد رقوداً تاماً ، حتى لقد خيف على الشعب التركي أن يتلاشى نهائياً ، فدرءاً لهذا الخطر المقبل نهض رجال تركيا الحاضرة بغيرة تستحق الإعجاب فلجأوا إلى السلاح لتعليم الأتراك الروح الوطني وما يضمه من الفضائل » .

وقد كان هذا بالحق تمويهاً قصد به خداع العرب في سبيل القضاء على كيانهم بالتتريك وإعلاء الطورانيـة .

وقد امتدت هذه الحركة إلى البلاد العربية في صورة المدرسة والمحكمة وظهرها بفرض اللغة التركية على مناهج التعليم وعلى أحكام المحاكم وإدارات الحكومة .

ثم أخذت الدعوة طابعاً شاملا يستهدف القضاء على اللغة العربية وعلى كيان الأمة العربية وتتريكها، فكان هذا عاملا هاماً دفع العرب إلى رد الفعل بالدعوة إلى النظام اللامركزية، أو قيام الدولتين العربية والتركية تحت السلطان التركي، غير أن الاتحاديين قد واجهوا هذه التطلعات المتواضعة بعنف واعتقلوا كل المتنورين العرب وقادة الفكر فيهم وعلقوا لهم المشانق، وبذلك قضوا على قيادة الحركة مما دفع العرب إلى الوقوف موقفاً مضاداً للدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وتقبل دعوة الحلفاء (فرنسا وبريطانيا) في مناقشة فكرة قيام دولة عربية منفصلة عن الأتراك، وهو المخطط الذي جرى الاتفاق عليه بين العرب وبريطانيا على أساس أن يقوم العرب بمظاهرة الحلفاء في الحرب ضد تركيا وألمانيا.

وقد كسب النفوذ الغربي من هذا الموقف كسباً غير محدود لحقق القضاء على دولة الخلافة بوصفها الخطر القديم، والقضاء على الأمة العربية بوصفها القوة الجديدة الشابة التي تحمل لواء اليقظة.

غير أن تمزق الرابطة بين العرب والترك لم يكن هو كل شيء وإنما اتخذ منه تيار خطر لخدمة النفوذ الاستعماري وحوله إلى خلاف فكري أيدولوجي ضخم هو: (الخلاف بين العروبة والإسلام).

الفصل العاشر

تغريب اليقظة العربية

قبل أن أصل إلى قضية « العروبة والإسلامية » علينا أن نستعرض حركة اليقظة العربية فقد مرت هذه الحركة في مرحلتين :

الأولى : مرحلة الدعوة إلى تحرير الفكر ،

الثانية : مرحلة الدعوة إلى القومية عن طريق اللسان والأمة .

أما الدعوة إلى تحرير الفكر فقد بدأت منذ دعا الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوة التوحيد وسارت في طريقها للتوسع وتعمق على أيدى الدعاة والمصلحين : رفاعة ، خير الدين التونسي ، السنوسي ، الألوسي ، جمال الدين ، محمد عبده ، الكواكبي .

أما الدعوة إلى القومية عن طريق اللسان والأمة ، فإن ذلك أمر قد بدأ مواكبا للحركة الأولى على نحو من الاتحاد بحسبان أن تحرر الفكر يستتبع تحرر الأوطان من أى نفوذ أو سلطان سياسى وتحرير اللغة من نفوذ أى لغة أخرى عليها . ومن هنا فقد كان مفهوم حركة اليقظة أساساً أن العرب بوصفهم أمة ، حملت رسالة الإسلام . ونزل فيها القرآن باللغة العربية مـن شأنهم أن يحملوا لواء اليقظة .

غير أن النفوذ الاستعمارى الغربى كان ينظر فى توجس وخيفة إلى حركة اليقظة بحسبان أنها عامل إيجابى سيحول دون سيطرته واحتلاله لأجزاء العالم العربى ، ومن هنا كان ضغطه من ناحيتين :

أولا : من ناحية الحملة العنيفة على الوهابية والسنوسية وعلى دعوات جمال الدين ومحمد عبده والكواكبي .

ثانياً : من ناحية تحويل مفهوم اليقظة إلى صراع بين العرب والترك وبين المصريين والعرب وبين المسلمين والمسيحيين وهكذا .

ومن هنا كانت « خطة التغريب » مركزة على مدارس الإرساليات :

ولذلك فإن جورج انطونيوس يحاول ان يجعل الجامعة الأمريكية فى بيروت هى مسقط رأس

دعوة القومية العربية حين يرى في كتابه « يقظة العرب » أن الكلية السورية البروتستانتية في بيروت أنشئت عام ١٨٦٦ ، وذلك على أثر سماح إبراهيم باشا في بلاد الشام (١٨٤٧ — ١٨٦٨) للجمعيات التبشيرية الأوربية بالعمل، وبذلك انفسح الطريق أمام فريقين : إحداهما فرنسية والأخرى أمريكية أصبحتا فيما بينهما الراعيتين للبعث العربي (على حد قوله) وقد كان تركيز المبشرين على الشام في تأسيس المدارس في بيروت وبيت المقدس وجبل لبنان .

يقول جورج أنطونيوس : نستطيع أن نثبت هنا أن أول صوت أرسلته حركة العرب القومية كان في جلسة سرية عقدها بعض أعضاء الجمعية العلمية السورية التي أنشأها اليسوعيون (حيث) اقدم البستاني واليازجي إلى الإرسالية الامريكية باقتراح يستهدف تأسيس جمعية علمية وذلك في بدء اشتراكهما في العمل في تلك الإرسالية وتشكلت جمعية الفنون والعلوم في عام ١٨٥٧ بعد أن انحلت (الجمعية الشرقية) وكان إبراهيم اليازجي قد نظم قصيدة يجد فيها الفكرة الوطنية ويدعو العرب إلى التمرد ، كما يتغنى بمآثر العرب وأمجاد الأدب العربي .

ويقول جورج أنطونيوس : إن كلا من انجلترا وفرنسا كانت تتخذ من المنافسة القائمة بينهما ذريعة للتدخل في أمور لبنان بصورة متزايدة حتى تجلت هذه المنافسة في انحياز الفرنسيين نحو الموارنة رغم أكثرية السكان النصارى بينما انحاز الانجليز نحو الدروز فوقعت الاضطرابات

ويذهب جورج انطونيوس إلى أن حركة العرب القومية قامت عام ١٨٧٥ بقيام خمس شبان من الذين تلقوا العلم في الكلية السورية البروتستانتية في بيروت بتشكيل جمعية سرية قبل تولي عبد الحميد بسنتين وكانوا جميعاً من النصارى ، وكانت الماسونية كما عرفها أوربا قد دخلت بلاد الشام منذ عهد قريب فتمكن القائمون على الجمعية السرية من حمل المحفل الذي أنشىء حديثا على الاهتمام بعملها وذلك بتوسط أحد الأعضاء ، وكانت بيروت مركز هذه المنظمة وأنشئت فروع لها في دمشق وطرابلس الشام وصيدا ، وكانت أهداف القائمة بالحركة ترمي بصراحة إلى الثورة ، وقد حصروا نشاطهم في الاجتماعات السرية ، وكانوا يذيعون أفكارهم بالاتصال الشخصي ، وبعد أن استمرت مؤامراتهم الواسعة ثلاث سنوات أو أربعا عزموا على توسيع النطاق بلصق المنشورات المجهولة المصدر في الشوارع وأخذ الناس يتحدثون عما عن الموضوعات التي أثارتها تلك النشرات وكانت النشرات تهاجم مساوىء الحكم التركي بشدة وتحث الشعب على الثورة ، وانتشرت شبهة تقول بأن حاكم الشام وهو مدحت باشا الصدر الأعظم ومنشىء دستور ١٨٧٦ كان على علم بسر وجود الجمعية وأنه إن لم يكن مؤسسها فهو حاميها وكان الدكتور فارس نمر (صاحب المقطم من بعد) أحد أعضائها المؤسسين ، وقد نقل جورج انطونيوس هذه المعلومات عنه .

ويقول جورج انطونيوس في موضع آخر من كتابه « يقظة العرب » مهما يكن من أمر فإن دعوة الجمعية كانت بمثابة النداء الاول الذي بعثته حركة العرب وهي ما تزال في طفولتها كما أن الجمعية نفسها كانت أول هيئة تتشكل وهدفها الاول سياسي « ا . هـ .

وهكذا تكشف نصوص جورج أنطونيوس الدقيقة البذرة الأولى للتحول من خط اليقظة بعموله وتكامله ومفهومه إلى خطة التمزق بين الإسلام والعروبة ، والإيقاع بين الجامعة الإسلامية والتخالف بين العروبة القومية والإقليمية المصرية وبين الجامعة العربية والجامعة الطورانية ويصور كيف أن هذا المخطط قد رسم فى ظروف معينة وبأيدى معينة وأنه وجه وجهة معينة .

وإذاً فقد كان للإرساليات التبشيرية دورها فى التأثير الخطير على الفكر العربي وفى زلزلة قوائمه وضرب حركة اليقظة السائرة فى طريقها . بحركة أخرى تحمل مفاهيم تختلف أساساً عن القيم الأساسية للفكر الإسلامى والثقافة العربية .

غير أن هذه الحركة الجديدة لم تلبث أن فرضت نفسها فى مواجهة التحديات الخطيرة التى قام بها الاتحاديون ضد العرب واللغة العربية فأصبحت قوة عربية لها وزنها واتجاهها نحو تحرير العرب .

وهنا أخذت الإرساليات التبشيرية التى كان لها دورها الأول فى خلق هذه الحركة إلى العمل على حربها والانقضاض عليها بعد أن أصبحت عاملا خطراً على النفوذ الغربى وقوة فعالة فى وجه الاستعمار الزاحف للسيطرة على المنطقة ، ويرى جورج أنطونيوس أن انتشار التعليم الغربي لم يلبث أن بدأ يحل محل التعليم بالعربية كعامل من العوامل المضعفة للحركة العربية ، ذلك (أن بعض البعثات كانت أداة مسخرة لتحقيق الأطماع السياسية جلبت معها إلى نقمة التعليم نقمة التناحر الدولى ، فالمؤسسات لم تعد منحصرة بين الفرنسيين والأمريكان ، فإن البعثات الروسية والإيطالية والألمانية أخذت تؤم البلاد ، وكانت الحكومة الفرنسية تمد البعثات الدينية الفرنسية بالمال رغبة فى تقوية نفوذها فتساوت هذه البعثات مع الموارنة وطائفة النصارى الملكيين . وعملت على إعطاء النشء الجديد نوعاً من التعليم هو جيد فى حد ذاته ، ولكنه يستهدف صب أفكار التلاميذ فى قالب فرنسى وتوجيه أذهانهم وولائهم الفكرى نحو فرنسا .

أما الروس فكانوا يرمون سراً إلى الغاية نفسها بواسطة بعثة دينية وجمعية تعليمية غنية ، وقد أخذوا ينمون صلاتهم بالعرب الأرثوذكس وبطاركة أنطاكية وبيت المقدس الأرثوذكسيين ، وبريطانيا أخذت تؤيد الدروز وتشجعهم بواسطة ممثليها القنصليين على الاعتقاد بأنها تتولى حمايتهم سياسياً ، وذلك فى سبيل حفظ التوازن بينهم وبين النصارى الخاضعين لنفوذ فرنسا وروسيا ، أما الأمريكان فقد حصروا نشاطهم فى حقل التعليم والتبشير ، وقد أدى هذا إلى خلق طائفة جديدة هى الكنيسة السورية البروتستانتية التى ضمت بعض العناصر الممتازة بتنورها فى البلاد ، فقد أضافت مصدراً جديداً من عناصر التنافر فزادت الخلافات القائمة وساهمت المدارس الألمانية والإيطالية فى تنمية هذا التباين) . ا هـ .

هذا ما يقوله جورج أنطونيوس ويضيف : يتضح مما تقدم أن انتشار التعليم الغربي لم يكن نعمة

عالمية فقد أوقع الضرر بالبلاد في نواح متعددة . وأضراره ناشئة من سعيه إلى إبراز الخلافات الطائفية وتقويتها في بلاد الفكر وجود هذه الخلافات ، هذا من جهة ومن جهة ثانية لم يكن التعليم الغربي واسطة للتثقيف فحسب . بل كان كذلك أداة للتسلط السياسي وكان من أعظم مساوئه التي يلام عليها لوماً شديداً أن يسهل لرجال الدين التمتع بالنفوذ السياسي » .

ولقد أطلنا الاقتباس من كتاب جورج أنطونيوس بحسبان أنه أبعد عن التحيز في النظرة إلى أثر مدارس الإرساليات في الفكر العربي الحديث . والمعروف أن هذه المدارس التي انبثقت منها الدعوة إلى القومية العربية كوسيلة للقضاء على الدولة العثمانية وتمزيق الرابطة بين العروبة والإسلام ، كانت هي السلاح القوي الذي بدأ يحارب الوحدة العربية عندما أصبحت قوة إيجابية توحد العرب وتدفعهم إلى طريق مقاومة النفوذ الأجنبي والترابط عن طريق اللغة والعرق بعد أن سقطت الوحدة السياسية العثمانية (العربية — التركية) .

ويرى المؤرخون المنصفون أن هذه المدارس قد أثارت الخلافات الطائفية وأنها بذلك عملت القضاء على جهود المصلحين العرب ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل بدأت تحارب (اللغة العربية) العامل الأول في الوحدة العربية :

ويرى جورج أنطونيوس أن هذه المؤسسات التبشيرية الأجنبية قد شنت هجوماً واسعاً على مركز اللغة العربية كأداة للثقافة القومية وعملت على تشجيع نشر اللغات الأجنبية على حساب اللغة العربية حتى « أن بعض المؤسسات كانت تسير عمداً نحو هدف سياسي يهدف إلى إعطاء لغتها الأصلية المقام الأول ، وقد اتجه رجال العلم من الأجانب إلى إهمال اللغة العربية والاعتماد على اللغات الأوربية » . وقد فعل الأمريكان أنفسهم ذلك بعد ما كانوا حتى ذلك الحين يقودون حركة إحياء اللغة العربية وإحياء مصادرها .

وفي عام ١٨٨٠ على وجه التقريب اختاروا أسهل الطرق فأخذوا يلقون الدروس في الكلية السورية البروتستانية باللغة الإنجليزية فنشأ جيل يجد سهولة في الإفصاح عن أفكاره بالفرنسية والإنجليزية والروسية أكثر من العربية ، وكان لهذه الظاهرة أثر بليغ في مستقبل الحركة القومية فقد كانت الكثرة الساحقة من طلبة المدارس الأجنبية من النصارى » .

ويعلق جورج أنطونيوس على أثر هذه الظاهرة في الفكر العربي فيقول : « إن العالب الغربي الذي صب فيه التعليم الأجنبي قد أضعف الأثر الروحي للثقافة العربية في عقول الطلاب وأرضعهم من ثدي غريب غير الثدي الذي غذى الحركة العربية في طفولتها » .

ومعنى هذا جملة أنه قد نشأ جيل له ولاء غربي حتى في مفهومه الوحدة العربية وأخذ هذا الجيل يناوىء حركة اليقظة في خطها العميق الذي سارت فيه وبدأ كأنه أعز منه قوة بنفوذ الاستعمار

والقوى الأجنبية التي كانت حريصة على أن تدعم في يدها قيادة الحركة الفكرية والثقافية جملة وتوجهها وجهة علمانية غربية . تنكر القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية ، وتناهض مفاهيم الفكر العربي وقيمه وبطولاته وتاريخه .

ومن هنا بدأت بؤرة ضخمة من بؤر التغريب مقرها « بيروت » ، سيكون لها أثرها البعيد المدى في فترة ما بين الحربين وما بعدها .

في مصر

كان الدعوة الطورانية التي حمل لواءها حزب الاتحاد والترقي (الاتحاديون) وساروا بها شوطاً حتى تحققت لهم السيطرة على الحكم في الدولة العثمانية بعد الدستور سنة ١٩٠٨ أثرها في الشام — على نحو ما بينا — وفي مصر فقد كانت حركة جمال الدين الأفغاني - قبل الثورة العرابية والاحتلال البريطاني لمصر - تحمل لواء اليقظة في طريقها الأصيل المستمد من مفهوم الفكر العربي الإسلامي المندفع في طريقه إلى التجديد والاجتهاد وتحرير الفكر من قيد التقليد مع المقاومة للنفوذ الأجنبي الزاحف .

أما بعد الاحتلال فقد ظهرت حركة محمد عبده إلى تأصيل العلم والتربية كمنهج للحرية واليقظة معاً ، وإلى جوارها دعوة مصطفى كامل الوطنية . التي كانت تحاول أن تهز القلوب وتدفع عنها سحابة اليأس ، والحركتان معاً تمثلان منهج العقل ومنهج الوجدان في خط متواز وإن لم يلتق ويتوحد .

غير أن النفوذ الاستعماري البريطاني كان حريصاً على أن يقيم خطاً يحسم من اتجاه العاطفة السياسية المندفعة إلى دعوة الجلاء ومقاومة الانجليز ، ومن اتجاه المنهج التربوي الإسلامي المندفع إلى بناء نهضة حقيقية ، وحربهما معا بتيار يحمل لواء قوامه :

أولا : هدم الوطنية وإحلال السياسة بدلا منها .

ثانياً : تقليص الدعوة المتطلعة إلى الحرية في مجال ضيق هو مصر للمصريين منفصلا عن العالم الاسلامي والأمة العربية .

ثالثاً : الالتقاء بالنفوذ الاستعماري في منتصف الطريق وتقبل ما يعطيه .

رابعاً : الاتجاه نحو الغرب والفكر الغربي والمفاهيم والفلسفات الغربية أساساً واتخاذها الوسيلة الوحيدة لبناء الفكر العربي .

وقد كشف كرومر عن هدفه هذا في عديد من فقرات من تقاريره حين هاجم الإسلام كنظام الحكم ، وأثار عليه حملة ضخمة ، والادعاء بأنه دين مناف المدنية ولم يكن صالحاً إلا للبيئة والزمان اللذين وجد فيهما ، وأن المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب ويبعث فيهم روح البغض لمن يخالفهم والشقاق وحب الانتقام .

وبالجملة فإن رأيه يتلخص في أن المانع الأعظم والعقبة الكؤود في سبيل رقي الأمة هو : القرآن والإسلام .

وفي هجومه على القرآن يقول : « أنه ينافي العمران لأنه أباح الطلاق وحرم الربا والخمر وأن الإسلام يناقض مدنية هذا العصر من حيث المرأة والرقيق ويجعل المرأة في مركز منحط » .

كما هاجم كرومر فكرة الجامعة الإسلامية وكان يرى أنها مصدراً لقوة الأمم الإسلامية وسبيلاً إلى سطوتها لأن في إتحاد هذه الأمم ما يفزع أوربا .

وهذه النصوص تكاد تمثل « الأصول » التي اعتمد عليها كل دعاة التغريب سواء أكانوا من كتاب الغرب أو المبشرين أو المستشرقين أو من حملة الأقلام باللغة العربية ، ويمكن القول بأن كرومر هو أول من وضع الأساس لتحويل حركة اليقظة من طريقها الطبيعي الأصيل المستمد من مفهوم القرآن إلى طريق التغريب . فقد دعا - وعمل فعلاً خلال ربع قرن أقامه حاكماً فعلياً في مصر - إلى خلق طبقة من المتفرنجين المستغربين من الوجهة الأوربية والمدنية الحديثة وقال : إن هؤلاء جديرون بكل تنشيط ومعاونة يمكن أن تعطى لهم وقال : إن هؤلاء هم « حلفاء » الأوربي المصلح ومساعدوه . كما دعا وعمل إلى إطلاق الحرية للمرسلين والمبشرين في مصر والسودان لإنشاء مدارسهم وضمن تقاريره إحصائيات من أعمال المبشرين وتطورها .

مدرسة الجريدة

وقد وجد كرومر منطلقاً فكرياً عربياً لهذه الدعوة في « الجريدة » التي أنشأها مجموعة من أصحاب المصالح الحقيقية من الاقطاعيين وأبناء البيوتات الكبرى وعملاء الاستعمار الذين كان له الفضل في إبرازهم وتقوية جبهتهم . هذه القوة التي اجتمعت في « حزب الأمة » وكان من سياسة هذه الجماعة « مهادنة الدولة المحتلة » ، والتحول التطور التدريجي ومواجهة الحزب الوطني لأنه يحمل لواء ما أسموه « التهييج » .

ويمكن القول بأن أتباع حزب الأمة هم أنصار النفوذ الاستعماري في مصر . إذا اعتبرنا أن هناك أحزاباً ثلاثة : هي حزب الخديو والحزب الوطني وحزب الأمة .

ولقد حملت الجريدة لواء الدعوة إلى « المصرية » ومعارضة التيارين العربي والإسلامي ، والدعوة إلى « التعقل » لمحاربة تأريث المشاعر الوطنية كما دعت إلى « مسالمة » المحتل ومعارضة العنف في خصومته . وقد أشار لطفي السيد إلى هذا المعنى في العدد الأول من الجريدة (٩ مارس ١٩٠٧) فقال إن أهم سبل الإقناع وأكبرها في الوصول إلى الغرض هو سبيل المسالمة ، وهو أجلى مظاهر الاعتدال وقد سارت الجريدة على خطة كرومر التي نادى بها وقوامها تقبل صداقة الاحتلال دون معارضة ، التعقل باعتباره حقيقة واقعة ، إذ المصلحة في الانتفاع بالمحتلين وقبول فكرهم وحضارتهم ، وتقبل الحرية والاستقلال على مراحل ، هذا التيار الذي دعي فيما بعد بتيار التعقل والالتقاء بالإنجليز في منتصف الطريق .

وكان من أبرز ما حملت لواءه هذه المدرسة المغربة : الإيمان كاملا وثقة ، والتسليم له .

وكانت أبرز نقاط خطط هذه الدعوة :

١ - الاقليمية الضيقة ، مصر للمصريين ، لسنا عربا ولا يجمعنا بهم ولا بالمسلمين أي روابط ولا دخل لنا في أمورهم ؛

٢ - التعليم ، لا يكون إلا لطبقة معينة من الأمة هي الطبقة الثرية التي تتأهل لولاية الحكم ، أما أبناء الطبقات الفقيرة فلا يجوز لهم أن يتعلموا إلا « فك الخط » .

٣ - اللغة العربية الفصحى هي مصدر التخلف ولذا لا بد من تحسين اللغة العامية حتى تصبح لغة الكلام والكتابة معاً .

٤ - الانجليز يعملون لتمدننا وحمايتنا فلا خصومة بيننا وبينهم ولكن مودة وصداقة .

٥ - الوطنية لا تكون إندفاعا عاطفياً ، ولا ينبغي التعلق بأوهام الجامعة الإسلامية أو الروابط العربية وإنما تقوم الوطنية على سياسة المصالح فمصر أولا وقبل كل شيء .

وبذلك حقق كرومر هدفه في خلق تيار واضح قوامه ازدراء الفكر العربي الإسلامي واحتقار الإسلام والعروبة واللغة العربية والشك في صلاحية مقومات هذا الفكر لبناء أمة أو نهضة وقد استطاع أن يوسع دائرة هذه الدعوة الخطيرة على صفحات جريدتي المقطم والجريدة .

وقد استطاعت هذه الدعوة أن تحقق عدة أهداف :

أهمها توسيع دائرة التغريب التي تقوم بها لبنان ، وعلى نفس النسق عن طريق المدارس التبشيرية والإرساليات ، وعن طريق إعداد منهج تعليمي وتربوي استعماري خطير قام بتنفيذه « دنلوب »

كما استخدم عدداً من الكتاب السوريين المارون الذين كانوا ناقمين على الدولة العثمانية فحملوا لواء القيادة الصحفية وهاجموا كل مقدرات الفكر الإسلامي باعتباره حملة على تركيا .

كما عمد إلى نشر اللغة الانجليزية والثقافة الانجليزية التى كانت تصارع الثقافة الفرنسية واللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية والثقافة العربية

تغريب التعليم والتربية

وجريا مع خطط تغريب اليقظة العربيـــة كانت خطة « دنلوب » من مجال التربية تهدف إلى خلق طبقة جديدة من المثقفين لا تدين كثيراً بالقيم الأساسية للفكر الإسلامي ولكون ذات ولاء للثقافة الغربية وقيمها .

وقد قام دنلوب بدور كبير فى تعميق خطط التغريب وهدم مقومات الفكر الإسلامي وكان أبرز أعماله : نزع اعتقاد الشباب المسلم فى القرآن : وكان مذهبه « متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب ، يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة » .

وقد تضمنت خطة دنلوب :

أولا : العمل على حرب اللغة العربية والاسلام والأزهر والمعلم العربى والاسلامى .

ثانياً : نشر لواء اللغة الانجليزية وتأهيلها للسيطرة الكاملة على شئون التعليم وبذلك أمكنه القضاء على نفوذ اللغة العربية .

ويمكن أن يقال أن هذا الاتجاه الذى حمل لواء النفوذ الغربى فى الشام ومصر كان امتداداً لخططه فى تركيا بحسبان أن الفكر العربى الاسلامى كان هو أساس النظم الاجتماعية والثقافية فى العالم الاسلامى كله .

ونصل من هذا إلى نتيجة واضحة هو أن « الاستعمار » قد استطاع أن يخلق قوة ذات فاعلية سيطرت على الفكر العربى خلال فترة ما بين الحربين هى « التغريب » وأنها حاولت أن تقضى على المقومات الأساسية للفكر العربى .

غير أننا لا بد قبل أن نصل إلى هذه النتيجة من دراسة كاملة للصراع الذى أحدثه الاستعمار بين « العربية والاسلامية » .

الفصل الحادى عشر

المدارس الثلاث

الوحدة الإسلامية - والقومية والعربية الإسلامية

جمال الدين - محمد عبده - الكواكبى

كشفت هذه المرحلة امتداد من جمال الدين الذى جاء من الشرق الإسلامى حتى أوائل الحرب العالمية الأولى عن ثلاث مدارس فكرية حاولت أن تغطى التحديات التى تواجهها حركة اليقظة متمثلة فى :

١ - الوحدة الإسلامية التى حمل لواءها جمال الدين ولم تكن هى مضمون دعوته ولكنها أبرز معالمها .

٢ - « القومية » وهذه هى أكبر مخططات الشيخ محمد عبده فى سبيل الإصلاح .

٣ - العربية الإسلامية وهى طابع ما دعا إليه عبد الرحمن الكواكبى .

وهى مدارس ثلاث ولكنها تتلاقى إرتباطاً بجمال الدين وتتفرق بين سوريا ومصر ، ثم تتشكل فى حصيلة فكرية إسلامية واسعة تعم الأمة الإسلامية كلها ، وتصل إلى أقصى المغرب ، ثم تجاوزها إلى أطراف العالم الإسلامى فتكون بعيدة الأثر فى آسيا الإسلامية وأفريقيا الإسلامية .

ولقد كانت هناك وجوه إلتقاء ووجوه اختلاف بين جمال الدين وتلميذيه إن صح أن يوصف الكواكبى بأنه تلميذ جمال الدين - ولم يعرف بالضبط ما إذا كان قد إلتقى به ، ولكن لابد أن يقال أن جذور المفكرين الثلاثة متصلة أساساً بحركة اليقظة التقى به أم لا ، مرتبطة بمخططاتها ، مستمدة من أصولها المنبثقة وأساساً من جوهر الإسلام النقى ، والتى تختلف بقدر اختلاف تقدير كل مصلح الأولويات فى الاصلاح والبناء ، ولكنها فى مجموعها تشكل المزاج الفكرى العربى فى هذه المرحلة فى مواجهة تحديات الاستعمار والنفوذ الأجنبى الواصف .

الوحدة الإسلامية بين « الدعوة والحركة »

دعا جمال الدين إلى الوحدة الاسلامية كنطاق لمقاومة النفوذ الأجنبى ، وأصدر لهذا الفكرة بجزء من الدعوة إلى اليقظة العربية الاسلامية التى كانت ذات شقين مترابطين :

١ - تحرير الفكر وتنقية العقائد والتماس مفهوم القرآن وفتح باب الاجتهاد .

٢ - مقاومة النفوذ الأجنبي بمفهوم الاسلام نفسه إلى الحرية والمقاومة والوحدة .

وكانت دعوة الوحدة الاسلامية أقدم من صيحة جمال الدين ، وكانت واضحة في الحركتين الوهابية والسنوسية ، غير أن جمال الدين عمق مفهومها وفلسفتها ودعا إليه على نحو أكثر قوة في ظل ضغط التحديات التي واجهها العالم الاسلامي في عصره وعنف الزحف الاستعماري على العالم العربي وسقوط أجزاء كثيرة في براثنه .

وقد اتجه جمال الدين إلى الهند وإيران وتركيا ومصر يحمل دعوته فلما أخرج من مصر - وكان السلطان عبد الحميد قد تولى أمر الدولة العثمانية عام ١٨٧٥ - مضى مشرقا ومغربا من بعد ، فلما سقطت مصر تحت سنابك الغزاة الانجليز عام ١٨٨٢ وسقطت تونس من قبل تحت سنابك الغزاة الفرنسيين عام ١٨٨١ سافر جمال الدين إلى أوربا واستقدم الشيخ محمد عبده وبدأ في تكوين جماعة العروة الوثقى وإصدار صحيفتها ، في هذه المرحلة بالذات كان السلطان عبد الحميد قد بدأ صيحته إلى « الجامعة الاسلامية » في ظل تحديات خطيرة تحيط بالدولة العثمانية بعد أن التقضت أجزاؤها الأوربية وغلب على أجزائها الباقية العنصرين الجغرافيين المسلمين : « الأتراك والعرب » (بالاضافة إلى الأجناس الأخرى داخل الممالك العثمانية من الأديان الأخرى)

هناك بدأت دعوة الجامعة الاسلامية التي دعاها عبد الحميد بحسبان أن الدولة العثمانية قاعدة الخلافة الاسلامية ليست للعرب والترك وحدهما ولكن لمسلمي العالم كله وبالأخص (فارس وأفغان والهند والملايو) .

وكان ذلك في الحق عملا سياسياً كبيراً استهدف به عبد الحميد دعم الوحدة الاسلامية العثمانية كقوة سياسية في وجه النفوذ الأجنبي والقوى الاستعمارية التي كانت تمر بأشد مراحل الغزو على عالم الاسلام ضراوة وشراسة وبعد أن سقطت الهند في يد بريطانيا والملايو في يد هولندا وسيطرت بريطانيا وروسيا على حدود فارس والأفغان سقطت أجزاء الخليج العربي في يد بريطانيا أيضاً بالاضافة إلى مصر والسودان ، وسيطرت فرنسا على الجزائر وتونس .

ويرى مؤرخو السلطان عبد الحميد أن سياسته لم تكن قائمة على تبنى أفكار جمال الدين ألبتة ، بل كانت في جوهرها محاولة من جانب الخليفة السلطان لتأييد سياسته الوطنية على الدولة العثمانية باعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة المسلمين على « مقياس واسع » على حد تعبيرهم وإذا كانت هناك صلة - في تقدير هؤلاء بين سياسة عبد الحميد ودعوة جمال الدين - فهي حقيقة الأمر صلة سطحية وغير حقيقية إذ عمل عبد الحميد بمهارة على استغلالها لمصلحته ،

ومما أورده هؤلاء أن هذه السياسة تضمنت :

(١) اكتساب ولاء الملايين من المؤمنين عن طريق نخوتهم الدينية .

(٢) التأثير فى العناصر غير التركية ولا سيما العرب وذلك بإغداق المناصب والميزات على أمراء العرب وأعيانهم وبذل المبالغ الطائلة لإصلاح وزخرفة المساجد فى مكة والمدينة وبيت المقدس .

(٣) إيفاد عدد من الرسل الممتازين ليجوبوا الوطن الإسلامى فى ثياب الوعاظ وكانت دعوتهم على حد تعبير لوثروب « استصراخ الأمم الإسلامية فى كل رقعة من رقاع العالم الإسلامى لتمديد العون إليه وشد أزره بالالتفاف من حوله ، قاصداً قذف الرعب فى روع الدول الغربية التى خالها تأتمر فيما بينها وتتخذ الوسائل للقضاء على المملكة العثمانية . ويقول جميل بيهم « إن السلطان عبد الحميد وجد قوته فى عصا الخلافة وعلمها فدعا المسلمين فى أنحاء العالم إلى الالتفاف حول ذلك العلم وقرب إليه فريقاً من العلماء وشيوخ الطرق مثل أبى الهدى الصيادى والشيخ ظافر واطمأن إلى العرب فجعل منهم أخصاء له (عزت العابد) وأجرى المرتبات الكثيرة لجمهور من المشايخ باسم (دعوة حق) فى البلاد الإسلامية عامة والعروبة خاصة .

وقد بلغ أمر هذه الدعوة غايتها إلى حد ، جعل إسم الخليفة العثمانى على ألسنة المسلمين كافة فى جميع الأنحاء يذكرون اسمه فى خطب الجمعة ويدينون له بالولاء والطاعة الروحية باسم خلافته على المسلمين كافة ، وجعلهم من رعايا دول أوربا فى الهند وجزر الهند الشرقية وشمال إفريقيا ، وكان السلطان يفاوض الدول الكبرى ويساومها بل يهددها أحياناً ملوحاً بسلاح الجهاد الدينى » .

ويقول محمد رفعت : إن عبد الحميد قد استلهم هذه الدعوة مما دعا إليه جمال الدين غير أنه ، أخذ من هذه الدعوة ما يخدم أغراضه الكبرى وهى تكتيل المسلمين وجمع كلمتهم وتجهيزهم للجهاد بقيادة خليفتهم وترك ما عدا ذلك من دعوة إلى الإصلاح فى الدين ونظام الحكم وسائر أحوال المسلمين » .
ولا شك أن هذه الآراء جميعاً تحمل طابع المعارضة والخصومة الظالمة للسلطان عبد الحميد حيث كان حقه فى تقدير التاريخ المنصف وحين يكشف عنه التقارير وتزول الحواجز المضللة من الأعمال العظيمة فى مقاومة النفوذ الاستعمارى والصهيونى ، ولقد عرف الغرب مدى النتائج التى كانت تترتب على هذه الوحدة الإسلامية فسارع بتدميرها بالحملة على عبد الحميد والدعوة ضده ثم الانقضاض عليه وعزله .

ولا شك أن (حركة) عبد الحميد باسم (الجامعة الإسلامية) قد اختلفت اختلافاً كبيراً عن (دعوة) جمال الدين فقد كان جمال الدين يرى أساساً الربط بين الإسلام والدولة الحديثة ، وبين مفهوم الإسلام وبين الحضارة ، على أن تقوم الوحدة على أساس وضع دستورى شورى ، قوامه وحدات أو على حد تعبيره (حكومات) لا مركزية تجتمع فى مجلس أعلى يرأسه أكبر هذه الوحدات ولما عرض جمال الدين هذا المشروع على السلطان عبد الحميد لم يقبله وأحس بأنه يقضى على نفوذه

ولذلك لم يتحقق . وكان جمال الدين يرى اتخاذ خطوة واسعة فى مجال العلم والحضارة وفق نظام الدول الحديثة بالصناعة والديمقراطية ، وهذا ما عجز عنه عبد الحميد ولم يكن من الميسور أن يقبل به هذا فضلا عن أن السلطان عبد الحميد سعى إلى استقدام جمال الدين إلى الآستانة عام ١٨٩٢ (أى بعد عشر سنوات تقريباً من دعوته إلى الجامعة الإسلامية) ولا شك أن فكرة تختلف فى دوريها (دعوة) وحركة ، أو بين المصلح جمال الدين والسلطان عبد الحميد ، وأساساً كان مفهوم الجامعة الإسلامية عند السلطان يختلف عن مفهوم الوحدة الإسلامية عند جمال الدين لاختلاف المشرب والثقافة والهدف والاختلاف الفارق بين المصلح والحاكم ، فقد كان جمال الدين يدعو إلى الوحدة الإسلامية دون أن يحدد وحدة كاملة أو إنساناً بعينه .

ومن الإنصاف القول بأن كلا الرجلين كانا مختلفين فى العقلية والمزاج وأن كلاهما كان يحمل للإسلام أمانة الإصلاح والتجمع لمقاومة الغزو ولكنهما لم يتلاقيا على منهج واحد وإن كان جمال الدين قد اعترف بذكاء عبد الحميد وبراعته الفائقة غير أن الخطر الأكبر على هذه الحركة إنما يتمثل فى أنها قامت فى نفس الوقت الذى كانت حركة أخرى تتصل بالقومية التركية وتسمى بالحركة الطورانية وتتصل بالمدرسة المؤمنة بالحضارة الغربية والفكر الغربى إيماناً كاملا قد تكونت وأصبحت تعمل سراً ، وقد أعانها الاستعمار الذى كان يعمل على تحطيم هذه الوحدة الإسلامية العثمانية ويرسم مخطط تقسيم تراث الرجل المريض ، ويثير الخلافات بين المسلمين والأجناس الأخرى فى الدولة العثمانية على نحو يصل إلى حد المؤامرات ويجعل من بعض الطوائف خصوماً غاية فى العنف للسلطان والدولة العثمانية والإسلام جميعاً ، وقد أتيحت لهم الفرصة فى مصر مثلا — وهى خاضعة إذ ذاك النفوذ البريطانى — لإثارة حملة عنيفة وتأريث خصومة حامية تستهدف القضاء على الدولة العثمانية عن طريق دعوة معارضة للدعوة التى قصد بها السلطان عبد الحميد دعم مركز القوة السياسية العثمانية مرتبطة بالمشاعر الإسلامية فى العالم الإسلامى كله باسم الخلافة .

ومن هنا عجزت دعوة جمال الدين أن تحقق أهدافها ، وأصبح إسم الجامعة الاسلامية علماً على دعوة تضمر لها أوربا الخصومة والعداء بحسبان أنها تتجمع لمقاومة نفوذها الزاحف المسيطر .

أما فى تركيا فقد سيطرت عليها حركة مضادة هى (الجامعة الطورانية) التى ظلت تعمل مع الخفاء حتى وجدت فرصتها بسقوط عبد الحميد ، فظهرت فى قوة فى ظل الاتحاديين ثم عمقها ووسعها مصطفى كمال .

مدرسة التربية ومقومات الجبرية

برز منحنى جديد ليقظة الفكر العربى الاسلامى بعد الثورة العرابية والتقاء جمال الدين ومحمد عبده فى باريس وإصدار العروة الوثقى (سنة ١٨٨٤) كان هذا المنحنى هو التساؤل عن مدى قدرة العمل

السياسى الثورى على تحقيق النتائج المرجوة لتحرير العالم الاسلامى ووحدته ويقظته ـ وفق النهج الذى رسمه جمال الدين ، أو ضرورة إيجاد منهج أكثر عمقاً وأطول أمداً وهو منهج التربية . هذا هو قلب الخلاف الذى وقع بين محمد عبده وأستاذه جمال الدين ، فمضى كل فى طريقه ، جمال الدين إلى فارس وتركيا فى طريق منهجه الذى انتهاه السلطان عبد الحميد على نحو من الأنحاء ، ومحمد عبده عائد إلى مصر فى ظل الاحتلال البريطانى لاستئناف طريق جديد للعمل وفق مفهوم واضح هو (التعليم والتربية) بحسبانهما معاً هما طريق تحرير الفكر ومقاومة النفوذ الأجنبى .

وقد استطاع خلال هذه الفترة وبعد عودته من منفاه إلى وفاته (١٨٨٨ - ١٩٠٥) أن يترك أثراً ضخماً فى مختلف جوانب النشاط الاجتماعى والفكرى والدينى :

• فسر القرآن بروح العصر كشف عن موافقة آياته لقواعد العلم الصحيح المبنى على المشاهدة والاختبار ونواميس العمران .

• نقى مناهج الاسلام من الشوائب التى طرأت على توالى العصور .

• دعا وعمل على إصلاح التعليم العالى الاسلامى ، والأزهر بوجه خاص .

• الدفاع عن الاسلام ضد الحملات الموجهة إليه

• إعادة النظر فى طريقة عرض المذاهب الاسلامية على ضوء الفكر الحديث .

(وكان يرى أن العلاج لاخراج المسلمين من حالتهم ، الضعف والاستعمار ، هو التمسك بالاسلام)

• التماس مفهوم الاسلام فى القرآن والسنة ومحاربة الجمود والخرافات والبدع المخالفة له ، ومحاربة التقليد .

• الاصلاح عن طريق التربية والتعليم لتحرير العقل وإعادة هداية الدين .

ولا شك أن محمد عبده قد أهدى إلى الفكر العربى الاسلامى فى هذه المرحلة حصيلة ضخمة من المفاهيم المتبلورة عن التراث الاسلامى يمكن أن توصف بأنها عصارة وافية فى مختلف مجالات السياسة والاجتماع والدين ونستطيع أن نعرضها على هذا النحو :

الاسلام دين عالمى صالح لجميع الشعوب والأزمان وملابسات الحضارة ، ليس فى ديننا شئ ينافى المدنية الحاضرة عن الأمم الراقية إلا بعض مسائل الربا .

الاسلام يملك دون تقليد أعمى للحضارة الأوربية الوسائل الروحية لتجديد شبابه والدخول فى

منافسة مع دين آخر . الإسلام لا يعوق التقدم ولا يتنافى مع العلم ولا يعارض المدنية ولا بد أن ينتهي أمر العالم إلى تآخي العلم والمدنية على سنة القرآن .

الجمود غريب على الإسلام ، وإنه علة عرضت للمسلمين عندما نزلت بهم عقائد أخرى ما كانت الإسلام في أفئدتهم ومكنت له السياسة بألاعيبها ، وهو طارئ يزول ، لأنه طرأ على الإسلام وليس منه وآيات الكتاب تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم من غير أعمال العقل .

الإسلام ليس إسلام المذاهب والفرق ، ولا إسلام المقلدين ، ولا إسلام المبتدعين ولا إسلام السلبيين من أرباب الطرق الصوفية ، وإنما (إسلام القرآن) الذي يحث على الإعداد الإنساني لهذه الحياة ، وهو الإعداد القائم على الذاتية أو على عدم إلغاء الشخصية الفردية ، والاجتهاد مطلوب الإسلام هذا مع تنقية الدين مما اعتوره من الشوائب التي طرأت عليه بتوالي العصور وتقالب الدول واختلاف أغراض أصحابها وأئمتها .

(الاجتهـــاد)

هو الوسيلة العملية والنظرية المشروعة الملائمة بين أحداث الحياة المتجددة ، وتعاليم الإسلام . لو وقف الأمر بتعاليم الإسلام عند حد تفقه الأئمة السابقين لسارت الحياة الانسانية في الجماعة الإسلامية في عزلة عن التوجيه الإسلامي وبقيت أحداث الإسلام في بعد عن تحديد الإسلام إياها وتكييفها بالكيفية الإسلامية .

والاجتهاد هو الوسيلة المشروعة والحتمية لامتداد الصيغة الإسلامية لأحداث المجتمع الإسلامي في الجماعة الإسلامية ، ولا يجوز أن يمارسه إلا من كان على الصفات العلمية التي كان عليها المجتهد الأول في القرون الثلاثة الأولى .

التقليد وقوف بالعقل الانساني عند حد معين ، وذلك يتنافى مع طبيعة العقل ذاته ، لأن العقل وجد للملاءمة بين الانسان وظروف الحياة التي يعيش فيها ، فإذا اقتضى عصر لأن يقف عند حد أنواع الملاءمة التي استنبطت في عصر سابق كان ذلك خروجاً عن طبيعته .

وطبيعة الحياة ليست أزلية فهي متغيرة ، بل خصيصتها التغير والتجدد ، فما ناسب أحداثها الماضية من علاج اقترح لايناسب الأحداث الجديدة وإخضاع هذه الأحداث الجديدة لتكييف الماضي وعلاجه يؤدي إلى تعسف ومشقة .

المبادىء الإسلامية ليست لها طبيعة التوقيت ولا الخصوص الزماني والمكاني فهي للناس كافة والإنسانية في أزمنتها المتتابعة ، وفي عموم بقاعها ، صالحة لتناول أحداث الحياة وصبغتها بالصبغة

الإسلامية ، حيث إنها صالحة لتوجيه الإنسان فى الحياة . فإقرار الاجتهاد ضرورة اجتماعية إسلامية واستمرار عمل الحياة الاسلامية والأحداث خليقة بأن تحمل المسلمين على إخضاعها الإسلام ، بحيث يصبح تصرف المسلمين إزاءها تصرفاً إسلامياً ، وبذلك لا يعيش فى عزلة عن مجرى الحياة العامة الاسلامية .

(القرآن والعصر)

القرآن قبل كل شيء ينطق بأن النمو التاريخى والاجتماعى الأمم يسير على سنن ثابتة ، فى كل مكان يوجه القرآن فيه النظر إلى (سنن الأولين) أو يعبر فى سياقه عن (سنة الله) فسنة الله التى لا تبدل ولا تتحول هى القانون السائد فى التاريخ ، ومن هنا كانت دراسة التاريخ إحدى المصالح البالغة أقصى الأهمية فى رعاية الاسلام الحقة .

وفى هذه الآيات وجه القرآن النظر إلى تاريخ نمو المجتمع الانسانى فى مراتبه المختلفة واستخدامه هذا التعبير منهجاً مقصوداً لعلماء الرسوم والأمراء ليحملهم وزر إهمالهم فى التربية التاريخية وتقصيرهم .

حث الاسلام على العناية بعلوم الكون ودراستها ولكن القرآن لم ينزل لشرح مسائل العلوم والفنون الكونية .

القرآن لا يمكن أن يحتوى على تعاليم تتعارض مع حقائق العلم .

الدين المملوء بالخرافات والعقل المستنير لا يجتمعان فى دماغ واحد ، إذن فلا يمكن أن يشتمل القرآن على أمور من النوع الأول ، والتفسير الصحيح لا يمكن أن يتعارض مع العقل الرشيد .

(التصـــوف)

كان غرض صوفية المسلمين تربية المريدين بالعلم والعمل الذى غايته أن يكون الدين وجداناً فى أنفسهم تصدر عنه الأعمال الصالحة ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة .

(العقل والوجدان)

جعل الله للإنسان من العقل ما يميز به الحق والباطل والضار من النافع ومنحه الوجدان لإدراك ما يحدث فى النفس من ميول ورغبات ، والانسان فى حاجة إلى العقل والوجدان ، وكلاهما يعين الآخر ، والعلم الصحيح مقدم للوجدان ، الوجدان السليم من أشد أعوان العلم ، وفى بعض الأحيان يلوح أن هناك تخالفاً بين العقل والوجدان ، فمثلا قد يترك عقلك الضرر من عمل ولكنك تعمله طوعاً لوجدانك ، ولكن الواقع أن التخالف غير موجود ، وما بدا أنه يقين فى العقل ليس إلا صورة

عرضت عليك من قول غيرك ، ولم تكن قائمة على العقل الصحيح ، وأن ما طبعه وجدانك ليس إلا وهماً تمكن منك أو عادة موروثة .

(الجبر والاختيار)

الافرنج ينسبون عادة الانحطاط فى البلاد الإسلامية إلى تمكن عقيدة القضاء والقدر منهم ، وتحول جميع مهماتهم على القدرة الإلهية (والواقع) إنه لا يوجد مسلم واحد فى هذا الوقت من أى فرقة كانت ، يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل يعتقد جزءاً اختيارياً فى أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم .

إن تأكيد شعور الإنسان بحريته واختياره فى أفعاله ومسئوليته إزاء أى عمل يفعله فهو يشعر بأنه مدرك لأعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ثم يصدرها بقوة ما فيه .

ولو كان فعل العبد ليس له لبطل تكليفه له ، فالعقل والشرع والحس والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله ، وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ، ووجود الممكنات إنما هو نسبتها إليه ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه مما قام عليه الدليل :

وقد وجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه وأن يقر بنسبة عمله إليه كما هو بديهى عنده ، ويعمل بما أمره به ، ويتجنب مانهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذى يجده فى نفسه .

والاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد من شناعة الجبرية ، أتبعه صفة الإقدام والجرأة ، وخلق البسالة والشجاعة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود ، هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ، ويحرضها على الجود والسخاء ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة ، كل هذا فى سبيل الحق الذى دعاها الاعتقاد بهذه العقيدة والذى يعتقد أن الأجل محدود والرزق مكفول والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك .

التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منا فى العمل لا فى البطالة والكسل ، وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا ونفبذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه ، القضاء سبق العلم الإلهى ، والعلم السابق لا يحول دون أن يكون الإنسان حراً فى أعماله بوجه ما ، ولا شىء فى علم الله السابق يمانع الإنسان من أن يعلم وأن يختار ، وإذا كان ما هو فى علم الله السابق يتحقق ضرورة ، فذلك لأنه ما دام قد أحاط الله به فلا بد أن يكون متفقاً مع الواقع والواقع لا يتبدل ، ومن ناحية العقل لا تكون الإحاطة بما سيقع مانعة من الفعل ولا باعثة إليه ، إن الإنسان حر الإرادة وإن له كسباً وقدرة على أفعاله

وقد قامت الشريعة كلها على أن الإنسان مسئول عما يفعل ، ولو كان فعل العبد ليس له لبطل تكليفه به ، إذ لا يعقل أن يطالب شخص بما لا يقدر عليه وأن يكلف بما لا أثر لإرادته فيه .

وليس الإسلام دين الجبر وإنكار الحرية .

فمذهب أهل الحق من المسلمين هو أن الله تعالى وإن كان يعلم ما سيحدث من الإنسان يترك له مع ذلك حرية أفعاله الخاصة ، وليس فى ذلك أى تناقض ، بل العكس أن انسجاما عميقاً يتم بين فعل الإنسان وفعل الله ولا تخالف بينهما فى الحقيقة ، فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الله فاعل والموجود فى جميع مراتبه مختار .

فالتوكل إذن ليس شيئاً آخر فهو الثقة بالله مع استعمال العلل الطبيعية .

(العقل والدين)

إن العقل وحده لا يستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى ، وهو غير كاف فى تقويم الأخلاق وتصحيح العبادات ورد الشهوات فلا بد إذن من الاعتماد على جانب آخر من طبيعة الانسان وهو وجدانه الدينى الذى هو العماد الذى تقوم عليه الاعتقادات والعبادات . وقد عجز العقل وحده عن هداية الناس وإرشادهم .

الدين قوة من أعظم قوى البشر وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ،

وعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة بل والخاصة ، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل .

والدين الصحيح يتلاقى فيه العقل والوجدان ويتعاونان ليؤدى كل منهما عمله الصحيح ، والدين الكامل علم وذوق وعقل وقلب وبرهان وإذعان فكر ووجدان ، فإذا اقتصر دين على أحد الأمرين (العقل والوجدان) فقد سقطت إحدى قائمتيه وهيهات أن يقوم على الأخرى .

(دعوة محمد عبده : التربية)

قضى محمد عبده عشرين عاما بعد انفصاله عن جمال الدين من ١٨٨٦ إلى ١٩٠٥ : حمل خلالها لواء دعوة التربية .

وكان منهجه أوسع من منهج جمال الدين وامتداد له ، وقد أضاف إضافات ضخمة يمكن

تخصيصها فى أنها نقلت حركة اليقظة من عمل سياسى خالص قائم على حماسة عاطفية (مع كل ما يتصل به من تطوير فكرى وثقافى) إلى عمل تربوى ثقافى خالص له جذور عميقة ممتدة بالاسلام ، والأزهر واللغة ، والصحافة ، والكتابة .

ومن هنا يبدو الكواكبى فى اهتمامه بتحرير العقل العربى من الجبرية الصوفية وكأنه قطاع من حركة محمد عبده — ويمكن القول بأن الكواكبى وضع رؤوس موضوعات ، أما محمد عبده فقد أفسح المجال للقواعد العامة (ومع ذلك فإن جمال الدين ومحمد عبده والكواكبى يشكلون فى مجموعهم ظاهرة (الفكر الاسلامى) فى تطورها وتحركها نحو تحقيق هدف موضوعى فى مواجهة الشبهات والتحديات .

وإن كان عمله فى مجموعة لم يرسم منهجا إسلاميا فكريا كاملا ، فقد قام أغلبه على تحديات الأحداث نفسها ويمكن أن يقال أن آراء محمد عبده جميعها قد تبلورت فى :

(١) تفسير القرآن . (٢) رسالة التوحيد . (٣) الرد على هانوتو . (٤) الرد على فرح أنطون . ولكنها وهى موزعة مفرقة لم تحقق قيام منهج متكامل للفكر الاسلامى .

ويمكن القول أن محمد عبده — وهو فى ظروف واضحة الدقة — ظروف قيام الاحتلال البريطانى بأهدافه التغريبية الواضحة ، وفى مواجهة خصومة الخديو واتصاله هو بكرومر ، وفى محاولة الكشف عن جوهر دعوته كان فى حاجة إلى لباقة بارعة ومرونة بالغة .

ولقد وجد فرصته الواضحة فى تفسير القرآن ، حيث استطاع عن طريق تفسير الآيات إعلان رأيه فى أشياء كثيرة ذات أهمية فى مواجهة النفوذ الاستعمارى وتصحيح الأخطاء والرد على الشبهات ولم يكن فى إمكان الشيخ عبده أن يعرضها عرضاً صريحاً فى هذه الفترة دون أن يلجأ إلى هذا المنهج الدقيق اللبق .

بل ويمكن القول أنه رد على آراء كرومر نفسها فيما وجه إلى هانوتو وفرح أنطون ، فقد كانت هذه الآراء فى جماعها واحدة ، أما هانوتو فهو وزير فرنسى — ولا يضير النفوذ البريطانى أن يوجه إليه الشيخ محمد عبده ردوداً ومع ذلك فقد اتسمت هذه الردود بتوقيع « رمزى » .

ويمكن القول بأن مرحلة محمد عبده كانت فعلا مرحلة الاصلاح والتربية والدعوة الهادئة ولم تكن مجالا لأى عمل من نوع آخر ، فهى تطور طبيعى بالنسبة لحركة اليقظة نفسها وتطور مناسب للظروف والأحداث فى نفس الوقت .

وأبلغ ما وصل إليه محمد عبده هو أنه اعتبر (إسلام القرآن) هو الأساس ، فالإسلام عنده ليس إسلام المذاهب والفرق ، ولا إسلام المقلدين ، ولا إسلام المبتدعين ، ولا إسلام السلبيين من أرباب الطرق ، وإنما إسلام القرآن الذى يحث على الاعداد الانسانى لهذه الحياة وهو الاعداد القائم على الذاتية أو على عدم إلغاء الشخصية الفردية .

وإذا كان جمال الدين الأفغاني هو أول من فتح باب المنطق والفلسفة في الفكر العربي الاسلامي الحديث بحسبانه طريقاً إلى الدفاع عن الاسلام في مواجهة الفلسفات الحديثة على نفس المنهج الذي اتخذه المعتزلة فإن محمد عبده هو الذي عمق هذا الاتجاه حتى أطلق عليها اسم « معتزلة العصر الحديث » .

ولقد حاول (محمد عبده) أن يوازن بين فكر الاعتزال وفكر الصوفية المستنيرة ويزاوج بينهما في براعة ودقة . فهو لم يأخذ فكر المعتزلة في إعلاء العقل اعلاءاً كاملا وانما أعلى العقل حقاً ولكنه دعا إلى الربط بينه وبين الوجدان . وأعلن أن أوجه اللقاء بين الاسلام والعلم قديمة متجددة ، وحاول التوفيق بين العقل والقلب ، والدين والعلم فأعطى الشريعة والفقه والعقائد طابعاً إنسانياً إروحيا استمده من مفاهيم الغزالي ، حتى ليمكن القول حقا أن محمد عبده قد جمع بين مفاهيم الاعتزال ، ومفاهيم الغزالي في تنسيق ومزج . أراد منه أن يربط بين الفلسفة والفقه والتصوف بحسبانها جوانب متكاملة في الفكر الاسلامي وقد فتح الطريق بذلك لمن جاءوا بعده أن يحققوا هذا القياس وأن يطوروا هذه النظرات .

وقد دعا محمد عبده إلى تعميق دراسات المنطق واللغة بحسبانها أداة الدعوة إلى الاسلام والدفاع عنه ووسيلة تحرير الفكر العربي وإيقاظه .

علوم المنطق : لضبط الفكر وعلوم اللغة لضبط اللسان .

وعنده أن للمنطق والروح العلمية لا بد أن يتوج بها طابع خلقي يقودها ويوجهها وانها بدونه لا تحقق الهدف من البحث عن الحق والاستدلال عليه .

يقول (لكي يتحرر الانسان من الأوهام المشهورة والأوهام السابقة والآراء الضالة لكي يطلب الحق والخير طلباً جديا . ليس يكفي أن يكون ذا ذكاء نافذ ، بل أن تتوافر فيه صفات أخلاقية أهمها الشجاعة وبذل الجهد والنزاهة ومحبة الحق) .

وقد دافع محمد عبده عن المنطق والكلام وحث الأزهريين على دراسته ، ودراسة التاريخ وعلم الاجتماع . وقال : المنطق هو العلم الذي يكفل للنفس البشرية الوسيلة لبلوغ الحق واليقين ، وعنده أنه آلة قانونية تعصمه مراعاتها من أن يضل في فكره ، وهي أداة طالب الحق والوقوف عليه . وهو العلم الذي يضع قواعد تلزم مراعاتها لضبط سير الفكر ، وقد كان المنطق أهمية في دراسة الفلسفة وعلم الكلام وقد سماه المسلمون (علم الميزان ، سلم العلوم ، القانون ، معيار العلوم) والغزالي الذي هاجم الميتافيزيقيا اليونانية وأنصارها اعترف بالمنطق وقيمته الصحيحة .

وقد أذاع محمد عبده أن العلم والدين إذا فهما على الوجه السليم لا يمكن أن تكون بينهما خصومة ، ولما كان الحق لا يمكن أن يكون عدوا للحق فلا بد من الاتفاق بين الفلسفة والدين وعنده أن الدين كالعلم لا ينافي التقدم .

ومن أبرز جوانب إضافات محمد عبده التي كان لها أثرها البعيد في تطور الفكر الاسلامي : مسألة الاجتهاد والفتاوى الجريئة التي أفتى بها . وبها فتح بابا واسعا للناس في الجمع بين الاسلام والحضارة . ففتواه عن لباس الرأس وعن حل ذبائح أهل الكتاب واستخدام الأجانب وغيرها إنما كان يهدف بها إلى الكشف عن مرونة الاسلام وقدرته على الالتقاء بالحضارات في تطوراتها وأثرها وحركتها المتجددة .

وقد واجهت هذه الفتاوى في أبانها ضجة كبرى ومعارضة ضخمة من المحافظين ولكنها شقت طريقها من بعد وأتاحت لخلفاء الشيخ محمد عبده سلوك هذا الطريق .

ومنهج الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن يمثل خطوة هامة في تطوير الفكر الاسلامي فقد نهج في ذلك منهجاً « جديداً » بالنسبة لظروف مرحلة التقليد والتخلف « قديماً » بحسبان أنه مستمد من المفاهيم الأصيلة للقرآن نفسه .

وأهم ما عنى به هو إخضاع حوادث الحياة والمجتمع القائمة في عصره لنصوص القرآن ، اما بالتوسع في المعنى أو بحمل الشبيه على الشبيه ، واعتبار القرآن جميعه وحدة واحدة متماسكة لا يصح الايمان ببعضه وترك بعضه الآخر . ثم جعل فهم بعضه متوقف على فهم جميعه ، واعتبار السورة كلها أساساً في فهم آياتها ، واعتبار الموضوع فيها أساسيا في فهم النصوص جميعا التي وردت فيه ، وأبعاد الصيغ اللغوية عن مجال تفسير القرآن وأبعاد تفسيره عن أن يكون مجالا لتدريب الملكية اللغوية ، وعدم إغفال الوقائع التاريخية في سير الدعوة إلى الاسلام في تفسير الآيات التي نزلت فيها .

وعنده أن القرآن يفسر نفسه بنفسه ، « وان بين مختلف آيات القرآن إتصالا جوهريا عميقاً » ، « إن كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها » ويرى أن بعض المفسرين قد أعطى آيات القرآن معاني خاصة وأسند هذه الآيات إلى حوادث بعينها ، ولكن لا يرى هذا الضيق وهذا الخصوص ، ويرى أن معاني الآيات لا بد أن تؤخذ على عمومها ، وأن القرآن هاد ومرشد إلى يوم القيامة ، وأن معانيه عامة شاملة ، « فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أناساً مخصوصين » .

وقد خلص الأذهان من الصور المادية ، وأخذ على المفسرين إسرافهم في استعمال الصور الحسية حتى جعلوا من السنة مذهباً مادياً خشناً لا نفحة من الروحانية فيه ، وقد قرر صفة الشمول والعموم في القرآن دون أن يكون في تلك الصفة ما ينافي نظرته في التطور والرقي .

وهو أعظم أعماله وميادينه ، فقد عرف عنه قوله « وإنما خلقت معلما » ويمكن القول بأن فكرته في الإصلاح كانت تسيطر عليها نزعة تربوية أساساً ولعل مصدر هذه النزعة تكوينه وطبيعته وورائياته ، فهو أنه جرى شوطا في مجال الإصلاح السياسي منذ عرف جمال الدين (١٨٧١ - ١٨٨٦) حتى عاد إلى مصر ، وكان لتجربة جمال الدين والثورة العرابية والاحتلال وللإنطباعات المختلفة خلال هذه الفترة ورحلاته وحكم السن والبيئة الجديدة كان اتجاهه إلى العمل في مجال التربية بحسبانه أصلح الوسائل لتحقيق غايات اليقظة والإصلاح ومن هنا كانت مفاهيمه في الدين رصينة خصبة ، وكانت جماع ثقافته إسلامية عربية وله قراءات في الفكر الغربي ، بل إنه ترجم كتاب التربية لسبنسر كوسيلة من وسائل تعميق هذا الاتجاه والإحاطة بالمناهج المستحدثة فيه ولا شك كان للغزالي أثره البعيد في هذا الاتجاه وفي ثمرات هذا المنهاج ، وإذا قيل أن محمد عبده قد برز في جانبين كبيرين فيها : تصحيح العقيدة وتحرير الفكر من قيد التقليد وهذه كان فيهما متأثراً بابن تيمية والتربية كوسيلة للإصلاح وبناء مجتمع إيجابي وكلاهما معا يمثلان محاولة لتحقيق التكامل بين قيم الإسلام ومفاهيمه .

ولاشك أن منهجه التربوي يعد إضافة جديدة وتطويراً لمنهج رفاعة الطهطاوي وامتداداً له بحسبان أن رفاعة هو أول من فتح أبواب هذه الدراسات في العصر الحديث ، ويصف كثير من الباحثين جماع آراء الشيخ محمد عبده في التربية بأنها أول مخطط تربوي في الوطن العربي الحديث وأن قاعدته هي أن الارتقاء المعنوي هو الأساس لكل ارتقاء مادي .

ولا شك أن محمد عبده حين ركز على عوامل التربية المستمدة من مفاهيم الاسلام ، إنما كان يتمثل الخطر الذي شكلته المدارس الأجنبية وخاصة مدارس المرسلين والأثر الضخم الذي يفرضه النفوذ الأجنبي على التعليم الرسمي ، مع محاولة إقصاء الأزهر وتجميده ، وكل هذا قد خلق إزدواجية في الثقافة واللغة والعقلية وأسلوب الحياة مما يؤدي من بعد في تقديره إلى التمزق الداخلي .

ولذلك فقد حرص محمد عبده على منهجه التربوي أن يجمع بين منهج الدين والعقل معاً ، وكان مفهومه أن العقل هو مصدر المعرفة ومقياسها ولكنه كان يرى أن الدين له أهميته الكبرى في حماية العقل من الزلل .

يقول « بدون الركن الديني ما الذي سيحمي العقل بعد أن يخرج عن طريق العلم من حالة الاذعان والاستسلام إلى حالة التساؤل والبحث ، وكان يرى أن الاتصال بالفكر الغربي في طابعه العلماني سيثير شكوكا مختلفة ، مما يؤدي إلى قيام معسكرين منفصلين : معسكر يعتبر الدين أساساً لكل نظرة في المجتمع والحياة ، ومعسكر يقوم على مفاهيم واقعية مادية ويرى أنها أساس الحضارة والعمران » .

وعنده أن التربية هى أساس كل حركة إصلاحية وأن بناء الأجيال الجديدة هو الذى يحقق النهضة « الاصلاح لا يتم باستبدال رجال الحكومة أو تغيير طريقة الحكم أو تحسين أشكاله الادارية وإنما هو نتيجة نهضة عامة تتغير فيها العادات شيئاً فشيئاً وينشأ الأفراد فيها على حسن الأخلاق وسمو التفكير » .

وهو يرفض التعليم الذى يقصد من أجل كسب العيش أو الحصول على وظيفة أو مهنة ، وإنما التعليم فى نظره يهدف إلى إعداد الأفراد للحياة الصالحة فى أنفسهم وفى مجتمعهم ، ويرى التربية شاملة لحياة الفرد والحرص على بقاء المجتمع بقاء سليما مترابطاً ، مع الاهتمام بالمبادىء العامة للأخلاق الفردية والتنظيم الاجتماعى .

من أجل هذا يرى ضرورة تعميق فهم الشريعة وفرائضها كأساس للسلوك الفردى والمعاملات بين الناس ، وعنده أن الإسلام هو العلاج الوحيد لحماية الأخلاق الفردية من التدهور وهى التى تقيم أساساً موحداً للمعاملات بين الناس وإن ذلك هو السبيل الرئيسى لمواجهة أخطار انتشار المادية .

« لن ينهض المصريون روحيا إلا عن طريق مذهب أخلاقى ينبثق عن الإسلام لأنه جزء من تاريخهم ومن حضارتهم فلكى تكون القوانين قائمة على السلوك يجب أن ترتبط بنفسية البلد الذى تطبق فيه » .

وعنده أن التربية تحقق ترقية العقل وتنمية الفضائل الدينية والأدبية والإعداد للمعاملات الاجتماعية من أجل الإرتقاء بالأمة فى دينها ودنياها .

وهو من المؤمنين بالجمع بين العقل والدين فى التعليم حتى لا تتعرض الثقافة العربية إلى التفسخ ولا يصل الأفراد إلى الشعور بالتمزق الداخلى ، ذلك لأن ربط العقل بالدين يكفل ألا تحمل العلوم الغربية اتجاهات أخلاقية خبيثة لا يرضى عنها الإسلام .

ونظريته فى الترابط بين العلم والعقل والدين تجرى على نحو منطقى دقيق بارع .

« المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به واختار أن يعمل بموجبه فليس القصد من الايمان إذن أن يذلل الانسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله ونفسه بالعلم والعرفان ، فيعمل الخير النافع المرضى لله ، فالاسلام قد جهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، وإنما فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام - أعلام الكون ، ودلائل الحوادث ، ولكن الانسان معرض للخطأ والانحراف وراء الباطل إن هو اعتمد على عقله فقط ، والعقل وحده يعجز عن الهداية بسبب الشهوات والانسان محتاج إلى الاهتداء بالوجدان الدينى ، والدين الكامل هو علم وذوق ، وقلب وعقل ، وبرهان وإذعان ، وفكر ووجدان » .

« من أجل الايمان الصحيح ينبغى أن نعنى بقيمة العقل ومن أجل صيانة العقل من الزلل فى

التفكير ينبغي تعميق الوجدان الديني والاهتداء به ، ويمكن القول بأن محمد عبده أكمل الطهطاوى وخطا بعدة خطوات فوسع دائرة منهج التربية وأضاف إليها وعمقها .

ويمكن القول بأن محمد عبده قد استفاد من نتائج تجربة الطهطاوى خلال الفترة التي بينهما ، فالطهطاوى يعتمد على القدوة والترغيب والترهيب ومحمد عبده يشدد على توعية العقل وقيمة الاستقلال في التفكير ، ورفاعة يرى أن الإنسان كاللوح الصقيل ليس له أى استعداد مسبق ، ولذلك فهو يؤكد دور التربية في غرس الميول الحسنة لدى الناشيء ، وينظر الشيخ محمد عبده إلى جانب آخر فالإنسان عنده مجبول على الخير ، والوجدان الديني غريزة لديه فهو يولى اهتمامه بتنمية الوجدان الأخلاق والقدرة على التمييز بين الخير والشر .

وإذا كان الطهطاوى – في مواجهة تحديات مجتمعه قد أعلى من شأن غرس القدوة الحسنة فإن محمد عبده – في مواجهة تحديات مجتمعه أيضاً – قد شدد على تنمية العقل الحر المستقل . لقد ألقى رفاعة إلى الثقافة العربية دفعة جديدة حية من الفكر الغربي لها أصولها العربية الإسلامية في محاولة فتح طريق النهضة والقوة ، ولكن محمد عبده أحاط هذه النهضة بسياج متين حتى لا تخرج عن هدفها الأصيل ، فإنه إذا كان دعاة اليقظة إنما يرغبون إلى الاقتباس من الفكر الغربي ما يزيد الفكر الإسلامى قوة وحياة فإنه لا بد من حياطة هذا العمل بضوابط حتى لا تسقط النهضة في هوة التغريب والتبعية الثقافية ، هذه هي النظرة التي كانت واضحة في دعوة محمد عبده التربوية ، فقد أحس محمد عبده أن اندفاعة الاقتباس قد خلقت انقساماً وثنائية بين المحافظين والمجددين وبين التعليم القديم والحديث وبأن خطر مناهج التعليم الأجنبي والمناهج التي فرضها النفوذ الأجنبي واستفحل فدعا إلى صهر المنهجين وربطهما معاً حرصاً على سلامة وحدة الثقافة العربية .

ويمكن القول بأن إعطاء محمد عبده العقل مكان الصدارة في دعوته وإصلاحه جميعاً إنما كان عملا إيجابياً في مواجهة تحديات الجبرية الصوفية التي أغرقت العصور السابقة في الجمود والتخلف ومن أجل ذلك فهو يقيم ميزان التربية على أساس العقل واستقلال الفكر وحرية الرأى .

ويرى أن هدف التعليم الصحيح هو تحرير الفكر من قيد العادات والخوف من لوم الناس أو الضغط الخارجى بحيث يتوفر عنصر الشجاعة التي ترفع قيد التقليد الأعمى من ناحية وتضع القيد الذى هو ميزان العقل الصحيح من ناحية أخرى .

وقد وضع عدة قواعد هامة في مجال التربية والتعليم :

١ – الجمع بين العلوم الدينية والعقلية يساعد على إعطاء صورة أكمل للحقيقة .

٢ – دراسة العلوم الحديثة شرط لتفهم علوم الدين فهماً كاملا والتعمق والوجدان الديني الصحيح .

٣ — التآليف بين القديم والحديث .

٤ — طلب الثقافة الحديثة منوط بالدين والإيمان السليم بتعاليمه .

٥ — العلوم الإلهية من اختصاص الدين ولا طاقة للعقل أن يبلغ إليها بقواه الطبيعية وحدها .

٦ — الفلسفة والعلوم الدينية مجالها البحث فى ظواهر الطبيعة وكشف الأسرار المحجوبة فى أعماق الكون .

٧ — العلوم الدنيوية ضرورية من أجل العمران والرفاه ، والعلوم الدينية ضرورية من أجل الفضيلة فى الحياة الشخصية والعامة .

٨ — مصير الإنسان فى خلقه وعقله منوط فى الدرجة الأولى بالتربية .

٩ — لكل علم غاية ينبغى أن نعرفها وأن نعرف إذا كانت موصلة إلى المطلوب من التعليم .

١٠ — لن ينهض المصريون روحياً إلا عن طريق مذهب أخلاق ينبثق من الإسلام لأنه جزء من تاريخهم ومن حضارتهم .

١١ — الجمع بين العقل والدين فى التعليم يعطى الجوانب الدقيق للتوفيق بين التعليم الحديث والتعليم التقليدى .

١٢ — ربط العقل بالدين يكفل ألا تحمل العلوم الغربية معها أى اتجاهات أخلاقية لا يرضى عنها الإسلام .

١٣ — العمل يكون بعلم والعلم يأتى بالكسب .

١٤ — التعلم هو الخطوة الأولى فى الإصلاح .

(إصــلاح التعليم)

ولمحمد عبده تقرير هام عن التعليم فى عصره يكشف عن اتجاه التعليم ومحاولته فى إصلاحه يقول : « المدارس الأميرية ليس فيها شىء من المعارف الحقيقية ولا التربية الصحيحة ، هذه المدارس أنشأها محمد على بإشارة بعض الفرنسيين لتعليم بعض أبنــاء الأرناؤوط والأتراك ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج لها فى نظام الحكومة التى أسسها ، وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة ، أما غيرها من العلوم فما كان إلا وسيلة إليها ، ثم لم يشترط فى أن يكون تاماً ، أما التربية على أخلاق سليمة فلم تخطر له ولا لمن تولى إدارة هذه المدارس على بال ، ثم لما لم يكن

فى أبناء تلك الأجناس وفاء لطالبه فى الوظائف أدخل فى تلك المدارس بعض المصريين جبراً ، وما كان يدخل مجبوراً إلا الذين لا قوة لهم من الفقراء ، ثم وسع اسماعيل هذه المدارس ، غير أن جميع ما أتاه من ذلك كان صورياً ليقال له فى حكومته مثل ما لأوربا فى حكوماتها ولم يكن القصد منه تربية العقول ولا تهذيب النفس ولا تحصيل رجال مصلحون لتولى أعمال الحكومة .

وأما تكوينه منه بالتعليم والتربية رجلا صالحاً فى نفسه يحسن القيام بالعمل الذى يفوض إليه فذلك لم يخالط عقول المعلمين ولا من ولاهم أمر التعليم ، ولو كشفنا عن أذهان التلاميذ لم نجد فيها غاية لتعليمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم من أى صفات كانوا ، ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون ما يجدونه فى الكتب المقررة للتلاميذ ويطالبونهم بحفظه وفهم عباراته ، ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم ، هل هو فى صالح أو فاسد ولا مطامح أنظارهم هل إلى نافع أو ضار ، وذلك رسم يؤده المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لا غير ، لهذا لا يمكن للامذتها فى آخر الأمر إلا صناعاً أو ناطقين ببعض الألسنة ولا ثقة فى الأغلب لشىء من عقولهم ولا أخلاقهم إلا من كانت له فطرة سليمة ولا موهبة طبيعية فأولئك تؤدبهم الأيام وتهذبهم التجارب » .

هذه هى صورة التعلم التى اهتدى محمد عبده فى ضوءها إلى رسم منهجه التربوى ، وبذلك يمكن أن يقال إن محمد عبده قد خطا خطوة جديدة هى إعطاء مناهج التعليم مفهوماً تربوياً ، وإن لم يحقق ذلك شيئاً فى ظل الاحتلال ولكنه أضاف إلى الفكر الإسلامى العربى إضافات جديدة .

ويتصل بهذا اتجاه محمد عبده إلى إصلاح الأزهر وتحريره من قيود الدراسات القديمة وفتح باب الدراسات الحديثة إليه .

وجملة القول : إن محمد عبده جدد مختلف مجالات الفكر العربى وأضاف إليها « اللغة العربية ، الفقه ، العقائد ، الشريعة ، التربية » .

وأبرز مفاهيمه الأيدلوجية فى التفسير والجبرية والقدر ، وموقف العقل من الدين والعلم من الدين ، وقد صور عصارة عمله فى عبارة دقيقة حين قال :

ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها إليه لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى .

الثانى : إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو عما تنشره الجرائد على الكافة منشئاً ومترجماً من لغات أخرى أو فى المراسلات بين الناس .

الثالث : التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، فكشف عن هذا الأمة العربية إلى معرفة حقها على حاكمها .

{ دعوة الكواكبي : (العربية الإسلامية) }

يكاد الكواكبي – وهو معاصر للشيخ عبده – أن يلتقي معه في كثير من المفاهيم خاصة حول عوامل الضعف التي حلت بالفكر الإسلامي وعوامل التخلف التي أصابت المجتمع الإسلامي ، ويطلق عليها الكواكبي (أسباب الفتور) غير أن الكواكبي يعني بالجانب السياسي ويعلق عليه أهمية كبرى ويشغل فكره بأمر الاستبداد السياسي وأثره في الدولة والأمة والمجتمع ، ويربطه بالجبرية وبعوامل الضعف المختلفة .

أما الشيخ عبده فيعالج المسألة معالجة المعلم والمربي ، ويوجه أكبر عناية إلى تجديد الدين وفتح باب الاجتهاد والتماس منهج التربية كوسيلة لتأكيد اليقظة وتنميتها .

ويرجع ذلك في الأغلب إلى العوامل الأساسية في فكر كل منهما والبيئة والتحديات التي واجهت كل منهما ، فالكواكبي عاش في حلب وواجه نظم الحكم العثماني . ومن هنا فقد هاجر إلى مصر يعمل في أعماقه بدور الحملة على نظام الحكم ، ولذلك فقد عني بكتابة مبحث واسع عميق حول (الاستبداد) .

ثم توفر على دراسة قضية التخلف فأفرد لها كتابه (أم القرى) فاستوعب أسباب القضية استيعاباً واسعاً عميقاً .

أما الشيخ عبده فقد كانت البيئة المصرية التي تأثر بها تحمل طابع الاحتلال وآثاره بعد فشل الثورة العرابية ، ولذلك فقد كانت تحتاج إلى نوع آخر من المواجهة ، فضلا عن أن الشيخ عبده (مصلح إسلامي) معني بتجديد الدين والأزهر أساساً ، ويمكن القول بأن كلاهما متأثر بالسيد جمال الدين الأفغاني ، وامتداداً له ، وقد تأثر كل منهما بناحية من نواحيه فنماها ووسعها وترك منها حصيلة ضخمة للفكر العربي الجديد .

وصل الكواكبي إلى مصر عام ١٨٩٨ وكان الشيخ عبده قد عاد من منفاه عام ١٨٨٦ ولذلك فقد عاش الكواكبي هذه الفترة في جو الشيخ محمد عبده ، ورأى الكواكبي فيه يؤكد عمق الصلة به وفهمه له .

ولكن مفهوم الكواكبي للإصلاح والتجديد يحمل طابع (الأمة العربية) في مواجهة الشيخ محمد عبده الذي كان يحمل طابع (الإسلام) وكان هذا الاتجاه طبيعياً ، فإن كل الذين عاشوا في الشام في هذه الفترة بدأوا مفهومهم للإصلاح من نقطة العروبة لغة وعرقاً ، بينما كان الشيخ محمد عبده

– وفى المناخ المصرى – يعمل على تجديد الفكر الإسلامى كله ويتخذ من مصر تجربة صالحة للاتساع فى آفاق العالم الإسلامى.

أولى الكواكبى اهتمامه بعدة أمور تمثل ركائز فكره :

أولا : (العروبة) وعنده أن العرب أقدم الأمم مدنية ، بدليل سمو لغتهم وسمو حكمهم وأديانهم وهم أحرص الأقوام على جنسياتهم وعاداتهم وحرصها على الحرية والاستقلال وإباء الضيم ، ولغتهم هى لغة المسلمين . وهم أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية وأعرق الأمم فى أصول الشورى ، وأهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية ، وأحرص الأمم على احترام العهود عزة ، واحترام الذمة الإنسانية ، واحترام الجوار شهامة وبذل المعروف مروءة . وعنده أن العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً فى الدين وقوة المسلمين حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداء فلا يأنفون من اتباعهم أخيراً .

والوحدة العربية فى مفهوم الكواكبى أساسها الإيمان بالله وأول مقوماتها وحدة القيم والمثل ، وترتبط العروبة عنده بتجديد مفهوم الإسلام وتجريده من الخرافات والبدع والفضول ، وبالجملة فالأمة العربية عنده ذات رسالة يؤمن بها مسلمها ومسيحيها على السواء

وكانت دعوته أن يعود العرب إلى أمجادهم فيعودوا إلى القوة ، وعنده أن كل إصلاح وطنى بلا دين انكسة قريبة تدمر كل ما يبلغ الإصلاح من مراحل . ويقول : « إن الذين يبرءون من دينهم لأنهم يذكرون صلة الدين بالقومية ليسوا من أمتنا ، إنهم كالعناوين العربية على كتب مترجمة » .

ثانياً : الدعوة إلى نبذ الخرافات والبدع والتقليد الأعمى والرجوع إلى القرآن والأخذ بنهج السلف الصالح من هذه الأمة ، وتجديد الدين وإصلاحه بتنقيته من الشوائب ، ويقول فى هذا إن (الدين أفيون الشعوب) كلمة قالها لينين إلى جوركى وهو يتجه إلى صورة (راسبوتين) ، وإصلاح الدين تنقيته من الدجل والخرافة ومحترفى الدين ، وتجديد الدين رده إلى أصله والإيمان بأن الدين يدعو إلى العلم والعلم قوة .

وقد هاجم الكواكبى (الجبرية) فى قوة وقال إنها أقحمت على مفهوم الإسلام النقى ، ومن أبرز آثارها أنها رغبت المسلم فى أن يعيش كالميت من قبل أن يموت ، وعنده أن تعقيد الدين يرجع إلى العلماء المدلسين ، ذلك لأن بعض ناقصى العلم وضعفاء العزيمة تطلعوا إلى منزلة العلماء وهى فوق طاقتهم ، فدعاهم ذلك إلى تأويل القرآن تأويلا لا يحتمله نظمه الكريم ولا يتفق مع مبادئه العليا .

ثالثاً : مقاومة الاستبداد : ويرى أن تقديس الأولياء راجع إلى استشراء عادة تعظيم الملوك حتى أن الناس يقيسون جبروت الله وسلطانه على جبروت ملوك الدنيا وسلطانهم ، ولأن الملوك يختصون

بتصريف الأمور العظيمة ويتركون لأنصارهم وأعوانهم أن يتصرفوا في الأمور الصغيرة ، لهذا يحمل الناس من يلجأ إلى الأولياء في قضاء المصالح كمن يلجأ إلى حاشية الملوك ومن هنا تنشأ (الوثنية) وهي تقديس الإنسان لإنسان مثله فتنشأ الذلة في نفسه وتنعكس على أعماله وتصرفاته ، أما الإيمان الصحيح فيجعل الانسان يشعر بأنه مساو لكل إنسان آخر » . ويقول : « قوام الاسلام رعاية العدل وكفالة الحرية وتحقيق العدالة وتوخي المصلحة العامة ، وهو يوجب على الحاكم أن يستشير في أمور أمته الخواص ممن سموا بأهل الحل والعقد ، ومن أجل هذا سلب الاسلام رجال الدين سلطتهم الدنيوية فخاطب الله نبيه قائلا : (فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر) .

رابعاً : دعوته إلى (العـــدل الاجتماعي) : طالب بتعميم العمل المثمر وتحريم الكسب غير المشروع ومنع التفاوت بين أفراد الأمة بغير موجب تقتضيه الخدمة العامة ، وإزالة التفاوت المفرط في توزيع الثروة بين الأفراد مهما أوتوا في الكفاية أو العمل ، وإقامة المجتمع على التعاون والتضامن وإزالة العجز عن الكسب لمرض أو حرمان وتأميم المرافق العامة ومنع الاحتكار .

خامساً : محاولة التوفيق بين الدين والعلم ، وقد ظهرت في أيامه دعوات تحاول التشكيك في مضامين القرآن ومناهج الاســلام حول الكشوف العلمية وكانت الدعوة التغريبية تحمل القول بأن الاسلام لا يلائم روح العصر الحديث ، وقد أثبت الكواكبي أن الاسلام داعية العلم وفاتح صدره له وقال إن كل ما كشف عنه العلم الحديث من مجهول له جذور في القرآن .

وهذا هو الخط الذي سار فيه من بعد العلامة طنطاوي جوهري وآخرون ، وأبرز ما وجه الكواكبي إليه عنايته بحث أسباب تأخر المسلمين وقد أجملها في أسباب ثلاثة : دينية وسياسية وأخلاقية . من أهمها :

١ - تأثير عقيدة الجبر في أفكار الأمة وأثر مذهب الزهد في نشر البطالة والكسل .

٢ - اختلاف الآراء في فروع أحكام الدين وأثره في تشويش الأفكار .

٣ - خطأ الاعتقاد بأن العلوم الطبيعية والفلسفية منافية للدين .

٤ - الحكم المطلق أو الدكتاتوري .

٥ - تفرق الأمة إلى عصبيات وأحزاب سياسية .

٦ - الاستغراق في الجهل والارتياح إليه .

٧ - إهمال التربية الدينية والخلقية ، وفساد التعليم والوعظ والخطابة والارشاد .

٨ - إهمال تعليم النساء .

٩ - فقدان العدل والمساواة في الحقوق بين مختلف طبقات الأمة .

١٠ - إضعاف الرأي العام بالحجر عليه وإشاعة التفرقة فيه .

ويمكن أن يقال إن الكواكبي عاش من أجل هدفين كبيرين :

أولا : إصلاح المجتمع والبحث في أسباب تأخر العالم الإسلامي ومحاربة الاستعمار وإصلاح الحكم ودعم مبادىء الحرية .

ثانيا : تطهير الإسلام من البدع والخرافات .

يقول جورج أنطونيوس إن الكواكبي أولى اهتمامه بأمرين :

الأول : وجوب القيام بعمل جدي ومنظم لمكافحة جهل علماء الدين وجهل الجماهير .
الثاني : أن يستعيد العرب مركزهم الطبيعي في تسيير دفة الإسلام .

وعندنا أن الكواكبي قد نقل حركة اليقظة ومقاومة النفوذ الأجنبي إلى مرحلة أشد واقعية وأصالة حينما تبين أن دعوة جمال الدين إلى الوحدة الإسلامية لا تجد طريقها وتواجه المصاعب والعقبات أي إن الرابطة العربية قد تكون أكثر صلاحية في هذه المرحلة بعوامل كثيرة أهمها إن العرب هم أصحاب اليقظة الحقيقية في هذه الفترة ، وأن رابطة اللغة والثقافة قد أوجدت بينهم تقارباً من شأنه أن يقيم أرضية صالحة للدعوة ، وكان يرى أن فكرة القوميات قد أخذت تشكل عاملا من العوامل الهامة في توحيد الأمم وفي التأثير الواضح إزاء فكرة وحدة إسلامية تجمع قوميات متعددة فكان في دعوته واقعيا وأقرب إلى العمل الإيجابي ، مع إيمانه بأن العمل في المجال العربي هو مقدمة للعمل الأكبر ، وأنه من الضروري أن يجتمع العرب أولا قبل أن يوحدوا العالم الإسلامي .

ويمكن القول بأن الكواكبي هو من أوائل الداعين إلى الوحدة العربية على قاعدة الفكر الإسلامي العربي متصلا وغير منفصل عنه ومتخذاً اللغة والتاريخ والتراث (أرضية) أساساً للعمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي العربي ، وكان يرى أن الرابطة العربية قادرة على أن تصوغ جداراً يواجه النفوذ الأجنبي الزاحف ويقاومه ، فضلا عن أنه كان يرى أن العرب أحق الأمم بقيادة الاسلام وتجديد الاسلام وكان شأنه في ذلك شأن المدرسة الشامية العراقية في هذه الفترة التي تبغض الدولة العثمانية لركودها وتحاول إصلاحها ، ولقد أفرد الكواكبي كتاباً ضخماً لمعالجة هذه المعاني هو (مصارع الاستبداد) وهو كتاب أحدث آثاراً ضخمة وبعيدة المدى منذ صدوره ، وإن كان بعض الكتاب المؤيدين للنفوذ الأجنبي قد استغلوه استغلالا كبيراً في مجال القضاء على الوحدة الاسلامية

العثمانية والإسلام عما لم يكن يقصد إليه الكواكبي ، فقد كان الكواكبي يؤمن بحق العرب في إقامة كيان خاص بهم ، ويرى أيضاً أن ذلك هو مصدر أساسي لتأكيد الوحدة الاسلامية ومنطلق لها وكان يرى أنهم بفضل لغتهم ودورهم التاريخي هم أقدر الشعوب الاسلامية على قيادة حركة اليقظة ومن حقهم أن تكون الخلافة فيهم .

والحق أن الكواكبي هو الذي طور نظرية المقاومة للنفوذ الغربي الاستعماري من الدعوة إلى الرابطة الإسلامية التي لم تحقق شيئاً إلى رابطة عربية أكثر إيجابية ووضوحاً ، وبذلك قضى على مخطط الاستعمار في استغلال فكرة الوحدة العربية كـ (أداة) لأهدافه في تحطيم الوحدة الاسلامية دون أن تقيم شيئاً حقيقياً - حين بدأ خطواتها الأولى في جمعية سرية في الجامعة الامريكية كما يرده جورج أنطونيوس وغيره - إلى فكرة مقاومة صلبة تقوم على دعائم أكيدة هي دعائم اللغة والعرق والجامعة للوحدة فكرياً ، وكانت دعوته إلى العروبة قائمة على أسس وجذور ذات مصدر أكيد ، وكانت تؤمن بنفس أهداف الجامعة الاسلامية من العمل على نهضة الاسلام بالاضافة إلى نهضة العرب على حد تعبير صاحب يقظة العرب ، مما كان لها أعمق الأثر في نفوس المسلمين لأنها كانت تحركهم بدافع مزدوج . وإذا كان أنطونيوس يرى : (أن هذه المبادىء التي بشر بها الكواكبي) قد ساعدت على انتقال زعامة الحركة العربية إلى المسلمين بالتدريج ، فإن ذلك يعني أن النفوذ الغربي وأداته دعوة التغريب قد سارع إلى مواجهة دعوة الوحدة العربية فأخذت تمزقها من أطرافها وتحاول إغراقها في مذاهب علمانية ولا دينية وتعمل على إضعافها بالدعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية والبربرية ، ودعوات البحر الأبيض المتوسط ، والدعوة إلى العامية ، والدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية .

وقد وجد الكواكبي في القاهرة مجاله الحقيقي في إذاعة دعوته وكتابة آرائه ، فقد كانت مصر قد اتخذت منذ احتلالها عام ١٨٨٢ خطاً بعيداً عن الدعوة العربية التي كانت أساساً دعوة الشام والعراق والحجاز في هذه المرحلة (قبل الحرب العالمية الأولى) وكانت الدعوة إلى المصرية وأمجادها الفرعونية هي السلاح الذي شهرته الوطنية المصرية في مواجهة حملات الاستعمار عليها ، غير أن الداعين إلى العروبة في مواجهة الخلاف مع الدولة العثمانية وجدوا في مصر مجالا خصباً .. وساعدوا الانجليز على ذلك أو أفسحوا له - لا حباً في الوحدة العربية ولكن رغبة في القضاء على الدولة العثمانية .

ولا شك كان الكواكبي مرحلة أساسية ومجددة في حركة اليقظة التي امتدت منذ الحركة الوهابية في القرن الثاني عشر ١٧٤٠ والسنوسية في القرن الثالث عشر ١٨٤٠ وأنه تابع جمال الدين الأفغاني وعاصر محمد عبده وكان له سمته الاستقلالي الواضح .

وقد أولى الكواكبي اهتمامه بالبحث عن أسباب تأخر المسلمين ومحاولة حلول لهذه الأسباب .

لقد أعطى المسألة الاجتماعية أهمية كبرى فتحدث كثيراً عن (العدل الاجتماعى) وهاجم الرأسمالية وكشف عن أثر الفقر فى المجتمع .

وقد أوجز أسباب تأخر المسلمين ، وهو يطلق عليه لفظاً جديداً يكشف عن خبرته وسماحته فيسميها (فتور المسلمين) وعنده أنها تتمثل فى : تأصيل الجهل ، فقدان الرابطة الدينية ، وفقدان الحرية والشورى ، وعدم اشتراك أهل الحل والعقد فى أمور الحكم ، وأن علاجها يتمثل فى : حرية التعليم ، حرية الخطابة والمطبوعات ، حرية المباحثات العلمية ، ومنها العدالة بأسرها (حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب) ومنها الأمن على الدين والأرواح ، والشورى .

وقد رد فتور المسلمين إلى اعتقادهم فى (الجبرية) التى جرتهم إلى التواكل وصدتهم عن العمل وزهدتهم فى مطالب الدنيا وصرفتهم عن مباهجها وأثارت الشقاق والفرقة بينهم .

وقد أوجز شعار مؤتمره الذى عالج (مرض المسلمين وأعراضه وجراثيمه وأدويته) فى عبارة حاسمة هى :

(التحرر من اليأس من الإصلاح) .

وجعل علاج الفتور منصباً على العودة إلى الإسلام الصحيح فى بساطته الأولى فى صدر الإسلام قبل أن تفسده البدع وتلحق بعقول أهله الأوهام ، وتحريره من الجمود والخرافة والإيمان بوحدانية الله حتى تتحرر العقول من قيود الشرك والنصرف عن تعظيم القبور مع الاهتداء بكتاب الله ، كما دعا إلى فتح باب الاجتهاد وأباح للفقه أن يتخير ما يراه أصح أقوال المجاهدين .

وعنده أن التثقيف والتربية والمعاجة هى أداة الإصلاح - وهذه المرحلة جديدة تطور فيها أسلوب العمل بعد أن كان من رأى جمال الدين العمل السياسى القائم على التأجيج العاطفى وحده - والكواكبى فى هذا المنهج التثقيفى العلمى يشترك مع معاصره محمد عبده ويلتقى به فى أسلوب العمل .

* * *

الفصل الثانى عشر

من الوحدة الإسلامية إلى الوحدة العربية

من وحدة الفكر إلى وحدة اللغة والعرق

— ١ —

كان من الطبيعى إزاء موقف الاتحاديين فى الدولة العثمانية أن تبرز دعوة الوحدة العربية كعمل له طابعه وكيانه . فقد كان العرب يتطلعون إلى تحقيق هدف واضح محدد : هو قيام « كيان عربى » داخل الدولة العثمانية وهو ما أطلقوا عليه اسم « اللامركزية » غير أن الضغط الذى مارسه الاتحاديون فى الفترة من (١٩٠٨ — ١٩١٦) قد كشف عن إتجاه واضح ونية مبيتة من جانب الاتحاديين (دعاة الطورانية) إلى أنهم يتطلعون إلى (تتريك العرب) والقضاء على ذاتيتهم الخاصة وأحس العرب بأن بقائهم تحت سيطرة الترك إنما هو إفناء الكيان العربى . فقد أوغل الاتحاديون فى مهاجمة العرب والازدراء بهم والاتجاه إلى تطهير اللغة التركية من الألفاظ العربية وإعلاء كلمات جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك ، وزاد ذلك حدة وعنفاً موقف أحمد جمال باشا حاكم دمشق وتعليق زعماء العرب على أعواد المشانق فى ٢١ أغسطس ١٩١٥ ، ٦ مايو ١٩١٦ مما دفع العرب مضطرين إلى جانب الحلفاء على أثر معاهدات اتصلت بقيام دولة عربية بعد الحرب . فالوحدة العربية على هذا الأساس ليست وليدة عامل دخيل وليست تقليداً لتيارات خارجية عرفت عن أوربا فى هذه الفترة حين طبعتها بطابع الدعوة القومية وإنما كانت موقفاً طبيعياً وضرورياً وحاسماً بالنسبة لأمة لها لغتها العربية ولها كيانها ، وهى تواجه تحديين خطيرين :

التحدى الأول : النفوذ الغربى الزاحف المندفع إلى السيطرة على الوطن العربى كله .

التحدى الثانى : الدعوة الطورانية التى تطمع فى إذابة العرب فى بوتقة الأتراك .

وإذا كانت الدعوة إلى الوحدة العربية قد قامت فى الشام وشملت العراق والجزيرة العربية وحدها دون باقى أجزاء الوطن العربى ، فإنما كانت بذلك إستجابة طبيعية للتحديات والأخطار التى كانت فى مواجهتها .

لحيث اتخذت مصر من تراثها القديم الفرعونى دون تاريخها سلاحا لمقاومة الغزو الغربى والاحتلال . مواجهة ما كان يبثه الاستعمار من دعاوى تقول أن مصر ليست ذات تاريخ أو

ماض حر ، وإنما كانت دوما واقعة تحت سيطرة الفرس واليونان والرومان وكل الدول المغيرة ، فان الاستجابة فى الشام والجزيرة والعراق كانت تحمل اسم (العروبة) بحسبانها العمق الأصيل القادر على ربط أصحاب اللسان العربى والجنس العربى فى كتلة واحدة تستطيع أن تقاوم النفوذ الأجنبى وحيث سقطت رابطة الوحدة الإسلامية التى كانت متماثلة فى الدولة العثمانية . فإن رابطة أخرى على مستوى الجنس واللغة تستطيع أن تقوم لتواجه هذا النفوذ .

وإذا كانت مصر والسودان قد سقطت تحت الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ فان الشام والعراق قد بقيتا داخل نطاق الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ ، ومن هنا فقد كانت هى البوابة الرئيسية القسم العربى المتصل بالترك والشطر الثانى الدولة العثمانية بعد سقوط أجزائها الأوربية ، حيث لم تعد تتمثل إلا فى عنصرى العرب والترك . فالوحدة العربية هنا ظاهرة طبيعية بحسبانها إستعادة للكيان الطبيعى من ناحية ودعوة إلى التجمع والتوحد فى مواجهة النفوذ للكيان وإذا كان النفوذ الاستعمارى قد اتخذ هذا الشعار سبيلا مسبقا إلى الدعوة لفصل العرب عن الترك والقضاء على الوحدة الإسلامية العثمانية . حين اتخذ بعض أعوانه هذه الدعوة سلاحا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فان العرب فى صميم كيانهم . لم يكونوا ليستجيبوا لمثل هذه الدعوة إستجابة إلانفصال إلا بعد أن قطعوا مرحلة طويلة فى سبيل تأكيد كيانهم دون الانفصال عن الرابطة الكبرى التى كانوا يعدونها قوة فى وجه النفوذ الاستعمارى والتى كانوا يعرفون أن دعاة تمزيقها ليسوا إلا عملاء النفوذ الاستعمارى .

ولذلك فان العرب لم يعقدوا خناصرهم على الانفصال والدعوة الصريحة إلى الوحدة العربية قائمة بذاتها بعيداً عن كيان الدولة العثمانية . إلا بعد أن بلغ الاتحاديون أنفسهم غاية العنف والخصومة وتدمير كل العلاقات القائمة بين الأمتين على نحو يوحى بأنهم كانوا يستفزون العرب للانفصال .

والواضح أن العرب منذ بدأت يقظتهم عام ١٧٤٠ ، وحين ضعفت الدولة العثمانية . كانوا يعلمون أنهم هم وحدهم حملة لواء اليقظة العربية الإســـلامية ، وإليهم تعود قيادة الفكر العربى الإسلامى قيادة مستأنفة ، ولذلك فقد انطلقت حركة اليقظة من قلب أرضهم وعن طريق قادتهم ومفكريهم ، ونتيجة لهذا ضاعف النفوذ الاستعمارى ضغطه وشدد أساليبه عن طريق التغريب والغزو الثقافى فى محاولة ماكرة للقضاء على هذه اليقظة أو تغريبها أو تحويلها عن أهدافها إلى خدمة أهدافه ونفوذه .

ولقد كانت الوحدة التركية العربية على ما فيها من قصور . هى عامل قوة وسلاح تجمع فى مواجهة الغزو الاستعمارى الزاحف ، ولذلك فقد ركزت السياسة الاستعمارية جهداً ضخماً سياسياً واقتصاديا وفكريا وتآمرت وخلقت دعوات وحركات وأثارت قضايا وشبهات من أجل تمزيق هذه الوحدة وإثارة الخلاف والخصومة العنيفة بين الترك والعرب .

ولا شك عندنا أن بروز الكيان العربي كقوة قومية هو أحد مراحل حركة اليقظة الإسلامية ، ولذلك سرعان ما واجهه النفوذ الاستعماري وحاول الحيلولة دون تحقيقه والقضاء على مقوماته وإثارة الشبهات حول مفهومه ، وفرض المفهوم الغربي عليه رغبة في تحويله عن هدفه كقوة دافعة في سبيل اليقظة العربية الإسلامية .

حمل الشاميون مبكرين لواء الوحدة العربية كأيدلوجيا وفكرة ومنهج ، وكانوا لا يرون أنها تتعارض في مضمونها مع مفهوم الإسلام أو قيمه .

بل كانوا يقيمون أسسها على مقومات الإسلام وفكره ، وكانوا يؤمنون بأنها خطة أساسية في دعم الفكر العربي الاسلامي وأحيائه ، وحلقة من حلقات النضال والكفاح من أجل الوصول إلى الرابطة الاسلامية .

وكان مفهومهم أنه لا يمكن تحقيق الوحدة الاسلامية إلا بقيام الوحدة العربية أصلا بين العرب أصحاب اللسان العربي الذين فرقهم الاستعمار إلى دول وشعوب وحكومات ، ومن هنا فليس هناك تعارض بين العروبة والاسلام ، وكانت العروبة كمفهوم في نطاق الاسلام وداخل إطاره : هي حركة أمة تتجمع وتتوحد وأرضية ثابتة لفكرها وقيمها الأساسية مستمدة من الاسلام نفسه .

ولم يقع الانحراف عن هذا المعنى إلا خلال فترة ما بين الحربين عندما ضرب النفوذ الاستعماري بسلاحه « التغريب » هذه المفاهيم ، وحاول أن يفرض مفاهيم غربية للوحدة العربية والقومية العربية .

ومن الحق أن يقال أن الدعوة إلى الوحدة العربية التي حمل لواءها الشاميون كانت منطلقاً للأمة العربية كلها بحسبانها عودة إلى طبيعة كيان أمة وكانت الوحدة عامل قوة جديدة في مواجهة النفوذ الاستعماري وفي مواجهة تحديات التغريب .

وكانت أرضية الوحدة ـ وهي حلقة من حلقات اليقظة ونمواً لها ـ في مختلف مجالاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، أرضية قوامها الفكر العربي الاسلامي بحسبانه المنطلق الفكري للشرق كله منذ خمسة عشر قرناً . ولذلك فقد حاول دعاة مفهوم القومية الوافد من الغرب أن يقيموا دعامة الوحدة على : اللغة والتاريخ منفصلين عن الأرضية الجامعة وكلاهما مستمد من الفكر الاسلامي العربي لا ينفصلان عنه ، وعندنا أنه ليس اللغة والتاريخ وحدهما ، بل إن الفكر العربي الاسلامي أساساً هو أرضية الوحدة ولا تقوم الوحدة السياسية إلا إذا قامت وحدة الفكر أولا .

ولقد كان المنطلق الأول والأكبر لحركة الوحدة العربية الطورانية في تركيا هي اللغة وكذلك

كان منطلق الوحدة العربية بل إن اللغة كانت هي العامل الأول في الانفصال الكامل بين الأتراك والعرب حين ضغط الاتحاديون على اللغة العربية بقصد القضاء عليها ، وحين اتجه العرب إلى العمل لوحدتهم من منطلق اللغة على النحو الذي رسمته القاعدة الخالدة .

« إنما العربية اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

ومن هنا فقد كانت قاعدة التحول الذي عرفته يقظة الفكر العربي هي الانتقال من محور وحدة الفكر إلى محور وحدة اللغة .

وكان هذا إنتقالا طبيعياً بعد أن تمزق الفكر نفسه إلى ثقافات علية لها جذورها حقا من الفكر الاسلامي ، ولكنها قد خرجت عن مضمون موحد في كثير من القضايا .

وكان أبلغ خلافاتهم أن الأمة التركية استطاعت أن تنخلع عن جذورها وأرضيتها الاسلامية وأن تتجه مندفعة تحت سيطرة الانقلاب والنفوذ العسكري وليس عن طريق التطور الطبيعي أو التحول الذاتي - نحو الحضارة الغربية والفكر الغربي اندفاعا كاملا بينما استطاعت الأمة العربية أن تحافظ على جذورها وقيمها الأساسية في صلابة ودون أن تستسلم أمام إغراء الفكر الغربي ومحاولة الغزو الثقافي في احتوائه كاملا .

(٢)

يحاول كثير من الباحثين أن يرسم صورة تطور الفكر العربي اتجاها إلى وحدة الأمة العربية على أنه مشابهة وتقليد لما وقع في أوربا من تطور ، فالدولة الرومانية الغربية هي شبيهة الدولة العثمانية ، وتفككها يماثل تفكك تركيا ، وظهور القوميات في أوربا على انقاض الامبراطورية هو نفسه ظهور القوميات العربية والتركية على أنقاض دولة الخلافة .

وهذا التصوير فيه مشابهة تاريخية ، ولكنه يختلف كثيراً ، فإن ظهور القوميات في العالم الاسلامي لم يفصلها عن قاعدتها الأساسية وقيمها الأصيلة المستمدة من الاسلام والفكر الاسلامي ، وهو في ذاته عمل مقاومة وتحدى في مواجهة الغزو الغربي في صورة العسكرية والسياسية والفكرية ، ومحاولة تجمع اتجاها إلى الوحدة اللغوية والعرقية ، والتقاء بوحدة أكبر هي ، وحدة الفكر ، .

ولذلك فإن القومية هنا بحسبانها وحدة لغة وعرق ، لا تعارض الوحدة الفكرية بل تجرى معها في نطاق واحد ، وهي اتجاه طبيعي بالنسبة للأمم المحافظة على مقوماتها في وجه مؤامرات الغزو الغربي الحريصة على التمزيق والتفرقة ، وهي هنا موائمة صادقة في مواجهة الظروف والأحداث فقد كانت الوحدة الاسلامية تقوم على أساس كيان قائم له وجوده السياسي ودوره التاريخي فلما

تزلزل هذا الجدار وأصابه الخلل كان على الأمم أن تجد عوامل وحدتها وتجمعها فى كيان أوثق إتصالا وقرباً .

ومن هنا لقد ظهرت خلال فترة طويلة دعوات الوطنية ، والاقليمية . فى قلب الوطن العربى ، حيث لم تمكن هذه الشعوب قادرة على وحدة أوسع مدى ، فلما أثمرت الوحدة العربية وأينعت وتحررت الشعوب من ضغط النفوذ الاستعمارى العازل لها عن دائرة الوحدة العربية . لم تلبث أن إلتقت فيها ولا تزال تجد مقاومة وتحديا .

غير أن الوحدة العربية مخالفة بذلك الوحدة التركية ، أو الفارسية ، أو غيرها لا تنفصل عن قاعدتها الفكرية الإسلامية . مهما استطارت من حولها مفاهيم غربية تحاول أن تفرض عليها مفهوم القومية الغربى الذى يتمثل فى الانفصال عن الدين أساساً . إذ المعروف أن دعوة القومية الأوروبية التى استطارت بعد عصر النهضة إنما كانت تحاول الانفصال عن الكنيسة كقوة سياسية ضاغطة توازر الأمراء والاقطاع من ناحية وتقف فى وجه التقدم العلمى والنظريات الحديثة ، ولذلك فقد كانت القومية فى ذاتها سلاحاً مقاوما ومعارضاً للدين المتمثل فى قوة الكنيسة وما فرضته على السياسة والاجتماع والفكر من قيود أما مفهوم الوحدة العربية فهو لا يعادى الإسلام ولم يقع معه فى صراع مماثل لصراع الكنيسة والقوميات الأوروبية ، بل على العكس من ذلك . كان الإسلام دائما متفتحاً للنهضات والحضارات والعلم واسع الأفق فى تقبل الحضارة . مرناً أشد المرونة فى تقبل الأنظمة السياسية سواء أكان ذلك وفق مفهوم الديمقراطية فى التنظيم أو القومية فى الوحدة ، ومن هنا فلم يقع التعارض قط بين دعوة الوحدة العربية وبين الإسلام .

أما العلاقة بين الدين والقومية فى الفكر الإسلامى ومحاولة مقارنتها بالدين والقومية فى الغرب ، فإن الأمر جد مختلف ذلك لأن الإسلام أساساً ليس ديناً فحسب ، ولكنه دين ومجتمع وحضارة وفكر ونظام كامل شامل ، ومن هنا فلا خصومة بينه ككل وبين القومية التى لا تتعارض إطاره الواسع فى مجال التنظيم السياسى .

بقى الخلاف الوحيد فى وجه المقارنة بين القوميات الأوروبية والوحدة العربية : أن القومية كانت سلاحاً من أسلحة الاستعمار فى مواجهة الوحدة الإسلامية العثمانية ، فلما سقطت هذه الوحدة بسقوط الدولة العثمانية أصبح النفوذ الاستعمارى مواجها لفكرة الوحدة العربية محاولا الحيلولة دون قيامها من ناحية ، وعاملا من ناحية أخرى على إخراجها عن مضامينها ومفاهيمها وقيمها الأساسية المستمدة من (وحدة الفكر العربى الإسلامى) وذلك عن طريق فرض مفاهيم غربية عليها قوامها العلمانية الخالصة ، وفصل الدين عن المجتمع وطبعها بطابع التحدى الغربى للدين . بينما لا يوجد مثل هذا التحدى فى الفكر الإسلامى أساساً ، وبينما يكون الدين عنصراً أساسياً فى وحدة الفكر الإسلامى الذى تترابط فيه العناصر وتتكامل فى شمول ووسطية .

ومن هنا تواجه دعوة الوحدة تحدياً خطيراً . أساسه ما يدفع به دعاة التغريب والشعوبية من محاولة لفرض مفهوم غربي على فكرة القومية .

والحق أن الكيان العربي قد قام أساساً والدين جزء من تركيبها الاجتماعي والعقلي والروحي — خلافاً للأمم التي قامت دون أن يكون هذا العنصر أساساً في تركيبها — وهذا وجه الخلاف البعيد المدى بين مفهوم القومية الغربي على (تكوين عقل متشابه وتكوين وجداني مماثل) وهذا هو سر الوحدة ومضمونها وقوامها وقد صدق (هاملتون جب) حين أراد أن يصور العرب فقال « العرب هم كل من يعتبرون رسالة محمد وذكرى الامبراطورية العربية الحقيقية المركزية في التاريخ بالاضافة إلى اعتزازهم باللغة العربية وتراثها الثقافي واعتبارها ملكهم المشترك » . وعنده « أن اعتزاز القومية العربية برسالة محمد وآثار العرب المسلمين في الثقافة والحضارة لا يقل عن اعتزاز المسلمين الدينيين » .

ومن هنا يبدو أن (أرضية الفكر الإسلامي) هي أساس الوحدة العربية الأكيد ، فما معنى قول دعاة العلمانية : (إبعاد العامل الديني) .

الواقع أن الفكر الإسلامي ليس هو العامل الديني بحال فالإسلام كدين وعقائد لاهوتية عبادية . ذلك شأن المسلمين وحدهم ، وهو ما يقابل المسيحية أو اليهودية أو غيرها من الأديان . أما الفكر الإسلامي نفسه كحصيلة تاريخية ضخمة في مجال القانون والفلسفة والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية ، فإنما هو تراث مشترك المسلمين والمسيحيين على السواء ، ولا يمكن أن يقال أنه ملك خاص للمسلمين ، فقد قام على التوحيد أساساً كمنطلق واطار ثم امتص حصيلة ضخمة من التراث اليوناني والروماني والهندي والمسيحي والفارسي وصهرها في بوتقة القيم الإسلامية وداخل إطارها الذي قوامه (التوحيد) ومن هنا فلا صلة له بالعبادة ، ومن هنا فهو أساس وحدة الفكر العربي الذي يقوم على أساس وحدة العرب .

والحق أن كلمة (دين) أستعمل في هذه المجالات إستعمالا خاطئا أو مغرضاً في محاولة التفرقة أو الدس أو إثارة الخلاف بين العناصر المختلفة التي كونتها الثقافة العربية وصهرتها في وحدة جامعة .

والمحاولة هنا إنما هي محاولة المقارنة بين الإسلام كفكر متكامل قوامه نظرة شاملة في مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية وبين الأديان الأخرى التي عوقت الوحدة القومية وقاومت تطور العلم ونمو الحضارة .

لا شك كانت حركة الوحدة العربية التي بدأت في الشام والعراق ، ثم إتصلت بمصر وأصبحت تياراً من تياراتها (إزاء القومية الضيقة : المصرية) ودعوات وحدة وادي النيل أول لا شك كانت عاملا هاما في إنعاش الفكر العربي ومنحه قوة جديدة في سبيل دعم اليقظة العربية الإسلامية التي بدأت منذ عام ١٩٤٠ تقريباً ويمكن القول بأنها كانت ثمرة من ثمار هذه اليقظة التي اعتمدت أول الأمر على :

١ - تحرير الفكر من قيد التقليد (عقيدة وشريعة وأدبا وفكراً) .

٢ - تحرير اللغة من قيد السجع .

٣ - تحرير الأدب من قيد المقدمات والمحسنات .

وقد كانت بذلك عاملا هاما في مواجهة كل تحديات الاستعمار المتمثلة في : التغريب ، والغزو الثقافي ، الشعوبية ، مقاومة اللغة العربية ، مقاومة التاريخ ، ثم كأساس فكري للثقافة العربية .

ولقد ركز الاستعمار عمله في مجال الغزو الفكري على ثلاث عوامل هامة :

١ - تحريف القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية بما يضعف عامل المقاومة للاستعمار .

٢ - تحريف التاريخ بحسبانه ذاكرة الأمة الدافعة لها إلى العمل .

٣ - إضعاف اللغة وتغليب اللهجات العامية والاقليمية عليها وتشويهها

وقد ركزت دعوة الوحدة العربية أساساً على عامل اللغة والتاريخ . غير أن حركة اليقظة كانت تعني أساساً بعامل تحرير الفكر من قيد التقليد ومقاومة تحريف القيم الأساسية للفكر الإسلامي باعتبارها القاعدة الأساسية للوحدة العربية .

ولا شك كان قيام الوحدة العربية تطوراً طبيعياً لحركة اليقظة ، واستكمالا لجانبها السياسي والفكري . فقد تطورت هذه اليقظة من الدعوة إلى تصحيح مفهوم التوحيد إلى مقاومة الغزو ، إلى تأكيد الذات ببروز الأمة العربية على مسرح الأحداث مرة أخرى كقوة ذات فعالية في تجديد الفكر الإسلامي وتصحيح مفاهيمه وتحرير العقائد والأفكار من قيد التقليد ، وتجديد اللغة العربية وإحيائها وإحياء التاريخ ببطولاته وأمجاده كقوة دافعة ، ثم تطورت فأكملت جوانبها في مواجهة النفوذ الأجنبي حيث صقلت عامل المقاومة الفعال واستمدته من صميم الفكر الإسلامي ، ثم حررت القيم الأساسية من قيود التقليد والجبرية والجمود ، وكشفت عن جانب التجديد والاصلاح

والاجتهاد، وقد كان علينا وهي تتحرك في طريق مضطرد بالرغم من عوامل المعارضة الظاهرة والخفية التي يحاولها الاستعمار والنفوذ الغربي بينها وبين استكمال مفهومها وتعريفاً لوجودها ، كان عليها أن تستكمل الجانب السياسي والفكري بالتشكيل في دعوة إلى الوحدة العربية باعتبارها القوة الجامعة المواجهة الاستعمار ، المتكاملة داخلياً ذات الوحدة الفكرية القادرة على خلق الوحدة السياسية .

ويمكن القول بأن العرب والمسلمين منذ سقوط الدولة العثمانية لم يتوقفوا عن الاتجاه نحو الاتحاد أو الوحدة ، وحاولوا من أجل ذلك محاولات متعددة : الرابطة الشرقية ، الرابطة الإسلامية ، الرابطة النيلية ، ثم كانت الرابطة العربية بالنسبة لأصحاب اللسان العربي أقرب هذه الروابط وأصلحها .

وقد خشي كثيرون بعد سقوط الدولة العثمانية من خطر التفكك الذي يمكن النفوذ الاستعماري من التسلط والتغلغل ، ولكن دعوة الوحدة العربية التي إلتمست أرضيتها من الفكر العربي الإسلامي إستطاعت أن تخلق قوة جديدة لها فلسفتها وفكرها الحي المتطور الذي يلتمس الدفاع عن مقومات الأمة العربية والفكر الإسلامي العربي معاً ، وهو متفتح دوماً على الفكر البشري . أخذاً وعطاء . وقادراً على مواجهة التحديات ، وخاصة خطط التغريب والشعوبية وشجبها وفي ذلك إلتمست أعمال البعث للتراث التاريخي والأدبي والفقهي والفلسفي ، وأكدت وحدة اللغة ووحدة التاريخ تقاربا في العواطف والنزعات وكان لهذا أثره في هذه الفترة من مقاومة متصلة للنفوذ الاستعماري على مختلف صوره العسكرية والسياسية والفكرية ، وقد أتجهت دعوة المفكرين المجددين المصلحين جميعاً إلى وجهة تكاد تكون واحدة وهي التفتح الفكر الغربي وأخذ الوجوه الحسنة من مدنية الغرب ونبذ السيء منها (رفاعة ، على مبارك ، خير الدين التونسي) وكان محمد عبده حريصا على نفي التناقض بين الوطنية والإسلام ، مع الدعوة إلى العلم والتربية كوسيلة أساسية لمقاومة النفوذ الأجنبي وبناء الوحدة .

وقد ترابطت الوطنية المحلية والعروبة والإسلام في انتاج أدباء هذه المرحلة وفكرهم على نحو طبيعي دون انفصام . أو تعارض ، أو تناقض . ظهر ذلك في إنتاج المرصفي وعبد الله نديم وعبد الله فكري وابراهيم المويلحي وقاسم والمنفلوطي وعبد العزيز جاويش والبارودي واسماعيل صبري وشوقي وحافظ .

ومن هنا فإن الحلقات الثلاث : « الوطنية ، والقومية ، والإسلامية » كانت تلاقي ولا تعارض في تطور الفكر العربي . وكانت القومية والإسلام والوطنية كلها عوامل يقظة ، ومقاومة وغير أنها كانت تتقدم في الترتيب والعمل أو تتأخر حسبما تدعو الحاجة إليها .

كانت الدعوة الوطنية هي العامل الأبرز في مصر والسودان وتونس والجزائر باعتبارها أقطاراً قد انفصلت عن « الدولة العثمانية » مبكراً وسقطت في براثن النفوذ الاستعماري ، أما الدعوة العربية فقد كانت عامل المقاومة الأول في الشام والعراق والجزيرة العربية ، أما الإسلام فقد كان عامل المقاومة في المرحلة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية وفي مواجهة زحف النفوذ الاستعماري .

يقول البروفسور روميين في كتابه (يقظة العملاق) : ليس من الضروري أن يكون مفهوم القومية العربية مشابها أو نقلا عن مفهوم القومية الغربية أو على نفس أسسه ، ذلك أن مفاهيم الحركات السياسية ، وطنية أو قومية تستمد من الظروف والملابسات والتحديات الخاصة بكل بلد وغالباً ما تصاغ وفق هذه التحديات .

والحق أن العرب لم يكونوا يفرقون أو يفصلون في دعوتهم إلى اليقظة بين العروبة والإسلام ، وكان مصدر ذلك وعدم التعارض أو التضاد بين الإسلام والوحدة القومية ولأن الإسلام شب وافداً في بيئة العروبة أصلا . ولأن القرآن وهو أساس الفكر الإسلامي : عربي اللغة . وقد حفظ القرآن اللغة العربية والأمة العربية من الاندثار .

ويرى الكثير من الباحثين أن الدعوة القومية تطور طبيعي للجامعة الإسلامية وأن حركة القومية العربية استهدفت بعث الأمجاد العربية السياسية والقومية الثقافية والحضارية التي ركدت حركتها في عصور التغلب التركي وتوطيد حقوق العرب وثقتهم في بلادهم (دروزه) .

بكل هذه العوامل تأكد رفض القول القائل بأن الاسلام لا يساعد على نمو الوحدة ، ويصور (الدكتور توفيق برو) تداخل اليقظة العربية الاسلامية والقومية العربية معاً :

برهنت اليقظة الاسلامية على أنها كانت عاملا من عوامل اشتداد الوعي القومي وتأصله ، كما كان الوعي القومي في بدايته عاما لا يخرج عن التفكير الاسلامي ويهدف إلى جمع المسلمين في صعيد واحد وكان الشعور الديني رافداً من روافد النزعة الوطنية فالتلازم بين مفهومي العروبة والاسلام أمر طبيعي أصلا) .

وهكذا اليقظة العربية الاسلامية كانت في تصحيحها المفاهيم إيقاظاً لروح الأمة العربية عاملا هاما في تأصيل مفهوم الوحدة وإقامته على قواعد أساسية من القيم العربية الاسلامية ، وأن مقاومة الجمود وفتح باب الاجتهاد وإنعاش اللغة العربية وتحرير الفكر من قيد التقليد ، كل هذا قد استتبع بالطبع تأصيل الوحدة العربية وبمفهومها الطبيعي المستمد من دوافعها وجذورها ، والقائم على أساس وحدة الفكر ووحدة الثقافة .

وقد ظهرت في هذه الفترة صيحات مضللة تحمل اسم العروبة وكان مفهومها منحرفا وقام على هذه

الدعوات بعض دعاة التغريب أو التابعين للنفوذ الغربي الاستعماري ، الذين حملوا معهم أفكاراً ذات طابع معين استهدف إيقاع الخلاف بين المسلمين والمسيحيين وبين العرب الكرد وبين العرب والبربر كما قامت دعوات مصدرها التغريب بالعودة إلى الماضي الوثني للإسلام ، وقد حملت هذه الدعوات لواء الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية ، غير أن هذه الدعوات لم تلبث أن فشلت عندما تبين أن الفراعنة والفينيقيين وغيرهم إنما هم موجات عربية صدرت من الجزيرة العربية أصلا وأن لغاتهم ذات صلة أكيدة باللغة العربية الأم.

وقد تنبه المفكرون العرب في هذه المرحلة إلى هذه المحاولات الرامية إلى القضاء على وحدة الأمة العربية والعمل على تمزيقها والحيلولة دون قيام نهضتها على أساس مقوماتها الأصيلة ، بحسبان أن الأمة العربية هي طليعة القوى الاسلامية القادرة على حمل لواء البعث واليقظة والنهضة ولذلك فقد ركزت حركة التغريب تركيزاً ضخما على العرب ، أكثر كثيراً مما ركزت على الفرس والترك وغيرهم.

ولم تكن اليقظة العربية ابتغاء نهضة إسلامية عامة أمل العرب وحدهم أو هدفهم وحدهم بل كانت بالأحرى أمل المسلمين في العالم كله فقد تنبه الزعماء والمصلحون في مختلف أنحاء عالم الاسلام إلى أهمية اليقظة العربية ودورها الفعال الأكيد ويصور العلامة عبد الحق الأعظمي البغدادي - المنار (١٩١٥م هذا المعنى فيقول :

« إن الخطر الذي يلحق الاسلام عن استيلاء الأجانب على الأمة العربية والبلاد العربية أشد وأدهى من كل خطر ، ذلك لأن العرب كما لا يخفى روح الاسلام وعزة بلاده ونقطة دائرته ومركزه فالاستيلاء عليها على قلب الاسلام وضربة - إذا ذلت العرب ذل الاسلام - » .

بل إن البعض قد ذهب إلى أبعد من ذلك فرأى أن الدعوة الوهابية كانت محاولة لخلق رابطة عربية القيادة إسلامية الهدف القيام بتوحيد المسلمين ، ومنذ ذلك الوقت ظل الوعي القومي مرتبطاً بالاسلام . ويعزو الدكتور عبد العزيز الدوري وحدة العرب إلى الاسلام أساساً فيقول : « فالاسلام هو الذي حقق وحدة العرب والقرآن هو الذي حقق وحدة الله وثبت هذا الأساس المهم لتكوين الأمــــة » .

ومن الحق أن يقال أن العروبة وحدة كيان والاسلام وحدة فكر ، وأن العروبة رابطة عرق والاسلام رابطة فكر فالفرق بين الاسلام والعروبة هو فرق في النوع ، بين رابطة الوطن والأرض ورابطة الفكر والثقافة ، ولقد ظلت العروبة على مدى التاريخ الطويل تقوم من خلال الفكر الاسلامي وفي حضارته لم تنفصل عنه

(٢)

مرحلة الغزو الغربي للفكر العربي

يمكن أن يطلق على الفترة ما بين (١٧٧٩ - ١٩١٨) بأنها مرحلة متكاملة : التاريخ الأول يمثل أول غزو غربي مسلح : الحملة الفرنسية على مصر .

وفيما بين هذين التاريخين كان الإستعمار قد وضع يده على مختلف أجزاء العالم الإسلامي (والعربي جزء منه) سواء بالاحتلال العسكري أم بالمعاهدات السياسية ، فقد سقطت الجزائر عام ١٨٣٠ وتونس عام ١٨٨١ ومصر عام ١٨٨٢ والسودان عام ١٨٩٩ وليبيا عام ١٩١٢ والمغرب عام ١٩١٢ ثم سقطت منطقة الهلال الخصيب (العراق - الشام) عام ١٩١٨ . وذلك حين دخل لورد اللنبي مدينة القدس وأعلن عبارته التاريخية الخطيرة : « الآن إنتهت الحروب الصليبية » .

ومعنى هذا أن الاستعمار الغربي الحديث قد ربط بينه وبين الغزو الصليبي الذى أجلاه العرب والمسلمون قبل سبعة قرون وأنه قد حقق باحتلال العالم العربي أضخم هدف من أهدافه وهو تمزيق الامبراطورية العثمانية وإعادة النفوذ الغربي إلى العالم الإسلامي والتركيز على الوطن العربي . هذا النفوذ الذى كان قد إنحسر بجلاء آخر قوى الصليبيين (٦٩٠ هـ ١٢٩١ م)

وعلى أثر هذه الهزيمة قامت الوحدة الإسلامية العثمانية التى ظلت تجمع بين العناصر العربية التركية حتى عام ١٩١٨ .

وكانت قد إنبثقت خلال هذه الفترة (حركة الاستعمار) الذى أطلق عليها حركة (تطويق عالم الإسلام) عام ١٥٠٠ تقريباً واستمرت إلى عام ١٧٧٦ حين بدأت أول حملة عسكرية غربية مهاجمة العالم الإسلامي فى مصر وهى حملة نابليون .

وفى خلال حركة التطويق بدأت أوربا تضع يدها على جميع أجزاء العالم الإسلامي ثم كانت مرحلة ما بين ١٧٧٩ - ١٩١٨ هى مرحلة السيطرة السياسية العسكرية على الوطن العربي والهند وفارس وتركيا ويمكن أن يقال أن رجلين من كبار رجال الاستعمار قد افتتح أحدهم هذه المرحلة والآخر إختتمها وأن عبارة كل منهما متممة لعبارة الآخر . أما الأول فهو غلادستون رئيس وزراء بريطانيا الذى وقف على منبر مجلس العموم البريطانى ، وفى يده المصحف الشريف حين قال : ما دام هذا الكتاب باقياً فى الأرض فلا أمل لنا فى إخضاع المسلمين . ومن هذه النقطة كانت إنطلاقة حركة التغريب التى إستهدفت (تمويه) مفاهيم القرآن وحضارته وتراثه ولغته جميعاً .

ثم كانت كلمة اللورد اللنبى يوم احتلال القدس تأكيداً لتحقيق هذه السيطرة ، هذا بالاضافة إلى كلمة الجنرال غورو فى دمشق فى نفس هذه اللحظات الحاسمة حين وقف أمام قبر صلاح الدين وقال : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين ، ذلك أنه من الحق أن يقال أن هؤلاء القادة الاوربيين لم يستطيعوا أن يكتموا مشاعرهم أو يعملوا على إخفاء الحقيقة حقيقة العمل الذى سعت له أوربا منذ هزيمتها فى الحروب الصليبية إلى إعادة النفوذ الأجنبى إلى العالم الاسلامى مرة أخرى ، ما حقق فى النهاية سيطرة الغرب سيطرة كاملة على عالم الإسلام والعرب وفكرهم وحياتهم .

فى خلال هذه المرحلة نجد كثيراً من الظواهر :

أولا : دخول الماسونية إلى الوطن العربى مع حملة نابليون عام ١٧٩٩ .

— إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ وأثرها فى الصراع بين القوى الأجنبية .

ثانياً : إبراز دور الثورة الفرنسية عام ١٨٧٩ فى الفكر العربى .

ثالثاً : توسع نشاط الغزو الثقافى عن طريق المدارس الأجنبية فى مصر وبيروت والقدس منذ عام ١٨٩٠ .

رابعاً : حماية فرنسا المغرب التى بدأت فى الجزائر عام ١٨٤٧ واستمرارها فى المغرب وتونس .

خامساً : سيطرة حركة التبشير وأعمالها منذ عام ١٨٣٠ وخطواتها المتعددة

سادساً : إستغلال نظرية داروين التى ظهرت عام ١٨٥٩ بكتاب أصل الأنواع وعام ١٨٧١ بظهور كتاب أصل الانسان .

سابعاً : إستغلال الدعوة الماركسية عام ١٨٨٣ التى إنتهت عام ١٩١٨ بظهور الدولة السوفيتية فى روسيا .

ثامناً : دور الدونمة فى تركيا عام ١٨٧٥ واتصالها بالماسونية وأثرها على حركات الفكر الإسلامى .

تاسعاً : دور الجمعيات السرية العربية التى تكونت فى حرم الكلية السورية الأمريكية عام ١٨٧٥ .

عاشراً : بروز الحركة الصهيونية بقيادة هرتزل عام ١٨٩٥ وتطوراتها ودورها وموقفها من الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وفلسطين .

حادي عشر : ظهور حركة الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي) ومولودها حزب (تركيا الفتاة) وسيطرت الحركة الماسونية عليها وتحويلها إلى هدف القضاء على حركة الوحدة الإسلامية التي قادها عبد الحميد وإقامة نظام تابع يعمل على تحطيم الوحدة بين العرب والترك وتسليم تركيا إلى النفوذ الغربي ونزعها عن الفكر الإسلامي .

ثاني عشر : دعوات الفصل بين الجنسية والدين أو بين الجامعة الدينية والوطنية والفصل بين الدين والدولة ، وبين العرب والترك ومقاومة الجامعة الاسلامية .

ثالث عشر : ظهور وتشجيع واستخدام الدعوات الهدامة : المادية الغربية ، والبهائية .

رابع عشر : الدعوة إلى العامية وكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية .

خامس عشر : القضاء على الشريعة الاسلامية وسيطرة القوانين الوضعية .

سادس عشر : القضاء على مناهج التربية العربية الاسلامية وإحلال مناهج تعليمية لائكية منفصلة عن الدين .

سابع عشر : الدعوة إلى الفينيقية ، والفرعونية ، والبربرية ، وإحياء الدعوات القديمة السابقة للاسلام .

ويمكن القول بأن كل هذه الجذور قد انبثقت في هذه المرحلة — مرحلة الغزو الغربي للفكر الاسلامي — واستعملت كأسلحة لغزو الفكر العربي الاسلامي في حالة إنطلاقه وتحرره ويقظته وذلك بهدف تحويله عن غايته وهدم مقوماته وإثارة الشبهات حول قيمه وأسسه وقد استهدفت كل هذه الدعوات حركة اليقظة (القائمة في مجال الكيان العربي بالذات) وقد إمتد نفوذه إلى مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، ولكنه ركز بالذات على منطقة البلاد العربية ومصر في مقدمتها .

وقد ترابطت هذه الآراء والنظريات والدعوات والحركات وتشكلت في خطة موحدة يمكن أن يطلق عليها (دعوة التغريب) التي أفصحت عن عملها الواضح الصريح في مرحلة ما بين الحربين (١٩١٨ — ١٩٣٩) وذلك بعد أن سيطر النفوذ الاستعماري العسكري والسياسي على العالم الاسلامي كله وأصبح قاهراً على الحركة مسنوداً بنفوذ الجيوش الأجنبية المحتلة والحكومات التابعة لذلك النفوذ .

هذه المرحلة التي يطلق عليها (مرحلة تغريب الفكر العربي) .

ويمكن أن يقال إن المصدر الأول أو المحرك لكل هذه الخيوط كان واحداً وإن اختلفت مظاهره أو حملة ألويته .

فلم تكن فرنسا وانجلترا وإيطاليا وغيرها من الدول المحتلة إلا داخلة في إطار حركة أكبر يمكن أن يطلق عليها (حركة الاستعمار والمدنية الغربية) قوامها النفوذ الماسوني الصهيوني الاستعماري جميعا .

وهي حركة تستهدف أساساً السيطرة على هذه المنطقة واتخاذ الوسائل الكفيلة ، ليس فقط باستدامة السيطرة وحدها بل باحتوائها داخل قوة المدنية الغربية وفكرها .

فالاستعمار في حقيقته ليس إلا وليد الحضارة الغربية المسيطرة ، بقواها المادية ومفاهيمها الثقافية معاً ، بحسبان أنها حضارة عالمية يقودها الرجل الأبيض وتدعى أنها تعمل على تمدين الشعوب والأمم وفق مفهوم يقول بأن الحضارة الغربية تؤمن في أعماقها أنها صاحبة السيادة على كل ما وراء أوربا وفق مفهوم الحضارة الرومانية (روما سادة وما وراء روما برابرة) وهي تؤمن بأن عليها واجباً إنسانياً وأساسياً وهو تمدين هذا العالم المتأخر المتخلف الملون (غير الأبيض) وذلك بفرض هذه الحضارة وفكرها ونفوذها على أساس أن تصهر العالم كله بثقافاته وحضاراته في بوتقة حضارتها المسيطرة العالمية ، وهذا هو مفهوم الدعوة العالمية أو البشرية أو الأممية فهي دعوة إلى العالمية وإلى وحدة الثقافة والحضارة البشرية في نطاق الحضارة المستعمرة والمسيطرة .

ومن هنا نعرف أن مخططات السيطرة عسكرية وسياسية لم تكن في الحق موقوتة بمرحلة معينة وإنما كانت فقط مقدمة لحركة الاستيعاب والاحتواء والهضم الكامل ، حيث لا يتم الاحتواء إلا بحركة غزو فكري وحضاري يتيح لها إذابة الحضارات والثقافات في بوتقتها وفي مقدمتها الحضارة الاسلامية والثقافة العربية الخطرة التي غزت أوربا مرتين وحاولت السيطرة عليها ، والهدف هو تحويل المسلمين والعرب إلى ولاء أساسي للفكر الغربي والحضارة الغربية .

ومن هنا فقد كانت خطوات الاستعمار مع الصهيونية العالمية وحركة التبشير والنظريات المادية بالاضافة إلى الدعوات الهدامة ومحاولات القضاء على اللغة والشريعة والفصل بين الدين والدولة وتحريف مناهج التعليم وإحياء الدعوات القديمة السابقة للاسلام . كل هذا إنما يمثل عملا متكاملا ومخططاً واضحاً شاملا يهدف إلى (تدمير) الفكر العربي الاسلامي وتمزيقه وإثارة الشبهات حوله ، مع إعلاء شأن القيم والمفاهيم الأوربية والتاريخ الأوربي والبطولة الغربية كعلامات قوة وتقدم ، وإجراء المقارنة بينها وبين القيم الاسلامية على أساس أن الأخيرة هي مصدر الضعف والتخلف والانحطاط الذي مني به المسلمون والعرب .

وقد كانت حركات التبشير عن طريق الصحافة والتعليم والمعاهد العالية هي الطليعة الأولى لهذا العمل ثم رفدتها روافد أخرى واستغلت قضايا كثيرة منها الثورات الفرنسية والماركسية والنظريات المادية ، وكان المجال الحيوي للعمل كله إنما يتم عن طريق مدارس الإرساليات والمناهج التربوية والتعليمية المفروضة عن طريق الاستعمار على المدرسة العربية والصحافة العربية والثقافة العربية وكانت أكبر عملية ضغط هي إحلال اللغات الفرنسية والإنجليزية بدلا من اللغة العربية التي قضى عليها الاستعمار بالتجميد والتوقف ، فلما اندلعت الحرب العالمية ١٩١٤ - وانتهت ١٩١٨ فرض الاستعمار بعدها طابعاً جديداً من الحياة السياسية والفطرية وقدم طليعة من المثقفين العرب الذين تعلموا في مدارس الإرساليات أو في البعثات الأوربية ، بالإضافة إلى جهد السوريين المهاجرين إلى مصر من المارون أولياء النفوذ الاستعماري المسيطرين على الصحافة العربية .

ويبدو هذا التحول والتغير في أكثر من صورة : ولعل أبرز صورة تلك التي يقدمها أمثال الدكتور طه حسين وسلامة موسى .

عزز الغزو الغربي الفكر الإسلامي جذوره في أرض العرب منذ وقت بعيد ، ويمكن أن يقال إن عام ١٨٦٠ كان عاملا حاسماً بالنسبة للنفوذ الاستعماري لاتخاذ هذه الخطوة عن طريق التربية والتعليم والمدرسة وكان (اسماعيل) في مصر قد أعلن أن مصر قطعة من أوربا وأقام المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية بديلا للقضاء الإسلامي ، وكان القضاء في عهد إسماعيل موحى به من الاستعمار الفرنسي نقلا من نظامهم في الجزائر كما أشار إلى ذلك نوباريا باشا في مذكرة رفعها إلى اسماعيل (١٠ أغسطس ١٨٦٧) ثم بدا الخديو اسماعيل وهو يؤكد دور البعثات التبشيرية ويمنحها امتيازات متعددة إيماناً بما أشار إليه نوبار من أن (التقدم لا يأتي إلا من ناحية أوربا) واستجلاباً لرؤوس الأموال الأجنبية أعطى إسماعيل البعثات التبشيرية مبالغ طائلة خلال عام ١٨٦٩ وما بعدها

فقد أعطى لرئيس أساقفة اللاتين ٢٥٠٠ ذراع من الأرض تقدر بمبلغ ١٥٠ ألف فرنك ذهباً ، وذلك لبناء مؤسسة تبشيرية عليها تفتح أبوابها للمسلمين وتحولهم عن دينهم وفكرهم كما أعطى الراهبات إعانة سنوية (٦ آلاف فرنك ذهباً) وإعانة قيمتها ٢٠٠ ألف فرنك ، وقد بدأت هذه المدارس تعمل في حماية الامتيازات الأجنبية بعيدة عن أي رقابة مصرية من أي نوع وهي فرنسية وبريطانية وذلك بالإضافة إلى المحافل الماسونية التي كانت تعمل بنشاط وتستقطب البارزين من السياسيين المصريين .

ويمكن القول في هذا المجال بأنه : منذ بدأ تيار يقظة الفكر العربي يكشف عن هويته الأولى ، حتى أخذ النفوذ الأجنبي يواجهه ويخطط له بالمقاومة للقضاء عليه .

وكان العمل للقضاء على دعوة التوحيد إنما يجري بإنشاء حركة مماثلة من حيث الدعوة إلى اليقظة

هائلة لها في المنهج معززة بقوى النفوذ الاستعماري لاستقطاب المثقفين وتمهيداً للقضاء على الدعوة الأصيلة .

ثم بدأت حركة الإرساليات في مجال التعليم كمنطلق لقيام تيار معارض أو معدل أو بديل لتيار اليقظة ، فقد حرصت هذه الحركة التعليمية أن تقوم في مركز دقيق هو (بيروت) وأن تواجه حركة اليقظة الإسلامية الطابع بتيار غربي خالص يحمل لواءه دعاة من غير المسلمين ، ثم لم يلبث هذا التيار أن أصبح يمثل معارضة أو مواجهة للتيار الأول من حيث الجذور التي يحملها ، فهو يدعو إلى الوحدة العربية للانفصال عن الدولة العثمانية وتمزيق وحدة العرب والترك أساساً ، حيث يقوم على مناهج التعليم والتربية والثقافة التي تحمل طابع للمفهوم الغربي المستمد من الفكر الأوربي المنفصل عن الدين بحسبانه معوقاً للنهضة ثم جرى إثارة هذا الرأي ومحاولة تطبيقه واتخاذ واقع الدولة العثمانية مفهوماً للإسلام نفسه بينما لم تكن الدولة العثمانية في الواقع تمثل جوهر الإسلام وإنما كانت انحرافاً عنه .

من هذه البؤرة ظهرت مدرسة ذات ولاء غربي تحمل لواء الدعوة إلى النهضة الخادعة وقوامها الترويج للفكر الأوربي والحضارة الغربية وإعلائها من الغض والانتقاص من الفكر العربي الإسلامي وتراثه وتاريخه ومحاولة اصطناع المناهج والمفاهيم الأوربية في الوطنية والحرية وتطويع النفوذ الأجنبي وتحويله إلى ولاء وصداقة مع تأريث الخصومة والحقد بين العرب بعضهم وبعض وبينهم وبين المسلمين .

وقد أتيح لهذه الطلائع من دعاة النفوذ الاستعماري أن تهجر مواطنها الأصلي في الشام إلى القاهرة حيث الاستعمار البريطاني يعمل من منهجه محاربة الدولة العثمانية وتمزيق خصومها . الذين هم في نفس مؤيدوه ودعاته من أمثال فارس نمر ويعقوب صروف وزيدان ومركيس وفرح أنطون وشبلي شميل .

ومن هنا فقد استطاعت طائفة من الكتاب اللبنانيين ـ غير المسلمين ـ أن تسيطر على الفكر العربي عن طريق الصحافة الرائجة : كالأهرام والمقطم والمقتطف والهلال وهم على درجات من حيث الدعوة بعضهم مندفع أمثال شبلي شميل وفرح أنطون وفارس نمر وبعضهم معتدل كالدكتور صروف وجرجي زيدان وبعضهم فرنسي الاتجاه وبعضهم انجليزية .

ومن هنا أصبحت هناك مواجهة جديدة لتيار اليقظة الممتد في حركات ودعوات ومصلحين يربطهم خيط واحد على مدى أكثر من قرن من الزمان غير أن تبنى جمال الدين الأفغاني لبعض هؤلاء الكتاب من ناحية والظروف التي فرضت على الشيخ محمد عبده ـ بعد الاحتلال ـ أن يوائم بين دعوته وبين نفوذ الاحتلال البريطاني في مصر وما فرض عليه من موقف عرف خلاله بأنه في جانب

اللورد كرومر ، كل هذا قد خلق تياراً بدأ طبيعياً في الدعوة إلى ما أطلق عليه « مصر المصريين » منعزلا عن التيار العربي والإسلامي وقد حمل هذا التيار لواء الإلتقاء بالنفوذ الاستعماري في منتصف الطريق وعدم معارضته كما حمل لواء الدعوة إلى الفكر الغربي والايمان بأنه مصدر النهضة ، والايغال في نقله على نحو أقل دقة ودون محافظة على القاعدة الأساسية للفكر العربي الاسلامي .

ومن هنا برزت مدرسة « حزب الأمة » التي استطاعت أن تجمع حولها كثيراً من المثقفين وتعزلهم عن التيار الطبيعي الأصلي الذي اعتراه الوهن في هذه الفترة .

ومن ثم فإن هذه المدرسة الغربية الاتجاه لم تلبث بعد الحرب العالمية الأولى أن أصبح إليها قيادة السياسة والفكر في مصر جميعاً ويمكن أن يطلق عليها اسم مدرسة سعد زغلول ، خلفاء حزب الأمة عن وكلت إليهم من بعد أمور السياسة والفكر جميعاً .

وقد كان سعد زغلول نفسه — كما كان لطفي السيد — من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقد اعتبرهم الاستعمار خلفاء له وامتداداً لمدرسته بينما وقف تيار اليقظة الحقيقي ممثلا في الشيخ رشيد رضا ومناره جانباً ، ووصف بأنه تيار محافظ وقد انضم إلى هذا التيار عدد من المصلحين : أمثال فريد وجدي ومصطفى المراغي .

غير أن هذا التيار الجديد وقد أمضى سنوات في الدعوة إلى التجديد وفق مفهوم النقل من الغرب قد وائم بين دعاته فأظهر طائفة من المجددين المعتدلين : في مقدمتهم العقاد وهيكل ومصطفى عبد الرازق وزكي مبارك .

وظهرت طائفة المتطرفين الذين كانت صلاتهم بحركة التغريب أكثر قوة وعمقاً ومنهم محمود عزمي وطه حسين وسلامة موسى .

غير أن بعض أتباع المدرسة الغربية قد تحول قليلا عن موقفه وانحاز إلى صف حركة اليقظة واتصل بها وفي مقدمة هؤلاء الدكتور هيكل ومنصور فهمي والعقاد فقد غيروا من اتجاههم وأصبحوا عناصر أصيلة في مدرسة اليقظة العربية الاسلامية وأضافوا ثقافتهم الغربية ومناهجهم الجديدة لتكون قوة للفكر العربي الاسلامي .

ووصفوا بأنهم مثل (الأشاعرة) الذين أيدوا مذهب السنة بمناهج الجدل والمنطق المستقاة من الفلسفة اليونانية والقياس مع الفارق .

وتعطي المراجعة الدقيقة والاستقصاء لمرحلة ما بين الحربين أن مرحلة ما بعد الحرب الأولى لم تكن امتداداً طبيعياً وإنما كانت إلى ذلك تركيزاً أقوى من جانب النفوذ الغربي أعطى « حركة التغريب » قوتها ومداها .

فالصحف اللبنانية التي تحمل لواء التغريب - تحت اسم براق هو التجديد - تعمل في حذر شديد وتجد من ورائها كتابات ذات جرأة بالغة أمثال الدكتور شبلي شميل وفرح أنطون وغيرهما من الذين تقوم دعوتهم أساساً على نقل كل النظريات والمذاهب والفلسفات الغربية بمختلف تياراتها واتجاهاتها إلى جو الفكر العربي وإغراقه بها إغراقاً كاملا ، وكان مفهومهم أساساً أنه ليست الحضارة الغربية وحدها هي التي تنقل ، ولكن المدنية الأوربية جميعاً (ثقافة وحضارة) وكان أبرز ما يتمثل ذلك في إقصاء كل ما يتصل بالدين أو الروحية أو الأخلاق إقصاء شاملا ، فجرجي زيدان يكتب عام ١٨٩٨ تحت عنوان (علوم واتركوم) فيقول أن القدوة الفاضلة والأخلاق الحسنة كافيتان وحدهما دون الارتباط بالدين لجعل العلم أساساً للسلوك الحسن ، وكذلك يفعل يعقوب صروف وفارس نمر ، أما دكتور شبلي شميل وفرح أنطون فيذهبان إلى أبعد من ذلك حيث يدعو شميل إلى العلمانية الصريحة والأخذ بمبدأ النشوء والارتقاء قاعدة لتفسير الكون دون النظر إلى ما وراء الطبيعة وتبدأ كتابات شبلي شميل مع نشأة المقتطف تقريباً عام ١٨٧٥ واستمر حتى وفاته عام ١٩١٧

فالانسان في نظرة كائن بيولوجي يخضع لنواميس طبيعية ، وقد اعتبر النظام الطبيعي - لا الدين هو منبع الأخلاق والمراجع الأعلى في تقرير القيم ، ويذهب إلى الدعوة إلى المواطنة العالمية التي تذوب فيها القوميات الخاصة ويصبح العالم أمة واحدة - وهو مبدأ وحدة الحضارة الغربية ، ودعا إلى العمل إلى هدم مدرسة الحقوق وإنشاء مدرسة الكيمياء .

أما فرح أنطون فهو صاحب الحملات العنيفة التي تدعي قصور الفكر الاسلامي عن حرية الفكر محاولا أن يصور ما حدث لابن رشد في خصومته مع السلطان المغربي ، أنها خصومة الفكر الاسلامي الحرية — أو إتهام الإسلام بالجمود والتخلف جريا وراء الخطط التي رسمها اللورد كرومر وسار عليها كل دعاة التغريب وقد أغنى الأستاذ محمد عبده في الرد عليه وهدم فكرته .

وكان كلاهما و أنطون وشميل ، يحاول أن يربط تخلف العرب والمسلمين بالاسلام ونهضة أوربا وعظمتها بالمسيحية وهي مغالطة واضحة . كما اتصل هذا الهجوم بالدعوة إلى إقصاء مفاهيم الفكر العربي الاسلامي وإحلال روح العلمانية وروح الاقليمية الضعيفة .

وقد أخطأ كلاهما في مهاجمة الوحدة العربية والدين فقد كانا يحسبان أنه من السهل تحرير الفكر العربي من هذين الهدفين الويحا بدعوة الايمان بالعلم والحضارة والعالمية .

وقد كان الفكر العربي الاسلامي كعادته قادراً على أن يأخذ من كل موجات المذاهب والدعوات حاجته ويلفظ الزائد والمنحرف . فقد استرد مفهومه العلمي والنظرة العقلية التي كانت أساساً من طبيعته وجوهره والتي افتقدها في فترة الضعف وغلبة النزعة الجبرية ورفض الباقي . ولم تجد محاولة فرض النظرة المادية البيولوجية كأساس للفكر العربي فتيلا ، وأنشأت مدرسة الكيمياء ولم تهدم مدرسة الحقوق . ولقد هاجم الدكتور صروف صديقه شبلي شميل مراراً ووصفه بأنه ليس متخصصاً فيما يدعو إليه ، لأنه درس الطب بينما درس الدكتور يعقوب صروف العلوم الطبيعية ووصف أكثر المؤرخين اعتدالا منهج الدكتور شميل بأنه منهج حماسي فيه إسراف في الاعجاب بالحضارة الغربية والانتماء إليها هذا فضلا عما كشفت عنه النصوص من ولائه للاستعمار البريطاني ولاء بالغ الخطر

وقد رفض الفكر الإسلامي الحديث استبعاد الدين والفكر الديني وأقر بارتباطه به كجزء أساسي منه، وظل يتمثله ويتحرك في إطاره واستطاع أن يبلور النظرة العلمية على أساس الارتباط بين الدين والعلم وفق قانونه الأساسي (التكامل، الوسطية، الحركة).

وإذا كان الشميل قد دعا إلى إحلال العلم محل الدين كقاعدة للأخلاق، فإن فرح أنطون كان يلح بالدعوة إلى أن الأديان هي مدعاة التفرقة الاجتماعية والوطنية وأنها في جوهرها تتناول السماويات فحسب. كما دعا إلى الفصل بين الدين والمجتمع، ولم يكن في ذلك عصرياً غربياً بقدر ما كان طائفياً يتحمس لمفهوم ديني خاص لا يصلح للتطبيق على فكر إنساني عالمي، يجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب، والدين والمجتمع، وربما كان ذلك شأن مختلف المفكرين — من غير المسلمين في العصر الحديث من أجل دعم نزعة النفوذ الغربي الدائمة في خلق جناح معارض يهاجم مفهوم الفكر الإسلامي حتى لا تلتقي عناصر الأمة الواحدة على فلسفة موحدة.

وفي هذا يقول نعيم عطية: «لا ريب أن الشميل وأنطون كانا يمثلان الجماعات المسيحية وربما الأقليات الدينية الأخرى فأعربا مداورة عن تخوف هذه الجماعات من الذوبان في دولة دينية إسلامية أو على الأقل صعوبة قيام وحدة اجتماعية صحيحة في مجتمع له دين ودولة».

ويمكن القول بأن الفكر الإسلامي قد امتص عصارات إيجابية من تراثه أبعد أثراً من الترجمات والمنقولات المتضاربة عن مذاهب الفكر الغربي زادته قوة على الحياة واستطاع بها أن يقف موقفاً وسطاً بين النظرة الموروثة عن فترة الضعف ذات الطابع الجبري التقليدي، وبين النظرة العلمانية الغربية الصرف ووائم بين التراث والمستورد وحاول أن يصهرهما في بوتقة الأصالة وفق الخط الطبيعي الممتد الذي مضت عليه ربه خطة اليقظة طوال تاريخها.

وربما كان حزب الأمة ونظريات لطفي السيد أكبر أثراً من مدرسة الصحفيين اللبنانيين فقد احتمى في ظل مفاهيم محمد عبده كإطار بينما ركز على مفاهيم اللورد كرومر كأساس ومزج بينهما على نحو يختلف عن نظرة الثقافة الفرنسية الشركسية التي يمثلها القصر، وتمهيداً لإزاحة الثقافة الوطنية الحماسية ذات الطابع الإسلامي العثماني التي يمثلها الحزب الوطني.

وكانت دعوة (مصر للمصريين) ذات صدى محبب إلى بعض النفوس، وخاصة ذوي النفوذ الجديد والطبقة التي صنعها النفوذ الانجليزي بعد الاحتلال. وقد وصف اللورد كرومر هذه الجماعة بعد أن نسبها إلى شيعة الشيخ محمد عبده في تقريره عام ١٩٠٦ فقال إنهم فئة من المصريين قليلة ولكن عددها يأخذ في الازدياد، وهم يعملون على تقدم إخوانهم في الدين دون أن يصطبغوا بصبغة الجامعة الإسلامية وهم يرغبون في التعاون مع الأوربيين على إدخال المدنية الأوربية في مصر.

ثم يقول اللورد كرومر : « إنى أرى أن الأمل الوحيد الوطنية المصرية فى معناها المعقول الصحيح إنما هو معقود بأعضاء حزب الأمة » .

وقد دعا لطفى السيد إلى السير على نهج الشيخ عبده فى التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربى وبين الحياة الاجتماعية والمدنية والأدبية فى مصر .

ولقد استغلت هذه الجماعة وعلى رأسها لطفى السيد وسعد زغلول حرية رأى الشيخ محمد عبده واتخذوا منها وسيلة إلى خطوة أكثر تغريباً حيث أن محمد عبده إنما كان يدعو إلى الأخذ من حضارة أوربا على قاعدة (أرضية أساسية من الفكر الإسلامى) تقبل وترفض ، أما جماعة الجريدة فكانت تدعو إلى التحرر الكامل من هذه الأرضية .

وقد غلبت هذه المدرسة نزعة الإقليمية المصرية وأدخلت أساليب التفرنج فى الأفكار الاجتماعية والقانونية والمعيشية — وذلك على حد تعريف رشيد رضا لسعد زغلول .

فقد رفض لطفى السيد منذ عام ١٩٠٧ فكرة الجامعة الاسلامية وفكرة الوحدة العربية جميعاً ، ووقف عند فكرة مصر للمصريين ، (وأزاح الدين كأساس للوحدة القومية وجعل بديلا له ما أسماه الحياة المشتركة فى التاريخ الطويل والإرادة فى اتحاد مصر الوطن الأول الوحيد دون تجزئة فى الولاء) .

ويقرر (نسيم عطية) أن لطفى السيد ما طلب أن يكون الدين الاسلامى أساساً لتعليم الأخلاق ولا أن الدين الاسلامى هو أحد مكونات المجتمع المصرى الطبيعية وليس فيه بحد ذاته ما يجعله أفضل من غيره من الأنظمة والأديان . نقول وبهذا يكون لطفى السيد قد حول اتجاه حزب الأمة نحو أقرب ما يكون من قرباً من مفهوم العلمانية التى دعا إليها شبلى شميل وفرح أنطون ولكن بقلم مصرى مسلم ، وذلك دون أن يتهجم على الدين بل يتجاهله عموماً ودون أن يدعو إلى ثقافة علمية مادية صريحة .

على هذا النحو كانت مقدمات ما بعد الحرب الأولى وحيث اندفعت حركة التغريب إلى مرحلة جديدة حيث لم يكفها هذا التحول الذى تقوم به مدارس الصحافة اللبنانية فى مصر وحزب الأمة ، بل بدأ الأمر يحمل طابعاً أشد حماسة وعنفاً .

ومن المعروف أن حزب الأمة قبل الحرب الأولى قد تطور بعدها فى سعد زغلول ومدرسته ثم تألق فى حزب الأحرار الدستوريون منفصلا عن الوفد . وتحاول كتابات الدكتور طه حسين أن تلقى الضوء الكاشف على هذه المرحلة على نحو يوضح بأن هذه المدرسة لم تكتف بأن تسلك سبيلا

متصلا بالشيخ محمد عبده ، بل تخطت ذلك بكثير وفى مناسبتين يصور طه حسين كيف كان موقفه بعد عودته من أوربا بعد الحرب مخالفاً للتطور الطبيعى والنمو الطبيعى لحركة التجديد .

« ثم أعود من أوربا وقد تغير عقلى تغيراً شديداً . وألقى الباشا (يقصد أحمد زكى شيخ العروبة) لقاء التلميذ الوفى المعجب لا لقاء التلميذ الذى يشارك أستاذه الرأى والمنهج ومذهب البحث ويشتد الخلاف فى الرأى بينى وبينه ويمضى كل واحد منا فى طريقه ، نلتقى على مودة ، ولكننا لا نتفق على مذهب من مذاهب العلم أو منهج من مناهج البحث .

ويتحدث فى مناسبة أخرى عن الشيخ محمد عبده يقول : « ثم يكون الرحلة إلى أوربا والإقامة فى باريس فى أشد الأوقات حرجاً وأشدها شراً ونكرا وأحفلها بما تغيرت له قيمة الأستاذ تغيراً تاماً ، وإذا كل صلة بينى وبين الشيخ قد انقطعت وعفت عليها الأحداث والخطوب وإذا بى أعود إلى مصر رجلا آخر يكبر الأستاذ الإمام ويعجب به ويحبه ، ولكنه لا يتابعه ولا يحب أن تبقى طريقته فى التفكير أساساً للحياة العقلية لهذا الشباب المصرى الناهض » .

وهكذا يبدو طه حسين وقد شق طريقاً جديداً يريد به أن يتحول عن طريق يقظة الفكر الاســـلامى الطبيعية إلى طريق آخر ، ذلك الذى سار فيه وسارت فيه الجامعة المصرية — إذ ذاك — والتى تحولت عام ١٩٢٤ من جامعة أهلية إلى جامعة رسمية وكانت أول ضربة معول تلك التى يمثلها كتاب الشعر الجاهلى .

وقد شاركت الجامعة فى حركة التغريب بأطروحات وشارك تلاميذها فى أوربا ومصر فى هذه الحملة على الفكر الاسلامى .

غير أن هناك أمراً ضخماً كان بعد الأثر فى هذه المرحلة فى حياة الفكر العربى وتطوره وفى دعوة التجديد المتطرفة نحو التغريب ، ذلك هو الانقلاب التركى الذى قام به مصطفى كمال والذى انتهى بإلغاء الخلافة الاسلامية ، فقد كان بعيد الأثر فى الصحافة والفكر إذ أعطى حركة التغريب سلاحاً غاية فى العنف والقوة ، شمل الصحف اليومية كالأهرام والمقطم والمجلات المكبرى كالمقتطف والهلال وبرز فى مجلات جديدة كالسياسة الأسبوعية والمصور والمجلة الجديدة .

فى خلال هذه المرحلة منذ انتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٣٢ بالتحديد ، بلغ مد حركة التغريب ذروته ، غير أن عوامل كثيرة كانت قد نمت وتكونت فى هذه الفترة استطاعت أن تستعلى على تيار التغريب وتسيطر عليه كمحور قوى يساند محور المحافظين الذى كان قد ضعف وتخاذل عن مواجهة حملة التغريب فقد ظهر فى هذه الفترة تيارات هامة :

١ — تيار القوى الشابة : المصرية والعربية والاسلامية .

٢ — تيار المتحولين من المدرسة الغربية من حملة لواء التغريب والفرعونية إلى الاتصال بالفكر العربي الاسلامي ، والعروبة .

٣ — تيار استحياء التراث الاسلامي وتجديده .

٤ — ظهور الصحافة ذات الطابع العربي الاسلامي .

والآن وقد بلغنا مشارف مرحلة جديدة ، فإن علينا قبل أن نواجهها أن نقوم خطة كرومر (لطفي السيد وسعد زغلول) في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى باعتبارها الحلقة الأولى في مخطط الغزو الثقافي لكسر حركة اليقظة وتحويلها .

• • •

الفصل الثالث عشر

من دائرة اليقظة إلى دائرة التغريب

خطة الاستعمار والغزو الثقافى

من كرومر إلى لطفى السيد وسعد زغلول

(١)

لم يتوقف الاحتلال البريطانى عند حدود الاستعمار السياسى والعسكرى ولكنه رسم خطة شاملة الثقافة فى مواجهة (اليقظة الفكرية العربية الاسلامية) التى بدأها المسلمون بقياداتهم المختلفة وفى أقطارهم المختلفة (فى الوطن العربى وتركيا والهند) وقد اتصلت هذه الخطة بالتعليم والتربية والثقافة بصفة عامة (اللغة العربية والتاريخ والاسلام) ، وقد رسم اللورد كرومر أول المعتمدين البريطانيين بعد الاحتلال والرجل الذى أقام وهو الحاكم الفعلى لمصر خلال ربع قرن هذه الخطة (١٨٨٤ — ١٩٠٧) التى ظل الاستعمار ينفذها بواسطة أوليائه وأعوانه وعن طريق مدرسة جديدة مزقت وحدة اليقظة واستطاعت بنفوذه أن تتولى السلطة السياسية بعد الحرب العالمية الأولى واضعة الخطط موضع التنفيذ فى مختلف جوانب الثقافة والتعليم والتربية والصحافة .

كما أن كرومر أذاع خطته هذه ببراعة فائقة حين خاطب الطامعين من المثقفين الذين كانوا يعملون فى هذه الفترة فى مختلف مجالات المحاماة والقضاء والذين اختيروا فى عضوية الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ وأهمهم : سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى وهم زعماء ما بعد ١٩١٩ وفلاسفة وقادة الفكر والسياسة جميعاً حتى الخمسينات .

وقد لفت كرومر نظر هؤلاء إلى ما ينتظرهم من سيادة وقيادة وخاصة وهم جميعاً كانوا من أبناء الطبقة التى أنشأها النفوذ الاستعمارى وسودها وجعلها مركز القيادة السياسية فى مواجهة الفرقة الخديو والقصر وأفراد الاسرة العلوية الذين كان يطلق عليهم اسم الأتراك والذين كان لهم فى مجال الحياة الاجتماعية المصرية الفرقة ضخم متغلغل وصحب هذا التفرقة بين الأتراك والجركس والأرناؤط الذين جاءوا مع محمد على وسيطروا على مختلف المراكز الهامة فى مصر وبين الدولة العثمانية نفسها ، إذ أن بعض المصريين إنما كان منصباً على هذه الطبقة وليس على الدولة العثمانية .

كانت خطة كرومر دقيقة وبارعة : يمكن أن نلتمسها فى تقاريره وخطبه على هذا النحو :

١ — فى مصر اليوم جيل جديد يختلف عن أجداده فى أمور كثيرة فيمكن أن تحدثه نفسه يوماً بأن يمد إلى تلك الأركان القديمة يداً لا تعرف حرمة القديم ، فتكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبقاً لإرشاد قوم لا شأن لهم فى الأمر (يعنى الانجليز) لأنهم يدينون بالدين الاسلامى ، فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب ، فالأجدر بأبناء اليوم أن يشرعوا فى الاصلاح ويتلافوا الأمر قبل حلوله ، وعسى أن للمصلحين من أبناء القطر لا تضعف عزائمهم لأول فشل حل بهم ، فان الرأى العام لأبناء دينهم هو فى جانبهم وهو ينمو ويزداد ، وإن كانوا لا يجاهرون ، فعليهم الثبات إذن ولا سيما وأنه لم يكن أحد ينتظر أن الناس تتغلب على ميولها وتوافقهم على مرادهم بعد أول حملة .

وأبرز معانى هذه العبارات هى تحريض كرومر الجيل الذى عايشه متطلعاً إلى ما أسماه (أن يمد إلى الأركان القديمة يداً لا تعرف حرمة القديم) .

٢ — أعلن كرومر أنه سيهدم فى مصر ثلاثا : القرآن والكعبة والأسرة المسلمة وجماع آرائه فى هذا المجال هى :

أولا : « إن المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا فى سلم الحضارة والتجديد إلا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره ظهريا لأنه يأمرهم بالجمود والتعصب ويبث فيهم روح البغض لمن يخالفهم والشقاق وحب الانتقام وأن المانع الأعظم والعقبة الكؤود فى سبيل رقى الأمة هو القرآن والاسلام ، وأن الاسلام يناهض مدنية هذا العصر من حيث المرأة والرقيق وأن الاسلام يجعل المرأة فى مركز منحط » .

ثانياً : أن الشاب المصرى المسلم أثناء ممارسته التعليم الأوربى يفقد إسلامه أو أفضل قسم منه ويقطع حبل المرساة التى تربطه بعرفاً إيمانه ، وأن الشبان الذين يتلقون علومهم يفقدون صلتهم الثقافية والروحية وبوطنهم ، ولا يستطيعون الاتجاه فى نفس الوقت إلى البلد الذى منحهم ثقافته فيتأرجحون فى الوسط .

ثالثاً : الاسلام خال من التسامح ويغلب عليه التعصب وأنه يغرس فى العقول الانتقام والكره اللذان يجب أن يكونا أساساً للعلاقات بين الرجل والمرأة .

٣ — دعا كرومر إلى خلق طبقة من المفرنجين والمستغربين من الوجهة الأوروبية والمدنية الحديثة وقال :

« إن هؤلاء جديرون بكل التشجيط ومعونة يمكن أن تعطى لهم . هؤلاء هم حلفاء الأوربي المصلح وسوف يجد محبو الوطنية المصرية أحسن أمل في ترقى أتباع الشيخ محمد عبده للحصول على مصر مستقلة بالتدريج » .

« إن هناك حزباً غير الذى استعمل لقب الوطني وهو حزب قلما يسمع أحد عنه ولكنه يزيد يوماً فيوماً ويستحق اللقب قبل الحزب الآخر ، هذا الحزب هو ما أسميه بالاختصار (حزب أتباع المرحوم المفتى الشيخ محمد عبده) وهو وطني بالحق لأنه يحاول ترقية مصالح مواطنيه وبنى وطنه وبنى دينه ولكن ليس على صبغة الدعوة الإسلامية وقد أرغمهم على مساعدة الأجانب لا مقاومتهم في إدخال التمدن الغربي إلى البلاد ورأى أن معظم رجاء الوطنية المصرية معلق بهذا الحزب وفي الماضي لم يشجعوا على العمل ، ولكن رجلاً من أشهر أعضائهم (سعد زغلول باشا) عين أخيراً ناظراً المعارف ، والغاية من تعيينه أنه يشترك في عمل الإصلاح وهو رجل كفء ومصرى مستنير الذهن وهو من هذا الحزب » .

وقال كرومر عن حزب الأمة أنه الهيئة التى تتكون من جماعة من المفكرين بعيدى النظر والذين كان إتجاههم إلى كسب التقدم الدستورى بطرق معتدلة وهى تدعو إلى تحقيق الأماني الوطنية باتفاق يحدث بين الاحتلال وأعيان المصريين وحدهم لأنهم أصحاب المصالح الحقيقية كما تدعو إلى الرضا بكل ما يكسبه الوطنيين من هذا الاحتلال حتى تتوافر الكفاءات للحكم الذاتى .

من جماع هذه القواعد والنظرات العامة فتح كرومر الطريق أمام المثقفين وفي مقدمتهم رجلين هما لطفي السيد وسعد زغلول ، ففي عام ١٩٠٧ أتم تحقيق الخطوة الأولى من خططه وذلك (أولا) بإقطاع لطفي السيد القيادة الفكرية المصرية من خلال صحيفة الجريدة (ثانياً) إقطاع سعد زغلول قيادة التربية والتعليم من خلال نظارة المعارف (وكان معنى هذا إعداد سعد زغلول للزعامة السياسية بعد الحرب وإعداد لطفي السيد للزعامة الفكرية) فلننظر ماذا وقع بعد ذلك :

المعروف أن كرومر كان يطالب دوما على أثر تزايد أنصار الحزب الوطني بما أسماه (الالتقاء بالإنجليز في منتصف الطريق) وقد استجاب هؤلاء لهذا المخطط فأراد كرومر أن يؤكد بناء القاعدة العريضة للحركة المضادة ليقظة الفكر الإسلامي التى قامت على أسسها الأصيلة واستلهمته (أولا) تجديد الفكر الإسلامي وبعثه . (ثانياً) مقاومة غزو الفكر الأوربى مع تقبل الوجوه الصالحة منه .

وكاد النفوذ الاستعمارى الزاحف يرى خطر (نمو) و (سلامة) حركة اليقظة وامتدادها ، فكان لابد أن يدخل إليها تياراً ينتزع منها نفوذها الرسمى على الأقل ، وذلك عن طريق رجال لهم إتصال واضح بقيادة هذه الحركة : فكان لطفي السيد وسعد زغلول من تلاميذ جمال الدين الأفغاني

ومحمد عبده وكان سعد زغلول على الأخص من رجال الأزهر الشريف .

وقد حمل لطفي السيد لواء دعوة جديدة عارضت الخط الممتد السائد القائم على مفهومه الأصيل حين دعا إلى (مصر للمصريين) وعاش سبع سنوات في الجريدة (١٩٠٧ — ١٩١٤) وهو يحاول أن يصقل فلسفة هذه الدعوة الاقليمية الانفصالية الداعية إلى التجزئة ، وقد لقيت هذه الدعوة التغريبية الدخيلة معارضة تامة من الرأى العام والمفكرين حيث بدت مخالفة كاملة لمنطلق الفكر العربي الإسلامي وطابعه وروحه لقد تجاهلت الخطين الواضحين الأصليين لهذا الفكر وهما : الخط العربي المرتبط باللغة والعرق والخط الإسلامي المرتبط بالفكر والدين .

ولم يقف أمر الدعوة الدخيلة عند هذا الحد ، بل إنها استهدفت خروجاً شاملا عن مضامين الفكر العربي الإسلامي وقاعدته في التربية والتعليم والثقافة والاجتماع والسياسة وذلك بإحلال القيم الفكرية الغربية التي تتمثل في الديمقراطية الغربية ومذهب الحريين الليبراليين ومفهوم النظرية السياسية الغربية التي تعيش عليها دول غرب أوربا في ذلك الوقت والمرتبطة أساساً بالثقافة الإنجليزية والفرنسية .

وكانت فكرة (مصر للمصريين) على النحو الذى دعا إليه لطفي السيد تطبيقاً حقيقياً لأهداف ومخطط كرومر الفكرى كاملا . هذا المخطط الذى يرمى إلى هدفين خطيرين :

١ — القضاء على فكرة الوحدة الإسلامية : باعتبارها رابطة العالم الإسلامي جغرافياً وسياسياً .

٢ — القضاء على مضمون الفكرة الإسلامية في مجال المجتمع والقانون والدين والتربية .

وبالجملة فهى دعوة القضاء على أمرين هما : الوحدة الإسلامية وكون الاسلام دين ومجتمع معاً .

وقد كان الهدفان ولا يزالان : أكبر مطامع أوربا والغرب في قهر المسلمين والعرب والاسلام وكل ما رسم من مخطط بعد ذلك في مجال مصر للمصريين أو التمصير أو مناهج المجتمع والتربية إنما كان يستمد من هذه المصادر وكان يستهدف في نفس الوقت قطع هذه الصلات الاجتماعية والجغرافية والفكرية في سبيل خلق ثقافة إقليمية خالصة ومن ثم بدأت على يد لطفي السيد فكرة (التمصير) الخطيرة ذات المظهر البراق !

تمصير اللغة ، تمصير القانون ، تمصير المجتمع ، تمصير التعليم ، تمصير التربية ، تمصير السياسة ، وهكذا إتسع نطاق هذا التمصير على أيدى مدرسة الجريدة وصحيفة السياسة واشترك فيها (أحزاب الأمة والوفد والأحرار) أو مدرسة السياسة كلها بعد الحرب العالمية الأولى .

وكان معنى الدعوة إلى التمصير الانفصال انفصالا كاملا عن أرض الفكر العربي الإسلامي واستلهام الفكر الغربي والمدرسة السياسية الديمقراطية الأوربية بكل مفاهيمها .

وكان لابد أن يمتد هذا الدور ويتعمق ويتسع وذلك حتى تتم غربلته وتصفيته واستخلاص ما فيه من آراء إيجابية تتفق مع روح الفكر العربي الإسلامي الذى يستبق ويتقبل كل ما يراه مناسبا ويرفض ما دون ذلك .

وهكذا رسم لطفي السيد في الجريدة خلال السنوات السبع هيكلا عاما لمخطط أطلق عليه اسم « مصر للمصريين » وكان إصراره على إعداده وفق هذه الصورة قائما بالرغم من معارضة مختلف الطوائف والتيارات والأحزاب والمذاهب الفكرية له ، أقول كان هذا الإعداد إرهاصا بما يتحقق من فرض هذا المخطط على مصر بعد الحرب عن طريق القيادة السياسية التي استكرهت من خلاله وكانت تؤمن به ، ومن هنا فقد صنع الاستعمار لقوة القوى السياسية الوطنية الأصيلة حتى أوائل الحرب وأفسح المجال لطفي السيد وسعد زغلول وعبدالعزيز فهمى في تولى السلطة السياسية بعد الحرب ووضع هذا البرنامج موضع التنفيذ الفعلى .

ماذا كان برنامج لطفي السيد :

كانت دعوة لطفي السيد إلى المصرية ، ومصر للمصريين والتمصير إنما تحمل أخطر قوة مواجهة للقيم العربية الإسلامية وراء غلاف براق لامع مغر ، لا يكشف ظاهره عن مدى خطره ، ويجد من الخاصة له من الوسطاء والعامة ما يغرى بقبوله بينما يضم في أعماقه تقويضا كاملا لما حققته يقظة الفكر العربي الإسلامي من خطوات .

ويتكامل برنامج لطفي السيد حول السياسة والاجتماع والتربية واللغة :

أولا : (عدم تعليم أبناء الفقراء) فالتعليم يكون قاصرا على أبناء الأعيان الذين هم وحدهم الذين سيتولون الحكم ومقاومة تعليم سواد الأمة ومعارضة الاتجاه إلى المجانية وذلك حتى يمكن المحافظة على وجود طبقة معينة تتولى حكم البلاد دون أن يباح لباقى أفراد الشعب .

ثانيا : (مقاومة التضامن العربي الإسلامي) وقد عارض مساعدة المصريين لجيرانهم في طرابلس خلال الغزو الاستعمارى لهم عام ١٩١١ وكتب في هذا المعنى تحت عنوان « سياسة المنافع الأساسية العواطف » .

ثالثا : (القضاء على الفصحى) وقد هاجم اللغة العربية الفصحى ودعا إلى إصلاح العامية والكتابة بها باسم (تمصير اللغة العربية بإحياء العامية » .

٤ — (التعليم باللغة الإنجليزية) قاوم سعد زغلول تعلم العلوم باللغة العربية ودعا إلى استمرار تعلمها بالإنجليزية .

ولذلك فإن القول بأن حزب الأمة كان حزباً من الأحزاب العامة : كالحزب الوطني وحزب الإصلاح هو قول ساذج خطير ، ذلك أن حزب الأمة وجريدة الجريدة التي أعلنت أوائل عام ١٩٠٧ (وهي آخر أعوام كرومر في مصر وفي الشهور الأخيرة من حكمه) إنما تمثل عصارة تفكير كرومر وتجسيد مخطط النفوذ الاستعماري في مجال الثقافة والفكر والصحافة والدين وثمرة تجربة كرومر الذي قدم إلى مصر عام ١٨٨٤ تقريباً واستمر بها حوالى ربع قرن . وقد ظهر هذا البرنامج بعد أن حقق كرومر هدفه في التوفيق بين بريطانيا وفرنسا وتنظيم شئون الاستعمار بينهما باتفاق سنة ١٩٠٤ (الودي) الذي أطلقت به كل منهما يد الأخرى وبذلك انقطع آخر خيط في مؤازرة فرنسا المصريين في جهادهم السياسي (فقط لا الثقافي) لبريطانيا

وبعد وفاة محمد عبده عام ١٩٠٥ فقد كان ذلك هو تركيز مدرسة الاستعمار الفكرية وكسر وحدة ويقظة الفكر العربي بإدخال جناح يستمد نفوذه من الاستعمار نفسه على نحو غير منظور ، ويقوم هذا التيار على مصريين وفق مخطط كرومر في الإعلان عنه والاعتراف به وتشجيع مستقبل العاملين فيه ، وهو مخطط سارت عليه العلاقات بين مصر وبريطانيا سنوات طويلة لم يتغير وجندت الوسائل الكفيلة بتكريسه وتكريمه وإعلائه وذلك على امتداد التيار الذي صنعه الاستعمار أولا عن طريق المقطم والمدرسة اللبنانية وفرح أنطون والمقتطف والدكتور شبلي شميل وجميع العملاء الخديو والبريطانيين الذين وصفوا أنفسهم بأنهم (مهاجرين) .

ويمكن أن ننقل هنا عبارة المؤرخ يستحيل أن يتهم بأنه مناهض الشاميين وهو (الدكتور أنيس صايغ) يقول : « لم يهتم أكثر السوريين في مصر بالعمل في سبيل عقيدة سياسية معينة بقدر ما اهتموا بالسعي وراء الرزق ومنافسة المصريين ومسابقتهم على مصدر اللقمة ومماوأة الأجانب عليهم ومهاجمتهم وهم في صراعهم القومي ، هؤلاء السوريين (والأصح اللبنانيون) هم القسم الأكبر من العرب المقيمين في مصر وبواسطتهم امرفت مصر علينا في العصر الحديث ، ولذلك أصيبت مصر بسببهم بخيبة أمل في العرب وتحولت الصفحة السوداء لهؤلاء المرتزقة إلى صفحة سوداء في سجل العرب فقد تعاونوا مع الفرنسيين مثلا فعل وأثاروا الفساد والفتنة بين صفوف الشعب وتجسسوا للسلطات الفرنسية » .

« وعندما احتاج الإنجليز إلى مواطنين أكفاء يثقون لغتهم ويقبلون أن يتعاونوا معهم ، مرة أخرى سد اللبنانيون والسوريون الفراغ ، وقد وصفهم اللورد كرومر في مذكراته بأنهم (منحة من السماء) وأنهم (خميرة البلاد) ووصل بعضهم إلى أعلى المراكز الإدارية وبلغ عددهم أواخر القرن الماضي الالاف ألفاً ، وكان معظم المحاسبين والتراجمة والجباة منهم ، ومنهم من اشتغل في الربا ،

ولم يكن كل السوريين المتعاونين مع الاحتلال موظفين ومرابين ، لنهم من أنشأ صحفاً ـ وأشهرها صحيفتا المقطم والمقتطف اللتان أصدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاريوس ـ وكانت الصحيفتان هما اللسان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما في اللغة من تأييد ومهاجمة من معان ، وكتب هؤلاء الثلاثة يدافعون عن حق الإنجليز بمصر ، ويصفون حسنات الاستعمار ويمجدون أبطاله ويطالبون باستمراره ويدعون أهل مصر إلى الرضوخ إليه ولم تمر بمصر حادثة واحدة إلا وقفوا فيها موقفاً معارضاً لأماني الشعب » ا هـ . .

هذا المخطط الأول الذي صنعه الاستعمار خلال هذه المرحلة كان قد انكشف ، فلزم إنشاء مخطط جديد أكثر قدرة على التخفي والتمويه ويزداد عمقاً بأن يكون صادراً من المصريين أنفسهم ، كان هذا المخطط هو حزب الأمة الذي انبعثت عنه أرضية الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية والثقافية بعد الحرب العالمية الأولى ولأمد طويل جداً .

كان هدف حزب الأمة وبرنامج لطفي السيد المستمد من مفاهيم كرومر الأساسية عن الإسلام والعرب واللغة العربية والسياسة والاجتماع يستهدف تمزيق أساسين من أسس الفكر العربي هما :

× وحدة العالم الإسلامي في مجال الأخوة والترابط والتعاون .

× وحدة الفكر الإسلامي في مجال الربط بين الدين والمجتمع .

وكذلك إحلال مفهوم الإقليمية باسم القومية ونزع مصر عن الرابطتين العربية والإسلامية وما يتصل بهما من اللغة والفكر ، وإحلال مفاهيم الفكر الغربي السياسي والاجتماعي مكانها .

وكانت فكرة التمصير (تغطية) دقيقة بارعة لكل هذه الأغراض حيث كانت لها واجهتها البراقة في نظر البسطاء من المواطنين ومضمونها الخفي المسموم .

وقد ضم حزب الأمة كل الطامعين وأبناء البيوتات وأبناء أصحاب المصالح الحقيقية من أعيان البلاد الذين أفسح لهم الاحتلال البريطاني الفرصة للحصول على أكبر قدر من أراضي الدائرة السنية (شعراوي ، محمود سليمان ، سلطان ، عبد العزيز فهمي ، عبد الخالق ثروت ، فتحي زغلول ، ابراهيم الهلباوي ، لطفي السيد) .

وفي هذا استشهد أيضاً بما يقول دكتور أنيس صايغ :

« حل لطفي السيد على الفكرة العربية بالرغم من أنها لم تكن إلا جنينا ، ونجلت المرئيته في موقفه من الحوادث الليبية ، فقد احتل الإيطاليون ولايتي طرابلس وبنغازي وأرغموا الأتراك على

التنازل لهم عن هاتين الولايتين في معاهدة أوشي ، وعندما هبت مصر لعوامل إسلامية عثمانية ولمساعي الإنكليز (الذين حرضوا الشعب ضد الطليان) إلى جمع الأموال لتقديمها للمجاهدين (ستة آلاف جنيه مصري وستة آلاف جنيه ذهب) وأرسلت مصر إلى جبهات القتال بعثات طبية لإسعاف المنكوبين واشتراك بعض المصريين في القتال ضد الإيطاليين ومنهم عزيز علي المصري وعبد الرحمن عزام ، ونظم شعراء مصر عدة قصائد حماسية في نصرة الجار (ومنهم حافظ ابراهيم ومصطفى الرافعي وأحمد محرم وعلي الغاياتي وزكي أبو شادي) فملأت صفوف الشعب المصري هذا كله مؤازرة ليبيا المسلمة الشرقية العثمانية .

أما لطفي السيد فقد طلع على قرائه بسلسلة مقالات كتبها في الجريدة بعنوان (سياسة المنافع لا سياسة العواطف) حمل فيها على هذا الموقف ودعا إلى نبذ (طرابلس) والانصراف عن مساعدتها والتزام سياسة الحياد بين العثمانيين وبين إيطاليا وتحويل المبالغ المخصصة المنكوبين إلى بعض المشاريع المصرية الداخلية ، لأن لا شيء يربط مصر بجاراتها العربيات وأن مصلحة مصر تناقض مصالح تلك الجارات ، ولطفي السيد مقال مشهور في إنكار وجود المسألة العربية قال فيه : ليس هناك مسألة عربية ، وإذا كان المسألة العربية على من الوجود ، فإن وجودها الآن سابق لأوانه جداً ، ولئن كان المسألة العربية ظل من الوجود فإنها بيد العثمانيين ، وعلى ذلك فنحن لا نستطيع أن نحكم بأن جهاد الغائب المحترم شكري العسلي مفيد للعثمانيين أو مفيد للعرب » .

والمعروف أن شكري العسلي قد جاء إلى مصر ودعا إلى وحدة عربية وأن لطفي السيد قد عارض هذا الاتجاه .

ويمكن القول بأن النفوذ الأجنبي استطاع أن يقسم حركة اليقظة إلى دينية اجتماعية ووطنية سياسية (محمد عبده ومصطفى كامل) وأنه حال دون التقائهما ، ومع ذلك فقد كانت أرضية العملية واحدة وهي مستمدة من الفكر العربي الإسلامي غير أن الانقسام الأشد خطراً وأثراً هو انقسام الحركة الوطنية السياسية إلى حركتين :

- حركة الحزب الوطني مرتبطة بالأرضية الفكرية العربية الإسلامية .
- حركة حزب الأمة منفصلة عن العروبة والإسلام .

أما حركة الحزب الوطني فقد كانت منبثقة من أعماق الضمير المصري العربي أساساً والذين انضووا تحت لوائها لم يكونوا أصحاب مصالح من أي نوع ، أما حركة حزب الأمة فقد عمدت إلى تجميع قوى أصحاب المصالح الحقيقية في تشكيل سبق في مخطط فكري لم يرسمه .

ولا شك أن الانقسام بين الحركة الدينية والاجتماعية والوطنية السياسية قد أعطى مقادة الحركة كلها لرجال السياسة حتى بعد أن قامت هذه الحركة الدينية والاجتماعية بدورها كاملاً في ثورة عرابي .

وفى ثورة ١٩١٩ أيضاً ، ومما أدى إلى تحجب حركة مصطفى كامل السياسية عن مجال العمل حتى أخلى المجال تماماً لحزب الأمة وأعوانه هو هذه الأرضية العربية الإسلامية التى ارتبط فيها بالحركة الدينية الاجتماعية — وكان الهدف هو منعها من السيطرة على الحياة السياسية بعد الحرب . ومن هنا فقد كان الفصل بين الدين والسياسة وفصل مصر عن العرب والإسلام هو أساس مخطط حزب الأمة وأساس الحياة السياسية بعد الحرب بقيادة سعد زغلول الذى كان إيمانه واضحاً بهذا المخطط وتنفيذه منذ أن تولى الوزارة خلال أيام الاحتلال وقبل مغادرة كرومر لمصر سنة ١٩٠٧ وتولية شئون وزارة المعارف بالذات ، وبهذا يمكن القول بأن العمل الوطنى بعد الحرب كان استمداداً من حركة حزب الأمة التى أورثت الحياة السياسية حزب الوفد (ومن داخله حزب الأحرار) - قد بدأ هذا العمل الوطنى أساساً منفصلا عن الأرضية العربية الإسلامية .

غير أنه يجب القول بأن هذه الثغرة التى أوجدها لطفى السيد فى جبهة اليقظة ظلت ضيقة محدودة وكانت القوى الضخمة فى مجال يقظة الفكر العربى قد شقت طريقها فى قوة على نحو واضح - ولم يكن فى الإمكان أن تأخذ هذه الدعوة مكاناً أو تحدث أثراً لولا مظاهرة النفوذ الأجنبى لها والتمهيد بها لما بعد الحرب .

وقد ظلت يقظة الفكر العربى الإسلامى مطبوعة بالطابع الإسلامى (حيث لم يكن هناك فاصلا بين الوطنية الداخلية فى كل قطر عربى وبين رابطة العروبة الاسلامية) وكانت ملامحها تتكامل وتتلاقى وتتموج فى كل مظاهر هذا الفكر وذلك لارتباطها باللغة العربية كأساس أصيل لهذا الفكر ، ولارتباط الإسلام بكل كيانات المجتمع والفكرية والسياسية والاقتصادية ارتباطاً لا انفصام له .

ولقد كان لغلبة النفوذ الاستعمارى أثره فى ابتعاث التراث العربى الاسلامى وتجديده وصقله وتصفيته من عوامل الضعف ومظاهر الاضطراب التى لحقت به فى المرحلة السابقة .

غير أن دعوة حزب الأمة ولطفى السيد (مصر للمصريين) كانت إقليمية ضيقة إلى أبعد حد ، وكانت قد أدارت فكرها ليس فقط فى مواجهة الدولة العثمانية أو الأمة العربية وإنما إزاء الأرضية الأساسية للفكر العربى الاسلامى فى مختلف مجالاته وشعبه تماماً ، وكان المثل الأعلى لها هو الفكر الغربى الليبرالى وهو الفكر السياسى الديمقراطى لغرب أوربا الذى يتمثل فى أنظمة بريطانيا وفرنسا . وكانت أخطر قضيتين حظيتا بالهجوم الضخم هما :

(١) الجامعة الاسلامية .

(٢) فصل الدين (عن المجتمع) .

وقد سبق المقتطف والمقطم واللبنانيون المسيطرون على الصحافة والفكر - فيما قبل الجريدة

عام ١٩٠٧ - فدعموا بقوى كثيرة فى هذا المجال ، وكان أكبر أعمالهم هو تعميق النظرية المادية على طريقة دارون وبثها فى صبر وإصرار ، وهذا نموذج مما كانوا ينشرونه .

« ويجب على الخاصة منا أن يعلموا العامة التمييز بين الدين وبين الدولة لأن هذا التمييز أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمكان فإذا لم يدركه عامتنا كان الخطر محيطاً أبداً بماضينا . لو سألت عامتنا اليوم لوجدتهم يعتقدون أن الدين لا يقوم إلا بالدولة ، والدولة لا تقوم إلا بالدين وانهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وهذا خطأ مبين لأن الغرض المقصود من الدولة والغاية التى تسعى الدولة إليها فى زماننا هذا هى غاية دنيوية محضة هى أمن الناس على أرواحهم أما الدين فالغاية المرجوة منه على اختلاف الزمان والمكان هى صلاح الناس فى هذه الدنيا حتى يدخلوا جنات النعيم فهو الصلة بين الأفراد الذين يتدينون به وبين خالقهم ولكل إنسان دينه ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

أما قيام الدولة بالدين والدين بالدولة فلا وجود له فى عصرنا بين الدول العزيزة المتمدنة إلا بمعنى أن هذه الدولة لا تكون إلا إسلامية وتلك لا تكون إلا مسيحية فإذا لم نميز بين الدولة والدين فى عصرنا ، فماذا نفعل لو سقطت الدولة ، أيسقط معها الدين » .

وإذا كان لنا أن نراجع فكرة الدعوة إلى المصرية فإنها لم تكن قبل لطفى السيد ذات مفهوم مضمر ، أو تعنى شيئاً معيناً ذا حساسية ، فإن هذه الدعوة أقدم من الثورة العربية نفسها ، وقد كتب عنها رفاعة طويلا وعرض لها بعده أكثر من باحث وعرفها عرابى فى مواجهة الأرناؤوط والجراكسة والأتراك الحليفين ، ولم تكن هذه هى (العثمانية) التى هى جمعتها الشام . غير أن رفاعة ومن بعده محمد عبده قد ردا الدعوة (الوطنية) إلى جذور الفكر العربى الاسلامى وإلى القرآن والسنة ولم تكن الدعوة - كما حاول لطفى السيد - إلى الوطنية المصرية معارضة للوحدة العربية أو الرابطة الاسلامية ، ولم يكن هناك انفصال ما بين المصرية والاسلامية ، أو العربية والاسلامية بل كان هناك التقاء وانسجام وكانت الأرضية للدعوتين العربية فى الشام والمصرية فى مصر إسلامية أصلا ، وقد بدأ النفوذ البريطانى فى مصر بالهجوم على الاسلامية بمعنى الهجوم على الدولة العثمانية ثم تحول من بعد ذلك على يد كرومر وتلاميذه إلى نظرية أشد خطراً ، قوامها أن الاسلام هو مصدر التخلف وأن صورة الاسلام هى الدولة العثمانية وأن المصرية خروج من الاسلامية والعثمانية معاً .

ولم يكن معارضة حزب الأمة للعربية والاسلامية معاً إلا التماساً لمنهج الانجليز الذى رسمه كرومر وإذا كانت المصرية تنفصل عن العربية والاسلامية فهى لا تعنى أكثر من التسليم للنفوذ الأجنبى المسيطر والارتباط به ثم الاتجاه إلى الغرب اتجاهاً كاملا ، ولم يكن لطفى السيد صادقاً حين ادعى بأنه ليس مع النفوذ العثمانى ولا النفوذ القيصرى ولا النفوذ البريطانى ، وآية ذلك أن دعوته قامت

فى ظل النفوذ الأجنبى الذى حماها وأعطاها الحرية الكاملة للحركة والدعوة حتى فى مواجهة النفوذ البريطانى وأعمال بريطانيا فى مصر نفسها دون أن يعرضه ذلك خلال سبع سنوات كاملة للتحقيق أو الاعتقال أو المحاكمة أو السجن أو حتى مجرد المؤاخذة . ولم يكن معقولاً أن عملاً ضخماً كهذا العمل الذى قام به لطفى السيد متضامناً مع رجال حزب الأمة وبانياً هذه الطلائع الجديدة من المثقفين يمكن أن يتم دون رضاء الإنجليز ودون قبولهم له قبولاً كاملاً ، ذلك لأن لطفى السيد لم يعارض النفوذ الأجنبى فى أى قاعدة من القواعد التى رسمها كرومر وموقفه من التعليم ومن اللغة العربية ومن الجامعة الإسلامية واضح تمام الوضوح فى موالاة مخطط كرومر ولم تكن فكرة القومية تعنى إلا فصل السياسة والاجتماع والثقافة والتعليم فى مصر عن أرضيته المستمدة من الفكر العربى الإسلامى وصبغها صبغة كاملة بأصول الفكر الليبرالى ، ومذهب الحريين والفكر السياسى الديمقراطى لغرب أوربا .

وقد برز لطفى السيد وسعد زغلول فى وقت معاً: هذا على الصعيد الصحفى الثقافى وهذا على الصعيد التربوى ، ثم نفذ سعد زغلول هذا المخطط بعد الحرب الأولى فى مدرسته السياسية الضخمة التى انبثقت منها كل الأحزاب والتى كانت امتداداً لحزب الأمة .

ولقد ووجه هذا التيار بمعارضة ضخمة من اللواء (عبد العزيز جاويش) والدستور (فريد وجدى) والمؤيد (على يوسف) كشفت عن مناهجه وأهدافه وواجهته بالخصومة الأصيلة لحركة اليقظة العربية الإسلامية ، وبالجملة فقد كانت حركة اليقظة فى هذه المرحلة تتمثل فى مصطفى كامل سياسياً ومحمد عبده اجتماعياً . ولم يكن فى صف لطفى السيد إنسان واحد يمكن أن يشار إليه سوى مجموعة من اللبنانيين والسوريين الكارهين للسلطان عبد الحميد .

وكان طابع الحركتين الوطنية والاجتماعية ، إسلامياً عربياً ، ولم يكن هناك انفصال ما بين الوطنية والدين ، ذلك أن الفكر الإسلامى نفسه كان يجمع دائماً بين الدين والسياسة والاجتماع .

وبالجملة فلم تكن الجريدة ولا دعوة لطفى السيد هى قوام الحياة الفكرية ، بل على العكس كانت تشق طريقاً ضد التيار ولا تجد إلا خصومة واعتراضاً .

ولم تكن (الجريدة) توزع نصف أو ربع ما يوزعه المؤيد أو اللواء ولم يكن يقرؤها إلا أعضاء حزب الأمة ، ولكن كانت تستند إلى قوة النفوذ الأجنبى الذى يفسح لها الطريق لتصبح آراؤها هى فلسفة الحياة السياسية والاجتماعية بعد الحرب ، وكان أول المؤمنين بها هو رأس المدرسة السياسية والوطنية بعد الحرب : سعد زغلول .

وقد أرسى لطفى السيد مفاهيم السياسة الأوربية ونظمها فى الحكم والقانون والنظام الديمقراطى الغربى الذى أثبت فشله فشلاً ذريعاً خلال الفترة التى طبق فيها .

وقام بإعداد جيل أسلم إليه بعد الحرب قيادة الحركة الفكرية عن طريق حزب الأحرار امتداد حزب الأمة وإن كان رأس هذا الحزب وأكبر مفكريه (الدكتور هيكل) قد غير رأيه بعد ذلك وتحول تحولا كاملا واعترف في مذكراته بأن حزب الأمة صنعه الإنجليز وإن اضطر لطفي السيد - تمويهاً وذراً للرماد في العيون - إلى مجاراة المصريين بعد خروج كرومر بالرد على كتابه (مصر الحديثة) ولكن قد أخرجه ذلك عن مفهوم كرومر العام الذي تبناه في ثلاث نقاط رئيسية وهي :

(١) الإقليمية المصرية في مواجهة الوحدة العربية والجامعة الإسلامية .

(٢) فصل الدين عن السياسة والمجتمع .

(٣) قصر التعليم على أبناء الصفوة وفصل التربية عن الدين .

يقول الأستاذ نعيم عطية : « فما كانت سوى خطوة بسيطة بعد شبلي شميل لكي يقفز بعض مفكري الإسلام إلى الفصل بين المدنية والإسلام ، ويعتبروا أن لكل مقاييسه وقوانينه دون أن تكون المدنية القائمة على الإسلام أعلى مراتب المدنية بالضرورة وربما كان أحمد لطفي السيد من أعطى هذه الفكرة تجسيدها العملي بفضل مقامه في حزب الأمة فعلى يديه تحولت سياسة هذا الحزب إلى إعداد الأمة بأدوات الاستقلال وبات هدف التعليم والعمل السياسي بأكمله أن يخلقا أمة متحدة روحياً وعقلياً ، ولكنه أزاح الدين كأساس لمثل هذه الوحدة القومية وجعل بديلا له الحياة المشتركة في التاريخ الطويل . . . إلخ » .

وعنده أن لطفي السيد عالج مختلف القضايا الأخلاقية من وجهة نظر عصرية بعيدة عن الإسلام . وبهذا يكون لطفي السيد قد حول اتجاه حزب الأمة نحواً أقرب ما يكون إلى (العلمانية) .

وعند لطفي السيد أن المدارس يجب أن تكون حرة لتضع مقدراتها في خدمة العلم فقط ويقول مؤرخه حسين فوزي النجار : إنه كان نتيجة لاتجاه لطفي السيد هذا أنه « سرعان ما طغت تلك الموجة الغربية وجرفت أمامها كل السدود والقيود وأخذت الحياة تستقيم في مصر على نهج غربي خالص » .

ويذهب النجار إلى أن دعوة لطفي السيد بدت غريبة على الأذهان ، ويقول عبد اللطيف حمزة : « جاء لطفي السيد بفكرة الجامعة المصرية لتحل محل فكرة أخرى هي فكرة الجامعة العثمانية الإسلامية التي عاشت مصر لها ورأت فيها عزها ومجدها ، بل عز الإسلام ومجده كذلك ، ولطفي السيد بهذا الاتجاه الجديد البطل الحقيقي لما يسمى في التاريخ الحديث (القومية المصرية) .

وقد صادفت هذه الفكرة هوى في نفوس الإنجليز الذين كان يهمهم انفصال المصريين عن تركيا حتى تتاح لهم فرصة السيطرة النهائية في مصر » .

وظاهر أن هذا نوع من التبرير الذى أراده الكاتبان للدفاع عن موقف لطفى السيد ولكن النصوص بالرغم من ذلك تفضح الحقيقة (المعروف أن الكاتبين كتبا دراستهما ولطفى السيد حى وتقربا إليه بها) .

فضلا أن ذلك الكلام يقال الآن فى جو مختلف عن جو الوقائع ، وبعد أن جرى الاستعمار شوطاً حدث تحول كبير بعد الحرب الكبرى الأولى واستطاع لطفى السيد أن يسيطر على الجامعة والصحافة فترة أخرى بعد فترة الجريدة (١٩٠٧ - ١٩١٤) امتدت من ١٩٢٢ إلى ١٩٤٧ تقريباً فى الجامعة والصحافة (السياسة) ثم كان دوره التالى لذلك وهو أشد سيطرة فى المجتمع اللغوى (منذ عام ١٩٤٠ تقريباً حتى وفاته ، وفيه عادت إليه الريادة وعاد الجيل الأول - سواء من عارضه أم جاراه - تابعون له فى المجتمع اللغوى (طه حسين وهيكل والمازنى والعقاد والزيات) وهم الذين التق بهما عام ١٩٠٧ وكانوا يتصلون به فى الجريدة - ثم فى الصحافة ، ثم فى المجمع أخيراً - وغير العقاد رأيه فى لطفى السيد الذى كان خصماً له فترة طويلة خلال الصراع الحزبى وتبين أن المجموعة كلها كانت تجرى فى نفس تيار (مدرسة حزب الأمة والجريدة) بالرغم من كل خلاف فرعى بين الوفد أو الدستوريون ، فقد كان الأصل الذى يصدرون عنه جميعاً واحداً ، وكان الخلاف فى الفروع وحدها .

إن التقدير الصحيح للموقف يتطلب الحياة فى (جو) سنة ١٩٠٧ وفى نفس مناخها عندما كان لطفى السيد يقف وحده معارضاً للرأى العام والصحافة والفكر العربى كله وكان أبلغ المعارضين له : على يوسف بجناحه وصحيفته المؤيد ، وفريد وجدى فى صحيفة الدستور وعبد العزيز جاويش فى صحيفتى اللواء والعلم ، ويتبع هؤلاء أمين الرافعى ، وأحمد وفيق ، وعشرات من صفوة المثقفين فى هذه المرحلة

وكان هؤلاء من المؤمنين بالأصول والجذور العربية الإسلامية التى تنبع منها الوطنية المصرية سواء عن طريق الروابط العربية أو الإسلامية أو الفكر العربى الإسلامى نفسه ، وكان لطفى السيد هو الذى يشق الطريق المعارض ويحرق الفكر العربى الإسلامى لا يؤيده فى ذلك إلا مجموعة من الطامعين . وبعض الصحفيين السوريين ذوى الأغراض ، وكان لطفى السيد يلتقط الخارجين عن الوطنى أو الأزهر أو الحركات المختلفة ليضمهم إليه .

وإذا راجعنا ما عرض له أمثال هؤلاء كشف لنا بعض الحقائق :

يعرض عبد العزيز جاويش لموقف لطفى السيد والجريدة من مصطفى كامل ، حيث يصف سياسة اللواء بأنها خرقاء وكتابات مصطفى كامل بأنها نوبات عصبية ، وقوله عن خطبة مصطفى كامل فى حفل إنشاء الحزب الوطنى سنة ١٩٠٧ : ناقل الكفر ليس بكافر .

ويقول جاويش: « إذا كان ما تحتوى عليه خطبة الإسكندرية كفراً فالإيمان فى مذهب الجريدة هو الرضا بالاحتلال وعدم المطالبة بالاستقلال ، ويقول جاويش « أسمعت حالته الصادقة - أى مصطفى كامل - على الجريدة عندما كنت تدعو القوم إلى إقامة احتفال بلورد كرومر وتنشر فى صحيفتك الجريدة هذه العبارة : « ومما يذكر لجناب اللورد كرومر من علو الهمة والثبات على مبدأه أن كبار الأعيان طلبوا إليه أن يقدموا له هدية تذكاراً لشخصه يذكر به المصريين الذين أقام بينهم هذا الزمن الطويل موفور القسط من الرفعة الذاتية والشمم وحسن اللقاء والحلم ، وأورد جاويش فى مجال تصوير الفوارق بين مفاهيم الجريدة والآراء الوطنية قول مصطفى كامل « إن سياسة الجريدة تدلنا على أنها أشد الجرائد تملقاً بالاحتلال وحسبنا فيمن استنكروا الاحتفال باللورد كرومر ، أعدى أعداء المصريين والطاعن على الإسلام والمسلمين ، وأضاف جاويش قوله : ولا عجب من أن يكون مدير الجريدة هو الآلة الحاذقة لهذه السياسة » .

وعرض عبد العزيز جاويش لموقف لطفى السيد من الحرب الإيطالية على طرابلس ونهوض مصر للدفاع عنها وتقديم الأموال والرجال والأسلحة وكيف اهتدى لطفى السيد الأمة فسخر من المصريين لموقفهم من حرب طرابلس وقال : ما لنا نحن وهذا الأمر ؟ إن ما يحدث هناك لا يهم مصر ولا دخل لها فيه . ودعا إلى سياسة المنافع لا العواطف ودعا الحكومة إلى محاكمة من يحملون لواء الدعوة إلى مساعدة طرابلس وتصدى له جاويش فقال : لقد خسر الذين فتنتهم وساوس صدورهم وأعمتهم عن الحق سخافات مكتشفاتهم ، يحاولون أن يصرفوا الأمة المصرية الإسلامية عن تخفيف ويلات إخوانهم الذين أغارت عليهم دولة الخيانة والغدر ، إخوانهم فى الجوار ، وإخوانهم فى الإنسانية ، أى مدير الجريدة ، أى عدو نفسه ، هل نقمت منا أن ندعو المسلمين لنجدة المسلمين ، وأن نستنفر الموحدين فماذا كنت تريد ، أى عدو بلاده رأيت مصر العزيزة مشرفة على موسمها المالى ، ثم رأيت بنظارتك كيف تجلب إليها الأموال من كل جانب ، فعز عليك أن تحسد ذا نعمة ، وشق على نفسك أن يستفيد غيرك من أصحاب المزارع ثم عدت ومثلك من أهله الفلسفة ، مكانك مكانك أيها الجبان فإنك بميادين تميتك صورتها وتضعفك ذكراها » . . . إلخ .

أما فريد وجدى فإنه يحمل على اتجاه (الاعتدال) الذى اتخذته الجريدة ولطفى السيد فى مواجهة المحتلين فيقول : « لقد انتظر الناس صدور الجريدة بلهف يوم صدورها فما حان اليوم حتى برزت الجريدة مكتوب عليها : من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمتها فى أول صدمة كان احتياطه بعدهم إياه . فقال الناس : يا للعجب : جريدة مصرية يقوم بإنشائها أعيان مصر لخدمة المصريين وإيقاظ عواطفهم ، تصدر بهذه الجملة الدالة على أنها ستحمل على العقائد الموروثة والعواطف المتأصلة فى النفوس حملات منكرة حتى احرج صدور الناس عليها فيوسعها الناس ذماً ويهيمونها شتماً فتسكون بما راضت به نفسها من السكون للحقائق أفرح بذم الناس لها من مدحهم إياها . هل نحن من الذين على باطل لجاءت الجريدة لتكافحنا فيه ؟ هل نحن من الوطنية على ضلال

حتى أتت الجريدة لمنازعتنا فيه وقرأ الناس فى الجريدة مقالات فلسفية ومباحث فى الاقتصاد والتعليم ، مما اعتاد الناس مطالعته فى المجلات الشهرية ، فهل مرت الجريدة بذكر الاستقلال ، هل مست موضوعاً دقيقاً بين المصريين والمحتلين ، هل ناضلت عن حقوق مصر بالهمة المصرى الغيور ، هل علمت المصريين كيف أن الوطنية سياج الأمم ومسك الشعوب ،

« كلا ، املنا على باطل فى أمرنا ، وجاءت الجريدة لهدايتنا إلى الحق فيه ، فهل سمعت فى التوفيق بيننا وبين المحتلين ، هل دعتنا إلى تسلم قيادنا إليهم ، إذن ما الجريدة ، فلا هى على مشرب الجرائد الوطنية تعبر عن شعور المصريين وتمدهم بالدروس المرقية لعواطفهم ، ولا هى على هدى الهداة المخالفين ، فتستحق منا احترام المخالف المخلص فنقرأ لندرك وجه الحق من النقيض ، تال الناس ليست الجريدة على شيء فاتركوها ، وكادت تصبح خبر كان لولا تداركها مجلس الإدارة فأعلن أن وراء الجريدة حزباً يقال له (حزب الأمة) وأعضاؤه رؤساء العائلات المصرية فى البلاد وأنه ساع فى نشر التعليم بماله وجاهه وتهيىء الأمة للاستقلال وحكم نفسها بنفسها ، فصفق الناس طرباً ، وقامت الجريدة زاعمة أن الأمة طفلة قد غرر بها المتهورون ، وأنها فاقدة الشعور قد ألهاها بالخيال الموهومون فآلت على نفسها لتفضحن تلك الجرائد ولتنتقدن بلبها عملها ، وأنها ان تصرح للأمة إلا بما يناسب حالها ويتفق مع قابليتها ، فلما مارست الأمة وعالجتها تبين لها أنها بإزاء أمة ذات شعور حى وعواطف وطنية صحيحة ، فكافحتها أشهراً متعددة كفاحاً يصح أن يسمى انهزاماً ، ثم اضطرت لمقاومة الأمة فى شعورها فكانت النتيجة على عكس ما قصدت ، قصدت أن تهذب الأمة لجذبها الأمة ، ورأيت أن تهذبها فرأت أنها هى المحتاجة للتهذيب .

« فكانت الجريدة بهذا الاعتبار أول الأدلة على قوة شعور المصريين وعلى حياة وطنيتهم وكانت الجريدة (شعارها) يشعر بأنها تمد خطة الحملة على الرأى العام حملات منكرة حتى أنها توطن نفسها على أن ستلاق فى ذمه وسخطه ما لا يطيقه إلا من راض نفسه على السكون إلى الحقائق .

« لقد ابتدأ لطفى السيد حياته السياسية ضعيف القلب خائر العزيمة يائساً وقريباً من اليأس ، وادار جريدته على مبدأ يغاير مبدأ الحزب الوطنى كل المغايرة ، فما كان يقرأ القارىء فى تلك الصحيفة إلا حملات عنيفات على الشعور الوطنى وطلاب الاستقلال بحجة أن الأمة لا تزال عمياء صماء بكماء ، وأن كل الذى فيها حركة مصطنعة أوجدها بعض السياسيين المتحمسين الذين لا ينظرون إلا لمصلحتهم الذاتية ، فلم يمض على لطفى السيد فى هــــذا الظن عام حتى توالت عليه الضربات ما جعله ينظر غير النظر الذى دخل به معها فى ميدان السياسة .

« وتكلم لطفى السيد عن الوطنية كلاماً يعتبر فى علم الفلسفة اليوم من بقايا القرون المظلمة ، التى كان فيها أمر النوع الانسانى قائماً على مبدأ المنفعة المادية المحضة ، والحاجات الحيوانية الصرفة ، ولم

يبدو أن العالم الإنساني قد تدرج نحو الكمال ، فهو كل يوم يطلب وجوداً أرق وحالا عن حالات الحيوانية أبعد مما يظهر لي أن لطفي بك قليل الاطلاع على معارك الأفهام والهمم في العالم الاجتماعي فهو من أمثال نظرية الوطنية والمنفعة في دورها الأول . وما ظنك بخطيب يقوم في القرن العشرين وسط أمة في مضطرب الأمم ومزدحم المذاهب الاستعمارية تعتبر عطشى لسلسبيل العلم الراق لتحل به غوامض المتناقضات التي تراها بين يديها ومن خلفها ، فلا يواتيها من نظرية الوطنية والروابط الاجتماعية إلا بأحسن مما كانت عليه أيام كان الرجل يسلب جاره عاملا على (مبدأ المنفعة) .

نعم ، قامت الوطنية على المنفعة كما يقول ، ولكن غاب عنه أن المنافع قد ارتقت في ذاتها ، وفي نظر الأمم . فبعد أن كان الإنسان يرى أن المنفعة هي أن يعيش على هيئة قبيلة ، وأن يطارد جميع مجاوراته من القبائل كما هي الوحوش الهائجة ، ارتفعت المنفعة في ذاته ، واتسعت نظرية الاجتماع في نظره فمال لتكوين أمة ، فانساق لتوحيد قبائله ففعل ، فكانت الأمم وكان من لوازم اتساع نظرية الوطنية ارتقاء شخص (المنفعة) وكانت المقدمات هي التي تبذل التمهيد لعصر الحياة الاجتماعية التي يتسع معها معنى الوطنية فلا يقتصر على أبناء البلد الواحد وتنشر مبادىء الإخوة الانسانية .

وقد بدت مقدمات هذا العصر الأوربي الجديد ، فأنشئت لديهم محكمة التحكيم في لاهاي ، وحلت مشاكل كثيرة قامت بين الأمم ، وتكلموا في توحيد اللغة لتوحيد العواطف ولتصبح الأمم كالأسر المختلفة في مملكة عامة هي أوربا بأسرها ، فأين لطفي السيد من هذا كله ؟ إنه لا يزال من الوطنية في أدنى أشكالها ، فهو يقول للمصريين : ابنوا وطنيتكم على المنفعة المجردة ، وتقتضي هذه النظرية الخشنة أن لا يضحي المصريون أي مصلحة لهم ولا يكابدون أي تنازل كان في مصلحة أمة أخرى . . . إلخ » .

* * *

أما الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد فقد عرض آراء لطفي السيد وعاجمه في طريقة تفكيره .

يقول : إن الحجر الأول الذي وضع في أساس عمل الجريدة هو مقاومة الجرائد الوطنية التي تغضب سادتنا المحتلين ، وقد رأى النفر من مقربي الوكالة البريطانية أن يشتغلوا بتأسيس جريدة تعزى إلى جماعة من كبار الأعيان يكتب فيها العارفون بدخائل الأشياء وبما وراء الأكمة حتى يتسنى لهم بعد ذلك أن يقولوا إن مرآة الأمة يقولون غير ما يقول تلك الصعاليك الذين لا ناقة لهم في هذه البلاد ولا جمل ، وليعلمهم أن خدمة الأمة بالصحافة عن طريق استرضاء الوكالة البريطانية واستعطافها على المصريين خدمة شريفة ولا تتنافى مع الأوامر التي تحظر على الموظفين مكاتبة الجرائد والادلاء بالأخبار ، وقد قابل مستر روبرتسون أحد أعضاء الحزب الحر في البرلمان الانجليزي إثنين من كبار

مؤسسى الجريدة بإشارة من اللورد كرومر فقال كل منهما لذلك العضو : إننى تمكنت من تأسيس جريدة وطنية ستكون لسان حال المصريين بدلا من هـــذه الجرائد التى تتاجر بالوطنية (يقصد بالجرائد التى تتاجر بالوطنية صحيفتى اللواء والمؤيد) .

وكل ما كان حول العمل يجعل الجريدة فى واد وما تدعيه الآن من تجرد مبادئها عن كل تحيز لإحدى السلطتين فى واد آخر .

لذلك قال الكثيرون إن خروج كرومر من القطر المصرى أضاع دفة سفينة الجريدة أو غير وجهة ربانها، لذلك اضطروا للإعلان من جديد بمبادىء جديدة والمبادىء حسنة ولكنها محتاجة إلى التنقيح فى الوضع حتى تذهب الريب التى خالطت النفوس فيها ومحتاجة إلى استكمالها ، لأنهم يريدون أن يكونوا لسان الأمة ، وليس لأحد أن يدعى خدمتها » اه .

هـذه النماذج وليست وحدها — بل هناك عشرات من النظرات المعارضة لاتجاه لطفى السيد تمثل فى مجموعها رأياً عاماً بينما انفرد لطفى السيد باتجاهه مع قلة قليلة من الطامعين ، بما يخالف روح الأمة وروح الفكرة وجوهر ضميرها وطبيعتها ، فقد كان لطفى السيد يسبح ضد التيار إلى حيث يرتضى الاستعمار والاحتلال تغيير وجهة الأمة وروحها وعرفها العام على النحو الذى طبق فى دقة بعد الحرب العالمية الأولى وفى فترة ما بين الحربين حين سيطر لطفى السيد وسعد زغلول وأتباعهما على القيادة السياسية وشجبوا الطريق الطبيعى للأمة ، وأرادوها على طريق آخر قوامه دعوة التغريب ووسائلها وأهدافها ، حيث أتيح لطه حسين وعلى عبد الرازق وسلامه موسى واسماعيل مظهر وهيكل وعنان وغيرهم أن يجوروا خيولهم أشواطاً طويلة لم يلبث بعضها أن ارتد تحت ضغط قوة الفكر العربى الإسلامى الأصيلة فى الأمة التى قادت وجهة الرأى العام فى الصحف والمجلات والجماعات والهيئات ومجلس النواب واستطاعت أن تكشف اتجاهات حركة التغريب التى قادها لطفى السيد وسعد زغلول .

وقد تمثلت فلسفة حزب الأمة التى تحولت إلى تيـــار فكرى ضخم بنفوذ القيادة السياسية خلال ما بين الحربين فى :

(أولا) الضغط على المشاعر الروحية والدين الإسلامى بحجة أنها تقلق الاستعمار وتدفع روح الخلاف بين المسلمين والمسيحيين ، وبذلك كان هناك عرف غير مكتوب يتحدث دائماً عن تخفيف الكتابات عن الإسلام وأثره الاجتماعى والسياسى ، وما يتصل به فى مجال التربية والمدرسة والمجتمع وما يتصل بالقانون ونظام الحكم .

(ثانياً) تجاهل كل دعوة إلى الإخاء الإسلامى على طول الجبهة الإسلامية أو أى دعوة إلى الرابطة العربية .

(ثالثاً) الإقصاء عن التراث العربي الإسلامي جملة في مجال الثقافة أو اللغة أو التاريخ .

(رابعاً) الإذاعة بالفكر الغربي الرأسمالي الليبرالي وما يتصل به من الديمقراطية وأسماء أعلام فرنسا وانجلترا وكتابهم وعظمائهم .

وقد حمل لطفي السيد في الجريدة وحمل خلفاؤه من بعده هذه الدعوى تحقيقاً لما رسمه كرومر من القضاء على الإسلام ديناً ودولة وصرف الإسلام عن المجتمع والقانون والتربية والقضاء على الوحدة الإسلامية ، والعمل الدائب الدقيق بالانتقاص على كل ما له طابع الشهامة : كالدين والتاريخ واللغة .

وقد استطاع لطفي السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي تكوين جيل يفهم أهداف الدعوة التغريبية ويجري بها شوطاً طويلاً تمثل في جريدة السياسة والجامعة المصرية بعد الحرب ، ومهما وقع الخلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين فقد كانوا جميعاً يصدرون عن منبع واحد وفهم واحد لاتجاهات كرومر الأساسية والتي تمثلها فلسفة حزب الأمة وهي إخفات صوت الإسلام وفكره وتراثه وإبعاده عن مجال التطبيق في المجتمع أو الدولة أو القانون أو التربية .

وكان كرومر قد رسم مخططه من خلال عدة نقط ارتكاز أساسية :

(١) مناهج التعليم والتربية عن طريق (دنلوب) في المعاهد والمدارس .
(٢) مدارس الإرساليات الأجنبية والبعثات الأجنبية .
(٣) مخطط حزب الأمة وجريدة الجريدة .

وقد أشار لطفي السيد إلى أنه إنما كان يهدف عن طريق (الجريدة) إلى طرح مفاهيم جديدة مغايرة الطريق الذي سلكته اليقظة العربية الإسلامية وذلك حيث يقول :

« أتيحت لي فرصة النهوض بإدارة صحيفة كبيرة فتهيأ لي من وسائل الدعوة إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي والثقافي والخلقي ما كنت أبتغي ، وإذا دعوتي إلى هذا الإصلاح تذهر وتعظم انتشارها وما أسرع ما حاولت أن أجعل من دار الصحيفة معهداً للعلم وإذ أنا أدعو الشباب إلى محاضرات يسمعونها مني ومن جماعة من خاصة المثقفين » .

وقد أجمع الباحثون على أن لطفي السيد كان معارضاً لروح الجامعة الإسلامية والوحدة العربية معاً ، وأن حديثه عن الأخلاق والتعليم والتربية لا يتصل مطلقاً بالفكر العربي الإسلامي ، فهو لا يتحدث عن أثر الدين في التربية البيتية ولا المدرسية ، وهو على حد تعبير باحث لبناني قد « أزاح الدين كأساس الوحدة القومية ، وعالج مختلف القضايا الأخلاقية من وجهة نظر عصرية بعيدة عن الإسلام .

وفى مجمل كتابات لطفى السيد وفلسفته التى عرضها خلال سنواته السبع فى الجريدة لم يخرج عن مفهوم كرومر فى أهم ثلاث نقاط :

(١) الوحدة الاسلامية والرابطة العربية والإقليمية المصرية .

(٢) فصل الدين عن المجتمع والدولة .

(٣) قصر التعليم على أبناء المرأة وعزل التربية عن الدين .

(٤) إرساء مفاهيم السياسية الأوربية ونظمها فى الحكم والقانون ، وقد أعد وفق هذه المفاهيم جيلا قاد الحركة الفكرية والسياسية بعد الحرب امتداداً لحزب الأمة فى حزب الوفد وحزب الأحرار وفى صحيفة السياسة بديلا للجريدة وفى الجامعة المصرية التى تولاها حتى ١٩٤٢ .

ويمكن القول أن لطفى السيد وآراءه ومدرسته لم تكن تجد مكاناً أو صدى لولا النفوذ الاستعمارى الذى كان يفرضها ويقوى ركائزها لتكون صالحة للعمل بعد الحرب بينما ظل الفكر العربى كله (والرأى العام المثقف كله) مناهضاً لهذا الاتجاه وكان ماضياً فى طريق اليقظة الأصيل الذى اختطه محمد بن عبد الوهاب منذ عام ١٧٤٠ والذى تطور على أيدى جمال الدين ومحمد عبده وغيرهم .

ومن حق أن يقال أن لطفى السيد لم تكن له صفة الزعامة الشعبية ، فقد كان من أسرة أرستقراطية فهو ابن واحد من الاقطاعيين الكبار الذين أتاح لهم الاحتلال البريطانى الفرصة للغنى والثراء ، فأبوه سيد أبو على الذى استطاع أن ينمى ثروته فى ظل الاستعمار ، وكان واحداً من أعضاء حزب الأمة ، وقد آثره أبوه على أخويه بأربعمائة وخمسين فداناً كان قد شرع فى شرائها عام ١٩٠٦ وأراد أن يكون عقد المشترى باسم لطفى السيد ، فكم كان لديه من أفدنة ، وقد كانت أرستقراطية لطفى السيد واضحة كواحد من أعيان الريف ووجهائه وسراته ، والمعروف أن لطفى السيد كان يعمل أولا مع الخديو ثم فضل الاتجاه الأخير مع كرومر .

وكان من أبرز من دعام لطفى السيد وكون منهم حزب الأمة : فتحى زغلول (قاضى دنشواى) وإدريس راغب (زعيم الماسونية) وعبد الخالق ثروت ، وعبد الرحيم الدمرداش (شيخ الطريقة وعميل بريطانيا) وعبد العزيز فهمى وعمر سلطان (مرافق الحملة البريطانية على طريق التل الكبير والقاهرة) .

هؤلاء الأعيان الذين جمعهم لطفى السيد كونهم الانجليز فأصبحوا فئة خاصة لا صلة لها بالقصر ولا بالحركة الوطنية ولا تؤمن بالاتجاه إلى الدولة العثمانية خصم بريطانيا ولا تقبل بالوحدة العربية لأن بريطانيا لا ترضاها ، وكان حليفهم الطبيعى هو المعتمد البريطانى .

ومن خلال فلسفة هؤلاء الخاصة — كسراة — يدعمهم النفوذ الانجليزى وأتاح لهم فرصة شراء

الدائرة السفلية عن طريق وليم وليكوكس المهندس البريطاني الذي أشرف على الري المصري أربعين سنة ، ثم أصبح مبشراً يدعو إلى العامية ويترجم الإنجيل ، ومن خلال فلسفته اشتبت مراكز هذه الطبقة ، طبقة أصحاب المصالح الحقيقية كما أسماهم كرومر ، التقوا بالإنجليز في منتصف الطريق ، فقبلوا التدرج البطيء في الاستقلال عن طريق مجالس المديريات وغيرها ، والذين كانوا مهتمين بالدرجة الأولى باستثمار أرضهم والحفاظ عليها ، هؤلاء كانوا يفلسفون واقع حياتهم في مذهب يحمل لواءه لطفي السيد . ويرون الحكم الدستوري على أنه وسيلة في الحدود التي ترضاها بريطانيا والتي تتيح لهم المشاركة في الحكم ، فقد كانوا يرون أنفسهم الممثلين الحقيقيين للأمة (على حد تعبير دكتور حسين فوزي النجار في كتابه عن لطفي السيد ص ١٦٣) .

ولقد ادعى لطفي السيد دعوى عريضة ، إنه كان تلميذ جمال الدين ومحمد عبده ، فماذا قال عنهما قال إنه قابل جمال الدين في استانبول عام ١٨٩٣ مع سعد زغلول وحفني ناصف وعلي يوسف ولم يرد فضل جمال الدين على ما عبر عنه حين قال : « أهم ما أظن انتفعت به من السيد جمال الدين أنه وسع في نفسي آفاق التفكير » ومعنى هذا إنه لم يلتزم بأي مفهوم من مفاهيمه عن الحرية أو الإسلام ، بل إنه ليختلف معه اختلافاً بيناً في أكبر أساسين من أسس فلسفة جمال الدين وفكره . يختلف معه في شدة نقمته على الإنجليز . فهو يختلف معه ويتعاون معهم إلى أبعد الحدود ، إلى حدود تحويل مفاهيمهم الاستعمارية الاحتلالية إلى فلسفة عالية رفيعة تقنع الشباب والمثقفين ، ويختلف في الإيمان بالجامعة الاسلامية ويذهب إلى حد التنكر للروابط الإسلامية والعربية بل وللأسس الفكرية الأساسية للإسلام .

وفي موقفه من محمد عبده يرى الدكتور النجار : إنه رضي طريق الشيخ محمد عبده في الملاينة في الدعوة والالحاح في طلب الاصلاح ، ونبذ طريق الأفغاني في الملاحاة والعنف والثورة ، والواقع أن طابع الملاينة في الشيخ محمد عبده إنما كان ينبثق أصلا من جذور عميقة الايمان بالقيم الأساسية للفكر الاسلامي حيث يراها المنبع الأصلي والمصدر الأساسي لكل نهضة ويقظة ، أما لطفي السيد فكان رائده فلسفة الحريين الغربيين وكان الفكر الاسلامي بالنسبة له شيئاً جانبياً مغفوراً لم يشر إليه مطلقاً في كتاباته عن المجتمع والتربية .

وإذا كان هناك شبهة تقارب بين موقف محمد عبده ولطفي السيد من خطة الاصلاح في الاعتماد على السلطة المحلية الحاكمة ، فإنما كان من محمد عبده يفرض أصول الفكر الاسلامي أساساً . أما لطفي السيد فلم يكن يؤمن إلا بمفهوم (الديمقراطية الغربية) كما يفسره كرومر نفسه ، وظل لطفي السيد بعيداً عن فهم الدين كمؤثر اجتماعي ، وأخذ نظرية الحرية والديمقراطية الغربية وأراد أن يطبقها على مصر ، وكان تلميذاً لجون ستيوارت مل صاحب مذهب المنفعة ونظريته في الحرية متأثرة بأرسطو في السياسة والأخلاق ، فمذهب المنفعة هو قاعدة تفكيره السياسي والاجتماعي وهو يرى إنها هي الحافز

الأصيل للعلاقة بين الدول والحكومات والأفراد . أما مذهب الحرية فقد اعتبره أساساً للنظام الاجتماعي وقد رد عليه العلامة فريد وجدى وفند مفهومه فى المنفعة وكشف عن أنه مذهب عقيم قد تطور من بعد اعتناق لطفى السيد له كثيراً بينما جمد لطفى السيد عند أصوله الأولى . وقد فشل لطفى السيد فى محاولة الانفصال ونبذ الدولة العثمانية دولة الخلافة

ثانياً : فى إنكار فكرة الجامعة الإسلامية والتشكيك فيها حين ادعى إنها من عمل صحفى أجنبى .

ثالثاً : فى إنكار الخلافة .

رابعاً : فى نبذ الوحدة العربية .

وقد نمت الأفكار الأصيلة المضادة لفكر لطفى السيد بعد ذلك نمواً واضحاً وحققت آثاراً بعيدة المدى فى الفكر العربى الإسلامى ، وحتى فى خلال الفترة التى كان الولاء لدولة الخلافة أو الخروج عن السيادة العثمانية ، وحين أخذوا عبارة الولاء لدولة الخلافة أو الخروج عن السيادة العثمانية ، وحين أخذوا عبارة مصر للمصريين لم يأخذوها بمفهوم لطفى السيد الماكر ، بل بالمعنى الذى قصدته الثورة العرابية .

ولم يقتنع أحد بأن التمسك بالرابطة الإسلامية والجامعة الإسلامية مما يعوق تحقيق الكيان القومى الذى تنشده مصر ، ولم يقبل الفكر الإسلامى - بل رفض بازدراء - فكرة شخصية الأمة التى حاول لطفى السيد أن يجعل من اختمالها محاولة القضاء على الوحدة الإسلامية أو العربية ، لقد عارض الفكر العربى هذه النظرة وعدلها وجمع بين المصرية والعربية والإسلامية ، وقال أن مفهوم الدولة القومية فى أوربا ليس هو المفهوم الصالح لفكرنا العربى ، كما رفض الفكر العربى رأيه فى التعليم والتربية وتكوين نظريات التعليم والتربية متحررة من أرستقراطية الأسر الكبرى التى جعل لطفى السيد من حقها وحدها التعليم كما رفض فصل الدين عن التربية .

ويمكن القول أن الفسح بجمال الدين أو محمد عبده وهى الحملة التى حاول لطفى السيد دوما أن يرددها ، إنما كانت بمثابة محاولة انتساب مضللة لإعطاء صورة براقة ، فهو قد كان بالحقيقة والواقع بعيداً كل البعد عن أضح وأجدر أفكار جمال الدين ومحمد عبده ، ويمكن أن يقال أن هذه الصفحة كان يمكن أن تطوى لولا أن مؤسس حزب الأمة وصاحب الجريدة قد ظل مشرفاً على الحياة الفكرية والأدبية والثقافية من خلال جريدة السياسة ودار الكتب والجامعة والمجمع اللغوى إلى آخر حياته وقد شهدت خلال فترة ما بين الحربين انهيار كل المقومات التى حاول لطفى السيد بناءها .

(٢)

تمزيق حركة اليقظة

ركز كرومر في سبيل تمزيق يقظة الفكر العربي الإسلامي ووحدته على عاملين :

الأول : مظاهرة القوى الأجنبية الفكرية الغازية .

الثاني : خلق جيل وقيادة تحمل أفكاره .

وقد استطاع النفوذ الاستعماري استغلال إسماعيل في مرحلة ضعفه وديونه والضغط عليه لفتح الطريق أمام التغريب وقد كان إسماعيل باشا هو أول من حمل لواء التغريب حين أعلن كلمته التي ماتزال لها دلالتها « إن مصر قطعة من أوربا ، وقد أقام المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية .

فقد عمد الخديو إسماعيل تحت ضغط أوربا إلى منح البعثات التبشيرية في مصر تشجيعاً كبيراً ، وقد اعترف بذلك نوبار باشا في مذكرة رفعها إلى إسماعيل (١٠ أغسطس ١٨٦٧) حين قال : كان الخديو إسماعيل مستعد لمنح الأجانب إمتيازات جديدة ، بل منحهم أقصى ما للوطنيين من حقوق بما فيها حق امتلاك العقار » وأشار نوبار إلى اتجاه الريح فقال : « إن التقدم لا يأتي إلا من ناحية أوربا وأنه يتطلع إلى إشراك هذا العنصر المتمدن في أعمالها فهي أن تكل مصر إليه كبير أعمالها » ونتيجة لهذا أغدق إسماعيل الهبات على بعثات التبشير المتعاونة مع الاستعمار وفي رسالة من مسيو برجاه قنصل فرنسا في مصر في ١٨٦٩/٥/٢ أن إسماعيل منح رئيس أساقفة اللاتين بمصر قطعة أرض مساحتها ٣٥٠٠ ذراع في موضع حسن جداً تساوي ١٥٠ ألف فرنك ذهباً ، كما منح الراهبات إعانة سنوية قدرها ٦ آلاف فرنك ذهبا فضلا عن هبة قدرها ٢٠٠ ألف فرنك ، كما منح أساقفة اللاتين منحة أخرى هي أرض مساحتها ٦ آلاف ذراع ، ومنذ عام ١٨٦٧ أخذت مدارس الاستعمار الفرنسي والبريطاني تعمل في مصر ، بالإضافة إلى المحافل الماسونية والمدارس التبشيرية .

ومن خلال هذه المرحلة بدأ دور الصحافة اللبنانية المهاجرة إلى مصر (المقتطف والمقطم والهلال والجامعة) ممثلة في سركيس ، وجرجي زيدان وصروف ونمر ومكاريوس وفرح أنطون بالإضافة إلى زعيم المادية الأكبر : الدكتور شبلي شميل الذي بدأ دعوته عام ١٨٦٠ منذ وطئت أقدامه أرض مصر وكانت خلاصة فكره : رفض الأساس الإسلامي للفكر العربي وبناء أساس جديد مستمد من الفكر الغربي وكان منهج عمله ينتظم :

أولا : الدعوة إلى الاقرار بتفوق العلوم الأوربية واقتباسها .

ثانياً : الإيمان بالعلم أساساً لقيام حضارة منقولة.

ثالثاً : تنمية الروح الاقليمية فى مواجهة الجامعة الإسلامية والوحدة العربية.

وكان سعى هؤلاء جميعا لهذا العمل يجرى فى بطء وأناة ودقة ، يحدوهم النفوذ الاستعمارى ويؤيدهم وهدف هذا العمل كله هو :

١ - فصل الفكر العربى الحديث عن قاعدته الإسلامية العربية.

٢ فصل الدين الدولة والمجتمع ، وفصل الدين عن التربية ، وفصل الأخلاق عن المجتمع.

٣ - الدعوة إلى المواطنة العالمية التى تذوب فيها القوميات والتى التمس مفهومها من وحدة الحضارة الغربية وإذابة الحضارات والثقافات المختلفة فيها.

وقد رفض الفكر العربى أهداف هذه المفاهيم ، ولم يتقبل من طوفانها الضخم ، إلا ما يتصل بأصوله وجذوره.

رفض الطابع اللاتينى اللادينى الغربى ، رفض طابع الاقليمية ، ورفض الفرعونية والآشورية والفينيقية وردها إلى أصولها العربية ، ورفض طابع اليونانية الإغريقية الوثنية ، لم يرفض إلا أساسه الأصيل : الإسلام فى مفهومه الواسع : دينا ومجتمعاً ونظام حياة ، واللغة العربية بأصولها وتراثها والتاريخ الإسلامى العربى بصفحاته الغراء.

ورأيت أن الدعوة إلى « العالمية » هى دعوة إلى إغراق العرب والمسلمين فى تيار الأممية ، وتقل دعواتها التى تحول دون التحرر من النفوذ الأجنبى ، وأصبح الحال على حد قول أحد المفكرين المستغربين « هذا الذى دعا إليه شبلى شميل لم يترك إلا أثراً قليلا » ، فقد أخذ منه الفكر الإسلامى العربى حاجته وترك الباقى ، فالنظرية المادية البيولوجية الخالصة لم تجد تقبلا كبيراً فى الفكر العربى الإسلامى ، وكذلك النظرة الوسطية فى البحر الأبيض ، أما القول بأن المصريين أوربيين أو ليسوا شرقيين ، كل هذه النظريات فشلت فى أن تجد تقبلا فى الفكر العربى الإسلامى.

وقد دعا شبلى شميل إلى هدم مدرسة الحقوق وإنشاء مدرسة الكيمياء ، ولكن الفكر العربى الاسلامى بوسطيته وتكامله لم يهدم مدرسة الحقوق وإنما أشاد مدرسة الكيمياء وهذه طبيعة هذا الفكر الموائمة الوسطية القادرة على الأخذ والرفض ، وقد جرى فرح انطون شوطا فى هذا الاتجاه فإن دعا شميل إلى إحلال العلم محل الدين كقاعدة للأخلاق فقد دعا انطون إلى تحرير الانسان من بواعث التفرقة التى غرستها الأديان وفى رأيه أن الأديان مدعاة للتفرقة الاجتماعية والوطنية ، وأن الأديان فى جوهرها تتناول الماديات وبصراحة كان فرح انطون يدعو إلى نظام سياسى يفصل بين الدين والدولة

وهي دعوة غير المسلمين المتثقفين أصحاب الولاء للسياسات الغربية أو لجامعات التبشير والإرساليات الكبرى، كما دعا إلى تبسيط اللغة العربية وجعلها أقرب إلى العامية، وذلك في الظاهر بحجة تعليم مختلف الطبقات، وفي الواقع القضاء على بلاغة القرآن والنزول إلى دركات التعبير العامي الذي يفصل الناس عن ثقافة القرآن، أو تغليب اللهجات والعاميات في البلاد العربية للقضاء على وحدة اللغة التي أقامها القرآن وبالتالي القضاء على القرآن نفسه.

وقد واجهت دعـــوة فرح انطون ازدراء كبيراً وسقط سقطة نهائية بعد أن تصدى له الشيخ محمد عبده وكشف عن أخطائه في إتهام الحضارة الاسلامية بالتعصب ومحاربة العلماء، حتى أنه هاجر من مصر إلى أمريكا فلما عاد اشتغل بالتمثيل.

ويقول الباحث د نعيم عطية، لا ريب أن الشميل وانطوان كانا يمثلان الجماعات المسيحية وربما الأقليات الدينية الأخرى فاعربا مداورة عن تخوف هذه الجماعات من الذوبان في دولة دينية إسلامية أو على الأقل طرحا بوضوح صعوبة قيام وحدة اجتماعية صحيحة في مجتمع له دين ودولة.

هذا هو المناخ الذي مكن له كرومر، مصدره لطفي السيد والجريدة وحقه وإدارة حول مفاهيم كرومر المتعصبة الحاقدة على الاسلام والعربية والتاريخ واللغة والدين وكانت الركائز في سبيل دعوة التغريب وتمزيق جبهة يقظة الفكر العربي الاسلامي تقوم على:

أولا: دعاة غربيون يحملون لواء الهجوم على الاسلام واللغة العربية أمثال كرومر، دانلوب، ولكوكس، القاضي ولمور...

ثانياً: دعاة من غير المسلمين أمثال صروف ونمر وجرجي زيدان وفرح انطون.

ثالثاً: دعاة من المسلمين أنفسهم: أمثال لطفي السيد وسعد زغلول ومن بعدهما، وآية هؤلاء الدعاة التي تكشف حقيقتهم هو إنكارهم وحدة الفكر الاسلامي والفصل بين الدين والمجتمع، والمدنية والاسلام.

والمعروف أن صروف ونمر وشميل هم أول ثمار المدرسة السورية المكلية التي هي أول مدارس التبشير والإرساليات في العالم العربي والتي انشئت عام ١٨٦٦ وخرجوا منها سنة ١٨٧٤ - والمدرسة السورية المكلية ثماراً متعددة فيما بعد وإلى اليوم وقد وجدت هذه الطلائع منطلقها في مصر التي كان النفوذ الاستعماري وحركة التغريب تركزان عليها بوصفها قلب العالم الاسلامي، ورأس الأمة العربية فهاجروا إلى مصر سنة ١٨٨٥ وهاجر الكثيرون من بعدهم في هذه الفترة.

وهكذا تمثلت آراء كرومر في مدرستين تكتبان بالعربية: مدرسة الصحافة اللبنانية المهاجرة

ومدرسة لطفى السيد . ومن حق أن أحداً من المفكرين المسلمين لم يتوقف عن مراجعة الآراء التى أذاعها هؤلاء جميعاً وانقضها أو الكشف عن زيفها ودحض ما فيها من انحراف ، وفى مقدمة هؤلاء مصطفى كامل وعلى يوسف وفريد وجدى وعبد العزيز جاويش ورفيق العظم ومصطفى الغلاييني وعشرات وقد سبقهم جميعا ورسم لهم الطريق جمال الدين كتابه « الرد على الدهريين » ومحمد عبده فى كتابه « الاسلام والنصرانية فى العلم والمدنية » .

(٢)

نهض اللبنانيون فترة بالعمل ثم أمكن عام ١٩٠٧ فتح جبهة جديدة بزعامة لطفى السيد وحزب الأمة والجريدة .

وهى مرحلة يمكن أن نسمى مرحلة صياغة فلسفة التغريب وتحويل آراء كرومر إلى مذهب مصرى مكتوب باللغة العربية مليء بالخداع ، وذلك أن لطفى السيد قدم هذه السموم فى ثوب من الحماسة العقلية لمصر هكذا : مصر حرة ، بعيدة عن روابطها مع المسلمين والعرب ، ولكن على أن يكون الأمر فى الزعامة لأصحاب المصالح الحقيقية . ومن هنا فإن غير هؤلاء السراة ليسوا فى حاجة إلى التعليم — تقول الجريدة فى ١٧ مارس ١٩٠٧ :

« إن روح التقنين فى البلاد وميل الناس لا تطبق عليهم حال الاستقراطية ولا حال الديمقراطية وهم إلى الأولى أقرب ، لذلك سمينا هذا الشكل من الحكومة البلدية باسم نصف ارستقراطية (نصف حكومة الأعيان) ويتلخص مما سبق أن الحكومة هى فى يد تلك الطبقة الوسطى من الناس فما فوق ، فإن لم يمكنها بالفعل وجب أن تكون كذلك ، أى أن الموظفون من هذه الطبقة على الغالب ليكون فى الحكومة شيء من التنسيق والنظام » .

كان هدف لطفى السيد أساساً هو تأكيد الطبقة الجديدة ، هذه الطبقة التى عناها لطفى السيد هى طبقته الجديدة التى كونها النفوذ الأجنبى : طبقة أصحاب المصالح الحقيقية وليس هذا استنتاجاً من عندنا ولكنه الحق الذى يبلغ إليه كل باحث منصف . يقول لطفى جمعه : أصحاب المصالح الحقيقية هم عداد الغنى وهم طبقة اجتماعية جديدة ولم يكونوا قبل الاحتلال شيئاً مذكوراً وصاروا بعده ملاكا والفضل فى غناهم راجع إلى تقسيم أراضى الدائرة السنية وغيرها فإن الانجليز فكروا فى خلق هذه الطبقة من المفلوكين والصعاليك فاهتدوا إلى رجلين قديرين يقومان بإعداد هذا العمل وهما دليم وبلكوكس ، وأرنست كابل أولهما للعمل الفنى والثانى لرأس المال فوزعوا أراضى جيدة بتراب الفلوس وكان والكوكس يغنى من يشاء بغير حساب على ما فصله فى كتابه القيم : « ستون عاما فى الشرق » وفى طرفة عين أصبح هذا الفريق من الأعيان يختبون فى القفاطين والجبب من الألاجه والهامى والجوخ السلطانى ويضمون فى أوساطهم أحزمة السلفيد التى أحكم نسجها الحصانى وصارت

تلك الفيالق تعرف باسم أصحاب المصالح الحقيقية أى الذين يملكون الأطيان ويدفعون الضرائب وقد اخترع لهم هذا الوصف الذى لا يوجد له مثيل فى أوطان العالم ليدللوا به على أن دعاة الوطنية والاستقلال والجلاء لا يؤبه لهم ولا يسمع صوتهم لأنهم لا يملكون الأطيان وأن الذى ينادون به هو حلم من الأحلام ووهم من الأوهام العامة ، وكان دأب الانجليز أن الرأى فى كل مكان للرجل الذى وكلنا إليه إمرة ، وكان الاحتلال قد أنشأ جيلا من المشايخ الذين يسايرون القابض على زمام الأمر ، ويسمونه أولى الحل والعقد ، وكان الكرومر مستشارين فى المالية والداخلية والمعارف والأشغال والحربية » .

ولاستكمال صورة هذه المرحلة يصف لطفى جمعه تقارير كرومر فيقول إنها أوجدت نوعا من الأدب الاستعمارى لم يكن معروفا من قبل إلا فيما قاله لورد ماكولى عن الهند ، وغاية هذا الأدب تبرير الاغتصاب بحجة الإصلاح وحمل الغاصب على قهر المغصوب ولو رغم أنفه ، نسب كرومر إلى نفسه أنه صديق الفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء ، ميال إلى العدل بين الجميع ويدس تبدأ تصورة بعيدة المرمى عن ضرورة الاحتلال ووجوب التسليم لبريطانيا فى سائر مناحى الحياة وتخلى المصريين عن الحكم لصعوبته وتعقيده وعجزهم عن تناوله ، وأنها لم تمر عليها فترة من التاريخ وهى حرة بل قضت الأجيال فى العبودية ، وأن انجلترا أرحم المستعمرين أى أنها أعدل الظالمين وأقلهم أجراً فإنها لم تحتل مصر لاستعمارها بل لخير مصر ونفعها وقيامها بما انتدبتها لها العناية الإلهية من واجب القيام على شئون الانسانية الضالة فى بيداء الجهل والفقر والظلم .

« وقد وضعت تقارير كرومر بما فيها من الوثائق السياسية النادرة ، وقد أفرغ عليها صاحبها ثوباً قشيبا من طلاوة الأسلوب وزينتها نبذ من التاريخ واقتبس فى بعض صفحاتها أقوالا لكبار الحكام من الاغريق والرومان .

« واستعان كرومر بمن لديه من الكتاب الشاميين المأجورين الذين حذقوا إفراغ المدح فى قالب المقال السياسى ، وكان كرومر يتقن سياسة « الحماية المقنعة » فالأمر كله بين الموظفين الانجليز الذين يتقولون النصح (الأوامر فى صورة نصائح) لأن النصيحة كانت تتبع ويعمل بها . والخديو يعين وزراء ولكنه فى الحقيقة يأتمر بأمر المعتمد فى اختيارهم » .

هذا الجو الذى استلهمه الذكى ، أسرة أصحاب المصالح الحقيقية : لطفى السيد وصديقيه سعد زغلول وعبد العزيز فهمى ، كانوا يفهمون أن نصائح كرومر وتوجيهاته أوامر لا سبيل إلى تجاوزها وكانت هذه التقارير تنشر بطريقة رهيبة منهرة ، تترجمها إدارة المقطم وتصدر فى أعداد خاصة وتوزع فى كل مكان ، ويجد فيها الطامعون أمثال لطفى السيد وغيره التوجيهات العامة للعمل حتى يكونوا الطبقة الجديدة من الحكام ، وقد تحقق ذلك فإن أبناء حزب الأمة هم الذين تولوا الحكم وأتموا برنامج كرومر .

وكان قد قصد إلى إعدادهم للعمل حين قال عبارته المشهورة : إن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر وأن المستقبل الوزارى سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية ، وأن الاسلام كنظام إجتماعى قد وضعت نظمه لتناسب الجزيرة العربية ، هذه هى مفاتيح فلسفة لطفى السيد وسعد زغلول والعهد كله الذى ولى الحكم بعد الحرب العالمية الأولى ، وقد اختير سعد زغلول عام ١٩٠٧ فى نفس الوقت الذى بدأت فيه مدرسة الجريدة الثقافية وحزب الأمة — وزيراً للمعارف ومشرفاً على كل شئون الثقافة .

كان كرومر يعتقد بأن المتفرنجين هم أصلح الناس ، بل هم أصلح المثقفين للتعاون مع الاستعمار وكان يرى إحتقار أصحاب الثقافات ذات الطابع الإسلامى ، ومن هنا برز لطفى السيد وتوارى فريد وجدى .

وليس خافيا أن هؤلاء المثقفين قد فهموا توجيهات كرومر وكانوا عند حسن ظنه حتى أنه مدح سعد زغلول فى خطبة الوداع ولم يمتدح من المصريين أحداً .

كان كرومر يعرف أن فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية فى المسيحية فى الغرب قصد به التخلص من نفوذ الكنيسة ، وأن الاسلام ليست له كنيسة ، ويستحيل فيه الفصل بين المدنية والدين ولكنه كان حريصاً على خلق قيادات سياسية على هذا الأساس باعتبار أن ذلك هو العمل الجذرى فى تمكين النفوذ الاستعمارى وامتداده ودوامه ، والطريق المفتوح لكل الدعوات والمذاهب وتحقيق خطط التغريب ، فقد كان كرومر يود لو أن يتوارى فى العالم الاسلامى : القرآن والكعبة والأزهر ، وكان رئيس وزراء بريطانيا (غلادستون) قد أعلن ذلك فى مجلس العموم ، ولذلك فإن الخطة الخفية دبرها كرومر مع دانلوب ، والتى هضمها بذكاء أولئك المتفرنجين الذين نضجوا خلال حكمه وقبل مغادرته البلاد ، هؤلاء كانوا يفهمون أعماق هذه الخطة ويخفونها فى نفوسهم ويصدرون عنها فى كل ما يكتبون عما هيأ لهم السيطرة السياسية بعد الحرب الأولى ، حيث وضع فى الظل كل دعاة يقظة الفكر الإسلامى الاصلاحى . كان أقوى هدف كرومر الذى يسعى إليه والذى إنتهت مهمته فى مصر يوم أن حققه هو تحرير المجتمع والحكومة من كل قيد دينى أو أخلاقى وبذلك ينفرط عقد القوة الحافظة الحاوية التى تربط المجتمع والدين والسياسة والأخلاق .

وكان كرومر — كما صور فى كتابه مصر الحديثة — يقدر عمق فهم المسلمين الإسلام ، كقوة مقاومة ووثاقة وتمسك المصريين بعقيدتهم التى تتسم بالوطنية الخاصة والرابطة الإسلامية والوحدة العربية .

ومن هنا كانت دعوته المثقفين إلى المنهج (منهج التفريغ والسخرية بالدين وروابطه الاجتماعية) والتماس مصادر الثقافة من الفكر الغربى المتصل بالديمقراطية والرأسمالية والنظام البرلمانى والدستورى

البريطاني الفرنسي . ومن هنا كانت دعوة المثقفين في حزب الأمة إلى التعاون مع الأوربيين في كل ميادين الحياة ومجالات النشاط ، وكان كرومر يعقد عليهم الآمال في مستقبل مصر السياسي ويوصي ممثل الاحتلال بأن يشملهم كل عون وتشجيع (الفقرة ٣ تقرير كرومر السنوى ١٩٠٦)

وما أريد أن أقوله هنا ، هو أن هؤلاء التلاميذ كرومر : لطفي السيد وسعد زغلول عرفوا مدى التمهيد الذي يعدهم للقيادة السياسية بعد الحرب ، بل أن سعد زغلول ولي الوزارة فعلا ، وكان الذي أعد له بعد الحرب إنما كانت الزعامة السياسية كلها وقد عرف طه حسين وهيكل ومحمود عزمي وعلي عبد الرازق وهذا أيضاً فكانوا على طريقة بعد الحرب ، وفقا لتعاليم كرومر التي هي أساس عملهم لإنشاء « المصري المتفرنج » ، وكان كادر العمل السياسي قد أعد من خلف ثورة ١٩١٩ على هذا الأساس فلسفة لطفي السيد المستمدة من انجيل كرومر المتمثل في تقاريره السنوية ، هذه الفلسفة وهذا الإنجيل هو الذي قاد المسيطرين سياسياً وفكرياً بعد الحرب العالمية الأولى على قاعدة « إن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر » .

وأصبح معروفا قاعدة كرومر التي تقول : المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربيين تربية أوربية « سينفذ » . ولقد كانت عبارة كرومر في هذا المجال صريحة حين يقول « إن المسلمين لم يشربوا روح الحضارة الأوربية ولم يدركوا إلا قشورها وهم لذلك قد فقدوا أحسن ما في الإسلام وأحسن ما في الحضارة الأوربية » وكان إيمانه بالقيادة المصرية قائماً على هذا التفسير : إن المتفرنجين من المصريين إذا قيسوا إلى مواطنيهم كانوا أصلح الناس للتعاون مع الإدارة الانجليزية . وكان من تعاليمه قوله :

« أحرار الفكر أو المحررين هم الذين لا يتقيد أصحابها بالعقائد والآراء السائدة دينية كانت أو غير دينية ، وقوله : لقد استطاع هؤلاء الدعاة أن يكسبوا على مر الايام أيضاً من الشباب والمفكرين الذين كانوا يطمحون إلى القوة أو امتلاك المنصب .

وقد عمد كرومر في نظام التوظف الذي وضعه إلى إجلاء أصحاب الثقافة الإسلامية من ميادين الاصلاح وأصبحت الوظائف الرئيسية في أيدي أصحاب الثقافة الأوربية (تقرير كرومر ١٩٠٦ مدة ٣ ص ٨) فكان من جملة ما قالوه انقلا أعمى : السخرية برجال الدين والاستخفاف بأمر الدين نفسه ، ويرى الدكتور محمد محمد حسين الذي نقلنا منه بعض هذه النصوص أنه : كانت هناك قوى خفية غير ظاهرة تريد هذا الاتجاه ، وربما كانت اليهودية العالمية الطامعة في تقويض نظام أخلاقه تمهيداً لإحتيال فلسطين واتخاذها وطناً قومياً لليهود في مقدمة هذه القوى » .

إذن فقد ركز كرومر منهجه ، واستطاع أن يعد العقل المصري الفيلسوف الذي حول هذه المفاهيم إلى عقلانية قائمة خدعت المصريين أكثر من خمسين عاما وما تزال تخدع المثقفين .

ويمكن القول مكرراً أن مهاجمة كرومر للفكرة الإسلامية وتصويره ديناً جامداً لا يصلح ليقوم على أساسه نظام اجتماعي راق ، قد واجه كثيراً من النقد والمعارضة ، وقد ربط الناس بينه وبين دعوة لطفي السيد وسعد زغلول وكان رد الفعل لهذا كله أن ازدادت حركة يقظة الفكر العربي الإسلامي قوة . وإن تحاها الاستعمار من طريق القيادة السياسية فقد بقيت تمثل القوة الشعبية وقوة الرأي العام والقوة المعارضة في البرلمان والصحف والجماعات والهيئات طوال فترة ما بين الحربين واستطاعت أن توقف هذا التيار وتحوله .

وقد عارض آراء كرومر أكثر الباحثين ومن أظهرهم فريد وجدي ، وعلي يوسف ، ومصطفى الغلاييني وفي جملة القول تتمثل الحقائق الآتية :

(أولا) حزب الأمة والجريدة بنص عبارة كرومر . جماعة من المفكرين البعيدي النظر والذين كان اهتمامهم إلى كسب التقدم الدستوري بطرق معتدلة وهي تدعو إلى تحقيق الأماني الوطنية باتفاق يحدث بين الاحتلال وبين أعيان المصريين وحدهم لأنهم أصحاب المصالح الحقيقة وتدعو إلى الرضا بكل ما كسبه الوطنيون من هذا الاحتلال .

(ثانياً) إن الجريدة كانت تصور الاحتلال على أنه حقيقة واقعة وترى أن عدم الاعتراف بشرعيته لا يمنع وجوده ولا يقلل من سلطته ونفوذه وترى أن هؤلاء المحتلين ماضون في طريقهم مستقلون بتصريف الأمور سواء رضي المصريون بذلك أم كرهوه .

(ثالثاً) تأييد الجريدة الإتجاه الذي اتخذه سعد زغلول وزير المعارف وهو قصر التعليم على أبناء الأعيان وقصر تعليم العلوم باللغات الأجنبية بحجة اشتباك مصالح الأمة ومعاملاتها مع الأجانب وضعف التلاميذ في اللغة الانجليزية .

(رابعاً) معارضة اتجاه الوطنيين في الحث على كراهية الاستعمار الذي أطلقت عليه الجريدة (السلطة الفعلية) .

(خامساً) بعد أن دعى وليم ولكوكس دعوته إلى العامية كتب لطفي السيد مقالاته المشهورة في (تمصير اللغة) وقد لقيت دعوته وكل آرائه معارضة شديدة .

الفصل الرابع عشر

تطور حركة اليقظة

فى المرحلة ما بين عام ١٩٠٥ والحرب العالمية الأولى

إنصلت حركة اليقظة فى فترة وسطى يمكن أن يطلق عليها مرحلة الجامعة الإسلامية أم خلالها جمال الدين ومحمد عبده والسلطان عبد الحميد وخير الدين التونسى ، وقد إمتدت هذه المرحلة تاريخيا منذ قدوم جمال الدين إلى مصر عام ١٨٧١ وانتهت بوفاة محمد عبده ١٩٠٥ وسقوط عبدالحميد ١٩٠٨ ووفاة مصطفى كامل ١٩٠٧ وبذلك إنطوت هذه الصفحة التى حفلت بإضافات جديدة خصبة وإيجابية لحركة اليقظة : قوامها إحياء النظرة الاسلامية والدعوة العقلية الفلسفية ، حتى أطلق على أصحابها اسم « المعتزلة الجدد » ، وقد تمثل فى هذه المرحلة التطلع إلى الفكر الغربى والاقتباس منه ، كما تحدد طابع الفكرى الاسلامى الذى لم يحد عنه مفكر من بعد وتأكد ثبات الأساس الفكرى الاسلامى وقوامه الأخذ والانتفاع والنقل من الغرب فى مجال العلوم والمعارف مع الاحتفاظ بالقيم الاسلامية العربية فى مجال الأخلاق والاجتماع والتربية بحسبان أن كل أمة لها طابعها وذوقها ومزاجها الخاص ، وإقراراً بأن المزاج العربى الاسلامى قد كونه القرآن منذ نيف وأربعة عشر قرنا .

فى هذه المرحلة كشف الدعاة عن ضرورة الأخذ بالمدنية والحضارة فى جوانبها الايجابية وفى مقدمتها الأخذ بالقوة والصناعة وأساليب الجيوش ، والأخذ بأنظمة الشورى والعدل الاجتماعى وهى نظم لها جذور فى الفكر الاسلامى أساساً على النحو الذى حاوله رفاعة الطهطاوى وسار فى استكماله : على مبارك ومحمد عبده .

كما بدأ فى هذه المرحلة ضرورة المواجهة والدفاع عن القيم العربية الاسلامية فى مواجهة حملات التشكيك والغزو والشبهات التى أثارها كثير من السياسيين الأوربيين أصلا ، وقد انتهز محمد عبده فرصة الحملة التى شنها (هانوتو) الوزير الفرنسى والكاتب اللبنانى فرح أنطون وكشف عن كثير من الأخطاء التى ألصقت بالاسلام ، كما كانت دروسه عن تفسير القرآن فى الرواق العباسى وسيلة هامة الرد على كرومر ودحض إتهاماته التى كان يوردها تقاريره السنوية ويرسم بها القادة الجدد الموالين الطريق الذى ترضاه بريطانيا لهم ليحملوا لواء السلطة والحكم فى البلاد بعد الاستقلال .

وانتهى بوفاة جمال الدين عام ١٨٩٧ و محمد عبده عام ١٩٠٥ تقريبا « عصر » بدأ من خلال دعوة (سياسية حادة) حملها جمال الدين . توقفت عند الاحتلال ١٨٨٢ ثم إستأنفها محمد عبده :

دعوة (إجتماعية تربوية) منذ عام ١٨٨٦ حتى توفى .

هنالك كان لابد للنفوذ الاستعمارى أن يضغط على حركة اليقظة العربية الاسلامية لوزقها إلى جبهتين يتزعم رجاله جبهة منها ويدع الجبهة الأخرى معوزة له حتى تتجمد .

ومن هنا فقد كانت حركة الأحزاب السياسية ١٩٠٧ التى بدأها إنشاء حزب الأمة وإصدار الجريدة بزعامة لطفى السيد هو التمهيد الحقيقى للدور الجديد الذى سبق الحرب العالمية وأعد للخاثر الحقيقة التى اتخذتها الطبقة الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى .

والحق أن الطبقة الجديدة التى تولت مقاليد السياسية بعد الحرب لم تكن جديدة ولكنها كانت تعيش هذه المرحلة منذ الاحتلال وقد مارست مناهجه وأساليبه وأبرز هؤلاء : لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى ، كان هؤلاء يمثلون معسكراً منفصلا عن حركة اليقظة متصلا بالنفوذ الجديد الذى أنشأه الاستعمار على رأس (الطبقة الجديدة) التى كونها النفوذ الاستعمارى لتحمل لواء الحكم فى مصر ، فهم أبناء وأخوة أصحاب الجلاليب الزرقاء الذين سهل لهم الانجليز شراء أراضى الدائرة السنية ليشكلوا طبقة لها ولاء مع الانجليز معاد لنفوذ القصر ، وقد إرتبطوا فى ثقافتهم وأفكارهم بالورد كرومر وآمنوا إيماناً كاملا بأنه لا سبيل لخروج الانجليز من مصر ، ولذلك فمن المصلحة التفاهم معهم والالتقاء بهم ، وقد رسم كرومر مخططاً كاملا لاعداد هؤلاء القادة .

وكان هؤلاء قد إتصلوا فى أول الأمر بالخديو الشاب الذى كان يقاوم الاستعمار الانجليزى ثم إنصرفوا عنه وتحولوا إلى مدرسة تقف موقفاً وسطاً بين نفوذ الخديو وبين الحركة الوطنية وترى أن الخديو هو صاحب السلطة الشرعية فقط وترى الحركة الوطنية مسرفة فى الحماسة والعاطفة وترى صاحب السلطة الفعلية هو اللورد كرومر ومن المصلحة الالتقاء به فى منتصف الطريق والتفاهم معه .

ولقد واجه فريد وجدى ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وعلى يوسف دعاوى هذه المدرسة ردحضوها . غير أن المعركة إنتهت فى آخر الأمر بالتصادم وحجب هذه الوجوه الوطنية عن مجال النفوذ السياسى فقد أرسل رجال الحركة الوطنية إلى المنفى ، وبقى لطفى السيد وسعد زغلول حتى إنتهت الحرب فكانا هم الطليعة التى تولت السلطات فلما إنقسمت الحركة الوطنية وقف سعد زغلول على رأس معسكر ورأس لطفى السيد المعسكر الآخر .

وكانت فلسفة الحركة الوطنية بعد ثورة ١٩١٩ تعيش فى مناخ حزب الأمة ومفاهيمه ، وكان الوفد وحزب الأحرار وما تولد منهما إمتداداً لهذه المفاهيم الفكرية وقد كان الوفد هو الزعامة الشعبية الكبرى التى عاشت مصر بإسمها بعد الحرب أكثر من ثلاثين عاماً عـ لى هذا الولاء للمدرسة الغربية .

وإذا كان النفوذ الأجنبي قد عمد إلى أن يحطم وحدة حركة اليقظة بعد وفاة محمد عبده ، وذلك بخلق جناح له دعوى واستطالة بأنه من تلاميذ محمد عبده قوامه سعد زغلول ولطفي السيد فإن حركة اليقظة قد سارت وأعمقت ووسعت آفاقها ولم تترك لمدرسة الجريدة وحزب الأمة قيادة الحركة .

ولا شك أن ادعاء لطفي السيد وسعد زغلول بأنهما في خطهما الفكري على منهج محمد عبده هو موقف يحتاج إلى تصفية وتوضيح :

فالواقع أن الشيخ محمد عبده لم يكن يقبل كل خطوات النفوذ الأجنبي في مصر ولكنه كان يرى التوسل إلى تسوية طويلة المدى تبدأ باشتراك المصريين في حكم البلاد ، ويرى أن هذا هو الطريق العملي الذي لا سبيل غيره ، وعنده أن تغذية حركة اليقظة ودفعها إلى الأمام سيحقق على المدى الطويل بروز الفكر العربي الإسلامي كقوة حية فعالة . غير أن الشيخ محمد عبده كان يرفض مفهوم الفكر الغربي الذي حاول كرومر فرضه على مصر والذي انبثق منه مفهوم « المصرية المنعزلة تماماً عن العرب والمسلمين وعن القيم الأساسية للفكر العربي الإسلامي » على النحو الذي نادى به لطفي السيد .

هذا مع العلم بأن هذه الحركة لم يتسع نطاقها وتتبلور فلسفتها هذه إلا بعد وفاة الشيخ محمد عبده وإذا كان لطفي السيد وسعد زغلول وزعماء حزب الأمة فقد حاولوا التماس أصل لخططهم في دعوة الشيخ محمد عبده فإنهم يعجزون عن أن يجدوا عنده قبولا لفكرة فصل الدين عن الدولة ، أو الإقليمية الضيقة بعيداً عن العروبة والإســـلام جميعاً أو شجباً لمفهوم الفكر الإسلامي كله في قضايا المجتمع والسياسة والتربية والثقافة وغيرها .

وإذا كان الشيخ عبده لم يعرض رأيه صراحة في هذه القضية ، فالمعروف أن التماسه تفسير القرآن في الرواق العباسي إنما كانت تستهدف في الحق إعلان رأيه في كل هذه القضايا من خلال دراسة دينية خالصة لا تتعرض لمعارضة السلطات البريطانية الحاكمة في ذلك الوقت .

والمراجع المدقق لتفسير الشيخ عبده للقرآن يجد تأكيداً صحيحاً لكل القيم الإسلامية الأساسية ويجد المعارضة الواضحة والردع الكامل ومواجهة الشبهات والنظريات التي كانت تثار إذ ذاك والتي لم يكن هو ليستطيع أن يواجهها صراحة ، فهو وإن لم يستطع الرد على كرومر وما حوته تقاريره وأحاديثه فإنه قد انتهز فرصة حديث السياسي الفرنسي هانوتو ليقول كل ما يستطيع في هذا الشأن بلباقة ، موجهاً إياه إلى سياسي فرنسي وهو في الحق موجه إلى الاستعمار والنفوذ الأجنبي كله .

ولذلك فإن محاولة لطفي السيد - ومن بعده سعد زغلول - التماس صلتهما بجمال الدين ومحمد عبده وسيلة إلى الادعاء بأنهما يسيران في طريقهما - هو ادعاء باطل وهو بالنسبة لمحمد عبده باطل تماماً إلا من ناحية واحدة هي قبول الاستقلال على مراحل ومشاركة المصريين في حكم أنفسهم ، أما من

الناحية الفكرية الصرفة فليس هناك دليل يؤكد أن محمد عبده يتقبل رأى لطفى السيد وعلى سعد زغلول فى فصل الإسلام عن المجتمع أو الدين عن الوطنية على النحو الذى عرف فى محيط السياسة المصرية خلال فترة ما بين الحربين أو عزل الفكر الإسلامى عن مجال التربية أو الاجتماع أو القانون أو السياسة كما أحدث الرجلان فى هذه الفترة، بل إن كل النصوص المخطوطة للشيخ محمد عبده تشير إلى إعادة الأكيد بالإسلام ديناً ومجتمعاً وحضارة وثقافة .

وقد سارت اليقظة العربية الإسلامية فى طريقها منفصلة عن هذا التيار الجديد ذى النفوذ السياسى ولكنها ظلت مؤثرة فيه ورقيبة عليه، لم تتوقف ولم تجمد، فقد ظلت تقاوم الشبهات والدعوات المختلفة التى أثارها المتطرفون من المجددين وتكشف عن أخطائهم وتردهم إلى مفهوم الإسلام الصحيح .

• • •

ومن الحق أن يقال إن لطفى السيد هو أول من مزق وحدة الفكر العربى الإسلامى وأحدث ثغرة واتساعاً حين دعا دعوته فانقسم هذا الفكر إلى تيارين (قومى ودينى) بينما هما شقين لا ينفصلان فقد عرف الفكر العربى دائماً كيف يدمج بين الاتجاهين على مستوى الأرض وعلى مستوى الفكر وقد كان التركيز على هذا الاتجاه منذ عام ١٩٠٧ بصدور الجريدة مقدمة الحركة الواسعة التى جرت بعد الحرب العالمية الأولى بتغليب تيار سياسى منفصل عن المفهوم الفكرى الكامل مع تغليب نزعة التمصير سياسياً واجتماعياً وثقافياً .

والواقع أن التيار الوطنى الذى حمل لواءه عمر مكرم واصله رفاعة الطهطاوى وامتد إلى أحمد عرابى ومصطفى كامل، كان مستمداً من التيار الاسلامى لم ينفصل عنه إلا حين دعا لطفى السيد إلى فصل المصرية عن العروبة والجامعة الإسلامية من ناحية وعن قاعدة الفكر الإسلامى الأصيلة نفسها وكان ذلك ارتباطاً بالدعوة التى حمل لواءها اللبنانيون المتأمركون : دكتور شبلى شميل وفرح أنطون ويعقوب صروف وجرجى زيدان وسليم سركيس مرتبطين بالحركة الطورانية ودعوة الاتحاديين الأتراك ومناهجهم لتمزيق وحدة العرب والترك من ناحية ونزع الفكر العربى عن قاعدته العربية الإسلامية وتحويله إلى فكر قومى له طابعه الوطنى الذى يستمد جذوره من الحضارات القديمة كالفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان والأشورية فى العراق والبربرية فى المغرب، وقد حمل هذا الانقسام فى ثناياه كراهية الإسلام والعرب بمعنى أن الإسلام والعرب كانا نوعاً من الاحتلال والغزو الشبيه بغزو الفرس والرومان .

وقد التقى تيار لطفى السيد بتيار اللبنانيين المتأمركين فى خط واحد هو تمزيق الجبهة العربية الإسلامية لحركة اليقظة وتذويبها فى تيارات الأممية المادية واللادينية الضيقة ولذلك فقد حملت هذه

المدارس جميعها على اللغة العربية الفصحى ، وعلى التاريخ الإسلامي والتراث وكان ذلك في مجموعه تحقيقاً لهدف النفوذ الأجنبي الأساسي ، وهو فصل الفكر الإسلامي عن السياسة وعن المجتمع والشريعة والتربية .

* * *

ماذا كان من أمر حركة اليقظة في هذه الفترة في مصر ؟

هناك محاولة من بعض الباحثين للقول بأن حركة اليقظة ماتت بعد وفاة الشيخ محمد عبده وحلت محلها حركة لطفي السيد التي تابعت خطواتها إلى ما بعد الحرب ولدينا ما يشهد عكس ذلك .

(أولا) في هذه المرحلة ظهر عدد من الدعاة والعلماء والباحثين الذين استوعبوا تطور اليقظة وقاموا بدور واضح في مرحلتها هذه ومن هؤلاء :

عبد الرحمن البرقوقي : صاحب مجلة البيان التي أصدرها عام ١٩١١ وحمل فيها لواء الدفاع عن الإسلام واللغة العربية .

أحمد شفيق : دافع عن مفهوم الإسلام للرق ورد على القس لافيجرى بكتاب كامل .

توفيق البكرى : دعا إلى إصلاح الصوفية وتجديدها وكتب كتابه (المستقبل للإسلام) رداً على شبهات مرجليوث .

رفيق العظم : جدد شباب تراجم التاريخ لقادة الاسلام وله دراسات عن الجامعة الإسلامية وأوربا .

أحمد كمال باشا : أثبت أن اللغة العربية واللغة الهيلوغريفية من أصل واحد وفتح الطريق أمام القول بأن الفراعنة عرب .

عبد العزيز جاويش : هاجم المستشرقين ودعوتهم في مؤتمرهم عام ١٩٠٥ وأنشأ مجلة الهداية عام ١٩١١ .

حسين الجسر (سوريا) : حمل لواء الإصلاح الاسلامي والتمس منابع الاسلام وهاجم البدعة .

طلعت حرب : دافع عن المرأة المسلمة .

أحمد شوقي : أشاد بالاسلام في قصائده ، وأنشأ قصيدة (نهج البردة) عام ١٨٨١ .

مصطفى لطفي المنفلوطي : جدد أسلوب اللغة العربية في مواجهة الغزو والمهجرية .

علي يوسف : كانت جريدته المؤيد أول صحيفة إسلامية عربية .

أحمد تيمور : الرجل الذي جدد الفكر الاسلامي ببعث تراثه ، وإعادة جمعه وتأليفه .

مصطفى كامل : صاحب اللواء ، وله كتاب المسألة الشرقية ، ربط بين الوطنية والاسلام .

طاهر الجزائري (سوريا) : عمدة الجيل وداعية الاصلاح الاسلامي وجامع المكتبات العامة ومصلح المناهج التربوية .

الطاهر بن عاشور (تونس) : حامل لواء الاصلاح الاسلامي في تونس ومتابع مدرسة المنار .

محمود شكري الألوسي (العراق) : من دعاة الاصلاح الاسلامي ، وله رسائل هامة في تجديد الأدب والتاريخ الاسلامي .

جمال الدين القاسمي (سوريا) : من دعاة الاصلاح الاسلامي ، وله أعماله في التوحيد وقواعد مصطلح الحديث .

عبد الرزاق البيطار (سوريا) : من أبرز مجددي الاسلام .

حمزة فتح الله : أول من تحدث في مؤتمر عالمي عن « حقوق النساء في الاسلام » .

أحمد الشريف السنوسي (ليبيا) : علامة السنوسية قاد كفاحها في معارك مقاومة الاستعمار الإيطالي .

مصطفى الغلاييني (لبنان) : صاحب كتاب الاسلام روح المدنية في الرد على كرومر .

أحمد زكي باشا : جدد المخطوطات العربية الاسلامية وحمل لواء بعث التراث الاسلامي ، وصاحب دراسات الأندلس وله مقالات متعددة عن فضل الاسلام على الحضارة .

محمد بن العربي العلوي (فاس) : صاحب الدعوة السلفية في المغرب الأقصى ومجدد الاسلام .

عبد الحميد الزهراوي (سوريا) : صاحب رسالة الفقه والتصوف . الرجل الذي كشف عن مفهوم الاسلام الأصيل .

رشيد رضا : تلميذ محمد عبده وصاحب مجلة المنار التي أنشأها عام ١٨٩٩ فكانت مدرسة الفكر الاسلامي .

فريد وجدى صاحب دائرة المعارف ومجلة الحياة ، وأول من كتب عن تطبيق الديانة الاسلامية على نواميس المدنية » .

عمر لطفى : دافع عن الشريعة الاسلامية فى مؤتمر المستشرقين بجنيف ١٨٩٤ وصاحب الدراسات القانونية الاسلامية .

حفنى ناصف : له دراسات فى اللغة العربية ، كان من أقطاب مؤتمر دار العلوم لحماية اللغة العربية والدفاع عنها ١٩٠٧ .

(ثانياً) اتسعت حركة اليقظة فى هذه الفترة إلى المغرب كله : تونس والجزائر والمغرب الأقصى (محمد بن العربى العلوى والشعيب الدكالى والطاهر بن عاشور)

(ثالثاً) إستمرار الحركة السنوسية فى ليبيا ودخولها فى معركة ضخمة مع الاستعمار عام ١٩١١ بقيادة رائدها : أحمد الشريف السنوسى .

(رابعاً) اتساع حركة اليقظة فى الأزهر الشريف بقيادة عدد من تلاميذ الشيخ محمد عبده : من أبرزهم فى هذه الفترة : الأحمدى الظواهرى ومصطفى عبد الرازق ومحمد مصطفى المراغى وأحمد شاكر وعبد الوهاب النجار وفريد وجدى ، وعبد العزيز جاويش وعبد الرحمن البرقوقى ، ومصطفى صادق الرافعى .

(خامساً) ظهور أول دائرة معارف عربية إسلامية كتبها محمد فريد وجدى .

(سادساً) بروز أعلام من الكتاب المصريين المسلمين فى مجال التقنين الإسلامى فى مقدمتهم : عمر لطفى ، قدرى باشا .

(سابعاً) بروز حركة إسلامية عميقة تستوحى التراث الإسلامى :

البارودى : نهج البردة (١٨٩٥) شوقى : (نهج البردة) سنة ١٩١٨ .

حافظ إبراهيم : العمرية ١٩١٨ ، محمد عبد المطلب (البكرية) .

عبد المطلب : (العلوية) ١٩١٩ .

(ثامناً) تأسست شركة طبع الكتب العربية (على يوسف وعلى بهجت ١٩٠٧ وقد وفقت إلى نشر عدد من الكتب والمخطوطات .

(تاسعاً) ظهور حركة بعث التراث العربى التى قادها أحمد زكى وأحمد حشمت .

(عاشراً) إتمام مشروع الجامعة المصرية بقيادة عدد من أعلام الفكر العربي الإسلامي : عمر لطفي ومصطفى كامل وأحمد زكي باشا وكان من أساتذتها الأول .

(حادي عشر) ظهور عدد ضخم من المؤلفات التي تكشف عن إهتمام الباحثين بأمر الحضارة العربية وحماية القيم الأساسية للفكر العربي أهمها :

× تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس الحديثة (فريد وجدي) ١٨٩٨ وأعيد طبعه ١٩٠٤ .

× نحن والرقي : (صالح حماد) ١٩٠٦ .

× جناية أوربا على نفسها والعالم (أحمد فهمي) ١٩٠٦ .

× أشهر مشاهير الاسلام (رفيق العظم) ١٩٠٥ .

المدنية والاسلام (فريد وجدي) ١٩١٢ ، طبائع الاستبداد (الكواكبي) ١٩٠١ ، الاسلام روح المدنية (مصطفى الغلاييني) ١٩٠٦ حاضر المصريين أو سر تأخرهم ١٩٠١ تاريخ دول العرب والاسلام (طلعت حرب) ١٩٠٥ الفقه والتصوف (الوهراني) ١٩٠١ المستقبل الإسلام (توفيق البكري) ١٩٠٦ أم القرى (الكواكبي) ١٩٠٢ .

(ثاني عشر) بروز ذاتية دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ومدرسة المعلمين ، إذ كان لدار العلوم سنة ١٩٠٧ دورها الضخم في الدفاع عن اللغة العربية في مواجهة الحملة التغريبية الاستعمارية عليها وأبرز رجالها عبد العزيز جاويش وحفني ناصف ومحمد المهدي ، ومحمد الخضري وعبد المطلب وعبد الوهاب النجار وأحمد الاسكندري ومن أعمال مدرسة المعلمين : محاضرة أحمد كمال (باشا فيما بعد) والأثري الكبير عن اللغة العربية وارتباطها باللغة الهيروغليفية بما يؤكد أنها من مصدر واحد ، وكانت محاضرته ١٩١٤ تؤكد عروبة مصر في إطار التاريخ الاسلامي .

(ثالث عشر) من أبرز الصحف والمجلات التي قامت بحماية حركة يقظة الفكر العربي في هذه المرحلة :

المنار : رشيد رضا	الحياة : محمد فريد وجدي
المقتبس : محمد كرد علي	البيان : عبد الرحمن البرقوقي
الموسوعات : محمد فريد وحافظ عوض	الهداية : عبد العزيز جاويش
العالم الاسلامي : مصطفى كامل .	

(رابع عشر) عقدت عدة مجامع للنظر في تطوير اللغة العربية والدفاع عنها ويراجع كتابنا (اللغة العربية بين حماتها وخصومها) .

(خامس عشر) دارت مناقشات طويلة حول السفور والحجاب : اشترك فيها طلعت حرب وفريد وجدى وفتحى زغلول ومحمد عمر .

(٣)

هذا النتاج كله يدحض القول بأن هذه الفترة كانت مرحلة توقف وجمود لحركة يقظة الفكر العربى بعد وفاة محمد عبده ١٩٠٥ ومصطفى كامل ١٩٠٨ ، حيث يقال باطلا إن تيار لطفى السيد قد سيطر فيها واستمل على كل التيارات والحقيقة تثبت غير ذلك ، فهى تثبت أن هذه الفترة من ١٩٠٥ إلى ١٩٢٠ كانت من أخصب فترات حركة اليقظة بالرغم من وقوع الحرب العالمية فيها وانطواء صفحة كثير من العاملين فيها وفى مقدمتهم لطفى السيد نفسه الذى ما كادت تعلن الحرب ١٩١٤ حتى ترك القاهرة وأقفل الجريدة ولجأ إلى ضيعته. هذه الفترة تتمثل بأقوى صورة فى نهضة الكتابة والتأليف والترجمة والإحياء على نحو يؤكد حركة اليقظة ويدعم مختلف منطوقها واتجاهاتها ، ويرسم صورة الإسلام كعامل أساسى واضح وقائم مشترك على كل دراسات الأدب والاجتماع والسياسة لا خلاف عليه .

ففى مجال الكتابة نرى دراسات هامة فى الموضوعات الآتية :

١ — حضارة الإسلام (الهلال سنة ١٩٠٥و١٩٠٦) والتمدن الإسلامى (سنة ١٩٠٥ الهلال) و (المقتطف سنة ١٩٠٦) .

الإسلام روح المدنية (١٩٠٨ المقتطف) لمستقبل الإسلام (سنة ١٩٠٦ الهلال) علم الجراحة عن العرب ١٩٠٠ (للمقتطف) :

الحرب فى الاسلام (١٩٠٨ الهلال) حريق مكتبة الاسكندرية (الهلال ١٩٠٣) حقوق المرأة فى الاسلام (الهلال سنة ١٩٠٤) النسائيات (١٩١٠ المقتطف) المرأة فى الاسلام (١٩٠٠ الهلال) فصل الخطاب فى المرأة والحجاب ١٩٠١ (المقتطف) المرأة المسلمة (١٩٦٣ المقتطف) .

٢ — اللغة العربية والتعليم باللغة العربية (١٩٠٧ المقتطف حياة اللغة العربية ١٩١٠ المقتطف ، اللغة : أحمد فتحى زغلول (١٩٠٨ المقتطف) اللغة العربية (الهلال ١٩٠١) التعريب حفنى ناصف (١٩٠٨ المقتطف) الاشتقاق والتعريب (عبد الهادى العربى) ١٩١٠ المقتطف ـ اللغة العربية والطب (١٩١٠ المقتطف) .

٣ — أعلام الاسلام ، الغزالى (سنة ١٩٠٩ الهلال) الغزالى (١٩٠٩ المقتطف) أشهر مشاهير الاسلام (١٩٠٥ الهلال) .

٤ - الترجمة ، الأبطال ترجمة محمد السباعى (١٩١٢ المقتطف) .

٥ - الأدب العربى ، رسائل البلغاء ، كرد على ١٩١٣ وصواريخ الزواز ١٩٠٦ (البكرى) .

٦ - الحرية فى الإسلام ، طبائع الاستبداد (١٩٠١ المقتطف) والتمدن الاسلامى ١٩٠٥ المقتطف ، وأشهر مشاهير الاسلام ١٩٠٢ المقتطف ، والاسلام فى عصر العلم ١٩٠٢ المقتطف .

٧ - الفكر الاسلامى ، السياسة الشرعية المقتطف ١٩٠١ والفقه والتصوف الزهراوى ١٩٠١ المقتطف - والوهابية ١٩٠٠ المقتطف - ١٩٠٢ المقتطف - الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ١٩٠٣ المقتطف ، وفتوح البلدان البلاذرى ١٩١٦ مختار العقد الفريد ١٩٤٧ .

٨ - التراث : مقدمة ابن خلدون ١٩٠١ البيان والتبيين الجاحظ ١٩٤٥ فيصل التفرقة فى الإسلام والزندقة - الغزالى ١٩٠٢ نهج البلاغة ١٩٠٣ الأخلاق والسير لابن حزم (١٩٠٧) دلائل الإعجاز الجرجانى ١٩٠٤ شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (١٩١٠)

٩ المجتمع الاسلامى ، حاضر المصريين أو سر تأخرهم ١٩٠٢ .

كما واجه الفكر العربى عشرات من القضايا فى هذه الفترة فى مقدمتها .

(١) اللغة : اللغة العربية والعامية - بدأت منذ ١٨٩٨ بطلب ويلكوكس ولم تتوقف الاسلام والاصلاح ١٩١٢ - آثار العرب الخالدة فى أوربا ، أحمد زكى باشا ١٩١٣ - المدنية والاسلام فريد وجدى ١٩١٣ - المرأة المسلمة بدأت قضيتها - (منذ ١٨٩٩ واستمرت ولم تتوقف) .

العربية والمصرية القديمة - أحمد كمال باشا ١٩١٤ - الانسكلوبيديا العربية ١١١٤ - تراجم القرآن ١٩١٥ .

(٢) الخط العربى ١٩١٥ .

(٣) العرب ، فضل العرب على الجراحة (حسين الهراوى) ١٩١٧ - جمعية آداب اللغة العربية ١٩١٦ .

(٤) تأثير اللغة العربية فى لغات الشرق ١٩١٤ .

(٥) التعليم فى مصر (أمين سامى) ١٩١٧ - التعليم باللغة العربية ١٩١٦ - التعريب ١٩٠٧ .

(٦) الفكر الاسلامى ما قال داروين هو ما قاله العرب ١٩١٠ .

اللغة العربية والطب ١٩١٠ .

(٧) الجامعة الإسلامية وأوربا ١٩٠٢ (رفيق العظم)

(٨) علم الجراحة عند العرب ١٩٠٠ .

(٩) العربية الحكية فى مصر ١٩٠٢ ، ١٩٠٥ - حريق مكتبة الاسكندرية ١٩٠٢ .

(٥)

وقد اصبحت أغلب كتابات هذه الفترة على نقد الحياة الاجتماعية والكشف عن نتائج الحضارة والاستعمار والكشف عن الانحراف الذى أصاب الفكر العربى نتيجة الشبهات التغريب الوافد والحضارة الغربية . وقد اصبحت أغلب كتابات هذه الفترة فى الإجابة عن سؤالين هامين :

(١) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟

(٢) هل كان الاسلام مصدر تأخر للمسلمين ؟

وقد كانت كتابات العروة الوثقى المبكرة ١٨٨٤ تدور فى هذا المحيط ثم توالت كتابات الكتاب فى هذا الصدد حتى أوائل الحرب العالمية الأولى ، فكتاب دوق داركور (مصر والمصريين) الصادر ١٩٨٣ والذى حمل على المصريين رد عليه قاسم أمين بكتابه المصريون ١٨٩٤ بالفرنسية فى ٣٩٩ صفحة وفيه تأكيد بأن الإســـلام لم يكن مصدر تأخر المسلمين ، وفى كتابات محمد عبده الرد على هانوتو (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) إجابة واضحة عن أن تخلف المسلمين كان مصدره تخليهم عن مفهوم الإسلام : القوة والوحدة والإيمان .

وفى عام ١٨٩٨ فضح فريد وجدى فى كتابه (تطبيق الديانة الإسلامية على النواميس المدنية) البدع الذى أعطت الأوربيين فكرة خاطئة عن الاسلام (أعيد طبعه بعنوان المدنية الاســـلامية أعوام ١٩٠٤ و ١٩١٣ و ١٩٢٧ و ١٩٣١) وحول السفور والحجاب دارت مناقشات اشترك فيها طلعت حرب وفريد وجدى ، كما جرت محاولات لتقديم صور التقدم الذى أحرزته الأمم فترجم فتحى زغلول « سر تقدم الانجليز ١٨٩٩ » وتحدث فيه عن عوامل الضعف والتخلف وقال (دواؤنا فى التربية وسلامتنا فى نشر العلوم والمعرفة) كما حاول محمد عمر دراسة أسباب تأخر المصريين فى كتابه (حاضر المصريين وسر تأخرهم) عام ١٩٠٢ إذ انتقد تصرفات الأثرياء وندد بأضرار المسكرات ، فذكر أن عدد القهاوى ومحال بيع المسكرات وقاعات اللعب فى القاهرة وحدها ارتفعت فى ثمانى سنوات (١٨٩١ — ١٨٩٩) من ٢٣١٦ الى ٧٤٧٥ .

ونشر محمد حلمى زين الدين عام ١٩٠٣ كتابه (مضار الزار) وقدم أحمد فهمى رواية جناية أوربا على نفسها وعلى العالم سنة ١٩٠٦ حيث دعا الى مقاومة التزعات والاقتباسات المأخوذة عن

الروايات الغربية المفسدة الأخلاق . ونشر صالح حمدى حماد عام ١٩٠٦ كتابه (نحن والرق) حاول أن يحدد العوامل النفسية التى أدت إلى التوقر للمصريين وأن يظهر بعد فريد وجدى أن الإسلام غير مسئول عن خمول الشرق لا ولا المناخ والبيئة والعصر ، وأن الحضارة الحديثة كما تبدو فى الغرب هى مقيدة من حيث مبدأها الذى يفصل الروحى عن الدينى ، والإلهى عن الإنسانى ، والدين عن العلم ، ولكن لا بد لقبولها من تعديلات وتبديلات ، وفى هذا المجال ألف محمد المويلحى حديث عيسى ابن هشام ١٩٠٧ حيث ناقش أدواء المجتمع .

كانت مختلف وجهات النظر تلتقى حول أرضية الفكر العربى الإسلامى لا تنفصل عنه ومنه تستمد نظرة الإصلاح والتجديد كانت كبرى القضايا ، ما هو موقفنا من الحضارة ، هل نقتسمها (أى أنأخذ) وهل نتركها تفرض علينا قيمها (لا) ومنذ ذلك : العلم والعمل ، ونبقى على قيمنا الأخلاقية ما عند الأوربيين من وسائل العلم والعمل ، ونبقى على قيمنا الأخلاقية والاجتماعية والروحية المستمدة من الإسلام ، الإصلاح الإسلامى يتوقف قبل كل شىء على إقناع العلماء ورجال الدين بأن العلوم الرياضية والطبيعية التى هى محور الثروة والقوة والعزة ضرورية لا مندوحة عنها ، ويجب أن تعلم مع الدين وأن يقوم بتعليمها رجال الدين لأن تركها للمدارس الأميرية والأجنبية يجعلها خاصة وأن لا دين لهم ، وتركها بالكلية مذهب للدنيا والدين ، إذ الدنيا لا يمكن حفظها إلا بالدين ، فيتعين أن يجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا (الرياضيات والطبيعيات) وأن الشريعة الإسلامية تصرح بأن تعلم الصناعات التى يحتاج إليها البشر فى معاشهم واجبة على مجموع الأمة .

ويمكن القول أن هذه الموجة من المفكرين كانت تتفق نفس الخط الأصيل الذى عرفه المفكرون المسلمون منذ فجر اليقظة والذى أصله رفاعة الطهطاوى حين دعا إلى الاستفادة من علوم الغرب بحسبانها علوم المسلمين أصلا ، وحين طالب بمخالطة الأجانب والتفاهم معهم والاقتباس منهم ، وله فى ذلك تحفظ واضح فى قوله ، فهو أن الخطر الذى يجب أن يحتاط له هو الخطر الأخلاق (لأن أوربا تخلت عن مسيحيتها وآمنت بالعقل وحده) وقاعدته هى : أن قوة أوربا ترجع إلى تحصيلها العلوم العقلية وأن المسلمين كانوا أقوياء حينما اعتنوا بهذه العلوم ثم ضعفوا عندما انصرفوا عنها .

ومضى المفكرون المسلمون موجة بعد موجة على إيمانهم بأن الإقبال على الحضارة إنما هو رغبة فى التطعيم بها إيماناً بدور المسلمين والعرب فى هذه الحضارة . أما القول بأخذ الحضارة كاملة فلم يكن من دعوة المفكرين الأصلاء ولا من إيمانهم ، وإنما كان دعوة النفوذ الاستعمارى ، ولذلك فقد كانت معارضتهم تقوم على إنكار هدف الغرب فى فرض حضارة موحدة وفكر موحد وفق خطته التى تهدف إلى :

(وحدة الفكر البشرى تحت نفوذ الغرب وداخل حضارته) .

ويمكن القول بأن التحدى الذى واجه محمد عبده ، والمدرسة التى جاءت بعده كان منصباً على إيجاد

صيغة مقبولة للتوفيق بين الإسلام والحضارة وهذه هي القضية الكبرى لدى فريد وجدى ورشيد رضا والآلوسي والجزائري والمغربي وجاويش ، وقد زاد في جهود خلفاء محمد عبده سريان دعوة الجريدة واطفى السيد التي حاولت خلق تيار (غير طبيعي بضغط من النفوذ الأجنبي) يقول بفصل الإسلام عن المجتمع والبيئة وبناء مجتمع وفكر يعتمدان على القيم الغربية

وقد صور العلامة علال الفاسي هذا التيار حين قال (إن الاستعمار خلق مجموعة من المسلمين تدعو إلى متابعة الغرب في جميع أفكاره ، وقد اتخذوا التعليم في مصر وغيرها من الطريقة التي تضمن لهم وجود عناصر مستغربة تعتقد أن مسايرة الإسلام دعوة إلى التخلف والابتعاد عن الركب الحضاري ونجح المستعمرون بذلك في تأخير النهضة الاسلامية حتى أمكنهم أن يفككوا الروابط الاسلامية ويخلقوا وطنيات إقليمية وقوميات مبنية على السلالة ، وآية ذلك قضاؤهم على الحركات الوطنية قبل الحرب الأولى وتفكيك أواصر الدولة العثمانية) .

دعم حركة اليقظة

ومقاومة تيار التغريب والاقليمية

عبرت حركة اليقظة في هذه المرحلة (١٩٠٥ - ١٩٣٠) عن أصالة لا حد لها في دعم اتجاهها الواضح ومقاومة تيار التغريب والاقليمية ومحاولة تمزيق وحدة الفكر الاسلامي .

وتمثلت هذه المقاومة في عديد من الأعمال وكان أبرزها عن طريق الكلمة المكتوبة في الصحيفة والكتاب وقادها عشرات من الباحثين وشملت مختلف جوانب الفكر الاسلامي .

(أولا) المجامع والأندية وقد توجه عملها إلى اللغة العربية وأبرز هذه الجمعيات نادى دار العلوم الذي كان له دور ضخم عام ١٩٠٨ في مقاومة الحملات التي وجهت إلى اللغة العربية ، وكان في مقدمة العاملين في هذا المجال محمد الخضرى وأحمد الاسكندرى وفتحى زغلول وأحمد زكى باشا وحفنى ناصف وعاطف بركات وعبد العزيز جاويش وعبد الوهاب النجار ، وقد اتجه عملهم إلى إحياء ما اندرس من معالم اللغة الفصحى وإعادتها إلى لهجتها الأولى ، وقد أحدث قراراً إيجابياً في هذا المجال مفاده :

« يبحث في اللغة العربية عن أسماء المسميات الحديثة بأى طريق من الطرق الجائزة لغة ، فإذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الأعجمى بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية ويستعمل في اللغة الفصحى بعد أن يعتمده المجمع اللغوى الذى سيؤلف لهذا الغرض » وقد جاء هذا القرار بعد أبحاث مستفيضة قام بها الباحثون من خريجى دار العلوم حول وسائل تنمية اللغة العربية عن طريق (الاشتقاق والتعريب) .

وكان هذا العمل مرحلة فى مخطط مقاومة ضخم قام بها المفكرون العرب والمسلمون فى مصر للدفاع عن اللغة العربية وتحريرها فى عدد من المجامع التى عقدت لهذا الغرض منذ بدأت دعوة بعض الغربيين أمثال القاضى ولمور والمهندس ولكوكس إلى العامية والحروف اللاتينية .

(ثانياً) الكلمة المكتوبة عن طريق الصحافة والكتاب ، وقادها عشرات من الباحثين وشملت مختلف جوانب الفكر الإسلامى ، فنجد عمر لطفى ومعه كوكبة من الباحثين فى الشريعة الاسلامية يحاولون الكشف عن جوهر هذه الشريعة إيماناً بما ضمنته من مضامين قانونية صالحة للمجتمعات الانسانية ، يقول « إن أول واجب على الشرق لشريعته أن يعززها بأن ينزل بقواعدها فى مضامين التقنين الحديث ويرفع صورته بما تحويه من بالغات الحكمة فى الشريعة حتى يحلها مكانها من احترام العالم المتمدن ليعلم أن ما وصفها بها أعداؤها فى زمان التعصب الدينى من قصور قواعدها عن أن تتناول مقتضيات الزمن الحاضر وأن تنطبق على الأقضية الحديثة الناشئة الذين فى قلوبهم مرض ، وترى الأوربيين إذا عرض لهم ذكر الاسلام كان ذلك مرادفاً التأخر والوحشية لا من حيث الاعتقاد فقط بل من حيث قواعد المعاملات التى أساسها الشرع الشريف ، زد على ذلك ما يوجد من حكاية إباحة الطلاق وتعدد الزوجات وكثير من فروع الدين التى لا يجدون لها أصلا فى معاملاتهم » .

ويرى أن يوجه ذلك أيضاً « للحكومات الشرقية الاسلامية التى قضت الظروف أن تكون خاضعة للنفوذ الأوربى على اختلاف صوره يحكم فيها بالقوانين الوضعية الأوربيه التى ما أفادتها إلا فساداً فى الامم وتدليساً فى المعاملات ، على أن الشريعة الغراء كافلة بحاجات تلك الأمم الشرقية من القوانين على وجه أكمل ، لأن من يخالفها ليس بمثابة مخالف القانون بل مخالف الدين ، وناهيك ما للدين من تأثير على الأمم فى المعاملات ، ولا سبيل الآن أن يعلوا الشريعة إلا إذا قرب البعيد منها فى مختصرات باللغة الأوربية » وقد قدم عمر لطفى أربعة بحوث مستمدة من الشريعة الاسلامية هى « الدعوى الجنائية وحرمة المنازل وحق المرأة وحق الدفاع » ، وقال إننا أوردناها لكى لا يقوم لرجال القانون فى بلدنا عذر بأن أصواتهم لا تسمع فى أوربا إذا قالوا عن الشرع ما يبين حقيقته فى ذلك العالم ليسعى أولو الهمم منهم وراءه فى هذا السبيل » .

وقد عرض عمر لطفى موضوع (الدعوى الجنائية فى الشريعة الاسلامية) فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى جنيف عام ١٩٨٤ وأعجب بها القانونيون الأجانب وكبار شراح القانون الفرنسى . وقال شارل ميرميه « إنى أنصح لجميع المسلمين فى شخصكم أن لا يطلبوا مستقبلهم فى تقليد النظامات الأوروبية والمسيحية فاطرحوا هذه النظامات وأمعنوا النظر فى مشرد ما نحن فيه من الفوضى الخداعة واطلبوا من دينكم الذى هو أصح دين وأكثر مساواة مفتاح مستقبلكم ولا تفضلوا أن تستمدوا منا الاكتشافات العلمية الخاصة بإنماء سعادتكم الحقة . وقد اعترف الباحثون الغربيون إزاء ما قدمه عمر لطفى بأهمية الشريعة الاسلامية فقالت مجلة الشرائع (نوفمبر ١٨٩٧)

« إن الشريعة الإسلامية هي على وجه العموم في البلاد الغربية معروفة قليلا أو على وجه ناقص . فنظرا إلى أنها مبنية على نصوص يوقع تأويلها من ليس لهم إلمام باللغة العربية في الحيرة فإن درسها لمن لا يعرف تلك اللغة يصادف صعوبات تكاد تكون غير قابلة التذليل ، على ذلك يجب أن يكون من حسن الطالع أن مؤلفا عربيا من قدرة عمر لطفي يتفضل بأن يأخذ على عهدته تعميم معرفة تلك الشريعة السهلة المنال في فرنسا » .

وبالنسبة لبحث (حرمة المنزل) يقول مسيو فرانك داجيني : يكاد يكون الاعتقاد السائد في فرنسا أن احترام المسكن لا يشغل في تفنين العالم الإسلامي إلا مكانا حرجا ، على أنه كانت الحوادث التي يستحق أن يؤسف عليها وهي لسوء الطالع كثيرة اثبتت أن الحرص على عدم انتهاك حرمة المساكن في البلاد الإسلامية أمر قليل الأهمية فإنه ليس بأقل من ذلك قربا للحق أن الشريعة الإسلامية تحرم مثل هذا الانتهاك تحريما مطلقاً ، ويذكر المؤلف أن القرآن يحرم على كل شخص أن يدخل بيت الآخر بغير رضاه إلا في أربع حالات .

الأولى : إذا كان مرخصاً له الدخول فيه عادة .

الثانية : إذا دعى إليه فإن الدعوى تساوي الاذن بالدخول .

الثالثة : في حال حريق أو فيضان أو ارتكاب جناية .

الرابعة : إذا كان البيت مفتوحا للأفراد كالحانوت والحمام . وكل من ينتهك حرمة مسكن يستحق التعذير هو عقاب (لكل جريمة ليس لها حد) حده الأول التوبيخ والأقصى القتل حسب جسامة الجريمة وحال المجرم ومع ذلك فإن تحريم دخول المسكن من غير استئذان ليس قاصراً على الأفراد ، بل يتناول السلطة الحاكمة .

وفي بحثه عمر لطفي عن (حق المرأة) التي ألقاها كمحاضرة في مجمع السيدات وطبعها سنة ١٨٩٧ أبان حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية وقارن بينها وبين ما للمرأة الغربية من الحقوق وكيف أن الجنس اللطيف وجد في الشريعة حماية لم يجدها في القوانين الحالية .

وفي بحثة عن حق الدفاع أبان مشروعية حق الدفاع في الشريعة الإسلامية مستنداً في ذلك إلى ما ذكره ابن الكمال وابن عابدين نقلا عن الزيلعي وسنده من القرآن قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف) ومن الحديث ، (من رأى منكم منكراً فليغيره) .

• • •

وفي مجال شبهات الاستعمار والتغريب نجد رسالة الرق التي كتبها أحمد شفيق باشا والتي ألقاها في باريس رداً على اتهامات الكردينال لافيجرى التي وجهها في أول يوليو ١٨٨٨ إلى الإسلام وقد قدم بحثه باللغة الفرنسية ليطلع عليه الذين استمعوا إلى النص الفرنسي .

ورد العلامة توفيق البكرى على شبهات مرجليوث عن الإسلام ودوره في العصر الحديث كتابه « المستقبل للإسلام » الذي كشف فيه عن الدور الذي سيقوم به الإسلام .

وكتب أحمد كمال باشا بحثه عن الصلة بين اللغة العربية واللغة الهيروغليفية وأثبت كمال أن أصلها واحد ، وذلك في مواجهة الحملة التي وجهت إلى اللغة العربية والدعوة إلى أن المصريين لغتهم الفرعونية وليست العربية .

ويتصل بهذا الرد على شبهات المستشرقين وخاصة في مؤتمراتهم ويعد الشيخ عبد العزيز جاويش في مقدمة هؤلاء حيث عارض المسيو فولار في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في الجزائر (٦ مايو ١٩٠٠) حين هاجم اللغة العربية الفصحى ودعا إلى اللغة الدارجة وكان مما قاله ، إنه لا يرى أن لغة القرآن هي أفصح لغات العرب وقال إن القرآن مدبج على طراز خاص من النثر متقاصر الآيات متفاصل ما بينها بمثابة السجعات . وقد واجه الشيخ جاويش هذه الحملة برد مفصل مفحم وكان مما قاله جاويش « ما لكم وأنتم الأغراب عن اللغة العربية أن تحكموا على الفاسد والفصيح ، والأفصح فإن صحة الحكم في اللغة استوجب وجود ملكة اللغة راسخة في الحس عريقة في النفس وهو ما لا يؤتى بالمكتسب إلا بعد انقضاء السنين الطويلة في مزاولة الدرس » .

وكان أحمد زكي باشا الملقب فيما بعد بشيخ العروبة واحداً من العاملين على إذاعة صفحات مشرقة من تاريخ العرب والإسلام وخاصة فيما يتعلق بدورهم في أوربا وقد تابعه في هذا العلامة شكيب أرسلان ووقف حمزة فتح الله في مؤتمر المستشرقين في استوكهلم عاصمة السويد فتحدث عن حقوق النساء في الإسلام وعارض طلعت حرب في مد امتياز قناة السويس وألف الأحمدى الظواهرى أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده رسالة هامة عن (العلم والعلماء في نظام التعليم) تابع فيها دعوة إصلاح الأزهر وبرامجه وعمد حفني ناصف إلى دراسة اللغة العربية وتحدث في المؤتمرات الأوروبية ، عن مميزات لغة العرب والمقابلة بين لهجات سكان القطر المصرى ، أما الشيخ الخضرى فقد ألف في أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي وكشف عن جوهر هذه الشريعة الغراء واتجه عبد الحميد الزهراوى إلى الحديث في رسالته عن الفقه والتصوف عن يسر الاسلام وبعده عن طابع الجبرية الذي تأثر به في مرحلة الضعف ، ودعا إلى التحرر منه ، وأوقف على يوسف جريدته على الدفاع عن المسلمين ونصرتهم في مواجهة النفوذ الأجنبي .

وأولى عبد القادر المغربي اهتمامه إلى انماء اللغة العربية ، وكشف لطفي المنفلوطي عن أخلاق

الإسلام ، ورد مصطفى الغلاييني على شبهات كرومر التى أثارها فى كتابه مصر الحديثة ببحث هام تحت عنوان « الإسلام روح المدنية » وكذلك فعل فريد وجدى بالإضافة إلى دوره الهام فى الكشف عن العلاقة بين الإسلام والمدنية . ومهاجمة المذهب المادى وعنى الشيخ جاويش بدراسة أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى وضرورة إقامة مناهج التربية على أساس الدين والأخلاق ودافع الرافعى عن اللغة العربية وكشف عن علاقتها بالقرآن وأهمية هذه الرابطة وذلك فى مواجهة حملة أطلق السيد وويلكوكس عليها . وعالج رفيق العظم تاريخ مشاهير الإسلام وأعلامهم وكشف عن عظمة شخصياتهم واستمرارها من عمق مفهوم الإسلام فى نفوسهم ، ومحمد طاهر الجزائرى إلى إذاعة آثار ابن تيمية وإعادة نشر مؤلفاته وطبع كتبه وأولى اهتمامه باللغة العربية .

وفى مجال اللغة برز حفنى ناصف ومحمد الخضرى ، وعبد القادر المغربى ومصطفى صادق الرافعى

(ثالثاً) دعاة مجاهدون لهم صحف وفى مقدمتهم أربعة :

١ - المنار : رشيد رضا .

٢ - المقتبس : كرد على .

٣ - الهداية : عبد العزيز جاويش .

٤ - البيان ، عبد الرحمن البرقوقى .

(١)

« إنما أنشىء المنار لإيقاظ الشرق وتجديد الإسلام بإعادة تكوين الأمة وحياة الملة والدولة . المنار يدعو من أول نشأته إلى توحيد الخالص ، ومذهب السلف الصالح فى عقائد الإسلام وهدايته والغرض الذى رمى إليه المنار هو فى الجملة بين ما عملت له صحيفة العروة الوثقى »

١ - نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية وإقامة الحجـــة على أن الإسلام باعتباره نظاما دينياً لا يتنافر مع الظروف الحاضرة وأن الشريعة أداة عظيمة صالحة للحكم .

٢ - السعى فى القضاء على الخرافات والاعتقادات الدخيلة فى الإسلام ومحاربة التعصب لمذهب من المذاهب وما دخل على العقائد من بدع الاعتقاد فى الأولياء وما تأتيه طرق المتصوفة من بدع وضلالات ثم الحرص على التأليف والتسامح بين الفرق المختلفة وترقية التعليم العام وإصلاح كتب التدريس » . هذا هو منهج رشيد رضا (١٨٩٩) التى سار عليه خلال هذه الفترة .

كشف عن جوهر الشريعة ودفاع عن اللغة العربية التى يجب أن تكون لغة جميع المسلمين والدعوة إلى وحدة إسلامية تضم الأمم الإسلامية كافة .

(٢)

حفلت مجلة المقتبس بالدراسات العميقة في الفكر العربي الاسلامي ، وحرصت على الدعوة إلى « اختيار ما يوافق أهل كل عصر ومصر من أقوال الأئمة والمجتهدين والعمل بها وترك التقيد بمذهب إمام من الأئمة » ودعت إلى اصلاح طرق التعليم ، وإلى رفع شأن المرأة وحرية الاعتقاد وكشفت عن جوانب هامة من أعمال رفيق العظم وتوفيق البكري وسيد أحمد على وفريد وجدى في عرض مؤلفاتهم (١٩٠٦ - ١٩٠٧) .

(٣)

« كان حقاً على كل مسلم أنور في قلبه الايمان أن يهيب بالمسلمين داعياً وإياهم إلى السبيل القويم ناصحاً لهم أن يعضوا على دينهم بالنواجذ مستمسكين منه بالعروة التي لا انفصام ، منفداً كل ما يأتي به الطاعنون من الشبه التي تقوى ضعاف اليقين ، فقد طمن سيلها وسكت عن تفنيدها الآن من أخص خصائصهم أن يفندوها ويدحضوها حتى كثر سواد الطاعنين ، رأينا وسمعنا ذلك فمن لنا أن ننشىء مجلة تفرغ بعضها لاذاعة أسرار القرآن الذي هو دستور السعادتين ورد تلك الشبه وإدحاض ما يكون جزافاً من الأكاذيب وبيان أن الاسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وإنعاش لغة العرب من عثارها بما نأتي به من التحقيقات اللغوية والاشارات الأدبية » .

« وإذا كان القرآن منقبة لا يشوبها نقص في الفصاحة والبلاغة وإذا كان له مزية عظيمة يفتخر بها الاثمائة مليون من البشر في استيلائه على سائر الكتب السماوية من حيث سلامة مبانيه وجمال معانيه . إن القرآن بمثابة ندوة علمية للعلماء ومعجم لغة اللغويين ، و (اجرومية نحو) لمن أراد تقويم لسانه وكتاب عروض لمحب الشعر وانسكلوبيديا عامة للشرائع والقوانين .

• • •

وعرض عبد العزيز جاويش لأصول التربية وحمل على فكرة إرسال الأحداث إلى أوربا « قبل أن يبلغوا الرشد ويصلوا إلى سن التمييز » وهو خطأ الجامعة المصرية « فإنها منذ العام الماضى (١٩١٠) أخذت تعنى بإرسال أبناء الناشئة إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغفلت إدارة الجامعة أو تغافلت عن أنها إنما تبعث الأطفال المصريين إلى معامل تحولهم إلى أوربيين حتى إذا أعادتهم إلينا لم يعد منهم إلا أفراد فرنسيون وإيطاليون أو ألمانيون » وأبان مدى الخطر في أن يبعث بالأطفال قبل أن يحسن لسانهم لغة بلادهم ، أو يعرفون دينهم فلا يعود — أحدهم — إلا أجنبياً أو ملحداً ، لبعده عن مصر ، ولما تحتمع إليه مقدماتها الأدبية التي يصير بها مصريا » هذه المقومات

من الأخلاق والعادات فلا يكاد ينتهى إلى بلده الجديد حتى تتحول نفسه بحكم البيئة إلى أخلاق أترابه ولداته من الفرنج فلا يلبث أن يعود إلينا أفرنجيا .

وقد عرضت الهداية لعشرات من الموضوعات المتعلقة باللغة والإسلام وحالة المسلمين الاجتماعية والأزهر والمرأة المسلمة ومذهب دارون والشريعة الإسلامية والتأليف فى القرآن وبرزت بها أسماء صادق عنبر وعبد القادر المغربى .

(٤)

وكان طابع عبد العزيز جاويش واضحاً فى تفسير القرآن وفى دراسات التربية والتعليم والاحاطة بأخبار العالم الإسلامى . يقول « القرآن فى معترك الطعان » قلما يمر يوم دون أن اسمع أن فلاناً من كتاب الافرنج طعن فى القرآن ، وقد عرض لمؤلفات مختلفة ورد على كثير من كتابات الأوربيين .

كان دور مجلة البيان (البرقوقى) بعيد الأثر فى هذه المرحلة فقد حرصت على الأحياء والترجمة على أساس من قاعدة الفكر العربى الإسلامى . إيماناً باللغة العربية والتراث العربى وقد شارك فيها عدد من الكتاب الذين أصبحوا من قادة الفكر : مصطفى صادق الرافعى ، محمد السباعى ، العقاد ، المازنى ، لطفى جمعة ، عبد الرحمن شكرى ، هيكل ، خليل مطران ، وقال فى إفتتاحيتها أن روحها من روح الشيخ محمد عبده (روحه الحقة) ودعا إلى ألا يبتذل القلم فى الأساليب السوقية ولا يعضى الأدب على ما تخيل العامدون من متلصصى الكتاب والشعراء ، ونقل تراث العرب بأسلوب عربى مبين ، واختار منه أصلحه للمسلمين والعرب ، كما بعث من التراث العربى الإسلامى أجوده ، ويقول : رغبتى أن يكون فى البيان أمالى فى الأدب لم ما نبدد فى كتب الأدب والتاريخ من سير الشعراء والأدباء وأجناد العرب المستطرفة ، وأمالى فى الدين أقرب الناس أبوابه فى الفقه والتفسير والحديث والأخلاق الدينية وكذلك المباحث العلمية والفلسفة الحديثة .

ولا شك كانت (خدمة اللغة العربية وآدابها وعلومها هى هدفه الأسمى) يقول فى إفتتاحية المجلد الثانى (نوفمبر ١٩١٢) : من أن خطة البيان إنما ترمى إلى غرض هو تربية الأمة ليس لنا فى البلوغ إليه أوثق من اللغة وأدبها فقد أصبحنا الأمة منحلة من تاريخها منفصلة بحاضرها عن ماضيها ذاهبة فيه غير طريقها .

وكان من أهم ما واجهه البيان دحض رأى لطفى السيد فى العامية والعربية وقد حمل لواء هذا الرد مصطفى صادق الرافعى .

اللغة مظهر من مظاهر التاريخ ، والتاريخ صفة الأمة ، والأمة تكاد تكون صفة لغتها لأنها حاجتها الطبيعية التي لا تنفك عنها ولا قوام لها بدونها فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها واشتمالها جلدة أمة أخرى . فلو بقى للمصريين شيء متميز عن نسب الفراعنة لبقيت لهم جملة مستعملة من الهيروغليفية ولأن في اللغة العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصريح ويحكم منطقاً وإعراباً بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤداها ، ثم هذا المعنى الإسلامي (الدين) المبنى على العلية والمعقود على أقاصي الأمم والقيم على الفطرة الإنسانية حيث توزعت وأين استقرت ، فالأمر أكبر من أن تؤثر فيه صورة أحمق أو تأخذ منه كلمة جهل ، وأفضل من أن يزيله قلم كاتب ولو تقادمت به سن الدهر حيث بلغ من الأمة أربعة عشر جيلا كالتي مرت في التاريخ منذ التاريخ الإسلامي .

والقرآن الكريم ليس كتاباً يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب ، إذ لو كان هذا أكبر أمره لتحللت عقدته وإن كانت وثيقة ولأتى عليه الزمان ، وليس يقول بهذا الرأى إلا ظنين قد انطوى صدره على غل وأجمع قلبه على خلة مكروهة .

إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً ، حتى يتأذن الله بانقراض الخلق . ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم لما أطرد التاريخ الإسلامي ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله .

ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة استقلت بها الوحدة الإسلامية ثم تلاحمت أسباب كثيرة بالمسلمين واضطرب ما بينهم ، فلم يبق إلا أن تستلحقهم الشعوب وتستلحمهم الأمم على وجه من الجنسية الطبيعية لا السياسية ، فلا تبين من آثارهم بعد ذلك إلا ما تتبين من طريق الماء إذ انساب الجدول في المحيط .

إن القرآن الكريم ينزل من العرب منزلة الفطرة اللغوية التي يساهم فيها كل عربي بمقدار ما تهيأ له من أسبابها الطبيعية إذ كان بما احتواه من الأساليب وما تناوله من أصول الكمال اللغوي ، وما دار عليه من وجوه الوضع البياني قد هتك الحوائل وعفا الفروق فاجتمعت منه على الكمال الذي كانت تتخيله ، ولو أنهم تمالأوا طوال الدهر على أن يهذبوا من لغتهم ليبلغوا بها مبلغ الكمال الوضعي على النحو الذي جاء به القرآن ، تلك سياسة القرآن في جميع العرب رأى ألسنتهم تقود أرواحهم فقادهم من ألسنتهم فلما استقاموا له أقامهم على طريق التاريخ التي مرت فيها الأمم وطرحت عليه أثقالها فكانت غبارها وأقامت فضائلها فكانت آثارها ،

ويصل الباحث إلى فساد الرأى فى إمالة الفصحى عن وجهها ، وأن القائلين به مهما عملوا فإنهم لايقدرون أن يجتذبوا إليهم إلا طائفة من ضعاف شبابنا المتفرنجين يناصرونهم بما أعده الأمة خذلانا ويريدون منهم بما لا تشعر به الأمة زيادة أو نقصانا وذلك أنهم يغفلون عن الروح الدينية التى نشأ المسلمون — أهل هذه العربية — فى جهات الأرض وأن هذه الروح قائمة على نقض العصبية الوطنية كالمصرية وغيرها .

وكانت ترجمة كتاب الأبطال وعبادة البطولة لكارليل بعيدة المدى ، وكانت عبارة محمد السباعى بارعة فى نقل أسلوب الكاتب الغربى : قال توماس كارليل :

لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن « محمداً » خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرناً لنحو مائتى مليون من الناس ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات ، هذه الملايين الفائقة الحصر أكذوبة وخدعة ، وما أنا أستطيع أن أرى هذا الرأى بد ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج فما الناس إلا بله ومجانين .. الخ »

وأولت البيان اهتماما بالتاريخ وحاولت أن ترسم له منهجاً جديداً ،

« لكل قائل فى التاريخ أحد غرضين ، إما تدوين الحوادث التاريخية كما هى لا لغرض سوى الفن لذاته ، وما إصلاح الجمعيات الإنسانية بما يتضمنه التاريخ من العبر والعظات حتى يكون الغابر مزدجراً للحاضر .

أما نحن فغرضنا من القول فى التاريخ الاسلامى الأمران معاً ، أى ذكر حوادث التاريخ الاسلامى كما هى توحى الحقيقة فيها جهد الاستطاعة ولذكر الأمم الإسلامية الحاضرة بماضيهم وما فيه من مجد وسؤدد والتدهور والانحطاط وما فى ديننا من آداب عالية هى أرقى مايصل إليه العقل البشرى وما طرأ عليه من التحريف ودخل من التعاليم الفاسدة التى ليست من الحقيقة فى شىء ..

ويعنى عبد الرحمن البرقوقى بالربط بين اللغة والتاريخ مع خير ما ينقل من أدب الغرب يقول :

جعلنا أكبر همنا فيما نكتبه ونستكتبه فى (البيان) أن نبسط فى الكلام على صلة العربية الفصحى بتاريخنا ومقام مداولتها ، وأننا إن نزلنا عنها وأفرطنا فى أحيائها وإماتتها فقد تركنا منها أوثق رابطة جمعتنا وأمكن عروة لويت علينا ، وأننا بإغفالها ما حجزت الأمم عن الأمم من الإلاته تحت أضراسها وبين أنيابها والتاريخ هو فى الحقيقة لغة الحياة الصادقة التى طوى الدهر أشخاصها إذا كان

يدعونا أن لا نفرط أمة في لغتها إلا فرطت في تاريخها وأن ذلك ليصفها بما يشبه العبودية ، وإن لم يستعبدها أحد ، فترى لها حاضراً لا ينتفع به كأنه ليس لها ، وماضياً لا يتصل به وكأنه ليس لها .
من أجل ذلك عنينا بتاريخ الاسلام وفلسفته وما بدا له من عالم الاجتماع وما يتصل به من أسباب العمران ويجتمع إليه من سنن الحياة .

ويقول البرقوق : إن الأمة لم يستفتح كل جيل من تاريخها بأسماء رجالها وأوابدها حتى يظلوا منها أحياء بآثارهم وكأنهم لم يخرجوا من الدنيا إلا ليتجردوا من المادة الفانية وليعودوا إليها عقولا خالدة ، هي أمة لا تفرغ منها العقول .

ويؤكد أهمية ترجمة التراث الانساني : « نحن أمة من الأمم تستمد من التاريخ الانساني ليعمر مكانها في هذا التاريخ فنحن في أشد الحاجة إلى مبدعات العقول حتى تتشابه الأمم .

(رابعاً) دعاة إلتماس مفاهيم الاسلام من منابعه الأصيلة .

ويمكن القول بأن هذه المجموعة هي إمتداد طبيعي لحركة الشيخ محمد عبده وهي في هذه الفترة تمثل فرعين كبيرين داخل الأمة العربية أما أحدهما فيتجه إلى الشام والآخر يتجه إلى المغرب

(أما) فرع دمشق ففي مقدمتهم حسين الجسر (١٨٧٩ — ١٩٣٤) وهو من علماء الشام والأستاذ رشيد رضا وجمال الدين القاسمي (١٨٦٦ — ١٩١٤) وله أبحاث في التفسير وعلوم الشريعة وقواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث وعبد الرازق البيطار (١٨٣٤ - ١٩١٦) وهو من أبرز الدعاة إلى إلتماس مفاهيم التوحيد وله (حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر) وفي العراق محمود شكري الألوسي (المتوفى ١٩٢٤) وله ٥٢ مصنفاً بين كتاب ورسالة وله كتاب في مصطلح الحديث وهؤلاء جميعاً برزوا في الشام ماعدا الألوسي الذي ظهر في العراق وكان على نفس منهجهم وإن آثر العمل في المجال الأدبي واللغوي .

ومن أتباع مدرسة الشام : رفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي ورشيد رضا وعبد القادر المغربي وكرد على وشكيب أرسلان .

ويعد الشيخ طاهر الجزائري (١٩٢٠) في مقدمة العاملين في هذا المجال وإن لم تصدر عنه أبحاث مطولة ، وانحصرت سياسته في التعليم في تعريف المسلمين أصول دينهم والاحتفاظ بمقدساتهم وفتح قلوبهم لعامة علوم الأوائل والأواخر من فلسفة وعلوم طبيعية واجتماعية .

وقد كانت له طريقة مرنة في دعوة الناس إلى منهج التوحيد فقد كان ينسخ رسائل ابن تيمية وكتبه ويرسلها مع من يبيعها في سوق الوراقين بأثمان معتدلة لتسقط في أيدي الناس فيطالعونها

فيتأثرون بها — وكان ابن تيمية فى نظر بعض العلماء التقليديين مذكورا لدعوته إلى التوحيد الخالص .

(ثانياً) فى المغرب كانت زيارة محمد عبده لتونس ١٨٨٣ فى المرة الأولى وعام ١٩٠٣ فى المرة وكذلك زيارته الجزائر بعيدة الأثر فى تكوين هذا الاتجاه الذى غذاه المنار ، ويمكن أن يطلق على هذه المدرسة : مدرسة المنار ومن الحق أن الاتجاه السلفى المتحرر ، الهادف إلى إلتماس مفاهيم الاسلام وجوهره كان موجوداً فى المغرب قبل زيارة الشيخ محمد عبده ومرتبطا أساساً بتراث الامام محمد بن عبد الوهاب وكتبه وزيارات علماء المغرب وأقطابه لمكة .

ويوجد لذلك مركزين هامين أحدهما فى الزيتونة (تونس) والثانى فى القرويين (فاس — المغرب الأقصى) ففى تونس توجد الجمعية الخلدونية وقدماء الصادقية وتلمع أسماء عمر البكوش وعبد الجليل الزواش ومر أبو حاجب وعلى بوشوشة وهم أصدقاء الشيخ عبده كما تردد أسماء رواد أجلاء منهم محمود قبادو والبشير صفر والطاهر بن عاشور ، وقد نما هذا الاتجاه فى مرحلة ما بين الحربين ، أما فى جامع القرويين فقد برز عدد من أعلامهم . فى مقدمتهم : محمد بن كنون ، وعبد الله السنوسى ، وشعيب الدكالى والامام محمد بن العربى العلوى .

ولا شك يعطى هذا الاستعراض كله صورة واضحة لهذه المرحلة من مراحل يقظة الفكر العربى الاسلامى والتى كانت فى نطاقها الواسع مشبعة بروح الاسلام قائمة فى نطاق مفهومه وإطار جوهره والتى إستطاعت أن تقاوم الدعوة الدخيلة التى حمل لواءها مارون لبنان وحزب الأمة والجريدة .

• • •

فى مجال الأدب

وفى مراجعة سريعة للشعر العربى والأدب العربى فى هذه المرحلة بصفة عامة يبدو (طابع الاسلام) واضحاً فى جميع حلقاته ومراحله ، حتى يمكن أن يقال أنه كان المصدر الأول والأكبر لكل نفثات اليراع فى مجال الوطنية أو العاطفة الوجدانية .

ففى خلال هذه المرحلة التى بدأت بعد الاحتلال البريطانى لمصر كان هناك خطان متوازيان :

× خط محمد عبده ودعوته إلى إصلاح الأزهر وتحرير الفكر الاسلامى وذلك بعد عودته من المنفى ١٨٨٦ تقريباً .

× خط مصطفى كامل والحزب الوطنى ودعوته إلى الجلاء منذ ١٨٩٢ تقريباً .

ويمكن القول أن الخطان يتفرعان من مصدر واحد هو : الخط الإسلامي العربي . الذي يتابع مفاهيم عرابي ، يظهر لأول مرة وله مفهوم متكامل يجمع بين طابع سياسي خالص ويتصل بالسياسة والحرية والجلاء ومعارضة الاستعمار ومقاومة الاحتلال وطابع اجتماعي ويعمل في مجال التربية والمجتمع والتعليم واللغة العربية لتصحيح مفاهيم الإسلام وكلا الخطين يلتمسان مصدرهما الأساسي من الفكر الإسلامي ويعتمدان على قاعدة اليقظة ولا ينفصلان عنها .

وقد ظل الخطان متباعدان (بالنسبة للأشخاص) ولكنهما متصلان بالنسبة للمصدر حتى ظهرت حركة لطفي السيد في عام ١٩٠٧ ترادوغ بالانبعاث من الأرضية الإسلامية العربية، ومن هنا كان ذلك الخلاف الواضح بين لطفي السيد من ناحية وبين تلاميذ محمد عبده وأتباع مصطفى كامل من ناحية أخرى .

والأدب في مختلف مجالاته وخاصة في الشعر كان يصدر من نفس هذه الأرضية العربية الإسلامية وقد واجه كل محاولات النفوذ الاستعماري بقوة ، وآزر الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، وحمل الشعر صوت الهجوم على هانوتو ، وكشف عن سياسة الإنجليز في محاربة القرآن الكريم وإخراجه من مناهج الدراسة .

وقد رحبت صحف اللواء والمؤيد والعلم بقصائد الشعراء في هذا المجال وفي مقدمتهم البارودي وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم وأحمد محرم وأحمد الكاشف ، ولم يقف الشعر في ناحية الدفاع بل تصدى لأمجاد الإسلام وقيمه ، وعبر عنها في قصائد سارت على جميع الألسنة وتضمنها عدد من القصائد المشهورة .

الهمزية لشوقي ، العمرية لحافظ ، البكرية لعبد الحليم المصري ، العلوية لعبد المطلب ، أرجوزة العرب لشوقي ، عدل الفاروق عمر لأحمد محرم .

وبدأ الاهتمام بالعام الهجري الموافق لعام ١٩٠٨ حيث احتفل به لأول مرة في دار التمثيل العربي وتضاعف الاهتمام به في الأعوام التالية .

وقد أشار الأستاذ سعد الدين الجيزاوي في رسالته (أصداء الدين في الشعر الحديث) إلى أهمية الدين في النهضة الحديثة وفي مقاومة الاستعمار ، وكشف عن التحدي الذي خاضه الشعر العربي الحديث في مواجهة حملات الاستعماريين ودعاة التغريب وقال : « لولا مطاعن هانوتو وكرومر في الإسلام ولا أعمال المبشرين في كنائسهم ومستشفياتهم لما أنشئت القصائد الكثيرة في الرد عليهم » . وقد أجمع الباحثون في هذا المجال إلى أن عنصر الدين كان عاملا فعالا وواضحاً ومسيطراً على الانتاج الأدبي ، شعراً ونثراً .

فى مجـــال التعليم

وفى مجال التعليم كان الاستعمار حريصاً على صرف الطلاب والشباب عن مفاهيم الإسلام بحسبان أنها من العوامل الفعالة فى بناء حركة المقاومة له ، وقد أخذ الاحتلال البريطانى فى حسابه مقاومة كل حركة ترمى إلى نشر الوعى الاسلامى والقضاء عليها ، وقد كانت حركة الحزب الوطنى التى استقرت فى المعاهد العليا والمدارس المختلفة تحمل طابع الاسلام وتدعو إلى الدين كعامل فى مقاومة النفوذ الاستعمارى ، ولذلك فإن مخطط كرومر الذى يتضمن رسم سياسة الالتقاء مع الانجليز فى منتصف الطريق لم يلبث أن قام عن طريق فلسفة سياسية واجتماعية واضحة حمل لواءها لطفى السيد والجريدة وحزب الأمة ، وقد حرص عام ١٩٠٦ على أن يفرض على وزارة المعارف قس اسكتلندى من الذين عرفوا بالتعصب هو (دوجلاس دنلوب) لوزارة المعارف يوجه سياسة التعليم فيها على نحو هذا الهدف ، ولم يكن الوزراء فى الوزارات أى نفوذ بالنسبة لهؤلاء المستشارين ، وخاصة فى وزارة المعارف التى وليها سعد زغلول ، وكان أكثر إيماناً بأهداف النفوذ الاستعمارى واستجابة له من دنلوب نفسه . وذلك حين دعا إلى منع التعليم باللغة العربية وحين عارض مشروع الجامعة ، وأولى اهتمامه بالكتاتيب وأيد نظرية لطفى السيد فى قصر التعليم على أبناء الثراة وحدهم .

وكان كرومر يفهم كما يفهم رئيس وزرائه جلادستون بأن القرآن هو مصدر الخطر فى الثقافة والتعليم والتربية ، ولذلك عمد دنلوب إلى حرمان الناشئة من أبناء المسلمين الذين كانت تتاح لهم فرص التعليم بالمدارس المدنية من أن يتلقوا شيئاً من القرآن الكريم ، فأصدر مجلس النظار فى ٢٢ مايو ١٩٠٨ قراراً يقضى بإلغاء حصص القرآن الكريم على أن تحل محلها حصص الديانة والتهذيب وجعل الحصة السابعة للدين وهى تأتى فى آخر اليوم بعد أن يكون الطالب قد وصل إلى درجة بالغة من الارهاق .

وكان هدف دنلوب من إخراج القرآن الكريم من المناهج بعيد المدى ، فالجاذبية الموجودة فى القرآن حتى وهو بعيد عن كل تفسير لا توجد فى غيره ، ثم إنه حرص على ألا تكون لحصص الدين أية جدوى فضغطت حصص القرآن بالمدارس الابتدائية منذ عهد الاحتلال لتفسح المجال للغة الأجنبية . ومن العجيب أن سياسة دنلوب استمرت من بعده طويلا ، وفى مواجهة هذا الاتجاه أعد الشيخ محمد عبده منهجاً للتعليم نفذه فى مدارس أهلية أنشأتها الجمعية الخيرية ، اتخذت من التعليم الاسلامى ركيزة لمناهجها ، وكذلك عمل مصطفى كامل فى المدارس التى أنشأها الحزب الوطنى . وكذلك فعل عبد العزيز جاويش وكانوا يرون جميعاً أن التربية الاسلامية هى الأساس الأول .

وفى مدرسة باب الشعرية التى أنشأها مصطفى كامل قال فى خطاب له :

« أن التعليم فى هذه المدرسة مقرون بالتربية الاسلامية لأنى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم

الفائدة ، وأقصد بالتربية التربية الإسلامية المحضة لأن أساس التربية الدين ، وكل أمة تربى أبناءها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدمار والانحطاط ، وقد رأيت بنفسى فى أغلب مدارس أوربا اهتماماً فائقاً بتعليم الدين المسيحى للناشئين ، ولذلك عولت على جعل الغرض الأول من المدرسة ترقية الملكة الإسلامية عند التلاميذ وتمكين مبادىء حب الوطن والاتحاد والائتلاف فى نفوسهم وتقديم اللغة العربية على كل لغة » .

• • •

(ترابط المنهجين : الوطنى والإسـلامى)

وهكذا ارتبط منهج محمد عبده ومنهج مصطفى كامل بالوحدة والوطنية القائمة على مفاهيم الإسلام والتى تتسع آفاقها الوطنية المصرية ، والوحدة العربية والإخوة الإسلامية ، وتقوم ثقافتها وتربيتها ومدارسها وتعليمها على أساس الإسلام دنيا ولغة وفكراً .

فى هذا الوقت كانت دعوة الإنجليز التى نفذها سعد زغلول ودانلوب فى وزارة المعارف ولطفى السيد فى الجريدة تختفى وراء مظاهر براقة لتخفى محاربة القرآن وإخراجه من مناهج الدراسة ، وكان كرومر يعقد الآمل على حزب الأمة والجريدة ولطفى السيد وسعد زغلول لأنهم غير مصطبغين بصبغة الجامعة الإسلامية ولا يقيمون وزناً لفكرة الوحدة الإسلامية .

وكان محور لطفى السيد وسعد زغلول — وهما أبرز أنصاره وتلاميذه — يقوم على إيمان خفى برأى كرومر فى أمرين : فى الجامعة الاسلامية أو الوحدة الاسلامية ، وقد ذكر كرومر فى أحد تقاريره عن أتباع حزب الأمة أن أكبر ما يميزهم فى نظره هو أنهم لم يكونوا متعصبين لفكرة الجامعة الاسلامية وأنه يعلق عليهم الآمال فى التقريب بين مصر وانجلترا لأنهم فى نظره فئة من المسلمين قليلة ولكنهم ليسوا أقل وطنية من الحزب الوطنى وأنهم يعملون — على حد قوله — على تقدم إخوانهم دون أن يصطبغوا بفكر الجامعة الاسلامية وقال « إنى أرى الآمل الوحيد للوطنية المصرية فى معناها العلمى الصحيح إنما هو معقود بأعضاء حزب الأمة » .

وراح كرومر ينصح لدول أوربا أن تجمع للقضاء على فكرة الجامعة الاسلامية لأنها فى نظره إنما تعنى اتحاد المسلمين فى العالم أجمع لمقاومة الدول المسيحية ومناصبتها العداء والأمر الثانى هو مفهوم كرومر عن الاسلام نفسه ، وقد صوره فى عدد من تقاريره حين قال « الاسلام عبارة عن مبادىء وضعت منذ ألف سنة هدياً لهيئة اجتماعية فى حالة الفطرة والسذاجة ، منها ما يجيز الرق ، ومنها ما يضمن أمراً أهم من ذلك وهو إفراغ القوانين المدنية والجنائية والمالية فى قالب واحد لا يقبل تغييراً ولا تحويراً ، وهذا ما أوقف تقدم البلدان الاسلامية التى دان أهلها بالاسلام » .

وقد دحض كثير من الباحثين آراء كرومر هذه ، ولكن سعد زغلول ولطفى السيد كانا يعتقدان

فكرياً فى هذا المفهوم بحسبانه قاعدة خطط الحكم والعمل فى المستقبل ، وقد جرى فى هذا الاتجاه فرح أنطون وأصحاب المقتطف والهلال والأهرام والمقطم .

وزاد فى تعميق العمل استشراء حركة التبشير بتأمين كرومر لها وبالتنسيق بين بريطانيا وفرنسا بعد الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ وكانت الإرسالية العلمية المغربية مركز للتبشير الفرنسى قد أصدرت عام ١٩٠٧ مجلة كبرى هى مجلة العالم الإسلامى برأس تحريرها المبشر شاتليه وقد أصدرت عدداً خاصاً كشف عن نوايا الغرب إزاء الإسلام تحت عنوان (فتح العالم الإسلامى) أو الغارة على العالم الإسلامى وقد ترجمه السيد محب الدين الخطيب فى المؤيد عام ١٣٣٠ ه . وكشف هذا الكتاب مخططات التبشير وما دار فى مؤتمرات المبشرين التى عقدوها فى منزل عرابى بالقاهرة ١٩٠٦ وفى القدس وفى لكنو بالهند برئاسة كبير المبشرين فى العالم العربى الدكتور زويمر والذى وصل إلى قرار جاء فيه : إن إرساليات التبشير (بروتستانتية وكاثوليكية) وإن كانت تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية فى نفوس معتنقيها بأنها تبث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية تستطيع أن تحقق هدفها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية وتحويل المسلمين إلى ملحدين .

وفى خلال هذه الفترة اتسع نطاق العمل فى مختلف المجالات فأنشأ رشيد رضا مدرسة الدعوة والإرشاد التى قام بافتتاحها سنة ١٣٣٠ ، وظلت صحف اللواء والمؤيد والعلم تواجه حملات الاستعمار على الإسلام واللغة العربية ووقفت بجوارها مجلات الحياة لفريد وجدى التى صدرت مع المنار فى يوم واحد ، وظهرت الجمعية الشرعية بقيادة محمود خطاب السبكى سنة ١٩١٢ بالإضافة إلى مجلات الهداية والمقتبس والبيان وغيرها .

(رابعاً) الدعوات الجامعة .

كان للدعوات الجامعة دورها وامتدادها ، وفى مقدمتها دعوات ثلاث :

× الدعوة السنوسية فى صحراء ليبيا .

× الدعوة المهدية فى السودان .

× وظهرت الدعوة الوهابية عام ١٧٤٠ ثم تحولت قبل نهاية القرن إلى دولة ، وتعرضت للغزو المصرى العثمانى عام ١٨١٦ .

ومع أن فقدت دولتها إذ ذاك فإن الحركة نفسها ظلت قوية وقادرة على أن تعبر إلى كل مكان فى العالم الاسلامى وكان أكبر مراكزها فى الهند والعراق والشام ومصر والمغرب وبها بدأت حركة اليقظة فى الفكر الاسلامى ومنها امتدت إلى مختلف الحركات التى تلتها سواء منها الحركات الفكرية التى قادها رفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى ، أم التى قادها جمال الدين وعبد الرحمن الكواكبى ومحمد عبده أو الحركات التى قادها دعاة المسلمين فى الهند أحمد خان وشبلى النعمانى وأمير على وإقبال .

وفى مواجهة تحدى الاحتلال الفرنسى للجزائر سنة ١٨٤٧ بدأت (الحركة السنوسية) التى سيطرت على صحراء الجزائر ووسعت نطاقها من خلال (الزوايا) وعملت على نشر الاسلام فى مختلف أجزاء افريقيا . ثم كان لها دورها الفعال فى حركة المقاومة العسكرية للاحتلال الإيطالى لطرابلس سنة ١٩١١ .

وفى السودان بدأ محمد أحمد المهدى حركته عام ١٨٨١ التى انتهت بالسيطرة على الخرطوم عام ١٨٨٥ .

ويمكن القول بأن الحركات الثلاث كانت متصلة ملتقية وأن حركة المهدى كانت على صلة بثورة أحمد عرابى فى مصر سنة ١٨٨٢ وكان جمال الدين ومحمد عبده ودعوتهما المعروفة باسم العروة الوثقى وهى كلها دعوات إسلامية وطنية تحريرية تجمع بين عنصرى الوطنية والاصلاح الاجتماعى ولا تفرق بينهما ، وقد ظلت الدعوات الثلاث : الوهابية والسنوسية والمهدية عميقة الجذور فى بيئاتها التى ظهرت فيها بعيدة الأثر فى مجتمعاتها وفى العالم الاسلامى .

وفى المرحلة التى تقع بين حركة جمال الدين ومحمد عبده ، وبين الحرب العالمية الأولى نرى أن الوهابية قد استعادت حياتها فى (نجد) وبدأت تستمد جولة جديدة بعد الحرب الأولى حين سيطرت على مدائن الحجاز ، وبدأ قيام الدولة الجديدة التى وصفها المؤرخون باسم (الوهابية الجديدة) والتى ما تزال حية فى أرض الجزيرة إلى اليوم ولها خطواتها الواسعة

أما الحركة المهدية فقد أسقطها الاستعمار البريطانى حين احتل السودان بقوى مصرية عام ١٨٩٩ حيث أنهت حكم دولة الدراويش التى بدأها المهدى محمد أحمد وتولاها بعده الخليفة عبد الله التعايشى الذى قتله الانجليز ١٨٩٨ ، وسيطرت بريطانيا باسم اتفاقية ١٨٠٩ على السودان .

ثم لم تلبث الحركة المهدية أن عادت إلى الحياة - بعد أن برزت الطريقة الميرغنية خلال المرحلة الأولى للاحتلال البريطانى للسودان ، وقد تركت المهدية والمرغنية آثارها فى المجتمع السودانى . أما الحركة السنوسية فقد واجهت مرحلة من أدق مراحلها بالغزو الايطالى لطرابلس عام ١٩١١ فى ظل قيادة أحمد الشريف السنوسى الرجل الثالث فى الدعوة السنوسية .

وفى المرحلة الأولى من الغزو قاد المعركة أنور باشا وعزيز على المصرى ومصطفى كمال وأدهم باشا وفتحى بك ، ثم انسحبت الدولة العثمانية من المعركة وحملت السنوسية عبء المقاومة كله بقيادة أحمد الشريف السنوسى الذى نزل إلى ميدان الجبل الأخضر وأبلى بلاءه المشهور مع زملائه فى الدعوة والحركة سليمان البارونى ومحمد بن عبد الله البوسقى ، ثم انفرد أحمد الشريف بالحركة كلها عام ١٩١٤ ، وقد ازدادت قوة على المقاومة فى أواسط عام ١٩١٥ ، وقد ذاب فيها الأعداء كما يذوب الثلج فى الصحراء وأصاب من الانكسار والهوان بما لم يصب مثله فى تاريخ الاستعمار على يد المستضعفين من أنصار

السنوسى الكبير، وقد جرت المحاولات لاستمالة الشريف وحمله على ترك الجهاد فرفض كل العروض الايطالية، قال: إن جهادنا هذا لله لا للدنيا، ونحن ندافع عن أوطاننا ولم نذهب إلى بلاد الناس نحاربهم، ثم حدث من الخلاف ما دعا الشريف إلى الانسحاب إلى الآستانة.

ولم تتوقف السنوسية عن المقاومة ولكنها واصلت بعد الحرب العالمية جهادها، فى مواجهة تجدد الغزو الايطالى وكان من أبطال هذه الفترة عمر المختار الشهيد المجاهد الذى أمضى سنوات طويلة يحارب فوق فرسه لا ينزل عنه. وقد أعطت السنوسية بذلك صورة جد رائعة للمقاومة العنيدة وهى مقاومة عرفها العالم الاسلامى فى أكثر من موضع:

(١) مقاومة الأمير عبد القادر الجزائرى ١٨٣٠ - ١٨٤٧ للفرنسيين فى الجزائر خلال سبعة عشر عاما كاملة.

(٢) مقاومة عرابى الإنجليز فى مصر ١٨٨٢.

(٣) مقاومة المهدى الإنجليز فى السودان ١٨٨٥

(٤) مقاومة الأمير عبد الكريم الخطابى الفرنسيين فى الريف (المغرب الأقصى) بعد الحرب العالمية الأولى.

(٥) مقاومة الشيخ شامل الروس فى آسيا.

(٦) حركات المقاومة فى قلب إفريقيا للاستعمار البريطانى والفرنسى.

(٧) حركات المقاومة فى الهند للاستعمار الانجليزى.

(٨) حركات المقاومة للغزو الهولندى فى أرخبيل الملايو.

الفصل الخامس عشر

دحض الشبهات التى أثارتها مدرسة كرومر

إن أغلب الشبهات التى أثارها الاستعمار قد وضع اللورد كرومر أسسها وجملها فى تقاريره السنوية وقد ظلت هى المرجع لكل دعاة الغزو الثقافى والتغريب فيما بعد وحتى اليوم :

وقد تركزت حملات كرومر فى إثارة الشبهات حول الإسلام بالادعاء بأنه دين مناف للمدنية وأن المسلمين لا يمكنهم أن يرتقوا فى سلم الحضارة والتمدن إلا إذا تركوا دينهم ونبذوا القرآن كما هاجم شريعة الإسلام ودعا إلى أن يتحول الشباب المصرى إلى التعليم الأوربى وأن يتخلص من التراث العربى الإسلامى كله وبذلك يمهد لنفسه سبيل الرقى والوصول إلى كبريات المناصب ودعا إلى خلق طبقة من المتفرنجين المستغربين من الوجهة الأوربية والمدنية الحديثة .

كما قام كرومر بعملين كبيرين لدعم خطة الغزو الثقافى :

(الأول) إقامة مناهج التعليم على أساس التربية الغربية الاستعمارية .

(الثانية) إطلاق الحريات للمرسلين والمبشرين فى مصر والسودان .

وقد جمل كرومر آراءه وشبهاته فى كتابه (مصر الحديثة) الذى أصدره عام ١٩٠٨ وتصدى له فريد وجدى ومصطفى الغلايينى ورشيد رضا وعلى يوسف بالرد والتفنيد وكشفوا عن أغلاطه وشبهاته ومما قاله فريد وجدى أنه مما لا خلاف منه أن الإسلام كان وحده سبب يقظة الأمة العربية والروح التى بعثها لتكوين وحدتها الاجتماعية والسياسية وأنها باسمه وبتأثير تعاليمه اقتلعت من بين شعابها وهضابها الرملية لمنازعة دولتى الرومان والأعاجم حق السيادة الأرضية وباسمه أسست تلك الممالك الباهرة فى الأندلس التى كانت سبباً فى إيصال نور المدنية إلى أوربا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، وقال : فهل يصح أن توصف المبادىء التى كونت هذه الدول بأنها مبادىء تميت الشعوب التى تسود فيها .

وعرض درق دار كور فى كتابه (مصر والمصريون) الإسلام والثقافة العربية والإسلامية وكان مما قاله أن السر فى تأخر الشرق يرجع إلى الاسلام ، وقد تصدى قاسم أمين لهذا البحث ففند ما فيه من شبهات وأخطاء ، وكشف عن عظمة الاسلام الذى سوى بين الناس جميعاً . والذى سبق كل النظم السياسية الشورية بألف سنة أو يزيد حين أنكر امتيازات البلاد والثروة .

وكتب جبرائيل هانوتو فصولا فى الأهرام هاجم فيها الاسلام والثقافة العربية الاسلامية وتصدى الامام محمـــد عبده للرد على شبهات هانوتو ، وكشف عن الفوارق البعيدة المدى تعاليم الاسلام وبين تعاليم الأمم وبين الأخطار التى حاقت بالمسلمين وأغلبها نتيجة الغزو الخارجى .

وكذلك عرض الشيخ محمد عبده المقارنة بين الاسلام والمسيحية فى مجال المدنية والحرية عندما تعرض للرد على فرح أنطون فى مقالاته التى حاول إتهام الاسلام فيها بالوقوف ضد حرية الفكر .

وما كتبه الشيخ محمد عبده فى هذا المجال مشهور وقائم فى كتابه (الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) .

وكذلك عرض الشيخ عبد العزيز جاويش المستشرق مرجليوث فى (محمد وظهور الاسلام) وكشف عن أغراضه الدقيقة وغاياته البعيدة ، كما كشف جاويش فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد عام ١٩٠٥ فى الجزائر عن أغراض المستشرقين ودحض الأقوال المغرضة التى أذاعتها ، وظلم سيئها عن القرآن واللغة العربية .

وعندما تعرض وليم ويلكوكس فى محاضرته التى ألقاها (يناير ١٨٩٣) فى نادى الأزبكية للغة العربية ودعا إلى العامية وزعم أن قوة الاختراع قد ضعفت فى المصريين نتيجة ارتباطهم باللغة الفصحى قام عديد من الكتاب فى مقدمتهم : إبراهيم مصطفى وحسين رفقى وهاجموا رأى المهندس الانجليزى وتصدوا حملته .

ثم جاء القاضى الانجليزى ويلمور متابعاً لعمل ويلكوكس فكتب ما أسماه (لغة القاهرة) داعياً إلى اعتماد العامية لغة ووضع لهـــا قواعد واقترح اتخاذها لغة العلم والأدب كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية .

وقد تصدى له كثير من الباحثين فى مقدمتهم الشيخ على يوسف الذى قال :

إن مسألة اللغة العربية هى مسألة الدين الاسلامى بعينه فإذا فرط المسلمون فى لغتهم الفصحى (لغة القرآن والحديث والشريعة) أضاعوا دينهم بأقرب مما يطلبه المرسلون المسيحية منهم .

كما تصدى للرد عليه عبدالعزيز جاويش الذى قال : هل خطر فى بال المستر ويلمور أن يدعو قومه الانجليز إلى توحيد لغتهم بأن يجعلوا لهجة العاصمة لندن لهجة المملكة كلها كما يدعو المصريين إلى ذلك فإنه يعلم كما علمنا بالاختبار أن بين لهجة أهل لندن ولهجة سائر الولايات الانجليزية من الفارق مثلما بين لهجة القاهرة ولهجات الوجه القبلى والوجه البحرى أو أشد . فإذا قال المستر ويلمور أن هذا غير ممكن فإنه يضيع علينا تاريخ لغتنا فإن كل لهجة من اللهجات فى بلاد الانجليز وكل اختلاف فى المفردات أو الأساليب فهو مأخوذ من شعب من الشعوب التى سادت على انجلترا ، إن

هذه العاملة التي يحقرونها هي بعينها محذورة من أبطال لهجات ارجاء القطر المصري ما عدا لهجة القاهرة المذبذبة فإن قبل العرب الفاتحين أضربوا في كل رجاء من أرجاء القطر وتبوأت طائفة من كل قبيلة جهة من الجهات فابعت لهجتها عليها .

وقال الشيخ جاويش : إذا نبذنا اللغة الفصيحة ظهريا وقبلنا أن يكون التعليم باللغة العامية المصرية التي لا كتب فيها ولا قواعد انتقل إلى دور آخر في تعذر الاصلاح واستحالة التعليم والتربية بهذه اللغة الفقيرة » .

ولم يقف الامر عند هذين بل تصدى لهذا الرأي رشيد رضا وجرجي زيدان وعند ما كتب لطفي السيد مقالاته عام ١٩١٣ في (الجريدة) داعياً إلى « تمصير » اللغة العربية تصدى له مصطفى صادق الرافعي في مجلة البيان وكان مما قاله : إن في العربية سراً خالداً هو الكتاب المبين القرآن الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصحيح ويحكم منطقاً واعراباً بحيث يكون الاخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤداها وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر ثم هذا الاسلام (الدين) المبني على الغاية والمعقود على أقاصي الامم والقيم على الفطرة الانسانية حيث توزعت وأين استقرت ، فالامر أكبر من أن تؤثر فيه صورة حق أو تأخذ منه كلمة جهل ، إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الاسلامي ولا تراخت به الايام إلى ما شاء الله ولما تماسكت أجزاء هذه الامة » .

وكذلك وقف الكتاب المصريون وفي مقدمتهم علي يوسف موقفاً حاسماً إزاء دعوة سعد زغلول إلى إبقاء التعليم في المدارس الابتدائية باللغة الانجليزية كما هاجمت كبريات الصحف الوطنية اتجاه سعد زغلول ووصمته بالتبعية .

وفي أكثر من موقف وقفه دعاة الغزو الثقافي والتغريب وهم أتباع معاهد الارساليات والمدرسة الأولى تصدى لهم البارزون من أعلام حركة اليقظة الاسلامية العربية وكان أبرز هذه المعارك :

(أولا) . دحض (جمال الدين الأفغاني) لنظرية المادية (النيتشرية) في كتابه الرد على الدهريين وكشف عن معارضته لآراء رينان في الاسلام وتصديه لها بالرد في صحف فرنسا .

(ثانياً) : معارضة (محمد عبده) الشبهات التي أثارها (فرح أنطون) حول حرية الفكر في الاسلام بكتابه (الاسلام والنصرانية في العلم والمدنية) ومعارضته ورده على الآراء الخاطئة عن الاسلام والعرب والمصريين التي أذاعها الوزير الفرنسي هانوتو .

(ثالثاً) مواجهة : علي يوسف ومصطفى المنفلوطي وفريد وجدي الآراء التي أذاعها كرومر في الاسلام والمسلمين في كتابه (مصر الحديثة) .

(رابعاً) تصدى قاسم أمين للآراء الخاطئة التي أذاعها دوق داركور في كتابه المصريين وترد عليها باللغة الفرنسية .

(خامساً) ما كتبه محمد فريد وجدي ورشيد رضا وغيرهم في دحض النظرية المادية التي قدمها الدكتور شبلي شميل وفي مقدمتها مؤلفات العلامة فريد وجدي أهمها : الإسلام في عصر العلم . على أطلال المذهب المادي .

(سادساً) ما جوبه به لطفي السيد وسعد زغلول بشأن التعليم وقصره على أبناء الأثرياء وإقرار (الانجليزية) لغة التعليم مما كتبه مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وعلي يوسف ومصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي .

(سابعاً) ما رد به أعلام اليقظة الاسلامية على تعرصات فارس نمر وخليل ثابت وكتاب المقطم من أمثال : أمين الرافعي ، وأحمد توفيق وغيرهم من كتاب الحزب الوطني .

(ثامناً) : الردود التي وجهت إلى (جرجي زيدان) عن آرائه في التمدن الإسلامي والأدب العربي وتاريخ الإسلام والعرب وهي من كتابات العلامة شبلي شميل وأحمد الاسكندري ، ورفيق العظم .

ويمكن القول بأن الحملة على الفكر الإسلامي (من خلال اللغة والإسلام والتاريخ والتراث) كانت في هذه المرحلة عملا يقوده دعاة التبشير والاستعمار والغزو الثقافي الغربيين أنفسهم في مجالات مختلفة :

(١) الدعوة إلى العامية التي حمل لواءها ولكوكس وويلمور وسبيتا وغيرهم .

(٢) مهاجمة الإسلام وقيمه وتراثه حمل لواءها دوق داركور ورينان وهانوتو ومرجليوث .

(٣) التبشير والدعوة إليه ، وحمل لواءها كرومر وزويمر ودنلوب .

ثم تابع هؤلاء على نفس الأهداف أتباعهم من خريجي معاهد الإرساليات الأجنبية في بيروت وغيرها وفي مقدمتهم جرجي زيدان ، صروف ، وشبلي شميل ، سليم سركيس ، فرح أنطون ومن هؤلاء نشأت تلك الدائرة الصماء حتى حاولت أن تنال من قوة حركة اليقظة الاسلامية فقد مكن لها الاستعمار في السيطرة على توجيه الفكر عن طريق الصحافة المصرية التي سيطر عليها هؤلاء الوافدون من الشام يحملون مفاهيم التبشير والاستشراق عن طريق المعاهد التي علمتهم وأخرجتهم وجعلتهم أولى ثمار الغزو الثقافي ، ثم كان عمل كرومر في مصر بإعداده جيلا جديداً من المثقفين قد

الى أن كله بظهور أحمد لطفي السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي وغيرهم ، ومن هنا فقد إلتقى التيار المصري المنحرف عن العروبة والفكر الإسلامي الداعي إلى المصرية الاقليمية الضيقة ، مع دعوة الكراهية لكل القيم العربية الاسلامية الداعي إلى الفكر الغربي في مفاهيمه المادية وفلسفته العلمانية القائمة على تعظيم الغرب ومذاهبه وأبطاله ومحاولة النيل من قيم العرب والمسلمين.

ولكن دعاة اليقظة كانوا من القوة بحيث قاوموا كل تيارات الانحراف ودحضوا الشبهات المثارة وأكدوا رسوخ دعائم حركة اليقظة وقدرتها على مواجهة كل ما يقف أمامها من تحديات وأخطار.

* * *

مفهوم السنة الجامعة

من الحقائق الهامة التي تبرز في مجال النظر إلى « اليقظة العربية الاسلامية » أن خط الدعوة إلى تصحيح مفاهيم الفكر والثقافة العربية لم يتوقف وإن ضعفت الأصوات ولم تجد مجالها وصداها منذ كان أعلاها صوت « تقي الدين بن تيمية ».

وكان صوت ابن تيمية مؤذناً بالانحراف الذي بلغته المفاهيم نحو ثقافة القلب باسم التصوف على حساب ثقافة العقل باسم الفقه والعلم ولم يكن مفهوم ابن تيمية جديداً في ذاته ، ولكنه كان تحريراً من القيود والجمود والتقليد ومواجهة لكل الانحرافات والغزوات التي حاولت الفلسفات والمذاهب المتصلة بالفكر الاسلامي أن تفرض بها مفهوما جديداً ، أو تحريفاً في القيم الأساسية ، وكان لباب صيحته « إلتماس جوهر مفهوم الإسلام مستمداً من القرآن » وتلك كانت صيحة كل المجددين ومصححي المفاهيم منذ فجر الاسلام . وهي دعوة لم تتوقف كلما إنحرف أصحاب المذاهب العقلية أو الفلسفية أو الروحية وحسبوا أنهم يمثلون مفهوم الاسلام ، بجزئية خاصة ، بينما يتمثل مفهوم الاسلام في الشمول والتكامل والوسطية ، جامعاً بين القلب والعقل ، والعلم والدين ، والروح ، والدنيا ، الآخرة.

وقد قام بناء الفكر العربي الاسلامي على هذه المفاهيم.

ثم برز كيان الثقافة العربية وفق هذه القيم ، ولقد كان لدعوة ابن تيمية صداها القوي البعيد المدى في أمرين : في إلتماس مفهوم التوحيد مستمداً من القرآن ، ومفهوم الوسطية والتكامل ، وفي الوقت نفسه إعطاء الأمة العربية صاحبة اللغة العربية القدرة على الاتجاه نحو قيادة الفكر الاسلامي وتوجيهه على أساس أن العرب هم قادة الدعوة الإسلامية الأولى . وإيماناً بأن ما أصاب المجتمع

الإسلامى من إنحراف وما أصاب الفكر الاسلامى من إضطراب إنما جاء نتيجة لغلبة التيارات الفكرية المتصلة بثقافات الفرس والرومان واليونان والهند ، هذه التيارات القديمة التى اتخذها المسلمون مصدر قوة فى سبيل تطعيم فكرهم الاسلامى بأسلحة جديدة وصهر ثقافات الأمم والشعوب فى حدود قدرتها على الإلتقاء بقيم الفكر الاسلامى القائم على التوحيد والنبوة والعدل والحرية والمساواة والأخلاق ، وقد اقبل المسلمون هذه الفلسفات والمذاهب أول الأمر بإرادتهم وهم فى موقف القوة ، واختاروا منها وأضافوا وتركوا على النحو الذى أقام بناء الفكر الإسلامى وقد انصهرت فيه القوى الفعالة والايجابية من ثقافات الأمم والشعوب والحضارات بوصفه فكراً إنسانياً عالمياً أساساً وقادراً على فتح نوافذه أمام هذه الثقافات ، وله قاعدته الحصينة التى ترفض كل ما يتصل بالوثنيات أو الالحاد أو الرهبانية أو الانهزامية أو تعذيب الجسد أو الخطيئة .

غير أن الفكر الإسلامى لم يلبث بعد أن صارع القوى الشعوبية الغازية ، ودحض شبابها وكشف عن زيوف مذاهبها ودعاويها ، واستطاع أن يقيم وحدة فكرية شاملة تمثلت فى مذهب أهل السنة والجماعة الذى صهر الفلسفة والكلام والتصوف والفقه والعلوم فى منهج شامل يتسم بالوسطية والتكامل والحركة ، (راجع كتابنا : القيم الأساسية للفكر الإسلامى) أقول أن عالم الاسلام لم يلبث أن واجه أزمة كبرى ، تتمثل فى الغزو الخارجى ذى الشعب الثلاث : (الصليبيون والتتار والفراعنة) على مراكز ثقله الثلاث : الشرق والشمال والغرب .

ولم يكد هذا الغزو أن ينقضى ، حتى قامت الحركة العثمانية الاسلامية وسيطرت وقد كانت علامة قوة فى القرون الثلاث الأولى ، ثم بدأت تنحدر وتضعف فى القرون الثلاث الأخيرة ، وكان أبرز معالم الضعف فيها : طابع الجمود والجبرية الذى فرضته عوامل مختلفة فى مقدمتها انحراف التصوف فى نفس الوقت الذى غزا التصوف فيه عوالم جديدة وكسب فيها الإسلام أرضاً جديدة وقد توالت خلال هذه الفترة صيحات الذين تابعوا ابن تيمية فى مواجهة تفوق التصوف فى ميدان السياسة ، حتى وجدت صيحة الامام محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية صداها وأثرها الواضح الذى جاء نتيجة لتوفيقها من ناحية ، ومكانها من ناحية أخرى والظروف التى أتاحت لها قوة سياسية تساندها وتدفعها إلى الامام .

وكان قيامها فى قلب الأرض التى يجتمع المسلمون فيها كل عام فى موسم الحج أبعد الأثر فى كسب الأنصار والدعاة من مختلف أقطار عالم الاسلام ، فضلا عن أنها كانت تمثل رد فعل سياسى وفكرى فى وقت ما .

كان رد الفعل السياسى لها يتمثل فى مواجهتها للنفوذ العثمانى السياسى بالخصومة وكان رد الفعل

الفكرى لما يظهر فى معارضتها النفوذ (الجبرية) الذى فرضته الصوفية وفضلا عن ذلك فقد كانت الدعوة إلى التوحيد إنما تتمثل فى مقاومة ظلم واستبداد وطغيان ، إذا كانت الحركة الوهابية لم تحقق الظفر والنجاح سياسياً على المدى البعيد فقد تحقق لها استطارة الذكر ، والتبرير بصورة أو بأخرى فى كل مكان فى عالم الاسلام وفى مجال الأمة العربية بالذات .

ظل ابن تيمية مسيطراً على الفكر الإسلامى والثقافة العربية متمثلا فى مفهوم كل الذين حملوا لواء الدعوة إلى الاصلاح وإن ارتبط إلى حد كبير مع الغزالى ، فقد كانت مفاهيم الغزالى مكملة لمفاهيم ابن تيمية ، وهما معاً يجتمعان فى أكثر من مفهوم ومضمون يجتمعون فى موقفهم من الفلسفة اليونانية ومن إلتماس جوهر الاسلام والفكر الاسلامى من القرآن أساساً ، فهما متكاملان معاً لحيث يرى الغزالى أن العقل وحده ليس أداة كاملة المعرفة يرى ابن تيمية أن القلب وحده ليس أداة المعرفة الكاملة ومن هنا يتكامل فكر الغزالى وابن تيمية ويبدو وكأنه أداة الوصول إلى مفهوم القلب والعقل معاً فى الثقافة المعاصرة .

وما من واحد من الدعاة الذين ظهروا فى حركة اليقظة إلا كان له طابع صوفى فى مطالع حياته ثم إتصل بالمفهوم السلفى من بعد فضاعف من تصوفه وسلفية أفكاره التى دعا إليها ، وكان هذا هو التطور الفكرى الذى دخل على الذين جاءوا بعد محمد بن عبد الوهاب فأكدوا به مفهوم التوحيد وأضافوا إليه تفتحاً جديداً على الثقافات الغربية كما فعل أحمد خان وجمال الدين وحيث ترى محمد عبده يجمع بين الكلام والتصوف معاً ، وترى السنوسى يطعم مفهوم محمد عبد الوهاب بمنهج صوفى ، وترى خير الدين التونسى يحاول الجمع بين الفكر الاسلامى والحضارة ، وترى الكواكبى يجمع بين الاسلام والعروبة ، وهكذا يتجمع فى مختلف الدعوات جوانب جديدة التوسع والتعدد من خلال مفهوم التوحيد الذى أعلاه ابن تيمية لم تتكامل مع نظرة الغزالى إلى المعرفة عن طريق القلب والعقل معاً .

فإذا قلنا أن صيحة محمد بن عبد الوهاب كانت تمثل « مفهوم التوحيد » بحسبانه أصل مفاهيم التحرر من الجبرية والوثنية وانحرافات الفلسفات والباطنية فإن هذه الصيحة كانت ذات دلالة كبرى على أن « الأمة العربية » تعود من جديد إلى مكان القيادة للفكر الاسلامى ، وأنها فى ظل ظهور ثقافات فارسية وتركية وهندية فإن الأمة العربية أولى من حمل الفكر الاسلامى من جديد أعمق مفهوم بالقيم الأساسية للإسلام ، وأصدق تمثلا للقرآن بحسبان أنها تملك سلاح اللغة العربية التى هى ليست لغة العلم والسياسة على توالى العصور فحسب بل بحسبانها لغة الاسلام وفكره وأداة التعبير الأساسية عن السنة والعقائد والشريعة والفقه والعلم التجريبى

ومن هنا يمكن القول بأن اليقظة العربية الاسلامية فى مجال الفكر قد حققت للثقافة العربية طابعاً مستمداً من الإسلام قوامه الوسطية والتكامل والحركة ، جامعة بين مختلف مفاهيمها دون إعلاء للقلب أو العقل بل منسقة بينهما ، ومن هنا يمكن القول بأن الوحدة العربية بخطوها ودعاتها وقادتها

في مجال الاصلاح والتجديد وتصحيح المفاهيم اوشك أن تحقق اللقاء بين الطرفين اللذين ظلا يتنازعان الفكر الاسلامي طويلا وهما ثقافة القلب وثقافة العقل ، فإذا بهما يقتربان اليوم اقترابا كبيراً في الايمان بالعقل والبصيرة معاً ، وفي اللقاء بين الغزالي وابن تيمية في نفوس المفكرين والعلماء وقادة الفكر والثقافة .

فإذا أضفنا إلى هذا أن التصوف قد عمق أشواق أهل البيت وعاطفتهم دون أن يخل ذلك بمفهوم الفقه والعقائد كما فهمها أهل السنة والجماعة .

وضح ذلك الاتجاه الذي أوشك أن يقترب بإلقاء المسلمين في مفهوم واحد شامل ومتكامل .

والمسلمون اليوم يعلمون أن تعميق الخلافات وتوسيع شقة الفرق إنما هو هدف خصوم الاسلام والعربية وهو سلاح ما زال يشهر الحيلولة دون قيام وحدة فكر خاصة بعد أن زالت الفرق مصدر الخلاف وسقطت قضايا فكرها التي كانت السياسة في العصور الماضية تستغلها وتؤججها إذا قدر هذا بأنه يكشف بوضوح عن أفق جديد وفجر جديد يمكن أن يقال أن اليقظة العربية الاسلامية ستصل إليه وتحقق به وحدة مفهوم أهل السنة والجماعة على النحو الذي تحقق في القرن الخامس الهجري .

* * *

الكتاب الثانى

حركة اليقظة فى مواجهة التغريب

(مرحلة ما بين الحربين العالميتين)

مقدمـــة :

يعنى هذا البحث بدراسة حركة اليقظة العربية الإسلامية فترة ما بين الحربين (١٩٢٠ - ١٩٤٠) ولما كانت هذه المرحلة إنما تمثل حلقة من حلقات الفكر الإسلامى كله منذ فجر الإسلام . وكانت حركة اليقظة فى العصر الحديث قد بدأت فى منتصف القرن الثالث عشر الهجرى (عام ١٢٥٦ م تقريباً) فإن الأمر يقتضى تقديم عرض سريع شامل للمعطيات التى قدمتها المرحلة السابقة حتى أوائل الحرب الأولى ، حتى يمكن استعراض هذه المرحلة الدقيقة التى حفلت بالتحديات والأخطار والتى واجهتها حركة اليقظة فى دقة وحسم واستطاعت ان تكشف زيفها وأن ترد عاديتها وخطرها ، وأن تديل منها وأن تكسب إلى صفها بعض خصومها .

(أولا) لا شك أن حركة اليقظة العربية الإسلامية الطابع التى بدأت فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى (الثانى عشر الهجرى) إيذاناً بموجة جديدة من موجات الانبعاث والتجدد ، بعد مرحلة طويلة من الضعف والتخلف ، إنما هى امتداد طبيعى للفكر الإسلامى والثقافة العربية فى تاريخها الطويل منذ فجر الإسلام غير منفصلة عنه ، ونتيجة لهذا فقد استطاعت هذه الحركة أن تؤكد وجودها وأن تعمق جذورها على نحو سريع وخصب فى نفس الوقت ، كما استطاعت أن تعمل فى ميادين مختلفة مارة بمراحل متعددة من خلال : الدعوة الإسلامية والحركة السياسية والعمل الوطنى جميعاً .

وقد استطاعت فى مراحلها الممتدة بين الإمام محمد عبد الوهاب ورفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى والمهدى والكواكبى ومحمد عبده ومدرستى العروة الوثقى والمنار وحركات السلفية فى الشام والمغرب أن تحقق نتائج ضخمة كانت بعيدة الأثر .

(ثانياً) أن هذه المرحلة بالذات قد وصفت بأنها مرحلة أجنبية خالصة سيطر فيها الفكر الغربى بحملة نابليون وما تلاها من دعوات سان سيمون وأصحاب المقتطف والأهرام وشبلى شميل وكرومر ودانلوب وصروف ونمر وجرجى زيدان وفرح أنطون وسليم سركيس ولطفى السيد وسعد زغلول

والواقع أن هذه المدارس جميعاً هي مدرسة واحدة ، وهي ليست أصيلة بل دخيلة ، وانها جاءت باسم النفوذ الأجنبي لتعمل من خلال حركة اليقظة التي كانت قد استحصدت وبنت مقوماتها وأسسها في الإحياء والبحث والتجديد وفتح أبواب الاجتهاد والعمل في مختلف ميادين العقيدة والأدب والتاريخ والتراث .

هذه المدرسة التي أطلق عليها اسم : (الدائرة الصماء) ، هي التي التمست طريقها إلى تمزيق جبهة حركة اليقظة عن طريقين (١) عن طريق السوريين الوافدين من مدارس الارساليات في بيروت لتصدر وقيادة حركة الصحافة (٢) عن طريق المصريين الذين كانوا أولياء لمخططات كرومر التي أذاعها في تقاريره السنوية وقد اعتمد هؤلاء من أمثال سعد زغلول ولطفي السيد على دعاية خطيرة هي أنهم كانوا تلاميذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده

وليكن هذا صحيحاً إلى حد ما ، ولكن الواقع أنهم من أتباع فلسفة المنفعة الأوربية التي دعا كرومر إليها المثقفين ليكونوا نماذج صالحة لتولي السلطة في بلادهم وفق مفاهيم : الاستعمار ، والتغريب والليبرالية الغالية .

(ثالثاً) يمكن القول بأن مدرسة اليقظة قد تشكلت في خلال هذه الفترة (١٨٣٠ - ١٩١٨ تقريباً) : رفاعة الطهطاوي ، خير الدين التونسي ، محمد علي السنوسي ، الألوسي الكبير ، جمال الدين الأفغاني ، محمد عبده ، عبد الرحمن الكواكبي ، علي يوسف ، عبد الرحمن البرقوقي ، رشيد رضا ، جمال الدين القاسمي ، عبد الرازق البيطار ، طاهر الجزائري ، حسين الجسر ، الطاهر بن عاشور ، رشيد رضا ، فريد وجدي ، عبد العزيز جاويش ، توفيق البكري ، مصطفى الغلاييني ، حفني ناصف ، أحمد الاسكندري ، المنفلوطي ، أحمد كمال باشا ، عبد الحميد الزهراوي وقد تصدى هؤلاء الرواد ، إلى أعمال أصحاب الدائرة المغلقة والفرنسية التغريبية وناقشوا شبهاتهم ، ودحضوا اتهاماتهم ومزقوا مخططاتهم شر ممزق ، وعملوا في مختلف ميادين اليقظة .

(رابعاً) عمدت مدرسة التغريب إلى إثارة مختلف الشبهات :

١ – الفلسفة المادية : قادها شبلي شميل .

٢ – الدعوة إلى العامية قادها ولكوكس ولطفي السيد .

٣ – الصحافة العربية وتولاها أصحاب الأهرام والمقطم والهلال والمقتطف .

٤ – الاقليمية الضيقة ودعا إليها لطفي السيد .

٥ – ثنائية التعلم ودعا إليها سعد زغلول ولطفي السيد .

٦ — تحريف تاريخ الإسلام وإثارة الشبهات : جرجي زيدان .

٧ — إثارة الشبهات حول حرية الفكر في الإسلام : فرج أنطون .

٨ — مواجهة الإسلام من خلال الدولة العثمانية : كرومر وفارس نمر وسليم سركيس وصروف ولطفي السيد .

٩ — تفريغ التعاليم من قيم العروبة والإسلام : دانلوب ولطفي السيد وسعد زغلول

١٠ — تمزيق الرابطة بين العروبة والإسلام

وقد واجه هذه الدعوات : محمد عبده ، وفريد وجدي ، ومصطفى الغلاييني ، وعلي يوسف ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ورشيد رضا ، وجمال الدين القاسمي ، وعبد العزيز جاويش ، وأحمد السكندري .

ومما يذكر على وجه الإجمال أن جميع العاملين في مدرسة التغريب لم يكونوا صادقي الولاء الوطني لأمتهم وقد عرف عن شميل وصروف ونمر وغيرهم أنهم كانوا تابعين للسفارة البريطانية ولهم آثار تشهد بتأييدهم الاستعمار وبقاء الاحتلال وأن بعضهم الآخر كان يعمل من خلال دعوات أخرى أهمها :

(١) حركة التبشير (٢) حركة الاستشراق (٣) الحركة الماسونية .
(٤) الحركة الفرعونية (٥) الارساليات .

وكانت هذه الحركات تعمل خلال هذه الفترة في تستر وخفاء ، ثم كشفت عن وجهها في المرحلة التالية بعد أن ثبتت قواعدها وفي هذه المرحلة . وقد انتفعت حركات التبشير بما تحقق عام ١٩٠٨ من قيام الاتحاديين على الحكم في الدولة العثمانية وسقوط السلطان عبد الحميد ، فقد وسع لهم آفاق العمل ، وتشهد تقاريرهم بأنهم عملوا في جميع الأقطار العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية .

وكانت الحركة الماسونية قد سيطرت على العالم العربي من خلال مدينة سالونيك على حدود تركيا ومنها امتدت فسيطرت على الجماعات والهيئات السياسية وفي مقدمتها حزب الاتحاد والترقي ، وظهر أثرها واضحاً في إسقاطها السلطان عبد الحميد الذي رفض معاونة اليهود في اقتطاع بعض أجزاء من فلسطين .

وكانت الحركة الصهيونية قد بدأت عملها عام ١٨٩٧ (وهو جمال الدين الأفغاني) حيث

عقدت أول مؤتمراتها في بال وقررت إقامة الدولة اليهودية ، ثم اختارت فلسطين من بعد وسعت سعيها لدى الدولة العثمانية ووقف السلطان عبد الحميد أشرف موقف في معارضتها بالرغم من عوامل الإغراء البالغة التي حاولت الصهيونية العالمية أن تقدمها له .

وكان نفوذ الإرساليات الأجنبية في مصر وبيروت قد اتسع (عن طريق الجامعات الأمريكية والفرنسية في بيروت والكليات التي أنشئت في أسيوط والقاهرة) وعن طريقها رسم مخطط الحرب التربوية والتعليمية للفكر الإسلامي واللغة العربية بالتخطيط والتنسيق مع حركة التبشير التي كانت هي بمثابة أداة التوزيع وحركة الاستشراق التي كانت بمثابة مصنع الشبهات ، وكان لسيطرة الاستعمار البريطاني والفرنسي على العالم العربي أثره الواضح في تركيز أساسيات في مقدمتها :

(١) سيطرة القوانين الأوروبية وإحلالها على الشريعة الإسلامية .

(٢) الدعوة إلى العامية والإقليمية الضيقة .

(٣) الدعوة إلى فصل الإسلام عن المجتمع والثقافة .

(٤) تجميد الأزهر (٥) فرض ثنائية التعليم .

(خامساً) دارت في هذه الفترة بعض المعارك التي كانت بمثابة التمهيد للخطوات المقبلة : في العراق هاجم الزهاوي اللغة العربية الفصحى ، وفي مصر هاجم فرح أنطون حرية الفكر في الإسلام ، كما قامت الحملة على إحياء التراث العربي ، ولم تكن دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة خالصة حرة ، وإنما جاءت من خلال مخططات نسقها كرومر مع صالون نازلي هانم فاضل وسعد زغلول وغيرهم .

وفي باريس كانت أول أطروحة للدكتوراه ، تلك التي قدمها منصور فهمي أول ثمرة التغريب ، فقد هاجم فيها تحت تأثير أستاذه اليهودي (ليفي بريل) نظام الزواج في الاسلام ، كما هاجم طه حسين في رسالته عن (ابن خلدون) الفكر الاسلامي وهذا العلامة الذي وصفه الغربيون أنفسهم بأنه مؤسس علمي الاجتماع والتاريخ ، وكان ذلك مجاراة لآراء أستاذه (دوركايم) .

ثم جاءت بعد ذلك الرسائل التي تحمل السموم تترى .

ذلك أن كل النظريات والقضايا التي أثيرت في هذه المرحلة قد بدت بصورة أوضح في مرحلة ما بين الحربين ، وأن كل الشبهات التي رددها المستشرقون والمبشرون بصوت خافت عادت وتجددت وترددت بأصوات عالية مرتفعة وبأقلام عربية في كتابات طه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمي وأحمد أمين وعلي عبد الرازق ، وهي نفسها كالشبهات التي رددها في هذه المرحلة لطفي السيد وشبلي شميل وفرح أنطون ولويس شيخو وجرجي زيدان .

(سادساً) ركزت مخططات الاستعمار فى هذه الفترة على السيطرة الكاملة على العالم العربى بعد الحرب الأولى (وكانت مصر والجزائر وتونس والسودان) هى التى سقطت تحت نفوذ الاحتلال فى هذه الفترة .

ثم سقطت باقى أجزاء العالم العربى بعد الحرب الأولى وهزيمة الدولة العثمانية . ويبدو هذا الاتجاه واضحاً فى المخطط الذى رسمه مؤتمر ١٩٠٧ المعروف بنظرية كامبل بترمان الذى قرر « أن المنطقة الحيوية بالنسبة للاستعمار هى حوض البحر الأبيض المتوسط كشريان حيوى لمواصلات الإمبراطوريات الاستعمارية ، وأن شعوب القارة الهندية لا تشكل خطراً على الامبراطوريات والاستعمار حتى بعد حصولها على الاستقلال لأن الخلافات الطائفية والدينية بينها لا تجعلها قوة ذات خطر ، كما أن شعوب أفريقيا حتى بعد حصولها على الاستقلال لن تشكل مثل هذا الخطر نتيجة الخلافات القبلية فيما بينها لأنها ستظل مرتبطة اقتصادياً وثقافياً بالدول الاستعمارية ، وأن الخطر الحقيقى الذى يهدد الامبراطوريات الاستعمارية يكمن فى الشعب الذى يقطن الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط لأن لدى هذا الشعب صفات تميزه عن باقى الشعوب من حيث تجمعه وأمله قومياً واحدة ، كما أن له حضارة قديمة استطاعت أن تلعب دوراً كبيراً فى تطور الحضارات الإنسانية وأن وحدة هذا الشعب فى حركة قومية واحدة يعتبر تهديداً خطيراً لمصالح الامبراطوريات الاستعمارية خصوصاً وأن هذا الشعب يسيطر على منطقة حساسة من مناطق العالم وهى منطقة الشرق الأوسط التى تعتبر الطريق المؤدى إلى المستعمرات فى آسيا والشرق الأقصى وأنه من الضرورى الإبقاء على هذا الشعب فى حالة تفتت إتقاء خطره . » ا هـ

فإذا أضفنا إلى هذا النص وما يوحى به ما ردده « رئيس وزراء بريطانيا » حين حمل المصحف ووقف على منبر مجلس العموم البريطانى : وقال أنه مادام هذا الكتاب باقياً فى الأرض فلن نستطيع أن نحكم المصريين ، وقال المسلمين نعرف إلى أى حد كان عمق مخطط الاستعمار عن طريق الغزو الثقافى أو من هنا كان تركيز النفوذ الاستعمارى على الأمة العربية أقوى من تركيزها على مختلف أنحاء العالم الإسلامى وتركيزها على مصر أكبر من تركيزها على الأمة العربية حيث استخدمت القاهرة من بعد مصدراً للغزو الثقافى عن طريق صحفها وكتابات دعاة التغريب فيها .

وكان التغريب هو أول ما عمل له الاستعمار عن طريق التبشير والتعليم والصحافة . ومن هنا كان تمزيق الوحدة بين العرب والترك من أهم الأعمال السياسية التى عمل لها الاستعمار والصهيونية والتبشير جميعاً ، وقد نجح هذا المخطط فى إسقاط السلطان عبد الحميد وتولى « الاتحاديين » الحكم فى الدولة العثمانية ، ويحمل التاريخ الاتحاديين مسئولية خطيرة فى تمزيق الوحدة العربية الإسلامية الجامعة ذلك فى خلال الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ ، كانوا قد حققوا أهداف الاستعمار كاملة وأقاموا بين العرب والترك بحراً من الدم أعلى شأن الخلاف ، وأعلى دعوات القوميات التى أخذت طابع الإقليمية والتعصب .

وفي نفس الوقت كانت دعوة لطفي السيد منذ عام ١٩٠٧ عن طريق (الجريدة) وحزب الأمة ، وسعد زغلول عن طريق (نظارة المعارف) من أكبر العوامل في عزل مصر عن الأمة العربية والوحدة الإسلامية والفكر الإسلامي جميعاً وفي نفس الوقت عمدت إنجلترا إلى القضاء على الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل ومحمد فريد فقد كان لها طابعاً عربياً إسلامياً أصيلاً مرتبطاً بالقيم الأساسية ، فما جاء عام ١٩١٤ حتى كان الوطنيون جميعاً قد هاجروا خارج مصر وفي مقدمتهم محمد فريد وعبد العزيز جاويش وكان هذا تمهيداً لحزب الأمة ورجاله وإعداداً لتولية سعد زغلول ولطفي السيد قيادة الحركتين الوطنية والفكرية بعد الحرب .

سابعاً : كان الطورانيون الاتحاديين في تركيا أثر واضح في مصر وفي مجال الفكر والثقافة ويرجع السيد رشيد رضا الانحراف الذي عرف به جرجي زيدان في كتاباته عن تاريخ الإسلام إلى هذه الفترة (فقد زار الأستانة ولقي فيها بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي ثم عاد معجباً بالنهضة التركية مستنكراً مجاراة العرب لإخوانهم الأتراك مستصوباً خطة الاتحاديين الأولى من تتريك العناصر وإدغام العرب في الترك وقد كتب في الهلال ما يشعر بهذه النزعة فهاج ما كتبه جماعات فتيان العرب في سوريا والأستانة ، أما النزعة التي سوغت هذه النزعة فهي مطاعنه في العرب التي أودعها كتابه التمدن الإسلامي فطن لها أخيراً من لم يكن يحفل بها وزادهم التفاتاً أن ترجمت جريدة (اقدام) التركية لتاريخ التمدن الإسلامي ونشره فيها بالتتابع وقد انبرى للرد عليهم الشيخ شبلي النعماني .

ووفق هذا المخطط جرى العمل في دائرة (التغريب الصهيونية) : كان الدكتور شبلي شميل يدعو إلى العلمانية ويهاجم قيم الأديان والأخلاق ثم يولي انجلترا الولاء كله ، ويعلن في صراحة تبعية لها فيفتخر بذلك كل ما دعا إليه من حرية . وكان أصحاب المقطم والهلال على نفس الولاء للاستعمار والماسونية وقد كتب جرجي زيدان كتاباً عن الماسونية كما ألف منهاالات أصحاب المقطم (مكاريوس) وأصدر مجلة (اللطائف) لساناً لها ، كما صدرت صحف أخرى وبرز أمثال (إدريس راغب) و (فارس نمر) من أكبر دعاة محافل الشرق .

(ثامناً) ودارت في هذه الفترة معارك كثيرة . أعلن سعد زغلول وزير المعارف أنه يؤيد التعليم باللغة الإنجليزية في المدارس وهاجمه عبد العزيز جاويش وعلي يوسف ، وفي مجال السياسة حمل سعد زغلول لواء الدعوة إلى مد امتياز قناة السويس وهاجمه محمد فريد وعلي يوسف وعشرات من الكتاب .

ودعا لطفي السيد إلى العامية وهاجمه مصطفى صادق الرافعي والبرقوقي صاحب البيان ، ودعا شبلي شميل إلى المادية وهاجمه فريد وجدي ورشيد رضا وكتب لورد كرومر كتابه (مصر الحديثة) وهاجم القيم الإسلامية والعربية وتصدى له فريد ومصطفى الغلاييني وعلي يوسف وعبد العزيز جاويش وهاجم جمال الدين الأفغاني (العمرية) وشجب خطرها وشبهاتها ، ورد محمد عبده على

الشبهات التي أثارها فرح أنطون حول حرية الفكر في الإسلام في مقالات جمعت باسم (الإسلام والنصرانية بين الدين والمدنية) وهاجم دوق داركور مصر والمصريين ، ورد عليه قاسم أمين ، وهاجم هانوتو الإسلام والمسلمين ورد عليه محمد عبده ، وحين دعا قاسم إلى تحرير المرأة ظهرت تحفظات فريد وجدي وطلعت حرب .

وانكشف المخادعون أمثال أديب إسحق ، وسليم عنحوري وكانوا أولياء جمال الدين فلما جاء الاحتلال البريطاني والوه وعملوا معاً .

(تاسعاً) وكذبت الوقائع والوثائق الصحيحة ادعاءات كثيرة : منها أن الثورة الفرنسية هي التي أيقظت الفكر العربي وأن الحملة الفرنسية هي التي أيقظت الشرق العربي وأن جامعات الإرساليات التبشيرية هي التي انشرت العلوم والثقافات ، وأن المارون الشوام هم الذين صنعوا الثقافة والصحافة وتبين من بعد أن يقظة الفكر العربي بدأت من أعماقه قبل الثورة الفرنسية والحملة الفرنسية بأكثر من أربعين عاما ، وأن هذه الإرساليات لم تنفث إلا سموم التغريب والشعوبية وأن آثار خريجيها ماتزال قائمة ومعروضة للحكم عليها وأنها لم تكن تعمل لخير العرب وإنما كانت تستهدف إلى تعميق النفوذ الأجنبي الوافد عن طريق التشكيك في القيم الأساسية للأمة العربية . وأنها كانت تعمل على إلقاء العملة الزائفة في السوق ، وإعطاء البريق الخاطف والصدى المدوي .

وقد تبين أن الفكر الإسلامي على عهده وقدرته - حتى في أشد أوقات الضعف - قادر على أن يأخذ حاجته من الفكر البشري ثم يرد الباقي من ذلك السيل المنهمر الذي يتقدم إليه ، وهو لا يأخذ إلا ما ينفعه وما يزيده قوة .

(عاشراً) استطاعت حركة اليقظة أن تحقق نتائج هامة وأن تصحح حقائق كثيرة . فالمفاهيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية التي طالما رفعها رفاعة رافع الطهطاوي وخير الدين التونسي في أوربا إنما كانت مستمدة من الفكر الإسلامي فن ابن خلدون استمد الأوربيون قواعد علم الاجتماع ، ومن الفقه المالكي في المغرب استمد الغربيون القانون الفرنسي أما نظريات التربية فقد استمدوها من ابن سينا والغزالي والعبدري .

(حادي عشر) : منذ عام ١٨٦٠ بدأت حركة التغريب تعمل في لبنان عن طريق الإرساليات ومنها امتدت إلى مصر في ظل الخديو إسماعيل . كان هدف الحركة الأول تمزيق الروابط السياسية والثقافية والاجتماعية بين العرب والترك ثم بين المصريين والسوريين والعراقيين والسودانيين والمغاربة ، وذلك بتأجيج روح الخلاف بينها بإثارة الدعوات القديمة : المستمدة من الفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ، وكذلك إثارة الدعوة الطورانية والقومية التركية وكانت الإرساليات الفرنسية والأمريكية في بيروت تمهد للسيطرة الفكرية الكاملة على الثقافة العربية

والسيطرة السياسية القيادية عن طريق تخريجها. وكان الهدف هو تشويه القيم العربية والمفاهيم العربية للقضاء على المفاهيم العربية والإسلامية بدعوى تأخرها وتخلفها وارتباطها بالدين أى الإسلام.

وقد عمل التغريب على الوحدة العضوية بين جامعة اللغة وجامعة الفكر واعتبر الإسلام ديناً، وتنكر له باعتباره منهج حياة جامع وهنا تبدو محاولة إلقاء ظل المفاهيم الغربية على الفكر الإسلامى وتحكمها فى مقدراته.

وقد ركزت حركة التغريب على الشام لتمزيق الوحدة العربية العثمانية، وكان الموارنة دورهم البارز باعتبارهم أداة الاستعمار وقد تم ذلك على مرحلتين: مرحلة زحزحة عبد الحميد والقضاء على دعوة الجامعة الإسلامية التى كان يحمل لواءها والتى كانت تشكل خطراً لا شك فيه للنفوذ الاستعمارى الزاحف.

وقد شارك الاستعمار والصهيونية معاً فى القضاء على نفوذ السلطان.

وفى المرحلة التالية كان حكام الدولة العثمانية هم «الطورانية الاتحاديون» وهم الذين كون التغريب فكرهم على نحو الولاء للغرب والمعاداة للإسلام والعرب وفق ما تنفذه الإرساليات التوشيرية. وفى هذه المرحلة كان الضغط أشد، فقد حطم الاتحاديون آخر الروابط مع العرب بالقتل والشنق فأذكوا أوار الخلاف وحالوا بين العودة إلى اللقاء. وكان دور الاتحاديين واضحاً فى خصومة العرب وفى موالاة الاستعمار وفى العمل لإنهاء وجود الدولة العثمانية خلال فترة حكمهم من عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٨. وهكذا تحقق للاستعمار أمرين: تمزيق الرابطة الإسلامية الجامعة (العربية التركية) والقضاء على الدولة العثمانية التى هزمت فى الحرب العالمية الأولى وسيطر الاستعمار على الأجزاء العربية التابعة لها.

ثانى عشر: إن دور الأزهر فى هذه المرحلة دور هام وخطير فهو البؤرة الأولى للثقافة واليقظة والثورة الوطنية، وإن جميع الرواد والقادة والمفكرين بدأوا منه وانطلقوا فى رحابه، وفى مقدمتهم على يوسف والمنفلوطى والقاياتى والبرقوقى ومحمد عبده وسعد زغلول ومحمد المهدى وحفنى ناصف وحمزة فتح الله ومحمد الخضرى وعبد الله نديم والمويلحى وعبد الوهاب النجار، وقد سهر الأزهر على حماية اللغة العربية وعلوم الاسلام فى هذه الفترة ومن قبلها، وابتعث بجمع العلماء والمثقفين فى سائر الأمم العربية الاسلامية وله أكبر الفضل فى مقاومة تيارات التغريب والإلحاد والانحراف.

هذه على الاجمال هى الحقائق التى كشفت عنها دراسة حركة اليقظة فى هذه المرحلة التى امتدت سبعون ومائة من الأعوام وذلك منذ بدأ فجرها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٧٥٠-١٩٢٠) ولا ريب كان لهذه النتائج التى حققتها حركة اليقظة خلال هذه المرحلة: أثرها البعيد والعميق على المرحلة التالية: «مرحلة ما بين الحربين» وهى المرحلة الحاسمة والدقيقة فى حركة اليقظة فى صدامها الضخم مع مؤسسات التغريب والغزو الثقافى على النحو الذى تفصله هذه الدراسة

الفصل الأول

مدخل تاريخي سياسي

(١)

تعد هـذه المرحلة (مرحلة ما بين الحربين) من أخطر المراحل في تاريخ الأمة العربية والعالم الإسلامي حيث تمت فيها السيطرة على مختلف أجزاء الأمة العربية ، بعد أن أزيلت الامبراطورية العثمانية وقضى على تلك الرابطة التي قامت بين الأتراك والعرب واستمرت أربعة قرون كاملة (١٥١٧ إلى ١٩١٧) وتحقق للنفوذ الغربي أن يضع يده على هذه المنطقة جميعاً بعد أن طوقها منذ القرن الخامس الميلادي ، وكانت الدولة العثمانية خلال معركة التطويق هي القوة الصامدة الوحيدة في مواجهة مخططات السيطرة ، ومن ثم فقد سقطت الأمة العربية جميعاً عام ١٩١٨ تحت النفوذ الغربي استعماراً عسكرياً (بالاحتلال) وسياسياً (بالمعاهدات) وثقافياً (بالتغريب) وهكذا بعد عام ١٩١٨ نهاية مرحلة وبدأ مرحلة .

نهاية مرحلة الاستعمار وبدأ مرحلة التغريب والغزو الثقافي في طريق تحويل الأمة العربية والثقافة العربية والفكر الإسلامي عن قيمه ومفاهيمه وإخضاعه للفكر الغربي والعمل على احتوائه والذوبانه في الأممية والعالمية وإخراجه عن مقوماته الأساسية وطابعه الذاتي ، وهي خطة بدأ النفوذ الغربي تنفيذها في مرحلة الاستعمار حتى ليصح القول بأن الحملة الفرنسية هي علامة بدأ النفوذ الغزو العسكري ومقدمة الاحتلال الغربي ، بعد أن اكتملت مرحلة التطويق التي بدأها الغرب للعالم الإسلامي في أوائل القرن السادس عشر .

ويصح القول أيضاً بأن استكمال السيطرة البريطانية والفرنسية على الأمة العربية وإسقاط الدولة العثمانية هو استهلال مرحلة الغزو الفكري أو مقدمات تغريب الثقافة العربية والفكر الإسلامي .

(٢)

ولقد قاومت حركة اليقظة خلال مرحلة الاستعمار هذا التحدي مقاومة فعالة وواجهت خطوات الغزو الأولى واستطاعت أن تضيق دائرة النفوذ الغربي المتمثلة في حركة الشاميين الموارنة ومدرسة لطفي السيد وسعد زغلول ، ويمكن القول أن ثورة ١٩١٩ والنهضة التي تلتها على الصعيد السياسي والاجتماعي والفكري إنما كانت إحدى ثمار اليقظة متمثلة في قيادة الحزب الوطني ومدرسة محمد عبده

وما اتصل بها من جهود المفكرين والأعلام والباحثين الذين كانوا يرابطون الحركة الوطنية السياسية بأصول الفكر الإسلامي العربي ، لا تنحرف عنه ولا تنفصل ، وحيث كان دعاة التغريب والانفصال من مثل رجال حزب الأمة وفي مقدمتهم لطفي السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمي لا يجدون من يؤيد فكرتهم أو يرتضيها إلا من تابعهم من الحريصين على تسنم القيادة السياسية . وأن مقارنة يسيرة بين عمل هؤلاء الذين تسنموا هذه القيادة بعد الحرب العالمية وبين تضحيات محمد فريد وأصحابه تكفي لكشف وجه الحق ، ولبين الفارق البعيد بين العمل المثل الأعلى والكفاح الوطنية الصادقة وبين دعوة المبطلين أولياء النفوذ الاستعماري ، وقد أقر سعد زغلول بذلك راغماً حين قال عام ١٩٢٣ :

« لست خالق هذه النهضة - لا أقول هذا ولا أدعيه - بل لا أتصوره ، وإنما نهضتكم قديمة وللحركة العرابية فضل فيها ، وكذلك للسيد جمال وأتباعه وتلاميذه أثر كبير ، والمرحوم مصطفى كامل فضل غزير أيضاً ، وكذلك المرحوم محمد فريد » وما كان له أن يقول غير هذا ، ولو قال غيره لكذبه التاريخ .

غير أن الواقع يشهد أن النفوذ الاستعماري قد صفى القوى الوطنية السياسية قبل الحرب العالمية الأولى بالنفي والسجن وغيرهما ، وبذلك مهد الطريق لمدرسة حزب الأمة لتولي القيادة السياسية والفكرية بعد الحرب وحق لنا أن نقول إن القوى التي تعد نفسها لتسلم السلطة السياسية قبل الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ هي التي لم تواجه هذه السلطة من بعد ، فلقد أعطى الاحتلال البريطاني لأتباع مدرسة كرومر بعد الحرب العالمية الأولى مقادة الأمور فمضوا على الطريق الذي رسم لهم : بناء نظام سياسي غربي مطابق الأنظمة (الليبرالية) دون تقدير لصـــلاحية هذه الأنظمة للأمة أو فسادها .

ولم يكد يمضي بضع خطوات حتى ظهر أن الأمر لم يكن أكثر من خلاف ظاهري ، فدستور (٢٣) ثوب فضفاض كما قال عنه أحد واضعيه عبد العزيز فهمي . ولم يستطع الدستور أن يحمي النظام البرلماني القائم على الاستفتاء ، بل كان من حق الاحتلال إسقاط الوزارات وتولية وزارات أخرى من غير استفتاء شرعي .

ولقد كان الدستور غربياً ، فكراً وعملاً ، وكان أعضاء لجنة الدستور بعيدين عن الروح الوطنية والروح العربية الإسلامية أيضاً ، وكانوا في الأغلب من تلاميذ حزب الأمة ، وقد قامت الانتخابات على الزيف ، وتشكلت البرلمانات على النحو الذي يحقق رغبات الاحتلال مرتبطاً مع القصر ، بعيداً عن تطلعات الأمة إلى تحقيق العدل الاجتماعي أو تحرير البلاد من نفوذ الاستعمار السياسي والاجتماعي والفكري .

كانت فترة الاحتلال من خلال المنهج الذي رسمه كرومر قد نمت هذه الطبقة وأعدتها للتحرك من

خلال مفهوم الاستعمار سياسياً وثقافياً . وكان كرومر قد رسم المخطط الذى يعد على أساسه (المصرى المتفرنج) الذى سيتسلم حكم بلده ، وقد وضع هذا المخطط موضع التنفيذ بمجرد وقوع ثورة ١٩١٩ وأعلى من قدر هذه الفئة التى تجمعت فى أواخر الحرب العالمية وشكلت الوفد ، وذلك باعتقالها ونفيها من البلاد ، وذلك خلقاً لطابع البطولة لها والارتباط بها . ثم بدا كيف أن الجماعة قد انقسمت على نفسها ، حيث أخذ سعد زغلول وبعض مؤيديه جانباً وأسمى هو باسم الوفد صاحب الأغلبية . وشكل المنقسمون عليه حزباً آخر هو حزب الأحرار الدستوريون .

وقد كان واضحاً أن حزب الوفد هو حزب الأغلبية الشعبية الوطنية الذى تجمعت فيه الأمة ، بديلا للحزب الوطنى ، ولكن على غير طريقته ، فقد كان سعد زغلول من خارج نطاق حركة اليقظة وإن اتصل بالشيخ محمد عبده ، ذلك أنه كان من داخل الدائرة الضيقة الجديدة التى صنعها الاستعمار فى حزب الأمة منذ عام ١٩٠٧ حتى هيأها للزعامة بعد الحرب ، وكان سعد قد أعد إعداداً خاصاً هو وزميله لطفى السيد فألقى إلى أولهما مقاليد (نظارة المعارف) وألقى إلى ثانيهما مقاليد الثقافة العامة تحت لواء (الجريدة) .

ثم تحول الموقف من بعد ، فولى لطفى السيد شئون الجامعة المصرية منذ تسلمتها الحكومة عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٤١ تقريباً بينما تصدر سعد زغلول الحركة الوطنية والزعامة الشعبية . ومن ثم أصبحت الزعامة الشعبية كلها دائرة فى فلك مفاهيم كرومر التى تبناها حزب الأمة ، وإن اختلاف سعد والأحرار ، فقد كان الخلاف خارجاً عن دائرة هذه المفاهيم الأساسية المعترف بها بين الجميع ، وهى التحرك من داخل فكر كرومر .

وقد أطلق على المدرسة جميعاً بعد الحرب وثورة ١٩١٩ « مدرسة سعد زغلول » بحسبان أنه الزعيم الأول المتصدر ، والذى تفرقت الزعامات وشكلت أحزابها من بعد منبثقة من تشكيله الأول ، وفى خلال هذه الفترة (ما بين الحربين) وإلى مدى أبعد حتى عام ١٩٢٥ كانت مدرسة سعد زغلول هى التى تحكم مصر باليقين ، كان الزعماء والوزراء يختلفون فى الفرعيات ولكنهم كانوا جميعاً أولياء الثقافة الغربية وتوابع النفوذ البريطانى ، وقد تخرجوا - على حد تعبير فتحى رضوان - من المدرسة الزغلولية التى نادت بأن الإنجليز خصوم شرفاء معقولون ، ورفضت لبان الوطنية التى تقوم على منابذة الغاصب ، والتى كانت الحزبية وصراعها مقدماً عندها عن حقوق الوطن جميعاً ، وهى مفاهيم تختلف اختلافاً جوهرياً مع مفاهيم الحركة الوطنية الأصيلة التى سحقها النفوذ الأجنبى وذلك إعلاءاً لرجاله . وقد جاء المثقفون الذين درسوا فى أوربا فعملوا أولياء لهؤلاء الزعماء وكتاباً لهم وأتباعاً ، وقد آثروا الانتماء إلى حزب الأحرار الدستوريين ، صاحب الولاء الظاهر للإنجليز والخصومة لسعد زغلول وحزبه .

ولقد كان الخلاف واضحاً ، وكان طه حسين من أشد الكتاب هجوماً على سعد زغلول ، ولكن هذا الصراع لم يكن يتجاوز حدود المطامع والنفوذ ، أما بالنسبة المفاهيم الثقافية والاجتماعية والسياسية فقد كان الجميع على إتفاق تام بشأنها على النحو الذى رسمته الجريدة إستمداداً من تقارير كرومر ، وكان سعد زغلول بعد لطفى السيد (بعد الحرب) هو القوام على هذه المفاهيم ، فهو الذى رسم المخططات الخاصة بضغط مدارس تحفيظ القرآن ، وتغليب اللغة الانجليزية على التعليم ، وإعلاء مفاهيم الليبرالية ، والفلسفات السياسية الغربية المرتبطة بالدستور والبرلمان .

وكان سعد زغلول خريج الأزهر قد تحول تدريجيا إلى سياسى متفرنج يوالى مفاهيم لطفى السيد ويتبناها .

(٢)

أما « مدرسة التغريب » فقد وجدت الجو أمامها مهيئا بصورة أشد قدر وأكثر إتساعاً للعمل ، بالتنظيم مع سادتهم المستشرقين ، وأصدقائهم المبشرين ، وكانت جريدة السياسة لسان الأحرار الدستوريون أكبر هذه التجمعات ، بل كانت هى وكر التغريب الذى تجمع فيه : طه حسين وهيكل ومحمود عزمى وعلى عبد الرازق .

وكان العقاد فى معسكر الوفد ، ولكنه كان على نفس الطريق حيث كانت جماعة السياسة توالى الثقافة الفرنسية ، كانوا فى نفس الوقت يوالون السياسة الانجليزية ولم يكن على الانجليز من بأس أن تنشر السياسة كل ما يقدمه الأدب الفرنسى من قصص مكشوفة ، أو فكر متحلل ، فإن الهدف واحد ، والطريق يوصل إلى الغاية المهم أن الفكر الغربى يرسخ ويشيع ، والمذاهب المنحرفة تذاع وتنشر ، والفكر العربى الإسلامى يضطرب ويهتز تحت هذه الضربات ، وآية ذلك أن العقاد وهو فى معسكر الوفد وطه حسين فى معسكر الأحرار الدستوريين خصم الوفد ، يقف العقاد ليؤيد طه فى أمر كتاب الشعر الجاهلى ١٩٢٦ ولا يرى الوفد بأسا فى ذلك الانحراف ، ولم يلبث العقاد أن أيد طه حسين مرة أخرى عام ١٩٢٩ على ما كان بينهما من خلاف وكراهية .

ذلك أن الأحزاب جميعاً كانت تختلف فى كل أمر إلا فى أمر التبعية للفكر الغربى والولاء للنفوذ البريطانى

ومن ذلك كان التحول من حزب إلى حزب ومن صف إلى صف أمر هين ويسير . فقد تحول العقاد من الوفد إلى خصومه ، وتحول طه حسين من الأحرار إلى الوفد ، وبعد أن هاجم العقاد محمد محمود سنوات بأقذع الألفاظ يعود فيمدحه بشعر رائع ، ويهاجم طه حسين سعد زغلول بأقسى العبارات ثم يعود فيصفه بأنه أعظم الزعماء .

وبالجملة فقد حمل حزب الأحرار الدستوريين لواء الدعوة إلى التغريب واضحة صريحة ، فقد كانوا منذ الانقسام قد عرفوا بولائهم الصريح لبريطانيا ، ومتابعتهم منهج حزب الأمة ولطفي السيد الذي أصبح بعد الحرب من رجال الأحرار الدستوريين ، أما الوفد فقـــد كان يخفي مواقفه في هذه الميادين خشية أن تتأثر شعبيته ، فقد حاول أن يحافظ على الأغلبية الضخمة بالصمت في القضايا التي أثارها التغريب على مسرح جريدة السياسة .

بل إن الجامعة المصرية كانت في دائرة نفوذ حزب الأحرار دوما (لطفي السيد مديرها وطه حسين عميد كلية الآداب) ثم إمتد هذا النفوذ إلى وزارة المعارف أيضاً ، وأخشى أن أقول إلى الأزهر الشريف فقد كان المراغي من حزب الأحرار أيضا .

وقد كشف المثقفون الذين عادوا من أوربا عن هويتهم وهدفهم حين انضموا إلى حزب الأقلية (الأحرار) وجعلوا منه منفذاً لهدفهم حتى إذا تحول الأحرار الدستوريون نحو الاتجاه إلى إرضاء الجماهير والتخفيف من حملات الإلحاد والاباحية التي حمل لواءها علي عبد الرازق وطه حسين ومحمود عزمي . بدأ ذلك بالدفاع عن الإسلام إزاء حملة التبشير عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٣

في هذه الفترة ، وفي خلال الصراع الحزبي ، إرتأى طه حسين أن ينقل خططه إلى مجال أكبر ، ونفوذ أوسع، هو حزب الوفد ولم يكن طه حسين الذي ظل سنوات طويلة ينقد الوفد ويهاجم زعماءه (منذ ١٩٢٢ تقريباً إلى ١٩٢٤) راغباً في الوفد نفسه ولكنه أراد أن يركز نفوذه في الصحافة والجامعة في بيئة أكثر قوة وأكبر حماية له ، ومن الحق أنه استطاع بذلك أن يشرف على وزارة المعارف والجامعة جميعاً وأن يسيطر على المناهج الدينية وأن يدس فيها الكثير ، وأن يرد اعتباره طريداً من الجامعة ومتهماً فوق منبر البرلمان بالإلحاد من الغالبية وإذا هو الكاتب الأول لحزب الأغلبية، ومنافس العقاد في هذا النفوذ .

(٤)

كانت خطة الكتاب المتصدرين للثقافة والفكر في كلا المعسكرين : الوفد والأحرار ، وأولياء كلا الثقافتين : السكسونية واللاتينية (أو الانجليزية والفرنسية على وجه أصح) أن يجردوا الأدب العربي من قيمه الأساسية وخاصة القيم الأخلاقية المرتبطة به والدعوة إلى التحرر الكامل من القديم والنظر إلى التراث نظرة الاحتقار ، والتعرض لإذاعة ونشر أسوأ صفحاته . أمثال بشار وأبو نواس المضحاك وغيرهم وإعلاء القيم الفنية على القيم الأخلاقية والاجتماعية وهذه خطة اتفق عليها حلفاء كرومر وحزب الأمة جميعاً .

وآية ذلك أن حركة التبشير التي إندلعت عام ١٩٣٢ لم تثر هذه المدرسة ولم تزعجها ، ما عدا الدكتور هيكل الذي بدأها كحركة لحزبه المعارض مع حكومة صدقي ، ولكنه في الأغلب يكون قد

تأثرها تأثراً تحول به عن مفاهيم التغريبيين ، فكانت منطلقاً لانكسار هذه الموجة العاتية ، فقد تبعتها مواقف من منصور فهمى وزكى مبارك فى مجال الإسلام ومحمود عزمى والمازنى فى مجال الوحدة العربية .

وربما كان ذلك تشكلا جديداً لحركة التغريب التى لم تعد أن تقف موقف الهجوم والخصومة ، وحاولت إعادة النظر فى مخططاتها على أساس إخفاء الشبهات وإظهار طابع التقرب الجماهير بترديد ما يرضيه ، ومن ذلك تحول طه حسين إلى كتابة هامش السيرة الذى مهما قيل فى أخطائه وأخطاره فقد كان فى ظاهره مرضياً للطبقات الشعبية حيث أن طه حسين صاحب الشعر الجاهلى قد عاد إلى التحدث عن الإسلام والرسول .

ومهما يكن من شىء فقد كسبت (اليقظة) انطلاقات جديدة من معسكرات خصوم الإسلام والعروبة ، فقد أنكر محمود عزمى الدعوة الفرعونية ودعا إلى الوحدة العربية ، وتحدث هيكل عن محمد والامبراطورية الإسلامية ، وأنشأ توفيق الحكيم قصة عن النبى ، ومهما قيل فى تحليل هذه الكتابات ودوافعها وانحرافاتها الدقيقة الخفية ، وأنها كانت محاولة لطرح مفاهيم مضطربة إزاء ارتفاع موجة اليقظة الإسلامية بإنشاء جمعية الشبان المسلمين وظهور عديد من المجلات الإسلامية ، مهما قيل فى هذا فإن حرب الإسلام والعروبة ، تلك الحرب الظاهرة العاتية قد انكسرت موجتها .

ولكن هذه الحركة التى لبثت فى معسكر التغريب لجأة بالاتجاه إلى الإسلام والعروبة ، إنما كانت تخفى أخطاراً شديدة . فهى تريد أن تسحب الزعامة الفكرية من أيدى الدعاة الجدد الأصلاء الذين يستمدون مفاهيمهم من خط متصل بحركة اليقظة وبجوهر الإسلام الأول ، تحت تأثير الأسماء اللامعة التى تحمل لواء الكتابة الإسلامية والعربية طه حسين ، هيكل ، توفيق الحكيم ، منصور فهمى ، المازنى .

ولكنها كانت فى نفس الوقت تصر على أن تقول إن الإسلام دين لاهوتى ، ولا تقر له بالرأى فى مسائل السياسة والاجتماع والتربية ، وهى تنظر إلى التاريخ الإسلامى من خلال المناهج الغربية ، كما تنظر إلى الأدب العربى من خلال المذاهب الأوربية ، ولا تحاكم الأدب العربى أو التاريخ العربى إلى مناهجه الأصيلة ، وهى فى هذا كله تريد أن تفرض على الإسلام إطاراً من الفكر الغربى فتحتويه داخله وتنحرف به عن هدفه ، وتتحكم فيه وفق أسلوب (العلمانية) المنكر للجوانب الروحية المرتبطة بالنواحى المادية فى الإسلام أساساً ، هذا فضلا عن الإطار الغربى للثقافة العالمية التى تريد أن تصور الإسلام والفكر العربى فى داخله .

ومن هذا فإن تبعة حركة اليقظة كانت أكبر وأشد ، وكان عليها أن توجه النظر إلى هذا الخطر .

تحت تأثير الأسماء اللامعة التي أخذت تكتب عن الإسلام، وتعنى به وهي عناية لا تستهدف إلا إثارة الأساطير ومزجها بالسيرة والسنة النبوية المحققة الموثقة، أو تصوير الإسلام على صورة الأديان الأخرى، دينا لاهوتيا قائماً على العلاقة بين الله والفرد، داعياً إلى الرحمة والسلام، مع تجاهل وإنكار كامل لجوانبه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذا واضح جداً في كتابات هيكل وطه حسين.

(٥)

ولقد كانت جريدة السياسة وتابعتها السياسة الأسبوعية هي (مركز) الدعوة التغريبية، بالإضافة إلى المجلة الجديدة لسلامه موسى، والمصور لإسماعيل مظهر، وقد سقطت هذه المجلات الثلاثة في أوائل الثلاثينات وحلت بدلا منها صحف الفتح والرسالة والأزهر والشبان المسلمين، وقد كشف طه حسين في أكثر من حديث أن الصفحات الأدبية في الصحف السياسية لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما كانت وسيلة لكسب القراء، الذين يصبحوا أولياء لهذا الحزب أو ذاك.

وقد استغل طه حسين هذا المفهوم فكان ينشر صفحتين أدبيتين: إحداهما (يوم الأربعاء) يتحدث فيها عن سوءات الشعراء الإباحيين أمثال بشار وأبي نواس وغيرهم تحت عنوان (حديث الأربعاء) والثانية يوم الاثنين حيث يترجم فيها أخبث القصص الفرنسية الفاجرة المكشوفة. ومن دائرة جريدة السياسة ظهر كتابان هاجما القيم الإسلامية العربية هجوماً عنيفاً هما:

الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق.

الأدب الجاهلي لطه حسين.

وفي كلا الموقفين اللذين أحدثا ضجة كبرى، فقد وجدا من حزب الأحرار ومن الحكومة سناداً وحماية بحيث لم يتعرض صاحبا الكتاب لخطر ما، أما علي عبد الرازق فقد أعيد إليه اعتباره بعد سنوات قليلة من فصله من الأزهر وعين وزيراً، أما طه حسين فقد ارتفعت مكانته ولم يلبث أن عاد إلى الجامعة مرة أخرى ثم أصبح وزيراً أيضاً.

ولكن حركة اليقظة لم تتوقف عن أن تطارد طه حسين في كل عهد على مدى سنوات طويلة ١٩٢٦، ١٩٢٧، ١٩٣٢، ١٩٣٩ وارتفع الصوت تحت قبة البرلمان بمعارضة آرائه في مختلف كتبه: الشعر الجاهلي، حديث الأربعاء، مستقبل الثقافة.

وكشفت أغراضه ودوافعه بوضوح كامل حتى لم يعد أحد يشكك في هويته، ولكنه كان إذا أقصته حركة اليقظة وطوحت به لا يلبث أعوانه وحماته أن يعيدوه مرة أخرى، وكان لهم في ذلك أساليب متعددة.

ومن أروع هذه الأساليب تحول طه حسين فجأة من صفوف حزب الأحرار الدستوريين إلى صفوف الوفد وهي النقلة البارعة استطاع بها أن يجد سناده من خلال التجمعات الشعبية الضخمة التي تحمي ظهره ، والدفعة إلى الأمام في الطريق الذي رسم له .

ولقد تابع هو هذه الخطوة بخطوة أخرى هي كتابه (على هامش السيرة) الذي خدع كثيراً من البسطاء والأغرار ، فأعاد له الثقة في بعض النفوس جرياً مع الدعايات التي كانت تقول إن طه حسين عاد مسلماً وأنه يكتب في السيرة بأسلوبه البارع ، والواقع أن طه حسين كان يحاول أن يجدد الثقة به بخدعة جديدة ليستطيع مواصلة عمله في مجال التغريب ، ولكن أمراً واحداً قد فضح ذلك الموقف وكشفه ، ذلك هو الانفصال الذي وقع بينه وبين الدكتور هيكل رفيقه في الرحلة الطويلة إمع جريدة السياسة وحزب الأحرار الدستوريين ، فقد حدث في نفس الوقت تحول غريب في اتجاه هيكل عندما ثارت ثائرة حركة التبشير الغربي في مصر وحمل لواء مقاومتها واتجه في ظلها إلى كتابة (حياة محمد) وهنا وقع الخلاف بينه وبين طه حسين ، وافترق الطريق وحمل هيكل على المستشرقين والمبشرين ، وعارض ما كان موضع الاتفاق بين الرجلين .

وهنا لم يسلم هيكل من غمزات طه حسين ، ولكن هيكل كشف موقف طه حسين في كتابه هامش السيرة فأشار إلى أن هذا العمل هو من أبعد الأعمال خطراً في مجال التغريب لأنه يعرض السيرة النبوية إلى أخطار الشبهات التي تتصل بالأساطير ، أما موقف العقاد فقد كان غريباً إزاءه - في حدثين من أكبر أحداث معاكة طه حسين عام ١٩٢٦ وعام ١٩٢٩ - دافع عنه وكأنما كان يدافع عن كل (فكره وأهدافه) .

وفي مجال وزارة المعارف مضى طه حسين فأشرف على البرامج وأحدث فيها آثاراً خطيرة ، في متابعة خطة دنلوب وتأكيدها . وفي الجامعة فرض طه حسين تعلم اللغتين اللاتينية واليونانية على طلاب كلية الآداب دعماً للأدب اليوناني الإباحي الوثني ، وإذاعة به .

وكان طه حسين وسلامه موسى ومحمود عزمي وعلى عبد الرازق واسماعيل مظهر يعملون في حقل واحد هو حقل (التغريب) ولكنهم كانوا يعملون متفرقين ، وكان الصراع بينهم شديداً ، فقد كان كل منهم له ولاء خاص ولكنهم تركوا في نفوس الشباب كثيراً من الشبهات .

(٢)

من خلال الأحزاب التي تشكلت في هذه الفترة (الوفد - الأحرار - الاتحاد - الشعب - السعديين) ومن خلال القيادات التي حكمت : (سعد زغلول - عدلي يكن - ثروت - محمد محمود - لطفي السيد - عبد العزيز فهمي) كان هناك (منهج) واضح صريح ، قوامه (صورة) ترضى عواطف الشعب وتكسب إعجابه وترضى نوازعه الدينية متمثلة في الاهتمام بالمناسبات الإسلامية ، وصلاة الجمعة ، وهي مسائل سياسية محضة ،

أما فى داخل أنظمة الأحزاب ودوائر الحكم فإن الأسلوب الغربى كان هو المسيطر ، اللغة الفرنسية هى اللغة الغالبة وهى اللغة الدبلوماسية ، وجريدة السياسة وكتابها فرانسى الثقافة يوالون النفوذ البريطانى ويناصرونه ، ويؤيدونه ، وطه حسين يرعى الثقافة الانجليزية ويعلن أنه لا يفرق بين ثقافة وثقافة وأنه يفتح الأبواب لكل الثقافات ويشيد بكتاب حافظ عفيفى من الانجليز .

(٦)

فإذا انتقلنا إلى الصراع الحزبى السياسى وجدناه هو أبرز ما شغل الصحافة خلال هذه الفترة ، وهو صراع حاد عنيف تحشد له الأساليب والعبارات ، ويجرى وفق منهج ردىء من الهجاء والسباب ولقد كان العقاد معروفاً عند حزب الوفد بأنه أقدر الكتاب فى هذا المجال ، وكان طه حسين فى مثله درجته عند حزب الأحرار ، ولقد استمر الصراع عنيفا ، وتركز حول سعد زغلول ، كما تركز حول عدلى ، وثروت ، من الناحية الأخرى ، وشارك فيه توفيق دياب وعباس حافظ وحافظ عوض وعبد القادر حمزة ، وكان الخلاف دائماً ، والصراع حول المغانم والمطامع ، ولم يكن حول فكرة أو هدف ، فلم تكن الاحزاب تختلف حول حق مصر وقضيتها بقدر ما كانت تختلف حول مغانمها .

ولقد هاجم العقاد محمد محمود ولطفى السيد ثم عاد فمدحهم .

يقول العقاد عن لطفى السيد : بقى الأستاذ الفيلسوف الذى لا يستقيم فى رأسه فكر والذى لم يتول عملا قط إلا كان فيه آلة لمرؤسيه أو لعبة لمسخريه والذى لم يفلح قط فى عمل تولاه ، ولم يكن تاريخه كله إلا خيبة بعد خيبة وأضحوكة وراء أضحوكة ، وادعاء يتلوه ادعاء ، والذى لا تعرف لماذا هو أستاذ ولماذا هو فيلسوف (الخ) ثم يعود العقاد فيقول عن لطفى السيد مع القائلين أنه « أستاذ الجيل »

ويهاجم طه حسين « سعد زغلول » فى عشرات من المقالات أقذع هجاء تحت عناوين مختلفة : (ضعاف ، بغاة ، مساكين أصحاب سعد) .

ويقول : أمثال سعد يظهرون فى أول عهد الأمم بالنهوض ، ليس سعد رجل ثورة وليس هو رجل حديث ، وإنما هو ثائر سريع الحركة مدمور يقوى إن ضعف خصمه ، ولو أن سعداً آثر الصدق والاخلاص على الشعوذة والتضليل لوصل إلى ما كان يطمع فيه من مجد دون أن يتعرض لهذا السقوط .

فلما تحول طه حسين إلى الوفد قال :

رحم الله سعداً ، لقد أيقظ مصر ثم عاهدها على أنه سيحول بينها وبين النوم عن الحق ، ولقد وفى لها بعهده حياً وهو يوفى لها بعده ميتاً وليس الوفد اسماً ولا لفظاً وإنما الوفد قوة حقيقية قائمة يستطيع كل إنسان أن ينظر إليها وأن يمتحنها .

ومثل ذلك عند كل الأدباء الذين يقلبوا بين العهود والأحزاب ، ولم تكن هذه المعارك إلا لوناً من الهجاء الذى يصل أحياناً إلى أقصى درجات الاقذاع والذى كان يطول أياماً ويستمر ، ويدور حول شخصيات الزعماء ومواردهم ويكشف عن ضعفهم وفسادهم .

وقد امتد هذا الجدل السياسى إلى الأدب فلم يكن فى هذه الفترة إلا امتداداً للسياسة وقد حمل فى معاركه أساليبها فى الهجاء والإقذاع .

• • •

ولم تكن السياسة : من خلال الأحزاب والحكومة إلا وعاءاً لتلك الحركة التى كانت تجرى فى وزارة المعارف والجامعة وعن طريق الصحافة لتأريث (التغريب) وتركيز قواعده .

وينكشف هذا بوضوح فى تلك الصيحات التى كانت ترفعها حركة اليقظة من خلال البرلمان ، وكيف كانت تخمد فى سرعة ، وتتهم بالرجعية ، وكيف كان دعاة التغريب يزدادون قوة وانطلاقاً بين ما يذيعونه فى الصحف وما فى الجامعة وما يعدونه من مناهج فى التعليم ، فإذا جاء الصيف دعتهم المنظمات المختلفة إلى مؤتمرات تحتويهم لتجدد خططهم ومفاهيمهم ، وليعودوا لينفذوا سمومهم مرة أخرى

وحين علت الدعوة إلى الوحدة العربية ، تصدرها دعاة التغريب لينحرفوا بها عن مفهومها الأصيل ، والدكتور محمود عزمى داعية الفرعونية يسارع إلى اعتناق العروبة ولكن لا يلبث أن يقول إن الأمة العربية من ثلاث مناطق : الصحراء (الأردن والحجاز) والمغرب (بأقطاره) وسوريا والعراق ومصر وبين المناطق الثلاث درجات فى التفاوت واختلافات فى المذاهب وفى الآراء .

(٧)

ووقف طه حسين من الوحدة العربية (كما وقف من الإسلام من قبل) موقفاً معادياً ، فقال أن مصر فرعونية وستظل فرعونية (وكان إذ ذاك يحتمى فى حزب الأحرار الدستوريين) ويتكلم فى عنف وحماسة وكان رد الفعل أن حرق الشباب فى دمشق مؤلفاته فى ميدان عام وجاء فى جريدة المقطم ٦ سبتمبر ١٩٣٣ من دمشق أن أعضاء اللجان الأدبية والجمعيات الثقافية فيها اجتمعوا ودرسوا مقال طه حسين (دائرة) الذى جاء فيه .

(خضع المصريون لضروب من البغى والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضاً)
وأنهم قرروا إحراق كتب طه حسين لأنه واحد من الذين يهاجمون أمر العرب ويصغرون من شأنهم ويرفعون الصوت بالدعوة التى يكرهونها من الكراهية ألا وهى الفرعونية .

وتابع الدكتور طه ما ادعاه (بول كازانوفا) من تحريق العرب لمكتبة الإسكندرية ونشر تقريره الضاف فى السياسة الأسبوعية على صفحتين كاملتين بعد أن ترجمه وعلق عليه بأسلوب ساخر شاك مليء بالكراهية للاسلام والحقد للعرب .

وما قال : ما الذى يمنع أن تكون هناك عدة كتب تحرقت أثناء فتح الاسكندرية دون أن يكون عمر قد أمر بتحريقها ودون أن يكون عمر قد أحدث هذا التحريق !

ومع أن بعض المؤرخين الغربيين المنصفين قد دافعوا عن العرب ونفوا عنهم التهمة بقوة فإن طه حسين وقف فى صف خصومهم وجارى فرية المستشرقين .

(٨)

وكانت الدعوة إلى الإقليمية الضيقة من أخطر الأسلحة التى حمل لواءها قادة التغريب ودعاتها
السياسة الحزبية والحكومة بكل ما يتصل بها من انكار اللغة العربية والقيم الإسلامية .

وكان أقسى ما واجهته حركة التغريب تلك الدعوة إلى الشريعة الإسلامية وتصحيح الرأى فيها بعد أن هاجمها القائلون بأن القانون الغربى أوفى بحاجات المجتمع ، والأنظمة السياسية الليبرالية أو الديمقراطية الغربية أوفى بحاجات الأمة ، وذلك فى ولاء واضح للفكر الغربى وموالاة تامة للغرب فى أنظمته وثقافته وتنكر شديد للفكر الإسلامى والثقافة العربية وما يتصل بها من لغة وتاريخ وتراث .

(٩)

وقد كان للامتيازات الأجنبية دورها الضخم فى فرض القانون الغربى على أنظمة الحكم والسياسة والاجتماع ، وذلك لحماية المؤسسات التبشيرية ومعاهد الإرساليات التى كانت من أهم ما أثيرت حوله ضجة الدول الفرنسية والإيطالية عندما وقعت معاهدة ١٩٣٦ وأخذت مصر فى نظام بديل لهذه الامتيازات ، واكتشفت الدراسات التى تمت فى ذلك الوقت أن أبرز ما أولى الاهتمام فى إتفاق مونترو هو حماية الثقافة الفرنسية على العموم . يقول التقرير : إن فرنسا تحتل مركزاً متفوقاً فى مصر من الوجهة الثقافية وقد عادت الامتيازات على بلادها بمهمة ترمى إلى نشر السلم والعدالة ، تلك هى مهمة فرنسا فى عهد الملكية أو الامبراطورية أو الجمهورية ، فلم تهملها فى وقت من الأوقات وقد

اكتسبت لغتنا من وراء ذلك منزلة عظيمة ثم بين السير ديغنر أهمية التعليم الفرنسي (في مصر) الذي يضم ٤٢ ألف تلميذ وقال إن اللغة الفرنسية تدرس في المدارس المصرية .

وأضاف إلى ما كتبته السيدة نظلة الحكيم في جريدة الأهرام من أنه إذا ألغي التعليم الفرنسي في مدارس البنات فإن العائلات لن تتردد في إرسال أولادها إلى المدارس الفرنسية ، وأشار إلى أن الحكومة المصرية مستعدة لأن تعترف بأن المعاهد القائمة والمدارس إنها تستطيع أن تواصل نشاطها بحرية إلى حين عقد اتفاق فيما بعد » .

(١٠)

وركز التغريب كثيراً على (كلية الآداب) لدورها الخطير في إحلال مفاهيم الغرب في مجال الأدب واللغة والتاريخ . ويكشف (توفيق الحكيم) أهمية الجامعة في هذا المخطط حين يقول : كان المفهوم عند إنشاء الجامعة المصرية أن يقام في مصر هيكل للفكر الحر يعنى بشئون التعليم والفكر مطلقة من كل قيد فإذا كانت فيه الأزهر تظل بحوثها الغالب الجار العامر بالإيمان فإن فيه الجامعة يجب أن تظل بحوثها العقل الحر مجرداً من كل اعتبار » .

ولم يمر هذا السم الناقع دون أن يجد رده ودحضه من أمثال السيد محب الدين الخطيب الذي يقول في رده على توفيق الحكيم :

والجامعة المصرية وكل جامعة في الدنيا مطالبة في البيئة التي نشأت فيها بأمرين اثنين :

أولهما أن يتنزه القائمون بها عن كل موجدة نحو دين البلاد ومقدساتها وحقوقها فلا يتخذوا من البحث العلمي وحرية الرأي وسائل لتوهين رابطة النشء المثقف بدينه وقوميته ومقدساته ، ولاسيما إذا كان دينهم صديقاً للعلم وداعياً إلى الحق وآخذ بين المعرفة بنشطها ويرفع مقامها .

وفي مصر أناس أعرفهم بأعيانهم وأعرف أنباءهم بسيماهم لا يفتأون يعملون على توهين رابطة النشء بالدين وتهوين أمره عليهم وتشكيكهم فيه وتنفيرهم منه وما فتئوا يحاولون إقناعهم بأن الحقائق تخالفه وأنه واقف حجر عثرة في طريقها والواقع أنهم لم يتجردوا من مؤثرات بيئتهم إلا ليتأثروا بمؤثرات بيئة أجنبية عنهم ولم تتحرر أفكارهم من قيود التقاليد الإسلامية إلا ليصفدوها بأغلال تقاليد أخرى غريبة عنهم » .

(١١)

وخلاصة ما نريد أن نصل إليه في هذا المدخل هو :

(أولا) إن الأحزاب السياسية المصرية جميعاً والمنبثقة أساساً من مدرسة حزب الأمة بقيادة لطفي السيد قبل الحرب وبزعامة سعد زغلول بعد الحرب كانت تصدر عن مفاهيم الفكر الغربي والولاء البريطاني ، وبالرغم من اختلافها في أشياء كثيرة فهي لم تكن تختلف في هذا المنطلق الأساسي .

(ثانياً) حمل حزب الأحرار الدستوريين — والتحق تحت لوائه كل دعاة التغريب — لواء الدعوة إلى إخراج الإسلام من الفكر والتربية والمجتمع جميعاً وكانوا بالرغم من ثقافتهم الفرنسية على ولاء صريح لبريطانيا ومتابعة لمنهج حزب الأمة ، أما الوفد فقد كان على نفس المفاهيم ولكنه كان يخفي ذلك وراء ستار المحافظة على شعور الأغلبية ، وآية ذلك تأييد العقاد لطه حسين في محنتي مواقفه التغريبية مرتين عام ١٩٢٦ وعام ١٩٢٩

(ثالثاً) عمل المثقفون العائدون من أوربا وراء ستار الاقليمية وجعلوا منها منفذاً لهدفهم الأصيل وهو التغريب ، وكانوا يعدلون موقفهم من الأحزاب بقدر ما يعينهم ذلك على الاستمرار في خطتهم وآية ذلك تحول طه حسين إلى الوفد

(رابعاً) إن المراجعة الدقيقة لتطور حركة التغريب تكشف عن أن المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى إنما كانت تمهيداً هيأ لها الأمور ، وزرع لها البذر الذي نما بعد الحرب وأينع ، وأزال من طريقها كل القوى والشخصيات التي كانت تحمل لواء حركة اليقظة وبذلك أعدت رجالها للسيطرة على النفوذ السياسي والحزبي والحكومي بعد الحرب .

وبقي رجال حركة اليقظة العربية الإسلامية في صفوف الشعب يدافعون عن آرائهم من مواقع الصحافة والبرلمان والجمعيات والهيئات الإسلامية والأدبية .

الفصل الثاني

حركة التغريب

(١)

لم تكن مرحلة ما بين الحربين منفصلة عما سبقها بل كانت مرتبطة بها ارتباط الأسباب بالنتائج ، والتدبير المعد المرتب لاستكمال حلقة السيطرة عن طريق الفكر والسياسة ، فقد كانت بريطانيا التي احتلت مصر تأمل في أن تصل إلى اعتراف بوجودها عن طريق جماعة تقبل هذا الوجود وترضى عنه كواقع لا بد منه ، وكأمر هو أصلح ما يكون تقبلا ورضا ، وقد ابتدع هذه الفلسفة كرومر وحمل لواءها وأنشأها لطفي السيد خلال سبع سنوات طوالا قبل الحرب العالمية الأولى دعوة وإعزازاً وتقبلا وكان في ركابه كثيرون في مقدمتهم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وغيرهم من جماعة حزب الأمة الذين كانوا مقتنعين فكرياً وواقعياً بالوجود البريطاني في مصر ، أسلوباً للحياة ، فقد كان وجودهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي قد تشكل أصلا في ظل هذا الوجود البريطاني وظل مرتبطاً به ، وذلك حين اختارهم الاحتلال قواعد له وخلائف فوزع عليهم أراضي الدائرة السنية وأقام منهم عمداً في بلادهم وزعماء وأعضاء في الجمعية التشريعية ومجلس شورى القوانين ، وأعلن كرومر بوضوح عن وجودهم حين قال : إنهم أصحاب المصالح الحقيقية وإنهم هم القوة التي التقت بالاستعمار في منتصف الطريق .

وكان هذا الإعداد بإعلاء شأن هذه الفلسفة التي كان يغلفها اسم (مصر المصريين) خداعاً وتضليلا وإلفات النظر إلى صراع وهمي بين المصريين من ناحية وبين العرب والمسلمين والدولة العثمانية بينما كان الصراع في الحقيقة بين المصريين والاستعمار بصفة عامة والاحتلال البريطاني بصفة خاصة .

ومن هنا ركز الاحتلال على العمل من أجل القضاء على القاعدة الوطنية التي قد تكونت وعمقت قواعدها واستمدت جذورها من مدرسة اليقظة الفكرية .

ولقد كانت آراء مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وجميع أبناء هذه المدرسة سليمة واضحة رابطة بين الوطنية والأمة والعقيدة ، وبين المصرية والعروبة والإسلامية في إطار واحد ، وكان مفهومها الفكري قائماً على الإيمان بالجذور والقيم الأساسية للفكر الإسلامي وفي كثير من النماذج

يبدو هذا المعنى واضحاً صريحاً ، ولذلك فقد حرص النفوذ الاستعماري على إضعاف أثر هذه المدرسة وإعلاء شأن مدرسة حزب الأمة ، حتى إذا جاءت الحرب العالمية الأولى كانت المدرسة الوطنية قد انقرضت أو ماتت فقد انفرط عقدها وهاجر أعضاؤها إلى الخارج هرباً من الاضطهاد حتى بانت الساحة الفكرية فى فراغ فاستطاع حزب الأمة ورجاله أن يحتلوها وأن يتألقوا فيها وأن يكونوا بعد الحرب العالمية الأولى هم زعماء الفكر والسياسة جميعاً (شأنهم فى ذلك شأن الاتحاديين والكماليين فى تركيا) .

وقد تولى سعد زغلول منذ عام ١٩٠٧ أعمال التربية والتعليم بوزارة المعارف ، كما ولى لطفى السيد منذ ١٩٠٧ أعمال الصحافة والفكر بجريدة الجريدة وحزب الأمة ، ومن ثم فقد تهيأت الفرصة فى مجالين من أخطر مجالات الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر تأهباً لمرحلة (التغريب) التى بدأت بعد الحرب العالمية الأولى ، ذلك أنه ما كادت الحرب العالمية تأذن بالانتهاء حتى كان الشعور الوطنى المصرى الذى كونه الحزب الوطنى قبل الحرب خلال عشرين عاما (١٨٩٣ — ١٩١٤) قد تفجر فى ثورة ١٩١٩ تحدياً للوجود البريطانى واندفاعاً إلى الحرية وفق مفهوم الترابط العضوى للوطنية المصرية بين طابعها العربى وفكرها الإسلامى ، وقد اختار النفوذ الاستعمارى زعامة أزهرية لرجل عرف بالبراعة فى مجال الخطابة والمحاماة ، وكان من دائرة النفوذ الفكرى الغربى ، جربه الاحتلال طوال فترة ماقبل الحرب ، وكان له دوره فى تأكيد اللغة الإنجليزية فى دوائر التعليم ودفاعه عن امتياز قناة السويس واستقباله لأول معتمد بريطانى بعد الحرب ومشاركته مشاركة فعلية فى الوجود الغربى البريطانى ، ذلك هو سعد زغلول ، امتداداً لمفاهيم حزب الأمة ومدرسة الجريدة التى قادها لطفى السيد .

وقد ظل سعد زغلول ولطفى السيد بعد الحرب العالمية الأولى وخلال فترة ما بين الحربين من أظهر الشخصيات ذات الأثر البعيد المدى .

أما سعد زغلول فقد رأس أضخم تشكيل وطنى جمع الأحزاب والسياسيين المصريين جميعاً باسم (الوفد المصرى) وقد انطبع هذا التشكيل بطابع الوطنية من داخل إطار الوجود الفكرى الغربى أساساً ، فلما تمزق الوفد إلى أحزاب ظلت هذه الأحزاب تتصارع دون أن تخرج عن الإطار الذى رسمه كرومر وانشأه حزب الأمة ، فقد كان الجميع سواء فى حزب الوفد أم حزب الأحرار أم أحزاب القلة تشكلت ، يسيرون وفق مفهوم لطفى السيد وسعد زغلول وفلسفتها المستمدة من الأصول والخطوط العامة التى رسمها كرومر وحمل لواءها حزب الأمة ، وكان حزب الأحرار الدستوريين أكثر هذه الأحزاب ارتباطاً بحزب الأمة .

وعن حزب الأمة ظهرت فلسفة التغريب التى نماها رجال حزب الأحرار : هيكل وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومحمود عزمى وغيرهم .

كان المفهوم أن مصر : مصرية إقليمية متحيزة ، مغلقة أمام العروبة أمة والإسلام فكراً ، وجود مصرى فرعونى الأصل متفتح على الفكر الغربى الليبرالى ، يؤمن بالوجود الغربى الفكرى ، وإن كان مظهره معارضاً للاحتلال البريطانى العسكرى السياسى .

لقد أصبح أصحاب هذا المفهوم هم أصحاب السلطان السياسى والحكومى والوزارى ، بينما ظل أصحاب المفهوم الأصيل المستمد من حركة اليقظة فى الصفح يمثلون عشرات من المؤسسات الشعبية فى الأزهر ودار العلوم والجماعات الأدبية والهيئات الإسلامية ، والصحف والكتب وطوائف دوائر الأحزاب نفسها التى كانت وطابعها السياسى يتبنى المفهوم الغربى أو تصدر عن المفاهيم العربية والإسلامية إرضاءاً للشعب ورغبة فى الاحتفاظ بالأغلبية الجماهيرية ، وإن لم يمتد ذلك سوى عشر سنين حتى بدأت حركات جديدة تأخذ مكانها وتصارع ذلك الوجود السياسى الحزبى ذى الولاء الغربى فكرياً ، الداعى فى الظاهر إلى الاستقلال ومعارضة الاحتلال البريطانى .

(٢)

غلبت نزعة التمصير على كل شىء وحاولت أن تحرف فى طريقها كل القيم الأساسية للفكر الإسلامى والثقافة العربية والوجود المصرى العربى الإسلامى . وهو اتجاه بدأ من قبل ثم تعمق ورفعه لطفى السيد منذ عام ١٩٠٧ ورفعه سعد زغلول منذ ولى شأن هذه الحركة عام ١٩٢٢ واتسمت به المدرسة السياسية سواء كانت باسم حزب الوفد أم باسم حزب الأحرار الدستوريون الذين انفصلوا عن الوفد وقادوا حركة التغريب فى جريدة السياسة فى مجال الفكر والاجتماع .

وبذلك كان سعد زغلول علماً على المفهوم السياسى للمدرسة الحزبية التى سيطرت فى مصر حتى الخمسينات مهما اختلفت أوضاعها وأسماؤها ، وكان لطفى السيد هو المهيمن فى مجال الجامعة التى تولى إدارتها منذ عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٤١ على فترات متصلة ومتوالية ، وكان رفيقه فى هذه الرحلة الدكتور طه حسين فى المجال الجامعى وجريدة السياسة فى مجال الصحافة والفكر حتى تحول الدكتور هيكل ١٩٢٣ (تحولا جزئياً لا جذرياً) فإن هيكل لم يصل إلى الإيمان إيماناً كاملا بمفاهيم مدرسة اليقظة الإسلامية وانكسر تيار هذه الموجة وإن لم يقتنه بالطبع .

وكان سعد يؤمن بنفس مفاهيم لطفى السيد ويتبناها ، وكان امتداداً لها فى المجال السياسى والحكومى (وهو تطبيق كامل الخطة التى وضعها لورد كرومر) وهو الانفصال الكامل عن مفهوم الفكر الإسلامى فى السياسة والمجتمع وتقبل الخطط الذى رسم كرومر المصرى المتفرنج الذى يحمل لواء القيادة السياسة بعيداً عن مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام محبوساً فى المفهوم الإقليمى المصرى الضيق وبعيداً عن أرضية الفكر العربى الإسلامى سواء فى التعليم أو المجتمع ، وقد سار الوفد فى نفس الاتجاه بحسبانه منشقاً عن حزب الأمة ، وبذلك كان يحمل لواء الجمع والمزاوجة بين الوطنية والإسلامية

معاً . هذا الحزب الذى استوصل وصفى قبل نهاية الحرب العالمية الأولى ، تمهيداً لإعداد فراغ واسع
لطرح هذا المفهوم على الحياة السياسية والفكرية

غير أن الحزب الوطنى والضمير الفكرى العربى الإسلامى الذى كان يتحرك فى مختلف نفوس وعقول المثقفين المصريين قد تبلور بعد الحرب العالمية الأولى واندمج فى الحياة الفكرية والاجتماعية وتشكلت مفاهيمه فى حركة يقظة الفكر العربى ، ويمكن القول أن القوة الحية التى كانت وراء الجمعيات الإسلامية والأدبية والاجتماعية والصحف والمجلات والكتب كانت فى الحق من تراث الحزب الوطنى وحزب المنار جميعاً ومن مفهوم حركة اليقظة التى تمثلت قبل الحرب فيهما .

فصحيفة الأخبار لأمين الرافعى وجمعية الشبان المسلمين وجملتها ورجالها الدكتور عبد الحميد سعيد والدكتور الغمراوى وعبد العزيز جاويش ومؤسسها الحقيقى محب الدين الخطيب (صاحب الفتح والمكتبة السلفية ، نواة اليقظة وإمام مدرسة الفكر العربى الإسلامى فى مصر) كان هؤلاء من الحزب الوطنى أساساً ومن تلاميذ محمد عبده والمنار ، وهم الذين حملوا لواء مقاومة التيار التغريبى فى الصحافة وفوق منابر الجمعيات وتحت قبة البرلمان ، فقد ظل عديد من أمثال عبد الحميد البنان وعبد الخالق عطية يطالبون بإقصاء دعاة التغريب عن مراكزهم فى الجامعة وكلية الآداب ووزارة المعارف طوال الفترة من ١٩٣٦ - ١٩٣٩ دون توقف وفى مقدمة هؤلاء طه حسين ولطفى السيد .

لقد امتلك حزب الأمة - ممثلا فى حزبى الوفد والأحرار بعد الحرب - انفرد الحكم والسيطرة السياسية ، ونفذ خلالها مفاهيمه القديمة فى النزعة الإقليمية المصرية الضيقة ، متصلة بالتحرر من الدين والقيم الفكرية الإسلامية العربية ، غير أن التكوين الاجتماعى المتمثل فى الهيئات والجماعات والصحف والرأى الذى كان لا يزال يقوده خلفاء الحزب الوطنى ومدرسة المنار والفتح - المؤمنون بالربط بين الدين والسياسة ، والدين والتربية ، والدين والمجتمع . وإذا كانت الجامعة المصرية حتى عام ١٩٣٥ قد كانت لا تزال تحت تأثير لطفى السيد وطه حسين ، فقد كانت دار العلوم والأزهر والإخوان المسلمون والشبان ومصر الفتاة والجماعات الإسلامية الأخرى تحمل لواء المعارضة وترفض التسليم بعزل مصر عن العروبة والإسلام وعن قيم الفكر العربى الإسلامى

وإذا كانت صحف السياسة الأسبوعية والمجلة الجديدة والمصور قد استطاعت أن تسيطر لسنوات قليلة (السياسة الأسبوعية من ٢٦ - ٣٠) والمجلة الجديدة من ٢٩ إلى ٣٢ والمصور من ٢٧ إلى ٣٠ ثم ماتت هذه المجلات بينما بقيت مجلة الفتح التى صدرت مع السياسة الأسبوعية فى عام واحد ، وكانت أقل إمكانيات وامتدت حتى عام ١٩٤٢ ثم صدرت الرسالة سنة ١٩٣٣ خلفاً للسياسة الأسبوعية (الفرعونية الغربية) ومعدلة من خطتها إلى (عربية إسلامية) وعاشت عشرين عاما . وعاشت مجلة الشبان المسلمين التى صدرت عام ١٩٢٩ إلى اليوم ، وعاشت عديد غيرها من المجلات والصحف التى كان قراءها أكبر عدداً وأوسع نفوذاً وانتشاراً

ولم يكن هذا الاتجاه غريباً فقد كانت مدرسة حزب الأمة المستمدة من الدائرة الصماء (دائرة النفوذ الغربي) هي مدرسة التسليم للغرب وإن دافعت بالهجوم على الاحتلال البريطاني فهي تهاجم الاحتلال العسكري ولكنها تتحرك في إطار الاحتلال الفكري الغربي .

وكانت حركة اليقظة العربية الإسلامية على طوال تاريخها هي حاملة لواء مقاومة النفوذ الغربي سياسياً وفكرياً معاً ، وقد خرجت القوى المناضلة كلها من مدرسة اليقظة : أحمد عرابي ، ثوار الأزهر ١٩١٩ ، السلفيون في المغرب الذين قادوا الحركة الوطنية . ومن بعد ثورة ١٩١٩ كانت هذه القوى الصمبية صمام أمن دون انهيار الجبهة الفكرية وسقوطها في مجال النفوذ الغربي الفكري .

حتى أن الحركة الوطنية المصرية حين حمل لواءها (سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمي ومحمد محمود ولطفي السيد وغيرهم) كان مفهومها لديهم يختلف عن مفاهيم مصطفى كامل ومحمد فريد ، فقد كانت تجمعهم رابطة العضوية في حزب الأمة والجمعية التشريعية وعباراتهم واضحة الدلالة في تشكيل الوفد (السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجد السعى سبيلا في استقلال مصر استقلالا تاماً) وهو تعبير هزيل مضغوط ، يبدو منه الولاء للاحتلال والتحرك في دائرته ، فقد اختفت كلمة الجلاء والحرية والمقاومة .

ويمكن القول أن أبرز أسباب غلبة النفوذ الفكري الغربي هو سيطرة الاستعمار بمدرسة جامعة من أبنائه هي مدرسة حزب الأمة والمنشاق الأحزاب السياسية عنها بعد الحرب الأولى .

(٣)

يمكن القول أن النفوذ الاستعماري قد تحول على طريق مدرسة حزب الأمة وخلفائها إلى مذهب فلسفى سياسي ، قوامه مصر للمصريين ، الفكر الليبرالي الغربي ، التنكر للجذور والدين والأخلاق ، التحرر من قيود العربية والإسلامية والاتجاه نحو الغرب .

والحق أنه لم يكن في استطاعة الاستعمار أن يفرض وجوده الفكري والاجتماعي إلا عن طريق مذهب فكري يعتنقه أتباعه وينفذونه نيابة عنه ، لذلك فإن الاستعمار استطاع في فترة التمهيد خلال حكم كرومر (٢٥ عاماً) أن ينشيء المدرسة القادرة على أن تحمل لواء هذا المذهب وقد وعدها أن يسلمها مقاليد الأمور ، وكان على رأس المدرسة سعد زغلول في نظارة المعارف ولطفي السيد في قيادة الثقافة والصحافة ، وفي هذه الفترة تم إنشاء الجامعة وحزب الأمة ، واستطاع لطفي السيد أن يدفع آراءه من عام ١٩٠٧ إلى ١٩١٤ وكذلك حمل سعد زغلول لواء الخطط في وزارة المعارف بالاشتراك مع دانلوب تم مصره وجعله متقبلا لجميع من يلي هذا المنصب من بعد وقد تم وضع جميع الخطط والمناهج التي تحقق الهدف .

وفي مجال البعثات التعليمية أمكن إعداد دفعات كان من أبرز رجالها : محمود عزمي وهيكل

وطه حسين ، ومنصور فهمى . وأمثال الشاهر فى مجال الأزهر فاستطاعت حركة التغريب كسب على عبد الرازق ، وفى خارج هذا النطاق ظهر سلامة موسى وإسماعيل مظهر وكثيرون ، وبذلك تحقق إستيعاب جوانب الأنشطة المختلفة فى كلية الآداب ووزارة المعارف والصحافة .

ورسم سعد زغلول منهج الحكم ورأس مدرسة ظلت تحكم حتى عام ١٩٥٢ سواء أكانت عن طريق حزب الوفد نفسه أم عن طريق الأحزاب التى انشقت عنه وأهمها حزب الأحرار الدستوريين ، فإن المخطط الفكرى كان متفقاً عليه ، ولم يكن هناك خلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين فكرياً (إذ الجميع ثمرة حزب الأمة وتعاليم لطفى السيد وسعد زغلول التى تشكلت قبل الحرب العالمية الأولى وكان الجميع فى دائرة كرومر الصماء) أما الخلاف فكان فى التفاصيل ولم يكن فى الأسس ،كان الخلاف من داخل الإيمان بالنفوذ الأجنبى والمحافظة عليه ، وليس خروجاً عليه .

أما قوى الأمة الفكرية ، وامتداد اليقظة العربية الإسلامية التى كانت تتمثل قبل الحرب العالمية الأولى فى الحزب الوطنى وحركة الشيخ محمد عبده والأفغانى جمال الدين وغيرهم فقد أعادوا تشكيل أنفسهم فى صورة جديدة ،كانوا جميعاً فى صفوف الهيئات الشعبية الأهلية ، ولم يكونوا فى صف الحكم والقيادات السياسية التى استأثرت بها مدرسة سعد زغلول والوفد الموكل عن الأمة .

وقد برزت هذه الحركة فى صورة الجمعيات الإسلامية المختلفة وفى بعض خطباء البرلمان وعدد كبير من الصحف والمجلات والمؤلفات . أما العمل السياسى فقد تقاسمته مدرسة حزب الأمة وثمرتها الوفد والأحرار على النحو الذى رسمه كرومر والذى ارتضاه النفوذ الاستعمارى البريطانى تقبلا له وإطاعاً واستسلاما ودعوة عاقلة إلى الاستقلال .

وقد تم ذلك بعد أن سحق الاحتلال البريطانى كل القوى الوطنية الحرية المناضلة التى كانت تعمل قبل الحرب ولم يبق إلا أصحاب النفوذ من داخل الدائرة الصماء .

وكانت فلسفة النفوذ الاستعمارى تتمثل فى كلمات لها طابع براق ، هى التجديد والحضارة ووحدة الفكر العالمى وعظمة أوربا وأنظمتها وأبطالها وكان هذا هو مادة الصحف الكبرى : الأهرام والسياسة والمقطم وغيرهم .

(٤)

كان سعد زغلول عندما تزعم الحركة الوطنية ١٩١٩ صاحب ماض طويل فى داخل حلقة النفوذ الغربى والنفوذ الاستعمارى فهو الذى استقال من مشروع إنشاء الجامعة عندما عينه كرومر ناظراً للمعارف ، وهو الذى اعترض على التعليم باللغة العربية ، ودافع عن مد امتياز قناة السويس وهو بطل مقابلة ١٣ نوفمبر التى كانت تطالب بإلغاء الحماية وتنظيم الاحتلال ،

وقد صور تشارلس آدمس فى كتابه الإسلام والتجديد فى مصر ، هذه الصورة الفريدة ، « كان فى الجانب الأكبر من حياته العامة صديقاً للاحتلال صادق النية مخلص الرأى ، عاون البريطانيين فى خططهم التى أرادوا بها إصلاح الإدارة ، واختياره لوزارة المعارف فى الوقت الذى كانت فيه المدارس منبع التهييج الوطنى ومستقره تدل على الثقة التى كانت الحكومة تضعها فيه .

« أما دفاعه فى مجلس شورى القوانين ١٩٠٩ عن اقتراحات مد امتياز قناة السويس فقد كان شاهداً على ولائه وإن أهاج معارضيه ، وقد قرر لورد كرومر أن سعداً من أقطاب شيعة الشيخ محمد عبده الممتازين ، وأنه مما لاشك فيه من أقدر الرجال الذين عاونوا الانجليز .

« وقد اختير لتقلد نظارة المعارف ١٩٠٦ ليقضى على روح الثورة التى أشعلها مصطفى كامل بتهييجه المتواصل بين تلاميذ المدارس ، وكان قد عظم تأثيرها فى نفوس الطلاب ، وانتشرت فيهم انتشاراً سريعاً وأصبح الإخلاد إلى الهدوء من المستعصية ، وبذل سعد زغلول جهداً عظيماً فى هذا السبيل . » ا هـ .

٢ — وقد اشترك زغلول فى وزارات الاستعمار : مصطفى فهمى وبطرس غالى ومحمد سعيد ووضع قانون تقييد الصحافة والنفى الادراى ، وسعد هو أول زعيم قبل مبدأ المفاوضة مع الانجليز وقدم المشروع الأول الذى هو من أسوأ الصفحات فى حياته وتاريخه وهو الذى قبل الحكم على أساس تصريح ٢٨ فبراير ، ثم استقال بعد حادث السردار ضعفاً منه عن مواجهة الموقف : يقول الأستاذ أحمد وفيق : « منذ عام ١٨٩٠ — ١٩١٣ والانجليز يحضنون سعداً ، ومنذ عام ١٩١٣ - ١٩١٨ وهم يمنونه ويواسونه ومنذ عام ١٩١٩ الى ١٩٢٧ وهم يداعبونه ويدللونه » .

وسعد زغلول هو الذى طالب بحكومة زغلولية لحماً ودماً ، وهو الذى وضع قواعد السياسة التى سارت عليها مدرسته طوال ربع قرن كامل وهو صاحب التصريحات الملتوية المضطربة : هل عندكم الجريدة ، دلونى على السويل ، الاستنكار شىء والتنفيذ شىء آخر الانجليز خصوم شرفاء معقولون ، لانجلترا فى مصر مصالح لا تتعارض مع الاستقلال .

ولقد تمزقت وحدة الأمة فى عهده وبفضل تعاليه واستطالته ، وليس بعد موته كما تقول بعض كتب التاريخ ، بل ومن قبل عودة زملائه من باريس بعد أن اكتشفوا فيه صفات الأثرة والاستعلاء .

ويكشف خطابه إلى ثروت هذا الطابع : ما أنت بزعيم فى الامة ولا رئيس حزب بها حتى يكون هناك أهمية لخلافك أو وفاقك وإمكانك فرد اختبرته السلطة الانجليزية فوجدت فيه آلة صالحة لترويج سياستها ضد بلاده وسلطته عليها ، أمامك المنابر العامة فاعلها أن وجدت سميعاً ، والجرائد السيارة ، فاكتب فيها أن وجدت قارئاً ، والنوادى الخاصة فتحدث إليها إن وجدت نصيراً » .

هذا ثروت الذى تعاون معه سعد وقبل أن يعمل رئيساً لمجلس النواب وهو فى منصب رئيس الحكومة .

وهو سعد زغلول الذى تحادث مع ونجت (١٣ نوفمبر ١٩١٨) وعارض ملنر سنة ١٩٢٠ وقبل تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وحكم على أساس الدستور الذى أعلن من قبل أنه قد وضع من قبل (لجنة الأشقياء) وهو الذى عارض عدلى وثروت ثم قبل أن يعمل معهما وهما رئيسين للحكومة .

٣ — ولم يكن سعد زغلول مفكراً صاحب نظرية ولا داعية سياسياً يمكن أن تلتقط أفكاره من خلال كتاباته ولكنه كان رجل دولة عرف بصلاته بالشيخ محمد عبده وتردده على صالون نازلى فاضل وعرف بعلاقاته برجال الجريدة وحزب الأمة .

قالت جريدة التيمس أنه من معاهد اللورد كرومر فريق الجهود له فى النهضة المصرية الوطنية .

وقد أشار الخديو فى مذكراته التى نشرتها جريدة المصرى سنة ١٩٥١ أن لسعد وأخيه (فتحى زغلول) علاقة فى تكوين حزب الأمة .

وقد كان سعد حائراً بين التيارات المختلفة حتى أصهر إلى مصطفى فهمى فانعقدت الروابط بينه وبين الانجليز واختير وزيراً للمعارف فى سبتمبر ١٩٠٦ .

٤ - يقول (جون أدوين مارشال) فى كتابه اللغز المصرى عن سعد زغلول :

« أتيح لسعد أن يدخل الأزهر ضمن المجاورين الذى ينالون الجراية فى ذلك العهد .

ولما كثرت أرباحه ابتاع عربتين فكانت شهرته وثروته سبباً فى بأصدقاء من طبقة أعلى كثيراً من طبقته ، وكان قاسم أمين يعلمه الفرنسية ، ورشدى يقويه فى علم الحقوق وأدخله قاسم إلى منزل الأميرة نازلى التى سعت لعقد قرانه على إحدى كريمات مصطفى فهمى باشا وكان من المستحيل فى ذلك العهد إدخال رجال المحاماة فى مجتمع الطبقة العالية ، ولتذليل هذه العقبة عين سعد بنفوذ حميه المتين قاضياً فى محكمة الاستئناف ورأى سعد فى فكرة الجامعة المصرية وسيلة لزيادة التقدم والظهور فتشبث بها وطفق يحبذها ، ويسعى إلى إنجازها واضطر اللورد كرومر إلى الانحناء أمام العاصفة متى أثارها سعد زغلول فعين وزيراً للمعارف على أن معرفة زغلول لأساليب التعليم كانت قاصرة على ما تلقنه فى الأزهر . أما معارفه فى العلوم الأخرى فكانت ضئيلة أو بالأحرى معدومة ، وعندما اقترح عليه تمثل مصر فى الاحتفال بذكرى انقضاء مائة عام على وفاة دارون تساءل : من هو « دارون » ؟ هل هو خطيب ، وقد استخدم سعد فكرة إنشاء الجامعة ليمثل دوراً فى الحركة الوطنية فلما انقضى تمثيل ذلك الدور ، ونال غايته فيه تقاعد عن مواصلة الاهتمام به والمضى فيه إلى الأمام .

وقال : سعد زغلول هو الخطيب المطبوع الذى حصه الله بمواهب سامية للتأثير على الجماهير والقدرة على التلاعب بعواطف العامة ، كان ذا شخصية عظيمة ولكنه كان يجهل كل الجهل الأشياء التى من شأنها تكوين السياسى المحنك ، وكان الغرور من صفاته البارزة والمشهور عنه أنه كان يستخدم أصدقاءه لمآربه الشخصية ، كما أنه كان يسحق خصومه تحت قدميه عندما تسنح الفرصة ، وعندما تولى الحكم لم يكن ينشر الحرية والمساواة بل القوة والاستبداد لإذلال كل من لم يخر له ساجداً وكان عهد حكمه عهد محسوبية واستبداد ، وكان من جملة خصاله مقدرته على الظهور بمظهر الطيبة والبشاشة وكان حاكماً مطلقاً على رأس حكومة استبدادية بالمسة وكان البرلمان صفراً على شمال الرقم وفى وسع سعد أن يقول بلا مغالاة : « أنا مصر » .

يقول فون فنجان (السياسة اليومية ١٩٢٥/١٢/٢٢) : عبر لى زغلول باشا السياسى المصرى الشيخ فى حديث جرى له معه فى القاهرة عن رضاه التام لتحول الحركة بسرعة من الروح الدينية إلى الروح القومية فى بلاد إفريقية المختلفة ، وفى مصر والشرق الأدنى ، وعن ترحيبه بتلك الروح واعتبارها فاتحة سعيدة للمستقبل ، وأفضى إلى باعتقاده أنه متى وقف الرأى العام الحر فى أوربا وأمريكا على هذه الحقيقة الجوهرية وهى أن شعوب الشرق تريد أن تحكم نفسها حسب طريقتها مع الاستعانة بالنصائح الفنية وخبرة الغربيين فى المسائل الاقتصادية والمالية والتهذيبية والتعليمية وغيرها فان شعوب الغرب لن تؤمن بالوهم القائل بأن هذه الحركة هى حركة الشرق ضد الغرب » .

وهذا النص يكشف مفهوم سعد زغلول للرابطة بين المصريين والعرب وبين أوربا : تبعية مطلقة حتى لا يظن الغربيون أن هذه البلاد لها استقلال أو رغبة فى معارضة أوربا ومن نماذج هذا ذلك الاتجاه النداء الذى أرسله إلى البرلمان الفرنسى وقال فيه :

« إن اللغة الفرنسية قد أصبحت بين عائلاتنا أشبه بلغة قومية ثانية وباللغة الفرنسية تعبر النخبة الممتازة عن نفسها » .

وقال سعد زغلول لعبد الرحمن عزام عن العرب : إذا جمعت صفراً إلى صفر فصفر .

٦ — وصفه جورج لويد فى كتابه مصر منذ عهد كرومر : إنه كان مؤمناً بالصداقة البريطانية وأن كرومر أراد أن يقدم فى شخصه عربوناً لود اصديقه مصطفى فهمى أن يختار سعد زغلول لوزارة المعارف المنشأة حديثاً .

وقد أشار رشيد رضا إلى تحول سعد زغلول فقال إن « سعد دخل فى أطوار الفرنج فى عيشته

وأفكاره الاجتماعية والقانونية وغلبت النزعة الوطنية المصرية عنده على فكرة الجامعة الإسلامية ، اما العبادات فلا نعلم أنه كان يذهب إلى المساجد إلا فى الاحتفالات الرسمية ، وأنكر عليه أهل الدين اموراً منها عدم حمله على تعرية النساء على السفور المتجاوز الحد الشرعى ، . على أنه كان شديد الإعجاب بنفسه وعدم المبالاة بخصمه ، بل غلبت عليه فى المدة الأخيرة الحماية السياسية فصار يؤثر المتملقين على المتنزهين عن الملق ، والمداهنين حتى من محبيه الناصحين (م ٢٨ المنار) .

٧ - دمغ اللورد ملنر (سعد زغلول ومدرسته) فى عبارة دقيقة حين قال « إن الهيئة المستحقة للاعتبار المعروفة بالوفد التى يرأسها سعد زغلول باشا والتى تتسلط على عقول المصريين تمام التسلط ولو فى هذا الحين على الأقل مؤلفة من أعضاء أكثرهم ليسوا من الغلاة المتطرفين بل أصلهم من حزب الأمة القديم الذى كان غرضه التقدم الدستورى تدريجياً بخلاف الحزب الوطنى الذى هو حزب الثورة ومعارضة البريطانيين ،

وفى ضوء هذه النظرات يمكن إلقاء الأضواء على السياسة والحزبية فى هذه الفترة على أساس تشكيل حزب الوفد ١٩١٨ وتجزئه إلى أحزاب متعددة ، على النحو صورة لورد ملنر والذى استمد وجوده من عبارة كرومر المعروفة :

« الاحتفاظ بأيدى مصرية بينما تعمل العقول البريطانية من وراء ستار ، وبالجملة فإن « المعتدلين » هم الذين أمسكوا بزمام الأمور : وأبرز المعتدلين : سعد زغلول وعدلى واطاق السيد وعبد العزيز فهمى وإسماعيل صدقى .

ويمكن القول أن سعد زغلول هو أول زعامة مصرية سياسته انفصلت عن مفهوم التكامل بين الوطنية والسياسة وبين الاسلام والوطنية على النحو الذى كان يعرفه مصطفى كامل والذى يعبر عن مفهومه بأوضح عبارة حين يقول : قال أعداؤنا أننا نخلط الاسلام بالوطنية ونتكلم دائماً عن المسلمين ونطالب إدخال التربية فى التعليم وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم ، فكيف لا تكون إنجلترا وألمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الدينى فى مدارسهما وتتهم نحن بالتعصب الدينى .

لماذا يكون الانجليزى وطنياً وبروتستنتيا فى آن واحد ولا يكون المصرى المسلم وطنياً ومسلما ولا تكون الوطنية صحيحة إلا إذا قضت على الدين ومحته ، إلا أن الحقيقة الساطعة التى لا ريب فيها أن الوطنية والدين يتفقان معاً بل وقد يكونا متلازمين ، لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية فالتعليم الدينى ليس فرضاً من الوجهة الدينية فحسب ، بل هو كذلك من الوجهة الوطنية » .

أما سعد والذين جاءوا بعده فقد تجاهلوا هذه الحقيقة ، وجوهر سعد ومبدأه الجديد فى خطابه

بفندق الكونتيننتال فى يوم الأربعاء (٦ إبريل ١٩٢١) بالاسكندرية وأعلن أن الديانات لا صلة لها بالوطنية أو السياسة وأنها قاصرة على عبادة الخالق . ونسى أن الإسلام ليس كذلك وأنه دين ومنهج حياة .

هذا هو روح الاتجاه السياسى الذى غلب على فترة ما بين الحربين وفى ضوءه يمكن تفسير كل الأحداث .

(٥)

أما لطفى السيد فقدكان من أبرز رجال ثورة ١٩١٩ وأكبر المؤسسين لحزب الأحرار الدستوريين الذين انشقوا على سعد زغلول سياسياً ، وإن ظل الاتجاه العام للحزبين فى مسار واحد هو مسار الإيمان بالولاء الفكرى والسياسى والاجتماعى للغرب وأوروبا والاستعمار ، وأن حمل لواء الدعوة إلى الاستقلال والمطالبة بالحرية السياسية فى نطاق التفاهم والسعى ما وجد إلى السعى سبيلا مع بريطانيا وحدها (على عبارة سعد زغلول فى عادلة الباشوات الثلاثة مع المعتمد البريطانى) .

وكان لطفى السيد هو قائد الفكر بينما كان سعد هو قائد السياسة وكانت لها لقاءات تكشف عن تفاهم كامل فى الخطوط العامة وإن اختلف الأمر بين سياستين أو بين رجلين أحدهما خطيب وجماهيرى ورجل آخر مثقف ومنظم (هو لطفى السيد) الذى أطلق عليه من بعد أستاذ الجيل فقدعاش بعد سعد زغلول المتوفى ١٩٢٧ أكثر من ثلاثين عاما وكان دوره فى الجامعة التى ولى العمل بها منذ أن أصبحت أميرية ١٩٢٩ إلى حوالى عام ١٩٤١ وكان من وراء جريدة السياسة وأستاذاً لقادة الفكر فيها حتى يمكن أن يقال عنه بحق أنه أبو الفكر التغريبى الحديث ورافع لوائه ومقننه وقد أتاح له العمر الطويل أن يرسى قواعده فى الجامعة وفى الصحافة جميعاً وحتى حق لجريدة السياسة الأسبوعية : أن تقول عنه أنه (كان أبا المدرسة الحديثة فى الفكر المصرى بحق والأب الأول لكتاب مصر الحديثة فى أسلوبهم عن طريق المدرسة التى تخرج فيها أكبر كتاب مصر ، وقد وصفته السياسة الأسبوعية بأنه كان صاحب شخصيتين : « قال أنا سقراطى بعقلى حجاجى بقلبى ، وهو أول من دعا إلى الديمقراطية ، ولكنه على الرغم من هذه الدعوة أرستقراطى التفكير أرستقراطى النزوع وتقول مجلة السياسة الأسبوعية عنه أن موضع الغرابة فيه ، أنه كان مديراً للجامعة المصرية دون أن يكون أستاذاً أو تربوياً وقد دهش لذلك العلماء حتى قال أحدهم : « كيف تريدنى أن أصدق أن الأستاذ لطفى السيد أصبح عميد الجامعة المصرية فى حين لم أسمع بأنه أفاض على الطلاب درساً أو ألقى محاضرة فى العلم واحدة » أما عن الاعتراض الثانى على شخصيته فهو إتهامه بالتكلف يقول : « رجل أخذ نفسه من كل أقطارها بألوان التكلف ، يتكلف فى مرح الشباب ثقل الشيوخ ، ويتكلف فى مجالس اللهو حياة الجد ، لقد أخذ نفسه بهذا التكلف كله حتى أصبح له طبعاً وسجية وأكبر ظنى أنه لو شاء

يوماً أن يرسل نفسه على سجيتها ، تكلف في هذا كثيراً ، ولطفي أول من رفع راية الديمقراطية في مصر ، وأنك لتراه مع هذا أرستقراطي الفكر ، شديد الأثرة للرأي ، ولقد تخالفه إلى شتى وجوه فيأبى إلا أن يغلبك ولقد يغلبك بمحض الجدل يتحرف به تحرفاً » .

٢ - وكما جمع أدباء مصر في جريدة الجريدة ، ثم في جريدة السياسة ثم في الجامعة جمعهم مرة رابعة في المجمع اللغوي وقد كان للطفي السيد رأيه في اللغة ورأيه في التعليم ورأيه في الوطنية ورأيه في العروبة وهي آراء تخالف ما آمنت به حركة اليقظة من قبله وفي خلال ذلك العصر ، وهي تعد الآن بالنسبة لتطورنا آراء رجعية متخلفة ضاربة إلى أبعد الحدود في متاهات الجمود والتخلف ولكنها كانت في يومها ذات بريق ، وكانت في مضمونها تمثل ما يريد النفوذ الأجنبي وما يؤدي إلى دعم هذا النفوذ ، وإلى احتواء الثقافة العربية وكانت له قدرة بارعة وعبارة أنيقة في عرض هذه الآراء على نحو مليء بالتمويه خادع للأذهان البسيطة والعقول المخدوعة .

وقد امتدت آراؤه بعد الحرب ونمت وسيطرت وتعمقت في كلية الآداب وجريدة السياسة ، وقد أدخلت هذه المدرسة الأنظمة الديمقراطية الغربية أو ما يطلق عليه مذهب الحربين وهو مذهب فشل في مصر كل الفشل وأثبت ولاءه للأجنبي الاستعماري .

كما أدخل الثقافة الغربية في التعليم والأخلاق ، وكذلك الثقافة اليونانية حيث اهتم لطفي السيد بترجمة أرسطو فترجم من آثاره كتب (الطبيعة ، الكون والفساد والأخلاق والسياسية) ومهما يكن فالمؤكد تاريخياً أنه لم يترجم من هذه الكتب حرفاً واحداً وأنها ترجمت باسمه ، فإن هذا كان معناه واضحاً : هو فرض نفوذ أرسطو على الثقافة العربية بينما كانت أوروبا قد أشبعت أوروبا ومنطقته هدماً وأصبحت تنكره بعد أن ارتبط في نظرها بالفردية وفلسفة غرب أوروبا السياسية وقد كان لطفي السيد تابعاً وموالياً وداعياً بالمثل الأعلى الغربي في السياسة والاجتماع والتربية والتعليم والأخلاق ، ومن هنا فقد كانت حركة التدعيل التي دعا إليها محاولة للقضاء على الوطنية الداعية إلى التحرر من الاستعمار كما كانت حركة المصرية التي دعا إليها محاولة لخلق سياسة إقليمية منعزلة عن العالم العربي ، وكانت دعوته الفكرية في مجموعها لحجب الجذور والتراث والقيم الأساسية المنبعثة عن الفكر الإسلامي .

٣ - كان لطفي السيد إقطاعياً وأرستقراطياً فلم يكن إلا واحداً من هؤلاء الذين كون النفوذ البريطاني وجودهم وأبوه سيد أبو علي استطاع أن ينمي ثروته في ظل الاحتلال وكان زميلاً لأبيه في عضوية حزب الأمة وكان أبوه يؤثره على أخوه بأربعمائة وخمسين فداناً وتلك صفات فرضت طابعها على فكره وحياته ، ولقد كان مفهومه للحكومة أنها حكومة نصف أرستقراطية نصف حكومة الأعيان ، ومن هنا فإن التعليم يكون قاصراً على الطبقات العليا وحدها ، وقد ظل صاحب هذه الآراء مشرفاً على الحياة الفكرية والأدبية والثقافية في مصر من خلال دار الكتب والجامعة

والمجمع اللغوى حتى آخر حياته ، وقد أحصى الباحثون لطفى السيد مواقف لا تضعه فى صف المتقدميين أو بناة النهضة منها أولا نشأته فى بيئة إقطاعية معروفة وارتباطه الدائم بالإقطاعيين فى مراحل العمل السياسى ، وقد اشترك فى عدد من الوزارات التى عطلت الدستور ووقفت ضد الديمقراطية مما يدل على أنه كان حريصاً على أن يتحرك فى إطار مصالحه السياسية كواحد من أبناء أسرة إقطاعية كبيرة اشترك فى وزارة محمد محمود وزارة اليد الحديدية ١٩٣٨ ووزارة صدقى ١٩٤٦ التى حاربها الشعب .

« ومن أخطاء لطفى السيد أو من جوانب النقص فى شخصيته أن إنتاجه الفكرى الخاص كان ضئيلا إلى حد بعيد ، هذا النقص دل على أنه لم يكن غزير الفكر ، ويدل على أن الذى ساعده على أن يحتل مكانه فى حياتنا الفكرية والثقافية ، هو أنه كان من أسرة كبيرة ومن طبقة اجتماعية عالية ، وشعاره مصر للمصريين جعله عازلا عن أى إحساس عربى فى الميدان السياسى أو الميدان الثقافى ، وقد وصل به ذلك إلى درجة مفرطة من تجاهل الروابط العربية بين مصر والأجزاء الأخرى » .

(٤) ومما أخذ على لطفى السيد وعد من العوامل البعيدة المدى فى تقديره التاريخى وجهله كثير من المؤرخين الباحثين (وفى مقدمتهم الدكتور عبد الرحمن ياغى فى كتابه عن الأدب الفلسطينى المعاصر) هو أن لطفى السيد شارك عام ١٩٢٥ فى حفل افتتاح الجامعة العبرية بالقدس ممثلا الجامعة المصرية بوصفه مديراً لها ، وكان من بين قلة من العرب الذين كانوا يعرفون مدى خطورة هذا الاتجاه إذ ذاك وكان من زملاء لطفى السيد اللورد بلفور صاحب وعد بلفور المشهور .

ولو كان لطفى السيد على قدر كاف من الوعى والحصافة لحرص أن يتخطى هذا الموقف الشائن الذى حاول من بعد ذلك أن يعتذر عنه بقوله إنه شارك فى عمل علمى لا دخل له بالسياسة ، وكان هذا الفصل فى تفكيره بين العلم والسياسة واضحاً فى الفصل بين الإسلام والوطنية وبين العروبة والمصرية ذلك آفة فكره الكبرى . وكان معنى ذلك هو أنه التمس مفهوم التغريب والاستعمار لهذه المفاهيم ، ولو تعمقها فى جوهرها لوجد أن الإسلام ليس ديناً لاهوتياً ولوجده أكثر من دين : حضارة ونظام مجتمع ، ولو أراد أن يفهم هذا المعنى — هو وسعد زغلول — وهو مما ردده أستاذهما جمال الدين ومحمد عبده وكان مقطع القول فى دعوتهما — ولو أرادا ذلك لفهما ، ولكنهما كانا يريدان شأناً آخر كانا يريدان أن يصبحا من ذوى النفوذ فى مصر على الطريق الذى رسمه كرومر ودعا إليه الشباب فى عصره وتحقق لهما ما أرادا فظلا مسيطرين على الحياة السياسية المصرية طوال فترة ما بين الحربين ، ويمكن القول أنهما بذلك التطبيق كانا معارضين لجمال الدين ومحمد عبده رغم ادعائهما الانتساب إليه .

(٥) عارضت جريدة الشورى اشتراك لطفى السيد فى حفل الصهيونية بافتتاح الجامعة العبرية فقالت فى ٢ أبريل ١٩٢٥ : أن قبوله الذهاب إلى حفلة سياسية خبيثة ملبسة بلباس علمى مما يمس مكانته ويوغر الصدور عليه ، وما قولك بذهابه إلى بلاد أبرق إليه أهلها ، لا تحضر باسم أمتك حفلة

مظهرة بنا . ولكن لطفى بك أصر على السفر ، وقد سافر لطفى بك رغم هذه التلغرافات التى جاءته ومن بينها برقية من نابلس تقول : الطبقات المفكرة فى نابلس تناشد الأستاذ لطفى السيد ألا يلوث اسمه بحضور الحفلة الصهيونية ومشاركته الصامتين بعواطف فلسطين والعرب وحقوقهم . أما جريدة السياسة فقد هللت لهذا الحدث وأولته تقديرها فقالت :

« إن الاحتفال بتأسيس الجامعة العبرية فى القدس ذو معنى خطير بعيد المدى لا يقتصر على فتح مدرسة أو إنشاء معهد كبير للتعليم ، فمثل هذا العمل يجرى كل حين فى جميع أنحاء العالم ، ولكنه احتفال ببعث اللغة العبرية من القبر وإعادتها إلى مصاف اللغات الحية وإيجاد أمة عبرية ذات خصائص ذاتية ، ومعنى أن الجيل الجديد الذى يلده اليهود القادمون من جميع أنحاء الأرض إلى فلسطين سيكون شعبا واحداً بل أمة واحدة تجمعها وحدة اللغة ووحدة الدين ووحدة الوطن » .

انظر إلى أى حد بلغ الأمر بتلاميذ مدرسة لطفى السيد فى جريدة السياسة وبلغ فهمهم الأمور

(٦) ومن الظلم أن يقال : إن هذه المفاهيم التى أذاعها لطفى السيد وسعد زغلول وجريدة السياسة هى قوام الحياة الفكرية المصرية العربية والإسلامية ، بل هى على العكس من ذلك كانت أحق طريقاً مظلماً ضد التيار الأصيل وضد الذاتية العربية والمزاج النفسى والعقل ولا تجد قبولا إلا من فئة قليلة من ذوى النفوذ ، ولطالما وجدت المعارضة والدحض والكشف عن تلفيقها وتضليلها ، ولم تمر فكرة واحدة من هذا النوع ولا رأى دون أن تجد الرد عليها صادعاً صارماً ، ولم تكن جريدة السياسة ولا الجريدة من قبلها توزع إلا عدداً تافهاً بجوار الصحف الوطنية ذات الأساس الفكرى العربى الإسلامى ، وكانت جريدة السياسة لا توزع إلا فى بلدان معينة ، وكانت تقرأ سراً فى البلاد الأخرى ولم تكن لها شعبية أو قراء بالمعنى الصحيح سوى العمد ورجال الحكومة .

ولكن هذه الصحف كانت تسندها قوة النفوذ الأجنبى وتفسح لها الطريق لتصبح هى القوة الكبرى ، ولتصبح هذه الآراء هى فلسفة الحياة السياسية والاجتماعية ، ومن الحق أن يقال إن لطفى السيد أرسى مفاهيم السياسة الأوربية ونظمها فى الحكم والقانون ، ذلك النظام الديمقراطى الغربى الذى أثبت فشله فشلا ذريعاً خلال الفترة التى طبق فيها ، كما خلق جيلا أسلم إليه بعد الحرب قيادة الحركة الفكرية ويصدق فى هذا قول جورج أنطونيوس (فى نفس الوقت الذى كانت النخبة العربية المكافحة تعمل للتحرر من نير الغرب السياسى والعسكرى كانت تسعى إلى إدخال القيم الغربية فى الحياة العربية مكان القيم الإسلامية) .

(٦)

من خلال هذه المدرسة السياسية (لطفى السيد مؤسسها الفكرى) وسعد زغلول قائدها السياسى تبدو معالم الحياة خلال فترة ما بين الحربين .

- موقفها من الأمة العربية .
- موقفها من الفكر الإسلامي .
- موقفها من العالم الإسلامي .
- موقفها من الغرب والاستعمار والصهيونية .

وكان إعجابها واضحاً بالصهيونية كما كان أبلغ إعجابها بالحركة الكمالية التي قام بها في تركيا وأزال الدولة العثمانية وألغى الخلافة وحقق كل آمال الاستعمار والنفوذ الأجنبي ووضع أمام البلاد العربية والمصريين صورة جديدة للتغريب لها بريق خاطف ، وقد قام الدعاة يوقدون لها النار وينثرون البخور غير أن الموقف لم يمتد إلى أمد أكثر من العام الثلاثين من هذا القرن حتى كانت قوى جديدة من أعماق هذا الوجود الوطني الشعبي قد أخذت تبرز في قوة ، بعد أن بلغ الصراع بين الحزبين غايته في سبيل النفوذ الشخصي والمطامع الذاتية وصولجان الحكم ، وبعد أن تحولت الوطنية إلى سياسة والمعركة إلى خلاف بين الأحزاب لا بين الأحزاب وقوى الاحتلال .

هنالك تحول الموقف وبدأت الموائم تواجه النفوذ الفكري التغريبي ، وبدأت طلائع اليقظة العربية الإسلامية تحتل مكانها مرة أخرى في مجالات الأزهر والصحافة والجماعات والهيئات ويعلو اسمها من جديد بصوت رصين فيه قوة مستمدة من إيمان بتجديد أساليب الفكر والحياة لمواجهة الغزو الفكري والرد على الشبهات ودحض المفتريات . وكان طه حسين وعلي عبد الرازق قد أصدرا كتابيهما : الشعر الجاهلي والإسلام وأصول الحكم ، وكانت الحركة الكمالية قد أسقطت الخلافة الإسلامية ، وكان وعد بلفور قد أخذ طريقه إلى إقامة الوطن الصهيوني في قلب فلسطين ، وكانت حركة التبشير قد استشرت في مختلف الوطن العربي .

هنالك ظهرت بوادر (مد) عربي إسلامي لليقظة الفكرية تمثل في عدة مظاهر رصينة :

(الأول) قيام الحركة الوهابية الجديدة في قلب الجزيرة العربية .
(الثاني) تنبه الأذهان إلى الحركة الصهيونية ومحاولة انتزاع فلسطين .
(الثالث) إنشاء الجماعات الإسلامية كرد فعل لحركة التبشير .
(الرابع) تعديل مسار الدعوة المصرية الوطنية إلى دعوة ذات طابع إسلامي وعربي بدلا من الطابع الفرعوني .
(الخامس) انعقاد المؤتمر الإسلامي في القدس .
(السادس) بدأت نهضة الأزهر ويقظته بقيادة المراغي .
(السابع) نشوء المجمع اللغوي في الشام ١٩٢٢ وفي مصر ١٩٣٢ .
(الثامن) تنقية الحركة الصوفية والاتجاه بها إلى التحرر من الجبرية .

ومن خلال مؤسسات الأزهر والجمعيات والمجمع والصحف والكتب ودار العلوم ، ومن خلال

مجلة المنار ومجلة الفتح وجماعات الإخوان والشبان المسلمين وعشرات الجمعيات وغيرها قامت حركة ضخمة استطاعت أن تواجه شبهات التغريب التي حملت لواءها كلية الآداب وجريدة السياسة والمجلة الجديدة والعصور واستطاعت أن تدحض الاتهامات التي حمل لواءها سلامه موسى عن اللغة العربية وطه حسين عن الثقافة ومحمود عزمى عن الإلحاد وعلى عبد الرازق عن الخلافة واسماعيل مظهر عن المادية وزكى مبارك وعبد الله عنان وغيره فى مختلف مجالات دعوات اليونانية والفصل بين العلم والدين والأدب المكشوف والاستشراق والتبشير والنظرية المادية والعامية وحركات البهائية والماسونية، واستطاعت اليقظة العربية الإسلامية أن تدافع عن قيم الفكر الإسلامى ومقدراته، وتواجه حملات الاستعمار والصهيونية والغزو الثقافى .

لقد نمت حركة اليقظة الإسلامية والداخلية فى ثلاث مراحل من خلال المؤسسات وتمكنت قبيل الحرب العالمية الثانية من استقطاب أغلب المفكرين الذين كانوا مستغربين سواء على مستوى العربية أو الإسلامية المصرية ذات الأرضية الفرعونية، وقد اقتحمت هذه الحركة كلية الآدب وجريدة السياسة نفسها وتحول كثير من المفكرين الذين تعلموا فى الغرب وكانوا أكبر أمانة الفكره : من أمثال منصور فهمى والدكتور هيكل وزكى مبارك بالإضافة إلى المفكرين الإسلاميين الذين تعلموا فى الغرب أمثال : الدكتور عبد الحميد سعيد والدكتور الغرديرى والدكتور على مظهر .

ويمكن القول أنه عندما سقطت الخلافة وتمزقت الوحدة الإسلامية فإن الوحدة العربية بدأت تأخذ مكان الوحدة الإسلامية جامعة بين الدول العربية إزاء الخطر الذى كان قد بدأ يتحرك فى قلب فلسطين، وإن كان للفكر الإسلامى والثقافة العربية لم ينسيا رابطة الأخوة الإسلامية وتطلعها الدائم إلى عودة هذه الرابطة إلى الحياة من جديد ، وقد استطاعت حركة اليقظة أن تحل كثيراً من التعقيدات التى حاول التغريب فرضها ، وأهمها أن الوحدة العربية لا تعارض الرابطة الإسلامية ، بل ربما كانت طريقاً إليها .

الفصل الثالث

« نمو حركة اليقظة واتساع آفاقها »

مضت حركة اليقظة فى هذه المرحلة خطوات جديدة أكثر عمقاً واتساعاً على مدى المراحل التى قطعتها من قبل، متجددة فى أساليبها ومضمونها، ومسايرة روح العصر، ومتكافئة مع التطور الفكرى والثقافى، موسعة آفاقها مقتحمة مجالات جديدة ومعطية وجهة نظر الفكر الإسلامى فى مختلف القضايا المثارة وعاملة على إنماء البناء ودعمه وتعميق جداره، وذلك كعمل طبيعى يجرى فى المسار الطبيعى اليقظة ثم عملت فى نفس الوقت فى مجال مقاومة الغزو والرد على التحدى.

ويمكن القول بصفة عامة أن حركة اليقظة فى هذه المرحلة قد عملت فى عدة ميادين : فى مقدمتها الكشف عن قدرة الفكر الإسلامى على تقديم حلول جذرية للمعضلات والقضايا والمشكلات العصرية وكشف السحب عن وجه الإسلام الحضارى ومواءمة الفكر الإسلامى الديمقراطية والاشتراكية والقومية وتركزت حركة اليقظة فى عدة ميادين أهمها :

١ - ميدان العقائد والتشريع والأخلاق.

٢ - ميدان تجديد الفكر السياسى والاجتماعى.

٣ - ميدان تأصيل مفاهيم التربية والتعليم.

٤ - ميدان كشف الرابطة الوثيقة بين الفكر الاسلامى وبين العلم والحضارة.

٥ - تحرير اللغة العربية من قيد التقليد والوخرف.

٦ - تحرير العقيدة من التقليد.

٧ - تحرير التصوف من الجبرية.

٨ - تحرير الفقه من الجمود وفتح الباب للاجتهاد.

٩ - إصلاح الأزهر ومحاولة التقريب بين المذاهب.

١٠ - تأكيد مفهوم التصوف السنى.

١١ - تأكيد إسلامية الوحدة العربية وترابط الاسلام والعروبة.

١٢ - استشراف جديد للتاريخ الاسلامى.

١٣ - دعم الطوابع الاقليمية (كالمصرية والفينيقية وغيرها بالجذور العربية الاسلامية).

وقد استهدفت اليقظة فى الجملة تأكيد معانى عدة :

١ - إن الاسلام ليس دينا فحسب ولكنه دين ومنهج حياة .

٢ - إن هناك تكاملا بين الاسلام والعروبة ولا تعارض بينهما .

٣ - إن هناك إلتقاءاً بين الاسلام والحضارة بحسبان أن المنهج العلمى التجريبى هو من إبداع الحضارة الاسلامية

٤ - إن الثقافة العربية : هى إسلامية المصادر والغايات .

٥ - أن القيم الأساسية للفكر الاسلامى والثقافة العربية هى قاعدة الأساس فى الثقافات العربية .

٦ - أن مفهوم المعرفة فى الفكر الاسلامى والثقافة العربية يجمع بين العقل والروح (وقد كان هذا المفهوم دافعاً إلى التقارب بين التصوف والسنة) .

١ - امتدت حركة اليقظة فى مرحلة ما بين الحربين من منطلق طبيعى لها ، وقامت على أساس المفهوم الأساسى للفكر الاسلامى المستمد من القرآن الكريم والمتجدد باسم دعوة التوحيد ، ووفقاً للإضافات والتطورات التى حققتها الحركة إلى ما قبل الحرب الأولى متمثلة فى جهود المجددين والمصلحين : محمد ابن عبد الوهاب الشوكانى محمد اليمنى ، رفاعة رافع الطهطاوى ، الألوسى الكبير ، جمال الدين القاسمى ، عبد الرازق البيطار ، عبد الرحمن الكواكبى ، على يوسف ، أحمد كمال باشا ، محمد على السنوسى ، حفنى ناصف ، عبد الحميد الزهراوى ، خير الدين التونسى ، جمال الدين الأفغانى ، محمد عبده ، وطائفة أخرى عاشت فى المرحلة السابقة للحرب ثم امتد عطاؤها خلال هذه الفترة : رشيد رضا ، فريد وجدى ، أحمد زكى باشا ، أحمد تيمور ، رفيق العظم ، شكيب ارسلان ، مصطفى الغلايينى ، أحمد الشريف السنوسى ، محمد بن على العربى العلوى ، أبو شعيب الدكالى ، توفيق البكرى ، عبد العزيز جاويش ، عبد الرحمن البرقوقى ، عبد القادر المغربى .

ثم استطاعت هذه الحركة أن تقدم خلال الفترة التى تدرسها مجموعة أخرى منهم : محب الدين الخطيب ، عبد الحميد بن باديس ، حسن البنا ، طنطاوى جوهرى ، أحمد السكندرى ، المراغى ، الظواهرى ، محمد بخيت ، الطاهر بن عاشور ، محمود أبو العيون ، عبد العزيز الثعالبى ، هيكل ، مالك بن نبى ، محمد البهى ، عباس العقاد ، مصطفى السباعى ، كرد على ، علال الفاسى ، عبد الحميد سعيد ، شاكر ، محمد أحمد الغمراوى . الدكتور الدرديرى ، معروف الأرناؤوط ، بهجت البيطار ، بهجت الأثرى ، أمين الرافعى ، محمد الخضر حسين .

وقد امتدت حركة اليقظة إلى أطراف الأمة العربية كلها مترابطة فى أصولها بمفهوم التوحيد ، وتجاوب الفكر الاسلامى مع العصر والحضارة ، والقدرة على إعطاء الحياة والمجتمع فى كل عصر وبيئة وكانت أبرز مراكزها القاهرة ومكة والشام والمغرب .

فقد كانت هناك المدرسة الإسلامية فى الأزهر بمصر وفى النجف بالعراق والقرويين فى المغرب والزيتونة فى تونس ، وكانت هناك المدرسة الإسلامية الشامية والمدرسة الإسلامية فى السودان والسنوسية المجاهدة فى ليبيا ومدرسة الجزائر وجماعات الشبان المسلمين والهداية الإسلامية والإخوان المسلمين ومدرسة دار العلوم ومدرسة المنار ومدرسة الفتح ومدرسة الرسالة ، ومن خلال ذلك عملت هذه الكتيبة من الأعلام الذين كانوا قد جمعوا بين ثقافات الشرق والغرب وبينهم من تعلم فى الأزهر وفى دار العلوم وفى جامعات استانبول وفرنسا وألمانيا ، ولم تكن اليقظة فى هذه المرحلة قاصرة على طبقة معينة أو قطر معين ، فقد امتدت دعوة التوحيد حتى شملت كل الأطراف ، وكانت بدايات القرن واضحة الدلالة فى إعادة طبع كتب ابن تيمية وابن حجر ، وكان الاتجاه السلفى واضحاً وضوحاً قوياً فى مدارس الشام ومصر والمغرب . وكان لعودة الوهابية فى الجزيرة العربية أكبر الأثر فى تعميق هذا المجرى الذى كان هو علامة القوة والحيوية وتحرر الفكر الإسلامى والثقافة العربية من جبرية الصوفية التقليدية التى سيطرت فترة طويلة وكان لها أثرها الكبير فى التخلف والجمود .

ومن حق أن يقال إن مفهوم التوحيد والتحرر من التقليد كان بعيد الأثر فى الحياة الفكرية جميعاً وكان هو أكبر علامات القوة ، وإذا كان قد بدأ وامتد على أيدى أهل المرحلة السابقة فإنه قد أضاف إليه جديداً لا شك فى جدته فى هذه المرحلة هو تأكيد مفهوم الرابطة بين الدين والمجتمع ، وأن الإسلام ليس ديناً فحسب ، ولكنه دين ونظام مجتمع ومنهج حياة وأنه عقد اجتماعى وحضارة وثقافة وفكر الشرق كله : الفكر الفارسى والهندى واليونانى بعد أن صهره وشكله من جديد فى إطار التوحيد .

(٢)

لقد عملت حركة اليقظة فى المجال الشعبى الاجتماعى وعاشت مع مشاعر الناس وعقولهم عن طريق الكلمة المكتوبة والكلمة المقولة عن طريق الصحف ومنابر الجمعيات ، فظهر بعد الحرب العالمية الأولى عدد ضخم من الصحف والمجلات فى مقدمتها صحيفتين يوميتين لها طابع إسلامى عربى هما الدستور (محمد فريد وجدى) والأخبار (أمين الرافعى) وكانت اللواء والمؤيد قد توقفتا خلال الحرب ، وكانت المنار (رشيد رضا) ما تزال تصدر شهرياً عشة خطاً ممتداً من أوائل القرن ومتصلة بالعروة الوثقى التى أصدرها جمال الدين ومحمد عبده فى باريس وقد عايشتها (الحياة - لفريد وجدى) والهداية لعبد العزيز جاويش والعالم الإسلامى لمصطفى كامل والعالم الإسلامى لجاويش ثم تابعتها مجلة الأزهر (١٩٠٠) لحسين رفقى و (١٩٠٧) محمود تركى .

ثم توالى صدور الصحف العربية الإسلامية خلال هذه المرحلة فلم تتوقف : المنبر ١٩١٨ الوجدانيات ١٩٢٠ لواء الإسلام ١٩٢٤ الشورى ١٩٢٤ المؤتمر الإسلامى ١٩٢٤ حضارة الإسلام ١٩٢٥ الزهراء ١٩٢٥ مكارم الأخلاق ١٩٢٥ الفتح ١٩٢٦ بشائر الإسلام ١٩٢٦ الرابطة الشرقية ١٩٢٨

الهداية الإسلامية ١٩٢٨ الشبان المسلمين ١٩٢٩ الجهاد الإسلامى ١٩٢٩ نور الإسلام ١٩٣٠ مجلة دار العلوم ١٩٣٠ النهضة الفكرية ١٩٣١ الجامعة الإسلامية ١٩٣٢ الإخوان المسلمين ١٩٣٣ الرسالة ١٩٣٣ المعرفة ١٩٣٣ ، المسلمون ١٩٣٣ ، الصرخة ١٩٣٣ ، دار العلوم ١٩٣٤ ، هدى الإسلام ١٩٣٤ صوت الإسلام ١٩٣٥ الأزهر ١٩٣٥ الرابطة العربية ١٩٣٦ نور الإسلام ١٩٣٦ المجلة الشرعية ١٩٣٦ الهدى النبوى ١٩٣٧ التشريع الإسلامى ١٩٣٨ النذير ١٩٣٨ مصر الفتاة ١٩٣٨ ، منبر الشرق ١٩٣٨ الأنصار ١٩٤٠ واشترك فى تحرير هذه الصحف عدد ضخم من الكتاب ، وقامت فى مجموعها بدور ضخم فى المجالين :

(أولا) مجال الكشف عن جوهر الإسلام والفكر الإسلامى .

(ثانياً) مجال الدفاع والرد على الشبهات التى كانت تروجها الصحف التغريبية وقد هاجمت هذه الصحف الربا والخمر والمخدرات والإلحاد والاباحة وانحراف الشباب وعرضت رأى الاسلام فى التعليم والتشريع والتربية وكشفت عن الحقيقة فى مجال العلاقة بين الفرعونية والعربية وبين العرب والاسلام وبين الدين والمجتمع ، وقد أولت هذه المجلات اهتمامها بقضايا الأقطار العربية والاسلامية وموالاة الدفاع عنها فى مواجهة أعمال الاستعمار والاحتلال والتبشير وكشفت عن الجوانب التى غطاها النفوذ الاستعمارى وعنيت بأخبار اليقظة والتقدم فى البلاد العربية والعالم الاسلامى حتى أنها دفعت بعض الصحف اليومية السياسية إلى تخصيص صفحات كاملة لهذه البلاد وخاصة البلاغ وكوكب الشرق ثم السياسة ، وبذلك كسرت هذا القيد من الاقليمية والقومية الضيقة التى فرضها النفوذ الاستعمارى على الصحافة والثقافة ، وحملت هذه الصحف إنذارات كثيرة عن أخطار الصهيونية وراجعت قصة فلسطين ودعت إلى الوحدة العربية . وأحرزت هذه المجلات والصحف تقديراً كبيراً من القراء فراجت وزاد توزيعها ونافست فى ذلك مجلات التغريب : السياسة الأسبوعية والمصور والمجلة الجديدة التى كانت معروفة بدعوتها التغريبية وموالاتها الغاصب .

(ثالثاً) وحفلت مدرجات ومنابر جمعيات الشبان المسلمين والاخوان والهداية الاسلامية ومكارم الأخلاق ومدرج دار العلوم بروادها فى أمسيات محاضراتها التى قام عليها عدد كبير من المفكرين والباحثين أمثال : عبد الوهاب النجار ، إبراهيم سلامه ، محمد أحمد الغمراوى ، محمد عبد المطلب ، أحمد ابراهيم محمود أبو العيون ، طنطاوى جوهرى ، على سرور الزنكلونى ، حسن منصور ، عبد العزيز جاويش .

وفى سوريا قامت جماعة شباب محمد وجمعية التمدن الاسلامى والجمعية الشرعية ونادى المراسلات الاسلامى والأخوة الاسلامية وإحياء مجد الاسلام وعشيرة الصوفية الأحرار ودارا تبليغ الاسلام والرابطة الاسلامية وجمعية الأنصار وجمعية منع المسكرات والجمعية الخيرية وجمعية المبشرين يرودها عدد ضخم فى أمسيات محاضراتها التى قام عليها عدد كبير من المفكرين والباحثين .

وعرضت هذه الجماعات لكل التحديات ، ولم تترك قضية من القضايا إلا وكشفت وجهة نظر

الفكر الإسلامى فيها ، وعملت فى مجال البناء الاجتماعى الأخلاقى وحماية الأسرة فى مواجهة الأخطار التى تعرضت لها ، ودعت إلى تربية روح الدين .

وقد عنيت جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية بإنشاء المدارس للبنين والبنات وعملت جمعية الوعظ والدعوة الإسلامية على فتح مكاتب تحفيظ القرآن واجتهدت الجمعية الشرعية فى محاربة البدع والمسكرات ونشر التعاليم الإسلامية الصحيحة وفتح مكاتب تحفيظ القرآن والمدارس وإنشاء مساجد تخلو من البدع ، أما الجمعية الخيرية فقد أنشأت جمعيات للفقراء ، وبلغ عدد من علمتهم فى الفترة من ١٨٩٢ - ١٩٤٢ (٤٦ ألف تلميذ ولها مستشفاها الكبير ومدرستها الصناعية فى حلوان لتعليم البنات الفقيرات ، وعنى نادى المراسلات بالسعى لتحقيق الوحدة الإسلامية عن طريق التعاون الاقتصادى والثقافى بين الشعوب الإسلامية وأولت جماعة الأخوة الإسلامية (عبدالوهاب عزام) تحت قبة الغورى بجوار الأزهر اهتمامها بالشباب الإسلامى فكانت ملتقى الشعوب الإسلامية من الأتراك والبلقانيين والتركستان وكانت أولى شرائط الأخوة فيها تدريس لغات العالم الإسلامى كالتركية والفارسية والهندية بهدف تحقيق تعارف المسلمين وتعظيم شأن الأخوة ، وأولت دار تبليغ

الإسلام . ومازال اهتمامها بدعوة الغربيين إلى الاسلام وقد تحقق على يدى قائدها المهندس محمد توفيق أحمد إسلام مئات من الأوربيين ، وعنى الدكتور غاوش بالدعوة إلى محاربة المسكرات وأنفق فى ذلك عمره رحمه الله فقد بدأ عمله منذ عام ١٩٠٥ واستمر مثابراً .

وكان الشيخ عبد العزيز جاويش اشتراكا واسعاً فى مختلف هذه الجماعات وكان السيد محمود خطاب والمين خطاب دورهما ودور أتباعهما فى الجمعية الشرعية ، وعمل أحمد مظهر العظمة فى جمعية التمدن الاسلامى فى دمشق وعمل بهاء الأميرى فى دار الأرقم بحلب ، وعمل الشيخ الخضر حسين فى مكارم الأخلاق ، كما ضمت هذه الجماعات عدداً كثيراً من الأعلام .

(رابعاً) وكانت جماعة الشبان المسلمين هى كبرى هذه الجماعات وكان من أبرز رجالها مؤسسها السيد محب الدين الخطيب ورئيسها عبدالحميد سعيد وأعضائها عبد العزيز جاويش وأحمد تيمور والخضر حسين والدكتور محمد أحمد الغمراوى والدكتور يحيى الدرديرى والدكتور على مظهر ومحمود على فضلى ومحمد الهراوى وعلى شوقى ومن أبرز شبابها : محمود محمد الخضيرى ، ومحمود محمد شاكر ، وعبد الفتاح كير شاه وكامل البان ومحمد محمود ، ومصطفى محمود القاضى ، وزكى القاضى ، وعبد السلام محمد هارون وعبد المنعم خلاف ومحمد أبو الفضل إبراهيم وتوفيق أحمد وعبد الهادى أبو ريدة .

وقد حددت جمعية الشبان المسلمين أهدافها :

(١) إحياء مجد الاسلام فى عقائده وآدابه وأوامره ونواهيه ولغته ومقاومة الالحاد والاباحية

(٢) العمل في سبيل إحياء مجد الإسلام بإعادة شريعته وإمامته الكبرى .

(٣) بذل الجهد في توثيق رابطة الإخاء بين جميع المسلمين وإزالة الجفاء والاختلاف بين طوائفهم وفرقهم .

(٤) السعي لتقوية الأمم الإسلامية بالمعارف التي ترفع مستواها العلمي والاقتصادي والاجتماعي والتي تزيد المسلم تمسكا بتعاليم الإسلام وفضائله .

كما أعدت الجمعية برامج متعددة شاركت فيها مختلف الجمعيات والهيئات التي انبثقت فيها وفي مقدمتها : درس مشروع تأسيس بنك إسلامي ، وجمعيات تعاونية إسلامية وتأسيس صحيفة إسلامية وتأسيس بنك إسلامي ، وجمعيات تعاونية إسلامية وتأسيس صحيفة إسلامية يومية وتعميم اللغة العربية في البلاد الشرقية وتكوين عصبة أمم إسلامية لحل المنازعات الإسلامية ، وتشجيع المسلمين على إعادة الخلافة وإنشاء مدرسة لتعلم القرآن في كل جمعية ، وإحياء الثقافة الإسلامية ونشر أحاديث النبي الصحيحة لتكون موضع التثقيف الديني والدعوة إلى سن تشريع بمنع البغاء والخمر والميسر ، ومنع التبرج وغشيان الأماكن المفسدة للأخلاق واتخاذ الروايات التمثيلية الإسلامية وإنشاء مدارس إسلامية ونشر تفسير القرآن تكتبه لجنة علمية من رجال ذوي كفاية وقيام المسلمين بكتابة موسوعة إسلامية وتأسيس لجنة علمية تقاوم الإلحاد وتفهم عقول الناس ، وإرسال مثلين للحكام ودحض شبه المبشرين في اجتماعاتهم والتمييز في القانون بين الطاعن في الدين وحرية التفكير .

وقد تحدثت مجلة الفتح عن هذه الجمعية وقت إنشائها (١٧ / ١١ / ١٩٢٧) فقالت أن قصد هذه الجمعية السعي إلى أن يكون الشبان المسلمين في مصر وغير مصر ، المثل الأعلى للفضيلة والاستنارة ووزن آراء الرجال بالقسطاس المستقيم حتى لا يطمع ذو قلم أو ذو لسان أن يأخذهم إلى غير هدى ، ويكفيها مزية أنها ستجعل آداب الإسلام وتاريخ عظمائه حظا وافرا في محالتها وفي إيقاف النشء النجباء على محاسن الإسلام ، وما كان لرجاله من مظاهر العظمة :

وكشفت المجلة عن اتجاه جمعية الشبان المسلمين إلى بث الآداب الإسلامية والأخلاق الفاضلة والسعي لإنارة الأقطار بالمعارف على طريقة تناسب روح العصر ، والعمل على إزالة الخلاف أو الجفاء بين الطوائف والفرق الإسلامية والأخذ من حضارتي الشرق والغرب بحاسنهما جميعا وترك ما فيها من مساوىء .

وقد أشار الدكتور عبد الحميد سعيد إلى أن جمعية الشبان تكونت في ظل تحدي خطير هو خطر التبشير والجمعيات الإلحادية والتفرنجية وقال : رأينا الخطر المحدق بتلاميذنا وشبابنا ورأينا أن يستهدف شبابنا لما فيه من شرور ورأت جماعتنا أن الملحدين وأنصارهم كثروا وأن النزعات

اللادينية والعاملين على نشر بذورها وتعميم أذاها قد كثروا ، وأن وسائل التقويض أركان الفضيلة وبث جراثيم الرذيلة قد اتسع نطاقها وأن الجمعية جاءت لترد الأمور إلى أصولها .

وقد عملت جمعية الشبان في ميادين مختلفة أهمها :

(١) درس الحركة الفكرية للأمة العربية والعالم الإسلامي لمعرفة مصادر هذه الحركة الفكرية واتجاهاتها ومقابلة ذلك بحاجة الأمة العربية .

(٢) درس أغراض المستشرقين في كتبهم ومجلاتهم وجمعياتهم ومؤتمراتهم ولا سيما فيما يتعلق بالعالم الإسلامي والإسلام والرد على شبهاتهم .

(٣) درس مساعي المبشرين والشعوبيين والإطلاع على كتبهم ونشراتهم الدورية ومعرفة أغراض جمعياتهم ومؤتمراتهم من وجهة نظر وحدة الأمة العربية والإسلام .

(٤) تعريف العالم الاسلامي والأمة العربية بآثار بعضها الأدبية والفكرية وأعلامها

(خامساً) وقد نمت الجمعية نمواً سريعاً وانشأت فروعاً في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وزاد أعضائها على المليون وأصبحت قبلة عشرات العلماء والكتاب والوعاظ من مختلف أنحاء الأقطار الإسلامية يردون إلى مصر ويحيطون بها ويتحدثون إلى شبابها وشاركت في مختلف قضايا العالم الاسلامي وأهمها قضية فلسطين ففي يوليو ١٩٢٠ عقدت مؤتمرها الذي قررت فيه الدفاع عن حق العرب بحائط البراق ، حيث فتح الشبان أعين المصريين على خطورة الوضع في فلسطين وبعثوا فيها الحماس من أجل العمل ، كما قرر الشبان في أكتوبر ١٩٣٠ الدفاع عن مراكش ، وكذلك اتخذ الشبان المسلمون أنفسهم حراساً للبلاد العربية في وجه الاستعمار ولم يمنعهم إيمانهم بوجوب تقوية الروابط بين المسلمين من العمل على تقوية الروابط بين العرب ، وكانت أول مطالبة صريحة لهم بالوحدة العربية عام ١٩٢٣ في ذكرى معركة حطين وقام الشبان بحملة من أجل توجيه الثقافة المصرية توجيهاً شرقياً إسلامياً وعربياً سنة ١٩٣٦ وكانت حركتهم رد فعل لدعوة طه حسين وأصحابه لتوجيه الثقافة في مصر توجيهاً غربياً متوسطياً واستطاعت أن تصمد لتيار الإلحاد الجارف بعد أن استولى على أدوات الثقافة والنشر في العالم الاسلامي وفي مصر على الخصوص .

(سادساً) وقد عرض دكتور جورج كيمار لأهمية الشبان المسلمين في مجال اليقظة العربية فقال : إن الغرض الأول لهذه الجمعية التي وضعت منذ إنشائها في يدي مجلس إدارة انتخب من بين العناصر المثقفة والسياسية الأشد تمثيلا للروح التي تسودها وتحفزها هو تحقيق الاصلاح الضروري للبيئة الاجتماعية قاطبة والتي أفسدها المثل السيء الذي جاء من الخارج والناشيء من إدخال عادات وآداب سيئة (كالمخدرات والخمور والقمار الخ) وإهمال الفروض والأعمال التي يفرضها القرآن على

كل المسلمين على الدواء والعلاج الوحيد على ما قيل هو العودة للقرآن والتأدب بآدابه وقال « إن الجمعية قد ركزت الشطر الأكبر من جهودها ونشاطها في مقاتلة البعثات التبشيرية وإنك لتتبين في غير عناء أنها وقد أنشئت طبقاً المادة الثالثة من القانون الأساسي لتجديد الاسلام قد أحست بالحاجة لمقاومة كل قوة يمكن أن يسلب الاسلامي من العناصر التي بدرجة تعليمها المالية وطبقتها الاجتماعية السامية ، مهيئة لتكون الطبقة الممتازة في البلاد ، والتي ألزم ما يكون لنجاح الاصلاح ، وسواء كانت المؤتمرات في يافا أو حيفا أو بيت المقدس أو البصرة أو في القاهرة اتخذت قرارات دقيقة قدمت الحكومات ذات الشأن في شكل مطالب بقصد المبادرة إلى اتخاذ إجراءات ترمي إلى شل أعمال التعليم الأجنبي المعتبرة خطرة وفي غير أوانها .

وفي تقرير المستشرق كيفماير : أن رجال الجمعية ذو ثقافة عالية جامعة لميراث الشرق وتعاليم أوربا ، شبان في عنفوان شبابهم ذو إدارة يغذونها بالنشاط الذي ينبع من الخلق المتين الذي يتلخص في حب الله وحب الوطن ، والغاية التي يسعون إليها هي وضع الدعائم التي يقوم عليها وحدها كل إصلاح وتجديد ليصلوا إلى العقيدة الخالصة والأخلاق الصحيحة والتعليم التام بما يلائم حاجات بلادهم » ا . هـ

وقد اجتهدت الجمعية على أن تكون حياتها أمام الناس صورة طبيعية مهذبة من الحياة الاجتماعية العامة غير متكلفة ولا معزولة عن الماضي الصالح والحياة العصرية النافعة ، لتقضي في ذهن الشباب المسلم على الفهم المخطيء لحياة التدين ، من أنها حياة الجمود على القديم ولو كان فاسداً والتغلب على الحديث ولو كان صالحاً ، والحرمان من طيبات الدنيا وزينتها البريئة المتجددة الخالصة والانفصال عن التفكير في الدنيا والدين والانعزال عن تيارات الحياة ومصارعتها وسوء الظن فيها والرهبة منها ومن أنه حياة اتخاذ أزياء وسمات خاصة ، ويمتاز شباب الجمعية بأنهم أفراد عاديون معتدلون غير متعنتة ولا جامدين متنطعين ، وليس لهم سمة خاصة بهم أو طباع تعزلهم عن السلوك العام للمجتمع إلا فيما يتصل بحياة الإثم والانحطاط .

وتلك هي روح الاسلام وطابع المسلمين الأولين في مدرسة النبي ﷺ فقد كانوا جميعاً أبناء عصرهم الممارسين لضروب العمل الصالح الدنيا في التجارة والزراعة والجندية والأدب والسياسة والرحلة والتعليم كما يمارسون التعبد بالعبادات في غير جمود ولا تمايز وانفصال بين رجال الدنيا كما هو حاصل الآن مع الأسف ، إذ كانوا كلهم رجال دين ودنيا في وقت واحد ، تمشياً مع أصل الأصول في الاسلام وهو صلاح الفرد الحياتين . وقد آمنت الجمعية من أول يوم بأنه لا نهوض المسلمين إلا بالحرص على الباقيات الصالحات من حضارة الشرق ومواريثه والحرص على اقتباس كل ما هو نافع مفيد من حضارات الغرب التي فيها من العلوم والفنون والآداب والأعمال » .

المدرسة القرآنية : جماعة الإخوان

وكانت الثمرة الثانية لحركة اليقظة هي جماعة الإخوان التي أنشأها في الإسماعيلية الأستاذ حسن البنا، تبدأت على الفور بعد جماعة الشبان المسلمين بقليل . يقول السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلة الفتح : إنه بعد أن تكونت جماعة الشبان المسلمين وصار لها الأعضاء عضو يلتقون فيها ، وبعد أشهر من ذلك وفي نفس الغرفة التي ولدت فيها الجمعية سعدت بلقاء بضعة رجال كان المتكلم فيها يحمل قلباً ولا كل القلوب ، ولعل أملها هي التي تهيئت لأجلها التحدث إلى الناس بهذه الذكريات مع مرور أكثر من عشرين سنة عليها .

إن الأستاذ حسن البنا أمة وحده وقوة كنت أنشدها في نفس مؤمن فلم أجدها إلا يوم أن عرفته في تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفية ١٣٤٦ وكنت ابن صنعة يوم اكتشفت بيني وبين نفسي حاجة الإسلام إلى هذا الداعية القوي الصابر المثابر الذي يعطي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه من قوة ومرونة ولين وجلد وصبر وثبات إلى النهاية ، وقد كان أول ما نشرته وأظنه أول شيء نشره هو مقالة (الدعوة إلى الله) في خاتمة السنة الثانية من الفتح (٥ ذي الحجة ١٣٤٩) ثم دعوته أن يحاضر الشبان المسلمين في دارهم ، فملأ قلوبهم من قلبه ما شاء الله له من توفيق ، ومن خلال ذلك كانت نواة (الإخوان المسلمين) قد غرست في الأرض الصالحة ، وبينما كانت الجمعيات الاسلامية الأولى تتحول بالتدريج إلى أندية رياضية كانت هذه النواة تبشر بأنها الأمل الذي كان يرجوه شيوخ الملة : أحمد تيمور وأبو بكر يحيى وعبد الرحمن قراعة وإخوانهم يوم اجتمعوا في دار المطبعة السلفية بشارع خيرت يقلبون وجه الرأي في السلاح الذي يقابلون به موجة الالحاد التي تحولت بأحداث الغرب وتسلطه من موجة ماء تهدد بالغرق إلى موجة بنزين تهدد بالنار التهم الأخضر واليابس » .

بدأت الجماعة في الاسماعيلية (١٩٢٨) وانتشرت في آفاق الوجه البحري حتى قدم الأستاذ البنا إلى القاهرة (١٩٣٢) فبدأت عملها بطابعها الخاص الذي عرفت به والذي تميزت به عن الجماعات الأخرى وهي :

التربية - إيقاظ روح الجهاد - الايمان بالاسلام دنيا ودولة .

قال الأستاذ البنا : هل نحن قوم غامضون ، إننا نعمل من أجل غايتين : الغاية الأولى هي المساهمة في الخير العام أياً كان لونه ونوعه والخدمات الاجتماعية كلما سمحت بها الظروف . أما غايتنا الأساسية وهدف الاخوان الأسمى هو الاصلاح الشامل الكامل الذي تتعاون عليه قوى الأمة جميعاً وتتجه نحوه الأمة جميعاً ويتناول كل الأوضاع القائمة بالتغيير والتبديل . ويتلخص في إرشاد الناس إلى

(٢٣ ، ٣٤ مقدمات ج ١٠)

نظام اجتماعى شامل اسمه الإسلام ، إذ أن الإسلام جاء نظاماً وإماماً دين ودولة ، تشريعاً وتنفيذاً فبقى النظام وزال الإمام واستمر الدين وضاعت الدولة وازدهر التشريع وذوى التنفيذ . أما الوسائل فتتمثل فى الإقناع ونشر الدعوة ثم النضال الدستورى حتى يرتفع صوت هذه الدعوة فى الأندية الرسمية . أقولها فى صراحة ووضوح لسنا سياسيين حزبيين نناصر حزباً وتناهض آخر ولن نكون إما أننا سياسيون بمعنى أننا نهتم بشئون أمتنا ونعتقد أن القوة التنفيذية والعزة القومية ركن من أركانه وفريضة من فرائضه ، وأننا نعمل جاهدين لاستكمال الحرية لإصلاح الأداة التنفيذية ، فنحن كذلك ونعتقد أننا لم نأت فيه بشىء جديد فهذا هو المعروف عند كل مسلم درس الإسلام دراسة صحيحة .

إن كثيراً من رجال الأحزاب قد عملوا على خدمة القضية السياسية المصرية واشتركوا مثلاً فى الجهاد فى سبيلها ، ولكنا جميعاً لم نقتنع بعد بوجوب المناداة بالإصلاح الاجتماعى على قواعد الإسلام وتعاليمه ولا زال أغلبها جميعاً يفهمون الإسلام على أنه ضرب من العبادات والروحانيات لا صلة له بحياة الأمم والشعوب الاجتماعية والدنيوية .

إن موقف الإخوان من الحكومات فهو موقف التناصح الدقيق الذى يتمنى لها السداد والتوفيق يصلح الله بها هذا الفساد ، وإن كانت التجارب الكثيرة كلما تقنعنا بأننا فى واد وهى فى واد (وياويح الشجى من الخلى) لقد رجعنا الحكومات المتعاقبة كثيراً من مناهج الإصلاح وتقدمنا بكثير منها بمذكرات ضافية ، وإن الإخوان سيعملوا على تحقيق ذلك ، وليعلموا أن اليوم الذى يكون فيه الإخوان المسلمون مطية لغيرهم أو أداة لمنهاج لا يتصل بمنهاجهم لم يخلق بعد وأنهم لا يقادون برهبة ولا برغبة ولا يخشون أحداً إلا الله ، ولا يغريهم جاه ولا منصب ولا يطمعون فى منفعة ولا مال ولا تتعلق نفوسهم بغرض من أغراض الحياة الفانية ، ومن حاول أن يخدعهم خدع ، ومن أراد أن يستغلهم خسر ، ومن طمع فى تسخيرهم لهواه أخفق .

وهكذا نجد أن جماعة الإخوان تحمل فكراً جديداً ، فهى فى نفس الوقت الذى تعقد فيه حلقة من حلقات اليقظة الاسلامية فإنها تركز على عناصر عميقة الدلالة ، تتمثل فيها العودة إلى المنابع والتماس أسلوب النبى ﷺ فى الدعوة الأولى ولتكوين جيل جديد يفهم الإسلام فهماً صحيحاً ويعمل بتعاليمه ويوجه النهضة إليه حتى تكون مظاهر حياة الأمة مستمدة من روحه وفكره على قواعده وأصوله ، وقد جعل من خصائص الدعوة :

(١) بناء الفرد المسلم على الإيمان والتضحية والبذل ،

(٢) التدرج فى الخطوات وانتظار الزمن وعدم التسرع بالنتائج .

(٣) البعد عن مواطن الخلاف الدينى ومزالق الجدل الفقهى .

(٤) التوجه إلى صميم الدين ولبه .

وهكذا كان هذا الجيل الذى لوائه الدعوة (من الشباب والطلبة) مختلف أشد الاختلاف مع غيره فقد ربى على نحو خارجى وأعد إعداداً روحياً وتربوياً دقيقاً فكان كل منهم يحفظ أجزاء من القرآن وعشرات من الأحاديث وله إلمام بتاريخ الإسلام وموقفه وله إلى ذلك هدف صريح ورسالة واضحة وكانوا على الرغم من أنهم لم يبلغوا الخامسة عشرة يبهرون الناس بذلك القدر من الفهم العميق والأداء البليغ وكانوا يتصدرون المساجد فى كل مكان ويتكلمون ويؤمنون فى الصلوات ويتحدثون إلى أجيال أكبر منهم عن الإسلام ودعوته ، هذا الجيل هو العمل الضخم الحقيق الذى قام به حسن البنا قبل أن يتصدى لتبليغ دعوته إلى القادة والمسئولين والحكام وقد اقتحم هذا الجيل الجامعة وحطم أحلام طه حسين الذى حاول أن يغربها فقد سيطرت روح الاسلام الحقة على الجامعة وطرد منها طه حسين .

وكذلك صحح المفاهيم والمصطلحات المطروحة فى الساحة كلها من وجهة نظر الاسلام (الديمقراطية ، القومية ، الاقتصاد ، السياسة) معلنا أن الاسلام يحمل الحكومة ركنا من أركانه وهو حكم وتنفيذ وشريعة وقضاء وقانون لا ينفك أحدهما عن الآخر وأن العمل للوطن ثم للوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية وأن تكون الوحدة العربية منطلقاً إلى الوحدة الاسلامية ، وأن تكون الخلافة والعمل لاعادتها على رأس مناهجهم لأنهم يرونها رمز الوحدة الاسلامية ومظهر الارتباط بين أمم الاسلام وأنه : لا القومية ولا العالمية ونعم الأخوة الاسلامية .

ومن ثم فالدعوة جماع كل عمل فهى طريقة صوفية تعمد لاصلاح النفوس وتطهير الأرواح وجمعية خيرية نافعة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتواسى المكروب ومؤسسة اجتماعية تحارب الجهل والفقر ، وحزب سياسى نظيف يجمع الكلمة ويبرأ من الغرض وبهذا فالاخوان هم دعوة القرآن الحقة الشاملة .

(٢)

وقد جاءت صيحة الدعوة الاسلامية بعد أن غلب اليأس على الأجيال الجديدة من عجز الأحزاب السياسية وفشل النظام الليبرالى الغربى وقد كشفت التجربة خلال سنوات ما بعد ثورة ١٩١٩ عن خيبة الأمل فتعلقت النفوس بالصيحة الجديدة لأنها أقرب إلى الأصالة وقد اعتمدت على العودة بالمجتمع الاسلامى إلى المنابع فى التماس طريق الله والانطلاق من اليقظة التى بدأ منها رسول الله ﷺ وهى تربية الشباب على الايمان بالله والتضحية فى سبيله واعتناق الاسلام منهج حياة ونظام مجتمع وسرعان ما انفضت العناصر من حول معسكر الحزبية المتصارع الذى كان يتقاتل أفراده على المطامع الداخلية ولم يكن يعمل لمواجهة النفوذ الأجنبى بل إنه كان وهو يدعو إلى الحرية السياسية يخضع خضوعاً تاماً لأسلوب الحياة الغربى ويعلى من شأنه ويقف من المنهج الغربى فى السياسة والاجتماع والاقتصاد موقف الإعجاب والتأييد .

وقد استفاضت أشواق الأمة عن طريق الدعوة الاسلامية فى استشراف المنطلق الصحيح لامتلاك الارادة وقيام المجتمع الربانى وتطبيق منهج الله .

وقد حفلت المرحلة التالية بأحاديث الدور الذى قامت به الدعوة فى معركتى فلسطين والقتال وأسلوب الجهاد والتضحية الذى أعاد صورة الرعيل الأول فى تضحيته بالنفس والمال فى سبيل الله وكان أعظم ما حققت الدعوة الاسلامية أن فتحت الطريق إلى تحرير الفكر الاسلامى من أخطار التغريب وشبهات الاستشراق والكشف عن المخططات التى كانت ترمى إحتواء المفهوم الاسلامى الأصيل وتدميره وتزييفه بفرض مفاهيم وافدة عليه تحول بينه وبين الأصالة الحقيقية ، وكان من أكبر ما أعطت الدعوة الاسلامية أن حررت القيم وصححت المفاهيم وعززت المنهج الاسلامى الخالص القائم على التوحيد والترابط بين الدين والدولة والعقل والقلب والروح والمادة والدنيا والآخرة وأزاحت تلك المحاولة الخطيرة التى كانت ترمى إلى فرض التصور الغربى للإسلام وكأنه دين لاهوتى قاصر على العلاقة بين الله والانسان وحجب مفهومه الجامع الذى لا يستكمل إلا بتقديم منهج العلاقة بين الانسان والمجتمع ممثلا فى اطرة الاسلام العامة والاجتماع والاقتصاد والتربية وبذلك سقطت عن الفكر الاسلامى سيطرة الأيدلوجيات الغربية سواء الرأسمالية أو الماركسية أم الصهيونية التلمودية .

وفتحت الدعوة العيون والقلوب إلى مجموعة من الحقائق صاغت أسلوب الأمة على المدى الطويل يأتى مقدمتها إن عمل الغرب فى فرض أسلوب العيش الغربى على المسلمين محاولة باطلة وزائفة ، وقد كشفت الاحداث من بعد عن فشل تجارب الليبرالية والماركسية والقومية والعلمانية التى حاول النفوذ الغربى تسييدها وقد حذرت الدعوة من هذا الخطر ووجهت المسلمين والعرب إلى الحذر والحرص فى مواجهة كل ما يقدم الغرب من مناهج ولغات .

ثم إنها جمعت الناس بعد فرقة طائلة سببها اختلاف أساليب التعليم والثقافة بين المناهج الفرنسية والانجليزية وغيرها ، جمعتها على وحدة فكر وعلى إيمان أكيد بحتمية الحل الاسلامى والمنهج الاسلامى ، كذلك فقد حررت الضمير العربى الاسلامى من القومية بمفهوم العصبية والعنصرية والدم .

ولقد كشفت الابحاث التى نشرت بمناسبة مرور عشرين عاما على مولد الدعوة (١٩٢٨ - ١٩٤٨) أنها قد انتشرت فى مختلف البلاد الاسلاميه فأصبحت (حركة إسلامية عالميه) وادى النيل ، فلسطين ، الاردن ، سوريا ، لبنان ، العراق ، الكويت ، اليمن ، إمارات الخليج . الحجاز ، المغرب العربى ، أندونيسيا ، سيلان ، الباكستان ، إيران ، الأفغان ،

تركيا ، أوربا ، أمريكا وإن الأنصار العاملين فى وادى النيل يبلغ عددهم نصف مليون والمنتسبون أضعاف هذا العدد وإنها حققت (إحياء النظام الإسلامى الاجتماعى الكامل) الذى لا تقبل التجزئة فى وحدة متكاملة لكل مظاهره .

من حيث المثل العليا الاجتماعية أولا ، ثم من حيث أوضاعه العملية التى تحل كل مشاكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية وأنها ليست حزبا سياسيا بل حركة إسلامية شاملة مهمتها توجيه الشعب المسلم توجيها سليما وتهيئته تهيئة صالحة .

وقد جاء الإمتحان لصيحة « الجهاد سبيلنا » فى قضية فلسطين فأثبت صدق رجال الدعوة وعمق إيمانهم والحاقهم بالسلف الصالح من الأنصار والمهاجرين ، وقد كانت هذه الدعوة فى تقدير الخاصين هى مظهر إرادة الله تبارك وتعالى النافذة وقدرته الغالبة .

وإنها فى هـــذه المرحلة بمثابة القوة الوحيدة الصامدة أمام الخطرين الداهمين اللذين يهددان العالم الإسلامى والوطن العربى أولا ويهددان البشرية كلها بعد ذلك وهى خطر الإلحاد وخطر الاستعمار .

فإن هذه المادية الطاغية الجارفة التى استولت على تفكير وتصرفات الدول الكبرى جعلتها لا تزن الأمور إلا بميزان المنافع والمصالح الشخصية والاستعمارية ولا تقيم وزناً لما عدا ذلك من المثل العليا وقواعد الخير والإنصاف والسمو ودفعت بها بعد ذلك إلى التحايل على أن تبقى قيود العبودية وأغلالها فى أعناق وأيدى وأرجل الشعوب الناشئة التى لا ترضى أبداً بغير الحرية والتقدم ، هذه المادية التى تقودها اليهودية العالمية وتعولها الدول الاستعمارية لا علاج لها إلا فى الدعوة الاسلامية ولاقوة تصمد أمامها مع الأسف إلا هذه الجماعة) .

ولقد كانت كل النذر توحى بتعرض هذه الدعوة لأقسى الامتحان وأشد الاختبار وكان على أصحاب الدعوة الصمود فى وجه المحنة حتى ينجلى فقد أنذرهم بذلك إمامهم ومرشدهم وكشف عن وعد الله الحق لهم إذا ثبتوا أن يتسلموا راية الحضارة الانسانية ليسعدوا البشرية ويحرروها بعد أن فشل الغرب وتخبط ، ذلك إن الدنيا قد وصلت فعلا إلى مرحلة الحيرة واليهود والضلال وليس غير الدعوة الاسلامية فهى وحدها القادرة على أن تحقق لها أملها والله غالب على أمره .

(٣)

وقد نمت الجمعيات والهيئات الإسلامية والعربية وتنوعت أغراضها خلال هذه الفترة ، وكان من أبرز الجمعيات ذات الطبيعة المصرية العربية الإسلامية جماعة مصر الفتاة التى عملت فى مختلف أوجه النشاط الوطنى والقومى والإسلامى .

وكان مفهوم مصر الفتاة : إن الفرعونية ليست إلا مجداً مصرياً أصيلا يتغنى به ويوضع موضع التقدير التاريخى الكامل ، أما بالنسبة لأن تخير مصر بين أن تأخذ بالمدنية الفرعونية أم بالمدنية الغربية فإن الأمر يختلف كل الاختلاف ذلك أن أساس الحضارة (الدين واللغة) فهل سيأخذ المصريون بعبادة إيزيس وأوزوريس ، أم هل سيكتبون باللغة الهيلوغريفية بدلا من اللغة العربية ، إنه من الحتم فى الاجابة على هذا التساؤل أن يأخذ المصريون بالمدنية العربية التى يعيشون فى امتدادها : ديناً ولغة وثقافة . وهكذا أمكن تعديل مفهوم (المصرية) الذى كانت دعوة التغريب تعمل على تحويله إلى مفهوم فرعونى خالص بعيداً عن الأرضية العربية الاسلامية ، إلى مفهوم مصرى أصيل قائم فى نطاق العروبة والاسلام . أما الأمر الثانى الذى عملت جمعية مصر الفتاة على التركيز عليه فهو محاولة إعطاء الحياة السياسية المصرية طابع الدين والأخلاق ، فقد كان قيام مصر الفتاة بعد الحركة السياسية المصرية بعشر سنوات حجة على فساد هذه الحركة . هذا الفساد الذى كان مصدره ابتعاد السياسة المصرية عن مفهوم الأخلاق والدين كقيمة أساسية فى العمل السياسى والاجتماعى .

وقد تجلت هذه المعانى فى كتابات أحمد حسين وفتحى رضوان .
مع التركيز على الوطنية والمصرية أساساً : على حد تعبير قادة هذه الحركة :

- مصر التى علمت الانسانية وأضاءت على العالمين .

- مصر التى رفعت لواء الأديان جميعاً وأعلت كلمة الله والاسلام .
- مصر مركز العالم وزعيمة الشرق .
- مصر فوق الجميع .

وكانت هذه الدعوة صادقة فى مواجهة الحملات الاستعمارية واتهامات الاحتلال لمصر بأنها ليست أمة وليس لها تاريخ ، ولذلك فقد جاءت عبارات مصر الفتاة إسلامية المضمون عربية الأساس على هذا النحو :

مصر هى مركز العالم ومعلمة الانسانية وأم الحضارات ومنبع الحكمة وموئل الأديان جميعاً ، منها خرجت الديانة الموسوية وبها احتمت المسيحية ، وهى التى رفعت لواء الاسلام عالياً ، وأنشأت جامعة الأزهر ، وهى التى حاربت الصليبية فهزمتها وأسرت ملوكها ، وهى التى أنقذت المدنية والعالم

من شر التتار المغيرين ، وهي التي أفنت كل أعدائها وبقيت حية خالدة ، وهي التي رمت الجيوش الإمبراطورية إلى البحر ، وهي التي قرعت جيوشها أبواب أوربا وأخافت أساطيلها الأساطيل أيام محمد علي وهي التي تقود الإسلام اليوم ، مصر فوق الجميع ، رغم أنف الجميع .

وقد وجهت مصر الفتاة دعوة وضحت فيها الأخطار التي كانت تحيط بمصر :

(١) الأراضي المصرية مرهونة للأجانب .
(٢) رءوس الأموال جلها ملك الأجانب .
(٣) الديون المصرية كلها في يد الأجانب .
(٤) البرلمان قاصر عن التشريع للأجانب .
(٥) القضاء المصري قاصر عن الحكم على الأجانب .
(٦) البوليس المصري قاصر عن إيقاف المجرمين الأجانب .
(٧) الحكومة المصرية قاصرة عن فرض ضريبة على الأجانب .
(٨) تجارة السموم في مصر يروجها الأجانب .
(٩) الشعب المصري لا يحترمه الأجانب .

وقد عمدت جمعية مصر الفتاة إلى الدعوة إلى أن الطريق لتحرير مصر من الاستعمار البريطاني يتركز في القوة ، وهاجمت الأحزاب السياسية قائلة : إنهم يفهمون الكفاح على أنه مسايرة الإنجليز والتفاهم معهم وأن القضية المصرية يمكن أن تحل عن طريق المفاوضات ، طريق سياسة اللين والمصانعة وأما نحن فنرى في الإنجليز أعداء طبيعيين لا يضمرون لنا إلا الفناء ، إنه قانون طبيعي أن لا تفاهم بين القوي والضعيف ، قضيتنا مع الإنجليز لا تحل إلا بالحديد والنار ، إلا بالقوة المادية ، إننا نعتقد أن مفتاح القوة بين أيدينا وأن الكفاح يجب أن يكون مع أنفسنا ولنغير ما بأنفسنا فيغير الله حالنا ، لقد أصبح الدين الحنيف أثراً بعد عين ، لقد انصرفنا إلى اللهو وانتهاب اللذات ، الشعب المصري أغرق في شهواته فهو يسرف في العبث ويكذب ويغش ويخدع ويقامر ، فلنصلح كل هذا ، ولنطهر أنفسنا ولنرجع إلى ديننا ، وسط هذا الكفاح يجب أن نقوي مواردنا الاقتصادية ونملأ الوطن بالمال والثروة ، إن إعادة الروح إلى مصر ليس أمراً هيناً أو سهل المنال ، لا بد من تضحيات ، ففي مصر غاصب يحول بيننا وبين محاولة التخلص منه ، غير أن الإيمان الثابت العميق ليدك الحصون ، وقد اتجهت مصر الفتاة إلى خلق الروح العسكرية .

وقد وجهت الاتهامات إلى مصر الفتاة بأنها اتجاه يستمد مطالبه من حركة الفاشست الإيطالية التي كانت تهز أوربا في هذه الفترة ، وقد وجه هذا السؤال إلى الأستاذ أحمد حسين فقال : أما إننا نقلد موسوليني وهتلر فلا ، إذ بيننا وبين ألمانيا وإيطاليا فوارق كثيرة في الأنظمة السياسية . ثم إن الفاشية الألمانية والإيطالية فاشية مادية لا روحية فيها ، أما نحن فالجانب الروحي غالب وبه ،

ونحن مشغولون بالدين ومهتمون بالدعوة الدينية وكل ما بيننا وبين الفاشست من شبه هو هذا القميص على أن القمصان عرفت في التاريخ قبل أن يعرفها رئيس وزراء إيطاليا والتحية التي نرفع بها أيدينا هي تحية مصرية قديمة قبل أن تكون تحية رومانية ، أما الأصول والأسس فلسنا نقلد فيها أحداً ولا اقتبسناها من هيئة ولا أمة . وقال الأستاذ فتحي رضوان : إن أثر الروح العسكرية بين الشباب يحقق روح الإقدام والشجاعة مع الدعوة إلى القضاء على الخمر والموبقات التي تضعف حيوية الأمة وتنخر في عظامها وقد بدأت مصر الفتاة تسحب الشباب من المقاهي ودور اللهو ، ومقاطعة السينمات الأجنبية ومحاربة الموبقات وتعلق أهمية كبرى على تنقية المجتمع المصري من أدران الملاهي والمسكرات والدعارة فإن هذه هي الوسيلة الكبرى لإعادة الأخلاق وملء الشباب بالروح القوية الوثابة » .

وقد كان الأزهر على رأس المؤسسات الفكرية الإسلامية العربية التي حملت لواء اليقظة بعد أن جدد نفسه وشارك في الحياة وأدخل العلوم الحديثة ، وحطم القيد الذي قيده به النفوذ الاستعماري طوال فترة تزيد على خمسين عاما منذ بدأ الاحتلال البريطاني وعمل على عزل الأزهر عن الحياة لإضعافه ، حتى لا يكون مؤثراً عاملا في الحياة الفكرية والاجتماعية في مصر والأمة العربية والعالم الإسلامي، وقد جرت المحاولات المتعددة لإصلاحه . بدأها جمال الدين الأفغاني خلال إقامته في مصر ثم مضى الشيخ محمد عبده في تحقيق الاصلاح غير أن الاحتلال البريطاني كان حفيا أن يوقف هذا العمل ويجمده ، حتى أمكن لحركة اليقظة الاسلامية أن تدفع الأزهر عن طريق عدد من رجاله الذين خرجهم والآخرين الذين آمنوا بدوره وأهميته وكان مشروع المراغي عام ١٩٢٨ حجراً هاماً في هذه الحركة ثم كانت ثورة الأزهر ١٩٣٥ وما تبعها من إصلاحات دافعاً للأزهر على الخروج من عزلته .

ودور الأزهر في حماية الفكر الاسلامي (القرآن واللغة العربية) خلال مرحلة الضعف والتخلف له أهميته البالغة ، ودوره في تاريخ حركات المقاومة للنفوذ الاستعماري واضح الدلالة على مدى أهمية القيم الاسلامية في النضال من أجل الحرية ، فقد قاوم الأزهر الحملة الفرنسية والاحتلال البريطاني وكانت له مشاركة فعالة في مختلف ثورات القاهرة وفي ثورة ١٩١٩ قاد المعركة حتى وضعه الاستعمار في صف الخاطر التي يخشاها ورسم خططه على أساس تجميده حتى يستطيع أن ينطلق بأساليب التعليم والثقافة والمجتمع بعيداً عن نفوذ الفكر الاسلامي ، وقد اشار اللورد لويد في كتابه (مصر منذ كرومر) إلى هذا المعنى حين قال : إن أهمية الأزهر بوصفه مركزاً للدعاية المعادية لبريطانيا كبيرة متعددة الامكانيات ، وقد أدرك الوطنيون ذلك فحاولوا استغلاله لتأييد مآربهم وترتب على ذلك نمو روح المعارضة الشديدة لسيطرة الانجليز على التعليم » ا . هـ

فقد كان التعليم الوطني عند بداية الاحتلال البريطاني لمصر في قبضة الجامع الأزهر ، لذلك فقد عمل الاحتلال على عزل الأزهر عن وزارة المعارف وجمد الأول ومضى بالأخرى دون وفق الخطة التي رسمها كرومر ونفذها مع أتباعه وخلفائه وفي مقدمتهم دنلوب .

وكان القانون ٤٩ لسنة ١٩٣٠ هو أخطر تعديل طرأ على الأزهر في مواجهة التطور وإدخال

العلوم الحديثة وتحويل الجامع الأزهر إلى الجامعة الأزهرية ففي هذا القانون قسم التعليم العالي إلى ثلاث كليات (أصول الدين - الشريعة - اللغة العربية) .

وقد قدم الأزهر إلى الحياة الفكرية المصرية عديداً من الأعلام والقادة في مختلف مجالات السياسة والصحافة والعلوم والآداب ، ويمكن القول أنه خلال الفترة السابقة لظهور الجمعيات والهيئات الاسلامية كان الأزهر وحده هو حامل لواء الثقافة العربية والمدافع عن أخطار التغريب وقد حمل لواء المواجهة إزاء حدثين من أخطر هذه الأحداث وهو محاولة طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي من التشكيك في القرآن والكتب المنزلة ومحاولة علي عبد الرازق في كتابه (الاسلام وأصول الحكم) من إنكار شمولية الاسلام ديناً ونظام مجتمع، فلما بدأت النهضة عام ١٩٢٧ تقريباً بقيام الاخوان وعديد من الهيئات وصدور عديد من الصحف كان الأزهر هو القاسم المشترك الأعظم على أنشطة هذه الهيئات والصحف وكان رجاله المستنيرون في مقدمة العاملين ، وكان لدار العلوم دورها الواضح وهو دور مستمد من دور الأزهر بالتبعية فقد كان شباب دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي من طلبة الأزهر أصلا وكانت دراستهم اللغة والفقه مرتبطة بمناهج الأزهر ولقد كان من أهم ما دعى الأزهر إلى إصلاحه في هذه النهضة هو تحطيم قيود التقليد وفتح باب الاجتهاد ، وإبراز طائفة من العلماء يجمعون بين الثقافة العربية الاسلامية العميقة وبين الأوربية العالمية .

وكان النقد في الأغلب موجها إلى الكتب التي يدرسها الأزهر إذ ذاك وهي كتب العصور المتأخرة وهي كتب وضعت في ظل تحديات أخطار الزحف الصليبي والتتري ، بينما تختلف الأزهر عن دراسة كتب الأصول والأمهات إلى كتب في العصر الأول وهي أكثر إشراقاً واتصالا بمصادر الاسلام الأساسية (القرآن والسنة) وكانت الدعوة إلى تحرير علوم الاسلام وآدابه بأسلوب حديث عصري ، وإعادة صياغة الفكر الاسلامي على نحو يساير روح العصر ، ويحقق قدرة اللغة العربية على الأداء العصري ذلك هو ما كان يدعو إليه المصلحون من رجاله . غير أن خصوم الإسلام والعرب والأزهر قد اتخذوا من هذه الدعوة إلى الاصلاح مقدمة لحملة ضارية ضد الأزهر ورجاله ، محاولة لقلعه والتخلص منه بحسبانه حجر عثرة في وجه دعاة التغريب ومحاولات النفوذ الاستعماري لتشويه قواعده وأفكاره ومن هنا فقد كانت الحملة على الأزهر داخلة في نطاق حركات الغزو الفكري والتغريب .

ولم ينس النفوذ الاستعماري ودعاة التغريب والشعوبية عداءهم للأزهر الذي قاومهم منذ اليوم الأول . حين قاوم الحملة الفرنسية والاحتلال البريطاني ولا يمكن للباحث المنصف أن ينسى في هذا المجال أن (جمود) الأزهر الذي يحاسب عليه إنما كان نتيجة لتظاهر قوى النفوذ الاستعماري والخديوية بين الحاكمين عليه فهم جميعاً قد رأوا فيه خطراً بالغاً على نفوذهم فوضعوا خطة محكمة تستهدف إضعافه وتهوين مركزه وضياع نفوذه في مصر والعالم الاسلامي ، ووقفوا في طريق علمائه وحالوا بين رجاله وبين مراكز القيادة ومناصب الحكم ووظائف الادارة وأشاعوا بين الناس أنهم يهدفون

إلى تكريم الدين ، على أن يكون الإسلام على حد تعبيرهم بعيداً عن السياسة وبمعزل عن الحكم ، فأعفى علماء الدين من التجنيد وأسقط الجهاد عن حفظة كتاب الجهاد ، وأبعدوا السلاح عن أيدى أولئك الذين يتعاملون بالقرآن ، ومن ثم أبعد القرآن وتعاليم الدين عن المدارس والمحاكم وسائر دواوين الحكومة ، وأقصى الإسلام وآدابه عن البيوت والشوارع باسم المدنية والحضارة وأعدوا أن مصر بلد فرعونى ، وبذلك شل الأزهر عن الحركة وفرض عليه الجمود ، فإذا قيل إن الأزهر قد تأخر عن أداء دوره ، فليس ذلك ذنب الأزهر ، ولكنه من عمل الذين حرصوا على إبعاده عن أداء دوره ومهمته وأغلقوا فى وجهه أبواب المجتمع ، وكان من أكثر الظالمين له رجاله والذين تخرجوا فيه من أمثال طه حسين وعلى عبد الرازق .

ولذلك فإنه لم يلبث إذ دفعته حركة اليقظة وحطمت القيود القائمة أمامه حتى انطلق فى إصلاح كيانه وفى أداء دوره ، وأمكن لرجال الأزهر أن يعلنوا الحقائق التى ظلت خفية ، فعندما قال رجال الاحتلال البريطانى أن مصر تعهدت أن تكون قوانينها مقتبسة من أحدث التشريعات العصرية . قال المراغى : إن أحدث نظريات القانون الحديث موجودة فى القرآن ، ومن السهل أن نسن قوانين تتفق مع نظريات الكتاب الكريم ، إن ميدان التشريع واسع جداً ،

وقال إن نظرية الإخلال بالقانون اعترف بها المشرعون المعاصرون أخيراً تدرس فى الأزهر منذ ألف عام ، كما كشف مؤتمر القانون المقارن فى لاهاى (نوفمبر ١٩٣٧) والذى شارك فيه الأزهر بدور فعال عن أن الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة قائمة بذاتها لم تتأثر بالقانون الرومانى وأعلن أنه لا يوجد دليل مباشر أو غير مباشر يمكن أن يستنتج منه من الوجهة التاريخية أن القانون الرومانى كان له أى تأثير على الشريعة الإسلامية ، وأعلن أن الشريعة الإسلامية تحمل العناصر الكافية التى تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن والمدنية . وكشف المراغى عما فى الفقه الإسلامى من نظريات تعد الآن من أحدث النظريات عند رجال القانون ، وقال إن فى الفقه الإسلامى آراء يمكن أن يسير عليها الناس الآن من غير حرج ، وهى تحقق العدالة فى أكمل صورها ، وأن المذاهب الإسلامية جملة تغنى عن الاجتهاد فى المسائل التى عرضت من قبل متى تخير العلماء منها ، وأن تخير الأحكام نوع من الاجتهاد .

كما أخذ الأزهر تحقيق غاية من كبريات غايات اليقظة وهى العمل على إزالة الفروق المذهبية وتضييق شقة الخلاف بين المسلمين . وقال المراغى إن بعض المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ولشطت أهلها وخلقت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسى ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوره الخيال وما أقره أهلها وهذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن الكريم وجعلتها شيعاً فى الأصول والفروع .

ودعا الأزهر إلى دراسة الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، على أن تدرس

قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة ، وأن تكون الغاية من هذه الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها والنظر فى الأحكام الاجتهادية بما يجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء .

وحدد الأزهر موقفه من الدعوة التى انطلقت باسم حرية الفكر فقال : إن لحرية التفكير والرأى مناطق لا يجوز أن يتعداها محافظة على كيان الأمة وعلى أخلاقها فإن الجمهور الجاهل والنشء المتعلم يجب أن يحاط بسياج الدين وتقديسه وإلا انفلت من كل فضيلة وذهب وراء الشهوات وارتكب أنواع الجرائم والموبقات وقال إن هناك نوعاً من أنواع الإلحاد هو الاستخفاف بالدين سببه شيوع الشهوات لأن التقيد بالدين وإظهار الاعتقاد به قد يكون مانعاً من الاسترسال الشهوات فى الشهوات وأصحاب هذا النوع لا يفقهون أدلة ولا يفقهون عقيدة . وفتح الأزهر باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقاً حين أعلن المراغى أن علماء الحنفية قد وضعوا قاعدة تشريعية هى أن العرف العام يعمل به والعرف الخاص أيضاً ، والعرف العام عندهم يخصص النص والقياس ، ويترك به ظاهر الرواية ، وكذلك يترك ظاهر الرواية بالعرف الخاص ، وقال بعض فقهائهم إن من شروط المفتى والقاضى أن يكون ملماً بفقه أهل زمانه وأحوالهم وإلا كان ضرره أكثر من نفعه .

وقال إن المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية فهى قابلة بحكم الشرع نفسه للتجديد والتغير ، وقد لاحظ ذلك علماء بغداد ومشرعوهم حتى قرروا إصلاح المجلة القضائية ، وعنده إن من ينظر فى أقوال الأئمة من مذهب أبى حنيفة ، وما وقع بينه وبين أصحابه محمد وزفر وأبى يوسف وبينهم نجد أن التجديد فى الأحكام الشرعية ميسوراً لنا وفى أمور مستطاعنا ، ويجد أن بطلان الدوام لأحكام معينة وبقاءها حيث يبقى الدهر من الأمور البديهية .

كما أخذ الأزهر يعمق عمله العالمى ويوسع آفاقه فى تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الاسلامى ، والكشف عن كنوز العلم التى خلفها علماء الاسلام فى مختلف الجوانب الدينية والعربية والعقلية وهى مجموعة مرتبطة بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات ، وكذلك عرض الاسلام على غير الأمم الاسلامية عرضاً صحيحاً فى ثوب خال من الغواشى المشوهة لجماله وخال مما أدخل وزيد فيه من الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق وتخالف طبيعة اللغة العربية وكذلك إزالة الفروق المذهبية وتضييق شقتها .

وهكذا انطلق الأزهر فى ظل حركة اليقظة العربية الاسلامية فى الكشف عن مفهوم الاسلام الصحيح وفتح باب الاجتهاد وتهذيب الروح الاسلامى واستخراج أسرار القرآن ، وقد تعددت أساليبه ومناهجه فى مجالات حفظ الشريعة الاسلامية وتجديد الفقه وتعليم اللغة العربية ونشرها ، وأدخلت إليه مناهج الدراسات الفلسفية كعلوم الأديان المقارنة واللغات الأجنبية ، وأرسلت البعثات إلى أوربا وشاركت فى المؤتمرات العالمية كمؤتمر الأديان ومؤتمر القوانين ودفع الازهر رجاله

إلى الاهتمام بالجانب الأخلاقي في عالم الدين والاحتفاظ بالكرامة كما دفع الشبهة التي تقول بالفرقة بين الدين والسياسة وبين السلطة الدينية والزمنية ، فالإسلام دين ونظام مجتمع ، ولا رهبانية في الإسلام وأن عمل عالم الدين في السياسة ليس عملا حزبياً بل عملا عاماً بالمعنى الذي تؤديه كلمة السياسة عند رجال الاجتماع وهو تدبير شئون الأمة وشئون الدين .

فإذا تركنا الأزهر واتجهنا إلى الزيتونة في تونس والقرويين في المغرب الأقصى وجدنا عوامل اليقظة واضحة ، ومحاولات تجديد المناهج وبناء للعلم الإسلامي والفكر الإسلامي وفق مناهج الاجتهاد والتجديد والتماس جوهر مفاهيم الإسلام ومعرفة تيارات الفكر الغربي .

وأمامنا المدرسة الفكرية الإسلامية في الجزائر بقيادة الامام عبد الحميد بن باديس ، ومدرسة المغرب السلفية بقيادة محمد العربي العلوي ، والمدرسة الشامية التي حمل لواءها جمال الدين القاسمي وعبد الرازق البيطار ، وفي العراق مدرستي النجف والألوسي ، وفي مكة وتجد مدرسة التوحيد المرتبطة الصلة بالدعوة التي قادها الامام محمد بن عبد الوهاب . وكل هذه المدارس (وقد عرضنا لها بالتفصيل في مؤلفات أخرى) تسير في نفس الاتجاه وتجد في حركة اليقظة في مصر قدوة ومتابعة .

وكان المجامع اللغوية في القاهرة ودمشق دورها الهام في المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وملاءمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر ، وذلك بأن تؤدي معاني العلوم والفنون مما يتجدد بتجدد الزمان ومقتضيات الأحوال في سهولة ويسر ، ويتحقق ذلك بوضع مصطلحات لكل علم وفن وبالبحث في الوسائل التي تجعل اللغة سهلة ميسورة على القارئين والكاتبين ، وقد بدأت هذه المجامع في دمشق ١٩٢٠ ومصر ١٩٣٢ وشارك فيها عدد كبير من الاعلام واستطاعت أن تدفع تلك الحملات الضارية التي وجهت إلى اللغة الفصحى وحققت نتائج بعيدة المدى .

وكان نادي دار العلوم في مقدمة الأندية العاملة للحفاظ على اللغة العربية ، ومن خلال الحملة برزت أسماء جاهدت طويلا في مقدمتها محمد الخضري ومحمود أبو النصر وحفني ناصف وحسن توفيق العدل وطنطاوي جوهري وعبد الوهاب النجار ومحمد عبد المطلب وعبد العزيز جاويش .

الفصل الرابع

بناء الفكر العربي الإسلامي ومضامينه

خلاصة للنهج الذي قدمته المدرسة الاسلامية الفكرية الكبرى
(الاخوان المسلمون)

استطاعت اليقظة أن تشكل بناءاً كاملاً متماسكاً يكاد يكون في مجموعه صياغة جديدة للفكر الاسلامي العربي . قائمة أساساً مع جذور الاسلام الأصيل ومتشكلة مع روح العصر . جارية مع منطلقات التطور والنهضة ، وقد استطاعت هذه الصياغة أن تستوعب خير ما في الوطنية والقومية على أساس إسلامي ، وإيماناً بأن الطابع الاسلامي هو الطريق الطبيعي والأساسي للفكر العربي المتصل بحركات الاصلاح واليقظة امتداداً لدعوة التوحيد ، وما يتصل بها من دعوات جمال الدين ومحمد عبده ، وعصارة لكل جهاد العاملين في ميدان حركة اليقظة في العصر الحديث كله . استصفاءاً وبلورة وامتداداً فقد عرضت اليقظة الاسلامية « الإسلام » بشكل جديد لمختلف تحديات العالم الاسلامي والأمة العربية مع الاستعمار والصهيونية ودعوات الغزو الثقافي وغيرها . بعد أن فشلت مختلف الحلول التي حملت لواء السياسة والديمقراطية الغربية ودعوات الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والبربرية في المغرب وهي دعوات أثارها الاستعمار وحاول بها إقامة حوائط سميكة بين أجزاء الأمة العربية . منعاً لها من الالتقاء والتجمع ، والانطلاق من مصادر فكرها وثقافتها العربية الاسلامية الأصيلة .

وكانت حركة اليقظة في مختلف جماعاتها وهيئاتها تحاول أن تصوغ هذا الفكر الاسلامي في نظرية كاملة وأيدلوجية شاملة ، إيماناً منها بأن الاسلام يقدم كل حاجات الأمم ، وأنه يجمع ولا يفرق ، ويقوم منهاج الأخوة والحبة ، ويقيناً منها بأن القرآن هو المصدر الأول والأساسي لكل القوانين والدساتير والقيم الفكرية والسياسية والاقتصادية وأنه الاتجاه الطبيعي للأمة العربية الاسلامية للفكر ، وفيه أصالة الماضي والتاريخ وفطرة الأمة العربية ومقومات العقل العربي الاسلامي ، وفي نطاق هذا المفهوم تشكلت القيم الأساسية للثقافة العربية على أصول جديدة :

أولا : الوحدة العربية خطوة أولى وأساسية لليقظة والحرية ولا تعارض بينها وبين الأخوة الإسلامية ، والعروبة ، والعمل الأساسي هو العمل لتحرير مصر والأمة العربية والعالم الاسلامي

بأسره من الاستعمار والنفوذ الأجنبي والعمل للإصلاح الديني والاجتماعي والخلقي .

وقوام النضال : الأخذ من كل شيء أحسنه ، بعيداً عن التذبذبات الشرقية والغربية ، وعلى أساس قاعدة أخلاقية تلتمس أطرافها في مختلف ميادين الحياة والمجتمع والفكر . مع الاعتراف بأن الأنظمة السياسية الحزبية المقتبسة من الغرب التي لم تحقق ما كان مأمولا فيه ، وأنها أفسدت كل الموازين وأبعدت العرب والمسلمين عن مناهجهم وقيمهم الأصيلة ، ومن هنا كان الاهتمام بالمناعة الخلقية وتغطية حاجة الأمة في مختلف النواحي وأهمها التربية الاجتماعية والخلقية .

ثانياً : بناء العقيدة إيماناً بأنه لن يؤثر في النفس الانسانية كالعقيدة ، ولن يصلح أخلاق الأمم كالدين وخاصة الأمم الشرقية التي شابت مفارقها في ممارسة العقائد والأديان ، واعتقاداً بأنه محال أن تقوم القوانين الوضعية والفلسفة البشرية ، والعلوم الانسانية مقام العقيدة السماوية التي تهبط على النفس الجدبة فتثمر بها ويقوم مفهوم العقيدة على طريقة القرآن والرسول في توصيل العقائد الدينية إلى النفوس والاستيلاء على المشاعر والقلوب . دون إيراد للآراء والمذاهب ، أو خوض في مصطلحات الفلاسفة والمناطقة والكلاميين والجدليين ، مع العناية ببيان آثار العقائد في النفوس .

وأساس العقائد الإسلامية كسائر الأحكام الشرعية كتاب الله وسنة رسوله ، والعقائد يؤيدها العقل ويثبتها النظر الصحيح . لهذا شرف الله الخطاب بالعقل وجعله مناط التكاليف وندبه إلى البحث والنظر والتفكير ومن هنا نعلم أن الإسلام لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول وأن أرشدها إلى التزام حدها وعرفها قلة علمها وندبها إلى الاستزادة من معارفها .

إن المثل الأعلى الإسلامي هو : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً) و (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) .

ثالثاً : مبدأ « العالمية » وإن كان مبدأ الانسانية والسلام والخير العام إلا أن أمم الغرب وحكومات الاستعمار جعلته شبكة يصطاد بها ضعاف العقول وتكسر به حدة المقاومة عند الشعوب المظلومة حتى تكون لقمة سائغة لها ، وأنه ما دامت الأمم الغربية تعتقد في أمم الشرق الخطة والجهالة والذلة وتترفع عن الاختلاط بها وتظن أنها من طينة غير طينتها . فإن مبدأ « العالمية » لا يصلح بين العرب والمسلمين بل ويعد من أخطر المبادىء على حياة أممهم ، ومن هنا رفعت اليقظة شعار الأخوة الإسلامية الذي يحوي كل ما في العالمية من جمال ويضمن للعرب والمسلمين التمسك بعزتهم ، والدفاع عن حوزتهم ، والذود عن أوطانهم ومقدساتهم ، وذلك أن سماحة الإسلام تجعلي براً وصلة للسمح لأبناء قومنا وإن كانوا على غير ديننا .

رابعاً : قيام التجديد في الأدب على أصول صحيحة أهمها :

(١) الابتكار فى الأغراض والمعانى والأخيلة والأساليب بحيث ترابط الأدب بالحياة فى كل مظاهرها ارتباطاً وثيقاً وتمثلها أصدق تمثيل.

(٢) تمجيد السلف والاعتراف بفضلهم وجهودهم وتكريمهم كأسس صالحة، ورجال بذلوا جهداً مشكوراً فى بناء درجة من سلم الحضارة والمدنية.

(٣) نزاهة البحث والابتعاد عن الغايات والأغراض والأهواء والشبهات.

(٤) كمال الاستقراء وحسن الاستقصاء مع صدق النية فى الوصول إلى الحقيقة.

(٥) خدمة الأخلاق والفضيلة بالأدب بقدر خدمته الفن والعاطفة أو لا خير فى أدب ينتج فوضى الأخلاق، واضطراب ميزان الاستقامة فى الأمة، وحينئذ يتحرر العقل حرية عقلية صحيحة. من ربقة النزعات الباطلة وحينئذ يكون التجديد فى الأدب فى مصلحة الأمة، وحينئذ تتضافر همم أنصار القديم والحديث على وضع منهج التجديد بحيث يلاحق روح النهضة التى تسمو إليها الأمة، وحينئذ تكون الأدلة واصلة بين العقول والعواطف ورابطة بين الشعوب الشرقية التى تنطق باللغة العربية.

خامساً: الحضارة ومقدار ما يؤخذ وما يترك منها:

ولتكن قاعدة الإختيار هى المنفعة وصالح المجموع. لا الهوى والشهوة ويجب أن نجعل لتاريخنا وحضارتنا وماضينا نصيباً من التقدير والإجلال، فلا نفنى فى غيرنا من الأمم ولا ننكر فضله هذا التاريخ لأسلافنا، ولهج الزمان بذكره، وعرفته لهم الأمم جميعاً، وكان دعامة من دعائم المدنية الحالية.

وذلك مع التفريق بين العادات والعقائد والأديان من جهة وبين العلم والاقتصاد. أما العادات والعقائد والأديان والآداب فهذه لا سبيل إلى نقلها من أمة إلى أخرى إلا بفعل الزمن وحده أما المراسيم والقوانين والقهر فكل ذلك لا يفيد، ولا يغنى عن الإصلاح الحقيقى شيئاً.

وذلك ضرورة التدرج فى إدخال ما يجب أن ندخله من النظم والاصطلاحات وملاحظة أن المدنيات لا تؤخذ من نهاياتها وإنما تنقل من أصولها ومبادئها.

وهناك غاية أساسية يجب أن توجه إليها النهضة، وأن تكون تلك الغاية ملائمة لمزاج الشرق متفقة مع روحه العامة الذاتية، وأن تستند النهضة إلى الإسلام فى نظمه وروحه ومبادئه، وأن تعنى بالمهم بالعلم والاقتصاد. وأن توحد جهود أبناء الأمة الواحدة ثم أبناء الأمم الشرقية جميعاً وأن نحترس فى نقل ما نأخذه إلا ما ينفعنا نفعاً حقيقياً.

إن الحضارة تأكل نفسها لأنها انشأت مادية لا روح فيها . الطائرات تدك العمارات الضخمة والعلم يحصد الأرواح ويبيد الآلاف والملايين ، الحضارة دين يهديها وروحانية تصقلها ، دين يرفعها من حضيض المادة إلى سماء الروح ، ومن جاهلية التعصب إلى حرية الفكر .

سادساً : مقاومة الأخطار الاستعمارية والخلافات السياسية الشخصية والمذهبية والربا والحركات الأجنبية والتقليد الغربي والقوانين الوضعية والإلحاد والشهوات والإباحية وفساد الأخلاق .

إن عدة الشرق خلق وإيمان فإذا فقدهما فقد كل شيء ، وإذا عاد إليهما عاد إليه .

إن المطلوب هو روح العصر مع التقيد بروح الإسلام ، وذلك بمقاومة العادات الضارة اقتصادياً وخلقياً وتحويل تيار الجماهير إلى العادات النافعة وتهذيب المجتمع تهذيباً يتفق مع المصلحة كعادات الأفراح والمآتم والزار والمواسم والأعياد ، والقضاء على الروح الأجنبية في البيوت من حيث اللغة والعادات والأزياء وعلاج قضية المرأة بما يجمع بين الرقي بها والمحافظة عليها وإعادة النظر في مناهج تعليم البنات ووجوب التفريق بينها وبين مناهج الصبيان في كثير من مراحل التعليم وتعويد الشعب احترام الآداب العامة ووضع إرشادات معززة بحماية القانون وتشديد العقوبات على الجرائم الادبية ، وتوجيه التمثيل وأفلام السينما وتهذيب الأغاني، والموازنة بين القانون الوضعي والتشريع الإسلامي .

وأهم ما يلزم العرب والمسلمين القوة المادية من المال والعتاد وآلات الحرث والكفاح وأهم منه وألزم : القوة الروحية من الخلق الفاضل والنفس النبيلة والإيمان بالحقوق ومعرفتها والإرادة الماضية والتضحية في سبيل الواجب والوفاء الذي تنبني عليه الثقة والوحدة ومنهما تتكون القوة .

سابعاً : الدين أفضل الوسائل في إصلاح الامم . ولا بد من إحكام الصلة بين إصلاح النفوس وإصلاح المجتمعات . على أن يكون إصلاح النفس أساساً لإصلاح المجتمع وأساس التربية الدينية والخلقية . حيث لا نهوض لأمة بغير خلق . فإذا استطاعت الأمة أن تتشبع بروح الجهاد والتضحية وكبح جماح النفوس أمكنها أن تنجح . بمعنى أن الأمة إذا استطاعت أن تتحرر من قيود المطالب النفسية والتكالات الحيوية أمكنها أن تتحرر من كل شيء ، ومن هنا كان حجر الزاوية في إصلاح أخلاق الأمة ، وآية الإصلاح : تصحيح العقائد وتقويم الأفكار ، وتغيير العرف وتزكية النفوس وتطهير الأرواح وإذاعة مبادىء الحق والجهاد والفضيلة بين الناس .

وبالتربية الإسلامية يمكن صياغة نفوس الأمة على نسق يضمن لها مناعة خلقية قوية ، ومبادىء فاضلة ثابتة ، وعقائد راسخة . فإنشاء النفوس وبناء صرح الأخلاق ، وتثبيت العقائد الصادقة هو الذي يدفع إلى جلائل الأعمال .

وإن على الأمم أن تعلم أبناءها حقوقها فلا تفرط فيها ، وتدأب دوماً على المطالبة بها ، والأمة التي تشربت نفسها بالعزة والشعور بالكرامة لا يقربها إنسان لأنه يعلم أن خسارته بمصادمة هذا الشعور الأدبي أعظم من ربحه ، وإنما تهون الأمة على الناس إذا هانت على نفسها قبلهم ، ومن لا يكرم نفسه لا يكرم وإن السر في تأخر المسلمين هو ابتعادهم عن دينهم وإن أساس الإصلاح هو العودة إلى تعاليم الإسلام وأحكامه والمسلمون جميعاً أمة واحدة تربطها العقيدة الإسلامية وإن واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تعريبه ، وإن من مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام والقرآن كتاب الله والاسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة .

ثامناً : إن المجتمع الانساني لن يصلحه إلا اعتقاد روحي يبعث في النفوس مراقبة الله ومن هنا كان على الناس أن يعودوا إلى الايمان بالله وبالنبوات وبالروح وبالحياة الآخرة ، وبالجزاء فيها على الأعمال ، كل هذا في نفس الوقت الذي يطلقوا فيه لعقولهم العنان ليتعلموا ويعرفوا ويخترعوا ويكتشفوا ويسخروا هذه المادة الصماء وينتفعوا بما في الموجودات من خيرات وميزات .

وإذا كان الغرب قد عاش أخريات أيامه مادي النزعة لا يشعر بغير المادة ولا يعترف بغير المادة وماتت في نفوس أبنائه عواطف الرحمة الانسانية ، واكتوت الدنيا بهذه الشرور فقد آن أن يهب الناس من جديد ليمزجوا المادة بالروح ، وأن يؤمنوا بالغيب والشهادة وأن يتعرفوا إلى الله من جديد .

لقد لبى الاسلام مطالب الانسان الروحية والمادية في تنظيم ، لا إفراط ولا تفريط بل ما يكفل للإنسان أن يحقق إنسانيته سوياً في هذه الدنيا فثمة تنظيم لشهوة البطن (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع) وتنظيم لشهوة الفرج (وأنكحوا ما طاب لكم) والانسان ليس فرداً بل هو عضو في جماعة ، وللجماعة عقل جمعي يختلف عن عقل الفرد في مظاهره ومطالبه .

والاسلام تنظيم اقتصادي يهيىء الناس جميعاً الرخاء وتنظيم سياسي يكفل لهم العدل والحرية ، وتنظيم اجتماعي يكفل لهم المساواة ، وهو كل لا يتجزأ متكاملا لا ينقصه شيء ، هذه الاصالة ، الوحدة ، التكامل ، هو المنهج الوحيد الذي تأخذ به البشرية .

تاسعاً : التربية المنزلية أساس التربية الخارجية ، إن مدارسنا لا تقدم للتلاميذ بالقدر الواجب معرفته من الدين ، على كل فرد أن يغرس مبادىء الدين وأخلاقه وتعاليمه في نفوس أبنائه ولا يعتمد على المدرسة في هذه المهمة وعلى أن يكون قدوة لأهله في التمسك بالدين واحترام أهله وتنفيذ تعاليمه لا تأخذه في ذلك هوادة ، فإن أثر القدوة في النفس أشد وأذكى من أثر المواعظ والدروس ، ولا يتقول أمر القدوة الصالحة فهو الحجر الأول في بناء التربية الدينية والعلم لا يكفي للإصلاح الخلقي ،

ولا بد من تربية العقل وتربية النفس معاً وأفضل الوسائل فى تربية العاطفة والنفس وإيقاظ الروح المهذبية هو الدين .

عاشراً : معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه ، أسمى عقائد الاسلام وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يلحق بذلك من المتشابه ، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ونترك علم حقائقها لله تعالى ولا نتعرض لما جاء منها من خلاف بين العلماء ويسعنا ما وسع رسول الله وأصحابه (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) وأن الخلاف فى فروع الدين أمر لا بد منه وضرورة لا يمكن أن نتحد فى هذه الفروع والآراء والمذاهب لأسباب عدة ، منها اختلاف العقول فى قوة الاستنباط وضعفه ، وإدراك الدلائل والجهل بها والغوص فى أعماق المعانى وارتباط الحقائق بعضها ببعض ، والدين آيات وأحاديث ونصوص يفسرها العقل والرأى فى حدود اللغة وقوانينها ، والناس فى ذلك جد متفاوتين فلا بد من خلاف . ومنها سعة العلم وضيقه ، وأن هذا بلغه ما لم يبلغ ذاك . ومنها اختلاف البيئات حتى إن التطبيق يختلف باختلاف كل بيئة ، كل هذا يجعلنا نعتقد أن الاجماع على أمر واحد فى فروع الدين مطلب مستحيل بل هو يتنافى مع طبيعة الدين نفسه وإنما يريد الله لهذا الدين أن يبقى ويخلد ويساير العصور ويماشى الأزمان .

حادى عشر : خطأ الاتجاه الذى يجعل من مدنية الغرب أساساً يشكلون الاسلام على غرارها ويصبون قواعده ونظرياته وأحكامه فى قوالبها ، ثم يكون المجهود جهدهم أن يحللوا كل ما جاء به الغرب بنوع من أنواع الفتاوى والتمحلات .

وهذا الاتجاه يجد من ضعاف النفوس ، ومن ذوى الحظ القليل من البصر بدين الله من يصدق دعواهم ، ومن مثل ذلك التماس التأويل لمجاراة أوربا فى أمر الربا والاستتار بالأضعاف المضاعفة تارة وبالفضل والنسيئة تارة أخرى ، وبالضرورة والحاجة مرة ثالثة .

ثانى عشر : يظن كثير من الغربيين أن فى مقدورهم القضاء على الاسلام وتخليص الأمة فى مصر من الفكرة الاسلامية وقد فاتهم أن الحال فى مصر غيره فى البلاد الأخرى فقد امتزج الاسلام بدم كل مصرى وتغلغل فى روحه ودمه وعروقه ، وآمن به إيماناً هو أبقى على الزمن الباقى من الزمن ، فكل محاولة فى سبيل هذا الاسلام فى نفوس المسلمين محاولة فاشلة ، وقد يظن الناس أن الاسلام قد وهن فى نفوس الشعب حتى عجز عن حماية نفسه ، ويهزم الدهر بعد ذلك والاسلام إسلام .

ثالث عشر : إن القرآن الكريم كتاب جامع جمع الله فيه أصول العقائد وأسس المصالح الاجتماعية وكليات الشرائع الدنيوية ، فيه أوامر وفيه نواه . فهل عمل المسلمون بما فى القرآن فاعتقدوا بما ذكر الله من المعتقدات وفهموا ما أوضح من الغايات ، وهل طبقوا شرائعه الاجتماعية والحيوية على تصرفاتهم فى شئون حياتهم .

إن القرآن حدد غايات الحياة ومقاصد الناس فيها .

ننظر في القرآن ونفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره كما كان يفهم المؤمنون أيام الوحي والحذر من النظر إلى وجوه التفاسير، إلا لفهم لفظ غاب مراد العرب فيه أو ارتباط مفرد بآخر خفي متصلة، ثم لنذهب إلى ما يدعونا القرآن إليه.

رابع عشر: وظيفة المرأة في الحياة:

ليست الحياة نوعاً واحداً من الأعمال ولكنها أقساما مختلفة تندرج تحت قسمين رئيسيين:

أولا: كسب العيش ووسائله من إدارة المصانع والمتاجر والمزارع وغيرها، ومنها إدارة المنزل وتهيئة لوازم الأسرة والحمل والوضع والرضاع وتربية الأولاد.

والرجل وحده لا يستطيع أن يقوم بالمهمتين ولا أن يؤدي الوظيفتين، وكذلك المرأة لا تستطيع إذن فلا بد من القسمة ولابد من التخصيص. لهذا خلق الرجل قوي العضلات، قوي الفكر، واسع الحيلة، وخلقت المرأة لينة الجسم لينة الشعور عاطفية كلها.

خامس عشر: التصوف الحق يراد به تطهير النفس من أدران البشرية حتى تصفو وتشرق وتكون مرآة الحقائق الربانية، والتصوف الإسلامي بمعناه الصحيح تستمد أصوله وقواعده من كتاب الله وسنة رسوله ككل علم إسلامي.

قال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه.

وقال أبو الحسن الشاذلي: إذا استند كشف الولي إلى غير الكتاب والسنة فهو كشف شيطاني لا يؤخذ عنه ولا يسلم له.

وقد صار الناس يطلقون كلمة صوفي وابن طريق وولي ودرويش (وهي كلمة فارسية معناها مريد أو ما يقرب من ذلك) على كل من ظهرت عليه علامات التقشف ورثاثة الثياب وعدم العناية بنظافة الجسم، أو كل من ظهرت عليه دلائل البله بشؤون الحياة، أو كل من تكاسل عن أداء الفرائض الدينية وارتكب المخالفات وادعى لذلك أعذاراً مجهولة كأن يصلي في الكعبة أو أنه ينظر في اللوح المحفوظ، والتصوف بريء من هذه المزاعم مقيد بكتاب الله وسنة رسوله.

سادس عشر: محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله والأولياء المذكورين في الآية الكريمة.

(الذين آمنوا وكانوا يتقون) والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً في حياتهم وبعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم .

وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بمن فيها أياً كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد أو النذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله ، وما إلى ذلك كبائر ، تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة ، والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة ، والإيمان الصادق والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من شاء من عباده ، ولكن الالهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية إلا إذا وافقها نص صريح ، والتمائم والرقى والودع والرمل والكهانة وادعاء معرفة الغيب ، وكل ما كان من هذا منكر تجب محاربته ، إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

سابع عشر والاسلام يحرر العقل ويحث على النظر في الكون ويرفع قدر العلم والعلماء ويرحب بالصالح النافع من كل شيء ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها والنظر الشرعي والعقلي لن يختلفا في القطعي فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ويؤول الظني منها فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع .

والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الاسلام ويفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف .

وكل يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ وكل ما جاء به السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ولا نعرض للأشخاص فيما اختلف فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى نياتهم ، وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً ، من ذلك كثرة التفريعات للأحكام ، والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام في المفاضلة بين الصحابة رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفي التأويل مندوحة .

ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلة إمامه ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صدق من أرشده ، وكفايته وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

ثامن عشر : إعطاء الثقافة المصرية طابعها الإسلامي المميز لها .

إن تاريخ كل أمة يكسبها آخر الأمر مزاجاً خاصاً لا فكاك لها منه ، وقد ظلت مصر مدة أربعة عشر قرنا إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة ، إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز لمزاجها إلى الشيوع في جميع الثقافات الأخرى .

ولما كانت التربية الإسلامية على المنطق وضوء العلم الحديث أشمل في جميع أحكامها ومنابعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة أصبح لزاماً أن نخلص من هذا المزاج الإسلامى ودعامتها هذه الروح الإسلامى .

إن مصر بتاريخها الاسلامى تدحض كل يتأثرها بغير هذه العقلية ، ولعل تاريخها الحديث ونهضتها الحاضرة بين الأمم التى قامت على دعامة من فكرها الاسلامى وثقافتها الاسلامية هى خير دليل لمن يريدون للميل بها عن الينبوع الذى استمدت منه مئات السنين مادة قوتها وتماسكها وإشراقها الخاص بين دول الشرق والغرب .

تاسع عشر : إن منهج الاسلام هو أصلح منهج المجتمع ومن أجدره بالاتباع والتطبيق ، فقد نظر إلى الفرد فأعطى كل قوة من قواه حقها ، ومنع عدوانها على غيرها ، حرر الفكر من قيود الوهم ومنح العقل حق النظر فى كل ما يحيط به من مظاهر الكون وحجزه عن أن يتطاول إلى ما لا تدركه قواه ولا تتحمله طاقته نظر إلى الشهوة والعاطفة وصرفها إلى الحب الصالح المفيد ، حب الفضيلة وتقديسها وحب الانسانية العامة والعمل المجموع ، وعقلها من التطلع إلى سفاسف الأمور ومحقرات اللذائذ وأباح لها التمتع بما فى الطبيعة من جمال وروعة ، وجعل لها من ذلك مرتعاً هانئا ومرعى خصباً .

ونظر إلى الجسوم فأعطاها ما تحتاج إليها من قوة ونمو وحرم إرهاقها بضروب العبادات والقربات .

ونظر إلى كرامة الفرد الانسانية فأعطاه المجموع ينطق بكلمتهم ، ويجير عليهم ، فالمسلمون عدل بعضهم على بعض يسعى بكلمتهم أدناهم ، ونظر إلى الأسرة فأحكم نظامها وثبت أسسها على أمتن الدعائم ، فى نشأتها وحياتها . ونظر إلى الأمة فسوى بين أفرادها وعدل فى طبقاتها وجعل الشرف والسعادة منوطا بالجد والتقوى وعلو الآثار .

وحفظ صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم لجعل منها هداة خير قادة يضربون فى الأرض ويرشدون الناس بأمر دينهم ويبلغونهم دعوة اليوم خاصم الإسلام الوثنية فى أى صورة ، الدهرية التى لا تؤمن بالله واليوم الآخر ولا تقر بالبعث ، واليهودية التى تقول عزير بن الله والإلحادية التى لا تقر بعظمة الخالق ، وكل ما غير التوحيد .

العشرون : لنا أن نأخذ من مدارس الغرب عنايتها بالعلوم الطبيعية والمـواد العملية والمعارف الحيوية التي ترمي إلى إدراك سر الوجود ومعالجة مشاكل العصر وهو العنصر الجوهري في رقي الغرب ولنا أن نأخذ عن مدارس الغرب ومناهجه عنايتها باتجاهات التربية الحديثة ومراعاة مطالبها ، ولنا أن نأخذ عن مدارس الغرب ومناهجه عنايتها بتدريب الجسوم وغرس الفضائل الوطنية في نفوس الاميذها ، ولـكن هل تهمل مدارسنا خلوا من الدين المتبرئة من العناية به ، والاهتمام بشأنه لأن مدارس الغرب كذلك ، كلا وألف مرة كلا ، فإن أسباب ذلك وموجباته إن توفرت في الغرب فهي معدومة عندنا وإن أخطأ الغربيون في شيء فلسنا ملزمين بتقليدهم في خطئهم .

واحد وعشرون : الشريعة الإسلامية ظفرت بالتقدير الكامل في مؤتمر لاهاي سنة ١٩٢٨ إذ قرر المؤتمر أنها شريعة مستقلة قابلة للتطور والنماء متفقة مع أحدث قواعد التشريع ، وذلك أن الإسلام في ذاته نظام اجتماعي عالمي يكفل للناس الخير والسعادة ويحل لهم ما في مجتمعهم من مشكلات لو نفذوا إلى روحه وأنفذوه على وجهه .

إن هذا التشريع من أعظم الشرائع مرونة وأشدها قبولا للتطور والتجدد وإنه سبق جميع القوانين الدولية بثروة ضخمة من المبادىء القانونية الرائعة ، وقرر من ذلك ما يدهش له العارفون والفنيون من أهل التشريع والقضاء . وأن فيه كثيراً من الأحكام والصور التي تصون مصالح الأجانب وآمالهم وأعراضهم ودماءهم بأوفى — ألف مرة — مما تصونها لهم التشريعات الوضعية وأن قضية الحدود في هذا التشريع أبسط من كل هذه الضجة التي يثيرها ذوو الأغراض حولها فإن الشارع الذي قررها في إقامتها هو الذي قال للقاضي من جهة أخرى (ادرءوا الحدود بالشبهات) فرجع الأمر إلى أكبر حد إلى تقدير القاضي لا إلى قوة النص فضلا عن الحكمة العليا والأسرار البارعة في التشريع الكريم .

ثاني وعشرون : لم يحتقر الإسلام المال ولم يزهد في الثروة ولم يحرم الطيبات ، بل اعتبر المال من نعم الله الواجبة الشكر ، نعم المال الصالح للرجل الصالح وحث على العمل والكسب . إن الله يحب المؤمن المحترف ، ومن أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له وحرم السؤال والاستجداء لما في ذلك من مذلة وهوان ، كما دعا إلى التقريب بين الطبقات وتأمين الجميع على أنفسهم وذراريهم وأولادهم بضمن لهم العدالة الاجتماعية وتوفير الفرص المتكافئة للجميع على السواء .

كما دعا إلى المحافظة على المال والاقتصاد في إنفاقه وابتغاء أفضل السبل (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) وقد لفت القرآن النظر إلى

منابع الثروة وأصول طرائق الكسب من التجارة والزراعة والصناعة والثروات الحيوانية والمعدنية والمائية والهوائية ومستوى الكرة الأرضية وحث المسلمين على استغلالها وتثميرها والانتفاع بها وعدم الغفلة عنها (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات والأرض) .

كما حرم الكسب الحرام الذى يؤدى إلى البغضاء والشحناء وفساد المجتمعات ووفر للفرد وسائل الحياة والرفاهية ووفر للجميع فى نفس الوقت حياة التكافل والطمأنينة . ووضع القاعدة المعروفة من تقديم المنفعة العامة على المنفعة الخاصة دائماً . فإذا تعارضت حقوق الفرد مع حقوق الجماعة أهدرت الحقوق الفردية وعوض عنها أصحابها وأقيمت حقوق الجماعة بما يوصل إلى الخير العام ورسم النظام الاقتصادى الإسلامى الخطط الأساسية لتقريب بين الطبقات فانتقص من مال الغنى بما يزكيه ويطهره وينقيه ويكسبه القلوب والمحامد وزهده فى الترف والخيلاء ورغبة فى الصدقة والإحسان وأجزل له المثوبة والعطاء .

وقرر للفقير حقاً معلوماً وجعله فى كفالة الدولة أولا وفى كفالة الأقارب ثانياً وفى كفالة المجتمع بعد ذلك ، وقرر صور التعامل النافع للفرد الحافظ للجماعة ، تقريراً عجيباً فى دقته وشموله وانتاجه وآثاره وأقام الضمير الإنسانى مهيمناً عليها من وراء هذه الصورة الظاهرة .

(طبق الأصل : حسن البنا)

العمل الأكبر للدعوة الإسلامية

(الحكم بكتاب الله)

كان المنطلق الحقيقى للدعوة الإسلامية بعد أن تنامت جماعة الإخوان هى العودة إلى المنابع وتطبيق الشريعة الإسلامية إنطلاقاً من النص الوارد فى الدستور المصرى وهو (الإسلام دين الدولة) وكان الأستاذ حسن البنا يرى أن هذه المادة هى منطلق صحيح لحكم بكتاب الله ولا يرى تعارضاً رئيسياً أو جذرياً ما بين قواعد النظام النيابى الذى يقوم على مسئولية الحاكم ووحدة الأمة واحترام إرادتها والقواعد التى وضعها الإسلام لنظام الحكم (وهو بهذا الاعتبار ليس بعيداً عن النظام الإسلامى ولا غريباً عنه ، وبهذا الاعتبار يمكن أن نقول فى اطمئنان أن القواعد الأساسية التى قام عليها الدستور المصرى لا تتنافى مع قواعد الإسلام وليست ببعيدة عن النظام الإسلامى ولا غريبة عنه ، بل إن واضعى الدستور المصرى رغم أنهم وضعوه على أحدث المبادىء والآراء الدستورية وأرقاها فقد توخوا فيه ألا يصطدم بأى نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية) .

وهذا النص يكشف بوضوح عن روح السماحة والمرونة التى عرفت بها الدعوة الإسلامية .

ويقول الأستاذ البنا في مقاله الشهير (معركة المصحف) :

إن هذه المعركة تدور بالحكمة والموعظة الحسنة والبيان الصريح الكاف ، والدعوة الواضحة المرتكزة على أساس النصوص القرآنية المحكمة القاطعة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها (تنزيل من حكيم حميد) ولن ادع الخصوم يفلتون من ثناياها وجوه التأويل والتفسير أو يفرون من أبواب النقاش والجدل العقيم ، بل سنوقفهم أمام النص المحكم وجها لوجه فلا يستطيعون منه فراراً ولا إفلاتاً » .

ولقد مضى قائد الدعوة إلى العمل لم يتوقف

أولا : أعلن أن الإخوان لا يطلبون الحكم وإنما يساعدون من يعمل لتطبيق الشريعة الإسلامية من الحاكمين فليس لهم مطمع خاص أو هدف معين .

ثانياً : دعا الخبراء من رجال الدعوة في ميادين القانون والاقتصاد والتجارة والمال والسياسة إلى استخلاص نظام الإسلام في هذه المجالات جميعاً .

وكتب عن مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي وقدم منهجاً واضحاً حول نظام الحكم ومسئولية الحاكم . النظام الاقتصادي والمنهج الاجتماعي الأخلاقي والتربوي والتعليمي .

* * *

الفصل الخامس

التحديات فى وجه حركة اليقظة

(١)

واجهت حركة اليقظة خلال فترة ما بين الحربين (١٩١٨ — ١٩٣٩) تحديات ضخمة فى مجال التغريب والغزو الثقافى وذلك بعد أن سيطر النفوذ الاستعمارى الفرنسى والبريطانى على أجزاء الأمة العربية كلها بعد أن سقطت الشام بأجزائها الأربعة (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) والعراق تحت النفوذ البريطانى والفرنسى بعد أن كانت تابعة الامبراطورية العثمانية وتركزت قوى النفوذ الاستعمارى الثقافى فى لبنان والقاهرة .

وتحولت الدولة العثمانية إلى الدولة التركية الحديثة التى وجهتها القوى الغربية إلى الانقطاع عن مفاهيم الشرق والعرب والإسلام والارتباط بالفكر الغربى والأمه ومفاهيمه وكان أكبر ضرباتها التى وجهتها إلى العرب والمسلمين هى إسقاط الخلافة ورفض اللغة العربية والخط العربى حيث بدأ النفوذ التغريبى يضع تجربة تركيا أمام البلاد العربية ووقف دعاة التغريب والشعوبية يغررون بها المصريين والعرب ويزينون لهم هذا العمل على أنه مفهوم التجديد والتقدم الذى يجب أن اقلده وأساير خطوه .

وكان « تيار التغريب والغزو الثقافى قد ركز قواعده قبل الحرب على مدى فترة طويلة ربطها بعض الباحثين بأوائل الاحتلال الفرنسى للجزائر وردها بعضهم لما قبل ذلك ، إلى أوائل الحملة الفرنسية وركزها آخرون فى عصر إسماعيل .

وقد تكونت مدرسة التغريب فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وامتدت إلى الحرب العالمية الأولى ممثلة فى عدد من الشاميين المارونيين الذين خرجتهم معاهد الإرساليات التبشيرية وأعدتهم لقيادة الحركة الفكرية فى مصر قلب الوطن العربى وللتصدر فى مجال الصحافة بالذات .

وفى مقدمة هؤلاء فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة الذى هاجم حرية الفكر فى الإسلام وواجه أعنف رد عليه بقلم الامام محمد عبده ، والدكتور صروف محرر المقتطف وداعية نظريات دارون وسبنسر وإعلاء الثقافة الانجليزية وجرجى زيدان الذى كتب تاريخ التمدن الاسلامى فشوهه وكتب قصص تاريخ الاسلام فملأها بالشبهات والاتهامات التى رددها المبشرون والمستشرقون وشبلى شميل حامل لواء الفلسفة المادية وداعية العالمية فى مواجهة الوطنية والمدافع عن الاستعمار البريطانى عنه

الحرية والاستقلال وأطلق السيد عمر (الجريدة) داعية تعليم أبناء الأثرياء وحدهم وداعية العامية وخصوم العروبة والفكر الإسلامي ولصق الفلسفة الليبرالية المستندة إلى النفوذ البريطاني .

ولم يلبث وجود هذه المدرسة وهذا التيار أن تدعم بعد الحرب العالمية الأولى وتركز بأعداد جديدة من الكتاب من أمثال محمود عزمي وطه حسين وسلامة موسى وعلي عبد الرازق واسماعيل مظهر وعبد الله عنان .

وكانت كلية الآداب وجريدة السياسة ومجلات العصور والمجلة الجديدة والهلال والمنتديات المختلفة هي منابر هؤلاء الدعاة الذين بدأوا عملهم من خلال المخطط الذي رسمته مدرسته الجديدة وحزب الأمة وأطلق السيد قبل الحرب وحملوا شعاراً جديداً ليس هو (مصر المصريين) الذي كان شعار ما قبل الحرب بل كان اسم الشعار الجديد (التجديد) لهم و (الرجعية) لخصومهم حتى لقد جرؤ سلامة موسى فوصف شكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب ورشيد رضا بأنهم أوكار الرجعية في مصر لأنهم كانوا من المناضلين ضد السموم التي كان ينفثها أصحاب تيار التغريب ، والذي تجلى خلال السنوات العشر الأولى للحرب العالمية في عدة قنابل مثيرة في مقدمتها كتاب علي عبد الرازق عن الإسلام وأصول الحكم وكتاب طه حسين (الشعر الجاهلي ثم الأدب الجاهلي) والحملة على اللغة العربية (سلامه موسى) والحملة على العرب واتهام عصر الإسلام الأول بأنه عصر فسق ومجون ونشر القصص الفرنسي المكشوف وترجمة عشرات من القصص الفاضح والكتب التي تنقل الآراء المتعارضة التي أنكرها أصحابها في بلادهم ، هنالك كانت مجلتا المنار التي كانت تصدر منذ أوائل القرن ، والفتح التي أصدرها محب الدين الخطيب في نفس اليوم الذي صدرت فيه السياسة الأسبوعية ، كانت هاتان المجلتان ومن بعدهما مجلات كثيرة تقف موقف الديدبان اليقظ القائم وراء التزويق والخطر الخفي وراء التمويه .

فقد كانت الرابطة العربية والشرقية والدينية تهاجم في عنف شديد ، وكان التراث الإسلامي يناقش في سخرية وتحقير حيث اتهمت مؤلفات العرب بأنها منقولة من كتب يونانية وفارسية ، وأن حضارة العرب (حضارة سطحية ظاهرية انتحلتها عقلية آرية) ووصف الفكر الإسلامي الجامع للاجتماع والسياسة والاقتصاد بأنه فكر ديني ، ووصف القرآن بأنه كتاب حكم ومواعظ ثم نقلت هذه الآراء إلى برامج الدراسة بالجامعات والمدارس الثانوية صوراً من الإكبار للغرب والإغراق والغض من شأن العرب والمسلمين واتهام المصريين والعرب .

ووصف الجنس العربي بأنه ضيق العقل قصير النظر ضعيف الخيال ، وهوجمت اللغة العربية ووصفت بأنها غير وافية بحاجات العصر وتردد بأن الدين مانع من الرقي والاسلام عائق عن الثقافة وأن العقل العربي الاسلامي وقف عند الأسلوب القديم .

وجرت الدعوة إلى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم ، وأن نقبل من الحضارة خيرها

وشرها وحلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب . واتخذ النفوذ الغربي من دعاة الاقليمية الضيقة والوطنيات المنفصلة عن الاسلام والعروبة وسيلة إلى توجيه المجتمع والقانون وجهة تفصل بين الاسلام بحسبانه الأساس الفكرى للثقافة والمجتمع وبين المجتمع نفسه ، فالقانون مشتق من القوانين الفرنسية والتعليم مقتبس من الأنظمة الأوروبية .

وفى مجال التربية عمد طه حسين فى مصر على تفريغ ثقافة الأمة من روح العروبة ومفهوم الاسلام وعمل ساطع الحصرى فى العراق على بث فكرة العروبة مجردة من روحها القوى الخالد وهو الاسلام . ودعا طه حسين وسلامه موسى إلى وجوب الانصراف عن الشرق إلى الغرب وقطع الأواصر الدينية والجنسية بالشعوب العربية للأخذ بمدنية الغرب كاملة غير منقوصة على أنها كل لا يتجزأ .

وبذلك عملت كل القوى على تجريد الثقافة العربية من روح الاسلام ، مع فصل العروبة عن الاسلام وإعلاء إحداهما على الأخرى أو ضرب إحداهما بالأخرى بينما العروبة والاسلام وجهان لعملة واحدة وماضيهما ماض مشترك متلازم ولا قوة للعروبة إذا تجردت من الاسلام .

وقد بدأت ظاهرة تركيز التغريب على العرب ودعم مركز التغريب فى مصر التى كانت فى نظر الأمة العربية كلها هى مصدر القيادة الفكرية .

ذلك أن العرب لم يقبلوا ما قبلته تركيا من تحرر كامل من أساس الفكر الاسلامى واللغة العربية ، وبذلك بقوا القوة الكبرى التى تحمل لواء الاسلام واللغة العربية ، بل لقد حل العرب فعلا فى مكان القيادة والصدارة بعد سقوط الخلافة ، وكانت مصر فى نظر المسلمين والعرب جميعاً هى قلب العالم الاسلامى فكرياً وسياسياً .

ولذلك كان التركيز على العرب وحدهم فى استعمار وتغريب أقسى ما شهد مختلف أنحاء العالم الاسلامى وكان التركيز على الفكر أقوى من التركيز على السياسة ، فقد كان هدف النفوذ الأجنبى وسبيله إلى البقاء هو القضاء على مقومات الفكر الاسلامى إيماناً بأنها مصدرة القوة الدافعة إلى المقاومة والنضال والكفاح وحاملة القيم الكبرى للبقاء والحياة .

ومن هنا دارت المعارك حول هدم قيم الفكر الاسلامى واللغة العربية والتاريخ العربى ، والتراث والاسلام والدين ، حيث أثيرت حول هذه القيم شبهات ومعارضات ، وعندنا أن الغزو الفكرى كان أقوى صور الغزو وأشدها ضراوة ، وكانت الصحيفة والمدرسة هما الأداة القادرة على دعم هذا التغريب وصناعة أجيال تستسلم أمام الفكر الأوربى والحضارة الغربية وتقول بهما وتتنكر فى نفس الوقت للفكر الاسلامى والحضارة والتاريخ العربى الاسلامى وتسخر منه .

وكانت المدارس الأجنبية المنبثة فى مصر وسائر الوطن العربى تحمل جراثيم الثقافة المدمرة

الوطنية والعقيدة والقيم (ومما يذكر فى هذا الصدد أنه فى عام ١٩٣١ كان عدد الطلاب الذين يدرسون فى المدارس الاجنبية على الوجه الآتى : ٧٩ ألف طالب فى مصر ٤٤ ألف فى لبنان ، ٢٦ ألف فى فلسطين ، ٩ آلاف فى سوريا ، ٨ آلاف فى الأردن) .

(٣)

وجرت الدعوة إلى القول (بأن الطبقة المثقفة الممتازة يجب أن تعرض عن الأمور المتصلة بالدين والاسلام ولا تقيم لها وزناً ، وأن البحث فى الفكر الاسلامى هى من شأن الشيوخ والمتأخرين وأن الرقى العصرى الذى نراه لم يتم إلا بإهمال الدين جانباً وأن المسلمين لن يبلغوا الرقى العصرى ماداموا يلهجون بالاسلام ويتكلمون عن الدين) وهذا هو ما وصف بأنه (دعوة اللاييك) أى اللادينية ، ومن عجب أن يقول كتاب التغريب هذا فى مصر بينما تعمد أكبر صحيفة فى فرنسا وهى الطان إلى تخصيص عامود فى كل عدد على أربعة أعداد لتلخيص محاضرة الأب بينار دوبدلاى فى إثبات ألوهية المسيح ومساواته لله تعالى .

(٤)

وقد استهدف تيار التغريب العمل من وراء الكلمات والشبهات إلى تمزيق الروابط والصلات القائمة بين المصريين والعرب من ناحية وبين العرب وبعضهم ، ثم بين العرب والمسلمين ، وقد بدأ ذلك بتمزيق العلاقة التاريخية بين العرب والترك من داخل مدارس الارساليات ومعاهدها ، وبعد أن مهدت الماسونية التى جاءت فى ركاب نابليون لذلك ، وأدت دورها إلى أن ظهرت (الصهيونية) بعد ذلك بقرن كامل ، ثم مضى عمل الماسونية والصهيونية فى وقت واحد ، كل لها ميدانها ، الصهيونية هى السيطرة الغربية على العالم العربى وإقامة امبراطورية إسرائيل وهدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان ، والماسونية هى التهام العالم كله تحت نفوذ التلمود على المدى الأوسع .

وقد كان للماسونية دورها الخطير فى إسقاط الدولة العثمانية ، وفى السيطرة على عدد كبير من قادة العالم العربى وحكامه الذين كانوا يمهدون للنفوذ الصهيونى ليتسع ويتركز من خلف واجهات سميكة لا تكشف هذا الخطر المحدق بالأمة العربية (اقرأ كتابنا: العروبة والاسلام) .

وكانت حركة التغريب كفيلة على أن تعمل على تمزيق وحدة العرب أنفسهم ودعم وتعميق التجزئة السياسية التى أقامها الاستعمار بتقسيم الأمة العربية إلى دول والاقليمية العرقية والتاريخية ، وذلك بإثارة الخلافات المذهبية القديمة (سنة وشيعة وأكراد وعرب ومسلمون ومسيحيون وعرب وبربر) (ثم فرعونيون وفينيقيون وأشوريون وبابليون) .

وقد استطاع دعاة التغريب أن يقبلوا بأنهم فى فترة ما بين الحربين أمكنهم القضاء على وحدة العرب والترك والقضاء على الخلافة الاسلامية الجامعة للمسلمين وتمزيق الوحدة العربية وإقامة الدعوة

إلى تقبل الفكر الغربي مع الحضارة الغربية وكانت الدعوة التي تقول « المدنية الأوروبية كل لا يتجزأ » التي حمل لواءها طه حسين من أخطر الدعوات .

(٥)

وقد مضى تيار التغريب يعمل ، ليس في مصر وحدها بل في الوطن العربي كله عن طريق الضغط والتدمير وإثارة الشبهات وكانت أكبر مجالات قوته :

(١) عن طريق الإقليمية والقوميات الضيقة .
(٢) عن طريق التربية .
(٣) عن طريق القوانين الغربية المنافية للمزاج العربي الإسلامي .
(٤) عن طريق الأنظمة والفلسفات .

وقد استهدف التغريب ما وصفه المبشرون ودعاة التغريب بأنه سيادة الحضارات الغربية على حضارة الأمم ولا سيما الحضارة الإسلامية التي سادت أفريقيا وآسيا . وحمل العالم الإسلامي حملا على إعتناق حضارة الغرب .

وقد كان لبعثات الشباب العربي إلى أوربا أهمية لا تقل عن أهمية مؤسسات التبشير ومعاهده في قلب الوطن العربي وقد وصف ذلك لويس ماسفيون حين قال « إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يلونوا بالمدنية المسيحية » .

وكانت الصحافة إلى النظام ذات أهمية كبرى ووصف جب معظم الصحف اليومية في هذه الفترة بأنها واقعة تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية وقال إن الصحف العربية لا دينية في اتجاهها (Secalar) .

وإلى جوار الصحف كانت المجلات والكتب تنضح كلها بهذا الإتجاه التغريبي الذي كان علامة على خلاف بين تأييد النفوذ الفرنسي أو البريطاني ، وبين الحملة على اللغة العربية أو الحملة على العرب والإسلام ، ولكنها كانت كلها تجمع على أمر واحد : إزاغة قلوب المسلمين والعرب عن هدفي محمد وإثارة الشبهات وإدامة إحداث الاضطراب الفكري الذي لا يتوقف .

وكان لهذا التيار الذي تؤيده القوى الرسمية وتحميه ، وأمامه منابر كلية الآداب والصحف والمدارس والأندية ، أثر أي أثر ، وقد اشتد التيار وبلغ غايته حين هاجم القرآن ودعا إلى النظر إليه ككتاب أدبي قابل للنقد ، هنالك بدأ رد فعل قوي من خلال الهيئات الإسلامية والجمعيات

والصحف والمجلات المختلفة التي كانت تضم عدداً كبيراً من العلماء المثقفين ، ومنهم عدد كبير من تعلموا في أوربا وأحرزوا أرقى درجاتها .

لقد ركزت الحملة على الدين والإسلام والقرآن ، فالدين ـ عندما خرج من الأرض ولم ينزل من السماء وهناك خلاف عميق بين العلم والدين وهناك حملة نقد وسخرية متصلة بالأزهر وعلماء الدين .
وهناك موجة عارمة من القصة الإباحية المؤلفة والمترجمة والأغاني الإباحية ودعوة مستمرة إلى الفصل بين الدين والمجتمع وبين القانون والشريعة .

ولقد كانت الشبهات والنظرات والقضايا التي أثيرت بين الحربين هي امتداداً لما عرض له دعاة التغريب قبل الحرب ، فكل الشبهات التي رددت من قبل بصوت خافت تجددت بأصوات عالية مرتفعة . فما تناوله جرجي زيدان من اتهام العقلية العربية وتزييف التاريخ وإثارة إتهامات قد اتسع نطاقه من بعد في كتابات طه حسين وأحمد أمين وعلي عبد الرازق وبالجملة فتح لويس شيخو وشبلي شميل ولطفي السيد وجرجي زيدان الأبواب لدعاة التغريب الذين اتسع أمامهم مجال الدعوة وعمق تيار حركتهم وكان الهدف هو إخراج الأمة من مقوماتها الذاتية : العقلية والقومية والشخصية ولم ينقص هذا من جهد الذين عملوا في ميدان الثقافة ولكن الحق يقتضي أن نضعهم في مكانهم الحق فنقول إنهم كانوا قناطر على الثقافة الغربية : (سلامه موسى ، طه حسين ، محمود عزمي ، علي عبد الرازق) .

— ٢ —

حمل دعاة التغريب شعار « التجديد والجديد والمجددين » في وجه قادة حركة اليقظة حيث أطلقوا عليهم شعار « الرجعية والرجعيين » بحسبان أنهم يدافعون عن التراث بينما كان المجددون يحملون لواء الحملة عليه وتهديمه وإثارة الشبهات حوله . وكان معروفاً أن كل هجوم على التراث واتهامه بأنه قديم ومتخلف وبال إنما يطوي في أعماقه الهجوم على الدين والاسلام والفكر الاسلامي ومختلف القيم الأساسية التي تقوم عليها حركة اليقظة الأصيلة ، غير أن دعاة التغريب كانوا من الجبن والمكر بحيث عجزوا عن إعلان هذه الصورة أو كشفها . ومن الحق أن يقال أن قادة حركة اليقظة لم يكونوا دعاة القديم والتراث وحده ولم يكونوا يتشبثون به لإعادته إلى الواقع أو ليعيش الناس فيه من جديد ولكنهم كانوا يدعون إلى قانون طبيعي لا يتخلف بأن : « كل حاضر لا ماضي له لا مستقبل له »
وفي منطق الأشياء ووفقاً للفطرة فإن الدعوة التي يحمل لواءها التغريب لإعادة الناس إلى الماضي السحيق المظلم قبل الاسلام لإحياء تراث بال ليس له ثقافة أو لغة أو حياة كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية لم تجد قبولاً أو ترحيباً فهي موغلة في البعد عن المنطق والعلم والعقل ، بينما الدعوة إلى أن يرتبط حاضر المسلمين والعرب بماضيهم القريب والحي والمتمثل في فكرهم ودينهم وثقافتهم فإن هذه الدعوة تحارب وترمى بأنها دعوة إلى القديم البالي ، ويتهم أصحابها بأنهم رجعيون متخلفون فالحملة باسم التجديد إنما استهدفت أساساً عدة أمور : (تجديد اللغة) : بإخراجها من الأسلوب البلاغي الراقي إلى الأسلوب العالي أو المتوسط وكان هدف هذا العمل فصل المثقفين عن أسلوب القرآن ومنهاجه .

(تجديد الفكر) وذلك بترجمة ونقل كل ما يوجد عند الغربيين من آراء ومذاهب دون تقدير واقعنا أو ذوقنا أو مزاجنا أو ما ينفعنا .

(تجديد الفن) : وذلك بإتاحة الفرصة لمذاهب الشهوة والغريزة والانحلال من مختلف القيم الأصيلة التي عرفتها الأمة العربية وكسر القيود بإذاعة الأدب المكشوف باسم حرية الفكر واستقلال الرأي .

(تجديد المجتمع) : وذلك بالدعوة إلى تقبل تقاليد المجتمعات الغربية وأخلاقها وأساليبها في الحياة ودفع المرأة إلى المجتمع دون حمايتها بثقافة خاصة تمنحها القوة على مواجهة التيارات الضارة .

(تجديد الدين) : وذلك بالخروج عن قواعده العامة ، وتخريج قواعده وتأويل أصوله والقول بأن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، والادعاء بأن الدين يعارض العلم ، والحملة على رجاله ودعاته .

فإذا جاء قادة حركة اليقظة فعدلوا هذه المفاهيم غضب أتباع تيار التغريب من ذلك لأنهم يهدفون من وراء كلمة التجديد إلى غايات واضحة رسمها التبشير والاستعمار وغلفها بهذه الأسماء البراقة ومن الحق أن يقال أن أصالة التجديد وعمق التطور إنه كان يجري على أيدي قادة حركة اليقظة اقتناعا وعمق إيمان وطهره وإخلاصاً مستمداً من الضمير .

أما أتباع تيار التغريب فكانوا مدفوعين في عملهم بسخرية وتشكيك واحتقار لكل مقومات الثقافة العربية والفكر الإسلامي .

لقد كان دعاة اليقظة يؤمنون إيماناً صادقاً بالتجديد والتطور وإنماء الثقافة ، ولكن على أساس معين من الإرتباط بالتراث وإقامته على قاعدة من الفكر الإسلامي ، والخطو به وفق المزاج النفسي والعقلي للأمة العربية ، ولكن دعاة التغريب كانوا يطمعون في أن يحققوا في مصر والعالم العربي ما حققه التغريبيون في تركيا من قطع أمة برمتها عن القيم والموروثات الأصيلة وفي اقتباس أصول المدنية الغربية على ما هي عليه بدون قيد ولا شرط .

يقول العلامة محمد فريد وجدي في وصف هذه الدعوة إلى التجديد التي حمل لواءها دعاة التغريب ، (ثم جاء دور المسترزقة من الكتاب والمترجمين والمصورين والممثلين والمغنيين ممن لا يهمهم أمر الجماعة فانبرى كل منهم في مجاله يستبيح المحظورات ، جاعلا همه لفت أنظار الجماهير إلى بضاعته بإثارة شهواته ، واسترسلوا جميعاً في هذا المضمار حتى استحالت الدعوة إلى التجديد دعوة الاباحية والدفع العامة ومن في حكمهم ممن لا أخلاق لهم في إشباع شهواتهم والاستكثار من لذاتهم وجرف الكبار الطيبين وراء الخبيثين).

وأصابنا من جراء هذه الحركة ثلاثة أدواء من أعضل ما تصاب به الجماعات البشرية :

أولها : التهالك في الجري وراء الأهواء والاستهانة بالنفس والنفيس في سبيلها ووقف جميع قوى الجسم والعقل عليها.

ثانيهما : المبالغة في الاستخفاف بكل قديم حتى الدين نفسه وهذا ما لا نرى عليه الأمم الحية فإن لديها القديم ماثلا أمام الجديد الذي يرف من الجدة ولكل منهما في قلب الشعوب مكان من الاحترام والإجلال أما عندنا فكل قديم مزدرى مرذولا متهالك في قطع صلتنا به .

ثالثاً : تغلب مذهب العامة على مذهب الخاصة فالأزياء الجديدة وآداب المعاشرة والعادات المستحدثة في كل صغيرة وكبيرة لا تنزل على الناس هنا من الطبقة العليا كما هي الحال في العالم كله ولكنها أصبحت لدينا تتولد في الطبقة السفلى ثم يمتد سلطانها بحكم الغلبة على الخاصة .

وأشد الطبقات تأثراً بالدعوة الاباحية لدينا هم العامة ومن حكمهم وتحت سلطان الاباحية أصبح كل طراز من التهتك وكل بدعة مخالفة لما عليه الناس من الأمور ينظر إليها بشيء من الإعجاب .

حركتنا في التجديد التي استحالت إلى سلسلة لا تنتهي حلقاتها من المنكرات والمخازي صادرة إلينا من ناحية العامة ومن في مستواهم » .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كشفت أقلام الكتاب كيف أن الكتاب الذين كانوا يحملون لواء التجديد إنما كانوا عالة على غيرهم ولم يكونوا مبدعين ، وكانوا مقلدين تقليداً تاماً بل ناقلين ، وعلقت مجلة المكشوف اللبنانية على حركة التجديد في مصر فقالت : « إن أكبر مفكري مصر وأدبائها قد عجزوا في مؤلفاتهم عن الإتيان بنظرة واحدة طريفة لم يستمدوا روحها من أجنبي ، فالشك في الشعر الجاهلي مسبوق إليه وحياة محمد مقتبسة من كتاب اميل درمنجم ، وضحى الإسلام ليس لمؤلفه منه إلا العنوان بدليل الأسماء العربية التي وردت مشوهة في طبعته الأولى أمثال (زافار) وأصلها ظفار و (ارياس) وأصلها الحارث ، وقالت إن الكتب التي تصدر عن مصر أكثرها قديم لغير أدباء مصريين والجديد فيها يستمد مادته من دروس أجنبية . لا أحد يجهل أن مؤلفات طه وهيكل وأحمد أمين ولطفي السيد يتوكأ في أصلها وأحكامها على تفكير غريب عن التفكير المصري أو العربي ، بل إن التفكير السائد في هذه المؤلفات بعيد كل البعد عن حقيقة الشعور الذي يحسه المفكر العربي .

وقد وصفهم الرافعي بأنهم قوم مستعمرون في عقولهم ، وقال إن هامش السيرة لطه حسين هو تهكم صريح عن كتاب أفرنجي بنفس اسمه » .

• • •

وقد حملت الدعوة إلى المصرية راية الفرعونية وهاجمت العروبة ، ودعا آخرون إلى مصر المصرية التى ليست عربية ولا إسلامية ، وقالوا إن العرب فاتحون كالرومان والفرس (مرسى كمال المتحف القبطى)

ودعا سلامة موسى إلى تقديس الفرعونية والمغالاة واعتبار مصر أمة شرقية والتهجم على العقلية العربية والثقافة العربية والدعوة إلى استبدال الحروف اللاتينية بالعربية والاندفاع المطلق إلى الحضارة الغربية ونبذ كل ما هو عربي .

ولكن سرعان ما قامت حركة اليقظة بتصحيح المفاهيم (مجلات الفتح ، المعرفة ، النهضة الفكرية) قال عبد الرحمن شهبندر : لقد قدرت لهذه الفكرة الموت العاجل وسترى أن زوالها سيكون حتم على أن الثقافة العربية ثقافة مشتركة ليس فى مقدور أحد أن يفصم عراها (المعرفة أكتوبر ١٩٣١) وهاجم على العنانى الأدب القومى المصرى وإهمال الأدب العربى العام وقال :

أين هو الأدب القومى المصرى ، أهو أدب الفراعنة أم أدب العرب المصريين فى أى لغة على كل حال قد دون هذا الأدب ، أفى اللغة الهيروغليفية أم فى لغة العرب

ومضى فريد أبو حديد وعنان فى كشف صفحات باهرة من تاريخ الإسلام فى مصر ومجالس الأدب وجهاد شعب مصر فى سبيل حقوقه ، وإبراز المواقف التاريخية والبطولات التى يحفل بها تاريخ مصر العربية وحلقات الأدب فى الفسطاط .

وكشف الباحثون من حركة اليقظة كيف كان الشعور الدينى والشعور الوطنى توأمان متلازمان متداخلان وكيف عمل الاحتلال على فصم العلاقة بين تركيا والعرب ، توطئة لفصمها مع الإسلام نفسه وكيف أن الثورة المصرية ١٩١٩ التمست مصدرها من الفكر الإسلامى وقادتها كانوا رجال الأزهر .

وبذلك انهار التيار الذى أنشأه لطفى السيد وغذاه بين الحربين طه حسين وسلامة موسى والسياسة الأسبوعية ومحمود عزمى .

فقد نادى أحمد حسين بالمصرية قائمة الأرض العربية الإسلامية وتحول محمود عزمى إلى العروبة .

وكان المظنون إن سقوط الخلافة سيكون بعيد المدى فى القضاء على حركة اليقظة وفى إقبال دعوة الأخوة الإسلامية والروابط العقائدية والثقافية ، ولكن الواقع إن المجتمع العربى الإسلامى

استطاع أن يواجه التحدى فمنذ ألغيت الخلافة ظهرت ثلاث عوامل هامة حملت عاما وأدت دوراً ضخماً فى حركة اليقظة هى :

(١) تجدد الأزهر ونشاطه وظهور الدعوة إلى التدين بين جنباته .

(٢) الوهابية الجديدة فى الجزيرة العربية .

(٣) تأليف جماعتى الاخوان والشبان المسلمين والجمعيات الإسلامية والعربية الأخرى .

ولم تكن الخلافة التركية بالذات هى ما يشغل الباحثين ولكن كان يشغلهم أمران :

(١) وحدة المسلمين .

(٢) إنحراف الأتراك .

أما بالنسبة لوحدة المسلمين فقد نصت الجمعيات الإسلامية فى القوانين الأساسية لها على العمل على إعادة الخلافة وتعددت الدعوات لعقد مؤتمر إسلامى وقد عقد المؤتمر الإسلامى العالمى بالفعل عام ١٩٣١ فى القدس وتناول عديداً من القضايا .

أما بالنسبة لانحراف الأتراك فقد صور مصطفى صادق الرافعى موقف اليقظة من أتاتورك فى مقالين هما : التاريخ يتكلم ، وكفر الذبابة ، وكتب الوهابات : إلى أين يساق الأتراك .

ووجه كتاب على عبد الرازق بردود علمية كشفت عن انحراف فكرته الأساسية وأبانت عن الغرض السياسى الذى كان يهدف إليه حزب الأحرار الدستوريين من تصدره لمواجهة الفكرة بأسلوب له طابع إسلامى ؟

وكانت فكرة الدكتور السنهورى بشأن إنشاء عصبة أمم إسلامية من أقوى النظرات العلمية فى هذا المجال وظلت الخلافة الإسلامية تشغل المفكرين طوال هذه الفترة . يقول الدكتور محمود فياض : لم يستتبع إلغاء الخلافة ماتوقعه كثير من أعداء الإسلام فى أوربا وغيرها وظل صوت الإسلام يطرد علوه وظل الداعون إليه يترددون على صدور الصحف والمجلات المصرية وليث العالم الإسلامى كله طوال هذه الفترة مشدود الأبصار إلى مصر معلق أمله فى نصرة الإسلام وإعادة مجده عليها وذلك بالرغم من الدعوة القومية . ما هى الآراء القيمة التى أذاعها بعض الكتاب باسم التجديد .

يقول منصور فهمى : كل ما عندهم هو أن يتذمروا من اللغة الفصحى ويمدحوا من اللغة العامية ، وهذا يدل على جهلهم بلغات الأمم الحديثة .

فمثلا اللغة الإنجليزية يكتب فيها الكلمة بشكل وتنطق بشكل آخر واللفظة الواحدة ينطقها الأستاذ فى مدرسة أو جامعة بلهجة خاصة وينطقها عامل الترام مثلا بلهجة أخرى ، والحال كذلك عند الفرنسيين والإنجليز .

ومع ذلك لم نجد فى الأمم الحية من يقول بإحلال اللغة العامية محل اللغة الفصيحة ولكن أصحابنا المجددين فى مصر يظنون هذه مسألة المسائل .

ويقول : ويتكلمون عن القومية المصرية ويريدون بذلك أن تنفصل مصر عن أمم الشرق ، وهذا خطأ ، فقد كنت ولا أزال من أنصار الرابطة الشرقية لعلمى أن الأمم التى ترتبط برباط اللغة والدين ، وتكون وحدة لغوية وفكرية وعقلية وروحية هى أسمى ما يفكر فيه الرجل الحريص على ترابط الأواصر الإنسانية .

ويقول : ومن العجيب أن سلامة موسى وحسين هيكل يتكلمون كثيراً عن الإنسانية وروابطها العلمية والأدبية ثم ينسون ذلك كله حين يجرى ذكر العرب والمسلمين ، فهل أصبح المسلمون شعبة أخرى لا يصح أن يرتبط بها المصريون .

، إن أصحابنا المجددين لا يرضيهم إلا أن نكون عصابات تقتتل وتتناحر ففئة تهاجم العرب وتاريخهم وفئة تهاجم الأزهر وتعاليمه وفئة تجرح الدين وتقاليده وفئة تهدم اللغة الفصحى ، وهكذا دواليك حتى يصبح الفكر فى عراك دائم واضطراب شامل » .

(٣) تحديات التغريب وقضاياه

ما هى القضايا التى حمل لواءها التغريب ؟

الحق أن هذه القضايا عديدة ووافرة ، حتى ليمكن القول بأنها شملت كل مجالات الفكر والبحث ولم تدع مسألة واحدة دون أن تثير حولها الشبهات وتحاول أن تحطم ما تحمله من قيم وأبرز هذه القضايا الدعوة إلى عالمية الثقافة وتجزئة الإسلام والنظرية المادية وإقليمية الأدب ونقد النص القرآنى وتزييف التاريخ وتدمير البطولة وإحياء الأساطير ، وإحياء الشعوبية ، ومحاولة إسقاط الدور الذى قامت به الحضارة الإسلامية وإذاعة الإفريقيات ، وفصل الأدب عن مقومات المجتمع ، وإذاعة الأدب المكشوف والإباحية والإقليمية الضيقة وتعظيم الغرب واتهام الأدب العربى وتغريب التعليم والجامعة والتربية .

ولما كان لكل قضية من هذه القضايا تحدياتها وأخطارها فقد آثرنا أن نعرض الكل منها بشىء من الإيجاز .

١ - عالمية الثقافة

من أكبر المعضلات التي جرت بها أقلام الكتاب الدعوة إلى عالمية الثقافة والتشكيك في أن هناك ثقافة إسلامية وأخرى غربية .

والواضح أن الثقافة العربية في هذه الفترة تمر بمرحلة دقيقة حيث تحاصرها الثقافات الغربية من كل مكان بالمذاهب والدعوات المختلفة التي تحاول أن تغزوها بآراء تتعارض مع قيمها الأساسية في شأن فصل الدين عن المجتمع والأخلاق عن السياسة ، وتحاول أن تفرض النظرة المادية الخالصة في مجال الفكر والمجتمع ، بالاضافة إلى تجزئة مفهوم الاسلام وإحياء الأساطير وإعلاء شأن الاغريقيات والدعوة إلى الأدب المكشوف وتأييد الاقليمية الضيقة ، وتعظيم الغرب في أبطاله وتاريخه وتزييف التاريخ العربي والاسلامي وتدمير البطولة العربية الاسلامية واتهام الأدب العربي وإعلاء الأسلوب الأجنبي ، والدعوة العامية وإبعاد ثقافة القرآن وبلاغته عن مجال الكتابة والبحث .

ومن هنا كانت « عالمية الثقافة » دعوة مشبوهة ، هدفها إغراق الثقافة العربية في محيط واسع هو محيط الثقافة الغربية المسيطرة ، وذوبانه فيها .

ويقول الدكتور أمير بقطر في بحث له تحت عنوان إمتزاج الثقافات : وهل هناك ثقافة شرقية وأخرى غربية .

« إن ما يسمونه الثقافة الغربية اليوم قائم على الثقافة الاغريقية القديمة التي ترجم العرب واليهود كتبها فانتقلت بعد الحروب الصليبية ومنذ عهد النهضة العلمية إلى أنحاء أوربا . والثقافة الاغريقية أساسها مدنية مصر وفينيقية وأشور وبابل ، ولما كان مهبط الأديان حتى ظهور الوثنية هو في الشرق ، رسخ في أذهان شعوبه : التصوف والزهد والايمان بالروحيات . وفي حالة الضعف أصبح معنى الثقافة الشرقية مرادفاً لمعنى التأخر والانحطاط .

ويقول : وإذا كان امتزاج الثقافات في العصور السابقة محتملا فإنه قد أصبح في هذا العصر ضربة لازب لا مفر منها ، وأن التكلم عن الثقافة الشرقية والثقافة الغربية خرافة لا توجد إلا في الأساطير .

ثم يقول : إن أصل التشبث بالقول أن هناك ثقافتين هو التعصب ، سواء أكان صاحبه شرقياً أم غربياً ، سواء أكان تعصباً جنسياً أم دينياً أم سياسياً .

يردد رأى كرومر الذى يقول : إن للدعاية الأوروبية فى مصر تهدم ديناً يفهم أن تستعيض عنه بسواه وأن المصرى المتفرنج (لا أدرى) من جهة وليس أوروبياً بالمعنى الصحيح من جهة أخرى » .

ولا شك أن عرض الأمر على هذه الصورة فيه مغالطة كبيرة وتمويه بالغ فالثقافة العربية لم تتوقف عن الانفتاح على الثقافات المختلفة ولكنها لا تندمج فيها ولا تنصهر لأن لها من مقدراتها وقيمها ما يحول بينها وبين هذا الانصهار .

ومبدأ إلتقاء الثقافات والاقتباس والتبادل معترف به ولا اعتراض عليه ولكن الهدف الذى يقصد إليه دعاة التغريب ، وخاصة من كان منهم يعمل فى معاهد الارساليات الأجنبية إنما يستهدف من وراء الكلمات الناعمة غاية عميقة وذلك حين يقول أمير بقطر :

« إن من أهم عوامل فرض الثقافات هو عامل التربية والمعاهد التعليم » . وقد لقى هذا الاتجاه معارضة شديدة قوامها أن الأمة العربية لا ترضى بأن تذوب فى الثقافات الغربية ، وأن هذه المحاولة لاحتواء الثقافة العربية فى فترة الضعف وفى مرحلة اليقظة التى لم تكتمل بعد هو خطر بالغ يجب التنبه له .

٢ - التبعية للاستشراق والتغريب

حاول بعض الكتاب خلق تبعية بين الثقافة العربية والفكر الإسلامى وبين الاستشراق ، واعتبر بعض الكتاب أنفسهم وسائط لنقل آراء هؤلاء المستشرقين وإذاعتها وتأييدها - لا نقدها وتفنيدها فالدكتور طه حسين يتطوع بنقل تقرير المستشرق جرفنى عن حرق العرب لمكتبة الاسكندرية وينشره فى صحيفة السياسة ويعلق عليه تعليقاً خطيراً حين يرى أنه لا بأس بأن يفعل العرب ذلك ، فإذا ما عارضه أحمد زكى باشا شيخ العروبة هاجمه بعنف .

وكانت الصحف تولى اهتمامها بمؤتمرات المستشرقين وآرائهم وتفرد لها صفحات وتعتبر مقرراتها ذات قداسة خاصة ، وتعتبر توجيهات المستشرقين كأنما هى تعليمات وأوامر .

وكان المستشرقون فى المرحلة السابقة يلتمسون آراء المفكرين العرب والمسلمين من أمثال : أحمد زكى باشا وشكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش ، أما فى هذه المرحلة فقد أصبح كتاب مصر والعالم العربى أشبه بتلاميذ تابعين للمستشرقين ينقلون عنهم ويرددون آراءهم .

غير أن حركة اليقظة لم تتوقف عن معارضة الآراء الخطيرة التى قدمها هؤلاء المستشرقين وأتباعهم ودارت مناقشات متعددة حول سموم كثيرة بثها هؤلاء المستشرقون فى آرائهم فلقد استقدم

الذين أنشأوا المجمع اللغوى عدداً من المستشرقين ومن بينهم فنسنك رئيس تحرير دائرة المعارف الإسلامية وهو من أكبر المستشرقين الغربيين تعصباً ضد الإسلام ، فانبرى الدكتور حسين الهراوى الأمر ، وكتب عدداً من المقالات كاشفاً عن الشبهات التى يثيرها هذا المستشرق مما حمل المختصين على رده ورفض قبوله .

ووقف الشيخ عبد العزيز جاويش فى إحدى المحاضرات التى ألقاها محمد كرد على عن النهضة العربية ودور الاستشراق فأشار إلى مدى خطر المستشرقين ودورهم ، مستشهداً بتجربته الخاصة إذ أمضى فى بريطانيا فترة طويلة من الوقت سمحت له بمعرفة عدد منهم وتبين أهدافهم مما اضطر كرد على إلى أن يقول : إنى أعلم أنهم يعملون لسياسة بلادهم أولا ، وأن منهم دعاة متعصبين يتخذون الاستشراق سلماً لخدمة دينهم على نحو ما كان فى القرون الوسطى .

ودارت فى هذه المرحلة مناقشات كثيرة عن المستشرقين : خطرهم وانفعهم شارك فيها الدكتور زكى مبارك والدكتور حسين الهراوى وعدد آخر من الباحثين وكان مجالها مجلتى الهلال والمعرفة . وكانت صحف السياسة الأسبوعية والجلة الجديدة والمصور توالى اهتمامها بنشر آراء المستشرقين حتى إن مجلة (الرابطة الشرقية) التى كان يشرف على تحريرها (الشيخ) على عبد الرازق أفردت صفحات طويلة لبحث ما كتبه المستشرق (بارلوند) عن (مسيلمة الكذاب) مدعى النبوة .

٣ — الحملة على الاسلام ورجال الأزهر

كانت الحملة على الإسلام ورجاله وعلى الأزهر وعلمائه هدفاً أساسياً لدعاة التغريب ، فى محاولة التشكيك فى الإسلام خاصة والدين عامة ، ولما كان الهجوم على الدين مواجهة غير ميسور ، فقد انصب الهجوم على علماء المسلمين وسيلة إلى هذا الهدف وكانت المحاولة هى تصوير علماء المسلمين على النحو الذى صورت به أوربا (رجال الدين) الذين وقفوا فى وجه النهضة والعلم وهو بالنسبة لعلماء المسلمين غير صحيح .

وحرصت مجلة السياسة الأسبوعية فى باب دائم عنوانه (فى المرآة) أن تعرض لعدد من هذه الأسماء وفى مقدمتهم : رشيد رضا ومحمد بخيت وعبد الحميد سعيد وغيرهم .

وقد اتسع نطاق هذه الحملات إثر الموقف اليقظ الذى وقفه علماء الأزهر فى وجه كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق ، وكتاب الشعر الجاهلى لطه حسين وقد حفلت جريدة السياسة فى هذه الفترة بنماذج من السخريات المريرة التى ساقها كتابها فى وجه الأزهر والإسلام حتى كتب على عبد الرازق مقاله الحاقد (على أطلال الأزهر) وكان له سخريته فى مناسبة مولد النبى .

ومن الحق أن يقال إن علماء الأزهر (وهم ليسوا رجال دين بالمعنى الغربى لأن الإسلام لا يقر

هذا المعنى وحيث لا يوجد فى الإسلام كهنوت أو نفوذ مثل هذا الذى عرفته أوربا) الحق أن علماء الأزهر وقفوا مواقف صامدة شريفة فى وجه حملات التغريب والغزو الثقافى واستحقوا بذلك كراهية دعاة التغريب .

ومن صور الحملة على الأزهر ما كتبه على عبد الرازق بعد ما كتبه وصحب براءة العالمية منه حيث يقول : بالأمس طوفت حول الجامع الأزهر ، لقد رأيتنى أول ما دلوت من حرم الجامع الأزهر أن يد الخراب قد مسحت عليه فدمرت كل مكان فيه من دور الكتب وقبور الصالحين والقضت ذلك كله طوبة طوبة فلم ترحم أثراً كريماً ولا تركت ظلا قائماً وتركته خلاء ، أما القوم فقد تفرقوا أيدى سبأ ، أما ديارهم فقد أصبحت خلاء فلا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ، واسمع صوت الجامع الأزهر فإذا صوته الداوى قد سكت وانحسس فى الأزهر ريح الأزهر فإذا الأزهر عليه السلام قد سكنت ريحه وذهبت روحه ، يا أسفا على الأزهر تفتاله يد الخراب بين سمعنا وبصرنا ونحن على الحسرة سكوت لا نملك دفعاً ولا نستنقذ ما فيه من رمق .

هذه الصورة لا تمثل الواقع فقد كان الأزهر فى هذه الفترة يهب من رقاده ويخطو إلى اليقظة التى أحيته وجددته وأقامته على طريق النهضة فأشرقت فيه أعلام وأسماء فى مقدمتها الظواهرى والمراغى وشلتوت وغيرهم .

٤ - تجزئة الاسلام

كان من أكبر أهداف حركة التغريب : تمزيق مفهوم الإسلام الموحد المتكامل ، وذلك بالفصل بين الأدب والأخلاق ، والمجتمع والدين ، وجاء كتاب (على عبد الرازق) عاملا هاماً فى هذه المحاولة الخطيرة ، فهو كتاب ، قصد به أصلا القول بأن الخلافة ليست نظاماً إسلامياً وكان ذلك فى مواجهة هدف سياسى حزبى أراد حزب الأحرار الدستوريين أن يؤكده معارضة الملك ، فاتخذ له هذا الأسلوب الأقوى والوحيد حيث لم يكن فى مقدور الأحرار الحملة على هدف يدعو إليه حاكم البلاد ، لذلك فقد اتخذوا هذا الأسلوب تدعيماً لخطة سياسية ولكنهم أساءوا به إساءة بالغة إلى (تكامل الاسلام) الذى يجمع بين الدين والدولة ، والدين والسياسة ، وقد احتاج المؤلف إلى جهد كبير ليحرف مفاهيم النصوص فى سبيل الوصول إلى القول بأن الرسول ﷺ لم يكن حاكما وأن الاسلام ليس إلا ديناً روحانياً خالصاً .

وقد واجهت هذه الصيحة الخطيرة معارضة كاملة ، فند فيها دعاة اليقظة هذا الرأى فقال صاحب المنار : إن على عبد الرازق يدعو إلى التفرقة بين الدين والدولة ، وإلى الانصراف عن التقيد بأحكام الشريعة فى الأمور المدنية وهو بقوله هذا يصادم الفكرة الاسلامية التى تعتقد أن محمداً أقام دولة كما

أوجده ديناً ، وأن نظام الشريعة هو بالضرورة فرض من فرائض الشرع المقدسة يجب الأخذ به في الحياة المدنية والحياة الدينية جميعاً . . إن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين هو قول بوجوب محو السلطة الاسلامية من الكون ونسخ الشريعة الاسلامية من الوجود وخضوع المسلمين إلى من ليس على صراط دينهم .

كما ظهر عدد من الكتب الرصينة التي دحضت شبهات على عبد الرازق منها : حقيقة الاسلام وأصول الحكم الشيخ محمد بخيت المطيعي ونقض كتاب الاسلام وأصول الحكم الشيخ الخضر حسين وفي تونس كتب الطاهر بن عاشور كتابه (نقد كتاب الاسلام وأصول الحكم) وقال فيه : أنه لا انفكاك بين الدين والحكومة في الاسلام ، وأن مظاهر الدولة كلها متوفرة في نظام الشريعة الاسلامية وأعظمها الحرب والصلح والعهد والأسر وبيت المال والامارة والقضاء وسن القوانين والعقوبات (بحيث لم تغادر شيئاً مما يلزم لاقامة نظام أمة بحسب العصر والقوم ، واستشهد المؤلف بالآية الكريمة :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) إلى قوله (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) وقال : كيف يستقيم أن يكون الإسلام شريعة ثم لا تكون له حكومة تنفذ الشريعة وتحمل الراعي والرعية على العمل بها ، وقال إن الاسلام وحدة دينية وجامعة وشريعة وسلطان ولا معنى للحكومة إلا مجموعة هائلة من الأمور ، وقد جمع الرسول الأمة في دعوته وسن لها قوانين معاملاتها الفردية والاجتماعية وتولى بنفسه الانتصاف من المظالم بعدل وحزم وأقام الحدود من العقوبات وأن إقامة المملكة الاسلامية هي متمم الرسالة وداخل فيها) .

وقد ربط السيد محب الدين الخطيب بين عبد الرازق وطه حسين حين قال :

أبى على عبد الرازق أن يساوى طه حسين في إلحاده وإنكاره وحدانية الله والشريعة كلها والأنبياء التي نزلت عليهم تلك الشرائع فإن طه حسين ينكر فقط أن العلم يثبت ذلك إلى الآن وأن الباب مفتوح وربما أثبتها بعد ذلك . أما على عبد الرازق فقد سد الباب وقطع الأمل وسمى كل ذلك جهالات وسخافات وخرافات .

(وقد جاء ذلك في الرد على مقالات متعددة نشرها على عبد الرازق في مجلة الرابطة الشرقية وفي جريدة السياسة وتطاول منها على الشخصية النبوية) .

• • •

وقد حاول كتاب الاسلام وأصول الحكم أن يجعل الشريعة الاسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا وأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين ، وأن نظام الملك في عهد النبي كان موضوع غموض أو إبهام أو اضطراب أو نقص .

وأن مهمة النبي كانت بلاغا للشريعة مجردا للحكم والتنفيذ . وأنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام وأنكر أن القضاء وظيفة شرعية .

وقد استهدف على عبد الرازق تمزيق شمل جامعة الإسلام الدينية والدنيوية ، وخالف بذلك النصوص القطعية المجمع عليها والمعلومة من الدين بالضرورة ، وجعل مادة الكتاب منقولة من بعض كتب الافرنج التي كتبوها عن الخلافة وكتاب (خلافت وحاكيمت مليه) الذي كتبه بعض علماء الترك تحت إشراف حكومة كمال أتاتورك ، لإقناع مسلميهم بما فعلته حكومة أنقرة الجمهورية من إلغاء الخلافة والفصل بين الدين والحكومة وبين اعتماد المؤلف على بعض كتب التاريخ والأدب والكلام ، وقال ومن العجيب أن يكون من مادته مع ذكر : مثل كتاب الأغاني وكتاب العقد الفريد ولم يكن منها صحيح البخاري وصحيح مسلم ولا موطأ مالك ولا مسند أحمد بن حنبل .

٥ - الهجوم على القرآن

استن هذه السنة الرذيلة الدكتور طه حسين في محاضراته بكلية الآداب عندما قدم للطلاب بعض النماذج وأخذ يعرضها على ميزان النقد الأدبي وأخذ يقول فيها بالضعف والقوة وأخذ يقارن بين القرآن المنزل في مكة والقرآن المنزل في المدينة ويفرق بينهما (وهذا كله ثابت في محاضر جلسات مجلس النواب المصري ١٩٢٩ ، ١٩٣٠) فقد استطاع الدكتور عبد الحميد سعيد أن يحصل على مذكرة لأحد طلاب كلية الآداب سجل بها ما كان يلقيه طه حسين من محاضراته ، بل إن أحد هؤلاء الطلاب وهو محمود المنجوري نشر بعض هذه الفصول في مجلة (الحديث) التي كانت تصدر في حلب عام ١٩٢٨ وكان طه حسين يستهدف من وراء ذلك بالإضافة إلى مفاهيمه التي جهلها في كتابه الشعر الجاهلي وحديث الأربعاء العمل على خلق ظاهرة جديدة في الأدب العربي الحديث لتحرر من القاعدة التي أقامها الفكر العربي الإسلامي منذ نشأته والتي تقوم على الترابط بين الأدب والفقه والاجتماع والسياسة والأخلاق والتربية ، دون أن يكون لأي عنصر من عناصر هذا الفكر ، القدرة على الاستقلال والانفصال والتحرر من مقومات هذا الفكر وكان هدف طه حسين من فصل الأدب العربي عن الفكر الإسلامي هو إذاعة الجوانب الإباحية والمكشوفة في شعر أبو نواس وبشار والضحاك وغيرهم واعتبار هذا العصر صورة للعصر ، ووصم القرن الثاني الهجري بأنه عصر فساد ومجون وحاول على ما ووجه به من ردود ومناقشات كشفت عن كثير من أخطائه واضطرابه أمام البحث العلمي الحق .

وقد جرى هذا المجرى من بعد كثيرون في مقدمتهم تلميذه الدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني) حين تحدث عن فواتح السور وغيرها .

وقد أخذ على الدكتور زكي مبارك أنه يتعرض للأصول التي يقوم الدين بقيامها ، وينهدم

بانهدامها كأصل إعجاز القرآن وأن القرآن كتاب الله لا كتاب محمد بن عبد الله وقد خرج في كتابه النثر الفني على الاجماع في أمر القرآن وما اتفق عليه علماء العربية الذين أجمعوا على أن القرآن معجز وأولى شرائط الاعجاز التنزه عن كل ما يمكن أن تعد عيباً في الكلام وإلا لأمكن لبليغ أن يستدرك على القرآن .

وقد ظلت هذه الظاهرة مستمرة في كلية الآداب والأدب الحديث فقد ظهرت بعد ذلك في رسائلهن ، وكان ذلك امتداداً لهذا التيار الخطير .

٦ ـ الشريعة والقانون

عمدت حركة التغريب إلى مهاجمة الشريعة الاسلامية وتأكيد القانون الوضعي . وكان محمود عزمي في مقدمة المهاجمين للشريعة الاسلامية والدعوة إلى ما أطلق عليه « مدنية القوانين » حيث طالب عام ١٩٢٢ بما أسماه اعتبار القومية المصرية وحدها أساساً لتقرير حقوق المصريين وواجباتهم العامة ، وانضم إليه عزيز ميرهم (وهم من أعضاء الحزب الديمقراطي الذي اندمج في حزب الأحرار الدستوريين) الذي دعا إلى المطالبة بتوحيد الشريعة والقضاء وجعلهما مدنيين في الأحوال الشخصية كما في المعاملات .

والمعروف أن القانون الوضعي قد فرض على مصر منذ عهد إسماعيل ، ومنذ إلغاء المحاكم المختلطة وقد أكد الاستعمار في كل مكان حل فيه فرض قانون مستمد من القانون الأوربي .

وقد أشار محمود عزمي إلى مفهوم الدعوة إلى توحيد التشريع في مصر فقال : ليس معناه تطبيق التشريع الواحد على المصريين والأجانب فحسب ، بل معناه قبل هذا وفوق هذا تطبيق التشريع على جميع المصريين مهما تكن أديانهم ومعتقداتهم بمعنى أن يكون المصريين كلهم أحكام زواج وطلاق واحدة وبمعنى أنه إذا رغبت مسلمة ولتكن إحدى أخواتنا مثلا أن تتزوج من قبطي فلا يكون هناك مانع أو اعتراض ، وقال إن باب الأسرة المسلمة محكم الاغلاق في وجه الكتابيين جميعاً ونحن أول من يتقدم مطالبا بالمظاهر المدنية البحته لحياتنا العامة جميعا في أسرتنا وفي تعليمنا وفي تفكيرنا وفي قضائنا

وقد واجهت آراء محمود عزمي اعتراضا شديداً من دعاة اليقظة ورجال العلم من الأزهريين وغيرهم وتصدى كثيرون للرد عليه في مقدمتهم جريدة اللواء المصري ومجلة المنار والأهرام وتبارى الكتاب في بيان حكم الشرع الاسلامي في إباحة التزوج بالكتابية دون تزوج الكتابي بمسلمة .

وقال السيد رشيد رضا : إن مدنية القوانين : هي سعي المتفرنجين إلى نبذ الشريعة الاسلامية من مواد الدستور الأساسية ، إن دين الدولة المصرية الرسمي هو دين الاسلام : ساءت المواد بعض ملاحدة المتفرنجين وقام من يقدح من الاصلاح لمصر في عصر الاستقلال والدستور أن توحدوا أديانها فتجعلوا كلها مدنية بوضع قانون مدني للأحوال الشخصية من زواج وطلاق .

وقال إن هدف الدعوة هو ترك الشريعة الإسلامية ونبذها وراء الظهور حتى في الأحكام الشخصية التي تتعلق بما يدين المسلمون ربهم به ، وأن الكاتب واحد من المتفرنجين ربيب بعض ساسة الفرنج الذين سعوا لتحويل مصر وغيرها من أحكام الشريعة الإسلامية في المعاملات المالية والعقوبات وغيرها واستبدال قوانينهم بها فكان لنجاحهم تأثير عظيم في إضعاف مقوماتنا الحالية بإعراضنا عن أصول التشريع الذي قامت عليه مدنيتنا العربية الزاهرة ، وقال إن هذا العمل خطوة إلى حل الرابطة الإسلامية في شعوب المسلمين من طريقين : أحدهما تعليم المدارس الخاصة بهم كمدارس دعاة النصرانية المنتشرين في بلاد الإسلام ومدارس الحكومة التي يسيطرون عليها .

والطريق الثاني هو إقناع المتفرنجين من الأدباء والكتاب بوجوب الفصل بين الدين والحكومة وبأن الشرع المبني على أصول الدين لا يصلح لترقي البشر الدنيوي وبأن الشرع الإسلامي قد وضع لأمة بدوية أو قريبة من البداوة فلا ينطبق على مصالح الناس في هذا العصر وربط السيد رشيد رضا بين ما كان من السعي لهذا الأمر منذ عهد السير سكوت المستشار القضائي الانجليزي المشهور الذي اقترح إلغاء المحاكم الشرعية في مصر وبين اقتراح الدكتور محمود عزمي ما أسماه (مدنية القوانين) وبينهما صيحة منكرة لأحد وكلاء النيابة من المصريين المتفرنج فيها بهدم جميع أصول الإسلام .

وأشار إلى ما قامت وزارة الحقانية به حين اقترح بطرس غالي تعيين قاضيين من مستشاري محكمة الاستئناف الأهلية بحضران الدعاوى المهمة في المحكمة الشرعية العليا فقوبل المشروع بالسخط العام ، وعلى أثر هذه النازلة عزل الخديو الشيخ حسونة النواوي من مشيخة الأزهر وإفتاء الديار المصرية وولى الامام (محمد عبده) منصب الافتاء .

ثم ما كان في عهد الحماية البريطانية حيث تقدمت الحكومة بمشروع جديد هو وضع قانون الأحوال الشخصية وما يتعلق بها كالطلاق والفسخ والعدة والنفقة وألفت لجنة حضرها الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية وبرياسة وزير الحقانية على أن تستمد مواد هذا القانون من كتاب قدري باشا المشهور وقد اقترح بعض المتفرنجين أن يدمج في هذا القانون إبطال تعدد الزوجات وتعيين أحكام الطلاق وحرية المتعاقدين (الرجل والمرأة) في عقد النكاح وتساويهما فيما يلزم العقد وجعل العقدين رسميين ، بل صرح بعضهم بوجوب عدم تناقض أحكام النكاح مع الحرية الشخصية المقررة في قانون العقوبات أي المتضمنة وإباحة الزنا .

وأشار إلى أن هذه الدعوة المستمرة إلى مواجهة الشريعة الاسلامية إنما هي حرب متفرنجة المسلمين ضد الاسلام ، وإنها جاءت نتيجة إنتشار المدارس الأجنبية والبعثات الأجنبية حيث تنتشر

تلك الدعوة وقد قادت الأمم المختلفة أوربا فى هذا الاتجاه اضعفها فى مناهج التعليم وفى اقتباس القوانين والتشبه بالعادات ، وعظمت سيطرة هؤلاء الأجانب على العقول والقلوب بتصرفهم فى تربية النشء وتعليمهم تصرفاً قصد به قطع جميع الروابط الملية والقومية وجعله حالة عليهم فى كل شيء ، يقول : وإذا كان الإفرنج قد عجزوا عن تنصير المسلمين بمدارس جمعياتهم الدينية فإنهم لم يعجزوا عن إبطال ثقة الكثيرين منهم بدينهم الذى هو مستمد فضائلهم وآدابهم النفسية والاجتماعية ، وإبطال ثقتهم بشرعهم الذى هو أساس حضارتهم ومجدهم ، وإبطال ثقتهم بلغتهم الحافظة لشرعهم وآدابهم وتاريخهم وحضارتهم وتوجيه هممهم إلى استبدال شرائع حضارتهم وآدابهم ليخرجوا عن كونهم أمة ذات مقومات ومشخصات مستقلة فيفقدوا أعظم أركان الاستقلال القومى .

وقال إن الهدف من ذلك هو إقامة القاعدة الأفرنجية المؤسسة لإزالة السلطة والسيادة الإسلامية وهى فصل السياسة عن الدين والتى تقضى بأن لا يشترك علماء الدين فى شيء من أعمال السياسة ولا شئون الحكومة ، وأشار إلى الحقيقة التى لا شك فيها وهى أن أحكام الإسلام الدنيوية موافقة لمصالح البشر فى كل زمان وأن سلطته ليست شخصية ولا مما يسمونه الأتوقراطية بل هى حكومة شورى شعبية » .

• • •

وقد كشف محمود عزمى من بعد عن أهداف جديدة فى مهاجمة الشريعة الإسلامية حين تحدث عن دراسته فى باريس وعن مفهوم الربا فى الاقتصاد السياسى وفى الشريعة فقال : حين أستاذه لامبير كان يحدثه عن أن الربا أصل كل نمو اقتصادى ، كان يذكر أن الله قد أحل البيع وحرم الربا ، وكان لا يستطيع أن يوفق بين الأمرين فذهب إلى لامبير وقال : الربا حلال فى الاقتصاد السياسى حرام فى الشريعة الإسلامية ، فقال له لامبير : حين تدرس الاقتصاد السياسى لا تفكر فى الشريعة الإسلامية وحين تدرس الشريعة الإسلامية لا تفكر فى الاقتصاد السياسى » .

ولا شك أن هذا كان تمويهاً من لامبير الذى يعرف أن الشريعة لها تطبيق كامل النظم الاقتصادية وأن العالم الذى يدين بالإسلام ، وهو العالم الإسلامى كان واقعاً تحت النفوذ الاستعمارى الذى فرض عليه نظامه الاقتصادى وأنه لم يقبل هذا النظام ولكنه اضطر إلى التعامل به .

والمعروف أن محمود عزمى هو أول مسلم انتقد ما جاء فى الدستور المصرى بأن مصر دينها الرسمى الإسلام وسمى هذا البند (النص المشئوم) وهاجمه فى عدة مقالات نشرتها الأهرام والاستقلال » .

وقد امتدت فى هذه الفترة تلك النظرة إلى الشريعة الإسلامية ، فى نفس الوقت الذى كان كتاب

حركة اليقظة والجماعات الإسلامية المختلفة يتحدثون عن الإسلام ويفصلون القول فى عظمة شريعته ، ثم كان قرار مؤتمر القانون المقارن الذى عقد فى لاهاى سنة ١٩٣٧ تأكيداً لرأى الداعين إليها فى مواجهة دعاة التغريب حيث قرر المؤتمر أن الشريعة الإسلامية هى نظام قانون مستقل غير مأخوذ من التشريع الرومانى ، وقد اقتضى هذا تمثيل الشريعة الاسلامية فى محكمة العدل الدولية كنظام قانونى مستقل من النظم العالمية الكبرى التى يجب تمثيلها فى قضاة المحكمة وكان المرحوم الدكتور عبد الحميد بدوى وهو ممثل الشريعة الاسلامية فى هذه المحكمة ثم خلفه السيد ظفر الله خان .

• • •

وفى عام ١٩٣٧ عقدت اتفاقية مونترو لإلغاء الامتيازات الأجنبية بعد انعقاد معاهدة ١٩٣٦ وتجدد الحديث عن الشريعة الاسلامية وحفلت الصحف والمجلات الاسلامية بأبحاث مطولة تدعو إلى اتخاذ أسس القانون المصرى من قواعد الشريعة ، وكانت العراق قد استقدمت الدكتور السنهورى واستعانت به فى بناء قانون عام مستمد من الشريعة الاسلامية ، غير أن النحاس باشا هاجم حركة المطالبة بالتشريع الاسلامى عام ١٩٣٨ وقال إنها تهدف إلى تعويق سير مؤتمر إلغاء الامتيازات ، وقال إن الحدود مقررة فى شريعتنا ولكنها لا ترضى الأجانب .

وقد رد عليه بعض المصلحين وأشاروا إلى أن الزعماء السياسيين قنعوا من الاستقلال بوثيقة لا قيمة لها (هى المعاهدة) وتركوا الشعب مكبلا فى كل ناحية من نواحى حياته ، والمعروف أن القانون الجنائى وضع عام ١٨٨٣ أى بعد احتلال بريطانيا لمصر بعام واحد ثم أعيدت صياغته مرتين إحداهما ١٩٠٤ والأخرى ١٩٣٧ ، وفى كل مرة تعاد صياغته يخطو القانون خطوة صغيرة نحو الشريعة الاسلامية ، وأهم وجوه الخلاف بينه وبين التشريع الاسلامى إنما تتمثل فى جرائم الزنا (الحدود) فإن المشروع الوضعى اعتبر الزنا عملا مباحاً ، وهو ما يسمى فى الشريعة (الوطء من غير حل) فهو ليس عنده جريمة والقانون لا يعاقب عليه ، وكان للاستعمار البريطانى أثره الواضح فى إقراره هذه المادة وغيرها .

وقد واجه المفكرون المسلمون العلاقة بين الشريعة الاسلامية والقانون الوضعى منذ عهد بعيد وناقشوا وجوهها المختلفة ، وكان من أقدم هذه المؤلفات كتاب على أبو الفتوح عام ١٩٠٥ وعرضت مجلات الأزهر والفتح والمنار والمسلمين لهذه القضية ونوقشت قضايا الربا والزنا وغيرها ، وكشف قادة اليقظة الاسلامية رأى الاسلام فيها .

٧ - النظرية المادية

جرت إثارة قضية النظرية المادية منذ وقت بعيد وكان الدكتور شبلى شميل أول ممثل الاتجاه المادى فى العالم العربى الحديث، وكان الدكتور صروف فى مجلة المقتطف ينشر آراءه ويطابع كتبه ويعارض اندفاعه وعنفه فى إذاعة هذه النظرية ويرى أن طريق الدعوة إليها يجب أن يكون فى تمهل وأناة .

وليست الدعوة إلى النظرية المادية ، كنظرية علمية ، هو الخطر فإن أى نظرية يمكن أن تكشف عن حقيقة جوهرها مع الزمان، غير أن الدكتور شبلى شميل كان يتخذ منه منطلقاً إلى إنكار المقدسات ومحاربة الأديان ، وحيث كان يقول إن دين الإنسانية الحق هو العلم ، وقد مضت النظرية المادية ولكن الذين أخذوا بها لم يوافقوه على النتائج المادية التى استخرجها ، وقد عارض اسماعيل مظهر اتخاذ الدكتور شميل مذهب النشوء ذريعة لإثبات المذهب المادى ، وحمل على هذه الطريقة وفصل بين مذهب النشوء وبين إنكار الدين .

وقد أولت مجلة المقتطف اهتماماً بالغاً بنظرية دارون وأصدر شبلى شميل الطبعة الأولى من كتابه شرح بخنر على دارون عام ١٨٨٤ وأعاد طبعه ١٩٠٩ وكان يعتبر من الغلاة الذين يحاولون تطبيق نظرية دارون على المجتمع ، وآراءه فى مجموعها تهاجم الأديان والشرائع .

وقد واجه العلامة فريد وجدى آراء شبلى شميل منذ اليوم الأول ، وكشف مدى الخطر فى تحويل نظرية دارون من نظرية علمية فلسفية إلى حقيقة علمية ، وإلى قاعدة للتحويل الفكرى للمجتمع والعالم .

أما نظرية التطور فقد عرفها العلماء المسلمون من قبل ، وقد أشار إلى ذلك العلامة (درابر) حين قال : تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تعرف إلا فى زماننا ، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كال أنواعها ، فإن هذا الرأى كان مما يعلم العرب فى مدارسهم وكانوا يذهبون إلى أبعد مما ذهبنا فكان عندهم علماً يشمل الكائنات العضوية والمعادن والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها .

• • •

وقد تطورت نظرية دارون فى خلال هذه المرحلة فظهر فلاسفة كثيرون طوروا النظرية وفرضوها على المجتمع كله ومنهم هكسلى وبرجسون وبرناردشو ، غير أن هناك مفكرون انقضوا نظرية التطور وجرت مناقشات حول نظرية النشوء ونظرية الخلق المباشر (أى خلق كل أجناس الحياة الموجودة فى وقت واحد) .

وفى مجال الثقافة العربية ترددت أبحاث كثيرة حول العلم والدين وذلك حين عرض طه حسين نظريته التى قال فيها : إن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وقد دحض كثير من الباحثين هذه النظرية وفى مقدمتهم :

مصطفى عبد الرازق والثعالبى ، وعبد الوهاب النجار وفريد وجدى ، والدكتور محمد خليل عبد الخالق والدكتور توفيق شوشه .

يقول الدكتور شوشه : اتسع التحقيق العلمى اليوم المحسوس وأخذ العلماء يعترفون بأن الحقيقة كامنة وراء المظاهر وأن الكون ليس حقيقة فى ذاته وليس هو المظهر الوحيد المعبر عن الحقيقة ، وليس هناك من شك فى أن قوة مدبرة مفكرة هى التى أبدعت الكون ، إلى هذا توالى الاكتشافات العلمية الأخيرة وقد جعل العلم همه فى دراسة المحسوسات والمظاهر وتعليل القائم من الحقائق ولكن لا يتعرض لمجال الطبيعة الأشياء ويفسر كنهها ، وقد أثبت الدكتور أرنست رازفورد أن الذرة تتكون من ألكترونات (كهارب) حول بروتونات على نظام يحاكى النظام الشمسى وقال بإمكان تحويل المعادن بعضها نظرياً لا علمياً ، وأن هذا القول هدم نظرية المادة .

وقال الدكتور محمد خليل عبد الخالق : إن الأساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية فى القرن ١٩ قد انهار وأصبح العلماء الآن يتكلمون عن الكون وعن الإنسان وعن الحياة بعبارات صوفية والآن يكشف العلم عن ميادين جديدة تبحث عن الأرواح وأصل الحياة وغاية الوجود وأن مذهب دارون فرض وليس حقيقة غير قابلة للنقض .

• • •

وقد كشف قادة اليقظة الاسلامية عن أن هذا الخلاف المثار بين الدين والعلم هو خلاف مفتعل فى مفهوم الفكر الاسلامى الذى كان نصيراً للعلم ومصدراً لنشوء المذهب التجريبى الاسلامى الذى قامت عليه النهضة العلمية الحديثة . وكشف العلماء عن خطأ التوسع فى إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة وفروض علماء الطبيعة وأكد الباحثون أن ما تثبته التجربة ويؤيده الاختبار أن ليس بين الدين والعلم خصومة بحال ، لأن العلم يشتغل فى ناحية لا تناقض الدين ولا تقع فى دائرته ، فليس من مباحث العلم إثبات وجود الله ولا إثبات نبوة الأنبياء لأنهما ليسا مما ينال بالتجربة أو يقع تحت الاختبار ، وأنه ليس بين الدين والعلم خلاف ولكن الخلاف بينه وبين بعض المذاهب الفلسفية ، وهناك فرق بين العلم الثابت بالتجربة وبين الفلسفة .

وقال الباحثون إن كل شىء فى العلم قابل للمراجعة والهدم ، وأن الحقائق العلمية إفتراضات نسبية وأن عمل العلم هو مغالبة الطبيعة جهده بدون إبداء أية حقيقة مطلقة عنها ، فليس له ما شواهج حق

إنكار أو إثبات النبوات أو المعجزات ، وأن العلم وحده هو كفيل بحل المشكل الانسانى برمته وأن طرائقه العملية لا تصلح إلا مطبقة على الظواهر فقط ، وإنه لا يملك حق التدخل القاطع فى الشئون الروحية التى تفوق حدود تخصصه ، ولا يمكن مهما علا أو اكتشف أن يرضى جميع خوالج النفس الانسانية وما تخفق به من عواطف وما تردده من مطالب وآمال .

٨ - إقليمية الأدب

دعا بعض الكتاب إلى إقليمية الأدب ، وذلك فى مجرى الدعوة الاقليمية السياسية والاجتماعية والفصل بين مصر والأمة من ناحية وبين العالم الاسلامى .

بدأت بوادر هذه النظرية فى مقالات أحمد ضيف (مقدمة فى بلاغة العرب) وقال أحمد ضيف أنها ليست آداب أمة واحدة وليست لها صفة واحدة بل هى آداب أمم مختلفة المذاهب والأجناس والبيئات وتولى أمين الخولى تنمية هذه البذرة وتقوية هذه النظرة وبذل فى هذا السبيل جهوداً وسعى إلى دعم هذه النظرية ونشرها بين طلابه ، واعترض على من يقول بدرس الأدب العربى على أساس التقسيم الزمانى وقال بضرورة العدول عن هذا التقسيم إلى التقسيم المكانى ودرس الأدب العربى إقليماً بعد إقليم لا عصراً بعد عصر ، ومن رأيه أن لكل أقليم طابعه الخاص .

وقد عارض كثير من الباحثين هذه النظرية وكشفوا عما تخفى من دعوة إقليمية وتعميق للتجزئة وقال ساطع الحصرى إن الأدب العربى حافظ على صفته الموحدة والموحدة حتى فى أسوأ عصور تفكك الدول العربية وتفتيت شعوبها ، وأنه لا يوجد ولن يوجد أدب مصرى أو عراقى أو شامى أو تونسى ، وإنما يوجد أدباء مصريون ، وعراقيون وشاميون ، وكذلك لا يوجد شعر مصرى أو عراقى إلخ وإنما يوجد شعراء ، وأنه لا بأس أن تكون هناك عناية بجوانب معينة فى الأقاليم المختلفة ترتبط بالبيئة والتطور ولكن الأدب فى مجموعه عربياً متصلا وإن الفروق بين الأقطار العربية ليست فروقا فى النوع ولكن فى الدرجة .

٩ - الهجوم على الفصحى

لقد نالت اللغة العربية قدراً ضخماً من المهاجمة والاتهام منذ وقت بعيد ، يرجع إلى قبيل الاحتلال البريطانى لمصر ، ثم امتد ذلك واتسع . بدأ عن طريق بعض المستشرقين أمثال : فولرس وبلمور وولكوكس .

ثم حرض التغريب عليه أمثال قاسم أمين ولطفى السيد والزهاوى وتصدرت الحملة مجلة المقتطف فأغرت الكثيرين من الشاميين المارونية أن يواصلوا الحملة على اللغة العربية واتهامها بالعجز والنقص

وجرى البحث حول أمرين : الدعوة إلى العامية والدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، وكان خطاب ولكوكس ١٨٩٢ وإصداره جريدة الأزهر لنشر دعوته للعامية هو منطلق هذا الاتجاه فقد دعا المصريين إلى استعمال اللغة العامية ونقل الكتب المعروفة إليها .

وصدر فى هذا الوقت عدد من الكتب والدراسات : اللغة العامية المصرية . الدكتور فولرس ١٨٩٤ وقاموس اللغة العامية بالعربية والانجليزية وفى عام ١٨٩٧ أولت المقتطف اهتمامها ببحث الحروف الافرنجية للخط العربى ، وصدر ١٨٩٧ كتاب (نحو العربية) بالانجليزية وفى عام ١٩٠٢ أصدر القاضى ولمور كتاب اللغة العربية المحكية وفى عام ١٩٠٣ جرى البحث حول اللغة الهيروغليفية والقبط وامتد البحث عن العامية والفصحى وفى سنة ١٩١١ دخل المعركة لطفى السيد فكتب مقالاته المعروفة فى هذا الصدد .

وكان مجمل دعوى هؤلاء جميعاً أن العربية ليست كاللاتينية يجب أن تدخل المتحف ، وأن اللغة العامية يجب أن ترقى حيث تصبح لغة كتابة ، وعندما يفعل المصريون ذلك سوف يتاح لهم قوة الاختراع التى لا توجد فيهم الآن لأنهم يستعملون فى كتبهم لغة غير اللغة التى يستعملونها فى الكلام وأن أمم أوربا لم تنشط إلا بعد أن استعملت لغاتها الخاصة . وقد واجه كثير من رجال اليقظة هذا الموقف وعارضوه بشدة وفى مقدمتهم مصطفى صادق الرافعى وعبد الرحمن البرقوقى وكثير ممن كتبوا فى مجلة ولكوكس نفسه وقدم أمين فكرى رسالة مسهبة إلى مؤتمر اللغات الشرقية فى أسوج ، قال فيها: إن اللغات العربية العامية لا يسهل تنقيحها والاعتماد عليها لتباينها فى مصر والشام وبلاد المغرب ونشطت دار العلوم فعقدت مؤتمرها الأشهر عام ١٩٠٨ وتصدره عبد العزيز جاويش وحفنى ناصف وغيرهما .

وجرى البحث فى أمور الاشتقاق والتعريب ، وكتب فى هذا أحمد الاسكندرى والمغربى وكتب جبر ضومط يؤيد اللغة الفصحى .

فلما انتهت الحرب العالمية الأولى جددت حركة التغريب دعوتها إلى مقاومة الفصحى والهجوم عليها وتصدر ذلك سلامة موسى كامتداد للمهندس ولكوكس ، كما ظهر غيره فى الشام والمغرب وأيد المستشرقون هذه الدعوى وأوغلوا فيها غير أن كتاب اليقظة واجهوا الموقف فأعلن أحمد كمال باشا الأثرى أن اللغة العربية والمصرية القديمة هما من أصل واحد .

وامتدت الحرارة إلى التعليم فى مدرسة الطب فدعى رجال اليقظة إلى أن تكون الدراسة فيها باللغة العربية ووقف حماة التغريب يعارضون الرأى . وقال أحمد وفيق رئيس تحرير جريدة اللواء

« أن كل ما يقال فى تبرير التعليم باللغة الإنجليزية ليس إلا تبريراً فى الواقع لبقاء النفوذ الأجنبى فى البلاد . وكشفت الصحيفة عن الاهتمام العظيم الذى علقه الموظفون البريطانيون فى مصر على استبدال اللغة الإنجليزية كأداة للتعليم باللغة العربية فى كل مدارسنا الإبتدائية والثانوية ، ذلك الاستبدال الذى اعتبر بحق أعظم انتصارات الوطنية المصرية فى جهادها الطويل .

وأشار الكاتب إلى مشروع برونيات عن تغيير لغة ونظام القضاء ، ومشروع دانلوب الذى مهد له تقرير كاربنتر الخاص بإعادة التعليم باللغة الإنجليزية وقد حاول تقرير كاربنتر أن يهاجم التعليم باللغة العربية وأن يقلل من كفاءة الطلاب المصريين فى اللغات الأجنبية والعلوم النتيجة لوضع مقاليد التعليم فى أيدى مصرية . وقالت (اللواء) نحن نريد أن تكون لغتنا العربية أداة التعليم بكل أنواعه ، لأن اللغة أعظم مظاهر القومية ولأننا نبغى الاستقلال الفكرى كما نبغى الاستقلال السياسى ولا سبيل إلى الاستقلال الفكرى إلا بالاستقلال اللغوى الذى هو عنوانه ومظهره وأن تاريخ القوميات الناهضة فى أنحاء العالم قد اقترن باللغات الأهلية .

ودحض أحد رفيق الاعتراضات التى وجهت إلى التعليم باللغة العربية فى مدرسة الطب ، فقال إن الاعتراض بعدم صلاحية اللغة منقوض من أساسه إذا اعتبرنا سعة اللغة واستعمالها فى المدرسة والكتب الفنية المكتوبة إلى عهد ليس ببعيد ، وهاجم الأطباء الذين عارضوا الدراسة باللغة العربية وقال : أحزننا تلك الصفحات التى سودت من غير قصد إلى أنهم بحكم إساءاتهم الفطرى فى واجباتهم نحو البلاد ، وأعاد إلى الذاكرة موقف سعد زغلول عام ١٨٨٩ فى تأييد عمل الانجليز على محو لغة البلاد وقد اتخذ المستعمرون من تقريره بتأييد التعليم باللغة الانجليزية ذريعة فى سبيل قتل لغة البلاد غير أن الأمة عارضت خطة سعد زغلول والانجليز وقامت الجمعية العمومية ١٩٠٧ بمطالبة الحكومة بإعادة التعليم باللغة العربية ، واستطاعت السياسة أن تنتحل المعاذير بعدم وجود الاخصائيين وكيف أوجدت السياسة البريطانية طريقة جهنمية تحقق بها غرضها وهى تدريس العلوم باللغة العربية بواسطة أساتذة انجليز يعلم إليهم مصريون يصلحون ، وكيف حفل تاريخ مصر بأعلام العلوم باللغة العربية أمثال عثمان غالب الذى كان يدرس علم النبات ومحمد على باشا علم (الإكلينيك) وسالم باشا (الباثولوجيا) وعوف باشا وحسن هاشم (الولادة) وعبد السميع أفندى علم (قانون الصحة والطب الشرعى) وبدوى أفندى (علم المادة الطبية) وعبد الرحمن الحفناوى (علم الفسيولوجيا وأحمد حمدى (الجراحة) وعلى رياض (علم تحضير المواد الطبية) وزينب أفندى وجليلة أفندى (الجراحة الصغرى وأمراض النساء) .

هذا بالنسبة لكلية الطب ، وأما كلية الحقوق فقد كانت تدرس المرافعات وتحقيق الجنايات وقانون العقوبات باللغة العربية (عمر لطفى وفتحة بك وأبو هيف بك ونشأت بك وأحمد أمين بك وعبد الحميد بدوى بك والغزالى بك بتدريس تلك العلوم » .

وكان الدكتور حسين الهراوى من السابقين الدعوة إلى تعليم الطب باللغة العربية فقد أنشأ مجلة طبية عربية كرابطة بين التعليم والمناهج ، ولتقوم بترجمة الاصطلاحات باللغة العربية ، وأجرى الاتفاق فى ذلك مع مدير مدرسة الطب الدكتور كيفنج وبين الشيخ حمزة فتح الله وبعض الثقات فى اللغة العربية وصدور العدد الأول من (المجلة الطبية) وتولى الاشراف عليها الدكتور أحمد عيسى وعلى ابراهيم وسليمان عزمى .

• • •

وعرض الدكتور منصور فهمى الرد على الاتهامات التى وجهت بالقول بأن هناك لغة فصحى ولغة عامة ، وقال إن هذا الاتهام يدل على جهل بلغات الأمم الحديثة ، فاللغة الانجليزية تكتب فيها الكلمة بشكل وتنطق بشكل آخر ، واللفظة الواحدة ينطقها الأستاذ فى مدرسة أو فى جامعة بلهجة خاصة وينطقها عامل الترام مثلا بلهجة أخرى ، والحال كذلك عند الفرنسيين والألمان ، ومع ذلك لم نجد فى هذه الأمم من يقول بإحلال اللغة العامية محل اللغة الفصيحة ، ولكن أصحابنا المجددين فى مصر يظنون أن هذه مسألة المسائل فيتحمسون ويظنون أنفسهم من رجال النهضة بمثل هذا الهذر المقوت أضف إلى ذلك أنهم لا يقدرون الخسارة الفادحة التى تصيب مصر إذا تم لهم ما يبغون ولو كان منهم منصف لعرف أن لغة أصحاب المقامات أقرب إلى لغتنا الحاضرة وبيننا وبينهم أربعة عشر قرنا — من لغة القرن السابع عشر بالنسبة إلى التاسع عشر فى فرنسا .

ويتحدث الدكتور زكى مبارك من باريس حول الدعوة التى يذيعها المستشرقون فى الدعوة إلى العامية والحروف اللاتينية فى مصر ويقول إن المثقفين من المصريين يعلمون كيف نبتت هذه الفكرة وكيف عمل المبشرون على بثها فى مختلف الطبقات لتصبح مصر غريبة بين الأمم العربية وليصبح فى الشرق مئات من اللغات والقوميات ليسهل ابتلاعه وهضمه بلا عناء ، وقال إن الأوربيين حريصون على إثبات أن المصريين منقسمين إلى مسلمين وأقباط والمغاربة إلى عرب وبربر والسوريون إلى مسلمين ودروز والعرب إلى سنيين وشيعة والهند إلى مسلمين وهندوس ، وهم وحدهم الذين يجدون فى إحياء العصبيات القديمة واللغات الميتة والتقاليد المنسية لتشتيت الشرقيين ولينقسموا إلى شيع وأحزاب ولهم فى ذلك حيل عجيبة أظهرها أنهم يصبغون دسائسهم بالصبغة العلمية والفلسفية ليخفوا عن الناس ما يصنعون ولك أن ترجع إلى جميع الدعايات الخطيرة فى الشرق فلن تجدها فى صميمها إلا دسائس علمية أو فلسفية دسها خدم الاستعماريين الشرقيين ليفهموهم أنهم منقسمون ومتفرقون ، وإن لم يخطر لهم ذلك ببال .

• • •

ولقد جرى البحث طويلا حول ما أطلق عليه دعاة التغريب (إصلاح اللغة العربية) .

يقول الدكتور علي العناني أن القول بإصلاح قواعد اللغة من نحو أو صرف معناه خلق لغة جديدة غير لغة الشعر والنثر وغير لغة العقلية العربية الاسلامية على العموم ، ويستطرد فيقول : إن قواعد اللغة العربية وضعت طبقاً لنصوص القرآن والحديث والمسموع ، ومحال أن نهجر لغة حية كانت لها السيادة العقلية قروناً طويلة ونخلق لنا رطانة جديدة .

إن اللغة لا تقبل إصلاح قواعدها بالإزالة والوضع فيها أو الوضع فقط لأن هذا التغيير أياً كان مخرجها عن لغة القرآن والحديث والأدب العربي والعقلية العربية الدينية الفلسفية العلمية ومحال أن نرضى بلغة القرآن لغة أخرى ، ومن المعروف أن الدين الإسلامي وهو عقيدة وتشريع قد استنبطت أحكامه فيما يختص بالعقيدة والتشريع في العبادات والمعاملات من الكتاب والسنة وعمل الرسول والاجتهاد ، وكل هذه الأركان والينابيع لا يمكن أن يستنبط منها حكم إلا بواسطة مبادىء خاصة وقوانين معروفة بعلم الأصول ، إنما هو بهم لغة العرب : لغة القرآن والرسول بما وضع لها من القواعد وأساس هذه المبادىء والقوانين أو دعائم على الأصول الصرفية والنحوية وضوابط علم البلاغة ، وإذا صلحت هذه الضوابط وتلك القواعد بالإزالة والوضع انهدم أساس علم الأصول وتداعت دعائمه وإذا انهدم الأساس وتداعت الدعائم انهدم أيضاً ما يرتكز عليها وهو هذا العلم ، وإذا وصل هذا العلم الأساسي في استنباط أحكام العقيدة ومسائل الشريعة إلى التداعي تداعت معه أيضاً طريقة الاستنباط وفهم ما استنبط وعدنا إلى الجاهلية الأولى » .

• • •

ولم يقف الأمر عند هذا بل لقد حذر بعض العلماء الغربيين المنصفين المصريين والعرب من العامية واللاتينية معاً .

وقال سير ادور دينسون روى مدير مدرسة اللغات الشرقية في لندن : حذار من استعمال الحروف اللاتينية في كتابة اللغة العربية لأن الحروف العربية هي حروف لغة القرآن وإذا نسيتم الحروف العربية نسيتم القرآن بل هدمتم صرح وحدة الإسلام ، وإن الإسلام أساسه اللغة العربية فإذا ضاعت ضاع الاسلام ، وقال كشهون : إن كل الحملة الموجهة إلى اللغة إنما هي موجهة أساساً إلى الاسلام نفسه ولكنها لم تكن تستطيع أن تكشف هدفها مباشرة .

١٠ — التغريب

جرت محاولات كثيرة إلى وصف مصر والعالم العربي بأنه جزء من الغرب ، وأنه لا يمت بصلة إلى العالم الاسلامي أو إلى الشرق أو إلى آسيا .

واستخدمت في هذه الدعوة محاولات كثيرة منها محاولة الربط بين ثقافة أهل البحر المتوسط قبل

الإسلام حيث كانت تهدم الحضارة الرومانية والفلسفة اليونانية ، أو محاولة العاس بعض ما ذكره أصحاب نظريات الرؤوس والألوان وما يتصل بها من أحجام الجبهات واتساع العيون ولون الشعر في محاولة الربط بين المصريين والسوريين وبين الغرب وقد أجرى هذه المحاولات طه حسين وسلامه موسى وجرى فيها شوطا اسماعيل أدهم واسماعيل مظهر وكثيرون من أتباع الثقافة الغربية وأوليائها .

غير أن هذه النظريات قد ثبت بطلانها من بعد وفسد أثرها ولم تستطع أن تحقق الهدف الذى قصد إليه أصحابها .

١١ - تزييف التاريخ وتدمير البطولة

كان من أبرز ما اتجه إليه زكي مبارك وجرجى زيدان وطه حسين وحسين مؤنس وغيرهم العمل على تدمير عدد من الشخصيات اللامعة فى تاريخ العرب والإسلام ، وفى مقدمتهم ابن خلدون والمتنبي والغزالى .

كما جرت المحاولات لإعلاء شأن شخصيات لا تمثل العروبة والاسلام من قريب أو من بعيد ، كالحلاج وأبو نواس وبشار بن برد وغيرهم .

وحاول الدكتور طه فى اعتماده على كتاب الأغانى أن يرسم صورة التاريخ زائفة حين اعتمد على بعض شعراء الغزل المكشوف فى رسم صورة العصر ، بينما لم يكونوا يمثلون فى هذا العصر شيئاً، بل كانوا قلة لا يؤبه لها إزاء أعلام العصر فى مجالات الفقه والتاريخ والتصوف والفلسفة والأدب .

وفى كتاب التمدن الاسلامى لجرجى زيدان ، محاولات تغريبية خطيرة لتزييف التاريخ الاسلامى والانتقاص من قدر الخلفاء والأمراء المسلمين ، وقد جارى هذا المنهج الدكتور طه فى كتابه الفتنة الكبرى حين حاول أن يكسر القيد أمام الصحابة ، ويضعهم موضع السياسيين فى صراعهم ومطامعهم ، وخاصة فى إنكاره وجود أخطر شخصية فى تاريخ الفتنة وهى شخصية (عبد الله بن سبأ) اعتماداً على مراجع من التاريخ طبعت فى إسرائيل من أمثال : طبقات ابن سعد وأنساب الأشراف .

أما ابن خلدون فقد جرى طه حسين فى انتقاصه مجرى أستاذه المشرف على رسالته فى باريس اليهودى دوركايم الذى يحمل لابن خلدون وللفكر الاسلامى أسوأ صور العداء والحقد ، وكذلك فعل مع المتنبي حين تبنى آراء المستشرق بلاشير فى محاولة انتقاص شخصية عربية لها دورها فى تصوير النفس العربية فى مجال العزة والإباء والحرب ومقاومة العدو الدخيل ، وكذلك جرى زكى مبارك فى كتابه عن الغزالى حين حاول تبنى آراء المستشرقين عنه ثم عاد فعدل عن ذلك فى كتابه

(التصوف الإسلامى) وكتب مقالاته التى حرر فيها الرأى من هذا الوقف تحت عنوان : إليك أعتذر أيها الغزالى .

ولقد عاش طه حسين حتى رأى أفكاره الوافدة وهى تتمزق وتتهاوى عن طريق عشرات الباحثين من الأوربيين والعرب فى المؤتمرات المتعددة التى عقدت لتكريم ابن خلدون وتقليده قيادة الفكر الاجتماعى والمنهج التاريخى .

١٢ - إحياء الأساطير

كان كتاب (على هامش السيرة) الذى قدمه الدكتور طه حسين فى أول عدد من مجلة الرسالة عند ظهورها سنة ١٩٣٣ مثار ضجة كبرى وقد نظر إليه بعض البسطاء على أنه تقدير الإسلام ورسوله وتكريم من رجل سبق أن وضع موضع الاتهام بالنسبة للاسلام والقرآن .

وقد تخيل بعض الناس ذلك وانخدعوا له ، وكان هذا هدف حقيق من أهداف التغريب لإعادة طه حسين إلى مكانة عالية فى نظر العرب والمسلمين بعد أن فقد مكانته تماماً ، ولكن هامش السيرة لم يكن فى الحق عملا بناءاً ولا إيجابياً فى مجال الفكر الإسلامى أو التاريخ الإسلامى بل على العكس من ذلك كان انحرافاً خطيراً ، ذلك أن طه حسين قد جمع كل ما وجده فى الكتب من الأساطير وأعاد تجديدها واستباح لنفسه على حد قوله فى المقدمة الحرية الكاملة فى التوسع فى هذه الأساطير والإضافة إليها ، وبذلك أفسد السيرة النبوية التى ظل الكتاب والمؤرخين المسلمون يبرؤونها من كل قيود الأسطورة وشبهاتها وقد كشف عن هذا الخطر أقرب الأدباء صداقة ومودة ومعرفة للدكتور طه حسين وهو الدكتور محمد حسين هيكل الذى هاجم هذا العمل هجوماً عنيفاً فى السياسة الأسبوعية بعد صدور الجزء الأول مباشرة . فقال :

ومن الحق أن يقال أن طه حسين خدع بذلك الناس وحاول استعادة مكانته فى نظرهم وبذلك فتح الطريق إلى العمل فى مجال التغريب إلى أوسع مدى وكانت أعظم الثمرات بعد ذلك هى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) وهو من أخطر ما كتب ، تزيداً على العرب والمسلمين وتدميراً لمقومات فكرهم وقيمهم .

١٣ - الشعوبية واتهام العقلية العربية

حرص كثير من دعاة التغريب على اتهام العقلية العربية جريا وراء آراء ذكرها رينان وغيره فى مقدمتهم : توفيق الحكيم وحسين فوزى وسلامة موسى وحسين مؤنس وإسماعيل مظهر .

لقد وصفت الأمة العربية بأنها أمة لا يعرف لها تاريخ وأدبها صحراوى جاف مليء بالمبالغات . هو أدب التكلف والزخرف ، ووصفت العقلية العربية بأنها عقلية سامية قاصرة عن الخلق عاجزة عن استنتاج المعانى المجردة ، وأن العرب استمدوا علوم وفلسفتهم من فلسفة اليونان ولا فضل لهم فيها وكل شيء عند العرب زخرف وقال سلامة موسى إنه كلما ازداد خبرة وتجربة وثقافة كلما ازدادت معرفته بالشرق وزادت كراهيته له وشعوره بأنه غريب عنه ، وقال حسين مؤنس إن العرب أقل الناس تأثراً بماضيهم وارتباطا به لأن كل جيل من أجيالهم الماضية اختفى فى التاريخ حاملا معه كل تراثه تاركا الميدان لجيل آخر يبدأ فيه كل شيء من جديد .

وقال سلامة موسى : ليس علينا للعرب أى ولاء . إننا أرق من العرب ، إن العربية ليست لغتنا ولا نستفيد منها ، وإن لنا من العرب ألفاظهم فقط لا لغتهم والأصلح لمصر إذا أرادت التخلص من آسيا والشرق والتاريخ العربى أن تعود إلى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخ مصر ، وأن درس مدنية الفراعنة أفيد من درس العرب ، وأن الإسلام دين بدوى يتسم بكراهية الترف وبشدة الإيمان بالوحدانية وقال إن الأدب العربى لما تبين لقدمه هو قبل كل شيء أدب القرون الوسطى ونحن نقرأه للفائدة التاريخية فقط ، ولا يمكننا أن نستضيء به فى حل مشاكلنا الحاضرة إذ هو عقيم كل العقم من هذه الناحية وإن همومنا الأدبية والاجتماعية والاقتصادية التى نعانيها فى مصر هى هموم ابتون سنكلر وديوى الأمريكى أو توماس مان واميل لودفيج الألمانيين وليست هى هموم أبى فراس والمتنبى وأبى حيان التوحيدى ، ويقول سلامة موسى : نحن جميعاً سكان العالم العربى من بغداد شرقا إلى طنجة غربا نشترك مع أوربا فى ميراث الدولة الرومانية التى تعتبر دولة العرب نفسها جزء منها فلنا ثقافتها وحضارتها . ويقول : نحن أوربيون فى الدم والمزاج والثقافة واللغة فليس من الصواب أن يقال إننا شرقيون ، ومن مصلحتنا أن نغرس فى أذهان جميع العرب فى مصر والعراق وسوريا وشمال أفريقيا أنهم أوربيون سلالة وثقافة وحضارة ، وأنهم يجب أن يسيروا مع أرقى الشعوب الأوربية يتثقفون ثقافتهم ويتعودون عاداتهم .

وقال إسماعيل مظهر : إن العقلية التركية الحديثة هى مثال العقلية السليمة التى يجب أن ينتحلها الشرق ليجارى سير الحضارة العالمية .

وقال حسين فوزى : درجت على حب الغرب والاعجاب بحضارته ، وتمكنت أواصر حبى وتقوت دعائم إعجابى به فلما ذهبت إلى الشرق عدت إلى بلادى وقد استحال الحب والاعجاب إيماناً بكل ما هو غربى » .

وتبدو هذه الآراء جائرة شديدة الجور حين تصدر من المستشرقين والمبشرين ودعاة التغريب الذين يمثلون سياسة الاحتلال ويمثلون النعرة الاستعمارى الطامع فى السيطرة والبقاء عن طريق هدم مقومات الأمة العربية وتاريخها ولغتها وكيانها فى نفوس أبنائها فإذا هى صدرت من مصريين وعرب فإنها تكون أشد جوراً ، فليس من المعقول أن يحقر الانسان نفسه إلا إذا كان وراء هدف كبير وأمانة كبرى تدفعه أن يحقر أمته ووطنه وتاريخه .

ومن الحق أن يقال أن كل كلمة من هذه الكلمات لم تمر دون رد عنيف ودحض شامل من قادة اليقظة الإسلامية الذين كانوا يتابعون كتابات هؤلاء يوماً بعد يوم ، وقد كشفوا ما وراء هذه الدعوة من أهداف وكيف أن كثيراً من هؤلاء الكتاب كانوا أتباعاً للاستشراق ودعاة للتغريب ومبشرين لهم صلات أكيدة بالمؤسسات التبشيرية والماسونية وغيرها وكشف كتاب اليقظة كيف كان للعرب أدب ممتاز قبل أن يتأثروا بالحضارة اليونانية وأن هذا الأدب قد صور حياة العرب تصويراً صادقاً فأدى واجبه أحسن الأداء .

١٤ - إسقاط الحضارة الإسلامية

كان من أخطر المحاولات التي جرى عليها كتاب التغريب محاولة إسقاط دور الحضارة الإسلامية خلال ألف سنة من مجال الحضارة العالمية ، وذلك بالإدعاء بأن الحضارة الرومانية سقطت في أوربا في القرن الرابع وأن الحضارة الغربية الحديثة قد بدأت في القرن الخامس عشر ، وأن الفترة بينهما هي ما يسمى « العصور الوسطى المظلمة » وبذلك ينكر كتاب الغرب من المستشرقين والمبشرين والمتعصبين دور الحضارة الاسلامية وذلك بالنظرة المستعلية القائمة على مذهب العنصرية وإعلاء الجنس الأبيض صانع الحضارة ، وقد جرى في هذا المجرى كثيرون منهم أحمد لطفي وسلامة موسى وغيرهم ، غير أن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت بأقلام كتاب الغرب أنفسهم الذين شهدوا بالدور الضخم الذي قام به العرب والمسلمون وفي مقدمتهم علماء الطبيعة والكيمياء أمثال دراير وبريفولت وغيرهما

١٥ - الإغريقيات والنزعة اليونانيه

أسرف دعاة التغريب في الدعوة إلى الإغريقيات والنزعة اليونانية وبدأ لطفي السيد وطه حسين كأنما هما متخصصان في الدعوة ، وقد بدأ ذلك بمحاولة خطيرة فرضت اتهاماً باطلا ردده من قبل رينان أن الفلسفة الإسلامية هي فلسفة يونانية ولذلك فإن اليونانيات والاغريقيات والهيلينيات لها صلة طبيعية بأدبنا وفكرنا .

وقد واجه دعاة اليقظة هذه الشبهة بالنقض وكشفوا عن خطئها وأبانوا كيف ، أننا لم نكن عالة على اليونان ، وأن فكرنا الفلسفي كان مستقلا وأننا لم نكن أبداً صورة من صور الاغريق حقيقة أو مشوهة ، بل كان لنا على العكس تماماً الكيان المستقل والينبوع الذي انفجر منه النور المشرق الذي سطع في أوربا عبر أسبانيا وصقلية ، وهناك تلألأ نورها وأنار أوربا القائمة الكالحة ، فأقام الحياة فيها وخبا النور هنا أو كاد ، وأن رجال من الغرب يحاولون القضاء على النور نهائياً ، بقايا النور المنبعث من هذا الأصل الإلهي العظيم : الإسلام والقرآن ومحمد .

ولقد تحدثت صحف الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة والسياسة الأسبوعية والمصور عن هذه الفلسفات المختلفة ، الرواقية والأفلاطونية وكتب بعضهم بحوثاً أسموه المصادر الاغريقية للفلسفة الإسلامية ، ومضى أحمد ضيف ومن بعده طه حسين ، يقولان أن العرب ككل الأمم السامية ليس لها أساطير في شعرها ولا في عقائدها وأن هذا يدل على ضيق الخيال لديهم ، لأن الأساطير والخرافات إنما هي نتيجة سعة الخيال ونتيجة الحيرة والبحث وحب الاطلاع .

وهكذا ترددت آراء من وراء النزعة اليونانية تحاول اتهام العرب بالقصور والفكر الإسلامي بالتبعية ، ولكن أبحاثاً كثيرة صدرت ووضعت الحق في نصابه منها كتاب مصطفى عبد الرازق (مقدمة في الفلسفة الإسلامية) وكشف كتاب مجلة الأنصار عن هذه الاتهامات كما عرض لها السيد محب الدين الخطيب ورشيد رضا ، وفرقوا بين عقليتين : عقلية قامت على الأساطير وعقلية قامت على الإيمان بالله الواحد ، وأقامت فكرها على الواقع : وبذلك أنكرت الأساطير والخرافات وكل ما لا يقره العقل .

ونفى المفكرون المنصفون عن العرب قصور خيالهم وأكدوا أن العرب كونوا فكرهم في مرحلة بلغوا فيها قدراً كبيراً من انفتاح الإدراك العقلي حيث كان اليونان وأساطيرهم في مرحلة الإدراك الحسي التي تخطاها الفكر العربي وقد كان لدى العرب أساطير في الجاهلية ولكنها لم تستحوذ على ألبابهم كما استحوذت على ألباب الإغريق .

١٦ ـ فصل الأدب عن مقومات المجتمع والفكر

كانت كبرى محاولات تجزئة الفكر الإسلامي والثقافة العربية تستهدف تجزئة الأدب عن الفكر وعن المجتمع وإعلائه وإعطائه الحرية الكاملة في التعبير ، دون ارتباط بالأخلاق أو الاجتماع أو الفكر على النحو الذي فرضته نظريات النقد الغربية حين فصلت الأدب الغربي عن مقومات المجتمع والأخلاق وأعطته الحرية الكاملة في التعبير الكاشف وتصوير جوانب الاباحة والفراش وما وراء الغرف المغلقة تحت إسم الفن للفن .

ولقد كانت محاولة طه حسين الحقيقية في كتابه الشعر الجاهلي كسر هذا القيد وتحرير الأدب من رابطة الجذرية وعلاقته العضوية بالاجتماع والأخلاق ، وقد جرت هذه المحاولة في أكثر من موضع وبحث بشأن فرض مذهب النقد الأدبي الغربي المادي الأصل والاتجاه وقد امتدت هذه المحاولة طويلا وانتهت بالرفض الكامل من الأدب العربي صاحب الذاتية الخاصة المختلفة بل المتعارضة مع الآداب الأوربية .

وقد كشفت حركة اليقظة بوضوح عن مدى الفوارق الجذرية والعميقة بين الأدبين العربي والغربي استمداداً من الفكر الاسلامي أو الفكر الأوربي واليوناني ، واتصالا بالنفس العربية ذات الخصائص

الواضحة والقيم الأساسية والمزاج النفسي والاجتماعي القائم على التوحيد والذي تسليم الطبيعة العربية الصافية التي تشرق فيها الشمس فتحيل الدنيا ضوءاً واضحاً . هذه النفس التي لا تحتاج إلى الرموز والظلال ولا تجد ما تجده النفس الغربية التي تحيا من خلال الجبال العالية والسحب الكثيفة والأساطير المتصلة بالبحار والظلام واختلاف الآلهة وصراع الإنسان معها ، إلى غير ذلك مما لا تعرفه النفس العربية الاسلامية ولا تحتاج معه إلى فصل بين الأدب والمجتمع أو بين الأدب والأخلاق .

١٧ - المرأة والمجتمع

حاول دعاة التغريب اتخاذ الدعوة إلى تحرير المرأة وسيلة إلى هدف واضح ، هو إخراج المرأة العربية المسلمة من قيمها ومن مفاهيمها ، ودفعها إلى مجال التحرر والاباحة والانطلاق ، ولذلك كانت الدعوة إلى تحرير المرأة لا ترتبط بأي تحفظ أو منهج دراسي أو تربوي يمكن المرأة المسلمة العربية من مواجهة الحياة . ورفض النفوذ الاستعماري تعديل مناهج التعليم في مدارس البنات وأجرى عليها مناهج تعليم الذكور دون تفرقة ، وبذلك حرم الفتاة من حضانة فكرية تمكنها من مواجهة الحياة في مجال التعليم والسفور وتحملت المرأة نتيجة ذلك تضحيات كبيرة ، كان دعاة حركة اليقظة مؤمنون بتعليم المرأة وتمكينها من حقها في المشاركة في الحياة ، وكان الاسلام ينص على ذلك صراحة ولا يعارض فيه ، ولكنهم كانوا يدافعون عن كيان المرأة نفسه طالبين تحصينه بتربية خاصة للمرأة تمكنها من مواجهة الحياة دون التعرض لأخطارها وآثامها والوقوع فريسة الأشراك التي نصبها دعاة الاباحة والشر .

وقد بدأت الدعوة إلى تحرير المرأة وتعليمها منذ وقت مبكر ، حين بدأها رفاعة رافع الطهطاوي ثم تابعه بعد ذلك قاسم أمين وفيما بعد الحرب العالمية الأولى أخذ دعاة تحرير المرأة وإخراجها من قيمها إلى إثارة القضية ، وقد كانت وجهة دعاة حركة اليقظة متفقة تماماً لتحرير المرأة وتعليمها ومشاركتها الرجل في العمل ولكنها كانت تحرص على ما أسماه كتاب عام ١٩٢٠ (حدود الآداب الشرعية وسنن الدين) وكان أغلبهم يرجع إلى تصوير نهضة المرأة المسلمة في صدر الاسلام .

وفي محاضرة لوفيق دياب عن غاية النهضة النسوية في مصر قال : إن من الأمور الجوهرية للمرأة أن تبلغ منتهى ما تستطيع بلوغه من (متانة الخلق) فإذا بها سليمة العواطف قديرة على دفع الأهواء وكبح ما لا يقره ضميرها من رغبات فإذا بها كالشمس أينما وقع شعاعها كان مطهراً للفساد منيراً للظلام وقال : إن جانب الأخلاق في النهضة النسوية جانب خطير ، ذلك إن النهضة هنا تنسج في بعض نواحيها على منوال نساء الغرب ، وللغرب عادات قد لا تلائمنا كلها على السواء ، وإن من أنواع الشجر والنبات الغربي مالا نستطيع استنباته في بلاد الشرق وللغربيات خصال حسان تصلح لنا ، ولبعضهن خصال هي موضع الريب ، فيجب أن نفكر فيها طويلا وأن نكون منها على حذر ، ولقد

ينكر بعض كبار المفكرين الغربيين على بعض نساء الغرب كثيراً من العادات وينعون عليهم سرعة القفز إلى كل جديد وإن لم يبد منه وجه الخير وإن الأمم الغربية مكتظة بأسباب العظمة وقد لا يهمها أن تفرط بعض التفريط أحياناً ، أما نحن فدارعون في بناء جديد ونريد أن نقيمه على أسس متينة فكل تفريط منه منذ البداية بمثابة حجر رخو متآكل نضعه في الأساس وقد يتهدم بسببه البناء بأسره .

وقال إنى أعلم أن تيار المدنية الغربية جارف ولكن واجبنا أن نقاوم عناصر الضعف والانحلال التي قد نصادفها في ذلك التيار ، ودعا إلى أن تتبارى النساء في ميادين الجد لا ميادين الدعاية والهزل ، ورحب بصفات الرحمة والقوة والجهاد ، وهاجم غلو المرأة الغربية في أنواع اللهو المعيب وقال إنها لا تتفق ومتانة الأخلاق ونزعات الجد التي ينبغي أن نأخذ بها أنفسنا في هذا المعترك . وقال فلتتحرك المرأة المصرية من القيود التي تعطل مواهبها الفعالية وتشل إرادتها لخير نفسها وخير أمتها وصفاء عواطفها من الشوائب والريب » .

وصورت سهير القلماوى مفهوم نهضة المرأة فقالت : إذا كانت المرأة مساوية للرجل فهي غير مماثلة له تختلف عنه بنية وميولا ، وتبين عنه بصفات ومؤهلات خاصة يكمل بها الرجل إذا أضيفت إليه ويكفل بالاتفاق عنها تعاوناً مجدياً من أوجه شتى . فتحقق بذلك نواميس التوازن والتناسق التي تنادي بتعاون شرطي البشرية ، ففي الأسرة تكون وظيفة المرأة أقرب إلى الطبيعة وأشد وقعاً وأقوى أثراً ، ولست أغالي إذا قلت إن المرأة لما كانت مسئولة عن مستقبل ذويها وعنائهم يجب أن تكون تربيتها وتعليمها أوسع من تربية الرجل وتعليمه وأدق تنظيماً ، وإذا كانت أعباء الحياة المادية ملقاة أكثرها على الرجل ، فإن المرأة تتحمل أعباء أخرى أكثر دقة وهي المسئولية الأدبية . ذلك أن أثر المرأة في حياة زوجها وأثر الأم أشد نفوذاً وأوضح مظهراً في حياة ابنها ، فإليها يرجع الفضل في تكوين خلقه ونشأته الأولى وهو مدين لها في تكوين بنيته بما اشتملته من عنايتها منذ نعومة أظفاره .

وتقوم وظيفة المرأة على إعداد الأطفال لتغذى فيهم المعانى الروحية التى تضع لحياته غاية وتدخل عليها الانشراح ، لهذا لجدير بالمرأة أن تطالب بإصلاح جميع مناهج التعليم في مصر التى وضعت على أساس نظرى محض وبطريقة ميكانيكية ، وعليها أن تنادى بتوجيه العناية الأولى في التعليم إلى تهذيب الأخلاق والإرادة ، وإنا نرى أن تعليم الدين ودراسة اللغة من أقوى ما يساعد على تحقيق هذا الغرض .

١٨ - الأدب المكشوف والإباحيه

كان من أخطر الدعوات التي حمل لواءها التغريب والأدب المكشوف : دعوة ترجمة القصص الغربية وتحريضاً على كتابة هذا اللون في الأدب العربي ، وقد عمد الدكتور طه حسين منذ وقت مبكر حوالي ١٩٢٤ إلى ترجمة عديد من القصص الفرنسية الماجنة التي تحرض على (عبادة الجسد وتقديس الشهوة) ، وتابعه الصاوي محمد وعديد من الكتاب .

وفي يناير ١٩٢٨ عقدت مناظرة عن الأدب المكشوف بين توفيق دياب وسلامة موسى ، دعا توفيق دياب إلى ضرورة تقييد الأدب بالأخلاق ودعا سلامة موسى إلى الحرية المطلقة وعدم التقيد بالأخلاق . وجرى في هذا الطريق أحمد بقطر وإبراهيم المصري وكثيرون يحاولون ترويج الأدب المكشوف ويفرقون بينه وبين ما يحاولون أن يطلقوا عليه اسم الأدب الوضيع ويدافعون عنه بأنه لا يهدف إلى ترويج الدعارة بل دراسة الإنسان والكشف عن ميوله ونزعاته .

وذهب آخرون إلى الفصل بين الأدب والمجتمع والأدب والأخلاق وقالوا كما يقول الغربيون أن رجل الأدب لا علاقة له بأخلاقية المجتمع .

وقد واجه دعاة اليقظة هذه النظريات فعارضوها ودحضوها وكشفوا عن أن الثقافة العربية والفكر الإسلامي لا تفصل بين الأدب أو بين الأخلاق والأدب والمجتمع، وأنها تنظر إلى كل القيم الثقافية والفكرية في تكامل وشمول حيث تدور جميعها حول الشخصية الإنسانية وتهدف إلى بنائها ودعمها لا إلى هدمها وتدميرها ، وأن مفهوم الغرب للأدب الجنسي نابع من تفرقته بين القيم الأخلاقية والاجتماعية والأدبية وهذا لم يقع في الفكر الإسلامي والثقافة العربية أبداً وقد استعان دعاة التغريب بنظريات فرويد في الإدعاء بأن تصرفات الإنسان جميعاً صادرة من رغبات جنسية وكشفوا عن زيف هذه النظريات وأن فرويد ليس إلا يهودياً مخرباً وأن دعوته إنما يراد بها تدمير المجتمعات في طريق هدف الصهيونية التي تحاول أن تسيطر على العالم كله بعد هدم مجتمعاته ، وأن الاستعمار قد نقل هذه الآراء والنظريات إلى مصر والعالم العربي بهدف القضاء على مقومات هذه الأمة لتظل فريسة للاستعمار والنفوذ الأجنبي وأن هذه العملية تجري باسم العلم والبحث العلمي .

وقد هاجم دعاة اليقظة كل ما يتصل بالقصة والأغنية والكلمة المريضة المكشوفة ، وكشفوا عن مدى الخطر الذي يواجه الأمة من سريان هذا التيار فيها بحيث يؤدي إلى اضطراب المجتمع وانهيار الأخلاق وغلبة المجون والاستخفاف ، وفساد الذوق والميل إلى الدعارة والنعومة والدخول في عالم فاتر مريض

وأن الأمة فى حاجة إلى دعوة إلى القوة والكشف عن البطولات والقيم العليا حتى تستطيع أن تكون قادرة على التحرر من النفوذ الاستعماري والاحتلال.

١٩ - الدعوات الهدامة

عشرات من الدعوات الهدامة حاولت أن تجد مكانها فى قلب الأمة منها ما حاول هدم الدين أو مقومات الأمة أو الأخلاق وفى مقدمتها دعوات الإباحية والانحلال الخلقى ودعوات الإلحاد أو باسم أديان وضعية أو مذاهب

وكان للمقتطف والهلال دورهما الواضح فى الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى ثم استمر دورهما وزادت المجلات بظهور المجلة الجديدة والمصور.

(١) الماسونية

وقد أولت هذه المجلات أهمية كبرى للماسونية والبهائية والحركة الصهيونية والشيوعية وحاولت الهلال ومحررها جرجى زيدان هو مؤلف كتاب (تاريخ الماسونية) أن يصور الماسونية بأنها حركة حرية وخير وقال جرجى زيدان أن الماسونية إنما قامت لنصرة المسيحية أيام الاضطهاد وأنها كانت على صلة بالمسلمين وأنه لا علاقة بين الماسونية والكنيسة وصدرت فى مصر مجلات الأنباء الماسونية والأخاء الماسوني والطائف التى أصدرها مكاريوس ثالث الثلاثة (صروف ونمر أصحاب المقتطف والمقطم).

وكان من اتجاهات جرجى زيدان العمل على نقل التلمود إلى اللغة العربية وحاول تبرئة اليهود من الفظائع الدموية (ص ٢٠٤ م ١٣ الهلال).

وكشف المنار وهو على رأس صحف اليقظة: أن يكشف حقيقة الماسونية وقال إنها جمعية سرية تكونت فى أوربا خلافاً لما يزعمون من قدومها لمقاومة استبداد رؤساء الدنيا من الملوك والأمراء ورؤساء الدين من البابوات والقسيسين وقال إن جل رموزها وإشاراتها متفرعة من الكتاب المقدس وأنهم قد أسندوها إلى بناء الهيكل (هيكل سليمان) ثم إن الافرنج عندما تغلغلوا فى الشرق ورأوا مزاج السيادة الإسلامية لا يقبل مشاركا له فى حكمه فهو يجاهر إنفصال جميع المسلمين لنبذ سلطة كل من يحاول السيادة عليهم استعانوا بالماسونية على إضعاف هذا المزاج، وتوسلوا إلى بعض كبار المسلمين وأغنيائهم واستمالوا عليهم بنصارى بلادهم ويهودها فأدخلوا طائفة فيهم وبقى أكثر المسلمين إلى اليوم يعد الماسونية نوعة من نزعات الكفر، ورأى جمال الدين أن الجمعية الماسونية تجر هذه البلاد إلى أوربا بخيوط دقيقة سياسية خفية، وأراد أن يرى رجالا يعرفون كيف يحفظون بلادهم وأنفسهم فوجه همته إلى استخدام الماسونية فى تعليم تلاميذه ما لا يمكن التصريح به إلا فى جمعية ماسونية فدخل فى الماسونية وأدخل فيها تلامذته النابغون لجعل بهم قوة المصريين، ولكنه كان غالباً فى مضادة الانجليز كما كان من زحفهم على بلاده ولما كان يعتقد فى طمعهم فى مصر فقاوموه حتى اضطروه إلى ترك الماسونية».

وكشف كرد على أهداف الماسونية حين قال : إنها جمعية أنشأها اليهود للقضاء على ظلم الكاثوليك وإنها ماسونية صهيونية صرفة لا يهودية فقط ، يحمي اليهود بواسطة نفوذها أن يعيدوا مجد صهيون ومعنى جمعية صهيونية انتزاع فلسطين العربية من أيدي العرب .

ولقد حاولت الماسونية في خلال فترة ما بين الحربين أن تمد نفوذها فأنشأت محافلها في مصر ودخلها عدد كبير من الوزراء وكتب عنها عزيز ميرهم في السياسة الأسبوعية ١١ / ١٢ / ١٩٢٦ مقالا افتتاحياً أزجى فيه المدح والثناء لها وربط بين شعارها وشعار الثورة الفرنسية وقال إن معظم رجال الثورة الفرنسية كانوا من الماسون أمثال ميرابو وبريسو وكاميل وصولان ورابنون وكوندرسيه ، وقال إن وشنجتون محرر الولايات المتحدة الأمريكية هو أيضاً ماسوني ، وقال : الماسونيون هم الذين حرروا العالم من سلطان البابوية ، وفرقوا بين السلطة المدنية والسلطة الدينية البابا وقال إن الذين بنوا الحرية الفكرية وهدموا سلطان الكنيسة في فرنسا وإيطاليا هم الماسون وقال إن ماسيني وغاريبالدي الذين حققا الوحدة الإيطالية هما ماسونيين وقال إن تركيا قد نالت دستورها بفضل محافلها ، وقال إن الماسونية تحرر عقل الانسان من الأوهام والخرافات .

ونشرت صحف سلامة موسى واسماعيل مظهر وغيرهم مقالات مختلفة تنحو هذا المنحى وقد واجهها كتاب اليقظة ردحضوا أكاذيبها وكشفوا عن أهداف الماسونية وصلتها بالحركة الصهيونية النامية في فلسطين في ذلك الوقت ، وكشفوا عن حقيقة (الدونمة) في مدينة سلانيك ومحافلها الخمسة التي تضم ٥٠ ألف يهودي ومنها جمعية الاتحاد والترقي المنشأة ١٨٩١ بها .

(٢) البهائية

وتحدثت الصحف والمجلات بصورة أوسع وأشمل عن البهائية ، وشارك في هذا كثير من الكتاب الذين زينوا هذه النزعة وكثر الحديث بمناسبة مرور عباس أفندي البهاء بمصر ، وشارك في هذا الحديث سلامه موسى والعقاد واسماعيل مظهر وغيرهم وصدرت كتب متعددة عن البهائية وكشف السيد رشيد رضا في المنار عنهم وقال إن دينهم هو خلاصة المذاهب الباطنية وهو أقرب إلى المسيحية من الإسلام ، وأول كتاب طبع لهم في اللغة العربية هو (الدرر البهية) وقد أنكر كون القرآن معجزاً ببلاغته وفصاحته ، وقد أجروا تأويل آيات القرآن على ما ينطبق على بدعهم وقال إن البابية التي انبعثت منها البهائية ليسوا أصحاب مذهب جديد في الإسلام بل أصحاب دين جديد وشريعة جديدة ، وقد دحض شبهاتهم محب الدين الخطيب في مجلة الأزهر ، وشاركت في ذلك مختلف الصحف الاسلامية .

(٣) الصهيونية

وتحدثت الصحف عن الصهيونية وتاريخها وأعمالها منذ وقت مبكر ، وكشف رشيد رضا أمرهم في المنار منذ سنة ١٩١٥ وتعددت المقالات والكتب عن الصهيونية والسامية وحفلت بها مجلات المقتطف والهلال والمصور والهلال الجديدة وكلها مشبعة بالعطف على اليهود واهتمت الصحف بأعلام الصهيونية أمثال هرتزل وماكس نورد الذي ترجم مقالاته وآراءه المازني والعقاد واسماعيل مظهر .

وهاجمت صحف اليقظة الاسلامية وتصدى كتابها لهذه الآراء ، وتحدثوا عن مدى الخطر الذي يهدد فلسطين والعالم العربي نتيجة لهذه الدعوات .

ونشرت الفتح عام ١٩٣٢ ما يشير إلى وجود حلف يهودي « لاتيني » لمحاربة المسلمين والعرب حيث قال كاتبه المسلم الدكتور خالد شلدريك : يهدد العالم الاسلامي اليوم حلف هو الأول من نوعه في التاريخ ومما لا شك فيه أن هذا الحلف إذا استمر سيهدد المسلمين ويوقظهم من سباتهم ويشعرهم بواجبهم ، وأضاف : لا مراء أن سياسة الشعوب اللاتينية اليوم (فرنسا وإيطاليا وأسبانيا) متفقة إزاء الشعوب الاسلامية وإزاء الثقافة الاسلامية ، وأن مسألة فلسطين قد أصبحت عاملا جديداً وأدخل بصريح بالفور اليهود كي يساهمون في المؤامرة الكاثوليكية التي ترمي إلى إذلال شعوب الاسلام وإحلال الثقافة اللاتينية مكان الإسلام » .

(٤) الشيوعية

وكشفت الصحف عن محاولات النشاط الشيوعي في الشرق ، وكيف كان لبنان مركزاً هاماً من مراكز الدعاية وتحدثت الصحف عن أخطار الحركة الشيوعية في مصر والشرق وكانت الحملة على الشيوعية تصدر من الرأسمالية في العالم العربي ومن أنظمة الحكم الموالية للنفوذ الغربي — تقول جريدة الأهرام : ترمي الشيوعية في الدرجة الأولى إلى محاربة الأديان وهدمها غير مفرقة في ذلك بين دين ودين وقد ظلت حملتهم ضد الدين تعمل في الخفاء حتى ١٩٣٠ وابتداء من هذا التاريخ ظهرت في صورة جمعيات لا دينية ، وقالت السياسة اليومية : إن البلاشفة لم يلقوا من الفشل في إذاعة الدعوة الشيوعية قدر ما لقوا في الأمم الاسلامية ، والبلاشفة يسيطرون على أمم إسلامية عدة في القوقاز وأذربيجان والتركستان وقازان وغيرها وما زال البلاشفة يلقون صعابا في ضبطها وحكمها .

وقال إن البلاشفة غاية مزدوجة من العمل على إذاعة دعوتهم وجهها الأول هو تحطيم النظم الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي وهو شطر من الثورة العالمية التي يعمل لتحقيقها

زعماء البلاشفة ووجهها الثاني هو مناوأة الاستعمار البريطاني التي تخضع لصولة هذه الأمم . وأشارت الصحف إلى أول حزب شيوعي تكون في مصر عام ١٩٢٣ ، واشترك فيه سلامة موسى وعنان وحسني العرابي .

٢٠ — الاقليمية الضيقة

حرص دعاة التغريب على الدعوة إلى الإقليمية الضيقة التي تمثل كياناً محدوداً قوامه (المصرية) وقد بدأ لطفي السيد هذا الاتجاه قبل مرحلة ما بين الحربين ثم جرى دعمه وتعميقه خلال ما بين الحربين بدعوات متعددة عن تمصير الأدب ، تمصير القانون ، تمصير اللغة ، تمصير التاريخ وذلك في محاولة لقطع أواصر الثقافة في مصر عن الأمة العربية كياناً وواقعاً وعن الإسلام كفكر وقيم ، ولم يكن ذلك الأمر في الحق ميسراً فإن اللغة في مصر لا تستطيع أن تنفصل عن اللغة العربية وأن الدعوة إلى العامية تجد نفوراً شديداً ، والأدب في مصر لا ينفصل عن الأدب العربي .

عاشت الدعوة إلى الإقليمية الضيقة في مصر كلمة تقال ، أما في سوريا فقد تحولت إلى حزب له مقومات إقليمية . يقوم على أساس الحدود المصطنعة . وقد ردد سلامة موسى ومحمد عبد الله عنان والدكتور هيكل هذه الدعوة إلى المصرية وحاولوا إقامة فلسفة لها .

وقد واجه دعاة اليقظة هذه الدعوى بالنقض والكشف عن زيفها قال السيد محب الدين الخطيب قالوا للمصريين أنتم أبناء الفراعين فارجعوا إلى حضارة المصريين القدماء ، وقالوا لأهل الشام أنتم أبناء الفينيقيين تمسكوا بتاريخ الأقدمين ، وقالوا للفرس يا بني الأكاسرة لقد فتح العرب بلادكم وأزالوا ملككم وفرضوا دينهم عليكم ، فارجعوا إلى زرادشت إن لم تعرفوه واقرأوا كتابه وإن لم تفهموه . وقيل للترك : أنتم سلالة جنكيز خان عبدة الذئب الأغبر ، فقد كانت في سيبريا حضارة وفي قرة قروم دولة فارتدوا إلى ماضيكم » .

وجرى السجال بين دعاة المدنية العربية ودعاة الفرعونية . وانهزمت الفرعونية وعلت عروبة مصر ، وقال رشيد رضا : إن العرب كونوا مدنية خالدة أما الفراعنة فلم يتركوا إلا الأحجار . ويكفي ما اشترعه العرب من الشرائع والأنظمة لرفاهية البشر وإسعاد الإنسانية ، وقال إن الشريعة الإسلامية التي هي ثمرة الفكر العربي لا تزال أصلا من أصول الشريعة في عصرنا الحاضر حتى عند أرقى الأقوام الأوربية .

ثم خطت حركة اليقظة خطوة علمية قوية عندما كشفت عن أن جذور الحضارات المصرية والكلدانية والفينيقية هي جذور عربية أصلا .

وقال أحمد حسين : إن مصر هي التي رفعت لواء الأديان جميعاً وأعلت كلمة الله والإسلام » .

وبالجملة فقد انهزمت كل الشبهات التي روجها التغريب والقائلة بأن المصريين ليسوا عرباً وأنهم غربيون بحكم صلتهم باليونان وأوربا وثقافة البحر المتوسط .

٢١ - تعظيم الغرب

كان من أبرز أهداف التغريب ودعوته الملحة على لسان مختلف دعاته وتوابعه : طه حسين ومحمود عزمي وهيكل وغيرهم من حاولوا بعدهم هي إعلاء شأن الغرب والحديث عن باريس ولندن ونيويورك ، وازدهاء الأحداث الغربية كالثورة الفرنسية وترديد القول عن أرسطو وأفلاطون ونابليون وبرناردشو وفكتور هوجو والاسكندر وغيرهم من أعلام اليونان والرومان والغرب في مجال السياسة والفكر والأدب ، على أنها نماذج عالمية لا سبيل للأمم أن تجد غيرها مثلا عليا لها .

وكان هذا التعظيم يعطى صورة الإذلال والاستصغار للعرب والمسلمين وأعلامهم وبطولاتهم الحاسمة ومواقفهم الخالدة ، وكان ذلك محاولة لإذابة المثقفين في دوامة الغرب حتى لا يروا غيره ولاء فكرياً ، وإيحاءاً بأن نهضة العرب والمسلمين لا تتحقق إلا باندماجهم في الغرب واتخاذهم أعلامهم في السياسة والأدب قدوة لهم .

وقد طغت هذه الموجة حيناً ، ولكنها لم تلبث أن انحسرت بعد أن كشفت الأحداث عن الذابح الرهيبة التي جريها الاستعمار مع أهل المغرب وفي سوريا وفي كل مكان في العالم العربي والإسلامي لتثبيت وجوده وعم نفوذه ، هنالك فقد المفكرون الموالون للغرب الأمل الذي توهموه في أوربا حاملة لواء الحرية ، وانكشفت خدعته أمام أبصارهم ، ومن ثم فقد ارتدوا مرة أخرى يبحثون عن طريق جديد ولم يبق مصراً على مواقف التغريب غير أتباعه وأوليائه .

٢٢ - التبشير والارساليات الاجنبيه

ارتبط وجود الإرساليات التبشيرية بالوجود الاستعماري في العالم العربي وقبل الاحتلال الفعلي فلما سقطت أجزاء من العالم العربي تحت نفوذ الاحتلال اتسع نطاقه وتركزت دعائمه وجعله الاستعمار من القوى التي ينص عليها ويشير إليها في مشاريع المعاهدات والاتفاقات حتى إن العراق عرض عليها حماية مدارس التبشير والارساليات كشرط لقبولها في عصبة الأمم .

وقد كانت بيروت هي المركز الأول للإرساليات فقد قدموا إليها منذ سنة ١٥٩٩ حيث بدأت المدارس اليسوعية في تمام الأحداث أما في مصر فقد بدأت خلال حكم اسماعيل (خلع ١٨٧٩) الذى أقطعهم الأرض وأعطاهم الإعانات ، فلما جاء الاحتلال البريطاني اتسع نطاق الإرساليات وركز

(دوفرين) فى أول تقريره - عن تنظيم الاحتلال فى مصر - على هذه المدارس وجهودها ، وقال : « إن الأمل فى نجاح تهذيب العامة فى مصر نجاحاً عظيماً ما زال ضعيفاً ما دام الصبيان لا يتعلمون اللغة العامية بدلا من تعميم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن فإن نسبة العامية إلى الفصحى فى اللغة العربية هى كنسبة اللغة الإيطالية الحديثة إلى اللغة اللاتينية القديمة » .

وفى سنة ١٨٨٢ (وهو عام الاحتلال) كان عدد المدارس التى أنشأها المرسلون والأجانب فى مصر ١٥٢ مدرسة تشمل ٢٢٤٧ طالباً وشجع كرومر جهود المبشرين وحمى الارساليات ، وفى السودان اتسع نطاق التبشير فلما خفق العلم الانجليزى من جديد على السودان ١٨٩٨ عادت جمعيات التبشير تحمل لواء الانتقام لغردون بتوسيع نطاق التبشير ، وظل كرومر إلى آخر حكمه (١٩٠٧) يحث المبشرين على العمل ، وكانت الحكومة البريطانية تشجع المبشرين البروتستانت والكاثوليك على السواء ، وكذلك عندما استولى الانجليز على عدن اتخذ المبشرون منها مركزاً يشعون منه إلى قلب الجزيرة العربية كلها . فلما انتهت الحرب العالمية الأولى وسيطر الانتداب الفرنسى والبريطانى على سوريا والعراق وفلسطين فتح للمبشرين طرائق جديدة .

وفى مصر كان الدكتور صمويل زويمر هو أكبر دعاة التبشير فى العالم العربى كله قد اقتحم الأزهر الشريف عام ١٩٢٨ ووزع منشوراته على الطلاب وهم فى حصص الدرس ، وناقش بعض أساتذتهم وكان منشوره تحت عنوان (ارجع إلى القبلة القديمة) وهو خطاب يعالج فيه تاريخ القبلة فى صلاة المسلمين ، وزخرت مصر بالمدارس الأجنبية كالعازارية والفرنسسكان والفرير واللايك والأمريكان والآباء اليسوعيين وسيطرت الجامعة الأمريكية فى القاهرة وكلية فيكتوريا فى الاسكندرية .

ولقد كانت مؤسسات الارساليات الأجنبية من أخطر الأعمال التى اتخذها النفوذ الاستعمارى فى العالم العربى لتأكيد بقائه ، وذلك بفرض ثقافته ومفاهيمه وقيمه على الأجيال التى تعد للحكم والسلطان ، وإلى جوار هذه المؤسسات كانت حركة التبشير التى غذيت بالاعتمادات الضخمة التى كان لها دوى خطير عام ١٩٣٢ و١٩٣٣ حيث عمدت إلى نقل أبناء المسلمين من دينهم بأساليب غريبة ، منها التنويم المغناطيسى ، وقد أكد زعماء الاستعمار أهمية التبشير فى البلاد المحتلة ، فقال لورد بلفور : إن المبشرين هم ساعد الحكومات المستعمرة وعضدها فى كثير من الأمور المهمة ، ولولاهم لتعذر على الحكومات أن تذلل كثيراً من العقبات .

وقد ظلت هذه المؤسسات التى انطلق منها التبشير تتمتع بحرية كاملة وسلطان لا حد له فى نطاق الامتيازات الأجنبية التى كانت تخول لها استيراد ما تشاء دون جمارك أو ضرائب ، والتى كانت تحميها من التفتيش أو الإشراف ، فلما عقدت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا وتقرر إلغاء الامتيازات الأجنبية تقدمت الدول إلى مصر فى مؤتمر مونترو بمطالب خاصة بحماية المؤسسات

وللمعاهد والمؤسسات الفرنسية وأعلنت بريطانيا أنها تحمي هذه الإرساليات جميعاً وكان قد وصل عددها عام ١٩٢٦ إلى حوالي سبعمائة مؤسسة .

وكانت المؤتمرات التبشيرية المختلفة التي عقدت في قلب البلاد (الإسلامية ، القدس القاهرة) قد رسمت خطة كاملة لأعمال التبشير وعرضت تجاربها وأعلنت أنها استفادت من سقوط الدولة العثمانية التي كانت تحول بينها وبين العمل وهللت لنتائج الحرب العالمية الأولى حيث وضعت بريطانيا وفرنسا يدها على سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ، بالإضافة إلى مصر والسودان الواقعة تحت النفوذ الفرنسي منذ وقت بعيد ، ففي عام ١٩٢٤ يقول تقرير مؤتمر التبشير : إن الأحوال السياسية في جميع البلدان الإسلامية تقريباً قد أصبحت ملائمة لأعمال التبشير والعراقيل التي كانت تنشأ فيما مضى قد تلفت تماماً ، وبعض الحكومات التي كانت فيما مضى مضادة للتبشير قد تغير حالها وباتت صديقة للتبشير تمده بالمعونة اللازمة للقيام بالأعمال الطبية والاجتماعية التبشيرية . وأن الإنتدابات التي أحدثت بعد الحرب العامة في الشرق الأدنى والدستور الجديد الذي أنشيء في مصر كل ذلك قد اشتمل على نصوص ناطقة تكفل الحرية الدينية وصيانتها ، وكان من شأن الحرب الكبرى أن جعلت العدد العديد من المسلمين على صلة مباشرة بالحضارة الغربية فانفتحت عيونهم على عالم جديد ما كانوا يعرفونه من قبل » .

ولم تقف المؤسسات التبشيرية وحدها في الميدان بل كان هناك من يدافع عنها في الداخل ويعارض الحملة على التبشير ويسخر منها ، فضلاً عن استمرار العمل لتقبل آراء المبشرين في مختلف جوانب الحياة الفكرية ، فقد أثار الدكتور طه حسين ضجة كبرى بإخراج كتابه في الشعر الجاهلي الذي تبين من بعد قليل أنه مجموعة من الآراء التي انتحلها من كتاب أحد المبشرين هو (جرجس سال) فقد أراد طه حسين أن يحيل آراء المبشرين إلى مصادر علمية لدراسة الأدب العربي والبحث الحديث فقد أعلن إنكار إبراهيم وإسماعيل وتكذيب القرآن والتوراة في دعوى وجودهما وزعم أن قصة إبراهيم وإسماعيل وأبوتهما للعرب أسطورة لفقها يهود جزيرة العرب لغرض سياسي واستغلها القرآن لغرض ديني .

وقد تبين أن هذه الشبهات مكتوبة بنصها في كتاب عنوانه « ذيل مقالة في الإسلام » تأليف هاشم العربي والكتاب مطبوع للمرة السادسة في مطبعة النيل المسيحية وهو من عمل بعض المبشرين الطاعنين في الإسلام » .

وقد أشار محمد محمود بدير في مقال له عام ١٩٣٢ مجلة النهضة الفكرية ، إلى مدى الترابط بين التبشير وبين حركة التغريب التي يقودها دعاة من أمثال طه حسين وسلامة موسى وعلي عبد الرازق . يقول : كانت الحركة الإلحادية ١٩٢٦ والنصف الأول ١٩٢٧ على أشد ما تكون قوة ونشاطاً ، وكانت مبادىء روسيا وجمعيات أمريكا اللاتينية تتردد على صفحات السياسة الأسبوعية ومجلة

العصور بأساليب مختلفة ، وتحدث المطلعون عن مقدار الصلة بين بعض المصريين المشتغلين بالصحافة وبين زعماء تلك الجمعيات في الخارج ، وعن الإمدادات المالية التي ترد ، حتى إذا كان النصف الأخير من عام ١٩٢٧ وقعت مقادة بين محمد محمود (رئيس حزب الأحرار) وبين رئيس تحرير السياسة (الدكتور هيكل) وكان سبب المقادة تألم أنصار الحزب من الخطة الإلحادية التي تسلكها جريدة السياسة ، على أثر ذلك بدأت الجريدة تخفف من حملتها على الأديان والتعاليم الدينية وأخذت مجلة العصور تتدهور ، وفي أوائل صيف ١٩٣١ تجددت حركة دلت بوادرها على أن القوم يعتزمون لم شعثهم وتنظيم قوامهم ، وبدأت حملات صريحة لطه حسين ومصطفى عبد الرازق وسلامة موسى ، وهي صورة أخرى للمبادىء الأساسية للجمعيات اللادينية ، وأعلنت أن التبشير شيء هين أمام حركات الإلحاد والملحدين ، ونشرت جريدة الأهرام في تلغرافاتها من نيويورك أن لجنة التحقيق في شئون البعثات التبشيرية في الشرق الأقصى قد أوصت بأن تتخلى هذه البعثات عن جهودها في حمل الناس على اعتناق النصرانية وأن تشترك مع الأديان الشرقية في مقاومة تيار الإلحاد .

وقال الكاتب : يجب ألا ننخدع بأن جمعيات التبشير ستترك جهودها ، وكل ما يمكن أن نتصوره أن هذه الجمعيات أيقنت بفشل الخطط المكشوفة التي اتبعتها في السنين الأخيرة فهي تفكر في خطط جديدة لتكون أكثر ملاءمة لتحقيق أغراضها ، وقال : إن جمعيات الإلحاد تعنى عناية كبرى بمصر وتعتقد أنها قلب الشرق ومعقل الإسلام .

وقد واجهت حركة اليقظة الأمرين : مدارس الإرساليات ومناهجها وحركة التبشير التي انبعثت منها باهتمام كبير ، ووقفت صحيفتين يوميتين على مقاومة الحملة وهما البلاغ والسياسة وتحول الدكتور هيكل من موقفه في صف التغريب إلى العمل في صف حركة اليقظة وأمضى عامين كاملين لا يتوقف يوميا عن مهاجمة التبشير وفي كشف خططه ، أما الدكتور طه حسين فقد كتب عن التبشير ساخراً تحت عنوان (هزل) ومما قاله إن الإسلام لا يضيره أن يخرج منه واحد أو اثنان ، ومضى يسخر فيقول إذا شكا المسلمون من عدوان المبشرين أظهر البرلمان شيئاً من النشاط وأظهرت الوزارة شيئاً من العناية وكتب الشيخ الأكبر إلى رئيس الوزراء !

أما الدكتور هيكل فقد ربط التبشير بخطط الاستعمار في التغريب ومن نماذج كتاباته مقالة تحت عنوان (مسألة التبشير يجب أن توقظ المسألة الإسلامية برمتها) حين قال :

إن السياسة الاستعمارية من يوم أن نزلت بلاد الإسلام جعلت أول أعمالها مناهضة التعليم الديني والخلق الإسلامي ، وصرف الناس عن تربية دينية تقوم أخلاق المسلمين ، وبذلك ضعفت المناعة الإسلامية فانفتح الباب أمام المبشرين ووجدوا أرضاً خصبة تبذر من فيها بذور الفتنة والضلال ، وإذا كانت سياسة الاستعمار ترى واجباً عليها حماية المبشرين الذين يهدمون الإسلام ،

ألا يكون من أوجب واجباتنا أن نحمي مدارسنا من سياسة التعليم التي تقضي على الروح الإسلامية في نفوس الناشئة المسلمة . وأشار الدكتور هيكل إلى ما ذكره زويمر في مؤتمر المبشرين من أن السياسة الاستعمارية قضت منذ نصف قرن على برامج التعليم في المدارس الابتدائية وأخرجت منها القرآن ومن تاريخ الإسلام ، وبذلك أخرجت ناشئة لا هي مسلمة ولا هي مسيحية ولا يهودية ناشئة مضطربة . مادية الأغراض ، لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقاً ولا تنكر باطلا .

وهذا هو الذي شاهدناه بأنفسنا من خلال نصف القرن الذي فسد فيه التعليم وأخرج ناشئة لا تصلح إلا لوظائف حكومية متخاذلة أمام ما يطلبه الأقوياء (أي الاحتلال) منفذة لجميع أغراضهم مهما خربت الأوطان وأصابت الدين والخلق .

وقال الدكتور هيكل : إن أعمال المبشرين ليست محصورة في تنصير بضعة صغار ، ذلك أنهم كما يقول مدير الجامعة الأمريكية - يراقبون سير القرآن في المدارس الإسلامية ويجدون فيه الخطر الهادم القرآن ، - الحصة هي الأساسية في مدارس الدولة ، هو الذي يرد لمصر ناشئتها ويعيد إليها دينها ، القرآن وتاريخ الإسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير ، فكل عمل نعمله لا يهم المبشرين عمر مقدار انتشار القرآن ، وتدريس القرآن وتعاليم القرآن وآداب القرآن وسياسة القرآن في المدارس الرسمية والعمومية ، ألم تروا إلى جميع المدارس الابتدائية المسيحية إنها - كما في الكنائس - تفتتح الدروس فيها بالصلاة وتختتم بها ! !

إني لأعجب لهذه الأمة الإسلامية في مصر كيف تسكت كل هذا السكوت عن إهمال تعليم القرآن والدين الإسلامي وإقامة الصلاة في المدارس ، ألم يشاهد المسلمون هذا الانحطاط العام سواء السياسي أو الاجتماعي ولا سيما الأخلاق المتفشي فيهم ، ألم يعلموا أن مصدر ذلك هو إهمالهم لهذا الإسلام وعدم تنشئة أبنائهم عليه ، الطريق سهل ، وهو عقد جمعية لكبار مفكري الأمم تضع برنامجا للتعليم الديني في المدارس حتى نستطيع أن نكون رجالا ينتشلون أمتهم بقوة العقيدة والإخلاص من جميع ضروب الانحطاط السياسي والاجتماعي والأخلاقي لينهضوا بها كما نهض آباؤهم يوم كانوا مسلمين حقيقة فرفعت أعلامهم على معظم القسم المتمدن من الكرة الأرضية » .

وقد تصدى كتاب اليقظة جميعاً لهذا الموقف ، وهاجموا الحملات التبشيرية ودعوا المسلمين إلى الانفصال عن مدارس التبشير ، ودعوا أثرياء المسلمين إلى المساهمة في إنشاء مدارس تضم أبناءهم وشكلت جماعة الدفاع عن الإسلام برئاسة الأستاذ المراغي وجعلت من أهم أهدافها :

(١) مقاومة التبشير بجميع الوسائل السلمية المشروعة التي يهدي إليها الإسلام والعلم .

(٢) تيسير معرفة الروح الاسلامي وقواعد الدين السمح ليكون المسلمون على بينة من حقيقة دينهم وفهم نظمه الاجتماعية وآدابه .

(٣) مساعدة الفقراء واليتامى والضعفاء من المسلمين وأولادهم وتنشئتهم تنشئة إسلامية صحيحة حتى يكونوا أداة صالحة فى المجتمع الإنسانى بإنشاء الملاجىء والمستشفيات ومعاهد التعليم .

٢٣ ـ اتهام الأدب العربى

كانت الدعوة التى حملها المهجرون هى أخطر الدعوات فى اتهام الأدب العربى واللغة العربية ، فقد كانت المحاولة تستهدف إخراج الأدب العربى من البلاغة القرآنية ، وإدخال عبارات توراتية بقصد تحوير جوهر الأدب ، غير أن هذه الدعوة المهجرية التى قام عليها جبران وميخائيل نعيمه قد فشلت ولم تحقق هدفاً ، وسقطت وكشفت عن تحريف الأصالة العربية الاسلامية ، وكان أسلوب المهجرين قائماً على ما حفظوه من أثر الكتاب المقدس ، ولا سيما المزامير وأسفار الجامعة ونشيد الانشاد وسفر داود .

وقد حاول إبراهيم اليازجى عندما أشرف على ترجمة التوراة أن يدخل إليها أسلوباً بليغاً من اللغة العربية غير أن دعاة التبشير والارساليات كانوا حريصين على خلق لغة ، وقد كشف جبران خليل جبران فشله فى خطاب كتبه عام ١٩١٩ إلى أميل زيدان ، وقد نشره بعد أربعة عشر عاماً من بدء كتابته (١٩٠٥) فقال (فكرى لم يشعر غير الحصرم وشبكتى ما برحت مفحورة بالماء) وقد سقطت أيضاً دعوة ميخائيل نعيمه فى تصدير كتاباته بآيات التوراة .

٢٤ ـ العروبه ذات الجذور والانفصاليه

بدأ مفهوم العروبة فى الثقافة العربية متكاملا جامعاً بين العروبة والفكر الاسلامى غير أن حركة التغريب قد استهدفت الفصل بين العروبة والاسلام وعملت على خلق (عروبة) انفصالية عن الجذور الاسلامية والقيم الاسلامية ومنذ وقت بعيد ، منذ عام ١٩٠٩ ؛ تنبه واحد من قادة اليقظة إلى هذه المحاولة هو مصطفى صادق الرافعى فربط بين القومية وبين الدعوة الاعتقادية التى تهذب الروح العربية وتجمع العرب على لغة القرآن وتطبع العقيدة الاسلامية نفسها بطابع الجنسية العربية ، لم يفصل الرافعى القومية عن المعنى الاجتماعى العام للنظام العربى الاسلامى .

وقد ارتبطت حركات المقاومة للنفوذ الاستعمارى وحركة الوطنية فى كل أقطار العروبة بالاسلام وكان مفهوم الوطنية والقومية مستمداً من قيم الفكر الاسلامى . يقول الدكتور مصطفى الحفناوى : (والذى يلاحظ على تاريخ الحركة الوطنية أن الايمان الوطنى كلما ضيقوا عليه المنافذ فى ميدان السياسة اتخذ له منفذاً فى الحركة الاسلامية لأن الاسلام عيناه العقيدة الطاهرة وهدفه الحرية المقدسة وما مبادىء مصطفى كامل إلا قبس من نور الرسالة المحمدية ، والاسلام فى الحقيقة دين ودولة ، لذلك أسس عبد الحميد سعيد وفريق من المثقفين جمعية الشبان لتكون مسرحاً يقتل الاضطرار ويحقق

الاستعمار فى شتى صوره يوماً من الأيام ، وقد نهضت الجمعيات الإسلامية المختلفة الأسماء المتفقة فى أهدافها بهذا الواجب) .

وقد أكد هذا المعنى (ويلفرد كانتول سميث) حين يقول : إن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه لن تثمر الجهود) وقد كشف قادة اليقظة الوجوه المختلفة للثقافة العربية تدليلا على أنها متسمة بروح الفكر الإسلامى .

وقد جرت مهاجمة العروبة أولا على أيدى دعاة التغريب . ثم جرى استغلال فكرة الوحدة العربية فى خلق مفهوم التفرقة العنصرية وربط فكرة القومية بتغليب جنس على جنس ومصادمة الأجناس الأخرى ، وهم يوماً بين هذه ويوماً بين تلك يدعون إلى عزل القومية العربية عن الثقافة العربية والفكر الإسلامى الذى هو فرش الفكرة العربية وكل فكرة أصيلة .

واتجه كثير من دعاة التغريب إلى اتهام العرب بالمناقص ، وقد كان توفيق الحكيم وحسين مؤنس فى مقدمة من قادوا هذه الحملة وآراء هؤلاء وغيرهم مستمدة من كتابات أرنست رينان المتعصب على العرب والمسلمين .

وذهب سلامة موسى إلى أن المصريين أمة غربية تشترك فى الأصل مع أوربا وأنه أخذ ذلك عما قاله اليوت فى كتاب عن المصريين القدماء ، ويحاول سلامة موسى أن يخلص من ذلك فى وقت الصراع بين مصر والاحتلال البريطانى على أشده ، يخلص إلى أن يقول : الخلاصة أنه ليس بيننا وبين أوربا خصومة فنحن والأوربيون ننتمى إلى أصل واحد نتفق فى المزاج النفسى والذهنى وإنما نختلف قليلا فى الأخلاق لأن أحوالنا الاقتصادية تختلف) .

وقد جرى عمل التغريب إلى تعميق الفصل بين المصريين والعرب ، فتوفيق الحكيم يهدم كل مقدمة العرب ويضع كل مجد للفراعنة ، وسلامة موسى يقول : (ليس علينا للعرب أى ولاء وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم (ويقول) يجب أن نذكر أن إدمان الدرس للعرب يشلت الأدب المصرى ويجعله شائهاً لا لون له) .

ويذكر سلامة موسى المصريين بجهود لطفى السيد الذى دعا إلى (مصر المصريين) وجهود الدكتور هيكل الذى طالب باستقلال الأدب المصرى ، ويعود إلى القول : نريد أدب مصرى وفنوناً مصرية وصحافة مصرية ، نريد أن نكتب بأسلوب مصرى - ولكن حركة اليقظة استطاعت أن تؤكد أن الإسلام سيبقى مصدراً للثقافة العربية ، من حيث أن الثقافة العربية هى إسلامية فى أصلها ولم توجد إلا بالإسلام وأن المخلصين من مسيحى العرب يعلمون حق العلم أن ثقافتهم فى أصولها هى على الأقل إسلامية . ولذلك لا يكون المسيحى العربى أن يكون قومياً وهو يعادى الإسلام ، إذ أن عدوانه تقتضى رفض الثقافة العربية .

٢٥ ـ تغريب التعليم والجامعة والتربية

كان التعليم هو الهدف الأول للتغريب وهو المنطلق الأول للبعثات التبشيرية في العالم العربي ولذلك فقد واجهت حركة اليقظة هذا الهدف بمزيد من الاهتمام فلم يتوقف قط عن الحديث عن خطر المعاهد التبشيرية والمناهج التي تتجاهل تاريخ البلاد ولغتها وتراثها، والتي تعلي من شأن أبطال الغرب وتاريخه ودوله.

ولم يقف خطر التعليم في مصر والعالم العربي على معاهد الارساليات وحدها بل إن النفوذ الاستعماري قد سيطر على التعليم منذ اليوم الأول وفي مصر خضع التعليم بعد الاحتلال البريطاني لسيطرة الانجليز الذين جعلوا من المدارس مسابك لإعداد آلات بشرية تفي بحاجات الدواوين وقد شجع الاحتلال على ثنائية التعليم بقصد خلق تمييز طبيعي بين المواطنين، وليجعل من أحدهما حاكماً والآخر محكوماً يلتمس رزقه من الفلاحة وذلك بقصد خلق طبقة أسالده . وقد أيد الأستاذ لطفي السيد هذا الاتجاه في جريدة الجريدة ودعا إليه، وواجهت حركة اليقظة هذا الاتجاه وقاومته بجهود تعليمية أهلية فأنشأ الوطنيون المدارس، وتمثلت سياسة الاحتلال التعليمية في شخص دنلوب وظل الوطنيون يقارعون الاحتلال، ونجحوا في إحلال اللغة العربية محل الانجليزية وقامت الجمعيات الخيرية بمجهودات قيمة في ميدان التعليم.

وكشف رجال اليقظة أهداف الاحتلال البريطاني من تضييق شقة التعليم وقصره على الصفوة من أبناء الأثرياء الذين يرشحون لتولي السلطة في المستقبل، وأن هذا العمل إنما يهدف إلى تركيز بقاء المحتلين وإنشاء طبقة من الموظفين البريطانيين ووضحوا مخطط الاستعمار في أنه أنفق في خلال ٢٥ سنة على التعليم ٢ مليون و ٨٠٠ ألف جنيه من مجموع ميزانية (٢٥٨ مليون جنيه) أي بنسبة ١ ٪ وكيف أغلق الاحتلال وألغى المدارس الثانوية والخاصة والعامة التي كانت موجودة قبل الاحتلال وكيف ألغى المجانية في كافة المدارس حتى يصبح التعليم عذراً على السواد الأعظم من الشعب الذي لا يستطيع أن يدفع مصروفات التعليم، بالاضافة إلى إلغاء البعثات، لولا الجهود الوطنية في بعث المصريين على نفقاتهم ورعاية الجمعيات الأهلية.

كما عارضت خطة سعد زغلول التي سار فيها وراء دنلوب والاحتلال بالتوسع في إنشاء الكتاتيب ودعم تعليم العلوم باللغة الانجليزية ورفض إحلال اللغة العربية محلها.

فضلا عما واجهت حركة اليقظة من الكشف عن هدف السياسة التعليمية البريطانية في مصر وهي نشر اللغة الانجليزية والثقافة الانجليزية وتشكيل المناهج التعليمية على نحو يوافق أغراض الاحتلال، وذلك بإزاحة اللغة العربية واللغة الفرنسية تدريجيا، وتشكيل المفاهيم التعليمية لتلائم أغراض الاحتلال.

وامتد هذا العمل خلال فترة ما بين الحربين حيث ظلت جمعية الشبان المسلمين وكتاب اليقظة يوالون إلى المطالبة بأن يكون الدين مادة أساسية وأن تصحح مفاهيم التاريخ وتحرر من الأغراض الاستعمارية التى كانت تقصر الدراسة منه على أوربا وتاريخها وتاريخ الاستعمار وتاريخ المستعمرات الأوربية .

وقد كشفت حركة اليقظة عن مخططات الاستعمار فى حرب التعليم فى الأزهر الشريف وتجميده وعزله عن التعليم العام وخلق ثنائية تعليمية أحدهما التعليم الدينى والآخر التعليم المدنى .

(ثانياً) وكذلك واجهت حركة اليقظة مخططات التعليم الأجنبى والارساليات الأجنبية ، المرتبطة بالتبشير ، وقد أكد الباحثون جميعاً كيف قوبلت هذه الارساليات من المسلمين بالإعراض التام وكيف أعرض المسلمون عن الارساليات الأجنبية ومنعوا أبناءهم من الالتحاق بها ومع ذلك فقد دعم التعليم الأجنبي نفوذه بقوة الامتيازات الأجنبية ، وكشفت حركة اليقظة عن الأخطار التى وقعت حين بذل سعيد واسماعيل جهداً كبيراً فى إرضاء الدول الأوربية وتشجيع رعاياها ، ومنها تشجيع المدارس الأجنبية ومنحها المنح والهبات وكيف أصبح التعليم الأجنبى دولة داخل الدولة توجه النشء الوجهة التى تراها وتصبغهم بالصبغة التى ترغبها دون إشراف فعلى من الدولة عليه ، وقد أدى ذلك إلى خلق طبقة ارستقراطية ثقافية تعلمت بهذه المدارس وآلت إليها أمور البلاد .

وكشفت حركة اليقظة عن الآثار التى جاءت نتيجة ذلك حيث ساهمت المدارس الأجنبية بقدر كبير فى إضعاف اللغة العربية لدى تلاميذها وهى لغة البلاد ، كما عملت على تنشئة الشباب على معرفة اللغات الأجنبية والجهل باللغة الوطنية ، وتلقين أبناء البلاد تاريخ أوربا والدول الأجنبية وامبراطورياتهم مع التنكر لتاريخ العرب والمسلمين والتاريخ المصرى .

وقد تحول هذا التعليم من الناحية الدينية إلى الناحية العلمانية ، لذلك كانت حركة اليقظة تدعو إلى وضع رقابة على هذا التعليم ولفتت نظر الوطنيين إلى الاحتراس من أخطاره ، لأنها تفسد فى تلاميذها الدين واللغة فضلا أن دراسات التاريخ والجغرافيا كانت تدرس من زوايا إستعمارية وغربية بحيث لا تحقق الشعور بالكرامة القومية ، ونتيجة لهذا التوجيه خضعت المدارس الأجنبية منذ عام ١٩٣٤ إلى نظام الامتحانات وتفتيش الدولة .

(ثالثاً) وكشف الشيخ عبد العزيز جاويش عن سر خروجه من وزارة المعارف وكيف اضطره الانجليز إلى ترك العمل بها وكان قد تعلم فى اكسفورد وعارض أنظمتهم وطالب دنلوب بأن ترسم أنظمة التعليم على النحو الذى شاهده فى انجلترا ورفض ذلك دنلوب وهزأ برأيه .

وقد تحدث أحمد شفيق باشا فى كتابه (أعمالى بعد مذكراتى) عن الجهود التى بذلت لهذا

الغرض ، وكيف دعا الثعالبي في العراق إلى توحيد الثقافة العربية ، والتخلص من الأساليب البالية التي أوهنت الروح العربية وأودت بعظمة العرب الغابرين ومزقت أعصابهم شر تمزيق وقال (أليس من الخازي أن تكون الأمة العربية هي عمدة من شطوط الأطلنطي إلى تخوم البلوخستان ، مقطعة الأوصال ، عارية من الثقافة ، ليس لها منهاج معين تتبعه ولا مبدأ تسير عليه) .

ويقول شفيق باشا أنه زار لطفي السيد (مدير الجامعة إذ ذاك) لمباحثته في ذلك ، فكان الموقف بالنص (لم أجد عنده قبولا للفكرة) .

وقد لخصت حركة اليقظة أهداف تحرير التعليم من قيد التغريب على هذا النحو :

(١) أن تكون هنالك سياسة تعليمية قومية ثابتة كما لكل أمة حية في بلادها ويكون من نتائجها أن ينشأ الناشيء براً بماضيه باحثاً عن مآثر إسلامه عارفاً بالأقربين إليه الذين تجمعهم به جامعات وثيقة كجامعة اللغة وجامعة الدين .

(٢) ليست هناك وسيلة لتربية الخلق إلا الدين ، بل الدين وحده فالعلم والفلسفة والنصائح والارشادات كلها لا تجدى في تربية النفوس وتزكية الأرواح إلا إذا استندت إلى الوازع الديني القوى السلطان العظيم الأثر .

(٣) أن يكون درس القرآن درساً أساسياً في جميع المدارس المصرية على اختلاف درجاتها فالقرآن قد أنزل لاستنباط الأحكام والاهتداء به في أمور الدنيا (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم) .

(٤) أن يكون التعليم ابن الزمان وابن المكان أى يكون عصرياً إسلامياً فإذا كان عصرياً فقط كما هي الحال في مدارسنا المدنية خرج لنا شباباً يجهلون أنفسهم ومحيطهم وكيانهم وكانوا مجاهرة لأفكار أجنبية ومقاصد أجنبية وعقائد غريبة ، وإذا كان التعليم ابن المكان فقط ولم يراع فيه معارف العصر خرج لنا شباباً جاهلين أحوال زمانهم مجردين من الأسلحة التي يقاتلهم بها أعداؤهم .

(٥) القضاء على طريقة التثقيف في العالم الإسلامي وإزالة الهوة الواسعة بين المتعلمين تعليماً مدنياً عصرياً والمتعلمين تعلماً دينياً إسلامياً ولا يكون ذلك إلا لسلخ الصبغة الأجنبية عن التعليم المدني المصري وإعطائه صبغة أخرى من لون محيطه الاسلامي تكون ملائمة لتقاليد الأمة وعقائدها ويكون فيه القسط الأوفى لإعلان مفاخرها وتنوير تاريخها وإحياء ماضيها وربط الحاضر به .

(٦) جعل مادة الدين في مدارس الدولة مادة أساسية يمتحن التلاميذ فيها .

رابعاً : وكشف السيد محب الدين الخطيب عن خطر التغريب في مجال التعليم فقال : إننا أتينا من قبل الثقافة التي تثقف بها قادة الأمة ، فالمصانع التي يتخرج منها قادتنا ليس لها غاية واحدة معينة ، وكشف كثير من كتاب اليقظة عن اتجاه السياسة الانجليزية في جعل التعليم في مصر مجرداً من الدين والأخلاق (لأن هذا هو ما تقتضي به مصلحة بريطانيا ويؤدي إلى إسقاط شعب بدين بدين غير دينها) وقال محمد علي الطاهر (أن سياسة الاحتلال البريطاني في وزارة المعارف استهدفت انتزاع الدين وروح الأدب العربي وتاريخ العرب وصلة مصر بالعرب والدين من برامج التعليم ، ثم أدخلت إلى هذه البرامج أن مصر فرعونية وأن أجداد المصريين هم فرعون وهامان ولا صلة لمصر بعدنان وقحطان (فلما شب أبناء هذا الجيل وكبروا وتولوا السيطرة الآن على المدارس وجدت الصحف من يهتم بالصين وأمريكا وألمانيا ولا يهتم بفلسطين والعراق والشام) .

وقال الأستاذ حسن أحمد عبد الرحمن البنا : إن من حقنا أن لا نسير وراء مدارس الغرب التي فصلت الدين عن برامجها ، وأن أسباب ذلك وموجباته إن توفرت في الغرب فهي معدومة عندنا وإن أخطأ الغربيون في شيء فلسنا ملزمين بتقليدهم في خطئهم .

وركز قادة اليقظة على أن الهدف من مناهج التعليم إنما يرمي إلى عزل مصر عزلة أدبية عن البلاد العربية من ناحية وعن ماضي البلاد نفسها (الماضي القريب والماضي البعيد) فإذا قرأ الطالب من الأمم الإسلامية والشرقية كانت قراءته بعقلية الأوربيين ومن وجهة نظر الأوربيين ولأغراض الأوربيين فقد نشأ المعلم المصري نشأة تجعل معرفته العالم الإسلامي معرفة خارجية عن طريق كتب أوربا وصحفها فهو يعرف الممالك الإسلامية والأقطار الشرقية من وجهة النظر الأوروبية .

وقال ساطع الحصري لقد عرف المستعمرون كيف يدسون أساليبهم تحت أستار جذابة قد تغرر على المرء أول مرة قبل أن ينفذ إلى وقائعها وقد اتجه الاستعمار إلى فكرة التعليم بغير تثقيف تعليماً ضيقاً جداً يجعل المتعلمين آلات صماء في أيدي الاستعمار ويجعل التعليم وسيلة ميكانيكية بحتة بحيث لا يدخل على هذا التعليم أي عنصر من عناصر الثقافة العامة مع نشر اللغة العامية المباعدة بين الأقطار العربية ، وقد نشروا لهذه الفكرة دعايات متنوعة ، تحت عنوان نشر التعليم بين طبقات الشعب .

وحاولت حركة اليقظة وضع مخطط كامل لتعريب التعليم وإعادة روحه الإسلامية إليه وقد جرت في ذلك محاولات عام ١٩٢٧ لتوحيد برامج التعليم في البلاد العربية ، كما عارض دعاة اليقظة الأهداف التي قصد إليها دعاة التغريب وقال السيد محب الدين الخطيب : مصر بلد إسلامي وسيبقى إسلامياً إلى الأبد مهما صبرت مصر على محركي الفتن الموجهة من الدعوة إلى الخروج على الإسلام .

(خامساً) وقد كشفت خطابات مديرى ورؤساء الكليات التبشيرية عن أهدافهم فقال اللورد لويد في احتفال كلية فكتوريا بالاسكندرية (مايو ١٩٢٦) إن هؤلاء — وهم من ثمانية أجناس ان يبقى عليهم وقت طويل حتى يتشبعوا بوجهة النظر البريطانية وبفضل العشرة الوثيقة بين المعلمين والتلاميذ فيكونوا قادرين على أن يفهموا أساليبنا ويعطفوا علينا ، وأن هذه الكلية تنمى في الطلبة من الشعور الإنجليزى ما يكون كافياً لجعلهم صلة تفاهم بين الشرق والغرب . وأن هذه المشاكل التى بين بريطانيا ومصر تحل إذا تعلم كل من الانجليز والمصريين أن ينظر إلى رأى الفريق الآخر نظراً مقروناً بالفهم والعطف ، ا . هـ .

(سادساً) وفي مجال الجامعة كشفت حركة اليقظة عن دور التغريب الذى برز من خلال دراساتها وأطروحاتها حين تقدم زكى مبارك بأطروحته عن الأخلاق عند الغزالى فهاجم هذا الإمام العظيم وجر ما جرى فيه خلف آراء بعض كتاب التغريب المتعصبين وردد آراءهم — هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كشفت دروس الدكتور طه حسين في نقد القرآن التى ألقاها على تلاميذه عن بقية المخطط حتى قال صاحب جريدة فتى العرب الدمشقية :

(أنشئت الجامعة العربية فتهلل القوم في جميع أنحاء الشرق العربى وتفاءلوا فيها خيراً وباتوا يعلقون عليها الآمال الطوال ، وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى حصحص الحق ، ووضح الصبح لذى عينين ، فتبين لهم أو كاد أن تلك الجامعة المصرية بثت الآراء الشاذة التى يريدها الاستعمار الأوربى في الشرق وأنها إنما اتخذت آلة هدامة للكيان العربى عن طريق الأدب والعلوم ، وها نحن نرى الجامعة المصرية أو بعض القائمين بأمر الجامعة يعلنون الحرب على العرب والعربية فقد اتضح لأبناء الأقطار العربية بعد الاشكال ، السبب الذى دعيت به الجامعة المصرية ولم تدع الجامعة في مصر ، وقال الكاتب إن الجامعة تقوم على الدعاية بأن مصر فرعونية بحتة ، وأن الآداب العربية واللغة العربية دخيلة ، بل محتلة بقوة الفتح والدين في الآداب المصرية واللغة الفرعونية وأن (جريدة السياسة) قد اتخذت الكتلة حربية يرابط فيها مجاهدوا القومية الفرعونية بقيادة أشخاص لا يستطيعون أن يبرهنوا على أن مصريتهم ترتفع إلى أكثر من خمسة أجداد أو عشرة .

وإذا كان غرض تركيا التخلى عن الإسلام فليس بإمكان العروبة والعربية التخلى بتلك السهولة التى صورها هيكل وسلامة موسى عن مصر العربية .

سابعاً : وجرى حديث دعاة التغريب عن أن الجامعة المصرية قد أخذت تطفىء ضياء الأزهر وتحل وجودها محله — وتقول السياسة الأسبوعية : إن الجامعة المصرية أرادت أم لم ترد . رضى القائمون بالأمر فيها وفي الدولة المصرية أم لم يرضوا صائرة لا محالة إلى حيث تحل من ناحية النفوذ خارج الحدود المصرية محل الجامع الأزهر ونفوذه الكبير في تلك العصور التى مضت ، ولم يكن الجامع الأزهر أيام ازدهاره حقاً إلا جامعة متوجة لدرجات التعليم العام في تلك العصور ولم يكن نفوذ الجامع الأزهر إلا ناشئاً من هذا الاعتبار وحده .

وقالت مجلة الفتح فى دحض هذا الرأى : إن تفوق الأزهر ناشىء عن قيامه على علوم الإسلام قياما متواصلا لم يعتوره انقطاع ونجاحه فى ذلك نجاحا لم تؤثر فيه أحداث الأزهر ولا طوارىء السياسة ولا تقلبات الأحداث ، ولا مقر الدولة ولا ضعف المسلمين ، فما نبغ نوابغ العلماء إلا فى رحابه ، ولا خرج المصلحون إلا من حلقات دروسه ، ولا يعرف المسلمون حين يهاجم الدين إلا أهل الأزهر ولا ترجع الأمة فى أمور دينها إلا لهم ، والأزهر الدين والجامعة الثقافة الجديدة ، الثقافة التى تقوم على إنكار الدين أو على تجريدها من الدين أو على عدم الحاجة إليه فالتقابل بين الأزهر والجامعة تقابل بين الشىء وضده ، و إن الجامعة المصرية لا تحل محل الأزهر ولا محل جامعات الغرب ولا ترث تفوقها بين الأمم الإسلامية » .

ثامناً : وقد وقعت الجامعة المصرية فعلا فريسة النفوذ والتغريب حين أقامت حفلا عام ١٩٢٣ بمناسبة مرور مائة سنة على ولادة الفيلسوف الفرنسى رينان الذى هاجم الإسلام والعرب بأسوأ مما هاجمها به مستشرق أو مبشر أو كاتب غربى .

كما أشارت حركة اليقظة إلى مدى الخطر الذى قصد إليه النفوذ الاستعمارى حين قصد إلى بناء الجامعة على طراز أوربى لا مصرى ولا عربى ولم يتم بناءها ببناء مسجد يقوم للطالب المصلى بتأدية الصلاة و كأنه اكراه على ترك الصلاة إكراها ، بل إن بعض الطلاب تقدموا إلى الدكتور طه حسين برجاء إقامة مصلى فرفض هذا بينما الأمر غير ذلك فى جامعات أوربا ، يقول الكاتب : ذهبت مرة إلى جامعة اكسفورد فتغديت فى إحدى كلياتها مع الطلبة فلما جلسنا على الموائد أقبل جماعة من الأساتذة إلى مائدة تسمى المائدة العالية فوقف الطلبة خاشعين فاستمعوا إلى دعاء باللاتينية ولما انتهى الطعام وقف الطلبة خاشعين فاستمعوا إلى دعاء آخر باللاتينية أيضاً وأذكر هنا أن فى جامعة (أكسفورد) تسع عشرة كلية مع كل واحدة منها كنيسة والطلبة ملزمون بالتناوب على الصلاة فى أوقات معينة ويتساءل الكاتب (هل منع هذا الإمبراطورية البريطانية من أن تسود العالم » .

تاسعاً : وقد اتجهت حركة اليقظة بالدعوة إلى أن يعرف الطلاب فى الجامعة المصرية أمور دينهم . فتقدم بعض الطلاب (مارس ١٩٢٧) إلى إدارة الجامعة أن تجعل التعليم الدينى من مناهج الدراسة فى جميع الكليات الجامعية وجاء فى المذكرة :

إن العارف بحقائق الإسلام إذا عرف بها صديقاً له فتح بذلك أمامه طريقاً من طرق المعرفة ونقله إلى أفق فسيح من آفاق العلم ، والإسلام لا ينحصر فى معرفة الأحكام ولا فى تلقين العقائد بل هو أيضاً نظام اجتماعى ورائد السعادة فى الحياة ، وكلما حل وطناً لم يكن فيه قام فى ظله شامخ العمران واتسعت به نهضة الحضارة واستقام تحت حكمه قسطاس العدل .

إن الإسلام خلق وسيرة ، والدعوة إليه بالقدوة أبلغ من الدعوة إليه بالجدل والمناظرة ومن

الواجب أن يلم في هذا الميدان بشيء من دينه القويم ، حتى لا يقضي حياته جاهلا بأصوله غافلا لقواعده وقوانينه ، بعد أن استوعب فلسفة أرسطو وأحاط بنظرات ديكارت ، ولا تأتي معرفة الدين وأصوله إلا عن طريق إدخال الدراسة الدينية ضمن منهاج الدراسة في جميع الكليات ففي الدين الوازع الأكبر للشباب في مرحلته الأخيرة ومن شديد الأسف أن تنتهي مراحل التعليم في بلد إسلامي وما يعلم الطالب منها عن أمر دينه شيئاً ولذلك يرجى :

(١) تدريس العلوم الدينية الضرورية في جميع كليات الجامعة .

(٢) أن يكون تعليم الفتاة المصرية على أساس التقوى والورع .

(٣) أن يلتزم أعضاء هيئة التدريس بإتباع قواعد دينهم .

وفي مجال الإرشاد إلى تعليم الفتاة المصرية ، عرض مشروع لدراسة خاصة للبنات في كلية الآداب وقد وصل عددهم إلى ما يقرب من المائتين قالت المذكرة :

« الفتاة المصرية في مسيس الحاجة إلى تربية الروح ، وذلك عن طريق دراسة خاصة بها لأنه مهما يكن الأمر فليس كل المواد التي تدرس في كلية الآداب تتفق ومستقبل الفتاة ، دراسة تتفق وكونهن أمهات المستقبل ، إن الاختلاط بصورته الحالية في جميع الكليات ينافي والشرع الإسلامي وأن الدراسة الخاصة بالفتاة لهي تحديد لمصيرها وخير معين على حياتها المقبلة .

عاشراً : أما بالنسبة لجامعات الإرساليات فقد كانت مقر حركة التبشير التي ثارت بشأنها عاصفة شديدة سنوات ١٩٣٢/١٩٣٣ وقد وقف « عبد القادر الحسيني » الطالب بالجامعة الأمريكية بالقاهرة في حفل تخرجه فكشف عن دور هذه الجامعات في إفساد العقائد الدينية والطعن في الدين الإسلامي .

وقدم للحاضرين الكتب التي تدرس في الجامعة والتي تفرض عليهم دراسة دين غيرهم فرضاً مع الإساءة إلى دينهم ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن جريدة المقطم شاركت في حفل حضره أساتذة إحدى الجامعات التابعة للإرساليات وألقى الدكتور فارس نمر رئيس تحرير المقطم خطبة جاء بها إنه قابل الجنرال كاترو بشأن الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان وقال إن كنت أسرعت إلى هذا الواجب فلأني من تلاميذ الجامعة (كذا) ، تلك الجامعة التي لها من الأثر الحميد في مصر والشرق ما ليس لأحد أن ينكر . وقال : على حضرات زملائي تلامذة الجامعة أن يظهروا التعاليم الوطنية القومية التي تلقوها !

٢٦- إحياء ما قبل الاسلام

الفرعونية، الأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية

عمد دعاة التغريب إلى إحياء حضارة ما قبل الإسلام في الوطن العربي كله في محاولة لحجب الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية، وقد علت في فترة ما بين الحربين الدعوة إلى الفرعونية في مصر والفينيقية في الشام والأشورية في العراق .

ونشرت المقتطف والهلال أبحاثاً عديدة في هذا الصدد، وأصدر سلامة موسى وغيره رفع لواء هذه الدعوة . وأولت هذه الصحف الدعوة إلى الفينيقية . التي بدأ المقتطف في الحديث عنها منذ ١٨٨٩ وإبراز فضلها في تعليم الناس الكتابة (وهو الخط المتداول الآن بين سائر اللغات) فهم الذين علموه اليونان في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهؤلاء نشروه في أوربا وعنه صدرت الخطوط الافرنجية كما علموه للأشوريين فيما بين البحرين وعنه صدرت الخطوط الشرقية ومن جملتها الخط العربي .

كما حملت هذه المجلات أبحاثاً من الأشوريين والكلدانيين والبابليين ولغاتهم، وقد هاجم قادة اليقظة هذه الدعوات من حيث هدفها التغريبي للضمير، وهو القضاء على الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية وتجاوزها إلى ما قبل الاسلام . وكشفوا عن أن حضارة الاسلام وفكره قد استوعبت خير ما في هذه الحضارات، فضلا عن أن هذه الحضارات ليست لها لغات حية ولا ثقافة ولا تراث يمكن الاعتماد عليه

وقد سقطت هـــذه الدعوات فعلا وتحول كثير من دعاتها إلى الدعوة الاسلامية وفي مقدمة هؤلاء الدكتور هيكل الذي عارض من بعد آراء طه حسين ومحمود عزمي وغيرهما واعترف في صراحة أنه حاول عن طريق ترجمة الفكر الغربي ثم عن طريق إحياء الفرعونية، بناء فكر مصري ولكنه فشل في كليهما ورأى أن الأرض لا تحتضن البذر ولا تنبته، وأنه بعد روية وتأمل لم يجد سبيلا لنهضة مصر والعرب غير الاسلام، ذلك الامتداد الطبيعي مع الفكر الاسلامي العميق الجذور القائم في أعماق هذه الأمة والذي طبع روحها وعقلها إلى حد لا سبيل معه إلى بعثها عن غير طريقه، بالاضافة إلى أن هذه الموجات عربية أصلا صادرة عن قلب الجزيرة .

الفصل السادس

انكسار الموجة

كانت موجة الغزو الثقافي قد دفعت بكل قواعدها بعد الحرب العالمية الأولى لتحقيق أكبر قدر ممكن من تغريب الثقافة العربية والفكر الإسلامي في ظل جو مهيأ بكل وسائل العمل لتحويل المصريين من العروبة والإسلام إلى أن يكونوا صورة مشوهة تابعة للثقافة الغربية بالانصهار والتحلل والاحتواء وكان نجاح التغريب في مصر — بحسبانها قائدة الثقافة في الأمة العربية كلها بل في العالم الإسلامي كله مصدر نجاح ضخم للنفوذ الاستعماري في المنطقة كلها بحسبان أن مصر تحمل رايات الصحافة والرأي العام والقيادة الفكرية والزعامة الثقافية .

والواقع أن الاحتلال الغربي للأمة العربية الذي استكمل حلقاته في نهاية الحرب العالمية الأولى بتقسيم المنطقة كلها بين فرنسا وبريطانيا بالإضافة إلى إيطاليا في ليبيا وأسبانيا في المنطقة الخليفية في المغرب الأقصى ، لم يكن هو الخطر الأكبر ، ذلك أن الاحتلال العسكري والسياسي عرض يزول بالقوة ولكن الخطر كان كامناً في ذلك المخطط الدقيق العميق الذي كان ينفذ تحت الجلد ولم يكن يجرى على السطح إلا قليلا وهو تحويل هذه الأمة عن مقوماتها الأساسية وسحبها بعيداً عن تراثها ولغتها وتاريخها ، وإغراقها في أتون ما أسموه (الثقافة العالمية) .

وقد اتخذ النفوذ الاستعماري لذلك طريقاً ماكراً ، ذلك هو السيطرة على التعليم والتربية والثقافة عن طريق معاهد الإرساليات والإشراف على برامج التعليم والمعاهد والجامعات والصحف والمجلات ذات النفوذ — وقد تحقق له ذلك في مصر منذ عام ١٨٨٢ فلما جاءت الحرب العالمية الأولى كان مخطط التغريب قد بلغ أوج نضجه ، خاصة بعد أن سيطرت مدرسة حزب الأمة على مقدرات السياسة والحكم والثقافة في مصر وهي التي كونها لطفي السيد وسعد زغلول منذ عام ١٩٠٧ عندما ولي سعد وزارة المعارف ولطفي السيد رئاسة تحرير الجريدة .

ومن ثم فما أن وقعت ثورة ١٩١٩ التي كانت ثمرة جهود حركة اليقظة العربية الإسلامية المتمثلة في الحزب الوطني وحزب محمد عبده ، والتي كانت امتداداً طبيعياً شارك فيه كثيرون ومضى في طريقه الطبيعي لولا أن اعترضته موجة التغريب التي اندفعت عن طريق خريجي معاهد الإرساليات في بيروت ممن جاءوا مصر فأصدروا فيها صحافة ساندتها القوى الاستعمارية وغذتها ووضعتها موضع القيادة الفكرية (سليم تقلا وجرجي زيدان وصروف ونمر ومكاريوس ومركيس وفرح أنطون وغيرهم)

ثم استطاعت أن تكسب لهذه الموجة رجلين من أكبر الرجال الذين كانوا ينتسبون الى جمال الدين ومحمد عبده هما لطفي السيد وسعد زغلول وقد بدأت الموجة بعد الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩١٩ عالية قوية تريد أن تضرب بقوة في كل مكان ، في كلية الآداب وفي جريدة السياسة وفي صحف أخرى ومن ثم عبأت الحركة بكتابين خطيرين هما : الإسلام وأصول الحكم والشعر الجاهلي . كان القصد منهما ضرب أقوى العرى الوثق للفكر الاسلامي والثقافة العربية وهي :

(١) تجزئة الاسلام والخروج به عن مفهومه المتكامل الجامع بين العقيدة والمجتمع .

(٢) تجزئة الفكر الاسلامي والثقافة العربية وفصل الأدب وتحريره من الخضوع للقيم الدينية والأخلاقية .

وكان سقوط الخلافة الاسلامية من الأحداث السياسية ذات الأهمية الكبرى ليس في موضوعها فحسب ، بل وفي دلالتها على تفرق عروة المسلمين التي كانت على ما كانت عليه من الضعف رمزاً على الوحدة والقوة . ثم جاءت موجة التبشير ومحافل الماسونية وحركة البهائيين والدعوة الصهيونية التي كسبت بوعد بلفور إقامة وطن قومي في فلسطين .

كل هذه الأحداث في خلال السنوات العشرة من انتهاء الحرب العالمية الأولى كانت عاملا هاماً من عوامل تجدد حركة اليقظة التي لم تكن توقفت خلال هذه الفترة ، والتي كانت تسير من خلال قواها ومؤسساتها الممتدة قبل الحرب ، وهي الأزهر وحزب المنار والحزب الوطني ، غير أن هذه الأحداث لم تلبث أن أمدت حركة اليقظة بقوة جديدة لمواجهة التحدي الجديد الذي بلغ ذروته ، والذي تحول من خلال أتباع الارساليات التبشيرية اللبنانية إلى العائدين من البعثات الأدبية من فرنسا في مقدمتهم طه حسين وهيكل ومحمود عزمي ومن تابعهم من خلفاء حزب الأمة وامتداده : إسماعيل مظهر وعلي عبد الرازق وسلامة موسى ومن ظهر من الأجيال الجديدة : حسين مؤنس وحسين فوزي وتوفيق الحكيم .

وكان رجال اليقظة قد أخذوا أماكنهم في صفوف الشعب نفسه وبدأ عملهم من خلال عدد كبير من الجمعيات والهيئات الاسلامية والأدبية والاجتماعية التي أخذت تظهر حثيثاً منذ عام ١٩٢٧ وتسيطر على الفكر والمجتمع كله من خلال عدد من الصحف والمجلات والكتب والمحاضرات والندوات وفي مقدمتها جمعيتي الاخوان والشبان المسلمين ونادي دار العلوم وكان الأزهر ورجاله القاسم المشترك الأعظم على هذه الأندية والجامعات والصحف . وكان من أبرز الظواهر لهذه الحركة أن شارك فيها رجال ليسوا من الأزهر ولا من علماء الدين وليسوا من مصر وكان أغلب هؤلاء قد تلقوا دراساتهم في جامعات

أوربا وأحرزوا أرقى الشهادات بعد أن درسوا آخر مقررات الفكر الغربي الحديث في مقدمتهم الدكتور محمد أحمد الغمراوي والدكتور عبد الحميد سعيد والدكتور على مظهر والدكتور الدرديرى والدكتور أحمد فؤاد بالإضافة إلى أمين الرافعي وكان أبرز هؤلاء جميعاً هو السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح وخريج جامعات استانبول في القانون والأدب .

وقد حملت الثلاثينات علامة على أمرين :

(أولا) بلوغ موجة التغريب غايتها وانكشاف مخططاتها واتهام دعاتها بموالاة النفوذ الاستعمارى الغربي .

(ثانياً) بلوغ حركة اليقظة التماسك والقدرة على الثبات في وجه التيار الذى انبعث عام ١٩٠٧ وامتد في قوة بعد الحرب العالمية الأولى .

وقد كانت الدعوات الوطنية والاجتماعية والفكرية جميعاً تبدو وكأنها وليدة ضائعة بغير شهادة ميلاد تائهة بين مناهج الثقافتين الفرنسية والسكسونية وبين فكر الديمقراطيين والرأسماليين وغيرهم ، إذ كانت تبحث خلال هذه السنوات العشرة عن جذورها وأصولها ، ثم بدا لها عن طريق الأبرار من دعاة حركة اليقظة أن لها أصولا عميقة وجذوراً راسخة وإن هذه المحاولات الجديدة للنهضة ليست إلا فروعاً لها وامتداداً .

وكان لصمود دعاة اليقظة أبعد الأثر في تحولهم من الدفاع إلى الهجوم وانكسار صرح التغريب أمامهم ، مما حمل الكثيرين من دعاة التغريب إلى الإنضمام إلى حركة اليقظة أو السير في خطها وكان في مقدمتهم منصور فهمى والدكتور هيكل وزكى مبارك ثم إسماعيل مظهر .

وتحول كثيرون من الفرعونية إلى العربية من أمثال محمود عزمى وإن بقى على آرائه الأخرى وكان من أكبر علامات انكسار الموجة أن دعاة التغريب بعد أن فشلت محاولاتهم في ربط الثقافة العربية في مصر بالفكر الغربي ، عادوا فاعترفوا بأن الثقافة المصرية عربية الأصل والجذور وأنها لا تستطيع الانفصال عن الإسلام واللغة العربية .

وقد كان من الطبيعى أن تتصل الثقافة العربية في مصر في تجددها ويقظتها بأصولها وجذورها من الفكر الإسلامى مهما طال بها المجرى في مجرى التيه ، ومهما جرت المحاولات في سبيل تغريبها أو حجب وجهها العربي الإسلامى .

غير أن من الأسباب التى عجلت بانكسار الموجة عوامل عدة أهمها :

(أولا) تحديات الغرب السياسية للأمة العربية والعالم الإسلامى وانكشاف وجهه الاستعمارى السافر في عنف من خلال مواقفه المختلفة تجاه حرية هذه الأقطار في ثورة ١٩١٩ في مصر وفي ميسلون

فى سوريا وفى ثورة عبد الكريم فى الريف المغربى وفى الهجوم الإيطالى على ليبيا وفى محاولات تجنيس المسلمين فى تونس ومراكش ودمج المسلمين فى الجزائر فى الكيان الفرنسى .

(ثانياً) انكشاف مؤامرة الاستعمار فى محاولة التبشير وفتنة المسلمين فى دينهم عن طريق المستشفيات والمدارس والجمعيات وقد برز ذلك واضحاً فى مصر عام ١٩٣٤ مما حمل كثيراً من دعاة الاندفاع وراء حضارة الغرب وفكره إلى التريث فى النظر ، بل إلى تعديل موقفهم تعديلا كلياً وفى مقدمة هؤلاء رأس المدرسة الدكتور هيكل قطب جريدة السياسة .

(ثالثاً) ظهور رسائل دراسات تحمل خططا مرسومة لتغريب الشرق ، أعدها مستشرقون يعملون فى دوائر وزارات المستعمرات وإدارات المخابرات وقد أعلنوا فى أبحاثهم صراحة ، أنهم يدرسون إلى أى مدى وصل تغريب الشرق وما هى العوامل المساعدة لإتمام هذا التغريب .

وفى خلال هذه المرحلة كانت الثقافة العربية والفكر الإسلامى يجددان قيمهما الأساسية وينفضان عنهما غبار السنين ويصححان مفاهيمهما ويواجهان ما يدفع إليهما من حصيلة الفكر الغربى وهى حصيلة مضطربة غاية الاضطراب ، بالغة الضخامة ، تحاول أن تنقل إلينا ركاما لا حد له من الأفكار والدعوات المتصارعة المتضاربة والنظريات التى طرحها عشرات من الباحثين خلال فترات طويلة وعارضها عشرات غيرهم بنظريات أخرى ، انقلت هذه النظريات إلى الثقافة العربية بمغالطة واسعة على أنها فكر أصيل راسخ وقواعد عامة وأصول ثابتة ، كما أن هذه النظريات المتضاربة قد انقلت فى جو من الهيبة والتقدير والتكريم لأصحابها من فلاسفة الغرب العمالقة حتى تكون بالغة التأثير فى النفس العربية والعقل العربى .

كل هذه الحصيلة الضخمة التى نقلها كتاب ذوو أغراض ليسوا فى الاغلب صادقى الإيمان بوطنهم وأمتهم وليسوا راغبين أساساً إلى تأصيل فكرهم العربى أو إثرائه وإنما كانوا فى الاغلب راغبين إلى طمس ماضيه كله ودفعه جملة واحدة إلى خضم عاصف تقودهم نظرة خاطئة لهم قوامها أن المصريين ليسوا عربا وليسوا شرقيين وأن العقل العربى عقل يونانى الأصل وأن مصر قطعة من أوربا .

هذه النظرة الخاطئة المضللة كانت هى الاساس الذى أقام عليه طه حسين ومحمود عزمى وسلامة موسى وغيرهم هذا الجسر الذى قذفوا به الثقافة العربية بذلك الركام الضخم المضطرب ، غير أن الفكر العربى الإسلامى وهو فى سبيل يقظته واندفاعه نحو تحرير نفسه من قيود التقليد والجمود ، وجد أنه بسبيل القدرة إلى تحرير نفسه أيضاً من قيود التقليد لأوربا وفكرها ولم تمض الاسنوات قليلة حتى استطاع أن يستصفى هذا الركام وأن يأخذ خير ما فيه وأن يرد شر ما فيه وينقصه ويدحض شبهاته ، وأن يجد من طبيعته الخصبة وأصالته العميقة الجذور قدرة على الثبات فى وجه الموجة

العاصفة . فقد كانت جذوره الصلبة قادرة دوما على أن تأخذ وترفض ، دون أن تجتاحها الرياح الهوجاء أو تفرض عليها الانحناء .

ومن ثم أخذ الفكر العربي الإسلامي ما مكنه من النهوض من أساليب البحث ومن مناهج الفكر مع احتفاظه باستقلال الذات والانفتاح على الفكر الإنساني دون جمود ، ثم لم يلبث أن اكتشف أن ما أخذه إنما كان من بضاعته الأولى التي نقلها الفكر الأوربي في أول النهضة ، وأن جذوراً كثيرة من نظريات السياسة والأخلاق والفلسفة والاجتماع والاقتصاد قد أقام أصولها الاولى رجالنا الغزالي وابن رشد وابن تيمية وابن حزم وابن خلدون .

ومن الحق أن يقال أن الفكر العربي الإسلامي لم يستسلم مطلقاً للنظرية الغربية بالرغم من بريق الصحف الضخمة والمجلات الفاخرة والأسماء ذات الدوى ، وقاومها طويلا وأعلن وجهة نظره واضحة في مختلف القضايا (العروبة والإسلام — العلم والدين ـ الشريعة والقانون ـ التربية والتعليم ـ الربا والاقتصاد) .

وأنه دحض نظرية أن المصريين من أوربا وليسوا من العرب ، وهاجم محاولة إقناعنا بأننا لسنا شرقيين ، وعارض نظرية التبعية للفكر اليوناني ومحاولة الفصل بين الدين والمجتمع ، أو إلغاء الصلة بين الإسلام والسياسة .

لقد ظل الفكر العربي دوما ، وجيلا بعد يواجه هذه النظريات ويدلى برأيه فيها عن المعارضة ولا يتقبل شيئاً تقبلا عفويا وقد أزال في نفسه بريق الغرب ، وما حاولوا إحاطته به تاريخاً وبطولات وقيما من هالة أبلت الأحداث تضليلها وكذبها ، وانكشف الغرب عن حقده للأمة العربية وقيمها وراء رغبة جشعة في إبقاء نفوذه وتأكيد وجوده من خلف الواجهات الوطنية والقومية البراقة .
وطوال فترة ما بين الحربين لم يتوقف الفكر العربي الإسلامي عن التقبل والمعارضة ، تقبل ما يراه صالحاً لنهضته وأساغته وتحويله في داخله الى قوة مجددة له ، ومعارضة قبول القيم التي تتعارض مع أسسه وقيمه ومقوماته وشخصيته ، وهو في كل هذا له وجهه السمح الباسم الذى لا يعرف الحقد أو التعصب أو الخصومة الفاجرة ، سماحة في تقبل ما يجدده دون أن يخرج عن مقوماته ، أو يتناقض مع خطوطه الاساسية دون غلو في الخصومة وكان من أكبر علامات انكسار الموجة أن ماتت الرابطة الشرقية وماتت المجلة الجديدة وماتت السياسة الاسبوعية وماتت العصور بينما استمرت مجلة الفتح ومجلة المنار ونشأت مجلة الازهر ومجلة النذير ومجلة الرسالة ومجلة النهضة الفكرية ومجلة الشبان والمجلة الإسلامية ومجلة مصر الفتاة . وبدأت موجة من الاصالة تمثلت في فكرة الطلبة الشرقيين ، والدعوة الى الوحدة العربية وبعث الحضارة الإسلامية والمصرية ذات الاصل العربي الإسلامي (دعوة أحمد حسين) وانجددت دعوات الى جامعة أمم اسلامية بدلا من الخلافة الإسلامية (دعوة الدكتور السنهوري) والترابط بين الدين والمجتمع .

وفى الثلاثينات كانت هناك أصوات ذات عمق تحاول أن تستهدف طوابع الدعوة إلى التجديد التى اجتاحت كل جوانب الفكر والثقافة وحاولت أن تصور كل ماعداها بصورة رجعية فترى فتى العرب الدمشقية (يناير ١٩٣٠) تحاول أن تكشف الخافية الخطيرة التى ظل كثير من مثقفينا فى غفلة عنها إلى وقت قريب . تقول :

« لا يهدد الاستعمار الأوربى العسكرى وحده سلامة الشرق وسلامة شعوبه ، بل إن هناك استعماراً آخر أصحابه يلوحون به فى وجوه الشرقيين عامة ، وفى وجوه المسلمين خاصة ، وقد بنى هذا الاستعمار الجديد على الدعاية عن طريق الكتب ، ولعل أشد ما نحزن له هو أنه بدأ زحف أوربة الفكرى يمتد إلى أوساطنا وأن يحدث فيها أثره وتأثيره ثم لا نستطيع دفعه وصده .

إن الغاية من الزحف الفكرى ليست موجهة إلى الفصل بين الشعوب الشرقية فى حاضرها بل هو الغرض من توسع نطاق هذا الزحف أن يفصل بين الشعوب وبين الماضى ، ولأن أشد ما تخافه أوربا المستعمرة هو فقد الماضى الذى أخذ يستفيق فى صدر الهند والصين وفى قلب جزيرة العرب .

وقدرت فتى العرب أن عملية الفصل تقوم على مرحلتين :

(١) بين كل قطر وآخر . (٢) بين الماضى والحاضر .

وكانت إنه من شر ما هوجمنا به فى كياننا القومى والوطنى لأن الإسلام هو العاصم الأكبر لهذا الشرق ، من أن ثم فيه إدارة الاستعمار الغربى وكل وهن يلحق الإسلام فى الشرق فإنما هو خسران على الشرق وخطوات يخطوها الغرب نحو أغراضه الكبرى .

ثم ظهرت مقالات متعددة تكشف عن هذا التحول حتى قالت مجلة الفتح (٢٧ فبراير ١٩٣٠) .

هل نحن على أبواب عهد جديد وهل شعرت الصحف الإسلامية فى مصر تقوم بالواجب الذى عليها وكانت الموضوعات على هذا النحو فى الهلال والسياسة الأسبوعية وغيرها .

« الامبراطورية العربية وهل تتحقق . هل يتاح الشرق أن يستعيد مجده ، أيهما يقوم : الشرقية أم العربية ، تغلب على العلم المذهب المادى .

ثم جرت الأبحاث حول مراجعة لأعمال المصلحين : دور الشيخ محمد عبده ، مصطفى كامل ، جمال الدين الأفغانى ، مفهوم الفنون الرفيعة وهل لنا مثل أعلى عربى .

وظهرت علامات أخرى لها أهميتها : ففي حديقة يلدز (بالقاهرة) تجمع عدد من المفكرين والصحفيين ودار حديث سجله محمد محمود بدر ، قال فيه الدكتور منصور فهمي :

على سادتي علماء الازهر أن يكونوا قدوة الناس بسيرهم وحينئذ يحسنون إلى الإسلام مالا يحسنون إليه بالكلام .

وانبرى له الشيخ على محفوظ فقال : إن المسئولية موزعة بيننا جميعاً ، لأن أبناء الأمة أمانة تحت أيدينا نحن الأزهريين في الأزهر ، وتحت أيدى الدكتور منصور فهمي وزملائه من مدرسى الجامعة المصرية ، وعقول الأمة ورأيها العام . أمانة تحت أسنة أقلام الصحفيين والمؤلفين في كل ما يكتبونه ، لينشر على الناس ويؤثر في عقولهم وقلوبهم ، أن الإسلام ليس فيه رئاسة دينية ، وكل أبنائه عند الله سواء لا فرق بين أحدهم والآخر إلا بالعمل الصالح ، فتطهير نفوس أبنائنا من أدران العداء للإسلام ليس من وظيفة على محفوظ وحده بل من وظيفة منصور فهمي أيضاً ، أنتم يا دكتور أصحاب التأثير اليوم في عقول الناس ، أما نحن فعندنا بضاعة ولكن ليس لها مشترون ، وبنسبة إقبال الناس على ما عندكم وبنسبة استعداد الناس للتأثير بأفوالكم ، على نسبة ذلك ستكون مسئوليتكم .

ويمكن القول أن أهم عوامل انكسار موجة التغريب تتمثل في عدة نقاط :

أولا : فقدان الثقة بكثير من أدب الغرب وقيمه الحضارية مما أدى إلى تحول بعض زعماء التغريب إلى المنابع الإسلامية بعد أن فقدوا الثقة في أن أدب الغرب أو الفرعونية يستطيع أن يجدد الثقافة العربية

ثانياً : جدد المحافظون ووسعوا آفاقهم ، ورجع المجددون إلى القديم وظهر تيار وسط يجمع بين خصائص الاتجاهين ، وقد صور هذا هاملتون جيب حين قال : إن الطرفين من المحافظين والمجددين يتباعدان وبينهما جماعة وسطى تواجه عملية اختبار دائم ينتشر في المسائل الفنية والأدبية .

وقد تمثل مفهوم التجديد في المنهج الذى رسمه مصطفى صادق الرافعي حين قال : إن التجديد في الأدب إنما كان بطريقتين :

(١) إبداع الأديب آثار فكره بما يخلق من الصور الجديدة .

(٢) إبداع في آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة ، ولا تجديد إلا من ثم فلا جديد إلا مع القديم .

ثالثاً : اعتدل بعض المنحرفين (هيكل ، منصور فهمي ، زكي مبارك ، عباس العقاد) وتألق

المثقفون القادمون من أوربا والمتعلمون فى الغرب (يحيى الدرديرى ، الغمراوى على مظهر) وظهر شباب جديد من مدرسة الفتح والشبان المسلمين (عبد المنعم خلاف ، شاكر ، أبو الفضل إبراهيم) .

رابعاً : غلبة الدعوة إلى قيام الأدب الجديد على الأرض العربية الإسلامية فى الفكر .

(٢)

الانتقاض على تيار الغرب

كان من أبرز الظواهر التى نمت تحت الرماد طويلا ثم ظهرت خافتة أول أمرها ثم نمت نمواً واضحاً هى ظاهرة انتقاض دعاة التغريب على مفاهيمهم وتحولهم تحت ضغط عوامل شتى إلى لواء حركة اليقظة ، على نحو أو آخر وإن لم يكن هذا التحول محققاً لتفهمهم الحقيقى لمفاهيم اليقظة واعتناقهم لها ولكنهم على أى حال وقفوا موقف النبذ والتنكر لتيارهم القديم معادين إياه كاشفين ما تورطوا فيه من خطأ ، مدفوعين إلى المظلة الإسلامية الواقية وقد شمل هذا الانتقاض عدداً كبيراً من الكتاب والمفكرين فى مقدمتهم اسماعيل مظهر ، وزكى مبارك ومنصور فهمى وكان على رأس حركة الانتقاض الدكتور هيكل رأس مدرسة التغريب منذ ١٩٢٢ إلى ١٩٣٥ الذى كان أول من كشف عن مخططات التغريب فى مقال خطير نشره فى السياسة نفسها التى حملت دعوة التغريب فى ١٩ يوليه ١٩٢٣ تحت عنوان :

(تغريب الشرق) : وهل تعتبر حركة التبشير بعضاً منه ـ قال :

تحدث مستر جب فى مقدمة كتاب (وجهة الإسلام) عن تغريب الشرق وما عنى به هو إبدال الشرق فى نظمه وقوانينه وطرائق العيش فيه نظما وقوانين غربية وطريقة عيش غربية بحتة وقال : إذا كان هذا التبشير يقصد به إلى تغريب الشرق ليصبح غربياً بالفعل ، غربياً عوائد ونظاماً وعقائد وديناً (١) فتغريب الشرق إنما يقصد به إلى قطع صلة الشرق بماضيه جهد المستطاع فى كل ناحية من النواحى : صلة الفكر والعقيدة بين الماضى والحاضر (٢) صبغ ماضى الشرق بلون قاتم مظلم يرغب عنه أهله ويرون فيه عاراً عليهم (٣) يكون أهل الشرق عيالا على الغرب يتطلعون إليه فى إعجاب وتقديس وعبادة ويرى فى خضوعهما له شرفاً كبيراً .

وقد بذلت الهمم الكبيرة فى هذا المجال وما تزال تبذل :

وقال : أحسب كتاب الغرب قد نجحوا الى حد كبير فى تصوير تاريخ أمم الشرق بلون قاتم جعل أبناء الشرق أنفسهم يحسبون أن بينهم وبين أيام مجدهم ألوفاً من السنين انقضت كانوا أثناءها

خاضعين لآثار من الذلة لا يستطيعون اليوم معها أن يشعروا شعوراً صحيحاً بمعنى الحرية أو بمعنى العزة القومية .

هذا التصوير زائف فى نظر التاريخ المنصف .

وقد أشار الدكتور هيكل إلى عمل التغريب فى (تزييف تاريخ الشرق) لقطع صلة حاضرنا بماضينا فى التاريخ وفى العلم وفى الثقافة ، وقال إنه أمكن هتك زيف الصورة التى وضعها ساسة الغرب لتاريخ الشرق لتدخل فى روع الشرقيين أنهم كانوا طوال القرون أذلة محكومين فلا مفر لهم من أن يبقوا اليوم وغداً .

وقال إن عمل التغريب الآخر هو (تزييف العقيدة الإسلامية) وقد وكل إلى المبشرين أن يقوموا بهذه المهمة الخطيرة ، وأن يحملوا المسلمين على الاعتقاد بأنها سبب تأخرهم وعدم بلوغهم مبلغ الغرب فى حضارته ، وقال : إنه عندما تم الصلح بين الحكومة الإيطالية وبين الفاتيكان وأبرمت معاهدة (لتران) وردت إلى الفاتيكان الأموال التى كانت الحكومة الإيطالية قد حجزتها منذ ١٨٧٠ كان أول ما عمله الفاتيكان أن أرصد عدة ملايين للتبشير فى الشرق الأدنى ، وأشار إلى فرنسا التى تحارب رجال الدين فى بلادها أشد الحرب ، تؤازر المبشرين فى الشرق وتمدهم بالمال وترعاهم بالحماية ، وقال إن التبشير بعض هذا التغريب لقضاء على الشرق ليظل خاضعاً للسياسة الاستعمارية .

وأعاد إلى الأذهان ما حدث فى مؤتمر المبشرين ١٩٢٧ الذى عقد فى جبل الزيتون من أعمال فلسطين ، هذا المؤتمر الذى حضره مندوبون من أربعين دولة من الدول الغربية ، وأشيع أنهم يعدون حملة صليبية إلى جنوب بلاد العرب ، وفى هذا المؤتمر أعلن (زويمر) كبير المبشرين خطته الخطيرة التى تصور مدى تحول التبشير إلى التغريب قال :

إن التبشير قد وصل إلى أسمى غاياته فى مهاجمة الإسلام . أدى المهمة على أكمل وجه وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية ، ليس غرض التبشير المسيحى وسياسته إزاء الإسلام ، هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين . إن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ، والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة المسيحيين على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التى ترمى إليها هى إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون ملحداً أو مفتوناً فى دينه وعندئذ لا يكون مسلماً أى يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا اسم أحد ، والملحد هو أول ما يحتقر الإسلام والمسلمين ، وهذه هى أسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية .

وقال زويمر : لقد قضينا على برامج التعليم فى الأفكار الإسلامية منذ خمسين عاماً فأخرجنا منها

القرآن وتاريخ الإسلام ، ومن لم أخرجنا الشباب المسلمين من الوسائط التي تخلق فيهم العقيدة الوطنية والاخلاص والرجولة والدفاع عن الحق ، والواقع أن القضاء على الإسلام في مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا أعظم الثمرات المرجوة منه ».

وأشار الدكتور هيكل إلى أن هذا هو منطلق التغريب : وهو الخطر الذي يواجه البلاد العربية والعالم الإسلامي على صفحات جريدة السياسة التي حملت لواء التغريب نفسه عشر سنوات كاملة صال خلالها طه حسين ومحمود عزمي وعلى عبد الرازق وجالوا .

ويصور الدكتور هيكل تحوله من معسكر التغريب وهو أحد الذين ربوا فيه على يد هاله (لطفي السيد في الجريدة منذ عام ١٩٠٧ ، فيقول :

لقد خيل إلى زمنا كما يزال يخيل إلى أصحابي (يقصد طه حسين ومحمود عزمي) أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي في أننا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما استطيع نقله ، ولكني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية ورأى أن ما في الغرب فيها غير صالح لأن ننقله ، فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته ، خضع الغرب التفكير الكنسي على ما أقرته (البابوية) المسيحية منذ عهدها الأول ، وبقى الشرق بريئاً من الخضوع لهذا التفكير ، بل حوربت المذاهب الإسلامية التي أرادت أن تقيم في العالم الإسلامي نظاماً كنسياً أشد الحرب ، فلم تقم لها فيه قائمة أبداً ، بذلك بقى الشرق مطهراً من الأسباب التي أدت إلى اضطراب الغرب الروحي ، وإلى ثوراته السياسية التي انبعثت عن هذا الاضطراب وبقى المسيحيون المقيمون بالشرق إلى جوار المسلمين في طمأنينة ، لا يصلون من نيران الثورات والحروب الأهلية ما يصلاه إخوانهم في الغرب ، كان الخروج على الكنيسة المسيحية في الغرب إعلانا للثورة على السلطان ، وكانت الثقافة الروحية لذلك في قبضة رجال الدين يبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه وينقضون ما يشاءون نقضه ، أما والإسلام لا يعرف الكنيسة وأقرب الناس فيه إلى الله أتقاهم ، ولا فضل فيه لعربي على عجمى إلا بالتقوى ، فقد بقيت الثقافة الروحية في الشرق حرة طليقة لم تتقيد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب . لم تعرف عصور الازدهار الإسلامي قيداً لحرية الفكر ما كان يرىء القصد يبتغي برأيه سبيل الحق ، ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله . كيف نستطيع إذن أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لتنهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟

لا مفر إذن أن نلتمس في تاريخنا . وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيي منها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا . هذا كلام واضح بين ومن عجيب أن يخفى على أصحابي فلا يروه ، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم علي ، ولكن لا عجب ، فقد خفي علي زمنا .

وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً . لكننى أدركت بعد لأى أنى أضع البذر فى غير منبته فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه ، والتمست فى تاريخنا الوحيد فى عهد الفراعين موئلا لوحى هذا العصر ، ينشىء فيه نشأة جديدة فإذا الزمان وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة ، فرأيت أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ، وقد بدأ التحول يسيطر على هيكل وينتزع منه إيمانه بالغرب وينثر فيه الشكوك منذ وقت بعيد :

يقول هيكل : (كنت عظيم الثقة بالعلم وبالطريقة العلمية الغربية فيما ستؤدى إليه من معرفة حقيقة الكون التى هى ملاك السعادة ، ثم تمخضت الحرب عن حقيقة بلغت قوتها عند سنة ١٩٢٠ وهى فقدان الثقة بالغرب وأدركت أنه يعانى من أزمة روحية يلتمس علاجها فى فلسفة الهند ، وإلى جانب هذه الحقيقة لاحظت فى اتجاه السياسة الأوربية ظاهرة غريبة تلك هى نشاط التبشير المسيحى فى الأمة الإسلامية وتأييد السياسة الغربية فى ذلك الوقت لانتصار الجمود الإسلامى) .

إن هيكل يرى أن الشباب الذى ذهب إلى أوربا واقتنع بالأمانة له قد استطاعت الحقائق أن تكشف أمامه الأفق وتنير أعماق نفسه فيؤمن بما كانت تراه حركة اليقظة من حقيقة هدف الاستعمار والتغريب . يقول : إن الشباب المصرى الذين كانوا رسل الحضارة الغربية إيماناً منهم بأنها سبيل نهضتهم قد تفتحت أعينهم على كيد الغرب لهم وإن غضبوا لإسلامهم الذى تريد الدول المسيحية أن تمحوه وجعل كل منهم يفكر فى وسيلة للخلاص من الغرب فاتجه فريق منهم إلى الرابطة الشرقية واتجه آخرون إلى الجامعة العربية وفكر ثالث فى إحياء الخلافة الإسلامية ، ورأى فريق رابع أن يحارب الاستعمار الغربى بأسلحته فتمسك بمبدأ القومية) .

هذا بالنسبة للدكتور هيكل ، أما الدكتور زكى مبارك فقد انكشف له الأفق وهو ما زال فى باريس وقبل أن يحرز إجازة الدكتوراه من جامعة السربون وفى مقال له أرسله من فرنسا إلى جريدة المساء فى القاهرة يقول :

(إن الفرنسيين يريدون أن يختصروا الطريق ، هم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام وسبيلهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الأطفال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت فى عداد اللغات الميتة ، وأن الإسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدنية جديدة ، وأنه لا يليق بالرجل المصرى أن يكون متديناً ، لأن الديانات لم تكن إلا لهداية الرعاع . ويقول : ومن الحزن أن الدعايات يقوم بها أناس كنا نظنهم من أهل المروءة والشرف فإنى أفهم أن يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة ولكنى لا أفهم كيف يتفق لرجل أمضى خمسين عاماً فى التعرف إلى اللغة العربية والإسلام

أن يوهم أن العرب لا تستطيع وعى العلوم الحديثة ولا يمكن أن تنشر بها العلوم الحديثة ، وهم يقولون ذلك حرصاً على منفعة أتباعهم فى المستعمرات الفرنسية فيما يزعمون ، ولكن الغرض المستور هو القضاء على التقاليد العربية والإسلامية ليخلو الجو لفئة المستعمرين الأحرار وأنصار العلم والإنسانية)

يقول فيليكس فارس ربيب الثقافة الفرنسية :

إن هذه الشعوب المنتشرة فى الشرق العربى فطرة واحدة كونتها القيم والتقاليد والبيان ، فهى تنشد مثلا عليا للحياة تتوافق وحوافزها المستقرة فى أساليب تفكيرها ، لذلك كان لزاماً على هذه الشعوب أن تتجه إلى جامعة واحدة إن علماء المصلحين قد قضوا على سخافات الجاهلية وعادات الفرس ولكن ضلالات روما وتقاليد الغرب الحديثة التى يبكى لها عقلاء الغرب ومصلحوه لم تزل تهاجم الفئة المخدوعة بنظم الاجتماع نافية أو متناسية غرائزها الشرقية وما فى كتابها من روائع الطهر وآيات العفاف ، فالثقافة الشرقية العربية هى العقل الباطن لأمم هذا الشرق العربى وهى اللوح الذى سطرت عليه مبادئه) .

وإسماعيل مظهر صاحب مجلة (العصفور) التى حملت لواء التغريب سنوات طويلة يقول تحت عنوان (مجد العرب والإسلام) .

كنا منائر الأرض وحماة الحضارة والثقافة والمعرفة ، ثم نمنا واستيقظ الزمان ورحنا فى سبات وعجلة الدهر من حولنا تدور .

وقال إن (درابر) أعطاه شحنة فى كتابه (نماء أوربا العقلى) فكشف له فضل العرب والإسلام وقال : لما ابتدت قبضة العرب فى بلاد الأندلس بادروا إلى العمل على نشر العلم والحضارة وقد نقلوا إلى الغرب كل المبادىء التى قامت عليها حضارتهم فى آسيا ، وكان أول ما التفتوا إلى نشر المعرفة وإظلالها بحمايتهم .

ويقول الدكتور محمود عزمى : أكبر دعاة الفرعونية فى مصر : لما وضعت الحرب (العالمية الأولى) أوزارها وجاء وقت التفكير فى سن قانون خاص للجنسية المصرية ، كنت أنا من أشد المتمسكين بفكرة الفرعونية (المقدسة) عرضت الموضوع فى مقالات عدة ناديت فيها بضرورة إغلاق باب التجنس إغلاقاً محكما فى وجه العثمانيين القدماء ، وكنت أذهب فى ذلك الصدد إلى حد المطالبة تنفيذ شرط التوطن فى مصر خمس عشرة سنة قبل التاريخ الذى دخلت فيه الدولة العثمانية الحرب العالمية أى أنه يجب على السورى الذى يريد أن يتجنس الآن بالجنسية المصرية أن يكون قد مضى فى مصر مقيماً مستوطناً تسعاً وعشرين سنة ، وقد حدث بعد ذلك أن وقعت واقعة حرب الشام فكان أننى أوفدت إلى دمشق مندوباً من قبل جريدة السياسة ، هناك عرفت شعباً لا ينطبق عليه شىء مما كان ذاع فى مصر عن السوريين ، وعرفت عواطف ومواقف لا تتفق مع الصورة التى كانوا

يصورون أنا السوريون عليها ، رأيت شعباً كريماً وأفراداً خفيفي الروح والظل ، كما رأيت افتخاراً بأصل لا يريدون تقطيع أوصاله ووطنية مندفعة إلى التضحية ، ورأيت أناساً يذكرون مصر ويعرفون المصريين سفراءهم وخطباءهم وكتابهم ، كما يعرفون زعماءهم وسياسييهم وعلماءهم واجتماعييهم ويحفظون لكل واحد فيهم قليل مما أنتج ، بل يعرفون دقائق نكاتهم وعباراتهم التي التزموها عادة ، ورأيت كتلة تعنى بأمور مصر عنايتها بأمورها القومية الخاصة .

إذن عرفت أن سوريا وشعبها غير ما أرادت بعض المصادر أن يعرفهما المصريون به ولمست الفارق الواسع بين تلك العقائد التي تقوم على الأوهام وتلك الآراء التي تقوم على الواقع ، وعدت إلى مصر واستأنفت عملي ورجعت إلى موضوع الجنسية المصرية فعالجته على عكس ما كنت أعالجه قبل أن أذهب إلى دمشق وكان الفضل في ذلك كله لجريدة الشورى التي اعتبروها بحق أول صحيفة أنشأها في مصر شامي أي إلا يعتبر صحيفة شامية عربية لا تتدخل في الشئون المصرية إلا من حيث علاقتها بفكرة الربط العام بين البلاد التي تتكلم العربية ، وكان لجريدة الشورى موقف خالد في حفل تكريم شوقي ، إذ كانت هي واسطة الارتباط بين المؤتمر العربي الذي أقيم في القاهرة وبين عرب الهند وأهل اليمن وخليج فارس وفلسطين ويزيد من هذا القدر إجلالا ما يذكرون من أن دول الفتح والاستعمار قد تضافرت على منع الشورى من دخول تلك البلاد التي وجدت الربط بينها لجاء زمن كانت تصادر فيه من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي ومن الآستانة إلى المحيط الهندي)

وقد كان من النتيجة هذا التحول أن عرض محمود عزمي للوحدة العربية ودرس وسائل الترابط العربي في المجالات الاقتصادية والسياسية . ولم يلبث أن عرض لرأيه في الرابطة التي تقوم بين الشعوب أهي شرقية أم إسلامية أم عربية ، فقال إن الرابطة الشرقية لا يمكن تحديدها علمياً ولا أن يعرفها بالتالي تعريفاً اجتماعياً ، فليس هناك خط معين يحدد الفواصل بين الشرق والغرب .

وبالنسبة للرابطة الإسلامية يقول :

إن الرابطة الإسلامية تستند على حادث اجتماعي ثابت وإلى فلسفة عمرانية مقررة وإلى منشئات قائمة تنطق بأن النظرية قد تغلغلت في النفوس تغلغلا ، وأنها ربطت بالفعل بين أمم وشعوب ربطاً وأنها وجدت بينها توحيداً ، ويظل الإسلام زمناً طويلا رمزاً لروح خاص وعقلية خاصة وحضارة خاصة ، وأن تكون رابطته رابطة متينة قوية لا تقوى عليها إلا رابطة تستند إلى اعتبار أشد يدفعه تيار جارف .

ويقول : كانت العوامل الدينية في بلادنا إلى سنوات معدودة هي أشد العوامل فعلا في التكييف الاجتماعي والمصير العمراني ، غير أن الاعتبارات الحديثة والنهوض القومي كان من شأنها أن ترجع بالإحساس الديني إلى الصف الثاني لتكيف به علاقة الإنسان بربه (ولا شك أن هذه مغالطة فليس الإسلام ديناً (لاهوتياً) كما يتصور التغريبيون وإنما هو منهج حياة ونظام مجتمع) .

ويقول : إنه لا بد من التمييز بين العقيدة الدينية والفلسفة الدينية أي بين الإسلام والإسلامية ذلك أن الإسلام عقيدة إنما هو غير اختصاص العاملين للنهضات القومية (سياسية واقتصادية واجتماعية) أما الإسلامية وهي ناحية النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الإسلام فإنما هي (مبدأ) يخضع له جميع العاملين في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بلادنا مهما كانت عقيدتهم عقيدة المسلمين أو المسيحيين أو اليهود أو الملحدين ، ذلك لأن بلادنا قد غمرتها (الإسلامية) بالمعنى الذي نفهمه . ذلك بأن أي مصلح أو راغب في سبيل الإصلاح يجب عليه أن يعتبر الأمر الواقع وأن يعتبر التطور التاريخي ، وأن يستند في إصلاحه إلى اعتبار هذا التطور التاريخي ولكن الداعين إلى الإسلامية ورابطتها لا يفهمونها على هذا النحو الذي نفهمه ، وإنما يفهمونها على النحو الشامل الجامع بين العقيدة والنظام الاجتماعي ، وهم يرونها رابطة بين المسلمين لا رابطة بين الإسلاميين الذين يضمون في نظري المسلمين واليهود والمسيحيين والملحدين في البلاد التي انتشرت فيها تعاليم الإسلام وأصول حكمه وقواعد أنظمته الاقتصادية والاجتماعية » .

ثم خلص من ذلك إلى أن « العربية » هي أمتن الروابط التي تقوم بها مساعينا في سبيل التكييف الجديد المتمشي مع حوادث العصر الحديث وعنده أنه بهذه الكتلة المتصلة بين المحيط الأطلنطي إلى الخليج الفارسي تقوم ثقافة اللغة العربية ، حيث الحضارة الغالبة هي الحضارة الاسلامية بأخلاقها في الحياة اليومية وفي السلوك الاجتماعي ، وهكذا نرى أن أقطاب التغريب قد تحولوا عن موقفهم ، ولم يعودوا دعاة الحضارة الغربية والفكر الغربي ، وأنهم اقتربوا كثيراً من الدائرة المرنة « دائرة اليقظة » ، وكسروا هذا القيد ، وحطموا هذه الموجة العالية ، ومع كل التقدم الذي لا حظناه فإنه يجب النظر إلى تطورهم بشيء كبير من التحفظ ، من ناحية واحدة . تلك هي أنهم لم يؤمنوا إيماناً كاملا بمفهوم الاسلام والثقافة العربية على هذا النحو المتكامل الأصيل الذي يمثل (جوهر الاسلام) .

وربما كان لهذا التحول عوامل سياسية ، ومن وحي النفوذ الغربي الذي كان يحاول ضرب الحركات الماركسية والرأسمالية بالدعوة الاسلامية وهو ما ظهر بوضوح في المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، وربما كان هذا التحول هو تحقيق لما يسميه التغريب (البديل) اللامع المثير الذي يحمل نفس الصورة ، والذي يحاول السيطرة بدلا من (الأصيل) أي أن تتحول حركة التغريب إلى السيطرة على مظاهر حركة اليقظة وذلك حتى تحتويها وتفسد خططها ، وذلك ما كشفت عنه الأحداث في أواخر هذه المرحلة عندما ثارت ثائرة مجلس الشيوخ على طـه حسين ودافع عنه العقاد وعلى عبد الرازق أو عندما ولى الدكتور هيكل وزارة المعارف فسار بها على النحو الذي فرضه النفوذ الاستعماري ولم يستطيع أن يحقق شيئاً مما انتقده هو أو عارضه خلال اشتغاله بالصحافة .

• • •

(٣)

النتائج التى حققتها إنكسار الموجة

أولا : فى مجال الثقافة

الدعوة إلى ثقافة عربية إسلامية

كان أبرز ما حققته حركة اليقظة فى مرحلة انكسار الموجة : الدعوة إلى اتخاذ ثقافة عربية إسلامية ، وهى دعوة حمل لواءها عدد من المثقفين الأصلاء الذين تعلموا فى أوربا أمثال : منصور فهمى ، لطفى جمعة ، قدرى حافظ طوقان وقد صور هذا المنهج الدكتور منصور فهمى فقال : أدعوا إلى نبذ الثقافة الأوربية والرجوع بعقلنا المفكر وقلبنا الشاعر إلى أنفسنا وتاريخنا نستمد منه أصول ثقافتنا الأولية لمادة إنتاجنا ، وقال إنه كانت هناك دعوة التحرر من الجمود فى الدين وعدم الوقوف عند النصوص الجامدة وإتاحة المجال للعقول ، ودعوة التجديد فى الأدب : تجديد المقاييس والأساليب ولكننا بعد سنوات اليوم نريد أن نراجع موقفنا لكى نخرج بنتيجة دقيقة .

كانت دعوتنا إلى التجديد فى الدين وقد وصلنا اليوم إلى ترك الدين ودعوتنا إلى السفور وقد وصلنا اليوم إلى الإباحية، والسر فيما نحن فيه من تناقض وابتعاد عن النهج هو الاسراف المتغالى دون احتياط فى عبادة أوربا وكل ما تصدره لنا من أزياء الفكر . لقد نسينا أمامها أنفسنا وبعدنا معها عن غايتنا وفقدنا الهدف الذى نسير إليه ، وأصبح مثلنا من الغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس فلم يفلح ونسى مشيته الأولى .

وقال إن الدعوة إلى إيجاد ثقافة عربية إسلامية هى الدعوة للنظر فى أنفسنا ، للنظر فى حاضرنا وماضينا والأخذ بهما والبناء عليهما ، وقد أنجبت البيئة الشرقية كل ديانات العالم وأعظم فلسفاته ولم تتوقف عن الأخذ من الحضارات فى أرقى صورها .

وقال : نحن نمتاز على أوربا بشىء جديد لن تستطيعه أوربا وهو فى طوقنا هو العناية بالروح بهذه الأسرار التى تكمن فيها .

وقال : أدعو إلى ثقافة شرقية عربية إسلامية فلا نكون عالة على الغرب ولا نقلده تقليداً أعمى .

وقال لطفى جمعة : انتقد الشبان الذين يسافرون إلى أوربا بطلب العلم فإذا عادوا أضاعوا شخصياتهم ويرى أن السبب فى ذلك هو التعلق بالقشور دون اللباب وعدم أخذهم من العلم بنصيب

وافر . أما أمر الاوربيين فعلى العكس فإذا قدم واحد منهم إلى الشرق وقضت عليه الظروف أن يقيم مدة طويلة فى ربوعه يندمج فى أهله فلا يتردد ، ومنهم من يدخل الإسلام ويتعلم لغة القرآن على أنه متى عاد لبلاده الأصلية نزع ذلك الثوب الذى كان يلبسه فى ديار الغربة وعاد إلى ما كان عليه من قبل .

ويتفرع من هذه القاعدة إهمالنا لتاريخنا ورجالنا وأبطالنا فإنك تجد الاحتلال الأجنبى بمصر قد أقام لكل جندى ، وضابط قتل من رجاله قبراً فخماً من المرمر . أما المصريون ألفا الذين سقطوا فى التل الكبير فليس هناك من يذكرهم أو ما يدل عليهم حتى ولا خشبة . إنى أدعو إلى إحياء التاريخ القومى وتنظيم برامج التعليم على أساس جديد وقال يجب وضع ثقافة عربية مستقلة جامعة بين الماضى والحاضر » .

ومن آثار الانكسار الموجة أن استيقظت الدولة فى مجال التذكير بفضل العرب على الحضارة الغربية بعد أن كان هذا الأمر منكوراً مهملا ضائعاً :

فقد تحدث قدرى حافظ طوقان عن بعث الثقافة العربية من ناحية أخرى : هو فضل العرب على المدنية واختراعاتها . وقال إن مجد المستقبل لا يمكن أن يتركز إلا على حضارة الماضى (ولقد عرف الافرنج قبل غيرهم أن إحياء تراث الأمة عامل مهم فى نجاح الحركات القومية والوطنية وإن تعريف الناشئة بجهود علمائهم الفكرية لمما يخلق فيهم روح الإيمان بالقابلية والاعتقاد بالعبقرية والشعور بالعزة والقوة .

ويقول : من أغرب ما يشاهد اليوم أن نجد كثيرين ينكرون على العرب مآثرهم فى مختلف العلوم والفنون ، وقد يزيد استغرابكم إذا علمتم أن هذا الانكار سائد ومسيطر على المثقفين وأصحاب الشهادات العالية والألقاب العلمية وعلى الذين أتموا دراساتهم فى معاهد يقولون عنها إنها تتمتع بمراكز علمية ممتازة .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد . حد الإنكار بل يتعداه إلى استخفاف بكل ما هو شرقى عام وعربى خاصة وإلى التنقيص من مجهودات وفضلهم على المدنية بينما نجد فى الغرب من قام يدافع عن هذه الحقيقة لأنها حقيقة ومن قام يظهر الحق لأنه حق . اعترف بعض علماء الغرب بينما أنكر أبناء العرب الذين تعلموا فى أوربا فضل حضارتهم . ومن الغريب أن نجد اهتمامهم بهذا يفوق اهتمامنا بأنفسنا ومع كل ذلك ورغم البحوث التى قام بها علماء الفرنجة فى مآثرنا فلا تزال هناك نواح لم تعط حقها من البحث والاستقصاء . وإننا أولى من غيرنا بالاعتراف بفضل الحضارة العربية على العالم وأولى من غيرنا بالتمسك بها وإظهارها على حقيقتها . وقد رأى بعض ساسة الغرب أن (العرب) إذا وقفوا على تراثهم القديم وما كان له من أثر فى ارتقاء البشرية فإن ذلك الوقوف مما يقوى فيهم

معنوياتهم وعما يبعث فيها شعوراً يحفزهم نحو النهوض والمطالبة بالحق المغصوب وكل هذا يتفق مع السياسة الاستعمارية فى الشرق ، ولذلك ولكى يجعلوا العرب فى عماية تامة عن تراثهم وتاريخهم راحوا يضعون البرامج لدى العلماء — ولا أقول كلهم — ليسيروا عليها فى أبحاثهم عن التراث العربى وأثره ، وقد شوهوا كثيراً من الحقائق وقلبوا البعض الآخر ، وأدخلوا الشكوك والريب فى كثير من الحوادث التى تمجد العرب ، وأخذوا كثيراً من النظريات العلمية والاختراعات العربية ونسبوها لعلمائهم ورموا العقل العربى بالجمود وبكونه عالة على غيره ، إنهم يريدون من ذلك كله أن يثنوا من عزائمنا ويدخلوا اليأس إلى قلوبنا من نجاحنا ، ومن المؤسف أن يتحقق بعض غايات هؤلاء الساسة . إذ كان لذلك كله الأثر الكبير فى عقلية طلابنا وكتابنا وأخذ الاعتقاد بعدم قابليتنا يتسرب إلى أذهان الكثيرين منا وأصبحنا عادمين لكياننا منكرين تراثنا عاربين لكياننا .

ورحنا مفتونين بالحضارة الغربية عاكفين عليها مهملين تاريخنا وحضارتنا وأصبحنا نعرف شكسبير ودانتى ونيوتن وباستور أكثر مما نعرف البيرونى وابن قرة وابن الهيثم والخوارزمى والمجريطى .

وقال : إنه ما من أمة تستطيع احترام حاضرها وتحقق مثلها الأعلى إذا لم تكن على صلة بماضيها محترمة له واقفة على ما فيه من جلال وبهاء .

• • •

واصل البحث عن بعث الحضارة الإسلامية فكتب الدكتور هيكل يقول : كيف نبعث الحضارة الإسلامية :

إنما يكون ذلك عن طريق (جامعة إسلامية) على نظام الجامعات الحديثة تعنى بتراث الإسلام وبماضى الحضارة الإسلامية وما احتاطت به من علوم وفلسفة وأدب وفن جعلها تكافئ الحضارات التى قامت قبلها ، وتقف منها ما وقفت قبل ذلك حضارات مصر واليونان لم تبق حيويتها بين الظهور والاضمحلال حتى يتاح لها بعث جديد . هو الذى نحس اليوم بتباشير بزوغه ومطلعه .

فالعلم يشعر الآن بقلق مظاهر هذه الأزمات المستعصية التى نرى ، وهذه الحرب الضروس القائمة من رأس المال والبلشفية ، وهذه الحضارة الغربية الاستعمارية التى سخرت من حاجات الروح واطرحت وراءها كل شىء خلا المادة .

وقال : ستبقى المشكلة قائمة حول هذا الفراغ الروحى الذى تركت الحضارة الغربية وراءها والذى شعر الناس به بصورة عنيفة بعد الحرب (يقصد الحرب العالمية الأولى) بنوع خاص . هذا الفراغ هو فى رأينا الخطر للحضارة الغربية لا يقل خطراً عن هذه الأزمات الاقتصادية التى تهدد أوربا وحضارتها الاستعمارية من الناحية المادية فلا مفر من أن تقوم أمة جديدة باعلاء شأن حضارة يمكن أن يطمئن العالم لها ويتنهل من رواتها ويجد فيها من سعادة النفس مالا تقدمه الحضارة الغربية المادية اليوم وأكبر اعتقادنا أن الحضارة الإسلامية ستقوم من ذلك بقسط عظيم ، لكن هذه الحضارة الإسلامية لا سبيل إلى قيامها بهذا العمل العظيم وحال الأمم الإسلامية حالها اليوم ، وما هى عليه من تقهقر وإدراك الروح الإسلامى على ما هو عليه من اضطراب وتبلبل ، إنما يزول الضعف ويقضى على الاضطراب وتعود الحضارة الإسلامية قديرة على معاونة العالم فى الخروج من الهاوية التى ينحدر إليها بإحياء الثقافة الإسلامية فى صورة علمية جامعة صحيحة ولا يحسب أحد أن هذه الصورة العلمية بنت الغرب وحضارته الحديثة بل لقد كانت كذلك أساس علم الحضارة الإسلامية إبان إزدهار الحضارة وفى اعتقادنا أن هذا البحث سيعيد إلى العالم حيوية روحه وعقله فينقذه من الكوارث التى تهدده اليوم. لسنا نقول هذا كمسلمين فقط ، ولسنا نقوله كمؤمنين بأن حضارة الاستعمار هى التى جرت على العالم سر النكبات وكفى ، بل ليشاركنا فيه طائفة من كبار العلماء الغربيين أنفسهم

فقد لخص الأستاذ ماسنيون المستشرق الفرنسى أدب الإسلام الاجتماعى فى قوله : يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من الأفراد بالعشر من موارد الجماعة كما أقر مبادىء الإسلام التبادل غير المقيد ، وتنادى بالعداوة للأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضرورات الحياة فى حين يتمسك الإسلام أشد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورءوس الأموال التجارية وهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البرجوازية والرأسمالية والشيوعية البلشفية » .

أين تدرك النظم الإسلامية التى يشير الأستاذ ماسنيون إليها على أنها مبادىء اقتصادية تقدم فى وحدة ذات كيان وتصف الناحية الاقتصادية بحضارة استكملت أدوار الحضارة لا على أنها أوامر دينية .

وليس الجانب الاقتصادى وحده هو الجدير بالدراسة الجامعة الصحيحة بل جدير بهذه الدراسة مثله كذلك الجانب الخلقى والجانب الروحى للدين الإسلامى (والحضارة الاسلامية جديرة بأن تكون لها آداب يطلع عليها الجمهور مستمدة من البحوث العلمية) .

• • •

ويدخل الميدان عبد الله شكري لأول مرة يتحدث عن (مجد العرب والإسلام) فيشير إلى أن أستاذه الإنجليزي قال له عام ١٩٠٩ : إن التاريخ يدل على أن مظاهر الرحمة في الحضارات والدول الأوربية قديماً وحديثاً كانت أعظم من مظاهر الحضارات والدول الشرقية .

ويتصدى له عبد الرحمن شكري فيدافع عن حضارة الإسلام ويذكر كيف أن على بن أبي طالب عندما أصابه عبد الرحمن بن ملجم أوصى قبل موته ألا يمثل بقاتله وذكر التمثيل الشنيع الذي كان من حظ من يحاول قتل أمير أو ملك من ملوك أوربا ، وذكر قصص عدل عمر وحلم معاوية وقصة المرأة التي لم تجد قوت عيالها وكيف حمل إليها عمر المئونة وقال (وذكرت تقرب أوربا إلى آلهتها بالضحايا البشرية في عصر من أزهى عصورهم وذكرت الرومان وما جره ازدراؤهم للحياة البشرية من الفظائع وجرائم عصر إحياء العلوم في أوربا ومحاكم التفتيش وتمثيلها بضحاياها وفظائع أمريكا يودور وستوارت وما كان يرتكب في الحروب الدينية في أوربا من قسوة لا حد لها وأسبانيا وما صنعته في العرب واليهود وما ارتكبته في ممتلكاتها الأمريكية مع الهنود الحمر ، ودافع عن العرب وعارض رأى الأوربيين الذي يقول إن العرب بدو ، والرحمة في كثير من الأحيان لا تصل إلى قلوب البدو بطبيعة أرضهم الجرداء القاسية وصعوبة نيل الرزق ، وذكر فضل العرب وما نقلوه إلى أوربا من المصنوعات والمنسوجات وما أعطوه من مخترعات مثل الاسطرلاب وبيت الابرة والعدسة ، وفضلهم في التشريح والطب والفلك والعلوم الرياضية والهندسة والكيمياء .

واستيقظ ضمير (اسماعيل مظهر) بعد أن حارب التراث الإسلامي والثقافة العربية سنوات طويلة على صفحات مجلة العصور :

ووقف أحمد أمين عام ١٩٣٦ يكشف على صفحات مجلة الرسالة صلابة الجبهة الداخلية وقوة حركة اليقظة إزاء الحملات التي قام بها أصدقاؤه وزملاؤه على الفكر الإسلامي والثقافة العربية تحت إسم حرية الفكر ، فأظهروا آراءهم (وهي في الحق لم تكن آراءهم الخالصة وإنما آراء سادتهم المستشرقين) ولم يبالوا بالرأى العام سواء في بحوثهم وتقدمهم فألفوا كتباً عبروا فيها عن آرائهم في جلاء ووضوح (يقصد طه حسين في الشعر الجاهلي وعلى عبد الرازق في الاسلام وأصول الحكم) وإن لم تكن على هوى الجمهور ، فكان صراع بين القديم والحديث ، ولكن هذا الصراع انتهى بهزيمة هذه الطليعة من المفكرين وتعرضوا للخطر في أرزاقهم ونالوا من العسف والعنت ما ليس في طاقتهم) .

ثم يقول : (وشعر القائمون بهذه الحركة أنهم أصيبوا في سمعتهم وفي مناصبهم وفي مالهم ثم رأوا أن أتباعهم تخلوا عنهم في أوقات الضيق وكان الرأى العام قوياً مسلحاً فتغلب وانتقم وأصبحت له السلطة التامة فانهزم أمامه فريق المفكرين الصرحاء هزيمة منكرة فاضطروا إلى التسليم بل وفي بعض الأحيان رجع (هذا الفريق) عن آرائه إلى آرائهم وعن منهجه إلى منهجهم ، وتعود المجاراة بدل المقاومة والمداراة مكان الصراحة) .

وكلام أحمد أمين يكشف الحقيقة ولكنه يصفها من وجهة نظر دعاة التغريب ، فلولا أن هذه الآراء خطيرة وليست صالحة للتقبل من العقل العربي والثقافة العربية ، لولا أنها وجدت معارضة ورفضاً ، ولو كانت تطوراً طبيعياً وتجديداً صادقاً أصيلا مستمداً من مقومات هذه الأمة أو كانت إضافات جادة في سبيل النهضة لوجدت قبولا صادقاً ، ولكنها كانت دخيلة متعارضة مع إيمان الأمة ومقوماتها وقيمها ومسار يقظتها ونهضتها ، ولذلك فإنها انطفأت كالشهب بعد قليل ، واضطر هؤلاء الكتاب أن يعدلوا مسارهم ، فمنهم من انضم إلى حركة اليقظة صراحة كمنصور فهمي وهيكل والعقاد ، ومنهم من حارب الرأي العام وبقي على دوافعه وأهدافه ينتهز الفرص ليعلنها فإذا وجد معارضة تراجع ، وإذا وجد أمناً تقدم مرة ومرة .

• • •

ولقد صدق اتجاه اليقظة وحق انكسار الموجة حتى أن ناصحاً منصفاً مثل الدكتور عبد الكريم جرمانوس كتب عام ١٩٢٣ في السياسة الأسبوعية يقول :

أنا متيقن جداً أن رقي أوربا وتأخر الشرق في آثار الحضارة وغنائه لم يحصل من تفوق أديان الغرب على أديان الشرق ، وقد ادعى بعض الغربيين المتطرفين في بغضهم لحضارتهم أن دين الاسلام خال من النجاح والمؤمنين به مع أن دراسته وإن تكن سطحية في الدين الاسلامي وتاريخه لتدحض هذا الرأي كلياً) .

(٢)

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى حرص قادة اليقظة على تحليل مفهوم الثقافة وتحريره في سبيل تحقيق النهضة وذلك بالتركيز على الثقافة العربية .

يقول عبد الرحمن عزام تحت عنوان وحدة الثقافة الاسلامية : المسلم إطلاقاً وفي جميع الأوساط والبيئات يمثل الثقافة الاسلامية وإن اختلفت الجنسيات والأوطان ، فالفارابي وابن خلدون يمثلون شيئاً واحداً هو الثقافة العربية الموحدة

يقول : يدخل في نطاق الثقافة العربية شيء أشد تماسكا وأعظم مرمى مما نسميه من الثقافة الاسلامية المتحدة ذلك هو الثقافة العربية المتحدة ، وإذا كانت حضارتنا الراهنة تعرض العربية بشيء من الذبول ، فهذه الثقافة نفسها هي التي ستنهض بالعربية ذلك لأن حضارة الغرب تفرق وتمزق حضرت البشر وتركتهم في صراع مستمر . فقد غالى الغربيون في فكرة الوطنية وجئنا نطالب بهذه الوطنية ونخشى أن تعمل فينا ما فعلت في الغرب ، ولكن الثقافة العربية لا بد أن تنتصر إذا عدنا إلى إيقاظ الأمة العربية بإحياء سننها وإطلاق دائبين على هذه السنن ، وسيأتي العرب ويجتمعون تحت

لواء مبدأهم فى المساواة والإخاء يستكونون أبطالا كما كانوا (الناس سواسية لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) .

لقد شاخت أمم الغرب وعجزت عن الدعوة الإنسانية الشريفة ولا بد للبشر فى عصرنا الحاضر من يحملون رسالة الإنسانية اليوم .

ويعمق عجاج نويهض مفهوم الثقافة العربية فيقول إن الثقافة العربية لا تستغنى عن الإسلام ، إن حياة الإسلام ومستقبله مربوطان بأصول الثقافة العربية) . وقد كانت الثقافة العربية هى الشغل الشاغل لقادة اليقظة فى مختلف المراحل ، وفى المؤتمر الإسلامى العام الذى عقد فى القدس فى ديسمبر عام ١٩٣١ كانت موضع الاهتمام بحسبانها مصدراً من مصادر القوة والمقاومة .

فدعا محمد على علوبة إلى عمل المعجم والقاموس والموسوعة العربية .

وقال : إن هذا المعجم الذى نريده هو أكبر خدمة تسدى إلى اللغة العربية وتحفظ مكانتها بين لغات العالم وأمم العالم ، وإذا كانت اللغة ليست لغة العرب وحدهم وإنما هى لغة العالم الاسلامى أيضاً وجب أن يتكاتف إخراج هذا العمل الأمة جميعاً .

وكان صوت الأزهر واضحاً فقد دعا محمد عبد اللطيف دراز فى المؤتمر الاسلامى إلى (العمل على إحياء الاهتداء بكتاب الله وسنة رسوله : من غير إشارة إلى أى نزاع بين الأمم الاسلامية ، هذا النزاع هو سبب الداء الدفين فى الجسم الاسلامى .

ودعا إلى وضع تفسير القرآن المجيد بأسلوب سهل يصور أغراض القرآن السامية بصورة واضحة لفهم خواص المسلمين وعامتهم على السواء على أن يكون مجرداً من إشارات الصوفية التى لا تستند لا إلى لغة الكتاب الكريم ولا إلى المبادىء الاسلامية المقررة ، وعلى أن يكون مجرداً من الاسرائيليات الدخيلة فى التفسير ، والتى من شأنها تشويه الكتاب العزيز وتقديمه للناس بصورة لا تتفق ومقاصده النبيلة وكذلك جمع الأحاديث التى يصح العمل بها من كتب السنة وتخريجها ودعوة الحكومة إلى الرجوع إلى الشريعة الاسلامية فى قضائها الجنائى والمدنى ، وإذا كانت بعض الحكومات تحرق على الجهر بأن ما شرعه الله من حدود لا يتفق مع روح العصر كان من الواجب أن يقنع بالحجة وأن هناك فوارق بين القوانين الوضعية وبين الشرع السماوى فى مواضع الخلاف المقطوع به . وقال :

(إن الكتاب الذى كون من قبائل العرب أمة قوية متحدة قامت بأكبر الانقلابات التاريخية هو بعينه لا يعجز الآن عن تخليص أربعمائة مليون من المسلمين مما هم فيه من الذل والشقاء) .

(ثانياً) دراسات التاريخ

كان من أبلغ آثار عمق حركة اليقظة وانكسار موجة التغريب أن بدأت حركة جديدة لإعادة كتابة التاريخ الاسلامي . اشترك فيها الكثيرون من قادة حركة اليقظة ، وانضم إليهم الدكتور هيكل وطه حسين وتوفيق الحكيم وانضم إليهم العقاد من بعد وشارك فيها أبناء الأجيال الجديدة في الثلاثينات فكشفوا جوانب مليئة بالقوة والحيوية ، عرضت عرضا جديداً مشرقاً وكان الكتاب جملة الرسالة أثر كبير في هذا العمل

وكان ذلك رداً حاسماً على ما دعا إليه الدكتور طه حسين من فصل الأدب عن المجتمع ، وفصل التاريخ عن الأدب ، ودحضا لما حاول إلصاقه بعصر الاسلام الأول من إتهامات وقد ظل التاريخ الاسلامي مرتبطاً بالاسلام متحرراً من محاولات التغريب التي ترمي إلى عزله وانفصاله عن أداء دوره في بناء اليقظة وسقطت النظرية المضللة التي أن تفصل بين التاريخ والاسلام نفسه بعد أن أكد البحث العلمي أن هناك ارتباط عضوي متين فيما بينهما .

وكسب التاريخ بذلك نهجاً جديداً وأسلوبا علمياً وعرضا عصريا وفي نفس الوقت استطاع أن يكشف جوانبه الذاخرة للشباب والأجيال الجديدة وأن يبتعثها من جديد فيكون عاملا هاما في حركة اليقظة كما اهتم الباحثون بما كتبه الغربيون عن تاريخ الاسلام نفسه فنقلوا ما كتبه جوستاف لوبون، وما كتبه كارليل وما كتبه درابر وما كتبه جورج سارطون وما قاله برناردشو، بل لقد أغرت كتابات أمثال درمنجم عن حياة محمد بعض كتاب العصر الذين كانوا أكثر أمانة للفكر الغربي إلى ترجمة مثل هذه الآثار ثم تبنيها ومهما يكن من هدف هؤلاء الكتاب في تصحيح موقف أحزابهم والعمل على كسب الأنصار ، أو تصحيح مواقفهم الخاصة بعد أن أثاروا من الآراء الضالة ما أفقدهم ثقة القراء ، فقد كسب التاريخ الاسلامي عرضا جديداً .

ولم يقف الأمر عند الكتابة باللغة العربية بل لقد بدأ عدد من الأبرار يكتبون عن الاسلام باللغات الأوربية (فكتب) الدكتور زكي علي كتابه القيم « الاسلام في العالم » وأصدره في ٤٢٨ صفحة حاويا تاريخ الاسلام باللغة الانجليزية عارضا على الغربيين صورة حية للإسلام وتاريخه وانتشاره في العالم ، كما كتب الدكتور أحمد غلوش كتابه الضخم عن الدين الاسلامي وقد دحض الدكتوران زكي وغلوش الكثير من الشبهات التي رددتها كتب المبشرين والمستشرقين .

وترجم حسين الموجي (صحيح البخاري) إلى اللغة الانجليزية وبذل فيه جهداً ضخما ، كما جرت ترجمة الكثير من معاني القرآن ، وقامت حركة كبرى تدعو إلى ترجمة (معاني) القرآن وترى في ذلك عملا نافعاً للاسلام ومحققاً لدعوة الاسلام في نقل مفاهيمه إلى غير أصحاب اللغة العربية على رأسها الشيخ المراغي وفريد وجدي .

أما كتاب المدرسة الحديثة فقد دخلوا الميدان متأثرين بالغربيين أيضاً : تأثر هيكل بدرمنجم فكتب حياة محمد وبدأه بالترجمة ثم تحرر من المؤلف الغربي وتأثر طه حسين بكتاب غربي (لجيل لوميتر) فكتب على هامش السيرة وجاء العقاد سنة ١٩٤٠ فبدأ يكتب عن عبقرية محمد .

وهكذا عاد الكتاب الذين كانوا يعارضون الفكر الاسلامي ويعملون على مدرسة اليقظة ومنها الرافعي وجاد المولى وغيرهم ويهاجمون الكتابة عن التاريخ الاسلامي فدخلوا نفس الميدان وحاولوا تعليل دخولهم بأنهم يحملون منهجاً جديداً .

ومن الحق أنهم لم يكونوا أحق إيماناً بالاسلام من دعاة حركة اليقظة وأن في الكثير مما كتبوا انحرافاً عن مفهوم الاسلام ، وأنهم كانوا يحاولون أن يندمجوا في غمار التيار الضخم الذي لم يكن هناك من سبيل إلى تجاوزه أو الانفصال عنه حتى يحتفظوا بمكانتهم الأدبية وربما كان لعوامل أخرى دخل كبير في هذا الاتجاه .

وكان أخطر مفاهيم كتاب التغريب حين دخلوا باحة الثقافة العربية والفكر الاسلامي أنهم كانوا ينظرون إلى الاسلام على أنه (دين) فحسب ، وفق مفهوم الغرب والاستشراق والاستعمار ، ولم يكن في تقديرهم ولا في مفهوم كتاباتهم أي إشارة إلى أن الاسلام دين ونظام مجتمع كما كان يفهمه قادة اليقظة .

وكان اتجاه طه حسين إلى إحياء الأساطير حول سيرة الرسول عملا خطيراً ومشبوهاً وبعيد الدلالة على اتجاهه التغريبي حين انتقل من ميدان إلى ميدان ، من ميدان إنكار النص القرآني بنهج له طابع علمي زائف إلى ميدان إنكار الأسطورة إلى السيرة النبوية بنهج وجداني مضلل فقد أراد في خبث شديد ومكر بالغ ، أن يخدع الناس بالكتابة عن الرسول تحت عنوان (على هامش السيرة) فيقدم في أسلوبه العاطفي قصصاً وصوراً ولكنه كان يدس فيها السم حين كان يحيي أساطير أبعدها المحققون من حياة الرسول وتاريخه :

قال الدكتور طه حسين : اشترت هذه السلسلة من القصص تحت عنوان مقتبس عن (جيل لوميتر) وهو على هامش السيرة : اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت لنفسي حرية كبيرة في أن أشرح الأحداث وأخترع الاطار الذي يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة مع احتفاظه بالطابع القديم . وقال : وبذلك خاطبت قلوب المسلمين المتعطشين إلى المثل العليا .

ومعنى هذا ضرب عصفورين بحجر واحد ، الأول أنه جلب الأساطير وتوسع فيها وأضاف إليها وأنه قصد بذلك إرضاء الجماهير ، ليعود مرة أخرى إلى ثقتها فيضربها ضربات أعنف ، وربما كان ذلك من وصايا المستشرقين والمبشرين ، وقد خدع الكثيرون فعلا بهذا التحول الظاهري الأخطر فهو لم يرجع عن آرائه الأولى ، ولكنه أراد أن يدعم وجوده ليعاودها مرة أخرى كما فعل من بعد ذلك في كتابه : (مستقبل الثقافة) .

(ثالثا) إحياء التراث

وكان من آثار نمو حركة اليقظة وانكسار الموجة أن غلب العمل على إحياء التراث بعد أن هوجم هجوما عنيفاً من دعاة التغريب ، بل إن هؤلاء التغريبيون عمدوا إلى المشاركة في هذا العمل ، ليفسدوه ويحولوه عن هدفه الطبيعي إلى إحياء الآثار المسمومة التي حرص المبشرون والمستشرقون على إحيائها وهي الكتب المتصلة بالملحدين والزنادقة والمنحرفين عن فهم الفكر الإسلامي أمثال الحلاج وأبو نواس وبشار .

وكذلك محاولة إتهام المعري وابن رشد بأنهما من كبار الملاحدة واهتموا بالغلاة من الصوفية والمنحرفين من المعتزلة والفلاسفة ومحاولة تصوير فكر هؤلاء جميعاً على أنه هو الفكر الإسلامي، مع مع تجاهل العمالقة أمثال ابن تيمية والغزالي وابن حزم وغيرهم ولقد هاجم إسماعيل مظهر وعبد الله عنان وحسين فوزي فكرة إحياء التراث هجوماً عنيفاً .

وكان مما قاله حسين فوزي : لقد ماتت الثقافة العربية عقب القرون الوسطى وذهب غبارها مع الثقافات الأخرى التي عرفتها أوربا فيما بين إنحلال الإمبراطورية الرومانية وعصر الرينسانس ، ولا قيمة للثقافة العربية عندي أكثر من أنها لعبت دور انتقال في العصور الوسطى فكانت مستودعا لبعض مظاهر الفكر اليوناني فيما قبل عصر إحياء العلوم وقد انطفأ نورها كما ينطفيء السراج الذي نضب زيته وأحرقت ذبالته بل والكمر أيضاً وقال إن من خير جميع الأمم العربية أن تنصرف عن خيالها بشأن هذه الثقافة فلا تضيع وقتها في نبش قبور لن تجد فيها لحما ولا عظاما متماسكة ، كانت تراباً وإلى التراب تعود .

وكان هذا من أعنف ما هوجم به الفكر الإسلامي والتراث الإسلامي ، وقد ردد هذا المعنى سلامة موسى وقال إنه كان ماضيا كله سخافات وجهالات ولا يصح الافتخار بها وقال صاحب مجلة الحديث (وهو من دعاة التغريب والشعوبية البارزين) إنه لولا عناية المستشرقين بكتبنا ودلالتهم على نواحي القوة والعمق والجمال في ثنايا سطورها لما تردد أكثر الشباب أن يجعل هذه الكتب الصفراء طعمة للنيران وقد أكون أحد الذين دعوا قبل سنوات إلى حرق الكثير من الكتب لأنني اعتقدت في يوم ما أنها تعوق تطورنا ، هذه نماذج مما هوجمت به حركة البعث وهي عبارات تنضح بالحقد والمرارة والكراهية .

والواقع أن حركة إحياء الأدب العربي وإحياء التراث قد بدأت منذ وقت بعيد ، وكان أحمد تيمور وأحمد زكي وانستاس الكرملي وكرد علي في مقدمة العاملين في هذا المجال منذ أوائل القرن وكان هؤلاء من موجهي المستشرقين، فلما انتهوا ضعفت حركة الاحياء وغلبت طائفة من تلاميذ المبشرين الذين حملوا آراء رينان ثم لم تلبث حركة اليقظة أن قدمت طائفة المؤمنين بأمتهم وفكرهم وتراثهم ممن حملوا إحياء التراث من أمثال : كامل الكيلاني ، وسعيد العريان ، وعبد السلام هارون .

ثم لم تلبث حركة اليقظة أن كسرت موجة التغريب فاضطر كثير من دعاة التغريب إلى تعديل آرائهم وفى مقدمة هؤلاء طه حسين ، وتوفيق الحكيم ، ولم يكن هذا التحول إيماناً بالتراث الاسلامى ولكنه كان مراوغة فى النظرة ، وتمويهاً والتفافاً حيث يقول توفيق الحكيم : إن الثقافات والحضارات لا تموت ولكنها تهضم فى ثقافات أخرى وحضارات أخرى فالثقافة العربية القديمة كالثقافة الاغريقية القديمة قد امتصتها واحتوتها الحضارة الأوربية القائمة ضمن الذى امتصت ، فمادة الثقافة لا تنعدم ولكنها تتحول إلى ثقافة جديدة وهذه نظرية تغريبية صرفة ، لا تقدر وجود الفكر العربى الاسلامى الحى الباقى المتحرك من خلال المجتمعات الاسلامية والذى لم يمت كما ماتت الثقافة اليونانية والرومانية القديمة .

وقد نجحت حركة اليقظة فى دفع حركة الإحياء إلى العمل والانتاج فطبعت الكثير من الآثار الأدبية والتاريخية والاسلامية العامة ، وإن اختلط فيها النافع بالضار حتى أزعج ذلك التيار دعاة التغريب وأحسوا بأثره العام وخطره على مفاهيمهم فقال أحدهم :

« إن رجوعنا إلى الثقافة العربية القديمة بهذه النسبة الكبيرة البادية مما يكثر نشره هذه الأيام من كتاب العرب الأقدمين هو أشبه شىء بالوباء يصيب نهوضنا الفكرى الذى لم يستقم بعد على قدميه وربما أحدث هذا الوباء فى عقولنا من الضر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال أثره والنجاة من شره .

وليت الأمر فى ضره يقف عند حد انعدام النفع ، بل إنه ليعيد لنا جواً فكرياً قد يضطرنا إضطراراً إلى تنفس هوائه حتى تمتلىء به رئاتنا وصدورنا فيكون عندئذ بمثابة من يعود بالزمان القهقرى » .

وتكشف هذه العبارات الحاسية العنيفة مدى الحقد والكراهية الذى تكنه حركة التغريب للفكر الاسلامى والتراث العربى .

ولكن موجة اليقظة استمرت وعمق هذا الاتجاه وقوى وكان له أكبر الأثر فى إعادة مفاهيم الثقافة العربية إلى أصالتها وقيمها .

وكان لكشف النصوص الحقيقية للتراث أن دحضت الادعاءات المضللة التى حاول البعض لصقها بالتاريخ الاسلامى من أن القرن الثانى كان عصر شك ومجون ، وباعلاء البحث عن المجان والفساق ودراسة بشار وأبو نواس والكشف أن هناك جوانب ضخمة بناءة فى الحياة الفكرية الاسلامية فى هذا العصر وكل العصور التى تليه ، هى جوانب الفقهاء والعلماء والصوفية والفلاسفة والدعاة والمحققون فى مختلف المجالات وحيث لا يمثل العصر بشار وأبو نواس وحدهما ، بل هما لم يكونا فى موقف من يمثل عصره أو يبرز فيه إزاء هذا الحشد الضخم من أعلام الفكر الاسلامى واستكشفت

حملة التشكيك التى حمل لواءها دعاة التغريب فى الأدب العربى والحملة عليه والاستخفاف بالخيال العربى واتهام العرب بما كتبه اسماعيل مظهر فى العصور عن بشار بن برد ومهيار الديلمى وإعلاء فكرهما القبيحة إعلاء جنسهما الفارسى مع اتهام العقلية العربية بالمحاباة المعرفة العقلية الآرية ، وكيف تبين أن الفكر الاسلامى هو الجامع الوحيد بين هذه العقليات وليس الدم أو العرق .

والمكشوف موقف الجهة الجديدة فى حملاتها المحمومة على الأدب القديم والبلاغة العربية واختلاق اسم أصنام الأدب على السلفيين وعلى قادة حركة اليقظة وقد انزعج كثيرون عام ١٩٣٥ عندما اتسع تيار الإحياء الاسلامى فهاجموه بشدة ، وكان سلامة موسى والعقاد فى مقدمة المهاجمين فقال سلامة موسى إن الأدب العربى هو مثل كل شئ أدب القرون الوسطى ، ونحن نقرأه للفائدة التاريخية فقط ، ولا يمكننا أن نستعين به فى حل مشاكلنا المعاصرة إذ هو عقيم كل العقم من هذه الناحية ورأى العقاد (إذ ذاك) أن التيار الاسلامى هو خطر على الحركة الوطنية المصرية لأنه يصرفها عن الصراع الداخلى بين الأحزاب .

ووقف كتاب التغريب موقف الهجوم والمقاومة والتشكيك من إحياء الأدب العربى وازدهار تعمق التيار الأصيل وتسيده على التيارات الأخرى بالرغم من أنه لا يملك النفوذ السياسى والصحفى الذى يملكه التغريب ، ومن هذه المواقف الهامة التى أجهضت التغريب . مؤتمرات عقدت فى مختلف البلاد العربية منها مؤتمر دمشق الطبى الذى تحدث فيه الأطباء عن فضل العرب على الطب العالمى ، والعيد الألفى للمتنبى والاحتفال بالجاحظ ، وإنشاء المجمع اللغوى .

(رابعا) الشريعة

كان للشريعة الإسلامية مكانها فى حركة اليقظة وانكسار موجة التغريب فقد كشفت الوقائع أكاذيب دعاة التغريب وضلال اتهاماتهم التى جروا فيها وراء ما رسمه كرومر وأذاعه ، وظل أتباعه يرددونه من أن الشريعة الاسلامية شريعة صحراوية وأنها وضعت من أجل قوم أهل بداوة فى الأعصر الغابرة وأنها لا تصلح لعصرنا ولا تكون ملائمة الأمم المتحضرة .

وقد عارض قادة الحركة هذا الاتهام وكشفوا خطأه وتعصبه وكان مؤتمر لاهاى عام ١٩٢٧ هو قمة اعتراف الغرب نفسه بالشريعة الإسلامية وباستقلاليتها عن القانون الرومانى وبتقدير صلاحيتها لعطاء القانون والتشريع فى العالم كله فى العصر الحديث ، وما كان من توصية المؤتمر عن إفساح مكان أوسع للشريعة الاسلامية ولا نعرض هنا كثيراً لما كتبه قادة حركة اليقظة عن الشريعة الاسلامية فرأيهم فيها معروف ولكننا نعرض لآراء رجال الثقافة المصرية الذين آمنوا بحركة اليقظة وانضووا إلى صفها وكان الدكتور السنهورى قد نادى بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ بوجوب الرجوع إلى الشريعة الإسلامية عند مراجعة التشريع المصرى .

وقال إن الخطأ الذى وقعنا فيه فى القرن الماضى هو إقصاء الشريعة عن المصادر التى نرجع إليها. وكان قد شارك فى إعداد القانون المدنى العراقى حيث أصبحت الشريعة عنصراً أساسياً فيه، فلما عقدت معاهدة مؤتمر وتجدد الكلام عن أهمية الشريعة الإسلامية فى التقنين العربى - وقال السنهورى: الأمر الجوهرى ألا نكرر الخطأ الذى وقعنا فيه فى القرن الماضى فنقصى الشريعة الإسلامية من بين المصادر التى نكثر من الرجوع إليها، فالشريعة الإسلامية مصدر خصب يوحد البلاد شرقية عربية وليس فى اتخاذها مصدراً يتنافى مع صلتنا الوثيقة بالتشريعات الغربية!

وقال إن هناك من مبادىء الشريعة الإسلامية ما لو أدخل فى القانون المصرى يعد متقدماً من هذه الناحية على الشرائع الغربية نفسها، والذى يدعونى إلى التشديد فى وجوب الرجوع إلى الشريعة الإسلامية عند مراجعة تشريعنا المصرى اعتباران: اعتبار فنى علمى واعتبار وطنى قومى، فاعتبار العلمى الفنى قد تبين من خلال ما قدمته من رقى الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لأن تكون أساساً لنهضة عالمية فى الفقه والتشريع، أما الاعتبار الوطنى القومى فأقف عنده قليلا فمصرنا الآن يتنازعها الشرق والغرب بعد أن استقلت وينبغى أن ترسم لنفسها خطة تسير عليها، أهى تريد أن تميل إلى جانب الغرب وأن تعيش المدنية الغربية فتلبس ثوباً غير ثوبها، وتنتقل مدنية غير مدنيتها، فتبقى متخلفة عند الك، أم تريد أن ترجع إلى أحضان الشرق دون أن تجافى المدنية الغربية وتحتل مكانها، فإن كنتم تؤثرون الأمر الثانى فلنرجع فى ثقافتنا القانونية إلى الفقه الإسلامى ولنجعل من ذلك الفقه صلة بيننا وبين الأمم العربية ولنوثق رابطتنا بهذه الأمم فنحن أمة شرقية ولنا ماض مجيد فى زعامة الشرق فمن الخير أن نصل حاضرنا بماضينا

وقد فرق الدكتور السنهورى بين الفقه والدين فى الإسلام فقال: (لا شك فى أن الإسلام دين ودولة، والدولة لا بد لها من فقه، ولكن فقهاء الشريعة الإسلامية كانوا يدركون إدراكاً تاماً الحد الفاصل بين الفقه والدين، فالفقه وقد وضع لتعامل الناس وتنظيم علاقاتهم بعضهم البعض، والدين وهو أمر يتصل بعلاقة الانسان بربه، فالفقه الاسلامى هو فقه محض لا يقل عراقة عن عراقة القانون الرومانى، وهو لا يقل عنه فى دقة المنطق وفى متانة الصياغة وفى القابلية للتطور، وهو مثل صالح فى أن يكون قانوناً عالمياً، بل كان بالفعل قانوناً عالمياً يوم امتدت دولة الاسلام من أقاصى البلاد الأسيوية إلى ضفاف المحيط الأطلسى).

وعنده أن الفقه الاسلامى (إذا أحييت دراسته وانفتح فيه باب الاجتهاد فهو قمين أن ينبت قانوناً جديداً لا يقل فى الخبرة وفى مسايرة العصر عن القوانين اللاتينية والجرمانية، ويكون هذا القانون مشتقاً من الفقه الاسلامى اشتقاق هذه القوانين الحديثة من القانون الرومانى، أما الكتاب والسنة فهما المصادر العليا للفقه الاسلامى، وقد قصد بالمصادر العليا أن أقول أنها مصادر تنطوى فى كثير من الحالات على مبادىء عامة ترسم للفقه اتجاهاته ولكنها ليست هى الفقه ذاته، فالفقه

الاسلامي هو من عمل الفقهاء صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاته القانون الروماني، وقد صنعوه فقها صحيحاً، والصياغة الفقهية وأساليب التفكير القانوني فيه واضحة ظاهرة.

ثم دعا الدكتور السنهوري في سبيل إحياء الفقه الاسلامي والنهضة به . إلى دراسة الفقه الاسلامي في ضوء القانون المقارن، وقال إن الغاية من دراسة الفقه الاسلامي أن يتجدد شباب هذا الفقه وتدب فيه عوامل التطور فيعود كما كان فقهاً صالحاً للتطبيق المباشر مسايراً لروح العصر مما يصبح معه الفقه الاسلامي قانوناً مدنياً متطوراً يجاري المدنية الحديثة كما انشقت الشريعة اللاتينية والشرائع الجرمانية من الفقه الروماني .

ويقول إن القانون الحديث الذي ينبثق من الفقه الاسلامي يجب أن يكون في منطقه وفي صياغته وفي أسلوبه فقهاً إسلامياً خالصاً لا مجرد محاكاة للقوانين الغربية، فإذا اقتصرنا على تقليد هذه القوانين على اعتبار أن هذه هي الغاية من تطور الفقه الاسلامي لا نكون قد صنعنا شيئاً، ويقول إنه لا يجوز أن نخرج عن أصول الشريعة بدعوى أن التطور يقتضي هذا الخروج ولا ينبغي أن نخشى من أن دراسة التشريع الاسلامي على هذا الوجه العلمي الصحيح قد تؤدي إلى كشف قصورها عن أن يتطور، ذلك إن هناك مصدراً معترفاً به هو (الاجماع الذي لم تدرك حتى اليوم خصوبته ومقدار ما يستطيع أن يواتي الشريعة من عوامل التطور .

وقال إن القانون المدني العراقي الجديد يمهد تمهيداً حسناً لدراسة الفقه الاسلامي فقد وضعت نصوص هذا الفقه إلى جنب نصوص القوانين الغربية فتلاقى النظام الاسلامي والغربي !

• • •

ودعا الدكتور هيكل إلى فتح باب الاجتهاد، ويقول في رأينا أنه لا مفر للعالم الاسلامي كي ينهض النهضة الخليقة بالدين القيم من أن يحطم قيود التقليد الأعمى وأن يفتح باب الاجتهاد. وأول ما يجب لذلك أن يقضى في النفس الاسلامية على فكرة النظام الاستبدادي والحق المطلق في الحكم، فهذه الفكرة ليست إسلامية البتة وإنما الحكم في الاسلام شورى والحاكم في الاسلام معرض للنقد المستمر والتقويم المتصل .

وقال : إذا اعتبرت الكرامة الانسانية بعض ما أوجب الله احترامه وأن العقل والقلب هما منار الهدى وأنهما لا يكونا كذلك إذا دأبا مجتهدين في سبيل وأن سبيل الكمال فسيحة تتناول العلم والفن والأدب والفلسفة والسياسة وكل ما في الحياة، وأن هذا الدأب يقتضي الانسان أن يخلق من التفكير من الحس كل يوم صوراً جديدة ترمي إلى هذا الكمال .

إذا آمنت النفس الاسلامية بهذا فتح أمامها باب الاجتهاد واسعاً، وإذا فتح هذا الباب تخطى

منه العالم الإسلامى محطماً قيود التقليد وأخلاقه سائر على هدى إلى ما سار إليه المسلمون الأولون من بافات المجد العظيمة فى حدود الحرية المنظمة والخلق الفاضل والايمان الصحيح .

وفى هذا الجو كتب الأستاذ أحمد حسين المحامى فى (مصر الفتاة) ، يقول : لقد حانت الساعة التى نراجع فيها مجموعة قوانيننا ونجعل أساسها الشريعة الاسلامية لأنها الأساس الوحيد الثابت المطرد الذى يتفق مع مزاجنا وتقاليدنا وبيئتنا .

وعنده أن مجموعة القوانين فى كل أمة هى التى تكيف هذه الأمة وتطبعها بطابع خصوص ، وهى التى تحكم نشاطها وتغذى معنويتها وتنظم معاشها ، ولذلك يجب أن يكون مصدر هذه القوانين واحد لتتناسق وتتساند وتتكامل وتلتق كلها عند نقطة واحدة وهدف واحد ، ولو رجعنا إلى قوانين أية أمة لوجدناها تستند إلى هذا المصدر الموحد ، فدولة فرنسا وكثير من دول أوربا تتخذ القانون الرومانى كمصدر للشريعة ، أما نحن فى مصر فلا نجد مصدراً نستطيع أن نعتبره أساساً للتشريع فنحن من ناحية كوننا بلداً إسلامياً ، فقد ظل التشريع الاسلامى أساساً لمجموعة من القوانين التى تتصل بالحياة الشخصية بينما اتخذنا القانون الفرنسى مصدراً للقانون المدنى والجنائى ، ولو عدنا لمواد هذه القوانين لوجدنا القواعد الانجليزية تارة والفرنسية أخرى والايطالية تارة ثالثة .

وهكذا أصبحت قوانيننا خليطا من قوانين الأمم ، ومثل هذه الحالة من الفوضى لا يمكن أن تؤدى إلا إلى فوضى اجتماعية خطيرة ، فبينما يسود البلاد — كأثر من آثار الشريعة الاسلامية — تقاليد إسلامية وعادات إسلامية بحتة إذا بقانون العقوبات يناقض هذه التقاليد والعادات ويحاربها أو يسخر بها ، فأصبح المصرى حائراً مرتبكا لا يعرف أيرضى عاداته وتقاليده التى عليها دينه أم يخضع القانون ويدع دينه وتقاليده . هذا النزاع النفسى هو الذى انتهى إلى التحلل من الأديان .

ويقول : لقد أجمع علماء الغرب قبل علماء الشرق على أن الشريعة الاسلامية بلغت فى تطورها حد الكمال حتى لقد اتخذتها الجامع الدولية مصدراً للتشريع الدولى ، وهى بعد ذلك : الشريعة التى تطورت ونمت فى بلادنا والتى تساير أخلاقنا وتقاليدنا وعاداتنا ، وهى قد تطورت خصيصاً لإصلاح حياتنا ، وهى بحر واسع الأرجاء نستطيع أن نغترف منه كما نشاء وأن نستخرج منه درراً وكنوزاً تنظم حياتنا على أساس القوانين والأحكام ، وهو ركن من أركان ديننا ، فقد تعين علينا ألا نتردد بعد اليوم فى اتخاذ الشريعة الأساس الأول والأخير لمجموعة قوانينها : المدنى والجنائى والشخصى . وإن ما فى البلاد من نهضة علمية ودينية وقانونية كفيل بتنظيم الفقه الاسلامى وتبويبه وتوجيهه واستنباط أحكامه بما ينتهى بنا إلى مجموعة من القوانين التى يفسح العالم بأسره على منوالها أشكالها وأحكامها وحسبنا أنها تستمد أصولها من القرآن الحكيم) .

(خامساً) الحضارة

ظل طه حسين وسلامة موسى ومحمود عزمى وغيرهم يمجدون حضارة الغرب ويصفونها بالكمال المطلق غير أن الأمور لم تلبث أن تكشف عن حقائق قالها الأوربيون أنفسهم فى حضارتهم من أمثال اشبنجلر الذى صدر كتابه تدهور الغرب ١٩١٨ وترجم إلى اللغة العربية (على حسن الحاكم) .

وعلقت عليه الصحف الأدبية ١٩٣٥ ووصفه بأنه (انحطاط الغرب) أو (احتضار الغرب) وكشف فيه عن أن « الحضارة الغربية مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وفناء وأن مقارنة الحضارات بعضها ببعض يدلنا على أن حضارتنا بلغت سن الشيخوخة وأن ساعة القضاء قد حمت ودقت ، ذلك القضاء المبرم الذى من المحال أن يتخطى ، وقال إن الأمم تموت والحضارات تزول وأضاف رومان رولان : ستغلبنا آسيا كما غلبتنا روميه وأثينا قديماً » .

وقول رانتو : « إن الليل يخيم على أوربا ونحن نولى وجوهنا شطر المشرق شيئاً فشيئاً وقال إن الحضارة الغربية تدخل عصر الاضمحلال ، ويكون من أول أمره خفياً لا يتبينه الناس فتختفى عهد الإلهام الجياش القوى فى الأدب والفن مع استرضاء الشعب ليظل هادئاً خاضعاً مطيعاً ، وفى هذا العصر يعتقد العدد الجم من الناس الفلسفة الوحيدة التى يفهمونها فى هذه الظروف وهى فلسفة كل واشرب فإنك ميت فى الغد وهى الفلسفة التى يؤمن بها كثير من شباب الجيل (جيل اشبنجلر) وقال ولا تلبث هذه المدنية أن تنهار إذا قسا عدو خارجى أو إذا غلبت عليها عوامل الفساد الداخل الكامن فيها » .

وقد هزت هذه الآراء عند ظهورها معسكر التغريب فراحوا يفسرون آراء اشبنجلر تفسيراً ملتوياً ، محاولين اتهامه بالجهل والضعف وذهبوا يعيدون ثقة الأمم الواقعة تحت النفوذ الأجنبى ، لقوة حضارة الاستعمار . إلى الثقة بهذه الحضارة .

غير أن اتهامات الحضارة لم تتوقف وتوالت من أمثال جود وهكسلى ومن أمثال قول مدام سذنى بوانت فى محاضرة لها بالقاهرة أوانها اهتماما قالت : أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت فى القيام بالمهمة التى تزعم أنها ألقيت على عاتقها ، أعنى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها . لقد أراد الغرب أن يوحد العالم ولكن تحت سلطانه ، ولجأ فى ذلك إلى القوة الغاشمة ولم يرع غير مصلحته وحدها ، فأنكر الشرق وجحد فضل العرب وعبث بقواعد الحضارة الحقيقية .

وأعادت حركة اليقظة إلى الأذهان كلمة (سبنسر) إلى محمد عبده يوم التقى به فقال له : « إن الحق من عقول أهل أوربا واستحوذت عليهم الأفكار المادية فذهبت الفضيلة . وهذه الأفكار المادية ظهرت فى اللاتين أولا فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ثم سرت عدواها منهم إلى الانجليز » .

وكان الدكتور هيكل ومنصور فهمى هما أول من انتبه لذلك وراجعاه ، وأشار دكتور هيكل إلى أنه وجماعته بعد أن عادوا من أوربا كانوا لا يزالون يؤمنون بما وصفته أوربا (بالحرية والإخاء والمساواة) ثم تبين لهم مع الأحداث ومع نهاية الحرب العالمية الأولى كذب ذلك وكشفت الأحداث عن مدى العسف والظلم الذى قامت به الحضارة إزاء الشعوب الضعيفة .

وقد جرى السؤال مردداً طويلا خلال فترة ما بين الحربين : ما هو موقفنا من الحضارة الغربية وأعلن العقاد رأيه مبكراً فى عام ١٩٢٩ فى محاضرة بالجامعة حين قال أن حالات المدنية لا تعدو طورين : ثقافة وحضارة .

أما الثقافة فهى تنحصر فى العقائد والأديان والحالات النفسية التى تختلج فى صدور الجماعات والأفراد فتدفعهم إلى العمل وهذه لا يمكن نقلها ولا يمكن أن تؤخذ بتعديل أو بدون تعديل لأن لكل أمة ثقافة خاصة بها فثقافة فرنسا غير إنجلترا غير ثقافة ألمانيا ، أما الحضارة فهى فى الغرب حضارة بخار وكهرباء وماكينات . هذا المعنى متوحد فى جميع أمم الغرب .

وقال الدكتور مشرفة : إن المصريين القدماء أسسوا حضارة سامية نقلها منهم الاغريق ثم وصلت إلى العرب فساعد العرب فى نقلها إلى الإفرنج فتراجعوا ردحا من الزمن وتقدم الافرنج فرأس المال لنا ، أمن العار علينا أن نشترك فى الربح .

وقال الدكتور هيكل :

أعتقد أن الشرق قد ضل طريقه فى هذه العصور الأخيرة متأثراً بتعاليم الغرب فأصبح مثله الأعلى مادياً بحسب الحرية التى تسمو بها النفس إلى المكان الأرفع أن ينال الجسم وأن ينال الشهوات كل مبتغاها .

قد يكون للبيئة الطبيعية فى الغرب أثرها فاندفع إلى التطلع إلى هذا المثل الأعلى ، ولكن بيئة الشرق الطبيعية وتاريخه منذ العصور الأولى وتاريخه بنوع خاص منذ انتشرت الحضارة الإسلامية فى ربوعه يجعل هذا المثل الأعلى الذى يتخذه الغرب أمامه دون ما تتطلع إليه النفس الشرقية فهذه النفس تؤمن بوحدة الوجود وترى فى هذه الوحدة والاتصال بها والفناء الروحى فيها غاية ماترجوه .

لذلك كانت أمثال هذا الشرق تجرى بأن من اعتز بغير الله ذل ومن افتقر لغير الله هان ولا تعرف شيئاً فى الحياة يعادل تقوى الله ، وأثر هذا فى الفناء والنفس والموسيقى والأدب .

وفى استفتاء عن حضارتنا القادمة : (فرعونية أم عربية أم غربية) قال الدكتور على ابراهيم : أشعر اليوم بأن الحضارة الحالية ينقصها عامل هام ، هو الجانب الروحى ، فأمل رسالتنا

الحضارة تكون فى أن تكمل هذا النقص ، إن العقلية الشرقية لم تمت وآراها انشطت فى مصر وغير مصر ، لا مراء عن أن تقدمنا سيكون فى نطاق الحضارة الإسلامية على صورتها السابقة ، ولا يمكن أن يتأتى ذلك فإننا مضطرون إلى الاقتباس من الحضارة الراهنة ثم نضيف من عندنا ، أما ان نرتمى فى أحضان المدنية الحاضرة ونرتضيها كلها .

وقال الدكتور منصور فهمى فى مقال (موقف الشرق من حضارة الغرب) .

(الشرق شرق والغرب غرب وان يلتقيا أبد الآبدين) كلمة حق إذا أريد بها تقرير أن لكل أمة مشخصات تغاير بها الأمم الأخرى وأن لكل طائفة من الأمم أسلوباً من الحضارة والثقافة تتميز به من الأمم الأخرى رغم كل عوامل المحاكاة والاحتذاء ، وأن للشرق طابعه وللغربى طابعه . إن من الخطأ الواضح عندما يطالبون الشرقيين بانتحال مدنية الغربيين ، ألا يقدر عوامل الجنس والمحيط الجغرافى والحياة الاقتصادية ومجموعة التاريخ وأثر العقائد وغير ذلك من العوامل التى من شأنها أن تكون لقسمات الشعوب فتتغير بتغير تكوينها الثقافات وتكوين الحضارات وتقديرها وقبول صنوفها المحيط حكمة القاهر فى العمل على تفاوت الطبائع فى الشعوب واختلاف الأمزجة فى أهلها ولم يغفل أحد من المشتغلين بعلوم العمران منذ أرسطو وابن خلدون ودى جوبنيو ، وما يزال أثر المحيط فى الحياة الاجتماعية . فإذا ما أضفنا إلى ذلك أثر الجنس والعناصر الأخرى مع التقاليد والتراث الأدبى والعبقريات الخاصة لكان من حقنا أن نجزم بأن الحضارة التى قدرها الغرب لنفسه واصطنعها لجنسه وأصلحها لقومه لا تصلح لأن تكون قياساً وفاقاً لأهل الشرق وأمه .

وقال الشيخ مصطفى عبد الرازق خريج السربون بعد الأزهر : أريد أن تقتبس مصر أصول المدنية الغربية وتتشربها تشرباً لا أن تلبسها ثوباً معاراً حتى يكون وادى النيل عنصراً من عناصر التقدم الإنسانى وعاملا يعيد على المشيدين فى بناء الحضارة ويكمله .

بيد أنى أحب أن يبقى لمصر جوهر مشخصاتها فلا تفنى فناء فى مدنية مهما كانت عامة إنسانية فإن لها جوانب ليست إنسانية ولا عامة ، وجوهر مشخصاتها يرجع فيما أرى إلى اللغة والدين ، مستودع أدبنا وتقاليدنا على أن اللغة والدين ينبغى أن نخضعهما لسنة الله فى هذا العالم ، وسنة الله فى هذا العالم أن يتحرك كل شىء وأن يتطور .

لست أريد أن تكون مصر قطعة من أوربا ولكنى أريد أن تظل مصر قطعة من أفريقيا متصلة بآسيا على أن تزاحم الغرب بالمناكب فى كل ما وصل إليه الغرب من علم ومدنية ورقى ، وعندى أن المدنية تراث إنسانى تعاونت قوى البشر منذ العصور الأولى على تأسيسه وكل مدنية ناشئة فهى كمال لما خلفت البشرية من مدنيات سابقة وليست بدعاً يبتدىء ابتداء ، فما مدنية الغرب اليوم إلا تطور إلى الكمال فى مدنيات الأمم السابقة ، وما يكون لأمة من البشر قصرت عن هذه المدنية إلا أن تسعى إليها جهدها لتدرك شأوها وتنال منها نصيباً) .

وتكشف هذه النصوص كيف أن الذين كانوا في موجة التغريب والموالون للفكر الغربي قد تحولوا قليلا إلى مفهوم حركة اليقظة ، وإن لم يصلوا إلى ما كان يقوله أمثال مصطفى صادق الرافعي :

(إن أوربا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تحقق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها ، فإنما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع العالمي بكل مظاهره ، المحافظة على الضوابط الإنسانية القومية التي هي مظاهر الأديان فينا ، ثم إدخال الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط)

وما يقوله عبد الوهاب عزام (لم يفرق الناس بين الحضارة الصناعية والحضارة الأخلاقية ، ولم يميزوا بين ما يلائم وما لا يلائم ، فقلدوا الأخلاق والآداب وسنن الجماعات وروابط الأسر والعقائد والمذاهب على السيارات والطائرات والغواصات والمدمرات ، وفتنوا بالمسرح والسينما ، أنكرنا أنفسنا وحقرنا ما عندنا وأعظمنا ما عند غيرنا .

لقد حولت الحضارة الفروسية والرياضة إلى سباق الخيل (القمار) وهجرنا الهندسة العربية في الأثاث ثم حاكيناهم في الإعجاب بها فاتخذناها بعد أن سميناها (أرابسكان) .

وقد تعمق قادة حركة اليقظة إلى المقارنة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية واستخلصوا من البحث أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة السادة دون العبيد ، وقد قامت على الاندماج في الشعوب والسيادة عليها ، وقد أتاحت الفرصة للشعوب لتقبل الدين والثقافة دون أن تفرضه عليها فرضاً وكانت غاية حركة اليقظة أن تكشف عن مخاطر الحضارة الغربية (وأن تقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة التي جرفت الشعوب الإسلامية فأبعدتها عن زعامة النبي ﷺ وهداية القرآن) .

(سادساً : اللغـــة)

واجهت حركة التغريب (اللغة العربية) هجوماً عليها ، غير أن الفصحى استطاعت في ظل حركة اليقظة وانكسار موجة التغريب أن تستعيد مكانتها وأن يتزايد أنصارها وأن تنكشف مع الأيام حقيقتها وتنخذل الشبهات والأراجيف التي أذاعها حولها خصومها .

وقد كان الدكتور زكي مبارك في مقدمة من تحولوا إلى المدافعين عن اللغة العربية ، وهو لم يعد بعد من باريس عام ١٩٣١ يهاجم قطباً من أقطاب المستشرقين هو (ماسنيون) .

قال : إن الفرنسيين يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الإسلام وسبيلهم إلى ذلك أن

أقنعوا بعض الأطفال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت في عداد اللغات الميتة وأن الإسلام لا يصلح أن يكون أساساً لمدنية جديدة وأنه لا يليق بالرجل المصري أن يكون متديناً لأن الديانات لم تكن إلا لمدنية الرعاع .

يقول : لقد وقف أحد المستشرقين الفرنسيين يخطب في بيروت وكان من مهمته أن يبث سمومه في الشباب السوريين فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن يتفرع إلى لغات عديدة كما تفرعت اللغة اللاتينية . فيا سعادة الشرق العربي إذن حين تصير اللغة العربية إلى مثل ما صارت إليه اللاتينية فقد ماتت لغة الرومان حيث لا رجعة لها ، وهذا هو الفخار الذي يطلبه ذلك المستشرق للغة العربية فأكرم به من صديق ، ومن نوع هذا الخلط ما زعم ذلك المستشرق الغرض من الحروف العربية فقد ألقى محاضرة في الكوليج دى فرانس أبان فيها أن لا حياة للغة العربية إلا بكتابتها بحروف لاتينية .

وقال : لم يبق إلا أن القوم يريدون أن ينحدر العرب إلى مثل ما انحدر إليه الترك ليضيع جزء مهم من شخصية اللغة العربية وليسهل قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر الأدبية والروحية ، وفي ذلك التيسير لمهمة الدساسين الذين قتل الشرق باسم العلوم والآداب .

• • •

{ سابعاً : الصحافة }

كان أبرز معالم انكسار الموجة أن سقطت عدة مجلات من أهمها :

السياسة الأسبوعية ، المجلة الجديدة ، مجلة المصور ، الرابطة الشريفة . وبقيت الهلال والمقتطف وهي أقوى المجلات التي اصطدمت بالثقافة العربية والفكر الإسلامي خلال العقد الثالث (١٩٢٠-١٩٣٠) واصدرت وبرزت مجلات : الفتح ، مصر الفتاة ، الشبان المسلمين ، الرسالة ، النذير ، الشورى ، دار العلوم ، نور الإسلام ، الأزهر ، النهضة الفكرية (بالإضافة إلى المنار التي توقفت عام ١٩٣٥) .

وهـــذه المجلات التي حملت رسالة التغريب لم يكن لها أهمية كبرى فقد كان يقرأها الآحاد ، وكانت شهرتها في الدعاية والضجيج الذي يدق وراءها الطبول ويظهرها البراق اللامع ، ولكن صحف اليقظة كانت متعددة وكثيرة القراء وواسعة التوزيع ، وكانت تصل إلى أبعد مكان فيه قارىء بالضاد . ولم تظهر شبهة واحدة في إحدى هذه الصحف إلا تصدت لها هذه المجلات اليقظة وردت عليها ودحضتها وقدمت وجهة نظر الثقافة العربية والفكر الإسلامي .

ولعل من أدق الوثائق ما بعث به بركات قصار (من أصحاب المكتبة الشريفة الوطنية بدمشق) إلى مجلة السياسة الأسبوعية يقول :

قبل أن نتصدى بطلب صحيفتكم لترويجها في دمشق قرأنا بعض أعدادها فألفيناها خادمة لشتى المواضيع غزيرة المادة العلمية والأدبية فكان ذلك باعثاً على طلبها لتباع في مكتبتنا ولكن بعد أن مضى على ذلك مدة يسيرة أصبحنا نرى في بعض الأعداد كثيراً من المقالات الإلحادية والبحوث السفورية والكتابات المحبذة لأعمال مصطفى كمال وأنصاره والإشارات إلى دعوة الإلحاد في أمريكا التي عندما يراها القارىء في جريدتكم لا يشك في أن أصحابها إنما ساقوها لدعوة الشبان الشرقيين إلى تقليد أمثال هؤلاء الشاذين في كفرهم وإلحادهم ، هذا مما أوجب سخط العلماء ذوى الأفكار النيرة ، واضطرهم إلى أن ينحو علينا باللائمة وكنا مؤملين بالعمل بالحرية الفكرية والوصول في هذه المواضيع إلى ما أجمع عليه المحققون ، ودعاة الإصلاح . المنزهون عن الأغراض ، فلم يكن ذلك بل رأينا أن أصحاب المقالات يتعامون عما انشر في بعض الصحف المصرية رداً على مفترياتهم شأن من لا يريد في كتابته إحقاق الحق وإبطال الباطل) .

(أرجو عدم إرسال شيء من أعداد السياسة) .

وقد أحصى السيد محب الدين الخطيب للسياسة أنها حملت لواء الحديث عن هذه الموضوعات (لبس القبعة — مقاومة إلغاء البغاء ، الدفاع عن الشعر الجاهلي ، استحسان القوانين التركية ، مهاجمة الدين ، الطعن في الدين في إحدى كليات الإرساليات التبشيرية) .

وقالت الشورى إن جريدة السياسة هي لسان الجامعة (عنان ، منصور ، فهمي ، ضيف) وقد عملت على إكرام (أستاذها فضكك رابطة الشرق ومزق أواصره (أحمد لطفي السيد) وداست على الاعتبارات والواجبات ، كما أنها كرمت (ليفي برهل) عضو المجمع العلمي الفرنسي الذي أشرف على أطروحة الدكتور منصور فهمي (حالة المرأة المسلمة) التي كانت مثار ضجة ضخمة .

وتعرضت حركة اليقظة لصحف الهلال التي حملت لواء الدعاية ضد الإسلام حيث أنحى الأستاذ أحمد شاكر باللائمة على ما كتبه بعض محرريها ، وقال إن الواقعة التي نشرتها مكاتب الأهرام في الواكاون لم نسمع بحصولها في مديرية الشرقية ، وقال أميل زيدان : لما كان معظم محرري مجلاتنا من المسلمين فهم بطبيعة الحال يبدون ما يعن لهم من الأفكار في هذه الشئون .

وعلق الأستاذ شاكر فقال : يعتذر أصحاب الصحيفة في كتابهم بأن محرري مجلاتهم من المسلمين وما لنا ولهذا ، إننا لا نرى أمامنا إلا صحف بأسمائهم ويزعمون أن لا شأن لها بالأديان ولم نكن لنشك فيها بالهم كلما عرض لهم شيء يتعلق بالإسلام نبذوه ولم تتناوله أقلامهم .

إننا لا نريد من صحف الهلال أن تكون لصورة الإسلام ولكن نرجوها أن تبعد أقلام محرريها من التعرض له .

وأشار إلى ما ذكرته مجلة كل شيء (٢٨ نوفمبر ١٩٢٧) حين قالت :

فلندرس كل قديم ولكن باعتبار أنه قديم لقيمته التاريخية فقط ولكن لا نعتقد به أو نؤمن بصحته وقال الأستاذ شاكر :

هذه الصحف ترى الثقافة الاسلامية بأن علومها إن هي إلا أساطير ، هذه الصحف إنما تمتح من الثورة التي سبقتها إليها أستاذ الآداب بالجامعة المصرية ، وأنها كانت إنما يديرها إرضاء جمعيات التبشير ، لا يزعم أن علوم الثقافة الاسلام أساطير إلا من جهالا وخصومها ، وهاهم علماء أوربا يدرسون علوم العرب وتفكيرهم) .

• ● •

وهكذا وقفت صحف اليقظة بالمرصاد لكل شبهة ، وانقدمت للرد أسماء كتاب لامعين لم يكونوا جميعاً محافظين بل كان على رأسهم أساتذة تعلموا في الجامعات الأوروبية وجلهم يحمل لقب الدكتور : عبد الحميد سعيد ، الدرديري ، الغمراوي ، على مظهر .

وكشفت حركة اليقظة دور المدرسة الصورية المتمصرة ومدى خطرها وآثارها في المرحلة الأولى قبل الحرب العالمية الأولى وامتداده في الأهرام والمقطم والمقتطف والهلال وصحفه (كل شيء الدنيا) إلخ ولم تكن الصحف الحزبية اليومية تقرأ أو توزع ، صحف السياسة والاتحاد والشعب . هذه الصحف التي كانت تعتمد على مساندة الأحزاب والحكومات ، وقد عاشت على الاعانات الضخمة والأموال الوافرة ، حتى وزارة نسيم (نوفمبر ١٩٣٣) وإخراج الابراشي من القصر حيث حالت شمس هذه الصحف إلى الأفول ، ولم تستمر جريدة السياسة إلا باتفاق محمد محمود وآل عبد الرازق عليها .

وقد خدمت جريدة السياسة مختلف الجهات ، حتى الصهيونية ، إذ نشرت في ٢ سبتمبر ١٩٢٩ هذا الخبر (زارنا وفد من حضرات الدكتور ابيد موصيري المسيو جولد شتاين .

وأعربوا عن شكرهم لما أبدته السياسة من رغبة واعتدال في تعليقها على الحوادث الفلسطينية ويمكن أن يفهم هذا الموقف إذا عرفنا أن الدكتور عزمي حضر المؤتمر الصهيوني ممثلا لها ، وأن عبد الله عنان كتب في السياسة الأسبوعية (٧ سبتمبر سنة ١٩٢٩) تحت عنوان فلسطين بين اليهود والعرب وقالت البرقيات التي نمت على السياسة موقفها .

(إن السياسة عاشت في الأيام الأخيرة ، مواقف فريدة من قضية فلسطين وعنتها كان لها أسرا

الآثار في نفوس عرب فلسطين مسلميهم ومسيحييهم ، فهم لا يريدون من السياسة أن تدافع عن حقوقهم بل يرجو أهل فلسطين من السياسة أن لا تكون عوناً للصهيونية) .

• • •

وقد كان من نتيجة ذلك أن رفض أحمد بن عبد الرحيم من مدينة في مراكش ، وعبد الله السمان في الحجاز جريدة السياسة (ناشروا السياسة الأسبوعية أسروا من جمهور المسلمين في جميع الأقطار نهاراً جهاراً على أن ينظموا في مصر صفوفهم ليسيروا بهذا القطر الإسلامي في طريق الكماليين دون أن يحتاجوا إلى المشانق التي نصبها الكماليون على ضفاف البسفور والخليج ، ودون أن يحتاجوا إلى المدافع التي أسكتت بها الكماليون احتجاج المحتجين على الأنظمة الاقتصادية في تركيا ، وكانوا يتوقعون أن تسير الأقطار العربية والإسلامية وراء ميولهم المنظمة فساوروا مؤيدة أحلامهم بمئات الألوف من الجنيهات - نعم بمئات الألوف منذ أنشئت السياسة اليومية إلى الآن ، ولكنهم ما كادوا يخطون خطواتهم حتى جعلوا يتلقون الصدمة بعد الصدمة ، فتعاد بضاعتهم مردودة إليهم بالسخط والازدراء .

لقد هاجموا أدمغة الشباب في الظاهر بجيوش من الأفكار تنقل عن أكثر كتاب الافرنج تطرفاً وإفراطاً في تهديم أبنيته الوازع .

وقد قابل المسلمون حركاتهم بحركتين : أحدهما سلبية انتهى بمقاطعة بضائعهم كما فعلت مكة ومراكش ودمشق والثانية إيجابية بإقامة حواجز فكرية تلائم روح العصر ويستطيع صوتها أن ينفذ إلى أعماق قلوب شابة .

وهاجمت صحف اليقظة الإسلامية جريدة الأهرام تحت عنوان : الأهرام أم وسيط بين الإسلام وفرنسا .

قالت الفتح : استيقظ المصريون للحرب الصليبية التي يقوم بها في المغرب الكاثوليكان أدينو وبنو جلداته فاستشاطت الأهرام غيظاً وقالت : في الأمس انتهى مصر على حملة الصليبيين السابقة واضع ملك فرنسا في سجن المنصورة ، وفي هذا العصر الذي ظننا أن الإسلام لن تقوم له قائمة تهب مصر مرة أخرى إلى إحباط الحملة الصليبية العصرية التي أحكم الفرنسيون تنظيمها في المغرب فتذهب الجهود كلها أدراج الرياح .

وفي هذا اتهام لمن يعارض الحملة الصليبية في المغرب بأنه يريد أن يشغل مصر عن قضيتها فبرأت مصر بهذا الاتهام وقالت الجريدة الأهرام (الفرنسية الفرنسيين) إن قلب المسلم يتسع لواجبه الديني ولواجبه الوطني الذي هو من واجبات دينه أيضاً ، وقد طلع وزير فرنسا المفوض ببيان اعترف فيه

بظهير ١٦ مايو ١٩٣٠ وأنه خاص بالبربر المسلمين وأنه أحل عاداتهم المخالفة للإسلام محل الأحوال الشخصية الاسلامية .

وازداد سخط مصر وأمطرت الصحف استنكاراً لهذا العمل .

ومن الحق أن يقال أن كل ما كان يكتب فى مصر كان ينظر إليه بعين النقد أو التقدير فى العالم العربى كله وكانت تكشف وجهته إذا كانت فى جوار الحرية والدفاع عن القيم ومهاجمة النفوذ الاستعمارى أو عكس ذلك تماماً ، وقد وجه الأستاذ محمد على الطاهر صاحب جريدة الشورى أنظار القراء إلى ذلك فى كتابه (نظرات الشورى) حين قال :

(ليحذر كتاب مصر عندما يحررون مقالة أو يكتبون رسالة لأن القراء فى العالم العربى فى كل مكان غير مصر يطالعون ما يخرج من مصر بعناية فائقة فينقدونه بعد أن يزنوه بميزان الصدق والانصاف فكل كاتب يزل به القلم يهوى فى الخارج ويفقد شخصيته) .

كما هاجمت حركة اليقظة الصحف الهازلة : (الكشكول ، روز اليوسف ، الراديو ، الرقيب ، الجمهور ، الصديقة ، آخر ساعة) .

وقد صنع (حسن الجداوى) هذه الصحف فى تقرير رسمى فقال :

(أن التطاحن السياسى قد ابتدع لغة فى النقد لم تكن فيما مضى مباحة فأصبحت اليوم شائعة فى الأنفس) .

ومن الحق أن هذه الصحف التى نشأت فى أحضان السياسة والأحزاب قد قامت بدور خطير فى مجال التغريب والغزو الثقافى فقد أساءت إلى القيم الأخلاقية والاجتماعية وأساءت إلى الأسلوب واللغة .

• • •

وهاجم الدكتور حسين الهراوى القصص الغربية المكشوفة المترجمة وقال :

أن ضحايا هذه القصة الحقيقية ما هم إلا ضحايا القصص الخيالية وضحايا مخيلة كتابها وضحايا المترجمين الذين ينقلون إلينا قصص الغرب ويصورون الفتاة المصرية لنفسها أنها ضحية الضحايا فما هى إلا دورة من دورات الفلك حتى نرى ونسجل أن البيوت والعائلات أصبحت ضحية هذا اللون ، وليست هذه الفتاة وحدها ومصدر إغوائها هى الفتنة الغربية وإسراف تلقى دروس السينما والغراميات .

وقد كان لمجلة المنار دور هام على المدى الطويل فى مقاومة تيار الغزو الثقافى (مما يشهد بالخبر المستفيض أن من أفراد أولئك الملاحدة دعاة الصد عن الاسلام وأن منهم من يأخذ على ذلك جعلا من جمعيات التبشير بالنصرانية ، ومنهم من يخدم الدول الاستعمارية ، ومنهم من يتقاضى مكافأة من بعض جماعات اليهود البلشفية والصهيونية ، وأعظم هذه الأجور المناصب والوظائف فى البلاد المسيطرة عليها .

(كان المرحوم الشيخ محمد مهدى وكيل مدرسة القضاء الشرعى أول من انبأنى بأنه وجد فى مصر جماعة التعاون على الصد عن الاسلام بالطعن فى شريعته وفى حكومته وفى لغته وفى أئمته وفى كل من نوه بهم التاريخ من الخلفاء وكبار العلماء والأدباء ثم ظهرت آثارهم الخفية فى بعض الصحف العامة وبما نشروا من المصنفات الخاصة ، وكان تعاونهم بمقتضى تعارفهم وترادهم وانتماء بعضهم إلى حزب سياسى ينصرهم .

(ألم تر أن الوزارة الائتلافية كادت تسقط ويتمزق فى اسبوع وحدة الأمة بانتصار أعظم أركانها (يقصد ثروت) لمؤلف ذلك الكتاب الذى حشر ملفقه بالطعن فى القرآن ترجيحاً لأصوات بعض أعدائه من المبشرين بالاناجيل .

(وقد علم الجمهور — أنه كان قد تألف فى مصر حزب لحرية الفكر كان الملاحدة هم المؤسسين له بالطبع من حيث لا يدرى كثيراً من انتظم فى سلكه) .

(وقد نشرت السياسة الأسبوعية فى مارس ١٩٢٨ مقالا لأحد أركانهم صرح فيه بأنه يوجد فى مصر تعصب دينى (إسلامى) ضار، وأن جماعة ألفوا حزباً لمقاومة وتوطيد دعائم الحرية .

(ولما ألف فى مصر جمعية الشبان المسلمين عارضوها بتأليف جمعية الشبان المسيحيين لأجل التعداء عليها بدعاية الوطنية ولكنهم لم يقاوموا جمعية الشبان المسيحيين بقول ولا عمل .

ودعا سلامة موسى إلى مساواة المرأة بالرجل فى الميراث .

وتمكن من نشر هذه الدعاية الباطلة فى مجلة الرابطة الشرقية ، وحاول إغراء الاتحاد النسوى بالمطالبة بهذه المساواة فكتبت (هدى شعراوى) رداً نشرته الصحف صرحت فيه بأنه ليس من موضوع هذه النهضة النسائية الخروج من الشريعة أو عليها تنفيذ أحكام الارث فى الاسلام .

ثم أثار محمود عزمى هذه الدعاية فى مناظرة بكلية الحقوق فواجهه رشيد رضا وأبان فسادها بالبرهان . وقام الدكتور فرج ميخائيل فى الجامعة الأمريكية محتمياً بما لها من نفوذ الامتيازات الأجنبية فكان أشد قدحاً فى الطعن على الاسلام وأشار إلى حق النساء فى المساواة .

ودعا محمود عزمي إلى جواز ترك جميع أحكام الإسلام الدنيوية ، ومنها الإرث واستبدال غيرها إذا ظهر عدم صلاحيتها .

(ولا أعتقد أن تكون هذه المسألة مسألة الإرث هي المقصودة بالذات ولا المقصود بالذات إعطاء النساء ما يعتقد هؤلاء الدعاة أنه حق لهن حباً بالعدل وكراهة بالظلم ، وإنما المقصود بالذات صدم المسلمين عن الإسلام نفسه وتحويلهم عنه بإبطال ثقتهم به وغيرتهم عليه وتقطيع الروابط التي تربطهم بالأمة العربية العظيمة وفصم عروة الجامعة التي تضم ٣٥٠ مليوناً من البشر لا يرون عليهم زعيماً بعد الدولة العثمانية أولى من مصر) ا . هـ

• • •

وكانت مجلة الفتح ذات دور هام حتى أنها طوردت في مختلف الأقطار العربية التي يحكمها الاستعمار . يقول صاحبها رحمه الله : كانت أمتنا في أشد الحاجة إلى صحيفة تنظر إلى الأمور من الوجهة الإسلامية المحضة غير متأثرة بأي مؤثر سياسي أو آخر . يقول فإذا اتسعت نطاق انتشارها في قطر إسلامي تحكمه دولة أجنبية طوردت في ذلك القطر ، مثل السودان ، المغرب ، مدن الجزائر وتونس ، فالفتح محظور بيعها في طرابلس الغرب وسومطره :

لو شئنا أن تكون صحيفة الفتح مرضياً عنها في حكومات البلاد المستعمرة لكان ذلك أيسر شيء علينا ولاستطعنا أن يكون إيراد الفتح كافياً لجملة صحيفة يومية ، إن مطاردة الفتح في مختلف الأقطار لم تنل من صبرنا مثالا لأن هذا شيء كنا قد وطنا النفس عليه من أول الأمر .

إن الصحف الأخرى تعيش في الأكثر من الإعلان عن (كنتياك أوتار) وعن ويسكي بوكانسيون ، وعن دخان ملكوليان وسجاير استطور جنا كليس وعن بدائع الترف التي تستنفد أموال الأمة في بالوعة شيكوريل وبون مارشيه . فهي تعيش من هذه الإعلانات ومن مساعدة أحزاب مخصوصاً وجهات مخصوصة ، ثم يكون كل ما يدخل عليها بعد ذلك من المشتركين زائداً عن مورد صاحبها ، أما أمثال (الفتح) من الصحف فلا حياة لها إلا من قراء آلوا على أنفسهم أن يقفوا معها في وجه تيار الضلالة حتى يثبتوا وجودهم ويكون منهم سداً أمام هذا التيار يجرف في طريقه حرم الدين والفضائل وينكر على التاريخ مناقب الإسلام وأهله وقد بلغت موجاته بيوتنا وخاض فيها أبناؤها فلا بد لصده من جريدة .

بهذا الحس أصدرت الفتح وبهذا الحس كنت أنفق على الفتح صابراً حتى يكون له عدد من القراء يفي بقيمة اشتراكهم وبالرغم مما تلق من الفتح مطاردة حقيقة ، صار الفتح قراء كثيرون :
أنفقنا من مال المطبعة السلفية ومكتبتها لسد العجز في مصاريف الفتح ، مع أن تحرير الفتح من أوله لآخره نقوم به مجاناً .

(إن التيار الذى تصارل مع قرائنا أن نقف فى وجهه لو كتب له الفوز فى الشرق العربى كما فاز فى تركيا - مثلا - فإن ذلك يؤدى جمهور المسلمين فى دينهم) .

• • •

ومجلة [دار العلوم] كان لها دورها الهام ، صدرت فى ١ أكتوبر ١٩٣٤ واشترك فى تحريرها السباعى بيومى ، وحامد عبد القادر ، وزكى المهندس ، وصالح هاشم عطية ، وعبد الرحيم محمود ، وعبد الغنى المنشاوى ، وعلى عبد الواحد ، ومحمد عطية الابراشى ، ومهدى علام ، ومحمود محمد مصطفى ، ومصطفى السقا ، وطه أحمد ابراهيم ، وعبد الحميد حسن . وعبد الوهاب حموده ، ومحمد على مصطفى .
وكتب أبو الفتح الفقى افتتاحية المجلة فقال : إن أبناء دار العلوم سدنة العربية وحماتها وأولياء لغة الدين ورعاتها ، وقد ظلوا ثلاثة وستين سنة يؤدون رسالتهم على وجهها الأكمل مبرهنين على جدارتهم بالثقة التى وضعت فيهم وكفايتهم للأمانة التى حملوها وليس إنتاجهم العلمى وأثرهم الأدبى فى مختلف نواحى الحياة المصرية بحاجة إلى دليل ، على أنهم أرادوا فى سنة ١٩٠٦ تعميماً للفائدة أن تكون لهم صحيفة فكانت ، وكانت لسان صدق مبين ثم مرت بأبناء دار العلوم عواصف هوجاء حتى كانت نهضة ١٩١٩ أخرجوا بالاشتراك صحيفة المعلمين دامت مدة سنوات وكانت خير ما أخرج الأمة فى بابها .

وكانت مجلة دار العلوم فى الحديث عن علوم التربية والنظريات الغربية :

(حين نفرق بين ما يصلح منها فى تربية أبنائنا وبناتنا وما لا يصلح فإن الناس قد فتنوا بمبتدعات الغرب وشغفوا بكل محدثاته ، على الرغم مما انطوى عليه من زيف ، ونسوا أن لكل بلد ظروفاً اجتماعية وعادات متوارثة وعقائد دينية خضعوا لسلطانها قروناً متعاقبة ، وأوضاعاً جروا عليها حقباً من الدهر ، وطرائق فى التفكير وأساليب فى الحياة تميزهم عن سواهم وليس هناك شك فى أن كل إصلاح لا يحسب لهذه العوامل وغيرها حساباً لا يمكن أن يصل بالأمة إلى ما تصبو إليه من غايات ، ثم إن هناك أمر لا محيص من البحث عنه ، ذلك هو تراث أسلافنا وكنوزهم العلمية ومعرفة ما خلفوه من أفكار أضاءت للناس السبيل حين عز الهادى وأعوز الدليل ودار العلوم هى مقر العلم فى الشرق وموئل طلابه وحلقة اتصال بين الثقافات المختلفة لا فرق بين الشرقية فيها والغربية) .

• • •

وأشار الدكتور مهدى علام إلى أن دار العلوم هى الحلقة المفقودة بين الأزهر والجامعة ، أو بين التعليم الدينى والتعليم المصرى ، وكان ذلك رداً على ما أثاره أحمد أمين من أن مصر فى حاجة إلى علماء يجمعون بين الثقافتين الإسلامية والأوربية ، وقدم الباحث أسماء العلماء الذين خرجتهم دار العلوم فى مختلف مجالات النحو والشريعة ، والتربية وعلم النفس والفلسفة ، وقال إن الأزهر يوم أراد

الإصلاح الجديد لم يجد أمامه إلا رجال دار العلوم ، وكذلك وقع عليهم عبء العمل فى كلية الآداب ومدرسة القضاء الشرعى وتلاقى عدد كبير منهم العلم فى انجلترا وفرانسا وألمانيا ، فهم بحق يمثلون الحلقة المفقودة ويجمعون بين الثقافتين الإسلامية والغربية وذكر بما قاله الامام محمد عبده :

(إن باحثاً موفقاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت فى كل مكان وتحيا فى دار العلوم) .

وهاجمت مجلة دار العلوم (١٩٣٥) الأدب الماجن وصورت كيف يجنى هذا الأدب على اللغة والأخلاق معاً ، يجنى على اللغة بالصد عنها والدعوة إلى العامية عن طريق الايحاء ، وهو تملق الغرائز الدنيا يهيج نوازى الشباب والمجانة بما تنطوى عليه قصص الخلاعة والاستهتار من مراودة وإغراء . وكانت مجلة الشبان المسلمين فى مقدمة الصحف التى حملت لواء اليقظة ودعت إلى تعديل برامج التعليم الابتدائى والثانوى باعتبار التعليم الدينى والتربية الدينية أســاسية ، كما هاجمت التبشير ، والالحاد ، التغريب :

وشارك فيها عبد الوهاب النجار . وحسن منصور ، والدكتور يحيى الدرديرى ، وإبراهيم اللبان ومحمد أحمد الغمراوى ، ومحمد عبد المطلب وأحمد إبراهيم .

وكذلك مجلة الهداية الاسلامية التى اشترك فيها عبد الوهاب حمودة ، وأحمد زكى باشا ، ومحيى الدين القليبى والطاهر بن عاشور والدكتور عارف الوديني وعلى الجندى والدكتور غلوش . وكان لمجلة الأزهر دورها الكبير فى اليقظة : رأس تحريرها الشيخ الخضر حسين ومحمد فريد وجدى وعملت على نشر أدب الاسلام وبيان حقائقه والنهوض باللغة العربية وآدابها والدراسات الاسلامية والرد على الشبهات .

الفصل السابع

مدرسة اليقظة : أعمدتها ومناهجها

عبد الحميد بن باديس : الجزائر والعروبة والإسلام
مصطفى صادق الرافعي : القرآن واللغة العربية
محمد مصطفى المراغي : يقظة الأزهر
محمد أحمد الغمراوي : الأدب ومفهوم الإسلام
محمود أبو العيون : محاربة الفساد
فريد وجدي : في مواجهة التغريب
علي العناني : كلية الآداب
حسن البنا : الحكم بكتاب الله

(أولا) عبد الحميد بن باديس

يمثل هذا العلامة الكبير منطلقاً كبيراً لحركة اليقظة العربية الإسلامية في القطر الجزائري فقد كان له دوره الخطير في الاصلاح وحماية اللغة العربية والحفاظ على كيان الأمة الجزائرية العربية الإسلامية .

– ١ –

وإنما علينا أن نعرف تاريخنا ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة في هذا الوجود ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل إلا هذا الحبل المتين : اللغة العربية لغة الدين ، ولغة الجنس ، لغة القومية ، لغة الوطنية .

إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا ، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا ، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين ، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار وما في النفس من آلام وآمال .

إن الذي يعلم تاريخ الجزائر الحديث يعلم بأن هذا الشعب شعب حي لن يموت .

— ٢ —

أننا نرى الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت بين سائر أمم الأرض ، وهي لا تزال حية ولم تزل ولهذه الأمة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية واللغوية ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقبيحة مثل سائر أمم الأرض . هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا ولن تريد أن تصبح هي فرنسا ومن المستحيل أن تصبح هي فرنسا حتى ولو جنسوها .

— ٣ —

حوربت فيكم العروبة حتى ظن أن قد مات فيكم عرقها ومسخ فيكم نطقها فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتهز الصدور والمشاعر ويهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل وتهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلى والمفاصل .

وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه ، وانتزعت منكم عقائده ، ومكارمه فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد وتنشرون من الاصلاح لواء التجديد وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد ﷺ وكما يرضى الله . لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ورضيه أعداؤه .

وحورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة وأخلدتم للنذالة ونسيتم كل علم إلا ما يرشح به اسكم وما يخرج بما هو أضر من الجهل بالكم فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا وتشيدون له صرحاً سامقاً فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه :

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

— ٤ —

من الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع الأجنبي في شيء ، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها ، ولذلك نرى القرآن يذكرها بالعرف ، والأنبياء لم يبعثوا إلا في مناسب العرف ومنابع القوة ومنابت العز .

لأن الأمة التي لا تؤدي ثمن المجد لا تحافظ عليه ثم هي أمة لا يعتمد عليها في النهوض بنفسها ولا بغيرها وإنما ذكرهم الله بذلك لينهضوا بالأمم على ذلك الأساس وهو إحياء العرف الإنساني في نفوسها وليعاملوها على ذلك الأساس بالعدل والرحمة والتكريم ، وأن أعداء البشرية اليوم ليعمدون إلى قتل الشرف في النفوس ليذلوا هذا النوع ما أعز الله ويهينوا ما أكرم الله .

والخلاصة أن عناية القرآن بإحياء الشرف فى نفوس العرب ضرورية لإعدادهم لما هيئوا له من سياسة البشر ، وبهذا يستعين على فهم السر والحكمة فى اختيار الله العرب للنهوض بهذه الرسالة العالمية ، واصطفائه إياهم لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل ، وهذا السر هو أن ما كانوا عليه من شرف النفس وعزتها والاعتداد بها هو الذى هيأهم لذلك ، ولو كانوا أذلاء لما تهيأوا لهذا العمل العظيم .

إن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله) اهـ .

(ثانيا) محمود أبو العيون

أولى الشيخ محمود أبو العيون عنايته بمحاربة البغاء والفساد الاجتماعى وسجل أخطار المجتمع ودعا إلى الإصلاح دعوة مستمرة لم تتوقف وكشف عن دور علماء الدين فى هذا المجال .

(١)

رجل الدين من نصب نفسه لنفع الناس وهو منهم مستغن لا يعمل رغبة فى دنيا ولا يسكت رهبة من عقاب ، فعمله الحق وقوله الصدق ، أن قام بأمر الله وقصد به ، وإن أمر بشىء كان لازم الناس له ، وإن نهى عن شىء كان أترك الناس له ، يبين لهم أن الدين يساير العلم ولا يأباه ، وليس بينه وبين العقل عداء ، وأن الميزة العليا للعقيدة الدينية هى ألا تتنافى مع نتاج العلم الصحيح ، وأن ترتكز على العقل السليم وتعتصم بالبرهان الحق .

لقد وضع الله هذا الدين ليكون قانوناً منظماً لجميع البشر وإرشاداً وتربية وتهذيباً وصالحاً لكل الأمم فى جميع الأزمنة والأمكنة .

إن الإلحاد قد انتجع فى نفوس أهل الجيل مكاناً خصيباً وظهرت طلائعه فى كل مكان ، فى دور العلم والنوادى الأدبية والمحافل الخاصة ، فى الصحف والمجلات ، فى المؤلفات ، والظاهرة الجديدة : الدعوة إلى طهارة الفطرة الدينية وقداسة الإيمان بقصد التشكيك ومناهضة التعاليم الدينية وزعزعة العقائد الصافية ، وتحقيق مبادىء المدرسة الحديثة التى يدعونها طليعة النهضة الجديدة أن الإلحاد الذى أساسه التشكيك حرب على الفضيلة وعلى الحق وعلى الإنسانية وعلى الأديان كلها .

فإذا لم تكن حياة الأمة مذخورة بالحياء والعفاف وتصون الأقلام والألسن فإنها تعيش كما تعيش الأمم السادرة فى الهمجية .

(٢)

بين سمع الحكومة وبصرها يقام سوق الفجور وينفض سوق ، والذهب الأعراض ضحايا الشهوات

والأطماع ، وبين سمع الحكومة وبصرها تنظم الجمعيات السرية لتجارة الرقيق وتجوب دعاتها الأمصار والقرى ، طلائع وكتائب يجتلبون كل طفلة ومعصر وعانس ونحوه ، وبين سمع الحكومة وبصرها تتمرد الروح الخبيثة وتؤسس الوضيع (الغربي) عاملة منتظمة داخلها مفقود وطالعها مولود ، وهناك وفي سجون ذلك المستبد الظالم تخرج الفتيات العاملات جانيات خزي وأسيرات بغي ، فيشهدون منظراً مريعاً من أبشع ما رأى وسمع الناس ، هنالك يهتز الشرف وتزهق الإنسانية .

(٤)

إن ثورة مصر سنة ١٩١٩ قد تركت أثراً بالغاً في آداب الأمة المصرية وأحلامها ، ولكننا لا نفهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية ترمز له بالتماثيل ونقيم له الأنصاب ، ما كنا نود أن نأخذ من معناه كلمة الأرق يجور إلى التكاس واضمحلال في كل معاني الحياة الناهضة ، تلك التي بذلنا في سبيلها مهجاً غالية ودماء ذاكية :

نقول إن ثورة ١٩١٩ التي طأطأ لها التاريخ إجلالا وهوت لها الأمم إكباراً وإعظاماً كانت في حياة مصر حجراً كاذباً لم نوره في آفاقها كالسان الصممة ثم خبا وأظلم ، وها نحن في ديجور الظلم تائهين حيارى .

أجل انظرك مرة في الحدائق العامة وفي صالات اللهو ومسارح التمثيل وعلى شاطىء البحار وداخل الأكشاك المتناثرة حولها في موسم الصيف ، أجل انظرك في تلك الأسواق المأهولة بأولئك الماجنين والماجنات ، ثم خبرني ماذا بقي لمصر من شرف العفاف وحسن السمعة .

(ثالثا) مصطفى صادق الرافعي

يعد مصطفى صادق الرافعي من أبرز رجال حركة اليقظة وأوسعهم جهاداً فقد امتد كفاحه في سبيل اللغة العربية : لغة القرآن منذ ما قبل مرحلة ما بين الحربين وامتد خلالها وكانت له مواقفه الصادقة الحاسمة مع مدرسة التغريب :

وقد حدد موقفه من أمور كثيرة رسمت في مجموعها منهجه الفكري :

أولا : العربية لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم ، وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لا حفل له به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق ، ثم إن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها بالمران والمزاولة ودروس الأساليب الفصحى والاحتذاء بها وإحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الذوق بها ، وكل هذا يجعل الترخص في هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد والحالة الخاصة في فصاحة هذه اللغة ليست في ألفاظها ولكن في تركيب ألفاظها .

ثانياً : إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية فلا يزال أهله مستعربين به ، متميزين بين هذه الجنسية حقيقة أو حكماً حتى يتأذن الله بانقراض الخلق وطي هذا البسيط . فهذا الذي أمسك القرآن الكريم من العربية لم يتهيأ في لغة من لغات الأرض وإن تلاحق أسبابه في لغة غير العربية قد وصلها القرآن بالعقل والشعور النفسي حتى صارت جنسية ، فلو جبن كل أهلها وسخروا بعقولهم على ما زينت لهم أنفسهم من الإلحاد كجنون لحفظها الشعور النفسي وحده وهو مادة العقل بل مادة الحياة .

ثالثاً : لو بقي للمصريين شيء متميز من نسب الفراعنة لبقيت لهم جملة مستعملة من اللغة الهيروغليفية وإن في العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدى على وجهه العربي الصريح ويحكم منطقاً وإعراباً بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهتها وبالجملة عن مؤداها ، وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر ، ثم هذا المعنى الإسلامي (الدين) المبني على الغلبة ، المعقود على إنقاض الأمم والقيم على الفطرة الإنسانية حيث نزعت وإن استعربت .

(رابعاً) القبلة التي اتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ، ويزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب إلا نواحيها العليا ثم إنه يخيل إلي دائماً أني رسول لغوي بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ، فأنا دائماً في موقف الجيش (تحت السلاح) له ما يعانيه وما يحاوله ويفي به وما يتحفظ فيه وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها .

(خامساً) التجديد في الأدب عندي هو :

أولاً : إبداع الأديب الحي في إثارة تفكيره بما يخلق من الصور الحية في اللغة والبيان .

ثانياً : إبداع الحي في إثارة الميت بما يتناوله به من مذاهب النقد المستحدثة وأساليب الفن الجديد .

وفي الإبداع الأول إيجاد ما لم يوجد وفي الثاني إتمام ما لم يتم ، فلا جرم كانت منهما حقاً حقيقة التجديد بكل معانيها ولا تجديد إلا لأمة ، فلا جديد إلا مع القديم .

(سادساً) الدين هو حقيقة الخلق الاجتماعي في الأمة ، وكل أمة ضعف الدين فيها اختلت هندستها الاجتماعية ، ولولا التدين بالشريعة لما استقامت الطاعة في القانون بالنفس وعمل الدين هو تكوين الخلق الثابت الدائب في عمله المعتز بقوته .

(سابعاً) إن أوربا ومدنيتها لا تساوي شيئاً إلا بمقدار ما يحقق فينا السمات الذاتية بعلومها وفنونها فإنما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع العالمي بكل مظاهره ، إنها كلمة لها وحدها وباعتبار فيها دون سواها ، نأخذ ما نأخذ ونهمل ما نهمل فإذا تركنا التثبت في هذا وأغفلنا دقة المحاسبة عليه كنا كذلك القائد الذي طرد بسيفه جيشاً واحداً أجنبياً من بلاده الشرقية وبسيفه هذا حمل أهل بلاده على أن يفتحوا أنفسهم ليأكلهم كل جيش أجنبي في يوم ما .

(رابعا) فريد وجدى

قدم العلامة فريد وجدى منهجاً كاملا لمفاهيم الإسلام والفكر الإسلامى فى مواجهة التغريب :

« مهمة الإسلام الكبرى فى الأرض هى أن يضع للناس كافة دستوراً دينياً قوامه العقل وركنه العلم يوفقون به بين حاجات قلوبهم وعقولهم بحيث لا يصطدمون فى تقدمهم نحو الحقيقة بعقبة تقف بهم دون مواصلة السير إلى الغاية القصوى ، فلا يجد العلم فى مدرجهم إليها من الإسلام مانعا يعمل على دكه كما دك كل الموانع التى حالت دونها من الأديان السابقة .

« إن الإنسانية مدفوعة إلى غاية بعيدة عن الارتقاء بكل ما أودع فيها من قوى ظاهرة أو خفية جاء الإسلام بدستور لا يدع هذه النزعة الجبارة من العلم ولا الهمة الثائرة من عمليه أن تنال من قدسيته مثالا . راميا بذلك إلى غاية نص عليها فى كتابه غير مرة وهى أن يكون دين البشرية فى عهدها الأخير .

وهو بطبيعته قد شرع ليكون ديناً يسع جميع التطورات البشرية الممكنة فهو لذلك قد أتى بدستور دينى جمع هذه الأمور حتى لا يصطدم به فى دور من أدوارها .

• لا يوجد دين من الأديان ولا نظام إجتماعى من النظم المعروفة قديماً وحديثاً يبلغ شأن الإسلام فى رفع شأن العلم والتنويه بقيمه وفى الدعوة إليه والتعويل عليه والانسانية كما تحتاج لعلم صحيح يتعلق بعقائدها يحتاج كذلك إلى علم بما يستصلح به معيشتها ويبنى عليه اجتماعها .

• إن العقل إذا ساغ له أن يعتقد بأن هذه الشخصية (الانسانية) قائمة انحلت فى نظره جميع الربط الأخلاقية والقيود المعنوية . ونال الوازع له من الإسفاف المطالب الدينية فتحلل به من جميع الالتزامات المادية فانتشار المذهب المادى يؤدى إلى توقف الترقى المادى والروحى .

لقد دل الإسلام على مناعة لا ترام فى جميع أدوار حياته فاحتك بالأديان التى سبقته وكان يتولاها رجال بلغوا من الثقافة العلمية ما لم يكن له مثل فى البيئة التى ظهر فيها الاسلام . إن مناعة الاسلام التى ضربت بها الأمثال بعد أن خرج ظافراً من جميع ما صادفه من الخصومات ستكلل بانتصار جديد على المذهب المادى الذى يحاول فلوله اليوم فى بلاد المسلمين أن يتخذوا له دار هجرة يأوى إليها .

لما كانت أصول الدين وتعاليمه ثابتة لا تتغير فإن الضرورات تدفع العقل البشرى لإدمان البحث عن وجوه التوفيق بين المعلومات الحديثة التى تطرأ وتوسع فى مجال النظر وبين الأصول الثابتة التى يدين باعتبار أنها منزلة .

كل ما فى صميم الانسانية من قوى وما يحيط به من عوامل خارجية وما هو مدفوع إليه من الغايات البعيدة يدل على أنه خلق ليكون متديناً ذا عقيدة لينعم بها حيال الكوارث التى تصيبه فى حياته الدنيوية القصيرة الآن . لذلك لا يوجد الانسان حيث يكون إلا متديناً ، ولا يزال فى عصر الشكوك متدينين .

الإسلام لم يجعل لولاية الأمة سلطتين ولم يكل أمر الجماعة لطائفة من الطوائف بل ترك السلطة كلها الأمة تهبها الرجل الذى تراه صالحاً لحكومتها وأمرها أن تحوطه برقابتها ومشورتها وأن تعطى لحكومتها الشكل الذى تعده أصلح لجمع كلمتها وهذا الوضع هو أرقى ما وصل إليه البشر فى أمر السلطة الاجتماعية . شأن الاسلام فى كل الشئون الانسانية وعليه فالمسلمون لم يعرفوا تنازع السلطتين الروحية والدنيوية . وقد أوتوا أصولا مراعى فيها المزج بينهما تفادياً من تنازعهما بحيث لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى ، وقد عاش المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرناً لم تنشأ فيهم مسألة قيام سلطة روحية إزاء سلطة دنيوية ولا يخشى عليهم أن ينتحلوا شيئاً من ذلك .

إن المدنية الاسلامية هى الشكل الوحيد من الكمال البشرى الذى يقترب منه البشر يوماً بعد يوم .

إن الذى ضمن الخلود للإسلام أمران : الفطرة الإنسانية وسلطان العقل الكامل .

إن الإسلام دين الله العام لا يضيق عن مرمى ولا يخرج دون حال وأولى بنا أن نجمع إلينا إخواننا الذين صبغتهم الروح الأوربية بصبغتها من تدعوهم تطوح بهم الطوائح المادية إلى حيث ينقلبون عليها إن الإسلام دين الله العام جاء لكل عصر بما يناسبه وفيه لكل عقل مسرح ولكل فؤاد مرتع .

الانحراف من سنة النظر والتأمل فى الكون إلى سنة الفلسفة والكلام والاعتماد على العلوم الجدلية هو فى الحقيقة انحراف عن الاسلام الخالص إلى غيره ، وما فرق الملل إلا اعتمادها على عقولها وإيثارها لأفكارها .

إن الانسان فى ضوء النظر العقلى والعلمى سيسقط آثار الوراثات القديمة والتعصب المذموم وثم تتاح الفرصة للنظر الصريح ومن هنا تستطيع العقيدة الاسلامية أن تمد ظلالها إلى دعوة الانسانية كلها .

الاسلام قانون عام للأفراد والأمم على مثال القوانين الأخلاقية المعروفة ، ولكن مع هذا الفارق الكبير ، وهو أن الاسلام قانون شامل لجميع مطالب الروح والجسد مقابل للانطباق على كافة الأمم بتوحيد مراميها ومقاصدها .

(خامسا) محمد مصطفى المراغى

كان المراغى دعامة من دعامات اليقظة العربية الإسلامية فى مجال الأزهر وقد كشفت دراساته عن مفهوم الإسلام الأصيل فى مواجهة الحضارة والعلم التجريبى .

(١)

إن سبب الأزمة بين الأديان والحضارة (أولا) اصطدام الدين بالعلم التجريبى وما ثار بينهما من خلاف (ثانياً) جنوح الفلسفة الأوربية إلى آراء فى الخير والفضائل الخلقية دفعت بعض الأديان فى سبيل الموافقة عليها (ثالثاً) اتجاه الأبحاث الاجتماعية على غايات الحياة إلى نواح لم يوافق الدين على ترسمها فكانت صلة العلم المادى والعمل الخلقى والغايات الاجتماعية بالحياة العملية قوة لأصحاب هذه الفروع على الدين وعلى انتهاك حرماته .

وفى مجال تحديد ما بين الدين والعلم التجريبى من خلاف ، فإن الدين لا يجهر بما يخالف المحسوس المشاهد ، وكما يعمل أصحاب المذاهب الاجتماعية على توجيه التشريع إلى ما بين الأصول العامة المشتركة فى الأديان ، مثل مقاومة الزنا وحماية الأسرة ومقاومة الكذب والغيبة والدس والوقيعة والحد من الحرية فى التمتع وأسباب الشهوات وتحريم المنافسة غير الشرعية ومراقبة المكاسب المادية وتحريم الخبيث منها والمعاقبة على الغش والخداع والتزوير .

(٢)

المسلمين فى الأزهر آمال من الحق أن أنبه أهله لها :

أولا : تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة من المعارف وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامى وتاريخ الإسلام ورجاله .

ثانيا : عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضاً صحيحاً فى ثوب خال من الفواشى المشوهة لجماله وخال مما أدخل وزيد منه من الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

ثالثاً : العمل على إزالة الفوارق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة فى محنة من هذا التفريق ومن العصبية لهذه الفرق ، ودراسة أسباب الخلاف بعيدة عن التعصب المذهبى تهدى إلى الحق وإن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثها الساسة فى القرون الماضية لمناصرتها وانقطع أهلها وخلقت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسى ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها ، هذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن وجعلتها شيعاً فى الأصول والفروع ، ونتج عن هذه التفرقة حقد وبغضاء بالإنسان أرب الدين

رابعاً: دراسة الفقه الإسلامي دراسة حرة خالية من التعصب المذهبي وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة والغاية من الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها والنظر في الأحكام الاجتهادية بما يجعلها تلائم العصور والأمكنة والعرف وأوجه الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء.

(٣)

إن الأديان كلها قد اعتمدت في الإنسان على أصل راسخ من غريزة التدين ودفعه إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة عادلة ترقب النيات وتحكم الضمائر، وأن هذه الحياة سائرة إلى غاية من المسئولية والمجازاة. ففي التدين من هذا التأليه والخضوع لله، والترفع عما كنه عوامل لها أكبر الأثر في دفع الإنسان إلى الخير والبر، فقد عنى الإسلام بفكرة الأخوة الإنسانية ونبه القرآن الكريم إلى وحدة الأبوين الموجبة للتعارف والتناصر (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وكما دعا المسلمين إلى إحسان معاشرة غيرهم من أهل الأديان الأخرى.

(٤)

لقد انتشرت في الشعوب الإسلامية حتى العريقة منها في الدين بدع حاجبة لدى العامة عن الأصول الأولية، وهي التي يقع عليها الناقد لأحوالهم في كل مظهر من مظاهر حياتهم، يجب على المسلمين مع تفكيرهم في دعوة الأمم إلى ملتهم أن يفكروا في القضاء على البدع في جماعتهم وأن يعملوا على ترقية أنفسهم إلى المستوى الذي يسترعي الأنظار إليهم لتقع دعوتهم المحل الجدير بها في القلوب.

(سادساً) علي العناني

كشف الدكتور علي العناني عن الأخطار التي تعرضت لها الثقافة العربية نتيجة استعلاء مدرسة التغريب، وكان واحداً من أبرز أساتذة الجامعة المصرية، ثم اعتزل العمل قال: الذي دفعني أن أجنح إلى العزلة ما رأيته ولمسته من قيام الحركة العقلية المصرية (١٩٢٥ - ١٩٣٢) على أساس غير صحيح سليم، بل على العكس فاسد معكوس، في أكبر معهد لهذه الحركة العقلية وهو الجامعة المصرية أو تمركز الأمر فيها في يد رجلين أحدهما ملفق في العلم طاغية في الافتراء، ملحد في دين الله دساس من غير خجل، هدام من غير تحريج ومن غير بناء، والآخر خلو من كل معرفة بإدارة الجامعة، وبعيد عن كل تجربة في ذلك لأنه ما تثقف في جامعة ولا أتيحت له فرصة ممكنة من زيارة جامعة، وليس له أثر في العلم سوى الدعوى الخاطئة وسوى التشويه فيه، وقد انقاد هذا الأخير الضعيف بناء على ذلك الأول الطاغية فكان الشر في الجامعة مستطيراً (يقصد طه حسين ولطفي السيد).

ولا بد الآن من تطهير المباحث القيمة والدينية والأدبية من الكذب والتلفيق والزندقة والإلحاد والافتراء والتضليل .

• • •

إن الجديد لا يكون نافعاً إلا إذا أسس على القديم وإلا لكان هذا الحديث سطحياً واهن البناء لأنه أنشىء على جهل بالتاريخ الغابر الذى هو نواة الفكر الإنسانى جمعاء .

إن رأى طه حسين بتخلى الأديب عن العاطفة الدينية واللغوية هو رأى فاسد من أساسه لأن الأدب إذا خلا من هاتين العاطفتين يفقد كل معانيه وميزاته وتصبح الأمة التى يوجد فيها هذا النوع من الأدب مقفرة كل الإقفار .

(سابعا) محمد أحمد الغمراوى

تصدى الدكتور الغمراوى لحقيقة الصراع بين دعاة التغريب وحركة اليقظة فى قضية القديم والجديد وكشف جوانب هامة تلقى الأضواء على أبعاد المعركة :

مسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد عن الاثنين عاماً أثارها فى الناس نفر تثقفوا ثقافة غربية من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الإسلامية نصيب مذكور ، والغرب والشرق على طرفى نقيض لا يلتقيان كما يقول ريارد كبلنغ وإن كان من الممكن أن يلتقيا فى الذى هو معجزة الغرب والذى هو جزء من الإسلام الذى يدين به الشرق ، ولعل الذين أثاروا مسألة القديم والجديد لم يكونوا يعرفون أن المدنية الغربية ليس فيها ما يستحق أن يطلب ويؤخذ إلا ذلك العلم الطبيعى الذى اهتدى إليه الغرب بالعقل والتجربة .

فكان الشرق والغرب قد اقتسما علم الفطرة : علما الغرب فى الماديات بالعلم والتجربة وعلمها الشرق فى الروحانيات والاجتماعيات بالدين والوحى فكان الشرق مخطئاً حين لا يأخذ بعلم الغرب وكان الغرب ضالا حين يخالف الإسلام ، وكان سبيل الكمال لهما معاً وللإنسانية أن يجتمعا على العلم والدين .

وكان هذا أيضاً هو سبيل التجديد الصحيح لمن يريد أن يكون مجدداً مصلحاً ، يجدد للشرق شبابه ويجدده من غير أن يعرضه لشر ما يهدد الغرب من أخطار .

ولكن دعاة التجديد صدقوا الغرب فى ظنه الذى ظن بالإسلام من أنه كان سبب تأخر الشرق ، ما لم يطيقوا أن يواجهوا الإسلام مواجهة بدعوة الناس صراحة إلى نبذه عمدوا إلى مواجهته مداورة بدعوة الناس إلى قبول كل ما عليه الغرب إن كانوا يريدون أن يكون لهم ما للغربيين من قوة وحياة وزعموا للناس أن المدنية الغربية كل لا يتجزأ .

فأما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها ، أما أن تؤخذ باجتماعياتها وعلمياتها وأما لا يؤخذ منها شيء .

ونجحت حركة الالتفاف التي قام بها دعاة الغرب ضد سلطان الاسلام في نفوس من أصغى إليهم من غير أن يتعرض أولئك الدعاة في سبيل ذلك الخطر الذي كانوا يتعرضون له لو أنهم دعوا الناس مباشرة إلى نبذ الاسلام .

ومن هنا هب لدرء هذا الخطر فريق من المجاهدين المحتسبين الذين آتاهم الله فقهاً في الدين وقوة في الجنان وبسطة في البيان وفي طليعة هؤلاء الرافعي رحمه الله .

فالذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ، ولو خالف الاسلام في أكثره ، والذين يسمون هؤلاء أنصار القديم يؤمنون بالإسلام كله وبالقرآن كله .

ثم إن أنصار الجديد يضيقون ذرعاً بالقيود الأخلاقية التي قيد الدين بها الناس فيما يعملون وفيما يقولون . ويريدون أن يتحللوا عنها فيزعموا للناس أن هذه الأخلاق وقيودها ان هي إلا عرف وتقاليد ، وأن التقيد بالعرف والتقاليد يعوق الفن ويحول دون ترقي الأدب فيجب إذن إطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود .

وأنصار الجديد يدعون إلى الفن العاري والأدب المكشوف ويدعون للفنان والأديب حرية في القول والفعل لم يأذن الله فيها الانسان ، وأنصار الاسلام يدفعونهم عن هذا ويحدون حرية الفنان بما حد الله به حرية كل إنسان من قيود الدين والأخلاق .

• • •

إن روح حركة التجديد يخالف روح الاسلام في الصحيح .

ويمعن أنصار الجديد في توهين السد الاسلامي الذي يجدونه قائماً في وجوههم فيزعمون أن القرآن من صنع عبقري لا من صنع الله وأنه آية فنية إنسانية لا معجزة إلهية ، وإذن فينبغي أن يخضع لما يخضع له كل عمل إنساني من النقد والفحص والبحث العلمي فيما يزعمون .

ومن هنا كانت معركة إعجاز القرآن .

إن أصحابنا المجددين أنصار (الأدب الحديث) يفرقون من ذكر الدين كأنما تلسعهم من اسمه

النار. والمسألة فى الدين ليست مثلها فى الأدب ، إن كل ما يتصل بالدين فيمكن الرجوع فيه إلى أصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو : القرآن ونحن معشر المسلمين مأمورون بأن نرد كل ما نختلف فيه إلى الله والرسول .

إن المسلم الذى يفقه دينه ويفقه الحياة أينما نظر لا يجد مفراً من أن يصل هذه الحياة : أدبها وفنها وعلمها بالدين كما أنزله الله . أى كما يتبين من القرآن ومن عمل الرسول . إن الاسلام دين يشمل الحياة بحذافيرها ويحيط بها من جميع أطرافها .

فكيف يجوز أن يجمع الانسان بين الحياة الاسلامية والحياة الفنية أو الأدبية أو العلمية إن لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الاسلام تمام التطابق والاتفاق . والتطابق بين العلم والاسلام ثابت لا شك فيه فليس من الثابت من العلم شيء ينتقض شيئاً من الاسلام ، وليس فى الاسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة من العلم وكل ما يثبته العلم فى المستقبل يقبله الاسلام مقدما بنص القرآن ويؤول إليه النص إن خالفه فى الظاهر .

وإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب أن لا تخالف أو تناقض دين الفطرة : دين الاسلام فى شيء . فإذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها ودعت الانسان أن يعمل بالفضائل التى جاء الدين لإيجابها على الانسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح ، وإذا خالفت الفنون الدين فى شيء من هذا . فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق ، ودابرت الخير ، وأخطأت الفطرة .

نحن ندعو إلى وجوب نزول الفن والأدب على حكم الدين وروحه وتحريهما التطابق التام بينهما وبينه .

ونحن بذلك نحقق بين الفن والأدب وبين الدين تلك الوحدة المحققة بين الدين والعلم فنحقق وحدة حياة الانسان كلها بذلك ونبرأ حياته من ذلك الداء المستعصى والشر البالغ . شر وجود التناقض والتنافر بين ما يعشق من فن ويعتنق من دين .

فالمسألة فى الأدب ليست مسألة لفظ ومعنى فقط ولكنها فى صميمها مسألة روح . فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحتاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وما أحل ولا تفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما لقى من ذلك من لذة أو ألم أو غيرهما وتخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب .

وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة فى حدودها الواسعة التى حدها الله بمظاهرها المختلفة فى الفطرة كما فطرها الله . لا كما دنسها ويريد أن يدنسها الانسان ويصف ما يتمتع به من ذلك ويلاقى فى سبيل ذلك غير ناس لحظة أن الوجود كله من الله وأن الدين كله لله .

أن التجديد عمل يدق إلا على من يأخذ نفسه بأشد مما يطالب به الناس من التجرد من الهوى، ومن الإخلاص الحق ولا غنى فيه بعد ذلك عن شيئين :

عن القدرة على تمييز الحق من الباطل وعن الاستمساك بالحق بعد إن يمتاز أن التجديد فى الأدب كالتجديد فى العلم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الحاضر والماضى، يبنى العقل فى حاضره على أسس العقل فى ماضيه فإن الحق وحدة قائمة لا يقوم جزء منها إلا على جزء .

(ثامنا) حسن البنا

كان من أبرز ما توصل إليه الأستاذ حسن البنا أنه وضع القواعد الأساسية المفرقة بين مفهوم الإسلام ومفهوم العلمانية فى جميع ميادين الفكر : السياسة والاجتماع والاقتصاد، وفى مجال الثقافة والصحافة، كما أنه بنى الجسور بين هذه العلوم وبين مفاهيم الإسلام، واختار الرواد الذين تخصصوا فى الكشف عن عظمة الشريعة الإسلامية فى مجال الاقتصاد والمعاملات والتربية وغيرها، بحيث أصبح هناك فكر إسلامى متميز مستمد من القرآن والسنة مكتوب بأسلوب العصر وصالح للتطبيق وقال فى هذا المعنى : نحن النجم القطبى ثابت منير يهدى إلى سواء السبيل، ونحن الخلاصة المستنيرة والقوة الإيجابية الفعالة التى تؤثر فى مجرى الأمور .

« إن مهمة الإخوان تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة فى كل مظاهر حياتها (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) وأن وسيلتهم إلى ذلك تنحصر فى تغيير العرف العام وتربية أنصار الدعوة على هذه التعاليم حتى يكونوا قدوة لغيرهم فى التمسك بها والحرص عليها والنزول على حكمها .

وقد حدد الأستاذ حسن البنا منهجه فى نقاط واضحة صريحة :

(١) موقفه من الحضارة الغربية :

أن نقف فى وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة وحضارة المتع والشهوات التى جرفت الشعوب الإسلامية فأبعدتها عن زعامة النبى ﷺ وهداية القرآن وحرمت العالم من أنوار ربها، وأخرت تقدمه مئات السنين حتى ينحسر عن أرضنا ويبرأ من بلائها قومنا . ولسنا واقفين عند هذا الحد بل سنلاحقها فى أرضها وسنغزوها فى عقر دارها حتى يهتف العالم كله باسم الله وتؤمن الدنيا كلها بتعاليم القرآن وتنتشر ظل الإسلام الوارف على الأرض، وحينئذ يتحقق المسلم ما ينشده فلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (لله الأمر من قبل ومن بعد) ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله والله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

(٢) منهج الإصلاح :

رأى قوم أن يصلحوا أخلاق الأمة عن طريق العلم والثقافة، ورأى آخرون أن يصلحوه عن طريق الأدب والفن، ورأى غيرهم أن يكون هذا عن طريق السياسة، وغير هؤلاء عن طريق الرياضة وأفضل الوسائل فى إصلاح النفوس (نفوس الأمم) هو الدين، والدين الإسلامى جمع محاسن كل هذه الوسائل وبعد عن مساوئها. إن الإصلاح الحق لا يقوم إلا على (تطهير النفوس وتجديد الأرواح)

(٣) نظام الإسلام :

نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنظم شئون الناس فى الدنيا وفى الآخرة، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن، فالإسلام، عقيدة وعبادة ووطن وجنسية، ودين ودولة، وروحانية وعمل، ومصحف وسيف، والقرآن الكريم ينطق بذلك كله، ويعتبره كله من لب الإسلام ومن صميمه ويوصى بالإحسان فيه جميعاً (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك).

اتصل الاخوان بكتاب الله واسترشدوه فأيقنوا أن الاسلام هو هذا المعنى الكلى الشامل وأنه يجب أن يهيمن على كل شئون الحياة وأن تصطبغ جميعها به وأن تنزل على حكمه وأن تساير قواعده وتعاليمه وتستمد منه ما دامت الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاماً صحيحاً.

أما إذا أسلمت فى عبادتها وقلدت غير المسلمين فى بعض شئونها فهى أمة ناقصة الاسلام تضاهى الذين قال الله تعالى فيهم: (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) من البقرة.

وإلى جانب هذا يعتقد الاخوان أن أساس التعاليم الاسلامية ومعينها هو كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ اللذان إن تمسكت بهما الأمة فلن تضل أبداً وأن كثيراً من الآراء والعلوم التى اتصلت بالاسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التى أوجدتها والشعوب التى عاصرتها. ولهذا يجب أن تستقى النظم الاسلامية التى تحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافى معين الرسول الأول وأن نفهم الاسلام، كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا الله به ولا نلزم عصرنا أسلوب عصر لا يتفق معه والاسلام دين البشرية جمعاء.

صحافة اليقظة

المنـــار : رشيد رضا

الفتح : محب الدين الخطيب

الشبان المسلمين : الدكتور يحيى الدرديرى

الرسالة : أحمد حسن الزيات

دار العلوم : . . . .

الأزهر : فريد وجدى

النذير وصحف الإخوان : حسن البنـــا

برزت صحافة اليقظة فترة ما بين الحربين واستطاعت أن تؤكد وجودها فى مواجهة صحف التغريب وعلى المدى الطويل تساقطت صحف التغريب (السياسة الأسبوعية ، المجلة الجديدة ، العصور) واحدة بعد واحدة حتى انتهت من حيث الوجود المعنوى عام ١٩٣٣ تقريباً ، وذلك بظهور دورة جديدة من الصحافة الأدبية والإسلامية التى استطاعت أن تصمد للمعركة حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية وكان أبرزها :

الشبان . والأزهر . والفتح ودار العلوم . والمسلمون . والرسالة . والمنار . وكانت الفتح والرسالة باعتبارهما مجلتين أسبوعيتين من أهم قوى اليقظة فى مجال الكلمة والدفاع وكانت الفتح أقرب إلى طابع القضايا الفكرية الإسلامية وأكثر أصالة وتمسكا بالقيم الأساسية للفكر الإسلامى .

ويمكن تلخيص أعمال كتاب اليقظة خلال هذه الفترة فى خمس قضايا كبرى :

(أولا) تصحيح المفاهيم وإعادة صياغة مفهوم الإســلام ، وتصحيح مفهوم ترابط الإسلام والعروبة .

(ثانياً) الرد على الشبهات والتحديات التى يثيرها المستشرقون والمبشرون والتغريبيون .

(ثالثاً) إعادة كتابة التاريخ والأدب والفكر العربى الإسلامى .

(رابعاً) التركيز على عروبة مصر وإسلامية الثقافة .

(خامساً) تجديد اللغة العربية والدفاع عنها .

وقد أشار الدكتور محمود فياض فى بحثه القيم عن الصحافة الأدبية بين الحربين بأن الصحافة الإسلامية كانت ذات أثر بارز فى تعبئة الشعور الإســلامى .

١ - مجلة المنـار

(صـدر المنار عام ١٨٩٩)

يقول المنار فى افتتاحية المجلد الرابع والعشرون:

(إن المنار إنما أنشىء لإيقاظ الشرق وتجديد الإسلام بإعادة تكوين الأمة وحياة الملة والدولة لا لفروع الفقه وأصول الكلام، ولا لجدليات المذاهب الدينية ولا لتأييد العصبيات الجنسية ولا لنشر ما يتجدد من قضايا العلوم ونظريات الفلسفة ومخترعات الفنون.

ولقد كان لنا جامعتان سعد سلفنا بالاعتصام بهما وشقى خلفنا بالتفرق والاختلاف فيهما: جامعة علمية روحية وهى كتاب الله وما بينته سنة خاتم النبيين، وجامعة سياسية علمية روحية وهى الإمامة العظمى.

٢ - مجلة الفتح

(صـدرت الفتح عام ١٩٢٦)

(لما خرج الناس من الحرب العالمية الأولى أخذ المؤمنون بثقافة الغرب من رجالنا وشبابنا يعدون العدة للاستيلاء على الرأى العام وتحويل وجهته عن المكتين وما أول فيهما، إلى المعاهد القائمة على ضفاف التايمز والسين وما يصدر عنهما وواتهما الحظ بما أحدثته (أنقرة) من أحداث فتذرعوا بالثناء على جهادها الوطنى للدعوة إلى نتائجه فى الدولة والدين وتعميم ذلك التاريخ فى المشرقين والمغربين (يقصد إلغاء الخلافة الإسلامية وهو حدث من أبرز أحداث المرحلة).

لم يكن للإسلام فى مصر صحف غير مجلة المنار، ولا جمعيات غير جمعية مكارم الأخلاق ومجلتها أما النزعة الأخرى عاملة على تعميم الدعوة الأنقروية (نسبة إلى أنقرة) وتقليدها، وكان فى أيدى رجالها أكثر الصحف وكانوا مشرفين على معظم المرافق والجمعيات.

وكان أنصارهم منبثين فى وزارة المعارف ومعاهدها ونظام الاحتلال يؤيدهم فى إبعاد الشباب عن الإسلام وحيويته جهد الطاقة.

وكان أحمد تيمور باشا هو الوجه المصرى الأول الذى شعر بالخطر الأعظم على مصر والوطن العربى والعالم الاسلامى وأشفق من أن يتم فيه ولو بالتدريج ما تم فى تركيا، وكان رحمه الله لا ينقطع عن زيارة المطبعة السلفية يومياً إلا لمرض أو سفر، وكانت المطبعة السلفية (١٩٣٤ - ١٩٢٥)

فى شارع خيرت فانعقدت فيها اجتماعات حضرها أحمد تيمور ، أبو بكر يحيى ، عبد الرحمن قراعة ، السيد محمد الخضر ، على جلال الحسينى ونحو عشرة آخرين من هذه الطبقة تذاكروا موجة الالحاد القوية التى طغت على العالم الاسلامى وهو على غير استعداد لدفعها لأن أمره ليس فى يده والذين أمرهم فى يدهم من المسلمين فهموا من الاسلام ألفاظ أوراده وحركات مساجده وغفلوا عن أهداف جهاده وأسباب حيويته ، وانتهت هذه الاجتماعات بقرار تأليف جمعية لمقاومة الالحاد والتعاون على ذلك مع كل مؤله أمره فى الوطن الاسلامى ثم تبين أن الخطر أسرع من أن يعالج بمثل هذه الجمعية وأنه لا بد من الاتصال بالرأى العام والشباب المثقف على الخصوص وأن الصحافة هى الوسيلة الأولى لذلك .

وكان الحصول يومئذ على امتياز لصحيفة إسلامية للغرض الذى نريده أشبه بالمستحيل غير أن أحمد تيمور رحمه الله التمس لذلك الأسباب التى لا يقدر عليها غيره ، وتمكنا من الحصول على امتياز بإصدار الفتح (١٩٢٦ م) ومر على هذه التجربة عام تبين لنا فيه أن الخطر أفدح وأقوى من أن يعالج بهذه الأداة الضعيفة ، حينئذ فكرنا جيداً فى تأسيس جمعية الشبان المسلمين بمائتى عشر شاباً انتشروا فى الكليات والمدارس والأندية .

وبعد أشهر من تأسيس جمعية الشبان وفى نفس الغرفة التى ولدت فيها الجمعية سعدت بلقاء بضعة رجال كان المتكلم منها يحمل قلباً ولا كل القلوب ، إنه أمة واحدة وقوة كنت أنشدها فى نفس مؤمن هو كاتب مقال : الدعوة إلى الله . (الأستاذ حسن البنا)

وبينما كانت بعض الجمعيات تتحول بالتدريج إلى أندية رياضية كانت هذه النواة تبشر بأنها هى الأمل الذى كان يرجوه شيوخ الله يوم اجتمعوا يعلنون وجه الرأى فى السلاح الذى يقاتلون به موجة الالحاد .

(٣)

وضعت الفتح برنامجها على النحو الآتى :

- التشريع الاسلامى أرحم وأعدل من كل تشريع تقدمه أو جاء بعده .
- لحضارة الاسلام القائمة على أساس من أنظمته وتعاليمه مزايا لا توجد فى حضارة الغرب المحكوم علينا الآن بأن ننضوى تحت لوائها وهذه المزايا ذات صلة عظيمة بسعادة الانسانية .
- لا يستطيع شباب المسلمين أن يحملوا أمانة الميراث الاسلامى عن الأجيال الماضية إلى الأجيال الآتية إلا إذا تثقفوا ثقافة ذات صبغة إسلامية من جميع النواحى .
- المسلمون أمة واحدة والوطن الاسلامى وطن واحد .

وحددت مجلة الفتح أهدافها على هذا النحو :

- إحياء ذكرى المدينة الإسلامية .
- صلاح الأصول الإسلامية الصحيحة للانطباق على مقتضيات كل عصر ومكان .
- مقاومة الإلحاد ودعوى التجدد الكاذب .
- بيان أن العلم الصحيح يتآخى مع الدين الإسلامي ولا يتنافى مع أصله .
- أخبار العالم الإسلامي التي تتصل بالوجهة الدينية الاجتماعية .
- بيان أسس التشريع في المملكة الإسلامية وبيان حكمه في كل مسألة .
- تفسير القسم الاجتماعي والأخلاقي من القرآن والسنة .

(٢) مجلة الشبان المسلمين

(صدرت عام ١٩٢٩)

يقول الدكتور يحيى الدرديري في افتتاحية المجلة في عامها الأول :

يرجع ما نحن عليه معشر المسلمين من نقص الأخلاق إلى أسباب عدة (١) الجهل بالعصر (٢) تقليدنا لسيئات المدنية الغربية (٣) إهمال الفئة المتعلمة منا لواجباتها نحو محاربة البدع والضلالات التي سرت في جسم الأمة .

وتدهورنا الحقيقي له مظهر بارز من اسم التجديد الذي أصبح سلاحاً في يد الضعفاء والأغرار يدرأون به ما يأتونه من منكرات وما يذيعونه من سموم الإلحاد . فإذا كنا نريد حقاً أن نكون في مصاف الشعوب الراقية فعلينا أن نسلك الطريق القويم الذي دلت عليه تجارب الماضي ومشاهدات الحاضر .

وعندنا أنه ليس هناك دواء أنجع لبرئنا مما نحن فيه من علل وأمراض إلا الرجوع إلى القرآن الكريم ، وهو خير كتاب يدعو إلى جماع الفضائل في أعلى مراتبها ، فهو جدير بحق أن يكون أساساً ومرشداً ومرجعاً لنهضتنا الخلقية التي بدونها لا تصلح أي نهضة أخرى : اجتماعية كانت أو اقتصادية أو غيرها . إن أساس معتقدات القرآن الكريم سواء من ناحية الإيمان أو من ناحية الإصلاح قائمة على حرية الفكر والعلم وقد جرى فيهما شوطاً لا يلحق .

٤ - مجلة الرسالة

(صدرت عام ١٩٣٢)

« لقد كان على الرسالة أن تجاهد خصوما ثلاثة جثم عليها دفاع الطفيلى عن وجوده :

(أولا) زهادة الشباب فى القراءة وبخاصة ما كان جديا فيها .

(ثانيا) طغيان الأدب اللاهى على الأذواق الناشئة .

(ثالثا) نفور طائفة من الأدباء من هذه اللغة التى نقرأ . ومن هذا الأدب الذى نذوق ،

فهم يحاولون الأدب الأوربى بمعانيه ومراميه وروحه ثم يلبسونه طربوشا أو عمامة ويقولون له تكلم فيتكلم على الرغى أو على الكره ولكنك لا تسمع بالطبع إلا عربية كعربية الرومى فى البار أو الإيطالى فى المتجر .

قالت الرسالة لهؤلاء : ما دمتم تتكلمون بالعربية فلا بد من فنها وآدابها وما دمتم تعيشون فى الشرق فلا بد من إلهامه وطابعه أما أن تحاولوا طمس حدود الأرض ونسخ قوانين الطبيعة وقطع سلسلة الزمن فذلك مجهود لا يضمنه الناس إلا فى قرارة الحق .

فقالوا : إننا ننشر ثقافة العصور المظلمة ونجدد أساليب البيان القديم ، يريدون بالعصور المظلمة عصر الرشيد وابنه المأمون فى آسيا ، وعصر الناصر وابنه الحكم فى أوربا وعصر العزيز بالله وابنه الحاكم فى أفريقيا .

وهى العصور الثلاثة التى جلت عن الأرض دياجير القرون فكشفت عن الأفق الإنسان ، وهيأت العقل للعلم ، وراضت البرابرة على الحضارة ، وهم فى ذلك أيضا يقلدون الكتاب الأوربيين فى نعتهم عصور الحرمان بالظلام .

ثم يريدون بأساليب البيان القديم تلك الأساليب التى تجرى على قواعد الفن فلا يعوزها لحن ولا تتعاورها ركاكة قطعوا أنفسهم عن الموارد الروحية لهذه اللغة فصاغوها من حروف الهجاء لا من الأعصاب والدماء ، ثم أذوا فطرة الإنسان فجعلوا قوة الأسلوب عيبا وجمال الصياغة نقيصة

• • •

وقد جاءت مجلة الرسالة منهاجها على غلافها محددة أهدافها :

الرسالة مجلة الأدب الرفيعة والثقافة العالية ،

تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة .

تعبر عن روح النهضة المصرية .

تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية .

تصور مظاهر العبقرية للأمة العربية .

تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية . تحيي في النشء أساليب البلاغة العربية .

ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية .

وقد اشترك في تحرير الرسالة : الرافعي والعقاد وشلتوت والمراغي وعزام وقدمت من الكتاب عبد المنعم خلاف وعلى الطنطاوي والخفيف وقطب وفهمي عبد اللطيف وسعيد العريان ومحمود محمد شاكر وعبد الغني حسن وكتب بها مؤلف هذا الكتاب في السنوات الأخيرة .

٥ — مجلة دار العلوم

(صدرت عام ١٩٣٤)

صدرت مجلة دار العلوم لتحمل رسالة واضحة عبر بها الأستاذ أبو الفتح الفقي : « أبناء دار العلوم سدنة العربية وحماتها وأولياء لغة الدين ورعاتها وقد ظلوا ثلاثة وستين سنة يؤدون رسالتهم على وجهها الأكمل مبرهنين على جدارتهم بالثقة التي وضعت فيهم وكفايتهم للأمانة التي حملوها وليس إنتاجهم العلمي وأثرهم الأدبي في مختلف نواحي الحياة المصرية بحاجة إلى دليل على أنهم أرادوا في سنة ١٩٠٦ تعميماً للفائدة أن تكون لهم صحيفة فكانت ، وكانت لسان صدق مبين ثم عصفت بأبناء دار العلوم عواصف هوجاء حتى كانت نهضة ١٩١٩ فأخرجوا بالاشتراك صحيفة المعلمين دامت عدة سنوات وكانت خير ما أخرج للأمة في بابها .

٢ — حين افرق بين ما يصلح في تربية أبنائنا وبناتنا وما لا يصلح فإن الناس قد فتنوا بمبتدعات الغرب وشغفوا بكل مستحدثاته على الرغم مما قد تنطوي عليه من زيف ونسوا أن لكل ظروفاً اجتماعية وعادات متوارثة وعقائد دينية خضعوا لسلطانها قروناً متعاقبة وأوضاعاً جروا عليها حقباً من الدهر وطرائق في التفكير وأساليب في الحياة تميزهم عن سواهم وليس هناك شك في أن

كل إصلاح لا يحسب لهذه العوامل وغيرها حسابا لا يمكن أن يصل بالأمة أى ما تصبو إليه من غايات .

٣ — ثم إن هناك أمر لا محيص من البحث فيه . ذلك هو تراث أسلافنا وكنوزهم العلمية ومعرفة ما خلفوه من أفكار أضاءت للناس السبيل حين عز الهادى وأعوز الدليل .

ودار العلوم مستقر العلم فى الشرق ومؤئل طلابه وحلقة اتصال بين الثقافات المختلفة لا فرق بين الشرقية منها والغربية .

وقد اشترك فى تحريرها : السباعى بيومى وحامد عبد القادر وزكى المهندس وصالح هاشم عطية وعبد الرحيم محمود وعبد الغنى الهنداوى وعلى عبد الواحد ومحمد عطية الابراشى ومهدى علام ومحمود محمد مصطفى ومصطفى السقا وطه أحمد إبراهيم وعبد الحميد حسن وعبد الوهاب حمودة ومحمد على مصطفى .

٦ — مجلة الأزهر

(صدرت عام ١٩٣٠)

أشار العلامة محمد فريد وجدى إلى مهمة مجلة الأزهر فقال :

« إن الجامع الأزهر الذى قدر الله له أن يرفع علم الإسلام عاليا منذ نحو ألف سنة قد قصد من نشر هذه المجلة أن يتيح لمن لم يسعده الحظ بالانخراط فى سلك طلبته أن يطلع وهو فى عقر داره على أفضل ما أثمره قرائح أعلامه من شروح قيمة لكتاب الله وسنة رسوله وبحوث ممتعة فى شريعته وحجج ساطعة فى الدفاع أصوله والمنافحة عن حقائقه .

« قد كان جهدنا أن نرد على تخرصات المتخرصين باللغة العربية والناس هناك من يفهمها (أى فى العالم الغربى) فلسرى أقوالهم حرة مطلقة فى العالم الغربى وتروج فيه دون أن تجد مفندا لها بلغة يفهمها الذين قرءوها فترسخ فى أذهانهم وتصبح عقائد لهم ، يتناقلونها فيما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين ولكن بوجود هذه المجلة يمكن دحض هذه الشبهات بلغة أوربية كثيرة الانتشار لا تعدم من يفهمها فى كل بقعة من بقاع الأرض فلا تلبث هذه الشبهات أن تضمحل وأن تزول فيقف أولوا العلم على حقيقة هذا الدين ومراميه العالية ، ويكون من أثر ذلك أن يتناولها بعض الباحثين الاخصائيين ويكتبوا عنها كتابات تخدم فى إعلاء كلمة الله هنالك خدمة عظيمة الخطر بعيدة الأثر جليلة الفائدة .

٧ - مجلة النذير

أنشأ (الاخوان المسلمون) عدداً من الصحف فى هذه الفترة كان أبرزها مجلة النذير (١٩٣٨) التى أشرف عليها الأستاذ حسن البنا ورأس تحريرها الأستاذ صالح عشماوى وكتب فيها عديد من كتاب الاخوان . وقد أشار الأستاذ حسن البنا إلى هدف المجلة فقال :

منذ عشر سنوات قام الاخوان بدعوتهم وهدف هذه الدعوة وسداها وأصلها وفرعها أن تركز النهضة الاسلامية الحديثة على قواعد ثابتة من تعاليم الاسلام الحنيف وأن تمتزج بروح الاسلام وكلمة القرآن على كل ناحية من نواحى الحياة ومظهر من مظاهرها فى كل هذه الأمم ، فنظام الحكم يجب أن يكون إسلامياً قرآنياً ، وقوانين البلاد المسلمة يجب أن تكون إسلامية قرآنية وبيوت المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم يجب أن تكون مستمدة من روح الاسلام ولا تتنافى مع شرعه وحدوده وما أمر به وحض عليه والعقائد والعبادات والأخلاق وكل شيء مما يتعلق بالفرد أو بالأسرة أو بالأمة يجب أن يكون مأخوذاً من الاسلام تابعاً لما جاء به رسول الله ﷺ عن ربه وبذلك نعود إلى المسلمين قوتهم الروحية وقوتهم المادية واستقلالهم المفقود وعزهم الضائع ومجدهم المغصوب .

وسيظل الاخوان ينادون بهذه المبادىء ويعملون لها ويجاهدون فى سبيل تحقيقها حتى يصلوا ويضحون بكل شيء فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية لا يثنيهم عن ذلك شيء حتى يأتى أمر الله .

إن الذين وضعوا الدستور المصرى قالوا فى المادة التاسعة والأربعين بعد المائة منه أن (دين هذه الدولة الرسمى هو الاسلام) فالأمر لا يعدو أحد إثنين : إما أن يكونوا جادين فى هذا الذى سجلوه على أنفسهم فى الدستور المصرى فيجب أن يكون محل احترام منهم وأن يعملوا جادين حتى تحل النظم الاسلامية محل كل نظام غير إسلامى فى كل شيء ، فى الحكم والقانون والعبادات والمعاملات وإما أن يكونوا لا يقصدون ما يقولون وهم بذلك يعبثون ويلهون ويغشون الشعب ويخدعون ومن ثم علينا أن نتقدم إليهم بالنصيحة فإن عملوا فبها وإلا فنحن دائبون فى جهادنا عاملون على تحقيق هذه الغاية مهما كلفنا الأمر .

الفصل الثامن

الانتقاض على حركة التغريب

منصور فهمي : ذاتيتنا والحضارة — إسماعيل مظهر : ترابط العروبة والإسلام

الدكتور هيكل : المنبع الوحيد هو الإسلام — زكي مبارك : اللغة العربية

أولا : منصور فهمي :

كان الدكتور منصور فهمي من أوائل شباب البعثات الذين أوفدتهم الجامعة المصرية إلى أوربا قبل الحرب العالمية الأولى ، وكانت رسالته عن المرأة المسلمة الاجتماعية من أخطر الأطروحات التي أثارت كثيراً من الجدل لما حوته من شبهات وأخطاء ، فقد وضعها تحت إشراف (ليفي بريل) اليهودي الذي كان له أثره البعيد في الآراء المنحرفة التي أوردها منصور فهمي وكانت سبباً لمساجلات عديدة وإلى حالت سنوات طويلة دون اشتراكه في الحياة الفكرية المصرية ، غير أن الدكتور منصور فهمي لم يلبث أن استرد إيمانه وانتقض على حركة التغريب وجاهر بآرائه في الأخطاء التي حملها طه حسين ومدرسة التغريب ، وقد كانت له مواقف كثيرة تكشف هذا الاتجاه الجديد إلى التصحيح ، ومن ذلك هذه النماذج :

(١)

إن الكثير مما لحقنا عن الغربيين واتخذناه من مكتشفاتهم واصطنعناه من مخترعاتهم كان لا بد لنا من اتخاذه واصطناعه لأن الخيرات التي تثمرها عقول البشر ليست وقفاً على ناحية من نواحيه ولكن هناك فرقاً بعيداً وبوناً شاسعاً بين من يأخذ من غيره ويستعين بطرائق هذا الغير وبين من يأخذ عن الغير ليركن إلى ما يأخذه فيعطل قواه المواتية ونشاطه الكمين ، وشتان بين من يأخذ سلاح الغير ليقهره به وبين من يتخذ سلاح الغير ليكون له إماماً .

وشتان بين من يتخذ من التقليد وسيلة المغايرة والابتكار .

أو لا يرى من يدعونا ويريدنا على أن نمضي إلى الاقتداء بالغربيين في مسائل الثقافة أو في غيرها أنه إنما يدعو في نفس الوقت في استساغة موقف الاستكانة والركون إلى الانقياد .

على الأمة التي تريد عزتها أن تمعن في الابتكار بمعاني هذه العزة ورغبتها في أن تغاير غيرها من الأمم بمشخصات وصفات ترفعها عن غيرها من الأمم .

(٢)

نحن وفق مقومات فكرنا العربي الإسلامي لا نقبل عيوب الحضارة الغربية ونواجهها مواجهة الإصلاح والنقد حتى نقارب المثل الأعلى لأمتنا ، وبين الواقع والمفكر يجب أن يعيش عصره ، هذا إيماني ، ولكنه مكلف بتحويله إذا انحرف ، والتحفظ على اندفاعاته وتعديل المجرى أمامه ليصل إلى الغاية المثلى .

والغايات العليا والكبرى للأمم لا تتم دفعة واحدة ، ولكنها تتم على مراحل ولا يمكن أن تنقل أمتنا العربية من واقعها الذي يقف الآن في مرحلة الجذر إلا على مفهوم واضح ببناء أساس فكري وروحي سليم يمكن أن يواجه القيم والأفكار القادمة من الشرق أو الغرب حتى لا تجرف كياننا ولا تجعلنا نفقد شخصيتنا الشخصية .

(٣)

إننا منذ أوائل القرن نظرنا إلى أوربا واتخذناها مثلا نحتذيه :

أيهما يا ترى أهدى إلى الحق وأوفق إلى سبيله ، ذلك الذي يجد أن حياتنا الاجتماعية تظل في هرج واضطراب ما دمنا لا نحتذي أمر الغرب ونقدم على اصطناع مثله في صراحة وعزم ، أم ذلك الذي يرى أن أمتنا ليست كأمم الغرب في كل شيء ، وأن اتخاذ أكثر نظم الغربيين لا يجدي في رفعتنا وإسعادنا وقد يعود علينا بالشقوة والخسران .

وقد يجرنا القادة إلى اتباع أوربا عما هو أبعد الأمور عن طباعنا ، فهل من المستطاع بعد ذلك أن يسهل علينا الرجعة والنكوص ، ليست بيئتي هي بيئة الغرب ، فهذه سماؤها غير سماء الغرب ، وهذه لغتها غير لغته ، وهذا ما ورثناه من عادات وسنن وظروف وحروف غير ما ورث الغرب . أنكون مكوناتنا غير مكوناته وميزاتنا غير ميزاته ، وظروفنا وحروفنا غير ظروفه وحروفه ، ثم يراد بنا أن نكون كالغربيين . ويحاول داعية صريح أن يقنعنا بأن نتخذ من الغرب إماما نأتم به في كليات ما يسير عليه الغرب وفي جزئياته .

إن النفس لتدعوني أن أحتفظ بالخصائص التي أراد الله أن يميز بها أمة أنا من أبنائها وأن أتمسك بتراث انحدر إلى بلدي من قرون وأن أستوحي ما يوحي به تاريخي على الأمة التي أريد عزتها ، وأن تغاير غيرها من الأمم بمشخصات وصفات .

(٤)

إن أصحابنا المجددين لا يرضيهم إلا أن نكون عصابات التناحر . ففئة تهاجم العرب وتاريخهم

وفئة تهاجم الأزهر وتعاليمه ، وفئة تجرح الدين وتقاليده . وفئة تهدم اللغة الفصيحة ، وهكذا دواليك حتى تصبح مصر فى عراك دائم وفتنة شاملة وكرب موصول .

ما هى الآراء القيمة التى يذيعها بعض الكتاب باسم التجديد ؟

كل ما عندهم أنهم يتكلمون عن اللغة الفصيحة وبعدها عن اللغة العامية ، وهذا يدل على جهلهم بلغات الأمم الحديثة ، فمثلا اللغة الانجليزية تكتب فيها الكلمة بشكل وتنطق بشكل آخر ، واللفظة الواحدة ينطقها الاستاذ فى مدرسته أو جامعته بلهجة خاصة وينطقها عامل الترام مثلا بلهجة أخرى والحال كذلك عند الفرنسيين ، ومع ذلك لم نجد فى الأمم الحية من يقول بإحلال العامية محل اللغة الفصيحة .

ويتكلمون عن القومية المصرية ويريدون بذلك أن تنفصل مصر عن أمم الشرق وهذا خطأ ، ومن العجيب أن سلامة موسى وحسين هيكل يتكلمون كثيراً عن الإنسانية وروابطها الأدبية والعلمية ثم ينسون ذلك كله حين يجرى ذكر العرب والمسلمين ، فهل أصبح العرب والمسلمون شعبة أخرى لا يصح أن يرتبط بها المصريون .

ثانيا : اسماعيل مظهر

كان اسماعيل مظهر من أئمة مدرسة التغريب ، وقد حفلت مجلة (العصور) بالأبحاث الضارية فى مجال تعزيز آراء المستشرقين والمبشرين والنعى على مختلف القيم العربية الإسلامية ، غير أن حركة اليقظة العربية الإسلامية استطاعت أن تكشف كثيراً من الزيوف والشبهات ولم تلبث كتابات اسماعيل مظهر أن كشفت عن هذا التحول والانتقاض :

وهذا نموذج من كتاباته :

ينبغى لكل عربى أن يكون فى دخيلة نفسه عربياً روحاً ونفساً ، مثله الأعلى آداب العرب وآداب الإسلام وسياسته الدنيوية سياسة العرب وسياسة الإسلام .

بأى شىء يوحى ذلك المثل الأعلى :

يوحى إليك بأنك إن لم تكن حراً فلست بعربى ولا بمسلم وأنك إذا لم تكن مستقلا فلست بعربى ولا بمسلم .

إننا أقرن الكلام فى العروبة بالإسلام لأن الثابت الذى لا لجاج فيه ولا ريب يداخله أن الإسلام لم يتنزل بلغة العرب فقط . وإنما نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا ، فالعربى النصرانى مسلم

بصفاته العربية والمسلم عربي بما في الإسلام من روح العرب هذه هي الجامعة التي تربط بين العرب على اختلاف عقائدهم وتباين مذاهبهم .

أقول عامداً الثقة بصحة ما أقول إن الإسلام فكرة جامعة ، ومعنى أنه فكرة جامعة : أنه دين ودولة ، ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ، ومهما حاول البعض أن يخرج عن الإسلام بهذه الصفة ، ومهما قيدت نظامات الحكم فسيظل الإسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة في فكرة واحدة هي فكرة الدفاع عن المجموع الذي يستظل بظل الإسلام مهما تفرقت فيه النحل واختلفت المذاهب وتباينت النزعات ، فإذا كانت حكومات المسلمين في هذا العصر قد اضطرت مغلوبة إلى مجاراة روح النظام الحديث في المدنية الأوروبية ففصلت الدين والدولة ، فإن هذا الفصل لا يتعدى أنه فصل في الأوضاع لا في الروح فإن كل حكومة من حكومات الإسلام قبلت فصل الدين عن الدولة وأقامت على ذلك نظاماتها الحديثة فإنها قد نصت على ذلك في دساتيرها على أن دين الدولة : الإسلام

أعتقد أن هذا النص لم يثبت في دساتير الدول الإسلامية إلا استجابة لوعي خفي مستمد من روح الإسلام وأنه دين ودولة معاً أملاه على هؤلاء المشرعين روح إسلامية لم تغب في أنفسهم رغماً شماتها وإن كانت قد استخفت فإنما كان استخفاؤها تحت ضغط الظروف .

كل هذا لأقول أن روح الإسلام ، تلك الروح التي انشأت بنشوء الإسلام وستظل باقية ما بقي الإسلام والتي انشأت أول نظام موحد من الدين والدولة وأدمجتهما معاً هي روح لا تفرق بين رعايا الدولة من حيث العقائد بل إنها روح تقدس الحرية أولا وتحمي رعاياها حماية بلغت منها درجات التسامح في الدنيا .

فإذا قال أحدنا جامعة إسلامية فإنما يعني جامعة عربية روحها الإسلامية ، وإذا قال أحدنا جامعة عربية فإنما يعني جامعة إسلامية روحها العربية ، وكل قول يباين هذا القول خطأ ، وكل منزع يخالف هذا المنزع شعوبية خبيثة .

ثالثا : الدكتور هيكل

كان الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة في مقدمة دعاة التغريب ، ومن أبرز الذين انتقدوا على هذه الحركة، ثم استطاع في جرأة أن يكشف عما حمله على هذا الانتقاض وأوضح في صراحة بالغة كيف كان مفهومه طريق التجديد والنهضة ثم كيف اضطرب به السبل حتى لم يجد أخيراً إلا الطريق الأصيل :

الفكر الإسلامي .

أقتبس هنا لادفع زعماً حسب الذين زعموه أنه مغمز يغمزوني به بعد تأليف كتاب (حياة محمد) حسب

هؤلاء أنى اتقليت بكتابة السيرة رجعياً وكنت عندهم قبلها فى طليعة المجددين ، وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد جعلت القرآن حجتى وما فيه من السيرة سندى ولم أضعه كما يقولون موضع النقد العلمى وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد دفعت بالحجة ما طعن به على النبى العربى جماعة المستشرقين ومن تابعهم من كتاب المسلمين .

وكيف ساغ لى بعد ذلك أن أزعم أمامهم فى حياة محمد وأن أزعم اليوم ها هنا أنى طليق من القيود عدو الجمود نصير البحث العلمى الحر ، وإنى أؤمن بحرية الرأى وأعتبرها الأساس لا أساس غيره لمن يريد معرفة الحقيقة .

ولكنى أسائل أصدقائى أحرار الرأى من قابلنا جميعاً حتى أنتج :

ألسنا نبغى التقدم خطوة جديدة فى سبيل الكمال ، فالعالم يبغى مزيداً من العلم ومن الثقافة ، وطالب الحقيقة يريدها أجلى سناً وأعم نوراً وإنما مطمعنا حين نلتمس المزيد من المعرفة أن نسمو بهذا الجانب الإنسانى فى الأفراد والجماعات ، ولقد خيل إلى زمناً كما لا يزال يخيل إلى أصحابى أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى النهوض .

لقد كنت عظيم الثقة بالعلم وبالطرق العلمية الغربية فيما ستؤدى إليه من معرفة حقيقة الكون التى هى ملاك السعادة . ثم تمخضت الحرب عن حقيقة بلغت قوتها عندى سنة ١٩٢٠ وهى فقدان الثقة بالغرب وأدركت أنه يعانى من أزمة روحية يلتمس علاجها فى فلسفة الهند .

وإلى هذه الحقيقة لاحظت فى اتجاه السياسة الأوروبية ظاهرة غريبة : تلك هى نشاط التبشير المسيحى فى الأمة الإسلامية وتأييد السياسة الغربية فى ذلك الوقت لانصار الجمود الاسلامى .

وإن الشباب المصرى الذين كانوا رسل الحضارة الغربية إيماناً منهم بأنه سبيل نهضتهم قد تفتحت أعينهم على كيد الغرب لدينهم ، وأنهم غضبوا لاسلامهم الذى تريد الدول المسيحية أن تمحوه وجعل كل منهم يفكر فى وسيلة الخلاص من الغرب فاتجه فريق منهم إلى الرابطة الشرقية واتجه آخرون إلى الجامعة العربية وفكر ثالث فى إحياء الخلافة الاسلامية ورأى فريق رابع أن يحارب الاستعمار الغربى بأسلحته فتمسك بمبدأ القومية .

٢ — لقد خيل إلى زمناً كما لا يزال يخيل إلى أصحابى أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض ، وما أزال أشارك أصحابى فى أنا مازلنا فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله ، لكنى أصبحت أخالفهم فى أمر الحياة الروحية وأرى ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله ، فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب وثقافتنا الروحية غير ثقافته . خضع الغرب للتفكير الكنسى على ما أقرته (البابوية) المسيحية منذ عهدها الأول . وبقى الشرق بريئاً من الخضوع لهذا

الفكرى بل حوربت المذاهب الاسلامية التى أرادت أن تقيم فى العالم الاسلامى نظاماً كنسياً أصول الحرب ، فلم تقم لها فيه قائمة أبداً ، بذلك بقى الشرق مطهراً من الأسباب التى أدت إلى اضطراب الغرب الروحى ، وإلى ثوراته السياسية التى نشأت عن هذا الاضطراب وبقى المسيحيون المقيمون بالشرق فى جوار المسلمين فى طمأنينة لا يصلون من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم فى الغرب .

كان الخروج على الكنيسة المسيحية فى الغرب إعلاناً الثورة على السلطان وكانت الثقافة الروحية لذلك فى قبضة رجال الدين يبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه وينقضون ما يشاءون نقضه . أما والاسلام لا يعرف الكنيسة وأقرب الناس فيه إلى الله أتقاهم ، ولا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فقد بقيت الثقافة الروحية فى الشرق حرة طليقة لم تقيد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب . لم تعرف عصور الازدهار الاسلامى قيداً لحرية الفكر ما كان صاحبه برىء القصد يبتغى برأيه سبيل الحق . ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله . لذلك نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحى لننهض بهذا الشأن وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة هذا التفاوت العظيم . كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم لا مفر إذاً من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطواء ماضينا ، هذه الحياة الروحية نحيى بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا .

(٢)

« هذا كلام واضح بين ، ومن عجب أن يخفى على أصحابى فلا يرونه وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم على ، ولكن لا عجب فقد خفى على زمناً كما لا يزال خافياً عن كثيرين منهم ، وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً هدى ونبراساً ، لكننى أدركت بعد لأى أنى أضع البذر فى غير منبته فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة . ورويت فرأيت أن تاريخنا الاسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو .

« هذه الفكرة الاسلامية تخالف ما يدعو إليه عالمنا المعاصر من تقديس القوميات وتصور الأمم فى وحدات متنافسة يحكم السيف ويحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس فيه .

ولقد تأثرنا معشر الشرق بهذه الفكرة القومية واندفعنا ننفخ فيها روح القوة نحسب أننا نستطيع أن نقف بها فى وجه الغرب الذى طغى علينا وأذلنا .

لقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما انطوى على الفكرة القومية من جرائيم فتاكة تأكل الحضارة التى تقوم على أساسها وحدها .

على أن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أورثنا من فضل الله سلامة فى الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل وإلى أن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لها .

ومن ثم كانت الهوة التى ازدادت قوتها بين سواد الأمم فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه إلى وجهة الغرب بكل وجوهنا .

لذلك لم يكن لنا مفر من العود إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنتقى الخطر الذى دفعت الفكرة القومية الغرب إليه .

دعوت إلى إحياء حضارتنا السابقة ، وكم فى ماضينا من سنا باهر يقوم ما على أن يبعث الحضارة الاسلامية خلقاً جديداً كما بعثت فلاسفة اليونان فى الحضارة الغربية الحديثة ومحمد بن عبد الله هو النور الأول الذى استمدت هذه الأرواح منه صفاءها وهو الشمس التى أمدت كل هذه الأقمار بسناها لذلك جعلت سيرته موضع دراستى .

إن ثلاثة عشر قرناً انقضت ومنتصف القرن الرابع عشر منذ وفاة النبى ولم تستتر هذه المآخذ من ضيائه إلا ما يستتر كلف الشمس من ضياء الشمس ، ولم يغير هذا النقد من سلطان الحق فى كلام الله إلا ما تغير الرياح من سنن الطبيعة اهـ

(٢)

تحدث مستر جب فى مقدمة كتابه (وجهة الاسلام) وخاتمته عن (تغريب الشرق) وماعنى به إبدال الشرق فى نظمه وقوانينه وطرائق العيش لغما وقوانين وطرائق عيش غربية بحتة ، وإذا كان هذا التعبير يقصد به إلى تغريب الشرق ليصبح غربياً بالفعل عوائد ونظاما وعقائد وديناً .

فتغريب الشرق إنما يقصد به إلى :

(١) قطع صلة الشرق بماضيه جهد المستطاع فى كل ناحية من النواحى ، صلة العقيدة والتفكير بين الماضى والحاضر .

(٢) صبغ ماضى الشرق بلون قاتم مظلم يرغب عنه أهله ، ويرون فيه عاراً عليهم .

(٣) أن يصبحوا عيالا على الغرب يتطلعون إليه في إعجاب وتقديس وعبادة ، ويرون في خضوعهم له شرفاً كبيراً .

وما زال الغرب يبذل الهمم الكبيرة في هذا المجال ، وأحسب أن كتاب الغرب قد نجحوا إلى حد كبير في تصوير تاريخ أمم الشرق بلون قاتم جعل أبناء الشرق أنفسهم يحسون أن بينهم وبين أيام مجدهم ألوفاً من السنين انقضت كانوا أثناءها خاضعين لألوان من الذلة لا يستطيعون اليوم معها أن يشعروا شعوراً صحيحاً بمعنى الحرية ، أو بمعنى العزة القومية ، هذا التصوير زائف في نظر التاريخ المنصف ، فمصر إلى حين الفتح التركي كانت مستقر الحضارة الاسلامية الزاهرة التي أضاءت العالم عصوراً طويلة . ومن بعد الفتح التركي وحين ارتبطت هذه الأمم الاسلامية مع تركيا برباط الخلافة كانت (الوحدة الاسلامية) هي التي تمسك هذه الأمم المترامية الأطراف مما انتظمت الامبراطورية العثمانية أكثر مما خضعت للاستعمار ، وبرهان ما حصلت هذه الأمم على استقلالها الداخلي عن تركيا استقلالا كان له مظهره أيام المماليك .

ومن أهداف التغريب (تزييف تاريخ الشرق) وإحلال النظم الغربية والتفكير الغربي في الشرق إخفاء لشخصيته ، وقد وقف التفكير في الشرق بعد الفتح العثماني وجد جموداً معيباً جعل أهل الشرق يرون في الاجتهاد كفراً ومروقاً من الدين ، وقد استطاع الباحثون هتك زيف الصورة التي وضعها ساسة الغرب لتاريخ الشرق لتدخل في روع الشرقيين أنهم كانوا على القرون أذلة محكومين فلا مفر لهم من أن يبقوا اليوم وغداً ، ومن أهداف التغريب قطع صلة حاضرنا بماضينا في التاريخ وفي العلم وفي التفكير ، وفي أمر العقيدة وقد وكل إلى المبشرين أن يقوموا بهذه المهمة الخطيرة . مهمة تزييف العقائد ، وأن يحملوا أهل الشرق على الاعتقاد بأنها سبب تأخرهم وعدم بلوغهم مبلغ الغرب في حضارته ، وآية ذلك أنه لما تم الصلح بين الحكومة الايطالية وبين الفاتيكان ، وأبرمت معاهدة (لاتران) وردت إلى الفاتيكان الأموال التي كانت الحكومة الايطالية قد حجزتها منذ ١٨٧٠ كان أول ما عمله الفاتيكان أن أرصد عدة ملايين للتبشير في الشرق ـ وفرنسا التي تحارب رجال الدين في بلادها أشد الحرب تؤازر المبشرين في الشرق وتمدهم بالمال وتمدهم بالحماية ، والتبشير بعض هذا التغريب للقضاء على الشرق ليظل خاضعاً للسياسة الاستعمارية .

وقد عقد مؤتمر المبشرين عام ١٩٢٧ تقريباً في جبل الزيتون من أعمال فلسطين ومثل المؤتمر مندوبون عن أربعين دولة من دول الغرب وأشيع أنهم يعدون حملة على جنوب بلاد العرب ، وقال زويمر في هذا المؤتمر :

« إن التبشير قد وصل إلى أسمى غاياته في مواجهة العالم الاسلامي ، وأدى المهمة على أكملها وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية . ليس غرض التبشير المسيحي وسياسته إزاء الاسلام هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين . إن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً

مطلقاً والتجارب دلتنا ودلت رجال السياسة المسيحية على استحالة ذلك ولكن الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون ملحداً أو مضطرباً في دينه ، وعندها لا يكون مسلماً ، لا تكون له عقيدة يدين بها عندما يكون المسلم ليس له من الإسلام إلا إسم أحمد . والملحد هو أول من يحتقر الإسلام والمسلمين .

وهذه هي أسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية . وقال زويمر : لقد قضينا على برامج التعليم في الأقطار الإسلامية منذ خمسين عاماً ، فأخرجنا منها القرآن وتاريخ الاسلام ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التي تخلق فيهم العقيدة الوطنية والإخلاص والرجولة والدفاع عن الحق والوازع أن القضاء على الاسلام في المدرسة هو أكبر واسطة للتبشير ، وقد جنينا أعظم الثمرات المرجوة منه هذا هو مصدر فساد الخلق والوطنية وموت الرجولة ، فقد أفاد التبشير في المدارس المسيحية حيث خلق من أبنائها نفوساً لا تؤمن بالله ولا بالفضيلة ولا بالوطن ولا بالحق .

رابعاً : زكى مبارك

بالرغم من أن زكى مبارك قد جرى شوطاً مع المستشرقين ودعاة التغريب ، وكان في مقدمة تلاميذ طه حسين ، ومن أكبر المدافعين عنه في أزمة الشعر الجاهلي فإن له مواقف في الدفاع عن اللغة العربية كان من أبرزها هجومه على الدعوة التي حمل لواءها (لويس ماسنيون) في أقاليم العامية والحروف اللاتينية :

يقول : إن الفرنسيين يريدون أن يختصروا الطريق ، هم يريدون أن يستريحوا من اللغة العربية ومن الاسلام ، وسيلتهم إلى ذلك أن يقنعوا بعض الأطفال من أهل الشرق بأن اللغة العربية أصبحت في عداد اللغات الميتة وأن الاسلام لا يصح أن يكون أساساً لمدنية جديدة وأنه لا يليق بالرجل العصري أن يكون متديناً لأن الديانات لم تكن إلا لهداية الرعاع .

ومن المحزن أن هذه الدعايات يقوم بها أناس كنا نظنهم من أهل المروءة والشرفاء فإني أفهم أن يكون الرجل من طلاب الملك والفتح والسيطرة ، ولكنى لا أفهم كيف يتفق لرجل قضى خمسين عاماً في التعرف إلى اللغة العربية والإسلام أن يزعم أن لغة العرب لا تستطيع وعى العلوم الحديثة .

وهم يقولون ذلك حرصاً على منفعة أبنائهم في المستعمرات الفرنسية فيما يزعمون ولكن الغرض المستور هو القضاء على التقاليد العربية الاسلامية ليخلو الجو للغة المستعمرين الأبرار وأنصار العلم والانسان .

ولقد وقف أحد المستشرقين الفرنسيين يخطب في بيروت (يقصد لويس ماسنيون وكان هو في باريس) وكان من مهمته أن يبث سمومه في الشباب السوريين فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تتفرع إلى لغات عديدة كما تفرعت اللغة اللاتينية .

فيا سعادة الشرق العربي إذن حين تصير اللغة العربية إلى مثل ما صارت إليه اللاتينية ، فقد ماتت لغة الرومان حيث لا رجعة ولا مآب ، وهذا هو الفخار الذي يطلبه ذلك المستشرق للغة العربية فأكرم به من صديق !

ومن نوع هذا الخلط ما زعم ذلك المستشرق المغرض عن الحروف العربية فقد ألقى محاضرة في الكوليج دي فرانس أبان فيها أنه لا حياة للغة العربية إلا إذا كتبت بحروف لاتينية .

لم يبق إلا أن القوم يريدون أن ينحدر العرب إلى مثل ما انحدر إليه الترك ليضيع جزء مهم من شخصية اللغة العربية وليسهل قطع ما بيننا وبين أسلافنا من الأواصر الأدبية والروحية وفي ذلك تيسير لمهمة الدساسين الذين يريدون قتل الشرق باسم العلوم والآداب .

الفصل التاسع

كبرى قضايا الفكر العربي

إن المعارك الأدبية التي دارت فترة ما بين الحربين تكشف بوضوح عن اتجاه الريح ، فقد جرت الريح عاصفة في وجه اليقظة حيث أثارت الغبار والأتربة عاصفة في وجه كل الحقائق والقيم في زوبعة ضخمة ، ثم لم تلبث العاصفة أن خفت وظهر وجه السماء ، واستطاعت القيم الأصيلة أن تدافع عن وجودها .

كانت الشبهات التي حملها تيار التغريب تجتاح كل مجال وكل قيمة .

أولا : ففي مجال اللغة العربية دارت معارك ضخمة دعت إلى تغليب العامية والحرف اللاتيني .

ثانياً : وفي مجال الأدب دارت معارك الإقليمية ونقد النص القرآني وتفريغ الأدب العربي من مقوماته وفرض نظرية النقد الغربية الوافدة عليه وجرت الدعوة إلى إعلاء شأن الأدب المهجري والأدب المهموس .

ثالثاً : في مجال العروبة والاسلام استعلت دعوات الإقليمية والتجزئة والاقليمية ، والفصل بين العرب والاسلام وبين العرب وتاريخهم ، وجرى إعلاء شأن الفرعونية والفينيقية .

رابعاً : وفي مجال التراجم والاعلام ذهبت حركة التغريب إلى إعلاء شأن أبي نواس وبشار والضحاك والدعبل الغزالي والمتنبي وابن خلدون .

وتوالت المعارك في مجال دفع النظرية المادية ، والتراث اليوناني ، والنظرية الغربية ، وتحطيم كل مقومات الفكر الاسلامي الاجتماعية والأخلاقية .

وجرت المحاولات لدفع القصة الغربية إلى الأمام ، ومهاجمة المواقف الحاسمة في التاريخ الاسلامي وإذاعة الأسطورة وإقحامها على السيرة ، والترويج لمفاهيم ومقومات لا تتصل بالفكر الاسلامي ولا بالثقافة العربية أو الأدب العربي .

وكانت أبرز هذه المعارك : معركة تحريف المفاهيم والقيم التي قادها طه حسين من خلال كتبه : الشعر الجاهلي وحديث الأربعاء ومستقبل الثقافة .

قضية تحريف المفاهيم وتزييف القيم

إن الذين يتصورون أن طه حسين ألف كتابه (الشعر الجاهلي ثم الأدب الجاهلي) ليناقش الشعر المنحول هم مع الأسف قصار النظر، فالواقع أن طه حسين أراد أن يتخذ من دراسة الأدب الجاهلي وسيلة لوضع كل سموم التغريب الكبرى، التي تهدم العقيدة والشريعة والأخلاق في قالب من الأسلوب غير المباشر، من خلال هذه الدراسة مقدماً كل آراء الشعوبية والإلحاد والتوهيد والاستشراق، ودسها بين ثنايا هذا البحث: إذاً لا علاقة للبحث مطلقاً باللغة أو اللهجات ولكنه محاولة للهجوم الأكبر على القرآن والنبي والإسلام من خلال إثارة الشبهات تحت ستار البحث الأدبي وهذا هو أول ثمار الدعوة التي دعا إليها وهي تحرير البحث الأدبي من القومية والدين، وتعد معركة التغريب وتزييف القيم أقدم معركة أدبية لحساب الماسونية والصهيونية العالمية.

(١)

مصطفى القاياتي: مجلس النواب

هذا الكتاب تكذيب لصحيح التاريخ وتكذيب لنصوص القرآن ونسبة التحايل إلى الله وإلى النبي محمد وإلى موسى عليه السلام.

لقد جاء في هذا الكتاب تكذيب صريح القرآن ونسبة صريحة للنبي أنه متحايل وكذب صريح على التاريخ.

ذكر أن حادثة إبراهيم وإسماعيل حادثة لا يعول عليها التاريخ ولا يمكن التسليم بها وأنها حادثة روجها المسلمون لسبب مخصوص هو سبب سياسي أكثر منه ديني.

أريد أن أقول لأقوام لا يرون رأينا ويدعون أن البحث أمر واجب وحر وأنه لا يجوز لنا أن نقيد حرية الناس في آرائهم. أقول لهم إننا لا نقيد حريتهم في عقائدهم، ولكننا نقيد آراء تلقن لأولادنا وتذاع على أفراد الأمة ما بين متعلم وغير متعلم.

لا يجوز أن نكتفي مطلقاً بأن المؤلف صرح في الصحف أنه مسلم ولم نسمح له نفسه أن يكتب كلمة يشرح فيها ما قاله أو يؤوله بمعنى يفهم منه خلاف ما فهمناه. أن التوبة لا تغفر الذنب ولا تعفي من العقوبة.

(٢)

محمد طاهر نور : قرار النيابة

الخطأ حيث يبدأ بافتراض يتخيله ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة كما فعل فى أمر الاختلافات بين لغة حمير وبين لغة عدنان .

وفى مسألة إبراهيم واسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة .

بدأ بقوله : التوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل . وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الإسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها .

إلى هنا أظهر الشك بعدم قيام الدليل التاريخى فى نظره كما تتطلبه الطرق الحديثة ، ثم انتهى بأن قرر فى كثير من الصراحة : (أمر هذه القضية إذن واضح ، فهى حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الاسلام لسبب دينى ، فما هو الدليل الذى انتقل به من الشك إلى اليقين ، هل دليله هو قوله (نحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعاً من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وإن أقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمالى البلاد العربية .

فالمؤلف يرى أن ظهور الاسلام قد اقتضى أن يثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصارى وأن القرابة المادية الحقيقية بين العرب واليهود لازمة لإثبات الصلة بين الاسلام واليهود فاستغلها لهذا الغرض فهل له أن يبين السبب فى عدم اهتمامه أيضاً بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الاسلام وبين النصرانية ، إن الأستاذ ليعجز حقاً عن تقديم هذا البيان .

وكل ما اعتمد عليه من الأدلة هذه العبارات : (١) فليس يبعد أن يكون (٢) فما الذى يمنع (٣) ونحن نعتقد (٤) وإذن فنستطيع أن نقول :

فالأستاذ المؤلف فى بحثه إذا رأى إنكار شىء يقول : لا دليل عليه من الأدلة التى تتطلبها الطرق الحديثة للبحث ، وإذا رأى تقرير أمر لا يدلل عليه بغير الأدلة التى أحصيناها له ويكتفى بقوله حجة !

وسئل عن أصل هذه المسألة (أى تلفيق القصة) وهل هى من استنتاجه أو نقلها فقال : هذا فرض فرضته أنا دون ان أطلع عليه فى كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب أن شيئاً

مثل هذا الغرض يوجد فى بعض كتب المستشرقين (المبشر الذى تستر تحت إسم هاشم العربى) .
وكان هاشم العربى فى عبارته أظرف من مؤلف الشعر الجاهلى لأنه لم يتعرض للشك فى وجود إبراهيم وإسماعيل بالذات ، وإنما اكتفى أن أنكر أن اسماعيل أبو العرب ، وقال إن حقيقة الأمر فى قصة اسماعيل أنها دسيسة لفقهاء قدماء اليهود للعرب تزلفاً لهم .

(٣)

عبد المتعال الصعيدى

فى الشعر الجاهلى :

١ - إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل .

٢ - تكذيب القرآن والتوراة فى دعوى وجودهما .

٣ - الوهم بأن قصة إبراهيم وإسماعيل وأبوتهما للعرب أسطورة لفقهاء يهود جزيرة العرب لغرض سياسى واستغلها القرآن لغرض دينى .

وقد أخذ هذه الآراء من (ذيل مقالة فى الإسلام) لهاشم العربى والكتاب من عمل المبشرين الطاعنين فى الإسلام .

يقول صاحب ذيل مقالة فى الإسلام (ص ٣٥٢ من كتابه المطبوع فى مطبعة النيل المسيحية بالقاهرة) (وحقيقة الأمر فى قصة اسماعيل أنها دسيسة لفقهاء قدماء اليهود تزلفاً إليهم وتذرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة لهم فى بلاد العرب إلخ ، وقد تابعه صاحب الشعر الجاهلى ، وصاحب الذيل يجعل التوراة هى الأصل ويعرض عليها القرآن فإن خالفها طعن فيه .
أما الدكتور فيكذب بالتوراة والقرآن جميعاً ، ويعترف صاحب الذيل بوجود إبراهيم واسماعيل فيأتى المقلد فيكذب بوجود ابراهيم واسماعيل فضلا عن أبوتهما للعرب .

وكان صاحب الذيل فطناً محترساً وكان حاكيه (طه حسين) قليل الفطنة فاصطدم بالنقض الآتى: إن التوراة قد انتشرت فى البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها فى جزيرة العرب وكان فيها ذكر إبراهيم واسماعيل فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهرانى العرب حيلة منهم للتقرب إليهم .

ولو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوها حيلة فما هذا السر فى أن كان ذكر ابراهيم واسماعيل فى جميع نسخ التوراة .

إن صاحب ذيل مقالة فى الإسلام صاحب الفكرة الأصيلة ، فقد كان أفطن لهذه الاعتراضات التى وقع فيها طه حسين فصدق بوجود إبراهيم واسماعيل وكذب بأبوتهما للعرب فقط .

لقد سرق الدكتور بحثه من كتاب سخيف ولم يفهمه على وجهه .

(٤)

عبد الرازق الحسنى

القرآن الذى تغلب على الأدب العربى وظهر عليه وانتصر هو الذى أوجد الثقافة العربية الحاضرة ونحن ممن يعتقدون بأن الدين الإسلامى جاء بروح أدبية أوحاها واختص بظهورها هذه الأمة لما تأهلت له .

وإذا كان الدكتور طه قد طوى من الطبعة الجديدة (الأدب الجاهلى بدلا عن الشعر الجاهلى) بعض الخزى الذى كان فى الطبعة القديمة كزعمه أن ما ورد فى القرآن وفى التوراة عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام إنما هو أسطورة فهو مستند فى هذا الزعم أى دليل على فإنه فى الطبعة الجديدة من العداء الإسلام والعرب ومن السفسطة المستورة والمكشوفة شيئاً كثيراً .

(٦)

حسن أحمد عبد الرحمن (حسن البنا)

إن المدرس ينظر إلى مؤلف الكتاب من ثلاث جهات :

(أولا) من مواهبه الخاصة فى المادة التى يدرسها .

(ثانياً) من مادته التى يقدمها لتلاميذه .

(ثالثاً) من طريقته فى التفكير وما يبثه فى نفوس طلابه .

(رابعاً) من أخلاقه وطباعه .

والدكتور طه متهم فى ذلك جميعاً فهو لا يحسن الشعر وإن حاول ذلك أتى بالغث المتكلف الذى يمجه الطبع ويستثقله السمع .

وهو لا يجيد أسلوب الكتابة إذا حاكمته إلى الذوق العربى والبلاغة اللغوية وقسته بما وضعته الأئمة من أوزان البيان ومقاييسه ، أما فى حشو القول والاتساع به وإطالته بالتشدق والتفيهق فالرجل فى ذلك لا يشق له غبار ، وما هو بالناقد الذى يحسن النقد الصحيح فى الشعر والنثر ولئن أحسن التهجين والتجريح والزراية على غيره من الأدباء والكتاب ،

وبعد فليس الدكتور متخصصاً بدراسة تاريخ الأدب ، لم يتلقفه عن أستاذ ولم يلم به في مدرسة وإنما علم من ذلك ما يعلق بذهنه من مطالعة كتب الأدب لا ليدرسها ولكن ليقرأها ، وما نيل الدكتور إجازته في تاريخ اليونان أو تاريخ العرب قبل الإسلام هو أقوى الدعائم التي يستند عليها الكاتب إذا أراد أن يكتب في الأدب العربي ، فمن فاته رواية ودراية فقد فاته أس البحث وأساسه وسار على غير هدى .

آية ذلك ما أورده في كتابه الشعر الجاهلي ، وقد حكم عليه عقلاء الأمة وأدباؤها بالخطأ والخطل والفشالة وكشف المحققون من الأدباء الغطاء عن مغامز ومعايب يبرأ منها .

أما طريقته في التفكير وما يبثه في نفوس طلبته من طباعه وأخلاقه ، فما علم الناس من ذلك إلا الشك والحيرة والانسلاخ عن العقيدة والدين يسمى ذلك منهجاً علمياً .

وإن لعجب فعجب دفاع الأستاذ العقاد عنه وزعمه أن الدكتور نابغة الدهر ونادرة العصر وأنه لا يمكن أحد أن يسد فراغه ويملأ مكانه .

ولعل حكمك هذا على رجال الأدب في مصر من نوع حكمك السابق على شوقي وحافظ وهما معجزة أدب العرب وحاملا لواء الشعر المصري .

(ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً) .

أما قولك أن الكتاب ليس فيه ما يمس الدين والأخلاق فاسمح لي أن أصارحك بأنك لست من أهل الدين المتخصصين ، وآية ذلك قصة إبراهيم وإسماعيل وتكذيب المؤلف القرآن والتوراة والإنجيل وتهوين شأن النبي محمد ﷺ ونسبته إلى التحايل بالأساطير والتهكم بالأجلاء من الصحابة ورميهم بالضلالة وعدم التأثر بتعاليم الإسلام ظاهراً فضلا عن تكذيب صريح الأحاديث الصحيحة وتعطيل أحكامها والخلط في الأغراض والأنساب والنتائج والأسباب .

(٧)

محمد أحمد الغمراوي

كتاب (في الأدب الجاهلي) هو كتاب (في الشعر الجاهلي) بروحه وغايته وطريقته لم ينتفع منه صاحبه بنقد الناقدين على امتداد القدم وصوابه ، فإني لا أعرف في عهدنا هذا كتاباً لقي من عناية النقاد على تنوعهم ما لقي ذلك الكتاب ، وفي رأينا أن إعراض صاحب الكتاب عن الانتفاع بذلك النقد الكثير الصائب أدل على الروح الذي يحركه ، والغرض الذي يسعى إليه من كل ما تزوق وينمق من زخرف ويزعم به التجرد عن الهوى والحرب على سنن العلم الحديث ،

يؤسفنا أشد الأسف أن صاحب الكتاب ومن لف لفه يسوقون الأدب العربي في طريق غير طريقه ويلبسونه ثوباً من غير نسجه ، وينسجون عليه نسجاً فرنسياً ، ويسوقونه في نفس الطريق الذي ضل فيه الأدب الألماني قرناً وبعض قرن فصل عن نفسه ولم يهتد حتى رده عن الطريق هلر وهاجيدون واسنج .

وما تلك الطريق التي يسوقون الأدب العربي فيها إلا طريق الافتتان بالأدب الفرنسي خاصة والغربي عامة حين لا صلة بين ذلك كله وبين روح الأدب خاصة والشرق عامة ، كما لم يكن هناك في القرن ١٧ بين الأدب الفرنسي والألماني صلة .

والذين أحلوا ألمانيا فقلدت فرنسا في ذلك العصر تقليد القردة - والتشبيه للدكتور براندس - هم عدد من يسميهم صغار براسات الأدب ، وكان الدكتور طه ومن معه يريدون أن يكونوا للعربية ما كان هؤلاء الألمانية فيفتنوها بغيرها ويضلوها عن نفسها ، فإنك إذا قرأت لهم رأيت تقليداً بحتاً يفرض عليك باسم التجديد ، ونظرت إلى روح غربية متقمصة قميصاً عربياً . ونحن لا نرى هذا التقليد من تجديد أدب لغتنا في شيء لأنه يلهينا عن ذات أنفسنا بأحاديث غيرنا ويشغلنا بأدب غيرنا عن أدبنا .

(٨)

الدكتور عبد الحميد سعيد

(منبر مجلس النواب مارس ١٩٣٢)

الدكتور طه حسين : هو الرجل المعروف بمصادمة آرائه نصوص القرآن الكريم والعقائد الدينية وقد ظهر عداؤه للإسلام في كثير من أماليه وأفكاره ، ومنها كتاب الشعر الجاهلي الذي ضجت من صدوره البلاد ولا يزال يدرس في الجامعة بعنوان (في الأدب الجاهلي) ولكن تغيير العنوان لم يغير شيئاً من روحه اللادينية فإن السموم التي أراد الدكتور أن ينفثها في كتابه لا تزال ماثلة في كثير من فصوله ومباحثه ، كما أنه قد زين للشبان رسائل المجون والفجور في مؤلفه حديث الأربعاء .

انشأ هذا الرجل في الجامعة الأزهرية واشتهر بين إخوانه بتلك النزعة اللادينية واعترضت حياته أمور غرست في نفسه عاطفة الحقد والحنق على الأزهر ثم على الإسلام من أجل الأزهر فصار عدواً للدين وأماليه ، يشوه كل ما هو منسوب إليه ، ومن يتتبع حياته العلمية يجد أنه يذهب في كل مسألة تتعلق بالإسلام مذهب أعداء الدين وخصومه الألداء . وهناك نقطة ضعف في حياة الدكتور طه بسط تفاصيلها صديقه الحميم الأستاذ المازني في كتابه (قبض الريح) وهي ترجع إلى ما أحدثه كف بصره من التأثير في مزاجه وفي تفكيره وإحساسه ونظرته إلى الحياة والناس فهو لا يرى في الحب إلا التمتع المادي ، لأنه مكفوف البصر إذا لم يتقيد بالفضيلة جرى على لسانه ما جرى

على لسان بشار بن برد من فحش القول ، والتغنى بالحب الحيوانى وإن كان من أهل الفضيلة والاحتشام كأبى العلاء المعرى كان زاهداً عفيفاً ، ولكن سيء الرأى فى المرأة يعتقد أنها متاع فقط .

قال الأستاذ المازنى الذى اشتهر فى أقواله ومقالاته بالدفاع عن صديقه الدكتور طه حسين ما يأتى بالحرف الواحد : وهو بطبعه ممراح وقد أقبلت عليه الدنيا ومالأه الحظ فلم يجد التشاؤم مرضى له فى نفسه ، ولكنه يؤثر الوقار ويميل إلى التقشف بالمعرى فيكبح نفسه ويردها على مكروهها ، غير أنه ما لا يظهر فى سكونه الذى يتوخى فيه الاحتشام يظهر فى كتاباته وفى التفاتات ذهنه فلا عجب أن رأيناه كلفاً بتناول المجان وأهل الخلاعة من شعر فحول العرب وتلخيص القصص التى تقوم على الخيانات وما إليها ، وتسويغ ذلك والاعتذار له حتى كأنه يحاول أن يقول بلسان غيره ما تلح به الرغبة فى الكشف عنه والافضاء به عن مكنونات نفسه » .

إننا لا نشكو من هذا الرجل حرية الرأى ، ولا ما تؤدى إليه من بحوث علمية وأدبية بريئة ، ولكننا نشكو منه غلا ران على قلبه نحو الإسلام والمسلمين ، نشكو منه أن يتخذ من الجامعة حصناً يلوذ من خلف أسواره غاراته السامة الحاقدة فتصيب من الأخلاق والأدب مقتلا ثم ينفث سمومه فى نفوس الطلبة وهم غير مسلحين بالدين وغير مدرعين بتلك التعاليم التى تمكنهم - لو كانوا يعلمونها - أن يهدوا بها الجبال .

ولم يبق خطر هذا الرجل محصوراً بين جدران الجامعة ولكنه تعداها إلى المدارس والمعاهد الأخرى ، بل تجاوزها إلى البلاد العربية التى يحق لها أن تحاسبنا على ما أنتج ذلك من ضرر .

وإنى أقص على حضراتكم شيئاً لم تكونوا عالميه قبل اليوم فيما أعتقد

كان هذا الرجل يكلف بعض طلبته أن ينقدوا بعض آيات من القرآن الكريم يعينها لهم ويطلب لهم إثبات هذا النقد فى كراسات يملونها عليه فكانوا يثبتون أن هذه الآية ليست من البلاغة بمكان وأن تلك الآية على جانب من الركاكة وأن الآية الأخرى مفككة لا تؤدى المعنى المقصود منها ، ولقد غاب عن هذا الرجل أنه لا يصح التصدى لتفسير القرآن إلا لمن تتوافر فيه شروط أساسية أهمها أن يكون ملماً بكل فروع اللغة العربية وآدابها وأن يكون واسع الاطلاع عليها بأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ، وبحديث رسول الله وإسناده فهل تتوافر هذه الشروط فى الطلبة كما تتوافر فيمن يتعرض لتفسير كتاب الله ، فما بالكم بمن يريد أن ينتقده .

أما إذا كان يريد أن يمرن طلبته على النقد فلديه متسع فى فنون الأدب وكتبه العديدة .

وسأتلو عليكم بعض ماأثبته أحد طلبة الدكتور طه حسين فى كراسته مما كان يلقيه عليهم فالتقطه الطلبة عنه وسجلوه فى كراساتهم

وهذه إحدى المذكرات التى أخذت عن المحاضرات التى ألقاها الدكتور طه حسين فى كلية الآداب بقصر الزعفران ١٩٢٧ — ١٩٢٨ .

« وصلنا فى المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب فى القرآن وقررنا أنه ليس على نسق واحد ، واليوم نوضح هذه الفكرة :

« لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذى لا يفرق فى نقده بين القرآن وبين أى كتاب أدبى آخر يلاحظ أنه فى القرآن أسلوبين متعارضين . لا تربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثر ببيئات متباينة ، فمثلا نرى القسم المكى منه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة كما نشاهد فى القسم المدنى واليثربى تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة . فأنتم إذا دققتم النظر وجدتم القسم المكى ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب والسباب والوعيد والتهديد ، والخلو التام من التشريع والقوانين كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم والفجر والضحى والعصر والليل والنهار والتين والزيتون إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً .

« أما القسم المدنى فهو هادىء لين وديع سالم يقابل السوء بالحسنى ويناقش الخصوم بالحجج الهادئة والبرهان الساكن الرزين .

كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات ولا شك أن هذا أثر واضح من إثارة التوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن .

وهناك موضوع آخر أريد أن أنبهكم إليه وهو مسألة هذه الحروف الغريبة غير المفهومة التى تبتدىء بها بعض السور مثل : الم ، الر ، طس ، كهيعص ، حم ، عسق الخ فهذه كلمات ربما قصد بها التعمية أو التهويل وإظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف ، أو هى رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة التى كانت موضوعة عند العرب فمثلا (كهيعص) كانت رمزاً لمصحف ابن مسعود ، و (حم عسق) رمزاً لمصحف ابن عباس ، و (طس) رمزاً لمصحف ابن عمر وهلم جرا ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً (انتهى النقل) .

فكأنه يريد القول صراحة أن القرآن مأخوذ من التوراة .

ثم يقول طه حسين :

« ليس القرآن إلا كتاباً ككل الكتب الخاضعة للنقد فيجب أن يجرى عليه ما يجرى عليها والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائياً عن قداسته التى تتصورونها وأن تعتبروه كتاباً عادياً فتقولوا فيه كلمة: ثم يجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شىء من هذا الكتاب ويبين ما يأخذه عليه أ هـ.

يقول الدكتور عبد الحميد سعيد معلقاً :

وبعد هذا يدعى الدكتور طه حسين ويدعى أنصاره أنه مسلم وموحد بالله وأنه يحترم الدين الإسلامى.

إن الدكتور طه من فرط حبه للاسلام وتعلقه له سمى ابنه (كلود) وابنته (مرجريت) وقد ذكرت الجرائد أنه توفيت له طفلة فدفنها فى مدافن الفرنسيين وأنه عمد ولديه ومع ذلك يصرح ويتغنى أنصاره بأنه مسلم وأنه يحافظ على الإسلام أكثر ممن يتشدقون بالمحافظة عليه .

إن تعرضه للقرآن بهذه الكيفية من غير احتياج إليه فيه حجة ودليل على سوء نيته ! وفى فصل عقدة المؤلف (فى كتاب الشعر الجاهلى) ولم تلجئه ضرورة فيه إليه ولا احرج منه القارىء إلا وهو يعتقد أن السلف الكرام فى أقصى ما يصل الوهم إليه فى وضاعة الشأن والكتاب والسنة متظاهران على تكريمهم وتعظيم أقدارهم والطعن فيهم فسوق ومعصية ، وكل ما جاء فى هذا الكتاب خاصاً بهم فهو فسوق فى فسوق وربما يتبع ذلك ما هو فوق الفسوق أى الكفر .

وسورة الجن . إن ما قاله بخصوصها إن كان مقصوداً فهو كفر وإن كان تساهلا فهو فسوق ، وقد أجمع المسلمون على كفر من استخف بالقرآن أو بشىء منه أو دعا إلى الاستخفاف بشىء منه صراحة أو ضمناً ،

وما جاء خاصاً بالنبى وأسرته الكريمة .

إن فى هذا الباب أيضاً تهكماً بالنبى وأسرته الكريمة ولا خلاف بين المسلمين فى المذاهب الأربع وغيرها من الأئمة المجتهدين من كفر من يعرض به صلى الله عليه وسلم وبأسرته تصريحاً كان ذلك أو تلميحاً .

وما جاء خاصاً بمصحف سيدنا إبراهيم .

إن ما جاء كله تشكيك فى القرآن والدين وتكذيب لهما ورمى النبى والمسلمين بأنهم هم الذين

جاءوا بالقرآن وحكم ذلك كله أنه كفر لا يستره وضع الكلام فى قالب المواربة والتورية والتعريض .
ولا يزال الكتاب بعد هذا كله موجوداً وما زال يدرس فى الجامعة ، وقد ملأ صاحب الكتاب قلب الطالب تهلة وإعظاماً للمستشرقين وإعجاباً بهم وبأبحاثهم . وفرغ قلبه من كل حرمة وإجلال لسلف المسلمين ، وهو فى هذا الباب أورد آراء المستشرقين فى مصادر القرآن ومذاهبه وتاريخه ثم تركه فى موقف لا يعرف أصدق المستشرقون فى ذلك أم كذبوا ، أخطأوا أم أصابوا ، وفى تهجمه على القرآن وعلى الرسول ، قال فى ص ١٠٤ من كتاب فى الأدب الجاهلى :

(ومن يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآنى كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وكان من اليسير أن يعرفه النبى) .

كل هذا يضعه القارىء لأجل أن يصل إلى نتيجة : هى أن الأدب الجاهلى مختلق ومنحول ولكن غرضه الحقيق هو الدعوة اللادينية والإلحاد والتشكيك فى الدين والتحريض على الإباحة والفجور .

(أما حديث الأربعاء ففيه العجب العجاب إذ تتمثل فيه الرذيلة بأبشع مظاهرها والطهر فيه النسبة الرجل بما يشرحه بعناية خاصة وإطناب من قصص المجون والفجور بأسلوب جذاب وطريقة خلابة تؤثر فى الناشىء المسكين وتزين له سبل الفساد وتحبب له الانغماس فى الشهوات بعد أن شوه له الدين وتعاليمه ، ومثله أمامه تمثيلا لا يرغبه فيه ، وأعطاه صورة مشوهة منفرة ، عمن قاموا بالدعوة إليه ولم يترك سبة إلا نسبها إليهم ، فقد طعن على الخلفاء والعلماء من عظماء الأمة والإسلام وشوه تاريخ الإسلام بحيث لم ينج من مطاعنه إنسان ولم يخص شيئاً منه ويمجده فى عصر الدولة العباسية الزاهر إلا هؤلاء الشعراء من أهل المجون والفحش حيث جعلهم مرآة ذلك العصر . أما أولئك الصالحون من أهل العلم والفضل والرأى الذين أقاموا صروح المدنية فى العالم ورفعوا أعلام الفضيلة وأقاموا معالمها فى سائر الأنحاء فلم يذكرهم بخير بل خلع عليهم من المساوىء والشتائم والسباب ما أثبت التاريخ أنهم بريئون منه وما لا يصدقه فيهم إنسان حتى لو كان من أعداء الدين الألداء .

إن عظمة التاريخ الإسلامى فى عصوره الزاهرة لا ينكرها إلا جاحد فى قلبه غل على الإسلام أشربت دماؤه بالتعصب الذميم والحقد المفضوح .

فطه حسين آلى على نفسه أن يشكك فيما نكاد نبصره من عظمة التاريخ الإسلامى ، أما المكذوب والمفضوح من أخباره الشاذة المطعون فيه فإنه يبحث عنه فى كل بؤرة ويلتقطه من كل مكان . هذا هو رأيه فى العصور الزاهرة للإسلام التى نفخر بها كل الفخار والتى نرجو أن نعود لنحتل المكان اللائق بنا وبكرامتنا ، فبدلا من أن يعظم من شأن تلك العصور وأن يطلب من طلبته الاقتداء بهؤلاء الرجال العظماء من أهل الرأى والفضل والمعارف فإنه أخذ يهدم تلك العصور ويهدم رجالها العظماء والعلماء والمفكرين .

فهذه مسألة من أكبر المسائل التي يجب أن نصفيها لتعلم الأمة أنها كانت خديعة ذ هذا الرجل وإن من يقومون الضجة الآن حول هذه المسألة يريدونه فى الفسق والفجور والخروج على الآداب القومية والتقاليد الإسلامية :

إن هذا الكتاب وهو (حديث الأربعاء) ليعج بالأمثلة ، أمثلة الفسق والفجور والتهتك والاستهتار ويدعو لها ويحض عليها ، وإن ما ذكره فيه من قصص أبى نواس وجماعته لينفر من ذلك الأدب الذى يدعى أنه يخدمه ويحميه ، فقد جاء فى ذلك الكتاب من مخالفة الآداب والحض على الفجور والفسق ما يهدم الجبال الراسيات ويقوض أركان الفضيلة ويهدم روح الأدب .

ومن أمثلة ذلك قوله :

(كان أبو نواس وأصحابه على فسقهم وفجورهم يتدينون ويقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعبثون فى هذا كما يعبثون فى غيره ، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الخمر ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها . . . إلخ .

إلى أن قال : وإذا أردنا مثلا أن يختصر هذا العصر ويشخصه فهذا المثال هو أبو نواس الذى يتخذ درسه الخاص سبيلا إلى درس العصر كله ، وقد عد طه حسين مجاهرة أبى نواس بالمعصية ضرباً من الصدق ، وعد عدم الجهر بالمعاصى نوعاً من الكذب لأنه إخفاء للواقع .

إن ما يقوم به دعاة التبشير فى البلاد مع عظيم خطره لا يقاس بالنتائج التى ظهرت مما يرتكبه هذا الاستاذ ، ولقد شاع هنا فى البلاد العربية ورسخ فى أذهان الكثيرين أن هناك صلة متينة بين طه حسين وبين دعاة التبشير يؤيد ذلك ما أثبتته النيابة فى التحقيق معه ، فالرجل ينفث سمومه متحصناً بأسوار الجامعة ، وما كانت الجامعات فى البلاد المتمدنة أداة للهدم والتخريب وتقويض أركان الفضيلة والقضاء على مستقبل البلاد المتمثل فى زهرة شبابها ، ولكنها أنشئت لتكون منبعاً للفضائل ومورداً عذباً للعلوم وسياجاً للأخلاق .

ولا يمكن أن يتخذ من استقلال الجامعة وسيلة للنيل من أخلاق الأمة ومن دين الأمة ومن شرف الأمة . ومما يدل على سوء نية الرجل أنه يختار لقلمه ولسانه أخبث مناحى الحياة مع التهكم والتعريض بأقدس ما يقدسه الناس من فضيلة ودين فهو يذكر المجون ويذكر الفجور ويروج لها بإخلاص وصدق وعزيمة ، وقد أثرت هذه النظريات فى عقول الشباب ورسخت فى أذهانهم . وليس هذا بغريب لأن الشبان كما نعلم جميعاً لا يلمون بأصول الدين ولا يتمسكون بشعائره .

قال المرحوم الشيخ محمد عبد المطلب : إن الدكتور طه حسين مغرم بحب ثلاثة أشياء : حب الشك والتشكيك ، والطعن فى الدين ، والفجور ونشر الدعوة إليه .

وقد رد على كتاباته : الشيخ الخضرى ، ومحمد عبد المطلب ، ومحمد الخضر حسين، وفريد وجدى ومحمد أحمد الغمراوى ، ولطفى جمعه . ومصطفى صادق الرافعى .

وفى سنة ١٩٢٧ : ألفت لجنة من محمد عبد المطلب ومحمد حسنين الغمراوى وأحمد العوامرى لبحث كتاب فى الأدب الجاهلى : ورأت اللجنة أن الكتاب فيه شيء يناقض الدين الإسلامى ويمسه مساً مختلف الدرجات فى أصوله (البديل عن الشعر الجاهلى) وفروعه من درجة الكفر إلى درجة المخالفة للآداب العامة وقالت : إن كل ما جاء فى هذا الكتاب (فى الأدب الجاهلى) مخالف الكتاب والسنة وأن تصرفه القرآن بهذه الكيفية من غير احتياج إليه فى صحة دليل على سوء القصد، وهى جريمة أقل نتائجها أن يخرج القارىء لكتابه فى شك من كتاب الله والشك به كفر .

(٩)
تقرير اللجنة عن كتاب الأدب الجاهلى

(٢٨ ديسمبر سنة ١٩٢٧)

رأت اللجنة أن فى فصول الكتاب شيئاً كثيراً يناقض الدين الإسلامى ويمسه بمختلف الدرجات فى أصوله وفروعه : —

(أولا) أضاع عليهم الوحدة القومية والعاطفة الدينية وكل ما يتصل بهما .

(ثانياً) أضاع عليهم الإيمان بتواتر القرآن وقراءاته وأنها وحى من الله .

(ثالثاً) أضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم .

(رابعاً) أضاع عليهم الثقة بسيرة النبى فى كل ما كتب فيها .

(خامساً) أضاع عليهم الاعتقاد بصدق القرآن وتنزيهه عن الكذب .

(سادساً) أضاع عليهم الوحدة الإسلامية التى أوجدها الدين والقرآن والنبى بين الأنصار والمهاجرين .

(سابعاً) أضاع عليهم تنزيه القرآن عن مواطن التهكم والاستخفاف .

(ثامناً) أضاع عليهم ما وجب من حرمة الصحابة والتابعين .

(تاسعاً) أضاع عليهم تنزيه النبى وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف .

(عاشراً) أضاع عليهم صدق القرآن والنبى فيما أخبرا به عن ملة إبراهيم وهجرة اسماعيل .

(الحادى عشر) أضاع عليهم براءة القرآن عما رماه به المستشرقون .

(ثانى عشر) أضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسله وكرام خلقه .

{ تقرير آخر في ٢٤ يونية سنة ١٩٢٨ }

(من حسين الغمراوي ، عبد الحميد حسن ، أحمد أمين)

أشار إلى ثلاث نقط فيها مساس بالدين الإسلامي .

(أولا) علاقة القراءات السبع بالوحي .

(ثانيا) رأي المستشرقين في مصادر القرآن) .

(ثالثاً) الصلة بين الإسلام وملة إبراهيم .

(٢)

ظاهرة الضعف والتخلف في العصور الاخيرة

لم تعالج قضية من القضايا على نطاق واسع كما عولجت قضية التخلف وأسباب الضعف التي مرت بالمسلمين والعرب في العصور الأخيرة وكانت مصدراً لما أصابهم من الاحتلال والاستعمار ، تلك كانت القضية الكبرى التي لم يتوقف مصلح من المصلحين دون الخوض فيها ومعالجتها ، فقد أجرى قادة حركة اليقظة عملية نقد ذاتي واسع النطاق شملت كل المفاهيم والقيم .

ولما كانت هذه القضية قد أثيرت منذ بدأت حركة اليقظة فقد آثرنا أن نعرضها في المرحلتين : مواجهة الاستعمار ومواجهة التغريب حتى نكشف جانباً هاماً من جوانب اليقظة والقدرة على استكشاف النفس ومواجهة التخلف والضعف .

وقد أجمعت الأبحاث التي دارت على عوامل متعددة أبرزها تخلف المسلمين عن القيم الأساسية لفكرهم الذي بناه الإسلام وهدكاه القرآن وترك العزائم التي تتمثل في الدفاع عن الأرض وحماية الثغور وإعداد القوة التي تزجر العدو وتحول دون عدوانه وفقدان روح التضحية .

(١)

ويصل الإمام (محمد عبده) إلى أبرز مقام القضية حين يعرض لخطر الجبرية الصوفية :

(الجمود) - إنما هي علة عرضت على المسلمين عندما دخل في قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم ، وكان السبب في تمكنها في نفوسهم وإطفائها لنور الإسلام في عقولهم هو السياسة .

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ومن عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه ، لكنهم نجحوا في إقناع العامة بأن ذلك تعظيم لشعائره وتفخيم لأوامره .

سنوا عبادة الأولياء والاستشهاد بهم ما فرق الجماعة وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول .

ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار ما يقنع العامة بأنه لا نظر لهم في الشئون العامة .

اتخذوا من عقيدة القدر مثبطاً للعزائم وغلا للأيدي عن العمل ، والعامل والأقوى في حمل النفوس على هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة .

والجمود عارض يزول ، وطبيعة الإسلام تسمو على مرض الجمود .

وآيات القرآن تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا فيه « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً شبراً وذراعا بذراع » .

ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، ولا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام ، ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا .

عند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم يمد لهم وسائل الخلاص لهذا أقول أن الإسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدا ولكنه سيهذبها وينقيها وستكون المدنية من أنصاره متى عرفته وعرفها أهله .

يقول أولئك الجامدون (كما يقول بعض أعداء القرآن) أن الزمان قد أقبل على آخره وأن الساعة أوشكت أن تقوم وأن ما وقع فيه الناس من الفساد وما منى به الدين من الكساد إنما هي أعراض الشيخوخة والهرم فلا فائدة من السعي ، ولا ثمرة للعمل فلا حركة إلا إلى العدم ،

ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته .

إن الذي مضى بيننا وبين مبدأ الإسلام (إلى الهجرة) ألف وثلاثمائة وعشرين عاما إنما هي يوم وبعض يوم فقط من أيام الله تعالى .

وإن آيات الله في الكون وإن كانت تدل على أن ما مضى من الخليقة يقدر بالدهور الدهارير أشهد بأن ما بقي لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير .

إن ما بيننا وبين مبدأ الإسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا ، كل رجل يعيش خمسين سنة

فهل يعد مثل هذا دهراً طويلا بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام ؟ أن زمننا هذا لا يكفى لاهتداء الناس كافة بهديه .

ولقد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله

ولا بد أن ينتهى أمر العالم على تآخى العلم والدين على سنة القرآن ويأخذ العالمون بمعنى الحديث الذى صح معناه .

(تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله) .

(٢)

أما عبد الرحمن الكواكبى فإنه يرجع أسباب التخلف إلى عوامل كثيرة ويركز على ضعف العلماء .

ارجع أسباب ملازمة الفتور منذ قرون للمسلمين إلى :

١ ـ العقائد التى أقحمت على الاسلام ومن مقدمتها العقيدة الجبرية ، إن العقيدة الجبرية وفكرة الزهد موجودة فى كافة الديانات والغاية منها أن يكون ملطفة لحدة الشره المركب فى الطبائع البشرية عند طلب الغايات الدنيوية وليكون من ناحية أخرى عاملا على ترضية النفوس المحرومين .

٢ — إهمال الدين : لأن الدين يدعو إلى عدم الذل لغير الله ويدعو إلى تنفيذ ما يأمر به الله وإلى تجنب كل أمر مخالف لأوامر الدين ، إنه يدعو إلى مواجهة من يغتصب حقوق الآخرين أو يسلبهم حريتهم .

٣ — بعض ناقصى العلم تطاولوا إلى منزلة العلماء فدعاهم ذلك إلى تأويل القرآن تأويلا لا يحتمله الآيه الكريمة ولا يتفق مع مبادئه العليا ، إدعوا لأنفسهم العلم بأسرار خفية لا يحيط بها غيرهم ، الغاية أن يسحروا عقول العامة ويستميلوا إليهم الضعفاء ويستهووا الجاهلات من النساء ويجتذبوا ذوى الأغراض والأمراض .

٤ ـ اقتصر علماء المسلمين فى بحثهم ودراساتهم وتعلمهم على العلوم الدينية وعلى قليل من العلوم الرياضية ويهملوا ما عدا ذلك من باقى العلوم الرياضية والطبيعية حتى جهلوها وحتى صارت نسياً منسياً وتبعاً لذلك قبلها عامة المسلمين فصاروا من أعدائها لأنه الإنسان عدو ما يجهل

(٣)

أما العلامة (محمد فريد وجدي) فإنه يربط التخلف بفساد الأمراء والعلماء معاً :

« لماذا انحط المسلمون وفيهم هذه الأصول التي تصلح لإقامة أكرم مدنية في العالم وتؤلف أشرف مجتمع (مدنية) .

الجواب أنهم انحرفوا عنها وتنكبوا طريقها بل داروها كل الدائرة وعادوها جد العداء وعملوا على خلافها .

(أولا) اتخذوا قبور صالحيهم قبلة وقد ورد النص الصريح في السنة بإنكار إدخال القبور في المساجد وإيقاد السرج عليها حتى لا يفتتن العامة فيعبدوها

(ثانياً) صرف المسلمون عن المساواة وقسموا قسمين : رجال الدين وأهل الدين — قطعوا الأوائل على خدمة المساجد وتعليم الدين وليس في طبيعة الاسلام ما يسمح بوجودهم .

ونشأ هذا التقسيم في المسلمين ضد طبيعة الاسلام بمحض إرادة الحاكمين فلم يكن لطائفة رجال دائرة الدين اختصاص يدافعون عن حدودها وكانوا طوال عهدهم ألعوبة في يد القادة الدنيوية .

(ثالثاً) إن دهماء المسلمين بما تأثروا به من مطالعة الكتب التي وضعها جهلة المؤلفين من أهل البطالة والتعطيل وقر في نفوسهم أن المكافآت الأخروية تنال بمجرد قراءة بعض الأدعية ، وانتشرت هذه الكتب بين المسلمين فصرفتهم عن حقائق الدين وموهت عليهم الأباطيل وصورت لهم العالم الروحاني تصوراً خيالياً وجعلت زمامه بأيدي أفراد من المقربين حاكمة بأن من انتمى إليهم فاز بالحور والجنان .

وضاع معنى الثواب ، والعقاب في الآخرة واضطرب في وهمهم ميزان العدل الإلهي فبطلت فيهم حكمة الترغيب وفقدت العبادات والمجاهدات ثمرتها المرجوة .

(رابعاً) أعرض المسلمون عن حق العقل وراجت فيهم الحكايات الميثولوجية مما جمعه جهلة المؤلفين من أساطير الأوائل وخرافاتهم فانحطت قيمة العقل واتسعت دائرة الممكنات حتى شملت المستحيلات واستعدت الأذهان لقبول كل ما يقال ولو كان فيه هدم لأصول الشريعة وأدى ذلك إلى انحطاط المدارك .

(خامساً) الحروب التي وقعت بين أمراء المسلمين (في القرن الثاني وما يليه) صرفت الأذهان عن لمم الحياة الأرضية ولذتها إلى ما أعد لها في الحياة الأخروية وراجت الكتب الواردة على الدنيا الناعية على أهلها . واستكثر المؤلفون من إيراد الحكايات عن الزهاد والمتصوفة فأشربت نفوس المسلمين الاستكانة والذلة وتوجهت إلى إيثار الزهد والإقلال ، ومثل هذا الزهد القسري لا يعد فضيلة ثم كشفت نفوسهم صفات المستخذلين من الأمم وتطرفوا فعدوا مظاهر المدنية من نافثات النفوس وخاطفاتها عن كمالها ، فلما ظهرت المدنية الأوربية بما حلت من سحر وإبداع صرحوا بأن لهم الآخرة ولغيرهم الدنيا ، وأصبحت تلك عقيدة بعضهم ، وفي هذا التصريح ما فيه من إعطاء الدنية والإقرار بالعجز والركون للسلبية .

(سادساً) انقلاب نظر المسلمين إلى ضده لأنهم لما اعتمدوا في حياتهم على الأوهام والأماني ، وعولوا في تصرفاتهم على الخرافات والأضاليل ذهلوا عن الواقع المحسوس ، ولما احتك بهم الغربيون وجدوا فيهم على غير هدى لا بصيرة لها بدين ولا دنيا فسهل عليهم قيادهم .

(سابعاً) هذا الجمود من المسلمين حيال شريعتهم السمحة اقتضى أن تضطرم حياتهم التعاملية إلى انتحال القوانين وتعير الشريعة على النظر في أمر الزواج والطلاق والميراث .

(٤)

ويرجع الأمير (شكيب أرسلان) أسباب الضعف والتخلف إلى انفصال المسلمين عن مقومات فكرهم وأبرزها الأخلاق :

(إن التجارب من قديم الدهر قد أثبتت أن التربية الملية لا تنهض بالأمة نهوضاً حقيقياً إلا إذا حصلت في دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها . إن نهضة المسلمين وهم ناهضون لا محالة ، لم ينهض بهم روح أوربية ولا روح شيء خارج عن الإسلام وما ينهض بهم إلا روح القرآن الذي كان مبعث نهضتهم الأولى والذي به حياتهم الأدبية والذي فيه لهم الناشز والوازع والمحرك والمسكن والذي بدونه ليس أمامهم إلا أمرين (الفناء والانحلال) وأما التحول عن الإسلام وكلاهما لن ترضى به هذه الأمة التي نزل في كتابها (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) .

يعوز المسلمين إرهاف هذا الشعور بتلبية صريح القرآن المستمر بوجوب النهضة والمبادرة إلى اليقظة . إن أصل داء المسلمين من أنفسهم وأن مبدأ فساد الأخلاق لا سيما أخلاق الأمراء وتدليس العلماء الذين يواطئونهم الأمراء على شعوبهم ارتفعت كل سيطرة من هؤلاء وأفلتوا من جميع القيود .

ويجب علينا أن ننصف المسلمين ونذكر لانحطاطهم سبباً ثالثاً أكثر الناس عنه غافلون هو أوربا ولم تكن تقدر أوربا على إرهاقهم لولا فساد أخلاقهم فقد استولت على بلدانهم برجالهم وأمضت مصالحها بخيانة المكثيرين منهم عليهم .

أقطعتهم غرر البلاد فضيعوا وصدوا وهم في أرضهم غرباء

لو كان المسلمون قائمين بواجباتهم من جهة حياتهم الدينية وحياتهم العلمية وحياتهم الاقتصادية لما كانت أوربا نالت منهم منالا ولكان البحر المتوسط بين الفريقين فاصلا .

الجنس الأوربي لا يشبه جنساً آخر من أجناس البشر ، وإن الاعتداء والتجاوز هما أصل فطرته لا يعيش بدونهما ولا يصده عن التعدي إلا القوة القاهرة .

وقد أراد الله أن يكون الإسلام هو أقرب جيران القارة الأوربية في آسيا وإفريقيا يجاورها من الشمال من جهة الروسيا ويجاورها من الوسط من جهة البلقان ويجاورها من الغرب من جهة أسبانيا وفرانسا وإيطاليا .

وليس من عادة الله أن يقتل أمة امتلكت إرادتها بأن تحيى ، فالمسلمون مسئولون بالدرجة الأولى عما آلوا إليه .

لن يكون المسلمون في الأرض إن لم يعتمدوا على قوة مادية تصونهم وتضمن بقاءهم لما فسد الأمراء وتواطأ معهم العلماء رفع القرآن من المعنى إلى اللفظ فقط وصار يتلى بدون عمل إقامة ، وما دام القرآن غير معمول به فلن يرجى رقي المسلمين كمسلمين والعلوم العصرية لا تفيد المسلمين إلا إذا اقترنت بتربيتهم الدينية وسارت جنباً إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم .

قال جوستاف لوبون في كتابه تحليل الروحية السياسية (Esychologia Palitsuo) .

بأن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الأوربية خارجاً عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم ، يزيدهم انحطاطاً وفساد أخلاق وإن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم .

الفصل العاشر

عروبة مصر وإسلامية الثقافة

على أثر انتهاء الحرب العالمية الأولى بدأ تغيير ضخم في البلاد العربية والدولة العثمانية فقد كان الانتقاض الذى قاده العرب باسم الثورة العربية التى قادها الشريف حسين للانفصال عن الدولة العثمانية قد انتهى إلى اقتسام فرنسا وانجلترا بالاحتلال العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وإعلان وعد بلفور لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين تحت الاحتلال البريطانى. أما مصر فقد كانت تحت الاحتلال البريطانى منذ عام ١٨٨٢ وقد خرجت غداة الحرب انتفاضة عرفت باسم ثورة ١٩١٩ وكانت ثمرة النضال الذى قاده الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وعشرات من القادة الذين كانوا مرحلة على طريق حركة اليقظة وحلقة من حلقاتها التى تتابعت.

وكانت الدائرة الصماء التى صنعها الاستعمار قبيل الحرب من خلال حزب الأمة قد أبرزت لطفى السيد وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود وغيرهم من الأسماء التى لمعت بعد ثورة ١٩١٩ والتى أصدرت الحكم والقيادة السياسية والفكرية وفق مخطط واضح مدروس رسمه لطفى السيد من خلال مفاهيم لورد كرومر التى احتوتها تقاريره السنوية من أجل إعداد جيل المتفرنجين المصريين الذين يحكمون فى إطار النفوذ الغربى عامة والاستعمار البريطانى خاصة، وبعد أن حققت آخر قوى حركة اليقظة التى كانت تتمثل فى الحزب الوطنى ورجاله الذين هاجروا إلى أوربا تحت ضغط الاضطهاد البريطانى - قبل الحرب الأولى - الذى كان يمهد الجو لأعوانه السيطرة الفكرية والسياسية على مقدرات مصر.

وكان لطفى السيد قد دعا منذ عام ١٩٠٧ إلى (مصر للمصريين) المنعزلة عن العروبة والعالم الإسلامى والفكر الإسلامى، ومن ثم فقد تابعت مدرسة التغريب هذا الاتجاه فى قوة على أيدى طه حسين ومحمود عزمى وسلامة موسى وعبد الله عنان وعلى عبد الرازق، وكان سعد زغلول هو رائد هذا التيار فى مجال السياسة والتعليم ولطفى السيد رائده فى مجال الصحافة والفكر.

إن الحركة الوطنية التى عرفت باسم ثورة ١٩١٩ قد انبعثت من داخل جدران الأزهر ومن أحضان حركة اليقظة العربية الإسلامية، كما انبعثت ثورة عرابى أيضاً من نفس المصدر، وأعلن خطباؤها على المنابر فى المساجد والمجتمعات السياسية العامة، وفى الصحافة عن هويتها الواضحة وفى أنها تجمع بين تحرير البلاد من النفوذ الاستعمارى ودعم الاتجاه العربى الإسلامى الواضح المستمد من

إسلام الثقافة . أما حركة التغريب فقد عمدت إلى إفساد هذا الخط وتدميره وإبراز تيار يناهض العروبة والاسلام ويدعو إلى إعلاء المصرية بالفرعونية وعزل مصر عن الأمة العربية أو إثارة الخصومة بالادعاء أنها تمتاز عن البلاد العربية واستغلت الكشوف الأثرية التي ظهرت في هذا السبيل وظهرت مجموعة من الدعاة إلى الهيلوغريفية وبعث كتاب الموتى ، والحديث عن قبور الفراعنة ووادي الملوك وتوت عنخ آمون .

ولم تكن الدعوة إلى المصرية منذ أن دعا إليها رفاعة رافع الطهطاوي إلا المصرية العربية الإسلامية التي لا تنفصل في حقيقتها عن جذورها ومقوماتها عن وحدة (الوطن - الأمة - الفكر) . كان الطابع السياسي بعد الحرب العالمية الأولى مختلفا عن طابع الوطن قبلها فقد كان مرتبطاً بحركة اليقظة متحركاً من داخل مفاهيمها . أما بعد الحرب فقد أخذ يعمل في دائرة التغريب وفي مجال النفوذ الغربي ومن خلال فكره ومفاهيمه .

ولم تكن أعلى صيحات الوطنيين التي أذاعها سعد إلا منطلقة من داخل مفاهيم القبول بالنفوذ الغربي فكراً وبالاستعمار البريطاني سياسة ، وهذا يختلف اختلافاً واضحاً عن صيحات مصطفى كامل ومحمد عبده ومحمد فريد .

ولم تكن مصر وحدها كذلك ولكن الاستعمار والنفوذ الأجنبي حرص على إقصاء هذه القيادات العربية الإسلامية ذات الأصالة المرتبطة باليقظة في كل أجزاء العالم الإسلامي ، وأقام قيادات جديدة من داخل حركته ، وفكرها وهي نفسها التي أقامها من بعد على النفوذ السياسي والحكم .

(٢)

من خلال السنوات العشر التالية للثورة (١٩٢٠ - ١٩٣٠) تقريباً استعلت صيحة التغريب في اتجاهاتها المختلفة التي ضمت عناصر أهمها : المصريون أمة غربية ، المصريون فراعنة وليسوا عرباً ، الاشتراك في الأصل مع أوربا . كلمات تتفق في الإنجليزية والفرعونية .

وكانت دعوى أن المصريين يشتركون في الأصل مع أوربا (كما قال اليوت في كتابه المصريون القدماء) مبرراً الدعوة إلى مهادنة الاستعمار والقول بأنه ليس بيننا وبين أوربا خصومة ما دمنا نحن والأوربيون ننتمي إلى أصل واحد يتفق في المزاج النفسي الذهني ، وهذا ما قال به سلامة موسى .

أما توفيق الحكيم فقد عقد مقارنة ظالمة بين المصريين والعرب حشد لها كل ما يمكن أن يجمع من عبارات الازدراء والإنكار والسخرية والاحتقار للعرب ورفع فيها شأن الفراعنة إلى الذروة ولا شك أن هذه الصورة كانت قد رسمت بدقة بأقلام كتاب الصهيونية العالمية ووضعت في أسلوب له بريق العلم كمقدمة لضربهم وانتقاص نفوذهم ، وقد خدم بذلك توفيق كما يخدم غيره ممن كذبوا وجود (ابراهيم وإسماعيل) .

وقد ذهب توفيق الحكيم إلى ما ذهب إليه المستشرقون أمثال روزى ورينان وغيرهم عن قالوا إن العالم العربى هو مصر والشام والعراق والحجاز وإن مساحته ثلاثة ملايين كيلو متر مربع وسكانه ٤٠ مليونا .

والدامت دعوات فصل المصريين عن العرب والإسلام ، وبرزت جائحة تسمى « التمصير » : تمصير الأدب واللغة والقانون وكل شىء ، وتوسعت دعاوى الفصل فى مجال السياسة بالإقليميات والتجزئة والقوميات الوافدة ، وجرؤ طه حسين إلى القول بفصل الأدب العربى عن العروبة والإسلام (يجب حين نستقبل البحث فى الأدب العربى وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل شخصياتها وأن ننسى عواطفنا الدينية وما يتصل بها) .

(أريد أن أدرس الأدب العربى كما يدرس صاحب العلم الطبيعى علم الحيوان والنبات) .

(من الذى يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشراً للاسلام أو هادما للالحاد وأنا لا أريد أن أبشر ولا أريد أن أناقش الملحدين) .

(يجب أن يتحرر الأدب العربى من القيود التى تربطه بالعلوم الدينية) ،

ورأى طه حسين أن الآداب غير العلوم وأن مناهج العلوم الطبيعية لا تصلح للدراسات الأدبية والاجتماعية والنفسية ، وأن الدين غير الإسلام وأن الإسلام ليس دينا فحسب ، وأن الفكر الإسلامى يختلف اختلافا جذريا عن الفكر الغربى فلا يقبل التجزئة بين عناصر الأخلاق والدين والسياسة الاجتماعية والأدب .

وكان الهدف هو قطع التكامل الفكرى بين الأدب والتاريخ وبين الأدب والتراث وإثارة الشبهات حول العلم والدين ، والسخر به بالإسلام وانتقاص أعلامه ورجاله .

ثم كانت دعوة على عبد الرازق إلى الفصل بين الدين والسياسة وبين الإسلام والمجتمع ، والقول بأن الإسلام دين روحانى لا صلة له بالمجتمع وأنه ليس دين ومنهج حياة ونظام مجتمع ، وأنه حضارة وفكر .

وكانت الصحافة وكلية الآداب تذر هذه الشبهات ، وتثير هذه التحديات . وكانت قضية عروبة مصر وإسلامية الثقافة هى أبرز هذه التحديات .

غير أن حركة اليقظة لم تلبث أن سيطرت واخذت ترد بقوة على كل شبهة وشارك فى ذلك الأزهر والجمعيات الإسلامية التى تشكلت وفى مقدمتها جمعية الشبان المسلمين والتى حمل لوائها السيد محب الدين الخطيب وكان أحد ركائزها حتى أن بعض المؤرخين يضعه على رأس حركة اليقظة فى هذه الفترة فى مواجهة وجود لطفى السيد على رأس التغريب ،

(٣)

فى أوائل الثلاثينات علا صوت عروبة مصر ، وجاء كتاب للمصرية يصححون موقفهم .

فالمازنى يقول : إن الثورة المصرية كانت رائعة ولكنها فشلت مع الأسف لأننا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين ، اعتقد أنه من خطل السياسة وضلال الرأى أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بنفسها غير عابئة بشقيقاتها أو ناظرة إليها ، ويحنقنى ويستفزنى أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوربا وليست من الشرق ، وعندى أن الجنسية الشرقية هى أساس حياتنا وتاريخنا وأن هذه النظرة تفسد مزايانا الشرقية ، إن لم تفقدنا إياها ، ولا تكسبنا مزية من مزايا الغرب .

ومحمود عزمى يقول : الرابطة العربية فى نظرى أم الروابط التى يصح أن أقيم عليها مساعينا فى سبيل التكيف الجديد للتمشى مع حوادث العصر الحديث ، الرابطة الوحيدة التى يجب أن يستند إليها تطورنا المحتوم . الثقافة العالية هى العربية ، الحضارة العالية هى الحضارة الإسلامية التى نأخذ بها فى الحياة اليومية والسلوك الاجتماعى .

وقال : إنى كنت من المتعصبين القومية المصرية الصريحة إلى أن جاءت حوادث سنة ١٩٢٨ التى ألقيت فيها القنابل على سوريا إذ ذاك انتدبتنى جريدة السياسة لتحقيق الحوادث فلما غادرت القاهرة إلى سوريا كانت خطوات الطريق سبباً فى تغيير رأيى وتنقل معتقدى من حال إلى حال ، ذلك أننى رأيت فى المدن الفلسطينية والسورية مظاهر جذابة من العطف على مصر والقضية المصرية ، وكان شعور من أراهم من أهل تلك البلاد حرارة شديدة فعلت فى نفسى فعل السحر وغيرت عقيدتى .

(٤)

كانت الدعوة إلى عروبة مصر مرتبطة بإسلامية الثقافة :

وكان هناك من يكشف عن حقيقة ظلت مغلوطة وقتاً طويلا هى أن الحركة الوطنية لها رصيد إسلامى عربى . يقول الدكتور مصطفى الحفناوى : (الذى يلاحظ على تاريخ الحركة الوطنية أن الإيمان الوطنى كلما ضيقوا عليهم للنافذ فى مدينة السياسة كان يجد متنفساً له فى الحركة الإسلامية لأن الاسلام مبناه العقيدة الطاهرة وهدفه الحرية المقدسة وما مبادىء مصطفى كامل إلا قبس من نور الرسالة المحمدية والاسلام فى الحقيقة دين ودولة ولذلك أسس عبد الحميد سعيد وفريق من المثقفين جمعية الشبان لتكون صرحا يقتل إنجلترا ويمحق الاستعمار فى شتى صوره يوما من الأيام وقد نهضت الجمعيات الاسلامية المختلفة الأسماء المتفقة فى أهدافها بهذا الأمر .

ويقول الدكتور الدرديرى : قامت فى مصر الفكرة القومية أو الدعوة الوطنية منذ نشأتها على أساس صحيح معقول هو تحرير الوطن من كل غاصب مغتال حتى تصبح مرافق الأمة فى أبنائها .

والوطنية الصحيحة لا تقوم إلا على الأخلاق الفاضلة وهذه تستمد قوتها من الدين الحنيف وقد كان من أهم أغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ الاسلامى لتعليم النشء فى المدارس لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضى ويلقون فى روعهم أنهم عالة على الأمم الأخرى ، ومحاربة الدين الاسلامى على الخصوص لأنه يبعث فى نفوس النشء الاسلامى الاحتفاظ بالكرامة ومبادىء الحرية والشجاعة وهذا ما لا يتفق على سياسة الغاصب المستعمر فى إخضاع الأمم الاسلامية وإذلالها .

فالذين يدعون إلى الوطنية وترك الدين جانباً إنما يدعون إلى قضية محققة الخسران لأنهم يدعون إلى مبادىء لاروح فيها ولاحياة ، إذ كيف يكون حال النشء فى الوطنية وهو خلو من مبادىء الفضيلة ، إن تاريخ مصر الحديث يثبت أن الدين والوطنية وحدة لا تنفصل بل هى بمثابة الروح والجسد فى عالم الحياة والاسلام لم يبخس الوطنية حقها ، لقد أعلن دعاة السوء أن المصريين هم فرعونيون غير عرب بهدف أن ينعزل المصريون عن بقية الأمم الاسلامية المجاورة وهذا مبدأ لا يتفق مع مصلحة المصريين ولا مع مبادىء الاسلام السليمة

إن الدعوة إلى القومية المصرية التى ألبسها دعاة التفريق ثوب الفرعونية ليخرجوها عن بقية الأمم الاسلامية إنما أرادوا بها انتحار مصر الأدبى .

وهكذا تحطمت الدعوة إلى الفرعونية وإلى فصل مصر عن العروبة .

وقد أشار إلى هذا المعنى (الفريد كانتول سميث) حين قال : إن الحركات الوطنية والقومية لم تكن مطابقة الإسلام فحسب بل هى جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الاسلام . وأنه ليس ثمة تعارض بين الرابطة الاسلامية وبين الروح القومية وإنما التعارض قائم بينها وبين الحقيقة الواقعة .

« وقد احتضن الإسلام فى العصر الحاضر النزعات والحركات القومية التى رآها تتفق ونهجه لاستعادة أمجاده الماضية مادامت متمشية وفق التقاليد الاسلامية » ا هـ . ولم يكن الاتجاهات الوطنى ثم القومى إلا اتجاهين طبيعيين متواليين متتاليين فى حلقات الثلاثة (وطن ، أمة ، فكر) وكان طبيعياً أن يكون الاتجاه الوطنى المرتبط بالأرض سابق الاتجاه القومى المرتبط بالأمة وكان لابد أن يكون كل منها متصل بوحدة الفكر الأساسية المستمدة من الإسلام غير منفصلة عنه فقد قام الاتجاه الوطنى بعد سقوط فكرة الوحدة الاسلامية نتيجة الغزو الذى فرق العالم الإسلامى إلى أقطار .

(٥)

من أبرز الظواهر فى هذه المرحلة وجهة نظر جديدة بين رجال السياسة أدلى بها مكرم عبيد المسيحى عن حزب الوفد ومحمد على علوبة عن حزب الأحرار الدستوريين .

قال مكرم عبيد : (المصريون عرب) نحن معشر المصريين جئنا من آسيا ونحن أدنى إلى العرب منذ القدم من حيث اللون واللغة والخصائص السامية والقومية .

إن تاريخ العربية سلسلة متصلة الحلقات لا بل هو شبكة محكمة العقد وإذا علمت أن رابطة اللغة والثقافة العربية فى هذه الأقطار هى أوثق منها من أى قطر من أقطار الأرض وإن التسامح الدينى ابتدأ وترعرع وما زال موجوداً بين أصحاب الأديان كافة فى الجارات الشقيقة أيقنت أن المقصود بقولى : المصريون عرب هو هذه الوشائج وتلك الصلات التى لم تفصمها الحدود الجغرافية ولم تنل منها الأطماع السياسية منالا .

الوحدة العربية التى لا ريب فى أنها من أعظم الأركان التى يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى . فالشرق العربى فى حاجة إلى الوحدة والتضامن أمام التيار الأوربى الجارف ، وأبناء العروبة فى حاجة إلى أن يؤمنوا بعروبتهم وبما فيها من عناصر قوية استطاعت أن تبنى حضارة زاهرة .

وقال محمد على علوبة : إن علينا أن نسعى سعياً حثيثاً لانتزاع الفكرة الفرعونية من مصر لأنها فكرة عقيمة لا يمكن تحقيقها ومن المصلحة الأدبية والمادية لمصر أن تهجر عبادة الحضارة الميتة وتستعطف القلوب الحية فى الشرق العربى وهى التى جعلت قبلتها مصر لتنال الزعامة الحقة التى هى جديرة بها .

لا أكتم أننا منحدرون فى منحدر خطر مجهول العواقب بسبب اختلاف اللهجات بين الأمم الناطقة بالضاد وأخشى كثيراً إذا استمرت هذه الحالة أن تؤدى فى النتيجة إلى إيجاد لغات جديدة كما وقع فى اللغات اللاتينية وهذا منأقصى مطامع المستعمرين الذين يعملون جهدهم لإفساد لغتنا وتقطيع أوصالها أو الاستعاضة عنها بلغات أجنبية كما هو الحال فى الجزائر .

والأمم العربية لا بد أن يكون لها ثقافة خاصة بها وأن تحتفظ بهذه الثقافة كتراث تاريخى خالد ، ونعلق أكبر الآمال على الأزهر الشريف باعتباره أكبر معهد عربى فى العالم الإسلامى .

إن الأمم التى تظلم وتسلب حريتها لا بد أن تستعيد هذه الحرية إذا كانت جديرة بها ، فنحن أمة عربية كبرى يجب أن نسعى لاستيفاء الخصائص والمزايا التى تؤهلنا لنيل الحرية والسعادة والاستقلال .

ومن ناحية أخرى ظهرت حملة واضحة على الوطنية المجردة ، يقول الأمير شكيب أرسلان : الدعوة الوطنية المجردة من الدين الإسلامى لا تخلق فى قلب الوطنى أدنى اعتقاد بأنه هو أعلى من الأوربى وكيف تخلقه وهى مجردة من العقيدة القرآنية معتمدة على المادة المحسوسة لا غير . لا مراء

فى أننا إذا رجعنا إلى المادة المحسوسة وجدنا الأوروبى اليوم على وجه الاجمال أعلى بكثير من المسلم فلا يكون من نتيجة لتلك الدعوة الوطنية المجردة من الإسلام سوى أن تجرد ذلك الوطنى من عزة النفس الوافرة فى صدره بكونه مسلماً متمسكا بذلك الدين القيم ، وأن تسلبه ذلك الخلق الضرورى فى نهضات الأمم وهو الاعتماد على النفس ، المكافل تحفزه ، الدائم الوثوب لفك القيود الاستعمارية التى يرسف بها وأن تجعله يعتقد أن الأوروبى هو أعلى منه فى كل شىء ، وأن تشككه فى نفسه أنه هو أشرف من الأوروبى .

أضف إلى هذا . أن المسلم المعتقد بدينه لا يزال موقناً بأنه لا بد من أن يدال له من الأوروبى ولو بعد زمن طويل وهو يعيش فى أمل هذه الدولة (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) طول حياته ويورث هذا الأمل أولاده ، ويعتقد أن ما عليه من الضعف إنما هو عارض مؤقت ، لا بد أن يزول وأنه إنما وقع تمحيصا للمسلمين بذنوبهم وتهاونهم بأوامر الله .

المسلم المعتقد يؤمن بأن الله وعده فى القرآن بأن ينصره (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وبأن يجعل كلمته هى العليا إذا عمل بالمبادىء التى أوصاه بها فهو لا يقطع أمله عن إمكان العمل بتلك المبادىء ولاشك بأن الله سيصدق وعده .

العقيدة الوطنية لا تمنع هذا الذوبان كما تمنعه العقيدة الإسلامية فإن الأولى تمنعه من الوجهة الدنيوية فقط . أما الثانية فتمنعه من الوجهة الدنيوية والأخروية معاً .

والرابطة الوطنية المجردة من الإسلام معرضة من خطر انحلال الأخلاق التى هى الأمم عما ليست يتعرض له الجامعة الإسلامية .

والعقيدة الوطنية المجردة لا تبعث من الآمال فى حسن المآل بمقدار ما تبعثه العقيدة الإسلامية المبنية على المواعيد الصريحة بالقرآن لمن عمل به .

والعقيدة الوطنية المجردة لا تزرع فى صدور الشرقيين عزة النفس و الاعتماد على الله والاعتقاد بالكرامة الشخصية عما تزرعه العقيدة الاسلامية فى صدور المسلمين الذين يقول كتابهم (ولله العزة ولرسوله والمؤمنين)

والعقيدة الوطنيه المجردة تفك مابين المسلمين من عرى الارتباط بما يفقدهم بذلك قوة لاعوض لهم عنها .

(٦)

تنوعت وجوه المعارضة للدعوة الفرعونية وشملت جوانب كثيرة ، وكان أبرزها ما أجمع عليه المفكرون من أن الفرعونية ليست مدنية ، ولما كانت المدنية تشمل اللغة والتشريع والآداب والفنون والآداب القومية ، ولما كانت الفرعونية عارية من كل ذلك فإنها لا تستطيع أن تقوم أمام العروبة .

ومن ناحية أخرى بين أحمد كمال باشا أن الفرعونية موجة من موجات الجزيرة العربية وإن ثلاثة أرباع الكلمات التي كان ينطق بها قدماء المصريين توجد في لغتنا العربية الحديثة ما يقابلها لفظاً ومعنى. يقول السيد محب الدين الخطيب : إذن فالقومية العربية ليست أجنبية عن قوم قدماء المصريين ، وإذا استطاع أى رجل مصرى أن يضمن لنفسه أنه من سلالة قدماء المصريين فإنه مع ذلك لا يزال متصلا بالقومية العربية اتصالا عظيماً .

وقد كشف السيد محب الدين الخطيب مؤامرة الاستعمار من وراء هذه الدعوات الإقليمية فهم يقولون للمصريين : أنتم أبناء الفراعين فارجعوا إلى حضارة المصريين القدماء ، ويقولون لأهل الشام أنتم أحفاد الفينيقيين فتمسكوا بتاريخكم . وقالوا للفرس يا بنى الأكاسرة ، لقد فتح العرب بلادكم وأزالوا ملككم وفرضوا عليكم دينهم فارجعوا إلى زرادشت إن لم تعرفوه واقرأوا كتابه وإن لم تفهموه .

وقيل للترك : أنتم يا سلالة جنكيز خان وعبدة الذئب الأغبر ، لقد كانت لكم فى سيبريا حضارة وفى قروم دولة فارتدوا إلى أصلكم .

(٩)

ويصور أنيس صايغ (عروبة مصر وإسلامية الثقافة) فى كتابه الفكرة العربية فى مصر فيقول (تمسكت مصر بالإسلام وعاشت حياة إسلامية فى تقاليدها وعاداتها وعواطفها أكثر من أى بلد إسلامى آخر ، منذ أن أقبل الإسلام على مصر وأصبح دينها الرسمى والشعبى ، وظل للاسلام سطوته وقوته حتى فى حالات انحلال مصر سياسياً وخضوعها للأجانب وظل الأزهر منارة الشرق حتى حينما انحدر مستوى الثقافة وضرب الجهل أطنابه ظلت لعلماء الدين زعامتهم وقدرتهم على تمثيل الشعب حتى حينما ضعف الشعب وفقد حريته وظل الإسلام ضمانة الحقوق والأخلاق حتى حينما انحلت القيم واهتزت التقاليد ، ومما ساعد الإسلام على هذا الصمود فى مصر بوجه خاص هو أن أغلبية الشعب المصرى دانت به منذ أن استسلم الأقباط وأسلم قسم كبير منهم .

وكانت هذه الأغلبية شعبية منذ انتصر الأيوبيون على الفاطميين وحولوا الأزهر إلى مركز الدعوة السنية ، أى أن البيئة التى نشأ منها زعماء مصر ومفكروها وكتابها وموجهوها السياسيون كانت بيئة إسلامية للدين ولمظاهره وشعائره المقام الأسمى فى النفوس، فقد كانت الكتب الدينية فى الفقه والشرح

والتفسير تفوق في عددها كتب الأدب والتاريخ العربيين ، وكان الأدب الشعبي إسلامياً في قصصه وأساطيره ورواياته ومفاهيمه ، وكان لشيوخ الطرق الصوفية الأولياء أثرهم في عقول العامة وكانت أولى المنظمات دينية ، وعلى غرارها وبتأثير منها تأسست الأحزاب السياسية ـ والأزهر هو المثال الأكبر على قوة المنهل الإسلامي في البيئة المصرية خلال الفترة الأولى ، وقد احتكر الأزهر المعرفة وكان صاحب الكلمة العليا في أمور كثيرة منذ تأسيسه وقام رجاله بدور فعال في إدارة جهاز الحكم وفي السلم وفي دعم هذا الجهاز والذود عنه أيام الاضطرابات والحروب ، وقد ساعد الأزهر على أن يكون الإسلام ديناً ودنيا وشمولة للحياة السياسية والاجتماعية مع اختصاصه بالعلاقات الروحية بين الإنسان وخالقه ، كما ساعده أن معظم رجال الأزهر كانوا من رجال الحياة ومن أصحاب الثروات والممتلكات والأطيان الزراعية .

وهو (أي الأزهر) الذي قاد الثورات ضد الفرنسيين وضد المماليك والعثمانيين ، ولمع بين رجاله عدد من المجاهدين مثل عمر مكرم وعبد الله الشرقاوي ومحمد أبي الأنوار. وظهر بين الأزهريين مشايخ تبنوا مطالب الشعب مثل البكري والسادات وغيرهم ، حتى تضايق رجال الاحتلال من سلطة الأزهر على الشعب وعملوا على تحديد صلاحياته) .

هذا هو الإطار الإسلامي للفكر المصري في القرن الماضي .

والفكر الإسلامي دعم الحركة الوطنية ضد الإنجليز وكان الباعث الأول للجهاد المقدس ، فإن الجهاد كان في جوهره إسلامياً وليس قومياً ، وكانت الدعوة لنظام إسلامي ولحكم القرآن ، ولم يكن يقبل بنظام قومي حديث يفصل الدين عن الدولة . وبدأ الخلاف بين الاتجاهين في كتابات مصطفى كامل ومحمد فريد ولطفي السيد من جهة وأجوبة على يوسف ورشيد رضا من جهة أخرى ، غير أن النزاع الطائفي الذي احتدم عام ١٩١١ بين المسلمين والأقباط وحد بين دعاة الإسلام ودعاة القومية المصرية الشرقية من المسلمين في كتلة واحدة ضد دعاة القومية المصرية الفرعونية .

وفي هذا الموقف دليل على (طغيان) الفكر الإسلامي الذي انتزع القوميين المصريين المسلمين من جانب القوميين المصريين المسيحيين وضمهم إلى جانبه . فهل يستغرب بعد هذا كله أن يتجه قسم كبير من رجال الفكر والأدب والسياسة في مصر ورجال التوجيه القومي ـ اتجاهاً إسلامياً فيطالبون باتحاد سياسي لجميع شعوب الإسلام يقوم مقام أي وحدة قومية .

كان معظم رجال التوحيد من الأزهر: على مبارك ، الطهطاوي ، محمد عبده ، عرابي ، على يوسف وهكذا قل عن أثر الأزهر في حياة العشرات : إبراهيم اللقاني ، إبراهيم الهلباوي ، حفني ناصف ، فتحي زغلول ، سعد زغلول ، مصطفى المنفلوطي ، أحمد تيمور ، حافظ ابراهيم ، عبد الله فكري ، قاسم أمين ، وغيرهم كلهم تشربوا العلم من مناهله الإسلامية .

وقال : إن التيار العربي هو تيار إسلامي أصيل . وقال إن منصور فهمي وهيكل ومحمد عزمي طلقوا قوميتهم المصرية المتطرفة وخدموا الفكرة العربية .

(١٠)

وتصور الدكتورة بنت الشاطىء هذه المرحلة وطابعها العربي الإسلامي من خلال الإجابة على سؤال : من أين استمد الشعب زاد وعيه ونور بصيرته وري وجدانه ؟

فتقول : الذي يسجله الواقع التاريخي أن كان هناك دائماً ينبوع لم يغض قط يمد جماهير الشعب الأمي بالري الدائم ويفيض عليها من منهله الصافي ما يرهف وعيها ويشحذ إرادتها النضال من أجل الوجود الكريم .

كان هناك (القرآن) مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل يتلى في البيوت والأكواخ والمساجد والزوايا وينفذ إلى أعماق القرى ونائي النجوع منفرداً بالسيطرة الكاملة على الضمير الشعبي الذي لم تنفذ إليه قط من أي سبيل ، دعوات المتقدميين ومقالات المتطوريين . وإذا كانت الأمية قد فرضت على عامة الشعب وحيل بينهم وبين قراءة أي كتاب أو مجلة ، فقد بقى لهم كتابهم الديني ينسخ أميتهم بمدد حي من الوحي ويمزق عن بصيرتهم حجب الجهل وغشاوة العمى وغطاء الغفلة ويلح على عقولهم وقلوبهم بكلمات الله في حقوق الإنسان وكرامة الآدميين .

وحين كانت الأمية فاشية والمدارس تتجافى عن القرى والأحياء الشعبية . ويقيد الدخول إليها بلوائح أميرية ورسوم مالية ، كانت هناك للأميين مدرستهم الكبرى تستقبلهم وهم صبية في المهد وتسهر على تثقيفهم وهدايتهم طوال مراحل العمر ، لا تصدهم عنها لوائح والظلم ، ولا تحتاج لكي تؤدي رسالتها إليهم إلى معونة أو طلب التحاق ، وصدقت آية الله فينا .

(هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

وعلى هدى ذلك النور الذي لا يخبو ولا ينطفي سرى الشعب في ليله البهيم ، ومن ذلك المورد الصافي نهل وعل ، وفي هذه المدرسة التي الشعب الشامخة الثورية في هدى ما دعى من كلمات الله تزكيهم وتعلمهم الكتاب والحكمة وتفرض عليهم ديناً وعقيدة أن يرفضوا العبودية إلا لله وحده وأن يقاوموا البغي والظلم والباطل وأن يغيروا ما بأنفسهم .

وكانت هناك مجالس الذكر ومحافل الموالد وسهرات رمضان في مضايف القرى حيث كان الشعب الأمي يصغي مبهوراً إلى السيرة النبوية بما حفلت به من مواقف البطولة في الجهاد ضد الوثنية وبغي الطبقة وفي السيرة النبوية وغيرها من قصص الأنبياء وسير الصحابة والأئمة والقديسين والرهبان

والشهداء كان الشعب يتلقى التدريب النفسى ليخوض معركة ضد الباطل بسلاح الإيمان . إن جمهرة الشعب فى هذه المرحلة كانت تنظر بعين الارتياب إلى كل من يفكرون غربياً وربما أساءت بهم الظن لحسبانهم دعاة (فرنجة) تمسخ شخصية الأمة وتنكر ملامحها الأصيلة ، ولم يكن الأمر بحاجة إلى اضطهاد السلطات الرجعية للتيار التقدمى أو اتهامها بالمجلة العصرية والمجلة الجديدة ، فالشعب نفسه قد صد عنهما وقضى عليهما بالاحتجاب إذ اختلطت عنده دعوة سلامة موسى وتلاميذه إلى هجر الماضى والأخذ بالبلاغة العصرية العامية بالمكيدة الاستعمارية ضد العربية لسان قومية الأمة ولغة كتاب دينها كما اختلطت فى فهمه دعوة التقدميين والتطوريين بشبهة الإلحاد

وعذره فى هذا أنه لم يكن يدرى عن مذهب التطور إلا إنكار الخالق سبحانه وأن فكرته عن المذهب الشيوعى لم تتجاوز ما ذاع وشاع من جحده الدين (أفيون الشعوب) !

والمرحلة كانت تقتضى الاستبسال فى الدفاع عن شخصية الأمة عقيدة ولساناً ضد عوامل التذويب والتغريب ، وتحتاج إلى تعبئة كل طاقاتها الروحية للجهاد والمقاومة ، فلا عجب أن ترتد الدعوات الوافدة ويتوقف التيار التقدمى تاركاً المجال كله للتيار الدينى الذى كانت له السيطرة الكاملة على الوجدان الشعبى .

ويجهل تاريخنا من يظن أن هذا الشعب فى جمهرته العامة ، بقى جامد الضمير خادر الحواس بصاول الأغلال ، حتى جاء دعاة التطور وأنصار التقدم فعلموه كيف ينفعل وحركوه للثورة ويجهل شخصية هذه الأمة من يتصور أنها اطمأنت إلى شىء من البضاعة الفكرية المجلوبة أو انفعلت بها وهى تتأهب للاقتحام العنيد لكل العوائق التى تحول دون وجودها الحر .

كلا لم يستورد الشعب زاد وعيه من الخارج ، وإنما هو سره الخالد تلقاه جيل عن جيل أمانة صعبة وميراثاً مفروضاً .

فالشعب الذى هزم الصليبيين وقهر التتار ودوخ الجبابرة ولفظ الغزاة من كل جنس وملة ، لم يكن بحاجة إلى من ينقل إليه مقالا فى التطور يستيقظ به وعيه أو يستورد له شعلة ثورية من وراء السور الحديدى تشعل نخوته وتشحذ همته ، وفيه تراثه العريق تلقاه جيل عرابى عن قاهرى الصليبيين والتتار ، ثم تركه أمانة للجيل الذى حمل لواء ثورة ١٩١٩ .

فلا يقل قائل أن دعاة التقدم غزوا فى الأمة ضميراً خامداً وحواس معطلة ووجداناً أصم ، فلقد قامت بينهم وبين الضمير الشعبى سدود وأسوار .

* * *

إن المؤلفات الإسلامية كان لها الحظ الأوفر فى اشتغال القراء ، والمكان فى مكتبة المرحلة لم

تنافسها فيه كتب ألفت فى أى مجال آخر الثقافة أو الأدب ، ذلك لأن جمهرة المتعلمين من أبناء الشعب كانت تطلب زادها الثقافى فى المؤلفات التى تستجيب لما فى فطرتها من الدين وتلائم مناخها الفكرى وهذا هو ما يفسر لنا ظاهرة التحول الأدبى لعدد كبير من كبار كتابنا بدأوا بما حسبوه طريفاً من موائد الثقافة الغربية قديمة أو حديثة بل أن منهم من حمل لواء الدعوة إلى ترويج الأدب اللاتينى أو اليونانى أو الفرنسى أو السكسونى ، ثم ما لبثوا أن تحولوا إلى الموضوعات الإسلامية يؤلفون فيها ويعتمدون عليها فى كسب شهرتهم على المستوى الشعبى وعلى مستوى العالم الإسلامى الرحيب .

ومن قبل بدأت الظاهرة نفسها فى إسلاميات شوقى وعمرية حافظ والرصيد الضخم من الشعر الإسلامى لشعراء الجيل .

والتاريخ يسجل أن الأزهر قد كان لمدى عشرة قرون مركز الثقل فى حياتنا السياسية والفكرية . فالأزهر يظل دائماً كالعهد به لمدى قرون ذات عدد صورة الثقافة الإسلامية حسب ما يتطلبه كل عصر دافعة أو معوقة ، حية أو جامدة ، وكما كان الأزهر مجال جهود المصلحين الذين أرادوا إصلاح حياة الأمة الإسلامية بالدين ، كان فى الوقت نفسه مشغلة الحكام ممن أرادوا تجميد الفكر الدينى وتعطيل حيويته وذلك بحكم الاتصال الحتمى بين السياسة والدين ، وكلية الآداب كانت بوجه خاص ميداناً لصراع مرير عنيف بين الشخصية المصرية والغزو الفكرى والاستعمار الثقافى مما يجعلها جديرة بأن تكون مرصداً حساساً نطل منه على الأفق لنفهم طبيعة المرحلة .

فبقدر ما عزلت الظروف والأهواء (الأزهر) عن حياة العصر وحاولت أن توصد أبوابه ونوافذه فى وجه العلم الحديث والفكر المعاصر ، فتحت أبواب كلية الآداب الغزاة الثقافيين ومكنت لهم فى مراكز النفوذ فيها والتوجيه .

بقدر ما حطت الرجعية بكل ثقلها على الأزهر لتعوقه عن أداء رسالته الكبرى فى إصلاح الحياة بالدين حط الاستعمار ثقله على كلية الآداب بالجامعة المصرية لأنها الكلية التى تختص بدراسة شخصية الأمة فى تاريخها وفلسفتها وحضارتها وطبيعة إقليمها وآثارها ، وآدابها القديم والحديث ، وما تلقت وتتلقى من روافد حضارية وفكرية ، شرقية أو غربية عريقة أو محدثة .

ولم نكن نحن طلاب المرحلة صماً وعمياناً فيفوتنا وعى ما احتدم هناك من صراع كانت عقولنا وقلوبنا وضمائرنا ميداناً له .

الخاتمة

إيماءات إلى مصادر الخطر

من خلال هذه المرحلة (مرحلة ما بين الحربين) وهي في تقدير الباحثين من أخطر مراحل التاريخ العربي الاسلامي المعاصر : تبدو إيماءات كثيرة إلى أخطار وآثار لم تكن قد تكشفت بعد ، وهي تبدو اليوم بالمراجعة وإعادة النظر كأنما كانت تضع الخطوط العامة لأعمال بعيدة الأثر عميقة الخطر ومن خلال هذه الإيماءات تبدو بعض المخططات الصهيونية الباكرة ، وتتكشف ملامح الأيدلوجية التلمودية التي كانت تنطلق في هذه المرحلة برفق وأناة من خلال كلمات وعبارات ودعوات . يلقاها بعض الباحثين من رجال أقوام وفدوا إلى مصر أساتذة بكلية الآداب في الجامعة المصرية القديمة ، أو استقبلوا وافدينا هناك في جامعات أوربا .

وقد تأثر بهؤلاء صفوة الذين تصدروا في مجال الفكر والأدب والبحث من أمثال : طه حسين وزكي مبارك ومنصور فهمي ومحمود عزمي وهيكل ومصطفى عبد الرازق ، كما تأثر بها كثيرون آخرون من أمثال سلامة موسى وأمين الخولي وعلي عبد الرازق ومحمد عبد الله عنان .

في مقدمة هؤلاء الأساتذة الموجهين دوركايم أستاذ طه حسين والمشرف على رسالة ابن خلدون ومحمود عزمي وأستاذه في علم الاجتماع وكذلك ليفي بريل أستاذ منصور فهمي وزكي مبارك . والأستاذين من حاخامات الصهيونية وحملة ألوية فكرها ودعاتها في ذلك الوقت وما تزال آثارهم بعيدة المدى في مخططات الفكر الغربي .

هذا فضلا عن تأثر مثقفينا في هذه المرحلة بعدد من المستشرقين الذين قدموا إلى الجامعة المصرية القديمة وتابعوا عملهم في البعثات التي سافرت من بعد إلى أوربا

وفي مقدمة هؤلاء جويدي ايثمان والينو وسانتلانا وميلوني وماسينون وتبدو هذه الإيماءات في مواقف كثيرة منها :

(أولا) كان سانتلانا يصحب طه حسين (بعد أن ترك الأزهر والتحق بالجامعة المصرية القديمة عام ١٩٠٨) إلى الأزهر ويحضر معه دروساً في التفسير ، وقد حضر معه ذات مرة درساً ألقاه الشيخ سليم البشرى .

وكان يفسر آية : ولو أننا نزلنا عليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله (سورة الأنعام الآية ١١١) يقول مؤلف كتاب (هدية إلى طه حسين في عيده الستين) فاعترض طه على تفسير الشيخ قائلا : هذه جبرية مطلقة .

فقال الشيخ البشرى : من أين تعلمت هذا الكفر ، أمن أساتذتك الافرنج حثه (سانتلانا) على السكوت .

ويرى الدكتور طه حسين هذه القصة بصورة أخرى في كتابه (مذكرات طه حسين) :

« ولم ينس الفتى موعداً ضربه لأستاذه سانتلانا ذات صباح ليحضر معه درساً من دروس الأزهر ، وذهب مع الفتى إلى درس الشيخ الأكبر سليم البشرى رحمه الله وكان يلقى درسه في التفسير مع الصباح بالرواق العباسي وجلس الأستاذ والتلميذ بين الطلاب وأخذ الشيخ يفسر الآية : إلخ .

وفسر الشيخ رحمه الله فأحسن التفسير وخاض في حديث الجبر والاختيار ويأبى الفتى إلا اللجاج فنهره الشيخ بهذه الكلمات :

— ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، الله أكبر على العلم والايمان ، حضرتك مسلم !

ويهم الفتى أن يجيب ، ولكن الشيخ ينهره في سخرية غاضبة : اسكت يا شيخ جالك الكلاب خلينا نقرأ . . وإذا أستاذه الايطالي يمس كتفه مساً متصلا وهو يقول له هامساً بعربيته التونسية العذبة : اسكت اسكت ليضربك .

(ثانياً) تكشف تجربة محمود عزمي عن خطره في هذا الصدد : فقد قال أستاذه : إذا ذكرت الاقتصاد فلا تذكر الشريعة وإذا ذكرت الشريعة فلا تذكر الاقتصاد .

يقول : كان يدرس الاقتصاد السياسي بالسنة الأولى في مدرسة الحقوق وكان يتعلم فيما يدرس أن (الربا) أصل كل نمو اقتصادي لأن الفائدة التي تعود على صاحب المال هي وحدها التي تدعوه إلى أن يقرض ماله اشتراكاً منه في الجماعات المالية الكبرى التي تخرج المشروعات المنتجة ، وكان يرى أن هذا القول في علم الاقتصاد تؤيده دلائل الواقع كلها .

ولكنه كان لا يستطيع أن ينسى أن « الله » قد أحل البيع وحرم الربا .

وكان لا يستطيع أن يوفق بين الأمرين فقصد يوماً إلى ناظر المدرسة — وكان إذ ذاك هو الأستاذ الفرنسي (لامبير) وأفضى إليه بما يشغله . فقال له : « حين تدرس الاقتصاد السياسي لا تفكر

فى الشريعة الإسلامية وحين تدرس الشريعة الاسلامية لا تفكر فى الاقتصاد السياسى .

ويذهب محمود عزمى إلى السوربون ، وقد حضر محاضرات الأستاذ (دوركايم) ويقول - خلد الله ذكره - ويقول : إنه نتيجة لمحاضراته استساغ أسلوبه وطريق تفكيره ، وكان من نتيجة انطباع هذه الطرائق التى لم يذكر خلال شرحها وتقديمها (اسم الله) إلا نادراً واسم (الدين) إلا محترما مبجلا على اعتبار أنه حادث (عمرانى) له قدره التاريخى .

وهكذا كانت الطلائع تمضى من وراء مخططات التلمودية الصهيونية .

ولا عجب بعد هذا أن نرى محمود عزمى يدعو إلى المتوسطية ويحضر المؤتمر الصهيونى فى بازل ويكتب عنه فى الصحف وهكذا .

(ثالثاً) : يبدو هذا الاتجاه واضحاً فى أطروحات الدكتوراة ، فقد كانت أولى هذه الأطروحات عن الغزالى والمأمون . أما الغزالى فقد تناوله الدكتور زكى مبارك فهاجمه هجوماً شديداً أما المأمون فقد أغضى مؤلفه عن الدور الخطير الذى قام به ترجمة الإلهيات اليونانية واحتضانه لنظرية خلق القرآن .

وقد كانت قسوة زكى مبارك فى الهجوم على الغزالى مساوية لقسوة طه حسين فى الهجوم على ابن خلدون وخاصة فى المقارنة بينه وبين مونتسكو فقد وصف نظريات ابن خلدون بالسذاجة والطفولة ونظريات مونتسكو بالدقة والعمق والحمد لله أن عاش الدكتور طه حتى رأى آرائه وهى موضع ازدراء الباحثين وقد دحضت جميعاً فى مختلف المجالات ومزقت إربا ، أما بالنسبة لابن خلدون فقد كشف عن دخائل شخصية الباحث الذى أراد أن يجامل أستاذه دور كايم فى هجومه على ابن خلدون فسبقه فى ذلك سبقاً عجيباً ، وكانت سخرية القدر أن مات دور كايم قبل أن يناقش الرسالة فى باريس ويكرم طه حسين على احتقاره ابن خلدون .

أما الدكتور زكى مبارك فما لبث أن غير رأيه فى الغزالى وكتب مقاله المعروف (إليك أعتذر أيها الغزالى) .

(رابعاً) : من هذه الإيماءات : إقامة حفل تكريم لأرنست رينان فى الجامعة المصرية بمناسبة مرور مائة سنة على وفاته وقيام مصطفى عبد الرازق على أمر التكريم والتقدير لهذا المستشرق الذى هاجم الاسلام والعرب ووصفهم بأقسى الألفاظ .

(خامساً) إنكار الدكتور طه حسين قصة إبراهيم وإسماعيل والشك فى ذهاب إبراهيم إلى الجزيرة العربية وهى متابعة صريحة لأفكار الصهيونية العالمية ودعواها .

(سادساً) : تكريم أبو نواس وإصدار الهلال لعدد خاص عنه تحدث فيه الكتاب عن هذا

الشاعر الماجن فضلا عن الدراسات المتعددة التي صدرت عنه بأقلام كبار الكتاب من بعد أمثال المازني والعقاد وطه حسين .

(سابعاً) تحول الدكتور طه حسين من تدريس التاريخ اليوناني القديم إلى تدريس الأدب العربي وحشد آراء الاستشراق في اللغة والإسلام والتاريخ من خلال كتاباته في الأدب الجاهلي وحديث الأربعاء وهامش السيرة .

(ثامناً) إعلاء شأن الهلينية وقيام أحمد لطفي السيد على مترجمات أرسطو التي ترجمت باسمه ولم يكن له فيها أي مساهمة حقيقية وإقرار الدكتور طه لدراسة اللغتين اليونانية والرومانية في كلية الآداب وترجمة الآداب والفلسفات والمسرحيات اليونانية في محاولة للقول بأن دراسة الأدب الغربي الحديث لا تتم إلا بدراسة الأدب الهليني ، والانتقال من ذلك خطوة أخرى إلى القول بأنه إذا كان المسلمون قد احتضنوا الفلسفة اليونانية في القديم فلا تثريب عليهم من احتضان هذا الفكر الغربي الحديث لأنه وليد الفلسفة اليونانية . وقد هاجم هذه النظرية التي حملها كتاب (مستقبل الثقافة) كثير من رجال حركة اليقظة .

(تاسعاً) من مواجهة إنتاج هذه المرحلة يتجلى الاهتمام بما يسمى دور اليهود في الجزيرة العربية وأشرف الدكتور طه على رسالة ليهودي هو إسرائيل ولفنسون في هذا الصدد تجرى فيها محاولة القول بأن المسلمين تلقوا من اليهود فكرهم الإسلامي ، ومن هذه المحاولات الاهتمام بكتابات ما كس اوردو خليفة هرتزل وكتابات (العقاد والمازني واسماعيل مظهر) عنه بإفاضة .

(عاشراً) الاهتمام بالدعوة البهائية والكتابة عنها فصولا مطولة في المجلات والصحف المصرية : الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة ومجلة العصور .

(حادي عشر) ما صدر عن توفيق الحكيم من آراء ظالمة عن العرب في المقارنة التي أجراها بينهم وبين الفراعنة في خطابات مفتوحة تبادلها مع الدكتور طه على صفحات الرسالة .

(ثاني عشر) ما أشار إليه الدكتور زكي مبارك من أن أول كأس خمر شربها إنما قدمتها له زوجة أستاذه المشرف على رسالته (النثر الفني) بعد أن أحرز الدكتوراه وفي حفل تكريمه ، وقد أشار مبارك في كتابه (ليلى المريضة في العراق) إلى أثر هذه الكأس في هذا الخطر الذي لحق به من بعد وكان له أبعد الأثر في حياته .

(ثالث عشر) يتصل بهذا ما ذكره الدكتور شبلي شميل في حديث له مع الشيخ رشيد رضا حيث قال له إن السر في تحوله إلى المذهب المادي إنما كان نتيجة كلمة قالها له أحد المستشرقين في أوروبا ، أثارت في صدره مجهنة حولت حياته هذا التحول وجعلته عدواً الأديان وخاصة دينه الذي ولد عليه .

(رابع عشر) إن تجربة الدكتور محمد مندور تمثل بوضوح أخطار إيحاءات الغزو الثقافي الغربي يقول : في أول عهدي بباريس كنت أتناول الغداء على مائدة سيدة عجوز مع نفر من الشبان والشيوخ الفرنسيين وبعض الأجانب ، وكان بين الفرنسيين رجل جاوز الخمسين يعمل وكيلا للمحافظة . وأكبر ظني أنه ينحدر من أسرة كبيرة من الأسر المحافظة ، ولقد علمت أنه ابتلى الحياة وابتلته بهمومها الفعال فتحملها في بطولة ، ولقد خرج من شدائده وملابسات حياته بفلسفة قوية تقوم على مبادىء الأخلاق الصارمة كما تقوم على الاعتداد بكرامة الإنسان وقدرته على توجيه الحياة وإخضاعها لإرادته . مع هذا الرجل تعلق حديثي أحد الأيام ورأيته يبسط مبادىء فلسفته التي ذكرتها في حرارة المؤمن فدهشت ، وأخبرته بأن مبادىء الأخلاق التي يتحدث عنها ما هي إلا (ظواهر اجتماعية) تملي على الأفراد دون أن يكون لهم دخل في بنائها أو فضل في الإيمان بها ، كما أخبرته أن إرادة الإنسان الحرة التي يعتز بها ليست إلا وهماً ، لأن الفرد لا يملك لنفسه شيئاً ، إنما هو مسير بغرائز وقوى دفينة .

وما أن سمع الرجل مني هذا الهراء حتى انتفض كالأسد ويسلمك بمرفقه الأيسر على المائدة ليلتفت إلى متحدثاً في غضب ، غضب الاستعلاء ، وسألني :

— من أي بلد أتيت يا بني !

قلت : من مصر :

قال : وماذا يصنع أبوك في مصر .

قلت : يزرع الأرض .

قال : أوصيك مخلصاً أن تعود إلى بلدك لتحرث الأرض مع أبيك ، هذا أجدى عليك وعلى وطنك مما تتعلمه أو أظن أنك تتعلمه هنا من هراء .

فتماسكت مهدوءاً وقلت :

ولكن هذه يا سيدي هي الآراء التي سمعتها من أساتذة السوربون في علم النفس وعلم الاجتماع .

فأجابني : ومن أنبأك أن هؤلاء الأساتذة يفهمون شيئاً من حقائق الإنسان ؟ أتظن أن حقائقنا البشرية من اليسر بحيث تصاغ نظريات ، أو يكشف عنها التفكير المجرد . ثم من قال إن التفكير الفرنسي يمثله ذلك النفر من اليهود الذين يزعمون أنهم اكتشفوا قوانين الإنسان عندما زعم كبيرهم (دوركايم) ومن خلفه ليفي برول ، وموس وفوكونيه ومن بعدهم من أن الإنسان حكمه حكم المادة ، وأن هنالك ما يسميه هؤلاء الحمقى وعياً اجتماعياً تتمخض عنه الحياة العامة كما يتمخض الناتج الكيماوي عن مزيج من العناصر .

احذر يابنى أن تؤمن بما يقولون ، فليس صحيحاً أن الرجل المهذب لا يستطيع أن يصل إلى قيادة شخصيته يهتدى بها إلى مواضع الخير والبر والبطولة والحسنة بنفسه ، كما تهتدى الطيور إلى أوكارها ، وليس صحيحاً أن قواعد الأخلاق ليست إلا ظواهر اجتماعية لانستطيع فى علاجها شيئاً ، وكل ما يجب علينا هو أن نرصدها كما يفعلون لنستخرج منها قوانين عامة ، هذا يا بنى وهم ، بل خداع مبطلين . من قال إن الإنسان مادة فحسب ، وأنه كان مادة ، وأن الروح لم يكن لها وجود ، وأنها تفنى بفناء المادة كما تنعدم النغمات وبتحطم الناى ، أليس من الخير بل من الواجب على الإنسانية أن ترفض هذا كهذا لن ينتهى إلا بتحطيم حياتنا بشل إرادتنا وتقويض دعائم الهيئة الاجتماعية التى نحيا بينها .

(خامس عشر) أخطر الإيحاءات هى تقدير الاستشراق وتكريم المستشرقين على النحو الذى نراه واضحاً فى مختلف كتابات طه حسين وغيره بحيث تحس أنه لا علم إلا عند هؤلاء الناس وأن مفاهيم الأدب العربى والفكر الإسلامى والتاريخ واللغة والحضارة بل والشريعة الإسلامية ليس لها إلا مصدر واحد هو كتابات المستشرقين .

(سادس عشر) سانتلانا : هذا الذى كان يحرص الدكتور طه على أن يذهب إلى علماء الأزهر ليحمل الحقد لهم بوده إليهم بعد عودته من أوربا الصباح صاعقين وهو وضع قاعدة سارت عليها كلية الآداب كأنما هى حقيقة لا تقبل النقض هى أن الفلسفة الإسلامية هى فلسفة يونانية ، أما ليفى بريل اليهودى الذى حرض منصور فهمى على كتابة رسالته فى الدكتوراه عن التقاليد الإسلامية لحمل حملة ضارية على زواج الرسول وتعدد زوجاته ، وكان لرسالته أسوأ صدى فى دوائر الفكر الإسلامى ، وقد اعتذر منصور فهمى من بعد عن خطأه فى الاعتماد على أستاذ يهودى دفعه إلى أن يهاجم دينه ورسوله .

• • •

هذه هى الإيحاءات الخطيرة التى نستطيع أن نلتمس منها هذه الأضواء الكاشفة فى هذه الفترة ، فقد كانت بروتوكولات صهيون قد صدرت فى أوربا منذ ١٩٠٢ تقريباً وظلت محجوبة عن العرب والمسلمين إلى ما بعد منتصف هذا القرن ، وكانت تحمل كل هذه الدعوات والمحاولات ، وكانت فكرة الالتقاء بين الشباب المثقف وبين المستشرقين ، وسواء فى جامعاتهم أو فى بعثاتهم هى مفتاح الطريق إلى هذا الخطر الذى نرى ملامحه واضحة فى طه حسين ومندور وزكى مبارك ومحمود عزمى وكثيرون .

وهنالك ضوء كاشف يمكن القول معه إن الصهيونية لها آثارها فى الأدب العربى فى هذه الفترة من وراء عشرات الدعوات والكلمات .

وهنالك ضوء كاشف عن سيطرة الأفكار المادية ودعوات الفردية وآراء دوركايم وليفى بريل على

الأدب العربي والفكر الإسلامي . وهناك دعوة حارة إلى ترجمة الهيلينية وترجمة الأدب المكشوف الأوربي والفرنسي خاصة .

وهناك إعلاء لشأن أبي نواس وبشار وهدم الغزالي والمتنبي وهكذا .

هذا فضلا أن طابع اليهودية التلمودية واضح منذ ذلك الوقت الباكر في قضية سيدنا إبراهيم ومسألة اليهود وأثرهم في جزيرة العرب والمقارنة بين العربية والعبرية .

وهناك الولاء للثقافة الفرنسية ، وهناك تكريم الاستشراق ، وهناك التقليل من خطر التبشير كما رأينا في كتابات طه حسين وعلي عبد الرازق .

وهناك أثر معاهد الإرساليات واضحة وأبرز صورها صيحة عبد القادر الحسيني عام ١٩٢٣ في صحن أحد بعض معاهد الإرساليات الجامعة في القاهرة .

وهناك استغلال بعض خريجي الأزهر في حمل لواء دعوات هدامة مثل حمل طه حسين فكرة فصم العلاقة بين الأدب والفكر الإسلامي ومثل حمل علي عبد الرازق فكرة فصل الدين عن المجتمع والدولة .

• • •

تلك إيماءات سريعة وإرهاصات خاطفة تكشف عنها الآثار المكتوبة في هذه المرحلة ، مرحلة اليقظة في مواجهة التغريب .

وسنرى في المرحلة التالية إلى أي حد يصل أثر هذه الإيماءات ،

الكتاب الثالث

اليقظة الإسلامية

في مواجهة النفوذ الغربي والصهيونية والشيوعية

مدخل إلى البحث :

انبثقت حركة اليقظة الإسلامية انبثاقاً طبيعياً من خلال ظلام الجمود والجبرية والتخلف حين ارتفعت الصيحة في الجزيرة العربية وفي الأزهر في مصر في وقت متقارب داعية إلى التماس جوهر الإسلام ومنابعه الأصيلة القائمة على التوحيد الخالص ، وكان العالم الإسلامي قد بلغ مرحلة عجز فيها عن الحركة الصحيحة ، وقد أصاب المجتمع الإسلامي ذلك الإحساس بالإجهاد والضعف بعد دورة كاملة من الحركة والحيوية امتدت أكثر من ألف عام .

وقد اندفعت حركة اليقظة اندفاعاً ذاتياً من قلب الفكر الإسلامي نفسه الذي كان دائماً قادراً على تصحيح طريقه كلما انحرف عنه ، وكان له تلك المقدرة الفائقة على التماس المنابع عندما تكثر الأزمات والأحداث .

وتشكلت الدعوة إلى اليقظة في صورة حركة حين اتجه الإمام محمد بن عبد الوهاب في عقد أواصر العمل السياسي والاجتماعي مع الأمير محمد بن سعود ، وبذلك انطلقت هذه الدعوة إلى التوحيد وامتدت وأثمرت ثمارها العديدة في الهند وفي ليبيا وفي السودان واستجاشت مستمدة مفاهيمها من القرآن والسنة لتكون مصدر لما أطلق عليه من بعد الحركة السلفية التي قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والتي وصلت إلى تونس والجزائر ومراكش وكان لها دعاتها وحملة لوائها .

ولقد بدأت حركة اليقظة أول الأمر مجددة للعقيدة ملتمسة لمفهوم التوحيد فلما واجهت الاحتلال والغزو السياسي الغربي اتسعت مهمتها فحملت لواء مقاومة الاستعمار ورفعت راية الجامعة الإسلامية في مواجهة أوربا وغزوها الاستعماري .

ودخلت حركة اليقظة مرحلة بعد مرحلة حتى كان امتحانها الشديد بعد سقوط الخلافة التي كانت تجمع بين العنصرين العربي والتركي في دولة واحدة ، وكانت بمثابة القيادة العامة للمسلمين جميعاً خارج الدولة العثمانية .

سقطت الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وتوالت اقامات المسلمين في سبيل التجمع ولم التوقف وحاولت الدول العربية التي مزقها الاستعمار إلى إقليميات أن تلتقي حول محور العروبة الإسلامية وأن تربط نفسها بالدول الإسلامية في مؤتمرات عديدة عقدت في كراتشي ومصر ومكة وكان التجاوب واضحاً بين أجزاء العالم الإسلامي دون أن يفقده سقوط الخلافة ذلك الشعور القوي القائم على الإخاء والتضامن وتبادل للمنافع والخبرات والتجمع في مواجهة الأحداث والأزمات .

غير أن الجديد الذي شهدته حركة اليقظة قبيل الحرب العالمية الثانية هو محاولة قيام جبهة شابة مؤمنة تدعو إلى العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وكان ذلك علامة على الانتقال من مجال الفكر إلى مجال الدعوة ، ومن مجال الدعوة إلى مجال الحركة ، فقد ظهرت جماعات عديدة تحمل لواء الإسلام والدعوة إليه والدفاع عنه ومطالبة أهل الحل والعقد باستعادة الإسلام لمكانه الطبيعي في المجتمع الاسلامي قبل أن ينتزع الاستعمار منه قيادة المجتمع في مجال السياسة والقانون والاقتصاد والتربية والتعليم ، وبذلك تكون حركة اليقظة قد تطورت تطوراً طبيعياً في سبيل تحقيق غايتها وهي تجديد مفهوم الاسلام التماساً للمنابع الأصيلة وتطبيق الاسلام كنظام مجتمع واعتبار الشريعة الاسلامية مصدراً للقوانين والنظم تحقيقاً لمفهوم أن دين الدولة هو الإسلام .

ولقد تشكلت هذه الجماعات حاملة لواء التربية الاسلامية للشباب في مصر وسوريا والعراق والمغرب وفي بلاد الاسلام المختلفة وخاصة في باكستان والهند .

غير أن الاستعمار أحس بخطر انتقال الفكرة الاسلامية إلى المجال العملي ، وكانت معركة فلسطين هي التي أعطت الصورة التي عرفت دوائر الاستعمار حين تقدمت هذه الجماعات المؤمنة إلى ميدان القتال وأعادت مفهوم الاسلام الأول في الجهاد والموت في سبيل الله والدفاع عن الأرض والعرض على نحو حطم مخططات الاستعمار التي عاش يغرسها من خلال سيطرته على مناهج التربية والتعليم لاحتواء المجتمع الاسلامي وتحريفه من مفهوم الجهاد والقوة والإيمان بالله تبارك وتعالى .

ومن هنا كانت حركة الاحتواء قد استطاعت أن تضرب هذا التيار النابض من حركة اليقظة وتسوقه سوقاً إلى ساحات التعذيب والاتهام والسجن حتى تثير حول الفكرة الاسلامية كلها غباراً كثيفاً .

غير أن حركة اليقظة قد اتخذت لها مواقع مختلفة في العالم الاسلامي مقراً وملتمساً للحياة والنماء بحيث استطاعت أن تصبغ الفكر الاسلامي كله بطابعها وأن تستصفي تحت لوائها جميع العاملين في الحقل الاسلامي وأن تندفع في العمل لمقاومة التغريب والغزو الثقافي ومعارضة تيارات الإلحاد والإباحية والعلمانية والشعوبية والماركسية جميعاً في قوة وصلابة .

ولا ريب أن حركة الاحتواء كانت بسلطانها المادى ونفوذها الاستعمارى وما مكن لها من قوى ومال، كانت قادرة على ضرب حركة اليقظة وكان لها منابرها القوية فى واجهات عديدة من الصحف الكبرى بالأسماء اللامعة والدعوات ذات البريق الخادع فى محاولة السيطرة على حركة اليقظة والادالة منها، وبالرغم من أن حركة اليقظة لم تكن تملك فى أغلب أقطار العالم الاسلامى صحافة قوية أو إعلاماً قادراً فإنها استطاعت بوسائلها الذاتية أن تحمل صوتها مستمراً وإن لم يكن مرتفعاً أن تواجه كل التحديات والسموم التى كانت تطرح آناً بعد آن بالتفنيد وكشف الزيف وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم على نحو يشهد لها بالمرابطة على ثغرات الوطن الاسلامى فى يقظة تامة

ولعل أبرز ما اتسم به حركة اليقظة فى هذه المرحلة هى أنها أصبحت (قرآنية الاتجاه) بعد أن مرت بدور الدفاع الكلامى والفلسفى، بوسائط الغرب، وأساليب الخوف من الاتهام بالجمود وأساليب المواءمة والتبرير والتأويل، فإنها قد استطاعت خلال هذه المرحلة أن تشكل مدرسة ضخمة تقوم على المفهوم القرآنى الخالص تعد من صفوة رجالها : محمد المبارك ومصطفى السباعى والحسن الندوى، ومحمد الغزالى والمودودى، ومحب الدين الخطيب، وعشرات . وعلى رأس هذه المدرسة فى العصر الحديث الإمام حسن البنا .

• • •

مدخل سياسى تاريخى

إن الجولة الثانية لحركة اليقظة فى المرحلة التى تلت الحرب العالمية الثانية حتى نكسة ١٩٦٧ كانت خصبة غاية الخصوبة فقد واجهت تحديات جديدة تختلف عن التحديات القديمة التى واجهتها والتى كانت ما تزال مستمرة، فقد قضى النفوذ الأجنبى بعد الحرب العالمية الأولى على الخلافة ووحدة العالم الاسلامية .

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد حقق النفوذ الأجنبى قيام إسرائيل والقضاء على وحدة الوطن العربى بإثارة ريح القوميات والاقليميات وفرض مفاهيم القومية الوافدة المفرغ من الأصالة الجامعة بين العروبة والاسلام .

وقد غير النفوذ الأجنبى بعد الحرب العالمية الثانية أسلوبه ومفاهيمه مع رياح التغيير التى حملتها الأنظمة التى جاءت نتيجة الحركات التى قام بها رجال الجيش فى مصر وسوريا والسودان وباكستان والعراق، وكان النظام العسكرى فى صوته الواضح متلاقياً عن الأنظمة الديمقراطية الغربية التى كانت تحكم المنطقة كما رافق ذلك التحول من التبعية للغرب إلى التبعية السوفيتية وما كان لذلك من أثر واضح فى نكسة ١٩٦٧ .

ولم يكن الغرب قلقاً لهذا التحول بل لعله رأى أن الصبغة الماركسية التي فرضت لفرضها على البلاد العربية من شأنها أن تكون عاملا شديد الخطر في القضاء على الذاتية العربية الاسلامية وقد كان ذلك مما عجل بالهزيمة الساحقة التي حلت بالبلاد عام ١٩٦٧ .

وكانت هذه الهزيمة خاتمة للتجربة الطويلة التي حاولت البلاد العربية منذ اتصالها بالأنظمة الغربية بعد الحرب العالمية الأولى وقد مرت خلال هذه الفترة بالتجربتين معاً : التجربة الديمقراطية الغربية والتجربة الماركسية الشيوعية وكلتاهما كانت ابتعاداً عن واقع المجتمعات الاسلامية العربية وروحها وذلك مما عجل بالهزيمة وكانت فلسطين هي محك التجربة كلها منذ سقطت في براثن الغزو الصهيوني ١٩٤٨ ، وعندما سقطت فلسطين نهائياً عام ١٩٦٧ .

ولقد كانت هزيمة ١٩٤٨ ونكسة ١٩٦٧ علامة أكيدة على فساد التخطيط العسكري والسياسي الذي كان قائماً ، والذي كان بعيداً كل البعد عن مفهوم الاسلام ،

وقد وقفت حركة اليقظة الاسلامية خلال هذه التجربة موقف الكاشف عن زيف التجربة الغربية وفساد تطبيقها في المجتمعات الاسلامية ، كما واجهت دعوات الديمقراطية والشيوعية والاشتراكية والقومية والاقليمية وكلها كانت مذاهب تحاول تمزيق الوحدة الاسلامية التي أقامها الاسلام بعد أن فرضت نظاماً سياسياً غربياً ونظاما اقتصادياً ربوياً وفرضت القانون الوضعي بديلا من الشريعة الاسلامية .

ومنذ جاء الاستعمار والنفوذ الأجنبي يهدف الى صهر الأمة الاسلامية وفكرها الوافد المختلف في الغاية والوجهة والمتباين على طوابع الأمة المستمد من الاسلام وقيمه ومفاهيمه وذلك بجذبه إلى الدائرة المغلقة مستهدفاً صهره في بوتقة الأممية والدخول به في مرحلة الاحتواء .

فكان أن خضعت البلاد العربية للفكر الليبرالي فاستهدفت لهزيمة ١٩٤٨ ، ولما تحولت إلى الفكر الماركسي استهدفت لهزيمة ١٩٦٧ ولقد مرت التجربة في المرحلتين المتتابعتين فكان من نتيجتها سقوط فلسطين في يد اليهود تحت اسم القوميات والاقليميات ، ثم جاءت التجربة الشيوعية مكملة وكاشفة في سرعة عجيبة لفسادها وعجزها عن العطاء .

وكان الهدف من المخطط (الاستعماري الصهيوني الماركسي) إحلال مخطط جديد للسياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية في بلاد المسلمين والعرب ينفصل به الأمة عن نظامها وتراثها وعقيدتها وماضيها .

لقد حققت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) القضاء على النازية في ألمانيا والفاشية في إيطاليا لحساب الصهيونية العالمية التي استطاعت أن تقيم التحالف بين الرأسمالية والشيوعية في سبيل

القضاء على هذه القوة التي حاولت أن تقضي على النفوذ اليهودي الصهيوني في أوربا .

كما استطاعت في نفس الوقت أن تتخذ من النازية حجة للسيطرة على فلسطين وإقامة دولة إسرائيل بها على حساب الشعب العربي صاحب الأرض الذي أخرج منها فأحكمت إسرائيل الأمر بالتآمر وبباطل الدبلوماسية العالمية (أمريكا وروسيا) عام ١٩٤٩ وخرجت إنجلترا من الحرب دولة من الدرجة الثانية وانهزمت فرنسا بفعل الانحلال الاجتماعي فسقطت منهارة منذ الضربة الأولى ودمرت ألمانيا وقسمت إلى شطرين : شطر شيوعي وشطر غربي ، وبذلك سقطت واحدة من القوى السياسية العالمية التي كانت موجودة قبل الحرب وهي النازية ولكن انشأت على أثر ذلك الصهيونية على مثال النازية وأشد عنفاً ، وفي فترة الالتقاء بين الرأسمالية الغربية والبلاشفة استطاعت الشيوعية أن تدخل إلى أقطار العالم الاسلامي وأن تشكل جماعاتها التي كانت فيما بعد مصدر ذلك التفريق المكثف .

ولقد كشفت حركة اليقظة الاسلامية منذ اليوم الأول فشل الاستعانة والمتابعة لأي من هذه القوى : سواء أ كانت للنازية الألمانية التي ظن بعض المسلمين أنها ستعينهم على الاستعمار الغربي أو الاعتماد على الشيوعية من بعد حين ظن البعض أنها تساعد العرب على الاداله من الغرب .

ويمكن القول أن الدعوة الاسلامية قد عملت جاهدة طوال هذه السنوات في سبيل الكشف عن فساد تلك المصطلحات التي طرحها التغريب في أفق الفكر الاسلامي : القومية ، الاقليمية ، الماركسية ، الديمقراطية ، وأنها عملت لتجديد الدور الصحيح للوحدة الاسلامية ، والدفاع عن السنة والتاريخ الاسلامي واللغة العربية ، واستطاعت أن تقيم رأياً عاماً يعتمد في وجوده ومفاهيمه على الأصالة الاسلامية ويستمد مقوماته من المنابع الاسلامية : القرآن والسنة ويواجه موجات الفكر الغربي الوافد في كل ما تطرحه قوى الاستعمار أو الماركسية أو الصهيونية وأن تكشف عن فساد مطروحاتها وتعرى خلفيات تلك المحاولة الخطيرة التي ترمي إلى احتواء الفكر الاسلامي تحت اسم التغريب والغزو الثقافي بوسائل متعددة منها التبشير والاستشراق .

ولقد وجدت الدعوة الاسلامية في هذه المرحلة تحديات جديدة تختلف عن التحديات التي واجهتها من قبل ، كما وجدت أن التحديات القديمة ما زالت تتجدد وكأنما قد ألقيت تيارات الفكر البشري كله في تحد واضح في أفق الفكر الاسلامي وكأنما هذه التيارات قد تعاونت على هدم هذا المجتمع .

ولقد تعاونت تلك القوى المتخالفة في مناهجها على ضرب هذه الأمة فنجد أن القوى الغربية كانت تحتضن الشيوعية وتفسح لها وترضى عن نموها في عالم الاسلام لأنها تعرف أنها أداة الهدم .

كذلك كانت الشيوعية والصهيونية ترى فى العمل الذى قام به الفكر الغربى الكبير الرأسمالى بسمومه وشبهاته خلال السنوات الطويلة السابقة قد مهد لها الأرض .

وهكذا تلاقت فى هذه الفترة تيارات الغرب وتيارات الشرق ، فكنت ترى كتاب الوجودية بجوار كتاب الفلسفة المادية بجوار الماركسيين بجوار أولياء الثقافة فرنسا وأولياء الثقافة أمريكا وأولياء الثقافة روسيا ملتقين جميعاً على مفاهيم عامة تستمد جذورها من الفلسفة المادية أصلا وإن كانت تختلف فيما بين الرأسمالية والشيوعية من خلاف وكانت الصهيونية تدفع فكرها فى مجالات الفكر الفلسفى والنفسى والاجتماعى ، وكانت كلا القوانين الرأسمالية الغربية والشيوعية تخدمها بالهدم فى الكيان الإسلامى وتمكن لها . كانت كل القوى تتركز فى خدمة هذا الوجود الفاسد الذى قام على العنف ، يخدمه الغربيون والماركسيون على السواء ، ويؤكدون بقاء إسرائيل وضرب كل مفاهيم التربية الاسلامية والجهاد والتجمع على كلمة الله وفهم الاسلام فهماً صحيحاً .

وكان الهدف هو الحد من تلك القوة التى التزمت مفهوم الجهاد وجددت شباب الإسلام على النحو الذى واجهته الصهيونية فى فلسطين والذى كانت تتصاعد قوته فى أجزاء كثيرة من البلاد العربية المتاخمة لفلسطين حتى يسقط هذا الجدار ، وكان العمل يهدف إلى سبق الأحداث وإيجاد البديل الزائف القادر على السيطرة على الموقف بمفهوم مضلل وزائف وناقص للإسلام على النحو الذى عرفته التشكيلات التى أقامتها القوى الاستبدادية والمسيطرة لقتل الايدلوجية القائمة على التطلع إلى الوحدة الإسلامية باعتبارها سبيلا لمواجهة الخطر الصهيونى والايدلوجية القائمة على تطبيق الشريعة الاسلامية باعتبارها أساس بناء المجتمع الاسلامى القادر على تقديم المجاهدين لرد العدوان وحماية البيضة واستعادة الأرض .

وكان البديل هو النظرة الاقليمية والقومية الضيقة القائمة على مفهوم علمانى مفرغ من أصالة الاسلام ورابطة العروبة والاسلام ، والعمل على التأثر حول الحاجات اليومية وخاصة مشاكل الرزق وحاجات الطعام والشراب ، والتنصل من حمل لواء الجهاد قد دعا هذا إلى إفساح المجال أمام نوعية أخرى من القيادات التى لم تكن ذات جذور أصيلة فى البيئة والتى لم تكن قد رشحتها زعامتها ومقدرتها وكفايتها لتولى تلك المناصب المرموقة .

وقد أشارت دراسات غربية متعددة إلى ذلك الاحساس الخطير الذى خامر الغرب الاستعمارى ما بين الحرب العالمية الثانية قد تحقق للأقطار العربية والاسلامية الارادة التى تمكنها من حكم أنفسها وتقديم كفاياتها المرموقة ذات الماضى المجيد فى الجهاد وأنها تستطيع أن تقيم نظاماً سياسياً إسلامياً قادراً على مواجهة الاستعمار والصهيونية الشيوعية جميعاً وحفظ مقدرات الشعوب لأهلها ، والحد

من النفوذ الأجنبي الذي يهدف اعتصار أقوات الأمم وثرواتها لنفسه وتأكيد بقائه في هذه البلاد أطول أمد ممكن .

ولذلك فقد كانت القوى الأجنبية قد أعدت البدائل اللازمة للأنظمة القائمة التي كرهتها الأمم وعملت على التخلص منها ، هذه البدائل التي كانت ترجو بها أن تحول دون تحقيق الأمم لأهدافها وامتلاك إرادتها ، وإقامة الأنظمة ذات الأصالة فيها وكان من النتيجة هذه الخطط المدبرة أن طرحت في ساحة المجتمعات الإسلامية أنظمة ماركسية إلى جوار الأنظمة الغربية التي تبين فسادها .

ودخل نفوذ جديد إلى الساحة العربية يقاسم الغرب الاستعماري نفوذه هو النفوذ السوفييتي إلى جانب وجود إسرائيل في قلب المنطقة وعملها الدائم المتصل على تأليب القوى والحيلولة دون التقاء العرب على وحدة أو اتحاد ، وقد أشارت هذه الأبحاث ومنها لعبة الأمم وغيرها إلى أن الهدف كان واضحاً بعد الحرب العالمية الثانية أمام القوى المحتلة وهو تأييد وجود إسرائيل والقضاء على كل المحاولات التي ترمي إلى إعادة التجمع الإسلامي أو إلى إقامة أنظمة إسلامية في المجتمعات الإسلامية وقد استهدف هذا خلق استراتيجية جديدة تتجه نحو طرح عدد من المفاهيم : كالقومية والاقليمية والاشتراكية وكانت الديمقراطية الرأسمالية موجودة ، وقد جرى خلق جو من التضارب بينها والصراع .

وقد كان من شأن هذا سقوط الأنظمة وظهور أنظمة جديدة وانفجار قيادات بقيادات أخرى تحاول أن تحقق الحرية أو العدل الاجتماعي ثم تجد الطريق أمامها مسدوداً بذلك الصراع الذي نشأ في المنطقة بين القوى الغربية وبين الشيوعية وكان بريق الشعارات وخداع تلك القوى في تقديم العون الحقيقي لهذه الأمة ، أو تمكينها من تحرير الأرض أو بناء المجتمعات باطلا وزائفاً فإنها لم تلبث أن كشفت عوراتها الحقيقية وهي ترك البلاد العربية تقاسي محنة جديدة هي (النكسة) التي استطاعت إسرائيل من خلالها أن تسيطر على أجزاء من مصر وسوريا والأردن وأن تقضي على وجود فلسطين نهائياً .

لقد كانت فكرة القوى الثلاث المتصارعة على العالم الإسلامي والتي كانت تخطط الإدالة من أرض الإسلام ترمي إلى أن تحول بين هذه الأمة وبين امتلاك إرادتها أو تحقيق النصر أو استعادة الأرض أو بناء المجتمع الإسلامي ، وبذلك حالت دون أن تتقدم بتلك النماذج التي حملت لواء النضال في السنوات السابقة والذين مهدوا للتغيير حاولت دون أن يتقدموا إلى مسرح الأحداث بل كانت الخطة معدة لأن يحجبون تماماً وهذا أمر عرفته الحركات الوطنية في الماضي عندما حجب رجال الحزب الوطني بعد الحرب العالمية الأولى ولم يكن هدف هذه الطلائع إلا أن تصل إلى مكان

القيادة الاجتماعية الأمم عن طريقها المشروع ووفق مقررات الأمة نفسها واختيارها .

ولم تتمكن القوى التي سيطرت من أن تحقق أهداف الأمة أو تقدم لها نظاماً اجتماعياً أصيلاً لأنها سرعان ما غرقت في الصراع بين مراكز القوى وهكذا جاءت التجربة الجديدة وهي تحمل الآمال وتتطلع إليها الشعوب ولكنها لأسباب كثيرة عجزت أن تصل إلى الغاية التي كانت ترجوها الشعوب ولأنها نحت عنها حضانة تلك الركيزة المؤمنة واستعلت بقدرتها الذاتية ظلماً وبغياً فإنها سرعان ما سقطت صريعة الاحتواء وقد فرضت عليها التأثيرات الأجنبية والضغوط الخارجية مزيداً من السيطرة والاحتواء ، ولقد تابعت هذه التجربة النفوذ الغربي والغزو التغريبي في تقدير قيمة الفكرة الإسلامية وأهمية تحريك الشعور الديني للوقوف في وجه الغزو الصهيوني والمد الشيوعي ، وأوحى إليهم أنها فكرة غير مضمونة النتائج غير أنه تبين من بعد عندما حلت النكسة أن الخسارة التي لحقت بالأمة نتيجة تجاهلها هذا الرافد القوي كانت كبيرة .

• • •

الباب الأول

الوحدة الإسلامية

الفصل الأول

الوحدة الإسلامية

هدفان لحركة اليقظة (الوصول إلى الوحدة الإسلامية وإقامة المجتمع الإسلامي بتطبيق الشريعة الإسلامية) أما في سبيل الوصول إلى الوحدة الإسلامية ، فإنه منذ أن سقطت الخلافة الإسلامية عام ١٩١٦ والمسلمون يتطلعون إلى الوحدة ، وقد التمسوا إليها مشاريع جديدة وأساليب مختلفة استطاعوا بها التعبير عن مطمحهم الأسمى بالرغم من كل محاولات النفوذ الاستعماري الذي عمل على القضاء على رابطتهم الأساسية (الدولة العثمانية والخلافة) وقد شغل العرب خلال فترة ما بين الحربين بالسعي إلى التحرر من النفوذ الاستعماري والاحتلال العسكري والسياسي الذي كان مسيطراً على أجزاء من الوطن العربي قبل الحرب (منذ ١٨٣٠ الجزائر ١٨٨٢ مصر والسودان ١٨٨١ تونس) حتى كانت الحرب العالمية خاتمة المطاف في السيطرة على الوطن العربي كله (ما عدا : الحجاز واليمن) ولكن الجماعات والهيئات الإسلامية التي أنشئت في هذه الفترة اتخذت من (إعادة الخلافة) هدفاً لها بمثابة استكمال للتحرر الوطني والترابط القومي إلى الوحدة الإسلامية الجامعة ، ونصت مواثيق أغلب هذه الجماعات والهيئات على اعتبار عودة الخلافة هدفاً نهائياً ، وقد اتصل السعي إلى تحقيق هذا الهدف حتى بلغ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مرحلة يمكن القول بأنها كانت بمثابة منطلق صحيح لإبراز هذه الوحدة في صورة عملية ، غير أن قوى النفوذ الاستعماري المرتبطة بقوى الغزو الصهيوني عمدت إلى إجهاض هذه الحركة بتحويل اتجاه الرياح نحو القوميات والإقليميات على النحو الذي استعان بالدعوة إلى القومية العربية المفرغة من مفهومها الأصيل خلال الستينات والسبعينات على النحو الذي عرف بعداء القومية العروبة والإسلام جميعاً .

لقد استطاعت حركة اليقظة أن تعمق مفهوم الوحدة الإسلامية وتعيده إلى الحياة مرة أخرى بعد عقد من الزمان من سقوط الخلافة ، وكانت قضية فلسطين بتعقيداتها التى هزت الوطن العربى (إبان الصراع بين أهل فلسطين والصهيونية العالمية والاحتلال البريطانى) عاملا هاماً فى اتجاه الرأى إلى اتخاذ (الوحدة الإسلامية) طريقاً إلى تحقيق غاية اقتلاع هذا الخطر ، وقد بدأ ذلك باكراً بانعقاد المؤتمر الإسلامى فى القدس عام ١٩٣٢ الذى ضم صفوة مفكرى وقادة المسلمين فى هذه الفترة وكان علامة على الطريق إلى عودة المسلمين إلى التجمع مرة أخرى فى إطار جديد بعد أن سقط إطار الخلافة الذى تجمع حوله المسلمون من قبل ، ثم تعددت المشروعات إلى ما يسمى بالكتلة الإسلامية أو الرابطة الإسلامية ، ثم توالت المؤتمرات حتى كان المؤتمر العالمى الإسلامى فى كراتشى (باكستان) فبراير ١٩٥١ علامة واضحة على الطريق .

وقد جاء هذا بعد أن تبين مدى التبعية الواضحة فى بناء الجامعة العربية التى قامت بعد تصريح وزير خارجية بريطانيا ١٩٤٤ والتى لم تستطع أن تحقق الهدف الذى يملأ نفوس العرب والمسلمين نحو الوحدة والترابط السياسى والاجتماعى ، وكان ذلك واحداً من مخططات الاستعمار لما بعد الحرب العالمية الثانية ثم طرح فى باريس (نوفمبر ١٩٤٨) مشروعاً يرمى إلى إنشاء جامعة دول إسلامية على الأساس الذى نشأت عليه جامعة الدول العربية على أن تضم جميع الشعوب الإسلامية سواء أكانت مستقلة أم غير مستقلة .

وقد أعلن أن الهدف الأول من إنشاء هذه الجامعة هو مواجهة الحركة الشيوعية .

وتصدرت باكستان الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، وجرت تصريحات الرابطة الإسلامية بها (١٩٤٩) عن دعوة الدول الاسلامية إلى تشكيل هيئة سياسية عالمية كمقدمة لإقامة دولة إسلامية . وأشار مراسل رويتر إلى ما يسمى إقامة دولة قرآنية تحتضن الدول الاسلامية المستقلة .

ودعت باكستان إلى إنشاء ما أسمته (إسلامستان) أى إدماج الدول الاسلامية تحت لواء واحد وصرح وزير خارجية تركيا (يوليو ١٩٤٩) إلى أنه إذا كونت البلاد الاسلامية وحدة دولية فإن تركيا لا تتردد فى الانضمام لها وأن موقف تركيا تجاه الخطر الشيوعى هو الموقف الذى يحمل الدول الاسلامية إلى الترابط فى سبيل وحدة تتآزر فى سبيل التخلص من الخطر الشيوعى الذى يهدد الاسلام والمدنية الاسلامية والثقافة الاسلامية ، وجاءت برقيات من أندونيسيا أن هناك تفكيراً جديداً لانشاء كتلة أسيوية تضم الهند والباكستان وأندونيسيا وسيام وإيران وتركيا والبلاد العربية ومصر .

وقال رئيس وزراء إيران السابق : إن قيام كتلة إسلامية فى الوقت الحاضر يعود بالخير على الشعوب الاسلامية ويقوى مركزها الدولى .

وقال فارس الخورى أحد السياسيين العرب : إنه استناداً إلى تجاربى خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة أقرر أن جميع بلدان الكتلة الإسلامية أو الشرق لا تستطيع الصمود منفردة أمام أى عدوان شيوعى ، ومن ثم يتعين لها أن تمهد السبيل لتعاون وثيق فيما بينها وأن تنشىء جبهة متحدة ، وأعلنت كراتشى (باكستان) يناير ١٩٥١ برنامجاً لتوحيد البلاد الاسلامية من أربع نقاط :

(١) استخدام اللغة العربية كإحدى اللغات الرسمية لجميع البلاد العربية .

(٢) إقامة كتلة إسلامية مستقلة فى هيئة الأمم أو إقامة هيئة إسلامية منفصلة .

(٣) استخدام عملة مركزية منفصلة تتخذ وسيلة لتبادل العملة بين البلاد الاسلامية .

(٤) رفع القيود والحواجز على حركة النقل والانتقال بين البلدان الاسلامية .

كذلك فقد جرى البحث حول إنشاء مجلس أعلى يضم رجال الهيئات الاسلامية فى أندونيسيا والباكستان بما يفتح الطريق إلى إنشاء هيئة إسلامية موحدة .

وقالت برقيات كراتشى : إن العالم الإسلامى إذا اتحد أمكن أن يتحول إلى قوة فعالة قد تصبح القوة الثالثة التى يسعى العالم إليها وستعمل الباكستان فى سبيل هذا الاتحاد .

وعلى أثر ذلك افتتح المؤتمر العالمى الإسلامى فى كراتشى (٩ فبراير ١٩٥١) الذى ضم ٢٦ دولة من أنحاء العالم الاسلامى من فلسطين إلى سنغافورة .

وأعلن المؤتمر أنه يهدف إلى توثيق الروابط الروحية والثقافية والاقتصادية بين الشعوب الاسلامية على وجه البسيطة وانتقد فيه القول بأن الوحدة العربية ما هى إلا جزء صغير من الرأى الاسلامى الأكبر ، وقد عرض اقتراح يؤدى إلى وحدة عالمية كوسيلة لتحقيق هذه الغاية ، كما أعلن المؤتمر أن المسلمين فى جميع أنحاء العالم يستطيعون المساهمة فى قضية السلم وتقدم البشرية على هدى من مبادىء الاسلام وتعاليمه وأن المسلمين يؤمنون بمبادىء وقيم إنسانية رفيعة ظلت على مدى العصور رائد بنى الانسانية .

وأعلن المؤتمر الدعوة إلى إنشاء كتلة إسلامية للمحافظة على السلام الدولى وأمن العالم ، وصرح مصطفى السباعى أن أوربا تتحد والشيوعيون يتكتلون ، فلماذا لا يعمل المسلمون مثلهم . إن الكتلة الاسلامية يمكنها الوقوف بين الكتلتين اللتين تضطران العالم إلى شطرين للمحافظة على السلام .

ودعا أغاخان إلى التضامن وأعلن أن هناك حاجة إلى قيام تماسك تام بين المسلمين .

على هذا النحو كانت صورة السعي إلى الهدف في هذه الفترة منذ عام ١٩٤٦ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى ١٩٥١ تقريباً.

(٢)

وكانت الصحف الاسلامية في هذه الفترة تولي هذه القضية اهتماماً شديداً وتتساءل صحيفة الاخوان المسلمين (مايو ١٩٤٨) فتقول :

آن الأوان لقيام جامعة الدول الاسلامية

حاولت أن تشهد إلى مراحل التاريخ الحديث حين سقطت البلاد العربية بعد الحرب الأولى فريسة الدعوات الإقليمية : الفرعونية والآشورية والفينيقية ، حين ارتفع صوت حركة اليقظة الاسلامية إلى الدعوة إلى التماس الأصالة بأن الاسلام هو دعوة الوحدة الحقيقية وأنه لا يعترف بهذه التقسيمات السياسية ولا يقف أمام الحدود الجغرافية بل يتخطاها ليوحد بين أتباعه ويجمع بين أبنائه فإذا بهم إخوان متحابون وبنيان مرصوص يشد بعضه بعضا ، والاسلام دين وجنسية ، فكل أرض مسلمة فهي للمسلم وطن ، وكل شبر أرض قد بقي يردد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هو قطعة من الوطن الاسلامي الأكبر وجزء عزيز من أرض الاسلام .

ثم كانت ظاهرة الترابط بين أجزاء من أرض الوطن العربي التي ولدت جامعة الدول العربية ، وإذا كانت الجامعة العربية قد قامت على أساس اللغة والجوار فإن هذه المجموعة التي تبلغ مائة مليون إنما تربطها بالبلاد الاسلامية رابطة الأخوة الاسلامية والرسالة المحمدية .

فهذه (الكتلة الاسلامية) التي تمتد من مراكش عند المحيط الأطلنطي إلى الباكستان واندونيسيا في الشرق الأقصى لها من التماسك والانسجام بل والاندماج ما ليس لأية كتلة أخرى في العالم وما بالك بكتلة تضم أكثر من ٥٠٠ مليون نسمة (الآن ألف مليون) يعبدون رباً واحداً ويتجهون خمس مرات في كل يوم نحو قبلة واحدة ، ويؤمنون بقيادة وزعامة رجل واحد هو رسول الله ﷺ ويحكمون فيما بينهم دستوراً واحداً وقانوناً واحداً هو القرآن الكريم .

أن هذه الرقعة من الأرض التي تشمل أرض أندونيسيا والباكستان وأفغانستان وإيران وتركيا والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن ومصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش . هي الرقعة الكبرى والساحة العظمى ، هي كبد العالم وهي أخصب الأرض إنتاجاً وأعدلها هواء وأوفرها خيرات وأكثرها خامات ومعادن وفيها مفاتيح البحار وفي أرضها أهم المواقع الاستراتيجية وأخطر المراكز الحربية ، وهي تكون خطاً متصلا بل بناءاً متسقاً وصفاً موحداً لا ثغرة فيه

ولا لغة بين أجزائه ، هذه الكتلة التي وحدت بين أجزائها الآلام والآمال بأي حق يغفلون عنها ويتجاهلون أثرها وخطرها ، إنها دعوة عالمية وليست حياداً بين المعسكرات ، تعتز بالإسلام وتؤمن به إيماناً جديداً في قوته وروعته ، ثم تقول لهؤلاء جميعاً : لا شرقية ولا غربية . لا شيوعية ولا رأسمالية ولكن إسلامية قرآنية .

وقالت صحيفة الإخوان المسلمين : لقد أصبح قيام جامعة الدول الاسلامية رغبة تنبعث من أعماق كل قطر عربي إسلامي وحاجة يشعر بها ويتطلع إليها أبصار كل عربي ومسلم ، وقد آن الأوان لتحقيقها والإسراع في إبرازها إلى عالم الوجود لا منقذ للمسلمين وبلادهم بغير الاتحاد وقيام هذه الكتلة الاسلامية » .

كانت حركة اليقظة الاسلامية قد استطاعت أن تبلغ قريباً من هذه الغاية ، وقد حاول هؤلاء خصوم الاسلام إشاعة السوء بهذه الدعوة والقول بأن النفوذ الاستعمار من ورائها ، بينما الحقيقة هي أن النفوذ الاستعماري والصهيوني كان حريصاً على أن يهدم هذه المحاولة ويدمر هذا الاتجاه ، ويعيد المسلمين والعرب إلى الإقليميات والقوميات الضيقة ليثير الصراع من جديد على نحو آخر بين البلاد الاسلامية ، وحتى لا يلتقي على الوحدة أو الاتحاد ، ولسنا في حاجة إلى معرفة الهدف من وراء ضرب هذه الوحدة النامية والقضاء عليها ، فقد كان المخطط الصهيوني ما زال لم يكمل هدفه بإقامة إسرائيل ودعمها . لقد ولدت إسرائيل بالتآمر الدولي على نحو لم يعرف له التاريخ مثيلا ، وكانت القوة الوحيدة التي تخشاها الصهيونية العالمية هي قوة حركة الاخوان التي حملت السلاح وحاربت في فلسطين واستطاعت أن تواجه الصهيونية على نحو لم يألفه الاستعمار الغربي منذ ركز وجوده وألقى أنظمته السياسية والعسكرية .

ولقد هزمت الجيوش العربية المسبعة بالحيلة والتآمر ونقص العدة والكفاية ، ولأنها لم تكن معدة العمل ، وبرز ذلك اللون الاسلامي المتجدد على الزمن المؤمن بالجهاد والموت في سبيل الله ، فكان لا بد من القضاء على هذه القوة وتدميرها حتى لا تكون شوكة في جنب إسرائيل تحول بينها وبين التوسع أو الاستقرار ، ولذلك كان الهدف هو القضاء على هذا (التيار الاسلامي) كلية وتحويل الاهتمام الاسلامي والعربي الموجه نحو إسرائيل باعتبارها أخطر المحاذير في وجه الوحدة الاسلامية إلى الداخل لمعالجة قضايا محلية وإقليمية ، وبذلك ينقطع التحدي نحو إسرائيل والصهيونية ثم يفرض أسلوب لمعالجة هذه القضية على أنها قضية إسلامية ، وبذلك تتبدد الجهود في طريق ضال سنوات طويلة تكون إسرائيل قد مكنت لنفسها ، وتلك هي غاية التغريب : معالجة التحديات علاجاً جزئياً أو فاسداً حتى لا تتحقق الغاية وحتى ينصرف المسلمون عن الوجهة الصحيحة المستمدة من أصالتهم ومصادرهم الحقيقية .

• • •

ومنذ ذلك الوقت انحسرت فكرة الرابطة الاسلامية أو الكتلة الاسلامية حيث غلبت عليها الفكرة القومية والاقليمية فى أجزاء كثيرة من الوطن العربى ، وحملت مصر وسوريا لواء الفكرة القومية ممثلة فى محاولة إقامة وحدة عربية على أساس علمانى الاتجاه وغربى الفكرة استبعد كثيراً تلك الأصالة الاسلامية المتصلة بمفهوم العروبة . واتكأت كثيراً على مفاهيم غربية حول القومية والاشتراكية وغيرهما مما عجل بهزيمة هذا التجمع الذى نشأ عليها وأثار روحاً من الخلاف والخصومة استمر وقتاً طويلا .

ولقد كان بروز فكرة القومية بمضمونها الغربى ، منطلقاً لدعوات أخرى حيث انطلقت قوميات وإقليميات متعددة فى البلاد العربية منها (الفينيقية) التى علا صوتها فى لبنان ، كذلك ارتفعت دعوات الأكراد وغيرهم .

ولقد كان انتصار التيارين المصرى الناصرى والسورى البعثى القائم على مفهوم علمانى وبقيادة لا تعترف بالأصالة الاسلامية أبعد الأثر فى خلو دستور مصر لأول مرة من مادة (الاسلام دين الدولة) .

وكان ذلك مؤشراً خطيراً فى الاتجاه نحو مفهوم البعث الذى قام فى أساسه على حرب الفكرة الاسلامية والقيام بدلا منها .

الفصل الثاني

القومية : البديل الزائف

بين الحربين الأولى والثانية : عمد النفوذ الأجنبى إلى فرض الاقليميات بديلا للوحدة الاسلامية
وقبل أن تنتهى الحرب العالمية الثانية : أعلن قبوله وتأييده لقيام الجامعة العربية التى احتضنت
سقوط فلسطين فى أيدى الصهيونية ليكون فى إجماع دول العرب السبعة بجيوشهم فى أرض فلسطين
علامة على هذا التسليم ، فلما انتهت الحرب وكانت حركة اليقظة قد قطعت مراحل طويلة فى سبيل
قيام الوحدة الإسلامية حطم النفوذ الاجنبى هذا الاتجاه الأصيل الذى اتخذه المسلمون طريقهم
إلى احتواء الصهيونية وسبيلهم إلى مواجهة إسرائيل ، فقد فرضت أسلوبا من العمل تحت اسم
القومية العربية بدأ فى أول أمره متصلا بالمفهوم الاسلامى الجامع ، الذى عرفه العرب بعد سقوط
الدولة العثمانية ولكن سرعان ما علا صوت القومية بمفهومها الوافد المفرغ من القيم الأصيلة .

لقد تعالت تلك الأصوات الداعية إلى القومية سواء فى نطاق حزب البعث أو عن طريق ساطع
الحصرى أو دعوة سوريا الكبرى أو سوريا التامة مما حمل لواءه أنطون سعادة فى نفس الوقت الذى
دعا فيه اللبنانيون إلى الفينيقية المسيحية ، وكان هدف هذه الدعوات المتعارضة العالية النبرة تفريغ
مفهوم العروبة الأصيل المرتبط بالاسلام من محتواه وإحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته
واستبدال رابطة أخرى برابطة تعزل الشعوب الاسلامية بعضها عن بعض عزلا نهائياً بحيث تكون
صلة بعضها ببعض كصلتها بأى شعب من الشعوب الأخرى التى تدين بالوثنية والماركسية وغيرها .

وكان الهدف هو نسف الجسور التى تصل أجزاء الأمة الاسلامية ، وتخلق بين العرب وبين
الترك والفرس صراعاً قاسياً يحول دون وحدة الفكر الاسلامى ، فضلا عن إشاعة روح الخصومة
وخلق التناقض بين أجزاء الأمة العربية نفسها تحت عناوين وحدة الصف ووحدة الهدف .

كانت المحاولة هى خلق (القومية المجردة) وإعطائها طابعاً عقائدياً وإحلالها محل الاسلام بمحاولة
إعطائها بعداً روحياً وجدانيا ورومانسيا على النحو الذى حاوله ميشيل عفلق فى كتاباته الشاعرية
ولا ريب أن محاولة فرض القومية القائمة على التفسير المادى للتاريخ والتى تجعل من الواقع الاقتصادى
دعامة لها من شأنها أن تخلق الصراع الطبيعى الذى تدعو إليه الماركسية وتخلق العدوانية الجديدة
الاسلامية التى تربطها بالعرب عقيدة وكتاب وثقافة وتراث .

ويصدق في هذا قول والفرد كانتول سميث حيث يقول :

(إن القومية المجردة ليست هي القاعدة الملائمة للنهوض والبناء وما لم يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود وتاريخ الشرق إلا في الحديث يدل على ذلك .

والواقع أن (القومية) ليست نظاماً فكرياً متكاملا وإنما - كما يقول ألبرت حوراني - نقطة بداية في تنظيم المجتمعات وأن الشرق العربي قد وصل الآن إلى مرحلة ما بعد القومية .

ولقد سارت البلاد العربية شوطاً طويلا وراء فكرة القومية الوافدة ظناً منها أنه سبيل إلى النهضة والتقدم ، ثم تبين بعد التجربة المريرة فساد هذا المنطلق الذي لم يكن إلا كسباً للصهيونية وإسرائيل ، وأخيراً لمرحلة من مراحل القوة وامتلاك الإرادة .

ولقد كشف كتاب حركة اليقظة ومفكريها زيف هذا الاتجاه وخطره وأظهروا فساد ما قامت به القوميات الغربية وما حاكته من نظريات تبرر به نضالها الدامي وكفاحها الدائم في سبيل السيطرة على العالم حتى فشلت المنظمات العالمية في كبح جماحها وتحرر العالم من سيطرتها ، ذلك أن واضعوا دساتير المنظمات العالمية هم أنفسهم قواد القوميات المتنازعة وطلاب السيطرة على العالم ، وذلك شر ما اصطبغت به القوميات الغربية من أنانية زجت بها طوال العصور الماضية في حروب مدمرة وانتهت بها في القرون الأخيرة إلى هذا التنافس الاستعماري المستمر) .

أما الاسلام فإنه ينزع من فكرة القومية تلك الأنانية الطاغية التي من شأنها أن تخلق منافسة مدمرة بين القوميات المتباينة حيث تجد كل أمة تريد أن تستأثر دون سائر الأمم بخيرات الأرض فالاسلام يصف المسلمين بأنهم أولئك .

﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾

فطهر بذلك قلوب المسلمين من كل نزعة عدوانية ومن كل بغضاء طائفية ، فالمسلمون لا يعتدون ما دامت الشعوب الأخرى لا تبدأهم بالعدوان .

كذلك كشف قادة اليقظة مفهوم القومية في الاسلام وكيف أن تعاليم الاسلام الخلقية في الاخاء الانساني والمساواة بين البشر الذين خلقهم الله من نفس واحدة تأبى عليه أن يتخذ من القومية الحالية تبريراً لعدوان قوم على قوم ، وتنفى عنه فكرة التمييز العنصري واستغلال رقعة من الأرض لحساب رقعة أخرى ، هذه التعاليم تقضي بأن الله تبارك وتعالى قد استخلف الجنس البشري كله هذه الأرض لعمارتها بلا تمييز قطاري بين قوم وقوم .

فالناس في جميع الأقوام إخوة في الانسانية بحكم استخلاف الله إياهم في الأرض ، وأن القوميات

سبيل إلى التعارف ومنطلق إلى الاتصال والالتقاء وليس إلى الصراع والخلاف . ولقد أمكن بعد أن استعلنت تلك المفاهيم الباطلة ودقت لها الطبول العالية أن يكشف زيفها وأن تنكرها واحدة من عوامل الهزيمة والنكسة حتى جاء الوقت الذي استطاع فيه واحد من قادة اليقظة هو الدكتور محمد البهي أن يعلن سقوط هذه الدعوى المبطلة في مؤتمر علماء المسلمين بالجامع الأزهر حين قال : القومية التي يحاول بعض مدعي التفكير الاجتماعي من الأجانب من أمثال ساطع الحصري وجورج حبش وميشيل عفلق ، أن يجعل كل منها بديلا عن الاسلام في الترابط إن هي إلا دعوى لا يحتوي إلا الحقد على الاسلام بعد جهل بمبادئه ، وفي الوقت نفسه بعد وعي بالإثارة الإيجابية في تجميع الأمة وفي نهضتها بعد استقلالها السياسي

• • •

إن القومية التي يعنيها ساطع الحصري هي قومية ألفاظ لغوية وقومية تاريخ لا تصور أحداث أمة كانت لها رسالة وقيم عليا وعاشت من أجل هذه الرسالة والقيم وتريد أن تعيش لها في أجيالها المستقبلة .

فهي قومية جسم لا روح فيه ، وقومية جورج حبش وميشيل عفلق قومية إلحاد بدين الله وقومية استيراد لفكر متعفن يقوم على الدعوى لتنمية الحقد في النفوس ويضع الغدر واللاإنسانية في حروبها المختلفة أساساً للسلوك ، كما يضع الأفراد في متاهة الخصومات ودوامة النزاع وسوء العلاقات .

هي قومية تحيل مجتمع القوم المطمئن الآمن على نفسه وعلى رزقه إلى مجتمع يكفر بنعم الله فيقع في اضطراب الجوع والخوف ويدق عليه أمر الحياة ، وهذه سنة لا تتغير في حياة المجتمعات .

(وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وهي قومية تدعو إلى الوثنية المادية .

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ .

إن الإسلام دين الله ورسوله خاتم الأنبياء والرسل لا يعرف :

(أولا) الفصل بين دولة ودولة : وإنما يعرف الحياة الإنسانية للفرد وفي علاقته بغيره .

(ثانياً) ولا يعرف قضية العلم والدين ، وإنما تعرف مؤمناً بالله يحكي صفاته ،

(ثالثاً) ولا يعرف حكومة إلهية ولا يرفعها الانسان عن مستواه الانساني وإنما تعرف إنساناً يصيب ويخطىء في تقديره وفي رأيه وفي عمله .

(رابعاً) ولا يعرف التفرقة بين الناس على أساس من العنصر أو العرق ، وإنما تعرف أن الناس جميعاً سواء في الاعتبار البشري وفي المسئولية أمام الله .

وهكذا نجد أن حركة اليقظة استطاعت أن تكشف زيف مفهوم القوميات الذي بدأ أول الأمر لامعاً براقاً . والذي فهمه قادة حركة اليقظة على أنه حلقة من حلقات الوحدة الاسلامية وطريقاً إلى التجمع في سبيل مواجهة الاستعمار .

غير أن الاستعمارية والصهيونية كانت تهدف إلى أن تفرغ العروبة من روابطها الإسلامية لتجعلها قومية عدوانية .

(٢)

ولقد ذكرت حركة اليقظة ما قاله الدكتور زويمر زعيم التبشير في الوطن العربي قبل الحرب العالمية الأولى حين قال : (أول ما يجب عمله للقضاء على الاسلام هو إيجاد القوميات) .

ولقد تحدث قادة اليقظة عن الوطنية الاسلامية والقومية الاسلامية في مواجهة دعوة القوميات الوافدة يقول شكيب أرسلان :

جاءت إليهم أوربا بالفكرة القومية المحدودة ، فبعثت أتباعها ينادون بذلك ووضع زويمر هذا المبدأ العام أن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات ووضعت الأمم المستعمرة هذا المبدأ نصب عينيها تحاول تطبيقه فنجحت أكبر نجاح بأن كان من بين أبناء الأمة الاسلامية من اشربوا هذه الأفكار وقبلوا بها وعملوا على تثقيف شعوبهم تثقيفاً قومياً محدوداً ، وكانت الحرب الكبرى هي الفصل الأخير في تلك المأساة التي دكت كيان الاسلام دكاً عنيفاً ، وفي أعقاب الحرب نادى بعض المصريين في ثورة ١٩١٩ بالوطنية المصرية الفرعونية وهؤلاء لم يكونوا إسلاميين بل كانوا عبيداً للغرب في كل شيء وأصبحت الوطنية الاسلامية العامة تلاقي أشد المقاومة من الأحزاب المصرية كافة، ذلك أن دعوة زويمر لاقت رواجاً كبيراً لدى كثير من المنافقين وفي هذا خروج على الإسلام ينبغي التخلي عنه مهما كلف الأمة الإسلامية من أثمان ، وفي ثنايا تلك الثورة المصرية كان التحويل الأعجب في تركيا بدعوة القومية الطورانية : عبادة (الذئب الأغبر) .

وهكذا انحصت السيطرة زوبعمر فى تركيا ، أما شمال أفريقيا فقد نشأ فيها ما يعرف بالظهير البربرى وهى دعوة إلى إعادة التقاليد البربرية التى كان يحياها أهل شمال أفريقيا قبل الاسلام .

وكشفت أبحاث دعاة حركة اليقظة عن أن الدعوتين القوميتين : العربية والتركية إنما كانتا من صنع المخططات الصهيونية ومن ثم فقد قامتا على أساس خلق التناقض بين الوحدة العربية والوحدة الاسلامية ، وأن أصحاب الدعوة القومية أكثرهم من غير المسلمين وأن بعضهم من أصحاب المذاهب الهدامة . الذين يهدفون إلى إثارة الخصومة ضد الاسلامية باسم القومية .

وأن دعاة القومية قد تأثروا بالتعريفات التى سادت الحياة الأدبية فى تلك الحقبة والتى ابتكرت فى الاصل لتبرير الدعوات الاقليمية التى ظهرت فى أوربا إذ ذاك على أيدى بعض الأمراء الاوربيين الذين حققوا وحدة بلادهم بقوة السيف ، ومثال ذلك :

الوحدة الايطالية والوحدة الألمانية والوحدة الفرنسية .

وكانت الصهيونية التلمودية تعمل من خلال أهداف هذه الوحدات التى هدمت الوحدات الكبرى التى كانت قائمة على أساس الفكرة المسيحية الجامعة .

ولقد كان مقنن القومية العربية « ساطع الحصرى » هو ربيب أيدلوجية الدعوة الطورانية فى تركيا ودعاة تتريك العرب ومحو صفة العروبة وقد تبين أن كلا الدعوتين القوميتين: العربية والتركية إنما كانتا من صنع التواطؤ الصهيونى والاستعمارى .

وأن دعاة القومية التركية كانوا من يهود (الدونما) الذين كانوا قادة المؤامرة الصهيونية ضد السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية والخلافة الإسلامية لفتح الطريق لليهود إلى فلسطين .

أما الدعوة القومية فى بعض البلاد العربية فكانت من صنع الاستعماريين الفرنسى والبريطانى ، وأن ظهور الدعوتين فى وقتين متقاربين ليس صدفة وإنما هو من تدبير المتآمرين على الاسلام ، وقد تبين أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتفريق كلمة القوتين الاسلاميتين الرئيسيتين : العرب والترك .

وقد أدرك الحلفاء خلال الحرب العالمية الأولى حقيقة ارتباط الشعوب الإسلامية ببعضها البعض بغض النظر عن قوميتها وعانوا كثيراً من المصاعب لاذكاء الثورة التى كانوا فى أشد الحاجة إليها لضرب السيطرة التركية . فقد أبى كثير من العرب التعاون مع الحلفاء غير المسلمين ضد تركيا المسلمة فكان السلاح هو النغمة القومية .

واقد ظلت الدعوة القومية بأبعادها المعروضة تدور فى نطاق ضيق لم يتعد سوريا ولبنان بشكل خاص ، أما فى مصر فكانت الدعوة إلى قومية مصرية تمتد جذورها من أصول فرعونية ، حيث كانت علاقة مصر بالشعوب العربية علاقة إسلامية الأساس والجوهر أكثر منها علاقة عربية .

واقد جد دور فى موقف التحدى القومى بعد الخمسينات حيث حل أتباع المذاهب الماركسية ، محاولات تخريب العلاقة بين العروبة والإسلام وذلك ما خلف الدعوة القومية بالأسلوب الماركسي وهى تنصب أساساً على محاربة جوهر العقيدة ،

كذلك كشفت دراسات رجال اليقظة عن ما أطلق عليه (إسلام العروبة) من حيث أن الاسلام يمكنه أن يظل حياً دون العروبة ولكن للعروبة وحدها بدون الإسلام تصبح عاجزة من إثبات وجودها .

ومعنى هذا أن الاسلام قوة دافعة للعروبة وليس خصما لها ، بل هو سبب قوتها وتماسكها وبقائها وليس حربا عليها وأن أى محاولة للفصل بين الطرفين تسىء إلى العروبة أكثر مما تسىء إلى الإسلام ، وقد شرف الله أرض العروبة بجعلها مقراً لوحيه وخاتم رسله وقرآنه .

وقد كشفت تجربة حرب التحرير الجزائرية . فضل الاسلام على القومية فلأول مرة تدخل دولة عربية معركة الجهاد مع الاستعمار تحت اسم الاسلام ، ولقد ضاعت اللغة العربية من الجزائر ولكن الاسلام استطاع أن يرد للأمة ذاتيتها وهويتها ، حتى قال قائلهم : « لولا القرآن ما كانت هناك قوة فى الأرض تستطيع أن تحمى اللغة العربية فى الأرض الجزائرية بعد أن ظلت تتعرض لحرب منظمة حوالى اثنين وثلاثين ومائة سنة » .

ومعنى هذا أن العروبة قد امتزجت بالاسلام امتزاجاً قوياً جعل غير العرب ينظرون إليهما على أنهما شىء واحد وأن مشروعات تبسيط اللغة العربية إنما كانت تستهدف القضاء على القرآن ، وأن القرآن وقف سداً منيعاً مستعصيا على التحريف والتصحيف .

(٣)

كذلك كشف دعاة حركة اليقظة أن أخطر ما هنالك من محاولات ، هى محاولة دعاة القومية إلى إيجاد منهج أشبه بالدين يحل محل الإسلام ، وذلك دعوتهم إلى إيجاد نظام نظرى شامل يستوعب الحياة الانسانية بأكملها فلا يخرج عن دائرة قطاع ما من قطاعات الوجود البشرى ومحاولة صياغة عقيدة قومية كلية تضاهى فى كليتها وشمولها الإسلام وهى محاولة يراد بها وضع الفكر الاسلامى جج

القومية والشيوعية كأن ميدان الصراع قد أصبح حقاً مباحاً لهما معاً، وأن صاحب الحق الأصيل قد أبعد تماما وهو الاسلام الذي يحمل حقيقة المنهج الأصيل والذي يقاوم الشيوعية والذي تعجز القومية مهما أوتيت من براعة خادعة أن تحققه وهي تركيب مفتعل ليس من الفطرة الانسانية .

ولقد أشار الباحثون إلى أن العربي لن يستطيع أن يحرر نفسه ويجد ذاته الضائعة إلا بعد أن ينطلق من تراثه الاسلامي متحرراً من نفوذ الروح الغربية وقيمها وطرائقها في معالجة مشكلات الوجود الانساني وأنه من الخطأ والزيف أن توصف القومية بأنها عقيدة كلية وذلك أن العرب والمسلمين لا يعرفون عقيدة كلية وافية بمطامعهم غير الاسلام وأنه من المستحيل أن تقوم عقيدة قومية كلية تضاهي الاسلام في شموله ووسطيته وتكامله وأن الطبقة القائدة لهذه الدعوة اليوم ما تزال امتداداً فكرياً للغرب فالحلول التي تصنعها هي حلول غربية والقيم التي تدين بها قيم غربية والمناهج التي تتوسل بها مناهج غربية أيضاً .

وقد أشار قادة اليقظة إلى أن الهدف الذي يرمي إليه النفوذ الأجنبي هو تقديم البديل للقضاء على الأصيل وأن القومية هي محاولة مضللة في وجه الاتجاه الطبيعي القائم على وحدة الفكر الاسلامي ووحدة الأمة الاسلامية مهما تعددت قومياتها وأن الغزو التغريبي يعمل دائما على إيجاد حركات مصطنعة ظاهرها الدعوة إلى النهضة وما هي في حقيقتها إلا ألعوبة ذكية دخيلة في يد الاستعمار وهي تهدف إلى عدم إعطاء الأمة الاسلامية فكراً زائفاً بدلا من الفكر الاسلامي خوفا من نهوض المسلمين ولذلك قصد تفريغها نهائياً من كل فكر مبدئي والاكتفاء باعطائها أفكاراً فرعية متناقضة لا تنتج إلا اضطراب الأمة واستمرار انحطاطها » .

وقد رد الباحثون فكرة القومية العربية إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى إلى نابليون الذي كان أول من نادى بها في مصر في محاولة لابعاد مصر والشام من الدولة العثمانية وإشعار العرب بأنهم مختلفون عن الأتراك ، وجاء محمد علي وإبراهيم حاملا نفس الشعار ، واستخدمت الدعوة بعد ذلك في سبيل تقويض الخلافة تحت شعارات ماكرة وكان المدارس التبشيرية أكبر الأثر في ذلك .

وأن أول من دعا إلى رابطة الوطن العربي نجيب عازوري بالاشتراك مع يوجين يونج أحد العاملين في إدارة الاستعمار الفرنسي ، وكان هدف عازوري إنشاء دولتين : دولة على غرار الفاتيكان عربية إسلامية مستقلة تقوم في الحجاز وعاصمتها في مكة ويلقب حاكمها بالخليفة ويباشر سلطات روحية .

والأخرى عربية علمانية (تضم سوريا ولبنان وفلسطين (أي الشام) وتسير على النظم الغربية وكان عازوري يرمي إلى إطفاء رغبة العرب في وجود الخلافة الاسلامية فيبتدع لهم ذلك ، وأتى بفكرة ثانية هي الدول العلمانية حتى لا تخضع العناصر اليهودية والمسيحية للنظم الاسلامية في الدولة العربية الحديثة ، وحتى لا تكون أغلبية إسلامية ويتحول مسلمو الشام إلى مكة .

ويصور الأستاذ إدريس الكتانى هذا التحول الخطير فى مفهوم القومية على النحو الذى وصلت به القوى الاستعمارية والصهيونية لتفريغه من محتواه الإسلامى فيقول :

إن علينا دراسة وتحليل تجربة مرة عاشها العرب منذ الحرب العالمية الأولى وتمثلت فى اتجاه كثير من الزعماء والأحزاب لدوافع وأسباب مختلفة لخلق إطار موحد للعمل يكون أساساً للنهضة العربية ويجمع شمل الأمة العربية أصبح يسمى (القومية العربية) وقد قبل العرب هذا الاطار باعتبار أنه مجرد غطاء خارجى لمحتوى أساسى هو (الاسلام) ولكن هذا الاتجاه تطور فيما بعد ليحل (الغطاء) يحل محل المحتوى ، وبدأ الناس يبحثون عن فلسفة خاصة للقومية العربية وثورة نابعة من القومية العربية وهكذا أصبحنا نحن الذين أيدنا القومية العربية (الاطار) نراها ستتحول إلى (المذهب) رغم ذلك أنها تتمتع بالتأييد لزمن أطول لو أنها استطاعت أن تحقق أقل قدر من النجاح فأثبتت أصالة بنائها وأنها قامت حقاً على أرض صلبة لا على كثبان من الرمال . مذهب القومية لم يستطع أن يخلق فى نفوس أصحابه شيئاً من هذا الايمان أو قليلا من التضحية .

هذه الوحدة العربية لم تتحقق حتى بين دعاتها وأنصارها الذين اتخذوها شعاراً لهم . هل حقق مذهب القومية العربية شيئاً من ذلك للعرب المؤمنين به ، إن تجربة هذا المذهب تكون قد استنفذت فرصها بعد أن أدى العرب ثمن فشلها غالياً ويتفتح الباب أمام الاسلام من جديد برجال جدد من العرب أنفسهم وينهض العرب إلى تحقيق وحدتهم ، ولكن باسم العقيدة التى وحدتهم أول مرة وباسم العقيدة سيواصلون معركتهم أول مرة وباسم هذه العقيدة سيواصلون معركتهم على جبهتين ضد التخلف بجميع صوره داخل الوطن الكبير ، وضد الاستعمار والصهيونية فى كل مكان فى الأرض ، وعندئذ يكون عصر اليقظة الاسلامية قد انتهى ويبدأ فجر النهضة وتشرق شمس الاسلام من جديد على العالم .

ونحن نرى أن فكرة القومية بمفهوم العروبة حين بدأت وجدت من بعض رجال اليقظة قبولا على أنها حلقة من حلقات الوحدة الاسلامية أو طريقاً إليها ، بل إن العروبة فى ظرف من الظروف كانت هى المنطلق الوحيد للفكرة الاسلامية ، والسبيل المفتوح للتعبير عنها ، وقد أشار إلى ذلك السيد محب الدين الخطيب وهو من دعاة الوحدة العربية الأولى . يقول أن مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام لم يكونا منفصلين فى أول الأمر إنفصالا شاملا ، كان مفهوم العروبة أنها وليدة الاسلام وربيبته فهى لا تنفك عنه ومفهوم الاسلام أنه قام فى طلائعه بالعرب ، ولذلك فان الحركة العربية التى قامت بعد سقوط الخلافة الاسلامية كوسيلة للتجمع لم تكن منفصلة عن أرضية الفكر الاسلامى وإنما كانت إنطلاقا من منطلقاته وإذا كان كل دعاة الفكر الاسلامى قد عملوا فى جانب العروبة فى هذه الفترة بعد الحرب العالمية الأولى فمعنى هذا أنها قد أصبحت هى القلعة التى اعتصم بها العاملون لمقاومة الاستعمار والنفوذ الغربى وحركة التغريب كمنطلق إلى الوحدة الاسلامية .

ويقول : ولقد كان هذا مفهومنا عندما أيدنا القومية العربية ثم ما لبثنا أن اعتصمنا بالوحدة

الاسلامية عندما تبينت لنا عملية تفريغ العروبة من محتواها الاسلامي ، ويتردد على الألسنة سؤال : لماذا لا يتحد العرب وهي فى مكنة ؟ والاجابة على هذا السؤال : أن اللقاء فى أفق العالم الإسلامي لا يتم على مستوى العروق والأجناس وإنما يتم على مستوى الفكر والعقيدة والثقافة الجامعة فهى وحدها القادرة على إقامة الوحدة الصحيحة الثابتة الأركان ، ذلك أن الأمة العربية لن تستطيع أن تقيم وحدتها خارج إطار الاسلام ولن تكون تلك الايدلوجيات قادرة على تحقيق هدفهم ، ذلك لأن أصحابها الذين وضعوها وطرحوها فى أفق العالم الاسلامي هم أعلم الناس بأنها لا توصل إلى غاية ما ، ولو كانت توصل ما طرحوها ، إنهم أرادوا بها خلق البديل عندما وصل الأصيل إلى مرحلة النضج والاكتمال فى محاولة قاسية لاجهاضه وفى مؤامرة ضخمة واسعة لتدميره .

وأعتقد أننا نستطيع بعد أن نجيب على السؤال :

هل نجحت الفكرة القومية الغربية فى احتواء مفهوم العروبة والإسلام والاجابة أنها لم تنجح لأن الفكر الاسلامي كان قادراً دائماً على القياس متابعه وعلى تصحيح مساره كلما انحرف .

إن أصدق الباحثين الغربيين يقول أن فكرة القومية كانت عند أمم الغرب على الدوام مقترنة بفكرة التنافس والصراع واحتكار الأمم الأخرى . ويقول توينبى : إن الشيوعية والقومية هما العدوين اللدودين ، أو هما شكلان مختلفان لموضوع واحد ألا وهو عبادة الانسان لنفسه

الفصل الثالث

التجربة الغربية

اتخذت حركات الاستقلال فى البلاد العربية والإسلامية الأسلوب الغربى (الديمقراطى الليبرالى) منطلقاً لها فى بناء الأنظمة السياسية والاجتماعية فى ظل الاحتلال الغربى ، ودعمت هذا الاتجاه بعد الاستقلال ، وخاصة فى مجالات النظام السياسى الغربى والتعليم والقانون الوضعى ، وكان الاستعمار قد كون أجيالا من القادة على مفهوم الولاء للنفوذ الأجنبى فآمنت بأسلوب العيش الغربى منطلقاً لبناء المجتمع الإسلامى الجديد .

ولذلك فقد اتخذ الحكام والقادة السياسيون ورؤساء الأحزاب وجهة الفكر الغربى وتجاهلوا مفاهيم الإسلام ومنهجه فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وأنكروا وتغاضوا عن مفهوم العقائد والأخلاق فى أسلوب الحياة والتعامل بين الحاكم والمحكوم وبين الناس فى المجتمع ، وكان أشد حرص القادة والحكام على إرضاء الأجنبى وتقبل أسلوبه فى التعامل باعتباره تحضراً والإقصاء عن الأسلوب الإسلامى وأخلاقيات الإسلام باعتبارها علامة من علامات التأخر والبداوة .

لقد جاء الأجنبى فوجد الطريق ممهدة أمامه ، ذلك أنه لم يجد الإسلام بكامل حيويته ولم يواجه القرآن بكل أبعاده بل وجد أمامه عقولا تعلى من شأن المفهوم الأجنبى وتكبر من شأن التقاليد الغربية المضادة للفطرة الاسلامية والطبائع العربية .

كان قادة الجولة الأولى من تلاميذ المدرسة الغربية التى ترى أن حل القضية الوطنية فى يد الغرب نفسه ولا يتم إلا بالتفاهم معه ، وذلك بعد أن صفى الاستعمار تلك المدرسة الوطنية ذات الرصانة والأصالة التى كانت تقيم أسلوب عملها الوطنى فى مواجهة الاستعمار وفق مفهوم إسلامى أصيل ، فقد رفض الاحتلال الغربى التعاون مع هذه المدرسة وأبعدها عن مكان الصدارة والنفوذ وأقام مدرسة أخرى ذات ولاء أساسى له وإعجاب به وإيمان بأنه لا طريق للوصول إلى الحرية والاستقلال إلا عن طريق التفاهم مع الاحتلال نفسه ، ومن اتخاذ أسلوب الغرب فى الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع .

ولم تكن الجولة الثانية لتصدر عن منبع مختلف فقد كان الغرب والإعجاب به هو منطلقها الأول ومثلها الأعلى ، وهى لم تكن لتهدف الأصالة كما ظن البعض لأول وهلة ، ولكنها

كانت تستهدف خلق طبقة جديدة بعد القضاء على الطبقة القديمة . ولقد كانت نكبة ١٩٤٨ هي هزيمة لما أطلق عليه الفكر الليبرالي العربي وإعلان صارخ بخطأ هذا الاتجاه كما كانت نكسة ١٩٦٧ هي هزيمة لما أطلق عليه الفكر الماركسي أو التجربة الماركسية .

وهكذا يكون العالم الإسلامي والبلاد العربية قد وصلت إلى آخر الشوط في التجربة مع النظامين الغربيين اللذين ثبت تمامًا من أولهما من أولهما تحت ضغط ظروف الغرب نفسه ولم تكن لهما الصلاحية للتطبيق في عالم الاسلام ، واللذين واجها قدراً كبيراً من المقاومة وعجزاً عن الاستجابة للنفس العربية الاسلامية .

لقد تأزمنا مع التبعية الغربية إبان الاحتلال وبعده ذلك الأسلوب الغربي إلى غاية الشوط فلم تكن له من نتائج إيجابية بل كانت نتائجه خسائر متصلة وهزائم مستمرة ، ذلك لأنه استطاع أن يحطم القيم الأساسية للشخصية الاسلامية ممثلة في :

(١) تدميره الشريعة الاسلامية وإحلال القانون الوضعي بديلا منها .

(٢) تدميره التعليم الإسلامي وفرض الأسلوب الغربي للتعليم .

(٣) إخراج المجتمع الاسلامي من قيمه المعنوية والروحية والأخلاقية وإذاعة روح السلبيات والاباحيات والتحلل في جوانبه ، وكان أسوأ ما صدر إلينا إسقاط الالتزام الخلقي

(٢)

ولقد واجهت حركة اليقظة الاسلامية هذا الانحراف الاجتماعي والسياسي الذي استشرى بعد الحرب العالمية الأولى ونددت به وأنذرت بأنه سيكون مصدر خطر عظيم ، فأشارت إلى أن أوربا قدمت إلى مصر والشرق أسوأ جوانب الحضارة مما يتصل بالغرائز والشهوات والالحاد والاباحية رغبة في القضاء على الكيان الروحي للشرق الاسلامي ، وأنه مما زاد في استفحال نزعة التغريب تلك النظريات الباطلة التي قذفنا بها الغرب والتي سماها ظلماً وعدواناً (المذاهب العلمية) وإن كانت في ظاهرها علمية وعقلانية ومنطقية ولكن العيب في تطبيقها .

وباسم هذه المذاهب حوربت الأديان وحورب الأنبياء وقدمت المطاعن والشكوك في الكتب السماوية وأمجاد التاريخ الاسلامي ، وتبليلت تمهيداً لذلك الأذهان بالشك والالحاد . وأذيعت إلى جانب ذلك مذاهب الغرائز والتحرر من الخلق والفضيلة والتقاليد .

وقد أشارت هذه الكتابات التي حملتها حركة اليقظة كيف أن قوات الاحتلال ظلت تقسو على المواطنين والأحرار حتى أبعدتهم عن ميدان العمل وأسلمت هذه المقاليد إلى طوائف من المترجمين

الذين قبلوا التفاهم مع المحتلين وجلسوا إلى موائدهم وأسموهم الشركاء والأصدقاء والحلفاء، وكيف استطاعت قيادات ما بعد الحرب الأولى أن تنقل تفكير الشعوب من الوطنية الإسلامية إلى السياسية المداورة المتآمرة.

وبدا أن الحزبية واحتراف السياسة هما أول عوامل الانحلال وأن خطرهما قد امتد إلى كل شيء فلم يدع أديبا صحيحاً.

وكيف أن قوى المحتلين قد أسلمت الأمور إلى طائفة من الزعماء الذين لم يكن لهم سابقة في الوطنية أو الجهاد وكيف لم تستطع الثورات الوطنية أن تغير الواقع فقد استطاع هؤلاء الزعماء ان يصبوا على نار هذه الثورات الماء، وأن يخدروا الشعب، وأن يعينوا الاستعمار على البقاء والسيطرة بالمغنم القليل وبالمنصب والدينار وزخرف الحياة وترفها.

ثم كيف اختفت يد الاستعمار ظاهراً لتحرك دمى المسرح من وراء ستار وتسيطر بين الأنصار والأذناب على قلب الوطن عسكرياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً، وكيف فشلت الحزبية في أن تؤدي شيئاً أو تحقق أمراً لهذه الأوطان.

وقد كشف قادة اليقظة عن حقيقة العلاقة بين عالم الإسلام والغرب وكيف أن خصومة الغرب له هي خصومة لأرضه ولدينه وحريته وأمجاده، وأن للغرب في سبيل ذلك محاولات، فهو الذي حاصر الإسلام وجعله مقصوراً في المساجد والمقابر، وهو الذي حاول التشكيك في الألوهية ورسالات السماء وهو الذي حرف نصوص التاريخ وأصول النظام الاسلامي، وفصل بين الدين والدولة واعتبر علماء الدين كهنة تقتصر مهمتهم على التبرك والدعوات والصلوات، وهو الذي نادى بالعلمانية، وهو الذي أذاع الفاحشة في الشرق في الملبس والمرقص والخمر ليقتل بها كيان الأسرة ويمزق بها البيت، حصن الوطنية الحصين، وهو الذي صنع الحزبية ودعمها ليقتل بها وحدة الأمة ويفرق بين جمعها وينقلها من الجهاد إلى الرخاوة فلا يستقيم لها أمر ولا تجتمع على غاية، وهو الذي فصل الدين عن الدولة، وفصل الوطنية عن السياسة، وهو الذي أشاع الترف وأسباب المتاع التافه فنفتك بالثروات ورهن الأملاك، واستولى على الأموال والأطيان ونقلها من أيدي أصحابها المسلمين إلى أيدي اليهود والخواجات.

وكذلك كشف دعاة اليقظة عن أن المستعمرين هم الذين وعدوا العرب وعاهدوا الشريف حسين وأخلفوا وتنكروا وغدروا، وعاهدوا مصر ونقضوا عهدهم، وهم الذين فصلوا السودان عن مصر وفرقوا الشام إلى أربع دويلات، وأعطوا وعد بلفور لليهود وذبحوا المسلمين في الجزائر وأعلنوا الظهير البربري في المغرب وقتلوا عمر المختار الأفاعيل في ليبيا. وأثاروا المذابح بين العرب واليهود

فى فلسطين ، وبين المسلمين والهندوس ، وأعانوا الهولنديين على الأندونيسيين ، وهم الذين استذلوا الأحرار وعذبوا المخلصين ونفوا الأبطال وشردوا المجاهدين .

(٣)

ولقد أعلنت حركة اليقظة أن السر فى تأخر المسلمين هو ابتعادهم عن دينهم ، وأن أساس الاصلاح هو العودة إلى تعاليم الاسلام وأحكامه وأن المسلمين جميعاً أمة واحدة تربطها العقيدة الاسلامية ، وأن واجب المسلم إحياء مجد الاسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه ، وأن مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الاسلام ، وأن القرآن كتاب الله والاسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة .

كما دعت حركة اليقظة كل أمة تريد النهوض أن تعرف أعداءها لتحذرهم وأن تهتدى إلى أحبائها لتستخلصهم وأن تضع المنهج الحازم الحكيم للنهضة لتسير عليه فلا يلتوى بها الطريق ، وأن الأمة التى لا تضع منهج نهضة تتخبط فى سيرها فلا تتقدم خطوة واحدة ، وأن عناية الزعماء فى الشرق يجب أن تتوجه إلى العلم والاقتصاد والحقوق السياسية . أما العادات وأما العقائد والأديان وأما الآداب فهذه لا سبيل إلى تعلمها من أمة أخرى ، وأن الأوامر والمراسيم والنظم والقوانين والقهر والجبروت فكل ذلك لا يفيد إلا هياج الخواطر وثوران النفوس ولا يغنى عن الاصلاح الحقيقى شيئاً ، ثم تدمر هذه النظم القاهرة أمام جبروت الشعوب وسلطان الزمن ، وأنه يجب أن نفرق بين ما يؤخذ وما يترك فليست مظاهر الحياة الأوربية صالحة كلها ملائمة لمزاج الشرق ، فلتكن القاعدة فى الاختيار : المنفعة وصالح المجموع لا الهوى والشهوة . ويجب أن نجعل لتاريخنا وحضارتنا وماضينا نصيباً من التقدير والاجلال فلا نفنى فى غيرنا من الأمم ولا ننكر فضلا سجله التاريخ لأسلافنا ، ولهج الزمان بذكره ومعرفته لهم الأمم جميعاً .

وكان من دعائم الدعاية الحالية وأن نلاحظ نفسيات الشعوب والأمم وضرورة التدرج فى إدخال ما يجب أن ندخله من النظم والاصلاحات وأن نلاحظ أن المدنيات لا تؤخذ من نهاياتها وإنما تنقل من أصولها ومبادئها وأن تستند النهضة إلى الاسلام فى نظمه وروحه .

(٤)

كذلك أعلنت حركة اليقظة رغبة هذه الأمة فى أن يترك لها الحرية فى داخل بلادها فى إقامة الحكم فيها على قواعد صالحة من دينها وفضائلها وأخلاقها وأن يرتكز الاصلاح الاجتماعى فيها على هذه الدعائم الروحية التى ورثتها من أديانها وفلسفاتها وروحانياتها .

يقول حسن البنا أبرز قادة اليقظة : من حقنا الحرية الحرية الكاملة فى ديارنا وأقطارنا ، ومن حقنا الوحدة فنحن فى عرف التاريخ وفى تقويم الكرة الأرضية وفى جغرافية الزمن وفى منطق الحوادث الاجتماعية

والمظاهرة الحيوية أمة واحدة، وحدتها الأرحام والحوادث واللغة والعقائد والدين والمصالح والآلام والآمال فلن يفصلها شيء، وحقنا الثابت الإسلام فهو أرقى نظام عرفته الدنيا.

فقد أخذ خير ما فى الديمقراطية من حرية وشورى واعتداد بالفرد وإعلاء لقيمه كما أخذ خير ما فى الاشتراكية من التقريب بين الطبقات ومساواة بين الناس وتقرير لسلطة الدولة على المصالح العامة وصاغ ذلك كله صياغة حكيمة ووصل به إلى أعماق القلوب فقرره فى النفوس شعوراً ووجداناً وعقيدة وإيماناً كما وصل به إلى حياة الناس العملية بجعله عبادة لله وخشية الخالق ومظاهر الحياة اليومية تشيع هذه المعانى العالية فى النفوس وتقضى على ما يخالفها من الشبهات والأوهام والشكوك، وليس وراء ذلك مطمح للمصلحين.

ومن هنا بنى الإسلام الأمة النموذجية التى استحقت أن توصف بأنها (خير أمة أخرجت للناس) ذلك هو ديننا الذى آمنا به نظاماً اجتماعياً لحياتنا وصلة بيننا وبين الله تارة وبين الدنيا تارة أخرى. ولهذا الدين شعائره العملية ورأيه الواضح فى كل الشئون الحيوية: فى الحكم وفى القضاء وفى التعليم وفى البيوت والشوارع وفى الفنون وفى الحياة كلها.

ونحن نريد أن نعيش كما يأمر هذا الدين.

(لقد جاء الإسلام الحنيف يقرر للدنيا عدل المبادىء وأقوم الشرائع الربانية ويسمو بالنفس الإنسانية ويقدس الإخوة العالمية ويضع عقيدة الخلود والجزاء دافعاً إلى الأعمال الصالحة ومانعاً من الفساد فى الأرض ورسم الطريق العملى لذلك كله فى حياة الناس اليومية ثم فى أوضاعهم المدنية وبنى على ذلك القلوب وجمع عليه الأمة وأقام على أساسه الدولة وأوجب الدعوة إليه فى الناس كلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) ا. هـ.

(٥)

وهكذا استطاعت حركة اليقظة أن تكشف زيف النظام الغربى وفساده وأن تظهر عيوبه ونواقصه وعدم ملاءمته للفطرة الإسلامية والقيم القرآنية، وكيف أنه لن يؤدى إلى قيام الأمة الإسلامية التى حاول الاستعمار القضاء عليها بالسيطرة على نظامها السياسى والاقتصادى وأزاح شريعتها الإسلامية وأقام بديلا منها القانون الوضعى.

ولذلك فقد تعالت صيحة اليقظة لمواجهة الحكومات والأحزاب بالمطالبة بالعمل بالشريعة الإسلامية، فقد توالت الرسائل والمذكرات إلى الحاكمين بتعديل نظام التعليم وإقامته على منهج الإسلام وتطبيق الشريعة الإسلامية: بل إن حركة اليقظة أنذرت بخطر هذا التحول الخطير نحو الأسلوب الغربى فى القضاء والقانون فقال الأستاذ حسن البنا فى رسالة موجهة إلى وزير الحقانية:

(إن صدور الأمة حرجة أشد الحرج لشعورها بأنها تحكم بغير كتاب الله وقانونه وشريعته وأن الشعوب تعودت أن تصبر حيناً فإن الانفجار نتيجة طبيعية لهذا الصبر في كثير من الأحيان، وليس يحرج النفس شيء أكثر من الاصطدام بالعقيدة الراسخة الثابتة، وأن قوانيننا الحالية تنافي الإسلام وتصدمه وتحطمه في نفوس المؤمنين به وهم كل هذا الشعب، وقد تفتحت أذهان الأمة وأدركت بعد ما بينها وبين دينها في هذه الناحية فشعرت بالحرج الشديد أن بقيت الحال على ما هي عليه، فلا تلجئوا الناس إلى عصيان القوانين واحتقار الشرائع والتبرم بالقضاء والأحكام.

ثم أشارت حركة اليقظة إلى أن القرآن قد بيّن كثيراً من الأحكام في كثير من الشئون الحديثة والجنائية والدولية والتجارية، وأكدت الأحاديث الصحيحة كل ذلك وأيدته، وأن هذه الشريعة ما أنزلها الله إلا ليعمل بها المسلمون ويتنبهوا إلى حكمه فيها ويستمدون منها ويطبقونها.

ويواصل الأستاذ البنا مشورته إلى الحاكمين فيقول:

فإذا كانت قوانيننا وشرائعنا والدستور نفسه مستمدة من معين غير هذا المعين مستقاة من مصادر أوربية بحتة: بلجيكية وفرنسية ورومانية، وهي في كثير من كلياتها وجزئياتها تتناقض تناقضاً صارخاً مع التعاليم الإسلامية الصريحة، فكيف يكون موقف المسلم الذي يؤمن بالله وكتاب الله فيما إذا عرضت له قضية حكم فيها بغير ما أنزل الله، وكان الحكم مناقضاً لدين الله، وكيف يستحيل القاضي هذه المخالفة وكيف يستسيغها.

كيف يتحمل تبعتها شيخ القضاة ووزير العدل والتشريع بين يدى أحكم الحاكمين، إن التبعة كبيرة، ولئن كان هذا الحساب شديداً فإن حساب الله أشد، ولا ننسى في هذا الشأن أن للشريعة الإسلامية من أخصب منابع التشريع وأزكاها وأدقها وأسلمها. ولم ننس ما جاءت به تقارير مؤتمر لاهاى في الإشادة بالشريعة الإسلامية وامتداح نظرياتها القانونية وغناها بالبحوث القيمة وكفايتها في التشريع العام والبحث العلمي أعدل شاهد على صحة النظريات، وقال هؤلاء وما قالوا إلا بعد دراسات طويلة وبحوث عميقة خلدوا بعضها بكتاباتهم وبقى بعضها مستقراً في نفوسهم إلى الوقت المناسب، ومن الوجهة العلمية فقد عاشرتنا هذه القوانين خمسين عاماً ونيفاً فما أفادت منها الأمة إلا كثرة الجرائم وتزايدها عاماً بعد عام ويوماً بعد يوم وانتشار الموبقات وارتكاب الجنايات، وذلك لأنها لا تتفق مع طبيعتنا ولا تصلح في بيئتنا ولا تجدى في علاج أدوائنا، ولا دليل أصدق من الواقع المشاهد، وذلك في الوقت الذى نرى فيه البلاد الإسلامية التي أخذت بتشريع الإسلام قد استتب فيها الأمن وتوطدت السلطة وعمت السكينة وساد احترام القانون واطمأن الناس على الدماء والأموال والأعراض.

كذلك فندت حركة اليقظة تلك الشبهات التي أحاطت بالشريعة الإسلامية مما يورده خصوم النظام الإسلامي. وخاصة ما يتعلق بمعاملة الذميين وقضية الربا

(٦)

وحاولت حركة اليقظة أن تكشف عن الفوارق الدقيقة بين النظام الديمقراطي وبين النظام الإسلامي يقول الأستاذ البنا : (إذا كان المراد بالنظام الديمقراطي هو ذلك النظام الذي يدافع عن القواعد الأساسية للمجتمع وهي الدين والأسرة وحرية التعاقد وحقوق الأفراد على أن تكون القوانين متجهة إلى مساعدة الضعفاء والنهوض بهم والحكومة أن تتدخل في الشئون العامة بالدرجة التي تساعدها على الوصول إلى الإصلاحات الاجتماعية اللازمة ، وإذا كان المراد بالحكومة الديمقراطية أن يكون الشعب فيها نصيب من الحكم بطريقة مباشرة على أساس أن لكل فرد شريف بالغ من الحقوق ما لأي فرد آخر في الاشتراك في شئون بلاده العام إذا كان المراد بالنظام الديمقراطي هذه المعاني فإننا نرحب بالديمقراطية على أنها بعض ما جاء به الإسلام الحنيف فقد جاء الإسلام الحنيف ليقيم المجتمعات الإسلامية على أصلح القواعد وأقربها إلى السعادة والطمأنينة والسلام وجاء يدافع عن العقيدة الحقة وعن الأسرة الصالحة ، ويضع لها أحكم النظم وأكفلها للمودة والرحمة وجميل المعاشر ويضمن حرية التعاقد وحقوق الأفراد الشخصية وحقوقهم في الملك والرأي والتعليم والعمل ، وخص الفقراء والضعفاء من الناس بعناية لم تتوفر في أي نظام آخر ، وفي القرآن الكريم وهو أساس النظام الإسلامي آيات لا حصر لها في العناية بالضعفاء والفقراء ووجوب العمل على رفع مستواهم وتحسين أحوالهم والعناية بهم والتقريب بينهم وبين غيرهم حتى تسود العدالة الاجتماعية كل أفراد الامة ، كما أن الحكومة في الإسلام راعية فهي مسئولة عن الشئون العامة والخاصة ، ولها أن تتدخل كلما كان تدخلها هذا أجدى على المجتمع وأنفع للناس ، وقد قرر الإسلام مبدأ الشورى والتعليم والنصيحة وأشرك بذلك الأمة في حكم نفسها .

وزاد الحكم على هذه المعاني بأن أشعر الحاكم بعظم التبعة حتى كان الخلفاء الراشدون يكادون يذوبون إشفاقاً من هول ما حملوا وأشعر المحكومين فضل الطاعة مما جعل الأمة تستنصر بدعاء أمرائها وتتقرب إلى الله تبارك وتعالى بمحبتهم وجميل طاعتهم ، وأقام على ذلك حارساً من الضمائر الحية التي تخاف الله وتذكر اليوم الآخر . فلم تكن لديمقراطية الإسلام ألفاظاً جوفاء ولا نظماً جامدة تتحكم فيها الظروف والأهواء وليس بعد ذلك مطمع لطامع » ا هـ .

وهكذا كشفت حركة اليقظة للأجيال حقيقة الموقف :

• • •

(إن العالم الآن تتجاذبه شيوعية روسيا من جانب وديمقراطية أمريكا من جانب آخر ، وهو بينهما مذبذب حائر ، ولن يصل عن طريق إحداهما إلى ما يريد من استقرار وسلام . وفى أيديكم أنتم قارورة الدواء من وحى السماء . فمن الواجب إعلان هذه الحقيقة فى وضوح ، وأن ندعو إلى منهاجنا الإسلامى فى قوة وأن واجبنا فى القضاء على الاستعمار الغربى والجهودية العالمية) .

كانت دعوة اليقظة إلى الوحدة الإسلامية وإلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى المجتمع العربى وإعلان الجهاد فى مواجهة الصهيونية وكشف زيف الاستعمار وفساد النظام الديمقراطى الليبرالى هو الذى عجل بالقضاء عليها فقد تألبت عليها القوى الاستعمارية والصهيونية وقوى الأحزاب التى كانت ترى فى هذه الفكرة خطراً على وجودها ، ولذلك فقد عجلت هذه القوى بضرب حركة اليقظة بعد الهزيمة فى فلسطين سنة ١٩٤٨ وكان ذلك آية على سقوط النظام كله وانهياره .

* * *

الفصل الرابع

التجربة الماركسية

(١)

حاول الاستعمار إحلال مخطط جديد فى العالم الاسلامى بعد الاحتلال يمكن له من السيطرة ولذلك فقد استوعب المخطط مختلف أساليب الغزو والاحتواء والسيطرة فى جميع ميادين السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية فى بلاد المسلمين على نحو يفصل الأمة عن نظامها الإسلامى وتراثها وعقيدتها وماضيها ، وكان الاحتلال غربياً قامت به دول أوربا (فرنسا وانجلترا وإيطاليا وأسبانيا وهولندا) .

ولما قامت الثورة الشيوعية ١٩١٧ بدأت محاولات من جانب بعض المسلمين والعرب الاستعانة بالبولشفيك لمواجهة الاحتلال الغربى دون تقدير من العرب والمسلمين المخططات المشتركة بين الديمقراطية الغربية والماركسية الشيوعية . هذه المخططات التى لم تستكشف إلا بعد وقت طويل .

واستطاع الغرب الاستعمارى زرع إسرائيل فى قلب الوطن العربى والبلاد الإسلامية بتأييد من النظامين معاً وفى الحرب العالمية الثانية اتفق الغرب الرأسمالى الديمقراطى مع الشرق الشيوعى الماركسى على مواجهة النازية الألمانية ومن ثم بدأت تتسرب إلى البلاد العربية الإسلامية خلايا الشيوعية التى حاولت خداع الشعوب بدعوى مقاومتها الفقر ومؤازرتها المسلمين والعرب فى معارضة الاحتلال الغربى والتخلص منه .

ثم فتح الباب أمام النفوذ الشيوعى ليكون مدخلا للتخلص من سيطرة الاقطاع والسيطرة الاقتصادية والفردية ثم الدعم العسكرى وجرت محاولات الاستفادة من الأنظمة الماركسية والاشتراكية فى مجال الاقتصاد وتحولت اقتصاديات بعض البلاد العربية من النظام الرأسمالى الغربى إلى النظام الاشتراكى الماركسى فظهر أن النفوذ الشيوعى حاول السيطرة على أنظمة الحكم العربية والاسلامية والتأثير فيها وفرض خطط وشروط وأفراد على نحو يوحى بالمؤامرة ، ويوحى بالرغبة فى الانقضاض على استقلال البلاد التى حاولت الاستفادة به .

ولقد كانت التجربة مريرة ثم كانت عاملا هاماً من عوامل النكسة عام ١٩٦٧ .

وبذلك مر العالم الإسلامي بالتجربتين : التجربة الغربية التي أدت إلى نكسة ١٩٤٨ والتجربة الماركسية التي أدت إلى هزيمة ١٩٦٧ .

(٢)

لقد فتحت الاشتراكية الماركسية الطريق إلى هدم القيم الاجتماعية والأخلاقية فقد أعلت من شأن المادة وأثارت الصراع حول لقمة العيش والتنافس على المطامع والرغبات والشهوات وكسرت كل القيود والضوابط رغبة في تحقيقها من أي طريق وبأي وسيلة ، وصعدت عملية التنافس بين الناس في سبيل العيش والمال وأثارت روح الترف والدعة فأحلت في المجتمع روح التحلل والصراع وأعلت من شأن الأهواء وظهرت بوادر في الشباب تسأل أين الله وتطالب بالتجربة قبل الزواج وتعلي من شأن التطلع إلى الحرية والانطلاق بعد قيود وأثر ذلك في أمور الملابس والأزياء مما خفف من عوامل الوضوح بين الجنسين .

لقد كان المجتمع في الجولة الأولى — إبان النظام الغربي — قد دخل مرحلة من مراحل التحلل والضعف والفساد الاجتماعي ، ولقد كانت حركة اليقظة عاملا هاماً في تنبيه المجتمع للعودة إلى الأسلوب الرباني غير أن موجة الماركسية التي تفشت فإنها قد كسرت كثيراً من القيود ودفعت إلى كثير من الاضطراب خاصة عندما أثيرت الشبهات حول الدعاة إلى الإسلام فاجتاح الخوف كثيراً من القلوب فانقطعت رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوف الوقوع في المحظور حيث كان الشيوعيون يستطيعون اتهام أي داعية إلى الله بأنه من أعداء المجتمع .

(٣)

في ظل التحول الذي وقع في العالم الاسلامي من الأنظمة الغربية إلى الأنظمة الماركسية بقي جوهر التخطيط الداخلي غربياً ، لم يتغير إلى المطابقة مع طبيعة الأمة أو جوهر فكرها الأصيل سواء في ميدان السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو التربية . كانت التجربة الغربية قائمة بكل أخطائها وأخطارها ، ثم جاء التحول إلى الأنظمة الاشتراكية أو الماركسية التي دعمت الأخطاء الأولى ولم تستطع تحرير المجتمع منها .

لقد تبين فساد النظام الغربي الليبرالي بعد تطبيقه منذ بدأ الاحتلال الغربي فلما أوشكت البلاد الإسلامية أن تتحرر من النفوذ الغربي وقعت تحت سطوة النظام الماركسي ، الذي سرعان ما أثبت فشله وفساده ، وفي ظل هذا التحول ازداد الاتجاه إلى جانب الاسلام نظامه وثقافته ، وكذلك كانت الدعوة إلى القومية مخاصمة صريحة لفكرة العروبة الإسلامية بعد أن كانت من نتاجها وتبين أن الغرض هو فرض مفهوم قومي مفرغ من إسلاميته ومن محتواه الأصيل .

ولقد استطاع الاستعمار بعد الاحتلال خلق التناقض بين العصرية العربية وبين الإسلام وأدخل الاستعمار فكرة الجامعة العربية والخلافة العربية في مواجهة الجامعة الإسلامية والخلافة الإسلامية ثم جاءت الأفكار الماركسية لتضع هذه القضايا في زاوية مهجورة ليقوم بديلا منها (الصراع الطبقي) الذي حاولت الماركسية أن تؤجج ناره في أفق قائم على الترابط والرحمة والاخاء.

وقد استطاعت حركة اليقظة أن تواجه تلك الأخطار التي غزت المجتمع الإسلامي نتيجة تسرب الفكر الماركسي إليها وتغلغله في حنايا العلاقات الاجتماعية وتأثيره على مجريات الأمور، وأن تكشف زيف هذا الفكر وأخطاره.

(٤)

كان أكبر مواقف الدفاع الذي قادته حركة اليقظة الإسلامية إزاء الشيوعية ينطلق من التجربة المريرة التي مرت بها المجتمعات الشيوعية ذاتها وفشلها في أن تحقق شيئاً يمكن أن يغري الآخرين بخداع ما أسموه الجنة الموعودة وكذلك فإن الاسلام لا يمكن أن يوضع في مجال المقارنة مع الشيوعية أو الرأسمالية، فالاسلام يختلف عن أي نظام آخر، فقد سبق القرآن هذين النظامين فهو ليس واحداً منهما وهو غير قابل التجزئة بأن يؤخذ منه ما يسمى ديمقراطية الاسلام أو اشتراكية الاسلام فالاسلام نظام قائم بنفسه مستقل بذاته.

وتقول حركة اليقظة إن الرأسمالية تضع الفرد في بؤرة اهتمامها وتضع الاشتراكية المجتمع في بؤرة الاهتمام والاقتصاد حر في النظام الرأسمالي وهو موجه النظام الاشتراكي، والحكم في النظام الرأسمالي ديمقراطي الوجه وإن حكمته المؤسسات ورءوس الأموال، بينما الحكم في النظام الاشتراكية يقوم على دكتاتورية الطبقة العاملة، وعلى حين يضحي النظام الرأسمالي بالعدالة الاجتماعية من أجل الفرد فإن النظم الاشتراكية تضحي بالفرد من أجل عظمة الدولة وهكذا يتنازل كل نظام من النظامين عن شيء في مقابل شيء آخر.

أما الاسلام فهو دين متكامل لا يضحي بالفرد من أجل الجماعة ولا الجماعة من أجل الفرد، وهو دين الحق ونظام وضعه خالق الانسان ويقوم على التوازن الذي تصلح به حياة الانسان وميزته الأساسية أنه يربط الفرد بالله ويجعل الولاء لله تعالى يسبق ولاء الانسان لنفسه أو أهله أو ماله، ويجعل الصلة بالله والرسول والجهاد في سبيله هي معيار التقوى فهو نظام يربط الفرد بالله، وينبثق منه التشريع والحكم والقواعد العامة في السلوك ويتدخل في كل شيء، حتى أنه ينظم العبادة، وينظم علاقة الأسرة والمواريث والوصية كما يضع القواعد العامة للحكم، ويقوم الحكم في الاسلام على

الشورى كما يقوم الاقتصاد فى الأساس على رأس المال والمال مال الله والمسلمون خلفاء فيه مسئولون عن الأمانة التى وكلت إليهم ، وعلى ضوء هذا يقر الإسلام الملكية الفردية ومظاهرها التصرف والانتفاع فى ضوء الصلاحية للتصرف فإذا حدث خلل أو سفه كان للجماعة استرداد هذا الحق .

وحين يقرر الإسلام مبدأ ملكية المال فإنه يرفض حوصه فى أيدى طائفة خاصة من الناس يتداول بينهم ولا يجده الآخرون ويرفض الإسلام حرية الكنز ، ويقوم الاقتصاد الإسلامى على أساس البيع وليس على أساس الربا ، وليس معنى هذا أن الاسلام مع الرأسمالية أو مع الاشتراكية أو ضدهما وإنما الاسلام نظام مستقل له خلفيته الفكرية التى تصل الانسان بالله وله أسلوبه فى الحكم والسياسة والاقتصاد وله طابعه المميز الذى قد يتشابه مع بعض المذاهب أو يختلف .

(٥)

وأشارت حركة اليقظة إلى أخطر تزييف تقوم به الشيوعية وهو التخفى تحت أسماء كثيرة منها الاشتراكية أو دعواهم بأن المسلم يستطيع أن يجمع بين الاسلام والشيوعية .

فالشيوعية لا تعترف بوجود الله ، بينما يعترف الاسلام بوجود الله تبارك وتعالى وكتبه ورسله وإنكار وجود الله فى الشيوعية ليس أمراً سطحياً ولكنه جذر أساسى فى الفكر الشيوعى والنظرية الماركسية لا يمكن تحريفه أو إلغاؤه وإنكار وجود الإله والأديان جزء من النظام الماركسى ، ولا ريب أن هذا الاختلاف فى الأصول يؤدى إلى اختلاف واسع فى جميع مفاهيم الاجتماع والسياسة والأخلاق والدين والاقتصاد ، ولا وجه للمقارنة بين الاسلام كدين والشيوعية كمذهب ، فالدين عقيدة وشريعة ونظام ، أما المذهب فهو ما يستخلصه العقل الانسانى من التجربة ، وقد قام الاسلام كنظام كامل يغنى المسلم بل الانسان عن كل التجارب والمذاهب حيث يشتمل على قوانين العلاقات بين العامل وصاحب العمل والزراع ومالك الأرض .

وكذلك كشفت اليقظة عن استحالة الالتقاء بين الاسلام والماركسية . ذلك أن منطلق الماركسية الفكرى ، هو المادية الجدلية ، إنها المادية التى وضعتها الماركسية بدلا عن الروح وأن ما تقرره الماركسية فى شأن المادة ليس بدعا جديدة بل هى ردة إلى اتجاهات المادية القديمة التى نشأت مع بدائية الفكر البشرى حيث ترى المادية أن العالم لم يخلقه إله وأنه سيظل شعلة خالدة حية حسب قوانين معينة ، وهذا فهم يخالف فهم الاسلام .

وقد قامت الماركسية على الإلحاد الذى يرى أن الأديان لا تلبى أى من الحاجات الانسانية وإنما هى انعكاس لشقاء الانسان وضعفه وهكذا نرى أن الأسس الفلسفية للماركسية لا يمكن أبداً بأى حال من الأحوال أن تلتقى مع الدين الحق .

ولقد حال كثير من قادة اليقظة بمفهوم النظرية الماركسية التى تقرر أن الإنتاج الجماعى لوسائل

المهنى يربط الأفراد بعلاقات محددة ضرورية ومستقلة عن إرادتهم وأن هذه العلاقات تشكل الهيكل الاقتصادى للمجتمع ومعنى ذلك أن طريقة الانتاج هى التى تحدد النشاط الاجتماعى والسياسى والعقلى لحياة جماهير الناس .

وهنا نقطة الخلل فى مفهوم الماركسية والخطر الواضح ، فتفسير الوجود الانسانى كله على أساس أحداث مادية فقط يكشف جانباً من الحقيقة ويخفى سائر جوانبها فما لا شك فيه أن هناك قوى أخرى غير مادية تؤثر فى حياة الناس وعلاقاتهم الاجتماعية والأخلاقية ، بل لعل هذه القوى الأخيرة تأتى فى المقام الأول قبل القوى المادية البحتة التى ركزت عليها نظرية التفسير المادى للتاريخ .

كذلك فقد كشفت حركة اليقظة زيف التفسير المادى للتاريخ وأبانت نقصه وعواره ، ذلك أن القيم الدينية والمعنوية والأخلاقية وزنها وأهميتها فى المجتمع ومن الخطأ الظن بأن مجتمعاً ما يمكن أن ينهض نهضة أو يقوم أو يتقدم بدون القيم الأخلاقية ، وليس ثمة ريب أن تعاليم الأنبياء والرسل كانت وحياً من الله ولم يكن نتاجاً من البيئة نفسها .

ولعل أقوى ما يدحض مفهوم التفسير المادى للتاريخ هو انتشار الحضارة الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها .

ذلك أن الاسلام لم يأت نتيجة انقلاب فى نظم الانتاج أو فى علاقات الانتاج فى قريش وإنما جاء ظاهرة إلهية مستقلة عن فعل البيئة ، لقد جاء الاسلام من البداية مقرراً المساواة فى الفرص وضمان حد الكفاية للفرد وتحقيق التوازن الاقتصادى بين الفرد والمجتمع ، وجاء بمبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة ، جاء بكل ذلك فى الجزيرة العربية فى وقت لم تكن ظروف الانتاج وعلاقات الانتاج تدعو إليه بحيث يمكن أن نقول إن ما حدث كان انبثاقاً من واقع اقتصادى . وتحدى بذلك منطق نظرية التفسير المادى للتاريخ التى تحتم انبثاق كل انقلاب سياسى من انقلاب مناظر فى نظام الانتاج وعلاقاته .

(٦)

لقد رفعت حركة اليقظة الحجاب عن أبعاد المخطط الذى أقامته التلمودية الصهيونية بإنشاء الشيوعية ، فالشيوعية هى إحدى فرق الماسونية ويتكون أعضاؤها من أعضاء الماسونية الملوكية الذين وصلوا إلى درجة رفيعة (لينين - ستالين - تروتسكى) ولهذه الفرقة محفل واحد فى نيويورك لا يدخله من اليهود إلا قليل . وأن هدف الماسونية الحمراء إقامة دولة شيوعية كخطوة لإعلان الدولة اليهودية العالمية لأن إعلانها عن هدفها صراحة يؤلب عليها العالم ولكنها تدخل إلى العالم بأسلوب مقنع براق . وقد جاء فى بيان المشرق الأعظم الفرنسى الماسونى عام ١٩٠٤ أن الماركسية اللاقومية هيا وليدتا الماسونية لأن مؤسسها ماركس وانجلز يهوديان وأن محفل الماسونية الحمراء كان وراء الثورة

البلشفية في روسيا ، وقد عقد حاييم وايزمان ١٩١٦ محادثات مع لينين قبل نجاح الثورة الروسية تهدف إلى القضاء على روسيا القيصرية وإقامة الدولة الشيوعية مكانها ، وكان القرار الثاني فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية ، وكان أول عمل الثورة الشيوعية في روسيا اعتبار العداء اليهود جريمة يعاقب عليها القانون ، وإعلان أن الحكومة السوفياتية تؤيد الحق الكامل لليهود في إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين وكانت أول حكومة شيوعية تضم ٥٠ وزيراً منهم ١٧ وزيراً يهودياً .

كذلك فقد تكشفت الحقائق الخطيرة لنتائج تطبيق التجربة الشيوعية في روسيا خلال نصف قرن حيث مات مئات الألوف نفياً وتشريداً وسجناً ، وكيف أن التجربة لم تحقق المجتمع الأمثل الذي ظنت الماركسية أن تحققه ، وفقدان القاعدة الشعبية لهذا النظام . وخاصة من العمال والفلاحين والاقتصار على عدد أفراد الحزب والعجز عن إقامة الانسان العقائدي في الدول الاشتراكية مما حمل تلك النظم على الاعتماد كلياً على القوات المسلحة ورجال الميليشيا واتباع العنف الثوري لتثبيت الحكام ودعم الحكم . واضطرت التجربة إلى تغيير النظرية وتعديلها مرات ومرات لأنها كانت في كل مرة تجافي الواقع البشري .

ولقد أثبتت الماركسية فشل نبوآتها في أكثر من موقع ، فقد كان ماركس وانجلز يتوقعان اشتعال ثورة اشتراكية في أوربا كلها بعد انهيار اقتصادي ، ثم ظهرت الشيوعية في أبعد البلاد عن التقديرات الماركسية .

وقد تكشف أن الماركسية تتخذ من الواسطة مبرراً للغاية ، فكل وسيلة يمكن الاستعانة بها لهدم المجتمع أو إثارة الطبقات على الصراع فيما بينها مشروعة ، ويرى ماركس أن النظم الخلقية ليست إلا خداعاً وبهتاناً ، وتستهدف الماركسية القضاء على الأسرة باعتبارها دعامة المجتمع البرجوازي ، ولذلك فيجب تحطيمها والقضاء عليها ، كما ترى أن الدين بما يعتمد عليه من اعتقاد وخلق وتشريعات يراها ماركس بناءاً زائفاً ، وأن القانون والأخلاق والدين أوهام لا وجود لها .

ولقد اندفعت الشيوعية لغزو البلاد العربية في ظل الوفاق التي تم بين الديموقراطية الغربية وبين البلشفية في الحرب العالمية الثانية ، وقد حملت لواء براقاً خادعاً هو شعار التحرير ومحاربة الاستعمار والإقطاع ، وذلك عن طريق عناصر شيوعية ألبست لباس الوطنية المحلية ، وجاءت بعد ذلك مرحلة إشاعة الفساد الاجتماعي ودعوة الشباب إلى نبذ العادات والتقاليد ومحاربة القيم الاجتماعية على أنها من عوامل التأخر .

وفي خلال هذه الفترة لم تتوقف موسكو عن أن تقذف البلاد الإسلامية بالكتب التي تسخر

بالإسلام وتهاجم قيمه وأبرز ذلك (الكراسة الرمادية) التى انتشرت منذ بضع سنين فى البلاد العربية وهاجمت الأديان عامة والإسلام خاصة .

ولقد استطاعت اليقظة الإسلامية أن تواجه هذه المخططات الوافدة وأن تكشف الناس عن أخطارها ، ولم تستطع الشيوعية أن تؤثر فى حركة اليقظة الإسلامية إلا عن طريق المؤامرات والدس والخداع .

وظلت الشيوعية تشن على الإسلام فى معاقله حملات عنيفة ، وكان أخطر محاولاتهم إقامة تنظيم سياسى شيوعى فى البلاد العربية ، ولكنهم أخذوا يفقدون مواقعهم ويتساقطون تساقط أوراق الخريف حينما انكشفت حقيقة دعواهم .

وقد ارتكزت الشيوعية فى محاولاتها داخل العالم الاسلامى على كبار الرأسماليين اليهود : أمثال هنرى كورييل المليونير اليهودى الذى كان يمول النشاط اليهودى فى مصر خلال الخمسينات والذى نقل نشاطه بعد ذلك إلى الجزائر .

ومع هذا فإن الشيوعية لم تستطع السيطرة إلا حين سمحت لها الظروف بالتسلل إلى مواقع السلطة فى صورة أو أخرى ، وقد أتيحت لها الفرصة السيطرة على الصحافة والمسرح وبعض أجهزة الإعلام فاستغلوها استغلالا واسعاً لنشر مبادئهم ومحاربة الاسلام ، الذى كانت حركته قد حوصرت فى موقف خلاف مع الجهات الرسمية نتيجة أخبار مشوهة حملت إليها ، وقد اعترف بذلك أحد كبار المسئولين فى الفترة الأخيرة على نحو يكشف عن أن عمليات التعذيب والاعتقال التى جرت بشأن بعض دعاة الفكرة الاسلامية كانت بناء على بلاغ كاذب لم تثبت حقيقته بل تبين العكس منها بعد ذلك .

ولقد انكشفت حقيقة الشيوعية خلال موقفها من حرب ١٩٦٧ بعد أن مارست عدة تجارب للاستيلاء على مقدرات البلاد التى ارتبطت بهم ارتباطاً وثيقاً ، فقد حاول الروس ربط اقتصاد هذه البلاد بخططهم الرامية إلى الاستيلاء على المواد الخام ومنافسة الغرب فى احتكاره لها ، وكان هدفهم ربط عجلة الانتاج فى بعض البلاد الاسلامية بعجلة الاقتصاد الشيوعى ، وبذلك تمكنوا من إملاء شروطهم فى قسوة وعنف .

وكانت أقسى محاولاتهم هى العمل على هزيمة الدول التى اعتمدت عليهم من داخل مخطط يرمى لنصرة الصهيونية وإذلال المسلمين والعرب .

وفى خلال ذلك كانوا ينشرون كتبهم المسمومة . التى جمعوا فيها مختلف المفتريات التى لفقها

الوافدة والمستشرقون من أعداء الاسلام ، واستهدف نشر هذه المكتب القيام بعملية اختيار الحس الاسلامي لدى جماهير المسلمين ظناً منهم أن خصومة البلاد العربية والاسلامية مع الغرب ستلقي بهم في أحضان الشيوعية ، وبذلك يتمكنون من ضرب الاسلام في نفوس أبنائه ومحاولة إثارة موجة جديدة من الجدل والبلبلة .

وقد كشفت حركة اليقظة هذه المؤامرة وأبانت بكل دليل أن الحركة الشيوعية متآلفة مع الاستعمار الغربي والصهيونية العالمية في محاولة الاجهاز على العالم الاسلامي تمهيداً لتقسيمه بين الشيوعية والرأسمالية ، وذلك بعد أن أسهم المعسكر الشيوعي في دعم الحركة الصهيونية في إسرائيل وعمل على تعقيد إرسال الأسلحة إلى البلاد العربية ، مع إرسال الأفواج المتزايدة من اليهود وجلهم من الخبراء والعلماء .

كذلك فقد كان للشيوعية دورها الرئيسي في خطة ضرب المنظمات الاسلامية التي انطلقت على أوسع نطاق وكتمت الاسلام سنوات طويلة عن الكلمة الأصيلة مع العمل على نشر المفهوم الزائف .

• • •

الفصل الخامس

مواجهة الصهيونية

منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجرى كانت إرهاصات الصهيونية توشك أن تلقى بظلها على المجتمع الاسلامى والفكر الاسلامى من طرق مختلفة كان أبرزها محاولات الصهيونية فى الاستيلاء على أرض فلسطين ووسيلتها إلى ذلك إغراء الدولة العثمانية أو تدميرها حين توقفت عن تحقيق مطامع الصهيونية العالمية ، وكانت تلك المحاولات الخطيرة التى ساقتها الصهيونية بالاشتراك مع الاستعمار بسبيل تمزيق الوحدة الإسلامية وتحطيم تلك الرابطة السياسية القائمة باتحاد عنصريها الترك والعرب تحت لواء دولة إسلامية هى نواة لتجميع جميع المسلمين فى العالم ، وكانت الخطة هى بعث القوميات على ذلك النحو العاصف العنيف الذى استعلمت به الحركة الطورانية فى قلب الدولة العثمانية وما حاوله حزب الاتحاد والترقى من السيطرة على الحكم وتتريك العناصر وما أدى إلى ظهور الحركة العربية فى مواجهة أخطار الاستيلاء بالعنصر والدم التى اجتاحت الدولة العثمانية وما كان لليهود الدونمة من أثر جد خطير فى ذلك عن طريق المحافل الماسونية التى كانت تستهدف ضرب الدولة العثمانية وتدمير الخلافة الاسلامية والوصول إلى ما يسمونه أرض الميعاد بعد أن أغلق السلطان عبد الحميد باب الحوار الذى حاول خلاله مبعوث الصهيونية العالمية (هرتزل) إغراء الخليفة بالقروض ، وكان هذا هو أخطر التحديات التى واجهت حركة اليقظة الاسلامية التى كانت تتطلع إلى الجامعة الاسلامية وتعمل على دعم دول الخلافة حتى تصبح مظلة كبرى للعالم الاسلامى خارج الدولة العثمانية نفسها .

ولقد تعالت بعد ذلك صيحة القوميات تدعمها الصهيونية والاستعمار فى سبيل إقامة القومية اليهودية بالقوة فى أرض فلسطين : هذه التى حاول وعد بلفور أن يكون منطلقاً لها والتى استطاعت بالغدر والحيلة إقامة إسرائيل بعد الاثين سنة من هذا الوعد ، ثم سقطت القدس فى أيدى الصهيونية بعد ذلك بعشرين عاماً .

وقد حاول الفكر الصهيونى أن يطرح فى أفق الفكر الاسلامى عديداً من الشبهات والسموم والزيوف التى كانت بالاضافة إلى حركة التغريب (القائمة على التبشير والاستشراق) من أخطر ما واجه حركة اليقظة الاسلامية فى هذه المرحلة .

لقد كان للصهيونية آثارها المباشر فى الفكر الإسلامى عن طريق تلك المحاولات التى جرت من أجل ابتعاث دور زائف لليهود فى الجزيرة العربية قبل الاسلام وبعده على النحو الذى قام بالدعوة إليه الدكتور طه حسين والمبشر اليهودى إسرائيل ولفنسون ، وفى تلك المحاولة الخطيرة التى حاولت

أن تفرض على الجامعات مفهوم (السامية) لغة وحضارة ، وهو مفهوم زائف يستهدف القضاء على الدور الحقيقي الذي سجله التاريخ للحنيفية الإبراهيمية التي قام عليها إبراهيم واسماعيل .

ولقد كان من أكبر أهداف الصهيونية العالمية تشويه تاريخ العرب وتزييف شخصياتهم ومقوماتهم ، وذلك باعتبار أن (العرب) هم القوة المواجهة للصهيونية وباعتبارهم حملة الفكرة الإسلامية التي تمثل حقيقتهم وباعتبارهم أصحاب التاريخ البطولي ، ومن ثم قد حرصت أقلام اليهود في مجال الاستشراق وخارجه النيل من حضارة الإسلام ودور العرب وإنجازاتهم العالمية والإنسانية ، وذلك من منطلق حملة ضارية على العرب ووصفهم بالبداوة والجمود والتخلف التكنولوجي والعلمي وفي حقد شديد قديم متجدد من حيث أن العرب يملكون حضارة ودينا ووطنا قائما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شيء ، بينما هم مازالوا مشردين في العالم منذ ألفي عام منذ هدمت تجمعاتهم المرة الأخيرة في فلسطين عام ٨٠ ميلادية .

ولا ريب أن الصهيونية العالمية قد استطاعت عن طريق السيطرة على الفكر الغربي أن تسيطر على دوائر المعارف في مادة فلسطين وعرب وإسلام وابراهيم وغيرها وأن تدخل إليها سمومها وتزييفها وأن تفرض على المسيحية البروتستانتية مفهوماً عن وعد إبراهيم عليه السلام الذي زيفه اليهود في التوراة وجعلوه قاصراً على بني إسرائيل حين عملوا على حجب رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز ودور إبنه الأكبر اسماعيل في بناء الكعبة وفي ميراث هذا الوعد الذي جعله الله تبارك وتعالى للصالحين من ذرية ابراهيم وليس لها على إطلاقها .

(وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين) .

ولقد استطاعت الصهيونية منذ وقت باكر أن تدمج التوراة والإنجيل في كتاب واحد وأن تطبع منه ملايين النسخ وتترجمه إلى مئات اللغات في سبيل نشر دعوتهم والتمهيد لإخضاع المسيحية لمفهومهم ودعواهم في فلسطين ، وقد استطاعوا أن يفرضوا هذا المفهوم على كتب التاريخ ودوائر المعارف والجامعات وعلى مناهج المدارس حتى استطاعوا احتواء الفكر المسيحي كله كما استطاعوا في السنوات الأخيرة أن يرغموا مجمعات الكنيسة على إعلان تبرئة اليهود من محاولة قتل المسيح ، هذه المؤامرة التي يقرر القرآن أنها لم تتم . فلما تآمروا عليه رفعه الله إليه ونجاه من تآمرهم وقتل شبيه به .

وإذا كان الفكر اليهودي قد حاول احتواء الفكر الغربي فإن الفكر الغربي قد طرح مفاهيمه في أفق الفكر الإسلامي منذ وقت بعيد حين عرض لنظريه النشوء والارتقاء لداروين ونظرية فرويد في التحليل النفسي ونظرية دور كايم في الاجتماع ، ونظرية ماركس في الاقتصاد ، وكلها نظريات صاغها

الفكر اليهودى التلمودى ليستهدف بها هزيمة الفكر الإنسانى والسيطرة عليه واحتوائه ، وقد استهدف الذين حملوا لواء نظرية دارون أن يبرزوا عصراً خطيراً التلمودية وهو الدعوة إلى التطور المطلق فى المجتمع ، وذلك أكبر ما يعارض مفهوم الأصالة الذى جاء به الحق والذى يقول بالثوابت والمتغيرات ، وقد حاولت التلمودية الصهيونية أن تبث فى الفكر الغربى الذى ما زال مطروحاً بشدة فى أفق الفكر الإسلامى وفى الجامعات والمعاهد مسلمات خطيرة منها :

١ – هدم الأسرة عن طريق نظرية دوركايم الذى ألغى أثر الفرد فى الحياة الاجتماعية .

٢ – هدم الأخلاق عن طريق نظرية فرويد الذى حاول أن يجعل الجنس أساساً لدوافع الحياة .

٣ – هدم الاقتصاد عن طريق نظرية ماركس التى ترمى إلى تفسير الحياة تفسيراً مادياً وتصور أحداث العالم وتاريخه من خلال المطامع المادية والاقتصادية التى تقوم على أساس الصراع من أجل لقمة العيش .

كذلك فقد انبثقت سموم الفكر التلمودى اليهودى عن طريق القضايا التى أثارها ، أمثال جرجى زيدان ويعقوب صروف وسلامه موسى عن الأخلاق والمجتمع والحضارة ، وكلها تستهدف هدم القيم الاجتماعية والأخلاقية ودفع المجموعات البشرية إلى طريق التحلل وكسر الضوابط والحدود التى جاءت بها الأديان .

ولقد استغلت الصهيونيه كل محاولات العلمانية فى مجال القانون والتعليم والحكم فى سبيل دحر القوة الإسلامية الكامنة فى النظام الإسلامى من أجل تدعيم المفاهيم الوافدة التى من شأنها أن تحول بين المسلمين وبين القدرة على امتلاك إرادتهم أو مواجهة الأخطار المحدقة بهم وخاصة مفاهيم الجهاد الإسلامى وتطبيق الشريعة الإسلاميه وقيام نظام تربوى إسلامى .

كما استطاعت عن طريق سيطرتها على جميع وسائل الإعلام والأخبار أن توجه الأحداث نحو الوجهة التى تخدم أغراضها ، فضلا عن تأثير مفاهيم الإباحية التلموديه فى القصة والمسرحية والأغنية وكل وسائل البث التى تستوعب فكر الجماهير ومشاعرهم .

ولقد كشفت حركة اليقظة مخططات الصهيونية العالمية وأظهرت بوضوح فى عشرات من الدراسات الجادة عن فساد الخطة الصهيونيه والاستعمار ، وهى حصر قضية فلسطين فى النطاق العربى وحده والحيلولة دون جعلها قضية إسلامية عقائدية مبرزين أنه لا سبيل إلى حل هذه القضيه إلا بالجهاد المقدس ، وأن كل هذه المحاولات والمفاوضات باطلة ولا تؤدى إلى شىء ما ، وأن السبيل فى هذا هو نفس السبيل الذى اختطه المسلمون بالنسبة للحملات الصليبيه ، كذلك كشفت حركة

اليقظة من الدور الذى قام به الاستعمار الغربى فى تمكين الصهيونية من السيطرة على فلسطين، وأن الحركة الصهيونية فى ذاتها لم تكن قادرة على اغتصاب فلسطين لولا مؤازرة بريطانيا وأمريكا وروسيا لها فى هذا الشأن، وأن الدول العالمية أغمضت عينها عن الجرائم البشعة التى قام بها اليهود فى فلسطين.

كذلك كشفت حركة اليقظة عن مخططات الصهيونية فى السيطرة على ثروة العالم عن طريق إنشاء الاحتكارات العالمية الضخمة التى استطاعت بها أن تستوعب ثروات العالم كله بحيث أصبحت بمثابة خزائن لكل كنوز العالم، وأن اليهودية هى التى وجهت أعمال المضاربة حتى يتحول ميدان الربح إلى البورصة عن طريق الأسهم والسندات بدلا من الأراضى والعقارات وأن اليهودية العالمية هى التى أقرضت الحكومات المختلفة فى حروبها وصراعاتها وكان الكسب لها وحدها دون الحكومات غالبة أو مغلوبة وأن اليهودية العالمية هى التى أغرقت حكومات العالم بالديون عن طريق تشجيعها على الاقتراض فى سبيل الترف والأهواء والملاذ الشخصية.

كما كشفت حركة اليقظة عن أبعاد المخطط الصهيونى بترجمة بروتوكولات صهيون والكشف عن أبعادها الحقيقية والتعرف إلى الأبعاد الخطيرة التى صاحبت خطط هرتزل وماركس وفرويد واستطاعت أن تصل إلى الخطوط العامة التى تجمع هذه التيارات كلها بمخططات الصهيونية التلمودية وكيف روجت كليات الآداب لهذه الآراء، وكان طه حسين وسلامه موسى ومحمود عزمى وغيرهم أبواقاً مدوية لترويج آراء دوركايم ومفاهيم التوراة والتلمود فى إبراهيم وإسماعيل.

وكيف كانت خطط الماركسية على لسان دعاتها وكتابها تستهدف دعم مفاهيم الماسونية والصهيونية عن طريق قولها بالفصل بين اليهودية والصهيونية وفى دعواها التى تهدم الثقة فى النفس العربية المسلمة بالقول بأن إسرائيل تمتلك أحدث الأسلحة الحربية والذرية وأنها حضارياً متفوقة على العرب، وقد كذبت حرب رمضان هذه المقولات ودحضتها.

كذلك فى خدمة الصهيونية كانت كتابات الشيوعيين فى الدعوة إلى الدولة العصرية التى تستغنى عن القيم والدين والأخلاق والتراث جميعاً ومحاولة القول بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة إلى مواجهة الصهيونية. وقد دحضت حركة اليقظة الإسلامية هذه المقولات وأبانت حق أن عوامل النصر والقوة لا تتحقق للمسلمين إلا بالتماس قيمهم الأصيلة، وأن القوة العسكرية والحربية لا قيمة لها فى الحقيقة إلا إذا كانت فى خدمة عقيدة صحيحة تؤمن بالجهاد وبحق تحرير الأرض الإسلامية من الغزاة والمعتدين.

كذلك فقد كشفت حركة اليقظة عن ضرورة التضامن الإسلامي في مواجهة الصهيونية واتخاذ أسلوب الإسلام في مفاهيم الوحدة والتكامل الاقتصادى والاجتماعى ودحض كل الأساليب الباطلة والوافدة التي خدعت المسلمين أكثر من مائة عام ، وهى أسلوب العلمانية والتغريب التي لم تحقق لهم إلا الهزائم المتوالية منذ عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٦٧ حين أخذ المسلمون في الجهاد والمواجهة فتحقق النصر في رمضان ..

ولا ريب أن هذه المحاولات المستمرة التي قامت بها حركة اليقظة في سبيل كشف الزيوف الباطلة الصهيونية التلمودية كانت بعيدة الأثر في هدم تلك الأكاذيب والأباطيل والأساطير التي حاولت الصهيونية التلمودية بها خداع الشعوب والأمم .

• • •

الفصل السادس

قبلة المسلمين هي الكعبة

هناك محاولات لفرض تفسيرات معينة على المفاهيم الإسلامية ، وهناك محاولات لفرض مفاهيم أساسية بدلا من المفاهيم التي تعارف عليها المسلمون إقراراً بما قدمه إليهم دينهم وكتابهم ، ولقد تمر عبارات مسمومة في كتاب أو بحث تحاول أن توحي باتجاه زائف فلا يتعرض لها أحد ، فيظن بعض الناس أنها من المسلمات أو من الأمور الواقعة فعلا ، ومن هذه المحاولات التي يرمي إليها الاستعمار والتبشير والتغريب : التشكيك في وجهة هذه الأمة الإسلامية في محاولة ترمي إلى القول بأنها تتطلع إلى الغرب أو البحر المتوسط وأن هذا التطلع الذي يتصل بالحضارة أو بالعلم أو بروابط الاقتصاد والسياسة من شأنه أن يصرف المسلمين عن وجهتهم الأصيلة وقبلتهم التي يتوجهون إليها خمس مرات في اليوم .

وهناك عبارات مطروحة يرددها تلاميذ المستشرقين من المبشرين في الارساليات تقول بأن العرب منذ أن خرجوا من الصحراء قبل ثلاثة عشر قرناً ووجوههم مصوبة نحو الغرب لا الشرق ، ولم يدخلوا التاريخ العالمي إلا عندما خرجوا من الصحراء ودخلوا في حوض البحر المتوسط .

وقد ترى بعض الفئات – خطأ – أن للعرب اليوم قبلتين : الصحراء والشرق قبلة والمتوسط والغرب قبلة أخرى وتخشى هذه الفئات أن يولى العرب وجوههم شطر الصحراء .

ويدافع هذا المستشرق الذي يكتب بالعربية (نبيه أمين فارس) عن العرب ويبدى شكوك التغريب فيقول : « أن العرب لم يولوا وجوههم شطر الصحراء البتة وجميع الدلائل تشير إلى أنهم لن يفعلوا ذلك في المستقبل القريب أو البعيد » .

وتلك قضية خطيرة فالعرب لا يولون وجوههم شطر الصحراء وإنما يولون وجوههم شطر الكعبة قبلتهم ونقطة التقائهم ومبدأ فكرهم ومنطلق عقيدتهم ، ومن هذه الصحراء التي يدفعون عنها العرب نشأت كل الحضارات ومنها انبعث ذلك الرعيل الضخم من قادة البشرية الحقيقيين : هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى إلى الأمم ، ومنها خرجت الجيوش وبرزت العبقريات والبطولات ومن أعماق الصحراء نشأت القوى النقية المفطورة على الإيمان بالله ، القادرة

على تقديم أرواحها مستشهدة فى سبيل الحق الذى حمل لواءه النبيون ، ولم يكن لهذه النماذج من الأبطال والقادة أن تنبعث من الحضر ومن المدن حيث تفسد الحضارة القيم . وتصيب أمامها بالانحلال والفساد وتشغلهم بالترف والمتاع حتى لا تكون لهم إرادة قادرة على دفع العدوان أو حماية الأمانة .

هذه الصحراء التى تجد فى كل كتابات المستشرقين والمبشرين وتلاميذهم إشارات بالغمز والانتقاص لها هى المصدر الأول للقوى البشرية التى صنعت الحضارة ، وأقامت المدنية ، وحملت رسالة الحق تبارك وتعالى من خلف الأنبياء والرسل إلى كل مكان ، واحتملت فى سبيل ذلك شظف العيش وقسوة الهاجرة وحر الظهيرة وانفرت فى الحر لأنها آمنت بأن جهنم أشد حراً ، أما المترفون فكانوا أعجز عن حمل هذا اللواء .

ولقد نقل الاسلام البشرية من البداوة إلى الحضارة ، وأقام مفهوم الإيمان بالله قوة فاعلة لتدفع ضياء التوحيد إلى كل أرض ، دون أن تفقد أرض التوحيد نفسها أو مكانتها أو تتحول القلوب والنفوس والوجوه عنها فكان المسلمون الذين انتقلوا من الجزيرة العربية إلى الصين أو إلى فرنسا يولون وجوههم شطر بيت الله الحرام فى مكة (وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .

وعندما وصل المسلمون إلى سؤدد الملك وعمارة القصور وبناء أمجاد العلم ، كان ارتباطهم بالقبلة أشد قوة ، وأن الناظر إلى التاريخ خلال هذه السنوات الأربع والتسعين بعد ألف والثلاثمائة ليجد أنه بعددها رحل المسلمون من أقطار الأرض عاما بعد عام صوب قبلتهم وكعبتهم ولم يتوقف أمرهم عند الاتجاه إليها فى الصلاة ، فقد احتملوا كل مضنيات السفر والرحلة ليصلوا إلى هذا البيت الحرام وليتصلوا بغيرهم من المسلمين من كل أنحاء الأرض فى فريضة الحج الأكبر حيث تجمعهم ساحة عرفات الرحيبة ، ويتلاقون فى منى لقاء التعارف والاخاء والتجارة وتبادل المنافع .

فالقول بأن العرب منذ خرجوا من الصحراء قبل ثلاثة عشر قرناً ، وجوههم مصوبة إلى الغرب هو قول يعوزه الدليل ، وهو فضول يحاول به مستشرق أن يرضى النفوس التى يزعجها رحلة المسلمين عاما بعد عام إلى منزل الوحى ، بعد أن يلتقوا يوما بعد يوم بقبلتهم فى كل صلاة ، بل أن بعضهم والكثير منهم يحرص على أن يوجه مقعده ساعة بعد ساعة كل يوم ليكون فى اتجاه القبلة .

ولتطمئن نفوس هؤلاء الذين يزعجهم اتجاه المسلمين إلى القبلة . فإن ذلك ليس اتجاه عبادة وصلاة فحسب ، وإنما هو اتجاه فكر وضمير وعقل ويقين كامل ، حيث ابتعث محمد بن عبد الله فى

فى هذه الأرض ، وحيث نزل القرآن فى هذه الأرض ، وحيث بزغ ضوء الإسلام فى هذه الأرض ، بل لتمتد فى نفس المسلم وعقله إلى أبعد من ذلك إلى يوم أن أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل حيث بدأت فى هذه البقعة أمة التوحيد منفصلة عن كل حرف وبدل وشعر . أمة بدأت برجل وامرأة وطفل . فى أرض فلاة لتتشكل من جديد هذه الأمة التى قامت فى الصحراء (ربنا ليقيموا الصلاة) . هذه أمة التوحيد والعربية التى امتدت جذورها حتى أخرجت محمداً ﷺ خاتماً النبيين ، وقد أوحى إليه القرآن خاتم الرسالات والكتب ، ومهيمناً عليها ، وحيث جاء بالإسلام دعوة الرسل جميعاً من لدن نوح إلى محمد إلى (لا إله إلا الله)

ومن حول هذا البيت الحرام من مكة انطلقت قافلة البشرية إلى كل مكان على وجه الأرض ، ذلك أن الكعبة فى أبحاث القدامى والمحدثين هى (صرة الأرض) وهى نقطة البدء فى أمر البشرية كلها .

وحين تراجع ما كتب القدماء تجد ذلك واضحاً جلياً ، فهم يجمعون على أن مكة هى أم القرى جميعاً .

وإن الله عز وجل قد خلق موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض ، وأنه قد أعطى مواثقاً لهذه القرية بالأمن من الخوف والإطعام من الجوع ، وأنها منذ ذلك اليوم وإلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فهى (الحرم الآمن)

(أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) .

ولقد أشار رسول الله ﷺ إلى مكانة مكة فى كلمته التى ودع بها مكة عند الهجرة :

« أما والله إنى لأخرج منك وإنى لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله وأكرمها على الله ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت . يابنى عبد مناف إن كنتم ولاة هذا الأمر من بعدى فلا تمنعن طائفا يطوف ببيت الله عز وجل أى ساعة شاء من ليل أو نهار .

وعبارة رسول الله عند الفتح أيضاً تكشف عن مكانة مكة .

وقف رسول الله عند الحجون وقال :

« إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة لا تحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ولا يعضد فيها شجراً وأنها لم تحل لأحد كان قبلى ولا تحل

لأحد كان بعدي وما أحلت لي إلا ساعة من نهار ، ثم إنها من ساعتي هذه حرام لا يعضد شجرها ولا تلتقط ضالتها إلا لمنشد » .

وحين استعمل رسول الله (عتاب بن أسيد) واليا على مكة قال له : هل تدرى على من استعملتك ، استعملتك على أهل الله » .

هذه مكة : قبلة أهل الأرض جميعاً .

وهذه صورتها كما رونها كتب السيرة والتاريخ .

واليوم تجيء أبحاث العلماء وكتاب العصر ورجال الآثار والحفريات لتؤكد هذا كله وتصدقه ، فهي في تقدير العلماء أنها الأرض التي إذا عاد إليها أي إنسان شفته من أمراض النفس والجسم ، فإن في جوها وهوائها ومائها ما يعطى الجسم الإنساني حاجته ويرد إلى النفس الإنسانية شبابها ، وإن كل إنسان له مكان يستروح فيه نفسه . ليس على وجه الأرض مكان غيره ولكل الناس مكان آخر يستروحون فيه هو (مكة) أرض الله حيث الكعبة المشرفة والبيت الحرام .

ومن نظر علماء الجغرافيا أن مكة نقطة إلتقاء عالمية وأن بها يمر خط يقسم العالم كله والكرة الأرضية إلى قسمين . وأنها نقطة إلتقاء لكل خطوط الطول والعرض .

وسوف تكشف أبحاث العلماء والجيولوجيين في القريب حقائق أخرى تؤكد ماذهبت إليه كلمات النبوة وما أثر عن مكانة مكة في العالم كله .

فكيف يمكن إزاء ذلك كله أن يقال أن العرب قبليين ، أو أن العرب والمسلمين لا يولون وجوههم شطر الصحراء . وكيف يصدق الناس وأمامهم حقائق التاريخ العالمي بأن العرب لم يدخلوا التاريخ العالمي إلا عندما خرجوا من الصحراء ودخلوا في حوض المتوسط .

لقد كانت للعرب آثارهم الواضحة بالإسلام فهو الذي كونهم وشكلهم وهداهم وأنشأ منهم أمة وهو الذي أعطاهم مجد الرسالة التي حملوها وهم الذين غيروا الخريطة الجغرافية للعالم كله ، وقسموا البحر الأبيض قسمين ، وأزاحوا مخلفات حضارة ألف سنة للرومان في سنوات قليلة ، فبدا كأن لم يكن هناك بقية لسان أو دين أو عقيدة .

ذلك هو الإسلام : الفكر ، والعقيدة . التي أزالت وثنية الفرس وعبودية الرومان وألقت إلى البشرية مفهوم الحرية : حرية النفس والعقل والجسم . فقد حرر الإسلام البشرية من العبودية والوثنية والبداوة وأنشأ مجتمعاً وحضارة جديدين لم يمكن للبشرية قبل كل منهما شيئاً ، وكفى به

أنه أطلق العقل البشرى والنفس البشرية من قيودها حول الأوثان حين دعاها إلى توحيد الله والإيمان بحياة أخرى وراء الحياة .

وبعد فإن الحقائق كلها تدل على أنه قد جانب المستشرق العربي الصواب فيما قال فإن المسلمين ان يتخذوا من الغرب قومهم ، ولا من البحر المتوسط وجهتهم وهم يعلمون أن الوجهة لله الحق وحده ، وأن الغرب اليوم الذى يعود إلى وثنية أشد فتكا من وثنية الجاهلية حين يؤمن بالعجل الذهبى ويصطرع حول الأهواء والشهوات ويعيش تلك الحياة المدمرة بالصراع والتمزق . هذا الغرب ان يكون قبلة ما . لأى إنسان بشرى فى عقله قدر ولو قليل من الذكاء أو فى قلبه شطر ولو ضعيف من الايمان . ذلك لأن الغرب المارق اليوم فى أزمته فى حاجة إلى أن يهدى إلى قبلة أخرى غير الوثنية ، والمادية ، والاباحية ، وليس هناك قبلة يمكن أن يهتدى إليها إلا قبلة التوحيد الخالص : قبلة الإسلام ، حيث يولى الكثيرون فى الغرب الآن وجوههم نحو الكعبة . بعد أن سقطت الأقنعة وظهر الزيف وانكشف الخداع .

• • •

الفصل السابع

الطريق إلى وحدة إسلامية شاملة

في سبيل تحقيق هذا الهدف الكبير يجب كسر الحواجز الآتية :-

التبشير - الاستشراق - التغريب - الشعوبية - مخططات الصهيونية والماركسية والوجودية التي ما تزال تسيطر على بعض المناهج التعليمية ، وإذا لم يكن في الإمكان كسر هذه الحواجز فلا أقل من كشف أخطارها ودفع شبهاتها وزيفها الذي يتحرك الآن في أفق الفكر الإسلامي على أنه حقائق ومسلمات .

● اللغة العربية في مواجهة التحدي :

هناك ما يوجه إلى اللغة العربية من شبهات ومحاولات لإعلاء العاميات في البلاد العربية وما يوجه إلى الشريعة الإسلامية من تحديات القانون الوضعي والإيدلوجيات الغربية في نظام الحكم .

وهناك ما يطرح في أفق الفكر الإسلامي من فلسفات توصف بأنها علوم مع اختلاف العلم عن الفلسفة واتصال العلم بالمعامل والتجربة ، دون اتصال الفلسفات بذلك واعتمادها على الفروض والنظريات التي تخطىء وتصيب .

وهناك ما يقدم للمسلمين باسم (الانثروبولوجيا) (دراسة الأجناس البشرية) ومقارنات الأديان وغيرها مما يراد به إعلاء شأن المنصريات أو إعادة طرح مفاهيم الوثنية والتعدد والإلحاد من جديد في أفق الفكر الإسلامي .

وهناك ما يتصل بالعلمانية وإيقاع الصراع بين الدين والعلم من ناحية وبين الدين والمجتمع من ناحية أخرى .

وهناك دعوى التطور المطلق الذي لا يتحرك في إطار ثابت وهو ما يتعارض مع مفهوم الإسلام الذي يقوم على مجموعة أساسية من الثوابت مع الحركة والتحول في الأطراف والفروع .

وهناك محاولة وضع العروبة في مقابل القوميات الغربية وفرض مناهج القوميات الغربية

وانطرياتها على العروبة فى علاقاتها بالإسلام والعالم الإسلامى ، من أجل زلزلة الوحدة الفكرية القائمة بين المسلمين جميعاً والتى يربطهم بها سناد لا يمكن تجاهله أو عزله وهو القرآن الكريم العربى اللغة ، ومع أن المسلمين يؤمنون تماماً بأنهم أمة واحدة وأن الإسلام وعاء العروبة وأن العرب مادة الإسلام وأن العرب لم يكونوا أمة إلا بالإسلام ومن قبله كانوا قبائل متفرقة .

هذه كلها هى العقبات التى تجدها فى الطريق إلى الوحدة الإسلامية الشاملة ، وهى صخور اجتمعت فى فترة ليست بقصيرة ، جمعها الاستعمار والصهيونية والمذاهب الهدامة جميعاً ، حتى لا تقوم الوحدة الإسلامية بعد أن ظن الاستعمار أن عقدها قد انفرط بالمؤامرة الكبرى التى قام بها حين أسقط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ م ، وكان الظن أن إسقاط الخلافة من شأنه أن يقضى على الوحدة الإسلامية ويجعل من العرب والفرس والترك والهنود المسلمين قوميات متصارعة متعادية ، بل لقد حاول الاستعمار ذلك ودعا إليه وأعاد صياغة تاريخ الفكر الاسلامى والأدب العربى على أساس الإجناسى فأعاد الغزالى إلى إيران والفارابى إلى تركيا وهكذا .

• • •

ولقد نشأت فى هذه السنوات الخمسين مدارس وفلسفات ومذاهب تحاول أن تقيم (قوميات) فى كل البلاد الإسلامية تعلى من شأن تاريخها القديم السابق الإسلام ، ولقد سارت هذه الدعوات بقوة النفوذ الأجنبى ولكنها عجزت أن تحقق شيئاً ، ومن أجل تمزيق وحدة الاسلام كان لا بد من تمزيق وحدة العرب ، وقد جرت الدعوة إلى الفرعونية والفينيقية والأشورية والبربرية وغيرها فى مختلف الأقطار ظناً أن ذلك سوف يرد المسلمين والعرب إلى ماضيهم البعيد متجاوزين حاضرهم وماضيهم القريب ، ولكن الأمر لم يحقق شيئاً فقد تبين أن الاسلام قد (جب) التاريخ القديم كله وجعله فى عداد الأثريات والمتاحف فلم تبق لغة ولم يبق أدب ولم تبق أى قيم يمكن أن تشكل فلسفة تقوم عليها دعوة إقليمية أو انتماءات لنحلة قديمة .

بل لقد ظهر ما هو أبعد من هذا من الدلائل التى تدحض الأهداف القائمة وراء هذه الدعوات ظهر أن الفراعنة والأشوريين والبابليين والفينيقيين إنما هم عرب خرجوا من قلب الجزيرة العربية فى موجات وانبثوا فى البلاد ، وقد أكد هذه الحقائق عشرات من المؤرخين وكشف عنها عديد من الباحثين ، وبذلك تحطمت تلك المؤامرات التى أريد بها تمزيق هذه الأمة إلى قوميات متعادية ، وظهر أن الإسلام بعد أربعة عشر قرناً (اكتمل بعد سنوات قليلة) قد شكل نفسية ومزاج وعقل وروح وذاتية هذه الأمة تشكيلا لم يعد فى الإمكان إخراجها منه وأن ما سبق الإسلام من دعوات وأديان وفكر وثقافة إنما كان أصلح ما فيه وأجود ما يستفاد منه هو ما صيغ فى الاسلام : الدين الخاتم ، وأن ذلك الجيد كله إنما هو من نتاج الأديان السماوية المنزلة التى هى واحدة فى أصولها ومصادرها ، وهدفها يتركز فى دفع الانسان إلى الخير والنور وبنائه على الخلق والنبل ، ولذلك فقد

استوعب الإسلام كل ما في الأديان السماوية التي سبقته من قيم الحرية والعدول والبر والإخاء وأعاد صياغتها من جديد في دين الإنسانية الأخير .

ومن هنا فقد كان لا بد أن تخطو الأمة الاسلامية خطواتها مرة أخرى إلى الوحدة والالتقاء والتقارب والتضامن ، فذلك أمر هو من طبيعة الأشياء ومن سنن الكون ، فهذه أمة واحدة جمعتها إرادة الله باسم القرآن وتحت لواء الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، ثم جاء الاستعمار الحديث موجة من موجات الصراع الذي عرفه الإسلام منذ فجره ، وقد سبقته موجات الصليبيين والفرنجة والتتار ، وغيرها من موجات .

وجاء الاستعمار الحديث ليحاول تمزيق هذه الأمة إلى أمم ودول وأقاليم يقيم بينها الحواجز ويحمل في كل قطر دعوات تختلف وتتعارض ، ويعلي من شأن التاريخ الإقليمي ، ويذكر بالآثار القديمة والحفريات ، ويحاول أن يثير الخلافات المذهبية ويبعث النحل ، ويحاول أن يقيم الأعراف القديمة وتحويلها لجعلها شرائع وقوانين ، كل ذلك جرى وأعانه التغريب بنفوذه في محاولة تمزيق جبهة هذه الأمة تمزيقاً أفقياً بالعنصرية ورأسياً بالنحل ، وعمل من داخل كل تمزيق تمزيقاً آخر ، وتمكن من تحقيق ذلك كله وترك آثاره في واقع الحياة الاجتماعية والسياسية ، ولكنه لم يجد موضع اقتناع من أحد .

لقد كذبت الحقائق الشبهات وزيفت الأصالة الأوهام ، وكشف ضوء النهار عن دسائس الليل ، لقد وعت الأمة الإسلامية نفسها وعرفت أعداءها وعرفت من أين تأتي الأهواء والرياح السموم وبقى عليها أمر واحد هو الإرادة ، فبناء الإرادة هو القادر على أن يزيح بقايا التبشير والاستشراق والتغريب والشعوبية ، وأن يواصل كشف زيوف المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية والماركسية .

لقد قضى الاستعمار على الوحدة الاسلامية التي كانت تمثلها الخلافة تحت لواء الدولة العثمانية من أجل تحقيق المطامع الكبرى التي كانت تجيش بها حركة الاستعمار والحركة الصهيونية معاً ، كان الهدف القضاء على الوحدة العربية التركية المتمثلة في الدولة العثمانية من أجل توزيع هذه الأجزاء العربية على الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى (فرنسا وانجلترا) .

ولكن كان هناك هدف آخر هو تسليم فلسطين لليهود ولم يتحقق ذلك كله إلا بإسقاط الوحدة الاسلامية الممثلة في دولة الخلافة . وذلك تاريخ يجب أن يروى ويعرفه شبابنا ولكن المسلمين بعد سقوط الخلافة وزوال الوحدة الرسمية لم يتوقفوا عن العمل ، ولم يتوقفوا عن التنادي

إلى اللقاء ، وقد شغلهم الاحتلال بأنفسهم سنوات قليلة ، ولكنهم ما إن تنبهوا حتى أعادوا اتصالاتهم على المستويين العربي كأمة ولغة والاسلامي كفكر ودين ، ومن يراجع وقائع التاريخ يجد أنه في الفترة ما بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٥٠ عقدت عشرات المؤتمرات وتمت عشرات اللقاءات وكانت فلسطين في الحقيقة هي محور هذا التحرك كله ، ولكنه كان تحركاً واعياً عارفاً بأبعاد الخطر وأن القوة المضروبة هي الوحدة الاسلامية ، وأن كل محاولات الدعوات الإقليمية والقومية ودعوات التجزئة إنما تستهدف (غياب) هذا الهدف وحجبه ونسيانه ، ولكن هل خلا منهج جمعية إسلامية أو منظمة أو دعوة من الدعوات من الاشارة إلى الوحدة الاسلامية ، ذلك ما لم يحدث ، ولقد عاش المسلمون يتطلعون إلى الوحدة مرة أخرى حتى عندما اشتدت تيارات القوميات الاقليمية لتجرف كل شيء في هذه الساعات الحالكة ظل بريق الوحدة الاسلامية ينفذ من ثنايا الغرف المظلمة ، ويعلن عن نفسه وعن وجوده وعن أنه حي لا يموت ، ذلك لأنه مساير لسنن الحياة وأن محاولة هدمه هي في ذاتها معارضة لهذه السنن .

• • •

الفصل الثامن

منطلق الوحدة الإسلامية الشاملة

كان من أخطر توصيات الندوة الإسلامية العالمية التي عقدت في مكة المكرمة غرة ذي الحجة ١٣٩٣ وحضرها أكثر من أربعمائة من أعلام الفكر في العالم الإسلامي كله : تلك التوصية التي دعت إلى العمل على تحقيق وحدة الفكر الإسلامي كله : كمقدمة للوحدة الإسلامية الشاملة

وقد صيغت هذه التوصية على نحو دقيق عميق على النحو التالي :

(توصي الندوة الإسلامية العالمية بضرورة الإسراع في العمل لتوحيد الأمة الاسلامية واتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الوحـــدة بكل أشكالها الثقافية والاقتصادية والسياسية على أن يكون الفكر الاسلامي هو الدعامة الأساسية التي تقوم عليها هذه الوحدة) .

وقد فصلت التوصية منطلق العمل حين أشارت إلى ضرورة الانطلاق من وحدة الفكر والثقافة بين المسلمين إلى وحدتهم الشاملة ، وفي هذا المجال يجب إعادة النظر في جميع مناهج التربية والتعليم بما يحقق وحدة هذا الفكر ويجعل كل مواد الدراسة في خدمة للعقيدة الاسلامية وأهدافها .

ومن الحق أن يقال أن منطلقنا الأول في مواجهة كل الأخطار والتحديات التي يعيشها مجتمعنا الاسلامي اليوم إنما يبدأ من نقطة التعليم والتربية والثقافة : التعليم للطلاب والتربية للشباب والثقافة للآباء والأبناء جميعاً ، ذلك أنه لا سبيل إلى مواجهة الأخطار إلا ببناء أجيال جديدة تفهم أبعاد هذه الأخطار وتقدر مدى أثرها ، وتعرف أعماق أرضاعها وتلمس أغوار نتائجها .

ويكفينا في تقدير أهمية ذلك ما نعرفه جميعاً من أن الاستعمار نفسه حين بدأ في محاولة الإحاطة بنا والسيطرة علينا واجتياحنا واحتواء فكرنا وعقائدنا وأمتنا فإنما بدأ من عمل الارساليات التي بثها في أبرز أجزاء العالم الاسلامي على هيئة مدارس ثم كليات ثم جامعات وحرص على الدخول فيها بالمجانية وجذب إليها بعض الكبار والأعيان بالنظام والنظافة والإغراء فاستطاع أن يغري كثيراً من أعيان الناس على إدخال أبنائهم وبناتهم في هذه المعاهد .

ومن ثم استطاع أن يحتوي الطبقة الحاكمة والمسيطرة وجماعة النخبة من القوم في أغلب الأماكن فأخرج أبناءهم وهم المؤهلون لوراثة السلطان والحكم ، أخرجهم على مناهج جديدة لا تؤمن بالفكر

الإسلامي ولا تستمد منه ، بل ربما كانت قد تشكلت على نحو يجعلها تكره الاسلام وربما تحتقره وتنقصه ، وذلك أخطر ما واجهنا ، ثم كانت المدارس الوطنية التي نشأت في كثير من أجزاء العالم الاسلامي مع الأسف تابعة لهذه المدارس التبشيرية فاستعارت أغلب مناهجها وخطت وراءها ، وكان ذلك هو الشر الذي يؤت لهذه الأمة الكبيرة الذي دبر لها .

وهو الذي أنشأ برج بابل الجديد ، وأقام أتباعاً لكل ثقافة فكل من ورد بلداً غربياً فهو تابع ليس للثقافة الغربية وحدها ولكنه تابع للثقافة الاقليمية لهذا البلد ، ألمانيا أو فرنسا ، أو انجلترا ، أو هولندا وكندا .

وأصبحت هناك ثقافات ماركسية ديمقراطية وشرقية وغربية ، وقد تصارعت كل هذه الثقافات المتعددة مع الثقافة الأصلية التي حرص الاستعمار على إبعادها وتجميدها والحيلولة دون امتدادها الى مجالات النفوذ والسلطان .

ومن هنا كان ذلك الصراع ، وكانت تلك الاتجاهات المختلفة الى وحدة الرأي والفكر حتى لو أن إنساناً قدم موضوعاً ما على بساط البحث على مائدة يطالب بالرأي فيه لوجد وجهات متباينة قومية النظر فيه : أدبيه وعلميه وفقهيه وماركسيه ووجوديه وديمقراطيه وإقليميه ، كل منها يحاول أن يدافع عن وجهة نظره وفق ما علمته إياه إرسالياته وكل يحاول أن ينطلق من تخصصه الجزأ ، ذلك لأن الفكر الغربي بانشطاريته المعروفة قد خلق لكل دارس وجهة نظر منطلقة من تخصصه ، ولقد حالت مناهج التعليم الغربية دون إقرار وحدة الفكر الاسلامي ، والانطلاق من مفهوم متكامل جامع يكون الأدب فيه جزء من الفكر ، ويكون العلم واحداً من منطلقات الفكر ويكون الترابط فيه واضحاً بين القلب والعقل والروح والمادة والدنيا والآخرة .

ولقد يعرف المثقفون الباحثون جميعاً أن الحملة التغريبيه انطلقت من منطلق مدارس الارساليات ومعاهدها ، هذه التي رسمت مناهجها على أساس إبعاد الاسلام عن مجاله الحقيقي في المجتمع والنظر إليه على أنه دين عبادي ، وذلك في محاولة لقص أجنحته من مجالات التأثير الاقتصادي والاجتماعي والتربوي والقانوني وخلق أجيال تؤمن بأن (الدين لله) وهي عبارة مسمومة باطلة ، فالاسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، والدين في مفهومنا الصحيح جزء من الاسلام .

كذلك انطلقت مناهج الارساليات تفرض مفهومها معارضاً تماماً لما يعرف المسلمون ولما كانت عليه معاهدهم ومناهجهم ولما تلقوه من قرآنهم وعقيدتهم ، ومن خلال هذه النقطة انطلقت الدعوة إلى أشياء كثيرة :

(أولا) إلى التشكيك في القرآن والوحي والنبوة .
(ثانياً) إلى محاولة افتعال الشبهات حول التاريخ الاسلامي والانتقاص بطولاته .

(ثالثاً) إلى إيجاد العلاقات وتعميقها بين المفاهيم المتكاملة المترابطة .

(الإسلام والعروبة ، الدين والدولة ، العقل والقلب ، العلم والدين)

لقد صيغت مناهج مدارس الإرساليات على نحو دقيق يستهدف إخراج المتعلمين فيها من المسلمين من دينهم ، وذلك بالدعوة إلى طرح مجموعة ضخمة من الأساطير والقصص القديمة والوثنيات ومفاهيم الهيلينية والغنوصية والباطنية ومحاولة النظر إلى الإسلام من خلال مفاهيم مقارنة الأديان ليست ترى إلى فهم الأديان على حقيقتها بقدر ما تحاول أن تقدمه تفسيرات الأديان للبشرية ، وخاصة في مجال اليهودية والمسيحية ، وهو في مجموعه لا يصلح المقارنة مع أصول الإسلام الأصلية الثابتة التي لم تتغير ونصه القرآني الموثق .

• • •

ولقد كانت المرحلة التالية الخطيرة هي أن مناهج الإرساليات هذه بكل صورها . صياغتها الهادفة إلى معارضة الإسلام قد استقدمت إلى المدارس الوطنية في أغلب البلاد التي سيطر عليها الاستعمار واتخذت مناهج لها ، ومن ثم انحسر مفهوم الإسلام انحساراً كبيراً من هذه المناهج وبرزت مفاهيم أخرى تحاول أن تصور الإسلام بأنه دين عبادة معزول عن تيارات الفكر .

وكان أخطر ما تمثل في هذه المرحلة أن علوم الطب والقانون والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية مما يدرس في مختلف الكليات الجامعية قد قدم على أنه نتاج غربي خالص .

حدث هذا في نفس الوقت الذي تشهد كل الأبحاث العلمية الجارية على أن المسلمين الذين قدموا أوليات المسلمين هذه الدراسات والعلوم جميعاً .

وإذا كان الغرب قد تجاهل دور المسلمين في أوليات هذه العلوم ، فقد كان - ليقاً بمدارس العرب والمسلمين أن لا تتجاهلها وأن تورد في صلب مناهجها أن المسلمين هم الذين كان لهم القدح المعلى في المنهج التجريبي وفي علوم الطب والفلك والقانون وغيرها .

وأنهم قدموا أصولا عامة لا تزال هي الأساس لكل ما قدمته البشرية من بعد دراسات في هذه المجالات ولقد كان من شأن تجاهل هذه الصفحة وإنكار هذه القضية أن يخرج الشباب المسلم من مداره الوطني وهو مؤمن كل الإيمان بأنه وقومه عالة على الغرب ولم يكن الأمر كذلك مطلقاً ولن يكون ، ذلك أن قومه كانوا هم أصحاب السبق والقدح المعلى في هذه المجالات وأن الدراسات الإنسانية المعروفة اليوم إنما بدأت بالقرآن الكريم وأن المسلمين هم الذين صاغوا أصولها على النحو الذي بدأت به ربانية المصدر واتجهت به إنسانية البشرية .

غير أن الغربيين لم يلبثوا أن ترجموا هذه العلوم والآثار وحولوها إلى إطارهم وحركوها داخل طوابعهم الوثنية المادية المستمدة من الهيلينية ومن ثم أخذوا ما وافقهم وطرحوا ما لم يجدوه متمشياً مع روحهم العام ، فلما جاءت اليقظة الإسلامية وأرادت أن تراجع المعطيات وجدتها خالية من الاتجاه الإسلامى فضلا عن تجاهل أهلها لأصولها التى أخذوها من المسلمين .

كل هذا كان له أثره الواضح القوى فى مناهج المدارس الوطنية فى العالم الاسلامى وبالتالى كان له أثره فى تشكيل أجيال ليس لها اتجاه إسلامى عميق صادق ، ومن ثم فقد كان ذلك منطلقاً إلى إفساح الطريق إلى الغزو الفكرى الغربى .

ذلك أن النفس الإسلامية وجدت نفسها فى فراغ إزاء هجوم الحضارة الغربية ولم تجد لديها من الحصانة والحماية ما يحول بينها وبين الاحتواء الغربى .

كانت منطقة الفراغ لا تزال تجعل النفس الاسلامية التى لم تلقن فى مدارسها بذلك العطاء الاسلامى القرآنى معرضة للغزو قابلة للاستهواء إذا ما واجهتها المناهج الغربية وأغلبها متصل بالهوى والرغبة والمطمع الذاتى وتطلعات الحس .

وقد صادف هذا الفراغ النفسى ذلك الغريب المتقبل دون أن يجد حصانة أو حماية ترد الغث والشر والضلال ، فكان ذلك التقبل الخطير للغزو الثقافى ، ولذلك فإن وحدة الفكر الاسلامى الذى اجتمع المسلمين اليوم على أصول عامة واضحة هى العامل الحقيقى الفعال فى دفع هذا الشر المطروح بقوة فى أفق الفكر الاسلامى وفى نطاق المجتمع الاسلامى .

وانطلاق وحدة الفكر الاسلامى من مناهج المدرسة التى يجب أن تصدر أساساً من القرآن وتمتد إلى فروعها المختلفة ، اقتصاداً وقانوناً وسياسة وتربية ، فلا يكون الاسلام مادة تسمى (مادة الدين) وإنما هى روح عامة تنتظم كل الدراسات جميعاً وتستمد منها هذه الدراسات منطلقها وهدفها .

وهكذا تبدو توصية وحدة الفكر الاسلامى كنطاق للوحدة الاسلامية الشاملة هامة وخطيرة وعلامة على طريق نرجو أن يلتقى عليه المسلمون فى هذه المرحلة كمقدمة لكل تصورات ، وكأداة لتحقيق رسالة الاسلام بتقديمها إلى العالمين .

الفصل التاسع

الوحدة الإسلامية والشبهات المثارة حولها

من أبرز الأهداف التي عملت لها قوى الاستعمار في العالم الإسلامي بعد سيطرتها على مقدرات هذه الأمة: الحيلولة دون التقاء أجزائها في وحدة سواء وحدة جزئية أو وحدة شاملة .. ولقد حرصت على إلقاء بذور الخلاف والفتن بين الأقاليم المتجاورة، وإثارة أسباب البغضاء والشحناء حتى لا يجد هذا الكيان الواحد أسباب الالتقاء مرة أخرى بين عناصره المتكاملة.

ولقد بدأ العمل أولاً في المجال السياسي عن طريق سيطرة الاستعمار على أنظمة الحكم وتوجيهها هذه الوجهة، ثم بالسيطرة على برامج التعليم ومحاولة خلق صورة إقليمية خاصة قائمة على الجغرافيا وبث روح الاستعلاء المتصل بالوطن والأرض. ثم من ناحية أخرى إعلاء التاريخ القديم السابق للإسلام في كل إقليم عن طريق تشجيع بعثات الآثار على التنقيب عن الحضارات القديمة في مصر الفرعونية وفي الأردن البتراء وفي الشام الفينيقية وفي العراق الأشورية، ثم العمل على إحياء العنصريات والأعراق والدماء والتنافر بها بين عربية وبربرية وكردية وزنجية. والاتجاه بعد ذلك إلى إثارة الخلافات القديمة بين المذاهب الإسلامية.

ولم يكن هذا العمل نظرياً محضاً، أو جارياً في طريق التعليم والثقافة وحدها بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك، ففي المغرب كان العمل يقتضي إحياء المحاكم القديمة التي كان يحتكم إليها إخواننا البربر قبل الإسلام، وإحياء اللهجات العامية وربطها بالفرق فنجد العامة ترابط إلى حد كبير بترجمات الكتب المقدسة، واجد اللهجات المختلفة في البلاد العربية ترابط بالدعوات القديمة. كل هذا كان من خطط الاستعمار للحيلولة دون إلتقاء العالم الإسلامي مرة أخرى على وحدته الأولى التي هي من طبيعته ووضع الحواجز المتعددة دون هذا اللقاء، وقد جند لذلك كل قوى الاستشراق والتبشير ومناهج التغريب والشعوبية، ومن هنا نعرف أن تطور الفكر الإسلامي في العصر الحديث لم تكن له الارادة الخاصة في الانطلاق نحو غايته منذ ظهرت حركة اليقظة في الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر ذلك أن الاستعمار عمل في الجانب الثقافي من ناحية تربية أجيال تؤمن بالاقليمية وتعلي من شأن الوطنيات. ولقد كان الاستعمار نفسه الذي سيطر على العالم الإسلامي منذ وقت وأتم سيطرته في نهاية الحرب العالمية الأولى وإلى عام ١٩١٨ يضع في تقديره كأساس فكرة التقسيم والتمزيق حتى أن إحدى الدول الغربية وقد كانت تحتل أربعة أقطار عربية في وقت واحد كانت تتخذ في كل قطر سياسة مختلفة في مناهج التعليم والثقافة والتاريخ على نحو من شأنه أن يقيم أسباب الخلاف والخصومة بين الأجزاء المتجاورة التي لم تكن قبل الاحتلال إلا عالماً واحداً لا سبيل إلى الفصل بين أقسامه.

ولقد جعل كثير من المستشرقين وكتاب الغرب ذلك الخوف البالغ من التقاء أجزاء العالم الإسلامي في وحدة جامعة ، وذلك أمر طبيعي بالنسبة لمستعمر يريد أن يستنزف مقدرات هذه الأمم دون أن يعاون بعضها البعض على مقاومته غير أن الاستعمار وجد من العالم الإسلامي مقاومة لم تهدأ ، ومجالدة لم تتوقف . بالرغم من عجز المسلمين عن مواجهة القوة العسكرية التي كان يفرض بها المستعمر نفوذه وسلطانه ولكنهم قدموا أرواحهم شهداء في سبيل تأكيد هذا الحق . حتى تراجع الإستعمار عن خططه وأخذ في التماس سبل أخرى من الاغراء والخداع . لاستمرار بقائه ، ولكن ما كادت بعض الأقطار أن تجد حريتها حتى التفتت إلى جيرانها وأخذت سبيل الاتصال بها .

وفي أشد أوقات المحن وإقامة الحواجز الصفيقة بين أقطار المسلمين (وأقطار البلاد العربية بالذات) كانت الاستجابات للأحداث قوية مدوية بالرغم من كل حجر أو معارضة ، وكان الشعر والأدب يحطم السدود وينفذ من وراء الأسلاك الشائكة مقرراً أن هذه القيود ليست إلا وسائل مصطنعة لا تستطيع أن تحجب الحقيقة التي تملأ المشاعر ولقد ظل المغرب العربي بأقطاره الثلاثة (تونس والجزائر والمغرب) مقفلا في وجه المسلمين والعرب من جيرانه إلى أوائل الخمسينات ومع ذلك فقد كانت الصحف الممنوعة تصل بين أحمال الابل إلى أقصى مكان فيه وكان رجاله الراغبون في الحج أو طلب العلم بالأزهر يقطعون مفازة الصحراء في الشمس الحارقة أياما طويلة وذلك بالرغم من كل حدود وسدود .

وكان من الطبيعي أن يعود المسلمون إلى الالتقاء بالروح والفكر بالرغم من كل ما حاول الاستعمار أن يغذيه في النفس الإسلامية والعقل الإسلامي من أسباب الاقليمية الوطنية الضيقة ، ذلك لأن ما أراده الاستعمار مخالف لطبيعة الأشياء معارض للفطرة ولكن الاستعمار لا ييأس في سبيل تمزيق هذه الوحدة ومن شأن تداخلاته أن يحول دائماً دون السير الطبيعي للأمة إلى هدفها فهو ما يزال عن طريق قراه وأدواته الفكرية مسيطراً على الثقافة والتعليم والصحافة في بعض أجزاء العالم الاسلامي يعمل من جديد على إثارة الشبهات وتزييف الحقائق .

ولقد حاولت قوى اليقظة أن تصحح كل ما يأتي إلى أفق الفكر الاسلامي من شبهات وزيوف ولكن جعبة التغريب لا تفرغ أبداً ، وهي قادرة على إعادة تشكيل شبهات قديمة في صورة جديدة ولكن قوى الحق قادرة دائماً على كشف خداعها والحق أقوى حجة وأبين دليلا .

وفي مجال إثارة الدعوات القديمة السابقة للإسلام في محاولة لرد البلاد الاسلامية إلى تاريخها الوثني الجاهلي القديم بإحياء الفرعونية والفينيقية والبربرية والآشورية وغيرها كشفت وقائع التاريخ أن هذه الأمم التي عاشت في مصر وشواطىء سوريا وغيرها لم تكن إلا موجات هاجرت من جزيرة العرب وأن الرابطة بينها وبين العرب قوية وثيقة في لغاتها التي لم تكن إلا فروعاً من اللغة العربية القديمة التي يحفظها وعاء دعوة إبراهيم عليه السلام حين تشكلت في أرض مكة أمة التوحيد من إبراهيم وهاجر واسماعيل ، ثم أصهرت الى جرهم ، واتصلت القحطانية

بالعدنانية ومضت لتغير تلك الأمة التى نزحت بالهجرة فنقلت اللسان إلى هذه المناطق الواسعة إلى ما بين النهرين وسواحل الشام وأفريقيا حيث كانت توسد ركيزة لحركة الاسلام الواسعة التى جاءت من بعد ، فقد جاء الاسلام مجدداً للحنيفية دين إبراهيم ، وقد كشف الكثير من الباحثين فى اللغات ذلك التقارب الواضح والعميق بين اللغة العربية وبين اللغة الفرعونية القديمة واللغات الفينيقية وغيرها.

ولما انكشف هذا المعنى زال ذلك الزيف الذى أثاره الاستشراق ودمر ذلك الركام الطويل العريض من الدعوة إلى الفرعونية على أنها معارضة الإسلام وكذلك الدعوة إلى الفينيقية والبربرية ، ذلك أن هذه الأمم قد ذابت فى الإسلام عقيدة وفكراً ولغة ولم تعد لها صلة بماضيها . لقد جب الاسلام ما قبله وأقام منهجاً جديداً أنسى الأمم تاريخها السابق وصحح مفاهيمها وعقائدها وحررها من الوثنية القديمة وعبادة الفرد وعبادة الأوثان وحررها من العبودية عامة ، وأقامها على شرعة العدل والحق . فما عادت تتطلع إلى ظلام الماضى . لقد وجد الذين حملوا لواء هذه الدعوات فى حماسة فى أول الأمر أنه ليس فى أيديهم شىء ما يمكن أن يقدم منهاجاً يجمع حوله الناس فلم يبق من الفرعونية فى أيديهم ثقافة ولا لغة ولا عاطفة ولا تراثاً من أى نوع يمكن أن يكون خيطاً موصلا لمثل هذه الدعوات ، ومن هنا فقد تراجع هؤلاء الدعاة تحت تأثير الفشل الذريع وكشف الدكتور محمد حسين هيكل وكان فى مقدمة الدعاة إلى الفرعونية عن هذا المعنى حين قال « كنت كمن يضع البذر فى الأرض والأرض لا تنبته » .

وقال : إنه وجد أن هذا الاتجاه لا يحقق شيئاً لمصر ولا ينهض بها وأنه بعد تجربته الأخرى بترجمة الفكر الأوربى وفشلها يجد أنه لا سبيل لاحياء هذه الأمة والنهوض بها إلا عن طريق واحد هو طريق الاسلام وفكره ووحدته ولقد عاش ما بقى من حياته داعياً إلى ذلك المعنى مؤمناً به .

كذلك فيما يتعلق بإعلاء شأن (الوطنية) وهى صيحة ما تزال عالية فى بعض أجزاء البلاد الاسلامية والعالم العربى والاسلام لا ينكر الوطنية ولا ينكر صلة الأرض ويدعو إلى الدفاع عن الأرض لأنها مركز الدعوة ولكنه ينكر المبالغة والجزئية وينكر أن تكون الأرض وحدها هى الهدف مع أنها جزء من مفهوم كامل واسع قوامه : (الأرض - الأمة - الفكرة) .

ولقد تعالت بعد صيحة الوطنية فى العالم الاسلامى صيحة القومية وكما نقلت مفاهيم الوطنية الغربية وهى خاصة ببلادها كذلك نقلت نظريات القوميات الغربية ، وقد دافع عنها الكثيرون وحاولوا إقناع الناس بها ، ثم تبين أنها ليست البذر الذى ينبت فى أرضنا ، ذلك لأن لكل قوم مفهوم الأمة والمسلمون أقدم من الأمم الغربية نظراً فى هذه الأمور ، وقد رسم لهم منهجهم الخالد الذى لا يفنى ولا يزول : (القرآن) مفهوم الأمة والقوم ، ومفهوم اللقاء بين الشعوب للتعارف والترابط وجعل روح ذلك اللقاء بين الأمم والشعوب هو (التوحيد) هو أعلى ما فى عناصر اللقاء فلا بأس من الوطنية

كجزء والأمة كجزء ولكن الفكرة هي الاطار الأكبر ، فاذا أصاب الامم داء الاختلال والفرقة الذي فتتشبث بالأرض والوطن ، فإذا تحررت فعليها أن تلتقي في كيان الأمة . مقدمة لتكامل وجودها بالفكرة والعقيدة وهي روح الوجود السياسي والاجتماعي للأمة .

ولقد كان مفهوم (العروبة) في مجال الفكر الإسلامي مخالفاً كل المخالفة لمفهوم القومية العربية ، ذلك أن العروبة في العالم الاسلامي مصدر قوة موجهة ، وطليعة للعالم الاسلامي ، وهي فكراً أكثر منها عنصر وعرق ، فكل من تعلم بالعربية فهو عربي ، والعربية كما أشار الرسول ﷺ هي اللسان، وعلى المسلمين أن يدخلوا فيها أي أن يدخلوا في (عقلية القرآن) التي هي اللغة الفصحى والقرآن دستور الاسلام وأساس العبادة والطاعة .

ولقد كانت العروبة مخالفة للقوميات بأنها ليست حدوداً مغلقة ولا صراعاً ولا عدواناً ولا تطلعاً إلى استغلال من نوع ما ، بل هي نقطة إنطلاق إلى وحدة الأمة الاسلامية فكراً وثقافة واجتماعاً وشريعة .

ولقد حاول التغريب أن يلقي إلى الفكر الاسلامي شبهات حول هذه المعاني في محاولة لتزييفها ولإثارة الاضطراب حولها وعلى كتاب المسلمين تجلية هذه الحقائق باعتبارها الوسيلة الاولى والأساسية في قيام وحدة إسلامية جامعة .

الفصل العاشر

لم ينم المسلمون على الضيم منذ خمسين عاما

منذ أسقطت الخلافة الإسلامية والمسلمون لا يستفيقون إلى هذا الحدث الضخم ولا ينسونه ولا يفرطون في أمره ، ولا يغيب عنهم مدى خطره وجلال شأنه والآثار البعيدة التي ترتبت على وقوعه .

وقد جاء ترتيب الأحداث التاريخية مترابطاً . ففي نفس العام الذي سقطت فيه الخلافة الإسلامية في استانبول قامت الدولة العربية السعودية في بلاد الحجاز باسم الله وعلى دعوة التوحيد الخالص وأعطت بلاد القبلة مكان الصدارة مرة أخرى في قلب الجزيرة العربية التي منها انبعث دعوة الإسلام الأول .

ولقد كان سقوط الخلافة الإسلامية عملا بعيد المدى من أعمال المكر السياسي والدهاء الاستعماري والتآمر الصهيوني البالغ القسوة والعنف ، والقادر في ذلك الوقت على تحريك الأحداث حينما كان المسلمون والعرب يمرون بفترة من أقصى فترات ضعفهم وتخلفهم .

كان سقوط الخلافة أملا يراود القوى الاستعمارية وعملا يجرى الترتيب له والاعداد منذ أعوام ، من أجل القضاء على هذه القوة السياسية والاجتماعية الجامعة للمسلمين القائمة برباط — مهما بدا واهنا من الناحية السياسية — فإنه كان من الناحية الفكرية والمعنوية بعيد الأثر عميق الشأن .

كان ترتيب إسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق الدولة الاسلامية التركية الجامعة للعرب والمسلمين (عملا) يجرى التخطيط له بين مختلف القوى الطامعة في المنطقة : (إنجلترا وفرنسا وروسيا) وكانت الصهيونية العالمية من وراء ذلك كله تمد نفسها السيطرة على فلسطين .

وكانت مواقف السلطان عبدالحميد الحاسمة وتصرفاته السياسية البارعة قد أرهقت القوى الأجنبية وصارعتها ووضعت الخلاف بين صفوفها ، حتى اجمعت خطتها الجامعة على التخلص من السلطان ومن الخلافة ، وجاءت الصهيونية العالمية فدعمت هذا الاتجاه وعملت على تحقيقه بعد أن تبين لها موقف السلطان من أهدافها في الوصول إلى فلسطين وموقفه الحاسم في معارضته ذلك بخطابه التاريخي المشهور الذي رد به على العرض الخطير الذي تقدم به اليهود بدفع خمسين مليوناً من الجنيهات إلى

خزينة الدولة وتسديد ديونها حيث قال رحمه الله .

« إن ديون الدولة ليست عاراً فغيرها من الدول مثل فرنسا مدين . ليحتفظ اليهود بأموالهم فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمى وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام .

« إن بيت المقدس قد افتتحها الإسلام عمر بن الخطاب ولست مستعداً لأن أتحمل فى التاريخ وصمة بيعها لليهود ولا خيانة الأمانة التى كلفنى المسلمون بحملها » .

من خلال هذا الخطر الصهيونى كانت محاولة إسقاط الخلافة الاسلامية التى بدت حجر عثرة فى وجه التوسع الاستعمارى والمؤامرة الصهيونية معاً . ذلك أن السلطان عبد الحميد كان قد رفع لواء الدعوة إلى الجامعة الاسلامية كسلاح فكرى وسياسى للتجمع الاسلامى للعالم خارج نطاق الدولة العثمانية وبزعامة خليفة المسلمين ، ولذلك فقد اشتملت نيران الحملة على فكرة الجامعة الاسلامية وأصبحت من الاهداف الاستعمارية التى جرى ضربها فى كل مكان وخاصة فى مصر عن طريق الصحافة التى قادها المارون من خريجى مدارس الارساليات وأعوان الاستعمار والصهيونية جميعاً .

كانت الدعوة إلى الجامعة الاسلامية أساساً هى فكرة السلطان عبد الحميد وكان جمال الدين الافغانى قد حمل هذه الفكرة من منطلق آخر هو منطلق الدعوة الحرة ، وكان عمل السلطان له مخططه وإمكانياته السياسية والعسكرية . فقد أطلق الدعاة إلى مختلف أجزاء العالم الاسلامى يحملون فكرة الجامعة الاسلامية ويدعون إلى اتحاد المسلمين فى وجه الخطر المتربص والمندفع فى نفس الوقت لتمزيق العالم الاسلامى ، وهدم الدولة الاسلامية العثمانية وإسقاط الخلافة .

وكانت أعمال السلطان عبد الحميد تجرى فى مختلف المجالات لدعم الروابط بين أجزاء العالم الاسلامى والتقريب وحدته ، وكانت عملية إنشاء سكة حديد الحجاز فى مقدمة هذه الاتجاهات العصرية الرائعة لأهمية المواصلات فى الربط بين أجزاء العالم الاسلامى . ولقد كان الاستعمار واعياً لمدى الخطر من تحقيق مثل هذا المشروع الذى كان سقوط السلطان عبد الحميد مرتبطاً بإتمامه فى عام واحد .

وكانت الدعوة إلى الاقليميات والعصبيات وإحياء الاجناس والأعراق والدماء فى مقدمة الخطط التى أعدت لمواجهة دعوة الجامعة الاسلامية ، وقد بدأها مستشرقون ورجال مشبوهون من أجناس غريبة عن العرب والمسلمين وحملوا لواء هذه الدعوات إلى قلب الدولة العثمانية واستعانوا من أجلها بالفرق الضالة وفى مقدمتها (الدونمة) المجتمعة فى سالونيك والتى دخلت فى الاسلام زيفاً لتحقق من وراء ذلك مؤامرة هدم الاسلام وإسقاط الخلافة .

ومن ثم تأججت الدعوة إلى الطورانية وذهبت إلى أبعد الحدود فى مجافاة الاسلام وكراهية العرب والقضاء على التاريخ الطويل ، وكان التأييد الاجنبى الغربى من وراء محافل الماسونية وركائز

الارساليات قد قام بدور كبير فى الاعداد لهذا العمل الذى ظهر بعد إسقاط السلطان عبد الحميد على نحو واضح الهدف والاتجاه فى خدمة الصهيونية والاستعمار والاجهاز على الدولة العثمانية الاسلامية وإلغاء الخلافة

إن ما وقع عام ١٩٢٤ من إسقاط الخلافة الاسلامية لم يكن وليد الساعة ولا ابن اللحظة ولكنه كان نتيجة تخطيط طويل المدى جرى فى أبعاد مختلفة وأيدته قوى كبرى حتى حقق غايته فى ذلك العام .

كان إسقاط الخلافة الاسلامية هو خاتمة حلقات متتابعة من معارضة الجامعة الاسلامية وتمزيق الدولة العثمانية الاسلامية والوقيعة بين الترك والعرب ثم كانت النهاية هى إسقاط الخلافة .

ولقد أحس المسلمون بمدى الخطر العظيم لهذا الحدث ، وعرف مفكرو المسلمين كيف كانت قوة الحدث نفسه فى تنظيم تجمع المسلمين فى المجال الفكرى بعد أن ضرب تجمعهم السياسى

ولكن رد الفعل كان بعيد المدى وأقوى مما التقطته عيون المراقبين السياسيين .

ذلك أن الخلافة الاسلامية لم تلبث أن أصبحت ركنا أساسيا فى كل حركة إسلامية ودعوة إسلامية وكانت ثالثة العقائد على حد تعبير أحد الأئمة المسلمين ، فلم يغفل عنها المسلمون لحظة وما وهنوا فى سبيل الدعوة إليها على نحو من الأنحاء .

ولكنهم كانوا دائما يذكرون تلك اللحظة التى يتاح لهم فيها العودة إلى الحديث عنها والعمل لها ، وظلت الخلافة الاسلامية — عنوانا على التضامن الاسلامى والرابطة الاسلامية والأخوة الاسلامية الجامعة — أملا كبيرا تجرى فى سبيل تحقيقه عقول كثيرة وتدور أبحاثه فى عدد من المؤتمرات العالمية الاسلامية

واليوم والأمل يتجدد فى التقاء المسلمين على وحدة الهدف والصف وقد بدأت ترتفع على أقلام الكتاب وعلى ألسنة الزعماء كلمة الخلافة الاسلامية متجددة كأمل يجمع المسلمين ويربط بينهم ، فإننا نجد أن ذلك قد جاء بأسرع مما كان يتصور المتشائمون من أعداء هذه الأمة ومن أمثال الكتاب التابعين للغزو الفكرى والتغريب الذى كتبوا تحت عناوين من أمثال قولهم (غروب الخلافة الاسلامية) وقد بلغ ببعضهم التعصب والحقد وكراهية هذه الأمة الى حد أن يقول فى آخر كتابه : (وهكذا غربت الخلافة الاسلامية إلى الأبد) .

وهى عبارة حاقدة ، وليست علمية ، وبعيدة عن التقدير الصحيح للأمور . الذى يتسم به المؤرخون القادرون على دراسة أحداث تاريخ الاسلام وأطواره ، والحركات الاسلامية التى تظهر فجأة دون أن تكون مقدماتها قد عرفت . إلى غير ذلك وقائع من تاريخ الاسلام التى تجعل هؤلاء مثلا للسذاجة وموضوعا للسخرية وتدل على قصر نظرهم التاريخي وتكشف عما تشوبه قلوبهم من

أحقاد على أمتهم ، وما يجرون وراءه إرضاء المستشرقين وعملاء التغريب بمثل هذه العبارة الساذجة .

ومن عجب أن يرون ذلك كله ولا يصيبهم الخزى ولا يطأطئون رؤوسهم ذلة وخسة على جرم العلمى والفكرى فضلا عن عدم قدرتهم على التمسك بسلامة نفوسهم إزاء أمر هو شرف لها ورفعة .

نعم لقد جاء اليوم الذى عادت فيه الأحاديث مرة أخرى - ليس بين كتاب المسلمين وحدهم ولا بين دعاتهم ، ولكن بين القادة إلى طرح فكرة الخلافة مرة أخرى ! بينما نجد عديداً من المشروعات البديلة للخلافة من أمثال فكرة كومنولث إسلامى إلى فكرة جامعة إسلامية إلى فكرة تضامن عام .

وكلها تستهدف تحقيق الغاية الكبرى فى جمع كلمة المسلمين وقيام ذلك الرباط القوى بينهم مرة أخرى بعد أن تراخى قليلا فى السنوات الخمسين هذه السنوات التى شهدت عشرات من الأبحاث والمشروعات والدعوات إلى وحدة المسلمين ، والتى حملت عملا ضخما واضح الحدود والدلالة ، يجرى الآن فى طريقه إلى الغاية البعيدة يلتقى فى منهجه أغلب دول العالم الاسلامى ، وتمضى خطط العمل فيه إلى الغاية الكبرى .

نعم لم يستنم المسلمين منذ سقطت الخلافة الاسلامية إلى تقبل هذا الحدث الضخم ولكنهم عملوا منذ اليوم الأول وما زالوا يعملون حتى أمكن القول بأنهم بعد خمسين عاماً يجدون أنفسهم على الطريق .

• • •

الباب الثانى

الدعوة الإسلامية

الأول : الدعوة الإسلاميـــة	الثانى : فى مواجهة الغزو والتغريب
الثالث : تيار الأصالة وتيار التبعية	الرابع : حركة اليقظة وحركة الاحتواء

الفصل الأول

الدعوة الإسلامية

تتمثل الدعوة الإسلامية فى ثلاث دعائم : الجماعة الإسلامية والأزهر وكتاب الإسلام ولم تتوقف الدعوة الإسلامية عن العمل يوماً واحداً خلال تاريخ الإسلام كله ، وفى العصر الحديث وبعد أن دخل العالم الإسلامى فى مرحلة الضعف والتخلف كانت الدعوة إلى تجديد الإسلام وتحريره من التقليد والجمود تنطلق فى كل عصر وعلى أيدى أعلام الإسلام ودعاته ، وإذا كانت الدعوة إلى التوحيد التى قادها محمد بن عبد الوهاب قد أصبحت بمثابة العلامة الحقيقية لليقظة فى العصر الحديث فإن هذه الدعوة قد انطلقت على ألسنة كثير من الدعاة فى جامع الأزهر فى القاهرة وفى اليمن وفى أجزاء كثيرة من عالم الإسلام ، غير أن الدعوة الوهابية ما لبثت أن أصبحت (أماً) للدعوات لأن قيامها قريباً من مسقط رأس الدعوة الأولى عرف بها الكثيرين ممن وردوا مكة فى موسم الحج فكانت حركة أحمد بن عرفان فى الهند الإسلامية وحركات السنوسية والمهدوية فى إفريقيا ، وكانت بعد ذلك حركات جمال الدين ومحمد عبده والدعوات التى أطلق عليها إسم الإخوان والشبان وشباب محمد وما أطلق عليه إسم السلفية فى سوريا والعراق والجزائر وتونس ومراكش .

غير أن هذه الدعوات جميعاً وقد قامت بدور مزدوج فى تحرير الإسلام من الزيوف والتقاليد والبدع والخرافات والعمل فى نفس الوقت على مقاومة النفوذ الاستعمارى الذى كان قد سيطر فعلا على أجزاء كثيرة من العالم الإسلامى وألغى حكم الشريعة الإسلامية ونظام التربية الإسلامية وأقام نظاماً غريباً قائماً على القانون الوضعى والأنظمة الغربية السياسية والاقتصادية .

غير أنه بعد أن سقطت الخلافة الإسلامية فى تركيا وانتهت الدولة العثمانية ، انبثقت الدعوة

الإسلامية عن إنجازين كبيرين : أحدهما قيام الدولة الوهابية الجديدة فى الحجاز والاستيلاء على الأراضى المقدسة ، وبذلك أصبحت دعوة التوحيد هى المفهوم الأصول للمسلمين جميعاً الذين يعتبرون البيت الحرام قبلتهم . وكان ذلك عملا بعيد الأثر فى تحرير عقيدة الإسلام من جبرية التصوف الفلسفى ومن الانحرافات التى كانت سائدة فى بعض أقطار الإسلام .

أما الإنجاز الآخر : فهو دخول الدعوة الإسلامية مرحلة الحركة فقد ظهرت فى مختلف الأقطار العربية والإسلامية الجماعات والهيئات الاسلامية التى قامت على أساس التربية الاسلامية وبناء الأجيال وكان أبرز معالم هذه الظاهرة فى الهند وأندونيسيا وفى العالم العربى ، وخاصة العراق وسوريا ومصر والسودان ، وكانت أبرز هذه الجماعات الشبان والاخوان المسلمين وشباب محمد .

وقد نمت هذه الظاهرة واستوعبت شباب المسلمين فى أجيال متعددة امتدت من ١٩٢٦ إلى ١٩٤٩ تقريباً عندما اصطدمت هذه الحركة بالخصومة الشديدة للاستعمار والنفوذ الأجنبى والأحزاب ، ثم بدأت مرحلة من أقسى مراحل التصفية والاضطهاد التى واجهتها هذه الحركة ، فقد أثيرت حولها مجموعة ضخمة من الاتهامات التى ظن الذين بيدهم مقاليد الحكم أنها أصبحت من الخطورة بحيث يخشى أن تفرض على الأنظمة الليبرالية الغربية نظام الاسلامية فى السياسة والاقتصاد والقانون والتربية .

ولذلك فقد تآزرت القوى المختلفة فى سبيل تصفيتها والقضاء عليها والتنكيل بقياداتها ، ويعد تقرير كيفاير : المستشرق الألمانى وثيقة تاريخية فى تحديد دور هذه الظاهرة فقد تساءل يقول : هل جمعية الشبان المسلمين تعمل وحيدة فى الميدان أم هناك اتجاهات أخرى ، وهل هذه الحركات من الكثرة والقوة بحيث تسمح لنا أن نتكلم عن اتجاه عام للفكر الاسلامى فى مصر .

ويقول : إننا نجد الاسلام يتبوأ مكانته السامية فى مظاهر الحياة العامة فى مصر فى دستورها وحياتها النيابية وفى تشريعها وتعليمها العام ، وتبدو ملامحه واضحة على كل صور الحياة الاجتماعية ، وأن ما يبرر سيرها فى سبيل الرقى بالاتجاه وجود عاملين متضامنين : أولهما الميل إلى قواعد الاسلام الوثيقة ، وثانيهما سعة النظر بحيث تقبل ما فى الحياة الحديثة من مستحدثات مما يدل على الاستعداد للتجديد المعقول . فالدستور المصرى يقول إن دين الدولة الاسلام ، وقد ظهر دستور ١٩٢٣ وحل محله دستور اكتوبر ١٩٣٠ ولكن تلك المادة لم تتغير ، ولقد تناقش أعضاء مجلس النواب فى تعديل بعض تفاصيل الشريعة الاسلامية فيما يختص بالأوقاف والقضاء طبقاً لأحكام الدين ما زال قائماً والقسم الدينى الذى يعزى أصله إلى الوحى السماوى ما برح قائماً أيضاً وفى مناقشات البرلمان للقوانين الدينية يظهر الأعضاء عظيم احترامهم لمبادىء الاسلام ، وقد قام مدافعون شديدوا الحماسة عن تلك المبادىء كلما سنحت الفرصة .

ولقد وجهت جمعية الشبان المسلمين احتجاجاً فى ديسمبر ١٩٣٠ لما وجدت أن النظام العام للتعليم قليل الاهتمام بالتعليم الدينى ، ولا أظن والحركة العامة فى مصر كما وجدنا أن نرى وزارة تستطيع أن تقرر طرح للمبادىء الصحيحة التى تسود مناهج التعليم التى وضعتها .

وقال : نرى أن المنشآت الدينية توسع نطاق نشاطها بالتدريج ، فهناك الجامع الأزهر ، وهناك المجلة التى تأسست منذ سنين : مجلة نور الإسلام (مجلة الأزهر فيما بعد) وهى التى تحوى دراسة جدية لتعاليم الإسلام والمعضلات العلمية والخلقية والتاريخية والفلسفية التى تتصل بتلك التعاليم لكى تصل إلى رأى عنها صحيح متين .

وأشار كيفابر إلى مشروع تقوية التضامن الإسلامى الذى أعدته جمعية الشبان المسلمين ومشروع تأسيس بنك إسلامى ، وجمعيات تعاونية إسلامية وتأسيس صحيفة إسلامية يومية ، وما تضمنه برنامجها من العمل على تعميم اللغة العربية فى البلاد الشرقية وتكوين عصبة أمم إسلامية لحل المنازعات الإسلامية وتشجيع المسلمين على إعادة الخلافة وإنشاء مدرسة لعلم القرآن فى كل جمعية وإيجاد الكشافة الإسلامية ، والدعوة إلى جعل أحاديث النبى الصحيحة موضع التثقيف الدينى وجعل التعليم ودراسة التاريخ الإسلامى عامين فى المدارس ، والدعوة إلى سن تشريع يمنع البغاء والخمر والميسر ومنع التبرج وغشيان الأماكن المفسدة للأخلاق واتخاذ الروايات التمثيلية الإسلامية وتفسير القرآن عن طريق لجنة من رجال ذوى جدارة ، قيام علماء المسلمين بكتابة موسوعة إسلامية وتأسيس لجنة علمية لمقاومة الإلحاد وأرسل مندوبين لإفحام ودحض شبه المبشرين فى اجتماعاتهم ، مع التمييز فى القانون بين الطعن فى الدين وحرية التفكير .

وأشار كيفابر إلى أن الجمعية بحثت موضوع إعادة الخلافة الإسلامية ، وقررت اتفاق الأعضاء على أن إحياء الخلافة الإسلامية بحيث يجب أن يكون أمنية كل عضو من جمعيات الشبان المسلمين وأن عليه أن يعمل على تحقيقها متى سنحت الفرصة وأدخل إلى ميثاق الجمعية ما يختص بعودة الخلافة ، وهو ما اقترحه السيد محب الدين الخطيب .

و (المادة – ٢) من الميثاق تتكلم بشكل عام عن الرئاسة العظمى (الامامة) فى الاسلام والتى يجب على أعضاء الجمعية توجيه همهم لإحيائها .

قال : إن الموقف الذى اتخذته الجمعية حيال مسألة الخلافة يدل على حالة الرأى العام الشرق الأدنى فى هذه الحالة التى حركت الشرق حركة قوية بسبب إلغاء الأتراك الخلافة العثمانية زمنياً (نوفمبر ١٩٢٣) ونهائياً (مارس ١٩٢٤) .

ولقد كان هذا المعنى واضحاً فى تشكيل الإخوان المسلمين وفى مختلف الهيئات الاسلامية فى هذه الفترة وظل من الأهداف الأساسية طاجياً يتمثل فى الدعوات المختلفة والمتعددة إلى الوحدة والاتحاد والتجمع والتضامن التى برزت من بعد وامتدت إلى اليوم .

وغاية ما يمكن أن يقال بالنسبة للدعوة الاسلامية التي بدأت في هذه المرحلة (مرحلة ما بين الحربين) إنها نمت واستحصدت بعد الحرب العالمية الثانية وبرزت واضحة في أكثر من موقف وخاصة في قضية فلسطين الذي شاركت فيها كتائب الدعوة الاسلامية وكشفت عن قدرة واضحة عميقة كان لها أبعد الأثر في العمل على احتوائها والقضاء عليها .

لقد كانت الدعوة الاسلامية في هذه التجمعات تختلف اختلافاً واضحاً عن تجمعات الأحزاب إذ كانت تقوم على أساس التربية والتكوين النفسي والاجتماعي الذي يعد بمثابة مرحلة جديدة تختلف عما كانت عليه من قبل أو أصبحت هناك تجمعات مؤمنة تستعد للجهاد في سبيل دفع الغزاة عن الوطن الاسلامي وتفهم واجبها في إعادة بناء المجتمع وفق شريعة الله وفي مواجهة الصهيونية والشيوعية والاستعمار وتقديم نموذج على الجماعة السياسية تختلف كثيراً عن نظام الأحزاب التي عرفت بالفساد والاضطراب .

يقول دكتور حسن حنفي : كانت جماعة الاخوان في وسط الصورة التي كانت في أذهان الشعب عن الأحزاب من فساد ومصالح ذاتية وأطماع شخصية ومعارك جانبية تمثل صورة أخرى هي الحزب النظيف ، وقد بقيت الجماعة لهذا حتى بعد حل الأحزاب ، لأنها ليست حزب كـكل الأحزاب (ألا إن حزب الله هم الغالبون) .

وكان الحزب الاسلامي الذي مثلته الجماعة أكبر رد فعل تاريخي على ظاهرة اللامبالاة عند المسلمين الذي عرض لها الكواكبي في أم القرى فقد تحول الدين من عقيدة إلى حركة جماهيرية وأصبح الاسلام غذاء الجماهير اليومي . ولأول مرة جند الاسلام الجماهير بهذه القوة وهذا الاتساع ، حتى لتعد الجماعة جزءاً من الحركات الشعبية التي ذخر بها العالم الاسلامي .

وبهذا امتازت على غيرها من الدعوات التي لم تخرج عن دائرة المثقفين الضيقة أو نطاق الكتب والنظريات حيث أصبح الدين لمصلحة الجماهير ، وقد أثبتت الجماعة وجودها في معاركنا الوطنية وعلى رأسها معارك القناة ١٩٥١ (وأقول أن هذا هو العمل التاريخي الثاني بعد معركة فلسطين ١٩٤٨) فقد كان متطوعوها في الصفوف ، وكان شهداؤهم يودعون إلى مثواهم الأخير من الجماعة والشعب ، وكان الاستعمار يهاب هذا الجند المسلح الذي يسترخص الموت ، وقد كان شعارهم (الموت في سبيل الله أسمى أمانينا) ومن عاشر الجماعة في فلسطين ١٩٤٨ يذكر أيضاً فدائيي الجماعة وكيف كانوا يقذفون أنفسهم في المعارك وفي قلب المستعمرات الصهيونية على خلاف مقررات الجيوش .

والواقع أن صورة الاستشهاد في فلسطين هي التي هزت دوائر الاستعمار ودفعت القوى الصهيونية والاستعمارية والشيوعية على التكتل في سبيل القضاء على هذه التجمعات في الآلاف ضربات كبرى

(١٩٤٨ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٤) وجهت إلى الدعوة الإسلامية وحجبت كلمة الله سنوات طويلة وأفسحت المجال للفكر المادى والوثنى والاباحى الذى حمل لواءه دعاة التغريب والشعوبيون والماركسيون .

كان مفهوم الدعوة الإسلامية بوصفها تحقيق إقامة المجتمع الربانى فى الأرض والسعى لبناء الحياة من أجل أن تكون منطلقاً إلى الآخرة وإقامة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل والتكسب بالأمانة والخلق وأداء حق الله وعمل الخير والبر وبث تعاليم الإسلام فى أفراد أسرة المسلم وفى أمته وفى كل من يلقاه والجهاد فى سبيل تبليغ رسالة الله والنصيحة فى سبيلها هو الطابع الغالب الذى انتشر فى كل أرض الإسلام وقامت من أجله جماعات مختلفة وتشكيلات متنوعة وخاصة فى أنحاء البلاد العربية كلها ومن ثم نشأ جيل جديد غذى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية بالاخلاص والايمان والرحمة وانتشرت بذلك الدعوة أصدق مفهوم الإسلام بوصفه ديناً ونظام مجتمع ومنهج حياة وإن ظل التطبيق الاجتماعى قاصراً على جماعات قليلة .

غير أن الدعوة إلى تطبيق الشريعة الاسلامية وإقامة الحدود وتوجيه العمل الاجتماعى وجهة خالصة لله والعمل على إقامة نظام التربية الاسلامية والتصدى لكل الدعوات الضالة والمنحرفة والهدامة ومقاومتها وكشف زيفها وخاصة دعوة الشيوعية والصهيونية وبث روح الجهاد فى سبيل تخليص الأرض الاسلامية من الغزو الصهيونى والشيوعى وقد أعان على إتساع رقعة الدعوة أنها كشفت زيف النظامين الرأسمالى والماركسى وأبانت فسادهما وعجزهما عن خلق مجتمع جديد ومن هنا كانت حملة القوى الاستعمارية والغاصبة عليهما شديدة ومستمرة لقد كانت هذه القوى تؤلب الحكومات على أهل الدعوة الاسلامية وتدفعها إلى مقاومتهم .

هذا وشأن كل الدعوات نشأت فصائل غالية ومنحرفة لا تمثل مفهوم الاسلام الأصيل وكانت فى وجهتها وما تدعو إليه لا تمثل العمل الاسلامى الكريم القائم على التعبير بالحكمة والموعظة الحسنة وتقدير الزمن فى التعبير والتماس الأسلوب المشروع فى الدعوة إلى الله والعمل على تطبيق النظام الاسلامى فى مجال التشريع الاسلامى بديلا للقانون الوضعى وفى مجال التربية بديلا عن أنظمة التعليم الوافدة وفى مجال الاقتصاد والاجتماع .

ولقد كان للأزهر و (المؤسسات التعليمية الاسلامية فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى كالرابطة الاسلامية والقرويين ومراكز تجمع العلماء فى البلاد العربية) أثراً واضحاً فى كشف زيوف الفكر الغربى الوافد تحت اسم الاستشراق والتغريب وكان لجماعة من كتاب المسلمين دورهم الواضح فى حمل لواء حركة تصحيح المفاهيم التى مكنت الدعوة الاسلامية من مواجهة الفكر الليبرالى الغربى والفكر القومى والاقليمى والفكر الماركسى ، فقد نشأت أجيال جديدة من العلماء درسوا الفكر الغربى وقارنوا بينه وبين الفكر الاسلامى وكشفوا فساد الأخذ به فى المجتمعات الاسلامية

وفى هذه الفترة وقف كثير منهم وقفات صامدة فى وجه النفوذ الأجنبى والتغريب والشيوعية وقدموا دراسات حية قوية تكشف عن منهج الاسلام فى الحكم والسياسية والاجتماعية والاقتصاد والتربية .

وكان من مقدمة من رفعوا صوتهم عالياً بمواجهة الفكر الماركسى والغربى محمد أبو زهرة ومحمد الغزالى وعبد الوهاب فايد ومحمد المبارك وسيد قطب ومحمد قطب ومحمد محمد حسين ومحمد البهى ولقد كشفت فى هذه الفترة زيوف كثير قدمها طه حسين وعلى عبد الرازق وزكى نجيب محمود وأشار كثير من الباحثين الغربيين إلى هذا الدور الذى قام به الأزهر فى مواجهة تحديات التغريب ، فقال أحدهم أن الأزهر فى نظر علماء الشعوب والاجتماع هو المدرسة الوطنية التى تربط الأمة بماضيها وإن كان ينقصها ربط الحاضر بالماضى وتلقين جيل اليوم ما كان خلفه من دين ولغة وعادات قومية فى حكم الشعوب وخلقية ، وهو لهذا كان ولم يزل مكمن الخطر على الاستعمار الغربى وعلى سياسته الاسلامية كما يراه الغربيون أنفسهم الذين تخصصوا فى السياسة وفى فلسفتها .

وقد بحث أرنست كريك الأستاذ بجامعة هيدبرج فى المجلة العلمية السياسية الألمانية عن بيان صلة الأزهر بالاسلام وعلى الخصوص بالحركات الوطنية فى الشرق .

ويرد الكاتب الحركة الوطنية التى قامت ضد السيادة الفرنسية فى تونس ومراكش والجزائر إلى الأفراد الذين غلبت عليهم الدراسة الوطنية الإسلامية وعلى الاخص أولئك الذين تلقوا علومهم فى الأزهر فى رأى الكاتب وفى رأى كثير من أمثاله أن الأزهر هو منبع الخطر على السيادة الأجنبية فى الشرق كله .

ولقد كشفت أبحاث علماء الاسلام الذين نشأوا على فهم الدعوة الاسلامية ديناً ودولة ومنهج حياة عن دعوة صادقة إلى إعادة صياغة المناهج التعليمية من جديد وفق روح الاسلام والتخلص من المناهج التقليدية الحالية المصوبة بروح الارساليات الأجنبية وسيطرة النفوذ الأجنبى منذ أيام الاحتلال الغربى وما تبعه من استشراء أساليب الغرب فى الفترة الأخيرة .

وقد ارتفعت الأصوات معلنة أن الأزمة الحقيقية الحاضرة فى الاسلام هى أزمة التعليم كما دعت إلى أسلمة الاعلام وأجهزته وإلى إعادة المجتمع العربى إلى أصوله الاسلامية وكشف الدكتور عبد الحليم محمود عن التحدى الذى يواجهه الأزهر فيحول بينه وبين أداء رسالته كان وذلك نتيجة لعدوه عن إمتلاك إرادته فى الأوقاف الخاصة به .

يقول : لقد كان موقوفاً على الأزهر ما لا يكاد يحصى من أموال وكان الأزهر يعيش فى حدود أوقافه كريم النفس رافع الرأس وكان صدر الحاكمين يضيق أحياناً لما كان لهم فى إخضاع

الأزهر من سبيل من ناحية الرزق ، وقد أخذ الحاكمون فى عصر دولة محمد على يحتالون الأمر حتى امكنهم بالمكر والخديعة أن يستولوا على أوقاف الأزهر ويعطوه مالا من خزانة الدولة يضيق عليه سنويا ولا يساير الدولة نمو الأزهر وتطوره وأصبح الأزهر فى ضيق يزداد ضيقاً كل عام .

وأما أوقاف الأزهر التى أخذت منه بالمكر والخديعة فإنها شرعاً ما زالت له لأن أوقاف البر لا تؤخذ هكذا ، ولا يغير مصرفها وكل هؤلاء الذين استولوا عليها إنما يأكلون حراماً ومن يأكل حراماً لا يقبل الله منه عملا وأن الرجل ليقذف باللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمله أربعين يوماً كما يقول الرسول ولا يتقبل الله ممن يأكل أوقاف الأزهر ولابد من رد مال الأزهر إليه حتى يكون البركة ويكون النماء وهذه الأوقاف ثابتة فى حجج ومازالت هذه الحجج محفوظة .

وكما اغتصبت دولة محمد على هذه الأوقاف فانها يجب أن ترد ثانية وأشار إلى دور الأزهر فقال انه حين حدث ما حدث فى تركيا بإزالة الخلافة تطلعت العيون إلى الأزهر إذ كان لا بد للناس من أب روحى ونظروا إلى شيخ الأزهر على أنه شيخ الاسلام واحتلت مصر منذ ذلك الحين مركز الزعامة فى العالم الاسلامى ، ولقد قام الأزهر طيلة قرون فى وجه الزحف الفكرى ليعلن للناس رسالة الله آخر الرسالات صافية نقية وهذه المكانة للأزهر يعترف بها المستعمرون والمبشرون يقول أحدهم أن العمامة البيضاء فى أفريقيا أخطر علينا من القنبلة الذرية (من بحث نشر له فى أغسطس ١٩٧٤).

ويقول : أن هناك عوامل كثيرة تكاتفت على النزول بالأزهر عن مكانته وأهمها الاستعمار والتبشير إذ كان لابد فى نظر أعداء الإسلام من هدم الأزهر وبدأت عوامل الهدم : بدأت السخرية بعلماء الأزهر فى التمثيليات . بدأ ذلك فى التمثيليات وفى الأفلام وفى الصحف وفى المجلات ، وكان المثل الصارخ تلك القصة التى كتبها أحد كبار الكتاب بفرنسا واتخذ من قس فيها مجالا لسخريته وتهكمه فإذا التليفزيون يخرجها أياماً متوالية متخذاً منها شيخاً مجالا لتهكمه وسخريته ولم يجد المخرج من يقول له : أن هذا انحراف ولم يعاقبه أحد ولم يسىء إليه إنسان .

وهذه الأقلام المأجورة التى تكتب هنا وهناك من التشكيك فى الدين وفى القيم الأخلاقية وفى الهجوم على التشريع الالهى . انها لا تجد من يقول لها : أنك أقلام مأجورة ، أقل ما يمكن أن يزجوا فى السجن لتخرس منهم الألسن . ان لكل بلد مقدسات ومن مقدسات أمريكا مثلا النظام الرأسمالى ومن مقدسات روسيا النظام الشيوعى ، وهذه المقدسات لا تمس . أليست العقيدة من المقدسات التى لا تمس ،

إن المنحرفين عقيدياً والمنحرفين أخلاقياً والمنحرفين اجتماعياً على اختلاف ألوانهم يسرحون ويمرحون كيفما شاءوا في الأقطار العربية فلا يجدون من يردعهم وتتكاتف الأقلام المأجورة والأقلام المستوردة أو المنحرفة ووسائل الاعلام في العمد على التشكيك في العقيدة والقيم والأخلاق والتهريج الرباني ونشر انحلال الأخلاق بكل الطرق :

وهذه الآراء المستوردة التي تتنافى مع الدين ومع الفضيلة والتي يروجها اليهود في كل مكان . هل تجد من يقف في وجهها ؟

لقد تنبؤا لنجاح كارل ماركس ، ولما قيل له أن الناس لا يعيشون بغير عقيدة قال أن البديل الدين هو المسرح ، الهوم بالمسرح ، أنشروا المسرح في كل مكان فيجد فيه الناس البديل عن الدين ثم إن الشيوعية عقيدة ومعاول الشيوعية تنال من الدين في كل مكان تسود فيه الشيوعية ولقد رأى اليهود نجاح كل مفاسد : نيتشه وفرويد ودارون ووقف الأزهر في وجه كل ذلك .

أن تكاتف المبطلين على النيل من الأزهر في الاذاعة والتليفزيون والصحف هو المحنة التي يواجهها الأزهر .

ما هو الأزهر : إنه الممثل للإسلام القائم على نشره . إنه رمز الاسلام فإذا أهين الأزهر رمز الاسلام أهين الاسلام نفسه ، أ هـ .

(٣)

ولقد واجه الأزهر حملات ضخمة من الاستعمار والاستشراق ومن كتاب التغريب بل أنه واجه حملات عنيفة من متخرجيه أمثال : طه حسين وعلي عبد الرازق وقد أشار كثير من الباحثين تحت عنوان (الغارة على الأزهر) لماذا قال أن الغارة عليه هي جزء من الغارة على مراكز القيادة السياسية للمسلمين وقد بدأت بالحملة على الخلافة التي أسقطها مصطفى كمال أتاتورك الذى وصف بأنه يهودي ماسوني أو على الأقل من الدونمة وبعد إلغاء الخلافة الاسلامية في تركيا كانت المحاولة موجهة نحو الأزهر ، لقد سقطت الوحدة السياسية في العالم الاسلامي حيث كانت القوميات كلها متجمعة في دولة واحدة هي دولة الاسلام ثم أصبح المسلمون دولا متعددة وشعوباً . متفرقة .

ثم كان بعد ذلك العمل على تفرقة الوحدة الفكرية الاسلامية وهي الأزهر لقد تفرغ

أعداء الإسلام لحرب القيادات الشعبية الإسلامية بهدف (١) العمل على منع قيام أية وحدة بين أجزاء العالم الاسلامى ومحاربة قيام أى دولة إسلامية فى أى بقعة فى العالم (٢) القضاء على كل حركة أو جماعة تعمل على بعث العقيدة .

ولقد شن المستعمرون على العقيدة الاسلامية حرباً شعواء : بسلاح التشكيك والتزوير والالحاد .

ولقد قاد رجال الأزهر معظم الثورات الشعبية ضد المستبدين والغزاة والمستعمرين . ثورة الفلاحين ١٧٩٤ ضد نابليون ١٧٩٨ ، ضد محمد على ١٨٣٠ ، ثورة عرابى ١٨٨٢ ، ثورة ١٩١٩ .

وقد رأى محمد على فى الأزهر عقبة قوية تعترض سبيل هدفه فى القضاء على القيادة الشعبية وقد نفى عمر مكرم ومزق وحدة العلماء وأنشأ المدارس المدنية فى مصر من غير الأزهر بعد أن أهمله فقل إقبال الطلاب عليه وبدأت الدراسات فى الجامعات الأوربية التى حلت محلها فى اجتذاب عقلية الوافدين إليها :

ثم كان الدور الذى قام به الانجليز فى فصل التعليم المدنى عن الأزهر وإقامة نظام تعليمى علمانى فى المدارس والجامعات زود بمناهج معاهد الارساليات وإستقدام المبشرين أمثال دنلوب وغيره وتقديم خريجى هذه المدارس إلى مناصب الدولة وحرمان طلاب الأزهر منها وفى مرحلة الغزو الشيوعى فى أوائل الستينات علت صيحة الامتهان للشريعة الإسلامية وتصدر الشيوعيون العرب المراكز الحساسة والقيادية وشنت حملة شعواء على الاسلام والمسلمين والأزهر

وهنا جاء قرار تغيير الأزهر تحت اسم تطوير الأزهر بمثابة تحويل الأزهر بالتدريج إلى جامعة علمانية تهتم بشكل رئيسى بالعلوم الدنيوية وبشكل فرعى وثانوى بالعلوم الاسلامية ، وكان هذا تحقيقاً للخطة التى رسمها الاستشراق والغزو الاستعمارى وكتب عنها طه حسين فى كتابه مستقبل الثقافة ومقالاته الخطوة الثانية ، وكانت الخطوة الأولى فى نظره هى إلغاء المحاكم الشرعية .

وقد عزى هذا المشروع إلى المخطط الشيوعى الذى كان قد فرض على العالم الاسلامى والذى استهدف القضاء على وحدة العالم الاسلامى وإحلال الشيوعية مكانه فقد كان الشيوعيون ينظرون إلى الدين - والاسلام خاصة - على أنه العدو الأول للإشتراكية العلمية ، ولذا فإن الصراع بين الدين والشيوعية كان مستمراً والشيوعية ترى أن فى العقيدة الدينية خطراً على

مخططاتها لأن فى هذه العقيدة من القوى المعنوية ما يعطل المخططات الشيوعية .

وقد لاحظ الشيوعيون بأن الأديان شعارات قومية هى شعارات السلام والأخوة والمحبة والجماعات الدينية قوة تعادل قوتهم على الأقل فى العمل والدعوة إذا أتيح لها مجال العمل وأن الدين مقدرة عجيبة على التطور والصمود ولذا فقد عمل الشيوعيون للقضاء على الدين بطرق غير مباشرة منها إحتواء الجماعات الاسلامية والتحريض على القضاء عليها وتمزيق جبهة الأزهر الشريف والحيلولة دون تمكين كتاب الاسلام أصحاب العقيدة والالتزام من الكتابة — أما تلك الكتابات التى لا تحمل هدفاً فانها متروكة لأنه لا خوف منها ولا أثر لها .

ولذلك كان الشيوعيون يعملون للقضاء على الدين بطرق غير مباشرة تهدف إلى زعزعة العقيدة فى النفوس كخطوة أولى نحو إبعادهم عن دينهم كلية وهى حين تدعى تعايشاً مع الدين فان ذلك من قبيل التدبير المؤقت .

ولقد كانت عملية تطوير الأزهر من الضربات القوية التى نجحت فيها القوة المعادية للإسلام : ماركسية ، وغربية وهى ما يسمى تنقيح الدين وعبارتهم فى هذا القول : أنه لا نفع فى هذه الدعوة (الإسلام دين الاشتراكية) إذا لم يصاحبها تحطيم المنظمات الدينية وصهرها فى بوتقة التحويل فالتنقيح للأديان كما أوصى به لينين يجب أن يصاحبه الهدم لكل قاعدة يمكن أن يتخذها سبيلا إلى الانبعاث والتضامن والتماسك) .

ومن هنا دعوتهم إلى إخضاع المعاقل الدينية فى الجامعات والمؤسسات والجمعيات والمساجد والكنائس لسيادة الشيوعية .

وقد جرت المحاولات لتسخير الأزهر والمساجد الاسلامية لهذه المفاهيم تحت اسم إعداد الفرد الصالح الذى يشارك فى بناء ما أسموه النهضة الثورية التقدمية الجديدة (قانون ٤٤ سنة ١٩٦٢) وذلك فى ظل الدعوى الوافدة التى إنتشرت تحت اسم أن الاسلام دين الاشتراكية وأن محمد ﷺ هو إمام الاشتراكية وأن أبا ذر الغفارى أول الاشتراكيين وكل هذه مفاهيم باطلة كشف زيفها العلماء الأجلاء (وقد كتب الدكتور عبد الحليم محمود فى هذا بحثاً مطولا) .

وقد اشترك بعض الأزهريين الذين تولوا مناصب معينة فى هذه الجائحة التى إنهزمت وانسحقت ومنهم بعض وزراء الأوقاف والارشاد

(٤) كان هدم الوحدة الفكرية الاسلامية هو هدف الاستعمار منذ أيام اللورد كرومر الوصول إلى قلب الأزهر بالتأثير فى البيان الاسلامى واللغة العربية فى مواجهة حجج أصحاب الديانات ، وقد جرت المحاولات للتأثير فى مناهج الدراسة فى الأزهر بالنقص والتقليص حتى لا يستطيع الباحث

الأزهرى النظر فى كتب السلف الكبرى ، وذلك للقضاء على القدرة الذهنية النامية فى التمييز بين الصواب والخطأ فى المناظرة .

ومن ذلك ما جرى فى تلخيص كتب المجادلة والحجاج والدفاع عن الاسلام مثل كتاب الآمدى الذى يرصد الشبهة فى سطر واحد ثم يتعقبها فى أربعين صفحة . هذه الخاصية التى يخافها المستشرقون والمبشرون ويرون أنها تحول دون وصول شبهاتهم إلى صدور المسلمين ، ومن هنا جرت المحاولة لاعدام روح الأزهر واستيفاء قشرة الأزهر وذلك بإعطائهم مذكرات وملخصات تحول بينهم وبين كتب التراث ذات الأصالة .

وقد وضعت خطة التطوير بهدف هدم القدرة الأزهرية فى الدفاع عن الإسلام بتعليم قاصر يحاول دون الاتصال بمناهج السلف مما يعجز الناس عن النظر الاسلامى ويرى البعض أن التطوير كان عملا صليبيا مقصوداً وأنه جاء بعد أن فقد المسلمون إرادة العمل وأنه لم ينجح فى إبقاء اللون الأزهرى ولم ينجح فى الجمع بين اللونين الاسلامى والعصرى .

ويرى بعض الباحثين أن الأزهر قد أخضع منذ عام ١٩٣٦ لتنظيمات عامة إنعكست على تطور مراكز التعليم الدينى فى العالم العربى منذ العدوان على الزيتونة فى تونس والقرويين فى فاس وأن لائحة الأزهر نظمت وفق منهج مستوحى به من الغرب وكانت تستهدف أن يخرج الأزهر من طريقة التعليم القديمة المبنية على الحفظ والاستيعاب إلى القاعة تهتم بالمضمون ، ومن الجدير بالذكر أن تعاليم اللغة والشريعة والفقه تميزت منذ حينئذ بتمزيق ما كان يحيط هذا التعليم من تكامل وأن خطوة تطوير الأزهر جاءت بعد أربعين عاما على نفس الخط الذى طالبت به القوى التغريبية .

ويرى الباحثون أن حركة اليقظة الاسلامية قد مرت بعدة أدوار فى مقدمتها الحركة الوهابية بالجزيرة العربية والحركة الدهلوية بالقارة الهندية وهما حركتان متعاصرتان وإن لم يلتقيا ثم تمثلت فى حركات المقاومة : السنوسية فى ليبيا والمهدية بالسودان ومحمد شامل الداغستانى بآسيا الوسطى وعبد القادر فى الجزائر وعبد الكريم فى المغرب وسعيد الكردى فى تركيا وقد أصيبت هذه الحركة بالفشل والانهزام ثم دخلت الدعوة الاسلامية مرحلة الكفاح ممثلة فى الجماعة الاسلامية بباكستان والشبان والاخوان فى مصر وحركة النورسى فى تركيا ودار السلام بأندونيسيا وندوة العلماء فى باكستان وجماعة الدعوة والتبليغ فى الهند .

وقد صدرت مناهج العمل الاسلامى فى حدود فهم (لا إله إلا الله) كمنهج حياة بمعنى الخروج من مفاهيم الغزو والوثنية والتغريب (لا إله) والخضوع لمفهوم الاسلام الأصيل الجامع بين الدين والدولة (إلا الله) وتحرير المجتمع الاسلامى الواقع من أخطائه وانحرافاته عن طريق الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتكوين أجيال جديدة تحت راية الاسلام على أساس العبودية الخالصة لله وتطبيق الشريعة الاسلامية .

وقد ظهرت روافد من الدعوة الاسلامية حاولت أن تأخذ طريق التطرف أو الانحراف رغب أصحابها إلى التعجل بتحقيق المجتمع الاسلامي بالقوة أو تقبل الواقع القائم في ظل التنظيمات الغربية ونظام الربا وقد اعتبر هؤلاء وهؤلاء أن الطريق الطبيعي للدعوة الاسلامية القائم على بناء الأفراد بالتربية واعتبار الزمن جزء من الاصلاح . معوق أو مؤخر ولهذا إختطوا خططا مندفعة أو منحرفة واستمالوا ببعض التفسيرات والتأويلات ما رأوه موافقا لوجهتهم .

ويرى بعض الدعاة المتمرسين أن طريق التربية الاسلامية هي الطريق الوحيد وأن محاولة استبطاء هذا الطريق قد حققت أضراراً كثيرة ، وأن قيام المجتمع الإسلامي يجب أن يهيئوا له فكرياً وخلقياً تهيئة صالحة تمكن من إحتضان الاسلام والحياة من أجله ، وان أي أسلوب من أساليب العنف أو التأويل لا تستطيع أن تحقق الهدف المقصود وأنه إلى جوار التربية الاسلامية التي تقوم بها الجماعات الاسلامية فإن على الحكومات الاسلامية أن تعين على تحقيق هذا الهدف بإقرار تطبيق الشريعة الاسلامية والتحرر من نظام الربا الغربي ومن النظام التربوي الوافد وأن ذلك من شأنه أن يعطي دفعة لبناء المجتمع الاسلامي الصالح .

على أن يتلاق العملين في إطار واحد : (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) .

• • •

الفصل الثاني

في مواجهة الغزو المثلث

(النفوذ الغربي والصهيونية والشيوعية)

كشفت حركة اليقظة الإسلامية عن الأزمة التي كان العالم الإسلامي والبلاد العربية تمر بها بعد الحرب العالمية الثانية وأنها أزمة الاحتواء والنفوذ الغربي، وأبانت بأن المناهج السياسية والاجتماعية التي فرضها الاستعمار على البلاد الاسلامية في ظل مفاهيم الديمقراطية والليبرالية والاقليمية والوطنية والقومية، كل هذه المفاهيم التي فرضت تطبيق نظام مشابه لنظام الغرب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وتربوياً وما كان من حجب الشريعة الاسلامية واستعلاء القانون الوضعي ونظام الربا ونظام التعليم الغربية، كل هذا كان يسوق البلاد الاسلامية سوقاً إلى الأزمة، وكانت الدعوة الاسلامية تنادي بالتماس المنابع والكشف عن فساد هذا الاتجاه وأخطاره المدفونة التي من شأنها أن تضع البلاد وثرواتها وقيمها في بوتقة النفوذ الأجنبي، وكانت بوادر كارثة فلسطين تبدو من خلال الرماد وميض نار، وهي تتحول إلى ما وقع عام ١٩٤٨ بقيام إسرائيل ووقوع فلسطين وأهلها في موقع اللاجئين.

غير أن صيحة الاسلام قد خفتت بعيداً وتجوهلت، وجرت الحملة عليها وجرى العمل على تقليصها وحجبها والقضاء على أوضاعها القائمة. ذلك لأن القوى الأجنبية التي كانت تعرف أن مصير العالم الاسلامي لا بد أن يرجع إلى أصالته لو أنه ترك لإرادته، كانت هذه القوى قد أعدت خططاً بديلا ترمي إلى مزيد من إلقاء العالم الاسلامي في أحضان القوى الأجنبية، ومن ثم كانت المرحلة التالية من نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٦ إلى النكسة ١٩٦٧ تجربة أشد عنفاً فقد سيطر النفوذ الشيوعي في جهات كثيرة وتقاسمت العالم الاسلامي التجربتين وبان فشلهما وعجزهما عن العطاء.

وكانت حركة اليقظة قد كشفت عن أعماق هذا الخطر وصولا إلى الأبعاد الحقيقية للأزمة، ذلك أن الثقافة وهي التكوين العقلي والروحي للعالم الاسلامي قد تحولت تحولا خطيراً عما كان عليه منذ أوائل هذا القرن على الأقل، فقد كان لدعوتي التغريب والشعوبية أثرها البالغ في الاخطار التي تجمعت من التحول، فقد كان ممكناً أن يتطور فكر هذه الأمة دون أن يخرج عن مقوماته الأساسية وأن يستفيد من الفكر الغربي الوافد شيئاً ما يعينه على التجدد والتطور لو أنه امتلك إرادته في التمسك بالأصالة غير أن عوامل ضغط النفوذ الأجنبي لم تلبث أن حولته عن قيمه وأدخلت إليه قيماً جديدة ليست منه أصلا.

بدأ ذلك فى صورة التعليم فى المعاهد الأجنبية والبعثات ، وفى بث روح الإلحاد وفلسفات المادية والاستهانة بالقيم الروحية ، وإشاعة روح الإباحية وتغليب ثقافات الغرائز والجنس وإذاعتها والتحول من روح الفكر الإسلامى وطوابعه إلى طوابع الفكر الغربى ، وكذلك اتخاذ المقاييس الغربية أساساً لفهم القيم الإسلامية والاعتماد على مصادر الغرب فى فهم تاريخ الإسلام أو اعتناق نظريات الغرب فى التربية والنفس والاجتماع والأدب .

والواضح أن الغرب حين أجلى قواته العسكرية ونفوذه السياسى كان قد تأكد من إحكام السيطرة الفكرية والأدبية فكأنما كان تحرير الأوطان من النفوذ السياسى مقدمة لاحتلال جديد فى مجال الفكر والمجتمع والأخلاق .

وكان لا بد من جهاد ضخم للتحرر من هذا النفوذ الأدبى والاجتماعى بالعودة إلى المنابع الإسلامية ، غير أن القوى الغازية لم تترك المسلمين والعرب هذه الفرصة ، إذ سرعان ما أدخلتهم بعد الحرب العالمية الثانية فى شراك مؤامرة ضخمة ، قوامها الفكر الماركسى والفكر الصهيونى ، اللذين كانا وليداً الفكر الذى كان تمهيداً لهما ، وكانت كل ما قطعته قوى التبشير والاستشراق من مراحل العمل بمثابة إعداد له وخلق الجو الصالح لحضانة هذه الدعوات الهدامة .

وكانت كل السموم التى قدمت فى المرحلة الاستعمارية ممهدة لما جاء بعدها وميسرة بقبول ما طرح فى الساحة من مفاهيم الفلسفة المادية والاشتراكية والماركسية وهى فى مجموعها تقوم على أساس الفصل بين الدين والفكر وبين العروبة والإسلام وبين الروح والمادة .

وكان الخطأ خلال المرحلة التى سبقت أن مدرسة التغريب التى قاومتها حركة اليقظة تهدف أن تلقى إلينا ونحن نحارب معركة الحرية ومقاومة الاستعمار عسكرياً أن نؤمن بأساليبها فى الفكر ومفاهيمها فى الاجتماع ونرى أساليبها وسيلة للتحرير ، وكان الاستعمار قد أسقط مدرسة الأصالة القديمة وحجبها تماماً ، وأخذ يحاصر مدرسة الأصالة الجديدة ويحول بينها وبين تثبيت قواعدها ، وكان أبرز كتاب الوطنية فى هذه المرحلة غربيون فكراً تابعون للغرب فى مفاهيم الديمقراطية والأدب والاجتماع ، واتخاذ أسلحة الغرب ومقاييسه مقاييس لنا فى مواجهتنا مع الغرب ، ولذلك غلبت علينا النظرة المادية القائمة على الاحصاء العددى دون أن تضع إلى جانبها القوة المعنوية التى انتصر بها المسلمون دوماً فى معاركهم مع خصومهم ، فقد كان المسلمون دائماً فى مختلف المعارك الفاصلة مع أعدائهم أقل عدداً وعدة ولكن كان معهم إيمانهم بأنهم على الحق وأنهم يحملون لواء كلمة التوحيد وكانت هذه وحدها قوة ترجح كفة العدد والعدد ، غير أن العرب والمسلمين فقدوا هذه الخاصية وأصبحت مقاييسهم فى مواجهة عدوهم هى مقاييس الكم والعدد والقوى المادية وحدها ، ومن ثم ضعفت نفسياتهم عن المواجهة وخذلهم مفهومهم هذا إزاء حقهم وإزاء إيمانهم بأنفسهم وبدينهم وأصبحوا تابعين للفكر

الغربي في مقاييسه في نفس الوقت الذي كانوا يحاولون الخروج من سيطرته والانتصار عليه . لقد مضت حركة المقاومة والتحرر سواء من الاستعمار الغربي أو من الاستعمار الصهيوني من بعد منفصلة عن القيم الأساسية الإسلامية ، كانت السياسة بزيفها وأهوائها ومطامعها تغلب الوطنية ، كانت الوطنية صبغة إقليمية .

وكانت هناك مذاهب غربية وشرقية وإقليمية وإسلامية تتصارع بتوجيه النفوذ الأجنبي وينقسم الناس وراءها حتى لا يصلوا إلى وحدة فكر تمكنهم من مواجهة عدوهم ، وكانت معاهد التعليم التي يسيطر عليها النفوذ الغربي تخرج الحكام والقادة مؤمنين بالغرب معجبين به منكرين للفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي والتراث الإسلامي تملأ نفوسهم نحوه الشكوك والريب ، فهم منصرفون عنه إلى مظاهر الحضارة وبريقها باعتبارها المثل الأعلى . ومن هنا ظهرت المدرسة السياسية التي كانت ترمز (بلا أخلاقية السياسة) وبعدها عن القيم الفكرية والروحية الإسلامية مع ارتباطها بالفكر الغربي ، وقد فهمت هذه المدرسة خطأ أن الاسلام دين ، فطبقت عليه مفاهيم الغرب التي طبقها على المسيحية مع أن الإسلام ليس ديناً فحسب ولكنه دين عبادة ومنهج حياة ونظام مجتمع ، وقد حل محله عصارة الحضارات والأديان والثقافات ، واستصفاها جميعاً في حضارة حديثة قائمة على التوحيد والعبودية لله مع تحطيم عبودية الفرد وعبودية الوثن .

كان هذا طابع الفكر السياسي الوافد من الغرب والذي يتخذ الديمقراطية الغربية نموذجاً له ، وكان لهذا أثره في المرحلة التالية بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد كان هناك الإعجاب بالغاصب والولاء لأساليبه وتقاليده .

وقد تعمقت مفاهيم الغرب المؤتلفة في مختلف مجالات الصحافة والتعليم والتربية والثقافة وتوسع الخط الفكري ذي الطابع الغربي فانعزل الفكر الاسلامي عن مجال التوجيه الاجتماعي والحكم وبناء الثقافة والتعليم والأسرة وحلت مفاهيم غربية محل القيم الاسلامية الأصيلة ، وبذلك تعمقت الهوة التي تفصل بين العرب والمسلمين ومفاهيمهم وقيمهم واضطرب الخط المستقل ، وبذلك انحرفت الشخصية العامة عن مقوماتها ومفاهيمها وفي صلتها بالله تبارك وتعالى وصلتها بالمجتمع وفي صلة العرب بالمسلمين وصلة المسلمين بالعرب واختفت مفاهيم الأخوة الاسلامية وروابط العرب والفرس والترك العميقة التي أقامها الاسلام وحلت محلها خصومات ذات طابع عنصري حاد بتحريض النفوذ الأجنبي . واستطاع التغريب أن يتحرك بقوة في كل مكان عن طريق أتباعه وأعوانه وأفسح الطريق للشعوبية الكارهة لكل مقومات الفكر الاسلامي من دين وتراث وفكر ولغة .

وفي خلال مرحلة الاحتلال استطاع الاستعمار أن يحقق خططه الرامية أساساً إلى هدم مقومات الأمة وشخصيتها وفكرها والتي جرت عن طريق قوى الاستشراق والتبشير ، على مراحل متعددة ووفق مخطط دقيق .

وهكذا فإن الاستعمار الغربي لم يخرج من البلاد العربية إلا بعد أن اطمأن إلى ركائزه القوية التي عرف أنها سوف تحقق له غايات وجوده والتي لم تتحول معه بعد إلا من دولة إلى دولة أخرى ولكنها ظلت في إطار الاحتواء العالمي وجاءت الشيوعية فصارعت النفوذ الغربي واستطاعت أن تقاسم معه المناطق ، وعندما بدأت الأقطار العربية مرحلة البناء الاقتصادي والحضاري لما بعد الاستقلال لم تجد الأمر يسيراً ، فقد كانت الدول الكبرى لا تقدم خبراتها وقروضها إلا في ظل سيطرة وتسهيلات أشبه بنفوذ الاستعمار القديم وكانت ما تزال مسيطرة على الموارد والخامات ، ويمكن القول بأن البلاد الإسلامية ما تزال واقعة تحت سلطان النفوذ الغربي والماركسي في مجال الاقتصاد مع محاولات فرض للنفوذ الفكري والايدلوجي في مجال الثقافة ومن هنا كان الموقف غاية في الدقة والخطورة . ولم يكن من اليسير التخلص من قوة الرأسمالية والشيوعية على السواء ، وما يزال العالم الاسلامي في حاجة إلى صيغة تمكنه من التعامل الاقتصادي مع الدول الكبرى دون أن يفرض ذلك عليه نفوذاً ثقافياً أو فكرياً معيناً ، ولن يتحقق هذا إلا إذا أعلن العالم الاسلامي تبعيته لمنهجه الاسلامي الأصيل وقيام شريعة الاسلام بالحكم في مجال السياسة والاجتماع .

وأهم من ذلك أن يتحرر العالم الاسلامي من سلطان أسلوب العلمي الغربي وأن يكون قادراً على إقامة تكنولوجية إسلامية خاصة به من خلال الفكر الاسلامي العربي .

(٢)

سقطت البلاد العربية والاسلامية حثيثاً تحت سيطرة النفوذ الماركسي والصهيوني بالاضافة إلى النفوذ الغربي ، وإن بدا أن هناك خلافاً بين الاتجاهات الرأسمالية والاتجاهات الاشتراكية في بعض الأقطار ، وقامت معارك ومساجلات من جانب القوى الشيوعية التي سيطرت على الصحافة والثقافة والسينما والاذاعة والمسرح وبين جذور الأصالة الاسلامية القائمة في المجتمعات الاسلامية والعربية في محاولة لاجتثاثها بوصفها رجعية وتأخراً وجموداً واهتزت كثيراً من القيم وقد وصلت هذه المحاولة إلى ما وصفت فيه بعد بأنها عملت على (هدم المقومات الأساسية للمجتمع على نحو مخالف للنظام العام والآداب ، وذلك بغية تغيير الأعراف الأساسية للبيئة الاجتماعية من أخلاق ودين وما ترتب على ذلك من مخالفة للشريعة الاسلامية وخروج على التقاليد) .

غير أن الخلافات الظاهرة بين الرأسمالية والشيوعية لم تكن إلا القشرة الخارجية لمحاولات في الأعماق غاية في الخطر . فقد كان مصدر الفكر كله سواء أكان تابعاً للفكر الماركسي أو تحتوى من الفكر التلمودى الصهيوني إلا نتيجة واضحة لما أشار إليه هاملتون جب في كتابه وجهة الاسلام حين قال :

لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدارس العصرية والصحافة أن يترك في المسلمين ولو من غير وعي منهم أثراً يجعلهم في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، ولا ريب أن ذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار .

كانت سيطرة التبعية الفكرية الصهيونية واضحة فى بعض أقطار العالم الإسلامى وكانت السيطرة الغربية فى أقطار أخرى وكلها محاولات للسيطرة على الفكر والأيدلوجية لإفساد الوجدان وخلق تطلعات لمظاهر الحضارة سعياً وراء احتواء الاقتصاد والمجتمع جميعاً . وكانت كلا القوتين تعترف بتلك المطبوعات والأقلام التى أصبحت لا تتوقف فى الأسواق العربية ، وكذلك كانت وكلها ترمى إفساد عقول الأجيال الصاعدة من خلال أفلام الأطفال وقصص الأطفال وفى مجال التعليم نجد النظريات الرأسمالية والماركسية والغربية كلها تدرس على أنها حقائق علمية وليس على أنها نظريات مطروحة وتتركز أخطر التيارات الوافدة فى القصة والمسرحية ، فقد وجد أصحاب التيارات الوافدة أن أصلح طريق للوصول بسمومهم إلى قلوب الناس وعقولهم إنما يتحقق عن طريق القصة والأغنية .

وظهر الفكر المسموم فى كتابات العناصر التى تحتمى بالفكر المادى كله : الماركسيون والوجوديون والليبراليون ودعاة تحرير المرأة ، وقال مستر كليفورد المعلق الإذاعى البريطانى :

إذا ما أراد العرب أن ينجحوا فما عليهم إلا أن يبعدوا الإسلام عن طريقهم فهو عقبتهم الوحيدة فى سبيل القوة والوحدة والتقدم وضرب المثل بالأحزاب العلمانية التى ظهرت فى البلاد العربية لمواجهة الدعوة الإسلامية وضربها والمقاومة لكل أصالة أو فكر يستمد من التراث والمنابع .

وهكذا كانت هذه المرحلة التى جاءت بعد الحرب العالمية الثانية وبعد اتصال البلاد العربية بالسوفيت شديدة الخطر ، فقد قذفت الماركسية الفكر الإسلامى بقدر ضخم من ركام الفكر البشرى مما هو أشد قسوة وعنفاً من الدور الأول ، كان الدور الأول هو الفكر البشرى الغربى ، أما فى المرحلة الثانية فكان الفكر الوافد ممثلا فى الفكر التلمودى المبثوث فى نظريات العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق والتفسير المادى للتاريخ الذى يقوم عليه الفكر البشرى الماركسى ، واختلط الفكران : الليبرالى والشيوعى وتعاونا لأنهما كانا من معين واحد ومصدر واحد ، وأنصارها لأن كل منهما كان يطمع فى احتواء الفكر الإسلامى والمجتمع ، ومن خلال صراعهما استطاع الفكر التلمودى أن يسيطر ويتمكن .

وكان أخطر تلك الدعوات محاولة تطبيق مناهج العلوم ، العلوم الطبيعية على المجتمع الاسلامى الذى يقوم على الآخرة والرحمة .

وكان أخطر ما فى ذلك كله أن أصبح هناك صوت واحد ، وقد حيل بين الفكرة الاسلامية وبين مواجهة هذه الأخطار أو الرد عليها فقد حجبت تماماً وصودرت مصادرة كاملة بينما سمح لهذا الفكر

المسموم أن ينطلق بأقصى قوته وأن يكسب بعض الأتباع من الشباب الذى لم تكن له خلفيات روحية أو أخلاقية فى مجتمعه .

وفى هذا الخضم ظهر عديد من المدارس : العلمانية والمادية والماركسية والوضعية المنطقية وكانت أغلب هذه المدارس إنما تستهدف الاسلام فى حقد بالغ حيث ترى القوى المعادية للإسلام والراغبة فى النيل منه أنها تستطيع أن تتجمع فى خلايا الشيوعية لأداء هذا العمل دون أن يقال عنها أنها متعصبة أو تجهر بخصومتها الطائفية .

وإذا كانت الماركسية قد وجدت حريتها فى الانطلاق وتدمير القيم وإثارة السموم فإنها كانت أعجز عن أن تواجه الاصالة أو تظهر فى أفق الحرية لأنها لا تستطيع أن تقوى على المواجهة والنقد، ويكفيها وصمة أنها عاشت فى ظل الاستبداد والجبر وأن القوى القادرة على دحضها كانت مكبلة ، ولقد جرت فى هذه المرحلة محاولات باءت كلها بالفشل .

الأولى : ترمى إلى إقامة جسور وقناطر بين الفكرة الاسلامية والنظريات الغربية : ماركسية وديمقراطية وفرويدية و و . . .

الثانية : محاولة تفسير الاسلام تفسيراً مادياً ماركسياً يحاول أن يتتبع العوامل الاقتصادية ليجعل منها نقطاً لتحرك التاريخ الاسلامى أو اتخاذ التفسير المادى المنكر للغيب والنبوة وما وراء المادة أساساً للتفسير .

الثالثة : محاولة وضع الشريعة الاسلامية فى مجال تبرير الواقع المعاصر فى الامم والحضارة المعاصرة ، وذلك بالقول بأن الشريعة الاسلامية مرنة وأنها تقوم على أساس قواعد عامة يمكن أن ترتضى القوانين الوضعية مع تعديلات يسيرة ، وكل هذا باطل وزيف .

الفصل الثالث

تيار الأصالة وتيار التبعية

طرحت الأيدلوجيات التي أتيحت لها حرية الانطلاق خلال هذه الفترة بعد حجب الفكرة الاسلامية مفاهيم مسمومة، حاولت أن تصبغ بها مختلف مفاهيم الفكر والمجتمع وخاصة مفهوم العقيدة والأخلاق والتاريخ والعلاقة بين العرب والمسلمين وقد أتيحت لها فرصة خطيرة إذا ألقيت إلى هذه القوى مقاليد الصحافة والثقافة والمسرح والاذاعة وجميع القنوات التي تقدم الرأي بينما حجبت مختلف القوى وخاصة القوى التي تحمل لواء الفكر الاسلامي الاصيل من المواجهة والمحض سنوات عشر من أخطر سنوات هذه الأمة ١٩٥٧ - ١٩٦٧ .

كان الهدف هو خلق جو من الانحلال والتمزق وإثارة روح الصراع الطبقي وإيقاد نار الخلاف والحقد والخصومة تمهيداً لتدمير المجتمع وكان روح الشيوعية الخطير قد إستعمل بالدعوة إلى تقديم بريق الماديات والاندفاعات الخطيرة إلى المطامع والأهواء والرغبة في الحصول على المتاع الدنيوي بأي الوسائل وبكل الوسائل غير المشروعة فظهرت روح السرقة والغش والخديعة وأعلت الشيوعية شأن فكرة الحتمية التي هي جزء من مفهوم المذهب المادي يدفع إلى إفساد المجتمع وتحطيم الارادة الفردية وبدس للمسئولية الأخلاقية وذلك بالقول بأن الظروف الاقتصادية هي التي تقود المجتمعات .

وكان أول من رفع شعار القومية والاشتراكية هم اليهود والنصارى العرب ولقد كانت هذه الشعارات تهدف إلى ضرب الإسلام من الحاقدين عليه وقد فشل الحل الاشتراكي منفصلا عن الأصالة في البلاد الإسلامية وقد إرتبطت الأيدلوجيات والمذاهب الاشتراكية بالحكم الاستبدادي العسكري الذي أدى إلى هزيمة ١٩٦٧ كما ساقت الليبرالية الغربية الديمقراطية الشعب العربي المسلم إلى هزيمة ١٩٤٨ .

لقد عمدت هذه القوى إلى خلق جو من الحقد والكراهية وفي نفس الوقت خلق جو من الفكر الانحلالي المتشائم ولذلك فقد إلتقت دعوات الماركسيين مع الوجوديين (سارتر ، مورافيا ، كافكا ، كامي) وهو هدف أساسي من أهداف الغزو الذي يقوم به الفكر الغربي الصهيوني الماركسي حتى لا تستقيم إرادة الحياة في العالم إعتماداً على نظرية اللاأخلاقية التي تقوم في الغرب مستمدة من فكرة الخطيئة التي لا يقرها الاسلام .

وقد بدت ردة خطيرة بتجديد الخرافة القديمة والأساطير وصياغتها بصورة جديدة ، وإعلاء شأن الفلكلور على نحو يوحى بأنه محاولة لاحياء التراث الوثنى بينما يواجه التراث الاسلامى بحملة عنيفة .

كذلك فقد جرت الدعوة إلى خلق جو من الصداقة مع العدو وإشاعة روح من الاعجاب بالمجتمعات الماركسية أو الغربية ، وهى محاولة خطيرة مدمرة ، لفرض حضارة الغرب وهو فى مرحلة الأزمة والتحلل والانهيار ، بعد أن حطمت الصهيونية الحضارة بعد أن حولتها عن طريقها .

وقد تجمع فى هذه الفترة أعداء الاسلام فى معسكر واحد : صليبيون وصهيونيون وعلمانيون وشيوعيون ووثنيون يرفعون شعارات وأفكار مسمومة .

وإذا كان لهذه المرحلة الخطيرة من نتائج حاسمة فهى قد كشفت المسلمين عن أبعاد الأخطار التى تواجههم وأبانت عن وجهة عدوهم وأتاحت لهم إكتشاف حقيقة جوهرهم ، وبقى أن تكون لديهم الارادة القادرة على المواجهة .

وقد عجبت هذه القوى كيف إنهزمت أمام أصالة الفكر الاسلامى ذلك أنهم لا يعرفون مدى حيوية الفكر الاسلامى التى ما فتئت تفرز مضادات قوية مكنتها من مقاومة تأثير خطر الفكر البشرى وأن هذه القوى المذكورة كانت قادرة دائماً على الظهور فى أبان الأزمة وهى التى واجهت فكرة الاشطارية فى المرحلة الأولى وقاومت التفسيرات المادية مع هذه المرحلة ذلك أن النظرة الاسلامية بأصالتها وربانيتها هى قادرة دائماً على مواجهة الزيف الذى يقدمه الفكر البشرى والادالة منه .

ذلك أن النظرة الاسلامية تقوم على تكامل الحس والفهم والعقل ويتمثل فيها جامعية الروح والمادة الدنيا والآخرة ، وأن هذه التحديات قادرة على أن تكشف عن جوهر هذه الأمة التى إستطاعت أن تعرف وجهة عدوها وأن تتمسك بروحها وذاتيتها دون أن تنهار أو تنصهر وقد نجحت فى كلا التجربتين : مع الفكر الغربى الليبرالى ثم مع الفكر الماركسى المادى ، لقد جاء فشل الديمقراطية الغربية فى ديار الاسلام نتيجة طبيعية لتعارض هذا المذهب السياسى مع طبيعة المجتمع الاسلامى وبالتالى مع مقومات الأمة التى تقوم على الاسلام وكذلك جاء فشل الماركسية الشيوعية لنفس الهدف .

لقد كانت عملية الاحتواء التى فرضها النفوذ الأجنبى خلال مرحلة الليبرالية قد مهدت الأرض لقتل هذه الأمة ثم جاءت الماركسية لتجهز على هذه البقية الباقية تحت لواء التلمودية الصهيونية وهو

ما يسمى عملية قتل الشعوب بغير إطلاق الرصاص على مراحل منها القضاء على الوحدة الإسلامية والخلافة الإسلامية والدعوة إلى الوطنية والقومية والليبرالية والديمقراطية والماركسية وكانت نكسة ١٩٦٧ علامة على مفهوم واحد : هو أن تكون هذه الأمة أو لا تكون وبدا أن العرب والمسلمين قد أحسوا بأنه لا سبيل أمامهم إلا أن يلتمسوا منهجهم الأصيل : نظام الإسلام الذى هو منهج الله الذى يستطيع أن يعطى حلولا أصيلة لكل المشاكل والتحديات .

هذه هى الحقيقة التى عجز عنها بعض القادة ، والتى كان يعرفها الغرب وتعرفها الصهيونية والشيوعية وتحاول أن ترد هذه الأمة عنها وهى أن الإسلام هو العقيدة الوحيدة الصالحة للتقدم الجامع لقد كانت المحاولة هى تمزيق جبهة العقيدة الإسلامية بدفعها فى أحضان الاشطارية والتفسير المادى ، بينما جاء الإسلام يقدم القانون الأساسى للحركة والتطور وهو قانون مترابط يجمع بين عنصر الثبات وعنصر الحركة ، بين القيم الأصلية والقيم المكتسبة ، بين الثبات والتغير ، لقد كشف الاسلام عن فساد صيحة التغيير التى تحمل لواءها الايدلوجيات الوافدة التى تحاول القضاء على الجوهر الثابت أو تصفه بالجمود والمحافظة بينما تقدم الاسلامية مفهوم التعامل بين القرائن والمتغيرات مع الحرص على الجوهر القائم الدائم .

لقد كانت دعوة الصداقة تحمل فى أعماقها أكبر قدر من الغش والزيف فهم يدعوننا للتنكر لثقافتنا وفى نفس الوقت يمنعون عنا مايسمونه عماد الدولة العصرية وهى التكنولوجيا ، أما مفهومنا الأصيل فهو أننا نريد أن نستوعب التقنية مع المحافظة على قيمنا وثقافتنا ، وأن الأخذ من الغير مقيد بشرط المحافظة على أصالتنا ولذلك فقد طرحوا فى مجرى الفكر الاسلامى سموما كثيرة ومترجمات خطيرة أرادوا بها تدمير النفس العربية الاسلامية .

كذلك كشفت حركة اليقظة عن فساد تيار التبعية فى عديد من الجوانب فى مقدمتها فصل المناهج التعليمية والجامعية عن جذورها الأساسية ودور المسلمين فى بنائها وقصور النظرة الوطنية والاقليمية وخطأ دراسة العلوم الحديثة خارج وعاء اللغة العربية ، وقصور المناهج الجامعية عن الربط بين وجهة نظر الاسلام وبين القضايا الاجتماعية والاقتصادية والقانونية والسياسية .

ولقد كان من أخطر أهداف تيار التبعية : إشاعة ركام الفلسفات المادية القديمة والحديثة وهى كلها فلسفات مادية تهدف إلى تقويض دعائم الاعتقاد بوجود إله واحد بغض النظر عن البديل المقترح ، ولقد كانت دعوة هذه المذاهب إلى ألوهية المادة أو ألوهية الانسان أو إتخاذ الغريزة محوراً لتفسير الوجود أو إتخاذ لقمة العيش محوراً لتفسير التاريخ وكان لابد لتيار الأصالة أن يكشف عن أن الدين الوحيد الذى صفت فيه عقيدة التوحيد من شوائب الشرك هو الاسلام فالإله فى عرف اليهود إله قومى لهم وحدهم دون غيرهم من الأميين وفى عرف النصارى واحد فى ثلاثة .

كما كشف تيار الأصالة أنه ليس علينا أن نأخذ مفاهيم الغرب لنطبقها على القيم التي نؤمن بها ولكن علينا أن ندرس مفاهيم الغرب دراسة مقارنة لنعرف أي المفهومين أكثر أصالة وتكاملا وأقرب إلى الفطرة والعلم ، والحق أن أي مذهب أو قضية أو نظرية مستحدثة يجب أن تعرض على أصول فكرنا العربي الاسلامي وأن يكون منطلق التجديد والتقدم مستمداً من هذه الجذور .

ولقد جرت محاولة تقديم قيم الاسلام أحيانا من خلال مفهوم فاسد وأعطيت عنه صورة مشوهة ، حتى قيل أنه ديمقراطي وأنه اشتراكي وأنه وجودي وكانوا كاذبين في هذه الدعوات الباطلة وكانوا عاجزين أو قاصدين ألا يقدموا جوانب الاسلام الأصيلة وقدراته الفائقة في حل مشاكل العصر .

وكان الهدف من ذلك أن يقال أنه ما دام الاسلام ليس قادراً فالأيدلوجيات ضرورة ، وإذا كان ما يقدمه الاسلام شبيه بالأيدلوجيات فيمكن إنتقاؤها وكان ذلك كله فاسداً وكاذبا فلم تمكن الأيدلوجيات التي صنعتها عقليات البشر بمستطيعة أن تواجه أو تقارن أو تقابل منهج الاسلام الرباني ، ولم تمكن تجربة البشر قادرة على العطاء المسلمين وقد عجزت عن العطاء في بيئتها ، ولم يكونوا قادرين على أن يكشفوا عن ذخائر الاسلام في حل تلك المعضلات وقدرته الفائقة بتقديم الحلول ذات الأصالة التي تستطيع أن تسعد البشرية في مختلف بيئاتها وعصورها .

ومن مثل هذا الفارق العميق بين مفهوم الشورى ومفهوم الديمقراطية الغربية وسيادة الأمة فليس مبدأ الشورى هو ما يظنه البعض من أنه ينطوي على الأخذ بمبدأ سيادة الأمة إذ أنها نظرية غربية الأصل إذ لا يصح القول بأن الشورى في الاسلام هو التعبير عن إرادة الأمة التي اتحد أغلب أفرادها في هذا العصر مسلمين إسماً فحسب ، ذلك أن الشورى في الاسلام لا تقدم شيئاً جديداً وإنما تعبر عن تطبيق أحكام القرآن ذاتها ومن ذلك حديثهم عن تجديد الدين ، غافلين عن أن هذا إنما يقال بالنسبة الأديان البشرية .

أما العقيدة والشريعة الاسلامية فإنها ربانية ليست في حاجة إلى تجديد لأنها ثابتة ذات أطر واسعة أبدعت بحيث تصلح لكل زمان ومكان ولكن الذي يحتاج إلى التجديد إنما هي طرق التطبيق ووسائل التنفيذ وسبل التعليم وتفهيم الدين فهذه هي وسائل تحتاج إلى التجدد ، والاسلام صالح لكل زمان ومكان لأنه مجموعة صالحة من المعاملات ومكارم الأخلاق .

ولقد بذل المسلمون جهداً ضخماً في إنهاء السيطرة الغربية والحصول على الاستقلال ولكن هل توصلوا إلى هذا الهدف وهل حققوا أحلامهم .

إن واقع الدول الاسلامية لم يتغير رغم كل التغيرات فنحن رغم إنتزاعنا الحرية لم نتمتع بها في حقيقة الأمر وقد وجدنا حركات الاحتواء قد اجتاحتها واستطاع الغرب بفضل جذور التغريب التي

رباها فى بيئتنا ونماها أن يسيطر ويحتوى أمتنا وكان يخدعنا بأن يقدم لنا جوانب الفساد من حضارته ويحول بيننا وبين استيعاب العلوم والتكنولوجيا والقوة العسكرية .

ولقد كان الفكر الغربى الليبرالى الذى جاء السيطرة على المجتمع الاسلامى منذ بدأ الاحتلال فكراً مسيحياً كنسياً له جذور يونانية ومفاهيم رومانية ولذلك رأيناه طرح منذ اللحظة الأولى محاولة فصل الدين عن السياسة وإعلاء شأن العلمانية التى تقرر إتخاذ القانون الوضعى نظاماً للمجتمع فى شئون القضاء والاقتصاد والسياسة والتربية والعلم وحجب الشريعة الاسلامية بكل معطياتها ، ومن ثم فتح القانون الوضعى الباب واسعاً أمام الخمر والربا والزنا وتحطيم الحصانة التى كان يعرفها المجتمع الاسلامى قبل الاحتلال وقد رفض هذا الاتجاه ضمير الأمة .

ثم جاءت الاشتراكية الماركسية فكرة مسمومة مفرقة تقوم على العنف وتهييج الافكار وتحريض الطبقات بالعمل الدموى فرفضها ضمير الأمة أيضاً وبذلك عجزت النظم الغربية والماركسية عن تحقيق المطمح الأسمى للمسلمين والعرب .

• • •

الفصل الرابع

حركة اليقظة وحركة الاحتواء

كانت أخطر محاولات الاحتواء التي واجهتها حركة اليقظة في قوة وصدق خلال هذه المرحلة على الرغم من قصور الوسائل المتاحة وأدوات التبليغ في فترة سيطرة قوى التغريب والنفوذ الغربي والشيوعي على الصحافة والثقافة والكتاب والمسرح : هو وضع البديل في مواجهة الأصيل والعمل على تقديم بدائل مزيفة ذات مظهر لامع وتحوطها هالة من البريق الزائف لكل فكرة أصيلة في محاولة لخنقها ولتحويل الرأي عنها في ظل طوابع من الإغراء والتزييف باسم البحث العلمي والعبارات الخادعة .

والهدف هو خلق أجيال جديدة من المسلمين والعرب تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية والشرقية وإبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الاسلامية عن مراكز التوجيه ، ولقد استقرت في هذه المرحلة الأيدلوجيات الفكرية الوافدة والعبارات الهدامة المعادية للإسلام وكان لها تأثيرها على الشباب المسلم الذي كان يعاني فراغاً كبيراً من ناحية العقيدة والروح والعاطفة الاسلامية ، فلم يعرفوا مدى صلة ما يقدم إليهم بالاسلام في قبول الاسلام له أو معارضته إياه ، خاصة وقد أشاعوا روح التأويل وروح الرخص والدعوة إلى احتقار الحدود والضوابط التي قدمها الاسلام لحماية شخصية المسلم ومجتمعه وعرضه ، ولا شك أن استشراء مفهوم المطامع والأهواء والاندفاع لتحصيل الأرزاق دون تقدير للحلال أو الحرام وغلبة طابع عبادة الحياة وزخارفها قد خلق أزمة أخلاقية عنيفة ، خاصة وقد شمل العهد روح من التسلط والاستبداد ووصول من لا يستحق إلى أعلى المناصب عن طريق النفاق والتبعية فانتهكت الحريات وديست الكرامات وكانت كلمة الحق تهوي بصاحبها أربعين خريفاً في جحيم الضياع والحرمان والعذاب والهلاك ، فكان من الطبيعي أن تقوم حياة المجتمع على الخداع والتدليس والاحتيال .

ولقد زحفت المادة إلى مجتمعنا من أوسع أبوابه واحتلت في النفوس مكاناً كبيراً وصار الناس لا يتحدثون إلا بها حتى إن الناس أصبحت توزن بميزان ما لديها من تجارة وعقار ، ولو كان المرء لا قيمة له في مجال الفكر والعقل .

وكان المعنى الذي عملت حركة الاحتواء على إسقاطه من النفس الانسانية هو دور الإسلام كعقيدة وتربية حيث لم يكن أبداً في يوم من الأيام راضياً بالذل ولا مساندا للخضوع ولا معيناً على

العبودية ، ولقد أمكن تحقيق جانب من ذلك عن طريق الصحافة والثقافة والمسرح والاذاعة فإن سيطرة الفكر الماركسي والغربي عليها جميعاً كان خطيراً ، فقد ظن الشباب المسلم أن هذه هي مفاهيم المجتمع والحياة الطبيعية المشروعة ، وكان ذلك في غيبة صوت الاسلام : (لقد كانت مضارب الغزو المبثوثة كالألغام في واقع الفكر والعلم والاعلام كالشراك الخادعة المصوبة فخاخاً لاصطياد شباب الأمة حيث كانت المعامل الدائرة لتجهيز المخدرات المعنوية وإغراق السوق بها وإنشاء الأوكار الخفية لتدريب من أغرام الشيطان وتزييف شخوصهم بأقنعة التنكر واصطناع التمويه ليتسللوا إلى أمنع الحصون العلمية والفكرية ويكيدون منها الإسلام وكأنهم المبشرون الإصلاح .

لقد أدخلت هذه الأدوات مفاهيم وأفكاراً على المسلمين ترددت كثيراً حتى ظن أنها من المسلمات وكان من شأنها أن هزت قواعد الأسرة وقدمت أفكاراً زائفة عن اللذة والصور المعلقة فوق السرر ، ولقد كان طابع الاسلام ومفهومه يقوم على التمييز الواضح بين شخصية الرجل وشخصية المرأة والحيلولة دون امتزاجهما أو تحويل أحدهما إلى الآخر .

ولقد حاولت هذه الأيدلوجيات (غربية وماركسية) الاستهتار بالالتزام الخلقي وخاصة في شأن اللباس وفي شأن حرية المرأة وعملها .

وكما قدمت مفهوماً للحرية يختلف عن مفهوم الاسلام الذي يقيم مفهوم الحرية الملتزمة المنضبطة فالحرية في الاسلام تقوم على التحرير من قيد الجهل والخرافة والتقليد .

وقد أعلت الدعوات والأيدلوجيات الوافدة صوت الحداثة والعصرية ، والحداثة والعصرية في مفهوم الاسلام ليست بذات بال إذا لم تكن مرتبطة بالأصالة وبوجود الأمة ورسالتها وأهدافها وأن التطلع إلى التقدم العلمي والتكنولوجي لن تكون له فائدة إيجابية إذا لم يصدر عن إيمان بوفاء الأمة ويتحرك داخل إطار فكرها وقيمها ، كذلك فإن الحوار مع الفكر العالمي يجب أن يتم داخل إطار الأمانة التي تحمل لواءها الأمة الاسلامية .

وكذلك في مفهوم التقدم حاولت حركة الاحتواء أن تقدم مفهوماً زائفاً ، ونحن نجد في الاسلام دعوة رصينة للتقدم تربط ربطاً متيناً بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فالتقدم ليس حتى مخالفة القديم أو ضداً له ، وهو ليس تقدماً مادياً وخالصاً ولكن تقدم جامع بين المعنويات والماديات ، وهو تقدم لا يضحي المعنويات في سبيل التقدم المادي ، ولعل الحضارة الاسلامية في جوهرها أميل إلى الاستقرار والمحافظة منها إلى التجديد والتطوير والتغيير ، ولكن هذا لا يعارض إمكانية الدفع والتغيير .

ولقد رفض الاسلام التطور على حساب الأصالة والقيم الأساسية كما رفض تضحية القيم العليا في سبيل مفاهيم الحضارات وأهواء الأمم ، إذ ليس في المناهج والدعوات والأيدلوجيات المطروحة

من شيء إلا وعند المسلمين مثله أو خير منه، وهو هناك مقطوع الصلة بالله ولكنه في الإسلام متصل. وهكذا حاول الفكر البشري في هذه المرحلة السيطرة على الفكر الإسلامي واحتوائه بإشاعة فلسفات سان سيمون وداروين وسبنسر ووضعية أوجست كونت بهدف العمل على تدمير الشخصية الإسلامية والإجهاز عليها، وكانت أخطار دعوات الدعوة إلى نبذ الماضي والتاريخ والتراث القديم، وهي محاولة تدعو إلى هدم الإسلام من خلال عبارات غامضة رمزية، وكذلك الدعوة إلى تاريخ ما قبل الإسلام ومهاجمة الشعر العربي والفصاحة العربية والخطابة، وجاءت محاولة المقارنة لإعلاء شأن الأدب الغربي والفكر الغربي ومحاولة تصوير الأثر الغربي في الفكرة الإسلامية صور في مبالغ فيها وجعله أساساً بالرغم من أنه ليس كذلك، وخاصة الترجمات اليونانية ومحاولة تصوير الشعر الإسلامي متأثراً بالفكر الهليني والفارسي وإنكار دور الحضارة الإسلامية ومذهب التجريب الإسلامي في الحضارة الحديثة وقيام مؤامرة الصمت ضد ما أعطاه المسلمون لأوروبا وخاصة منهج التجريب الذي أحياها، فلما عادت أوربا إلى الشرق عمدت إلى تدمير فكرنا الإسلامي بترجمات خطيرة إباحية (إزهار الشر) هكذا تكلم زرادشت وروايات أخرى جنسية مكشوفة، ودعوا إلى تعليم اللغات والترجمة من الآداب الأجنبية دون قيد أو شرط.

كذلك حاولت أن تعطي المسلمين المنهج الأرسطي الذي رفضوه في القرن الرابع.

كذلك حاولت كتابات الماركسيين عن الرسول ﷺ أن تحجب المعاني الأساسية التي يقصد إليها القرآن، وتحجب الوحي وتحاول أن تصور النبي ﷺ على أنه مصلح ومجدد وليس نبي يوحى إليه.

كذلك استطاعت حركة الاحتواء استغلال سلاح التأويل والأخذ بالرخص وحجب العزائم، ولقد كان التأويل من أخطر الأسلحة التي استعملت لتفسير النصوص تفسيراً يخرجها عن مدلولاتها الأصيلة إلى مدلولات ومفاهيم منحرفة.

كذلك حاولت أن تعلي شأن اللغة في علاقات الأمم، بينما العقيدة لا اللغة هي علاقة بقاء الجماعة فإذا زالت العقيدة زالت الجماعة وانحلت وانقرض وجودها، وكان الهدف من إعلاء اللغة هو حرب العقيدة التي إذا زالت زالت الجماعة ولا يوجد عامل من عوامل الفناء في الأمم والجماعات إلا وهو ناشيء من ضعف العقيدة أو زوالها.

وكان ذلك كله في طريق محاولة إفراغ صدور المسلمين من مضامين القيم الإسلامية وآثارها الحقيقية وغرس مضامين أخرى لا شأن لها بالإسلام ولا تحقق شيئاً من مرضاة الله عز وجل. ولقد كان على حركة اليقظة الإسلامية أن تواجه ذلك كله وأن تدعو المسلمين إلى فهم الإسلام فهماً أصيلاً كفهم الصدر الأول له، ولا بد أن ينفصل الإسلام في ذاته عن فهم الإسلام خلال العصور وكشفت

حركة اليقظة عن أن العودة إلى الجذور والمنابع الأصيلة لا تعنى أبداً التخلف أو العودة إلى الوراء .

وكشفت عن فساد دعواهم بأن يعكس المفكر قيم عصره ، ذلك أن المفكر فى مفهوم الاسلام يجب أن ينقل الناس فى عصره من مفاهيمهم الموروثة التقليدية والباطلة والوافدة الزائفة إلى قيم الأصالة والمنابع الأولى ، هذه التى حرفها دعاة الفكر البشرى .

وكان على مفكرى الاسلام العمل على تحصين أجيالنا الحاضرة والمستقبلة ضد هذه السموم وضد هذه الأحقاد والعمل على بناء أجيالنا المقبلة بناءاً سليماً ومعالجة الأجيال الحاضرة التى أفسدتها هذه السموم .

ولقد كشفت حركة اليقظة أن الجسم الاسلامى ما زال حياً يرفض العضو الغريب وأن الكيان الاسلامى مايزال يرفض عمليات الاحتواء . وكان على حركة اليقظة أن تواجه فساد المفاهيم الوافدة : القوميات والعلمانية والاشتراكية والشيوعية والليبرالية وفساد ما دسته الماسونية والاستشراق ، ولذا دعت إلى ضرورة إعادة بناء المقومات الفكرية والثقافية والاجتماعية للإنسان المسلم والعربى لكى يقوم بدوره الحضارى مرة أخرى ، وكذلك مضاعفة قوى الأمة الاسلامية للجهاد والحماية ، وذلك بعد أن حرصت الدول الكائدة على إضعاف الأمم الاسلامية بتقليل عددها حتى تعجز عن الجهاد فانتشرت دعوات تحديد النسل بصور شتى ليتضاءل عدد المسلمين ويصبحوا عاجزين عن الاستعداد بالتفوق البشرى والقوة ، وحماية بيضة الاسلام من عدوان أعدائه وأخطر ما هنالك هو لزوم العجز عن الانفاق عن الاولاد .

كذلك كشفت حركة اليقظة عن خطأ النظرة القائلة بالدعوة إلى تطوير الشريعة . ذلك لأن الإسلام لا يمكن أن يتطور تطور الايدلوجيات الخاضعة لعامل الزمن والمبادىء القطعية والاساسية فى الشريعة الاسلامية وهى إطارات لا تقبل التطور كأداء الامانات والحقوق إلى أصحابها والتزام العدالة فى القضاء ، والشهادة والتراضى فى العقود ، وقمع الاجرام وسد الذرائع عن الانحراف والمسئولية الشخصية .

أما القول بأن كل دين قابل للتطور وملاءمة العصور فهى فكرة مسمومة مصدرها الدين البشرى الذى صنعه الانسان والذى يعجز عن متابعة الحياة إلا بالاضافة والحذف .

كذلك كشفت حركة اليقظة عن فساد مصطلح الثورة بالنسبة للإسلام ، فالاسلام ليس ثورة بالمعنى اللغوى ولا هو ثورة بالمفهوم العصرى الحديث ، ولقد كانت دعوة الاسلام إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

والإسلام ليس مذهباً ولا نظرية ولا ثورة ، ومن هنا جاء خطأ محاولة وصف الإسلام بأنه ثورة ضمن الثورات العديدة التي قام بها الإنسان على مر التاريخ ، ذلك أن الثورة من شأنها أن تمر بمراحل عديدة ثم تستقر ثم تنتهي وليس الإسلام كذلك ، فالإسلام نور رباني متجدد على الزمن إلى أن يرث الله تبارك وتعالى الأرض ومن عليها ، فهو ليس مرتبطاً بعصر أو بيئة أو أنه جاء رداً على ظروف اجتماعية وقعت في القرن السابع الميلادي كما قال أحد الباحثين .

أما الثورة الفرنسية فقد كانت ثورة لا دينية معادية للدين تحت تأثير للماسونية والصهيونية ، وهي ثورة أغرقت الجماعة في سمومها وشككتها في قيمها وأطلقت الشهوات للناس ، فليس الإسلام ثورة بهذا المعنى ، وليس قومية ولا اشتراكية ولا شيوعية ولا وجودية . إن الذين يصفون الإسلام بالثورة لا يعرفون خصائص الإسلام . إن الثورة تنتهي وتستنفد أغراضها ، فإذا قيل إن الإسلام ثورة فإنه يمكن أن يقال من بعد أنه استنفد أغراضه ، وليس الإسلام ثورة اجتماعية وإنما هو رسالة السماء بالحق إلى البشرية منذ كانت البشرية وإلى يومها الآخر .

ولقد ارتبطت كلمة الثورة في التاريخ الحديث بالعنف والدموية والإرهاب .

لقد كشفت حركة اليقظة عن فساد التطورات والدعوات .

كذلك كشفت حركة اليقظة عن صفحات تقدير للمفكرين الغربيين الصادقين لعظمة الإسلام ودحضت شبهات الاستشراق والتزييف في مختلف المجالات ، كذلك واجهت اليقظة مختلف الأيدلوجيات وكشفت زيفها ، كذلك أصلحت حركة اليقظة أصول العلوم والمعارف وكشفت عن دور الاسلام في بناء جذورها .

وقال مع محمد إقبال : إن المسلم لم يخلق ليندفع في التيار ويساير الركب البشري حيث سار بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية .

ولقد كان مفهوم التوحيد هو نقطة خلافنا مع الفلسفات الوثنية ومفهوم الأخلاق خلافنا مع الفلسفات المادية ، ذلك أن الاسلام لا يقر نظرية تغير الأخلاق باختلاف البيئات والعصور كما لا يقر نظرية التطور المطلق الذي يتحرك من فراغ ولا يقر نظرية تقديس العقل أو عبادة البطل .

وكشفت حركة اليقظة خطأ مفهوم الماديين والملاحدة الذي يقول بأن الانسان هو المحور الذي تدور حوله معاني الوجود . والواقع أن الله تبارك وتعالى هو وحده أول الأمور وآخرها ونقطة البدأ ونقطة النهاية لكل أمر الانسان جميعاً وحوله تدور المعاني كلها .

كذلك أعلنت حركة اليقظة أن الفكر والمادة يتحركان ، فلا يسبق أحدهما الآخر وأن الفرد والمجتمع يتكاملان فلا يعلو أحدهما الآخر .

كذلك واجهت حركة اليقظة مفهوم الاحتواء المادي وكشفت عن أن النظرة البشرية محددة بما ترى وبالمحسوس بينما النظرة الربانية واسعة شاملة، تضم عالم النفس والروح وما وراء المادة، وأن الفكر الاسلامي يمثل النظرة المتكاملة الجامعة في أبعادها الروحية والمادية، والنفس والبدن، والدنيا والآخرة، وأن فهم الانسان والنفس والمجتمع قاصر في الديانات الأخرى مكتمل في الاسلام، وأنه يفوق في مفهوم الأنشطة الروحية في بعض الأديان والانشطارية المادية في أديان أخرى، وكيف أن الأيدلوجيات انطلقت من هذه المفاهيم الجزئية القاصرة على استيعاب تكامل النفس والوجود والحياة، وبذلك عجزت حين طرحت في أفق المسلمين والعرب عن أن تحقق المطامح الأعمق لهم، ومن دعائم الفكر المادي والنظرية الشيوعية: عدم الايمان بالغيب وأن كل ما في الكون هو مادي لا يتعدى إحدى الصور المادية وكيف أن هناك خطراً في استخدام العقل لتبرير الهوى نتيجة اختلاف أهواء الناس وخطأ النظرية الغربية التي تعتمد على القياس المنطقي وتعتبره أساساً واحداً النظر مع أن القياس المنطقي ليس وحده كافياً في إقامة النظريات خاصة إذا تعارضت مع واقع التاريخ، كذلك فإن الاستشهاد بوقائع غامضة من التاريخ لتبرير نظرية التفسير المادي للتاريخ هو أيضاً زيف ومحاولة لمعرفة جزء من الحقيقة وتجاهل الباقي، وهذا القياس هو القياس الفاسد الذي لا تؤيده حقيقة علمية.

كذلك كشفت اليقظة زيف القول بأن ضعف المسلمين ناتج عن الاسلام، لقد أعطى الاسلام أجيالا متعددة، وإنما هو نتيجة ضعف المسلمين وتراخي إرادتهم وإغفالهم لتعاليم دينهم، لقد عملت العناصر الأجنبية حثيثاً دون توقف لتشويه الاسلام وتزييف مقوماته حتى لا يكون قادراً على العطاء.

وواجهت حركة اليقظة الشبهات التي وجهت إلى التاريخ الاسلامي وكشفت عن أن الفتح الاسلامي كان نسيجاً وحده في تاريخ البشر، فقد خرج المسلمون يعلنون كلمة الله وينشرون دينه ويقدمون في سبيل الله دماءهم وأرواحهم ويفارقون من أجله ديارهم وأولادهم لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، ذلك أن المسلمين الأول لم ينقلوا الاسلام إلى الأمم ولكن نقلوا الأمم إلى الاسلام.

وكذلك كشفت حركة اليقظة حقيقة أساسية هي أن كل نظرية وضعية فيها عوامل قوتها وعوامل ضعفها وأن الحقيقة لا بد أن تظهر وإن أخفاها بريق الصياغة وخداع الطابع العلمي الزائف. والمعروف أن التلمودية اليهودية قد استطاعت أن تحتوي الفكر الغربي - وأن تخرجه من روحه المسيحية وأن تخرج الفكر البشري من دينيته - وكانت أول علامات السيطرة هي إقرار المسيحية بالربا وإعلانه، واليوم نجد المذهب الفردي والمذهب الشيوعي يصدران عن مفهوم واحد هو المادية ومادية التاريخ والعوامل الاقتصادية، فهم يرجعون إليها كل التطورات الاجتماعية، ولذلك فإن الخلاف بين المذهبين هو خلاف في الفروع أما في الأساس فهما يلتقيان في النظرة المادية، هذه تعلي

من شأن الفرد والمجتمع الرأسمالية وهي تعلي شأن القيادة الشيوعية التي تسيطر على كل شيء . وكان من شأن دعوة الاحتواء الإشادة بالحضارة الحديثة ودعوة المسلمين إلى اعتناق مفهومها المادي ، وفي الوقت الذي تعجز فيه الحضارة الغربية عن مواجهة الخطر الذي يجتاحها وتقف في ضعف لا تريد أن تصحح موقفها ، يدعى المسلمون إليها بينما تقف الحضارة الإسلامية موقف الفهم الصحيح والاتجاه السليم نحو تصحيح موقفها وتحرير أنفسها ، وذلك باتجاهها إلى المصدر الأصيل (القرآن) مؤمنة بأنه هو المصدر الأول الذي يلهمها طوق النجاة لمحاولة جديدة نحو الرواد والتجدد .

وكذلك تجيء حركة اليقظة دعوة الانفتاح دون تحفظ ولا ضابط على الحضارة الغربية وأن تؤخذ الحضارة كلها وكما هي ، ولا ريب أن الانفتاح الفكري العالمي ضرورة ويجب أن يتم على أساس عرضه على مفهوم الأصالة وأن الانفتاح له محاذيره وأخطاره ، وأهمها خطر الاحتواء والقضاء على الذاتية الإسلامية المتميزة ، ومن أجل هذا لا بد أن توضع له قواعد وشرائط تتفق مع الشخصية الإسلامية وأصالتها واستقلالها ودورها الحضاري البناء .

وكان من أهم ما قامت به حركة اليقظة هي إعلان طابعها الاستقلالي الممتد على الزمن أربعة عشر قرناً امتداداً لمفهوم القرآن فلا يجوز أن يكون امتداداً لحضارة منهارة تمر بأسوأ مراحل أزمتها ، كذلك فإن الأمة الإسلامية نظريتها الخاصة في التربية وأن ما صاغه الغربيون لا يصلح لنا أصلاً ، وأن المسلمين نظرة خاصة مستمدة من كتابهم وتراثهم تجعل ولاءهم للاسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً .

وقد تبين بوضوح الإجابة على التساؤل الملح : هل هدفنا هو اللحاق بالغرب أم استعادة ذاتيتنا ومقوماتنا ؟ إذا كان الهدف هو الوصول إلى الأمن والعزة والكرامة وامتلاك مقدراتنا فإن اللحاق بالغرب لا يحقق هذا في ضوء تجربة اتصالنا به على مذهبيه (الرأسمالية والماركسية) وعلى جميع أيدلوجياته وفلسفاته ، إذا كان الهدف هو الوصول إلى قيمة الحضارة الحقيقية الإنسانية من عدالة ورحمة وسماحة وقوة فإن اللحاق بالغرب لا يحقق هذا وإنما يحقق هذا كله نور مستمد من داخل فكرنا وتاريخنا .

إن الأخلاقية أساس ودعامة في حضارتنا وإن طابع الحضارة الإسلامية أخلاقي في أساسه وأن هناك ارتباط حقيقي بين الحضارة وبين النظرة إلى الكون وأن التماسك بواسطة الأخلاقية في المجتمع هو الأداة الصحيحة لصنع التقدم ، وأن أول علامات اضطراب المجتمع وتفككه إنما تظهر في تراخي الأخلاق .

وبالنسبة للسياسة فقد كشف الإسلام عن أنها نقطة في دائرة الفكر وليست لها السيطرة المطلقة التي تجعل الفكر خاضعاً لها أو عبداً لأهوائها ، وأن النظرة السياسية نظرة جزئية ، وأنه يجب ألا يوظف الفكر في خدمة السياسة بل على السياسة أن تستمد مقوماتها من أصالة الفكر الاسلامي .

كذلك كشفت حركة اليقظة خطأ القول بالتمييز الغربي للمسلمين بين الإسلام والعلمانية أو القول بأن الإسلام لا يستطيع أن يواجه التطورات الاقتصادية والاجتماعية التى يواجهها العرب والمسلمون ولا ريب أن العلمانية التى يدعون إليها هى فراغ والفراغ لا يمكن أن يحمى المنطقة من الأخطار وأن الإسلام هو الحل الوحيد الذى يحمى الأقطار العربية الإسلامية ، لقد حمى الإسلام هذه الأقطار فى الماضى وسيحميها فى المستقبل ، فالإسلام وحده هو السلاح الوحيد .

وكانت هناك محاولة إقصاء الاسلام عن المجتمع عن طريق تشويه معالم الاسلام وعن طريق إلقاء الأضواء على الشبهات المرتبطة بالفكر الاسلامى أو عن طريق إضعاف المؤسسات الاسلامية التى كانت تقود حركة النضال والكفاح أيام الاستعمار كالأزهر والزيتونة والقرويين .

وكان علينا أن نكون متيقظين إزاء خلق مذاهب داخل دائرة الاسلام توصف بالتجديد كالأحمدية والقاديانية ، هذه التى تنظر إلى فكرة الجهاد فى الاسلام على أنها فكرة مؤقتة حتى يستقر الاسلام نفسه كدين ، مع أن فكرة الجهاد فريضة ماضية إلى يوم القيامة — هذه التى تدعو إلى سلوك طرق الانسحاب من النضال وعدم مقاومة الأجنبى ، وهى مفاهيم الغاندية والتولستوية التى ترمى إلى تدمير الاسلام من الداخل وإخضاع المسلمين عن طريق الاعتقاد ودعوة الاسلام هى العودة إلى المنابع ، ولا يمكن أن توصف العودة إلى المنابع بأنها عودة إلى التعاليم البدائية فقد يقال هذا بالنسبة لأى ملة غير الاسلام .

ولقد طرحت الرأسمالية والشيوعية والوجودية مفاهيم هى بمثابة عملية تفريغ للعالم الاسلامى من الفكر الأصيل ، وذلك بتقديم فكر وثنى مادى إلحادى بديلا لفكر الاسلام وعزل الدين عن المدرسة والجامعة وعزل القرآن عن الثقافة .

ولذلك فقد كانت مهمة المفكر المسلم جد خطيرة ، ذلك أن مهمته هى تحرير البشرية من هذا الفكر الوثنى الجاهلى الذى عمد إلى التحكم فى رقاب الناس ، وهى نفس المهمة التى حملها الجيل القرآنى الأول على عاتقه وكان على الفكر الاسلامى أن يخوض حرباً مريرة لمواجهة هذه السموم واحدة بعد أخرى حفاظاً على كيانه وأصالته .

وتريد التلمودية المسيطرة على الفكر الغربى أن تعمل على تغليب فكرة الجبر على حرية الارادة حتى تسيطر على عقول الناس وقلوبهم وتدفعهم إلى الفساد تحت إسم فساد المجتمع وإذاعة أصور مسموم كاذب هو عدم وجود ما يسمى المسئولية الفردية ، كذلك دفع الاستعمار والنفوذ الأجنبى التلمودى إلى أرض الاسلام تحت أسماء كثيرة : تحت إسم الفكر الحر وتحت إسم البهائية وتحت إسم الماسونية وتحت إسم العلمانية .

وطريقنا هو إلى نظرية متميزة فى الاقتصاد الاسلامى ومفهوم أخلاق التنمية الاقتصادية وهم

يتحدثون عن معطيات الحضارة المادية ويطالبون بتضحية كل القيم في سبيلها ، ولكن موقف المسلمين غير ذلك ، ذلك أنه إذا خير المسلمون بين معطيات الحضارة المادية وبين فقدان الذاتية لفضلوا سلامة ذاتهم وتأكيدها وبقائها ولو ضحوا في سبيل ذلك بكل معطيات الحضارة .

لقد كشفت حركة اليقظة أن على المسلمين ألا يعتمدوا لغير منهجهم ولا يأخذون نظماً أو مناهج أخرى ، لقد كان هدف حركة الاحتواء أن يفرغ الإنسان المسلم والعربي من كل عقيدة أو فكرة مسيطرة مستحوذة على طاقاته ومواهبه .

وكان هدف الإسلام أن يدفعه لاقتحام الصعاب وتقديم التضحيات في سبيل هدف سام وغاية نبيلة ، ولقد استهدفوا من تدمير الشخصية الذاتية المستقلة للفرد أن يدمروا كيان الأسرة حتى ينفصل الإبن عن أهله فتتحطم تلك العلاقة التي توجه الأبناء وتحميهم من الشطط ، ومن ذلك إخراج المرأة من حصنها وحضانتها ودفعها إلى التمرد على الزوج والأسرة ، والهدف هو تحطيم الأسرة المسلمة وصولاً إلى تحطيم الكيان الإسلامي كله .

ولقد كان هدم الأخلاق هدفاً أساسياً في الأيدلوجيات الوافدة ، ولذلك فإن حركة اليقظة دعت المسلم إلى أن يتمسك بأصالته وخاصة في الجانب الأخلاقي ليكون قادراً تجاه عالم الأشياء ، حتى يهيمن عليها ولا تسيطر عليه كما حدث للإنسان الغربي الواقع تحت سلطة الأشياء .

ولقد حرص كتاب التغريب والغزو الثقافي على إيقاظ الدعوة عن الفرق القديمة وهو عامل يستهدف تمزيق وحدة الجماعة ، والتفرقة بين العناصر والأجناس وعوامل البيئة ، وحاولوا وصف الأخلاق التي هي جزء من الدين بأنها تقاليد ، ولذلك كان علينا أن نوضح الرؤيا في التفرقة بين التقاليد والأخلاق وبين العقيدة والتاريخ وبين الأصل والوافد وبين الأصول والفروع .

لقد كان الأخذ عن الغير مقيداً بشرط المحافظة على أصالتنا .

كذلك فقد عمدوا إلى إبراز دور الزنادقة والشعوبيين القدامى وإحياء سيرهم وتحويلها إلى قصص وتراجم ذات بريق .

وما كان هؤلاء الزنادقة والشعوبيين في حياتهم ولا بعد مماتهم على هذا القدر من التقدير الذي أعطاه لهم الغربيون بالكتابة عنهم وتأليف المسرحيات وإذاعتها بل كانوا موضع المهانة في قومهم والاحتقار ، وما كان لهم إلا أن يتواروا في الحانات والأماكن المعزولة .

وقد كشفت حركة اليقظة عن فساد القانون الوضعي وأشارت إلى تلك الحقيقة التي تقول بأنه كيف يملك البعض إرادة البعض ، ويقيد هذه الإرادات ويسمو عليهم ويفرض عليهم القواعد والنصوص وكيف يمكن أن يكون من البشر للبشر من يعطي حق التشريع ، ولا بد أن تكون هنالك

جهة أعلى من البشر هي التي تضع قوانينها ، وليس من الغريب أن يحمي القانون الوضعي الخمر والربا والزنا لأنه بعيد عن روح الدين ولكن الغريب هو أن يقبل المسلمون هذا الاتجاه وقد حذرهم الله تبارك وتعالى بفساد الحكم بغير ما أنزل الله .

كما وضعت حركة اليقظة تلك القاعدة التي تقول ليس علينا أن نأخذ مفاهيم الغرب لنطبقها على القيم التي نؤمن بها ولكن علينا أن ندرس مفاهيم الغرب دراسة مقارنة لنقرر مدى الالتقاء ومدى الاختلاف بين مفاهيمها وصولا إلى الإصالة والتماسا للمفهوم المتكامل الجامع في مواجهة الانشطارية الغربية وأن نكشف عن وجهة نظر الإسلام في كل القضايا التي تدرس في مناهجنا وجامعاتنا مقطوعة الصلة بأصولها التي انشأت منها وبأصالة نظرتنا إليها وأن أي مذهب أو نظرية يجب أن تعرض على أصول فكرنا الإسلامي ، ذلك أن فكرنا متجدد بطبيعته قابل لاستيعاب المتغيرات ولكنه قائم على أساس ثابت وله جذور وضوابط وعلينا أن نكشف دائماً عن الفوارق الدقيقة بين مفاهيم الفكر الإسلامي والفكر الغربي في مختلف المجالات .

وأبانت أن مفتاح الخلاف بين الفكرين يتمثل في ظاهرة التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب والبعث والجزاء الأخروي التي يقوم عليها بناء الفكر الإسلامي .

كذلك فقد كشفت حركة اليقظة عن فساد القول بأن البشرية مهددة بالمجاعة ، وإنما هي مهددة حقيقة بالظلم بسبب احتكار الأقوات وحرمان الضعفاء منها وكشفت عن فساد الدعوة إلى استلهام الأساطير : أساطير زيوس وباخوس وجوبيتر وتجاهل التاريخ الإسلامي وبطولات خالد وسعد وعمر ابن الخطاب .

كما دعت حركة اليقظة إلى القدرة على الاستقلال العقلي والنفسي والتحرر من التقليد والتبعية وأن تعاليم الإسلام ليست حلولا للمشاكل بقدر ما هي وقاية من المشاكل .

• • •

الباب الثالث

فى مواجهة التحديات

أولا : النكسة . ثانياً : المواجهة . ثالثاً : حرب رمضان .
رابعاً : الله أكبر . خامساً : ماذا تعنى صيحة العودة إلى الله .
سادساً : المدرسة القرآنية . سابعاً : التحول من التغريب إلى الأصالة .

الفصل الأول

النكســـة

عندما وقعت الهزيمة ١٩٤٨ كان ذلك إعلاناً بهزيمة الأيدلوجية الرأسمالية والليبرالية فى عالم الإسلام ، وعندما وقعت النكسة ١٩٦٧ كان ذلك تأكيداً بهزيمة الأيدلوجية الماركسية الاشتراكية ، فقد كانت الفكرة التى حملتها الأنظمة بعد الحرب العالمية وسيطرة الاستعمار الفرنسى والبريطانى على البلاد العربية هى أن طريق الليبرالية الرأسمالية الغربى هو الأسلوب الوحيد الذى يحقق لها الفوز والنجاح والقدرة على امتلاك إرادة الحرية ، وقد حملت لهذه الدعوة أقلام التغريبيين والتابعين للاستعمار والغرب فى الدعوة إلى العيش الغربى خلال ما بين الحربين على أنه الأسلوب الوحيد لمحاربة الاستعمار ، هذه الدعوة التى حجبت حقيقة أساسية هى (حتمية الحل الإسلامى) لهذه المجتمعات فى إمكان عودتها إلى القوة والحرية وامتلاك الإرادة .

وكان النفوذ الغربى يعمل جاهداً على حجب هذه الحقيقة وتشويهها وإثارة الشبهات حولها وضرب القوة المتجمعة تحت إسمها دفعاً للعرب والمسلمين إلى الدخول فى دائرة الاحتواء الكامل فى إطار الفكر الغربى بماديته وانحلاله على النحو الذى دعا إليه عميدهم حين قال إنه الحل الوحيد هو تقبل الحضارة الغربية حلوها ومرها ، ما يحمد فيها وما يعاب فكانت هزيمة العرب والمسلمين عام ١٩٤٨ هى الصدمة الكبرى التى كشفت عن زيف صلاحية المنهج الغربى أن يكون أسلوباً للحياة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية فى بلاد العرب والمسلمين .

على أن التطلعات التى كانت ترى أن القوم قوى الأصالة الإسلامية بامتلاك إرادة المجتمع الإسلامى

بعد الحرب العالمية الأولى وبعد جلاء الاستعمار الغربي قد تحطمت تماماً حين سيطرت بدائل خطيرة حشدتها قوى النفوذ الأجنبي لتوجيه المجتمع الإسلامي من الأيدلوجية الرأسمالية الغربية إلى الأيدلوجية الشيوعية الماركسية . هذه التجربة التي استمرت سمومها في أفق الفكر الإسلامي والمجتمع حتى انهزمت تلك الهزيمة النكراء في نكسة ١٩٦٧ وانكشفت بها فساد التجربتين معاً وحاجة للمسلمين والعرب إلى التماس منهج أكثر أصالة وقدرة على تحقيق أهدافهم في امتلاك الإرادة والحرية .

ومن هنا كانت النكسة ١٩٦٧ علامة خطيرة على طريق العالم الاسلامي والفكر الاسلامي بعد أن حشدت له خلال سنوات مابعد الحرب الاولى كل الشبهات والسموم وركام الفلسفات والايدلوجيات المتضاربة المتيفة والتي كانت تستهدف شيئاً واحداً أساسياً هو تدمير القوة الفكرية الإسلامية التي ما يزال النفوذ الأجنبي يراها عقبة شديدة في طريقه دون احتواء هذه الأمة الاسلامية والسيطرة عليها سيطرة كاملة .

ولقد كانت هذه الأمة تواجه في مرحلة ما بين الحربين قوة واحدة هي قوة الرأسمالية الغربية فإنها أصبحت تواجه بعد الحرب العالمية الثانية وصولا إلى نكسة ١٩٦٧ قوى ثلاثة : القوة الغربية الرأسمالية في بعض الأقطار والقوة الماركسية الشيوعية في بعض الأقطار ونفوذ الفكر اليهودي الصهيوني ممثلا في سيطرة إسرائيل على فلسطين واحتلالها الأجزاء من مصر وسوريا والأردن والسيطرة على بيت القدس وهو ما حدث عام ١٩٦٧ فكان بمثابة حدث ضخم بعيد المدى في تاريخ العالم الاسلامي يمثل أقصى ماحققه النفوذ الغربي منذ انطلاقه في العصر الحديث منذ بدأ في احتلال الهند وأندونيسيا في القرن الثامن عشر والجزائر ومصر في القرن التاسع عشر وإكمال الحلقة في الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ باحتلال الأجزاء العربية وإسقاط الدولة العثمانية ثم إسقاط الخلافة ثم إقامة كيان إسرائيل بعد الحرب العالمية الثانية .

ولم يكن خافياً أن المحاولة كلها تستهدف السيطرة على قلب العالم الاسلامي وضرب الأجزاء العربية منه التي تحمل رسالة الاسلام والتي تحمل أمانة الاسلام نفسه .

لقد انتهى بعد الحرب العالمية الثانية نظام الديمقراطية الغربي وظهرت أنظمة أخرى تقوم على حركات الجيوش في عديد من بلاد الاسلام والعرب ، تحاول أن تفرض نظام الحزب الواحد العسكري وتستقطب كل القوى تحت نفوذها ، وتعزل كل القوى التي تحمل لواء الفكرة الاسلامية أو تحاول أن تتميز بطابعها الذاتي ومفهومها الخاص ، وإذا كانت هذه القوى ترى أن هناك في مواجهتها قوتين: هي قوة الشيوعيين الماركسيين وقوة أصحاب الدعوة الاسلامية فإنها قد أصدرت حكمها بإعلاء القوة الأولى وتمكينها من السيطرة على مقدرات الفكر والرأي والأعلام والصحافة وصادرت القوة الثانية مصادرة تامة وراء السجون والمعتقلات في أبشع محاولة لتعذيبها وإفنائها .

ولقد كان للاستعمار البريطانى عام ١٩٤٨ دور فى هذه المحاولات وكان للنفوذ الغربى الجديد دور آخر عام ١٩٥٤ وكان للنفوذ الشيوعى دور ثالث عام ١٩٦٥ وكانت الصهيونية من وراء هذه التصفيات الخطيرة ، وقد كشفت الوثائق التى ظهرت فى السنوات الأخيرة أن المحاولات الثلاثة قد قامت على غير دليل أكيد أو اتهام صريح أو مؤامرة واقعة ، وإنما جاء ذلك كله على أساس شبهات وتحريضات وأهواء مصدرها الخلاف الشخصى والخصومة الفردية ، وأنها استهدفت تغطية جرائم واتهامات وصرف الأذهان عن واقع فاسد إلى مأساويات مثيرة ، لقد كان واضحاً فى باكستان وأندونيسيا ومصر وأجزاء أخرى أن هناك شبه اتفاق على تصفية الدعوة الإسلامية .

والواقع أنه لم يكن هناك من خطر إبان الاحتلال فقد كانت القوى كلها مجندة للمقاومة ، ولكن بعد الاستقلال وجلاء القوات الأجنبية جاءت مرحلة التراخى والنعومة والاستسلام وهناك تضاعفت حركة العدو الذى انتقل من مرحلة الغزو السياسى والعسكرى إلى مرحلة الغزو الفكرى والعقائدى ، وقد كان العدو يستعد خلال مرحلة الاستقلال لهذه المرحلة بإعداد قواعده التى ينطلق منها وإعداد رجاله وأتباعه : المدرسة ، الإرساليات ، الصحافة ، فلما جاء الاستقلال كانت هذه القوى على طول العالم الاسلامى وعرضه مذللة فى يديه .

ومن هنا انحرفت المقاييس وتبدلت الموازين وهجر المسلمون الأساليب الأصيلة التى كانوا يقايسون بها الأمور ويحكمون بها على الأحداث ويواجهون بها الأخطار وفرضت عليهم أساليب أخرى غريبة ودخيلة من شأنها أن تجعل أحكامهم مضطربة وتجعل مآلهم إلى الهزيمة .

إن نكسة ١٩٦٧ هى النتيجة الطبيعية لاصطناع أسلوب الغرب لمقاومة الغرب أو الماركسية لمواجهة الرأسمالية وكلاهما فى عالم الاسلام غاصب طامع ، فذلك التماس منهج أمة غاصبة للانتصار عليها والظن بأن الديمقراطية الغربية أو الشيوعية الماركسية تضمر أى قدر من الصدق أو الوفاء لإعطاء هذه الأمة أسباب القوة أو العزة أو الحياة التى تلتمسها الأمم الضعيفة من الأمم القوية ، أو الأمم المغلوبة من الأمم الغالبة ، فقد خدع العرب والمسلمون بأكاذيب ما أطلق عليه الصداقات الدولية ، وغفلوا عن الاسلوب الحقيقى لمواجهة أعدائهم الذى كشفه لهم القرآن ، والتمسوا أسباب النصر على العدو من عطاء العدو نفسه ، سواء أكان الاستعمار الغربى أو النفوذ الشيوعى ، فهؤلاء جميعاً يضمرون الحقد ويهدفون إلى إيقاع المسلمين والعرب فى شراكهم لاحتوائهم وإذلالهم ويخدعونهم ببريق الألفاظ والايدلوجيات ليردوهم عن منهجهم الأصيل وليجعلوهم فى دائرة احتوائهم وليخذلوهم فى ساعة العسرة ويدمرونهم فى الوقت الذى يرونهم قد أوفوا على التسليم لهم ، وهم يعملون ليجعلوهم فى دائرة احتوائهم فى برامجهم الأممية حتى يفقدوا ذاتيتهم التى يتميزون بها ويفقدون منهجهم الذى هو سلاحهم فى مواجهة كل غاز أو معتدى ، وقد حق على المسلمين والعرب القول فغفلوا عن مقاييسهم فى مواجهة العدو أو فى التماس النصر أو فى مقاومة الغاصب ، غفلوا عن تطبيق منهج الله وظنوا أنهم

يستطيعون لو التمسوا مناهج الغرب أن يصبحوا مثله أقوياء وأن يتحرروا منه ، وكان قبول ذلك والتصديق به أكبر (مفصل) فى حياتهم وأقوى خنجر صوب إلى صدورهم ، ذلك لأن لكل أمة قيمها وعقيدتها وأساليبها التى تمكنها من النصر واستعادة الحق ، وأن مناهج أى أمة لا تنفع أى أمة أخرى ، بل تكون وبالا عليها إلا إذا أخذت الأمة المسلمة بالأساليب والوسائل وطبقتها فى إطار أيدلوجيتها الخاصة .

(٢) لم تكن (النكسة) هى نهاية الهزيمة بل كانت أولها ، كانت منطلق الإطباق على الفريسة والقضاء عليها والإجهاز على وجودها كله ، كانت منطلق التصفية النهائية لهذا الوجود الإسلامى الأصيل وصولا بعد تلك المراحل المتصلة خلال أكثر من سبعين سنة إلى ما وصف بأنه (إما أن تكون أو لا تكون) فقد انطلقت القوى الماركسية والصهيونية والغربية جميعاً إلى عملية الإجهاز بما طرحوا من دعوات خطيرة إلى التحلل من التراث العربى الإسلامى، والتخلص من طوابع الحياة الاجتماعية والفكرية ، وقد حمل لواء هذه الدعوة عتاة أقوام حاولوا تدمير ما بقى من وجود هذه الأمة ، وقد أشار بعض الباحثين إلى أن الخطط الموضوعة كانت تصر على أن الأمة لن تقوم من سقطتها إلا إذا : (١) تخلت عن عقائدها . (٢) وحطمت تقاليدها .
(٣) وداست على تاريخها (٤) وتنكرت لإيمانها .

بل إن الأبحاث التى قام بها الدارسون أكدت حقيقة أساسية : هى أن الهزيمة (هزيمة يونيو ١٩٦٧) لم تكن فى حقيقتها إلا نتيجة محتومة للفساد الذى نشأ والخلل الذى ساد والاستهتار الذى سيطر ، وإلى ذلك التحول الخطير الذى حققته سنوات الولاء للفكر الماركسى والتطبيق الشيوعى الذى حطم قوائم الأصالة والخير والمقاومة ، وأن هزيمة يونية كشفت عن أن الأمة كانت تسير فى طريق خاطىء وبأسلوب خاطىء ، وأن الذى جرى فى يونية هو نتيجة محتومة وطبيعية أفضت إليها كل المقدمات التى سبقتها وليست نكسة عارضة أو مماكسة لخط السير العام ، ولقد تعالت الأصوات بتلك النكات المسمومة الخطيرة بأن على العرب أن يفهموا أن عليهم أن يختاروا إلغاء الوجود العربى التقليدى وبين بقاء الاحتلال الصهيونى فيدركوا أن إلغاء الأول هو شرط لإلغاء الثانى (البيطار = من النكسة إلى الثورة) ولم يكن الوجود العربى التقليدى الذى كانا مطالبين بإلغائه إلا الإسلام ، ولذا فإن محور الدعوة المسمومة بعد النكسة كانت الدعوة إلى حرب الإسلام وإلى القضاء عليه .

والمعروف أنه خلال السنوات العشر (١٩٥٦ — ١٩٦٧) لم تكن هناك فكرة لتكوين قوة عسكرية لمواجهة إسرائيل فإن الهدف لم يكن غير تثبيت الوجود السياسى داخلياً ، ولقد هزم الجيش فى ١٩٦٧ بنفس الخطة التى هزم بها ١٩٥٦ وكان الجميع يعرفون أن هناك ضربة من إسرائيل فى (٥ يونيو) بل إن النصر الذى أعلن عن تحقيقه ١٩٥٦ كان أكبر عملية تزوير فى التاريخ، وهو أن تظل

أمة عشر سنوات تجهل أنها هزمت هزيمة فادحة وتظل معتقدة أنها انتصرت وأن احتلال اليهود لسيناء كان عبقرية عسكرية من جانبنا إذ أمرنا بالانسحاب البارع والإفلات من الكماشة ، كان هناك التغرير بأمة كاملة وإخفاء الحقيقة عن الأمة ، فقد فتح خليج العقبة لأول مرة بعد أن ظل ثمانى سنوات مغلقاً فى وجه الملاحة الاسرائيلية بمساعدة مصرية ثم جاءت محاولة إغلاق خليج العقبة ١٩٦٧ كأساس لهزيمة ١٩٦٧ التى تمت بنفس مخطط ١٩٥٦ تحت تقدير العدو بأن العرب لا يواجهون خططهم وأن ما جرى فى الخامس من يونية يؤكد أن الحقيقة لم يكن يسمح بتداولها على أى مستوى .

وبعد الهزيمة روجت إسرائيل بأن روسيا قدمت للعرب السلاح الذى يكفل فتح إسرائيل ولكن الجيش لم يقاتل وتبين أن روسيا لم تسلح العرب إلا تسليحاً دفاعياً لا يتجاوز قوى إسرائيل ولا يمكن من النصر عليها بل إن روسيا هى التى نصحت العرب بعدم دخول الحرب فى فجر اليوم الذى وجهت فى ضحاه إسرائيل الضربة إلى العرب .

وقد برهنت الهزيمة على أن قادتنا وشعوبنا لم يكونوا عالمين بحقيقة اللعبة العالمية وأبعادها ، ولم يكونوا فاهمين لعمق الصلة بين الصهيونية والشيوعية والتنسيق بينهما مخدوعين بصداقة السوفييت الذين لم يقدموا السلاح والذين قدموا نصيحة الغش ليجعلوا إسرائيل تسبق العرب بالضربة الأولى التى حققت زوال فلسطين كلها واحتلال أجزاء من مصر وسوريا والاردن ، وتبين أن العرب لم يكونوا قد استعدوا لمعركة حاسمة مع اليهود وكانوا مستهينين بالعدو وأن الفترة بين النكبة ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ (تسعة عشر عاماً) قد قضاها العدو فى الاستعداد لمعركة جديدة حاسمة يمكن بها لنفسه فى الأرض المحتلة ، وقضاها العرب فى الاستهانة به والتقليل من شأنه ، وهزمت الدول العربية مرتين ، وفشلت فى السعى إلى وحدة عربية شاملة .

وقد أشارت أبحاث سياسية وتاريخية إلى أن الروس كانوا يعلمون بموعد الضربة الجوية الاسرائيلية التى حسمت النتيجة حرب يونية منذ ساعة اندلاعها الأولى ، ورغم ذلك فإن الحكومة السوفييتية لم تبلغ القاهرة ، بل إن السفير أيقظ مسئول كبير بعد منتصف الليل وقبل حرب ٥ يونيو بساعات ليطلب إليه عدم البدء بالحرب بنتيجة اتفاق تم بين موسكو وواشنطون أى أن موسكو لم تخف موعد الضربة الاسرائيلية فحسب وإنما طلبت من مصر ضبط النفس ومنع أى ضربة من جانبها وكأنه كان يراد لحرب ٥ يونيو أن تبدأ وتنتهى كما خططت إسرائيل بالضبط بهدف هزيمة مصر ونصر إسرائيل وأنه إذا نجحت إسرائيل فإن كبرياء مصر يتبدد وحكومتها تسقط ، وكان الاتجاه السوفييتى يخطط لالتهام مصر بواسطة أعوانه الذين باعوا بلادهم للفوز بالسلطة .

لقد عجز العرب أن يواجهوا ظاهرة احتلال اليهود لاسرائيل بالأسلوب الاسلامى ، بإعلان الجهاد والمرابطة فى الثغور وإنما انصرفوا إلى الأهواء والمطامع فتحققت ثلاث هزائم فى فترة أقل من حياة جيل واحد وكان مصدر الهزيمة أن المواجهة لم تكن وفق الأسلوب الاسلامى ، كانت هناك

تيارات الإقليمية والقومية العربية بالمفهوم الغربي، وهناك فكر الرأسمالية وفكر الماركسية ومفاهيم الفرويدية والوجودية، وكلها قتلت روح الإيمان والجهاد والخشونة في الكيان الاسلامي العربي ولكن أعداء هذه الأمة كانوا أعلى صوتاً بعد النكسة في الدعوة إلى تدمير التراث الاسلامي والدعوة إلى ما أطلق عليه الدولة العصرية، وإنكار الماضي والتاريخ والتراث والعقائد، بل إن بعضهم جعل من هذه المفاصلة ثمناً للحرية، ومنها الدعوة إلى حل قضية فلسطين حلا عربياً، وفي ظل النكسة أثير ذلك الطوفان الهائل من الأفكار والتيارات وعادت استيقظ من جديد مفاهيم الفرعونية وترجمة كتاب الموتى ودراسة الخوارج والمعتزلة والقرامطة، وكان الشيوعيون يسيطرون إذ ذاك على الثقافة والصحافة والمسرح والاعلام فكانوا عاملا هاماً في تدمير الوجود الحقيقي.

ولكنه من ناحية أخرى كانت النكسة هي عامل اليقظة الحقيقي للأمة من سباتها فكان عليها أن تعيد النظر في كل جزئيات حياتها السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وأن تعيد النظر في أنظمة الغرب والأنظمة الماركسية وتعرف فسادها وتعرف ولائها الصهيونية وغشها الأمة وعجزها عن العطاء، ووقوفها حاجزاً دون امتلاك الأمة لإرادتها أو امتلاك القوة الحقيقية. وكانت دعوة حركة اليقظة الاسلامية إلى تنقية الثقافة والفكر من آثار التغريب والغزو الثقافي.

وقد كان من أكبر الحقائق التي تبينت: فساد الدعوة التي حملتها الدعوى (الشيوعية الماركسية الاشتراكية) إلى تحقيق العدالة الاجتماعية في البلاد العربية فإن التطبيق استهدف في الدرجة الأولى المقاصد الماركسية والمبنية على الصراع الطبقي والهادفة إلى تدمير المجتمع العربي وقلبه رأساً على عقب القضاء على أعرافه وانتهاك حرماته ومقدساته واعتبار الأخلاق التي يؤمن بها أخلاقاً رجعية يجب استبدالها بالأخلاق التقدمية.

وتبين أن المجتمعات التي خرجت من نفوذ الاستعمار الغربي قد دخلت في نفوذ استعمار أشد منه عنفاً، استعمار مغلف بروح الدكتاتورية والسيطرة الفردية وأن الأوضاع الجديدة تبنت عقائد الاستعمار في هدم القوى الوطنية، وسلكت نفس طريق الاستعمار في إخلاء الواقع الاجتماعي من الاسلام، وتأكدت طوابع العلمانية والمادية في عزل الاسلام عن الدولة وإبعاده عن التعليم والتشريع والاقتصاد وإضعافه في معاهده ومؤسساته وإلغاء المحاكم الشرعية. وحاولت الأنظمة الماركسية المطبقة التسوية بين الرجل والمرأة في الميراث والتخفف من ضوابط الزوج والطلاق ومباركة زواج المسلمة بغير المسلم بينما البعض الآخر رفع القرآن كاية ووضع مكانه رأس المال والاشتراكية الينينية لكارل ماركس وماوتسي تونج، ومنهم طرد الاسلام كلية، وقد رأى كثير من حكام المجتمعات الاسلامية المعاصرة أن الاسلام قد انتهت صلاحيته في السياسة وفي الروابط الاجتماعية — كما يقول الدكتور محمد البهي — من غير مراجعة ومن غير بحث اعتباراً على ما كان يردده المستعمرون الغربيون وما يردده اليوم المستعمرون الحمر بأقلام عملائهم في هذه المجتمعات ولم يأت حاكم وطني بعد الاستقلال

بوأبعد دستور العمل والحكم في بلده على هديه من تعاليم الإسلام بل من يظهر من الحكام الوطنيين لو أشار إلى الإسلام فإنه يكتفي من الإسلام بأن يكون دين رئيس الدولة ومجتمعه مسلماً أو بأن يعلن صلاحية الإسلام كمصدر التشريع القوانين دون أن يطبق ما يعلن .

(٣) كانت النكسة نتيجة طبيعية المخططات التي انفذت في البلاد الإسلامية والعربية والتي تمثلت في الحملات المستفيضة على الشريعة الإسلامية لانتقاصها وتصويرها بصورة الجمود أو الصحراوية أو المنقولة من القانون الروماني ومحاولات إفساد العقيدة بإثارة تيارات باطنية وفلسفية ، وكذلك في مجال الثقافة بمحاولات الفصل بين الثقافة المدنية والثقافية والإسلامية وإيجاد حاجز مضلل بالحلة الفرانسية ومحاولة لتبعية الثقافة العربية الحديثة إلى الفكر اليوناني قديماً ومحاولة إعلاء شأن فلسفات ابن سينا وأدبيات ابن المقفع وشعر أبي نواس وتصوف الحلاج .

وفي مجال الصحافة جرى دحر الاتجاه الإسلامي الذي كان تتميز به الصحافة منذ أصدرها على يوسف ومصطفى كامل وعبد العزيز جاويش وردها إلى الاتجاه الذي أنشأه المارونيون اللبنانيون واتخذته برائد تغريبي حمل لواءه الأهرام في عهد روز اليوسف وصباح الخير وأخبار اليوم .

وفي مجال التعليم حيث أصبحت مناهج التعليم وما تزال خاضعة لمفاهيم ديوى والتي لا تحتفل بالدين ولا بالتربية النفسية وتلك الحملات المتصلة على اللغة العربية عن طريق الاستشراق أم عن طريق الإقليميين المتعصبين ضد اللغة العربية من رعاة الفرعونية والفينيقية .

ولقد أشار كثير من الباحثين إلى مدى الخطر الذي لحق الوجدان العربي نتيجة لتلك المرحلة الخطيرة السابقة للنكسة وما بعدها ، ومدى الأثر الذي لحق بالفكر الإسلامي والأدب العربي نتيجة رياح الماركسية والوجودية والفرويدوية المسمومة التي ظلت أقلام التغريبيين تلوكها سنوات عشر في صور من المحاولات القصصية والروائية التي تفيض بالحديث عن الغربة والقلق والموت والضياع والانخلاع من الواقع ، كما استفاضت الكتابات عن لقمة العيش والجنس وأثرهما ، ولا ريب ن هذه التأثرات كانت تقليدية محضة ، ولم تكن تمثل صميم المجتمع ، ولم تكن النماذج التي قدمتها هذه القصص وهذه الكتابات تمثل واقع المجتمع ، كانت كلها كتابات موجهة محرضة داعية للتآمر والاقتصاص وإثارة الأحقاد ، وضرب كل سليم وصالح في المجتمع ، وعليه يتحقق للمقومات والأخلاق والقيم الأساسية .

بل إن هناك محاولات كثيرة جرت من أجل مواجهة العقائد الكبرى للمسلمين والعرب ، وفي إحدى البلاد العربية هاجموا الألوهية فكتب أحدهم مقالا في مجلة للجيش يهاجم الألوهية ويسخر من الدين ويحرض الناس على التخلص منه .

يقول محمد يوسف المقيد : إن الأمة العربية قد تعرضت قبل وخلال هذه الحروب جملة من الحروب

الفكرية واسعة النطاق — سعت هذه الحملة التي درست بوعي كامل إلى محاولة تدمير الأسس النفسية للفكر العربي الإسلامي المعاصر ومحاولة تشويهه ، والأمر الثاني محاولة تقديم الفكر الغربي — المعاصر والقديم على السواء — كبديل حتمي ولا بد منه .

وكان لنا نحن المثقفين العرب فضل اكتشاف أوايا هذه الحروب الفكرية وفضح كل ما تقدمه ، كانت هذه الحرب الضارية من دعائم ومسببات النكسة الأخيرة فإن هذه الحقيقة تعد — في الدرجة الأولى — إدانة لكثير من عناصر البناء الثقافي إنتاجاً واستهلاكاً .

لقد تعرضت الأمة العربية خلال السنوات الثلاث الأخيرة (٦٥ — ٦٧) لحرب فكرية ضارية ويقول باحث آخر : إن الهزيمة التي منى بها العالم الإسلامي لم تأت من الخارج ، لقد جاء الأجنبي فوجد الطريق ممهدة أمامه ، إنه لم يجد الإسلام بكامل حيويته ولم يواجه القرآن بكل أبعاده بل وجد أمامه عقولاً منحطة وثقافة راكدة وإرادة غائبة وذكاءاً مصاباً بفقر الدم ، وأن الذي هزمت هي المناهج الوافدة التي كانت مطبقة والتي ظن أصحابها أنها توصلهم إلى القوة والتقدم ، لقد كانت الهزيمة نتيجة لانحراف العقيدة وفساد العبادة وتجميد الشريعة وعدم تطبيقها والتحلل من مفهوم الأخلاق وهجر القرآن واتخاذ بطولات الأمم مثلا لنا بينما لدينا المثل الأعلى واتخاذ أساليب التربية غير إسلامية وقال مالك بن نبي : لا أتصور نهضة لأي شعب من الشعوب العربية والإسلامية إلا بواسطة عقيدة قوية تذلل له الصعوبات وتقوى عزمه في جميع الاتجاهات ، ولا يمكن طبعاً أن تستمر هذه العقيدة كذلك شعب آخر إلا من دين يضع العادات في بيئاته ويصوغ في كل نفس اتجاهات عامة وخاصة ما يمكن أن يسمى الضمير العام .

وقد أجمع الكثير من الباحثين المسلمين إلى أن النكسة كانت تعني فساد نقل تجربة الغرب ، القوميات والليبرالية والماركسية ، والاستسلام لأخلاق منحلة كرلت طوابع الانحلال وفقدان الإرادة والتحدي في مواجهة العدو ، وإذا كان الماركسيون قد أعلنوا أن سبب التأخر هو فساد نقل تجربة الغرب ، فلا ريب أن التجربة الماركسية قد أدت إلى تلك الهزيمة الساحقة التي أطلق عليها مع (النكسة) .

الفصل الثالث

المواجهة

إن كل الذين يحاولون فهم الهزيمة إنما يصدرون عن منطلقات غير إسلامية أصيلة فهم جميعاً إما من أتباع مناهج الفكر الوافد سواء منهم الماركسيون أم أتباع الفكر الليبرالى أو الفرويدى أو الوجودى وهم جميعاً ماديو التفكير، وأغلبهم يخضعون لأهواء نحل وعقائد ودعوات هدامة، فهم لا يفهمون الفكر الإسلامى الأصيل فهماً عميقاً، أو هم أعداء لهذا الدين أو لهذا الفكر، أو أنهم لا ينظرون إليها بمنظار غربى أو منظار طائفى أو منظار استشراق، وبالتالى فإنهم إنما يحاولون خداع أهل هذه الأمة عن واقعهم وعن طريقهم الصحيح ويلحون على ذلك القول الذى يردده دعاة الاستعمار والصهيونية والتغريب بأن منطلق التقدم هو اعتناق مذاهب الفكر الغربى والتحرك من داخله.

ومن الحق أن هذه الهزيمة التى أصيب بها العرب إنما جاءتهم من الاطمئنان لقوالب الفكر الغربى ومنطلقاته ومفاهيمه التى اعتنقوها وظنوا أنها تحقق لهم التقدم أو النجاح، ولقد كان أهل الأصالة يعلمون أن هذا الأسلوب لن يؤدى إلى شىء إيجابى بل العكس من ذلك فإنه سوف يستأصل بقية الذاتية العربية الإسلامية وتسقط معه الأمة كلها فى بوتقة الاحتواء الغربى، وقد كشفت الأحداث التاريخية والوقائع منذ تسلم زمامها أولئك المؤمنون بمذهب اتخاذ الأيدلوجيات الوافدة - غربية أو شرقية منطلقاً للتقدم، كشفت عن زيف هذه الدعوة وسقوطها تماماً، فإن التجربة الواحدة سواء فى جانبها الغربى أم الماركسى لم تحقق إلا ثلاث ظواهر خطرة: هى النكبة والهزيمة والنكسة خلال هذه الفترة منذ وقعت الهزيمة عام ١٩٤٧ وامتدت حتى وصلت ذروتها فى نكسة ١٩٦٧.

ومن هنا قد كان لا بد لحركة اليقظة الإسلامية من الكشف عن زيف هذه الدعوة خاصة وأن عوامل النصر لن تبدأ إلا مع تغيير الأسلوب والتماس النهج الأصيل المستمد من ضمير النفس العربية الإسلامية ومن القيم القرآنية.

وكان لا بد بعد تلك الضربات المتوالية وبعد صيحات حركة اليقظة من تعمق فهم الهزيمة وفهم هدف الغزو الذى يرمى إلى تحويل الإنسان العربى والمسلم إلى إنسان متهور إلى عبد، الهدف هو فقدان قيام الثقة فى النفس فى محاولة لقتل الروح الإسلامية فى الإنسان العربى وذلك عن طريق تقديم سمومهم من خلال الفن والأدب والثقافة والتعليم والصحافة.

وهكذا كانت هزيمة حزيران: محاولة هزيمة الإنسان العربى والمسلم فى معركة وجوده الفعلى.

وكانت نصيحة الأصدقاء الشيوعيون واليساريون والماركسيون هي :

إنكار الماضي والبعد عن الدولة المصرية ، واحتقار القيم الأساسية والعروبة واللغة والتاريخ ، وكل هذه الصفحات الزاهرة التي أمدتنا بالقوة والاستمرار يجب أن تطوى . . ووجهت الاتهامات نحو تفكير العرب وأنهم عاطفيون وقدريون وأن مهمتهم قيم سلفية بالية قدرية . وقال الغربيون في ذلك ما قالوا رغبة في الإجهاز على الفريسة .

والحقيقة أن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ كانت ضخمة ، كانت كل أسباب الهزيمة تسري في أوصال المصريين والعرب والمسلمين كما تسري النار في الهشيم ، ولم يكن هناك طريق صحيح لمواجهة الموقف إلا التماس منهج الإسلام والقرآن الذي قدم لنا منهج النصر وأسباب الهزيمة فتجاهلنا ذلك كله وجرينا وراء أهواء الأمم وخدعنا الأصدقاء سواء في الغرب أو في الشرق .

كان علينا أن نعرف كيف نحول دون الاستسلام لتيار اليأس والقنوط الذي سعى العدو إلى زرعه في قلوبنا ، في النفس العربية الإسلامية ، مستغلا تحديات النكسة وواقعها المرير . ومن هنا فقد كانت دعوة اليقظة الإسلامية إلى أن يضع المسلمون تحديات النكسة نصب أعينهم فلا ينسونها ويجعلون منها منطلقاً إلى تحقيق الذات وتأكيد الوجود النفسي والاجتماعي ، وأن الداعين إلى تجاهل النكسة ونسيانها والإغضاء (كما جرت أقلام كتاب الطاغوت) ليسوا مخلصين في دعواهم وليسوا صادقين في محاولتهم وأن الوسيلة إلى مواجهة الأحداث إنما تكون بتقييم الأحداث واتخاذ المنطلق الصحيح إلى تغيير الواقع ، ويكمن ذلك في حسن اتصال النفس العربية المسلمة بجوهرها وأصولها وتراثها وقيمها التي تشكلت عليها أساساً والتي لم يهزم الناس إلا حين خالفوا عنها وفارقوها ، وكيف أن العرب والمسلمون ظنوا أن الطريقة المثلى للتحرر من نفوذ الغرب هي تقليده ، وكيف كشفت الأيام زيف دعوى التغريبيين ، وتبين للعرب والمسلمين بعد أن وقعت الواقعة أن عملية التقليد والتبعية لم تحقق أكثر من إحداث إطار مزخرف وهمي لصورة الأحداث العاصفة سرعان ما تحطم ، ذلك أن تقدير الدعاة إلى الاتجاه نحو الغرب (بشقيه) لم يكن صادقاً وأن الدعاة للضالين قد عجزوا عن فهم المعادلة الصعبة التي تحاول أن تنقل فكر مجتمع إلى مجتمع آخر .

ومرت خمسون عاماً على التجربة دون أن تحقق شيئاً وتبين أن إيقاظ هذه الأمة إنما يحتاج إلى قارعة تحيي النفوس وتجدد العزائم وتدعو الأمة إلى إعادة النظر في ذلك الطريق المدمر المظلم الذي ساروا فيه ، ولذلك فإن النكسة كانت عاملا هاماً من عوامل التحدي يمكن أن تصحح لنا الطريق وتعطينا عبرة التجربة مع التقليد بتردنا إلى الأصالة .

ولقد كشفت حركة اليقظة كيف أن الهزيمة إنما جاءت حين اتخذ المسلمون والعرب غير منطلق

الإسلام فهزيمتهم ليست هزيمة لفكرهم الأصيل ولكنها هزيمة الانحراف عنه وعقوبة القياس مناهج الآخرين وأساليبهم . ومن هنا لقد كان على العرب والمسلمين أن يقاوموا حملة التبشير التي تراد بهم ليلقوا بأنفسهم في أحضان عدوهم والأسلوب الصحيح هو أن يلتمس المسلمون النصر من قيمهم وآية المواجهة الصحيحة هي أن تدخل فريضة الجهاد مرة أخرى إلى حياة المسلمين وأن يؤمن المسلمون بصناعة الموت وأن يجيدوها وأن يتقدموا مؤمنين بأنه من طلب الموت توهب له الحياة ، وأنه لا بد من بناء الأجيال الجديدة على الإيمان بالله والإيمان بالقدرة على مواجهة التحدى والخطر ، وأن هذه الأجيال يجب أن تفطم عن الشهوات والأهواء والتحلل حتى تكون قادرة على أن تحمل الأمانة ، وأن مذاهب الفكر الهدام التي تحاول أن تفرض مفاهيم الترف والإباحية والتحلل من شأنها أن تؤخر كثيراً تحقيق النصر وتحول دون بناء الأجيال القادرة على العمل ، وهي تفتح الطريق واسعاً أمام تقبل النفس العربية الإسلامية حالة اليأس والقنوط التي تريد أن تقول بأن المسلمين والعرب قد انتهوا وأن قيمهم وتراثهم ومفاهيمهم قد دمرت ، وأنهم بسبيل الدخول في مجال الإبادة والانهيار .

كذلك لقد دعت حركة اليقظة إلى الحذر من خطر التبعية والتقليد والتأويل ، هذه الدعوة المتجددة دائماً في تاريخ الإسلام وفي مواجهة العدو ، ولو أن المسلمين تمكنوا بالتحذير الذي حذرهم به الإسلام لكفاهم ذلك عن كثير مما وقعوا فيه من محاذير ، وفي أكثر من موقع في القرآن الكريم تكشف كلمات الله محاولة الاحتواء :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ .

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ . ولقد كان الخطر أننا قصرنا في تنبيه أهلنا وأجيالنا الجديدة وتحذيرهم من ذلك الشر ، وأننا لم نكشف لهم من بعد أبعاد المؤامرة التي دبروها خصوم الإسلام في كل عصر وجيل .

• • •

إن أخطر ما يدعو إليه التغريب هو التبعية ، وأن أخطر ركائز الفكر الإسلامي هو الأصالة والتميز واستحالة الاستغلال ، مادة الذوبان أو الاحتواء في الفكر الأممي ، كذلك كانت الدعوة إلى

الوقوف دون ذوبان الشخصية الإسلامية فى الأممية العالمية ، تلك المحاولة الخطيرة التى حاولتها الشيوعية والصهيونية فى وقت معاً ، هذه الدعوة التى تستهدف محق الكيان وإثارة الشبهات حول كل القيم والمقدرات ، وقد وضعت اليوم فى أساليب خطيرة لها طابع براق لتحاول أن تمتلك مكان الاستسلام من النفس العربية المسلمة ، نظريات الجنس والاباحية والوجودية ونسبية الأخلاق والتطور المطلق والحركة التى لاترابط بالقيم الثابتة ، كل هذه مفاهيم ونظريات يراد بها دفع الشباب الى الانحلال والتفسخ .

وإذ كشفت حركة اليقظة عن هذه المخاطر أعلنت أن هذه الأمة يجب أن تبنى من جديد حول فكرة التوحيد وفريضة الجهاد مؤمنة بأنها لا تعيش للترف ولا المتعة ولا للحياة العارضة ، ولكنها تعيش لتحمى القيم التى جاء بها الدين الحق وتحيا لها وتموت من أجلها على أن تكون مستعدة لتقديم الشهداء وأن تحسن صناعة الموت وأن تعيد صور الرعيل الأول ، ليست باغية ولا معتدية ولكنها تحمى نفسها وتطهر أرضها وتسترد مكانتها .

• ● •

الفصل الثالث

حرب رمضان

لا يزال العاشر من رمضان ، وسيظل إلى وقت طويل ، من الأحداث التي يؤرخ بها في تاريخ العرب والمسلمين كعلامة على طريق التحرر والتحول والانتقال من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، وهو كذلك بالنسبة للاستراتيجية العالمية وللاستعمار والصهيونية (موقف حاسم) يتوقف المراقبون والباحثون والمؤرخون عنده طويلا يدرسونه ويحللونه ويستنتجون منه نتائج مختلفة تتركز جميعاً بلا استثناء على حقيقة أساسية تنقض كل ما كان يقال ويذاع ويكتب عن قدرة العرب القتالية وكفاءة الجندي المصري واستيعابه لكل المنجزات العصرية والآلات التكنولوجية بكفاية واقتدار .

لقد صدرت عشرات الكتب والبحوث والدراسات ، ونشرت مئات المقالات في الصحف العالمية وفي مصر صدرت مجموعة من الكتب حرصت على استيعاب ذلك الحدث من وجوانه المختلفة ، ومن نواحيه المتعددة . وكان أغلب ما كتب إنما يمثل محاولة لاستعراض وقائع حرب العاشر من رمضان تفصيلا ، وآثارها العامة وما حققت من نتائج ، وتكاد هذه الدراسات جميعا تتفق على عدة عناصر أساسية أمكن أن تتحقق بالفعل ، وأن تحدث تغييراً واسعاً في مجالات السياسة والمجتمع والاستراتيجية العالمية هي :

أولا : كانت سبباً في وحدة عربية شاملة وحققت موقفاً عربياً موحداً لم يشهده العالم من قبل .

ثانياً : عززت الوحدة الوطنية بصورة لم تشهدها مصر سابقاً .

ثالثاً : أعادت إلى القوات المسلحة المصرية ثقتها بنفسها كما أعادت لشعب مصر ثقته بقواته المسلحة .

رابعاً : قضت على أسطورة جيش إسرائيل الذي لا يقهر .

خامساً : غيرت الاستراتيجية العسكرية في العالم كله .

سادساً : قلبت الموازين العسكرية في العالم .

سابعاً : حركت أزمة الشرق الأوسط بدرجة لم تحدث في أي وقت مضى .

هذه هى أبرز النتائج التى أحدثتها حرب العاشر من رمضان (٦ أكتوبر) كما تصورها أغلب الدارسين .

١ - كفاءة المقاتل العربى

وكانت أبرز ما اكتشفت هذه حرب رمضان فى تقدير الباحثين والكتاب جميعاً هو : (كفاءة المقاتل العربى) . وقد صورها دكتور عبد الكريم درويش فى كتابه : حرب الساعات الست تصويراً ضافياً حين قال :

بعد ست ساعات من القتال بدأ العالم يرى المقاتل المصرى والمقاتل العربى فى صورة أخرى ، وقالت مجلة نيوزويك : إن الأساطير التى قامت منذ انتصار إسرائيل الخاطف فى حرب ١٩٦٧ قد تداعت يوماً بعد يوم ، أو على الأقل شوهت بصورة بشعة ، ولقد كانت هناك خرافة تقول : إن العرب ليسوا محاربين على الإطلاق حيث طمست أحداث حرب ١٩٦٧ من ذكريات الناس ، أن المحاربين العرب نشروا يوماً ما دعوة الإسلام فى كل مكان فاتحين وغازين نصف العالم المتحضر حينئذ .

وقالت صحيفة دير شبيجل الألمانية : (أن الجنود العرب قد قاتلوا هذه المرة بصورة لم نعهدها فيهم ، ولم يتوقعها العالم منهم .

لقد عاد العربى فعلا بعد قرون من الكبت والاحتلال واستحالة الاندماج أو العرق إلى أصله وأصالته كمحارب قدير يدافع بإيمانه ويؤمن بما يدافع عنه ، وأثبت أنه إذا توفرت له الظروف والإمكانيات استبسل وضحى بنفسه بلا تردد وحقق الكثير .

وخرجت قصص بطولات يفوق بعضها الخيال ، وأعادت الأذهان ذكرى غزوة (بدر) وغزوة (أحد) ومعارك القادسية واليرموك وحطين وعين جالوت وفتح العرب لمصر والمغرب والأندلس . وبدأت صحافة العالم تتذكر فتوحات العرب وقدراتهم العسكرية ، بدأت تتكلم عن المصرى الذى صنع من نفسه قنبلة تنفجر أمام الدبابات ليؤخر تقدم العدو أو لينقذ رفاقه . تتحدث عن الجندى السورى الذى غادر المستشفى قبل إتمام علاجه ليعود إلى جبهة القتال .

وقال مراسل مجلة (تايم) : إن روح المقاتل العربى كانت عالية جداً . وكان المصريون يلوحون لنا فرحين وهم ينادون (الله أكبر) .

ورغم أننا كنا نسمع صوت المعركة الرهيبة التى تدور قريباً منا إلا أن الفرحة والسعادة كانت تغمر القوات المصرية بصورة واضحة ، ولم يبد عليها القلق بل كانت تشير بكل فخر إلى العلم المصرى وهو يرفرف على خط (بارليف) .

وأمام هذا العلم ومن أجله نسي المقاتل نفسه وأسرته ومصالحه ، لم يفكر إلا في مصر . ويروي مراسل (تايم) في سيناء أن قائد المنطقة المصري قال له بكل فخر واعتزاز : إن أفضل سلاح عندنا هو شجاعة المصري .

وقال : إن الجندي الإسرائيلي يحارب من دبابته . أما نحن فإننا نحارب على أرجلنا ، لقد تمكن المقاتل العربي خلال ربع قرن أن يقفز من القرون الوسطى إلى القرن العشرين واستوعب العصر ومعداته بصورة أثارت إعجاب العالم .

إن المقاتل العربي في هذه الحرب قد استوعب الجوانب التكنولوجية تصاحبها بسالة وفدائية ، وهو الازدواج الذي لم يتوفر لنا عام ١٩٦٧ لضرورة الانتصار . ذلك أن الحرب في جوهرها مادة وروح . قوة وقدرة ، إرادة ورغبة . سلاح ودفاع .

وعندما يتوفر الجانبان معاً يمكن للإنسان أن يحقق المعجزات والعجائب بالآلة ولا يمكن للآلة أن توصل الإنسان إلى تحقيق أهدافه .

إن قصص البطولة التي كتبها العربي المقاتل يمكن أن تملأ مجلدات ومجلدات ، وهي قصص لم تعرف كلها بعد ، وهي إذا جمعت ستكون أجمل صفحة في كتاب مصر الحديث ، إن المقاتل العربي كان مقاتلا ورائداً ومحرراً وسفيراً ، هؤلاء الأبطال الذين خرجوا من هذا الشعب ، من هذه الأمة في فترة حالكة ساد فيها الظلام ليحملوا مشاعل النور وليضيئوا الطريق حتى تستطيع أمتهم أن تعبر الجسر ما بين اليأس والرجاء .

٢ — صيحة الله أكبر

ولقد وجدت صيحة (الله أكبر) اهتماماً كبيراً من الكتاب ذوي الأصالة والقدرة على فهم نفسية المقاتل العربي الذي ينطوي على إيمان صادق بالله والذي يتقدم وهو مؤمن بأنه يقاتل في سبيل الله حقاً ، وهذا ما يصوره صاحب كتاب (حرب الساعات الست) حين يقول : هناك بوادر عودة الحضارة العربية بجوانبها العلمية : وهذه مؤشرات لعودة الحضارة في جوانبها الإنسانية والروحية . لقد كان الإيمان بالله سلاحاً في المعركة ، وكانت صيحة الله أكبر التي أطلقها الجنود وهم يعبرون وتردد أصداؤها في جنبات سيناء وتشق عنان السماء أبلغ دليل على تمسك مجتمعنا بالمبادىء والقيم الدينية ، وأقوى برهان على عقم ما أراد العالم أن يصفنا به بأننا شعوب قد تخلت عن العقائد الدينية واتبعت مذاهب سياسية معروفة بجفافها الروحي محرومة من قوة الإيمان .
لقد أجملت تلك الصيحة المبكرة في كلمتين عظيمتين : الروح التي سادت المقاتلين خلال قتالهم وأشعت أيضاتها على الجبهة الداخلية ، فردد كل عربي هذا النداء في وحدة وطنية رائعة : الله أكبر الله أكبر . . .

ومما يضاف إلى ما أورده الكتاب تلك الأخبار التى توازت من أن معاهد الاستراتيجية العليا الغربية تدرس الآن (الله أكبر) بوصفها سلاحاً كونياً غير مجرى الأحداث .

٣ - الصــوم

ونحدثت صحيفة الجارديان فيما أشار إليه كتاب (حرب الساعات الست) عن الجوانب الروحية والانسانية قائلة : « إن المقاتل العربى المسلم الذى قاتل فى شهر رمضان استمر فى صيامه رغم السماح له بالافطار ، والأغرب من ذلك أن زميله المقاتل المسيحى قد شارك بدوره فى هذا الصيام لقد ارتفعت تماماً من ذكرى العرب جميعاً أصداء ذلك الشقاق الطائفى . لقد حاولت إذاعة إسرائيل خلال الأيام الأولى من المعركة أن تشعل فتنة بين العرب ، وأن تفتعل شقاقاً طائفياً ، ولكن محاولاتها هذه ولدت ميتة وقد حارب عربى المشرق مع عربى المغرب وقاتل العربى الأبيض بجانب العربى الأسمر ، واستشهد العربى المسلم بجانب أخيه المسيحى .

كذلك رأت حرب رمضان من أعمال الإبادة والعدوان ، فلم تصدر أى بادرة تنم عن التشفى باليهود

٤ - إستيعاب فنون الحرب الالكترونية

وأشارت دراسات الكتاب إلى ما حققته حرب العاشر من رمضان فى دحض شبهة التخلف الحضارى ، واستعرضت هذه الدراسات صور الحرب النفسية التى شنها العدو بعد حرب ١٩٦٧ مما أطلق عليه (الفجوة الحضارية) . ولقد قضت حرب رمضان فيما قضت على تلك الأفكار . فقد كشفت عن قدرة العرب على استيعاب فنون الحرب الالكترونية ، وإحراز التقدم التكنولوجى بأبعاده من المعارف العلمية والأساسية ، والقدرة الادارية المصرية .

يقول الأستاذ جمال درويش : إن المحارب المصرى قد عبر مسافة التخلف بين معطيات التقدم العلمى التكنولوجى ، وبين القدرة على إستيعاب أبعاد هذا التقدم .

ويضيف : أن المقاتل المصرى لم يكن عامر القلب بالإيمان مملوءاً بالثقة بالنفس والاصرار فحسب ولم يكن شجاعاً وحسب ، وإنما كان أيضاً عند أعلى مستوى من المهارة والحذق والتدريب والقدرة أيضاً على مستوى الأداء تحت كل الظروف والتعامل المقتدر مع الأسلحة والعتاد المصرى والالكترونى الذى فى حوزته .

وإلى جانب هذا كان المقاتل المصرى برغم ظروف الحرب وتحت ضراوتها ووسط أتونها قادراً على إخضاع نفسه للنظام والتحلى بسلوك منضبط استرعى الانتباه .

٥ — بطولة العبور المجيد

وأشار مؤلف كتاب (المفاجأة) إلى أن كلمة السر فى معركة العاشر من رمضان هى (بدر) ومنذ اللحظة الأولى للمعركة حملت جميع أجهزة اللاسلكى وجميع الموجات كلمة (بدر) وسمع كل من كان بالقرب من جهاز إستقبال هذه الكلمة تتكرر ثلاث مرات بوضوح تام .

وبدأت كل الأسلحة والمدفعية والمدرعات والقاذفات والوحدات البحرية إطلاق النار .

٦ - (بدر) كلمة السر

وقد عنى حسن البدرى وطه المجدوب وضياء الدين زهدى فى كتابهم (حرب رمضان) أن يرسموا صورة رائعة لبطولة العبور :

لقد كانت الساعة الثانية وخمس دقائق هى ساعة البدء بعد الظهر ١٠ رمضان (٦ أكتوبر) عندما عبرت طائرات سوريا ومصر خطوط المواجهة مع إسرائيل واتجهت نحو أهدافها المحددة ثم هدرت مدافع العرب على طول الجبهتين الشمالية والجنوبية فى أقوى تمهيد نيرانى شهده الشرق الأوسط ، فعلى الجبهة المصرية إنطلقت مائتا طائرة مصرية تشق عنان السماء فى طريقها المرسوم إلى عمق سيناء لتنفيذ الضربة الجوية المركزة التى كان عليها تحطيم ثلاثة مطارات وقواعد صواريخ هوك وثلاثة مراكز قيادة وسيطرة وإعاقة إلكترونية بالاضافة إلى عدد من محطات الرادار .

وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الثانية والثلث كانت الأفواج الأولى من طائراتنا تعبر القناة عائدة من مهامها الناجحة بعد أن قصفت أهدافها فى عمق سيناء حتى حطمتها ، وفى نفس اللحظة إمتلأ المكان بصيحات ثمانية آلاف من المقاتلين البواسل ثم مهجة مصر وفلذة كبدها يصرخون بأعذب الكلمات وأسماها (الله أكبر الله أكبر) . وامتلأت صفحة الماء بقوارب المطاط واندفعت موجات الاقتحام الأولى والعيون تتحرق فى المقل شوقاً إلى الرمال الذهبية الحبيبة التى أمض القلوب الحنين إليها وعندما وصل الرجال إلى الضفة الشرقية كانت اللحظة وكان الحدث الذى طال انتظارها .

٧ - أبرز ما حققته معركة العاشر من رمضان
تصحيح المفاهيم وإعادة تأكيد الحقيقة

وهذا ما يحدده الدكتور جمال حمدان فى سبع نقاط :

أولا : إن المعركة قد أثبتت أول وآخر وأخطر ما أثبتت الروح القتالية العالية المندفعة والطاقة فى الجندى العربى ، وأكدت فدائية المقاتل العربى واستبساله وإقدامه بلا تردد ، لا ينكص ولا يتراجع عن تحقيق هدفه مهما كان السلاح الذى يواجهه .

ثانياً : أثبتت المعركة قدرة المقاتل العربي على إستيعاب أعقد الأسلحة الحديثة والمتطورة والسيطرة عليها بكل كفاءة واقتدار وتطويع التكنولوجيا وتكييفها والتكيف معها والتعامل بها على كل المستويات .

ثالثاً : التفوق في كل فنون القتال - التخطيط - التنفيذ - المناورة - الحركة .

رابعاً : أثبتت المعركة خطأ الاتهام الذي وجهه العدو عنا من أن العرب لا يجيدون القتال إلا من المواقع الثابتة فأكدت للعالم تقدمهم بنجاح تام من القتال الثابت إلى القتال المتحرك .

خامساً : أسقطت الحرب ونسفت إلى الأبد كل الأساطير والدعايات الشوهاء الظالمة الكاذبة التي ركز العدو عليها كل جهوده وأبواقه لإلصاقها بالمقاتل العربي وتوهينه أولا ليثبتها في نفسه هو ، ثم ثانيا لترسيخها في عقلية العالم كما عبر عن ذلك كاتب أوربي كبير حين قال :

« إن ما هو خطير في تدمير خط بارليف وحصون الجولان ليس تحرير جزء من الجزء العربي المحتل ، وإنما هو في تدمير صورة ثابتة عن الانسان العربي كانت رائجة عندنا » .

سادساً : كانت حرب رمضان أول اختبار حقيقي ميداني حاسم لنوعية المقاتل المصري والسوري كجندي محارب .

وقد تحطمت خرافة العسكرية الاسرائيلية ، وانكشفت حقيقة المقاتل الصهيوني ، وأثبت الجندي العربي وجوده وتفوقه بلا حدود .

سابعاً : أعاد العدو إكتشاف حقيقة معدن المقاتل والانسان العربي .

قال الجنرال ميتاهو بليد ، من الواضح حتى الآن أن الجندي المصري يظهر روحاً قتالية قوية ولم يفقد إرادته على مواصلة القتال . إننا نعرف هذه الظاهرة جيداً منذ حرب ١٩٤٨ وخلال حرب سيناء ١٩٥٦ .

• • •

الفصل السابع

الله أكبر سلاح كونى

(الدرسه المعاهد العليا الاستراتيجية العالمية)

أوردت وكالات الأنباء أخباراً متعددة عن دراسات تجرى فى المعاهد العليا الاستراتيجية العالمية فى الحرب بعد معركة العاشر من رمضان حول كلمة (الله أكبر) باعتبارها سلاحاً كونياً أو سلاحاً سرياً حاسماً كان له أثره العجيب فى انتصار المسلمين وهزيمة الصهيونية واندحارها . وذلك على أثر ما تجمع لدى المراقبين من نتائج خطيرة لصيحة (الله أكبر) وما حدث من فزع وتفرق واندحار فى صفوف الجيش الاسرائيلى ، فتى بتلك الهزيمة الساحقة لأول مرة فى المعركة التى تمت فيها مواجهة حقيقية بين القوات العربية الإسلامية من ناحية وبين قوات الصهيونية العالمية من جهة أخرى .

لقد وردت قصص وروايات وأحاديث عن وقائع ربما لا يقبلها العقل المجرد ، ولا تخضع لسلطان التحليل المادى الخالص الذى سيطر على العقلية الإسلامية العربية فى السنوات الخمسين الأخيرة فى محاولة لاستيعابه ضمن (الدائرة المغلقة) التى يريد الغرب أن يفكر بها المسلمون ، خروجاً من دائرة فكرهم الحقيقية والأصيلة التى عرفوها وتعاملوا معها خلال أربعة عشر قرناً كاملة دون أن يفقدوا ولو مرة واحدة النتائج الحقيقية للتقدير على النحو الذى رسمه القرآن الكريم فى معادلات واضحة صريحة ، ووفق قوانين وسنن ثابتة لا تتغير . فتح الله بها على الانسان طاقة من طاقات النور وحقق له بها القدرة على السعى فى الأرض والعمران ، والتقاء بأس الانسان والطبيعة وتذليلها وتحقيق حكمة الله العليا فى السيطرة على الأرض والتمكين فيها وإقامة المجتمع العامل الناهض الذى لا يتوقف عن الحركة والدأب جرياً على سنة الله فى العمران . .

وإذا كان الانسان قد أعطى طاقة من النور بما علمه الله تبارك وتعالى من سنن الكون والحياة ليتمكن منها ويسيطر عليها . فإن الله (تبارك وتعالى) قد أعطى الانسان المؤمن نوراً آخر أشد قوة وأبعد أثراً فى مواجهة الأحداث (نور على نور) ذلك هو إكتناه ومعرفة حقيقة المعادلة .

ولقد كانت (الله أكبر) سلاحاً كونياً وسلاحاً سرياً فى نفس الوقت بالنسبة للمسلمين منذ اليوم الأول وما تزال وستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهى مبثوثة فى عديد من آيات الجهاد وواضحة كل الوضوح فى الآية الكريمة : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة ، فاثبتوا ، ، واذكروا الله كثيراً ، لعلكم تفلحون) .

(الثبات والذكر)

وهكذا حدد الله سبحانه وتعالى للمؤمن قاعدة النصر فى أمرين (الثبات) و (الذكر) ولقد دخل العرب ثلاث معارك فى العصر الحديث فى مواجهة الصهيونية قبل أن يطبقوا هذا القانون ، دخلوها بمقاييس النصر عند الغربيين فهزموا شر هزيمة ، لأنهم غفلوا عن (قانونهم الأصيل) الذى أنزل لهم والسر المدخر الذى أوقف عليهم كمؤمنين ، هزم المسلمون عندما خضعوا للفكر الغربى فى التقدير المادى الخالص لعدد الطائرات والدبابات والحصون والقلاع ، وهى كلها مطلوبة ، والمسلم مطالب أن يعد لها ولكنها ليست هى وحدها التى تكسب الحرب وتهزم العدو ، إنما هى (الإرادة) هى الأخذ بالأسباب الذى أمر المسلمون به . أما القوة الحقيقية فهى من وراء ذلك ، هى فى ذلك الإيمان القوى الذى لا يتزعزع بأننا على الحق ، وبأنه هو المقدم فى سبيل نصر الله ونصر دينه والإدالة من عدوه ، وبأن الحياة هينة ورخيصة فى سبيل تحقيق هذا الهدف . والمسلم يطلب الموت لتوهب له الحياة فى الدنيا عزيزة غالية ، فقد طولب المسلمون بأن يكونوا أعزة فى حياتهم ، أقوياء دون عدوان أو طغيان على أحد ، أعزة بالله ولله ، ولذلك فإنهم يستشهدون باسطى وجوههم فرحاً وسروراً من أجل تحقق هذه العزة فى الدنيا لدينهم ولإخوانهم ، أما هم فقد فازوا بالقدح المعلى حين استشهدوا وقدموا أرواحهم رخيصة ، فكسبوا الدرجات العلا من موتة هى موتة على أى حال فى وقتها المحدد ، وفى مكانها المقرر وهى موتة عزة من ورائها الجزاء والحياة الأخرى فى جنات النعيم ، وفى الدرجات العلا مع الأنبياء والشهداء والصالحين .

(سلاح رهيب)

ثم إن الأمر بعد ذلك ثبات وصمود لا يتزعزع ولا يولى أحداً فيه الأدبار ، ثم ذكر لله هو فى ذات أمره سلاح رهيب عنيف مزعج على النحو الذى روى جنودنا عنه قصصاً تفوق الخيال . وفى هذا الاتجاه كله يتمثل نصر الله بالجنود المسومة التى تنزل لتقاتل مع المسلمين ، وحتى عندما يحاول المسلمين أن يقولوا أنهم انتصروا وقاتلوا ينزل الله سبحانه وتعالى الكلمة الحاسمة (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) هذه هى حقيقة السلاح السرى الرهيب الذى أعطيه المسلمون عندما تخلوا تماماً عن التقديرات الدائرة الغربية المغلقة ، والتمسوا تقديرات الدائرة الإسلامية المرنة عندما انسحبوا تماماً عن المفاهيم الغربية لتفسير أسباب النصر والهزيمة وعندما سحقوا تحت أقدامهم تقديرات الهزيمة التى فرضت عليهم عن طريق الفكر الغربى الوافد ، سواء بشقه الليبرالى أو شقه الماركسى ، وكلاهما يستمد مصادره من المادية الخالصة التى لا تعرف أن هناك قوة قادرة حكيمة تدير أمر هذا الكون وتدين الظالمين وتنصر أصحاب الحق .

ولقد كان لا بد للمسلمين والعرب من أن يصلوا إلى نقطة الضوء بعد أن أصدعوا خلال ربع قرن

— منذ احتلت إسرائيل أرض فلسطين — في حسابات عدالة مضللة استمدوها من الفكر الغربي الذي فرض نفوذه على مدارسهم وعقلياتهم ومناهجهم، وسيطر على مختلف قيمهم فأحالها إلى مفاهيم مادية بحتة .

(نافذة النور)

ومن هنا فقد جاءت معركة العاشر من رمضان لتفتح هذه النافذة المضيئة مع الحق ومن الإصالة ومع مفاهيم الإسلام وقوانين النصر فيه، وهي قوانين صدقت المسلمين في كل معركة قادوها . حين التمسوها وأخذوا بها، وفي نفسها التي هزمت المسلمين في كل معركة تخلوا فيها عن قانونهم ومفاهيمهم، وأقرب صور الهزيمة كانت أعوام ٤٨، ٥٠، ٦٧ - وأقرب صور النصر كانت معركة العاشر من رمضان، ومن قبلها كل معارك صلاح الدين ونور الدين والظاهر بيبرس، إنما كانت تستمد قوتها من هذه المعادلة الإسلامية القرآنية .

وإذا كانت صيحة الله أكبر قد فتحت هذا الطريق . فمن حق المسلمين والعرب أن يلجوه إلى غايته وأن يمضوا فيه إلى نهايته، دون أن تردهم أهواء الشيطان، أو رياح الغزو مرة أخرى عنه فتضيع معالمه، وتردم الريح السافية علاماته على الأرض، فيعجز المسلمون عن السير فيه، فليحافظ المسلمون والعرب على هذه العلامة من الطريق وليحموها بالأرواح وليضعوا حولها الأسوار العالية وليرصدوا من فوقها الأضواء الكاشفة وليعلموا أن صيحة الله أكبر قد مكنتهم من عبور القناة بخسائر تقل عما قدره العسكريون بما يوازي (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) فما أعجب هذا العطاء الرباني في مقابل كلمة الله أكبر إيماناً واحتساباً .

ومن الحق أن صور التضحية والفداء كانت مذهلة، وكان الإيمان عاملا حاسماً فوق كل سلاح وكل تكنولوجيا، فقد جاء نور الله الذي أعطى القلوب فأعطى السلاح الذي في اليد قوة مضاعفة بلغت عشرات أضعاف قدره المادي .

(منطلق الإيمان وحسابات المادة)

ولقد تذهب المعاهد الاستراتيجية العليا مذهبها في البحث عن سلاح الله أكبر . ولكنها لن تستطيع أن تقدره حق قدره من ناحية، ولن تستطيع أن توقف مفعوله بسلاح آخر أبداً . كما تفعل هذه المعاهد بالنسبة للأسلحة الحديثة التكنولوجية، فهي لا تستطيع أن تقدره لأنهم جميعاً في المعسكرين الشرقي والغربي إنما ينطلقون من منطلق المادة والحساب والمقاييس والموازين، وكل هذه لن تجدي شيئاً في تقويم هذا السلاح .. سوف ترى بعض المعسكرات أنه سلاح الكلمة، وسترى الأخرى أن الكلمة نفسها من نتاج المادة، وسوف يرى الجميع أنه سلاح غيبي لا يخضع لمقاييس القوانين المادية، فمن اليسير تقييمه وحساب أثره، ولكنهم سوف يجدوا أن هناك نتائج حتمية حققتها كلمة الله أكبر

بالإضافة إلى الساعد القوى وإلى العدة الحاربة ، سوف لا يعلمون أن هناك نوراً من الله يملأ القلوب فتعرف الطريق الآمن ، وأن الله سبحانه قادر على أن يحجب هذا النور عن عقول الأعداء وقلوبهم فيعجزون عن استعمال أشياء أعدوها فعلا فى لحظة الخطر ، أو أن يحاولوا استعمالها فتتوقف عن أداء مهمتها . وتلك آيات الله قد توصف بالغيب أو المعجزة ، ليست كذلك ولكنها تعنى أن التقديرات المادية ليست كافية وحدها وأن هذه التقديرات لا تستوعب كل شىء ، وأنها قد تعجز فى اللحظة المناسبة عن أداء الشىء ، أو أن الشىء نفسه يصيبه التوقف ، وكل ما يمكن أن يقال أن عوامل النصر هى عدة عناصر منها ما هو معروف ومكشوف ، ومنها ما هو محسوب ومقدور ، ومنها عوامل أخرى ربما تخفى أو لا تكون فى الحساب ، تنطلق فى الوقت المناسب ، وذلك هو الجانب الربانى ، الجانب الخفى ، الجانب الذى لم يستوعبه العقل البشرى والذى يعجز عن استكناه سره أو حسابه وتقديره ، وكل علم الإنسان هذا الذى يصل إلى المعجزات والدهشة هو شىء قليل مع علم الله ، وهو أساساً من عطاء الله للإنسان ، فالله سبحانه وتعالى أوجده منذ أوجد السموات والأرض ولكنه لم يطلع الإنسان عليه إلا أخيراً ، ولو شاء لما فتح أبواب بصيرته وعقله لفهمه واستكناهه ، وهناك أيضاً الكثير مما يعمل ويؤثر فى حياة الأمم والأفراد ، وفى قيام الحضارات والأمم وسقوطها وفى أمور الكون والوجود مما يقصر العقل البشرى عنه ولا يستطيع علم الإنسان أن يستوعبه (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

(إن تنصروا الله)

فليحذر المسلمون النظرية المادية فى تقدير الأمور ، ولينظروا من خلال مقومات فكرهم الإسلامى الواسع المستوعب الأبعاد كلها دون أن يكونوا فى نظرتهم سلبيين أو متواكلين ، ولكنها نظرة الشمول والتكامل من خلال إرادة الإنسان الحرة التى هى مناط مسئوليته وحسابه وجزائه ومع العمل والحركة والتقدم فى إطار إيمان كامل بالله وثقة كاملة بقوانينه ومقدراته ، وعلى أن تكون الوجهة إليه أولا وآخراً (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وليعلم المسلمون فى السنوات السابقة بسبع سنين لختام القرن الرابع عشر الهجرى ، أن الله سبحانه وتعالى قد أمدهم بفتح جديد فى أفق حركتهم مع الاستعمار والحضارة والصهيونية والقوى المادية ، هذا الفتح بدأ بضوء كالفجر الصادق فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هو مقدمة لعصر الإيمان والإسلام والقرآن ، الذى سوف ينطلق فى القرن الخامس عشر الهجرى إلى مداه ، بعد أن كان القرن الرابع عشر الهجرى هو قرن الاستعمار والغزو الثقافى والصهيونية العالمية ، وأن نوراً جديداً سوف يشرق على العالم مرة أخرى ، هو نور الإسلام هداية وأمناً ، وقد كانت الله أكبر بسلاحها السرى الكونى ، هى منطلقة من نصر إلى نصر فى الطريق إلى القدس ، ثم إلى الوحدة الإسلامية الكبرى .

الفصل الخامس

ماذا تعني صيحة العودة إلى الله

ظاهرة جديدة في أفق المجتمع أطلق عليها اسم (العودة إلى الله) وهي ظاهرة نابعة من أعماق الفطرة الإنسانية : هذه الفطرة التي تغشيها زيوف الفكر والأهواء والمطامع والرغبات لتدنيها من الأرض ، فإذا صدمتها الأحداث صدمة قوية انفضت عن نفسها غبار الخطر والتمست الأعماق والأصالة ومدت يدها إلى باريء الكون تطلب منه العون فيما تحس أنها لا تستطيع أن تخوض فيه أو فيما ترى أنه أكبر من قدرتها . فهي ظاهرة أصيلة حقاً ظهرت بعد احتلال بيت المقدس فيما يشبه اليقظة المفاجئة التي تظل الأحداث تصدمها مرة ، حتى تستيقظ فجأة على الحدث الأكبر الذي يهز الوجدان والعقل معاً

وكذلك نحن المسلمين في هذه الأزمة الحاسمة التي تمر بها أمتنا منذ خطوات الاستعمار الأولى ولأخطار الاحتلال التي واجهتها أمتنا دون توقف ، وقدمت فيها التضحيات الجلى، ولم تصبر على الضيم يوما ، حتى إذا أوشكت أزمة الاستعمار أن تنحل إلى ما يشبه الحياة الحرة التي تستعيد فيها الأمة إرادتها لتعود سيرتها الأولى بعد أن مزقتها الأحداث إلى شراذم وحرمتها وحدتها الكبرى ، وحاولت أن تقضي على ذاتيتها الخاصة في هذه اللحظات الدقيقة .

جاءت مؤامرة السيطرة اليهودية الصهيونية على فلسطين من داخل حركة الاستعمار العالمي ، وامتدت وارتفعت صيحات التحذير من خطرها في مرحلة امتدت خمسين عاماً منذ وعد بلفور إلى قيام إسرائيل والمسلمون مشغولون بقضاياهم الخاصة ، ويعيشون حياة الإقليم الخالصة ، ويستعلون بالنزعات العنصرية ويبتعثون الحضارات القديمة وهم في دوامة الخطر لم يعدوا أعينهم ليروا أبعاد المؤامرة الضخمة والأزمة الكبرى حتى كانت النكبة ١٩٤٨ باحتلال فلسطين .

ثم توالت الأحداث حتى كانت نكبة ١٩٦٨ باحتلال القدس : بيت الله وأولى القبلتين ومسرى الرسول وخط الدفاع الأول عن الكعبة المشرفة هنالك استفاق المسلمون والعرب وأحسوا بعمق الجرح وخطر الأزمة وبشاعة الموقف ، وكانت صيحتهم (العودة إلى الله) تدعوهم إلى إعادة تقييم أمورهم من جديد فقد كان تداعي الهزائم خلال فترة امتدت نصف قرن مؤشراً خطيراً يقول للغافلين : « إن هذا الطريق لا يؤدي ، لقد وقعتم في التيه الذي ليس فيه إلا سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

كانت العبرة هي أن منهج الحياة وأسلوب العيش وطريقة العمل في مجال السياسة والاقتصاد

والاجتماع والتربية والقانون أثبتت عدم جدواها ، فهي وافدة ، بعيدة عن المزاج الإسلامي ، وهي غربية لا تطابق المجتمع الإسلامي ، وهي معقدة لا ترضى النفس الإسلامية العربية ، وقد جرت التجربة سنوات طويلة ، وجرت في الجناح الغربي والشرقي وكل منها أثبت التعارض والفصل والمخالفة لجوهر فكر هذه الأمة والمعارضة لضمير هذه الأمة وروحها .

فلا بد من وقفة ومحاسبة النفس والعقل ، والتماس لأسلوب جديد . هو في ذاته مستقر في أعماق الأمة . لأنه من فطرتها ولأنه عريق الجذور في تربتها خلال أربعة عشر قرناً ، ولأنها حين جاوزته لم تكن ذات إرادة تملك ، ولا ذات قدرة على الاختيار . وإنما سيقت كذلك بمؤامرة الغزو الغربي السياسي والاجتماعي والثقافي لإخراجها من كيانها ولتذويبها في البوتقة وإصهارها في الأتون الكبير الذي انصهر فيه الأمم وتحتوى .

كانت صيحة (العودة إلى الله) تعني ذلك كله معارضة لصالح الأعداء الذين يلبسون ثياب الهداة ، البطانة التي هي من غير جلدة هذه الأمة ، هؤلاء الذين هم أعداء البشرية والذين لا يريدون للإنسانية خيراً ، والذين عملوا منذ سنوات بعد من السيطرة على رأس العصر هذا من قلب الأمة الإسلامية عملوا بالمكر والحيلة والخداع لتزييف التاريخ ولإثارة الشبهات ولإذاعة الإسرائيليات رغبة في أن يضل الركب عن الطريق . وينقطع الخيط الذي يربط الماضي بالحاضر .

وقد جاءت التجربة كاملة ، وكان لابد أن تكتمل وأن تمر بكل أدوارها الطبيعية وتستوفي غايتها حتى تظل أمام المسلمين (نبراساً) لخطوهم المقبل ، ولسيرهم المستأنف ، ولخطاهم القادمة على الطريق في عالم فقد قدرته على الاتصال بالسماء ومضى في غروره بالعلم والعقل إلى غاية الاضطراب والتحلل والتمزق النفسي ، وأجرى من التجارب والمذاهب والنظم ما لم يزده خلال أربعمائة عام إلا مزيداً من التمزق والاضطراب ، ولم يبق للبشرية غير كلمة (لا إله إلا الله) نوراً وهدى ، وهي في أيدي هذه المجموعة التي لم تستيقظ بعد لترى أبعاد الخطر المحدق بها والمسئولية التي بين أيديها ، وقد وكل إليها الله تبليغ الرسالة إلى الناس جميعاً .

ولقد كان لأعداء الصيحة التي انطلقت من أعماق الفطرة ولم تصنعها قوة ما ، من قوى الأرض للتي تصنع الأحداث وتزيف الحقائق ، وتضرب الحق ، وكان لهم أن يعلنوا عليها الحرب العوان . داعين للعرب والمسلمين إلى هدف مظلم وغاية مضلة : هي التحرر من الماضي والتاريخ وإماتة الموروث جميعاً ليكون لهم بذلك القدرة على التحرر من النفوذ الغازي وأن عليهم أن ينصهروا في حضارة الغرب إنصهاراً .

وقد كانوا في ذلك راغبين في تحقيق آخر مرحلة من مراحل القضاء على هذه الأمة وظنوا أن إنتصاراتهم التي سبقت على الطريق حين غيروا لهذه الأمة مناهج تعليمها وقوانين حكمها ، ونظم مجتمعاتها قد أوفى على الغاية ، وأن تلك ثمرته قد أوشكت أن تجنيها أيديهم ولكن . . .

ولكن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة ، ولم تكن خيوط هذه المؤامرة على ما بها من دهاء ومكر بقادرة على أن تنتزع (أمة القرآن) لتزيلها من الوجود ، وقد حفظها الله وجعلها في العالمين شامة بيضاء نقية ، وجاءت اللحظة الحاسمة التى تقول فيها هذه الأمة بفطرتها وجمهورها إيماناً بما رأت من نتائج توالت وأحداث تتالت أنه لا سبيل إلى شيء إلا إذا التمسنا (الطريق إلى الله) ولا ريب أن الصيحة صادقة وعميقة ، ولكن علينا أن نواجه محاذيرها وأخطار التخريب في إفسادها ومحاولات قتلها قبل أن تستوفى نضجها وكمالها ، وعلينا أن نفهم معنى الطريق إلى الله فهماً صحيحاً يبدأ من نقطة أصيلة ثابتة وراسخة هى (القرآن) منطلق كل نهضة ومصحح كل خطأ ، والمنبع الأول لكل حركة ترمى إلى إعادة بناء هذه الأمة لتكون قادرة أولا على مواجهة أخطاء أعدائها ، ولتكون قادرة ثانياً على أداء رسالتها بتبليغ كلمة (لا إله إلا الله) إلى العالمين .

أن الفهم الحقيقى للعودة إلى الله يتمثل فى ثلاث :

- إلتماس مناهج التربية الإسلامية والتعليم الاسلامى .
- إلتماس الشريعة الاسلامية قانوناً كاملا للمجتمع الاسلامى .
- إلتماس الاصالة الاسلامية فى مجال الثقافة والفكر .

إعادة المجتمع الاسلامى إلى طريق الله فى قضايا المرأة والشباب والحياة الاجتماعية والمعاملات على النحو الذى يضع هذه الأمة موضعها الصحيح . آخذة العلم التجريبى لتصهره داخل اللغة العربية ومقومات الإسلام ليكون قوة سلام وأمن ورخاء ورحمة ، ولقد بدت مع صيحة (العودة إلى الله) علامات وانفتح الطريق إلى تحقيق النصر بمعركة رمضان التى هى علامة على الطريق الصحيح ، ومنها انتابتين إرهاصات الاصالة فى مظاهرها القوية :

١ — التفوق البشرى .　　　　٢ — إمتلاك القدرة .

٣ — القدرة الاقتصادية .　　　　٤ — إمتلاك التكنولوجيا .

ولا بد أن يتحرك ذلك كله فى إطار الشريعة الاسلامية واللغة العربية حتى يصدق الناس طريقهم إلى الله .

• • •

الفصل السادس

المدرسة القرآنية

(صفحة مطوية من مرحلة اليقظة)

كتب السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح يقول: لما خرج الناس من الحرب العالمية الأولى أخذ المؤمنون بثقافة الغرب من رجالنا وشبابنا يعدون العدة للإستيلاء على الرأى العام وتحويل وجهته عن المسلكين وما أنزل الله فيهما إلى المعاهد القائمة على ضفاف التايمز والسين وما يصدر عنها ورائها الخط بما أحدثته مدارس الغرب من أحداث وما جنحت له من هوى فتقدموا بالثناء على جهادها المدعوة إلى مثل نتائجه فى الدولة والدين وتعميم تلك النتائج فى المشرقين.

ولم يكن للإسلام فى مصر صحف غير المنار، ولا جمعيات غير جمعية مكارم الأخلاق ومحليتها، أما النزعة الأخرى العاملة على تعميم الدعوة الغربية وتقاليدها فكانت فى أيدى رجالها أكبر الصحف وكانوا مشرفين على معظم المرافق والجمعيات وكان أنصارهم منبثين فى وزارة المعارف ومعاهدها ونظام الاحتلال يؤيدهم فى إبعاد الشباب عن الاسلام وحيويته جهد الطاقة.

وكان أحمد تيمور باشا هو الوجيه المصرى الوحيد الذى شعر بالخطر على مصر وأشفق من أن يتم ولو بالتدريج ما تم فى تركيا وكان رحمه الله لا ينقطع عن زيارة المطبعة السلفية يومياً إلا لمرض أو سفر، وكانت المطبعة السلفية (١٩٢٤ - ١٩٢٥) فى شارع خيرت فانعقدت فيها إجتماعات حضرها: أحمد تيمور، وأبو بكر يحيى، وعبد الرحمن قراعة، والسيد محمد الخضر حسين وعلى جلال الحسينى ونحو عشرة آخرين من هذه الطبقة تذاكروا موجة الالحاد القوية التى طغت على العالم الاسلامى، وهو على غير استعداد لدفعها لأن أمره ليس فى يده والذين أمرهم فى يدهم من المسلمين فهموا من الاسلام بعض أهدافه وغفلوا عن أهداف جهاده وأسباب حيويته وانتهت تلك الاجتماعات بتقرير تأليف جمعية لمقاومة الالحاد والتعاون على ذلك كل من يؤلمه أمره فى الوطن الاسلامى واختير لسكرتارية الجمعية أحد أصحاب الفضيلة المدرسين بالأزهر.

وبذل نشاطاً مذكوراً للاتصال بجميع أصحاب الغيرة الاسلامية من العلماء والوجهاء من جميع أنحاء العالم الاسلامى وبعد أشهر من هذه المحاولة تبين لنا أن الخطر أسرع من أن يعالج بمثل هذه الجمعية وأنه لابد من الاتصال بالرأى العام والشباب المثقف على الخصوص وأن الصحافة هى الوسيلة الأولى لذلك. وكنت أصدر فى ذلك الحين (مجلة الزهراء) غير أنها كانت شهرية أدبية ولا تصلح

منبراً لهذه المعركة فضلا عن أنها مشروطة في امتيازها ألا تعرض للسياسة أو الدين .

وكان الحصول يومئذ على امتياز الصحيفة الإســلامية الغرض الذي نريده أشبه بالمستحيل ، غير أن أحمد تيمور باشا رحمه الله التمس لذلك الأسباب التي لا يقدر عليها غيره وتمكنا من الحصول على امتياز بإصدار الفتح وصدر العدد الأول منها في ١٠ يولية ١٩٢٦ (١٣٤٤ هـ) بعد انتقالنا من خيرت إلى شارع الاستئناف . ومر على هذه التجربة عام تبين لنا فيه أن الخطر أفدح وأقوى من أن يعالج بهذه الإدارة الضيقة والأمة أعظم وأكرم على نفسها من أن تصغي إلى هذا الصوت الخافت ، حينئذ فكرنا في تأسيس جمعية الشبان المسلمين ، وكان تأسيسها في غرفة متواضعة في دار المطبعة السلفية ومكتبتها ، وقد استعنا على النجاح في تأسيسها بإثني عشر شابا منهم : محمود محمد شاكر ، عبد المنعم خلاف ، عبد السلام هارون ، محمد الحضيري ، كامل البان ، عبد الفتاح كرشاه ، فانتشروا في الكليات والمدارس والوزارات والأندية وفي كل مكان ، وبعد أن صار للجمعية ثلاثمائة عضو يلتقون فيها ويليق بهم ، اخترنا الدكتور عبد الحميد سعيد والشيخ عبد العزيز جاويش ، ودعوناهم وأمثالهم للانضمام للجمعية ، ثم أعلن عن انتخاب مجلس إدارتها الأول في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٧ (١٣٤٦ هـ) .

بعد أشهر من تأسيس جمعية الشبان وفي نفس الغرفة التي ولدت منها الجمعية شهدت إلقاء بعدة رجال كان المتكلم فيهم يحمل قلباً ولا كل القلوب ونفساً لعلها هي التي تهيئت لأجلها التحدث إلى الناس بهذه الذكريات مع مرور أكثر من عشرين سنة عليها .

إن الأستاذ (حسن البنا) أمة وحده وقوة كنت أتعهدها في نفس مؤمن فلم أجدها إلا يوم عرفته في تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفيه ١٣٤٦ وكنت ابن صنعة يوم اكتشفت بيني وبين نفسي حاجة الإســلام إلى هذا الداعية القوي الصابر المثابر الذي يعطي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه من قوة ومرونة ولين وجلد وصبر وثبات إلى النهاية .

وكان أول ما نشرته ولعله أول شيء نشره هو مقالة : (الدعوة إلى الله) في خاتمة السنة الثانية من الفتح (٢٥ ذي الحجة ١٣٤٦) ثم رجوته أن يحاضر الشبان المسلمين في دارهم الأولى التي كانت بشارع مجلس النواب فملأ قلوبهم من قلبه ما شاء الله له من توفيق . ومن خلال ذلك كانت نواة (الإخوان المسلمين) قد غرست في الأرض الصالحة ، وبينما كانت الجمعيات الإسلامية الأولى تتحول بالتدريج إلى أندية رياضية ، كانت هذه النواة تبشر بأنها هي الأمل الذي كان يرجوه شيوخ الملة : أحمـــد تيمور وأبو بكر يحيى وعبد الرحمن قراعة وإخوانهم يوم اجتمعوا في دار المطبعة السلفية بشارع خيرت يتبادلون وجه الرأي في السلاح الذي يقابلون به موجة الإلحاد التي تحولت بأحداث

الغرب وتساقطه من موجة ماء تهدد بالغرق إلى موجة بنزين تهدد بالنار تلتهم الأخضر واليابس - ١٧ ه ٠

ذلك ما كتبه السيد محب الدين الخطيب منذ ثلاثين عاماً عن الرجل القرآني حسن البنا، ثم دار الزمن دورته وذهب الرجل القرآني إلى ربه شهيداً وبقيت الكلمة التي قالها تدوى في آفاق الإسلام تدعو الناس من جديد إلى مفهوم الإسلام الصحيح، واليوم تنظر في أي ملتقى إسلامي فتجد الكثرة من الباحثين والمثقفين والعاملين في حقول الشريعة والاقتصاد والفكر الفكري هم من أولئك الذين عرفوا هذا الوجه الكريم وتعلموا على يديه ٠

وفي الجزائر نجد الإمام عبد الحميد باديس وجمعية العلماء، ونجد الصلة قائمة بين الراحلين المجاهدين حتى أطلق الأستاذ حسن البنا اسم (الشهاب) على مجلته تيمناً باسم مجلة الشهاب التي أصدرها (ابن باديس) ٠

وإذا شئت الحقيقة فإنها كلها حركات ومراحل على الطريق الصحيح: طريق منهج التوحيد الخالص الذي بدأه الإمام محمد بن عبد الوهاب والذي وصل إلى أعماق الهند لحمل لواءه الإمام أحمد بن عرفان وسار إلى الجزائر، لحمل لواءه ابن باديس وكان مفهوم الإسلام الصحيح، هذا الضوء الساطع الذي سار على هديه كل من دعا إلى الله، وما تزال تلك الكلمات المضيئة تملأ القلوب والنفوس كلمات إقبال :

(أنتم لم تخلقوا إلا لتكونوا سادة وتكونوا خلفاء، وأن الله اصطفاكم على غيركم من الأمم وجعل لكم راية الأستاذية على العالم، والأمة الإسلامية محملة أمانة مكلفة بأن تبلغها إلى العالم، والحكم هي عقيدة، فالله شهيد والرسول شهيد علينا، ونحن شهداء على الناس، ولذلك كرر الله علينا الأمر بالجهاد في كثير من صور القرآن فقال: (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم) أي اصطفاكم للقيام بهذا الأمر ٠

(إن كانت أوروبا الآن تعتقد أنها عالمة ومخترعة وتدعي السعادة واستحقاقها فهي كاذبة في دعواها لأنها استخدمت علمها ومخترعاتها وسيادتها في شر الإنسانية أثبت كذبهم فيما يسمونه الخير للعالم، وقد أثبتت التجارب العديدة أن مدنياتهم وقوانينهم وسياساتهم كانت شراً على العالم ٠

(لقد أعطاكم كتابه ولم يعطه لأحد من أوروبا ٠

لقد استطاع عدد من كتاب الإسلام من خلال مفهوم الإسلام الأصيل أن يصححوا التاريخ

الحديث تفسيراً جديداً مختلفاً عن ذلك التاريخ الزائف المسموم الذى كانت تلوكه الألسنة تقديساً لبعض الأشخاص وعبادة وإعلاءاً أو وصفاً بالبطولة والعظمة وكشف حقائق هذه الأسماء التى لمعت كذباً وضلالاً وخدعت الشعوب ، لقد كانت الدعوة فى جوهرها دعوة إلى تطبيق شريعة الله وإلى الوحدة الإسلامية .

وإذا كانت بعض الأقطار قد تراجعت فى ظاهرها عن الدعامة القوية وغلبت عليها مفاهيم الإقليميات والقوميات الضيقة ، وغلبها القانون الوضعى على الشريعة وأمالت نظريات الفكر الغربى على أصالة الفكر الإسلامى فإن فى أعماق الأمة الإسلامية استجابة واضحة وعميقة لدعوة التوحيد : دعوة الحق .

وإن العالم الإسلامى كله تغيرت مفاهيمه الآن استمداداً من منهج القرآن بعد أن فقد الثقة فى أيدولوجيات الغرب (شرقية وغربية على السواء) فضلاً عن سقوط منهج الفلسفة والمنطق الوضعى ومفاهيم مدارس العلوم الاجتماعية والأخلاق و النفس الواحدة .

ولعل من أعظم معطيات الدعوة الإسلامية كما حملها عدد من المخلصين فى هذا القرن هو ذلك المنهج القرآنى بعد أن عجزت المناهج الفلسفية أن تعطى شيئاً ، ورواد المنهج القرآنى اليوم كثيرون ، وهم صفوة المفكرين والباحثين : قطب والمبارك والزرقا والأميرى ومحمد محمد حسين وعماد الدين خليل ومحمد البهى وعبد الحليم محمود والوحيلى والأفغانى والبوطى والغزالى والقرضاوى وأبوالحسن الندوى وأبو السعود وعيسى عبده وغيرهم وغيرهم كثير .

الفصل السابع

٢ - المدرسة القرآنية

(التحول من التغريب إلى الأصالة)

إن هناك ظاهرة عميقة تبدو فى أفق الفكر الإسلامى الحديث جديرة بالرصد والدراسة : تلك هى انطلاقته إلى آفاق الرشد ودخوله مرحلة الأصالة استمداداً من المنابع الأولى وتحرراً من زيف المحاولة التى أجرتها حركة الاستشراق والتبشير والغزو الثقافى خلال السنوات الخمسين الأخيرة، وقد اتجهت هذه الحركة المتجهة إلى التأصيل على يد حركة اليقظة الإسلامية التى حملت لواء الدعوة لالتماس المنابع فى المنهج القرآنى بعيداً عن مناهج الفلسفات أو الاعتزال .

والظاهرة كما يلى :

فى خلال فترة الاستعمار الغربى للعالم الإسلامى كانت المحاولة ترمى إلى (تفريغ الإسلام من مفاهيمه الأصلية) وقد جرت هذه المحاولة باستخدام مذاهب ترمى إلى عزل مفهوم الجهاد كما حدث فى القاديانية ، أو إعلاء شأن المفهوم العقلانى أو المفهوم الوجدانى ، اعتماداً على صور قديمة فى الاعتزال أو التصوف الفلسفى أو الباطنية . وقد كان لهذا الاتجاه الفلسفى أثره الوقتى فى رد عادية الاتهامات التى وجهت إلى الإسلام بأنه ضد العقل أو أنه جبرى ينكر الإرادة الفردية .

وقد حاول كثير من الباحثين الدفاع عن الإسلام بأسلوب الفلسفة أو المنهج الغربى للبحث أمثال محمد عبده ، وإقبال ، والعقاد ، والدكتور هيكل .

ولكن منهج القرآن كالماء لا يستغنى عنه أحد ، ومنهج الفلسفة أو الكلام كالدواء لا يحتاج إليه إلا المريض حسب ما عبر الإمام الغزالى فى مثل هذا الموقف إبان هجمة الفلسفة اليونانية .

وقد مرت مثل هـذه التجربة من قبل ووقف منها الإمام الغزالى والإمام ابن تيمية مثل هذا الموقف . لقد كان المسلمون يرون إبان هذه المحاولات بأن علماء من المسلمين يدافعون عن الإسلام ويردون عادية خصومه ، ولكننا حين نعاود النظر الآن نجد أن هذا الأسلوب لم يكن أصيلا وأن منهج القرآن هو الأسلوب الوحيد للدفاع عن الإسلام وليس أسلوب الفلسفة أو أسلوب المتكلمين .

إن محاولة الرد على شبهات موجهة إلى الإسلام بأسلوب الفلسفة أو المنهج الغربى الوافد من شأنه

أن يبدو بريقه فترة ما ثم تتجاوزه التغيرات وتطوره . أما مفهوم القرآن ومنطقه ومنهجه فإنه خالد وباق لا يعتريه أي تحول أو اضطراب .

عنى محمد عبده بدور العقل في مواجهة التحدي الذي كانت تقدمه آراء الاستشراق من اتهام الاسلام بالجبرية الصوفية أو القدرية فحاول أن يعلي شأن العقل حتى يضع الاسلام في مستوى مفاهيم الغرب الذي كان يعلي شأن العقل والعلم إذ ذاك ، ولكن الأستاذ الامام ذهب بعيداً فأعلى العقل على النص وجعل العقل حكماً على الوحي ، وذلك حين قال بتأويل النص حتى يوافق العقل (وقد تعرض الأستاذ سيد قطب إلى هذا المعنى في كتابه خصائص التصور الاسلامي) .

ولكن المنهج القرآني يرى غير ما يرى الشيخ محمد عبده ، وهو مفهوم الأصالة :

وهو ما كشفت عنه مدرسة اليقظة : ذلك هو أن العقل مكانه وحدوده ، وأنه ليس الحكم الأخير وما دام النص محكما فالمدلول الصريح للنص من غير تأويل هو الحكم .

وهذه الظاهرة التي اضطر الشيخ محمد عبده أن يواجهها في سبيل الدفاع عن الاسلام قد اتخذت من بعد مفهوماً ما زال يستعمله خصوم الاسلام إلى اليوم ، كذلك فإن حديث الشيخ محمد عبده عن أن الشريعة تتصل بأمور المعاد وأن فيها سمة الاجتهاد قد أخذها دعاة التغريب من بعد وحاولوا أن يقولوا بأن الشريعة الاسلامية تستطيع أن تبرر واقع المجتمعات اليوم ، وهذا ما لم يقصد إليه الشيخ محمد عبده ، ولقد جرت المحاولة في هذا الاتجاه نحو النظر إلى المعجزات ، وأصبحت كتابات فريد وجدي والشيخ المراغي والدكتور هيكل كانت بمثابة تيار خطير من تيارات إنكار المعجزات في سبيل إعلاء نظرة العقل أو المنهج الغربي الوافد .

وقد أفاض في كشف هذه الظاهرة ودحضها الامام العلامة الشيخ مصطفى صبري شيخ الاسلام في الدولة العثمانية في كتابه (موقف العلم والعالم من رب العالمين) وهو كتاب خطير يكشف مدى خطر ظاهرة إنكار معجزات الرسول في سبيل إرضاء أصحاب المنهج الغربي .

وحين نقرأ الدكتور هيكل محاولته في كتابه السيرة نجده يحاول أن يواجه أمرين خطيرين : خطر حملة التبشير التي اجتاحت البلاد الاسلامية في الثلاثينات وخطر الاستشراق .

يقول في مقاله (كيف ولماذا أكتب حياة محمد) :

إن المستشرقين الذين كتبوا عن محمد وعن الاسلام قد تأثروا في كتاباتهم بدافع من التعصب المسيحي وإن هم ألقوا على ما كتبوا صبغة البحث العلمي ، ولا ريب أنهم على الأغلب لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى دقائق أسرار الحياة العربية لتأثرهم بالبيئة الغربية التي يعيشون فيها والتي ورثوا من تراثها في التفكير والبحث ما لا يسهل عليهم معه أن يحسوا بإحساس رجل الصحراء والعائش في الجو المكشوف والبيئة الطبيعية كالبيئة الزراعية على التفكير وعلى التصور أثر عميق لا سبيل إلى إنكاره .

ثم يشير إلى أنه يريد أن يرضى العقل الحديث بكتابة السيرة وأن هناك مسائل يرى أنها من وضع بعض الكتاب الذين دسوا عن حسن نية أو سوء نية طائفة من الخرافات .

ولقد واجه الدكتور حسين الهراوى (هيكلا) فى إبان كتابته السيرة وكشف عن خطأ الاتجاه إلى تقبل وجهة نظر أميل درمنجم التى بنى عليها هيكل كتابه (حياة محمد) وأشار إلى تلك العبارات الماكرة التى نقلها هيكل عن درمنجم والتى تحاول أن تصور النبى ﷺ وقد تأثر بأهل الكتاب فى الجزيرة العربية أو فى ذهابه إلى الشام أو فى إرسال بعض أصحابه إلى الحبشة المسيحية ، وهذا كله زيف مقصود أعده درمنجم وتابعه فيه هيكل إلى حد ما .

وقد أشار الدكتور الهراوى إلى أن هذا هو الخطر فى الطريق الذى رسمه الاستشراق ، وهذا شبيه بالوقوع فى الفخ الذى نصبه الاستشراق فى اتهام الإسلام بالجبرية مما دفع بعض الكتاب إلى إعلاء ما أسموه عقلانية الإسلام .

ولقد سار اتجاه هيكل شوطاً ولكنه عجز لأنه بعيد عن الأصالة واستطاعت حركة اليقظة الإسلامية أن تنمى (منهج القرآن) وأسلوبه فى كتابة السيرة وفى التعريف بالإسلام ومنهج القرآن هو الأصالة ومنهج الفلسفة والأسلوب العلمى الغربى هو (التغريب) .

وقد تصدى لذلك رجل من أجل رجال الفكر الإسلامى فى عصرنا وهو الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطى فى كتابه (فقه السيرة) التى كشف بها زيف محاولات كتابة السيرة على ضوء الفهم القرآنى .

إن الهدف هو تصحيح أغلاط كثيرين ممن كتبوا عن السيرة فى هذا العصر وأن يماط الغطاء عن المغالطات التى كانت ولا تزال تدسها أقلام كثير من الكاتبين المستشرقين والمستغربين وهى أغلاط ومغالطات قامت لتغذيتها ورعايتها وترويجها مدرسة فكرية معينة نشأت فى أواخر القرن التاسع عشر وراحت تمد من آثارها وظلالها إلى أيامنا هذه .

إن هذه المدرسة لم تعد تجد إلا قلة من بقايا المفتونين باسمها وباسم مؤسسيها ورعاتها وأن الحقائق الناصعة فى حياة المصطفى ﷺ ستظل هى المشرقة السائدة ويظل العقل الحر نزاعاً إليها موقناً بها مطمئن إلى أى تأويل أو تحليل يستهدف تحويرها أو التلاعب بها . ولقد علم عامة الباحثين والمفكرين أهم أسباب نشأة تلك المدرسة فى حينها : ذلك الانبهار الذى أصيب به كثير من العقول العربية المسلمة من أنباء النهضة العلمية فى أوربا ، فقد راحت تلك العقول تتوهم تحت تأثير ذلك الانبهار — أنه ليس بين المسلمين وبين أن ينهضوا مثل تلك النهضة إلا أن يفهموا الإسلام هنا كما فهمت أوربا النصرانية هناك ، وأن يضعوا حقائق الإسلام الغيبية من وراء اكتشافات العلوم المادية فلا يؤمنوا

بالغيب لم يدركه علم ولا يعرجوا على معجزة لم يؤيدها اكتشاف أو اختراع ، فإن فعلوا ذلك نهضوا نهضة أوربا في علومها ولحقوها في رقيها وفنونها .

ومن هنا أصبحا أقطاب تلك المدرسة ما زعموه (الإصلاح الديني) والدين الصحيح ما كان يوما ليفسد حتى يحتاج إلى مصلح أو إصلاح .

وكان من مظاهر هذا الإصلاح ظهور أول تجربة تحاول تحليل حياة الرسول ﷺ تحليلا يسهم في خضوع منكسر وراء العقلية الأوربية وتحت لواء ما زعموه (العلم الحديث) أجل ، فلقد كان كتاب حياة محمد ، حسين هيكل التجربة الرائدة في هذا المضمار ، أعلن فيه الرجل أنه لا يريد أن يفهم حياة محمد ﷺ إلا كما يأمر به العلم ولذلك فلا خوارق ولا معجزات في حياته عليه الصلاة والسلام وإنما هو القرآن فقط . وانبرى الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر يقرظ الكتاب ويبارك الخطوة الرائدة والطالق (محمد فريد وجدي) هو الآخر ينشر سلسلة مقالاته داعيا الناس إلى فهم الإسلام والسيرة النبوية عن طريق العلم ولو اقتضى ذلك الإعراض عن الخبر الصادق الذي ثبت في الكتاب والسنة وإنما كان يقصد بطريق العلم ألا يستسلم العقل للغيبيات ولا الخوارق والمعجزات وإن جاء بها الخبر الصادق المتواتر ، كأن العلم إنما يتحقق بإنكار كل ما لم يقع تحت حسك وشعورك .

كانت هذه المدرسة رد فعل آثاره الانبهار والشعور بالضعف لدى طائفة من المسلمين تهيأ لها بسبب ظروف خاصة أحاطت بها أن تطلع على الحياة الأوربية فتستهويها زخارفها وملاذها فاتخذوا من نزوات أنفسهم حاكما مسلطا على عقولهم واصطنعوا بذلك مدرسة فكرية ظاهرها الإصلاح الديني وباطنها الاستخذاء النفسي والانبهار الفكري بين يدي نهضة الغرب . ولم تكسب هذه المدرسة أي نهضة علمية كالتي نهضتها أوربا كما كانوا يزعمون أو يتوهمون ، كل ما جنته أيدي ذلك الإصلاح الديني فقدان الحقيقتين معا فلا هم على حقيقتهم الدينية أبقوا ولا على النهضة العلمية عثروا .

وأقول : أن المسلم لا ينبغي للحظة واحدة أن يحاول فهم حياة رسول الله على أنه عبقري عظيم أو قائد خطير أو راهب محنك ، فمثل هذه المحاولة ليست إلا معاندة أو مغالبة للحقائق الكبرى التي تزخر بها حياة محمد ﷺ فقد أثبتت الحقائق أن النبي كان متصفا بكل صفات السمو والكمال الخلقي والعقلي والنفسي ، ولكن كل ذلك كان ينبع من حقيقة واحدة كبرى في حياته عليه الصلاة والسلام ألا وهي أنه نبي مرسل من قبل الله عز وجل ، ولا ينبغي للمسلم أن يتصور أن المعجزة الوحيدة في حياته ﷺ إنما هي القرآن ما دام أنه لا ينكر أن عليه الصلاة والسلام سيرة تحاول أن نفهم حياته من خلالها .

أما إن كان ينكر وجود هذه السيرة فإن عليه أن ينكر معجزة القرآن أيضا إذ لم تبلغنا معجزات رسول الله المختلفة إلا من حيث بلغتنا منه معجزة القرآن

وقد زال اللبس وأشرقت الحقيقة مرة أخرى حين غلب المنهج القرآني الذي حملته حركة اليقظة الإسلامية والتي قدمت الآن جيلا أو جيلين على طريق الأصالة، كان رائد هذه المدرسة في الحقيقة هو الإمام حسن البنا ومن حوله نشأ الكثيرون، مصطفى السباعي وعمر الأميري ومحمد المبارك ومحمد الغزالي وسيد قطب وتابعته على الطريق أجيال كثيرة.

ولا ريب أن طريق التغريب هو أن ما بثه المستشرقون وحملوا عليه تلاميذهم ومن استهوائهم علمهم ومن حول المنهج القرآني والمنهج الماسوني نجد ذلك الخلاف الواضح بين ما كتبه عباس محمود العقاد في كتابه الفلسفة القرآنية ورد عليه في ذلك الدكتور محمد احمد الغمراوي يقول (ينبغي أن ينبه المسلم إلى أن يقرأ العقاد باحتياط وهو يكتب عن الإسلام فالعقاد إبن العصر الحديث أخذ ثقافته عما قرأ لأدبائه وعلمائه وهو شيء كثير وليس كل ما كتبه المستشرقون عن الإسلام يقبله المسلم ولا كل نظريات علماء الغرب تتفق وما قرره القرآن. لكن العقاد اعتقد من هذه النظريات ما اعتقد فهو ينظر إلى القرآن الكريم من خلال ما اعتقد منها ويبدو أن من بين ما اعتقده العقاد نظرية (فريزر) في نشوء الأديان فهي عنده ليست سماوية ولكن أرضية نشأت بالتطور والترقي إلى الأحسن، ومن هنا تفضيل العقاد الإسلام على غيره من الأديان فهو آخرها فهو إذن خيرها، ومن هنا تفضيله ما سماه الفلسفة القرآنية على غيرها من الفلسفات وإن لم يكن هذا هو تفسير إطلاق إسمية الغربيين على كتابيه (عبقرية محمد) و (الفلسفة القرآنية) فهذه التسمية خطأ منه ينبغي أن ينبه إليه قارىء الكتابين من المسلمين لينجو إن أمكن مما توحي به التسمية من أن محمداً ﷺ عبقري من العباقرة لا نبي ولا رسول بالمعنى الديني المعروف في الأديان المنزلة: يؤكد هذا الإتجاه أن جاء الكتاب واحداً من سلسلة كتب العبقريات الإسلامية وإن يكن أولها فالناشىء الذي يقرأ بعد عبقرية محمد عبقرية أبي بكر وعبقرية عمر مثلا لا يمكن أن يسلم من إيحاء خفي إلى نفسه أن محمداً وأبا بكر وعمر من قبيل واحد.

عبقري من عباقرة وإن يكن أكبرهم جميعاً. فالذي سمى النبي ﷺ بطل الأبطال فأوهم أنه واحد من صنف ممتاز من الناس متجدد على العصور. بدلا من صنف اختتم به ﷺ: صنف الأنبياء والمرسلين من عند الله فالنبي والرسول يأتيه الملك من عند الله بما شاء الله من وحي ومن كتاب ولا كذلك العبقري ولا البطل فالنبوة والرسالة فوق البطولة والعبقرية بكثير. وكم من الصحابة رضوان الله عليهم من بطل ومن عبقري وكلهم يدين له ﷺ بأنه رسول الله إلى الناس كافة في ذلك العصر وما بعده وأنه خاتم النبيين» وهو الذي يذهب إليه الدكتور الغمراوي هو نفس ما قصد إليه الأستاذ سيد قطب في كتابه «خصائص التصور الإسلامي».

والذي أراد به في الحق أن يكشف عن الفوارق العميقة بين التفسير الماسوني للإسلام والقرآن الذي ذهب إليه العقاد والتفسير القرآني للإسلام والقرآن ولعل هذا كان سر الإختلاف بينهما وسر الخلاف بعد أن بدأ معاً الطريق إلى فهم الإسلام والكتابة عنه في أول الأربعينات عندما كتب العقاد

عبقرية محمد وكتب سيد قطب التصوير الفنى القرآن . ثم اختلف الطريق ، أما العقاد فقد اعتصم بمدرسة الفلسفة الغربية وعرض عليها الإسلام فأصاب وأخطأ ، أما سيد قطب فقد خلع ثوبه تماما وآمن بمفهوم القرآن الأصيل ولا ريب أن ما قاله الغمراوى فى هذا المعنى كبير الدلالة .

أراد العقاد أن يجعل الإسلام فلسفة وكان يعرض العقيدة أحياناً بأسلوب الفلسفة ، ونحن نختلف معه ، لأنه لابد أن نعرض العقيدة بأسلوب العقيدة ، إذ أن عرض العقيدة بأسلوب الفلسفة يقتلها ويطفئ شعاعها ويقصرها على جانب واحد من المكونات الإنسانية ، وفارق كبير بين التصور الفلسفى والتصور الاعتقادى — ذلك ، أن التصور الفلسفى ينشأ فى الفكر البشرى من صنع هذا الفكر لمحاولة تفسير الوجود وعلاقة الإنسان به ولكنه يبقى فى حدود المعرفة الباردة . أما التصور الاعتقادى فهو تصور ينبثق من الضمير ويتفاعل مع المشاعر ويتلبس بالحياة فهو وشيجة حية بين الإنسان والوجود وبين الإنسان وخالق الوجود .

وفى نفس الطريق من التبعية والتغريب إلى الأصالة والمنابع الأولى نجد تلك الأبحاث الراسخة العميقة عن استقلالية الشريعة الإسلامية عن القانون الوضعى واستقلالية التربية الغربية وذاتية الإسلام الواضحة فى مناهج الاجتماع والنفس والأخلاق بما يختلف اختلافاً واضحاً عن الفلسفة الغربية المادية منها بنوع خاص واستقلالية الإسلام فى منهجه السياسى والاقتصادى عن الرأسمالية والليبرالية وعن الديمقراطية ، والماركسية والإشتراكية على نحو مفرد ، لأنه ربانى من عند الله ، هذه هى الصورة التى تبدو فى أفق الفكر الإسلامى اليوم لتزيح ركام الفلسفات والمفاهيم التغريبية التى حملها الغزو الثقافى من الفكر التلمودى والوثنى والإباحى الغربى والتى بها فى أفق الفكر الإسلامى وانخدع بها بعض مفكرى الاسلام لحاولوا أن يتخذوا من الأسلوب الفلسفى مدخلا إلى فهم الإسلام . وهى محاولة لهم فيها أجر واحد ، أما مفهوم حركة اليقظة الإسلامية . فقد لمع فى الأفق أول ما لمع قرآنياً ربانياً خالصاً متحرراً من كل مفاهيم المذاهب والفرق .

وبعد فتلك أولى المحاولات فى الكشف عن هذه الظاهرة ولعل أهم ما يجب أن أشير إليه هنا أن (الأصالة) قد كسرت ذلك القيد المسموم الذى حاول به دعاة التغريب أن يفصلوا بين الفكر الإسلامى الحديث وبين الفكر الإسلامى فى منابعه الأولى فى عهد رسول الله والصحابة والتابعين .

وأبانت أن الإنطلاقة الحديثة مرتبطة ومدعمة بالسابق لها كحلقة من حلقات متصلة لا انفصام لها .

الباب الرابع

مواجهة التحدي الخطير

(الصهيونية والشيوعية والنفوذ الغربي)

— ١ —

الصهيونية والشيوعية والاستعمار

هل هي في سبيل خطة لمواجهة الإسلام ؟

كانت القوة الربوية اليهودية ممثلة في رؤوس الأموال موجودة في إطار الاستعمار الغربي الزاحف على العالم الإسلامي ، وكانت واضحة في القروض التي قدمت إلى بعض الدول العربية وفي الإغراءات التي وجهت إلى الخليفة العثماني بهدف سيطرة الصهيونية العالمية اقتصادياً على كل ما تحتله الدول الكبرى من أرض وما تستولى عليه من معدات !

وفي أول محاولة للاحتلال الغربي للعالم الإسلامي وهي محاولة نابليون كانت خطة اللقاء والارتباط بين الاستعمار والصهيونية واضحة جلية ولا ريب أن قيام اليهودية العالمية بإشعال نار الثورة الفرنسية كان مقدمة السيطرة على مخططات المطامع الاستعمارية التي كانت قائمة منذ وقت بعيد وممثلة في القيام بحفر قناة السويس فلما سيطر نابليون تكالب اليهود على الاستعانة به في سبيل تحقيق أغراضهم وجددوا عرض مشروع استعمار العالم عن طريق إنشاء قناة السويس وقدموا عروضاً بأموالهم التي يضعونها تحت تصرف فرنسا مقابل أن تمنحهم فرنسا الأرض الفلسطينية . وقد أعجب نابليون بالخطة وكتب لهم يدعوهم إلى التجمع .

وهكذا بدأ الاستعمار خطواته الأولى في السيطرة على عالم الإسلام كانت الصهيونية هي الإدارة والعون والرفيق بل والشريك : الغرب الاستعماري المسيحي بخططه واليهود بأموالهم ومؤامراتهم الجاسوسية ليكونوا أداة التخريب والفوضى . لكن نابليون هزم عند أسوار « عكا » ولم يدخل فلسطين وتراجع اليهود عن خططهم وإن كانوا قد سجلوا هذه الصيحة الباكرة التي جاءت بعدها خطط عام ١٩٠٧ عندما تقدموا إلى الاستعمار البريطاني على أنهم الجسم الغريب العازل بين المسلمين والعرب بين آسيا وأفريقيا ثم كانت خطتهم الناجحة مع بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى والتي كسبوا بها وعد بلفور بعد أن عجزوا عن السيطرة على السلطان عبد الحميد فعزلوه وسيطروا على حلفائه الاتحاديين الذين فتحوا لهم باب فلسطين .

وإذا كان الغرب لم يستعبد العالم الإسلامي إلا عن طريق القروض والربا ، فإننا نجد أن الصهيونية كانت وراء كل هذه المحاولات المالية لإقراض أصحاب الثروات حتى إذا سقطوا في أيديهم انتزعت منهم أراضيهم وأملاكهم وفي السيطرة على أفريقيا كانت الصهيونية وراء الاستعمار ، كانت الخطة التي اتخذتها الصهيونية لأن تكون الجسم الغريب الذي يفصل بين آسيا وأفريقيا . وفي الحرب العالمية الأولى كانت قروض اليهود لفرنسا وانجلترا عاملا هاماً في انتصارها على الألمان وكان تصريح بلفور الذي قدمته بريطانيا لهم بمثابة عربون لهذا الدور الذي حقق للحلفاء النصر .

ولقد كانت الصهيونية فى كل مراحل الاستعمار الحديث أداته الفاعلة وقوته الضاربة وخاصة فى المجال الاقتصادى وفتح المصارف وتوظيف ذهب أوربا الذى يملكه اليهود فى القروض وكذلك فتح الأسواق وبيع منتجات الغرف الغربية التى تدر قناطير الذهب الرأسمالية هناك .

كانت الصهيونية وراء الاستعمار فى الصراع مع الدولة العثمانية وإسقاط السلطان عبد الحميد وسحق الدولة العثمانية نفسها ومزقتها وإسقاط الخلافة للوصول إلى فلسطين وعندما دخل اللورد اللنبى القدس عام ١٩١٧ وأعلن انتهاء الحروب الصليبية كان اليهود يعلمون أنهم سيتسلمون القدس من الاستعمار .

هذا عن الاستعمار والصهيونية فماذا عن الشيوعية والاستعمار ؟

كان الروس قبل الشيوعية جزءاً من خطة الاستعمار التى شاركت بأكبر ما تستطيع من قوة المطامع فى هدم الدولة العثمانية والسيطرة على أجزاء واسعة منها والقضاء على كل محاولات التحرر والاستعادة التى جاهد المسلمون بها فى سبيل إقصاء نفوذ الروس عن بلادهم . وكانت أروع صور المقاومة هى صورة الشيخ شامل الذى قام بحركته عام ١٨٠٢ فى مقاومة الروس فقد ظل يكافح ويناضل على رأس جيوشه وأتباعه البواسل المجاهدين الذين تجمعوا تحت لوائه من مختلف القبائل والديار الاسلامية . وقد أمضى خمساً وثلاثين عاماً متواصلة فى ميدان الجهاد كبد الروس خلالها مئات الألوف من القتلى وغرمهم بإنفاق الملايين الوفيرة من الأموال . وكانت مقاومته ترمى إلى تحرير أمة تبلغ أربعين مليون نسمة من يد الاستعمار الروسى الجائر .

وقد جاء هذا الاتجاه من الروس تطبيقاً لوصية طاغية من بطرس الأكبر كان يهدف فيها إلى القضاء على الدولة العثمانية والنفوذ الاسلامى ، فلما جاءت البلشفية وسيطرت على روسيا أرادت أن تسير فى نفس الطريق : طريق الطموح إلى السيطرة على أجزاء كبيرة من عالم الاسلام وهم له أشد عداوة من القيصرية ولكنهم خدعوا المسلمين بأساليب ادعوا بها أنهم يناصرون حركات التحرر من الاستعمار الغربى وكان بيانهم ديسمبر ١٩١٧ ، خداعاً مثل خداع نابليون حين ادعى الاسلام ثم دخل الأزهر بخيله ، ومثل خـــداع الاتحاديين الأتراك للعرب والسوريين ومثل خداع لورانس للعرب .

ولم يكن البلشفيك أقل غدراً وخسة ففى أبريل ١٩١٨ أصدر لينين أمراً بزحف الجيوش الروسية على البلدان الاسلامية فأخذت تحصد المدن والقرى وتفتك بالشعب الأعزل الآمن دون تمييز ، ولم ينته عام ١٩١٨ إلا وجمهوريات ، إيدل أورل والقوقاز والتركستان ، قد سقطت تحت حكم البلشفية المباشر .

وفى عام ١٩٢٠ أتمت موسكو احتلال شبه جزيرة القرم ، وفى عام ١٩٢١ هجم الروس على

جمهورية بخارى وشرعوا فى تطبيق أنظمتهم الشيوعية فألغوا الملكيات وصادروا الأموال والثروات وألغوا التعليم الدينى واضطهدوا رجال الدين والوعاظ والقادة وحولوا المساجد إلى دور لهو ومكاتب لرجال الحزب الشيوعى ، فقد هوجمت شبه جزيرة القرم من البحر بستين ألف مقاتل عام ١٩١٨ واجتاز الجيش الشيوعى أراضى القرم لأول مرة . وقد قاومهم السيد جعفر سيد أحمد ورجاله وصدوا بسقوط رئيس الجمهورية جلبى جهان ووقع المفتى الكبير أسيراً فى يد الأعداء وهو يدافع عن العاصمة بجرأته العظيمة وقد ساقوه إلى الموت ومزقوه إرباً ومثلوا بجثته أشنع تمثيل .

وكان الروس يرون أن شبه جزيرة القرم هى مفتاح السيطرة الروسية على البحر الأحمر . وكانت دعوام الهادفة إلى تحرير البلاد الاسلامية من الاستعمار ومساعدة الشعوب الاسلامية على تحقيق أهداف الاستقلال هى مدخل الشيوعية إلى العالم الاسلامى .

ولقد كانت روسيا تستهدف ، وهى وليدة الصهيونية ، أن تضع العالم الاسلامى بين فكى الكماشة إما إلى الاستعمار الغربى الذى تسيطر عليه الصهيونية أو الشيوعية التى هى جزء من الصهيونية نفسها وجاءوا بسحر كلمات منمقة وعبارات خادعة ووعود خلابة . وقد انحاز إليهم البعض بحكم الضغط الحزبى وفريق استهوته الوعود الكاذبة .

وبدأت مرحلة من الصراع بين روسيا البلشفية من جهة والدول الاستعمارية من جهة أخرى ، وقد تبين أن هدف روسيا البلشفية هو السعى لهدم النفوذ الاستعمارى الغربى فى القارة الآسيوية وحرمان الدول الغربية ما كان فى يدها من منافذ تجارية ومصالح اقتصادية ، وهو فى مواجهة عالم الاسلام ليس إلا استبدال استعمار باستعمار أشد قسوة منه .

ومن هذا الطريق أخذت الشيوعية تنشر أفكارها فى العالم الاسلامى وظهرت الشيوعية فى بعض البلاد العربية فى أحضان الصهيونية وبقيادة اليهود الأثرياء . وكان لتحالف الاستعمار والشيوعية إبان الحرب الثانية أثره فى تمكن الشيوعية من إنشاء خلايا داخل الأحزاب السياسية فى البلاد العربية مما حقق عند انتهاء الحرب العالمية آثاراً خطيرة كانت تستهدف إسقاط البلاد العربية كلها فى قبضة الشيوعية الدولية .

ولا ريب أن « الماركسية والشيوعية والبلشفية » جميعاً قد خدعت العالم الاسلامى كله حين أذاعت أنها تستطيع مساعدة البلاد فى كفاح الاستعمار الغربى والصهيونية وذلك بادعائهم مناصرة حركات التحرر . وقد استطاعت روسيا أن تخفى حقيقة صلتها بالاستعمار وصلتها بالصهيونية وتخدع العرب والمسلمين بالتحالف معهم كصديق حميم لهم وعدو لأعدائهم ، وقد احتاج الأمر إلى وقت طويل حتى اكتشف العرب والمسلمون أن الشيوعية أعدى أعداء الاسلام والعالم الاسلامى وأن الاتحاد السوفيتى لا يستطيع أن يحارب الصهيونية وهو وليدها .

وحين يتكشف أن الماركسية فى أصلها هى دعوة صهيونية وأن كبار مؤسسيها هم من اليهود الذين هم أشد عداوة للإسلام وأهله ، لا يكفى هذا إزاء التقارب الغلف والعقول الصم لتحذر ولكنها لم تكشف الحقائق إلا يوم وقع المحظور . أما فيما بين الشيوعية والصهيونية فإن الأمر لم يعد فى حاجة إلى جدل كبير بعد أن تسربت فى السنوات الأخيرة عشرات الوثائق التى تكشف هذه الحقيقة وتؤكدها وكان « فرانك برايتون » قد كشف هذه الحقيقة منذ سنوات طويلة فى كتابه « الصهيونية والشيوعية » حيث قال بالحرف :

« إن الحقيقة الراهنة هى أن الصهيونية والشيوعية صنوان منبعهما واحـــد وغايتهما واحدة وجوهرهما واحد والفئة التى تقوم عليهما من وراء الستار واحدة وما اختلافهما الظاهر سوى ترتيب مؤقت اقتضاه النجاح فى السعى إلى الغاية الواحدة حتى إذا تحققت بالنجاح الكامل اتحدا معاً للسيطرة على العالم ، ولا عبرة بهذا الفارق الظاهر بين الشيوعية والصهيونية فيكون اليهودى شيوعياً أو صهيونياً أو كليهما معاً ، وكثيرون منهم كذلك لا ينفى كونه يهودياً ، وليست الصهيونية والشيوعية سوى مظهرين لقومية واحدة هى القومية اليهودية التى لا تفتأ تناوىء سائر العالم غير اليهودى .

وتقول « أمريكان هيبرو » - كبرى المجلات اليهودية فى أمريكا بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٢٠ : إن الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم ، وإن ما تحقق فى روسيا كان بفضل الفئة اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم » .

وبعد فهل من الممكن التقاء الشيوعية والاستعمار فى ظل الصهيونية ؟

يقول كودمين كوهين : إن اسم تروتسكى وروتشلد يمثلان توجهات العقلية اليهودية ، تروتسكى على الشيوعية وروتشلد على الغرب الرأسمالى وتكشف التحولات الأخيرة إلى تلاقى بين الاستعمار والشيوعية تحت ظل الصهيونية ولخدمتها وبدأت تقوم قناطر فى كتابات سارتر وماركوز وغيرهما ، كما جرت محاولات عديدة لربط الفرويدية الغربية بالماركسية قام بها سارتر قبل ماركوز . وهناك محاولات متعددة لهذا اللقاء لعل أخطرها هو أن تكون الفلسفة المادية اليوم التى صنعها اليهود هى الجذر الأصيل للفكرين الماركسى والغربى وأن التفسير المادى للتاريخ الذى قال به ماركس هو أساس من أسس الفكر الغربى اليوم .

وأن هذا التحول إنما يجرى لتحقيق الرؤية المستقبلية التى تعد بروتوكولات صهيون لها من طريق :

١ - الأدب والقصة والشعر الجديد .

٢ - المدرسة الاجتماعية ونظريات النفس والأخلاق .

٣ - التكامل بين الماركسية والفرويدية والوجودية .

ذلك أن كل دعاة هذه المذاهب من اليهود وهم يحاولون أن يطرحوا هذا الفكر المادي الوثني في أفق الفكر الإسلامي كذلك فإن المسيحية الآن تستخدم لخدمة أهداف اليهودية التلمودية وأن القرارات التي أصدرتها المجامع المسيحية سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية إنما هي خطوات على نفس الطريق وأن كل حركات التبشير المسيحي الآن في العالم الإسلامي محتواة بالتوراة والوعد المقدس المدعى وهو ما اعتنقته البروتستانتية وتقوم به .

بل إن عدداً من الجامعات الإرسالية الغربية الموجودة في العالم الإسلامي وخاصة التابعة منها للبروتستانتية فإنها تعمل في خدمة الصهيونية ومن أجل الدفاع عنها ، والمعروف أن اليهود قد وضعوا آراء التلمود في نظريات ومناهج ومذاهب عالمية في إطار العلمانية والمادية وذلك لخداع العالم كله عن هوية هذه المذاهب وفرضها على الجامعات والصحافة والنظم الاجتماعية .

هذا هو الخطر الذي نخشى أن يكون مرئياً لحظة في مواجهة الإسلام وعالمه عن طريق التبشير والاستشراق والغزو الثقافي .

- ٢ -

الاستشراق

لا يزال الاستشراق خادماً للاستعمار والصهيونية الماركسية جميعاً .

لعل أخطر آثار الاستشراق هي أن يجري من الفكر الإسلامي مجرى الدم ، فهو ليس هدفاً ظاهراً محسوساً يمكن التحكم فيه وحصره ولكنه شيء خطير يسري في النفس العربية الإسلامية عن طريق مخططات محكمة لا تكشف في ظاهرها عن سرها وهدفها ، إنه محاولة خطيرة لزرع اليأس والقنوط في النفس العربية الإسلامية حتى لا تؤمن بذاتها ولا تثق بكيانها ولا تفخر على تراثها أو لغتها أو عقيدتها ثم إنه محاولة خطيرة لزرع الشك والسخرية في العقل العربي الإسلامي حتى لا يرى لأي قيمة من القيم التي يقوم عليها بناء الإنسان في إرادته الحرة ومسئوليته والتزامه الأخلاق - لا يرى لهذه القيم أهمية فهو يسخر بها ويلهو ويعبث ومن ثم لا يجد له كياناً قائماً أو رسالة ملتزمة أو أمانة يضع نفسه وجهده في سبيل الدفاع عنها . وبذلك ينشىء ذلك النوع الخطير من العابثين المترفين الضائعين وهي أجيال خطيرة أشد الخطر لأنها لا تعرف لها غاية ولا عقيدة ، والاستشراق يصل إلى هذا كله عن طريق كل مسموع ومقروء عن طريق المدرسة والصحافة والمسرح والإذاعة المسموعة والمرئية من خلال شكوك وشبهات وملابسات توضع هنا وهناك فتحدث ذلك الانحراف الخطير الذي يوشك أن يجتاح المسلمين والعرب في فكرهم وعقائدهم وقيمهم .

ولقد عكف المستشرقون على التراث القديم للمسلمين وهو فى أغلبه ركام مضطرب من آراء الفلاسفة والمتصوفة والمعتزلة والمتكلمين والزنادقة والباطنية والعنصر الأصيل منه قليل ، عكفوا على هذا كله من خلال المعارك التى دارت بعد ترجمة الفلسفة اليونانية وما ترجم من فلسفات الهنود والفرس وآثار المجوسية والوثنية والغنوصية وغيرها مما صفاه الفكر الإسلامى كله وكشف عن زيفه ، عكفوا على ذلك وأعادوا إثماره وحاولوا أن يجددوه وأن يحيوا شخصياته التى لم تكن فى يوم من الأيام ذات بال فى نظر المسلمين ، فأصبحت تقام المهرجانات وتلقى الأضواء على شخصيات مضطربة ممزقة : (الحلاج ، أبونواس ، بشار ، السهروردى) بل ويعكف مستشرقون سنوات عمرهم الطويل فى جمع أخبار هؤلاء وأولئك وفى نفس الوقت يهاجم أعلام لهم مقدراتهم وقيمهم أمثال الغزالى وابن تيمية والمتنبى وهكذا .

والمستشرقون الذين يعملون فى حقل اللغة لا هم لهم إلا البحث عن الخلافات التى تثير الشبهات حول القراءات السبع والأحرف السبع وحول الكلمات غير المنقوطة ، وحول ما إذا كانت هناك لغة فى جنوب الجزيرة وأخرى شمالها ، وكل هذه محاولات يراد منها إثارة الشبهات حول القرآن .

والمستشرقون العاملون فى حقل الشريعة الإسلامية لا هم لهم إلا دراسة الأعراف فى الجاهلية فى محاولة القول بأن الشريعة الإسلامية لا تعدو أن تكون هذه الأعراف بصورة مهذبة .

ومن أبرز أعمال المستشرقين دراسة الفتن الأهلية والخلافات المذهبية ومظاهر الانقسام والتفسخ ودراسة الحركات المضادة ومحاولة اعتبارها حركات إسلامية .

ويحاول المستشرقون تلمس العيوب للبرءاء فإذا وجدوا نصاً مختلفاً رجحوا النص الذى يحقق أهواءهم ، وإذا وجدوا عبارة تخدم أهدافهم اقتضبوها ، وإذا وجدوا واقعة جزئية هولوا لها حتى يجعلوها قاعدة كلية ، وقضية عامة ، وذلك كله فى سبيل هدف مسبق ، وغاية فى النفس لا يبالون فى سبيل ذلك التحريف أو الكذب . ومن أمثلة ذلك أن مستشرقاً له إسم رنان هو (هاملتون جب) ينقل فى كتابه (بنية الفكر الدينى) نصاً من كتاب شاه ولى الله الدهلوى المسمى (حجة الله البالغة) حتى استوفى من النص مراده ترك الجزء الباقى منه وهو ما يستكمل به ما يريده شاه ولى الله (النص موجود فى ج ١ ص ١٢٢ من كتاب حجة الله البالغة) .

ومن أمثلة ذلك أن صمويل زويمر المستشرق المعروف وزعيم التبشير فى العالم الإسلامى فى الثلاثينات يحاول أن يصور الإمام الغزالى على أنه الصديق الإنجيل والمسيحية فى كتابه (مسلم يفتش عن الحق) يريد زويمر أن يسند هداية الغزالى ورجوعه إلى حظيرة الإيمان إلى تأثير الإنجيل ، وعنه يتابع الدكتور زكى مبارك فيقول : إن الغزالى طالع الإنجيل وتأثر به . ويقول فؤاد حبيش صاحب مجلة المكشوف أن الغزالى مسيحى الفكر والتصوف . وقد عقد فصلا سماه (يسوع المسيح فى الغزالى)

قارن فيه بين عدة مقتبسات من أقوال القوال وبين نصوص من الإنجيل محاولا إيجاد وجه شبه بينهما . كذلك نجد أن برنارد لويس المستشرق اليهودى الانجليزى يكتب عن المساواة العنصرية فى الإسلام فيعتمد على أقوال من كتاب الأغانى منسوبة إلى الرسول ، ويهمل الأحاديث الصحيحة التى جمعها ثقاة المسلمين ، ثم يلجأ للاستدلال على نظرياته بالأحاديث المكذوبة على الرسول محاولا إلقاء ظل من الشك على المساواة والقول بالتمييز العنصرى ، ومن أجل ذلك كافأته الصهيونية بلقب دكتوراه من إسرائيل فى العام الماضى .

أما رودنسون المستشرق اليهودى الفرنسى فإنه يكتب عن الإسلام فى مجال الاقتصاد كتابات غاية فى التعصب والحقد والكراهية للإسلام ، وهو يحاول مبطلا أن ينفى العلاقة بين الإسلام والحياة الاقتصادية للمسلمين .

أما بروكلمان فهو يدين كل الحركات الاسلامية الصحيحة ويصور التاريخ الاسلامى مليئاً بالسموم والالتباسات العقلية والتاريخية .

وجولد سيهر المستشرق اليهودى الألمانى الذى حاول أن يثير الشبهات حول المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن . وهكذا نجد لدى مرجليوث وجولدسيهر ورودنسون وبرنارد لويس وكلهم يهود هدف واضح من عملهم فى مجال الاستشراق يرمى إلى محاولة إثبات أن القرآن مأخوذ من التوراة والانجيل والاهتمام بالمؤثرات القديمة ومحاولة إعلائها مع أنها من المنفرات التى غيرها الإسلام ومنها انتقاص الرسول والقرآن رغبة فى تأكيد تعصبهم للتوراة ، ومفهومهم الدينى القائم على العنصرية ، وإعلاء الجنس اليهودى واحتقار الأمميين والعرب .

وهكذا نجد أن الاستشراق مسيحياً أو يهودياً أو استعمارياً أو ماركسياً هو محاولة لتزييف الحقائق الأصيلة فى مجال العقيدة واللغة والشريعة والثقافة الاسلامية حيث تدرس خصائص الفكر الاسلامى بروح خصومة واضحة ، وبفكرة مسبقة قائمة على فروض قوامها سوء نية وتعصب وأحقاد وإذا ذهبنا نبحث عن التحديات التى تواجه الفكر الاسلامى واللغة العربية نجدها جميعاً من أعمال الاستشراق :

١ - فالاستشراق هو الذى أثار مسألة الدعوة إلى العامية فى البلاد العربية ، وقد حمل لواءها ولكوكس وولمور وسبيتا فى مصر وكولان فى الجزائر وماسنيون فى المغرب وسوريا .

٢ - كذلك حمل لواء الدعوة إلى الإقليميات والقوميات عربية وطورانية ، وإلى الفرعونية والفينيقية وغيرها مستشرقون أجانب هم الذين أغروا بها العرب والمسلمين وطرحوها فى أفق الفكر الاسلامى . كذلك عمل الاستشراق على أن يكون خادماً للاستعمار فى الكشف عن جوهر النفس

الإسلامية والعقل الاسلامى للاهتداء إلى الجوانب التى يمكن ضرب هذا الفكر منها والسيطرة عليه واحتوائه وتدميره ، ولكن الاستشراق عجز مع الأسف عن فهم العقل الاسلامى والنفس الاسلامية لأنه كان متعصباً أساساً ولأنه حاول أن يفهم الفكر الاسلامى من خلال مناهج الفكر الغربى ولأنه كان عاجزاً - لو خلا من التعصب والهوى - عن فهم البيان العربى .

ولقد حرص المستشرقون فى كل قضية وكل مجال أن يأخذوا بالرأى الأضعف والرأى الذى يخدم الأهواء والغايات من تفكيك الفكر الاسـلامى وتمزيق وحدة المسلمين وإثارة الخلافات والحوازات القديمة ، والحيلولة دون وحدة الفكر أو وحدة المصير ، وتدمير القيم الخلقية والاجتماعية ، وإذابة الشخصية الاسلامية والقضاء على كرامتها وذاتيتها ، والعمل على احتوائها وقطع الصلة بين حاضر المسلمين وماضيهم ، وإحياء ما قبل الاسلام ومحاولة ربطهم به ، وإعلاء شأن الوثنية الإغريقية ، والجاهلية العربية ، والستهانة بالتراث الاسلامى ، والتشكيك فيه وتزييفه .

وكانت مؤسسة الاستشراق هى المصنع الذى يقدم السموم لإرساليات التبشير ومناهج التعليم ، وبرامج الثقافة ، وكتابات الصحف والمجلات .

وما يزال الاستشراق الآن يخدم أهداف الاستعمار وأهداف الصهيونية وأهداف الماركسية ويخلق نظريات متعددة فى التيارات الثلاثة يحاول أن يحاكم بها الفكر الاسلامى واللغة العربية ، والتراث والأدب والتاريخ .

ويحاول الاستشراق فى السنوات الأخيرة وبعد أن بدأ العرب صفحة جديدة من الفهم لعقيدتهم وتراثهم أن يغير ثوبه ، وأن يدعى أنه قد تحول إلى أسلوب الدراسات الانسانية ويخدعنا (جاك بيرك) حين يقول إن الاستشراق مهمة تجاوزها الزمن ، ويعلن المؤتمر الدولى :

(باريس - تموز يوليو ١٩٧٣) إطلاق إسم مؤتمر العلوم الانسانية فى آسيا وإفريقيا الشمالية بدلا من الاستشراق على المؤتمر القادم عام ١٩٧٨ . أما العلوم الانسانية فنحن نعرف كيف أن الفكر اليهودى التلمودى قد سيطر عليها عن طريق مناهج فى علوم اللغات والآثار والبيولوجيا وعلوم النفس والاجتماع والأخلاق التى أطلقتها المدرسة الاجتماعية الفرنسية (دوركايم - ليفى بريل) إلى سارتر إلى ماركوز كيف يمكن أن يكون هذا أساساً لدراسة عالم الاسلام وفكره وتاريخه .

ومن عجب أنه فى نفس الوقت الذى يقال فيه استبشروا يا عرب إن الاستشراق قد مات ، تنشر الصحف تحت عنوان : الاستشراق ينشط من جديد - أن هناك حلقة جديدة لجامعة (توبنجن) فى ألمانيا الغربية لدراسة الشرق الأدنى : الآثار - الأراضى - المدن - المناطق - القبائل - البادية - القرى - المدن . . . إلخ . نعم إن الاستشراق الآن يغير جلده كا فعل التبشير من قبل ليخدع العرب والمسلمين ، إنه يريد أن يضرب المسلمين والعرب من خلال فكرهم وعقائدهم وقيمهم استمراراً فى العمل بوصية لويس التاسع والذى قال : إن المسلمين لا يحاربون عن طريق السيف وإنما عن طريق الكلمة .

(٣)

سموم الفكر الماركسى

هناك محاولة خطيرة ترمى إلى أن تطرح فى أفق الفكر الإسلامى مفاهيم زائفة وأخطاراً مسمومة تحاول بها عزل العرب والمسلمين عن « طريق الأصالة » الذى أسسوه منذ العاشر من رمضان ، والذى وصلوا إليه بعد أن سقطت تجربة الاحتواء الغربى والماركسى جميعاً ، وبعد أن تبين لهم أنه هو الطريق الوحيد إلى امتلاك الإرادة ومواجهة الغزو الاستعمارى الصهيونى الماركسى الذى يحاول اجتياح عالم الإسلام اليوم .

تعمل هذه المحاولة على تقديم تفسيرات التاريخ الحديث مستمدة من وجهة النظر الصهيونية التلمودية التى هى أشد خطراً من التفسير الماركسى والتفسير المادى الغربى من حيث أنها تستهدف تسميم عقول المسلمين والعرب بشأن العلاقة بين العرب والغرب وبين العرب وإسرائيل الصهيونية فى محاولة القول بأن القضية كلها قضية صراع اقتصادى وهدف مادى أو استعمارى . وأن الغرب هو الذى اصطنع الصهيونية لتكون قاعدة له فى المشرق وأنه لا توجد أى علاقة بين ما يجرى الآن وبين الدين أو العقائد

كما تحاول هذه الدعوة المسمومة إعادة تفسير الحروب الصليبية على هذا النحو أيضاً وتصويرها بأنها مطامع التجار والملوك فى الشرق وأن الأغراض الدنيوية كانت أقوى من الأغراض الدينية .

ولا ريب أن هذه المحاولة فاسدة ومرفوضة ولا يصدق بها أحد من أصحاب الأصالة الاسلامية ، وأنها ترمى إلى الخداع والتزييف للواقع ، ولا شك أن الهدف واضح من وراء هذه المحاولة . إذ أن القائمين عليها من دعاة العصرية والتقدم والتفسير المادى للتاريخ ، إنما يهدفون إلى خدمة الصهيونية التلمودية الكامنة وراء الفكر الماركسى والفكر التقدمى كله ، فهى وليدته وهى صانعة هذا الفكر وحاميتها والذود عنها .

وأى مطلع على أساليب الفكر الماركسى والصهيونى المادى يعرف هذا الأسلوب الذى ينكر طابع الدين فى تفسير التاريخ والأحداث ، ويحل محله مفهوم الاقتصاد أو المواجهة الحضارية أو غيرها من العبارات البراقة الخادعة .

إن التلمودية الصهيونية المسيطرة الآن على الفكر الغربي وعلى هذه الطبقة التي تشكلت في أول السبعينات تحت اسم اليسار والماركسية والتقدمية والتي تعمل في خدمة العداء للإسلام أولا وتحت أي إسم آخر من الناحية الأخرى تحاول أن تلغي الأثر الديني في الحروب والعلاقات والأحداث وتحل محله العلاقات الاقتصادية والسياسية . ولا ريب أن هذا الاتجاه ليس علمياً وليس صحيحاً .

إن موقف الغرب من العالم الاسلامي هو موقف واضح معروف ، وهو موقف يمكن أن يكون سليم ومسالماً . لولا هذه القوى التي تحرك الأحداث لحدة أهدافها كالصهيونية والشيوعية ، وهي التي تحاول أن تلقي في الفكر الغربي مواقف الخوف من امتلاك العرب والمسلمين لإرادتهم ، وهي التي تحاول أن تفسر العلاقات التي تقوم من جانب المسلمين والعرب على أساس من الفهم العميق والسماحة والاخاء واليسر والانسانية ، ولقد كان موقف الغرب مغلفاً بالخصومة والعدوان . وكان الهدف وما زال أن يظل المسلمون والعرب غير قادرين على امتلاك إرادتهم ، وأن يحال بينهم وبين تحقيق وجودهم الصحيح .

إن المسلمين قد قامت أمتهم في هذه المنطقة الخصبة الاستراتيجية الوافرة . فهم ليسوا أعداء لأحد ولكنهم ما زالوا يقاومون إغارات الغزو التي تحاول اجتياحهم لأنها تستهدف ثروتهم ، وترى أن دينهم هو القوة القادرة على حمايتهم من السقوط في براثن العدو ، ومن هذا كانت حملة الاستشراق الغربي والصهيوني والماركسي على مفاهيم الإسلام وقيمه .

ولعل موقف لويس التاسع بعد هزيمته في الحملة الصليبية الثامنة هو أكبر دليل على فساد دعاوى هذه الطبقة المحتواة الخادمة لقوى الغزو . فإنه بعد أن فشل عسكريا دعا قومه إلى السيطرة على الاسلام عن طريق الكلمة والتبشير إلى محاولة هدم القيمة الأساسية للاسلام وهي الجهاد ، ومع ذلك كله توصف الحروب الصليبية بأنها حروب غير دينية .

والصهيونية اليوم التي تجعل اسم حملتها عام ١٩٦٧ (خيبر) والتي تحاول أن تتحدث عن أنها في طريقها إلى حيث كان يهود الجزيرة العربية ، وتحاول أن تنكر رحلة ابراهيم واسماعيل إلى الجزيرة العربية ، وبناء بيت الله الحرام ، والكعبة المشرفة . لأن هذا يجعل وعد الله تبارك وتعالى لابراهيم مشتركا بين أبناء اسماعيل وأبناء اسحق . هذه المحاولة التي تقوم على أساسها دعوى إسرائيل والصهيونية العالمية في فلسطين . ألا تكون هذه ذات صلة بالدين .

نحن لا نثق بالتفسير الذي يقدمه أتباع الصهيونية والماركسية للتاريخ الاسلامي لأنه يقوم على هوى الخصومة والحقد ، ونحن لا نستطيع أن نصدق أن الغرب المسيحي أقام إسرائيل اليهودية من أجل أهداف سياسية استراتيجية اقتصادية ، ولذلك فإن الخلاف مع الغرب وحدة وليس مع الصهيونية العالمية ؛ ولكن مدرسة اليقظة الاسلامية تعرف أبعاد القضية معرفة جيدة وكتابها قد

كشفوا هذه الأبعاد فى عديد من دراساتهم ومؤلفاتهم ، وهم موضع ثقة المسلمين والعرب ، والأمر فى إسرائيل وإقامتها عميق وله أبعاده وأخطاره التى تتصل بالحملة على الإســلام نفسه ، وبالرغبة فى السيطرة على العالم الإسلامى وثرواته ، ومحاولة دحر فكرته التوحيدية وعقيدته الخالصة ، ومن يقرأ بروتوكولات صهيون وكتابات وتصريحات دعاة الصهيونية التلمودية ومن تابعهم من رجال الفكر أمثال فرويد وماركس ودوركايم وليفى بريل وسارتر يعرف أبعاد الخطر الذى يحاول أن يخدعنا عنه هؤلاء الذين هزموا شر هزيمة فى بلادهم ، ولكنهم ما زالوا يتطلعون إلى منابر جديدة ذات بريق ليخدعوا منها العرب والمسلمين .

(٢) من هذه الدعاوى التى يسوقها دعاة التقدم قولهم : أن هزائم العرب مرهونة بخلافاتهم وانتصاراتهم تتوقف على تضامنهم ، وهذه دعوى باطلة أيضاً ، فإن مصدر القوة الذى انتصر به المسلمون فى الحروب الصليبية وفى كل معارك المواجهة والغزو الخارجى هى التماس منهج القرآن الكريم لإقامته كأسلوب الحياة والحكم وبناء المجتمع . وهذا هو وحده منار الوحدة والتضامن والالتقاء بين أهل القبلة ، لقد هزم العرب ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ لشىء واحد ، هو أنهم تجنبوا المنهج الأصيل ، فلما التمسوه فى ٧٣ حققوا النصر واليوم تجرى المحاولات بقوة لإبعادهم عن هذا المنهج وتفسير التاريخ لهم تفسيراً زائفاً لإعادتهم إلى الاحتواء الصهيونى .

إن التناقضات العربية لا يحلها إلا المنهج الإسلامى ، ذلك لأن محاولة الخداع والتضليل وإبعاد المسلمين عن الحلول الصحيحة وعن الأسلوب السليم لمواجهة إسرائيل وامتلاك إرادتهم تأتى من تعدد الدعوات المسمومة التى توجه إلى العرب والمسلمين وهى دعوات تبدو ناصحة فى مظاهرها ولكنها غادرة فى مضمونها ، ذلك لأنها تجعل ثمن تحررهم من إسرائيل هو إلغاء وجودهم وتراثهم وعقيدتهم ، ودخول دائرة الاحتواء والأممية

إن الواقع الإسلامى اليوم يجب أن يكون منطلقاً إلى التماس المنهج الإسلامى حتى يتحرر من الفرقة التغريب والاستغراق والغزو الثقافى الذى أحاط به خلال قرن من الزمان سواء فى تبعيته للفكر الغربى أو الفكر الماركسى ولا سبيل إلى تحريره والانتقال به إلى الأصالة من التماس مفاهيم الاسلام وقيمه ومنهجه وتطبيق شريعته وإقرار أسلوبه فى التربية والتعليم .

إن من أكبر الأخطار التى وقع فيها المسلمون والعرب بعد نكبة ١٩٤٨ أنهم ظنوا أن الأسلوب الغربى يستطيع أن يحررهم ، فإذا به يسلمهم إلى الأسلوب الماركسى الذى كان مصدر نكبتهم ١٩٦٧ ولا ريب أن الأسلوبين كانا محتويين من الصهيونية التلمودية التى استطاعت أن تنقل العرب من محور إلى محور لتحول بينهم وبين الوصول إلى الطريق الحق ، والقاعدة الصلبة ، وهى منهج الاسلام .
ومن هنا نجد أن الطريق الوحيد هو حتمية المنهج الاسلامى .

(٣) ومن تلك السموم التي ما زال يثيرها دعاة التقدم والماركسية هجومهم على الدولة العثمانية ووصفها بالاستعمار والظلم والإستبداد . ونحن نعلم أن هذه الدعوى باطلة وأنها أطلقت لتبرر الصهيونية أن تصل إلى القدس ، وأن تقضى على الإمبراطورية التي حملت لواء الجامعة الإسلامية في مواجهة الغزو الغربي كله ، وأن تقضى على الخلافة الإسلامية .

ومن ذلك تفريقهم بين اليهودية والصهيونية لخداع المسلمين عن أولياء الماركسية اليهود ، والمسلمون يعلمون أن الصهيونية في مطامعها وأهوائها ودعوتها إلى السيطرة على فلسطين إنما تنطلق أساساً من التوراة المكتوبة بأقلام الأحبار .

ولا ريب أن حملة هذه الشبهات هم تابعون للصهيونية التلمودية مهما ادعوا أنهم دعاة التقدم والعصرانية .

إن الماركسيين يخدمون الصهيونية بطرح هذه المفاهيم اليوم ومحاولة جعلها مسلمات . ونحن نعرف لماذا هم يحرفون تاريخ العرب والإسلام الحديث ، ولماذا يعيدون تفسير التاريخ الإسلامي على نحو زائف مسموم ، إن الغرض هو خداع العرب والمسلمين عن الحقائق التي وصلوا إليها ، والتي أقاموا عليها منطلقهم الجديد بعد هزيمة ١٩٦٧ التي قضت على كل نظرياتهم المسمومة . ولقد تبين المسلمين والعرب أن أسلوب الاقتصاد ونظام الربا والقانون الوضعي ، وأسلوب التعليم والتربية الغربي هي كلها مصادر الهزيمة التي حاقت بالمسلمين والعرب خلال هذه الحملة الصليبية التي بدأها الاستعمار وتقوم عليها اليوم الصهيونية والماركسية وريثتا الاستعمار نحن نعرف أن الصهيونية تدرس الحروب الصليبية وتحاول أن تطرح لها في أفق الفكر الإسلامي مفهوماً جديداً تخدع به المسلمين والعرب حتى يحولوا نظرهم عن المفهوم الأصيل الذي عرفوه والتمسوا النصر على ضوئه في حرب العاشر من رمضان إلى متاهات ، ومراوغات خادعة مثل قولهم أن إسرائيل ليست إلا قاعدة غربية في قلب الشرق الأوسط ، وأن الغرب اضطهد اليهود في بلاده ولكنه ألقى بهم إلى غيرهم .

نحن نؤمن أن القضية ليست كذلك قضية صراع حضاري طويل أم قصير ، فهذا مفهوم يراد به وضع العرب والمسلمين في متاهات وضباب كثيف ، إن المواجهة بيننا وبين الاستعمار والصهيونية والماركسية هي مواجهة عقائدية لا حضارية ولا سياسية ولا اقتصادية ، وأن علينا أن نلتمس اسلوبنا الصحيح ومفهومنا الأصيل ، وعندئذ نجد الإجابات الصحيحة لكل القضايا والتحديات والمواقف .

إن السلاح والتكنولوجيا والقوة البشرية ، والطاقة هي في أيدى العرب والمسلمين اليوم فلا مجال للكلام عن الصراع الحضاري ، فإن إسرائيل لا تملك من ذلك شيئاً إلا ما يدفعه إليها الغرب إن العرب والمسلمين يعلمون أن هذه القوى تريد أن تضع مقادير المسلمين والعرب في أيدى العصبة الباغية التي تريد أن تسيطر على العالم ، ومن ينقذ المسلمين من هذا الخطر إلا اعتصامهم بنهج ربهم ، فهو وحده

سبيل الخلاص يجب أن يكون معلوما للمثقفين والباحثين والمشتغلين بالفكر الإسلامي في مختلف مجالاته السياسية والاجتماعية والقانونية . إن هذا الأسلوب المسموم في تفسير الأحداث والمواقف والتاريخ على النحو الذي حملت لواءه الماركسية والمادية . ودعاة العصرانية والتقدم مرفوض ومردود لأنه معارض لروح الإسلامية والأصالة القرآنية : هذه الطبقة التي انكشفت في السنوات العشر الأخيرة ، وحسبت أنها تستطيع أن تسيطر على الفكر الإسلامي وتوجهه وجهة جديدة غير وجهته الأصيلة والتي استعانت بالعاملين في مجال الفكر الغربي الليبرالي لتشكيل جبهة واحدة ذات فروع كثيرة تعمل جميعها في طريق واحد لمواجهة الفكر الإسلامي في منهجه الأصيل ومفهومه الجامع ، هذه الطبقة التي سقطت بعد العاشر من رمضان وأثبتت الأحداث فشل خطئها ومنهجها وسلامة منطلق المنهج الإسلامي الذي حملته حركة اليقظة وكان هو المصدر الوحيد للنصر حين دعا إلى الأصالة وإلى التماس المنابع باعتبارها الحصن الحصين الذي عرفه المسلمون في مختلف الازمان والتحديات طرقاً للنجاة ، والذي صدقهم في كل مرة واستطاع أن يهزم باطل الغزاة ويردهم على أعقابهم ويثبت الحق وأهله .

واليوم تحاول هذه الطبقة أن تجدد دعواها وأن تنشر سمومها من جديد ، وبأسلوب جديد لتحويل العرب والمسلمين عن طريق الأصالة الذي التمسوه وأكد لهم أنه الطريق الوحيد الذي يستطيع أن يحقق لهم المواجهة الصحيحة إزاء كل القوى تتكتل اليوم لغزوهم على الجبهات الثلاث : الاستعمار والصهيونية والماركسية . فالعلم أن هذه المحاولة باطلة وأن المسلمين قد اعتصموا بمنهجهم الرباني وهم في طريقهم إلى اتخاذه منطلقهم الوحيد

(٤)

التبشير الغربي

إن على المثقفين المسلمين أن يعرفوا : ما هي مظاهر التبشير الغربي القائمة الآن في البلاد العربية والعالم الإسلامي بعد أن دخل التبشير مرحلة جـــديدة مختفيا وراء المناهج التعليمية والثقافة والصحافة .

قد يظن الشباب في بعض عواصم البلاد العربية أنها خالية من ظاهرة التبشير العلنية التي كانت ولا تزال معروفة وصريحة في بعض أجزاء العالم الإسلامي . ولكن حذار من تجاهل الخطر المتخفي تحت الأثواب الفضفاضة .

إنما يتمثل التبشير في أشياء كثيرة :

أولا - مجموعة من الكتب المطبوعة ، تعطي أسماؤها صورة الدفاع عن الإسلام أو المقارنة بينه

وبين المسيحية بأقلام كتاب مسلمين لا يعرفهم أحد ، وعند تعمق هذه الكتب التى تطبع طبعات فاخرة ، وتوزع أحياناً مجاناً بكميات ضخمة وخاصة على الحجاج الذاهبين إلى بيت الله الحرام ، عند تعمقها نجدها أنها كتب مدروسة أعدت بدقة وإحكام لإثارة الشبهات الكثيرة ووضعت عليها هذه الأسماء الوهمية أو الزائفة .

ثانياً – استخدام القاديانية والأحمدية والبهائية على بعض البلاد الإسلامية ، وهى فرق تدعى صلتها بالإسلام أو بالدين ، وتحاول أن تدمر مقومات المفهوم الإسلامى للجهاد والنبوة أو الرسالة الإسلامية والوحى .

ثالثاً – تلك الدراسات التى تنشرها بعض المجلات البارزة حول العلاقة بين العروبة والإسلام وبين الدولة العثمانية والعرب ، وخاصة فيما يتصل بالسلطان عبد الحميد – ولطفى السيد – ومصطفى كامل – ومصطفى كمال – وساطع الحصرى فى محاولة لإثارة الشبهات والخداع ، وتزييف مفاهيم الرابطة الحقيقية بين العروبة والإسلام تاريخياً وفكرياً . وخاصة تلك البحوث التى تكتب تحت عنوان (تجديد الفكر المصرى) . أو السورى – أو اللبنانى . ولما كان الفكر مرتبطاً بالأمة . فإنه ليس هناك على وجه الحقيقة فكر مصرى أو سورى أو لبنانى وإنما هناك فكر إسلامى وثقافة عربية وهناك مفكرون عرب ، هم مصريون وسوريون وهكذا .

رابعاً – تلك الدراسات التى تحاول أن تركز على التماس آثار الفكر الغربى أو اليونانى القديم فى الفكر الإسلامى . وهذه الدراسات تحاول أن تصور رفاعة الطهطاوى أو جمال الدين الأفغانى أو محمد عبده وكأنهم تلاميذ الفكر الغربى وهذه محاولة باطلة يريد بها التبشير أن يعلى شأن معطيات الغرب المسيحى للفكر الإسلامى ، ونحن نؤمن بأن الفكر الاسلامى له أصوله وقيمه ومنهجه المتميز الخالص الذاتية وأن اتصاله بالفكر اليونانى القديم أو الغربى الحديث لا يمثل اندماجاً ولا انصهاراً ، ولا يمكن أن يصل إلى حد الاحتواء أو الذوبان وستبقى قيم الفكر الإسلامى واضحة وقوية مهما اتصل بالفكر الغربى .

خامساً – محاولة تقديم التاريخ الاسلامى على أنه صورة من صور الصراع بين الخلفاء والأمراء وإبراز المثالب التى تقدح بأن الاسلام كان صراعاً بينما هناك جوانب العطاء والايجابيات التى لاحد لها تغمض عنها العيون ولا يعرض لها . وهذا أسلوب التبشير انتقل إلى مناهج الدراسة .

سادساً – محاولة إنقاص تعداد المسلمين وذلك بتزييف الأرقام فى بعض البلاد وخاصة فى لبنان والحبشة وغيرها وما يزال كتاب الغرب يقدرون عدد المسلمين بسبعمائة مليون مسلم . مع أن التقديرات الصحيحة تتجاوز الألف مليون بكثير .

سابعاً – محاربة الفكرة القومية بالفكرة الوطنية بالوحدة الإسلامية وذلك عن طريق إدخال مفاهيم

القومية الغربية وفلسفتها والمعروف أن مفهوم القومية الغربية هو مفهوم صراع وخلاف وعدوان . كل قومية تنازع القومية الأخرى بينما ان المسلمون يؤمنون بأنهم يتحركون دائماً في ثلاث دوائر هي متكاملة أصلا . كل منها تسلم إلى الأخرى : الوطن وهو الأرض والأمة وهي القوم ووحدة الجامعة الإسلامية : فكراً وأرضاً ، وهذه هي المرحلة التي يتقدم إليها المسلمون كلما تحرروا من قيود الاستعمار والدعوات الاقليمية . ولقد كانت الوحدة العربية وما تزال تجمعاً قام بعد سقوط وحدة المسلمين بالدولة العثمانية ، ولكن مايزال تجمع العرب هو في إطار الفكر الاسلامي والأخوة الاسلامية وما تزال النظرة الوطنية والقومية في العالم الاسلامي قائمة على الانفتاح والالتقاء والتكامل ، وعلى الرابطة الاعمق : رابطة الفكر والعقيدة والقرآن والشريعة الاسلامية ذات الاثر الجامع في شئون العقل والقلب والحياة والمجتمع مهما جرت المحاولات لتفريق هذه الوحدة .

ولقد حاولت مفاهيم القومية الغربية الوافدة خلال سنوات طويلة أن تفرض نفسها ولكن الذاتية العربية الاسلامية بطابعها الخاص ومفهومها الخاص ومفهومها الواسع انقطع هذا الزيف وخرجت منه وعادت إلى الالتقاء في الدائرة الواسعة المتكاملة .

ثامناً — الدعوات التي تحاول أن تقلل من الفوارق بين الاسلام والتفسيرات التي تعتنقها أمم ودول أخرى في محاولة القول بأنها خلافات أكاديمية والحقيقة أن الاسلام هو الصورة الحقيقية للأديان السابقة له وقت نزولها . وأن هذه الأديان انحرفت وحاولت أن تشكل وجوداً عنصريا خاصاً بها ولذلك فإن هناك خلافاً عميقاً وأساسياً (وإن كان هـــذا لا يمنع من التعاون في مواجهة الإلحاد) .

تاسعاً — محاولة ضرب اللغة العربية الفصحى بالعاميات وإعلاء شأن العاميات الإقليمية وما يتصل بهذا من الدعوة إلى وسطى وإلى الارتفاع بالألفاظ العامية إلى مستوى الكتابة وغير ذلك مما هو أساسي للتغريب الغربي يقصد به أساساً : الابتعاد عن مستوى القرآن في بيانه وبلاغته ، وعزل المسلمين عنه .

عاشراً — إثارة قضايا فكرية كانت مرتبطة بظروف سياسية وانتهت بانتهائها كإثارة قضية الاعتزال والمعتزلة وإخوان الصفا . والباطنية . ودعاة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وكل هذا يراد به إعادة إثارة هذه الشبهات من جديد في أفق الفكر الاسلامي وإغراء بعض السذج والبسطاء بها .

هذه المحاولات وكثير غيرها ليست إلا دعائم أساسية في دعوة « التغريب الغربي » الذي يحاول الآن أن يختفي وراء مناهج التعليم والثقافة والصحافة . ويقدم رجاله على صورة باحثين في الأدب أو الثقافة أو الفكر ، والذين يتناولون هذه القضايا معروفون لنا جميعا . ولكن المطلوب أن نكشف اتجاهم وهدفهم حتى نحذرهم

(٥)

التيارات الوافدة

ونسأل أولا : ما هي التيارات الوافدة ؟ ونجيب أنها ليست هي الماركسية وحدها ولكنها الماركسية والفرويدية والوجودية والمادية ومدرسة العلوم الاجتماعية ، والقوميات بعناصرها الإقليمية والتجزئة ومفهومها الغربي الوافد .

إن هذه التيارات الوافدة تصل إلى شباب المسلمين عن ثلاث طرق : التعليم والثقافة والصحافة . وأنها تصل إليوم في الأغلب على أنها مناهج دراسية ، أو على أنها قوانين علمية غير قابلة للنقض وهي من ناحية أخرى قد تتفق مع الأهواء فتكون مبرراً للتحول في المجتمع يخرج به من الضوابط والقواعد التي تحفظه من الانهيار وتحمي الشخصية الإنسانية من القلق ، ثم هي تصل إلى الشباب عن طريق القصة والمسرحية والفيلم والأغنية التي تحاول أن تقدم مفهوماً مغايراً لما تقدمه رسالات السماء والمنهج الحق الذي تقوم عليه الأمم والحضارات هذه التيارات الوافدة قد وصلت اليوم إلى نخاع الإنسان المسلم وسيطرت على عقله وعواطفه بما أطلقته له من رغائب وأهواء ، بينما يقدم له الإسلام المنهج المحكم الذي يقيم التوازن بين عواطفه ورغباته ، والتكامل بين روحه وعقله وبين مادياته ومعنوياته .

وأخطر التيارات الوافدة تبدأ من القصة إلى المسرحية . ذلك أن أصحاب التيارات الوافدة وجدوا أن أصلح طريق للوصول بسمومهم إلى قلوب الناس وعقولهم يسهل وصوله عن طريق الحوار المسرحي والأغنية واستطار مفهوم مضلل أن قضاء ساعة في سماع أغنية أو رؤية مسرحية من شأنه أن يسرى على النفس ويرد عنها همومها ، وكذبوا فإن هذا العلاج بالمغنيات والمخدرات ليس أسلوباً إسلامياً صحيحاً ، وإنما يدعو الإسلام أهله إلى مواجهة أزماتهم وضروراتهم بالمرونة وبالتماس رحمة الله وبتصفية النفس الإنسانية من الأهواء وارتفاع فوق الاحن والضغائن

ومن أخطر ما تلقى التيارات الوافدة إلى شبابنا القول بأن النظريات المطروحة من المذاهب الفلسفية (نفسية واجتماعية) هي حقائق علمية ، وتلك مغالطة واضحة . فإن هناك فارقاً عميقاً بين العلوم التجريبية والدراسات الإنسانية ، فرق ما بين العلم الذي يجري تخليص حقائقه في المعامل والأنابيب وبين الفلسفة التي هي من نتائج العقول والأهواء .

ومن هنا فإن هذه المذاهب الاجتماعية ما هي إلا فروض ومحاولات تصدق وتخيب ، وهي خاصة بأمم دون أمم وعصور دون عصور وأن أعظم محاذيرها التي يجب أن يلتفت إليها قومنا أنها تقوم في نظرتها على المفهوم المادي الخاص الذي يصرف النظر نهائياً عن المعنويات والروحيات وما يتصل بالقلب والروح وما يفرضه القرآن والاسلام من مفهوم التكامل بين الروح والمادة والنفس والجسم

والدنيا والآخرة ، ولقد قامت الماركسية على أساس من الفروض العلمية ثم انهارت هذه الفروض من بعد فهزت أساس الأيدلوجية كلها ، ومازالت متغيرات الحياة والمجتمعات تهز هذه النظريات وتنقضها فيحتاج أصحابها إلى الإضافة إليها ، والحذف منها دون أن يصلوا إلى شىء ، لأنها من صنع العقل البشرى المحدود بحدود الزمان والمكان ، بينما يقدم الدين الحق البشرية منهجاً متكاملا يرتفع فوق حدود الزمان وتخترق البيئات ، فهو صالح للدنيا كلها فى كل عصورها وبيئاتها لأنه من صنع العلى القدير. وما يزال للمسلمون تصيبهم قارعة بما صنعت أيديهم ما لم يلتمسوا منهجهم الربانى ليقدموا للبشرية الصورة المثلى التى تتطلع إليها بعد أن فرقتها المذاهب والأيدلوجيات ، فإذا أقاموا المنهج الربانى فقد استجابوا لربهم وقدموا للبشرية التطبيق الذى سوف لا يجد أهل الغرب مناصاً من التماسه من المسلمين بعد تلك الحيرة المدلهمة التى تجتاحهم ، وبينما أوربا والغرب اليوم يتطلعون فى الأفق إلى فجر جديد يأتى من ناحية المشرق ، نجد المسلمين يهربون من الحق إلى التماس مناهج الغرب وحيث تفسد تجربة الغرب يلجئون إلى تجربة الماركسية وكلها تجارب غربية متكاملة قائمة على الفكر المادى وعلى بقايا والليات اليونانية والهلينية والتلمودية المضللة .

وما تزال تحاصر المسلمين حواجز ذات سلاسل غلاظ داخل القوميات والإقليميات بمفهومها الغربى العدوانى ، بينما يطلب منهم الإسلام مفهوم الإخاء الإنسانى والإخاء الاسلامى ، وتعارف الشعوب والتقائها على التوحيد ، الرحمة والعدل ، وما تزال قضية التربية والتعليم من أكبر القضايا التى تحتاج إلى جهد ضخم للتحول نحو المنهج الاسلامى فى التربية لبناء أجيال جديدة مؤمنة منذ اليوم الأول حتى لا تزعزعها عواصف التيارات الوافدة ، ولا تدمرها تلك السموم التى تثيرها رياح الغرب مادية والحادية وإباحية تحت إسم الحرية والتقدم والعصرية .

وكلما تأخر المسلمون فى الاستجابة لمناهج ربهم فإنهم يؤخرون دورهم الذى تتطلع إليه البشرية لتقديم الاسلام فى أنفسهم ومجتمعاتهم أولا . ويحتملون فى ذلك إثماً كبيراً . إن الاسلام قادر على عطاء النفس المسلمة مطمحها والعقل المسلم حاجته بما يقضى على تلك الأزمة التى يطلقون عليها (أزمة الفراغ العقائدى) هذه الأزمة التى تعملها تلك التيارات المتعددة المضطربة التى تلق كلها إليه دون أن يعرف طريقه بينها إلى الحق ، وتلك مؤامرة (التيارات الوافدة) التى تريد بلبلة الفكر وتمزيق تجمع الأمة حول مذاهب متعارضة ومتصارعة . أحدهما يجرى وراء أهواء الجنس ، والآخر يجرى وراء أهواء لقمة العيش وذلك يرمى إلى حصر الناس فى أقلية حيئة . وذلك الذى يدعوهم إلى مفهوم قومى غربى ، ويجد المسلمون أنفسهم فى مجال الفكر داخل دائرة مقفلة ومربعات لها حوائط عالية ، تحول بينها وبين اكتمال الرؤيا وذلك طابع الفكر الغربى : طابع الانشطارية والتمزق والانحصار فى علم أو أدب أو قانون أو تربية أو اجتماع أو سياسة كل منها له قوانين ونظم مستقلة وقائمة بنفسها دون تقدير القيم الأخرى ومن هنا تتصارع القيم وتقوم كل جماعة وكأنهم وحدهم الذين يرسمون خطة الحياة ، بينما لا يقر الاسلام هذه التمزقات الفكرية . وإنما يقدم منهجاً متكاملا

جامعاً كل فئة منه تتكامل مع القيم الأخرى لأنها كلها تترابط وتلتقى فى مجال (الإنسان) نفسه الذى يجمع بين عوامل الروح والمادة والنفس والجسم والعلم والدين .

(٦)

تذويب الذاتية الإسلامية

تتضافر قوى التغريب والغزو والإستشراق الغربى والشيوعى فى سبيل غاية واحدة :

تذويب الذاتية الإسلامية واحتواء الشخصية المسلمة .

لقد تبين بما لا يدع مجالا للشك أن كل المخططات (تبشيراً أو استشراقاً وغزواً ثقافياً وتغريباً) على جميع الجبهات (غربية وشيوعية وصهيونية) تتضافر فى سبيل تحقيق غاية واحدة وإن اختلفت الخطط والوسائل : هو تذويب الذاتية الإسلامية واحتواء الشخصية المسلمة على النحو الذى يصورها فى أتون الفكر العالمى العلمانى والأممى وأن أى دراسة دراسة دقيقة تكشف كيف تتقارب الوجودية والماركسية والفرويدية عن طريق معايير جديدة للتلاقى على خطة ضرب الفكر الإسلامى فى أصالته ووحدانيته وفى ترابط العروبة والإسلام ، والشريعة والأخلاق ، وتجد الخطط المرسومة معيناً لها من خلال المنطلقات التى صنعها الاستعمار الغربى خلال قرن كامل ، هذه المنطلقات التى أوشكت أن تكون بمثابة المسلمات .

وبالرغم من التحرر من الأساليب السياسية القديمة التى أقامت هذه الركائز فإن هذه الأساليب ما زالت قائمة ببقاء بعض دعاتها ومعتنقيها الذين يكرهون أن استجابوا للتيار الإسلامى العارم فى انطلاقته الواعية التى انبعث اليوم والذين كانوا فى أوائل حركة اليقظة من خصومها وأعدائها ، وقد عادوا يتسربلون مسوحها عندما وجدوا أن دعواتهم الاقليمية والعنصرية والوطنية الضيقة قد فشلت وهزمت إزاء تيار الأصالة الحق الذى يتسع الآن ويتمدد ، نجدهم ما زالوا يصدرون عن منطلقات قاصرة فتطلعات الجزئية والانشطارية ، سواء أكانت منطلقات السياسية أو الفلسفة أو الأدب وكلها منطلقات فاسدة ، إذا بدأت من وجودها الفردى الذى ليس فى الحقيقة إلا جزءاً من كل ؛ وخيطاً من نسيج كامل .

إن الانطلاق الوحيد الصحيح هو الانطلاق من القيمة الاساسية للفكر الإسلامى : عقيدة التوحيد بمفهومها الجامع (منهج حياة ونظام مجتمع) ، ومسئولية فردية والتزاماً أخلاقياً وإقراراً بالبعث والجزاء ، هذا المفهوم الجامع المتكامل هو ما حجبه الغزو الفكرى إبان سيطرة الاستعمار الغربى الذى حاول أن يجعل الأدب أو الفلسفة أو السياسة منطلقات حرة الذهب بها بعيداً عن تكامل الحركة فى

الإطار المترابط ، ومن ثم فإن وجهة نظر الأدب يشوبها الهوى ووجهة نظر السياسة يشوبها الغرض ووجهة نظر الفلسفة يشوبها الظن .

إن الانطلاق من أى منطق غير الإسلام نفسه لا يؤمن صدق رؤيته ، لأنه يعتمد على الجزئية ويقتصر عندها فلا يستطيع استيعاب الأبعاد المتعددة للنظرة الحقيقية .

ولقد رأينا النظرة السياسية أو الأدبية أو الفلسفية تستعمل ألفاظاً كثيرة استعمالا باطلا فى محاولة إخضاعها لوجهة نظرها وبذلك تفقد مفهومها الحق فى مكانها الطبيعى .

وأبرز مثال لذلك موقف السياسة أو الأدب أو من قضية فلسطين أو من قضية الاستشراق ، هناك تقصر النظرة عن الحق وعن الفهم الجامع ، فإذا الرأى هو المناورة أو الجهالة أو العاطفة أو العقلانية وكلها نظرات جزئية لا تمثل نظرة الاسلام الجامعة .

فلقد يذهب الكتاب عن فلسطين والصهيونية أن يأخذوا من التاريخ ويتركوا فى سبيل تأييد موقفهم ومعارضة موقف الصهيونية ، وقد يلتمسون وجهة نظر معينة تحاكم القضية الفلسطينية من منطلق معين كأن يقال أنها قضية عربية أو أنها هناك خلافاً بينهما ، وكل هذه منطلقات سياسية متغيرة لا تثبت ولكن الذى يثبت هو الحق وحده : وحقائق التاريخ بأصولها الثابتة ، وأن يكون منطلق فلسطين كمنطلق كل قضية أخرى هو الترابط الاسلامى الجامع بين عالم الاسلام من الملايو إلى أوربا ، فالمسلمون أمة قائمة وقضيتها واحدة ، والعدوان على جزء منها هو عدوان عليها جميعاً والتحدى موجه إليها كأمة وكعقيدة وليست هناك قضية جزئية يمكن أن تدرس منفصلة كمن يحاول أن يدرس قضية فلسطين فى إطار عربى أو إطار إقليمى أو من وجهة نظر سياسية ، ذلك أنه يراها فى كل مكان بصورة مختلفة بينما هى قضية واحدة ، لها مفهوم واحد ، مترابطة مع التحدى الاستعمارى الموجه إلى عالم الاسلام لا تنفك عنه ولا تحل إلا فى إطاره .

كذلك الأمر فى قضية الاستشراق فإننا نجد من يحاول مجاملة الاستشراق حفاظاً على مفهوم سياسى يرمى إلى التقريب بين الشرق والغرب أو بنظرة جزئية تعلى من شأن بضعة أعمال الاستشراق فى مقابل التجاهل أو الاغضاء عن مخطط واسع عميق من الهدم والتغريب ومحاولة هدم مقومات المسلمين وقيم الاسلام .

نعم إن أمامنا أعمالا ضخمة منها ما قام به (فنسنك) : مفتاح كنوز السنة ومعظم ألفاظ الحديث النبوى وما قام به (بروكلمان) تاريخ الآداب العربية وتاريخ الشعوب الاسلامية .

ولكن هذه الآثار إنما قصد بها تعريف الفكر الاستشراقى بأصول الفكر الاسلامى وقد انتفعنا بها نحن تبعا لذلك ولكن هل تعرف ما هو رأى فنسنك وما رأى بروكلمان فى الاسلام ونبيه وكتابه

قد يكون من الإنصاف الاعتراف بالفضل لكل مستشرق بالعمل الذى ينفع ولكن ذلك لا يخليه من تبعة الانكار والإساءة وآثار الشبهة حول ما يختلف فيه مع الإسلام من وجهة نظره ونحن نحترم وجهة نظر الآخرين ولا نطالبهم بأن يؤمنوا بالإسلام ولكنا نكره أن يجرحوه وينكروا الوحى ويرموا نبيه بأنه واضع القرآن أو ما شاء لهم الهوى من تهم وشبهات يستهدفون بها غايتهم الأصلية وهى إخراج المسلمين من إيمانهم بربهم ونبيهم وكتابهم.

وهذا وحده هو وجه الخلاف بيننا وبين المستشرقين، نحن لا نطالبهم بأن يؤمنوا بالاسلام فذلك متعذر، ولكنا نطالبهم بأن يكون منهجهم علمياً خالصاً قائماً على النظر الخالص للحق البعيد عن الظن وما تهوى الأنفس.

ولقد اتخذت حركة الاستشراق فى السنوات الأخيرة أبعاداً جديدة وتكشف من أهدافها ما لم يكن واضحاً إزاء مخطط اقتلاع الذاتية الاسلامية من جذورها مما لا يمكن أن يكتشفه إلا أصحاب المنطلقات الاسلامية الجامعة التى لا تحجبها مجاملات فكر السياسى أو الأدبى أو الفلسفى أو أهوائه وهى مجاملات وأهواء لا يعرفها العلم وتقوم على ذلك الفهم الذى أوجده التغريب من محاولة التقارب أو الالتقاء مع الفكر الغربى على حساب الاسلام نفسه.

ومن هذه المجاملات محاولة القول بأن العرب وبنى إسرائيل أولاد عم ابراهيم أواصر الرحم والقربى اعتماداً على زيف نظرية السامية وهو ما يخدع به أصحاب المنطلقات السياسية فى بحث قضية فلسطين حين يجعلون الخلاف قاصراً على الصهيونية لا اليهودية بينما تؤكد النظرة العلمية أن منهج الصهيونية قائم على أتم وضوح فى التوراة التى بين أيدينا والتى كتبها الأحبار بأيديهم، والقائلون بهذا يحاولون مجاملة اليهوديين وحجب الرابطة الأصيلة والعقدية بين الصهيونية واليهودية وهى أوثق من الرابطة بين اليهودية والصهيونية.

ومن شبهات الاستشراق وسمومه التى يعجز عن معرفة أبعادها أولئك الذين انطلقوا فى نظرتهم إلى الاستشراق أو إلى قضية فلسطين من النظرة السياسية أو الأدبية أو الفلسفية، شبهة القول بحضارة العرب بدلا من حضارة الاسلام والقول بديمقراطية الاسلام واشتراكية الاسلام من ذلك الوقوع فى براثن مؤامرة السامية التى تحاول القول بأن هناك أصلا واحداً مشتركاً العرب واليهود، وهو قول يقول به أولئك الذين يخدعون العرب والمسلمين من اليهود أمثال: الهبرجر والفريد ليفنتال. كذلك فإن النظرة السياسية أو الأدبية أو الفلسفية تنظر بانكماش وقصور للترابط الجذرى بين فساد المجتمعات الاسلامية وبين مخطط الصهيونية، وذلك أن الذين يصدرون عن المفهوم الجزئى أو الانشطارى لا يستطيعون الربط بين تطبيق الشريعة الاسلامية فى المجتمعات الاسلامية التى تطبق القانون الوضعى اليوم، وبين المواجهة الصهيونية أن تبين العلاقة بين المذاهب الفلسفية المادية

المشترلة فى أفق الفكر الاسلامى وبين الصهيونية والاستعمار ، أو بين بناء الأخلاق وتزكية الشباب وبين مواجهة أخطار التحدى الصهيونى الاستعمارى الماركسى .

إنهم فى غفلة عن هذه العلائق الجذرية والطبيعية ولا يرون إلا وجهاً واحداً للأمور هو الوجه السياسى أو الأدبى أو الفلسفى ، وقد تقوقع كل جماعة منهم فى واحدة من هذه الحالات المغلقة التى تحجب النظرة الكاملة الجامعة الصحيحة التى هى النظرة الاسلامية الأصيلة . ومن هنا فستظل هذه الكتابات قاصرة لأنها ابنة الوقت المنتهى ، وليست ابنة الأصل الأصيل ، ولأنها جزئيــة لم تستطع أن تستوعب الأبعاد كلها فقد احتجزت فى الاطارات الضيقة . ومن ثم فإن الحلول التى تحاول أن تقدمها للتحديات القائمة هى حلول اضطرارية لها طابع الخضوع للبيئة والعصر والظروف ، ولذلك فإنها تعجز أن تصل إلى صميم المشكلة .

فالمؤمنون بالنظرة الاسلامية الجامعة يعالجون الأمور بالجهاد والايمان والفداء ولا يرون بديلا له فى حل قضايا فلسطين أو غيرها من مناطق إسلامى كامل ويرون حتمية الحل الاسلامى بتحرير الذاتية الاسلامية من كل الحوائل التى تحول بينها وبين اتخاذ الاسلام منهج حياة ونظام مجتمع . وكيف يستطيع دعاة الوحدة الاسلامية أن يكونوا كافرين بتطبيق الشريعة الاسلامية أو أن يكون دعاة تحرير الامة الاسلامية من التحديات مستصغرين أمر بناء الشباب المسلم والمرأة الاسلامية وفق ضوابط الاسلام .

إن هدف قوى التغريب والغزو الاستشراقى : الغربى والشيوعى والصهيونى هو تذويب الذاتية الاسلامية واحتواء الشخصية الاسلامية بإثارة الشبهات والسموم حول العلاقات المختلفة بين المسلمين وفكرهم وإلا فلماذا هذا الاهتمام البالغ بالفلسفة الالهية اليونانية التى تسمى علم الاصنام عند الاغريق والاهتمام بالتصوف الفلسفى وبالمعتزلة وبالباطنية وبالطرق الضالة ومحاولة ربط الفكر الاسلامى الحديث بهذه السموم التى قضى عليها الاسلام وهدمها وسحق منطلقاتها منذ زمن بعيد ، ولماذا يجددون الخلافات بين الفرق ويصورون الاسلام على أنه صراع بين الامراء والخلفاء ، ولماذا إثارة الشبهات حول قراءات القرآن وحول السنة وحول حياة الرسول ووقائع حياته .

لماذا هذا الحرص على بعث لون معين من التراث الاسلامى بعد أن استولوا على هذا التراث واحتجزوه فى مكتباتهم وعجز بعض المفكرين المسلمين عن النظر فيه . ذلك لأنهم قد أعلنوا منذ وقت بعيد أنهم أنشأوا الفكر التجريبى والعلم الحديث دون اعتماد على المسلمين ، وهذا التراث يكشف كذبهم ويثبت أنهم اعتمدوا فى نظرياتهم وآرائهم على ما قدمه علماء المسلمين .

وحادثة يسيرة ومثلها حوادث . لقد أعلن منذ سنوات أحد الباحثين أن المسلمين هم الذين اخترعوا الكسر العشرى ، وأن ما ينسب إلى العالم الغربى فى هذا السبق زيف ، وبين يوم وآخر

يتكشف كثير من هذا في نظريات العلم والعلوم الانسانية والقانون وغيره وغيره ولو كانت كتب التراث في أيدي المسلمين لأعلنوا منذ وقت بعيد هذا السبق ولكنهم يحجبونها حتى يقللوا من شأن المسلمين وليقيموا في نفوس الشباب المسلمين انتقاصا لقومهم وفكرهم وقيمهم وإعلاء الفكر الغربي وذلك عن طريق احتواء الشخصية الاسلامية والذوبان الذاتية الاسلامية .

ولكن هذه الصفحة قد كشفت ولم تعد هذه المؤامرة تخفى على أحد ولو انطلق المفكرون المسلمون من منطلق الاسلام لما وجد هؤلاء من ينصرهم على قومهم .

(٧)

تزييف تاريخ العرب والمسلمين

ما تزال خطة تزييف تاريخ العرب والمسلمين لحساب الصهيونية التلمودية من الأعمال الضخمة التي قام بها الاستشراق الغربي « المسيحي واليهودي » والتي لم تستكشف بعد أبعادها الواسعة ، وفي كل يوم نجد خيطا جديداً يضاف إلى سابقه فتبدو الصورة أشد خطراً مما كان متصوراً من قبل ولا ريب أن المثقفين المسلمين في حاجة إلى متابعة الكشف عن هذه الخطوط والابعاد حتى يعرفوا ما يراد بهم ومدى أبعاد خطة الاحتواء ومدى تلك الشبهات والسموم التي أصبحت كالمسلمات بينما هي من افتراءات الاسرائيليات الجديدة التي جددت الاسرائيليات القديمة .

ومنطلق البحث أنه قبل إبراز فكرة الصهيونية في العصر الحديث لمخطط متجدد ومنبعث عن (التوراة) التي كتبها حكماء اليهود أيان السبي البابلي و (التلمود) الذي جاء بعد تدمير الرومان القدس هذا المخطط هو بروتوكولات صهيون التي عرفت لأول مرة عام ١٨٩٧ وفي خلال إعداد هذا المخطط كانت هناك محاولات جبارة تعمل على وضع مفهوم الصهيونية التلمودية في كتب التاريخ والموسوعات العلمية وإدخالها في مناهج المدارس والجامعات الغربية ومعاهد الارساليات في العالم الاسلامي وقد تمت هذه المحاولة الخطيرة بواسطة مجموعة ضخمة من المفكرين الغربيين الذين اعتنقوا الصهيونية : شاومر بروكلمان . رينان . دوركايم دوزي .. الخ وذلك بإضافة إلى الاستشراق اليهودي الصهيوني : مارجليوث وجولد سيهر وبرنادر لويس .. الخ وقد حاولت هذه الخطة تحقيق عدة أهداف :

اولا : ابتكار فكرة (السامية) التي استبعد إليها كل أبعاد التاريخ العربي القديمة قبل الاسلام وسلبه من أصحابه الحقيقيين وخاصة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام وأبنائه وأحفاده وإضافة هذا المجد إلى مصدر غامض ليس له سند علمي ويستمد مصدره الأساسي من التوراة التي كتبها اليهود بأيديهم

نصوص التوراة الحقيقية المنزلة على موسى عليه السلام ، وذلك بدعوى إشراك اليهود مع العرب فى هذه الأمجاد بينما لا يوجد لليهود أى اتصال بإنشاء هذه الحضارة ويستتبع هذا الخطر ، إيجاد صلة ما بين العربية والعبرية على النحو الذى حاوله الكتاب الذين كتبوا ما أسموه : « تاريخ اللغات السامية » وقاموا بتدريسه فى الجامعات وهم : إسرائيل ولفنسون . وشاخت ، ثم الدكتور مراد كامل .

ثانياً : محاولة التشكيك فى رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز ، وإقامة ابنه إسماعيل وزوجته هاجر بمكة ، وهذا يبدو واضحاً من تجاهل التوراة لهذه الواقعة التاريخية ، ومحاولة إثارة الشبهات فيها وقد ردد الدكتور طه حسين هذا القول فى كتابه [فى الشعر الجاهلى] .

ثالثاً : محاولة اعتبار (التوراة) مرجعاً للبحث العلمى مع أن شهادات كل علماء الغرب تؤكد ما نراه نحن المسلمون من أن التوراة الموجودة الآن قد كتبها أحبار اليهود منها ما كتب أيام المملكة الإسرائيلية ومنها ما كتب فى المنفى بين النهرين ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون .

رابعاً : محاولة خلق تصور زائف بأثر اليهود فى الجزيرة العربية وفى الأدب العربى .

خامساً : محاولة إيجاد ترابط بين العرب واليهود والقول بأنهما أبناء عمومة وذلك كله يستهدف التمهيد الدعوة إلى إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

سادساً : إعلاء شأن (إسحق) على (إسماعيل) وهما إبنا إبراهيم عليه السلام وأكبرهما إسماعيل الذى هاجر به وأمه إلى مكة والذى أقام معه القواعد من البيت الحرام والذى امتحن بذبحه وجاءه الفداء من السماء والهدف هو إخراج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه ، وقصر الوعد على أبناء إسحق وإسرائيل تحت اسم أسطورة « شعب الله المختار » .

هذه هى أطراف المؤامرة الخطيرة لتزييف تاريخ الإسلام جرى تطعيم دوائر المعارف وكتب التاريخ ومناهج المدارس والجامعات بهذه المفاهيم واستكتاب عشرات لبحوث متعددة متنوعة تدور حول هذه الشبهات لخلق أدلة مضللة لتثبيتها فى الأذهان .

وتكاد فكرة (السامية) أن يكون أخطر هذه الشبهات وأسوأ المحاولات التى اتخذت لتزييف تاريخ الإبراهيمية الحنيفية : ذلك الأثر الضخم فى الجزيرة العربية والعرب جميعاً منذ ذلك الوقت البعيد وعلى امتداده إلى رسالة محمد ﷺ .

وهى عبارة أو مصطلح لم يرد مطلقاً فى كتابات العرب والمسلمين على مدى التاريخ ، وقد استمدت أساساً من نص من نصوص التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار وفى ظل تقسيم وهمى للأجناس البشرية مستمد من أسماء أبناء آدم أبى البشر : (سام وحام ويافث) وقد برز هذا المعنى فى ظل تقسيم مستحدث ظهر فى أوربا أبان استعلاء نزعة العنصرية الأوربية التى قسمت العالم إلى ساميين

وآريين انضم العرب والمسلمين فى قائمة موازية للجنس الآرى صانع الحضارة الذى وصف بكل صفات العبقرية والعظمة والاستعلاء على البشر ، وخضوع الأجناس الأخرى إليه وكان هذا التنظير الذى ألبس ثوب العلم إنما يستهدف إعطاء الاستعمار (مبرراً) علمياً لسيطرته على الأمم المغلوبة الملونة غير الآرية الأوربية . غير أن المحاولة التى حاولت أن تضع عبارة السامى والسامية بديلا للعرب والعربية أو للإبراهيمية الحنيفية كانت محاولة ماكرة خطيرة استهدفت حجب أمجاد التاريخ القديم عن العرب وإلصاقها باسم قديم لا يعرف التاريخ الصحيح له مصدراً واضحاً والغربيون يعرفون أن التوراة الصحيحة مشكوك فيها ولذلك فإن الاعتماد عليها فى إقامة نظرية تعطى كل هذا القدر من التوسع والنمو والسيطرة فى دوائر الثقافة والعلم والجامعات هو أمر لا أساس له من منهج العلم الصحيح .

ولقد كانت اليهودية الصهيونية من وراء هذه النظرية فى سبيل طمس التاريخ العربى السابق الإسلام وتزييفه بفرض دور وهمى لليهود فى الحضارة وفى الجزيرة العربية قبل الإسلام وإحياء اللغة العبرية وإعطائها رصيداً زائفا من الصلة باللغة العربية هو أكبر بكثير من حجمها الطبيعى . وفكرة السامية تدور حول القول بأن هناك أصلا واحداً مشتركا للعرب واليهود ومحاولة إعطاء العبريين أثراً ومكانة غير صحيحة فى حضارات الشرق القديم .

وقد كان (شلوسر) هو أول كاتب غربى استعمل مصطلح السامية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر واعتمد فى هذه التسمية على إصحاح من التوراة وقد كانت الصهيونية وراء هذه الفكرة ومن ثم فقد اتسع نطاق هذه المقولة وأقام عليها الكتاب الموالون للصهيونية والاستعمار ما أطلق عليه إسم (علم الأجناس) ولغياب الفكر الإسلامى فى هذه المرحلة فقد اتسع نطاق الفكرة الإسرائيلية وسيطرت على مناهج الجامعات ودراسات الثقافة جميعاً وفى كلية الآداب بالجامعة المصرية تقررت دراسات اللغات السامية لتمكين اللغة العبرية وقام على هذه الدراسات مستشرقين يهود فى مقدمتهم يوسف شاخت وإسرائيل ولفنسون اللذان أخذا يخدعان شبان المسلمين بقولهم أن العربية ليست سوى عبرية مقلوبة ، وأن العرب إنما اتخذوا إسمهم من (عربة) التى هى فى العبرية بمعنى الصحراء ، وكان الهدف هو خلق مفهوم زائف الصلة بين العرب واليهود من ناحية وبإعطاء اليهود مكانا زائفاً فى مجال الآداب والعلوم .

وقد كانت مؤامرة السامية هذه موضع إهتمام الباحثين العرب والمسلمين منذ وقت طويل فلم تفتهم تلك الخطة الماكرة التى استهدفت اعتبارها منهاجا من مناهج الدراسة الجامعية وإعطاء شبهاتها صيغة المسلمات . وقد جاء ذلك فى الوقت الذى حمل فيه الدكتور طه حسين لواء الدعوة إلى تجديد دراسة الأدب وفق المناهج الحديثة والبحث فى الشعر الجاهلى فقد كان الهدف من ذلك هو القول بأن اللغة العربية لم تكن لغة واحدة فى الجزيرة العربية وأن هناك لغة فى الجنوب ولغة فى الشمال

وهى محاولة مضللة تستهدف التشكيك فى وحدة اللغة العربية قبل الإسلام وإثارة الشبهات حول نموها واتجاهها إلى اتخاذ مكانها الذى أهلها لتكون لغة القرآن ولسان الإسلام .

كذلك فإن الدكتور طه حسين قد هيأ لشاب يهودى استقدمه من فرنسا إعداد دراسات متعددة حول اليهود فى جزيرة العرب وتاريخ اللغات السامية ليحشد فيها كل تلك المخططات التى أعدتها الصهيونية لتزييف التاريخ الإسلامى ، وبذلك استطاعت الصهيونية العالمية أن تحول نظريتها إلى قلب الفكر الإسلامى والأدب العربى لتضرب به ذلك المفهوم الأصيل الذى عرفه المسلمون واستوعبته آثارهم وتراثهم ، وقد عاش الدكتور طه حسين حياته كلها يحاول إقناع المسلمين والعرب بأن اليهود فضلا على أدبهم وتاريخهم وتراثهم ، ولقد عمل باكراً لتحقيق هذا الهدف حين أعلن عن أن وجود إبراهيم وإسماعيل ليس حقيقة تاريخية وإن ورد ذلك فى القرآن .

وقد كذبته الحفريات الأثرية ومن عجب أن يؤمن طه حسين بالتوراة فى شأن السامية ويكفر بالقرآن فى شأن إبراهيم وإسماعيل ، وقد دعا طه حسين فى محاضراته المتعددة المسجلة فى مجلة الجامعة المصرية وغيرها إلى ما أسماه فضل اليهود على الأدب العربى ، وأنهم كانوا شعراً فى الدين وهجاء العرب وأنهم لهم سابقة فى الجاهلية ، وردد ذلك إسرائيل ولفنسون فى كتابه (اليهود فى جزيرة العرب) الذى قدمه طه حسين بعبارات التمجيد ، ولقد الدكتور فؤاد حسنين نقداً علمياً فى مقدمة كتابه الذى ترجمه عن الدكتورة زيجريد هونكه (شمس الله تشرق على الغرب) .

ولا ريب أن الهدف هو طمس الرابطة بين الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ فى القرن السادس الميلادى وبين دعوة إبراهيم التى بدأت منذ ١٧٥٠ قبل الميلاد ، ذلك أن إقامة إبراهيم إبنه إسماعيل فى قلب الجزيرة العربية فى مكة وبناء الكعبة ، علامة جد خطيرة فى تاريخ العربية وتاريخ العالم كله ولها تأثيرها الواسع على النظرية الزائفة التى تدعو إليها الصهيونية العالمية ، ولقد تجاهلت التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز وبناء البيت مع إبنه إسماعيل ، وقد عمد اليهود إلى طمس حقيقة وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم بجعله قاصراً على إسحاق ، وتجاهلوا إبنه الأكبر إسماعيل وحاولوا إخراجه وإخراج أبنائه الإثنى عشر من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه ، وابتكروا أكذوبة شعب الله المختار القاصر على أبناء إسرائيل ، والواقع أن تاريخ هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم عليه السلام (١٧٥٠ قبل الميلاد) هو تاريخ الحنيفية الإبراهيمية العربية الذين أطلقتهم الجزيرة فى موجات متوالية امتدت من حدود الفرات إلى المغرب وأن فكرة السامية التى اصطنعها اليهود لحساب الصهيونية ورددها طه حسين وقررها للدراسة فى الجامعات تحت إسم اللغات السامية ، لم تكن شيئاً معروفاً لدى العلماء والباحثين العرب وغيرهم ولا توجد أى إشارة إليها فى أى كتاب من الكتب أو حفرية من الحفريات أو الأسانيد المكتوبة على الأعمدة أو الآثار القديمة وأن جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصحيحة فى كتب اليونان والرومان وأسفار

العهد القديم منذ ألفين وخمسمائة سنة (أى منذ ألف سنة قبل الإسلام ، وتدل على هذا النقوش والمدونات القديمة وأن اللغة العربية هى اللغة التى تكلم بها سكان الجزيرة والنازحون منها منذ ألف وخمسمائة سنة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها أو بعدها قليلا أو كثيراً عن اللغة الفصحى .

ولا ريب أن هذا كله لا يغيب عن فطنة الدكتور محمد رجب البيومى الذى يجب أن يضع فى اعتباره هذا الدور الخطير الذى قام به الدكتور طه حسين .

(٨)

سقوط النبوءة الكاذبة

إن أى (دعوى) يطرحها قوم يريدون بها أن يبطلوا حقاً أو يحققوا باطلا قد تقوم على (تركيب) مخطط له المزيفون ويصنعون له تاريخاً وركائز ويخفون من أجل إعلائه أشياء واقعة ويبدون أشياء زائفة .

وتقوم الدعاية على النفخ فى هذه الزيوف والأكاذيب حتى تصبح من المسلمات وتنخدع بها أجيال وأمم حتى يتحقق قيام هذه (الدعوى) ودخولها دائرة التنفيذ والواقع ولكن لأنها ليست الحق الذى هو جزء من سنن الله الصحيحة القائمة والمستمرة فإنه لا بد أن ينكشف زيفه ويظهر عواره ثم يسقط وقد يقوى بفعل الخطط المرسومة لتثويته أعواماً تصل إلى جيل أو جيلين ولكن البطلان لا يلبث أن يبرز واضحاً وقد تراخت الأيدى التى ظلت تحجبه ، وعجزت القوى المبطلة التى ظلت تحميه فإذا هو زاهق .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) .

وقد عرف التاريخ البشرى عشرات من مؤامرات التزييف ومحاولات إحقاق باطل وإبطال حق بفعل القوى التى يملكها أهل الباطل ويعجز عن مواجهتها أهل الحق ولكن سرعان ما يتحقق وعد الله فيسقط هذا الباطل بعد أن ينكشف للناس أمره ، ويتعرى من كل المحاولات التى عملت على حمايته وإذاعته .

ولا ريب أن (المخططات اليهودية الصهيونية التلمودية) التى بدأت عام ١٨٩٨ تمر الآن بهذه المرحلة : مرحلة انكشاف عوارها وفسادها وسقوط دعواها الزائفة مما يؤكد أننا فى مطالع القرن الرابع عشر الهجرى سوف نقف على عتبة (انكشاف الزيف) وسقوط القناع .

وأمامنا الآن مجموعة من الوثائق والأسانيد يمكن أن نعرضها مجتمعة فتشكل لنا رؤية هذا التيار

الجديد المتوقع ولعلنا نذكر في هذا المجال عبارة قالها هاري ترومان رئيس الولايات المتحدة يوماً حين قال :

(لا يمكن لمن لا يستوعب الصهيونية على حقيقتها أن يتفهم عالمنا الذي نعيش فيه) .

وباسم الخداع والزيف والتمويه استطاع هرتزل وحاييم وايزمان وناحوم جولدمان وبن جوريون أن يطلقوا تلك العبارات التي استطاعت أن تخدع دول الغرب وأن تحقق لهم السيطرة على أرض العرب والمسلمين من خلال نبوءة باطلة زيفها الأحبار في بابل حين أعادوا كتابة التوراة وعبارة مضللة لواقعة كاذبة وهي واقعة الادعاء بأن النازية قتلت منهم ستة ملايين ، ثم اتضح بعد ذلك أن هـــذه الملايين لم تكن إلا مئات وأن المسألة جسمت وشوهت وأعطيت هذا الحجم الضخم لتكون وسيلة لفتح باب الهجرة وخداع الناس وكسب عطف المغفلين ، وحتى يستطيع شعب لفظته أوروبا وكرهت مقامه بينها لم تكن له أرض منذ عام ١٣٢ ميلادية أن ينتزع شعباً آمناً من أرضه بقوة النار ووسائل العنف ليستولى عليها وليقيم دولة لا أساس لها من حقائق التاريخ ولا من واقع الكيان الاجتماعي الصحيح . لقد كانت الأمور كلها داخلة في باب (المؤامرة) أكثر منها في باب (الدفاع) عن حق مسلوب ، والرسالة التي بعث بها كبير حاخامي اليهود في القسطنطينية إلى يهود فرنسا سنة ١٤٨٩ م حين تعرضوا لاضطهاد لويس الثاني عشر تلقي الضوء على المخطط كله .

قال : إنكم تذكرون أن ملك فرنسا يريد أن تصبحوا مسيحيين فعليكم إذن أن تفعلوا . إنكم تذكرون أنهم يريدون الاستيلاء على ممتلكاتكم فاجعلوا من أبنائكم تجاراً وبواسطة التهريب تستطيعون شيئاً فشيئاً الاستيلاء على ممتلكاتهم . إنكم تشكون من أنهم يحاولون اغتيالكم فاجعلوا من أبنائكم أطباء وصيادلة حتى تتمكنوا من القضاء على حياتهم دون أن تخشوا عقاباً ، إنكم تؤكدون أنهم يهدمون معابدكم فحاولوا أن تجعلوا من أبنائكم كهنة ورجال دين لكي تدمروا كنائسهم .

هذا هو الخط الواضح الذي سارت عليه اليهودية التلمودية منذ وقت بعيد ، وفي العصر الحديث تحت اسم الصهيونية نجد اليهودية العالمية تعلن أكذوبة وتخفي حقيقة ، تعلن أكذوبة الملايين الستة التي قتلتها النازية وتخفي حقيقة يهود الخزر الذين ليسوا من يهود التوراة ولا من بني إسرائيل .

يقول بنيامين فريدمان في جريدة الاجوشيان جازيت : والسر خفي تمتاز مملكة الخزر بأن تاريخها محذوف من مراجع التاريخ الرسمية في الولايات المتحدة ومن مقررات التاريخ في المدارس والكليات .

ويفسر ذلك حين يقول : يريدون بذلك ألا تضيع نسبتهم إلى آبائهم من الخزر فتسقط حقوقهم التاريخي في فلسطين لأن (الخزر) تهودوا في العصور الوسطى ليس غير ، وصحة دعواهم تقتضي اتصال النسب بينهم وبين اليهود الأصلاء الذين كانوا على عهد عيسى عليه السلام في ربوع فلسطين ليصح ادعاؤهم بأنهم شعب الله المختار وسلالته المصطفون .

ويقول الفرد ليلنتال الكاتب اليهودى غير الصهيونى : إن الفلسطينيين لهم حق أكبر فى العودة إلى بلادهم من جوارها ما لهم التى يمكن أن الخزر من أصل أساس تحولوا إلى اليهودية ولم يسكن أى من جدودها الأرض المقدسة من قبل على الاطلاق .

أما خرافة إبادة ستة ملايين يهودى فى الحرب العالمية الثانية فقد تكشفت حقائقها وظهر زيفها بغير واحد من الابحاث الجادة بدأها البروفسور بول راسينية ثم ظهر فى الشهور الأخيرة كتاب الدكتور ريتشارد هاروود الباحث المتخصص فى شئون وقضايا الحرب العالمية الثانية بجامعة لندن تحت عنوان : (هل أبيد ستة ملايين يهودى بالفعل)

يقول الدكتور حازم طالب مشتاق الذى ترجم البحث ملخصا أن المؤلف أثبت بالقرائن الراسخة والمعلومات الأكيدة والأرقام الدامغة ما استخلصه وقرره من نتائج جديدة مدهشة وحقائق مهولة ومذهلة تمحو نفيا تاما الأوهام والروايات والأوهام الرائجة عن هذا الموضوع والتى انطلت على جمهور كبير من العقلاء حينا طويلا من الدهر ولما كانت هذه الرسالة قد كشفت عن سابقة علمية فريدة ونادرة فى مواجهة الزيف والبطلان الصهيونى فقد ثارت الثورة الصهيونية فى بريطانيا وقامت قيامتها على الكتاب والمؤلف والناشر ، وانتشر انتشار النار فى الهشيم ولم تفلح تلك الدعاوى فى الوقوف فى وجهه أو مصادرته ويقول الدكتور مشتاق أن البحث امتاز بالتجرد والموضوعية والتسم بالامانة الصارمة والشعور بالمسئولية وامتنع كليا عن المداجاة والمجاراة والمداراة . ولقد قرر المؤلف بأنه قدم من القرائن ما قطع الشك باليقين وأثبت نهائيا أن المزاعم القائلة أن ستة ملايين يهودى قد لاقوا حتفهم فى الحرب العالمية الثانية من إجراء سياسة ألمانية رسمية مقررة ومرسومة ومقصودة هى من الاباطيل الخرافة والأكاذيب المطلقة . قال : إن قتل ستة ملايين يهودى فى الحرب العالمية الثانية انقلبت إلى أسطورة نامية عالمية وخرافة مكررة مكبرة يوميا هى من أخطر وأنجح الأساطير والخرافات التى انطلقت على الانسان فى عصر العقول الالكترونية والاجهزة الحاسبة والاقمار الصناعية وأن الدعاية التى صنعت لهذه الخرافة قد وظفت توظيفا ماهرا وبارعا فى خدمة هدف سياسى معين كان تحقيقه متعذرا لولاها .

إن الطائفة اليهودية الاوربية والامريكية والروسية الصغيرة الحجم والقليلة العدد نسبيا قد خرجت من الحرب العالمية الثانيه وكأنها القوة الظافرة الاساسية والجهة المنتصرة الوحيدة فى العالم فأمكنها أن تحقق الحلم الكبير الذى راودها طويلا فى الحصول على وطن قومى خاص واغتصبت التراب الفلسطينى وأسست الكيان الصهيونى ، واعتصرت عرق وجهد وكد المواطن الالمانى العادى الذى دفعت حكومته الخاضعة للنفوذ الصهيونى ، مبلغا خياليا من المال إلى الكيان الصهيونى فى شكل تعويضات عن أضرار ومظالم ومذابح مزعومة وقعت فى خلال الحرب العالمية الثانية .

وفي سبيل دحض أكذوبة الستة ملايين أورد المؤلف عشرات النصوص والاحصائيات منها قوله لقد أفادت (موسوعة جامبرد) بأن عدد اليهود الذين تواجدوا في القارة الأوربية قبل الحرب العالمية الثانية كان قد بلـــغ ٦٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة ولو اقتنعنا بخرافة الإبادة لكان معنى ذلك أن الجاليات اليهودية القاطنة في الأقطار الأوربية برمتها محيت فعلا .

وقد اعترف المؤتمر اليهودي العالمي بأنه قد نجحت الأغلبية الساحقة من الجالية اليهودية القاطنة في ألمـانيا من مغادرة البلاد ولم يبق في ألمانيا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا بعد شهر أيلول ١٩٣٩م إلا ٣٦٠ ألف شخص يهودي فقط ولم يكن عدد اليهود في أوروبا يزيد على ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ أي أن أوروبا كلها لم يكن بها إلا ثلاثة ملايين يهودي .

ومن الواضح أن الألمـان لم يكن بوسعهم أن يعتقلوا أو بالتالي أن يبيدوا ستة ملايين يهودي لأنه لم يتوفر لهم مثل هذا العدد من اليهود أبداً ولو أن السلطة الألمانية قد أقدمت بالفعل على إبادة نصف هذا الرقم المزعوم لكان ذلك يعني أنها أبادت كل أفراد اليهود المتواجدين على قيد الحياة في أوروبا في تلك الفترة .

وأكد المؤلف أنه لا توجد حتى ولا وثيقة رسمية واحدة لدى القيادة النازية أو الحكومة الألمانية بأنها قد تبنت أو نفذت سياسة إبادة اليهود بالجملة وأن الوثائق التي سلمت من الدمار وظلت في متناول الباحث والمؤرخ ، أنها خالية على الاطلاق من أثر الإبادة وقد أدى الغياب الكامل للبرهان الرسمي المكتوب إلى أسلوب جديد من التعامل مع الوثائق التي سلمت من الدمار تتلخص في إعادة تفسيرها بالأهواء والاحقاد والتلاعب بدلا لأنها الصحيحة وألفاظها المحددة . وأشار إلى محاكمات نورمبرج فقال إن هيئة الإدعاء العـام لم تأخذ بأسباب الحق والعدل بل أخذت بدوافع الحقد والانتقام وأن تسعين في المائة من عضوية هذه المحكمة تألفت مـــن شخصيات سادية حاقدة مدفوعة بالأهواء الشخصية والعنصرية والسياسية .

ومعنى هذا كله والذي دعانا إلى التوسع فيه أنه يسقط العلة الأساسية التي ظل يتشدق بها اليهود والاستعمار من أن الهجرة اليهودية من ألمانيا وأوروبا إلى فلسطين إنما جاءت نتيجة للمؤامرة النازية بإحراق وقتل ستة ملايين يهودي ويتبين الآن بطلان هذا الإدعاء وأن عملية الهجرة كانت مصطنعة وزائفة وأنها لم تتم في الحقيقة على أساس من الدوافع الإنسانية أو التحديات الدموية .

أما دراسة البروفسور بول راسينية عن مسألة الإبادة فقد سبقت هذا البحث ولما كان راسينية قد سجن في معسكرات الاعتقال الألمانية في الحرب العالمية وكان معاديا للنازية فإنه لا يعقل اتهامه بالإنحياز إلى هتلر أو الدفاع عن أيدلوجية النازية وهو يقول : إن الرايخ الألمـاني والنظام النازي والعهد الهتلري قد ارتكب من الجرائم الرهيبة والأخطاء الفادحة ما يمكن إدانته بما فيه الكفاية في

محكمة التاريخ والكنه لم يرتكب هذه الجريمة بالذات إطلاقاً ، جريمة إبادة ستة ملايين يهودي في الحرب العالمية الثانية .

ونحن نرى أن الخدعة كانت موجهة إلى الغرب والمؤامرة كانت تستهدف تبرير الهجرة والسيطرة على فلسطين ، وقد سقطت هذه الدعوى اليوم سقوطاً واضحاً .

* * *

ونرى اليوم من الكتاب اليهود أنفسهم من يكشف زيف الصهيونية ويسقط دعواها الزائفة وأمامنا ثلاث وثائق :

(الأولى) : كتاب آرثر كوستلر الذي صدر أخيراً تحت عنوان (أصول اليهود) والمؤلف يهودي بلغاري . أثبت بطلان الدعوى الأساسية التي تقوم عليها الصهيونية العنصرية وهي التي تدعي أن كل من يدينون بدين موسى عليه السلام يرجعون إلى أصل عنصري واحد ، وقد أعلن المؤلف أن يهود الاشكناز وهم أهل السيادة في المجتمع الصهيوني وزعماؤه المسيطرون ليسوا ساميين أي ليسوا من ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام وأنهم يرجعون إلى أصل آسيوي فهم أصلاً من الخزر بين البحر الأسود وبحر قزوين وأنهم كانوا وثنيين واعتنقوا الديانة اليهودية في القرون الوسطى ثم رحلوا إلى مناطق بولندا وليتوانيا في أوربا الشرقية .

وقد وجد المؤلف في قراءاته للتاريخ وتحقيقاته أن الخزر قد اختفوا فجأة في منطقتهم الملك في نفس الوقت الذي ظهرت فيه كثرة من اليهود الاشكيناز في شرق أوربا محتفظين بزيهم الخزري (القفطان والطاقية) ويستغرب المؤلف قصة تبني الاشكيناز رفع لواء الدفاع عن الساميين وهم ليسوا ساميين بالمرة وبدلك في أن يكونوا هم أول من مارس عداء السامية واخترعوه .

ثم يقول : إن الادعاء بأن اليهود اليوم يمثلون عنصراً هو كلام باطل ، فما هم إلا قوم لا تجمعهم حضارة أو ثقافة واحدة ولكن مجرد عادات وتقاليد تكونت لديهم من تراث المجتمعات التي نشأوا فيها . ويقول إن الحقيقة التي ينبغي عدم تجاهلها أن قليلاً جداً من اليهود من يمارسون طقوس الديانة في غالبيتهم ثائرون على هذه التقاليد العفنة السحيقة .

ويقول : إن حل مشكلة اليهود في العالم لن يكون إلا بأن يذوبوا في المجتمعات التي نشأوا فيها وأن ينسوا إلى الأبد أفكارهم البالية القائلة بأن عليهم يؤدونها . إنما هم بشر عاديون لهم ما للناس وعليهم ما عليهم ولن يستريح العالم من أخطار اليهود السوداء النازعة إلى الشر والأذى وحب الذات والشعور بالامتياز العنصري إلا إذا اهتدى اليهود إلى العقل والذوبان في المجتمع البشري بعد أن تحقق لهم أنهم لا ينتمون إطلاقاً إلى أصل واحد .

ثانياً : ألفريد ليلنتال الكاتب اليهودي في كتابه (يا يهود العالم قفوا ضد الصهيونية) .

وفي هذا الكتاب يدعو إسرائيل أن تتخلى عن طابعها الصهيوني ويقول إن المنظمات اليهودية المناهضة للصهيونية تتجمع من جديد لإقناع الكونجرس بأنه ليس كل اليهود من الصهيونيين وأن من مصلحة الشعب الإسرائيلي أن يقف ضد المؤسسة الإسرائيلية بأن يعيد الأراضي التي احتلت ١٩٦٧ وأن يعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية .

ثالثاً : أعلن روجيه جارودي أخيراً: أن الصهيونية هي ألد أعداء اليهود الإسرائيليين لأنها جعلتهم يعيشون في حرب مستمرة وأن الحل الوحيد للنزاع القائم في الشرق الأوسط يتمثل في التخلي عن الأيدلوجية الصهيونية التي تنطوي على اتجاه متعصب ومفاهيم استعمارية تحتقر الآخرين وتاريخهم وثقافتهم والآخرون هنا هم الفلسطينيون ، وقال إنه إذا كان هتلر قد اضطهد اليهود فإنه لا يتعين على الفلسطينيين أن يتحملوا مسئولية ذلك على الإطلاق ، ولا ينبغي أن يدفعوا ثمن الجرائم العنصرية التي ارتكبها هتلر .

• • •

وبعد فإن هـــذه الوثائق والأبحاث التي تتحرك اليوم في آفاق العالم الإسلامي إنما تمثل تحولا خطيراً في مجريات البحث والنظر بالنسبة للصهيونية ومخططاتها الزائفة ومؤامراتها المبيتة التي انكشفت حلقة بعد حلقة والتي تبدو الآن وهي في الهواء خادعة مبطلة لكل من استطاعت أن تحتويه ، سواء أكان ذلك من ساسة الغرب أو من اليهود أنفسهم ، وأن هـذه السنوات القليلة بعد حرب رمضان قد استطاعت أن تمكن الباحثين من إعادة النظر في كثير من تلك المسلمات التي طرحها اليهود والصهيونية في أفق الفكر العربي وخاصة ما يتصل بأسطورة الشعب المختار ، ودولة الخزر ، والخلافة الإسلامية ، وسقوط الامبراطورية الروسية والدولة العثمانية وما يتصل بالثورة الفرنسية وفي أفق الفكر الإسلامي والعالم الإسلامي انكشف كثير من الزيوف والأكاذيب والشبهات التي طرحتها الصهيونية بالسيطرة على دوائر المعارف ومناهج الجامعات ، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة إبراهيم واسماعيل بالجزيرة العربية وبناء الكعبة في مكة المكرمة ، وقضية اللغات السامية والجنس السامي (وقد كشفنا زيف ذلك في أبحاثنا السابقة) .

إن سقوط هذه الدعاوى الزائفة وانكشاف هذه الحقائق التي حرص دعاة الصهيونية على إخفائها وحجبها وانفجار الموقف بين اليهود والغرب وبين اليهود وأنفسهم ، كل هذا دليل على أن الباطل لا يستطيع أن يثبت مع وجود الحق وأن جولة الكلمة التي تحق الحق وتدحض الباطل إنما هي بمثابة المقدمة الحقيقية لسقوط أركان البناء الذي قام خداعاً وظلماً وغصباً .

ولعل هذا هو المنطلق الحقيقي للمسلمين على مشارف القرن الخامس عشر الهجري وأن حلول

ثورة للؤامرة الصهيونية لن يكون إلا بمثابة إعلان الهزيمة للوجود الزائف الذى قام على أساس ابوة باطلة ورافعة كاذبة ووجود زائف لا يستطيع أن يثبت يوماً للحياة بذاته أو قوته الحقيقية حتى بعد مرور ثلاثين عاماً أو يزيد .

(٩)

الكشوف الأثرية

منذ أوائل العصر الحديث بدأت حركة التنقيب عن الآثار فى البلاد العربية ورافقت هذه الحركة مطامع الاستعمار . وإن حاولت أن تحتفظ لنفسها بطابع علمى خالص يجعلها بعيداً عن المظنة والشبهة وقد اتسع نطاق هذا العمل فى السنوات الأولى من هذا القرن فى مختلف أجزاء البلاد العربية وخاصة فى بادية الشام ، وفيما يتصل بالمنطقة الواقعة بين سوريا والعراق وجنوباً إلى فلسطين ومنها إلى أجزاء كثيرة من سيناء ، متجهة نحو صحراء النفود ، والمعروف أن كلمة جزيرة العرب فى التاريخ القديم إنما تعنى فى الاصطلاح بادية العراق وبادية الشام والركن الجنوبى من اليمن بالإضافة إلى قلب الجزيرة .

* * *

ويمكن القول أن أعمال الكشوف الأثرية – باستثناء ما قام به بعض العلماء الخاصين – كانت تستهدف أكثر من غاية :

أولا : غاية التفرقة الإقليمية والبعد عن الإسلام والعروبة .

وهى العمل على دعم الإقليمية لكل قطر ، والاستعلاء بآثاره الخاصة ، ومن هنا علت الصيحات إزاء الحفريات التى كشفت عن حضارات البابليين والآشوريين والكلدانيين والفينيقيين والفراعنة . وكان الاهتمام فى العراق وسوريا ولبنان ومصر يرد كل قطر منها إلى حضارته القديمة السابقة للإسلام وأخذت الصحافة الحيط ، واعتقد الكتاب الذين أخذوا يفحصون هذه الآثار فى محاولة اكتشاف اللغة والتراث والتقاليد الاجتماعية وكل علامات ودعائم الحضارة القديمة ، فى محاولة لوصل حاضر البلاد بها .

وكان ذلك (على حد تعبير الدكتور محمد محمد حسين : عملا على توهين الوحدة الفكرية الإسلامية ورابطة الأمة العربية وإعطاء الأوطان قداسة مستمدة من إحياء التاريخ القديم لكل قطر من هذه الأقطار . وكان هذا الاتجاه الجارف قد بدأ فى مصر عام ١٩٢٣ م بظهور توت عنخ آمون ، حيث بدأت صيحة الدعوة الفرعونية بلغتها وتراثها كامل ، وقد حمل لواءه عدد كبير من الأسماء الصحفية والأدبية اللامعة ، وتوهت الصحافة بهذا الاتجاه ، وحدث مثل هذا الفينيقية والآشورية والبربرية فى البلاد العربية الأخرى .

ثانياً : الغاية الصهيونية .

غير أن هناك غاية كبرى ذات أهمية بعيدة المدى ، وهي محاولة الصهيونية السيطرة على هذه الحفريات والآثار . وكان هدف الصهيونية من السيطرة على الأبحاث التي أجريت في بادية الشام ، وفي هـذه المناطق المختلفة هو إيجاد أدلة أو خيوط تؤكد الهدف المسبق الذي يدعون إليه ، وهو ما أطلق عليه الوعد الذي أعطى اليهود بالعودة إلى أرض فلسطين ، والعمل على طمس كل ما من شأنه أن يتعارض معه . ولذلك كان للصهيونية نفوذ كبير في توجيه البحث حول الآثار المكتشفة في بادية الشام ، بل إن بعض خبرائهم حاول الذهاب إلى الحجاز بحثاً عن آثار اليهود في خيبر وتبوك لولا يقظة المختصين .

ثالثاً : إنكار الحضارات العربية القديمة ووصفها بأنها (سامية) وإبراز دور اليهود !

وتشير المقتطف في عام ١٩٢٠ م إلى أن تاريخ سوريا قد قسم إلى ثلاث مراحل وأن ثلاثة من المستشرقين قد أخذ كل منهم على نفسه كتابة قسم منها ، وهي :

العهد الآرامي والفنيقي (سوستيان رونزفال) .

العهد اليوناني والروماني (لويس جاليرهد) .

العهد العربي (هنري لامانس) .

وقد حاولت هذه الحفريات والعاملون فيها إثارة شبهات متعددة أهمها :

١ - وصف التاريخ العربي بأنه (تاريخ الساميين وحضاراتهم وذلك حتى يكون الاتجاه واضحاً فيما يتعلق بإبراز دور اليهود والمعروف أن أول من أطلق كلمة الساميين على العرب هو مستشرق يهودي .

٢ - ظهر أن كل الباحثين والأثريين يبدأون أبحاثهم بالتوراة ويهدفون هدفاً واحداً هو إبراز دور اليهود وإنكار دور العرب وتاريخهم .

٣ - الحفريات حول فلسطين قصد بها إيجاد خيوط من شأنها أن تعين الصهيونية على دعواها الزائفة .

٤ - إعلان الخصومة على العرب ، وعلى الأنباط ، وعلى الكنعانيين ، وكلها تمثل التراث العربي الإبراهيمي القديم .

وقد جرى ذلك كله وفقاً لخطة مدروسة أشار إليها (هاملتون جب ، في كتاب وجهة العالم الإسلامي

حين قال : إن أهم مظاهر تغريب العالم الإسلامى هى تنمية الاهتمام ببعث الحضارات القديمة التى ازدهرت فى البلاد المختلفة التى يشغلها المسلمون الآن ، وإنه من الممكن لهذا العمل أن يلعب فى المستقبل دوراً هاماً فى تنمية الشعوبية وتدعيم مقوماتها .

(رد الفعل المباشر)

أما بالنسبة لمحاولة إدخال مفاهيم جديدة لإقامة إقليميات متعصبة الماضى السابق للإسلام ، فإن ذلك قد فشل فشلا تاماً عندما جوبهت هذه الشبهات المطروحة بالحقائق التاريخية ، ذلك أن الأبحاث العلمية قد أثبتت أن كل هذه المسميات من فرعونية وفينيقية وآشورية وبابلية وبربرية ، إنما هى موجات عربية خرجت من الجزيرة العربية وانداحت على طول البلاد وعرضها (وأما ما يتصل باللغة الأكادية والفرعونية وغيرها) فإن الصلة بينها وبين اللغة العربية واضحة وضوحاً يؤكد وحدة الأصل بينها جميعاً .

وبذلك انهارت كل محاولات الدعوة إلى اتخاذ هذه الظاهرات التاريخيـة كحضارات أو ثقافات جديدة .

ولقد أعلن كثير من الباحثين وفى مقدمتهم الدكتور محمـد حسين هيكل أنه بالرغم من كل الجهود التى بذلت فإن خيطاً واحداً لم يمكن وصله مع الحضارة الفرعونية ، لا من ناحية اللغة أو التراث أو الحضارة وأنه لم يوجد أى أثر فـكرى حتى يمكن أن تقوم معه نهضة فـكرية جديدة على أساس الفرعونية . بل إن الدكتور هيكل لم يلبث أن أعلن أن تجربته كلها كانت فاشلة ، وأن الحب الذى كان يدفنه فى الأرض لم ينبت ، وأنه وصل بذلك إلى مفهوم واضح هو أنه ليس سوى الحضارة الإسلامية وسيلة لتجديد بناء هذه الأمة .

١ — كذلك كشفت هذه الحفريات على الرغم من كل ما أحيطت به من محاولات التأثير فى الحقائق التاريخية عن حضارة قديمة باذخة ، وبذلك كذب الواقع ما حاول اذاعة المستشرقون من أن العرب لم يكن لهم تاريخ أو حضارة قبل الإسلام ، وأنهم كانوا تابعين للحضارات الرومانية وغيرها كذلك أثبتت الحفريات فساد كثير مما أورده اليهود فى كتبهم وما حاولوا الادعاء به .

٢ — كانت هذه المكشوف الأثرية مصدقة للحقائق القرآنية التى أشار إليها القرآن فى أكثر من موضع ، عن إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وسد مأرب . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، كما أبرزت ما كانت الأمم تنحت فى الجبال من بيوت وقصور ، وهى التى أشار إليها القرآن فى دعوته المسلمين والناس جميعاً إلى التماس العبرة منها ، وما أشار إليها فى قوله (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل) .

وبذلك وضع القرآن البشرية أمام تلك الحقيقة الإلهية الكبرى والقانون الثابت الذى لا يتغير ولا يتبدل (سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا) وهى أن الأمم التى تنحرف عن الحق ، وتسرف فى الظلم والترف تلقى مصيرها وتزول .

٣ — كذلك كشفت الحفريات عن تصديق كامل لما أورده مؤرخوا الإسـلام . وقد أشار الدكتور أحمد فخرى فى بحوثه عن الكشوف التى قام بها فى اليمن أنها كانت مطابقة تماما لما أورده الهمذانى فى كتاب (الإكليل) الذى ألفه فى أوائل القرن الرابع الهجرى .

٤ — كشفت الحفريات عن أن المنطقة بين شرق سوريا ونهر الفرات تبلغ مساحتها أكثر من عشرين ألف ميل مربع كانت مزدحمة بالسكان أكثر من أى بقعة تساويها فى انجلترا والولايات المتحـدة ، وقد دلت النقوش والكتابات أن سكانها كانوا من أصل عربى صرف حتى أيام فتوح الاسكندر وخلفائه فى القرن الرابع قبل المسيح .

وفى الفترة ما بين أواسط القرن الأول قبل المسيح ، وأوائل القرن الثانى للمسيح انتقلت البلاد انتقالا بطيئاً على أيدى الرومان ، واندمجت فى امبراطوريتهم باسم ولايات سوريا العربية وفلسطين ، وعند اتخاذ الدولة الرومانية المسيحية ديناً فى القرن الرابع للمسيحى انتقلت البلاد كلها إلى الامبراطورية الشرقية ، وقد أصبح أهلها يتكلمون لهجتين من اللغة الآرامية وهما : اللهجة السريانية فى الشمال واللهجة النبطية فى الجنوب .

كذلك أشارت هذه الحفريات إلى وجود مملكة النبط العربية فى أقصى جنوب صحراء سوريا أو بادية الشام ، وهى الدولة التى كونها أبناء اسماعيل عليه السلام ، ومن ناحية أخرى أشارت الكشوف والحفريات الأثرية بجزيرة فيلكا لساحل الكويت إلى رموز كتابية وكتابات معمارية تمزج حضارات الخليج ودلمون وآثار عديدة من الألف الثالث قبل الميلاد وكشفت عن بقايا حضارة ازدهرت وعاصر غيرها من الحضارات قبل الإسلام ، وكان لها طابعها الخاص .

وهذا كله يمثل تكذيباً قاطعاً للشبهات التى أثارتها الصهيونية فى دعواها الخاصة بالوعد الذى ادعى أنه خاص باليهود .

الحنيفية السمحاء

الحنيفية هى دين إبراهيم عليه السلام حامل لواء دعوة التوحيد وأبى الأنبياء الذى خرج من صلبه اسماعيل فقد ولد له من السيدة هاجر المصرية ، وقد حمله ووالدته إلى أرض مكة حيث أقام هناك وأنشأ أمة جديدة كان لها بعد ذلك التاريخ أثر كبير ، حيث انتشر أبناء اسماعيل فى الأرض وامتدوا حتى حدود فلسطين ، أما إسحق فقد ولد له يعقوب الذى أطلق عليه (إسرائيل) ومنه خرج الأسباط ومن أشهرهم يوسف ثم موسى ، وخرج أنبياء بنى إسرائيل .

وتقول الأخبار : أن سيدنا إبراهيم عليه السلام ولد بعد الطوفان بثلاثة وستين ومائتين وألف سنة ، وأنه ولد في العراق ، وسافر إلى فلسطين ثم مصر ، وهو الذي بنى الكعبة مع ابنه إسماعيل ، (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ٢/١٢٧ .

وقد أعلن القرآن أن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وفي نطاق هذه المنطقة التي عاش فيها إبراهيم من العراق إلى الشام إلى مصر إلى الجزيرة العربية نشأت ذريته وتكاثرت من أبناء إسماعيل وإسحق . وكانت رسالات السماء الكبرى في ذريته : موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام .

وقد أعلن القرآن أن رسالة الإسلام التي جاء بها ﷺ مرتبطة برسالة إبراهيم ومتممة لها ، وأن المسلمين يؤمنون بما أنزل على هؤلاء الأنبياء جميعاً ، وأن محمداً ﷺ هو دعوة إبراهيم عليه السلام ، وأن الإسلام هو الدين الذي أوحاه الله للبشرية : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

ومن هنا فإن هذه الحضارة التي نشأت في هذه المنطقة كلها ، وكانت جزيرة العرب مهادها كما ذكرنا من قبل ، في هذه الفترة تمتد إلى حدود الفرات شرقاً والشام غرباً ، هذه الحضارة التي قادتها النبوات المتوالية ورسالات السماء هي كلها مما يسمى ميراث إبراهيم عليه السلام ، بل إن كل ما وجد في شمائل العرب وأخلاقهم من شهامة وكرم وأريحية إنما مصدره الدين الحق الذي جاء به إبراهيم ، وأن كل ما تبقى من علامات الخير كان من بقايا هذا الدين الذي أصابه بعد ذلك التحريف ، وأدخلت إليه الوثنية وعبادة الأصنام ، والشمس والنجوم وغيرها ، ولقد كان حتى بعثة رسول الله ﷺ جماعة من الحنفاء على دين إبراهيم ، ومن هنا تصدق عبارة القرآن بإمامة سيدنا إبراهيم والصالحين من ذريته وأهله في امتلاك هذه المنطقة الواسعة الشاسعة التي يسيطر عليها الإسلام اليوم ويعيش فيها أصحاب الأديان جميعاً في أمن وطمأنينة وسلام .

وهذا كله يكشف زيف التحريف الذي أورده عزرا ، وأخذت به الصهيونية في العصر الحديث فيما يتصل بأن الوعد خاص باليهود وحدهم ، باعتبارهم ورثة سيدنا إسحق ، وما تكشف عنه النصوص من إنكارهم إسماعيل ورحلة إبراهيم إلى مكة وبنائهما البيت الحرام .

ويجمع أغلب الباحثين على أن الحنيفية هي : (العروبة) وأنها أقدم الأشورية والبابلية والفينيقية والآرامية والكنعانية ، وأنها كلها خيوط من الأصل الأول ، وهو الحنيفية الإبراهيمية التي كانت مصدر هذه الشعوب المهاجرة من قلب الجزيرة العربية إلى أطرافها ، وأن هذه هي الأمة الوسط المختارة لحمل أمانة الدين المنزل بالحق في موقعها الدقيق المتوسط بين العالمين .

العروبة لا السامية

ومن هنا تجمع المصادر الحديثة في الدراسات الإسلامية والعربية على أن كلمة (العروبة) أصدق تعبيراً من (السامية) التي لم تكن في حقيقتها إلا مصطلحاً لغوياً يتصل بالفارق بين اللغات السامية واللغات الآرية .

ويؤكد الدكتور عمر فروخ أن الإسلام هو الذي جعل لكلمة (عرب) هذا المقام في شعور الجماعة وإن قد نبي في نفس الوقت من أن يكون هذا الشعور عاملاً مفرقاً بين صفوف الأمة التي وحدها الإسلام .

ولا ريب أن هذا كله يصل بنا إلى التعرف على النتائج التي كشفت عنها الحفريات الأثرية في السنوات الأخيرة ومدى مطابقتها لحقائق القرآن ، ومعارضتها الأساطير التي اعتمدت عليها الصهيونية .

القرآن المصدر الأساسي للتاريخ القديم

آن الأوان لأن يعلن العلماء المسلمون في مؤتمر عالمي يوم الحج الأكبر أن القرآن هو :

المصدر الأساسي للتاريخ القديم ومنطلق البحث للعلوم التجريبية والعلوم الإنسانية .

ولقد مضى وقت طويل منذ تكشف العلماء في الغرب والشرق ، وخاصة علماء التجريب والعلوم الإنسانية أن المصادر التي اعتمدوا عليها منذ وقت بعيد في سبيل طرح نظرياتهم وفروضهم قد ثبت زيفها وبطلانها ، أثبتت ذلك المكشوف الأثرية والحقائق العلمية المتوالية المتعددة التي صححت كثيراً من تلك المسلمات التي فرضت على الفكر البشري منذ أول حركة النهضة وكان أخطرها اتخاذ (التوراة) المكتوبة بأيدي الأحبار في منفى بابل بما تحمله من أساطير وخرافات قديمة نقلت عن البابليين واليونانيين وغيرهم - على أنها منطلق لعديد من الأبحاث .

ولقد كشفت البحوث العلمية التجريبية منذ أكثر من ثلاثة قرون معارضتها لما جاء في الكتب القديمة من نظرات عن الكون والحياة فوق الأرض وأحداث البشرية وخلق الإنسان والحضارات القديمة ، وكانت الأبحاث التجريبية قد كشفت عن خطأ تلك الأرقام والوقائع منذ أول عصر النهضة بحيث كانت هذه الحقائق مناقضة لتلك النصوص الدينية وقد احتدم الخلاف احتداماً بالغاً على أثر ذلك بين رجال العلم ورجال الدين .

كذلك نقد الحفريات الأثرية حقائق أخرى حول الأنبياء والرسل وخاصة منذ عصر إبراهيم عليه السلام وفي هذه المنطقة التي تحرك فيها العراق إلى الشام إلى مصر إلى الجزيرة العربية وحيث انتشرت

ذريته من النبيين : إسماعيل وإسحق ، كشفت هذه الحفريات كثيراً من أخطاء تلك الكتب القديمة التي كتبت في الأغلب وفق هوى خاص وفي محاولة خاصة لإعطاء جماعة معينة وضعاً خاصاً من أحداث التاريخ .

وأعلن أن عيسى عليه السلام نبي الله ورسوله لم يقتل ولم يصلب ولكن رفعه الله إليه وأنه حمل لواء الدعوة إلى توحيد الله ولم يدع الألوهية وأنه برىء من التثليث ، كذلك أنكر القرآن أكبر قضية هي موضع التحدي الشديد للمجتمعات الغربية كلها وهي مسألة (الخطيئة) الأصلية التي قيل أن عيسى عليه السلام جاء ليكفر عنها وهي ما نسب إلى آدم عليه السلام من خطيئة استدعت نزوله من الجنة إلى الأرض ، ولقد أفاض القرآن الكريم في كشف حقيقة هذه الخطيئة وأبان أن آدم أخطأ ولكنه تاب إلى الله واستغفر وأن الله غفر له .

(فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) .

وأنه ليس من شأن خطيئة أي إنسان أن تصيب إنساناً آخر ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ومن ثم فلا خطيئة هنالك عامة ولا أصلية وليس للبشر صلة ما بأمر آدم هذا وليس عليهم أي جريرة منه أو مسئولية عنه .

واليوم تتكشف دلائل كثيرة وجديدة حول (حقائق القرآن) الثابتة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . وفي كل يوم نرى باحثاً جديداً قد أبرز دليلا علمياً على حقيقة قرآنية سواء في مجال الطب أو العلوم أو علوم الحيوان أو الفلك ، وآخر هذه الدلائل تلك الأبحاث التي أجريت على جثمان فرعون في المتحف المصري بالقاهرة حيث أدخلت الآلات الحديثة إلى قلب الجثمان وكشفت عن وجود كسور ورضوض في مناطق كثيرة منه ، دلت هذه الأبحاث على أنه مات غريقاً ، وذلك مصداق قول الله تعالى :

(فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) .

كذلك كشف القرآن عن زيف النظرية التي صنعها التلموديون ووقع فيها بعض كتاب الإسلام من القول بأن البشرية كانت وثنية ثم وحدت وهي نظرية ماكس مولر اليهودي ، فالقرآن يؤكد أن البشرية كانت موحدة منذ اليوم الأول ، وأن البشرى الأول آدم عليه السلام كان موحداً . وأن العصور المختلفة للبشرية واجهت موجات من التوحيد ثم موجات من الوثنية ، وأن رسل الله تبارك وتعالى كانت تنزل على فترة من الرسل وفي مختلف جماعات البشرية لدعوتهم إلى الله الواحد القهار .

واليوم وقد جاءت كشوف الباحثين وعلماء الآثار والنباتات القصيدية وعلم السلالات وأصول

الشعوب والتى أجريت خلال أكثر من قرن من الزمان ، هذه الكشوف جاءت مؤكدة لحقائق القرآن ناقضة ومزيفة لما ورد فى تلك الكتب القديمة ، فقد أثبتت أن ما جاء فى القرآن هو من عند الله حقاً وأن ما جاء فى التوراة وغيرها هو من أساطير الأولين التى جمعوها بعد أن رفعت التوراة المنزلة .

هذا هو منطلق البحث : كيف يمكن أن تظل التوراة منطلقاً للبحث بعد أن ثبت فسادها وزيف العلم التجريبى والكشوف الأثرية ماأوردته من نظريات عن بدء الخليقة وعن تاريخ الأمم ، وقد تأكد لكثير من العلماء أن التوراة مصدر زائف بشرى ليس ما جاء به إلا مجموعة كلام لرواة سذج عاشوا فى البادية لا يعرفون شيئاً من حقائق الأديان الكبرى التى جاءت بها رسالات السماء وأن هذه الروايات والأساطير قد صادفت هوى فى نفس الجماعة المضطهدة المنفية وراء أسوار بابل والتى أحست بأنها فقدت وجودها وحاولت عن طريق ذلك أن تتحدى الواقع بتزييف ماض تكذبه كل الوقائع والحقائق ، لبناء مستقبل على أساس الأساطير .

لقد كشف القرآن عن (الحنيفية) التى أقامها إبراهيم واعتبرها مدخلا إلى العصر كله من إبراهيم إلى محمد وكشف القرآن عن أن ما قبل الإسلام كان مقدمة له وأن الإسلام جاء ليظهره الله على الدين كله وأن القرآن نزل ليكون مهيمناً على الكتب والشرائع كلها ، وأن الكتب السماوية والأولى قد وكل حفظها إلى الذين نزلت إليهم فتهاونوا فى أمرها ولم يحفظوها ولكن القرآن جاء محفوظاً من عند الله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وبذلك سلم وسيظل سليماً من التحريف حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، كذلك كشف القرآن حقيقة دين عيسى عليه السلام وأنه مكمل لرسالة موسى وليس ديناً مستقلا بنفسه ، وأن عيسى عليه السلام ليس إلا عبداً من عباد الله أنعم الله عليه وجعله مثلا لبنى إسرائيل .

وكذب القرآن دعاوى المفسرين النصارى وخاصة فى شأن الصلب والتثليث والخطيئة فنفاها جميعاً وأبان بالدليل والبرهان كذبها .

ولقد جاء القرآن الكريم منذ نزل نصاً موثقاً محفوظاً لم يصبه أى تحريف أو تغيير منذ أنزل من عند الله على قلب سيدنا محمد ﷺ وسجل آية فآية ، ونقل إلى المصاحف ثم إلى المصحف الإمام ، هذا القرآن جاء شهادة تامة على أمور كثيرة منها ذلك التاريخ القديم السابق له منذ بدء خلق السموات والأرض ومنذ بدء البشرية وخلق آدم عليه السلام حتى بعثة محمد ﷺ وهو فى ذاته ليس كتاب تاريخ . ولكنه سجل كامل للأحداث الكبرى والمواقف العظمى وخاصة بالنسبة لرسالات الأنبياء وموقف البشر منها على مدى القرون والأدهار .

فإذا نظرنا اليوم إلى منجزات العلم الحديث وإلى كشوف الحفريات التاريخية وجدنا أن هذه كلها تطابق ما جاء فى القرآن ولا تتعارض معه ، وإنما تعارضت الكتب القديمة مع حقائق العلم والكشوف

الأثرية ، ويرجع هذا إلى أن القرآن جاء من عند الله فهو حق كله . وأن هذه الكتب وضعها البشر وكتبوها بأيديهم وجمعوا فيها بعض ما هو ربانى المصدر مما جاء فى الكتب المنزلة وبعض ما هو بشرى من أساطير الأولين وهى فى ذاتها أهواء وأوهام وخرافات ، سواء فى إحصائها الزمن أو تصويرها الوقائع . ويمكن أن يقال إن أخطر ما يتصل بهذه المحاولة التى ضمتها الكتب القديمة هى: محاولة تصور أمة معينة لها عرق يستعلى على الأمم ويحاول أن يفرض وجوده على البشرية ، وكلت إليه رسالة النبوة فحرفها فى سبيل الحصول على كسب خاص على أساس العنصرية . ومن ثم فقد أقام منطق الأحداث كله على هذا الطريق ، ومن ثم كانت مواقفه مع أنبياء بنى إسرائيل أنفسهم ، ومن الأمم المختلفة التى اتصلوا بها .

ولعل أخطر محاولات التزييف التى فرضت على التوراة هى : إفساد الصورة الكاملة لنبوة إبراهيم عليه السلام وميراث أبنائه اسماعيل وإسحق ، ورحلته إلى مكة وبنائه الكعبة بيت الله الحرام مع اسماعيل بها ، وهذه هى القضية التى عمدت محاولات التزييف حجبها وحجب آثارها ونتائجها ، وذلك بخلق ما أطلق عليه مصطلح (السامية) نسبة إلى سام بن نوح . وهو الإسم التى ذكرته التوراة ولم يذكره القرآن وكان الهدف هو إنكار نسبة تلك الحضارة العظيمة والآثار الكبرى التى أحدثتها (الحنيفية السمحاء) التى حمل لواءها إبراهيم عليه السلام واسماعيل وإعلانها بنسبتها إلى اسم مجهول غير معروف هو سام .

كذلك فإن عشرات الحقائق العلمية تظهر اليوم لتقرر أن الإسلام هو الذى أنشأ المنهج العلمى التجريبى وأن القرآن هو منطلق هذا المنهج الذى فتح للبشرية طريق الحضارة العلمية المادية الحاضرة ، وكذلك كشفت عشرات القوانين التى أنشأها العلماء فى الغرب ورفعت الظلم عن كثير من الناس ، أنها فى مصدرها الأساسى من أصول الشريعة الإسلامية وأن مصدرها الأول هو القرآن ، وتبين الناس فى عشرات من الدراسات والأبحاث فى مجال التربية والتاريخ والاجتماع والاقتصاد أن مصدرها ما كتبه ابن خلدون وابن القيم وابن تيمية والغزالى وأن هؤلاء استمدوها من القرآن أساساً .

هذا فضلا عن عشرات الكشوف الأثرية التى أكدت الحقائق التى جاء بها القرآن عن الأمم السابقة ، عاد وثمود وعن اليهود وعن حضارة سبأ .

واليوم يسود الاعتقاد فى كل مكان أن المنهج التجريبى قد صنعه المسلمون وأنهم استمدوه من الآية الكريمة (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وقد تحقق هذا الاعتراف بعد تجاهل كبير وإنكار اتصل أكثر من الثمانمائة عام كما تبين أن اليونان لم يكن عندهم من العلم إلا خيوط هشة من التنجيم وحساب الكواكب الذى أخذوه من السحرة البابليين ، وكذلك كشفت مواقف كثيرة عظمة هذا المصدر :

فالحق تبارك وتعالى حين يقول فى القرآن (وأنه هو رب الشعرى) إنما يكشف فساد قول القوم

الذين كانوا يعبدون هذا الكوكب ولكنه يكشف عن عظمة قدرة الله، واليوم يقول علماء الفلك إن الشعرى اليمانية هي أضوأ النجوم الثوابت تبعد عن الأرض مائة ألف مليون ميل، وجرمها يعدل ستين جرماً مثل جرم الشمس والضوء (مع سرعته الغريبة) وهو نحو ١٩٠ ألف ميل في الثانية تقريباً لا يصل منها إلينا إلا في نحو ست عشرة سنة.

وما تزال كلمة القرآن (وإنا لموسعون) تجد في تفسيرات علماء الفلك كيف أن هذا الكون يتسع ويزداد يوماً بعد يوم بعشرات الملايين من الكواكب الجديدة فضلا عن ملايين المجرات التي لا تدركها (التلسكوبات الضخمة) وهي بخلاف مجرتنا التي تحوي ١٥٠ مليون شمس.

ولقد قدم القرآن عشرات القوانين في مختلف فنون المعرفة والشريعة والحضارات والحرب والسلم ما تزال الأبحاث العلمية المتصلة الآن تكشف عن مدى عظمتها وخلودها وحاجة البشرية إليها يوماً بعد يوم ومنها (قانون الوفرة) الذي أورده القرآن ووصل إليه علماء الاقتصاد وهو القانون الذي يزيف رأي القائلين بأن البشرية مهددة بالمجاعة. ويكشف عن أن البشرية مهددة بظلم المحتكرين الأقوياء الضعفاء.

ومنها في علم النفس: قانون التصعيد في السماء (كأنما يصعد في السماء). ومنها قانون سقوط الأمم والحضارات:

١ - (فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا، أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديراً).

٢ - (فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)

ومنها قانون بناء الحضارات ما يكشف عن فساد نظريات القائلين بالتحدي ورد الفعل.

(والذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى).

ومنها عبرة التاريخ في الأمم والبشرية، وأن فساد الأمم هو الذي قضى عليها وأهلكها.

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون).

وهما دعوتان على القرآن الناس فهم سننهما : دعوة إلى الطبيعة (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) ودعوة إلى التاريخ (قل سيروا فى الأرض فانظروا) .

وهناك ما كشف عنه علماء القانون من فساد تقنين الإنسان لنفسه وأنه لا بد للإنسان من أن يخضع لقانون يصدر إليه من جهة عليا وأن الإنسان حين يقنن لنفسه يتغلب عليه هواه وظنه .

(إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) .

وكيف جمع قانون المعرفة القرآنى بين الثابت والمتغير ، وبين المصلحتين الخاصة والعامة ، وبين الثبات والتطور ، وبين الإلهى والبشرى ، وبين أن التشريع الإسلامى إلهى المصدر اجتهادى التطبيق وأن الأصول الإلهية الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وأن الاجتهادات التطبيقية والإسلامية تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وكيف جمع بين مطالب الجسد وأشواق الروح ، وأعطى كليهما الالتزام الأخلاقى .

وقد تبين اليوم للعلماء أن خير المناهج وأكملها فى المعرفة والبحث هو منهج القرآن : الذى يمتاز على المنهج التجريبى بأنه أشمل ، وعن المنهج المادى بأنه أكمل ، بل إن منهج القرآن يمتاز على منهج الفلسفة ومنهج الكلام ، ومنهج التصوف .

وكيف أقام القرآن منهج النظر والاستدلال والتجريب وطالب بالبرهان ودعا إلى وجوب التثبت فى العلم وعدم الجمود على المعلومات المتقررة ، وأكد أن العلم لا يحصل إلا بالنظر فى الوجوه والموجودات : هذا المنهج الذى لا سبيل الآن للبحث إلا باعتماده وإقراره ، وهو الموصل إلى الحقيقة بعيداً عن الهوى والأوهام .

ولا ريب أن هذا الكتاب الربانى الذى جاءت حقائق العلم وكشوف الآثار ووقائع التاريخ مؤكدة لما يحمل من مصادر الحقيقة التى لا يصل إليها الشك أو الوهم أو النقص يقتضى من جانب العلماء أن يعلنوا أنه وليس غيره المصدر الأصيل لأصول الثقافات وخيوط العلم والتاريخ والإنسانيات بالإضافة إلى مكانته الخاصة من حيث هو كتاب التشريع الربانى الخالد على الزمان وما تزال الأبحاث العلمية فى مختلف المجالات تكشف كل يوم عن صدقه وسلامته وتكشف فى نفس الوقت عن زيف المصادر التى كتبها الأحبار والرهبان بأيديهم ، وما زالت هناك فى أيدى الباحثين زيوف كثيرة وسموم متعددة يجب بيان وجه الحقيقة فيها .

فهذه (دائرة المعارف الإسلامية) تأخذ القصة اليهودية للعهد القديم فى خلق آدم فتجعلها مصدراً لخلق آدم وما يتعلق بقصة هاروت وماروت ، وقد يظن بعض القارئين من العرب أن ما تحويه دائرة

المعارف هذا من مفهوم الإسلام ، وكذلك موقف دائرة المعارف الإسلامية من ابراهيم وإسماعيل ، فهي تروي وجهة النظر التلمودية والصهيونية ، وتحاول أن تصور إبراهيم يهوديا : (وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً) .

وكذلك فإن المصادر التي يعتمد عليها الطلاب والباحثون في مختلف الجامعات في عالم الإسلام تعتمد على « دائرة المعارف الإسلامية » التي قام عليها باحثون يهود ، وعلى « قاموس المنجد » وهو ملىء بالأخطاء والزيوف ، وعلى الموسوعة الميسرة وهي دائرة معارف جامعة كولومبيا التي تحمل وجهة نظر اليهود والاستعمار ، وكل هذه المصادر تحمل لواء : نظرية السامية المبطلة المنكرة الحنيفية الإبراهيمية ، ونظريات الصلب والتثليث والفداء ، ونظريات حجب إسماعيل وأبنائه في تاريخ العرب والإسلام .

ولا ريب أن الفكر المسيحي التلمودي المنشور الآن في جامعات العالم كله والذي يكاد يمثل المصدر الأول للدراسات التاريخية والاجتماعية والسياسية إنما يقوم على تلك الأسس المحرفة التي حملتها التوراة والتفسيرات الدينية التي تتمثل في « الانشطارية » بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، وأن هذه المفاهيم قد أفسدت الحضارة الغربية وخلقت أزمة الإنسان المعاصر الممزق الغريب الذي يقاسي الغثيان والضياع .

وأن الغرب في العصر الحديث حين عجز عن رد هذه المفاهيم الباطلة ، فإنه قد قطع صلته بالدين جملة واتجه إلى الايدلوجيات التي لم تحقق له إلا مزيداً من الاضطراب :

كل هذا من شأنه أن يوجه الأنظار إلى مهمة دعاة الإسلام ، فقد أصبح قلب الغرب فارغا إن كان ليهدي به ، وعلينا أن نقدم له المنهج الأصيل والمدخل إلى ذلك كله هو أن يصدر في يوم الحج الأكبر « بيان » من علماء المسلمين يسجل هذه الحقيقة الخطيرة الصادقة التي لم تزدها الأيام إلا ثباتاً وصدقاً وهو أنه لا سبيل أمام العلماء إلا أن يتخذوا من القرآن الكريم المصدر الأساسي للتاريخ القديم وأن يتخذوه منطلق البحث لعلوم التجريب والعلوم الإنسانية وأن يقطعوا خط الرجعة أمام محاولات الصهيونية التلمودية في إغراء بعض أتباعهم الذين يتصدرون علوم مقارنات الأديان والانثربولوجيا والآثار بأن يزيفوا الحقائق التي وصلت إليها الدراسات الجادة التي تحاول أن تكشف أمام الفكر البشري حقيقة أساسية وهي أن الفكر الرباني وهو الأصل وهو الحق : هو المنطلق الوحيد للبشرية إذا كانت حقاً ترغب في الخروج من أزمتها الخانقة التي تعيشها تحت لواء الحضارة المادية .

(١١)

عام اليهودية الحاسم

ماذا فعل مفكرو الإسلام في مواجهة عام اليهودية العالمية الحاسم (١٩٩٧ الميلادي) ولم يبق غير عشرين عاماً على حلوله ؟

(إنكم أنتم فقط الذين ستحملون « اليهودية العالمية » بعد هذا الاجتماع الخطير وبعد أن تستوعبوا ما في هذه المقررات النابعة من التلمود وعليكم وعلى من يرث عملكم بذل المال والطاقة الروحية والجسدية لتحقيق هذه الأهداف فقد حددنا منذ هذا العام ١٨٩٧ إلى العام ١٩٩٧ ، أي بعد مائة سنة إتمام تنفيذ المقررات التي ستبدأ من فلسطين ، ففي عام ١٩٩٧ يجب أن نكون قد حكمنا الدنيا كلها بشرها وأرضها ومالها ومن فلسطين ستنطلق إلى إسرائيل التي سيحكمها ملك تحتفظ بسلالته سراً من نسل داود حيث نقيم له على جبل صهيون قصراً ينتقل منه إلى أوربا لتحكم الدنيا من الفاتيكان) .

إن ما أوردناه هنا هو مقدمة بروتوكولات صهيون التي قدمت إلى الثلاثمائة حبر من أحبار اليهود الذين اجتمعوا في مؤتمر بال عام ١٨٩٧ .

إن على المسلمين والعرب أن يفكروا منذ اليوم في يقظة وكياسة فيما يكون موقفهم من عام ١٩٩٧ من ميلاد المسيح الذي يوافق ١٤١٦ هجرية فإن هذا السؤال مطروح عليهم منذ مائة عام تقريباً ، منذ ألقت اليهودية العالمية قفازها في وجه العرب والمسلمين وأعلنت أن لها خطة تقوم بتنفيذها على مراحل تنتهي عام ١٩٩٧ بحيث تكون في ذلك العام قد سيطرت سيطرة كاملة على جميع مقاليد العالم وسياسته وأمواله وقد أصبح الجنس البشري فيه تحت سيطرة التلمود تتحكم فيه اليهودية العالمية .
وقد حملت هذه النبوءة بروتوكولات حكماء صهيون التي عرفها المسلمون والعرب منذ ترجمت إلى اللغة العربية وأصبحت بين أيديهم وأمست المسئولية على مفكري المسلمين قائمة منذ ذلك الوقت فهم المؤملون لتكوين القادة وتثقيف الشباب وتوجيه الصحافة والفكر جميعاً للإجابة على هذا السؤال الذي أصبح جديراً بالبحث ولم يعد بيننا وبين موعده أكثر من تسع سنوات .

ولا ريب أن المحنة المريرة تدل على أن مراحل هذا المخطط قد نفذت بدقة وأن اليهودية العالمية قد حققت في هذه الأعوام الثمانين تحطيم ركائز كثيرة كانت تقف في وجه هدفها من السيطرة على العالم فقد حققت على الأقل ثلاثة أعمال كبرى :

(الأول) السيطرة على الفكر الغربي المسيحي واحتوائه ووضعه تحت سيطرة الايدلوجيات التلمودية في الاقتصاد والنفس والاجتماع والأخلاق .

(الثانى) إقامة النظام الماركسى الشيوعى فى روسيا وعدد من الدول ودعم هذا النظام بحيث أصبح مواجها مواجهة تامة للنظام الغربى الديمقراطى .

(الثالث) إسقاط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية وإقامة نظام القوميات الضيقة والإقليميات والتفريق بين عناصر المسلمين التى تجمعها وحدة الإسلام .

وقد أصبح المسلمون والعرب على مرمى قذائف اليهود العالمية بعد أن سيطرت الصهيونية على فلسطين منذ وعد بلفور ١٩١٧ م وقيام إسرائيل ١٩٤٨ م واحتلال القدس ١٩٦٧ م .

وإننا نجد أنفسنا اليوم بين شقى الرحى . بين الوجود الصهيونى فى فلسطين العربية المسلمة وبين التحدى الصهيونى الذى يثير الشبهات والسموم فى أفق الفكر الإسلامى عن طريق دعواته المتعددة : الماركسية والوجودية والمادية والتبشير وروافدها البهائية والقاديانية .

وقد تبين فى السنوات الأخيرة أن هناك تنسيقاً بين هذه القوى جميعاً فى مواجهة الإسلام بين الصهيونية والماركسية والاستعمار والتبشير يستهدف السيطرة الاقتصادية والاجتماعية وتدمير الأجيال الجديدة من الشباب المسلم .

هذه هى الصورة القائمة الآن نتيجة تحرك اليهودية العالمية خلال ثمانين عاماً صحيح أن هناك إيجابيات كثيرة فى المواجهة والمقاومة والعمل الإسلامى العربى اضرب هذه التحديات ومقاومتها ولكن الأمر ما زال يحتاج إلى مزيد من الفهم وتعمق فلسفة اليهودية العالمية وهدفها وموقفها من الإسلام والمسلمين اللذين يتعرضان الآن للاحتواء والسيطرة بعد أن تمكنت اليهودية العالمية من السيطرة على الفكر الغربى ولم يبق أمامها إلا السيطرة على عالم الإسلام .

ولكى نتمكن من الإجابة على السؤال المطروح أمام مفكرى الإسلام وكتابه عن الموقف من عام ١٩٩٧ م علينا أن نتعرف على ما حدث عام ١٨٩٧ حيث عقد أول مؤتمر لحكماء صهيون فى التاريخ الحديث ، هذا المؤتمر الذى تمكن (هرتزل) الذى كان يعد فى ذلك الوقت زعيم الصهيونية من أن يجمع له الثلاثمائة حبر يهودى من شتى أقطار الأرض من بلادهم رجال الاقتصاد والفكر واللاهوت والاجتماع . وما أن عقد الاجتماع حتى وزع على المجتمعين « ملف » وصف بأنه مشروع خطة لدراستها ومناقشتها وإقرارها لتكون خطة عمل تقوم بتنفيذها اليهودية العالمية خلال المائة عام التالية لذلك .

والقصة بعد ذلك معروفة وذائعة كما يصورها الأستاذ أبو توفيق فى دراسته العميقة حيث يقول « فى اليوم الثالث أو الرابع من المؤتمر كانت الحكومة الروسية قد علمت مسبقاً من جواسيسها بأمر هذا الاجتماع واعتقدت أنه لن يكون إلا للتدمير والتآمر على هدم ودمار روسيا فأوعزت إلى عدد من أقوى وأذكى جواسيسها الذين يجيدون السفر إلى سويسرا سراً قبل المؤتمر وحين كان المؤتمرون

يتدارسون ملف الأوراق أمامهم فاجأهم الجواسيس الروس بهجمة مفاجئة واقتحموا خلالها قاعة المؤتمر وسارع المؤتمرون إلى الفرار بينما كان الجواسيس يضرمون النار فى القاعة ثم جمعوا الأوراق الموجودة على الموائد وهربوا إلى بطرسبرج حيث اكتشفت الحكومة الروسية خطورة ما فيها والتى لم تكن سوى بروتوكولات حكماء صهيون التى استهلت بالعبارات الخطيرة التى أوردناها فى أول هذا البحث .

وقد جاء الكشف عن هذه البروتوكولات على يد (سرجى نيلوس) من رجال الكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا ، وقد أورد فى بحثه الذى نشره فى روسيا أن صديقاً له عرف فيما بعد بأنه (اليكس نيقولافيتش) من رجال روسيا البارزين هو الذى كلف نيلوس بالنظر فى هذه الأوراق وترجمتها بين عام ١٩٠٠ - ١٩٠١ ، وكان النبيل الروسى قد حصل عليها من ترجمة صحيحة لوثائق أصلية سرقتها سيدة معروفة بارزة من زعيم ماسونى كبير فى نهاية اجتماع ماسونى عقد فى فرنسا واستطاع نيلوس أن يقدم الطبعة الأولى قبل عام ١٩٠٥ ، وكان يطلق على هذه البروتوكولات (الإنجيل الشيطانى) وفى مارس ١٩١٧ وقع الانقلاب الشيوعى ، وكان الإعدام جزاء كل من توجد بحوزته نسخة من البروتوكولات فى روسيا ، ثم نقلها فيكتور مارسدن الصحفى البريطانى ١٩١٧ إلى جريدة المورننج بوست ، وقد كانت البروتوكولات تحمل فى تضاعيفها نبوءة ظهور الشيوعية وانقسام العالم إلى معسكرين ، وكان ذلك أول أهداف اليهودية العالمية .

إن المخطط الرهيب الذى كشفت عنه بروتوكولات صهيون هو من عمل فيلسوف متعصب لم يذكر اسمه يطلق عليه (أحدها عام) الذى وصف بأنه العقل المفكر والرجل الذى استطاع أن يستوعب أهداف التوراة (توراة اليهود لا توراة موسى) والتلمود والمشنا والجمارة وأن يصوغ هذه المطامع فى قالب عصرى ، وكذلك جاءت بروتوكولات صهيون ممثلة لكل ما صدر عن حكماء اليهود وحاخاميهم ومفكريهم من خطط لاحتواء العالم والسيطرة عليه . هذه الخطة كانت اليهودية العالمية قد أعدتها لتطرحها على الثلاثمائة حبر الذين وصفوا فى وقت لاحق بأنهم يكونون المنظمة الخفية ، فإذا ذهب اليوم بعض الماركسيين والتقدميين الذين يعرفون الخيوط الدقيقة بين الشيوعية والصهيونية إلى القول بأن بروتوكولات صهيون زائفة ، فإن حادث إضرام النار فى قصر مدينة بال معروف ومسجل ، وقد تواترت الأخبار عنه بما لا يدع مجالا للشك فى هذا الأمر .

وإنكار نسبة بروتوكولات صهيون إلى اليهودية هو واحد من محاولات كثيرة ، ومنها أيضاً دعوى التفرقة بين اليهودية والصهيونية وعمليات التمويه التى تقوم بها اليهودية العالمية بالنسبة الحقيقة التاريخية لمملكة الخزر والواقع أنه ليس بين اليهودية والصهيونية من فارق إلا فارق الأصل الثابت والواجهة المتغيرة مع العصر . أما من ناحية الهدف فإن الصورة التى تكشفها الصهيونية لها أصولها الأصيلة فى توراة اليهود ، التى كتبها زعيمهم (عزرا) فى المنفى البابلى حقداً على البشرية ورغبة فى

الانتقام منها حيث وضع صيغة هذه المطامع في صورة مملكة بين الفرات والنيل . هذه هي المطامع التي عاشت اليهودية العالمية من أجل تنفيذها والتي تتمثل في الأعمال المتصلة التي قامت بها والتي تتمثل في العمل الذي بدأ بعد إخراج اليهود من أسبانيا المسلمة وانتقالهم إلى سلانيك في تركيا ودخولهم الإسلام تقية حيث أطلق عليهم اسم الدونمة ، وكان هذا مركز رحلى تكامل مع الثورة الفرنسية وما استطاعت أن تفعله من تدمير القيود التي وضعتها الكنيسة وخروج اليهود من الجيتو لسيطرة على الحياة السياسية والاجتماعية أما المركز الثالث فهي روسيا القيصرية التي سحقت دولة الخزر اليهودية والتي تمثل أقوى قوة في الغرب المسيحي بعد الفاتيكان .

وكانت المؤامرات قد بدأت في روسيا القيصرية منذ وقت بعيد حين أنشأت منظمة عشاق صهيون للعمل ضد القيصرية وتهدمها على اعتقاد أن من يحكم روسيا ويسيطر على مقاليدها يستطيع أن يحكم العالم ولقد سعت اليهودية العالمية بالحرب العالمية الأولى على خلق الدولة الشيوعية الروسية وبالحرب العالمية الثانية على وضعها موضع القوة في مواجهة الغرب المسيحي كله وكان ارهابيو عشاق صهيون قد استطاعوا أن يقتلوا القيصر الروسي بالقنابل ، لأنه وضع خطة لإدماجهم وتذويبهم في المجتمع الروسي ، فلما قتل القيصر ظنوا أنهم سيسيطرون غير أن حكومة القيصر نقولا الثاني كانت قوية باطشة فقد أذهلتهم بالانتقام مما دفعهم إلى الفرار من روسيا ، وهذه الدفعات التي هاجرت من روسيا هي التي جاءت إلى فلسطين والتي دفعت الصهيونية العالمية إلى أن تتفاهم مع السلطان عبد الحميد فلما عجزت عن إقناعه أو إرهابه وإزاحته من طريقها وتمكنت عن طريق الدونمة أصحاب المحافل الماسونية في سالونيك التي سيطرت على حركة الاتحاديين وأخضعتهم لها فمكنوها من فلسطين بعد عزل عبد الحميد .

وقد عاد اليهود فقتلوا القيصر نقولا الثاني الذي جاء ١٨٩٤ بعد أن حكم ثلاثة عشر عاماً ١٩١٧ حينما سيطروا على الثورة التي قامت وحولها لحساب الشيوعية الصهيونية ، ولعل هذا يكشف عن زيف دعوى الفصل بين اليهودية والصهيونية ، ودليل آخر أشد قوة هو أن زعماء اليهودية هم الذين اشتروا أرض فلسطين : وأولهم موسى مونتيفوري الذي أنشأ أول الأحياء اليهودية في القدس خارج أسوار المدينة القديمة ، ثم جاء روتشيلد لدفع ٤٠ مليون فرنك فرنسي ذهباً في سبيل شراء الأراضي فقد اشترى حياً بأكمله ، كما دفع ٣٥٠ مليون فرنك ذهباً لدعم المستعمرات الزراعية .

وكان هذا هو عمل اليهودية العالمية في سبيل دعم خطة الصهيونية التي هي من منظماتها في الاستيلاء على أراضي العرب والسيطرة بالقوة على (الأرض) لإقامة الوطن لمن لا وطن لهم . وقد جاء هذا الاتجاه بعد مقتل القيصر وهروب اليهود من روسيا واستغلال الصراع التركي . ثم جاءت أكذوبة قتل النازية اليهود في ألمانيا ليدعموا بها عملية الهجرة ذات الأعداد الضخمة خلال الحرب وبعد الحرب العالمية الثانية .

أما قصة (الخزر) فهي معروفة مكشوفة ، فقد حرصت اليهودية العالمية على رفعها من جميع دوائر

المعارف العالمية التى سيطروا عليها ومقررات المدارس والجامعات فى البلاد التى تدين بالبروتستانتية ذات الولاء للمخطط اليهودى التلمودى ، ذلك لأن الحديث عن دولة الخزر اليهودية من شأنه أن يحطم النبوءة المضللة التى تذيع بها الصهيونية وهى أن الصهيونيين هم من نسل موسى وأنهم يهود التوراة بينما أن احتلال فلسطين بالاستيطان الضخم كان يمثل فى غالبه هجرة يهود الخزر الذين لم يكونوا من نسل إسرائيل والذين كانوا قد تهودوا بعد أن كانوا وثنيين ، وذلك فى حدود عام ٧٤٠ أو عام ٨٦٥ من ميلاد المسيح .

هذه الدولة التى امتدت حتى القرن العاشر الميلادى حين هاجمها الروس من الشمال والبيزنطيون من الجنوب حتى انهارت فى القرن الثانى عشر . وقد أقام الروس مستعمرات لهم فى جوانب تلك البلاد بعد أن نزعوا مدينة (كييف) التجارية الكبرى فتفرق ملايين اليهود من خزرايا واتخذوا جماعات فى أنحاء روسيا وما جاورها بولندا وأوكرانيا وليتوانيا وغيرها ، وقد أثبت المؤرخ إسحق ليفنش أن يهود روسيا هم سلالة الخزر ، وعلى الله الدعوة عطف القيصر نقولا الأول وشجع وعمل على فتح المدارس الخاصة لهم فقاوم الدعوة متعصبوا اليهود بزعامة موسى هس فى روسيا وألمانيا خوفاً من أن تقرب المدارس بين اليهود والكنيسة واغتالوا القيصر المحرر اسكندر الثانى وجرت وقائع المؤامرة على النحو الذى أوردناه .

وبعد : فقد كشفنا هنا ثلاث شبهات حاولت الصهيونية العالمية بؤازرة الماركسيين والتقدميين فى البلاد العربية طرحها كمسلمات وتأكدت الحقائق الآتية :

الأولى : أن اليهودية والصهيونية صنوان .

الثانية : أن الماركسية واليهودية هما وليدتا اليهودية العالمية .

الثالثة : أن يهود إسرائيل ليسوا هم يهود التوراة بل يهود الخزر .

الرابعة : أن البروتوكولات هى حقيقة تاريخية لها وقائعها التى لا يمكن إنكارها .

الخامسة : أن توراة اليهود غير توراة موسى :

وبعد فإن على مفكرى المسلمين أن يجيبوا على السؤال الحاسم :

ماذا فعلوا فى مواجهة عام اليهودية العالمية الحاسم ١٩٩٧ ميلادى ولم يبق غير عشرين عاماً على حلوله .

(١٢)

الشيوعية وليدة الصهيونية

صدق الأستاذ محي الدين القابسي حين كشف في مقدمة كتابه عن التضامن الإسلامي خيبة مشاعر الأمم إزاء المسلمين والعرب بعد أحداث الخامس من يونيو ١٩٦٧ التي أطاحت من كان غافلا عن الحقيقة التي لا سبيل إلى تجاوزها مهما كانت اختلافات الرأي والفكر ، ومهما حفر التغريب بالغزو الثقافي من حفر وأقام من سدود وفك من عقد ليحول بين ذلك اللقاء النفسي والعقلي والروحي القائم بين المسلمين في أنحاء الأرض والعميق الجذور الممتد في التاريخ خمسة عشر قرناً والممتد على وجه البسيطة من أقصى الأرض إلى أقصاها من المحيط إلى المحيط .

يقول : من حقائق الأسباب التي أدت إلى نتائج أحداث يونيو ١٩٦٧ أن حسابات بعض الدول العربية حول رصيدها من الصداقة الدولية كانت خاطئة بشكل غريب ، فالذين كانوا محسوبين من الأصدقاء وقفوا مع العدو واكتفوا بالسلبية والذين لم تحسب تلك الدول حسابهم كأصدقاء كانوا على أولئك الذين تربطهم بالعرب صلات العقيدة الوحيدة والدين الواحد على تباعد الأماكن واختلاف اللغة والعرق والقومية .

ويرجع ذلك في أصح الصحيح إلى « رابطة الإسلام » التي أوجدت ذلك التعاطف التلقائي الذي يسمو عن الأساليب السياسية التقليدية وهو شعور أثبتت أحداث التاريخ البعيدة والقريبة أنه أحد المحركات الأساسية للعلاقات الدولية وأنه هو التفسير الطبيعي لكثير من الأحداث التاريخية .

لقد كانت الفكرة الإسلامية هي ولا تزال العامل الأساسي الأكبر والجامع لهذه الأمة مهما تعددت الدعوات الوافدة إلى جلبها إلى الإقليمية والقومية وإلى الفردية أو الجماعية ، وإلى هذا الطريق أو ذاك من الطرق التي فتحت أبوابها أمام الأمة في براثن الاستعمار والصهيونية والماركسية والغزو الثقافي الذي استهدف تمزيقها والحيلولة دون وحدتها . ولقد كانت الأمة الإسلامية تتلاقى كلما سنحت لها الفرصة — بعد سقوط الخلافة الإسلامية — في خلال الخمسين عاماً الماضية ثم تضرب كل محاولات اللقاء ، هذه اللقاءات التي أخذت أسلوب المؤتمر الإسلامي تارة ، والوحدة الإسلامية تارة والفكرة الإسلامية تارة أخرى حتى إذا ما أينع الغرس وبدا يؤتي أكله ضرب ، وكانت دائماً عملية « الإجهاض » ميسرة للقوى التي لا تريد للأمة الإسلامية أن تلتقي .

ولكن الموقف تغير بعد فقد امتلك العرب أصحاب الفكرة الإسلامية الطاقة والثروة والتفوق البشري ، واستطاعت فيهم صيحة التضامن من مكة المكرمة وثبتت أقدام الدعوة هذه المرة بينما هزمت مخططات القومية والتفرقة والإقليمية .

وأكد أن الوجود العربى هو وجود إسلامى الصيغة والعقيدة والعقل والقلب ، وأنه لا سبيل لأن يكون صادقاً وسليما وفعالاً إلا إذا تحرك داخل دائرة الإسلام وفى إطار القرآن .

وهذه هى الأصالة التى حققتها حرب رمضان فى مواجهة التقليد والتبعية والتغريب والمفاهيم الوافدة التى عجزت أسلوبا عجز عن أن يحقق شيئاً إيجابياً ، وإن استطاع أن يحقق الهزيمة والنكسة والنكبة جميعاً انهزمت دعوة التبعية وانتصرت دعوة الأصالة :

(وكان حقاً على أهلها أن يعضوا عليها بالنواجذ)

وهذا ما نراه اليوم ممثلا فى الأصالة فى البحث عن منهج اقتصادى إسلامى الأصالة فى تطبيق الشريعة الإسلامية وجعلها مصدراً للقوانين ، الأصالة فى بناء منهج تربوى تعليمى أصيل مستمد من روح هذه الأمة وعقيدتها .

ويقول الأستاذ (محى الدين القابسى) نحن نخوض صراعا تاريخياً بكل ما فى الكلمة من معنى تآلفت فيه قوى شريرة من بقاع عديدة من العالم وتمثلت ، وتآمرات كثيرة على الاسلام والمسلمين فى بؤرة هذا الصراع وخلاصته فى التآمر الصهيونى الشيوعى الاستعمارى المكشوف على فلسطين .
وأضيف : وعلى العرب والمسلمين جميعاً وأقول : لقد تكشف لنا فيما تكشف فى السنوات الأخيرة فى حقائق تمحو زيف تلك المسلمات الباطلة التى ظللنا نعيش فى أسرها مخدوعين . وأهمها تلك الحقيقة التى قالها الشهيد فيصل (شهيد الاسلام وفلسطين والوحدة الاسلامية) :

(إن الشيوعية وليدة الصهيونية)

وتلك — كلمة حق — خفيت على الكثيرين فى تلك العظات التى أعلنها فيه هذا الزعيم الكبير ، ولقد كان لإعلانها أثر عميق ، وسيؤرخ بها يوماً لمرحلة جديدة فى تاريخ الأمة الاسلامية .

(احتواء اليهودية العالمية للتبشير المسيحى)

وهذه ظاهرة جديرة بالانتباه : هو مقدرة اليهودية العالمية على احتواء التبشير المسيحى الذى تقوم به الكنيستان الكاثوليكية والبروتستانتية ، وقد صدر أخيراً كتاب ضخم فى حوالى ستمائة صفحة عن تاريخ الارساليات التبشيرية ودورها فى العالم الاسلامى لمؤلفه (ستيفن نيل) والكتاب يحتوى على حقائق خطيرة واعترافات جريئة عن الدور الذى تقوم به الارساليات التبشيرية فى أفريقيا خاصة وأن مؤلفه نفسه قد مارس التبشير .

أولا : تدخل المبشرين فى الحركات السياسية والانفصالية فى جنوب السودان .
ودعمها بالمال والسلاح وتحريض أبناء الجنوب الوثنيين على الثورة وتقتيل أبناء الشمال .

ثانياً : خطر العمامة البيضاء في أفريقيا حتى وصفت بأنها أخطر من القنبلة الذرية .
ثالثاً : أشار إلى أخطار التبشير في أندونيسيا وباكستان وتوقفه في إيران ومصر .
رابعاً : أشار إلى مدى استفادة المبشرين من المعلومات المتوافرة التي جمعها عدد كبير من المستشرقين عن العالم الإسلامي .

خامساً : أشار إلى الخطة الجديدة المطروحة والتي ترمي إلى إقامة حوار مع المسلمين . وهي خطة كان قد بدأها بعض المستشرقين والمبشرين أمثال الدكتور لويس جارديه وألف فيها كتاباً خاصاً .
وتكاد تكشف مخططات الاستشراق والتبشير اليوم عن خلفية صهيونية وفكرة التوراة واضحة تدير هذه المخططات وتوجهها بما يوصف بأنه عملية تطويق من اليهودية التلمودية للمسيحية الغربية وتحريف لمفاهيمها وتحطيم اتجاهاتها ، ويجري هذا مع مخططات (البروتوكولات) .

وقد ظهر ذلك في موقف الكنيسة في أوروبا وأمريكا وتأييدها لإسرائيل ، وأشار إلى ذلك بعض الكتاب الغربيين حين قال : إن الكنيسة الغربية يهددها شبح الاتهام الصهيوني المستمر بأنها اضطهدت اليهود لمدة قرون في أوربا ، وأن هذه حقيقة تاريخية تعمل الصهيونية على أن تشكل منها عقدة ذنب لدى رجال الكنيسة الغربية .

هذا فضلا عن الجهد الصهيوني المتلاحق ، وكذلك الضغط المستمر على رجال الكنيسة الغربية للاعتراف بالتفاسير الدينية الكاذبة التي ترمي إلى القول بأن لليهود حقاً في الأرض الموعودة .

﴿ إعادة النظر في العهد القديم (التوراة) ﴾

وتجددت الدعوة إلى النظر في نصوص العهد القديم التي لا تتفق مع الحقائق العلمية والتاريخية ، وقد اكتشفت بعثة للآثار عثرت على جماجم سليمان في صحراء النقب منذ سنوات أن المصريين عاشوا في هذه المنطقة منذ ٢١٧١ عاماً ، وبناء على هذا صرح البروفسور بيتر روتنبرج كبير علماء الآثار أن هذا الكشف يعارض ويكذب ما جاء في العهد القديم مما يدعو إعادة النظر فيه .

ومن ناحية أخرى أعلن أن الحكومة الأردنية تسلمت مخطوطات أثرية ذكر أنها تتفق مع ماورد في التوراة حول تاريخ منطقة غور الأردن في القرن السابع قبل الميلاد ويؤكد بذلك تزييف اليهود للتوراة الأصلية . وكانت بعثة هولندية قد عثرت على هذه المخطوطات في أبريل ١٩٦٧ ، وقامت بإجراء الدراسات والبحوث عليها في هولندا طيلة السنوات الخمس الماضية ، وقد قام رئيس المنظمة الهولندية للأبحاث في لاهاي بتسليم المخطوطات إلى وزير السياحة والآثار الأردني الذي صرح بقوله :

إن المكتشفات تقوم ولأول مرة بتصحيح أخطاء التاريخ التي كانت تأتي على لسان الصهيونية . اهـ

والقول إن الصهيونية التلمودية قبل أن تعلن دعوتها في مؤتمر بال وقبل أن يكتب هرتزل كتابه عام ١٧٩٨ كانت هناك محاولة ضخمة لاحتواء التاريخ العالمي والإسلامي ودوائر المعارف والجامعات ومعاهد البحث كلها لتطعيمها بالفكرة اليهودية التلمودية الصهيونية التي تقوم على أساس - قصر الوعد الإلهي لإبراهيم عليه السلام - على إسحق ومن ثم على إسرائيل وحدها .. وأنه من ذلك جرت محاولات كثيفة منها :

أولا : إعلان خطة (السامية) على أساس إعلاء العنصر السامي واللغة السامية وهي خطة زائفة حاولت أن تنسب تاريخ العرب الذي أنشأه إبراهيم وإسماعيل إلى جد سابق لم يعرف عن طريق القرآن وإنما عرف عن طريق التوراة المكتوبة بيد أحبار اليهود .

ثانياً : محاولة إجراء حفريات أثرية هنا وهناك لتأمين هذه الدعوى ومع الأسف فإن هذه الحفريات أكدت وجود إسماعيل وأبنائه الإثنى عشر وقبائلهم المنبثة في المنطقة بين الشام ومصر وسيناء .

ثالثاً : خلق جو علمي زائف لتقديم معلومات غير صحيحة عن دور موهوم اليهود في الجزيرة العربية قبل الإسلام ودعوى باطلة بالقرابة بين العرب واليهود .

رابعاً : طبع الإنجيل مقدماً بالتوراة تحت إسم - الكتاب المقدس ونشر في العالم كله وترجمته إلى أكثر من سبعين لغة ، وذلك لاحتواء المسيحية في الاعتراف بما زعموه من وعد قاصر على إسرائيل مما يدرس الآن في الجامعات والمدارس في أوروبا والولايات المتحدة ويؤمن به البروتستانت في كل أنحاء العالم ويدافعون عنه مع تضارب العهد الجديد واختلافها وتناقضهما .

ولكن كل هذه الدعاوى المسمومة أخذت تنكشف وأن هذه الأقنعة الكاذبة أخذت تسقط واحدة بعد أخرى ، ومنها هذه الأخبار التي أوردناها وأخبار كثيرة كشف عنها رجال الحفريات والآثار .

(١٣)

لنتحرك من داخل قيمنا ومفاهيمنا

إن العالم الإسلامي يواجه أخطار استعمار معقدة يتحرك في أبعاد متعددة ، فهو استعمار تباشره مختلف دول العالم ومن ورائها مختلف مذاهبها السياسية والاجتماعية ، وهو استعمار سياسي وعسكري وفكري ، ثم هو استعمار استيطاني في بعض المراكز الحساسة مثل : فلسطين وأريتريا والخليج العربي .

وفي مقدمة صور الاستعمار : الامبريالية الغربية . والصهيونية العالمية ، والشيوعية الملحدة ،

ويمر العالم الإسلامي منذ عام ١٩٤٨ بأزمة حقيقية هي أزمة إقامة إسرائيل في قلب الأرض العربية وتحدياتها وتوسعاتها خلال عشرين عاماً على نحو حقق لها السيطرة على القدس وبيت المقدس عام ١٩٦٧ وما تزال مطامعها تصور لها التطلع إلى ما بين النيل والفرات والامتداد إلى خيبر وغيرها في الجزيرة العربية .

ومن خلال هذا الموقع الخطير الذي سيطرت عليه إسرائيل ومن ورائها الاستعمار الغربي بالتنسيق مع القوى الأخرى العالمية المختلفة تواجه الأمة العربية أزمة خطيرة لا مثيل لها ، أزمة صراع فكري وسياسي وانقسام من نفوذ الدول الكبرى ، وخلاف في المناهج الاجتماعية وأنظمة الحكم ، وهي في الصورة المواجهة تبدو متحدة في مواجهة الخطر الصهيوني . ولكنها تختلف فيما وراءه من نفوذ الدول الكبرى ، وتختلف في أساليب المقاومة بين الحلول السياسية والحلول العسكرية . وقد بدت بعد نكسة ١٩٦٧ روح جديدة فيها كثير من الاتجاه نحو القوة والجهاد والاستعداد العسكري والتقدم الحربي ، ولكنها في داخل المجتمعات العربية تعاني نوعاً خطيراً من التحلل والانحراف وغلبة طوابع التكشف في أزياء المرأة وازدياد إشارات الطراوة في أزياء الرجال مع تربية السوالف . والإسراف في الانحراف نحو (الهيبية) والتقارب بين مظاهر الرجال إلى النساء بإطالة الشعور والتقارب بين مظاهر النساء إلى الرجال بملابس تجعل المرأة تبدو في هيئة الرجل .

إن هناك تقارباً بين فلسفات الاستعمار والسيطرة بين مختلف الدول ، وقد واجه العالم الإسلامي صورتها ممثلة في الاحتلال البريطاني والاحتلال الفرنسي وهو الاستعمار الأوروبي ، ثم جاءت بعد ذلك مرحلة النفوذ الأمريكي ثم النفوذ الشيوعي . ومن خلال ذلك تبدو صورة الاستعمار الصهيوني الذي يحمل فلسفة مختلفة ، حيث يقول الاستعمار الغربي أنه يرمي إلى دعم رسالة الرجل الأبيض في تمدين العوالم المختلفة ، ومسئوليته في ذلك تجد الاستعمار الصهيوني يقدم على فلسفة مختلفة تماماً . تحمل طابع الادعاء بميراث قديم ، ويحمل طابع أبوة الأساطير في العودة إلى أرض الميعاد ، ومن ناحية الشكل فقط كان اختلاف مناهج الفلسفة الاستعمارية بين بريطانيا وفرنسا . وبينهما وبين الاستعمار الأمريكي الذي لا يقدم على الاحتلال العسكري بقدر ما يقدم على الاحتلال الاقتصادي تجد الصهيونية العالمية تحمل أقصى مناهج الاستعمار وأسوأ أساليبه ، وهي فلسفة تقوم على أساس نسف جميع المدنيات والحضارات ، وإزالة الأديان السماوية ، واتخاذ إسرائيل نقطة لتحقيق الامبراطورية اليهودية التي تجتاح الامبراطوريات وترث الأديان والحضارات وتحقق السيطرة العالمية هدفاً ومطمعاً للحضارة الغربية والدعوة الشيوعية والحركة الصهيونية ، كل منها يريد أن تكون له زعامة السيطرة العالمية ، وما زالت هذه القوى تتصارع عليها ، وترمي خطة الغزو كله (ويمثل الغزو الإسرائيلي الآن مطامعها وواجهتها ، ويحقق مطامعه في ورائها جميعاً) إلى عملية تحطيم ذاتية الأمة العربية ، وتقوم اليوم قوى فكرية كبيرة بهذه الدعوة بالإضافة إلى الغزو الاجتماعي المتمثل في تحطيم مقومات الأخلاق والأديان والقيم الأسرية والعلاقات بين الرجل والمرأة .

والغزو الفكري اليهودي هو القوة الفعالة لتمزيق النفس العربية والعقل العربي وإلى تحقيق الغزو الاجتماعي وفق فلسفة فكرية تقوم على ظهور التحلل والتحرر وإخراج الأمة العربية عن إطاراتها الأصيلة وقيمها الأساسية ، ودعاة الغزو يصرحون بذلك الآن دون مواربة ويصورون الموقف تصويراً زائفاً حين يدعون أن وسيلة التحرر من النفوذ الأجنبي إنما تمكن في أن تتغرب الأمة العربية تغرباً كاملاً وتخرج عن مقوماتها الاجتماعية والدين والأخلاق وتندمج اندماجاً كاملاً في فكر الغرب وقيمه عندئذ ينتهي الصراع بين الاستعمار وبين الأمة العربية بالاستسلام والذوبان والاحتواء، وذلك ما يريده أصحاب النفوذ الاستعماري .

أما المقاومة والمواجهة ، والدعوة الدائمة إلى المحافظة على المقومات الأساسية للأمة العربية لتعرف ذاتيتها وتتحرك من داخل وجودها ، وتفكر من خلال مفاهيمها ، فإن هذا هو الخطر الذي يقاومه النفوذ الاستعماري ويقاومه بشدة ، وهذا الاستمساك بالقيم والمقومات الأصيلة هو ما يوصف بالأيدلوجية الغيبية ويتهم بالأسلوب الخرافي أو المشرقي إلى غير ذلك من اتهامات مضللة لا أساس لها من حق أو صدق !

إن مطالب دعاة التغريب أن ننطلق من داخل فكر الغرب ، وأن نخرج من قيمنا وأن نستسلم استسلاماً كاملاً لمناهجه وفلسفاته ، وهذا أمر من الاستحالة أن يحدث لأسباب عديدة :

أولاً : لأن هذه المناهج الغربية لم تحقق للغرب نفسه ما يطمع إليه من بناء الأيدلوجية التي يجد فيها الاستقرار والطمأنينة ، سواء الطمأنينة الاجتماعية المعاشية أو الطمأنينة الروحية ، ومن العسير أن تخرج هذه الأمة من مناهجها إلى مناهج أمة أخرى لم تثبت في بيئتها أي صلاحية لها فكيف بالآخرين .

ثانياً : إن أمة لها عراقة الأمة العربية تاريخاً وقيماً ومنهج حياة ، من العسير أن تتخلى عن ذلك كله في ظل تحديات نكسة من النكسات العابرة في طريقها الطويل الضخم .

ثالثاً : إن الدعوة إلى علمنة الذات العربية بإخراج الجيل الجديد من إطارات الدين دعوة مدمرة لكيان الأمة وشخصيتها ، وإن يتم ذلك إلا تحت الضغط ، ولكنه سيكون معارضاً لطبيعة الأشياء مضاداً لسنن التطور ، مخالفاً لأعمق أعماق هذه الأمة في مزاجها النفسي .

ذلك لأن هذه الأمة قد تشكلت ، والدين يوجه سلوكها وحياتها ، الدين بمفهومه الإسلامي وليس بمفهومه الغربي ، أما العلم فهو ثمرة من ثمار الإسلام الذي دعا إلى البرهان في المعرفة وأعان على إبداع المنهج العلمي التجريبي . وليست الدعوة إلى العلم بمفهوم الإسلام إلا دعوة الحق في التحرر من أخطار الاحتواء ، ولكن الدعوة إلى العلم بمفهوم التغريب هي دعوة إلى إسباغ مفهوم العلم على الفلسفات ، وهي محاولة مضللة ، فليس العلم هو الفلسفة وليست الفلسفة هي العلم أبداً .

العلم هو ثمرة التجربة العلمية المحسوسة ، أما الفلسفة فهى النظريات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وهى ليست علما لأنها قابلة الخطأ والصواب والفكر المتصل بالإنسان ومجتمعه والعقيدة ومعاشه لا يمكن إخضاعه لمقاييس العلم لأنه يتصل بالنفس الإنسانية التى تختلف فى كل شىء وكل عصر والتى لا يمكن أن تقاس بالمقاييس أو تكشف عن طريق الانابيب .

رابعاً : إن أى أمة لن تستطيع أن تنتصر بعد هزيمة أو تخرج من نكبة بخروجها من ذاتيتها وقيمها . بل على العكس من ذلك ، فإن أى هزيمة أو نكبة تحيق بأمة ما ، فإنما يكون مصدرها هو تخلف هذه الأمة عن ذاتيتها والخروج عن مقومات فكرها ، وان يكون نصراً واستعادة لوجود إلا من خلال إعلاء هذه القيم واتخاذها أساساً لحركة المواجهة والمقاومة .

ولقد جربت الأمة العربية ذلك من قبل ، وتاريخها حافل بمواقف الانتكاس والعودة . وأمامها صورة واضحة صريحة لتجربة سابقة على نفس الأرض وبمعالم مشابهة هى تجربة الغزو الصليبى الذى كان يحمل منهجا أيدلوجيا فلسفيا يقول بأنه إنما يريد أن يحرر قبر المسيح ، واليوم يحمل الغزو مفهوما أيدلوجياً فلسفيا يقول بأنه إنما يريد أن يحرر هيكل سليمان ، فالصورة واضحة هى غزو الامة العربية من وراء ادعاء فكرى تاريخى خادع ، ولكنه غزو لإخراج هذه الأمة من وجودها وإسلامها إلى السيطرة الكاملة والذوبان فى أتون عالم الغرب .

إن مصدر هزيمة ١٩٦٧ هو نفس مصدر هزيمة ١٩٤٩ - إن اليقظة التى أنتجتها الصدمة لم تحرر النفس العربية تحرراً كاملا من التبعية الفكرية والاجتماعية للغرب ، ذلك أن الغرب حين أمسك الأمة العربية فى دائرة التغريب وسجنها فى فكره ، وجعلها تتحرك من داخل مفاهيمه قد حال بينها وبين أن تواجه الخطر مواجهة صحيحة واقعية . وحيث استطاع العدو الصهيونى أن ينمو من خلال التزامه مقومات فكره ودينه عجزت الأمة العربية المحبوسة فى سجن الفكر الغربى أن تتحرك إلا وفق قوالب الغرب المضللة ، فلا ترى حقيقة أمرها ولا تستمد من فكرها الأصيل الاستجابة الحقيقية لأزمتها .

إن على الأمة التى تسقط فى أزمة ضخمة مثل أزمة الوطن العربى بالسيطرة الصهيونية والاستعمارية أن تجد قدرتها على الخروج من قوالب الغرب وسجون فكره إلى أصالة فكرها ، وتلتمس الحلول الحقيقية من جوهر قيمها وثمرات ذاتيتها ، وأن تستمع إلى صوت الأصالة الداخلى العميق وتنصرف عن الصوت الغريب التى مهما بدا ناصحاً وناعماً فهو يخفى الحقد والغل والتعصب (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) آل عمران ١١٨ .

وليس ذلك إلا معنى التضليل فى التوجيه (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) الأنعام ١١٦ . فليس على الأمم فى الأزمات إلا أن تبحث فى أعماقها ، وتستمع إلى داخلها إلى صوت

الفطرة، صوت الحق القادم من أعماق الذاتية ومن أعماق المزاج النفسي الاجتماعي العميق الجذور.
وإذا كان التخلف عن العلم هو مصدر الهزيمة، فإن فكرنا لا يدفعنا إلى شيء كما يدفعنا إلى العلم، ولكنه ليس كعلم الغرب له مظهره، ولكن له طابع إسلامي أصيل يتجه إلى الحق ويبعد عن الظلم.
لقد دعانا ديننا إلى الحيطة والحرص والوقوف على الحدود، وأن نأخذ حذرنا، وأن نستعين بالقوة وأن نعدها.

١ — (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) النساء ١٠٢.

٢ — (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الأنفال ٦٠.

فلنلتمس أصولنا وقيمنا من ديننا، فهو الضوء الكاشف والمصدر الأول والأخير لكل أمر واتجاه صحيح: (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما). النساء ١٧٤، ١٧٥

(١٤)

التماس المنابع والحفاظ على الأصالة

يقول الصحابي الجليل (حذيفة بن اليمان): «كان الناس يسألون عن الخير وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أقع فيه» وما أحرانا اليوم أن نتبع منهج الصحابي حذيفة عن الكشف عن الشر في مجال ما يعرض علينا من مذاهب ومناهج وأفكار خاصة فيما تحمله لنا الدعوات الهدامة التي تحمل لوائها الصهيونية والاستعمار والغزو الفكري داعية إيانا إلى الانفصال عن الأصالة عن الماضي وعن التراث.
وحيث تجيء هذه الدعوة مغلفة بإطار يحاول أن يجعل الماضي هو التأخر والتخلف والجمود بينما الماضي لا يمكن الحكم عليه في كلمة واحدة، ولا التراث يمكن أن يوصف كله بالجمود. وليس كل الماضي تخلفاً، وليس كل الجديد تقدماً، وليست هناك أمة تؤمن بكيانها وقيمها وعزتها تستطيع أن تتجاوز ماضيها، وتضع بينها وبينه الحواجز والسدود.

إن كلمتي الماضي والتراث وإنما يراد بها أن تشمل كل ما لدى المسلمين اليوم من ميراث عقائدي وفكري واجتماعي. ولذلك فنحن نتحفظ إزاءهما. فإذا ما فصلنا دعوة الإسلام وقرآنه، وما يتصل بالتوحيد وبالوحي وبالنبوة والتشريع والأخلاق. إذا ما فصلنا هذا عن الماضي والتراث باعتبارها أصولاً ثابتة لا تقبل الحكم فيها أو عليها، لأنها من عند الله، فإن الأمر يمكن أن يوضع موضع النظر والنقد والمراجعة، غير أن الحاملين على التراث والماضي إنما يستهدفون أساساً هذه الأصول التي جاءت بها دعوة الإسلام من عند الله ليدخلوها في إطار ما يجوز مواجهته بالنقد أو الانتقاص.
أما إذا انحصر الحديث في تاريخ المسلمين وأعمالهم ومواقفهم من شريعة الله فإن هذا العمل البشري قابل للنظر والمراجعة.

لقد قدم الاسلام وحى السماء إلى البشرية منهجاً كاملا صالحا لكل زمان ومكان جامعاً بين العبادة والمعاملة ، شرعة لحياة الفرد والجماعة ذات إطار واسع وأصول عامة وضوابط ثابتة وحدود قائمة ، فهذا كله الذى جاء به النبى محمد ﷺ إلى الناس كافة وتضمنه القرآن كتاب الله الخالد الذى لا يأتيه الباطل ، وسنة رسول الحق ، فهذا ما لأحد من دعاة الفكر البشرى أن يصفه بأنه قديم وماض ومرحلة عابرة ، فإنما الدين دعامة الحياة وعروة الله الوثق القائمة بينه وبين الأمم والشعوب.

أما إذا جرى البحث حول أعمال المسلمين ومواقفهم وتطور فكرهم ومجتمعهم ، وكيف ساروا فأحسنوا تارة وأخطأوا تارة ، فذلك مجال البحث مفتوح ، ما قام على أصول البحث العلمى وبعيداً عن أهواء الباحثين وأوهام الدارسين. ونحن مع رسالة الله الحقة على طريق وتفسير تاريخنا الاسلامى واضح ، فإذا انحرفنا عن الطريق واجهتنا الأزمات والأخطار . فإذا عدنا إلى الطريق تحقق النصر فليس الماضى كله تخلفاً ، وفى هذا الماضى عبرة لنا نستضىء بها لنعرف كيف نواجه أزمات الحياة وأخطارها ، المنار الثابت هو الدين الحق ، والصورة التى جرت على مدار الأيام خلال هذه القرون الاربع عشر هى العبرة وهى التطبيق ، وليس أصدق دعوة توجه إلى المسلمين اليوم من دعوتهم إلى القاس « المنابع » والحفاظ على « الأصالة » وإن أول أهداف القاس المنابع أن نعرف منطلقنا والخيط الذى نرابط به ، والضوء الذى يهدى على الطريق . فإذا فقدنا ذلك كاننا ان ندم متاهة ليس فيها إلا الدمار ، وإن أول أهداف الحفاظ على الأصالة، إنما هو التحرر من دائرة التبعية والتقليد والاحتواء والولاء لغير مفهوم التوحيد الأصيل.

ولا ريب أن المحاولة كلها منذ بدأ عصر الغزو الفكرى والتغريب على يد الاستعمار والصهيونية إنما كانت تستهدف أمراً واحداً هو « ذوبان الشخصية » فقد جاءت كل الشبهات المطروحة من أجل تحقيق هذا الهدف ، من أجل احتواء هذه الأمة فى بوتقة العالمية حتى تفقد طابعنا الأصيل وروحنا الحق ، وذلك هو الخطر الماثل والأمر القائم الذى لا يغفل عنه مسلم ولا ينام ، لقد استمات المسلمون أحقابا دون أن يتحقق هدف عدوهم فيهم ، ولم يحرصوا على شىء قدر حرصهم على أن لا تذوب شخصيتهم ذات الطابع الخاص ، الربانى المصدر ، الانسانى المظهر فى الأمم لأنهم إنما جاءوا ليقيموا هذه الشخصية فى الأرض ويثبتوا دعائمها (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) جاءوا ليكونوا كالشامة البيضاء فى الناس كما عبر الأثر الشريف ، ولقد استطاع الفكر الاسلامى فى القرنين الرابع والخامس الهجريين أن يحطم قيد الاحتواء الاغريقى، وأن ينتصر عليه بفضل الحذر واليقظة ومواجهة خطر الاحتواء والاذابة . ولقد التقى الأمم فى مجالات العلم والمعرفة العامة ، ولكنهم فى مجال الثقافات والعقائد يتميزون ويبرز ذاتية كل منهم.

ولقد تتبادل الثقافات خبراتها وأساليبها ، ولكنها لا تمتزج ولا تنصهر فى صورة واحدة ، وستبقى الثقافة العربية الاسلامية طابعها وذاتيتها الخاصة .

ولم يحذر الإسلام من شيء قدر تحذيره من التبعية والتقليد، وإن يحول الإصرار على ثوابت الشخصية بيننا وبين تلقي أحدث معطيات العلم والفكر والمعرفة واستيعابها والترقي بهما في مختلف مجالات النهضة والحضارة والتقدم ما دمنا نعتبر أن كل وسائل التطور هي بمثابة مواد خام، تجرى عليها عملية سبك وتحويل وانصهار في داخل إطار فكرنا وقيمنا.

والمسلمون يفهمون التقدم جامعاً بين التقدم المادي والتقدم المعنوي، وليس تقدماً ماديا خالصا، وإن علينا أن ننقل مفاتيح العلم والتكنولوجيا إلى لغتنا العربية فنقيم بناءاً فكرياً أصيل المنهج، والمسلمون لا يرفضون الجديد، ولكن يقيسونه بحاجتهم وبأخلاقياتهم ويقبلون منه ما يزيدهم قوة بحيث لا تكون المعاصرة أو التفتح على حساب الركائز الأساسية أو القيمة الأصيلة.

والمسلمون يفرقون بين نقل العلوم والتجريبية ونقل الفكر البشري، أن العلم في إطار الفكر العربي الاسلامي له منطلق واسع، فهو الذي فتح أفق العلم التجريبي للبشرية كلها، وهو الذي أعطى الانسانية معنى الكون والطبيعة وعالم الغيب وما وراء المادة، ومنه انطلق المسلمون ليقيموا المنهج العلمي التجريبي وكان اليونان لا يعرفونه.

ونحن نريد أن نذكر أنفسنا دائماً بأننا أمة ذات حضارة متميزة، وذات أصول فكر لها طابعها الخاص، وقد دعينا إلى المحافظة على ذاتيتنا، ونحن نعرف أن هذه الذاتية الآن هدف من أهداف الغزو الاستعماري الصهيوني والايدلوجية التلمودية المستترة وراء عديد من المذاهب والدعوات ولذلك فنحن نفهم الأصالة على أنها الربط بين الماضي والحاضر على قاعدة الأساس، فهو تفتح قادر على التمييز فيما يقدم له فيأخذ منه ويدع ويضيف إلى ذاته ما يزيدها قوة.

ولقد عمل الإسلام على تحرير أتباعه من التأثير الأجنبي الذي يخرجهم عن طبيعتهم وأصالتهم، ودعا إلى الحذر من الدعوات التي تدعو إليها الصهيونية والاستعمار من أجل القضاء على الذات والهوية وتغيير المعالم الأصلية لعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم ومزاجهم النفسي.

إن هناك حرباً نفسية تعمل على تشكيك أمتنا في وجودها، رغبة في تدمير صمودها ومقاومتها تمهيداً لتدمير وجودها نفسه.

إن لنا عدواً خطيراً لا يتوقف عن إلقاء السموم والشبهات المفروضة علينا، فعلينا أن نتحصن منه بالتماس المنابع والحفاظ على الأصالة.

(١٠)

انطلاق الاسلام من تحت مدافع الغرب

كان الوعى الإسلامى واضحاً فى لقاء قرطبة وفى كل اللقاءات التى عقدت فى الفترة الأخيرة من أجل العمل على إقامة جبهة فى وجه الإلحاد والمادية من أصحاب الأديان ولا ريب فى أن هذه الدعوة قديمة، كانت قد أثيرت على فترات متعددة، من خلال أحاديث كثيرة جرت مع الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى وغيرهم.

وكان أبرز ما ابه إليه المسلمون هو أنه لكى تقوم جبهة متحدة من أصحاب الأديان السماوية: (الإسلام والمسيحية) فإن الأمر يتطلب أولا: التوقف التام من أعمال التبشير الذى تقوم بها منظمات لها ارتباط واضح وعميق بالاستعمار الغربى، وبخاصة فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا، وأنه بدون توقف هـــذا العمل فإنه لا سبيل إلى قيام أى أساس للالتقاء على مقاومة المادية والإلحاد. ولقد كان أبرز ملامح لقاء قرطبة، تلك الكلمة التى ألقاها الدكتور عبد الجليل التميمى المؤرخ التونسى عن دور التبشير المسيحى فى شمال أفريقية، وظاهرة قيام رجال الدين المسيحى باسم المسيحية للعمل على تثبيت أقدام الاستعمار فى كثير من بقاع العالم الثالث، وقد ضاق الكثيرون من الدعاة للمؤتمر بهذه الكلمة، وحاولوا مقاطعتها، ولكن صلابة الدكتور عبد الجليل التميمى وإيمانه كانا عاملين هامين فى أن يوضع ما طرحه من فكر موضع النظر..

ذلك أنه إذا كانت الدعوة المنبعث من الغرب المسيحى إلى عالم الإسلام للحوار حول مواجهة المادية والإلحاد والدعوات الهدامة فإن آكد الوسائل لإمكان قيام هذا الحوار هو إعلان البابوية توقيف أعمال التبشير التى هى فى ذاتها معارضة واضحة لما يحاوله البعض تقديمه الآن من تعبيرات عن عظمة الإسلام. وأنه لا يمكن الاسلام أن يكون قادرا على العمل فى حقل جامعى لمقاومة الإلحاد والمادية إلا إذا كانت الأطراف كلها معترفة بوجوده وقدراته متوقفة تماما عن الحملة عليه ومعارضته عن طريق المؤسسات الداعية إلى معارضة الإسلام والانتقاص منه فى نظر أهله، بل وهى التى تحمل لواء حربه حرباً تربوية وتعليمية بما تفرض من مناهج فى معاهد وجامعات التبشير الكبرى.

وقد أشار الدكتور التميمى إلى مدى الخطر الذى لحق بالمغرب: (تونس والجزائر ومراكش) نتيجة التبشير الذى قامت به المسيحية فى إطار احتواء هذه البلاد الاسلامية استعماريا عن طريق تغيير عقيدتها وفكرها، ومما قاله فى هذا الصدد:

« إن النشاط لافيجرى التبشيرى بعد الاحتلال الفرنسى للبلاد قد مكنه من تحقيق ما عجزت عنه

السلطة السياسية والعسكرية فى تركيز التأثير الفرنسى ودعم مركز فرنسا ونشر الحضارة الغربية المسيحية عن طريق اللغة الفرنسية وكسب ثقة وعطف الطبقة المتميزة ، وكذلك خدمة مشاعر العوام وأحاسيسها بفعل المساعدات ، .

وهـذا يعنى أن التبشير قد اتخذ وسيلة لتركيز الاستعمار الفرنسى فى هذه المناطق . . وهذا هو ما حدث فعلا فى المناطق التى احتلتها انجلترا (مصر والسودان والعراق والهند) وما احتلتها هولندا (الملايو وأندونيسيا) وهكذا بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إن هذه التبعية وهذا الخضوع للتغريب والغزو الثقافى الواضح فى مجالات المدرسة والصحافة والثقافة فى العالم الإسـلامى كله إنما جاء نتيجة التبشير والإرساليات التى استخدمت نتاج (مؤسسة الاستشراق) التى كانت ذات جناحين : جناح مرتبط بالكنيسة ، وجناح مرتبط بوزارات الاستعمار فى دول الغرب . وخير نموذج فى مجال الاستشراق (ماسنيون) الذى جمع بين الجانبين .

ونحن نعرف أن التبشير منذ عام ١٩٣٠ م تقريباً (وبعد مرحلة طويلة بدأت عام ١٩٣٠ م فى الجزائر ، وامتدت إلى الدولة العثمانية والهند وجنوب شرق آسيا ، قد غير جلده فى هذه المرحلة - بعد مراجعة كاملة لأهدافه - واختار أسلوب التخفى وراء المناهج الدراسية والجامعية والثقافية ،

وبذلك حاول أن يزيل الصورة القاسية التى كانت تتمثل فى العمل الصريح المكشوف وأن أبلغ صور التحصين التبشيرى الآن . إنما تتمثل فى التعليم والثقافة ، وهى فى صميمها مناهج تبشيرية وضعت فى أسلوب عصرى .

ويعرف المراقبون أن الاستعمار الفرنسى قبل خروجه من الجزائر (فى السنوات الأخيرة أنشأ فى الجزائر من المعاهد والمدارس ضعف ما أنشأه خلال فترة استعماره كلها) وإن كانت حركة التعريب والتحرر من نفوذ الفكر الغربى فى الجزائر قد قضت على أغلب هذا الخطر . ومن هنا فقد كانت كلمة الجزائر التى أعدت بتوجيه الأستاذ (مولود قاسم) كانت غاية فى القوة والسداد . فقد أعلن عبد الجليل التميمى فى كلمته وأكد (أن حركة التبشير لا تزال متواصلة عبر العالم الإسلامى ومنها الجزائر . وأنها تركز بصفة خاصـة على الشباب فى المـدارس وطرق الأبواب أحياناً فى المدن والريف بالمناشير والرسائل) .

وأعلن المتكلم أن معه مجموعة من الوثائق المثبتة لهذا : آتية من أسبانيا ومن بيروت ومن روما وفرنسا وغير ذلك . وقال إن كثيراً من البلدان الإسلامية طلبت من الجزائر التدخل لدى المنظمات المسيحية لإيقاف هذه الحركة . وذلك لأن الجزائر شخصية دينية ممتازة تمثل البابوية ، وأن كثيراً من البلدان العربية طلبت التدخل لوقف النشاط التبشيرى وقال : إنه بودنا أن يزول هذا التنافس بين

الأديان وعمل التعاون فى ميدان مواجهة الانحلال والإلحاد ، وأن من شأن الأزمة الدينية فى الغرب أن توجه التبشير نحو هذه المجتمعات التى تعانى من الانهيار الدينى والخلقى ، وأنه من المتعذر قيام أى حوار بين أتباع الديانتين إذا بقيت لدى طرف من الأطراف الرغبة فى فرض معتقده على الآخر .

ولا ريب أن فى لقاء قرطبة كانت له جوانب أخرى لم يكشفها البحث ، فهى إن كانت قد حققت إقامة الصلاة الإسلامية الجامعة فى نفس المكان الذى خرج منه المسلمون فى عام ١٤٩٢ فى ١٥ سبتمبر ١٩٧٤ فإنه علامة على حقائق كثيرة . فقد جاء فى الوقت الذى تجدد فيه إسم العرب وهم يصلون مرة أخرى إلى مكانهم المرموق فى العالم كله ، ويسيطرون على : الطاقة والثروة والتفوق البشرى . ويسعون إلى امتلاك التكنولوجيا .

ويجرى فى كل مكان فى العالم الآن دراسة اللغة العربية وتاريخ العرب والإسلام من جديد فى هذا الضوء لمعرفة إلى أى مدى سيكون العرب أقدر عليه بعد جيل من الزمان . وبخاصة منذ أوائل القرن الخامس عشر الهجرى الذى يبدأ بعد سنوات بعام (١٤٠٠) الهجرى مباشرة .

وقد جاءت هذه المحاولة ومحاولات أخرى تحت إسم الحوار جرت فى بعض العواصم العربية تحت تأثير الصيحات التى ترتفع الآن فى الغرب ، مطالبة بأن ينظر فى شأن النظام الإسلامى ، وهل فى استطاعته أن يعطى أمن النفوس وسلامة المجتمع ، وذلك بعد أن أخفقت تجارب الغرب جميعاً فى خلال أكثر من أربعمائة عام بين ديمقراطية وماركسية وفرويدية وليبرالية ووجودية ، ولم تحقق لهم إلا القلق والأزمة .

ومن هنا فإن خطراً خطيراً يواجه هذا التيار ويحاول أن يفسد اتصاله بالإسلام ، وذلك هو ما تحاوله الصهيونية العالمية ، حين تتخذ بعض رجال الكنيسة وسيلة إليه ، وذلك بالقول الذى يتردد الآن من أنه ليس بين المسيحية والإسلام من فوارق كبيرة ، وأن الخلافات التى بينهما هى خلافات أكاديمية ، كما أعلن ذلك غير واحد من المنسوبين إلى العمل الإسلامى . ومعنى هذا القول حين يتردد فى آذان أصحاب الدعوة إلى اكتشاف الإسلام فى الغرب ، معنى هذا أن الإسلام والمسيحية سواء . بخاصة وأن الإسلام يعترف بالمسيحية .

ومن هنا فإن علينا أن نبين موقفنا بوضوح إزاء ذلك فنقول : إن أديان السماء كلها ، هى فى الأصل دين واحد ، وأن الإسلام إنما جاء ليضم رسالة السماء كلها فى منهج عالمى خالد ، وأن كل دعوة سبقت الإسلام إنما حملت فى أطوائها الإيمان بالإسلام وبمحمد ﷺ متى بلغها دعوته ، ولكن أصحاب الأديان حرفوا وبدلوا ، وأزالوا هذا الارتباط ، ومن ثم فإن اعتراف الإسلام بالمسيحية إنما هو اعتراف برسالتها السماوية الأساسية ، وليس بوضعها الذى وصلت إليه بعد التحريف والتغيير الذى أدخل عليها . وبخاصة فى أمور ثلاثة كبرى هى : التثليث والصلب والخطيئة .. والإسلام منها براء .

ومن هنا فإن الخلاف بين الإسلام والمسيحية ليس أكاديمياً كما يدعى المدعون ، ولكنه عميق ، وفى الأصول الأساسية . غير أن هذا الخلاف لا يمنع من أن تتوقف أعمال التبشير ، وأن تعترف المسيحية للإسلام بنهجه الربانى . ولا ريب فى أن البشرية لن تجد أمامها سبيلاً صادقاً إلا حين تعرف الإسلام ، وأن كل المحاولات التى ترمى إلى صدها عنه أو حجبه عنها أو تزييفه لديها سوف تسقط ، وسيتمكن الإسلام من إعلان جوهره وحقيقته كمنهج أوحد فريد للبشرية لا سبيل إلى تحقيق سعادتها الاجتماعية العامة والنفسية الفردية إلا به وسوف تسقط كل محاولات الصهيونية فى الصد عنه .

وإذا كانت أسبانيا اليوم تفتح صدرها للعرب ، فإنها إنما تحاول أن تصحح تاريخها الذى زيفته عوامل كثيرة ، ومحاولة عزلها عن مرحلة (ثمانية قرون) من أزهى صفحات تاريخها وتاريخ الغرب كله ، وهى المرحلة التى اتصل فيها الإسلام بالغرب عن طريق الأندلس وترك أعظم أمانات البشرية ، وهى المنهج العلمى التجريبى الذى هو أساس الحضارة الحديثة . ولقد أشار الباحثون والعلماء إلى مدى الأثر الذى تركته معركة (بلاط الشهداء) التى توقف بها الامتداد الإسلامى فى أوربا عند (تور وبواتيه) وكيف أنها فى تقدير جمهرة المفكرين والمؤرخين قد أخرت الحضارة الغربية سبعة قرون .

وعندما نقرأ ما كتبه (فيرناندو دى لاورى) وزميله فى إحدى الدراسات الأسبانية عن علاقة العرب بالأندلس نرى مفهوماً جديداً مغايراً لما كان عليه الموقف منذ سنوات بعيدة . يقول : « لقد ارتبطت أسبانيا بالعرب خلال ثمانيـــة قرون بالثقافة وللمصالح الاقتصادية والاجتماعية ، وأتاح التسامح الإسلامى طيلة ذلك العهد الذى بدأ عام ٧١١ م إلى أن يشعر سكان شبه الجزيرة التى فتحت أراضيهم بانجذاب نحو العربى الذى دخل إلى أسبانيا عبر الأندلس ، ولم تكن حرب استعادة السيادة قط حرباً ضد العرب ، ولكنها كانت صراعاً من أجل الإدماج .

أما (اللاتسامح) الذى أبداه نحن أمام محاكم التفتيش فهو الذى أقام التمييز بين المسلمين والمسيحيين ودفع العربى الذى كان قد أعطى علمه وثقافته ثمن ذلك بأن طرد من وطنه دون أن ينتبه أحد إلى أن (أبا عبد الله) آخر ملوك بنى الأحمر كان أسبانياً مثل (فرناندو) ملك الأراجون (وجاءت القرون التالية لتفصل بين العرب والأسبان فاتحة هوة سحيقة امتدت أربعة قرون ، وفى تلك الأثناء لم تبق فى أسبانيا إلا بعض الآثار الثقافية والعلمية سرعان ما أجهزت عليها عوامل الأزمنة الحديثة فى دولة أسبانية وجهها إلى ما وراء البرانس ، وأدبرت عن شمال أفريقيا . وفى ذلك الوقت بدأ جهدنا نحو أوربا التى كانت تجهلنا أو على الأكثر كانت تعتبرنا ساحة لممارسة النفوذ أو إقامة أفراد أجانب يشغلون عرش أسبانيا ، وخلال ذلك أصبح العرب والقشتاليون - لا نقول أعداء - بل مجهول بعضهم بعضا ، وما هو ذا العالم العربى بدأ انبعاثه ، كما أن أسبانيا وجدت نفسها وعثر فى جذورها على أشياء كثيرة مشتركة مع العرب .

هذا هو التحول الجديد فى الموقف بين العرب والغرب ، يؤكد أن هناك تياراً جديداً يؤمن

(أولا) بأن العرب والمسلمين قدموا للغرب الكنوز العظيمة من العلوم والتآليف العلمية والطبية ، ووضعوا أساس المنهج العلمى التجريبى

(ثانياً) ويؤمن بأن العرب يملكون الآن المنهج الاجتماعى الوحيد الذى لم تجربه أوربا ولا الغرب ، والذى يحمل تجربة مختلفة

(ثالثاً) ويؤمن بأن العرب الآن يستعيدون قوتهم ومكانتهم من جديد ، ولا عجب فى أن يتصل أمرهم بالغرب من حيث امتلاكهم الطاقة والموارد الاقتصادية والتفوق البشرى ، وان يعجزوا عن امتلاك (التكنولوجيا) فى القريب .

ولقد كتب أحدهم منذ وقت بحثاً تحت عنوان : (العرب على أبواب مدريد) : وقد جاءت نبوءات كثيرات كثيرة تؤكد مقدرة المسلمين والعرب فى القريب بأن يقدموا فكرهم للغرب فيكونوا على أبواب أوربا . ولكنهم لن يكونوا دعاة استغلال أو سيادة ، فقد كانوا وسيظلون دائماً دعاة الحق ومبلغين رسالة الإسلام التى تجد أوربا والغرب كله حاجتها إليها وقد بدت بالغة وهامة .

(١٦)

وسقط جدار العلمانية الزائف

فى إبان النكسة ومن آثارها كتب أحد الصحفيين العرب المرموقين هـذه العبارة علامة على الطريق الذى وصل إلى نهايته منذ سيطر الاستعمار ، وجاءت فى أثره الصهيونية والماركسية لتشكل حلقة الحصار للأمة الإسلامية والفكر الإسلامى قال : « إن التغيير الذى أحدثته التكنولوجيا يجعل أقدس الكتب بمنزلة أوراق البردى القديمة ليس لها مكان إلا فى المتاحف » .

هـذه العبارة التى كتبت باللغة العربية لم تكن تمثل عقلا عربياً ، ولا قلباً عربياً ، وإنما كانت تمثل التبعية التامة والاحتواء الكامل لجماعة التغريب الذين شكلتهم مدارس الإرساليات ومؤسسات الاستشراق ومحافل الماسونية ليكونوا كتاب العصر وقادة الفكر ، وحملة ألوية التبعية والداعين إلى إسقاط العالم الإسلامى كله فى شبكة الاحتواء العلمانية والأممية .

وإذا كان القائل يعنى بالكتب المقدسة ما عرفه الغرب فهو حر فى مقالته . أما إذا كان يعنى ما جاء به الأنبياء فهو مبطل لأن رسالات السماء قد استوعبت ما يمد التكنولوجيا عما يجيء به العلم ويعرفه خالق السموات حتى يرث الأرض ومن عليها . وما هو ذلك التغيير الذى أحدثته التكنولوجيا مما يتعارض مع رسالة السماء . إن ما كشفه العلم ليس إلا شيئاً قليلا من قشور العلم ، والعلماء أنفسهم

اعترفوا بأنهم يدورون حول (ظواهر العلم) ولا يفهمون إلا علامات يسيرة فى كون ملىء بالأسرار وأنهم قد عجزوا منذ وقت بعيد عن الإجابة عن السؤال : لماذا وكيف ؟ .

إن ما كشفت عنه التكنولوجيا فى العلم الحديث فى أعلى معطياته إنما يدل على سعة هذا الكون وعظمته وبالتالى يدل على عظمة خالقه وقدرته غير المحدودة . ودوام نمو هذا الكون واتساعه (وإنا لموسعون) . وهذه التلسكوبات الجبارة التى تحاول أن تصل إلى المجرات إنما تعطى مزيداً من التعريف بعظمة الخالق (١٥٠ مليون مجرة ، وفى كل مجرة ٥٠ مليون شمس كشمسنا هذه) هذا ما وصلت إليه البلورات وما وراءه أكثر وأكثر . وما أعطته التكنولوجيا عما تخرجه الأرض من النفط وذهب وفوسفات وكوبلت دليل على عطاء الله الذى لا ينفد ، والذى يكذب كل ما يدعيه أتباع المالثوسية من قلة الموارد ، ذلك أن الحقائق تثبت أن هناك (قانون الوفرة) عما يكشف ما بعد عنه من ثروات فى الجبال والبحار والصحارى .

وأن ما أحصاه مندل فى أول القرن من ثروات الأرض ورأى أنه لا يكفى البشرية قد تضاعف أكثر من ألف مرة ، كما تضاعف سكان الأرض ، وما يزال عطاء الله واسعاً لا ينفد .

وإذا كانت التكنولوجيا قد كشفت عن أعاجيب فى سرعة اتصال القارات البعيدة بوسائل الطيران وبسرعة الصوت ومضاعفاتها فذلك مما يزيد المؤمن إيماناً بعظمة الله تبارك وتعالى الذى أشار إلى ذلك فى كتابه المقدس (القرآن) الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . إن التكنولوجيا لا تتعارض مع الوحى الإلهى الذى جاء به فى كتاب الله الناطق ولا كتابه الصامت ، ولكن التعارض فى الحقيقة جاء مع الفلسفة المادية . إن العلماء التجريبيون الذين يعملون فى المعامل يقرون بخالق عظيم وقادر وراء هـــذا الكون يديره فى دقة وإحكام ، ويمسك السموات والأرض أن تزولا . ولكن الفلسفة المادية هى التى تعمى عن الحقائق ، وتحاول أن تأخذ من العلم قصوراً تفسد بها العقل البشرى والنفس البشرية وتردهما إلى حمأة الإلحاد وظلام الوثنيـة .

إن التكنولوجيا لن تستطيع أن تحدث تغييراً إلا فى الأشكال المادية . أما المعنويات فهى أعجز عن تغييرها ، فإنما النفس الإنسانية التى برأها خالقها جامعة بين الروح والمادة والغرائز والأشواق العليا لا تستطيع التكنولوجيا أن تغيرها ، ذلك لأن الأديان إنما جاءت لتجعل الإنسان قادراً على إخضاع كل معطيات العلم لوجهة الحق ليكون كل ذلك فى خدمة المجتمع الربانى القائم على الرحمة والإخاء والعدل والكرامة ، فإذا انحرفت المادية وغفلت عن جانبها المعنوى والروحى والإنسانى فإنها هى التى تسعى إلى تدمير نفسها .

ولما كانت التكنولوجيا هى آخر معطيات العلم فإن العلم نفسه مصدرها إنما جاء به الإسلام حين أعطى الناس مفاتيح نواميس الكون والحياة والمجتمعات وقوانينها . هذه التى تحققت بفضل العلماء المسلمين إلى ما أطلق عليه المنهج التجريبى استمداداً من الآيات القرآنية (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض)

وإذا كانت الحضارة الحديثة قد التقطت الخيط من الحضارة الاسلامية وسارت به في الطريق المعاكس أو المنحرف ، فإنها هي بذلك قد عارضت الوجهة الأصيلة : وجهة الفطرة التي فطر الله الناس عليها . ومن ثم فتلك أزمتها القاسية التي تمر بها الآن وهي تجرى بعيداً في التيه بعد أن أعلنت التطور المطلق ونسبية الأخلاق ومادية الحضارة ووثنية الفكر وإباحية المجتمعات .

لقد كانت هذه الكلمة واحدة من كلمات التغريب أريد بها أن يقال : إن العالم الاسلامي قد دخل فعلا في دائرة احتواء العلمانية والأممية ، وأنه خضع تماما للفلسفة المادية ، بين الاستعمارية العسكرية الماركسية الصهيونية ، وأنه قد أصبح لقمة سائغة في أيدى القوى التي صنعت بروتوكولات صهيون وأعلنت أنها سوف تسيطر على الفكر البشرى والأديان والأمم . ولكن لم يكن بين هذه الكلمات الملحدة الفاسدة وبين الصحوة إلا قليل ، فقد عرف المسلمون والعرب أخيراً أن هذا الطريق الذى سلكوه قد عجز أن يحقق لهم شيئا ، وأن الفكرة المسمومة التي ألقيت إليهم في أول الطريق بأن يحارب الاستعمار بأدواته ، لم تكن إلا خداعا وأن السبيل الحق للتحرر والقوة وامتلاك الإرادة ليست إلا شيئاً واحداً هو هذا المنهج الربانى الأصيل الذى اهتدى به المسلمون كلما ادلهمت أمامهم الأحداث وأظلمت الليالي ، ذلك هو منهجهم الوحيد . كتاب الله وطريقه ، وأن الحقيقة الوحيدة هي أن يأخذ المسلمون علوم الغرب وهي عالمية ليست ملكا لأمة بمفردها وأن يصهروها داخل نظامهم . عندئذ يجدون أنفسهم ويجدون طريقهم .

إن الإطار الذى يجب أن يتحرك فيه المسلمون والعرب هو منهج حياتهم الأصيل ومن خلاله يستطيعون استيعاب التكنولوجيا وعلوم العصر ، وهذا ما حدث تماما في منطلق طريق النصر الذى بدأه العرب في حرب رمضان إنهاء لمرحلة قاسية عنيفة بدأت بالاحتلال وانتهت بالنكسة ، ومرت البلاد خلالها بمؤامرة خطيرة أرادت أن تفرض عليها المنهج الغربي في المجتمع والفكر والثقافة احتواء لها ، وإخراجا من دائرة فكرها الاسلامى .

ومن يوم أن قبل العرب والمسلمون التبعية للفكر الغربي والأسلوب الغربي للحياة (سياسية واقتصادية واجتماعية) وقد توالت الهزائم والنكبات وسقط كثير من القلاع والحصون حتى وصل اليهود إلى القدس ، وأصبحوا قريبين جدا من دمشق وبغداد والقاهرة ومكة . فكان لابد أن تنكشف أمام النفس العربية والعقل العربي شرارة حدوة تردهم إلى الحق وإلى الطريق ، وبذلك سقطت تلك الشبهات والحرب النفسية التي أثيرت في وجه المسلمين والعرب بهدف احتوائهم ، ويكفى أن يقول كاتب أوربي كبير : « إن ما هو خطير في تدمير خط بارليف وحصون الجولان ليس تحرير جزء من الوطن العربي المحتل ، وإنما هو تدمير صورة ثابتة عن الإنسان العربى كانت راسخة عندنا .

لقد كشفت الحرب عن بسالة العربي وقدرته على استيعاب فنون الحرب الالكترونية وإحراز التقدم التكنولوجى بإبعاده من المعارف العلمية الأساسية والقدرة الإدارية العصرية . وهكذا عبر

المحارب العربى مسافة التخلف من معطيات التقدم العلمى التكنولوجى . وبين القدرة على استيعاب أبعاد هذا التقدم » .

وهكذا نجد أن التكنولوجيا قد سارت فى إطار « الله أكبر » وتحركت فى دائرة الإيمان بالله والثقة بنصره ، والاعتماد عليه وفسدت الفورة الوافدة . فقد خضعت التكنولوجيا لكتاب السماء وعملت خادمة له لأنها من عطائه . ولأنها فى وجهتها الصحيحة أداة من أدوات قيام الحق وسقوط الباطل وهزيمة المادية التى تحمل لواءها الصهيونية والاستعمار والماركسية مجتمعة . وقد اجتمعت فى مواجهة عالم الإسلام والعرب لتحتويه وتسيطر عليه وتقضى على كيانه المعنوى ووجوده الخاص وذاتيته .

إن كتاب الله هو صلة السماء بالأرض الباقية وحدها ، والقائمة منذ أن أرسل الله رسله إلى أن يطوى هذا الوجود . أما التكنولوجيا فهى مرحلة من مراحل العلم قد تستهلك ألف عام أو ألفى عام من عمر جديد يأتى بعدها من أسباب التقدم ما قد يفوقها قوة وأثراً ، ولكنه لا يستطيع أن يكون شيئاً إلى جوار كلمة الله العليا بالحق القائمة على النفس البشرية والتى يقهر الله بها عباده ما أبعد الفرق فى المقارنة بين « كتاب الله » وبين التكنولوجيا التى هى واحدة من عشرات الألوف من معطيات الله التى ذللها لعباده ليعرفوه بها وليعبدوه والقيام بها عليهم الحجة يوم ينصب الميزان .

(١٧)

لنواجه الفكر الوافد فى ضوء الإسلام

إن حقائق كثيرة ، ووثائق جديدة ، تكشف فى السنوات الأخيرة . لها أثر كبير على كثير من الآراء والنظريات والقضايا التى كانت تعد فى نظر الكثيرين من المسلمات فى مجال الفكر والثقافة والتاريخ ، مع أنها شبهات زائفة صيغت فى صورة لامعة براقة خادعة فبدت كأنها هى حقائق واستمر خداعها زمناً طويلاً وكان بعيد الأثر فى تحقيق أهداف التغريب والغزو الثقافى الرامية إلى انتقاص قيمنا ، وزلزلة الثقة بمفاهيمنا وعقائدنا .

ومن شأن هذه الحقائق أن تدعونا إلى إعادة النظر من جديد فى آفاق للفكر الإسلامى والثقافة العربية ، وموقفها من الفكر الوافد .

ومن أخطر ما تكشف فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية : تلك المخططات الاستعمارية الصهيونية الغربية الرامية إلى تدمير المجتمعات الإنسانية ، وخاصة المجتمع الإسلامى العربى عن طريق

طرح عديد من النظريات والمذاهب الوثنية والمادية المتصلة بالنفس الانسانية والأخلاق والعقائد والتاريخ واللغة ومقارنات الأديان والتربية .

وقد قصدت هذه المخططات إلى محاولة تغريب العرب والمسلمين وتفريغ الفكر الاسلامى العربى من مقوماته وقيمه وإذابته فى بوتقة الفكر العالمى الوثنى المادى والعمل على إسقاط الفكر الاسلامى والقيم الاسلامية ، وإخراج المسلمين والعرب من قيمهم ومقدراتهم وذوبانهم فى الأممية والعالمية .

وقد جرى ذلك عن طريق خلق دائرة براقة تحمل لواء ما يسمى بالحرية الفكرية والعصرية ، ثم عمدت هذه الدعوة إلى إعلاء شأن الماضى الفرعونى والإغريقى والجاهلى العربى وإحياء الأساطير وإعادة صياغة الوثنيات والفلسفات اليونانية والمجوسية والباطنية ، وإحياء عشتروت وزيوس وباخوس الخ .

ثم عمدت هذه الخطة إلى إخراج التاريخ الاسلامى وبطولاته من مفاهيمها العربية الاسلامية وذلك بالتشكيك فيها أو إخضاعها للمفهوم الماسونى الاغريقى الذى يختلف إختلافاً واضحاً مع مفهوم التوحيد الاسلامى

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل إن هذه الخطة شملت طرح نظريات خطيرة فى مجال العنصرية والأجناس ، وفى مجال الدين المقارن ، وفى مجال تزييف الأخلاق والقيم ومفاهيم الحضارة والتاريخ والأدب ، وجرى ذلك كله من خلال نقطة إنطلاق واحـــدة هى المادة التى ترفض الأديان والنبوات والرسالات السماوية ، وتدعو إلى بعث الوثنيات وأفكار الفوضوية والاباحية والإلحاد .

وقد وحدت هذا المخطط قوى كثيرة : هى الصهيونية والاستعمار والمادية وهى قوى كلها تجتمع على العمل لسحق المسلمين والعرب ، والسيطرة على مقدراتهم وثرواتهم ، والحيلولة بينهم وبين إمتلاك إرادتهم أو استعادة قوتهم وذاتيتهم ، وقد إنطلقت هذه القوى من نقطة واحدة هى :

إزالة شخصية (عالم العرب والاسلام) وتفريغ ذاتيته وإذابته فى الأممية العالمية ، واحتواء مفاهيمه وقيمه ، حتى يصبح تابعاً ليس من جهة مقدراته وثرواته فحسب ، بل من خلال وجوده وكيانه وشخصيته .

ولقد جرى تنفيذ هذا المخطط منذ وقت بعيد ، وشاركت فيه القوى الاســتعمارية والدولية والصهيونية ، واتخذت من التبشير ومعاهد الارساليات والمحافل الماسونية أداتها . فقد أتيت خريجوا هذه المعاهد والمحافل فسيطروا على بعض وسائل الصحافة والثقافة والمدرسة واتخذوا منها فى بعض

الأقطار أداة قادرة على تذويب فكر هذه الأمة وتزييف مضامينه وبث الفلسفة الماسونية المادية التى تستهدف تدمير القيم والأخلاق والأديان بطرح عشرات من الشبهات والأشواك والأخطار أمام المثقفين، وقد استطاعت سموم هذه الشبهات أن تسرى في النفوس والعقول - آنذاك - لأن الاستعمار قد أفسح لها الطريق حين حطم الحصانة النفسية والروحية التى كانت تحمى النفس العربية أو الإسلامية من الغزو - حين ألغى دراسة الإسلام والعربية والقرآن من مناهج التعليم المفروضة، والتى كانت جميعها أو أغلبها تدرس بلغة المستعمر الإنجليزية في مصر والسودان وفلسطين والعراق والفرنسية في المغرب كله وسوريا ولبنان.

لقد استطاعت قوى الاستعمار حين سيطرت على مناهج التعليم أن تفرغها من مفاهيم الإسلام الصحيحة، وأن تباعد بين الشباب المتعلم ومنهج القرآن الفكرى والتربوى والاجتماعى، ثم تحول اسم من مفهوم الإسلام إلى مفهوم لاهوتى قاصر لا يمثل عظمة الإسلام الجامع (ديناً ونظام مجتمع). ومن ثم دخلت إلى مفاهيم الإسلام زيوف كثيرة واختلطت بمفاهيم الوثنية والمادية والأديان الوضعية غير السماوية التى خرجت عن التوحيد والفطرة.

لقد كان الإسلام في ذاته يحمل من الأصالة ما يجعل فكره متميزاً عن فكر أى أمة أخرى: هذه الإصالة التى استمدها من وحى السماء ورسالة النبوة، وكلمات الله المنزلة.

ولقد كانت نقطة البدء في هذا المخطط كله كلمة واحدة هى: إخراج المسلمين والعرب عن مقومات فكرهم، هذه المقومات التى أمدتهم في كل أزمة ولا تزال وستظل تمدهم بالقوة والصلابة والصمود في وجه كل غزو، وإزاء كل قوة خارجية - وما دام المسلمون والعرب متمسكين بمقومات فكرهم التى استمدوها من القرآن أساساً، فإن أى قوة غازية أو سيطرة تعجز - كما عجزت مرات على طوال التاريخ الإسلامى - عن أن تقف في وجوههم، وأنهم إذا عادوا إلى مصادرهم ومنابعهم، فإنهم سيكونون قادرين على الصمود في وجه أعتى قوى الأرض ومواجهتها وسحقها.

ولذلك فإن العمل الخطير - في تقدير حركة التغريب - هو تزييف هذه المقومات وإشاعة الشبهات حولها، ومسخها وضربها بمفاهيم أخرى على سبيل خلق التشكك والريب، وكذلك إفساد المصادر نفسها بالإسرائيليات القديمة والجديدة، وإفساد القائمين على هذا الفكر بالتبعية والولاء والطموح إلى المناصب والثراء، وإفساد من تلق إليهم بتفريغ مناهجهم المدرسية من (روح الإسلام).

ومن ثم يصبح ما يبقى من مظاهر الإسلام كدين لاهوتى دون قيمة حقيقية ولا قدرة على التصحيح. ومن ثم فهى لن تحمى هذه النفوس والعقول من أهواء المغريات التى يطرحها بريق الحضارة تحت الأضواء وحول النار: نار الشهوات واللذات والمتع والمغريات مع سريان مذاهب الإباحة والإلحاد وتشبع الثقافات بها، وترويج القصص الجنسية لها ومن شأن وسائل الإغراء بالصورة المادية والكلمة

المكشوفة ، لن تقدم فى هذا المجال ما لا يدمر النفس العربية الإسلامية ولا العقل العربى الإسلامى فالا البحث عن قيم الأخلاق والإيمان والتوحيد ظناً منهم أنها ستذوب كلها تحت ضربات معاول الهدم الصارمة . ذلك هو لب المخطط الخطير الذى فرضته القوى الاستعمارية الصهيونية على عالم العرب والإسلام ، واستطاعت خلال خمسين عاماً أن تغرقها فيه إغراقاً فى الوقت الذى زحفت قوى الغزو الصهيونى واستطاعت فى غفلة مؤقتة أن تسيطر على فلسطين فالقدس .

وان أخطر مايواجه العرب والمسلمين اليوم أنهم قد يتحركون من داخل دائرة الفكر الذى فرضه عليهم النفوذ التغريبى الخطير ، ولذلك فإن أول علامات اليقظة والمقاومة هى التحرر من مقاييس التغريب ومذاهبه والمفاهيم التى حاول أن يفرضها - وهى زائفة أصلا - من أجل تدمير النفس العربية الإسلامية واحتواء العقل العربى الإسلامى .

إن أول علامات اليقظة أن نكشف هذا المخطط ، وأن نعيد النظر فى المفاهيم الخاطئة والمصطلحات المنحرفة والشبهات المطروحة . ذلك أن أصالة الذاتية العربية الإسلامية الجذور الصلبة المؤمنة تتمثل فى أنها لم تستسلم أبداً ، وأن هناك ضوءاً كاشفاً أخذ يدحض هذه الشبهات ، وهو ضوء قد امتد مع الزمن ولم يتوقف ولم ينقطع ، استيقظ قبل الغزو الاستعمارى ، ولا تزال الأحداث توقظه وتمده بالقدرة على المقاومة ، ولقد كانت النكسة ١٩٦٧ واحتلال القدس عاملا هاماً فى التفاته إلى الحقيقة التى ليس بعدها حق ، التفاته إلى المصادر الأصيلة لوجوده وكيانه وحياته ، فقد كشفت له الأحداث والتجارب أن بلسم جراحه وضياء روحه لن يكون إلا من داخله ، لن يصل إليه من مصدر آخر غير المصدر الأول الذى تشكل منه عندما بزغ ضوء الإسلام ، إن آية النصر ما زالت هى الاستمداد من المنابع الأصيلة ، وان أمة لن تستطيع أن تعود إلى الحياة ولا أن تصمد فى وجه الغزاة إلا إذا التمست الضياء من أعماقها من داخلها من كنزها المدخر ، الذى إن زهدت فيه حيناً وتطلعت إلى ما فى أيدى الآخرين ، فإنها قد آمنت أخيراً بعد الصدمات والتضحيات أنه لا سبيل أمامها إلا التماس المنابع الغنية والمصادر الثرية التى كونت الذاتية الإسلامية العربية وشكلتها أول مرة ووضعت لها من مقومات حياتها وقوتها وانبعاثها مرة أخرى كلما آلمت بها الأحداث وادلهمت حولها الخطوب .

إن المصدر الحقيقى هو القرآن ونقطة البدء هى التوحيد وفى هذا الضوء ننظر فى هذه الشبهات التى طرحها التغريب . ونعيد النظر فى هذه القضايا والنظريات ، ونحن نذكر هنا جيداً كيف قام كفاح المسلمين فلم يتوقف لتحرير الفكر الإسلامى من هيمنة الثقافة والعقلية التى سلطها عليهم الفرس واليونان والهنود ، كان إيمانهم بانبعاث شخصيتهم الإسلامية العربية ، والحيلولة دون أن تذوب وتتلاشى ، هو مصدر كل نصر وقوة وحياة .

هذا الخطر الذى يتشكل كل يوم فى صورة أو أخرى ، حمل لواءها الاستعمار والتبشير والاستشراق والصهيونية والتغريب والغزو الثقافى ، وحاولت انتهاز كل نكبة أو نكسة لتجدد دعوتها المسمومة التى

تحاول أن تلقى أمتنا فى تيه مظلم لا ضياء معه فهى تردد حين تدعونا إلى أن نتحرر من كل المقدسات والقيم، وأن نتخلص من الماضى كله، وأن نزدرى العقائد ومفاهيم الأديان السماوية، وتعمل على دفع النفس العربية الإسلامية إلى الخروج من ذاتيتها ومزاجها النفسى بخروجها عن الأخلاق والإيمان والتوحيد.

ولقد جرت منذ النكبة ١٩٦٧ أقلام كثيرة بكلمات ماكرة تبعث اليأس وتدعو إلى الخروج عن القيم والأديان، وتنتقص التاريخ والتراث والشريعة واللغة. وهى دعوات باطلة لأنها تصدر عمن لا يؤمنون بهذه الأمة ولا يريدون لها الخير.

ولقد طرحت هذه الدعوات أفكاراً ومذاهب وآراء وأثارت الشبهات فى صدور شبابنا وعقولهم حتى لابد للتصحيح أن تظهر ضياء الحقيقة، وأصبح ضرورياً أن نحرر القيم وتصحح المفاهيم، وتكشف البواعث والغايات التى تكمن وراء هذه الشبهات المسمومة.

إن الهدف هو (تغريب الفكر الإسلامى) ووضعه فى قيود الوثنية والمادية والإلحاد والإباحة ولكن الفكر الإسلامى صاحب الأصالة المستمدة من جوهره الناصع القرآنى، ومن ماضيه الطويل وجذوره العميقة الثابتة قادر على أن يدفع عن نفسه هذه الموجة الطاغية، كما دفع الموجات المتوالية السابقة وانتصر عليها، ذلك لأنه يستمد معينه من التوحيد ومن الحق ومن الفطرة ومن القرآن الذى يفرق بين الحق والباطل والذى نزل للإنسانية هادياً لها من حيرتها، فقد جاء القرآن تصحيحاً لكل المفاهيم والمذاهب والدعوات التى حرفت مفهوم الرسالة السماوية الحقة على أيدى رسل الله فكشف عن كل عوامل التحريف ووضع لنا القواعد التى لا تبلى فى مواجهة أخطار التغريب والتزييف.

لقد أقام الإسلام عالماً من الحق والإيمان فى مواجهة عالم الباطل، حتى عليه أن يجابه أخطار الوثنية والإلحاد ولا يتوقف عن المجاهدة على مدى الزمن صامداً قادراً مستمداً أسانيده وحججه من ذلك المعين الصادق الفياض.

لقد جاء الإسلام بعد أن تشكلت الوثنية المادية فلسفة ومناهج ومذاهب فكشف عنها القرآن وزيفها وأبان وجه الحق فى أمرها، وما تزال موجة الوثنية تقوم فى غيبة الحق وتعلو وتنشر جناحها ثم يجىء المصلحون الأبرار من علماء المسلمين فيكشفون الزيف ويردون الحق إلى أصابه، ونحن الآن نعيش موجة ضارية من هذه الموجات استطاعت أن تلبس لباس العلم والفلسفة، وأن تقيم باطلها على أساليب براقة خادعة فى عالم اضطربت مقاييسه ونظمه، حق على المسلمين وفرض عليهم أن يتقدموا يحملون مشعل التوحيد والإيمان لتحرير المفاهيم وتصحيح الآراء، ليحق الحق ويبطل الباطل ويتم الله نوره ويعلى عالمه ويذل عالم الوثنية المادية. وإذا بدا أن الوثنية المادية مسيطرة اليوم فإنما هى جولة من جولات الباطل ثم ينكشف الحق واضحاً والحق ظاهراً (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته).

(١٨)

لكى يتحرر الفكر الإسلامى من بريق الزيف

لكى تحرر الفكر الإسلامى من الدعائل الضارة ، ولكى نكون قادرين على الفهم الحقائق دون أن يحتوينا بريق الزيف الذى يغلف النظريات الوافدة يجب أن نفرق :

أولا : بين أصول الإسلام وبين التاريخ الإسلامى بوقائعه ، وأن لا نتخذ هذه الوقائع حجة على الإسلام ، وإنما نتخذها حجة على المسلمين الذين انحرفوا عن المنهج الربانى والتمسوا غيره من المناهج .

ذلك أن وقائع التاريخ الإسلامى سارت مع أصول الإسلام فى بعض الأحوال واختلفت عنه فى أحوال أخرى ، ومن هنا فإننا لا نتخذ من التاريخ الإسلامى الذى هو عمل المسلمين حكما على عقيدة الاسلام .

وهذا الموقف يحررنا من كثير من الشبهات المثارة التى تحاول أن تصور ضعف المسلمين فى عصر من العصور أو تخلفهم ، وكأنه النتيجة للإسلام نفسه . بينما الواقع هو عكس ذلك تماماً ، وأن الزمن بأن تجاوز المسلمين لأصول الاسلام وقواعده ضعفاً وتخلفاً ، أو التماساً لمفاهيم أخرى وافدة ، هو مصدر الهزائم والنكسات فإذا ما عاد المسلمون إلى أصالتهم والتمسوا أصولهم ، تصحح الموقف إلى مكانهم الحق .

وإذا قرأت تاريخ الاسلام فى ضوء هذه الحقيقة عرفت تموجات التاريخ بين النصر والهزيمة واكتشفت مصدر الهزيمة حين يغفل المسلمون عن تطبيق شريعتهم وعندما تملأ نفوسهم الطمأنينة الكاذبة فيلقون أسلحتهم بينما عدوهم متربص بهم .

لقد نبههم القرآن إلى هذا ودعاهم إلى الحذر الدائم « خذوا حذركم » (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة)

ثانياً : التفرقة بين الأخلاق والتقاليد :

فالأخلاق شطر من صميم الاسلام تجتمع مع العقيدة والشريعة فى منهج متكامل . والأخلاق ربانية المصدر من أصل الدين فهى ثابتة على الزمن لاتتغير وهى متصلة بالانسان نفسه الذى يجمع فى تكوينه بين الروح والمادة والذى هدى النجدين : الشر والخير ، فله من إرادته الحرية فى اختيار أيهما وعليه مسئوليته والتزامه وله جزاؤه . ولقد كان الخير هو الخير ، والشر هو الشر منذ عرف الانسان الحياة . وفى أعماق الانسان « أداة » كاشفة فالشر ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس ،

وفي فطرة الإنسان قدرة على التمييز بين الحق والباطل ، الخير والشر ، والحلال والحرام ولم تتغير هذه الأصول أبداً ولم يتحول الخير إلى شر ، أو الحق إلى باطل أو العكس .

ولذلك فالأخلاق قيم ثابتة مستقرة لأنها حقائق عامة ربانية المصدر أما التقاليد فهي غير ذلك ، هي استجابات زمنية وبيئية لضرورات الحركة في المجتمعات والأمم ، وهي من صنع الناس . وهي لذلك متغايرة ويجب أن تتغير فإذا ثبتت فسدت وأسنت لأن الزمن يتجاوزها ، وذلك بخلاف قيم الأخلاق وهي في أحيان كثيرة تعارض الأخلاق وتحاول أن تسود عليها وتفرض وجودها وفي ظروف ضعف التدين تتغلب التقاليد وتزيح قيم الأخلاق وتبدو وكأنها أصول أصلية .

نعرف ذلك في تقاليد الموت والزواج والولادة وغيرها مما نشاهده في مجتمعاتنا مما يتعارض تماماً مع قيم الأخلاق الاسلامية ولقد حرص الاستعمار على إعلاء التقاليد والبدع القديم منها وذلك حتى يجعلها أقوى من الأخلاق ولذلك فإن من واجب المسلمين أن يحرروا مجتمعاتهم من زيف التقاليد الضارة ، وإذا ما التمس المسلمون الأخلاق وطهروا أنفسهم من التقاليد دفعهم ذلك إلى الانتصار والقوة والتمكين في الأرض .

ولقد حاولت الفلسفات المادية أن تصور الأخلاق وكأنها تقاليد ، ولذلك دعت إلى نسبية الأخلاق وارتباطها بالبيئات وهي تعني التقاليد ، ويرجع ذلك إلى أن الفلسفات المادية لا تعترف بالأديان السماوية وبالتالي فهي لا تعترف بالأخلاق كجزء ثابت منها ، وهذا هو سر الاشكال القائم في المجتمعات الاسلامية المهيجة لطرح مثل هذه النظريات ولتحرر موقفنا ، يجب أن نفهم الفارق العميق الواسع بين الأخلاق وبين التقاليد ، وأن نعرف أن الأولى من صميم الدين وهي ثابتة ، وأن الأخرى من صناعة المجتمعات وهي متغيرة ، وعلينا أن نحرر المجتمع الاسلامي من سلطان التقاليد والعادات التي تحاول أن تسيطر فتحجب الأخلاق .

ثالثاً : لكي نحرر الفكر الاسلامي يجب أن نفرق بين الأصيل والوافد .

ففي كل مسألة تعرض هناك للإسلام وجهة نظر ، وهي بالطبع مختلفة مع وجهة نظر الفكر الوافد ذلك لأن الاسلام إنما يستمد وجهة نظره من معين مختلف قوامه التوحيد ودعامته الفطرة وطابعه الوقوف عند حدود الله دون تجاوزها وشمول النظرة وتكاملها جامعة بين الروح والمادة والنفس والعقل والدنيا والآخرة ، وتلك النظرة تختلف عن نظرة الغرب التي تقوم على الجزئية وعلى المادة والعقل والدنيا دون اعتبار الروح أو النفس أو الآخرة . ولذلك تقصر النظرة عن الوصول إلى الآفاق الكاملة وتظل محجوبة في حدود ضيقة ، ونحن إزاء كل نظرية وافدة يجب أن نستعمل حقنا في وضعها تحت المجهر الاسـلامي لنراها على حقيقتها ، ومن حقنا أن نقبل كل ما يتفق ومع فطرتنا الأصيلة ونرفض ما يخالفها .

رابعاً : يجب أن نفرق بين الرواسب القديمة والروافد الجديدة .

فالقديم لا يقبل إلا إذا كان صادراً عن المعين الأول ، والمنبع الأصيل وقد دخل على الفكر الإسلامي زيف كثير من الفلسفات والمذاهب القديمة ، ثم تحرر الفكر الإسلامي منها حين وصل إلى قاعدة مفهومه الجامع ، فمن الحق أن نفرق بين الجزئيات التي تتصل بمذهب المعتزلة أو الفلاسفة أو الصوفية ، فتلك فرق ومراحل انتهت وصفيت . كذلك يكون الأمر بالنسبة للروافد الجديدة التي تحاول أن تأخذ طابع الاسلام وهي ليست منه بل من الفرق الضالة كالبهائية والقاديانية وغيرهما . وقد خدع بها بعض المستشرقين وبعض الكتاب المسلمين فاعتبروها حركات إسلامية .

خامساً : كذلك لا بد من الارتباط بالجذور والانطلاق منها إيماناً بأن كل نهضة ليست متصلة بالمصادر الأولى فهي زائفة . ويمكن أن تضل طريقها ! وهذا ما تحاوله بعض الدعوات التي تقصر النهضة على الحديث سواء في الأدب أو الفكر ، وتحاول أن تقطع بينه وبين ماضي هذه الأمة وماضي هذا الفكر .

فلنحذر هذه النغمة الضالة المضلة ، وعلينا أن نظل دائماً مرتبطين بأولياتنا الاسلامية وأصولنا التاريخية . ولا ريب أن النهضة الحديثة في عالم الاسلام إنما صدر عن المنابع الأولى ، وليست عن أي مصدر آخر . ولقد كان الاسلام قادراً دائماً على التجدد من الداخل وعلى ابتعاث النهضة من أعماقه حين يقع في أزمة التخلف ، ولا ريب أن كل مظاهر التجدد في الأدب والفكر والثقافة الآن إنما هي مرحلة جديدة لحلقات متتابعة ، وإن دور الاتصال بالغرب منها لا يعدو أن يكون شبيهاً بدور الاتصال بالفكر اليوناني في القرن الثالث والرابع الهجريين .

فقد ترجم المسلمون التراث اليوناني والفارسي والهندي ، ولكنهم لم يسقطوا في هوة التبعية لهذا التراث ، وإنما أخذوا منه ورفضوا ما أخذوه منه أعادوا صياغته وتشكيله في إطار عقيدتهم وقيمهم ، ثم بنوا عليه الجديد الذي بهر البشرية كلها ، فقد صاغ المسلمون المنهج العلمي التجريبي ، ومنهج المعرفة القائم على العقل والوجدان وكشفوا عن سنن الله في الكون وفي الأمم والحضارات . وكل ذلك كان جديداً على الفكر البشري ، وما يزال متفاعلا مع الفكر الاسلامي . فالمسلمون اليوم حين يراجعون التراث الغربي بخطريه ، إنما ينظرون فيه بحرص وحذر وهم قادرون على الانتفاع به دون أن يستوعبهم أو يحتويهم .

ولقد استطاع شبابنا أن يتجاوزوا سارتر وفرويد وماركس إلى آفاق أكثر سعة وأكبر عمقاً وأكثر اتصالا بالعصر وبالذات الاسلامية في نفس الوقت إن معطيات الاسلام الثروة في الحرية والإخاء الانساني والعدل الاجتماعي هي وحدها القادرة على أن تعطي البشرية كلها في هذا العصر حاجتها الحقيقية . لقد جمع الاسلام بين الروح والمادة والفرد والجماعة وربط بين الثابت الالهي والمتحرك البشري في تناسق عجيب وفي مواءمة صادقة مع الفطرة الانسانية التي تحتاج إليها النفس الانسانية لتسترد طمأنينتها وسعادتها وهو ما تعجز كل النظريات عن تحقيقه .

(١٩)

الاسلام ليس فى حاجة إلى لقاح أجنبى

بالرغم من كل الخطوات التى قطعتها حركة اليقظة الاسلامية فى مواجهة التغريب والغزو الثقافى فإننا مازلنا نجد من الكتاب من يقول بالانفتاح الثقافى واللقاح الأجنبى أما إذا كرهت الأمة إلى منبعها فإن حضارتها لابد أن تذبل

وهذا الكلام على إطلاقه لا يدل على وجهة الأصالة ولا على سلامة النظرة وهو أشبه بكلام المستشرقين والمبشرين ودعاة التغريب واتباع مخططات التلمودية الصهيونية والماركسية .

والواقع أنه مما كان يقال فى الثلاثينات يوم كان الفكر الاسلامى لايزال محاصراً بقوى الاستعمار المسيطرة على الدول العربية والاسلامية المحتلة يوم كان مفروضاً عليها نظام غربى وافد تخضع له الأمة فى مجال القانون الوضعى ونظام التعليم الغربى ويوم كان أصحاب الثقافة الغربية يظنون أنهم سوف يفرضون فكرهم على العالم كله وينادون بعالمية الثقافة تحت مظلاتهم ، ثم انكشف من بعد أن فكرهم هذا الذى يفرضونه على العالم عاجز أن يعطيهم الأمن النفسى أو المجتمع النموذجى ، ثم صارعت الغرب أهوال الايدلوجيات والنزعات والنظريات حتى بات ذلك المفهوم الذى ما يزال يطرحه بعض الكتاب قديماً باليا .

ولقد برز تيار جديد يعلن أن هذا المفهوم خاطىء تماما وأن الأمم لا تتجدد إلا من منابعها الأصيلة خاصة إذا كانت تلك من المنابع ما هو متجدد دائم الحياة وافر العطاء . إن الانفتاح الثقافى له ضوابطه وحدوده وهو يختلف عن الانفتاح الاقتصادى فى أنه يمثل رأس الأمة وعقيدتها وفكرها وعندما تلتمس الأمة الاسلامية منابعها القرآنية فانها تجد لديها إطاراً كاملا للحركة والقدرة على الاقتباس والموازنة بين الأصول الوافد ، وتجد نفسها قادرة على أن تأخذ وترفض على ضوء قاعدتها الأصيلة والتى تمكنها من الاحتفاظ بذاتيتها دون أن تسيطر عليها الرياح الوافدة أو تجتاحها . ولقد أخذ العرب والمسلمون فى القديم من الحضارات والثقافات ولكنهم أخذوا بملء إرادتهم وفى ضوء التحفظ الكامل فكانوا يصهرون ما يأخذون داخل فكرهم وثقافتهم وكانوا يرفضون كل ما يتعارض مع « الأساس » : قاعدة التوحيد الخالص التى أقامها لهم الاسلام ، وكذلك كل الأمم تأخذ من ثقافات الأمم الأخرى ما يتفق مع طبيعتها وحاجتها .

أما أن تكون معطيات الثقافات الأخرى بمثابة لقاح مخصب لذلك أمر زائف فما كان الفكر

الأجنبي عاصيا أبداً الفكر الاسلامي لأنه يقوم في الأساس على غير قاعدته ومصدره . أن الفكر الأجنبي الآن سواء أكان غربياً أو ماركسياً إنما يقوم على أساس الفلسفة المادية التي تجعله لا ينظر نظرة الاسلام الجامعة المتكاملة . فكيف يستطيع هذا الفكر المادي أن يعطي الفكر الجامع إذا كان هذا العطاء في مجال العلوم التي وضع المسلمون قاعدتها حين أنشأوا « المنهج العلمي التجريبي » ويستطيعون اليوم أن يلتمسوها عند الغرب ليعيدوها مرة أخرى إلى إطار فكرهم وإلى حضانة لغتهم فيشكلوها من جديد تشكيلا إسلامياً ربانياً ويجعلوا وجهتها إسلامية من حيث تكون خاضعة للتقوى خالصة للانسانية قائمة على الرحمة والوفاء وإغاثة الملهوف .

ولكن يجب أن يكون هذا الحذر والحيطة فلا ينقل المسلمون : « أسلوب العيش الغربي » لأنه متعارض مع قيمهم وعقيدتهم وأسلوبهم في الحياة ولأنه يقضي على ذاتيتهم الخاصة ويردهم على أدبارهم فتذهب عنهم ميزة الأمة الوسطى والأمة المختارة لتقديم رسالة الله إلى البشرية .

ولعلنا نتساءل ماذا يمكن أن تعطي الحضارة الغربية أو الفكر الغربي للبشرية اليوم مما يزيدها قوة ويدفعها إلى بناء الحياة ، والمجتمع الغربي نفسه « مدمر بذلك الاندفاع نحو الرغبات والملذات والشهوات والمطامع والأهواء وقد فقد نفسه فلم يجدها » فهو يعيش حياة التمزق والغربة والضياع وفكره الآن وآدابه وانتاجه القصصي والعلمي كله يدور حول هذه الأزمة النفسية الانسانية الضارية التي ما تزال تجتاح أعماقه وتصرعه . فهو في صراع بين الجنس والطعام وهما النظريتان اللتان تحكمانه فكيف يمكن أن يكون هذا هو اللقاح المخصب الذي ينتظره الفكر الاسلامي ليعطيه القدرة على بناء الحياة .

إن الأمة الاسلامية لا تنطوي على نفسها ولا تستطيع فهي متفاعلة بالأحداث العالمية مؤثرة فيها لأنها تملك اليوم من أسباب القوة ما لا يحول بينها وبين الحركة والحياة وهي تواجه كل معطيات الفكر والثقافة من الشرق والغرب لتقايسه على أصولها الأصلية فتأخذ من أساليب العمل وطرائق التنظيم ما تراه صالحاً لها فهي متجددة دائماً بكل عصر وكل جديد . ولكن عن وعي عميق . لا تضحي من أجل هذه الفروع بأصولها ولا تتنازل عن طوابعها التي هي مصدر قوتها وأصالتها .

إن الأمة حين تلتمس منابعها لا تكون ضالة ولا متأخرة ، وإنما تكون ضالة ومتأخرة حين تفقد هذه المنابع وتندفع في الطريق الطويل الذي تذهب معه كل أسباب الأصالة ووسائل الضبط والحدود فتكون حركتها عشوائية ذاهبة في الفضاء .

إن أخطر ما يطرح اليوم في أفق العالم الإسلامي هو تلك الدعوة إلى الاستهانة بالضوابط والحدود التي تجري فيها حركة الأمة إلى غاية معروفة ومرسومة هي غاية الامة المختارة لقيادة الفكر الرباني لتكون منارا هاديا للبشرية ما دامت البشرية .

وليس صحيحاً أن شباب الأمم يتجـــدد بالخصوبات الأجنبية ولكنه يتجدد إذا اتسعت القيم المعنوية التى تحمل حضارتها قادرة على الاستمرار وعلى العطاء وعلى إسباغ الرحمة والخير على الناس جميعاً ، إن المعطيات المادية لم تكن يوماً من الأيام عاملا لنهوض الأمم أو استمرارها أو تقدمها ، وما لم يكن هناك ذلك ، الالتزام الأخلاقى ، فى بناء الأفراد وبناء الأمم وما لم يكن هناك ذلك اليقين بالمسئولية الفردية والجزاء الأخروى فإن أى نهضة أو حضارة لابد أن تنهار مهما طال بها الزمن لأنها تكون قد قامت على غير الأساس الصحيح لقيام الحضارات .

إن الذين يحاولون أن يقدموا لنا مفهوم الحضارة والتقدم يفسدوننا ويخدعوننا إذا طلبوا إلينا التخلى عن قيمنا والتخلى عن أخلاقيات الحضارة ورسالتنا الصحيحة التى تستهدف قيام المجتمع الربانى فى الأرض ، وهو ما عجزت عنه الحضارة الغربية اليوم عجزاً شديداً ، ولا ريب أن ذلك الجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة فى مفهوم الحضارة الإسلامية هو وحدة القادر على العطاء : هو الذى يستطيع أن يعطى سكينة النفس ونموذجية التكامل والتضامن بين الأفراد ومجتمعاتهم ، وهو الذى يقضى على ذلك الصراع والتمزق ويحل محلها الأخوة الحقيقية القائمة على الرحمة والسماحة .

أما معطيات الحضارة التى يطلب إلينا أن نفتح لها من خلال هذه الفنون الهابطة أو ذلك الأدب المكشوف أو تلك الدراسات النفسية الاجتماعية التى تدفع النفس الإنسانية إلى التمزق والغربة فذلك عطاء مردود والمسلمون لا يقبلون أسلوب عيش غير أسلوبهم ، وهم حين يأخذون العلوم التكنولوجية فإنما يأخذونها ليصهروها إسلامية ربانية العاملين جميعاً ويأخذونها فى إطار الأخلاق والتقوى والرحمة لبناء المجتمع الربانى الذى تتطلع إليه البشرية اليوم .

(٢٠)

الشعوبيون ومؤامرات الفكر

إن أغلب النظريات التى طرحت على المسلمين والعرب قدمها أناس من غيرهم ، أناس ليست لهم صفة المواطنة الصحيحة أو الإيمان بالقيم التى تميزها المجتمعات فنجد أن دعاة الطورانية يهود أمثال ليون كاهون الذى كتب عن تاريخ الترك المغول داعياً الأتراك المسلمين بعد أربعة عشر قرناً من الإسلام أن يعودوا إلى تاريخ قديم لطوران ومغول وغيرها ، وقد اعتبر هذا الكتاب مرجعاً لتلك الدعوة التى انطلقت خلال حكم السلطان عبد الحميد لتحطم الجامعة الإسلامية .

وجاء فمبرى اليهودى من أوربا إلى الدولة العثمانية ، وأقام بها وتحبب إلى قادتها من أجل أن يكسب ثقتهم فيقنعهم بنظرية مسمومة تقوم على أساس إعلاء فكرة العرق على فكرة العقيدة ، وقد دعى فمبرى الأتراك إلى الخروج من الوحدة الإسلامية والعودة إلى طوران ، ومن أجل دعوته قام برحلة

إلى آسيا لتجديد هذه الآراء القديمة التي حاربها الإسلام ومن ثم بدأت حملة عنيفة تصور الجامعة الإسلامية بأنها خطر على الغرب ، وإثارة الحفائظ بين الدولة العثمانية وأوربا ، وقد كشف السلطان عبد الحميد عن هذه المؤامرات فقال إن الدول الغربية تحاربنا حرباً صليبية بشكل سياسي .

وفي هذه الفترة ظهرت المحافل الماسونية تستوعب حركة الاتحاديين ، وظهر عباس باشا زعيم البهائية ، وفتح الطريق إلى دخول سماسرة الفساد في البلاد العربية وصدر الجزء الأول من فلسفة النشوء والارتقاء لشبلي شميل ، وأثير الغبار حول اللغة العربية .

ثم جاءت الدعوة إلى الشيوعية حملها اليهود وكانوا هم دعاتها في كل مكان فكشفوا بذلك عن العلاقة الجذرية بين الصهيونية والشيوعية ، ثم جاء دعاة الإقليميات والقوميات الضيقة أمثال ساطع الحصري ، أنطون سعادة .

أما ساطع الحصري فقد كان ثمرة الفكرة الطورانية التي حملها دعاة الاتحاديين أما أنطون سعادة فقد كان داعية تمزيق الوحدة القائمة بين العرب والمسلمين خدمة للتعصب والاستعمار ، فركز أنطون سعادة على تأثير الارض وركز ساطع الحصري على تأثير اللغة ، وكلاهما اقتبس آراءه من النظرية الغربية . واستغل التاريخ الأوربي الحديث واعتمد أنطون سعادة على نظريات أجنبية وعلى أفكار غربية . كذلك سار ميشيل عفلق في نفس الطريق وجرى التلفيق بين عشرات النظريات الوافدة . وغاب عن هؤلاء جميعاً أصالة الإسلام وتراثه في مجال الوحدة والتضامن والجامعة التي تجمع أهله ومن أجل ذلك سقطت هذه النظريات بعد أن حاولت أن تسيطر على هذه الأمة وبعد أن بذلت جهود كثيرة في سبيل إقناع الناس بها . لقد كانت الصيحة صيحة الاصالة : إننا نريد مفهوماً عربياً إسلامياً أصيلا مستمداً من تراثنا وواقعنا ، فالإسلام يرى أن العقيدة هي العامل الحقيق للتجمع والوحدة . إن الأصوات التي كانت تدعو إلى العروبة في لبنان لم تكن مخلصة في حمل لواء الاصالة وإنما كانت تستهدف الفصل بين العرب والترك وإثارة الصدام بينهما . ولذلك فإنه سرعان ما تغير الاتجاه بعد سقوط الدولة العثمانية .

وسرت دعوة الاقليمية في كل بلد عربي حتى لا يتفق العرب على وحدة جامعة فدعى الكفريون في مصر إلى التمصير وسوريا إلى السورية وفي لبنان إلى اللبنانية وأثيرت دعوات الفرعونية والفينيقية والبابلية انتزاعاً للمسلمين والعرب من أربعة عشر قرناً وردهم إلى تاريخ قديم ليس له من حدود أو مقومات تمكنه من الحياة مرة أخرى وقد قضى عليه بقانون « الانقطاع الحضاري » الذي وقع في العالم الاسلامي بعد الاسلام حيث سقطت العقائد الفاسدة واللغات اليونانية الرومانية التي استمرت في أجزاء كبيرة من البلاد العربية ألف عام تقريباً .

ولقد تعالت الصيحات بالدعوة القومية مستمدة من الفكر الغربي ومن نظريات القوميات الغربية واستمرت أكثر من عشرين عاماً ثم فشلت فشلا ذريعاً ولم تستطع أن تحقق شيئاً ، ذلك لأنها كانت

جاهلية الفطرة والأصالة والاستمرار التاريخي والعقائدي الإسلامي عبر الجذور عجزت فكرة القومية عن أن تحقق شيئاً إلا الخلاف والصراع لأنها جافت الفطرة وافتقدت واستسلمت لعامل الفكر الوافد.
لقد عرف قادة حركة اليقظة تلك الرابطة العميقة بين العروبة والإسلام وكانوا يعملون في دعوتها يرون العروبة ثمرة الإسلام. وأن العرب مادة الإسلام ولكن محاولات ساطع الحصرى وميشيل عفلق وأنطون سعادة حاولت أن تخرج العروبة من مفهومها الأصيل إلى مفاهيم القومية الغربية التي تختلف تماماً عن المفهوم الأصيل ومن ثم فقد عجزت أن تؤدى إلى نتائج أصيلة، وتبين أن هذه المحاولة كانت تستهدف مقاومة الاستعمار بالتجمع تحت لواء العروبة، ولكن إهدار هذا الاتجاه بفصل العروبة عن تراثها وعقيدتها وقيمها، وإقامتها على قيم أخرى وافدة كالاشتراكية وغيرها. وهنا فسدت الفكرة وعجزت عن العطاء، واليوم وقد انتهت مرحلة الاستعمار، فإن الدعوة إلى العروبة أو القومية أصبحت قاصرة وعاجزة عن أن تستوعب تحديات المرحلة الجديدة، أن المواجهة الآن في هذه المرحلة يتطلب العمل داخل إطار منهج الإسلام.

لقد تعودت حركات التغريب أن تحتوى الدعوات التي يتخذها المسلمون والعرب أسلوباً للعمل ولقد استطاعوا احتواء فكرة العروبة حين فرغوها من مفهومها الإسلامي وجعلوا مضمونها غربياً وافداً وبذلك حطموا هدفها وحالوا بينها وبين تحقيق الغاية. لقد قامت القومية في الغرب معارضة للوحدة المسيحية الجامعة في أوربا ولتمزيقها.

أما العروبة في العالم الإسلامي فإنها قامت لتخلف الوحدة الإسلامية والحلول محلها حين سقطت الدولة العثمانية التجمع تحت لوائها. ولذلك فإن اصطناع مفهوم القومية الغربي جاء بنتائج أفسدت الهدف وحاولت دون الوصول إلى الغاية، وفي الغرب ارتبطت فكرة القومية بالعنصرية وإعلاء الجنس، ولكن المسلمون لا يرون العنصرية في علاقتهم، بل ينكرونها ويؤمنون بالإخاء الذي جمع بينهم الاسلام. لقد كان من أقوى أهداف النفوذ الغربي وضع المسلمين والعرب في قوالب الفكر الغربي وإخراجهم من قيمهم ومفاهيمهم، ولقد استطاعت أن تفرض ذلك عليهم عن طريق سيطرتها على الثقافة والتعليم التي خرجت جماعة من القادة والمفكرين، كذلك فإن الفكر الاسلامي بأصالته واستمداده من القرآن قادر على صهر كل مذهب ودعوة وفكرة والانتفاع بما فيها من إيجابيات دون أن تسيطر عليهم هذه التيارات.

لقد أذهب الله عن المسلمين عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء. فالناس بنو آدم وآدم من تراب. ولا فضل لعربي على عجمي. ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

هامش اليوميات.

عرف الراغب الأصفهاني الظلم بأنه وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة أو بعدول عن وقته ومكانه. فاستعمال القدرة بالطريقة العادلة وفي المكان اللائق فضيلة واستعمالها بالطريقة الظالمة في الوقت الغير واجب والمكان الغير لائق رذيلة.

(٢١)

إنكشاف فساد النظريات

ظلت نظرية (دارون) فى أصل الأنواع قاعدة أساسية للعلم الحديث والفكر المادى حتى خيل إلى البعض أنها من مسلمات العلم التى لا سبيل إلى نقضها ، ولكن الأيام كشفت زيف النظرية وأثبت تقدم العلم والحفريات والكشوف الأثرية إن هذه — الفرضية — التى فرضها دارون ولامارك وغيرهما كانت قابلة للخطأ . وأن كل ما ترتب عليها وأسس عليها من فكر علمى هو وهم باطل وكانت النظرية المادية التى قامت خلال هذه العصور الطويلة على نظرية دارون ترى أن الخليقة كلها من أصل واحد ، وأن الانسان فرع من فصيلة الحيوان فى أرقى درجاته وهو القرد ، وقد عارض الباحثون من العلماء البيولوجيين هذا الافتراض ، ولكن قوى كبرى كانت وراء الانتفاع بالنظرية وتحويلها إلى نظرية التطور الاجتماعى المطلق التى اشتقها — هربرت سبنسر — من نظرية التطور البيولوجى الذى وضعها دارون ، كان لها أبعد الأثر فى معارضة الحقائق الأساسية الجامعة الرابطة بين نظام الثوابت والمتغيرات من حيث حاولت أن تلقى ظلالا باطلة على أنه لا توجد ثوابت مطلقاً . وأن الحياة كلها تغير دائم وتطور مطلق ، وهذا ما ذاع وشاع وسيطر بعد ذلك على مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع . والآن وبعد مرور أكثر من تسعين عاماً يجىء العلماء ليعلنوا بطلان هذا كله حيث يعلن الدكتور جان بيفتو رئيس المجمع العلمى الفرنسى بصراحة تامة : أنه لا علاقة للانسان بالقردة ولا تجانس بينهما .

يقول الباحث : لقد وقف هذا العالم من عمره نصف قرن تقريباً على دراسة أصل الانسان واستطاع أن يؤكد أخيراً أن الانسان ليست له علاقة تجانس بالقرد ، وهو يثبت بالأدلة أن النظرية القائلة بوجود جذع مشترك انشعبت منه فصيلة من الجنس البشرى وجنس القردة الكبيرة لم تزل مفتقرة إلى البرهان الحاسم ، وأن هذه المشابهات بين القرد والانسان غير كافية للجزم بوجود أصل مشترك بين الانسان والقرد ، وليس من المعقول أن الانسان الحاضر ربما انحط عن منزلته بعد ملايين السنين القادمة لترك المجال لحيوان من الحيوانات ليحل محله ويسيطر على الكون ، وهذا الافتراض مرفوض . لأن الانسان لم يظهر على الأرض بمجرد صدفة ، بل إنما كان الهدف الأخير من تنظيم الكون ولذلك جاء مركباً فى أحسن تقويم .

ويجىء عالم آخر هو الدكتور رونالد جوانسون أستاذ علم الأجناس البشرية ليعلن ويقول : إن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بنسبة ٩ر٩٩ فى المائة من الدقة أن الانسان صار منتصباً على قدميه منذ بداية تاريخه الانسانى منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة . أعلن هذا فى مؤتمر صحفى — مارس ١٩٧٤ — وهو يمسك فى يديه بخمس قطع من العظام يرجع تاريخها إلى ثلاثة ملايين سنة عشر

عليها في أواخر عام ١٩٧٣ في أثيوبيا ، وتعتبر الآن واحداً من أعظم الاكتشافات في التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية . فقد ظهر الإنسان كائناً فريداً في نوعه وسط دنيا من الوحوش الضخمة المفترسة كالخنازير والتماسيح والأفيال والوحوش الكاسرة ، وأن هذه العظام قد سدت الثغرة التي ظل العلماء يتحدثون عنها تحت إسم الحلقة المفقودة — وأن ما وصل إليه الدكتور ريتشارد جونسون كان خاتمة حفريات كثيرة تمت خلال سنوات ١٩٦٩ وما بعدها في كينيا ووادي العفار في الحبشة . ومن أهم ما تقرر أن الجماجم فريدة في نوعها تتميز بسعة محيط الدماغ مما جعل العلماء يخرجون بانطباع عام ، وهو أن الإنسان لم ينحدر من سلالة مشتركة تطورت مع الوقت ، وإنما كان له سلالته الخاصة المستقلة . ويقول الدكتور جونسون إن المعلومات التي أمكن التوصل إليها عن طريق عظام الساق والفخذ دلت على تكوين الحوض والبناء العظمي العام وهما ما يقرران انتصاب الإنسان ، وأقول إن ذلك أدلة واضحة وجلية على أن الإنسان القديم كان يسير منتصب القامة منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة .

وأكد الدكتور بيريسون الأخصائي في علم الوراثة في جامعة اكسفورد بالاستناد إلى الاختبارات الطويلة التي أجراها بين عناصر الخلايات التي تحدد أصول الوراثة أن الإنسان لا ينحدر من القرد . وأنه لم تعد هناك حاجة تدعو لدراسة ظهور القرود وتطوره على الأرض بغية التأكد من طبيعة الإنسان الحقيقية . وقد أصدر بيريسون مع ثلاثة من زملائه قانوناً اشتهر باسم قانون القرد حظروا بموجبه على المدارس والجامعات أن يدرس المذهب الداروينى — مذهب النشوء والارتقاء — وذلك لبطلان النظرية التي كانت تقول إن الإنسان هو الحلقة الأخيرة من تطور انطلق من أول أنواع القرود مروراً بالشمبانزي والغوريلا حتى الأورانج أوتان الذي أشبه الإنسان إلى حد كبير . وقد تبين أن فرضية الدكتور بيريسون قد أيدتها الاكتشافات الأخيرة في إفريقيا .

وبالجملة فقد أصبح العلماء الآن عن طريق الكشوف الأثرية وتقديرات العلم الحقيقي — لا الفلسفة — متأكدون مما جاء به الدين الحق وجاء به الإسلام من أن الإنسان خلق مستقل وأنه سيد المخلوقات ، وصدق الله العظيم (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

(٢٢)

البحث عن الحق

هل الفكر الغربي جاد حقاً في البحث عن الحقائق . هل إذا وجدها فهل هو مستعد لقبولها . ذلك ما نشك فيه ونستبعده وإن كنا نعتقد أن في الغرب « تيار » يحاول أن يفهم أن المسلمات الموجودة بين يديه في حاجة كثيرة إلى إعادة النظر ، وأنها لابد أن تكون مدخولة . وآية ذلك أنها لا تحقق للإنسان الغربي الطمأنينة النفسية ولا السعادة الاجتماعية ، وذلك بالرغم من كل معطيات العالم المادي .

ومن يقرأ كتاب إيل جونز (البحث عن الحق) يجد هذا التساؤل واضحاً وصريحاً فهو يقول :

إن العصر الحاضر هو عصر الأكاذيب ، وأنه لم يحدث قط فى تاريخ العالم أن قرأ الرجال والنساء والأطفال وسمعوا أكاذيب كثيرة من أكاذيب العشرين سنة الأخيرة ، ففى الأجيال السابقة كانت الأكاذيب للرواية تنتقل فى بطء من إنسان إلى إنسان آخر ، أما اليوم فإن أكذب الكذابين يمكن أن يسمعوا فوراً من جميع أنحاء الأرض ، وأن الذين أتخموا بالأكاذيب المفتريات يتوقون إلى معرفة الحق . ذلك أن كثرة شيوع الأكاذيب وانتشار المفتريات والأباطيل لا تقعد الناس عن محاولة تحرى الحقائق ودحض الأكاذيب المصنوعة والأباطيل الملفقة ويدمغ المؤلف الفكر الغربى كله والحضارة الغربية بأنها منحرفة عن الحق فيردد قول موسمان (إن أضعف الميول البشرية حب الحق) ويقول إن الكثرة الكاثرة من العلماء لم يخلصوا الإخلاص التام فى طلب الحقائق الخاصة ، فكثيراً ما سيطرت عليهم أوهامهم وأهواؤهم وأخرتهم بالتشبث بوجهات نظرهم دون أن يستطيعوا التجرد فى البحث عن الحق ويتخلصوا من رق النزعات والميول والأهواء ، فكم من عالم متمكن جملته أهواؤه ينخدع فى أشياء كان يمكن أن يتبين حقيقتها لو لم يغلبه هواه وتضله أوهامه . وكم من مؤرخ جليل راسخ القدم قد أرداه تعصبه المذهبى .

كذلك فقد أنكر العلماء كل معرفة غير المعرفة التى تأتى عن طريق الحواس أو عن طريق التفكير الذى يستمد معلوماته مما تزود به الحواس . كذلك فقد تأثر العلماء والفلاسفة بنشأتهم وأحوال عصرهم وبيئتهم بينما البحث عن الحقائق يستلزم التخلص من آثار البيئة والنشأة واختبار النفس قبل الإقدام على التماس الحقائق . كذلك فإن الباحث يربط بين التبرير العلمى والكرامة الأخلاقية ، ويرى أنه إذا فقد العالم أخلاقياته فإنه جدير بأن يكون مطعوناً فى علمه . ويقول إنه بالرغم من أن فرانسيس بيكون هو موجد الطريقة الاستقرائية فى البحث عن الحقائق ، فقد عرف من مجمل سيرته أن أخلاقه لم ترتفع إلى مستوى كفايته العقلية ، وأن له سقطات وعيوب أخذت عليه فى كتابة القانون الجديد الذى ألفه ليعارض طريقة أرسطو فى البحث عن الحقائق وتصحيح الأوهام الفكرية فى مذاهب البحث .

ويخلص المؤلف إلى القول بأن هناك عقبات أربع تحول دون سلامة المنهج الغربى فى الفكر والبحث وتضل عن الحقائق ، وهى عنده أربعة أوثان :

الأول : أوثان القبيلة : وهو تصور الطبيعة على صورة لا برهان لها من التجربة والمشاهدة .

الثانى : أوثان الكهف : وهى أوثان الفرد نفسه وأوهام بيئته .

الثالث : أوثان السوق : وهى التى تنتشر من اختلاطه بغيره من الناس .

الرابع : أوثان المسرح وهى النظريات المعتلة والمبادىء الزائفة والأخطار الخاصة التى تسرى إلى عقول الناس .

يقول : هذه الطوائف من الأوثان تحجب الإنسان عن رؤية الحق وإن الاقتراب من الحقائق يتطلب أن يتخلص الإنسان من رق أفكاره السابقة ومعتقداته القديمة ؛ وأن أوجه كثيرة من الأكاذيب تعترض طريق الباحث عن الحق تقوم على الإخفاء والانتقاص ، أو المبالغة والتهويل وعدم توفر الأمانة والإخلاص ، أو قصور في التفكير البشري ذاته . فضلا عن دعايات السياسة وأكاذيب الحروب وأكاذيب الصحافة وتعصب أصحاب المذاهب والعقائد .

وأن هناك كثير من الناس يعتقدون أنهم يدافعون عن الحق . وهم في الواقع يدافعون عن مذهب راقهم أو قصة اجتذبتهم أو اتجاه امتلك عليهم عواطفهم . وأن الولاء المذاهب هو من الأشياء الخطيرة التي تقيم العقبات في سبيل البحث عن الحق وقد يكون المذهب قيمته وشأنه ، ولكنه في الوقت نفسه لا يمكن من رؤية جميع أوجه الحق .

هذا موجز ما قصد إليه الكاتب الغربي (أيل جونو) على نحو يمثل (مع بعض كتابات أخرى سبقت في هذا الطريق) شهادة صادقة تصك وجه الزيف الذي يقدمه المنهج الغربي في الفكر ، والذي يوحي بأنه علمي بينما هو خلاصة الأهواء وعصارة الغرض القائم على تأكيد طابع الاستعمار والاستغلال والسيطرة التي عرفت عن الفكر الغربي في مراوغته ومغالطاته وتصوير نفسه بصورة المتمدن المغصوب المبرر لمواقفه الإجرامية في السيطرة على الأمم والثروات بأنها عمل من أعمال التعمير وما يتصل بذلك من حالة الاستعلاء باللون والعنصر .

ولقد ظل الغرب مئات السنين لا يعترف بفضل الاسلام والحضارة الاسلامية منكراً ذلك مسرفاً في الانكار ، بينما دور المسلمين في بناء الحضارة أمر واضح في ثنايا مختلف أوجه النهضة من علوم وطب وفلك ودراسات إنسانية واجتماعية ، ولكن الفكر الغربي بأهوائه وتعصبه وحقده لا يعترف لأهل الفضل بفضلهم .

وهو لا يكتفي بهذا بل إنه ينكر نسبة الحضارة الأولى لمعطيات العلم ومنجزاته إلى الحق تبارك وتعالى الذي هدى الانسان إلى قوانين البحث ومفاتيح السنن ، وهو بصلفه وغروره ينسب ذلك إلى ما يسميه (الطبيعة) معرضاً عن المصدر الصحيح ، وبالرغم من كل هذه الآيات الباهرة التي يكشف عنها العلم كل يوم سواء في مجال الكشف عن دقائق تكوين جسم الانسان ، أو ما يتصل بأجواز الفضاء فإنه يصر على أن ينسب هذه المنجزات إلى قدرته وعقله وإلى العلم ويصل في ذلك إلى حد تقديس العقل والعلم ، ويتجاهل العامل الأصيل : مصدر العوامل كلها ، وهو الله تبارك وتعالى .

كذلك فإنه في سبيل إعلاء العنصر الأبيض تحرف حقائق العلم وأقام دعوى عريضة حول الأجناس والعناصر والدماء ترمي إلى التفرقة العنصرية ، مع أن ذلك كله معارض للحقيقة ، صادر عن الهوى كما أشار الباحث الغربي الذي أكشف قومه .

وما يزال الفكر الغربي غارق في الأكاذيب والمفتريات والأباطيل منذ جانب الحق وجاوز الحقيقة التي ليس لها إلا مصدر واحد هو : رسالة السماء وكلمة الوحي الصادقة التي أهدت إلى البشرية أسلوب فهم الحق والاعتصام به مع مجموعة الحقائق الأساسية التي لا تتبدل .

لقد عجز الفكر الغربي عن أن يعرف مصدر الحقائق لأنه اعتمد على تفسيرات الدين الغربي لم تكن صحيحة المصدر ، ومن ثم فقد أنكر الدين ظناً منه أن هذا الذي أنكره هو الدين بصفة عامة وكان عليه أن يبحث عن الدين الحق الموثق المصدر الثابت المنبع .

ولا ريب أن الفكر الغربي سيظل يدور في حلقة الباطل المفرغة لأنه لم يؤصل الأصول التي يقوم عليها البحث عن الحق . هذه الأصول إنما تلتمس من المصادر الربانية أولا . فإن الحق إنما أنزله الله من السماء (أنزل الكتاب بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط) فإذا لم تكن مصادر البحث عن الحق ثابتة لا تقبل التغير أو التحول أو التطور فانها لن تؤدي إلى مقايسة أمور الحياة المتغيرة المتطورة المتحولة . ومن ثم فان الأهواء هي التي تحكم وتسود فلا يبقى للحق وجه ، والإنسان بطبيعته عبد أهوائه ورغباته وغاياته ، فاذا أقام منهج البحث عن الحق فانه سوف يخدع نفسه لأنه لن يصل إلى الحق أبداً ، وإنما يقيم منهج البحث عن الحق . من هو أكبر من الإنسان نفسه . إنما يقيمه خالق الإنسان . ولذلك فإن المتاهة التي كشف عنها (ابل جواد) في كتابه (البحث عن الحق) لا حل لها إلا التماس منهج الدين الحق ويكفي أنها وثيقة دامغة في وجه الفكر الغربي بزيفه وأهوائه التي ما تزال تخدع الكثيرين الذين يعميهم البريق الخاطف عن رؤية الحقائق .

ولا ريب أن كل هذه المذاهب والدعوات والمناهج التي توضع لها عناوين براقة إنما تستمد مصادرها من الأهواء لا من الحقائق ، ولذلك فهي أعجز من أن تحقق للانسان أي مطمح من سكينة النفس أو سعادة الحياة . لأنها إنما تدعو الإنسان إلى مزيد من السعي وراء خطط إعلان الشهوات والغرائز وإنكار طوابع الروح والمعنويات .

(٢٣)

خطر الانهزامية

يطرح الفكر الوافد وهو فكرة الدونية عناوين كثيرة في أفق الفكر الإسلامي تحتاج إلى إعادة النظر إليها في ضوء الأصالة الاسلامية والتفسير الاسلامي للتاريخ وفي ضوء الإيجابية وبناء الإرادة والعزيمة التي يتشكل بها الاسلام أمله في مواجهة التحديات والأخطار والغزو الخارجي .

أولا : مخاطر الانهزامية :

إعترف مفكروا الغرب بالآثار الخطيرة التي أثرت على حضارتهم نتيجة سيطرة المدرسة الاجتماعية والفكر التلمودي فيقول كارل ياسبرز في كتابه مستقبل الانسانية :

هناك بدعتان طاغيتان من بدع العصر هما الماركسية والفرويدية . إنه في عالم محروم من الله ظهر كارل ماركس نبيأ واتخذ القوالب التي يستطيع هذا العالم أن يقتنع بها أو يحتال لها . وكان طبيعياً أن تسيطر على النفوس أساليب فرويد ومدرسته في منهج مهزوز مكدود ، ففي عالمنا المقلوب هذا قد أحس الناس بحاجة شديدة إلى التحرر ، وجاء التحليل النفسي فزودهم بذلك الوهم ، أننا هنا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتي الذي هو انتاج صادق لهذا العصر المفتون والذي يسير جنبا إلى جنب مع أساليب السحر والتعاويذ التي استولت على عقول الناس » .

وليس من شك أن الرأي مستقر الآن تماماً ومجمع على الانهزامية الواضحة في الفكر الفرويدي والفكر الاجتماعي الذي ينشر مظلته على المجتمع الغربي كله ويزحف رويداً إلى المجتمعات البشرية كلها .

ذلك أن الغرب إنشغل طويلا بالعلم التجريبي حتى علت الصيحة التي قالت أن عقل الغرب أصبح أكبر من قلبه وأنه لابد من دراسة النفس الانسانية . هنالك تقدمت هذه المدارس التي استمدت مفاهيمها من الفلسفة المادية ومن الفكر التلمودي فسيطرت على دراسات الأخلاق والنفس والاجتماع وبرز فرويد ودوركايم بعد ماركس يحاولون أن يرسموا البشرية مفاهيمها التي انطلقت من فكرة آثمة خطيرة هي قولهم إن الانسان حيوان ، ولا ريب أن منطلق هذه الدعوة كان يستهدف « تحقير البشرية » وإذ حمل اليهود لواء هذه الدعوة فقد استغلوا لها كثيراً من الفلاسفة وخاصة ما كتبه دارون الذي قال أن الكائنات الحية جميعاً نشأت من أصل واحد وأن الكائنات المعاصرة تسلسلت من كائنات أبسط منها :

هذه الفكرة إستغلها الفكر اليهودي التلمودي أسوأ إستغلال وحاول أن يبسط عن طريق الفلسفة محاولة كاملة التدمير . فمنها تفرع القول بأن الانسان حيوان ومنها تفرع بأن التطور ليس بيولوجيا فحسب ولكنه تطور إجتماعي ومطلق منه القول بأن الجديد أفضل من القديم ويعنون بالقديم هنا مقررات الأديان التي هي مصدر الضوء الكاشف البشرية كلها وتقررت في ضوء المحاولة إلى تدمير البشرية نظرية تقول بتفسير التاريخ بالطعام (ماركس) ونظرية تقول بتفسير التاريخ بالجنس (فرويد) وحمل اليهود كل ما في وسعهم لبث مبادىء دارون وماركس وفرويد ونيتشة وباكونين وسارتر وكلها تهدم الأديان وتدمر النفس الانسانية وبذلك استطاعوا إحتواء الفكر الغربي الذي يعد في نظر الناس هو الفكر العالمي فنجحت خطتهم في إفساد العالم وبشرته وافتتحت مقوماته وتشكيكه في خصائصه وإشاعة الاضطراب فيه ودفعه في أحضان الرذيلة وقذفه في ثورة الانحلال واللؤم والحقد.

والخلفية لهذه الانهزامية التى فرضتها الفلسفات المادية والوجودية والفرويدية والماركسية كلها قد صدرت من مخطط واحد هو البروتوكلات ، وقد اعترف الحاخام هنرى كلين فى صحيفة صوت المرأة التى تصدر فى شيكاغو فى كلمة نشرت له عام ١٩٤٥ جاء فيها أن البروتوكولات وهى الخطة التى وضعت السيطرة على العالم أمر حقيقى وأن زعماء الصهيونية يكونون مجلس (سانهدرين الأعلى) الذى يرمى إلى السيطرة على حكومات العالم ، وقد طردنى اليهود من صفوفهم لأنى أنكرت عليهم خططهم الشريرة .

وإذا كانت الفرويدية انهزامية فإن الهيبية معرفة كاذبة .

وإذا كان الدافع الجنسى موجود فى أساس اجتماع الرجل والمرأة وتوليدهما وفى تخليد جنسهما البشرى غير أنه ليس اساساً صالحاً ليكون مصدراً واحداً لتصرفات الإنسانية ، كذلك فإن الاقتصاد عنصر من عناصر المجتمعات ويفسر بعض التاريخ ، ولكنه ليس أساساً ليكون مصدراً واحداً لتفسيره .

وقد تبين لهذا الفكر البشرى اليوم وعلى أن هذه المحاولات كانت مضللة وأنها ساقت البشرية سوقاً لأزمات امتدت أكثر من قرن وشملت عدداً من الأمم إلى الضلال والهدم وأنها حطمت الطريق الأصيل الذى رسمه الدين الحق للبشرية حين هداها إلى مفهوم ربانى أصيل قائم على التوحيد والرحمة والعدل والإخاء البشرى .

وتبين أن نبوءات ماركس قد فشلت وبطل سحرها ، كما أن مفاهيم فرويد كانت تنطلق من تحليل المرضى ولم تكن تستمد من الأسوياء ، ولم يكن فرويد كما حاول أن يصفه المخدوعون الخادعون بأنه خلال العقد النفسية . ولقد اختلف رفقاء فرويد معه وأنكروا غلوه فى أمر (الجنس) وقدموا تفسيرات أكثر سلامة وصحة ، ولكن القوى التى كانت تدفع الفكر البشرى إلى الفساد أذاعت هذه السموم ونشرتها وفرضتها على مناهج الجامعات مع نظرية التطور ومع مفهوم دوركايم عن المجتمعات وإنكار فطرة الدين وفطرة الأسرة . وتبين من بعد ما كشفت عنه الوثائق أن العملية كانت تجرى بمخطط مرسوم من أجل هدم الإنسان وإفساد البشرية وإعدادها للسقوط بين أيدى أصحاب مخططات صهيون .

وعندما دعا سارتر إلى الوجودية كان يحقق هدفاً أصيلا للتلمودية وهو دفع الإنسان إلى كسر جميع الضوابط والحدود والقيود التى رسمتها له الأديان من أجل حمايته من أخطار التمزق والانحراف والسقوط فى هاوية الشهوات ومن الوجودية جاءت ظاهرة الامتثالية أى الهيبية التى تبحث عن السعادة فى المخدرات والماريجوانا والانفصال عن أعراف المجتمع ورفض الحياة المنظمة واحتقار القيم الاجتماعية ، وإذا كان الهيبيون رافضون فإنه جدير بهم أن يبحثوا عن البديل الصحيح والإيجابى لما يرفضونه ولكنهم حين ينسحبون من المجتمع ويحطمون وجودهم النفسى والاجتماعى فإنهم لا يعملون شيئاً ، ولكن هكذا تعمل التلمودية وبروتوكلات صهيون لتدمير المجتمعات البشرية .

ثانياً : محاذير الشعوبية :

هناك دعوى باطلة تتردد بشدة فى أفق الفكر الإسلامى تحاول أن تطرح مفهوم (الشعوبية) بديلا لمفهوم الاصالة ، إن أبسط مفاهيم الشعوبية هو التنازل عن الهوية والطابع الخاص والذى صاغها الاسلام لأهله ، فهم يدعون إلى الانصهار فى الحضارة العالمية والفكر الأممى وكان طه حسين فى مصر ، وأحمد عارف فى تركيا ، يدعوان إلى أن يسير المسلمون سيرة الأوربيين ويسلكون طريقهم ويأخذون من الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ، وتلك دعوى باطلة وصيحة زائفة يجب أن تقابل بالانكار والنبذ على السواء ، وما تزال هذه الدعوى تتكرر بين آن وآن بأقلام الشعوبيين الجدد تستهدف إذابة الأمة الاسلامية المتميزة بين الأمم بطابعها القائم على التوحيد فى أتون الأممية الضخم الذى تنصهر فيه المشخصات ، ومازال هناك محاولات سعيد عقل فى الدعوى إلى العامية اللبنانية بالحروف اللاتينية ، ومن ذلك محاولات يوسف الخال وإدخال المصطلحات النصرانية والكنسية إلى الشعر العربى و محاولات كتاب كثيرون فى الكتابة بالأسلوب التوراتى الذى حاوله من قبل جبران خليل ونعيمه والريحانى والذى لا يجد قبولا لدى أهل الثقافة العربية .

ثالثاً : محاذير تفسير التاريخ :

منذ وقت بعيد تنبه علماء المسلمين إلى محاذير تفسير التاريخ وأخطاره قال العلامة أبو بكر بن العربى فى كتاب (العواصم من القواصم) :

« احذروا من المفسرين والمؤرخين وأهل الأدب فإنهم أهل جهالة بحرمات الدين وعلى بدعة مصرين ، فلا تبالوا بما رووا ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ولا تسمعوا لمؤرخ كلاماً إلا الطبرى » .

ولقد تنبه النفوذ الغربى منذ وقت بعيد إلى أهمية التاريخ فى تكوين الأمم والشعوب فحرص على إفساده وتسميم منابعه ورسم صورة مظلمة له ومقبضة يعرضها على أهله حتى يكرهوا تاريخهم ويحتقروا أمتهم وينفروا منها .

ولقد كان المجوس واليهود فى القديم هم حملة رسالة تزييف التاريخ ثم جاء الرواة فزيفوا تاريخاً كثيراً وعمدوا إلى غريب من الأخبار فأثاروا الشبهات ثم جمعت أحاديث الرواة وعدها المستشرقون مراجع وجعلوا إليها أتباعهم فاعتمدوا عليها فى تزييف الحقائق .

وكان من أخطر مادعوا إليه اعتبار كتاب الأغانى وألف ليلة وكتب المحاضرات مراجع يعتمدون عليها ، وقد اعتمد مؤلف كتاب (الاسلام وأصول الحكم) كتب الأدب والمحاضرات ، كما اعتمد

مؤلف كتاب (أضواء على السنة المحمدية) على مثل هذه المراجع وكلها زيف لا يرجع إليه فى علوم السنة أو الفقه ، وفى العصر الحديث عمدت الجامعات الكبرى التى أقامتها الإرساليات إلى تلقين التاريخ على أنه علم من العلوم التجريبية بينما لا يمكن محاكاة العلوم الإنسانية وفق مقاييس العلوم التجريبية لأن التاريخ قائم على حركات البشر ونوازعهم ومشاعرهم وكلها لا تخضع لقواعد الرياضيات والتجريب ولكن الهدف من وراء هذه المحاولات معروف وهو انتقاص التاريخ الإسلامى والبحث عن ثغرات فيه وعاكسته إلى مفهوم مادى بينما يستمد التاريخ الإسلامى قوته من روح الإيمان والجهاد والاستبسال فى سبيل هدف واضح وغاية واضحة تبذل فى سبيلها الأرواح وتكون الغلبة فيها القوى المؤمنة القليلة العدد أمام الكثرة الكافرة من أصحاب الأهواء ، ولا ريب تختلف وجهة نظر الإسلام لتفسير التاريخ عن وجهة نظر الأمم الأخرى ، وقد أشار إلى ذلك (اليان وايدغراى) حين قال « أما وجهة نظر المسلمين للتاريخ فإنها نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية إذا اعتنقت تعاليم القرآن فإن إرادتها حينذاك تتطابق وإرادة الله ولا يعود يوجد من يعصى أوامره ، ويعم الإخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم أن لا مرد لإرادة الله » .

(٢٤)

ان تسقط الذاتية الإسلامية فى الاحتواء العالمى أو الأممية

إن « ذاتية العرب الإسلامية » التى تواجه اليوم أخطر تحدياتها من حيث تهب عليها عواطف التيارات الاستشراقية ، ومن حيث تهب عليها تحديات الصهيونية العالمية فى الأرض المحتلة ، ومن وراء ذلك كله : أيدلوجيات متعددة شرقية وغربية ، ماركسية وليبرالية ، هذه الذاتية يجب أن تكون قد عرفت نفسها وحددت موقفها من كل هذه الأخطار .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن هدف التحالف الاستعمارى الصهيونى المادى المركز هو إزاحة هذه الذاتية والقضاء عليها وإبادتها لأنها هى وحدها — وليس أى شىء آخر — الخطر الماثل أمام القوى الراغبة فى احتواء عالم الإسلام والسيطرة عليه سيطرة فعلية متصلة .

وما زال هذا الهدف قائماً منذ بدأت حركة الاستعمار وحركة الاستشراق والتبشير والتغريب ، وهى تمضى حثيثاً إلى غايتها عن طريق الإرساليات والمعاهد والجامعات والثقافة والصحافة ، ولكن حركة اليقظة الاسلامية التى كانت قد سبقت على الطريق والتى تنبهت تماماً لكل هذه التحديات بالرغم من عزلها عن مجال النفوذ السياسى القادر المسيطر ، وامتياز التغريب بالسيطرة على كل مجالات النفوذ وبالرغم من هذا ولأنها تستمد قوتها من الفطرة ومن الأصالة ومن الحق ، ولأنها تدعو إلى الناس المنابع والعودة إلى الأصول والقاس المفهوم الصحيح للقيم ، لأنها كذلك فقد استطاعت أن تشق طريقها وأن تحطم قوى الغزو واحدة بعد أخرى ، وما تزال تشرع أسنة أقلامها فى الميدان لا تتوقف عن المقاومة ، وهى بحق فى رباط دائم إلى يوم القيامة شأنها شأن أهل الجهاد بالسيف .

لماذا يلحون على هذه الفكرة بالرغم من عدم صلاحيتها ، أساساً ، وبالرغم من عدم قدرة الفكر الاسلامي على تقبلها ، وبالرغم من أنها ليست حتمية بوجه واحد من الوجوه . لماذا يريدون من العالم الاسلامي والمجتمع الاسلامي أن يفقد شخصيته وذاتيته حتى يستطيع أن يصل إلى مكان الأمم الغربية في الحضارة والعلم والتكنولوجيا .

وأمامنا عشرات الأمثلة على فساد هذا الترابط بين المدنية المادية والحضارة كعقيدة وقيم فكرية ، ولماذا لم تفعل ذلك أوربا حين نقلت المنهج العلمي التجريبي من المسلمين دون الشريعة الاسلامية ، بل وحين نقلت بعض قوانين هذه الشريعة دون البعض الآخر ، ولم يقل أحد يوماً أن الغرب عجز دون التقدم .

أن هناك حقيقة قائمة ، وهي واقع تاريخي متكرر ، أن الأمم من شأنها أن تقتبس من شؤون المعرفة والعلم ما تشاء ولكنها لا تستطيع أن تعتنق عقيدة الحضارة الأخرى ولا ثقافتها الروحية والفكرية والتقنية والاجتماعية .

وإن المسلمين لا ينقصهم شيء في طريق التقدم إلا هذا الجانب من العلم التجريبي الذي أنشأوا شجرته ثم أهملوها حتى نماها الغرب ، وهم لا يحتاجون إلى شيء سواه ليصوغوه في إطار لغتهم وفكرهم ويضموه ليصلوا به إلى ما وصل إليه الغرب من تقدم مادي ولكنهم أن يخضعوا وأن يذلوا وأن يستعبدوا لعقيدة الحضارة الغربية وهي عقيدة أصابها الفساد الكثير وتعيش الآن محنتها وأزمتها ، وأن أصدقاء العرب والمسلمين الذين يظنون أنهم يصدقونهم القول حين يدعونهم إلى الانخلاع من عقائدهم الروحية والقومية والثقافية ليندمجوا في أتون الحضارة العالمية أو ينصهروا في الأممية أو يذوبوا في الدولية أو تحتويهم هذه الدعوات ، هؤلاء ليسوا صادقين وليسوا مخلصين للعرب والمسلمين . لأن النصيحة التي يمكن أن توجه للمسلمين والعرب هي أن يحتفظوا بذاتيتهم وأن يتمسكوا بمقدراتهم وأن يعيشوا عقيدتهم وقيمهم ولو تأخر بهم أمر هذا التقدم المادي سنوات وسنوات على أن يفقدوا ذاتيتهم ويصبحوا شيئاً لا قيمة له في الإطار الواسع : إطار الأقوياء الذين يتزعمون الآن تحت ضربات المادية والصهيونية العالمية التي تحتويهم وتحاول أن تحطم مجتمعاتهم .

إن « الأصالة » في مفهوم العرب والمسلمين تختلف كثيراً عن مفهوم جاك بيرك وأراوله تويفبي وهي ليس دخولا في مرحلة الاحتواء الغربي بأي شكل كان ، وأن الذين يدعون إلى هذه الوجهة أو يحاولون تحقيقها سوف تجرفهم سنن الحضارات ، وسوف تستعيد الحضارة الاسلامية مديتها كاملة لتحرر البشرية ، وسوف لا تستطيع الدعوة العالمية ومن وراءها وقد انكشفت أهدافها ، أن تخدع المسلمين والعرب بعد النكسة ١٩٦٧ ، فقد ذهب الكثيرون خلال هذه السنوات يجرون وراء بريق الدعوة الغربية ظناً منهم أنها صادقة مخلصة ثم انكشفت لهم الحقائق ولم يجدوا أمامهم إلا ذلك الخطر الصهيوني المدمر الذي ورث النفوذ الاستعماري الغربي ويحاول أن يستوعب كل ما كان له من نفوذ .

وكذلك فإن الفكر الإسلامي لا يؤمن بما يدعيه بعض المفكرين من أن الاستشراق قد انتهى دوره وأن المحاولات المصورة الآن تدخل تحت إسم التحليل الاجتماعي . ونحن نعرف أن الاستشراق قد دخل مرحلة جديدة أكثر خداعاً وأكثر تمويهاً وأنها تحاول الآن أن تستقطب مجموعة جديدة من الكتاب يدعون أنهم كانوا غافلين عن جوهر الفكر الإسلامي وأنهم لم يلتفتوا إليه إلا اليوم ، ثم هم يعيدون النظر فيه من جديد وقد يصفق لذلك بعض السذج كما صفقوا من قبل عندما كتب طه حسين هامش السيرة ، ولقد يحاول هؤلاء الكتاب أن يخدعوا قراءهم . كما فعل مرجليوث وجولد زيهر وبرنارد لويس وغيرهم بمحاولات الإطراء الكاذب بالاحتفال بالإسلام ثم ، ثم هم يثيرون حوله أشد الشبهات وأكثرها ضلالا .

وإذا جاء أبناء العربية اليوم من أتباع المدارس الغربية وقد كان بعضهم على مذهب أوجست كونت أو ماركس أو نيتشه أو غيره ليتحدثوا عن الإسلام فنحن لا نقبل منهم ما يقولون إلا تحت شرط واضح وقاعدة أساسية تتمثل في سؤال واحد هو : هل يؤمنون بالوحي ؟

ذلك أن الظاهرة الخطيرة التي تتمثل الآن في كتابات الاستشراق . هي محاولة الكريم سيدنا محمد ﷺ ولكن لا على أنه نبي مرسل من عند الله وأن القرآن كتاب الله للوحي به إليه ، ولكن على أنه « مصلح عظيم » أو « نبي الحرية » أو عبقري أو بطل الأبطال أو ما إلى ذلك من صفات تطلق على المصلحين الأرضيين لا على أنبياء الله المرسلين بالحق .

ولقد يذهب بعض هؤلاء إلى الادعاء بأن الوحي ما هو إلا صورة العقل الباطن ، أو ينسبون إلى النبي أنه رجل استوعب ثقافات عصره وهو الأمي الذي لم يخط حرفاً ولم يقرأ كتاباً ، أو يقولون أنه مصلح عظيم وجد أمة مستعدة للنهضة فنهض بها بينما أمضى الرسول ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى الله فلم يجد غير المقاومة والظلم والإصرار على الجاهلية في رباها وخمرها وميسرها ، كل هذه النظريات الباطلة يحاول بها بعض أهل الاستشراق أن يغير الحقائق وأن يقول غير ما وقع فعلا ، نحن نعلم أن هذا هو طابع الاستشراق الجديد الذي تقوده الصهيونية والذي يصفه جاك بيرك وغيره بأنه تحليل اجتماعي .

إن هذه الأمة تعرف طريقها . وتعرف الأسلوب الوحيد الذي يردها إلى مكانها الذي أقام حضارتها وإن تختلف بها الطريق أبداً ما دامت تستمد ضوءها من القرآن .

ولقد كان توينبي يعرف كما يعرف اليوم بيرك أن هذه الأمة لا تصر على شيء قدر إصرارها على المحافظة على ذاتيتها والرفض بالسماح لشخصية الإسلام والحضارة أن تتلاشى أو تذوب في شخصية حضارة أخرى وتعرف أن ذلك هو « السر » في كل انتصاراتها في معاركها مع الصليبيين والتتار والفرنجة والاستعمار والصهيونية وفي الجزائر والهند ومصر والباكستان وسوريا وفلسطين .

إن الشخصية العالمية مهما لمعت فهي قائمة على الظلم والاستغلال والاستعمار ، ولذلك فهي زائلة لن تستطيع الحضارة الغربية أن تعطى الإنسانية أملها وروحها وإيمانها ، وستظل الشخصية الإسلامية قائمة وقادرة على الثبات حتى تنتصر وإن الذوب أو تحتوى مهما تجمعت عليها كل قوى الفكر الصهيونى التلمودى أو الفكر الغربى المسيحى .

(٢٥)

عقبات على طريق النهضة الإسلامية

لاريب أن حركة اليقظة الإسلامية التى بدأت من قلب الجزيرة العربية وامتدت إلى مختلف أجزاء العالم الإسلامى وحمل لواءها دعاة التوحيد الخالص قد مرت منذ فجرها بمراحل متعددة كانت خلالها تعمل فى ميدانين متكاملين هما :

(١) تحرير العقيدة الإسلامية من زيف مفاهيم الوثنية والشرك والتقاليد والجمود .

(٢) مقاومة النفوذ الأجنبى الزاحف الذى سيطر على عالم الإسلام تحت أسماء الاستعمار والاحتلال والانتداب وغيرها .

وهى أسماء كانت تعنى السيطرة السياسية والعسكرية التى كانت ترمى إلى ترسيخ الاحتواء الفكرى وصهر الأمة الإسلامية فى بوتقة التغريب وإخراجها من مقومات ذاتيتها لتذوب فى الأممية التى تفقدها وجودها الحقيقى . ولقد ذهبت السيطرة السياسية والعسكرية عن الأجزاء التى وقع عليها الاحتلال ، ولكن النفوذ الفكرى والثقافى كون ركيزة خطيرة دارت فى ثلاث حلقات متوالية هى :

(١) الفكر الوافد كشكل بمفاهيمه المعارضة للفكر الإسلامى والمختلفة معه فى أبحاث السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية .

(٢) الفكر الصهيونى التلمودى الذى تسرب عن طريق النظريات والمفاهيم والأيدلوجيات التى طرحها الفكر الغربى والتى سيطرت على عديد من القادة والمفكرين عن طريق مدارس الإرساليات من ناحية والمحافل الماسونية من ناحية أخرى ، وعن كليهما صدرت تلك المعتقدات التى تطورت من بعد فى صورة العصرية والتقدم والتجديد وحرية الفكر وهى تعنى العلمانية والتنكر لقيم الأديان وأخلاقياتها والوحدة الإسلامية والتكامل الجامع الذى قام عليه منهج الإسلام .

(٣) ومن خلال مدارس الإرساليات ومحافل الماسونية قامت الدعوة إلى الماركسية واستطاعت أن تجد لها خلايا فى قلب فلسطين وكشفت منذ ذلك الوقت الباكر تلك العلاقة الجذرية بين الصهيونية

والصهيونية فإن اليهود هم طلائع الماركسية وحماتها إلى المشرق العربي ، وإن هذه الجامعات اليهودية الماركسية قد ارتبطت بجماعات الاضلال وأشدها انضباطاً وأن الأموال الصهيونية هي التي غذت هذه المحاولات كلها بالفكر والمال وحركتها من وراء ستار لتبث سمومها الفكرية ، وكان الصهيونيون قد اشتهروا بهذا النوع من التسميم والتضليل ، وقد اعترف بهذه الحقيقة أخيراً بعض الذين اتصلوا بهذه الجماعات وسجلوا اعترافاتهم في وثائق جديرة بأن تكون موضع عناية الدارسين لحركة اليقظة الإسلامية .

كذلك فقد كشفت الوثائق عن الصلة العميقة بين المحافل الماسونية وبين حركات مقاومة الاستعمار وقد حمل لواءها اليهود وجندوا لها ضعاف الإيمان والعقيدة حتى قال ولسلي القائد البريطاني الذي فتح مصر وقضى على ثورة عرابي ١٨٨٢ : « إنني أينما توجهت أقيمت إخواناً من الماسون يرحبون بي ويساعدونني على ما أريد واسعد أرتاب في أن نجاحي كان لأنني أستاذ في الماسونية » .

وقد تبين للكثيرين أن الماسونية حركة يهودية عالمية تستهدف إعادة اليهود إلى أرض الميعاد مستغلة بشعارات خلابة مستندة أحياناً إلى ما وضعه اليهود وما كتبوه بأيديهم في التوراة والمزامير ، وأن كلمة البناء الحر لا تعني إلا إعادة بناء هيكل سليمان .

ومن العجيب أن المحافل الماسونية هي التي وجهت إلى أهل فلسطين عام ١٩٢٢ بياناً يحمل وجهة نظر الصهيونية يدعي أنها جاءت لتعمير فلسطين والعمل على تحضيرها ونشر الرفاهية فيها وحث أهل فلسطين على التسليم بالواقع والاستسلام له .

ولقد آزر الماسونية طريقاً إلى الصهيونية : أصحاب المقطم والمقتطف وصاحب الهلال (صروف ونمر ومكاريوس وزيدان) ولكن خداع الدعوة المسمومة لم يلبث أن كشفه الذين وصلوا فيها إلى أعلى الدرجات (أحمد غلوش وعلي الزغبي) وغيرهم لقد كشفوا عن أن كلمة السر في أعلى الدرجات كانت تفسير الماسونية بأنها إعادة بناء هيكل سليمان ، لقد كشف كثير بعد ذلك حقائق أبعد مدى ، منهم الأدميرال وليام جاي كار بكتابه (أحجار على رقعة الشطرنج) والجنرال جواد رفعت .

هذا الخيط الدقيق من شأنه أن يغير كتابة تاريخ الشرق الحديث من جديد في ضوء الجوانب الخفية البعيدة التأثير فيه وفي تطوراته ، سواء من حيث مخططات مدارس الإرساليات التي كانت على ولاء مزدوج للصهيونية والاستعمار ومحافل الماسونية وسيطرة اليهود على إنشاء خلايا الماركسية الشيوعية ودعم الاتجاه المريب الذي يدعو إلى تقبل وجود إسرائيل في جسم الأمة الإسلامية .

وسرعان ما تبينت آثار ذلك من قيام إسرائيل حين أعلن بن جوريون أن السوفييت هم الذين ساعدوا إسرائيل في إلحاق الهزيمة بالعرب خلال ١٩٤٨، ١٩٤٩ وقال إن الروس كانوا يرسلون الأسلحة إلى تشيكوسلوفاكيا لتصل إلى اليهود الذين قاتلوا العرب وطردوا الفلسطينيين من وطنهم وهذا أحد أبعاد

القضية ، وأن موقف (ولسون) وقد حمل لواء مساعدة اليهود لقيام دولة إسرائيل في مؤتمر الصلح بعد الحرب العالمية الأولى وفرض قيام الوطن القومي بالإشتراك مع بلفور وغيره ، هو بعد آخر.

ولقد أشارت الوثائق إلى أن الإتحاد السوفيتي قدم وحده أربعين في المائة من الأموال الضخمة التي تدفقت على اليهود قبل احتلال فلسطين لشراء الأراضي من العرب بينما قدمت دول الشرقية ٢٨ في نسبة هذه الأموال . كذلك فقد أشار هتلر إلى موقفه من الأيدلوجية التي طرحها إذ ذاك في أوربا ، فقد انكببت على دراسة نظريات قادة هذه الحركة فوجدت نفسي أمام عقيدة مبنية على الحقد والأنانية ، عقيدة يعني انتصارها هزيمة البشرية وما لبثت أن اكتشفت الصلات الوثيقة بين هذه العقيدة الخطيرة والمبادىء التي يدعو إليها اليهود وأدركت مع الأيام أن أهداف الحركة هي نفسها أهداف اليهود كدين والصهيونية كحركة سياسية قومية ، ومما زاد نقمتي على اليهود تكالبهم على جمع المال بجميع السبل الملتوية وقد لمست الحقائق التي لا تخطر ببال الدور يمثله اليهود في ترويج سوق الدعارة والإتجار بالرقيق الأبيض ، هذا الدور الذي يؤديه اليهود بمهارة لم يتنبه إلى خطورته الشعب الألماني إلا في الحرب العالمية الكبرى ، أما أنا فقد شعرت بالأسف حين اكتشفت أن اليهود : هذا المخلوق الوديع هو الذي يستثمر البغاء السري ويحوله إلى تجارة رابحة .

وحين تتكشف هذه الحقائق على طريق حركة اليقظة الإسلامية يتبين مدى العقبات التي تقف أمام انتقالها من اليقظة إلى النهضة ، ذلك أن الماسونية إذا كانت قد اختفت بعد أن انكشفت أهدافها فإنها تركت مكانها لبديل خطير هو أندية الروتاري والليونز .

ولقد تأكد للباحثين تلك العلاقة العضوية بين الروتاري وبين الصهيونية فالهدف الأساسي هو نفس هدف الماسونية وصولاً إلى الصهيونية : وتحطيم العقائد الدينية العالمية جميعاً لخدمة اليهودية وهي تركز على عدم اعتبار الدين مسألة ذات أهمية في الحياة العامة ، وبذلك يخلع أتباعه من رقابهم كل توجيه من جانب أديانهم وبذلك يتحقق هدف الصهيونية وهو توفير الحماية للأقلية اليهودية ، ومن سموم الروتاري أنه يسمي الإسلام باسم المحمدية ويضعه في قائمة الأديان المختلطة سماوية ووضعية ويعد نحلة (التاديوم) وهي العقيدة البشرية الصينية التي ظهرت قبل الميلاد بخمسمائة عام ديناً ، وهي نحلة تدعو إلى تحقيق السعادة بالاستجابة لمطالب الغرائز البشرية وتسهيل العلاقات الاجتماعية والسياسية بين جميع البشر . والجنس سلاح من أسلحة الروتاري وحفلات الرقص الأسبوعية التي تنظمها في نوادي الطلبة . كما يعمل في المدن الجامعية لتسهيل الفساد على ساكنيها من الطلاب .

ولا ريب أن ظاهرة انتشار أندية الروتاري والليونز والكيواني الاكستشانج في الوطن الإسلامي هي من أخطر التحديات التي تؤخر خروج المسلمين من مرحلة اليقظة إلى مرحلة النهضة ، وتحول دون بلوغهم دائرة الإرادة القادرة على التغيير والتماس المنابع الأصلية وتحقيق مجتمعهم

الربانى الذى يطبق شريعة الإسلام ويلتمس مناهجه فى السياسة والاقتصاد والتربية والاجتماع وهناك حركات التصابح الخالق والإخوان الحرية وغيرها يحوه .

ومن الظواهر الجديرة باليقظة استغلال حركة الغزو التبشيرى والثقافى لحركة محاربة الشيوعية والماركسية لكسب أراض جديدة والمسلمون يجب أن يكونوا من اليقظة بحيث لا يستغيثون بعدو لمحاربة عدو آخر ، إذ أن القوى كلها من التبشيرية التغريبية ومن صهيونية ومن ماركسية شيوعية هى قوى معادية يجب أن تواجه جميعها بحزم وإصرار

وفى مجال الغزو التغريبى والتبشيرى تستمر دعوة جامعات الإرساليات إلى أن تحل العاميات والحرف العربى وهم يبذلون جهدهم فى دراسة اللهجات ومحاولة اعلانها لتكون ذات تراث واحد وغيره بهدف اقامتها كلغات اقليمية ، هذا العمل يستهدف تدمير وحدة الفصحى القرآنية والقضاء على الثقافة الإسلامية التى قدمها الإسلام ونماها القرآن ، كذلك الدعوة الى العلمانية هى من أخطر هذه الدعوات وكذلك تفسير التاريخ الإسلامى تفسيراً ماديا واقتصاديا وجنسيا وكذلك حركة الترجمة التى تستهدف ترجمة القصص المكشوفة والمذاهب الهدامة وأيدلوجيات الإباحية والإلحاد ومذاهب المدرسة الاجتماعية وغيرها مما صنعه التلموديون اليهود ، كل هذا يرمى الى تغريب العقل والنفس المسلمة والعربية وتدمير التاريخ واللغة والتراث والعقيدة ، وهو لا يتوقف عند هذا الحد بل أن هناك تلك المحاولات التى تستهدف تطويق العالم الإسلامى بطوق تبشيرى مسيحى غربى .

وتقول الأنباء أنه قد تم انجاز جانب كبير من هذا الحزام عبر آسيا وأفريقيا ويجرى حاليا استكمال حلقاته بنشاط واسع مكثف ، وكذلك ماتزال دعوات القوميات اللادينية والاقليميات ترفع لواء العنصرية وتركز جهودها وتقيم الحواجز الضخمة لتفتيت العالم الإسلامى والحيلولة دون قدرته على اعلان وحدة الفكر الإسلامية .

كل هذا من شأنه أن يكون موضع دراسة خبراء الدعوة الإسلامية وحماة الفكرة الإسلامية والعاملين فى محيط حركة اليقظة الإسلامية . وما يزال الشباب المسلم واقعا تحت تأثير التيارات الهدامة والمذاهب الفكرية المعادية للإسلام . وماتزال هذه التيارات تغزو أفكارهم وتعطيهم صورة مشوهة عن واقع الإسلام ، هذه التيارات الوافدة والمؤثرات الأجنبية تعمل فى مجالين خطيرين : تدمير الأسرة والمجتمع الإسلامى بنشر الإباحة وإفساد العقل الإسلامى والنفس الإسلامية بإذاعة الإلحاد.

وهناك الدعوة الخطيرة المسمومة إلى إضعاف الأمة الاسلامية حتى تعجز عن المواجهة والجهاد وحتى تسقط إزاء نمو الصهيونية فى إسرائيل ونمو بعض النحل الأخرى لضرب الاسلام فى أعز مواقعه ، وهى تحمل اسم (تحديد النسل) وترفع راية زائفة كريهة هى (الانفجار السكانى) وقد كشفت الأبحاث الاقتصادية عن (قانون الوفرة) وكذب ادعاءات القائلين بنضوب الثروات وتبين أن فساد التوزيع هو الأمر الخطير السائد الذى يجب أن يواجه بحزم .

وهكذا نجد أن العالم الاسلامي بالرغم من خطوه الواسع نحو الأصالة والمواجهة مع التحديات مازال يلقى مزيداً من عوامل التعويق عن الخروج من مرحلة اليقظة إلى مرحلة النهضة .

فالمسلمون الآن على وعي كامل بأبعاد المخططات التي تحاول أن تحصرهم في دائرة مغلقة وأن تستنفد أقواتهم وثرواتهم في مواجهة تيارات لا تتوقف من الصراع والمحاورة ، ولو أنهم عزموا الأمر ليأخذوا منهجهم الرباني طريقاً كاملا بعد أن تبين لهم فساد ما سواه وبعد أن قطعوا بالتجربة أكثر من سبعين عاما بين منهج وافد ومنهج مضلل وكانت خسارتهم ضخمة خلال هـذه المرحلة الطويلة وما تزال امكان خيراً لهم ولكنهم لما يزالوا بعد دون القدرة على الحركة إلى الأصالة بالتغيير (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فلعلهم يعزمون أمر التغيير النفسي والاجتماعي على مشارف القرن الخامس عشر الهجري لتتحقق لهم هذه الخطوة الرائقة على طريقهم إلى تبليغ رسالة الله للعالمين .

(٢٦)

وعد الله لإبراهيم

تقيم الصهيونية العالمية دعواها بالسيطرة على فلسطين من خلال القول بأن هناك (وعداً) لإبراهيم عليه السلام وذريته بالسيطرة على الرقعة الممتدة من النيل إلى الفرات وهذه حقيقة ولكن التزييف يقوم على أنهم يقصرون هذا الوعد على بني إسرائيل من دون ذرية إبراهيم جميعاً فيحجبون إسماعيل عليه السلام وذريته . والواقع أن وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم قد تحقق فعلا بسيطرة المسلمين والعرب على هذه المنطقة وأن الله تبارك وتعالى أسقط بني إسرائيل ونحاهم عن الملك بعد أن عجزوا عن تحقيق إرادة الله وإقامة المجتمع الرباني وأحل محلهم أبناء إسماعيل الذين تحقق على أيديهم وعد الله لإبراهيم عليه السلام وامتد ملكهم من النيل إلى الفرات .

وعد الله : هو لإبراهيم عليه السلام وذريته الصالحة وليس اليهود الذين خرجوا عن طريق الله وزيفوا التوراة .

ومن يراجع التوراة التي بين الأيدي الآن والتي كتبها (عزرا) في منفى بابل يجدها قد حرفت حقائق التاريخ وأنكرت حق آل إبراهيم في الوعد الإلهي وقصرته على بني إسرائيل وتجاهلت رحلة إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز وبناء الكعبة فقد صمتت التوراة صمتاً شديداً عن كل ما يتصل بعلاقة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالجزيرة العربية ومكة وبناء الكعبة ، والهدف الذي هدف إليه كهان اليهود هو إخراج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذي تلقاه إبراهيم عن ربه وجعله في الصالحين من ذرية إبراهيم على النحو الذي سجلته الآية القرآنية الكريمة . أ هـ

(وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) .

والظروف التى كتبت فيها التوراة فى منفى بابل من شأنها أن تكشف عن الهدف الذى قصدت إليه هذا التزييف الخطير فقد جاء ذلك بعد أن دمر بختنصر الكلدانى المعبد اليهودى وقتل وسحق وأنفى مئات الألوف عام ٥٧٦ قبل الميلاد وهناك فى المنفى البابلى وقد تجمعت الأحقاد اليهودية وضعت خطط للتوراة التى زيفت ما زيفت من تاريخ إبراهيم ولوط وداود وسليمان من أجل وضع مخطط يعلى من شأن إسرائيل ويهوذا ويحجب من حقائق التاريخ اليهودى ما تراه العنصرية اليهودية مطابقاً لأهوائها وأحقادها فى الثأر لمأساة تدميرهم وهنا برزت دعوى (شعب الله المختار) ومن أجلها زيفت حقائق كثيرة ورفعت نصوص كثيرة من التوراة الأصلية ، وكان اليهود ينفسون على العرب أن صار لهم بيتهم المحرم منذ أيام إبراهيم بينما لم يصبح لهم هيكل فى بيت المقدس إلا فى أيام سليمان بن داود ولم يقف أمر اليهود عند حرمان أبناء اسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه فادعوا أن الذبيح هو إسحق وليس اسماعيل مع أن التقاليد كانت تقضى بتقديم الابن البكر قرباناً لله .

وقد كشف القرآن عن هذه الحقيقة وربط بين ابراهيم عليه السلام وبين محمد ﷺ على أساس أساس أن ابراهيم هو صـــاحب الإمامة الكبرى فى الدين ومنه تفرعت الأديان السماوية الثلاث المنزلة : الدين الذى أنزل على موسى والدين أنزل على عيسى والدين الذى أنزل على محمد ، ويرجع التاريخ عهد إبراهيم إلى عام ١٧٠٠ قبل الميلاد ، وقد هاجر ابراهيم بإبنه اسماعيل وزوجته هاجر إنفاذاً لأمر الله سبحانه وتعالى واستجابة له إلى جزيرة العرب حيث ترك اسماعيل وأمه هاجر فى مكة وكان البيت مرتفعا فى الأرض كالرابية تأتيه السيول ثم عاد بعد أن كبر إبنه اسماعيل وأقاما معاً القواعد من البيت وكان اسماعيل قد شب وأصهر إلى جرهم وقد انتشر أبناء اسماعيل الاثنى عشر فى المنطقة الممتدة ما بين الشام ومصر وأعلنت ألواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى والتى وجدت فى أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين أن قوم اسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبنائه الاثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوىء بابل وأشور ومصر والاغريق والرومان .

كذلك زيف اليهود دور الحنيفية الابراهيمية كله من إبراهيم إلى محمد ووقفوا موقفاً مضللاً من الهجرات المتوالية التى امتدت منذ ١٧٥٠ قبل الميلاد إلى ظهور الاسلام ٦٥٠ ميلادية (أى خلال قرنين ونصف قرن تقريباً) وهى الهجرات التى أنشأت حضارات بابل والأشوريين والكنعانيين وسيناء فقد لسوا ذلك إلى حد أنهم حتى لا يثبت الفضل لأهل العرب والمعروف أن الهجرات التى تمت منذ جاء ابراهيم واسماعيل إلى الحجاز قد قذفت بموجات متوالية من العرب أهل الجزيرة إلى مختلف أجزاء المنطقة العربية الممتدة مابين النهرين إلى الشام إلى مصر إلى المغرب وأن هذه الموجات العربية

هى التى وسدت الإسلام الهجرة الكبرى وهى التى استقبلت الفتوح الإسلامية ، وقد كانت حضارات هذه الأمم الصادرة من الجزيرة العربية عربية ، وقد اكتشفت هذه الحضارات وأثبتت الأحافير والكشوف الأثرية أنها عربية خالصة ، ولكن اليهود التلموديون فى سبيل الغض من قدرة العرب والإسلام قد نسبوها إلى جد ليس هناك مصدر لإثباته إلا التوراة المكتوبة لا المنزلة ، نسبوها إلى سام حتى يطمسوا أمجاد الحنيفية الإبراهيمية الممتدة من إبراهيم إلى محمد والتى حرفها اليهود حين حولوا دين موسى إلى عنصرية شعب الله المختار .

وقد أشار القرآن إلى أبوة إبراهيم للعرب : (ماجعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا . . . الآية)

كما أشار القرآن إلى أبوة إبراهيم الأنبياء الذين جاءوا من بعده : (ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين) .

وقد بين هذا النص القرآنى أن إبراهيم عليه السلام هو جد اليهود والنصارى والمسلمين ، ويؤكد الباحثون أن القائمين على دين موسى ودين عيسى لم يستطيعوا أن يواصلوا رسالتهم على النحو الذى أراده الله تبارك وتعالى ، فالعبرانيون جعلوا من أنفسهم طائفة قائمة بذاتها متميزة وأعلوا شأن العنصر والعنصرية بادعاء أنهم شعب الله المختار ، أما المسيحية فإنها مالت إلى الانحصار فى الذات فجاء الإسلام ليحقق رسالة التوحيد الحق لله تبارك وتعالى وهكذا بدأت الرسالة الحنيفية بالعرب وانتهت بهم وإن كانت قد انحرفت فى منتصف الطريق فإن الاسلام أعادها مرة أخرى إلى الجادة .

(كنتم خير أمة أخرجت للناس) .

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

وهكذا تتأكد لنا حقيقة لا ريب فيها هى : أن وعد الله لإبراهيم والصالحين من ذريته قد تحقق بالاسلام ، فقد استطاع أن يوسع رقعته وينشر كلمة الله إلى البعد المحدود كما تأكد فساد دعوى اليهودية وباطلها بالانحراف إلى العنصرية التى أسقطتها من وعد الله (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) .

والتاريخ يؤكد هذا ، فإن التحريف الذى قام به (عزرا) للتوراة بقصر الوعد الإلهى لإبراهيم على شعب الله المختار كان تحريفاً فاسداً ، وهو الذى فتح الباب لقول فيلون عام ٢٠ أو ٣٠ قبل الميلاد

وأن العنصر اليهودى يجب أن يستوطن الأرض المقدسة . أرض الميعاد والزحف منها إلى العالم والسيطرة عليه ، وفى ضوء هذه الغاية صيغت العناصر الجوهرية للكتب المقدسة عند اليهود ثم وضع التلمود محققاً الخطوات التى تلت ، مصوراً هذه المطامع بعد إعادة كتابة التوراة ، وكان ما صوره ليلون هو حجر الأساس للفكرة الصهيونية :

لقد تبين بما لا يدع مجالا للشك أنه تحت تأثير الحقد اليهودى الذى ألم بهم بعد تجربة السبى البابلى أن حرف اليهود التوراة ووضعوا هذه الفكرة العنصرية التى تتفق مع دعوتهم الباطلة (شعب الله المختار) وأقاموها على أساس أن وعد الله لإبراهيم عليه السلام فى أبنائه بامتلاك هذه الأرض ، أقاموها على أن هذا الوعد قاصر على إبنه إسحق وذريته وحدهم ومن هنا يجىء الادعاء التاريخى الباطل بما يسمونه العودة إلى أرض الميعاد .

ولقد أذاعت اليهودية العالمية هذه الفرية المبطلة فى كل كتب التاريخ بالإضافة إلى دراسة الأديان عموماً فى دوائر المعارف العالمية وزيفوا تاريخ الكلمات المتصلة بذلك من أمثال عرب فلسطين وإبراهيم وإسماعيل (ويبدو هذا الزيف واضحاً فى دائرة المعارف الإسلامية والموسوعة العربية) مما ترجم إلى اللغة العربية ، ولقد امتد هذا العمل الضخم إلى مختلف مجالات التعليم والثقافة والجامعات الغربية ، وخاصة فى البلاد التى تتبع المذهب البروتستانتى الإنجيلى : أمريكا ، وبريطانيا وبعض بلاد شمال أوربا ، وقد كانت المؤامرة الضخمة التى قامت بها اليهودية العالمية هى طبع العهد القديم مع الإنجيل على أنه مقدمة له ، وبذلك فرضوا على المسيحيين الغربيين وخاصة البروتستانت الاقتناع بما زيفوه فى التوراة حول وعد إبراهيم الذى جعلوه لبنى إسرائيل وحجبوه عن إبراهيم الأكبر (إسماعيل) كما حجبوا بناء الكعبة ورحلته إلى الجزيرة العربية ، وهذه هى المؤامرة التى تحاول اليوم أن تبرز على ألسنة الصهيونيون الذين قالوا أنهم يحملون التوراة ليطلعوا الرئيس الأمريكى كارتر على هذا النص .



الباب الخامس

أمة القرآن على أبواب القرن الخامس عشر

---

١ - مدخل

٢ - أمة القرآن

٣ - التحدى الخطير

٤ - الأصالة الإسلامية

٥ - بل الإسلام لقيادة العصر

٦ - الإسلام والعروبة

٧ - البدائل الزائفة

٨ - على طريق الحق

٩ - أسلمة الإعلام

١٠ - الإسلام : ربيع البشرية

١١ - العودة إلى المنابع

١٢ - أصالة التراث الإسلامى

١٣ - الإسلام لا يقر نظرية الاستسلام

(١)

مدخــل

على أبواب قرن جديد :

فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى كانت حركات الاستعمار الكبرى للعالم الإســلامى تركز قواعدها فى الهند ومصر والجزائر وتونس والسودان كحلقة أخيرة من حلقات تطويق العالم الإسلامى التى بدأت قبل ذلك بوقت طويل .

وفى هذا القرن تمزقت الوحدة الإسلامية الجامعة بالدولة العثمانية والخلافة الإسلامية ، وقد تنازعت الدول الكبرى ميراث العرب والإسلام وسيطرت على أضخم قواعده ومقدراته ومعطياته ، واندفعت الصهيونية العالمية من خلال مخططات الاستعمار لتسيطر على فلسطين وتجعل من احتلال بريطانيا القدس مقدمة لسيطرتها عليها بعد خمسين عاماً فقط .

ولقد قاوم العرب والمسلمون مقاومة لم تتوقف من أجل الحفاظ على الكيان ولم يستسلموا وقدموا أنفسهم فى سبيل الله والحق والأرض فى معارك حاسمة فى أجواء مختلفة من العالم الاســلامى : فى أفغانستان والقرم ومصر وسوريا والجزائر والعراق وباكستان دون أن يتوقفوا ، وقد حققوا كثيراً من الانتصار ، وفى هذا القرن قامت دولتان كبريان للإسلام هما أندونيسيا والباكستان ، وتحررت العروبة من نفوذ الاستعمار وانبعثت من قلبها أضخم حركة لليقظة واستعادة مكانة العرب فى قلب الاســلام .

غير أن حركة التحرر لم تلبث أن واجهت امتحانات قاسية فى العقود الأخيرة من هـذا القرن هى ترابط الاستعمار والصهيونية من أجل ضرب حركة اليقظة ، ودفعها عن طريقها الصحيح ، ومن ثم فإن أخطر التحديات فى هذه السنوات الخمس الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجرى إنما تتجمع كلها حول بؤرة واحدة : هى الحفاظ على الذاتية العربية الاسلامية وحماية الأصالة ، وتحرير النفس العربية الاسلامية والعقل العربى الاسلامى من زيوف الشباب والتحديات والأخطار الفكرية والثقافية التى تلقى إليهم عن طريق التبشير والاستشراق وحركات التغريب والشعوبية والغزو الثقافى من أجل إذابة الذاتية العربية الاسلامية فى بوتقة العالمية أو الأممية وإخراج المسلمين من إسلامهم والعرب من عروبتهم المرتبطة بالاسلام وإخراج المسلمين والعرب جميعاً من تصورهم المستمد من قيمهم ومن مفاهيمهم القائمة منذ أربعة عشر قرناً على أساس التوحيد والأخلاق والايمان مستمدة من القرآن متمثلة فى منهج الاسلام الجامع بين الدين والدولة ، وبين العبادة والشريعة ، والقائم على فهم الحياة ونظام المجتمع ، هذه الصورة التى كان الرسول محمد ﷺ نموذجها الأعلى وتطبيقها الأصيل ، وكان المجتمع الاسلامى الأول منطلقها الصحيح .

هذه هي الأزمة وتلك هي القضية : هذا هو التحدي الكبير الذي يواجه المسلمين والعرب اليوم إزاء تلك الصيحات التي تكشف في وضوح عن هدفها في القضاء على أصالة هذه الأمة وشخصيتها وكيانها النفسي والروحي والعقلي كمقدمة لتحقيق الأهداف الخطيرة التي كشفت عنها بروتوكولات صهيون ومئات من الوثائق في السنوات الأخيرة ، وكلها تستهدف دحر (الحضارة العربية الإسلامية) ذات الطابع القرآني الرباني القائم على التوحيد والأخلاق والإيمان بالله والإيمان بالغيب والبعث والنشور .

وتتمثل هذه التحديات في عشرات الجوانب والفروع وتتجمع كلها في كلمة واحدة : الاذابة والاحتواء ، غير أن هذه التحديات لم تلبث حين وصلت ذروتها باحتلال بيت المقدس وحرق المسجد الأقصى عام ١٣٨٧ هجرية في نفس العام الذي احتفل فيه المسلمون بمرور ألف عام على نزول القرآن كان علامة على الانتقال من مرحلة الرشد الفكري واستكشاف الذات وإقرار الطابع الأصيل للشخصية العربية الاسلامية التي تستمد وجودها وكيانها من قيمها الأصيلة ومن تاريخها الحافل بالأمجاد .

إن أبرز التحديات التي واجهت المسلمين لاخراجهم من فكرهم ومقومات كيانهم إنما استهدفت تحريف مفهوم الاسلام وإخراجه من طابعه المتكامل الجامع بين الدين والدنيا ، والقلب والعقل والروح والمادة ، ومحاولة تصويره دينا لاهوتيا تعبديا ، وذلك بانتقاص أبرز معالمه : الجهاد والشريعة الاسلامية ، والامعان في القضاء عليهما بالحملة والتزييف وطرح دعوات لها طابع الخروج من ضوابط النفس والمجتمع بالتحلل من الحدود التي أقامتها الشريعة حماية للنفس الانسانية والكيان الانساني من الانهيار والسقوط تحت سنابك الخيل الغازية المغيرة، ثم امتدت دعوة التغريب لتزييف مفاهيم الترابط الجذري الوثيق بين العروبة والاسلام بطرح مفاهيم القومية العربية التي تختلف إختلافاً واضحاً في منطلقها ومفاهيمها عن العروبة في جذورها الأصيلة المرتبطة بالتوحيد منذ دعوة إبراهيم ، وممتدة في إسماعيل جد العرب . وقد كانت العروبة دائماً هي وعاء الاسلام . وكان العرب حملة لوائه إلى أقصى الأرض ومازالوا يرجون لجولة جديدة يحملون فيها الاسلام إلى العالم كله ويعيدون بناء الحضارة الموحدة في مواجهة الحضارة الوثنية التي تصدعت وانهارت قوائمها حين خرجت على قوائم التوحيد والعدل والاخلاق والايمان بالغيب والبعث .

وقد كشفت مخططات الغزو الاستعماري والغزو الصهيوني عن وثائق كثيرة تلقي الضوء على تلك الدعوات التي تطرح نفسها في العالم الاسلامي وبين جوانب الأمة العربية وأهمها :

أولا : الدعوة إلى هدم الأديان عن طريق نظريات زائفة . يقوم عليها اليهود الصهيونيون ورجال الاستعمار بقولهم بأن الأمم بدأت وثنية ، ثم تطورت حتى عرفت التوحيد . وهو قول معارض للحقيقة التي أثبتتها كل الدلائل التاريخية والحفريات الأثرية التي تؤكد أن البشر بدأوا موحدين ، ثم انحرفوا ، ثم عادوا إلى التوحيد وكان الاسلام خاتم الرسالات السماوية .

ثانياً : الدعوة إلى هدم الأخلاق عن طريق مناهج الفرويدية والوجودية والنظريات التي تحاول أن تقول : إن الأخلاق نسبية وإنها مرتبطة بالبيئات والعصور ، وإنها تختلف باختلاف الحضارات وهو زيف وباطل يستهدف تدمير المجتمعات . ولقد كانت الأخلاق مرتبطة بالعقائد لا تنفك عنها ، وظلت وستظل مرتبطة بالإنسان نفسه ، هذا الكيان الذي لا يتغير .

ثالثاً : الدعوة إلى هدم الأسرة عن طريق مناهج « دوركايم » ، « وليفي بريل » ، وغيرهم من أتباع الصهيونية ، ودعاة التلمود ، وبروتوكولات صهيون ، وذلك بالقول : إن الأسرة ليست من الفطرة وإنما الفطرة هي الإنحلال ، وهي محاولة زائفة لمعارضة مقررات الأديان وحقائق الاجتماع .

رابعاً : الدعوة إلى إلتماس مفهوم واحد للتاريخ هو التفسير المادي عن طريق انجلز وماركس ، وهو تفسير مضلل بشهادات العلماء المنصفين ، ذلك أن التاريخ هو نتاج الحياة البشرية بكل جوانبها جوانب الجو والجغرافيا والروح والاجتماع والمادة : والاقتصاد جزء منها ، وهو عامل واحد من عدة عوامل هي التي تشكل التفسير الحقيق والأصيل .

خامساً : الدعوة إلى إثارة العصبية والعرق والعنصرية عن طريق دعوات متعددة ، ونظريات متضاربة تحاول أن تفرض صراع الأجناس وإيجاد الفوارق بين العروق ، وضرب الأمم بعضها ببعض ، وإعلاء جنس بعينه أخيراً ، وإعطائه وعداً أسطورياً بأنه شعب الله المختار .

سادساً : محاولة إخراج اللغة العربية عن مفهومها الخاص الذي تنفرد به بين جميع اللغات كلغة القرآن ، وفرض مناهج في علم اللغات للتحكم فيها وهي مناهج لا تنطبق عليها أصلا من حيث إنها ليست لغة قومية خالصة بحسبانها لغة أمة ، هي الأمة العربية ذلك أنها إلى ذلك لغة فكر وثقافة ودين لألف مليون من المسلمين .

سابعاً : إدخال مناهج من التربية مفرغة من مفهوم العقيدة كنظريات ديوى وغيره . بينما التربية الإسلامية أساساً على الترابط الأكيد بين العلم والعقيدة ، وتجعل من الإيمان بالله حامياً للعلم وموجها له إلى الخير .

ثامناً : محاولة القول بأن هناك حضارة واحدة ، هي الحضارة التي قامت في حوض البحر الأبيض المتوسط والحق أن هناك حضارتين متمايزتين لكل منهما طابعه الخاص وأنه منذ بزوغ ضوء الإسلام قامت على شواطئه الجنوبية حضارة جديدة تختلف إختلافاً واضحاً مع حضارة شمال البحر المتوسط التي قامت في العصر الحديث على أساس جذورها اليونانية الوثنية — تلك هي حضارة الإسلام ذات الجذور الأصيلة من التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب ، وهي الحضارة التي أنشأت المنهج العلمي التجريبي الذي كان مصدر الاختراع والعلم الحديث كله .

وأنه منذ قامت حضارة الاسلام فقد تأكدت ركائزها وثبتت جذورها وأصبح من الاستحالة اجتثاثها أو القضاء عليها ، وإن ظلت تواجه الأزمات والتحديات كلها وإن تخلف أهلها عن مفاهيمهم الأصيلة : (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) المائدة / ٣ .

تاسعاً : محاولة خلق هوة بين الأجيال ، وإعطاء هذا التحدى طابع الإثارة تحت اسم صراع الأجيال . والحق أن ما بين الأجيال إلتقاء لا صراع ، وأن علاقة الشباب بالأجيال المتقدمة عنها هى علاقة الريادة والتوجيه والتجربة ، وليست علاقة الخصومة أو الكراهية أو التسلط ، وهى علاقة طبيعية اقتضتها حركة المجتمعات ودورات الأمم وطبيعة الوجود البشرى نفسه ، وقد وضعت فى إطار الاسلام فى صورة أمينة قديمة . غير أن مخططات الصهيونية العالمية والغزو الفكرى تحاول أن تخلق هذا الصراع تحت إسم تحرير الشباب الجديد من سيطرة الأجيال السابقة تحريراً لا يدفعه إلى البناء والتقدم ، وإنما يحمله على الانهيار والغرق فى ظل فراغ نفسى وقلق وراء مذاهب ونظريات براقة تهافت أمام التحقيق العلمى وأمام الواقع نفسه .

عاشراً : محاولة طرح قضية الانفجار السكانى كأسلوب من أساليب دفع المجتمعات الاسلامية إلى التقاعس أمام الهجرة اليهودية المكثفة ، وزيادة الأقليات كمحاولة لضرب النمو الاسلامى القادر على بناء الجيوش وعمارة الأرض الواسعة التى لم تستصلح بعد والتى تحتاج إلى الأيدى العاملة .

ومن الحق أن هذه ليست كل التحديات ولا بعضها ، وإنما هى صورة منها نضعها أمام الأنظار فى ظل لحظة يقظة جديدة أسود الفكر العربى الاسلامى والمجتمعات بعد عام ١٩٦٧ كمحاولة للدخول فى مرحلة جديدة من تأكيد الذات ، والتحرر من زيف التبعية الفكرية وبناء الأمة من داخل قيمها ومفاهيمها التى كانت دائماً مصدر قوتها وانتصارها .

ولا ريب أن تأكيد هذه الحضارة الجديدة إنما يلقى الضوء على الطريق الصحيح الذى سلكه العرب والمسلمون دائما من أجل المواجهة لكل التحديات التى تحاول أن تضعهم على رأس طريق المتاهة والذوبان والاحتواء فى الفكر الأممى العالمى ، وهو فكر يعارض الفكر الاسلامى أساساً فى جوهره الأصيل ولا ينفع المسلمين إلا إذا كان محصوراً فى داخل قيمهم ، وعلى رأسها التوحيد والأخلاق والايمان بالله والغيب .

ولا ريب أن الخطوة التالية على هذا الطريق هى :

أولا : بناء مناهج التربية والتعليم والثقافة على قاعدة القرآن وخططه الانسانية ، والتحرر من قوة مناهج الإرساليات والتبشير والاستشراق والفكر الماسونى الذى أباح نظريات التحلل والاباحة كأسلوب لغزو المسلمين والعرب وتدمير كيانهم .

ثانياً : ترجمة العلوم والتكنولوجيا إلى اللغة العربية وإدخالها في إطار الذات العربية هي فكر قبل أن تكون لغة خاصة ، واللغات أداة الأفكار وعليها بناء الشخصية ، فإذا ما ترجمت العلوم والتكنولوجيا إلى العربية وأنصهر جميع علوم الطب والكيمياء والفلك والطبيعيات وغيرها فإن ذلك يخلق بيئة أكاديمية عربية ذات جذر إسلامي أصيل يمتد إلى أعرق أصوله التي أنشأت المنهج العلمي التجريبي قبل ألف عام ومنها يدخل المسلمون والعرب عصر التحرر الكامل وعصر بناء الأسلحة والقوى والصناعات ، والخروج من السيطرة العالمية التي تحد حركتهم إلى إقامة وجودهم الذاتي .

ثالثاً : إقامة وحدة الفكر العربية الاسلامية المستمدة من الشريعة الاسلامية أساساً ومن قيم الفكر الاسلامي والثقافة العربية الأصيلة الدافعة إلى الحركة والبناء ، والقائمة على أن مفهوم التقدم الأصيل ليس تقدماً مادياً خالصاً ولكنه تقدم إنساني جامع بين الفكر والنفس والمادة .

رابعاً : تأكيد الأصالة العربية الاسلامية ، والذاتية الشخصية ، والمزاج النفسي والاجتماعي الأصيل المنبعث من أعماق العقل والنفس العربية ، والذي أقامه القرآن الكريم كقوة أساسية حامية من غزوات الشبهات وأخطار الأعاصير التغريبية القائمة على الشكوك والريب وبذلك يتشكل المنهج الفكري العربي الناصع المتحرر من سيطرة فلسفات اليونان والجاهلية والمخلفات الوثنية العربية والفرعونية والمجوسية ، وفلسفات وحدة الوجود والاتحاد والجبرية ، وتقديس العقل أو عبادة الأبطال أو إعلاء الجنس ، والإباحية أو المادية المنكرة لله والأديان والرسل والكتب أو المعطلة المنكرة البعث والجزاء والمسئولية الأخلاقية .

وأن إتجاهاً جديداً بدأ في عالمنا الاسلامي والعربي ، اقترنت به انتصارات حاسمة على أساس الجهاد والشريعة الاسلامية ، وقد دفع موجة التحديات الفكرية وكشف عن الشبهات والأخطاء ومكن الأمة من إمتلاك إرادة الأصالة وتصحيح المفاهيم كل هذا يؤكد أن هناك خطوة على الطريق الصحيح إلى المواجهة القادرة بالايمان العميق لاستكناه النظرية وشمول الرؤية وتحرير النفس والعقل العربيين من دائرة التغريب التي تحاول أن تقصره على التفكير بمقاييس زائفة . ذلك أن الخروج من هذه الدائرة المغلقة هو أول علامات النصر الحقيقية وهي تعني التماس المنابع والأصول ، والخروج من الحنايا والأزقة التي حبست الفكر الاسلامي ما يزيد عن نصف قرن من الزمان غير أن ذلك يستلزم الدخول في دائرة الأصالة والثبات وتأكيدها وبناء قلاعها وحصونها التي تدافع بها عن نفسها ضد تهدد الغزو وإثارة الشبهات ومن حملات ضارية من دعاة التغريب والتوهين والاستشراق والشعوبية .

فإذا مضى الخط في طريقه الصحيح خلال السنوات الباقية من هذا القرن أشرق القرن الخامس عشر الهجري والمسلمون والعرب على الجادة : مع صباح جديد مشرق بضوء القرآن .

(٢)

أمة القرآن

على أبواب القرن الخامس عشر الهجرى

يستشرف المسلمون اليوم مرحلة جديدة من حياتهم على طريق النهضة والقوة وهم يدخلون إلى القرن الخامس عشر الهجرى بعد سنوات قليلة معدودة ومجىء القرن الخامس عشر الهجرى والمسلمون قائمون على أمر الله فى مواجهة الأخطار العديدة التى تتحدى وجودهم وكيانهم كله وأشدها قوة سيطرة الصهيونية على القدس وأجزاء من بلاد العرب . ومناوشات المذاهب والدعوات من استعمارية وصهيونية وماركسية التى تحاول أن تطرح فى الفكر الإسلامى سمومها لتدفع المسلمين إلى الدخول فى دائرة التبعية والاحتواء والعلمانية والأممية الخطيرة التى تفقدها كيانها الخاص المتميز ، ولعل أعظم ما يستقبل به القرن الخامس عشر الهجرى هو الإيمان الصادق بأن المسلمين أمة لها طابعها وذاتيتها وكيانها الخاص ، وقد أقام الله تبارك وتعالى هذه الأمة ، فى المنطقة الحساسة من العالم وأعطاها مقادير الثروة والقوة والتفوق البشرى لتحمل رسالته إلى العالمين وليظل أهلها قادرين على أن يكونوا جند الله الغالب المجاهدين المرابطين المثقفين الواعين ، الذين يأخذون حذرهم دائماً ، فإذا غلبهم متسلط أو غاز استداروا إلى منهجهم الأصيل فعرفوا أنه هو المصدر الوحيد القادر على إعطائهم النصر وأن أى منهج آخر يعجز عن مثل هذا العطاء .

وإن على المسلمين فى هذه المرحلة الدقيقة التى يدخلون فيها إلى القرن الخامس عشر الهجرى وقد قطعوا مرحلة طويلة فى مواجهة الاستعمار والغزو الصهيونى ومحاولات القوى المتحالفة لاحتوائهم وحربهم، عليهم أن يثبتوا إزاء قيمهم وعقيدتهم وأن لا تحول المقدرات المادية دون ذلك الحفاظ والتشبث بوجودهم الذاتى وكيانهم الخاص وطابعهم الإسلامى فلا تستهلكهم المعطيات المادية الحضارية وتقضى على أصالتهم وصلابتهم التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم وأن يكونوا قادرين على نقل أحدث مستحدثات العلم والتقدم والحضارة المادية لتكون مواد خاما ، يضعونها داخل إطار فكرهم ويحركونها فى داخل قيمهم ، وبذلك يصنعون الحضارة الإسلامية الجديدة : حضارة القرن الخامس عشر الهجرى الذى أوشك أن يهل هلاله والذى يتطلع إليه المسلمون كعلامة على عصر جديد تعود الدائرة فيه مرة أخرى إلى أيدى العرب والمسلمون .

وعلى المسلمين أن يتعلموا من تجربة الحضارة الغربية : إن أخطر ما واجه هذه الحضارة وأسلمها فى وقت قريب إلى الأزمة الخانقة والصراع بين القوى مع ما امتلكته من أسباب التقدم المادى هو

أنها « كسرت » الاطار الدينى والأخلاق الذى هـــو الحائط الحامى لكل نهضة من التعثر والتصدع ومضت تواجه الحياة بغير سناد يحمى ظهورها ، أو نور يضىء طريقها ، وبذلك صرعتها المادية وانحرف بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس وتغليب الترف والملذات والشهوات فانتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التى يتحدثون عنها ويبحثون لها عن علاج .

وهى « أزمة الإنسان الحديث » وصراعه وتمزقه وغربته وضياعه ، هذا الذى قاساه من أهوال غيبة المعنويات وتجاهل أشواق الروح ، وتصدع النفس وتمزق الكيان الإنسانى وفقدان الهوية والهدف والعجز عن فهم رسالة الإنسان وأمانته وغايته ومصيره : هذا الإنسان المستخلف فى الأرض لإقامة المنهج الربانى الأصيل .

وقد آن الأوان أن يحمل المسلمون رسالتهم إلى كل أطراف الأرض وأن يذيعوا كلمة الله الواحد الحق فى كل مكان ، وليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة الحديثة ومعطياتها التكنولوجى والعلمى والميكانيكى ، أن تستوعبهم هذه الحضارة أو تحتويهم ، هذا الفهم القاصر المدمر وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد فى الفكر فيجعلوا كل معطيات الحضارة والعلم والفن خاضعة لحق الله وحدوده وأن يقبلوا منها ما يتفق مع هذه الضوابط والحدود ويرفضوا ما سواها ، وأن يجعلوا اللغة العربية هى وعاء العلم والتكنولوجيا فينقلوا إليها كل معطيات العلم ومصطلحاته وقوانينه وأن يقيموا من الإيمان بالله وحده ، إيماناً بوحدة البشرية والإخاء الانسانى والعدل والرحمة باعتبارها هى معطيات الاسلام الإنسانية ودعائم كل حضارة نامية وليجعلوا من كل ذلك إطاراً يتحركون فيه فيخضعون العلم والأدب والفن والقانون والاجتماع والتربية والاقتصاد للتقوى ويجعلون مقدرات البشرية ، ليست لفئة ولا طائفة ولا جماعة ولكن للناس جميعاً ، وبذلك يحققون إرادة الله تبارك وتعالى فى بناء المجتمع الإنسانى الحق الذى تتطلع إليه الدنيا جميعها بعد أن عاشت فى الظلم والاستعباد عصراً طويلا شقيت به وليطلع المسلمون الدنيا جميعاً على أنهم يمتلكون منهجاً خصباً قادراً على إسعاد البشرية حقاً ، وردها إلى طريق الحق والعدل وتحريرها من الجوع والخوف وتأمين النفس الإنسانية من القلق والتمرد .

فإذا فعلوا ذلك بحق كان القرن الخامس عشر الهجرى هو بداية الطريق إلى خير الإنسانية وضياتها والتماسها طريق الله تبارك وتعالى .

ولا ريب أن الصهيونية التلمودية تقوم على برنامج تتطلع إلى عبودية البشرية كلها وهدم قيمها ومعنوياتها ، لكن نور الاسلام سوف يكشف زيف هذه المحاولة وينتصر عليها ويدمرها تدميراً .

ولقد استطاع الاسلام منذ اليوم الأول لظهوره أن يشكل لواءه المميز ، على خريطة العالم ، وأن

يمتد فى سنوات قليلة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وبذلك أقام عالمه المستقل المفرد ، ومنهجه الكامل المتجدد بالتوحيد والإيمان بالله والالتزام الأخلاقى فى تفسير الكون والحياة ، المسلمين قبلتهم الواحدة التى يتجمعون حولها والتى لن يحيدوا عنها ، تهوى إليها قلوبهم بالإيمان وعقولهم بالفكر ، ومنذ ذلك اليوم لم تكن لهم قبلة أخرى وما تزال الكعبة البيت الحرام مثابة للناس وأمناً ، وستظل مركز الدائرة فى أرض الاسلام .

ومنذ اليوم الأول لظهور الاسلام حاولت القوى المختلفة ضربه والانالة منه ، ثم لما عجزت عن ذلك حاولت احتواءه وإذابته وصهره فى بوتقة الأممية ، وما زال الاسلام وسيظل قادراً بتركيبه الربانى وتشكيله الانسانى القائم على الفطرة والحق والعدل ، على أن يقاوم كل محاولة لضربه . سواء عن طريق الحروب الصليبية أو الغزو الاستعمارى أو الاحتلال أمام محاولات الماركسية والمادية والوجودية والفرويدية وغيرها .

والواقع أن هناك حقيقة كبرى على شبابنا وأجيالنا الجديدة والمتجددة أن تكون موضع نظرها وتقديرها دائماً لا تغيب عن مفرق رأسها ، تلك هى أننا ، نحن المسلمين ، نعيش فى ظل « تحد » قائم كبير فى منطقة زاخرة بالطاقة والثروة والتفوق البشرى — كانت ولا تزال وستظل — مصدر مطامع القوى المختلفة وتطلعاتها إلى الغزو والسيطرة ورغبتها فى استنزاف الثروات وامتصاص المواد ، وأن هذه المطامع جاءت فى ثوب الحروب الصليبية بدعوى استنقاذ قبر السيد المسيح مرة ، ثم عادت فى ثوب تمدين البشرية باسم الاستعمار الغربى ، ثم عادت ثالثة باسم أرض الميعاد . عاشت هذه الأمة موضع الطامعين والغزاة قروناً طويلة تنتهز فرصة ضعفها لتنقض عليها ، ولقد هزمت موجات الغزو واحدة بعد أخرى ، وما تزال القدس هى خط الدفاع عن القبلة ، ولقد قاوم العرب وقاوم المسلمون هذا الغزو فى حطين وفى عين جالوت وفى الزلاقة وفى الأرك واستجاشت أرض الاسلام بالقوى الاسلامية المتجددة الظافرة التى حملت اللواء واستشهدت فى سبيل تثبيت الحق وتحرير الأرض وحماية بيضة الدين .

• • •

واليوم يواجه عالم الاسلام ثلاث قوى تحاول أن تنال منه (الاستعمار والصهيونية والشيوعية) والمسلمون فى موقف الدفاع ثابتون دائماً فى مواقعهم ، يستمدون قوتهم من عقيدتهم التى كانت مصدر النصر لهم فى كل أزمة وموقف ، وسوف لا تستطيع القوى الغازية أن تنتزعهم من حصنهم هذا الحصين وهم لا يعادون الأمم ولا يطمعون فى السيطرة أو الاستعلاء بين العالمين ، ولكنهم طلاب سماحة ورحمة وخير .

إنهم يريدون أن يمتلكوا إرادتهم فى أوطانهم متساوين مع كل الأمم والقوى العالمية على خير الحضارة البشرية .

والاسلام منذ بزوغ فجره لم يتوقف عن الانتشار ويبلغ عدد الذين يعتنقونه إلى مفتتح القرن الخامس عشر الهجرى مالا يقل عن ألف مليون مسلم دخل أغلبها إلى ساحته بالاقتناع والايمان وبقوة الاسلام الذاتية وبفضل مبادئه التى تحمل التوحيد والعدل والكرامة والايمان ، وقد وجد الاسلام من المؤمنين والمستعبدين قبولا حررهم من كل عوامل الظلم والعبودية ، وما زال الاسلام يقتحم آفاق العالم ويصل إلى كل ركن ، وقد أعلن فى مؤتمر لندن الاسلامى ، مايو ١٩٧٦ ، أن عدد المسلمين فى أوربا يبلغ الآن ٢٥ مليوناً و٣١٧ ألف نسمة تقريباً وأن عدد المسلمين بالدول الأوربية غير الشيوعية يبلغ نحو ثلاثة ملايين و٣٠٩ ألفا أى بنسبة ١,٠٧٥ فى المائة من عدد السكان ، أما عدد المسلمين بالدول الأوربية الشيوعية فيقدر بنحو ١٩ مليوناً و ٢٧٧ ألف نسمة أى بنسبة ١٨ ٪ من مجموع السكان ولا يدخل فى هذا العدد مسلموا الجمهوريات الأسيوية التابعة للاتحاد السوفييتى .

وهكذا نجد أن الاسلام بعد أن طورد من أوربا مرتين : من الاندلس ومن البلقان يعود سلما ويصل إلى كل مكان ، ليس فى أوربا وحدها ولكن فى الغرب كله وفى أمريكا لا يطلع الصبح يوماً إلا على مسلم جديد !

ويقيم المسلمون فى أوربا كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعى لا يقارنه نظام فالمسلمون هناك يقيمون فاصلا بين الحياة فى ظل الاسلام وبين الحضارة الغربية ، فإذا أضفنا إلى هذا الفكر الذى قد أنبجس عن تيار جديد يريد أن يتفهم الاسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لاصلاح البشرية ، عرفنا إلى أى مدى تكون قدرة الدعاة المسلمين فى القرن الخامس عشر على توصيل الاسلام (علما وقدوة) إلى العالمين .

وتلك هى المهمة الأخرى : الأولى دفع خطر الغزاة ، والثانية تبليغ الاسلام ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتماس مفهوم الاسلام الأصيل والمرابطة فى سبيل كلمة الله وحماية هذا الكيان الذى تشكل باسم الله على الحق ليكون قادراً على حمل رسالة الله إلى العالمين وسوف ينتصر المسلمون على كل الأخطار التى تواجههم ما استمسكوا بكتاب الله نبراساً وضياء وتطبيقاً فى حياتهم الاجتماعية وسوف يخرجون من الأزمة كما يخرج الذهب من النار أشد نصاعة وصقلا . ويكونون بذلك فى القرن الخامس عشر الهجرى أملا لاقتعاد مكانهم الحق على هذه البسيطة شريطة أن يكون القرآن منطلق حياتهم وقانون مجتمعهم وإطار وجودهم كله .

(٣)

الإسلام والتحدى الخطير

على أبواب القرن الخامس عشر

على مشارف القرن الخامس الهجرى وعلى بعد خطوات منه تتكاثف الحلات التى تشنها القوى الغازية والمادية والطامعة على هذا الدين وهذه الأمة بهدف النيل منهما واحتوائهما والسيطرة عليهما

بعد أن لم يعد يقف فى مواجهة الوثنية والمادية والإباحية التى استشرت فى العالم كله غير الإسلام وبعد أن استطاعت القوى التلمودية حاملة الفكر البشرى والوثنى السيطرة على الحضارة الغربية وأوجهتها وجهة مادية خالصة بحيث أصبحت وشيكة التدمير والانهيار ، وقد وضعت الإنسان فى مواجهة الأزمة الخطيرة ، أزمة الغربة والتمزق والتحلل ، على نحو بالغ غايته فى الانحراف ، حيث تتعالى صيحات المفكرين والفلاسفة باحثـــة عن الحل والعلاج والخروج من تلك الأزمة المتجهمة السوداء ، وحيث لا سبيل للبشرية إلا أن تجد ذلك فى الإســلام وحيث يجب أن يكون أهله مؤهلين ليقدموا للبشرية الضوء الكاشف والترياق الشافى ، فهذه اللحظات الحاسمة الخطيرة تزداد عملية الضغط على هذه الأمة حتى لا تستطيع أن تمتلك إرادتها أو تطبق شريعتها أو تكون قادرة على أداء رسالتها للبشرية متطلعة إلى الضوء . ويواجه المسلمون ذلك كله وهم عاجزون مكبلون بالقيود غير قادرين على الاستجابة لصيحة البشرية فى أشد ساعات الحرج ، ومن العجيب أن تتشكل هذه الأزمة والمسلمون على أبواب القرن الخامس عشر ، والسؤال متى يستطيع المسلمون الخروج من الدائرة المظلمة الضيقة التى حبسهم فيها النفوذ الأجنبى مسيطراً على فكرهم وتعليمهم ومجتمعهم وقانونهم ، لقد عرف المسلمون فى السنوات الأخيرة أبعاد هــذا الخطر ، وآفاق هــذا التحدى وهم يدرسون الآن هذه المحاذير ، ولكن متى تبدأ خطوة التحرر وكسر القيود والتماس الأصالة والعودة إلى المنابع .

هذه هى الساعة الحاسمة التى تتطلع إليها البشرية حين يستطيع المسلمون امتلاك إرادتهم بالعودة إلى منابعهم ، وتطبيق شريعتهم وتنظيم مجتمعهم وفق عقيدة الاسلام واتخاذ أساليب التربية الاسلامية طريقاً لهم ليخرجوا ذلك الجيل الرائد الذى يجب أن ينبعث فى آفاق الأرض يدعو إلى الله ويرد عن البشرية عادية ذلك الخطر المادى والوثنى المدمر الذى يتهددها اليوم .

أول هذه التحديات غلبة الفكر البشرى المجدد من الفكر البابلى والمجوسى والهلينى القديم بمفاهيمه الوثنية والمادية والاباحية التى انعكست على العصور تحدياً لدين الله وحدوده وضوابطه وخروجاً على شريعة الله حين أعطى الإنسان حق التشريع لنفسه وتحويل أهوائه ومطامعه إلى نظم فاسدة .

وقد ثبت أن التجربة الغربية والتجربة الشيوعية مرفوضتان تماماً فى أفق المجتمع الاسلامى وأنهما كانتا لمجتمع يختلف عن مجتمعنا . وأن الماركسية ما هى إلا جزء من نظام غربى ، وأنها رد فعل لواقع الرأسمالية والماركسية ، وكلاهما من منبع واحد ، وهو امبراطورية الربا وعبادة العجل التى أقامتها اليهودية العالمية المسيطر بها على الاقتصاد العالمى .

(ثانياً) طرح ركام كبير من السموم والزيوف عن طريق الصحافة والاذاعة والمؤلفات المترجمة وغيرها لإزعاق القليل المطروح من الفكر الأصيل ، وقد وجهنا الاسلام إلى أن نقف من المعرفة موقف التعرف الصحيح لمصادرها وأن نعرضها على قيمنا الاسلامية ، ولاريب أن هذه المفاهيم المغلوطة والآراء المسمومة هى وسيلة السيطرة على الأمم التى تستهدف تغيير فطرة المسلمين الأصيلة القائمة على جماع المعنويات

والماديات وعلى الحركة في إطار الثبات إلى نظرة الغرب الجزئية الإنشطارية المادية التي تقوم على التطور المطلق ومجتمع الترف والاستهلاك . ومن أهدافها تحويل الثقافة من غاية عليا هي المعرفة إلى هدف التسلية والتفاهات وفهم الحياة على أنها لعبة ومتعة واندفاع نحو تحقيق الرغبات والأهواء .

والمسلمون ينظرون إلى الحضارة المعاصرة نظرة واعية ويبحثون تجربتها في الغرب ليعتبروا منها في اقتباس ما يرونه صالحاً مع احتفاظهم بقيمهم الأساسية وعقائدهم فنحن لا نختار أسلوب المعيشة الغربي ولكننا نختار ونفرق بين التكنولوجيا وبين تحلل الحضارات ، ونربط بين التقدم الجامع (ماديا ومعنويا) وبين الأخلاقيات دون الانحراف إلى الأهواء والفساد الذي هو علة دمار الحضارات والأمم والمجتمعات .

(ثالثاً) لا يقر الفكر الإسلامي ذلك « الصراع الفكرى » في الفكر الغربي ولا « الصراع الطبقي » في الفكر الماركسي ويرى أن الحياة تقوم على التكامل والتعاون والرحمة والالتقاء بين عناصرها وأن الصراع الفكرى مصدره التجزئة والانشطارية — طابع الفكر الغربي — التي تعتمد على مصدر واحد في فهم الحياة والتعامل معها ، وهو إما العقل وإما الحواس وإما الحدس ، وميزة الإسلام أنه لا يواجه صراعا فكريا في ساحته لأنه يقيم منهج المعرفة الجامع المتكامل .

كذلك فإن الفكر الإسلامي لا يقر طابع القسوة البارز في الفكر الغربي والماركسي على السواء هذا الطابع الذى يمثل جفاف ينابيع العطاء البشرى ، وقد أنشأ هذا الطابع في السياسة ميكافيلي وفي الاجتماع نيتشه ، ويقوم على قتل العاجز وإبادة الضعيف . وقد ثبت فساد مفهوم الفلسفة الغربية القائم على تنازع البقاء والصراع وخطأ دارون في القول بذلك وتبين أن التعاون في الطبيعة أبرز وأقوى وأعم من التنازع .

ولقد ماتت أفكار نيتشة الذى قضى نحو عشرين سنة وهو في جنون يكاد يكون مطبقا إذ كان في الدور الأخير من مرض السلفس ومات مقهوراً ثم بعثته اليهودية العالمية مع من بعثت وقد مات فرويد بالسرطان وكانت مفاهيم زميليه « أدلر ويونج » أصح من مفاهيمه ، ومفاهيم لامارك أصح من مفاهيم دارون ولكن اليهودية العالمية أيدت الآراء الفاسدة المسمومة وقالت البروتوكولات : نحن رتبنا نجاح دارون وفرويد ونيتشه ويرفض الفكر الإسلامي طابع القسوة الذى يتميز به الفكر الغربي والذى هو عصارة الفكر الماركسي والصهيوني .

ولقد كان جميع أبطال ديستوفسكي شواذ وجميع أبطال فرويد مرضى وكان اعتماد علم النفس والاجتماع على الأساطير القديمة وليست على الواقع ، كركب أوديب ومركب الكترا .

ولقد ثبت فساد عديد من النظريات والأيدولوجيات الغربية لأنها من صنع البشر واليوم يتبين

أن الإنسان (نوع) مستقل لا صلة له بالحيوان وفساد نظرية دارون ، وأن نتاج الأرض يكفي أهلها مهما تضاعف عددهم وفساد قواعد مندل في الوراثة ، كما يتبين خطأ التفسير المادي للتاريخ الذي قدمه (ماركس) وأخذت به الشيوعية ، وخطأ التاريخ الذي قدمه (توينبي) لأنه يقوم على استعلاء الحضارة الغربية بوصفها حضارة مسيحية ، وتفسير الأحداث وسير الأمم والأجيال في ضوء هذه التبعية ، ولذلك فهو يقف من الإسلام موقفا ظالما حين يرى أن المجتمع هو حصيلة اندماج مجتمعين متمايزين في الأصل هم الإيراني والعربي ، ولو أنه قال إن الإسلام صهر كل من آمن به في مجتمع جديد قام على أساس التوحيد ، لكان ذلك صحيحاً ، ولكنه أقام مفهومه على أساس العناصر والدماء والتفاخر بها .

ولا ريب أن النظرة الجديدة الوافدة في التفرقة بين الدين والعنصر ، إنما هي نظرة دخيلة لم يكن يعرفها العرب والمسلمون في حضارتهم ومنطلقهم التاريخي وإنما هي من نتاج الصراع الغربي الحديث في التفرقة بين الأديان والأجناس .

(رابعاً) لا يقر الإسلام طابع النظرة الجزئية والانشطارية التي يقوم عليها الفكر الغربي ، ولا تلك الفواصل العميقة التي أقامتها الحضارة الغربية بين الروح والمادة ، وبين العقل والروح ، وحين وصلت البشرية من ناحية العقل والعلم إلى القمة في العطاء قصرت في مجال الوجدان والمعنويات وانضباطات وعجزت عن فهم عطاء الله وما ألهم البشرية من قدرة في مجال العلم .

ولا ريب كان لليهودية التلمودية أثرها في دفع البشرية عن التكامل والرشد وكان للماركسية أثرها في تغليب الإباحيات والوثنيات حين قال ماركس إن المسرح هو البديل عن الدين ، فضلا عن إشاعة أفكار الانحلال والجنس والفساد ، وكل ما يصرف عن الدين والمثل العليا والأخلاق ، وكان أخطر هذه التحديات إفساد العلاقة بين المرأة والرجل وبين الزوج والزوجة وبين الأبناء والآباء وإخراج المرأة إلى ساحات الفساد والرقص والانحراف وذلك بهدف تحطيم الأسرة والمجتمع .

وكذلك قدم الغربيون (ماركسيون وليبراليون) مفاهيم فاسدة لأسلوب العيش والحياة ولمفهوم الترفيه وذلك بالتمرد على القيم الخلقية ومحاولة تفرقة الاجتماع العام إلى مفاهيم فردية تحت اسم حرية الأبناء ورفع وصاية الآباء بما يدفع الأجيال الجديدة إلى طرق شتى ويحول بينها وبين الالتقاء على الفكرة الجامعة ، وكذلك مؤامرة الدعوة إلى الصراع بين الأجيال حيث لا يوجد صراع ولكن يوجد التلاقي والتكامل ، كل جيل يتسلم ميراث الجيل الذي سبقه فيكمله ويتممه ويصحح ما فيه من خطأ ويضيف إليه لبنة جديدة ، ولا ريب أن في محاولة إلقاء التمرد على الأبناء من آبائهم وعلى الزوجات من أزواجهن ودعوة الشباب إلى التنكر للأجيال السابقة هي كلها محاولات هدم وتدمير .

وهذا الدعوة إلى الفكر المفتوح ، وهي دعوة إسلامية أصيلة ولكن لها ضوابطها ومقوماتها فإذا كان الفكر الاسلامي يأخذ ويعطى فإن له الحق في أن يرفض ما يراه معارضاً لقيمه .

(خامساً) يجب الاحتراز من الأسس التي يقوم عليها المنهج الغربي تحت اسم العلم أو العلمانية فإن هذه النظريات في أغلبها تقوم على قاعدتين خطيرتين : إحداهما التمويه بالأسلوب العلمي من وراء الهوى والغرض ومن وراء الاستعلاء ، ولا يصلح المنهج العلمي إلا إذا قام على ضبط النفس وإنكار الذات والاخاء البشري ، ومن أجل الهوى بالرغبات والمطامع ومن جراء الاستعلاء بالعنصر الأبيض صانع الحضارة والوصي على الأمم المتخلفة يتكشف فساد كثير من المناهج ويواجه الفكر الغربي بشقيه هزائم متوالية في التطبيق في أرضه ، فما بالك بالفعل الذريع الذي واجهته هذه المذاهب والأيدلوجيات في أرض الاسلام ذات الجذور العميقة والمنهج الأصيل . لقد واجهت المناهج الوافدة والايدلوجيات الليبرالية والماركسية هزائمها لأنها (١) عارضت الفطرة . (٢) لأنها قامت على الأهواء . (٣) لانها ايضاً بتراتها عجزت عن الثبات أمام تحولات الزمن واختلاف البيئات فاحتاجت إلى الترميم والتغيير والتطوير .

إن الفكر البشري الغربي الآن محاصر بنظريات ثلاث :

هي النظرية المادية والدوافع الاقتصادية والدوافع النفسية وأهواء الوجودية وكلها تنظر إلى الانسان الذي كرمته الاديان على أنه حيوان : حيوان جوع أو حيوان جنس وهي تفسره على هذا النحو ، وهناك الجبرية التي تريد أن تحل الانسانية من المسئولية الفردية التي تلقي هذه المسئولية على المجتمعات .

وتطرح هذه النظريات على المجتمعات الغربية طوابع خطيرة :

طوابع المتعة الحسية ، وطوابع الفهم والقسوة وطوابع الحقد والبغض وطوابع الاهتمام بالكم وتضحية النوع والكيف .

ولا ريب أن غلبة فكرة جديدة على فكرة قديمة ليس مصدره فساد الفكرة القديمة بقدر ما يكون سببه أن هناك قوى ذات نفوذ لها أهداف عالمية خطيرة هي التي تفرض الأفكار وتلح عليها

ولقد أتيحت للأفكار المسمومة في العصر الحديث فرص الظهور والاستعلاء وفرضت على مناهج الدراسات في الجامعات وفي الصحافة والثقافة والاذاعة والسينما وغيرها لأنها تستهدف تحقيق غاية مرصودة ، ولو أتيحت الفرصة للفكرة الأصيلة للبروز لقضت على الفكرة البشرية الفاسدة ، ولا ريب أن الدعوة إلى ترك القيم ومحاربة التراث ومهاجمة الأصالة والسلفية وغيرها إنما هي كلها دعوات ترمي إلى مهاجمة الأديان ، ولا ريب أن هناك نظريات فاسدة هي دعوة التطور

المطلق ودعوة نسبية الأخلاق ، والإسلام له إزاء ذلك ضوابط أهمها أن يكون أخلاقياً وفى سبيل الرحمة وأن يكون التغيير مستهدفاً الانتقال من التبعية إلى الأصالة .

والزمن هو الحكم وهو جدير بأن ينصر القوى الأصيلة على القوى المفروضة ، ويحطم تيار المادية ويكسر حدة الوثنية ، وقد عمدت اليهودية التلمودية دوماً إلى ستر هويتها وهدفها ولكن القرآن كشف أهدافها وأبان عنها وحذر منها .

وبعد : فإن انطلاق المسلمين والعرب اليوم على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية لا يمكن أن يكون سليماً وإيجابياً إلا إذا ارتكز على قاعدة أساسية تكون هى المصدر والمنطلق ونقطة البدء ونقطة النهاية : وهذه القاعدة ليست سوى (المنهج الأصيل) الذى قدمه الإسلام لبناء المجتمع الربانى ، وعلى هذه القاعدة وحدها تقوم الثقافة ويقوم النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى وأبعاد دعائم التربية والتعليم : ذلك هو التحدى الخطير الذى يواجه الإسلام والمسلمين على أبواب القرن الخامس عشر الهجرى .

(٤)

الأصالة الإسلامية

هى مفتاح العمل الإسلامى فى القرن الخامس عشر الهجرى

إن كل العلامات والدلائل تدل على أن (دورة جديدة) على وشك أن تبدأ لتأخذ مدارها تحت الشمس لحضارة إسلامية من المتوقع أن تكون هذه المنطقة هى التى تحمل هذه الأمانة ، لقد استعاد الإسلام من جهة العمق ما فقده من جهة الامتداد ، إن بدايات النصر ومطالع الفجر يجب أن لا تخدع المثقفين المسلمين وتخلق فيهم طمأنينة زائفة مستسلمة أو تشغلهم عن المثابرة والإصرار على تأكيد الخط الربانى الصحيح وترسيد الطريق القرآنى الأصيل وتثبيت الخطى على الطريق إلى الغاية الكبرى . إنه ليس هناك مكان للعلمانية فى المجتمعات الإسلامية لأنه ليس هناك ازدواج للسلطة يترتب على نظرة الإسلام إلى الدنيا أو الحياة المادية على نحو ما الكنيسة من نظرة معينة خاصة إلى المادة ، وليس هناك حكومة إلهية فى الإسلام معصومة من الخطأ كما هو الشأن فى الغرب تختلف عن الحكومة المدنية أو السياسية فى المجتمع الإسلامى .

ولا ريب أن مفتاح العمل كله فى المرحلة الجديدة ، مرحلة القرن الخامس عشر الهجرى ، هى الأصالة الإسلامية ، القادرة على التمييز بين ما هو من المنابع الأولى وما هو دخيل لا يتلاءم مع جوهر التراث ثم القدرة على الأخذ والانفتاح على الفكر الإسلامى فى حدود مقاصد القيم الإسلامية التى قررها الإسلام ، والوسط فى الإسلام ليس التوفيق بين اليمين واليسار أو بين الشرق والغرب ، ولكن بمعنى

إدراك العدل الذى نتجنب به — فى الاعتقاد والعمل — مخاطر الظلم فى ممارسة الحياة ومخاطر السلبية فى رفض الحياة .

كذلك فإن تحكيم العقول فى حسن الأفعال وقبحها هو مقالة أهل الاعتزال ، أما أهل السنة فلا يرون للأفعال فى نفسها حسناً ولا قبحاً ، وإنما الحسن ما أمر به الشرع والقبح ما نهى عنه الشرع . إن ميزة الإسلام أنه يجمع بين الزمنى والروحى ، والمطلق والنسبى ، واللانهائى والمحدود ، وهو الجامع بين الأرض والسماء .

ولا تتم الدائرة ويحدث التكامل الجامع الذى هو ميزة الإسلام إلا بالتقاء القوتين : الروح والمادة الفرد والجماعة ، العقل والقلب ، تماماً كما تتم الدائرة الكهربائية بالسالب والموجب معاً فى وقت واحد . فهما وإن كانا متضادان من حيث الضوء والطاقة فإن التضاد من السالب والموجب لا يستلزم حدوث الصراع بينهما ، كذلك فإن التضاد لا يستلزم حدوث الصراع أو التصادم بين المتضادين ، بل إن لقاء المتضادين يرسم دائرة التكامل .

لقد امتاز الإسلام على غيره من النحل والديانات بكونه : مذهباً وعقيدة ، ومن شأن هذا التكامل أن يمنح القدرة على مواجهة التحديات وإعطاء الحلول الفعالة والصالحة . وتقوم قاعدة الإسلام على الحركة فى إطار الثبات ، والثبات الذى هو إطار الإسلام إنما يقوم على ثبات خلق الله للإنسان : الذى ما زال كما هو منذ خلقه الله تبارك وتعالى لم تتغير عواطفه أو حاجاته أو أهواؤه ومطامعه أو تحالفه وتخاصمه أو حربه وعداوته ، ومع أن التاريخ لا يعيد نفسه فى وقائعه ولكنه يتشابه فى مصدره القائم على (ثبات الطبيعة البشرية) .

وفى الإسلام يتمثل الثبات فى أن الحق واحد لا يتعدد ، وأن الأهداف ثابتة والوسائل متغيرة . ومهما تغيرت الفروع فإن القوائم ثابتة .

وعلى المسلم أن يكون فى سباق دائم مع الزمن الذى هو الموت إلى عمل الصالحات ، وعلى كل إصلاح أن يبدأ من نقطة الواقع الحى القائم ولا يبدأ من الصور المتخيلة أو المثالية وأن يكون القرآن هو ضوء الطريق إلى حدود الله .

ويجب أن تكون مختلف وسائل التطور بمثابة (مواد خام) تجرى عليها عملية سبك إسلامية وتحويل وانصهار فى القالب الأصيل . ولا يقر الإسلام الفرار من الدنيا ولا تقديس الدنيا ولكنه يقرر التوافق معها والسيطرة عليها لتكون على طريق الله .

وقد جعل الإسلام التكوين الفردى هو أساس التقدم ولا يقر نظرية التقدم العلمى المادى وحده . وقد حاول التغريب والغزو الثقافى خلق مذاهب هدامة داخل دائرة الإسلام الأصيل توصف

بالتحديد : كالأحمدية والقاديانية ، تستهدف تأويل فريضة الجهاد وتزييف طبيعتها القائمة بالحق إلى يوم القيامة ، والقول بأنها فكرة مؤقتة والدعوة إلى سلوك الطرق السلمية مع التعامل مع الغاصبين وعدم مقاومة الأجنبي والهدف هو إخضاع المسلمين عن طريق الاعتقاد والقضاء على أقوى دعامة على مدى تاريخ الإسلام الدفاع والمواجهة والمقاومة في وجه الغزاة .

(القيم الإسـلامية)

كذلك جرت المحاولة إلى تمزيق وحدة الأمة الاسلامية إلى قوميات وإقليميات ، ولا تزال القيم الاسلامية الأساسية تحول دون ذوبان الشخصية الأساسية ، لقد نقل الاسلام الناس من اختلاف الأجناس إلى اتحاد المشاعر ، ومن العنصرية إلى الانسانية وتحاول دعوات الغزو الفكرى الدعوة إلى العنصرية والأجناس لتدمير وحدته القائمة على وحدة الفكر أساساً ، وفي الاسلام تفوق رابطة الفكر والعقيدة رابطة العنصر والدم ولقد اشتركت كل العناصر الاسلامية في بناء الفكر وفي مواجهة الغزو وقدموا دماءهم كما قدموا مادة عقولهم في سبيل رفع شأن كلمة الحق .

ولكن دعوة الاقليميات والقوميات الطبقية لم تحقق نجاحاً مما كان يرجى لها لأنها لم تبدأ على طريق الأصالة ولم تتحرك من خلال مفهوم المسلمين للوحدة الجامعة ، وظن كثيرون أن الوحدة العربية غاية كبرى بينما هي في الحقيقة مرحلة على طريق الوحدة الاسلامية ، وقد كان غياب هذا المفهوم سبباً في تمزيقها وانحرافها .

كذلك فإن من أخطر ما يواجه ثقافتنا : تلك الازدواجية في اللغة والتعليم والقانون، لقد جاء هذا التحدى نتيجة غلبة المناهج الغربية على مدارسنا وجامعاتنا ومجتمعاتنا وعلينا أن نتخلص من هذا الخطر وأن نهضم الوافد متى كان صالحاً ونصهره في فكرنا الأصيل ونبقى الأطراف الاسلامية ثابتة قائمة لا تزلزلها الرياح التي تحمل السموم الوافدة . لقد صاغ الغربيون مناهج في التعليم والتربية وفق معتقداتهم وأخلاقهم وآدابهم فهى لا تصلح لنا أصلا ، لذلك لابد أن تقيم الأمة الاسلامية منهجها التربوى الأصيل مستمدة أصوله من كتابها وتراثها وأجمل ولاءها للإسلام: عقيدة وشريعة وسلوكاً :

وعلينا أن نذكر أن المسلمين أعطوا أوربا المنهج التجريبى الذى أحياها ، فلما عادت أوربا إلى الشرق أعطت المسلمين المنهج الأرسطى ليثنيهم فأخذ المسلمون منهج أرسطو فعزلهم عن حقيقة الاسلام التى أقامها بالمنهج التجريبى الذى صنعه المسلمون أساساً بعد أن رفضوا منهج أرسطو ثم رفضه الأوربيون واقتدوه بما نقده به المسلمون ، ولكن الغربيين هم الذين اقتبسوا العلم الاستدلالى من المسلمين فكان سبب ارتقائهم ردوا إلى المسلمين المنهج الأرسطى ليستعيذوا به على كل ما يريدون بثه فيهم من سموم من حيث لا يشعرون . ولقد ظل العقل الغربى بالرغم من استيعابه المنهج التجريبى (عقلا انشطارياً) لأنه لم يستطع أن ينظر نظرة كاملة الأبعاد المختلفة الأمور ، وقصر نفسه على ناحية واحدة بينما يؤمن العقل الاسلامى بالتكامل والواقعية الصادقة ويرفض النزعة الخيالية ولا يتخذها بديلا عن الواقع.

لقد انفصل الفكر الغربى منذ وقت بعيد عن قاعدة الإيمان بأن مصادر نواميس الكون وقوانينه قد أرساها الله تبارك وتعالى وبذلك وقع الإنفصام بين العلم والدين ، وبذلك الاعتقاد فتح الفكر الغربى أمام الحياة الاجتماعية والعقلية أخطار القلق و الإغتراب والقلق .

ولذلك فإن الإسلام لا يقر هذا المنهج المادى ولا يتخذه أساساً لفكره ، ومن ثم فإنه يفتح للبشرية طريقاً جديداً من الضياء والنور ، هو طريق الله الحق .

﴿ الحضارة الإسلامية ﴾

وفى الوقت الذى تعجز فيه الحضارة الغربية عن فهم مصدر الخطر ، وتقف فى صلف أمام سنن الله الغالبة ، لا تريد أن تصحح موقفها ، تقف الحضارة الإسلامية موقف الفهم الصحيح والاتجاه السليم نحو تصحيح موقفها وتحرير نفسها وذلك باتجاهها إلى المصدر الأصيل (القرآن) مؤمنة بأنه هو المنبع الأول الذى يقدم لها طوق النجاة فى سبيل عارمة جديدة للتجدد والنمـــاء . ولا ريب أن دعوة الاقتباس والتقليد للفكر الغربى (بعلمه) التى تحاول قوى التغريب والغزو الثقافى دفعها بأقصى سرعة لها محاذيرها وأخطارها ومن أجل ذلك لابد أن تكون القيم الإسلامية هى أساس البناء وهى القواعد والضوابط التى تحفظ للشخصية الإسلامية أصالتها ودورها الحضارى البناء

وليس صحيحاً أن البشرية مهددة بالمجاعة ، وإنما هى مهددة بالظلم بسبب احتكار الأقوياء الأقوات وحرمان الضعفاء منها ، وأن الإسلام قدم منذ أزمن بعيد قانوناً أصيلا هو « قانون الوفرة » لقد انحسرت الموجة الضالة التى حاولت أن تلتقط من السنة أو التراث القديم خيوطا الدعم وجهة نظر الغزو الثقافى وتبين أن كثرة العيال مع قلة المال مشقة كبيرة ولكن ثوابها عند الله كبير وكان النبى ﷺ فقيراً قليل الشىء وهناك أحاديث أخرى تصور ثواب من كثر عياله وقل ماله ، ومن قول النبى ﷺ « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال » .

وإنما تريد هذه الدعوى المسمومة أن تدمر الوجود الإسلامى الذى ينمو الآن بقوة فى مختلف مجالات العلم والطاقة والتفوق البشرى ليأخذ مكانة الطبيعى والحق تحت الشمس فإنه بالرغم من كل الضربات التى وجهت للمسلمين خلال القرن الرابع عشر فإن عددهم قد تضاعف حتى بلغ ألف مليون مسلم على امتداد الكرة الأرضية كلها . ولقد تأخرت التجربة الإسلامية لتجىء بعد أن فشلت كل التجارب البشرية ويأس المصلحون العلمانيون من كل المناهج والفلسفات التى باءت بالفشل ولم تبق إلا تجربة واحدة على العالم كله أن يجربها : تلك هى تجربة التوحيد والرحمة والإخاء الإنسانى التى جاء بها محمد بن عبدالله قبل أربعة عشر قرناً .

لقد طبع الإسلام حياة العرب والمسلمين فى الماضى ولا يزال يطبعها وسيظل يطبعها إلى آخر الدهر ولذلك فإن أى حركة فكرية أو اجتماعية لا تستطيع أن تثبت إذا تجاهلت هذا الدافع البديهى وهذا الأصل الفطرى ، لقد استمرت الثقافة التى صبها اليونان والرومان ألف سنة قبل أن يجىء الإسلام ثم لم تلبث أن تلاشت تماما بعد أقل من قرن من دخول الإسلام ، بلغاتها ومفاهيمها وقامت على الزمن حقيقة لا تنقض هى « الانقطاع الحضارى » بين ما قبل الإسلام وما بعده .

وليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى إمتلاك أدوات الحضارة المادية وتراثها التكنولوجى والعلمى والميكانيكى أن تستوعبهم هذه الحضارة أو تحتويهم فى إطار الفكر الغربى المدمر والقاصر وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد والإيمان بالإخاء الإنسانى .

إن أول بشائر اليقظة انتقالا إلى النهضة : تطبيق الشريعة الإسلامية وإقامة المجتمع الربانى وتحرير أرض الإسراء والمعراج وسيادة العقيدة الإسلامية وإقامة الوحدة الإسلامية إن علامات هزيمة حضارة الغرب واضحة ، وعلامات طلوع فجر الحضارة الاسلامية واضحة ، وعلى المسلمين أن ينتقلوا من الاسلام إلى الايمان .

على المسلمين أن ينتقلوا من الفهم الجزئى إلى الفهم الجامع .

على المسلمين أن ينتقلوا من الفكر البشرى إلى الفكر الربانى .

على المسلمين أن يتجاوزوا سارتر وفرويد وماركس ودوركايم إلى القرآن والسنة وإلى تراث عريض أصيل فيه شفاء الصدور وسكينة النفوس وعطاء الاصلاح والتجديد للبشرية كلها فى مختلف مجالاتها .

على المسلمين أن يجتازوا مرحلة التبعية إلى مرحلة الأصالة .

على المسلمين أن يتجاوزوا مرحلة الطفولة البشرية وصولا إلى الرشد الانسانى .

لا نجاة إلا بتطبيق الشريعة الاسلامية فى بناء المجتمع وإقامة الاقتصاد الاسلامى ودعم الجماعة الاسلامية وتطبيق التربية الاسلامية من أجل الحفاظ على الطفولة والشباب والمرأة والأسرة المسلمة وبناء الشخصية الاسلامية . هذا هو مطلع الأصالة الاسلامية إلى القرن الخامس عشر الهجرى ، على المسلمين أن يلتزموا به وليعاهدوا الله عليه ويحققوه .

(٥)

بل الإسلام لقيادة العصر

من أخطر التحديات التى تواجه المنهج الاسلامى وتحول دون تطبيقه تطبيقا شاملا تلك الدعوات الباطلة التى تتعالى بالقول بتبرير الواقع الاجتماعى الفاسد ، واتخاذ « الرخص » التى هى بمثابة حلول لحالات مؤقتة وظروف طارئة ، ولا يمكن أن تكون نظاما اجتماعيا أو سياسيا ، اتخاذ هذه الرخص لمداراة العجز عن دفع الأمة نحو الأصالة ونحو إلتماس العزائم وتحكيم كتاب الله فى المجتمع الحديث

ومن هنا يجرى البحث عن مخارج لإقرار الواقع الفاسد ، سواء بالنسبة إلى نظام الربا فى الاقتصاد أو القانون الوضعى فى الأحكام ، أو انحرافات اللباس والزينة فى شأن المرأة والرجل ، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية وعمل المرأة والاختلاط .

ولقد عقدت فى السنوات الأخيرة عدة مؤتمرات عالمية ، تحت إشراف الاستشراق والتبشير والغزو الفكرى ، ودعى لها بعض من يملكون الأسماء اللامعة للاستعانة بهم على تحقيق مثل هذا العمل الخطير : « تبرير الواقع الاجتماعى الفاسد » ومسايرة الانحراف الحضارى المتدفق على العالم الاسلامى وصاحب الأثر العميق فى بناء الأسرة والجماعة والعمل والبيت والذى مهما تكن آثاره القائمة فإنه يمهد الأرض لانحراف خطير تواجهه الأجيال القادمة دون أن ترى فيه خطراً وتظن أنه واقع قائم أو عمل مشروع ولقد كان حرياً بقادة الفكر الاسلامى أن يوقفوا هذه المحاولة ، وأن يكشفوا زيفها وأن يردوها على أعقابها ويأخذوا بالحلول الأصيلة التى لا تخضع فيها الشريعة الاسلامية لواقع المجتمعات بل التى تصلح من شأن هذه المجتمعات حتى تكون على طريق الحق .

إن حق الله على المسلمين أن يطبقوا شريعته ويقيموا المجتمع الربانى فى الأرض ، وأن يأخذوا بالعزائم فى « كل » الشريعة لا جزئياتها : حتى يكونوا ربانيين ثم عليهم أن يدعوا البشرية كلها إلى هذا الحق الذى هداهم الله وجعلهم شهداء فيه على العالمين وعلى المسلمين أن يحرروا الاسلام من التبعية فقد جاء « نموذجاً خاصاً » متميزاً وقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى العصر الأول على التمييز والاحتفاظ بالذاتية الخاصة ملبساً ونظام حياة وعادات وعبادات .

وعلينا اليوم أن نحرر الاسلام من كلمات الغرب ومصطلحات : الديمقراطية والاشتراكية فليس الاسلام إشتراكية ولا ديمقراطية ، وليس الاسلام ثورة كما يحلو للبعض أن يصفه ، ولقد يلتقى الاسلام مع بعض الأيدلوجيات والنظم والدعوات فى أطراف معينة ، ولكنه يظل هو الاسلام المتكامل الجامع ، ويبقى النظام الخاص المفرد الذى لا يقبل الاندماج ، والذى لا يبرر واقع

المجتمعات ويكذب الذين يقولون إن الاسلام يلتقى بالديمقراطية الغربية أو الاشتراكية الشرقية ، أو يقبل إحداهما ليكون بمثابة وجوده أو منطقه ، ولا يصلح للمسلم هذا الركام المجمع من قوانين الأمم وأنظمتها هذا الثوب الذى (هو خمسين رقعة) وإنما يصلح لهم أمراً واحداً ، أن يعودوا إلى النموذج الإسلامى فى أصالته وأصالته ليقيموا عليه وجودهم كله . اقوياء به أعزاء بانتسابهم إليه ، مؤمنون بأنهم يمثلون أصدق النظم إتصالا بالفطرة وأقربها إلى الحق وأسلمها عاقبة فى كل معاملات الحياة .

وليس الاسلام ثورة بالمعنى اللغوى ولا هو ثورة بالمفهوم العصرى ، وليس هو بمثابة إنقلاب عنيف أو دموى وإنما هو العودة إلى الأصالة ، العودة إلى المنابع ، العودة إلى الحق الذى أنزله رب السموات والأرض إلى هذه الأرض ليصلحها ويدفعها على الطريق المستقيم ، ولقد جاءت دعوة الاسلام تجديداً لدعوة الدين الحق التى سبقت على لسان كل نبى ، وقامت فى صورتها الباقية إلى يرث الله الأرض ومن عليها ، قامت هذه الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة . إن الذين يصفون الاسلام بالثورة لا يعرفون خصائص العقيدة الربانية الجامعة ، إن الثورة تنتهى وتستنفد أغراضها ولكن الاسلام لا يستنفد أغراضه أبداً ، وليس هو عرض قائم أو مرحلة من مراحل التطور ، وإنما هو رسالة السماء بالحق إلى البشرية منذ كانت البشرية والقائم عليها إلى يوم القيامة .

ويتميز الاسلام بالفطرة الكاملة فى أبعاده الروحية والمادية والعقلية وترابط الخلق مع العقيدة والعلم مع الدين ، حيث يقرر الاسلام أن الدائرة لا تتم إلا بالتقاء القوسين : الروح والمادة ، والفرد والجماعة ، والعقل والقلب ، كما تتم الدائرة الكهربائية بالسالب والموجب معاً فى وقت واحد وإن بدا فى الظاهر أنهما متضادان . هذا شأن الاسلام تقوم فيه النظرة على التكامل الجامع بينما تتمثل النظرة البشرية فى أيدلوجياتها ومناهجها محدودة جزئية إنشطارية تقوم فى حدود المحسوس والمادة فتفقدهم خصائصها ، وتحجب حاجة الروح والنفس من غذاء ، ومن ثم يقوم ذلك الصراع الحاد الذى يتمثل الآن فى أزمة الانسان المعاصر ، وفى عوامل التمزق والغربة والضياع التى يواجهها الإنسان فى عالم الحضارة المادية

ولقد حاول بعض التغريبيين تزييف هذه المفاهيم لينقلوا المسلمين من أصالتهم إلى العصرية والحداثة وتدمير مفهومهم الجامع وإيمانهم الصادق الذى أمدهم الاسلام ، فواجهوا ذلك التاريخ المظلم من الهزيمة والنكبة والنكسة خلال أكثر من خمسين عاما عندما خدعوا فى المناهج الوافدة فظنوا أنها تستطيع أن تعطيهم القوة أو تفتح لهم آفاق النهوض فما زادت عن أن دمرت قيمهم وذاتيتهم وجعلتهم كما هم اليوم نهبا للصراع مع أيدلوجيات غربية وماركسية وصهيونية ، نحن فى حاجة إلى مواجهتها والانتصار عليها بالتماس المفهوم الأصيل الربانى الذى جاء به الإسلام والذى يعطى المجتمع

الإسلامي نموذجاً عالياً من منهج الحياة ونظام العيش على نحو لم تعرفه البشرية من قبل ولن تستطيع أن تصل إليه .

هذه أمانة الدعوة الإسلامية في مطالع فجر القرن الخامس عشر من تاريخ الإسلام ، والعالم يتطلع منذ سنوات إلى نور جديد يهديه إلى الحق والخير والعدل والإخاء الإنساني ، فلعله يستطيع في هذه السنوات الحاسمة أن يتخلى عن أهوائه ومطامعه وخصوماته وأحقاده ويهتدي إلى ضياء البشرية .

إن الحقائق التاريخية تكشف عن زيف تلك الايدلوجيات التي لم تحقق للبشرية شيئاً بالرغم من قيام أهلها بتطبيقها وتعديلها وتحويرها أجيالا بعد أجيال ، وتكذب هذه الحقائق التاريخية تلك الدعوى الباطلة التي ساقها الغرب حين أعلن أن البشرية قد ارتقت وأنها لم تعد في حاجة إلى توجيه الله ورعاية السماء ، وقد جربت البشرية عقولها واستطالتها على قوانين الله ، فهل أغناها ذلك شيئاً ؟ وهل حقق الأمن الذي كانت ترجوه ؟ إن شيئاً من ذلك لم يقع . قال تعالى (وما يزال الذين كفروا تصيبهم قارعة بما صنعوا أو تحل قريباً من دارهم) .

ولقد تبين للباحثين خطأ هذا الانحراف الذي اتجهت إليه البشرية حين حاولت أن تصنع لها قوانين أو شرائع منحرفة عن شريعة الله الحقة ، ولقد حفلت مناهجها وأيدلوجياتها بالأهواء والمطامع وعجزت عن أن تقدم ما يملأ النفس البشرية بالسكينة أو السلام أو الأمن النفسي والاجتماعي . إن على البشرية أن تعرف أنها تعيد الإنسان الآن إلى عبودية النفس والبدن على النحو الذي كانت الامبراطوريات الفارسية والفرعونية والرومانية تقوم به قبل أن يشرق ضوء الإخاء الإنساني الذي جاء به الإسلام فأزاح هذه القيود والظلمات .

لقد حرر الإسلام الإنسان من أغلال النظم الزائفة الصادرة من غير الله ، أعطاه روح الأمن والسكينة في رحاب النظام الرباني الرحيم ، حيث قدم النظام الإسلامي استجابة صحيحة لطبيعة الإنسان التي لا تتغير وخصائصه التي تميزه عن سائر الموجودات وقد سماها الإسلام (الشريعة) وأكد على أن سعادة الإنسان تتحقق في ظل هذه الأحكام :

قال تعالى :

(فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها : لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) ولقد حاولت الحضارة الغربية حين استسلمت للفكر البشري الوثني تدمير الإنسان وهدم قيمه الروحية والاجتماعية ، وبينما دعا الإسلام الإنسان إلى الترقي من البشرية إلى الربانية ، ومن الذاتية إلى الغيرية ، ومن النفس الأمارة إلى النفس اللوامة ، فإن الحضارة الغربية المتصدعة قد أعادت الإنسان مرة أخرى إلى الوثنية والاستعلاء بالجنس والاستطالة على الأمم ، أي أنها أعادته إلى الجاهلية القبلية التي سحقها الإسلام وقضى عليها ولن تستطيع الإنسانية أن تمضي في طريقها هذا المحفوف بالأشواك والعقبات ،

وأن عليها أن تعود مرة أخرى إلى الله وإلى منهجه الأصيل . تلك هي أمانة الاسلام إلى المسلمين في هذه المرحلة الدقيقة من حياة البشرية وعلى مطالع القرن الخامس عشر الهجري

(٦)

الاسلام والعروبة

ما بين الاسلام والعروبة : ترابط وليس بين العروبة والاسلام صراع .

حاول التغريب والغزو الثقافي أن يثير التناقض والصراع في عديد من قضايا أساسية في الفكر الاسلامي : في مقدمتها قضية العروبة والاسلام التي حاول احتضانها كتاب ليسوا من صميم هذه الأمة ولا من أصالتها أو الايمان بها .

ولقد آن للفكر الاسلامي أن يصدر عن نظرة أصيلة في ترابط العروبة والاسلام يستمدها من فهم عميق وأصيل للجذور الحقيقية والقيم الأساسية لمفاهيم العقيدة والتاريخ واللغة ، وفهم أصيل للعلاقات الجامعة بين الأمة الاسلامية في مختلف أوطانها وأقطارها وقد كان من الضروري أن يجرى هذا بعد أن هدأت تلك الضجة العديدة التي أثارها دعاة الاقليمية ، ودعاة القوميات الوافدة وأصحاب المفاهيم التي تستهدف تدمير ما بين الأقطار الاسلامية وبين العرب من ناحية وبين الاسلام والمسلمين والعرب من روابط فكرية ونفسية واجتماعية لها جذورها العميقة الممتدة عبر أربعة عشر قرناً ، والتي شكلها أساساً منذ ظهرت دعوة الاسلام في قلب الجزيرة العربية ، وامتدت منها إلى الآفاق . شكلها على مفهوم جامع . وقد كان لا بد من القيام بمراجعة كاملة للنظرة الغربية الوافدة في القوميات والاقليميات ومعرفة مدى اتفاقها واختلافها مع واقعنا .

وكيف يمكن أن نلتقي مع كياننا هذا الذي شكله القرآن منذ نزل بالحق ، وقامت على أساسه أصول نفسية اجتماعية تمثل الذاتية والمزاج والروح العربية الاسلامية التي تختلف اختلافاً واضحاً وعميقاً وجذرياً عن مثيلها في الغرب . قوام هذه النظرة أن (وحدة الفكر والقيم والعقيدة) هي أساس الحنيفية ذات الجذور العميقة التي تشكلت منذ تأهلت هذه الأرض لرسالات السماء ومضت تصحح نفسها مرحلة بعد مرحلة ، وقد انطلقت من قلب الجزيرة العربية . تلك الموجات التي اكتسحت من العراق حتى إفريقيا فكانت بمثابة التوحيد المسبق لرسالة الاسلام حين جاءت لتلتقي مع أمة عربية تحمل لواءها إلى العالمين ، فهي عروبة حنيفية منذ انطلاقها تحمل جذور التوحيد والعدل والرحمة . فلما جاء الاسلام صقلها ونقاها وبرأها مما ألم بها على مدى العصور من وثنية أو شرك أو انحراف وأعادها حنيفية إسلامية ، وهي عروبة مفتوحة ثقافياً على التاريخ والتراث ، ومفتوحة جغرافياً على العالم الاسلامي والأمة الاسلامية .

ولقد انصهرت هذه العروبة في الاسلام انصهاراً فلم تعد تتمثل إلا في ذلك الدور الذي أذن الله لها

أن تقوم به وفى حمايتها المقدسات واللغة دوماً . هذا الإسلام الذى شاد للأمة العربية وجودها وأعطاها تلك الكرامة والمجد حين شرفها بحمل رسالته وقرآنه . هذا هو الفارق العميق بين مفهوم العروبة القائمة بالإسلام وبين مفهوم القومية الوافد . ذلك أن الدين فى الأمة العربية ليس لاهوتاً خالصاً كمفهوم الغرب ، ولكنه نظام جامع بين العقيدة ومنهج الحياة .

ولا ريب أن « التغريب » كان حقاً بأن يفصل بين العروبة والاسلام وأن يطرح البديل الغربى ، وقد بدأت هذه النظريات فى معاهد الارساليات ومحافل الماسونية . وقد ركزت الأضواء على الذين حملوا هذه الدعوات ليصبحوا أعلاماً ومنارات تغرى الشباب الغض الذى لم يكن قادراً على أن يفهم حقيقة فكره الاسلامى وصلته بالعروبة . وكان الهدف هو الحيلولة دون وضع (حركة اليقظة الاسلامية) على طريقها الصحيح والعمل دون وصول العرب حملة الرسالة الاسلامية إلى مكانهم الحق . قد تبين أن فكرة العروبة جاءت فى مواجهة التحدى بفكرة الطورانية التى فرضها النفوذ الاستعمارى التلمودى على الدولة العثمانية فى مرحلة الاحتواء ، ولم تكن العروبة فى مفهوم العرب أول الأمر إلا ذات مضمون إسلامى واستجابة المقاومة ضد الاستعمار بعد سقوط الدولة العثمانية فى محاولة لإقامة تجمع أصغر ، تجمع فى دائرة الأمة بديلا عن الوحدة السياسية التى سقطت .

هذه العروبة لم تكن فى صدور الداعين لها لا استجابة لمفهوم القوميات الغربية الوافد ، وإنما كان منطلقاً إلى الوحدة الاسلامية مرة أخرى عندما تزول غمة الاحتلال والسيطرة الأجنبية عوداً إلى الأصالة والمنابع ، وقد جاءت كمرحلة اضطرارية فرضتها الأحداث حين اضطرت حركة اليقظة إلى التحرك تحت ظروف الاستعمار فى دائرة الوطن أو الأمة كمقدمة لبلوغها مرحلة الوحدة الكبرى . غير أن النفوذ الاستعمارى كان حريصاً على أن يدمر الروابط بين العرب وبين الجامعة الاسلامية التى تربطهم فكرياً وجغرافياً وتاريخياً .

ومن هنا فقد حرص على دفع دعوات ومفاهيم ونظريات مموهة فى محاولة إخراج العرب عن طابعتهم وإفساد هذا الواقع وإثارة البلبلة والصراع ، فقد حاول الاستعمار وضع كلمة القومية بديلا لكلمة العروبة عملا على خلق الصراع حتى لا تستطيع كلمة العروبة أن تستكمل وجودها أو تحقق ارتباطها الطبيعى ، ولقد كانت هذه المناهج الغربية التى طرحت نظرية القومية الوافدة إنما تحاول أن تهدم العلاقة بين العروبة والاسلام ، فقد رأى الاستعمار أن الدعوة إلى العروبة قد أخذت تتشكل فى أصالة لتأخذ أسلوب الفكرة الاسلامية وترتبط بها فسرعان ما غزاها بمفاهيم غريبة عنها حاول بها إبعادها عن الاسلام فكراً وفصلها عن العالم الاسلامى جغرافياً .

غير أن المحاولة فشلت وبان عوارها . لأنها مناقضة لطبائع الأشياء والفطرة التى فطر الله عليها الكائنات والناس . وتعرف الناس بعد السنوات الطويلة التى انقضت فى المراجعة والمواجهة عن حقيقة واقعة فى أن طبائع الأشياء وأصولها الأصيلة لا بد أن تحل محل الزيف

الذى يبدو حين يطرح وله بريق ساطع ثم ينكشف جوهره عن غثاء كغثاء السيل فإذا به معارض الذاتية الأصيلة والمزاج النفسى للأمم فلا تلبث الأمة الإسلامية أن تلفظ ذلك كله وترفض وتعود إلى جوهرها الأصيل بالرغم من القيود التى تحاول أن تحجزها فى أوضاع محددة .

ولا ريب أن النظريات الإقليمية والقومية الغربية قد صاغتها أحقاد الصهيونية والاستعمار

وهى تحس بقوة الترابط بين العروبة والإسلام، وإن غلفت بطابع زائف من العلم أو بريق من الصناعة . وكان الكذب المقايسات مقايسة الإسلام على الأديان الأخرى ، دون النظر إلى طبيعة الإسلام المختلفة عن طبيعة الدين بمعنى العبادة ، ودون التفرقة بين كلمة دين وكلمة إسلام ، وبين كلمة قومية وكلمة عروبة ، ودون بيان الفارق بين صلة القومية بالدين فى الغرب ، وبين صلة الإسلام بالعروبة فى عالم الإسلام وكان الخطأ الكبير هو افتراض أن النظريات الأوربية فى القومية أو فى غيرها صالحة التطبيق ، أو صالحة لمقايسة واقع العرب والمسلمين . ومن السذاجة أن يظن البعض أن يتخذ العرب من مبدأ القوميات دينا يضعون له قداسة الإسلام والذين قالوا بذلك ادعوا إليه كانوا جد غافلين عن مفهوم الاسلام وجوهر فكره ولكنهم اعتمدوا على أن الارساليات والمدارس الوطنية قد علمت الدين العرب على أنه عبادة وليس على مفهومه الحقيقى بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع .

والواقع يؤكد أن القومية ان تصبح عقيدة العرب والمسلمين أبداً وان تكون لها قداسة الدين كما حاول أن يعطيها هذا المفهوم بعض الضالين ، ذلك أن العرب والمسلمين إنما يشكلون أنفسهم فى ضوء التحديات وظروف الأزمات من خلال فكر واسع عميق قادر على العطاء فى كل الأحوال مفتوح على التلقى قادر على الأخذ والرد . ولا ينصهر ولا يذوب ولا يحتوى ، لذلك فقد سقطت محاولات بث القومية على أنها عقيدة روحية تستطيع أن تخلف الاسلام أو تحل محله وتكشف بعد قليل أن القومية بمفهومها الغربى محاولة لصدام العروبة بمحتواها الأصيل ذلك أن ميزة العروبة بمفهومها الحق أنها تقوم فى نطاق أخلاقى معترفة بمكانها من الاسلام مفتوحة على الأخوة الاسلامية التركية والفارسية والهندية والملاوية متكاملة بها ومعها وماتزال الثقافات العربية والفارسية والتركية تصدر عن إطار الاسلام ولا تستطيع الاقليميات والقوميات الوافدة أن تبلغ منها مبالغ التعصب الذى عرفته القوميات الغربية ، وان تستطيع العروبة أن تخرج عن مفهوم الاسلام مهما أوقد لها التغريب النار فى الاستعلاء بالماضى الوثنى أو بالانغلاق عن الأمة الاسلامية . إن أقوى أهداف النفوذ الأجنبى (كانت وماتزال) وضع المسلمين فى قوالب الفكر الغربى ، إخراجهم من مناهج فكرهم ومفاهيمهم الأصيلة . وقد استطاع التغريب ذلك عن طريق فرض سيطرته على التعليم والثقافة والصحافة بواسطة معاهد الارساليات وغيرها التى خرجت مجاميع من القادة والكبراء .

ولكن هذه المحاولة قد انكشفت اليوم تماماً وتبين مدى آثارها على الأخطار والتحديات التى واجهت المسلمين فى ربع القرن الأخير .

كذلك فقد فشلت (العلمانية) ولم تستطع أن تحقق شيئاً كما فشلت (الديمقراطية) ومن بعدها (الماركسية) ذلك لأنها لم تكن من طبيعة هذه الأمة : بل فرضتها ظروف وتحديات ، ولم تنبثق من داخل الكيان الاسلامي وقد وقفت العلمانية والمادية والليبرالية والماركسية في وجه المفهوم العقائدي الاسلامي الجامع وثبت أن يقظة العرب والمسلمين وصولا إلى نهضتهم لا تتم أبداً من خلال الثقافات الوافدة أو النظريات الأجنبية ، كما تبين مدى ترابط الفكر الاسلامي في قيمه ومفاهيمه إلى الحد الذي لا يمكن الفصل فيه بين اللغة والتاريخ والعقيدة والتراث :

إن الذين طرحوا نظريات القومية الاقليمية والعلمانية (ساطع الحصري - ميشيل عفلق - أنطون سعادة - فيليب حتي) لم يكونوا من نتاج هذا الفكر الاسلامي الأصيل ولذلك جاءت نظرياتهم معارضة للمفهوم الثقافي الذاتي الأصيل المنبعث من الفطرة الصافية ، وكانت دعوتهم تستهدف تمزيق وحدة هذه الأمة الاسلامية تحت نظريات اللغة والأرض والمعيشة والعلمانية ، وتبين بوضوح أن الهدف هو إبقاء المسلمين في انفصال وصراع في داخلهم ، فضلا عن ذلك الجسم الغريب المغروس في قلب الوطن العربي وليكون ذلك كله حائلا دون الانتقال من مرحلة اليقظة إلى مرحلة النهضة والتجمع والتشكيل الحقيقي المستمد من القيم الأساسية . وقد جاءت الحقيقة واضحة بعد تلك المعركة الواسعة الضخمة بين أهل الأصالة وبين أصحاب الفكر الوافد القائل أن الفكر الاسلامي لا يقر صراع الأديان أو الأجناس وأنه من أكبر الخطأ وضع الاسلام في مواجهة القومية في مواجهة الاسلام ، وأن حركة العروبة هي موجة من موجات اليقظة العربية فهي وابدتها وبها متصلة وإنها ممتدة لتحقيق هدف الوحدة الكبرى .

وتبين أن العروبة بالاسلام وأن الاسلام هو الذي أعطى العرب وجودهم وكيانهم ، وأن مذاهب العلمانية أو القومية لن يستطيع إخراج الفكر الاسلامي عن ترابط العروبة والاسلام وسقطت النظريات الوافدة في القومية والاقليمية والعلمانية والمادية والماركسية ، وأن نظرية القومية الغربية هي دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والصلات بين جامعة المسلمين ، وقد عجزوا مبدأ القوميات في أوروبا أن يحقق لها شيئاً إلا التمزق والتضارب والصراع .

لقد كان هدف الاستعمار والتغريب والغزو الأجنبي تفريق الأمة الاسلامية إلى كيانات ، ولذلك فقد أبعد التربية الاسلامية عن برامج الدراسة والتعليم لهدم الأجيال الناشئة وأبعد القيم الاسلامية عن الحياة الاجتماعية وأهمها الايمان بالله ، وأبعد الشريعة الاسلامية ، وفرض قانوناً أجنبياً وافداً وأبعد فكرة وحدة الفكر الجامعة وأبدلها بالاقليميات والقوميات المتصارعة ، وحاول التشكيك في اللغة العربية واتهمها بالعجز عن ترجمة العلوم ودفع العاميات واللغات الأجنبية لحلول محلها ، كما عزلها عن التاريخ الاسلامي ببطولاته ومواقفه وحصرها في التاريخ الاقليمي ، كما عمل على عزل الأدب العربي الحديث عن الأدب العربي الاسلامي ، وفرض مناهج النقد الغربي .

وهذه كلها محاولات تستهدف القضاء على وحدة الاسلام وتمزيق جبهته ، ولكن المسلمون قد انتبهوا اليوم إلى هذه المخاطر والتحديات والأخطار وهم يواجهونها بقوة ويكشفون كل يوم عن زيفها وخطرها ويلتمسون طريق الأصالة والمنابع الأولى ، ولقد كانت قضية التفرقة والصراع والتناقض بين العروبة والاسلام من أخطر هذه القضايا والتحديات . وكان لابد أن تقال فيها كلمة واضحة صريحة تكشف الزيوف المتراكمة والأخطار القائمة .

(٧)

البدائل الزائفة

البدائل الزائفة للقضاء على الأصالة

هي أخطر ما يواجه المسلمون اليوم

يقول المستشرق هاملتون جب في « وجهة الاسلام » :

أن « مستقبل التغريب » : والدور الذي سيلعبه في العالم الاسلامي لا يتوقف على هذه المظاهر الخارجية للتأثر والاقتباس . لأن الصورة الظاهرية ثانوية ، وكلما كان التقليد في المظاهر أكمل كان امتزاج الشيء المنقول بنفس المقلد أقل . لأن فهم الروح والأصول التي تنطوي عليها المظاهر الخارجية فهماً كاملاً لابد أن يصحبه إدراك التعديلات التي تتطلبها الظروف المحلية ، ويمكن أن تزول من العالم الاسلامي كثير من النظم الغربية التي نراها فيه الآن ، وان يكون بعد ذلك أقل حظاً من « الاستغراب » . بل وربما كان أوفر حظاً .

وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الاسلام كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية . علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية بعد أن تهضم وتصبح جزءاً حقيقياً من كيان الدول الاسلامية فتتخذ شكلا يلائم ظروفها . ولفهم هذا النص ومداه علينا أن نعرف أن حركة الاستشراق وعلى رأسها هاملتون جب وأربعة آخرون قد أصدروا في كتابهم هذا لدراسة مستقبل التغريب في العالم الاسلامي ، والتغريب مصطلح مستحدث يصور مدى ما وصل إليه عالم الاسلام تحت تأثير سيطرة الفكر الغربي والحضارة الغربية من تحول عن طبيعته وذاتيته وخصائصه وانصهاره في بوتقة الفكر الغربي والأممي والمادي والعلماني وإلى أي حد وصل العالم الاسلامي في هذا التغريب ، وما هي العوامل التي تمكن من إتمام صهره وتغريبه كاملا . ذلك هو ما عمد المستشرقون الخمسة إلى البحث عنه في كتابهم

الذى أصدروه فى الثلاثينات . ومازال الخطة التى رسموها فيه موضع بحث مفكرى الاسلام وحذرهم ومطالق البحث عن الوسائل القضاء عليها وتزييف هدفها . والواقع أن حركة التغريب تعمل بعدوقوة وحركة اليقظة الاسلامية تعمل لترد عنها ذلك الخطر .

أما « جب » فيرى أن ميادين العمل هى : القانون الوضعى والتعليم الغربى والثقافة الوافدة التى تنظم فروع التفسير الأدبى والتاريخى والاجتماعى والسياسى . وهو فى هذه الكلمة التى ألقاها هذه يؤكد على معنى من أخطر المعانى ، وهو أن هناك آراء جديدة وحركات مستحدثة تحت اسم النهضة والتقدم والعصرية قد يظن أنها ليست غريبة تماماً ، ولكنها سوف تخرج المسلمين عن قيمهم الأساسية وتفقدهم الصلة بتاريخهم وماضيهم وخطهم الذى ساروا عليه منذ أربعة عشر قرناً .

ويظهر معنى ما يقول « جب » حين نجىء مرحلة تغيير الواقع الذى خلفه النفوذ الأجنبى وهذه هى المرحلة التى يمر بها العالم الاسلامى اليوم وهو يتجاوز أسلوب الاقتصاد الغربى إلى اقتصاد إسلامى بغير ربا ، وحين يتجاوز القانون إلى قوانين الوضعى إسلامية جنائية ومدنية ، وحين يتجاوز أساليب التعليم الذى فرضته الارساليات ومناهج الاستعمار إلى أسلوب عربى إسلامى للتربية والتعليم . فى هذه المرحلة الدقيقة يمكن أن تبدو الصورة وكأنها تتغير ولكنها تكون فى نفس الوقت قد هضمت الروح الغربية وأصبحت جزءاً حقيقياً من كيان الدول الاسلامية .

ومن هنا فإن التحول إلى الطابع الاسلامى يصبح مشكوكا فيه لأنه لم يتجرد تماماً من التغريب الذى دخل إليه ، وهذا ما تنبه إليه بعض رجال حركة اليقظة الاسلامية فى العصر الحديث حين رفضوا تعديل القوانين المدنية الغربية المطبقة فى بعض البلاد العربية بتعديل المواد الخاصة بالحدود الاسلامية ، وأصروا على ضرورة إلغاء القانون الوضعى كلية ، وإقامة قانون إسلامى خالص منبعث من روح الاسلام نفسه ومن واقعه ومن مفاهيمه ووفق أهدافه وغاياته التى تختلف عن روح وأهداف وواقع القانون الغربى .

وكذلك الأمر فى أمر الاقتصاد الاسلامى يجب أن تكون الحيطة بالغة دون الوقوع فى هذه المحاذير التى أشار إليها هاملتون جب ، والتى ظن أن المسلمين سوف ينخدعون لأنهم تعلموا فى معاهد الارساليات وتحتويهم المناهج الغربية ، ولكن الأمر إختلف كثيراً عما قدر هاملتون جب وجماعة المستشرقين ، وبرز فى العالم الاسلامى قادة عرفوا هذه التحديات ، وأعدوا لها عدتها من الحذر واليقظة واستطاعوا وسوف يكونون بفضل إيمانهم بأمتهم وعقيدتهم قادرين على تجاوز هذا الخطر .

ولعل جماعة الاستشراق تعرف أن التجربة التى قدمها النفوذ الأجنبى لعالم الاسلام فى نظام الحكم والتعليم والقانون والسياسة والاقتصاد قد فشلت فشلا ذريعاً ، وأنها ردت المسلمين عنها إلى البحث عن ذاتها وعن قانونها ونظامها كله الذى صدقها حياتها كلها الوعد بالقوة والنصر والتقدم .

ونحن نرى اليوم هذه المؤسسات التي تقوم وفق شريعة الإسلام في مجال الاقتصاد تكشف بوضوح عن أصالة الروح الإسلامي وصدقه وسلامته في بناء الأمة مما يؤكد ضرورة المضي في هذا الطريق الذي تقوم عليه دولة كاملة تطبق الشريعة الإسلامية في نظام مجتمعها وتتقدم به إلى المسلمين جميعاً برهاناً لصدقه وسلامته. وفي مصر نرى الآن حركة دائبة لتقنين الشريعة الإسلامية ولإعداد قانون العقوبات الإسلامي، وفي الأردن صدر فعلا قانون إسلامي مدني، وفي ليبيا سبقت خطوات على طريق الشريعة الإسلامية في عدد من القوانين، وكل ذلك يكشف عن الطريق ويوحي بالاتجاه الذي يجب أن يعمقه المسلمون وصولا إلى اكتمال تطبيق شريعة الإسلام في مجتمعاتهم بعد الاقتناع الكامل إنه لا سبيل إلى تحقيق الأمن الاجتماعي والسلام النفسي إلا عن هذا الطريق وحده.

إن أخطر ما يواجه المسلمون في هذه الفترة هو هذا الخطر الذي أشار إليه د حب، والذي هو من مخططات النفوذ الأجنبي في وجه محاولة المسلمين والعرب الخروج من دائرة التبعية والغزو الفكري إلى «الأصالة» فهم يدعونه إلى تلك «البدائل» التي يرسمون لها صورة مظهرية شبيهة بالصورة الأصيلة. ثم يجعلون مضمونها من الفكر الوافد ومن المفاهيم التي تخرج المسلمين عن جوهر عقيدتهم وفكرهم أملا في أن يصبح الاسلام بعد ذلك هلاماً مظهرياً تتحرك من داخله قيم الغرب التي تؤدي إلى التبعية والاستسلام والقبول بوجهة نظره في أمور التعليم والقانون والنظام الاجتماعي وبذلك تتم السيطرة الفكرية والروحية على هذا الكيان الذي كونه القرآن وبناه الاسلام فينصهر انصهاراً شديداً في أتون العالمية والأممية التي تقوم الآن على المادية الخالصة، بينما يدعو الاسلام إلى عالمية الايمان بالله والتوحيد والرحمة والاخاء الإنساني والعدل الرباني المستمد من شريعة الله والدين الحق.

ومن هنا نجد تلك المحاولات التي ترمي إلى الشيوعية الماركسية عدلا اجتماعياً والديمقراطية شورى والقومية رابطة أمم، وتلك المذاهب والأيدلوجيات التي هي في أعماقها معطيات التلمود علوماً في النفس والاجتماع والأخلاق وإذا صح فإنها علوم صهيونية يهودية بعيدة عن مفهوم الدين الحق تحاول أن تخضع الأمم والشعوب إلى ما تحويه من مفاهيم العنصرية والاستعلاء بالعرق والصراع الطبقي وإثارة القلق والتمزق والغربة في نفوس البشر. يريدون أن يبدلوا كلام الله ويردوا البشرية إلى عصور الطفولة البشرية بعد أن جاء الاسلام معلناً بأن البشرية أصبحت أهلا للدخول في مرحلة الرشد الانساني والانتقال من الأنانية والاباحية والوثنية والمادية إلى عبادة الله الواحد القهار وإسلام الوجه له في بناء المجتمع الرباني القائم على التوحيد والاخاء البشري والعدل، وهو ما قام عليه الاسلام ليكون أمة وسطاً هي خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتحمل شعلة الضياء وتمضي بها إلى أنحاء العالمين بعد أن تطبقها على مجتمعها أولا لتكون شارة الحق والمثل إزاء البشرية كلها ولذلك فما أجدر المسلمين اليوم أن يحذروا البدائل التي لها مظهر براق قد يشابه مظاهر الاسلام. ثم هي في أعماقها فارغة من مضمونه. ولقد كشف الاستشراق هذا الأمر فما أحرانا

أن تنتبه له وأن تكون دائماً على حذر (خذوا حذركم)، (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة).

(٨)

على طريق الحق

وأنتم على طريق الحق اليوم

احـــذروا أن يخدعكم خصوم الإســـلام

إن اليقظة الاسلامية التى يعيشها المسلمون اليوم اتجاهاً إلى النهضة هى حركة أصيلة صادقة لأنها مرتبطة بحركة الفكر الاسلامى منذ فجره إلى اليوم ومراحل نموه وامتداده وفى كلتا مرحلتيه المتتابعتين قوة وضعفاً، ثم قوة بعد ذلك تلتمس طريقها من العودة إلى المنابع والمصادر والموارد الثرة التى قدمها الدين المنزل بالحق للبشرية كلها، والتى قدمها الاسلام فى ختام رسالة الدين السماوى للإنسانية.

ولذلك فإن من أخطر ما تدعو إليه حركة التغريب وتحاوله حركة الاستشراق والتبشير وكلها حركات تتعاون على هدف واحد وغاية واحدة هى تمزيق وحدة الفكر الاسلامى والحيلولة دون صدوره عن الأصالة: هى القول بأن الفكر الحديث هو فكر عربى لا صلة له بالماضى، وأنه يستمد وجوده من الفكر الغربى، وهو ما عبر عنه أحدهم بقوله: هناك اتجاه خاطىء وشائع يسجن الثقافة العربية فى حامة الشريعة الاسلامية، وتبدو من صياغة العبارة وروح اللؤم والحقد والخطأ جميعاً. فإن الثقافة العربية بهذا التعبير الذى شاع أخيراً إنما هى وليدة الفكر الاسلامى، وأن انتماءها للغة العربية والقرآن والشريعة الاسلامية والأخلاق الاسلامية أمر لا سبيل إلى إنكاره، وهو ليس سجناً لها، بل هو منطلق الأصالة إلى الفطرة والحق وضياء نور السماء وهدى النبوات. أما كلمة حامة وهذه السخرية فلا تخدع أحداً عن زيف المضمون وعن سوء الهدف وفساد الغاية.

ومن محاولات التغريب المضللة القول بأنه ليس هناك فارق بين الشرق والغرب، ولا بين الأمم والشعوب، ولا ريب أن بين الأمم قدراً مشتركاً من العلاقات والمظاهر ولكن لا سبيل إلى تجاهل الخصائص المميزة لكل أمة. هذه الخصائص التى كونتها العقائد والأخلاق.

وهناك محاولات القول بأن بعض الحركات الضالة هى حركات إسلامية مجددة كالقاديانية والبهائية كما أن هناك محاولات لمنع قيام الامتزاج الفكرى الشامل الذى يستهدف تذويب الخلافات الفرعية وصهرها لتقريب أمد الالتقاء الواحد.

ومنها محاولات صرف الأمة عن وجهتها التي سارت فيها منذ أربعة عشر قرناً والقضاء على خصائصها ومحو مآثرها وتحقير ماضيها وإفساد حاضرها .

ويستهدف التغريب تقويض المجتمع والأسرة بنشر الإباحية وهزيمة العقل الإسلامي بإذاعة الإلحاد ، وذلك بطرح هذه النظريات والأيدلوجيات المتضاربة التي نشأت في بيئات خاصة بها ومن خلال تحديات مختلفة في هذه البيئات تتعلق بعضها بالدين وبعضها بالعصر . وقد ظهرت أغلب هذه الدعوات حين عجز الدين عن العطاء وحين انفصلت الأخلاق عن الدين . وهي تمثل أهواء النفس البشرية مصوغة في أسلوب له بريقه العلمي ليخفي ما وراءه من هدف ، غير أن هذه النظريات لم تلبث أن أصابها الاضطراب والفساد . فقد تصدعت الفرويدية والماركسية والوجودية واحتاج أصحابها إلى إعادة صياغتها ، وذلك شأن الفكر البشري الذي يعجز أن يقدم لكل الناس في كل العصور وفي كل البيئات ما يحتاجون إليه ، أو ما يعطيهم أشواقهم ومطامحهم ، وهذا ما لا يستطيعه إلا الدين الحق المنزل من لدن خالق الانسان .

ونحن نعرف أن البشرية قد جربت عشرات من الأنظمة والأيدلوجيات والنظريات التي وضعها البشر لأنفسهم : الفردية والجماعية والرأسمالية والشيوعية ولم تجد في ذلك كله ما يرضيها ويحقق لها الأمن والسكينة ، وما تزال تتطلع إلى مزيد من النظريات البوهيمية والحلول والتناقضات وأن يعطيها ذلك شيئاً ذا بال .

ونحن نختلف مع الغرب في هذا الاتجاه ، وما يراه صالحاً له لا يصلح لنا ، فإن لنا منهجاً متكاملاً جامعاً نرى أنه يستطيع أن يعطينا « حضارة الإيمان » ويستطيع أن يعطي البشرية كلها حاجتها إلى الضياء والنور .

وقد قامت أصول الفلسفة والعقيدة والاتجاه الغربي على نحو خاص : فهي تؤمن بالقوة أكثر من إيمانها بالحق ، ويتجلى ذلك في اتجاهها للسيطرة على الشعوب وتسخير جنس من البشر لجنس آخر وعدم إيمانها بالقانون الأخلاقي في معاملة غير أبناء جنسها ، وكذلك تجاهلها القيم الروحية والحقوق الطبيعية الانسانية والعقيدة الحقيقية أن الغربي كما يقول ليوبولد فايس ، سواء أكان ديمقراطياً رأسمالياً أو اشتراكياً شيوعياً، فهذه ليست هي المسيحية بل هي وثنية جديدة لها معابدها وأصنامها وكهنتها وهي الحضارة المادية .

ولا ريب أن هذا المنطلق يختلف مع منطلقنا اختلافاً عميقاً ، ويكذب القول بأنه ليست هناك فوارق بين الشرق والغرب ، وبهذه المفاهيم الغربية المادية الوثنية يحاول الغزو الثقافي أن يصهر الاسلام والمسلمين في أتونه ، وأن يحتوي النفس الاسلامية والمزاج والروح الاسلامية بإخراجها من مفاهيمها وموازينها وفرض أعراف جديدة عليها في مجال العلاقات بين المرأة والرجل ، وبين الناس والمجتمع والاقتصاد والسياسة مخالفة لروح الاسلام الذي يقوم على التوحيد والعدل والرحمة والاخاء البشري

ولا ريب أن هذه المحاولة قد حققت بعض النجاح باستيلاء الاستعمار على معاهد التعليم ومناهج التربية ، فخرجت هذه الأجيال الهشة المضللة الناعمة الضعيفة الرخوة التي لا يشغلها سوى أهواء المتاع الزائف والشهوات والأهواء . هذا الجيل الذي رباه الاستعمار هو الجيل المهزوم الذي هزمت الأمة في ظله هزائمها المتوالية حين استدرجت إلى دائرة الفكر الغربي بالأهواء فأصابتها النكسة وأوشكت أن تفقد وجودها ذاته .

ولكن ميزان الأمور قد عاد إلى اعتداله ، واستطاعت الأمة أن ترى أن الطريق الصحيح ليس إلا هو طريق قرآنها ومنهجها ، وعرفت أن تبعيتها هي التي حققت له الهزائم ، وأن أول خطوات الأصالة والتماس منابع الإسلام قد حققت لها النصر ، ومن ثم فقد وجب عليها أن تواصل السعي على الطريق ولا تخاف شيئاً وسوف تجد في هذه الفترة دعوات وإغراءات وأكاذيب وعليها ألا تلتفت إليها فإنها تصدر عن حقد المهزومين الذين فشلوا في القضاء على الأمة ذات المصدر القرآني الأصيل .

ولذلك فإن مهمة المفكرين المسلمين في هذه المرحلة الجديدة أشد خطراً وأكثر مسئولية ، فقد أصبح لزاماً عليهم كشف الزيوف والسموم ، وضربها حتى لا تعشى مرة أخرى ، ولا تتخذ لها أساليب جديدة خادعة .

ونحن نعرف أن حركة التغريب واعية فهي سرعان ما تضرب الانتفاضات الجادة وتحولها عن أهدافها بالإسراع بها ، أو تفريغ مفاهيمها ، أو وضع مفاهيم جديدة بدلا من مفاهيمها الأساسية ، أو التعجيل بالثمرات قبل نضجها لتفتح طريقاً مسدوداً .

إن التغريب قد اتخذ أشكالا مختلفة منها الانتقاص والتشكيك وخلق روح اليأس والانطواء والانقياد للروح الأوربي .

وهو قد فرض مفاهيم الاقليمية والقومية الضيقة ، وحاول أن يجعلها تحل محل الوحدة الاسلامية وفرض مناهج في الاقتصاد والسياسة معارضة لمنهج الاسلام . وقد خلق ذلك تناقضاً شديداً وازدواجية خطيرة ، حال دون وحدة الفكر ووضوح الرؤية وسلامة النظرة .

وكل هذا من أسباب تعويق هذه الأمة عن الوصول إلى إرادتها الحرة ومكانها الحق . وليس غير الاسلام منهج قادر على عطاء المسلمين الذين عليهم أن يتكونوا على أهبة العمل لابلاغ رسالة الاسلام إلى كل مكان .

ولقد كشفت التجربة التي جرت نحو الغرب حيناً ونحو الشرق حيناً أن الروح الاسلامية العربية لم تقبلها ولم تجد فيها ما يسعدها أو يهديها إلى هدى ، أو يفسح أمامها سبيل نهضة ، فنقمت بذلك

فشل أساس مناهج الفكر وأساليب عيشه ، وأصبح على المسلمين والعرب أن يطرقوا باب أصالتهم ومنهجهم وعقيدتهم ، فهو الباب الوحيد الذى سينفتح لهم ويهديهم إلى أنفسهم ومكانتهم وحقهم فى الحياة ويحفظ لهم وجودهم وكيانهم ونحن حين نرى هذه المؤتمرات المتعددة حول الشريعة الإسلامية والاقتصاد الإسلامى وتجديد رسالة المسجد ودراسة مناهج التعليم والتربية والتى تقودها مكة وتنعقد حول بيت الله الحرام نحس بأننا أصبحنا على الطريق الصحيح الذى عاش المجاهدون يحلمون به ، والذى استشهد فى سبيله الأبرار الذين حملوا الراية فى وجه الزوابع الاستعمارية، والأعاصير التغريبية واستطاعوا أن يكونوا هذا الجيل الرائد الذى يعمل اليوم بقوة وعلى طريق الله الحق .

وخير ما يقال : إنكم على طريق الله الحق فعضوا عليه بالنواجذ واحذروا أن يخدعكم عنه خصوم الإسلام .

(٩)

أسلمة الإعلام

هل يمكن « أسلمة » الإعلام العربى

استطرد هذا المصطلح على ألسنة المتكلمين والباحثين فى الإذاعات العربية بمناسبة عقد مؤتمر الإذاعات العربية الذى يهدف إلى تطبيع الإعلام فى الوطن العربى بطابع الإسلام ، ومهما يكن من أمر سلامة تحت هذا المصطلح فإننا نستعمله لنسجل هذه الظاهرة ونحاول مناقشتها وتحليلها .

ولا ريب أن للمملكة العربية السعودية الريادة فى هذا المجال خاصة بعد أن امتدت مبادراتها فى مجال بناء اقتصاد إسلامى وتكنولوجيا إسلامية ومنهج تربية إسلامية للتعليم العربى ، ولا ريب أن الإعلام بفنونه المختلفة :

إذاعة — تليفزيون — سينما — مسرح — صحافة .

فى حاجة إلى أن يصب فى القوالب الإسلامية بعد أن أبعد عنها فترة طويلة إلى الحد الذى أصبح غريباً عنها .

ونحن نرى أن الإذاعات العربية (فيما عدا القليل منها) تستعمل العاميات فى الأكثر الأكثر ، ولا تستعمل الفصحى إلا فى إذاعة نشرات الأخبار . وبذلك تعطى مجالا واسعاً للعامية فى مجال الحوار المسرحية والتمثيل والأغنية ، حتى تكاد تصبح العامية ولها وجود شرعى فى مجال الثقافة والفكر ، بينما كان المفروض أن ترقى أساليب الحوار والأغنية لتأخذ طريقها إلى الفصاحة فى فترة

محدودة لا تزيد عن خمس سنوات بحيث تستطيع إذا عادت البلاد العربية كلها أن تلتقى على اللغة الأم وبذلك ترتقى النفسية العربية والعقلية العربية بحيث تزداد قوة الوحدة والترابط وتتجدد الآمال فى سبيل ارتقاء اللغة الفصحى لتقترب حثيثاً من بيان القرآن الكريم الذى نحن مطالبون أن نجرى فى مجراه ولا نبتعد عنه ، وذلك بعد هذه السنوات الطويلة من محاولات قطع الرابطة بين أسلوب الكتابة العربية وبين القرآن بخلق ما أطلق عليه اللغة الصحفية واللغة العامة واللغة الوسطى ، وكلها محاولات لعزل مناهج الكتابة العربية عن ارتباطها الأصيل بالقرآن الكريم وأسلوب الرسول الكريم وأسلوب البيان العربى الأصيل الذى لا سبيل إلى الانفصال عنه فى أى نهضة يراد أن تتخذ طريقها إلى الأمة العربية مقدمة لوحدة الفكر الإسلامى .

ومن اللغة إلى المضمون فماذا تحمل المسرحيات والأغنيات من أفكار وحوار يستمد مسلماته وعباراته ومضامينه من مفاهيم قليل منها فيه الأصالة ، وكثير من الوافد الوائف الذى لا يمثل قيم هذه الأمة ولا ذاتيتها . إن هذه الأمة لا تستطيع أن تبنى نفسها بوصفها الأمة القائمة بالحق والشاهدة على الخلق إلا بمقاييس الإسلام فى أمر المجتمع والشباب والمرأة والزواج والحب والعاطفة والعلاقات المختلفة ، فإذا خالفت ذلك أو اتخذت مفاهيم وافدة فإنها تكون بذلك قد مضت على المزية الوحيدة التى تميزها والميزة الواحدة التى تميزها تلك هى أنها حاملة لواء التوحيد وطابع الإلتزام الأخلاقى وراء المسئولية الفردية والجزاء الأخروى والمتدنية لاقامة المجتمع الربانى فى الأرض ، فإذا جرت وراء أهواء البشرية المتمثلة فى عبارات الهوى والاباحة والاغتصاب والمراوغة فإنها بذلك أخرجت نفسها عن رسالتها وهدفها وغايتها التى انتدبت لها .

كذلك فإن أسلة الاعلام لا بد أن تصدر عن إيمان بأن العروبة تتحرك فى إطار الاسلام ولا تنفك عنه لأنه هو الذى صنعها وأقامها وأعطاها مفهومها . فالاسلام هو منهج الحياة الذى تقوم عليه المجتمعات الاسلامية ، والعروبة هى القوة التى انتدبت لحمل لوائه إلى مشارق الأرض ومغاربها وأن لا تحمل الإقليميات والعنصريات سبيلا الإستعلاء . فقد قضى الاسلام على الفوراق والعنصرية والقومية والولية . وأعلن أن الناس جميعاً لآدم وآدم من تراب ، وأنه لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . تلك الوحدة الاسلامية التى أقامها القرآن بالفكر ، والاسلام بالعقيدة هى المنطلق الجامع العرب والترك والفرس والهنود ومختلف الأمم التى تدين بالتوحيد وتؤمن بلا إله إلا الله ، لتلتقى كليا فى أفق الوحدة الفكرية مقدمة للوحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجامعة .

وفى إطار منهج القرآن الاجتماعى السياسى الاقتصادى . ومن منطلق الوحدة الجامعة الذى تلتقى فيه حلقات الوطن والعروبة والعقيدة الاسلامية تتحرك كل آفاق الفكر والعمل الاعلامى إلى بناء الانسان المسلم العربى ليكون سيد الكون والمستخلف فى الأرض بالحق ولتكون كلمة الله هى العليا .

وعلى الداعين إلى أسلمة الإعلام أن يحرروا (المؤسسات الحس) مما دخل عليها في السنوات الأخيرة من رياح الماركسية والفرويدية والوجودية تحت تأثير غيبة المفهوم الاسلامي خلال سنوات الظلام التي سيطرت فيها محاولة تغريب العرب واحتوائهم وتغيير منابعهم ودفعهم إلى (العلمانية) و (الأممية) بقوة من أجل أن يفقد المسلمون والعرب ذاتيتهم وكيانهم الأصيل . ولم يكن الاندفاع نحو التبعية الغربية يشقيها بمثابة إحساس بالنقص أو رغبة في الاستعلاء ، ولكنه كان قصوراً ذاتياً عن التعرف على منابع الإصالة والضياء والنور الكاشف الرباني المصدر ، ولم يكن الاندفاع بالأسلوب الطبيعي الأمثل حتى تستعرض ثقافات الأمم في ضوء أصولهـــا وقيمها فتأخذ منها وتدع . وذلك أسلوب الأمم لاستكشاف فكر غيرها . ولكن التوجه إلى الفكر الغربي بنوعيه كان قائماً على نوع من القهر الشديد والتبعية الشديدة التي سدت الطريق أمام المفهوم الإسلامي ، وحال بينه وبين العطاء في نفس الوقت الذي أعطيت فيـــه إشارة المرور للفكر الوافد ليندفع بأقصى قوة لاحتلال منطقة الفراغ في النفس الاسلامية والعقل الاسلامي . فلا يدع الفهم الحقيقي لجوهر الأمور والأساسية سبيلا .

وكان الذين يحملون لواء التغريب يخدعون الناس بأنهم يقدمون لهم مناهج براقة لامعة كاذبة لم تستطع أن تحقق العدل أو الحرية أو السعادة لمجتمعاتهم وهي المنبعثة منها . . وما كان لها أن تعطى الغير وهي عاجزة أشد العجز عن أن تعطى أهلها وما تزال بقايا الماركسية والفرويدية والوجودية قائمة في زوايا النظم والبرامج والمسرحيات ، وفي أساليب الحوار والعرض وهي بتعارضها واضطرابها وصراعها قد أوجدت في أفق الفكر الاسلامي : « سحابة سوداء » جديرة بأن تبدد أولا حتى يعود الطريق صالحاً إلى الاصالة التي يطلقون عليها « أسلمة الإعلام » .

ولقد جددت الضربات الاستعمارية المتوالية فكرة الالتباس بالاقليمية الضيقة ، وإعلاء شأن النزعة الوطنية بامتدادها التاريخي — سواء بالفينيقية أو الفرعونية — فكان ذلك حجباً جديداً للطريق الأصيل . ولقد كانت هـذه أساساً من دعوى الدفاع عن الكيان أبان الاحتلال فاستغلها التغريب ليجعلها هدفاً أساسياً ، وأدخل عليها دعوى الاقليم الضيقة بتعصبها وعزلتها عن التكامل الفكري والاجتماعي التي تتمثل في الترابط بين الوطن العربي الجزء وبين الأم الكلية : العالم الاسلامي وهو ترابط الفكر والاقتصاد والتراث والشريعة الاسلامية .

إن النقطة الخطيرة في أسلمة الاعلام هي حماية شباب هذه الأمة من أن تدمره القوى الغازية التي تنفذ الآن إليه عن طريق الماركسية والوجودية والفرويدية في صورة مناهج جامعية وثقافية . وفي صورة مسرحيات وأغاني وتمثيليات تريد أن تهدم القيم الاساسية لهـذه الأمة في نفوس هؤلاء وعقولهم ، وبناء مفاهيم أمتنا قائمة على التحرر من الالتزام الأخلاقي وقدسية الأسرة وكرامة الأبوة ورحم الأخوة وتهدم المفاهيم التي أقامها الاسلام بالنسبة لعلاقات الرجل

والمرأة زوجاً وأماً وأختاً وجهرة وزميلة في إطار الكرامة والطهارة وإعزاز الأمومة وإعلاء المرأة عن أن تكون أداة أو رغبة هوى .

فإذا استطاع الإعلام في طريقه إلى الأصالة أن يحقق ذلك أو بعضه فإنه يكون بذلك قد قدم للأمة الاسلامية قوة جديدة في سبيل إعزاز مكانتها وحماية مقدراتها من ذلك الاحتواء الخطير الذى تستهدفه اليوم أو غداً في إطار الحركة الصهيونية التلمودية الخطيرة التى كشفت في بروتوكولات صهيون ، عن أهدافها وغاياتها وعن الدور الذى تقوم به عن طريق وسائل الإعلام . إننا نتطلع إلى اختفاء الصورة العارية والكلمة الجارحة والأغنية الفاجرة من أفق الإذاعات العربية والاسلامية جميعاً عودة إلى الأصالة والكرامة والأخلاق التى بثها الاسلام في هذه الأمة والتى مازالت هى المصدر الوحيد لنهضته .

(١٠)

الاسلام : ربيع البشرية

إذا كانت الحياة على وجه الأرض تنقلب بين ربيع وخريف ، فإن البشرية نفسها تمر بمثل هذه المراحل ، وتتحول من مرحلة إلى مراحل . وكذلك الأمم العربية والاسلامية تنتقل اليوم من شتاء الضعف وخريف التخلف إلى ربيع اليقظة وبشارة النهضة وشباب التقدم ، وقد واتتها أسباب القوة والنماء . ولا ريب أن البشرية كلها اليوم تتحرك إلى عصر جديد من التقدم الروحى والنفسى ، وتتطلع إلى أفق جديد تتمكن فيه من تحقيق الاخاء البشرى والعدل والرحمة : يمكن أن يطلق عليه « ربيع البشرية » . ولا ريب أن عالمنا العربى والاسلامى يشارك في هذا التقدم مشاركة فعلية اليوم بما يملك من وسائل القوة : من طاقة وتفوق بشرى (وقوة تكنولوجية هى في أولى مراحل تكوينها ونموها) .

وقد فتح لها العاشر من رمضان بالاتجاه إلى الجهاد : الطريق واسعاً إلى هذا العصر الجديد الذى هو بمثابة الربيع بعد خريف طويل ، وشتاء قاس منذ أن سيطر الاستعمار والنفوذ الأجنبى على بلادنا ومقدراتنا . ومنذ وقفنا والفلك الحضارى دائر ، ومنذ عجزنا عن أداء رسالتنا وتحمل مسئوليتنا كقوة أساسية ضخمة في بناء هذا العالم ، ولقد قاوم العرب والمسلمون وجاهدوا وجالدوا قوى الاستعمار حتى استطاعوا أن يخرجوا إلى النور ، ويتقدموا لاقتعاد مكانهم مرة أخرى تحت الشمس ، وكانوا من قبل سادة العالم وهم الذين قدموا للبشرية « المنهج العلمى التجريبى » الذى تسلمته أوربا من المسلمين في الأندلس ودفعت به الحضارة إلى الأمام . واليوم يتقدم العرب والمسلمون وهم يؤمنون بأن المبادىء والعقائد التى يملكونها قادرة على العطاء بما يؤهل البشرية لاستقبال ربيعها الوارق والمزهر الذى يملأ الحيـــاة بالعطر والدفء .

يقول الأستاذ « ابل جونز » في كتابه « البحث عن الحق » : أن العصر الحاضر بدأ يبحث عن الحق بعد أن أثيرت في السنوات الأخيرة أكاذيب كثيرة حول مستقبل البشرية وحول دور المسلمين والغرب في الماضي ودورهم في المستقبل . ويردد المؤلف قول هوسمان : أن أضعف الميول البشرية هو حب الحق ، ويقول أن الكثرة الكاثرة من العلماء لم يخلصوا الإخلاص التام في طلب الحقائق الخاصة فكثيراً ما سيطرت عليهم أوهامهم وأهواؤهم ، وأخرتهم بالتعصب بوجهات نظرهم دون أن يستطيعوا التجرد في البحث عن الحق ويتخلصوا من رق النزعات والميول والأهواء .

ويقول : إن العالم إذا فقد أخلاقياته فإنه جدير بأن يكون مطعوناً في علمه ، ويقول أنه بالرغم من أن فرانسيس بيكون هو موجد الطريقة الإستقرائية في البحث عن الحقائق ، فقد عرف عن بحل سيرته أن أخلاقه لم ترتفع إلى مستوى كفايته العقلية وأن له سقطات وعيوب أخذت عليه في كتابه القانون الجديد الذي ألفه ليعارض طريقة أرسطو في البحث عن الحقائق وتصحيح الأوهام الفكرية في مذاهب البحث .

ويخلص المؤلف إلى القول بأن هناك عقبات أربع تحول دون سلامة المنهج الغربي في الفكر والبحث والفضل عن الحقائق ، وهي عنده أربعة أوثان أولها (أوثان القبيلة) وهو تصور الطبيعة على صورة لا برهان لها من التجربة والمشاهدة .

والثاني : (أوثان الكهف) وهي تمثل أوثان الفرد نفسه وأوهام بيئته .

والثالث : (أوثان السوق) وهي التي تنشر باختلاطه بغيره من الناس .

والرابع : (أوثان المسرح) : وهي النظريات المضللة والمبادىء الزائفة ، والأفكار الخاصة التي تسري إلى عقول الناس .

ويقول : هذه الطوائف من الأوثان تحجب الإنسان عن رؤية الحق وأن الاقتراب من الحقائق يتطلب أن يتخلص الإنسان من رق أفكاره السابقة ومعتقداته القديمة ، وأن أوجه كثيرة من الأكاذيب تعترض طريق الباحث عن الحق ، تقوم على الإخفاء والإنتقاص والمبالغة والتهويل وعدم الأمانة والإخلاص أو قصور في التفكير البشري ذاته . فضلا عن دعايات السياسة وأكاذيب الحروب وأكاذيب الإعلام ، وتعصب أصحاب المذاهب والعقائد وأن هناك كثيراً من الناس يعتقدون أنهم يدافعون عن الحق وهم في الواقع يدافعون عن مذهب راقهم أو نصة اجتذبتهم أو إتجاه إمتلك عليهم عواطفهم وأن الولاء للمذاهب هو من الأشياء الخطيرة التي تقيم العقبات في سبيل البحث عن الحق ، وقد يكون للمذهب قيمته وشأنه ولكنه في الوقت نفسه لا يتمكن من رؤية جميع أوجه الحق . . . »

هذا موجز ما قصد إليه الكاتب الغربي « ابل جونز » على نحو يمثل مع كتابات بعض كتاب آخرين سبقت في هذا الطريق شهادة صادقة للعصر والحضارة والعالم في هذه المرحلة من حياته ، ويرجع ذلك إلى مدى الرأى من سلامة المنهج الغربي في الفكر وموقفه من البشرية ومن شعوب الغربيين تحت لواء دعوات سيادة الرجل الأبيض والأمم الملونة التي يرى النفوذ الأجنبي أنه له حق السيطرة عليها واعتصار ثرواتها . وقد أصبح ذلك كله اليوم موضع النقد الشديد .

وقد صدر كتاب جديد في أوربا تحت عنوان « أوربا ودورها في شقاء العالم » بقلم الكاتب السويدى « جان ميردال » والكتاب يكشف في صراحة ووضوح الواقع الإستعمارى الآثم الذى قامت به أوربا حين بسطت نفوذها على البلاد ذات الموارد ، وكيف اعتصرت هذه الثروات وسبحت في النعيم . بينما تركت أهل تلك الموارد في فقر شديد ، ويذهب المؤلف إلى إتهامات أوربا لهذه البلاد بأنها متأخرة وبأنها شعوب ملونة . وبأنها لا تستحق الحرية ويشيد بدور الغرب الكاذب في تمدين البشرية حيث لم يعمل على تمدين هذه الشعوب وإنما قدم لها فتات موائده وإنتاجه الاستهلاكى . بينما حجب عنها عناصر التقدم الحقيقية وفي مقدمتها التكنولوجيا .

ونحن حين نقرأ مثل هذه المؤلفات نذكر أن صوت الحق لا بد أن يدوى ، وأنه لا بد أن يأتى اليوم الذى يعرف الغرب لعالم الإسلام والعرب والشرق مكانه ودوره ، وان يتأخر ذلك الأمر كثيراً .

• • •

ولقد ظهرت في السنوات الأخيرة بحوث كثيرة منصفة لحضارة الإسلام منها كتاب الدكتورة سجريد هونكه « شمس الله تشرق على الغرب » الذى أحدث ضجة كبرى وكشف عن مدى قيمة المعطيات التى قدمها المسلمون للحضارة البشرية ، ومن قبل ذلك كشف علماء التكنولوجيا والطبيعة من أمثال : درابر وبريفولت وسارطون عن دور المسلمين في بناء الحضارة واليوم يصدر كتاب جديد للكاتب الألمانى « مانفرد جوليكر » تحت عنوان مثير هو : « أوربا ولدت في آسيا » . يتحدث فيه عن المعطيات الإسلامية العربية التى كانت مصدر الحضارة الحديثة على النحو الذى يؤكده المؤلف بأنه لولا آسيا العربية الإسلامية لما كانت لأوربا الحضارة الغربية الحديثة التى تزدهى بها على العالم كله والتى ما زالت تتعالى على العالم بدورها في هذه الحضارة .

ومما يقول المؤلف : إن إنجازات العلماء العرب في العصور الوسطى ربما تكون قد أنقذت أوربا من الأوبئة خلال الجزء الأكبر من تلك العصور وأشار المؤلف إلى أن العلماء العرب هم الذين اكتشفوا البذور الأولى من المضادات الحيوية فضلا من عدسات الرؤية وأدخلوها إلى أوربا لأول مرة في نهاية القرن الثالث عشر (السابع الهجرى) على شكل مسطح ومحدب ، وأثبتت فائدتها فيما تحقق لعدد من

كشوف الفضاء . وقد تردد فى الأسبوع الثقافى الألمانى الذى عقد فى أوربا فى العام الماضى مثل - ما أشارت إليه « الهلال » فى وقته :

ومعنى هذا أن هناك ظاهرتين واضحتين اليوم فى أفق الفكر البشرى العالمى :

الأولى : تحاول أن تصحح وضع الحضارة الغربية فى الاستعلاء على الأمم الأخرى ذات الحضارات القديمة وفى مقدمتها العرب والمسلمون الذين قدموا للبشرية المنهج العلمى التجريبى . الذى هو بمثابة الطابق الأول للحضارة العالمية الحديثة .

الثانية : الاعتراف بالدور الذى قام به العرب والمسلمون فى بناء البشرية والدور الذى هم الآن مؤهلون لأدائه : وقد توالى البحث حول هذا الدور ومداه وأثره بعد انتصارات العاشر من رمضان التى غيرت النظرة الغربية والبشرية كلها إزاء المسلمين والعرب .

ومن هنا نرى ذلك السيل من المؤلفات الغربية التى تحاول أن تستكشف مايسمونه العقلية العربية وما يحمل المستقبل لهم من دور فى الحضارة .

ومن ذلك ما كتبه أحد الباحثين الغربيين تحت عنوان : العرب قوة جديدة واعتزاز بالنفس ويقول : إن الزمن قد تغير فجأة ، وعلى غير انتظار تبدلت نظرة العالم إلى العرب بعد طول معاملة لهم على أنهم دول متخلفة فلأول مرة منذ زحفت جيوش الإسلام من الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى لنشر رسالة محمد فى العالم : قد تمكن العرب من تحقيق سلسلة من الأعمال الناجحة عسكرياً وسياسياً واقتصادياً .

وقد استعاد الكبرياء العربى ثقته القديم وتفجرت قدرات الخلق الفنى والأدبى فى كل بلاد العرب : ولقد رسم الأوربى صورة مشوهة للإنسان العربى تعطيه صفات البدائى الهمجى غير المتحضر هذه النظرية ترجع أساساً إلى العصور القديمة عندما وصلت الجيوش العربية إلى أوربا . وفتح الأوربيون أعينهم على جندى غريب أثار الخوف فى نفوسهم وشعروا مع قدومه بما يمثله من خطر على تقاليدهم . إن هذا الجندى نفسه هو الذى حمل معه إلى أوربا « العلم » الذى كان العرب سباقين إلى كشف أسراره العربى يتسم بصفتين : تأكيد الذات وانتمائه للجماعة (الأسرة والدين والأمة) والكرم ضارب بجذوره فى طبيعة العربى وجاءت حرب أكتوبر تضيف إلى العربى سمات جديدة بما أحدثه من تأثيرات على شخصياته .

والسؤال المطروح فى الغرب الآن : هو كيف سيستخدم العرب قوتهم الهائلة الجديدة ؟ ولاريب أن اقتحام جيوش مصر حصون إسرائيل عبر الجيش الإسرائيلى الذى تجاوزت غطرسته كل حد ، واستطاعت أن تضرب تفوق الصهيونية السابق ، وكذلك فقد وضع أقدام العرب على عتبات الطريق

نحو مستقبل مشرق ، والعرب ملتزمون بمواصلة نضالهم فى سبيل التحرر الكامل .

هذا ما أشار إليه الباحث الغربى . وهناك عشرات من الكتب فى هذا المعنى وحوله تعترف بمكانة العرب والمسلمين فى عالم اليوم ، وهم يملكون القوى الثلاث : « الطاقة ، والتفوق البشرى ، والتكنولوجيا .

• • •

لقد خرج العرب والمسلمون من مرحلة الاستعمار إلى مرحلة الرشد الفكرى والاجتماعى واستعادة مكانتهم فى العالم على طريقتهم الأصيلة : القائمة على السلام والرحمة والإخاء البشرى . فهم ليسوا طلاب سيطرة ، ولا يرغبون فى تفوق عنصرى أو استعلاء بالقدرة المالية أو غيرها ، وإنما هم يؤمنون بأن يعطوا ويأخذوا فى معادلة سليمة بعيداً عن كل مفاهيم الفكر الاستعمارى أو العنصرى ، وهم يواجهون الآن تحديات خطيرة تتمثل فى الصهيونية العالمية التى ما زالت تسيطر على أجزاء من بلادهم والتى تعمل عن طريق المذاهب والايدلوجيات المختلفة لتدمير شخصيتهم التى كانت العاصم لهم خلال معركتهم الطويلة مع الاستعمار والنفوذ الأجنبى .

واليوم والعرب يستشرفون هذه المرحلة الجديدة من حياتهم على طريق القوة والنهضة فإنهم يعلمون أن القدرات المادية التى فى أيديهم لن تحولهم عن وجودهم الذاتى وكيانهم الخاص ، وطابعهم الذى صنعته لهم مواريثهم وعقائدهم وقيمهم الأساسية ، وخاصة إلتزامهم الأخلاق الذى يصبغ كل برامج حياتهم السياسية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية والتربوية ، وهم بفضل هذا المفهوم الحكيم السليم قادرون على نقل مستحدثات العلم والتقدم والحضارة المادية لتكون مواداً خاماً يصوغونها داخل إطار فكرهم وقيمهم ، وبذلك يستعيدون مكانتهم بين الأمم ، مقدمين للحضارة إضافات جديدة أهمها أخلاقية الحضارة وطابعها القائم على الرحمة والاخاء .

إن أخطر ما واجه الحضارة الغربية الحديثة وأسلمها إلى الأزمة الخانقة والصراع بين القوى مع ما امتلكته من أسباب التقدم المادى ، هو أنها كسرت الاطار الدينى الأخلاقى الذى هو الحاجز الحامى لكل نهضة من التعثر والتصدع . ثم مضت تواجه الحياة بغير سناد يحمى ظهرها ، أو نور يضىء طريقها . وبذلك وقعت فى أسر ذلك التناقض الذى أشار إليه مؤلف كتاب البحث عن الحق كما أشرنا فى مقدمة هذا البحث ، لقد حال ذلك الفصل بين الروح والمادة والعلم والدين والعقل والنفس إلى تلك الأزمة الخانقة التى أكدت أهواء النفس وتغليب الترف والملذات والشهوات فانتهت بها إلى ما يسمى الآن « أزمة الانسان الحديث » وصراعه وتمزقه وغربته وضياعه . كل هذا الذى قاساه ويقاسيه من أهوال نفسية بالرغم من وفرة العطاء المادى والحضارى على أعلى مستويات الرفاهية والترف . ويرجع هذا كله إلى غيبة المعنويات وتضاؤل أشواق الروح مما أدى إلى تصدع النفس

وتمزق الكيان الإنسانى وفقدان الهوية والهدف وفهم أمانة الإنسان فى هذه الحياة ورسالته وغايته والمصير الذى ينتظر البشرية كلها .

والعرب والمسلمون حين يأخذون دورهم فى استعادة مكانهم وهم يمتلكون اليوم أدوات الحضارة الحديثة ، ومعطيات التكنولوجيا العلمية والميكانيكية ، يبدأون من قاعدة الأخلاق والقيم ، فيضمون هذه المعطيات كلها فى داخلها فى سبيل إلى العمل للبشرية كلها ولرفع شعار الإخاء الإنسانى والعدل والرحمة باعتبارها من معطيات الأديان الإنسانية وليجعلوا من هذا كله إطاراً يتحركون فيه .

فيخضعون العلم للأخلاق والتقوى : وبذلك يحققون إرادة الله فى بناء المجتمع الإنسانى الحق الذى تتطلع إليه الإنسانية وترى فيه ربيعها المورق ، بعد ذلك الخريف والشتاء الطويلين ، وبعد عصور الظلم والاستعباد التى عاشتها الشعوب العربية الإسلامية تحت سلطان النفوذ الاستعمارى والصهيونى . ولا ريب فى أن العرب والمسلمين مؤهلون لتقديم هذا الزاد المعنوى والروحى والأخلاق للبشرية اليوم . وهذا هو أملها الوحيد والأخير .

فهل البشرية اليوم فى طريقها إلى ربيعها المورق المزهر الذى يملأ الحياة بالعطر والدفء والنور ؟ . . . نرجو .

(١١)

العودة إلى المنابع

العودة إلى المنابع : هى صيحة المسلمين فى كل أزمة وكلما ادلهمت الأحداث وأحاطت بهم الأزمات . لقد كانت دعوة الغزالى وابن حنبل وابن حزم وابن القيم وابن عبد الوهاب ، وما تزال دعوة كل المصلحين

لا بد من حضانة من فكر إسلامى يحول دون سيطرة أى فكر غريب كما يحول دون الانبهار بأى فكر وافد يهز ببريقه بعض النفوس البسيطة ولا بد من اعتماد منهج المدرسة القرآنية التى تعتمد على القرآن والسنة : والقائمة على التربية وبناء الفرد المسلم . لقد كانت مدرسة اليقظة الإسلامية تعتمد المنطق والفلسفة وأسلوب الكلام فى بعض مراحلها ولما لم يحقق ذلك شيئاً ذا بال ، فقد برزت المدرسة القرآنية القائمة على الأصالة ، تماما كما حدث فى عصر الترجمة الأول . ولقد أثبتت المدرسة القرآنية أنها أكثر عمقاً وأصالة ، فقد حمل لواءها دعاة أبرار أقاموا منهج الفكر وأسلوب الرد والجدل من القرآن نفسه وقالوا : إن القرآن هو الأصل الأصيل للفكر الإسلامى فإنه يستطيع أن يقدم الإجابة الحاسمة ويدحض الشبهة الوافدة .

ولقد هزمت النظريات الفلسفية والأفكار المتحدة والوثنية كثيراً من الديانات والملل والنحل بعد أن غزتها في عقر دارها ولكنها وقفت حائرة أمام الإسلام ، فلم تستطع صرف أبنائه عنه رغم أساليب القهر والعنف ، فبقى في مكانه كالطود الشامخ ذلك لأنه استعصم بالأصالة والمنابع الأولى .

كذلك رفض الإسلام « التطور » على حساب « الأصالة » ورفض « التقدم » على حساب الجذور والقيم الإسلامية ، كما رفض تضحية القيم العليا في سبيل التقدم المادي ولم يخضع الإسلام مفاهيمه للحضارات وأهواء الأمم .

ذلك أنه ليس في المناهج والدعوات أو الأيدلوجيات المطروحة من شيء إلا وعند المسلمين في ميراثهم وتراثهم مثله أو خير منه ، وهو في الغرب مقطوع الصلة بالله ولكنه في الإسلام متصل الحلقات هو في الغرب انشطاري ولكنه في الإسلام جامع متكامل .

إن المحاولات التي ترمي إلى استقطاب المسلمين واحتوائهم في إطار الحضارة الغربية - التي تمر بمرحلة الأزمة والتمزق — والتي يصرخ أهلها طالبين التحرر منها محاولات باطلة فاشلة زائفة . لقد كان موقف الإسلام على مدى تاريخه وحياته واضحاً أنه لا يحتوى ولا ينصهر ولا يبرر الواقع الفاسد ولا يؤول لخدمة الحضارة الوافدة .

إن الاسلام برىء مما وصل إليه المسلمون في عصورهم المتأخرة من تخلف وإنما يرجع التخلف إلى تدهور أخلاق المسلمين وبناء حياتهم على هامش العقيـــدة التي هي عصمة الأمر كله ، وبعيداً عن تحذيراته التي هي صمام أمن المجتمعات ، ومن هنا استطاع خصومهم أن يلجوا عليهم ديارهم ويستعمروا أرضهم ويسلبوهم أعز ما يملكون .

إن الحركات المناهضة للإسلام لم تنل من المسلمين إلا حين تراخت قبضة قادة المسلمين عن تطبيق شريعتهم والتهاون في حماية الثغور والمرابطة فيها والحذر من العدو ولإعداد العدة لمواجهته .

إن القيم الإسلامية الأساسية ثابتة راسخة ربانية رسمها خالق الكون العليم بطبائع الناس لأن مفاهيمها الحضارية والفكرية تلتمس الفطرة ودورة الأفلاك فهي منزهة عن التناقض والالتباس قادرة على مواجهة مختلف العصور والبيئات وهي في ثبات أصولها قادرة على التفتح على مجالات الحركة والتطور وقابلة للتقدم والنهوض وهي في غايتها ربانية خالصة تقصد وجه الله وتستهدف تحقيق المجتمع الرباني في الأرض ، ومن هنا فهي لا تقر مفهوم العلم للعلم أو البطولة للبطولة أو الكرم للكرم ولكنها تجعل العلم والبطولة والكرم « السنة الجامعة » هي البوتقة الناصعة التي انصهرت فيها كل الثقافات والنحل والدعوات موجهة إلى الله تبارك وتعالى ، ولقد واجهت مفاهيم الفكر الوافد التي طرحت في فلك الفكر الإسلامي فاستصفتها وحررتها من شوائبها وأخذت عصارتها الطيبة نضمتها إلى كيانها ، فالسنة

هى الفهر الكبير ، والمذاهب والفرق روافد . والفقه والسنة ، بالكلام كما الفقه بالتصوف والفهم النبوى للقرآن ولا يزال مفهوم الاسلام الأصيل (وسيظل) عائقاً خطيراً أو حاجزاً هاماً ضد الفر ضلالات المتقدميين الذين يريدون أن يخدعوا الناس بالاقتناع بزيف قولهم عن الاسلام من أن وظيفته ليست حياتية أو أن أحكامه وتشريعاته لم تبق صالحة للعصر ولا منسجمة مع التطور الذى حدث فى العالم وأنها تواجه فى مجتمع بدائى وأدت مهمتها ، فإن ما يدحض هذا القول أن منهج الإسلام هو منهج ربانى صالح البشرية فى جميع مراحلها وليس كفلسفاتهم ونظرياتهم البشرية التى لا تستطيع أن تجاوز عصرها أو بيئتها والتى سرعان ما تفسد وتحتاج إلى الترميم بالإضافة والحذف ، ذلك أنه من صنع العلى الخبير المحيط بالأمم والعصور والأزمان .

ان أبرز مفاهيم الإسلام هو التكامل بين أعماق القلب ومجرى الفكر وإقامة مبدأ التعاون الذى هو أبرز وأكثر أصالة من مبدأ الصراع وذلك بناء على ما قرره الإسلام وكشفت عنه الأبحاث العلمية من أنه ليس بين الإنسان والطبيعة صراع ولكنها بينهما تكامل ، ولذلك فنحن لا نقر عبارة صراع الأجيال والزمن بلقاء الأجيال .

لقد دعا الإسلام إلى ثلاث مقررات أساسية عالمية :

الإخاء الإنسانى ووحدة البشرية ووحدة الدين .

كما حطم الإسلام عبودية الإنسان للإنسان وعبودية الأوثان .

لقد كان من الخطأ وصف الإسلام بأنه ثورة ضمن الثورات الجديدة التى قام بها الإنسان على مدى التاريخ قبل الإسلام ثورة تمر بمراحل عديدة إلى أن تستقر ثم تتجدد وتتبدل ، وهل الإسلام ظاهرة مرتبطة بعصر أو بيئة أو أنه جاء رداً على ظروف اجتماعية فى القرن السابع الميلادى كما يقول بعض الباحثين .

الحق أن الإسلام ليس مذهباً ولا نظرية ولا أيدلوجية بشرية ولا دين أمة ، ومن ثم فإن صفة « الثورة » لا تنطبق عليه ، وإنما هو « ظاهرة » ربانية جاءت فى وقتها الذى حددته إرادة الله لنقل البشرية من الطفولة إلى رشد الإنسانية ، ولذلك فهو ليس خاضعاً لمفهوم التفسير المادى للتاريخ أو مفاهيم الثورات أو الجبرية الاجتماعية التى وصفت بها الأيدلوجيات التى صنعها البشر والتى عجز عن الاستمرار ما لم يدخل إليها تعديل بعد تعديل كما عجزت عن العطاء الروحى أو النفسى للبشرية .

وتركتها تسقط فى صراع الطبقات أو أزمة الفردية والتمزق النفسى .

ما تزال تواجه ، المجتمع الإسلامى ، تحديات كبيرة نتيجة حركات التغريب والتبشير والاستشراق وحركات الماسونية والروتارى ، وهذه المنظمات المشبوهة التى قامت لإحداث الانشقاق والانحلال بين الشعوب الإسلامية ، وهى من أتباع الاستعمار وقد قامت على المدى الطويل بإفساد التعاليم الإسلامية والمصادر الإسلامية وإثارة الشبهات حولها .

ولا ريب أن هناك ثلاث تحديات خطيرة تواجه المجتمع الإسلامى على طول أرض الإسلام من المعتقد أنها جوهر المسؤولية التى يحملها المثقفون المسلمون فى مطالع القرن الخامس عشر ، وعليهم أن يفرغوا لها الجهد والوقت والعزيمة .

- تطبيق الشريعة الإسلامية فى المجتمعات الإسلامية التى يقوم العمل فيها على أساس القانون الوضعى والتى تطبق جزئيات من الشريعة الإسلامية .

- بناء الاقتصاد الإسلامى بديلا للاقتصاد الوافد الذى يقوم على مفاهيم امبراطورية الربا اليهودية صانعة نظام المصارف والفوائد والاقتصاد السياسى .

- بناء الشباب الجديد على أساس التربية الإسلامية الجامعة بين الروح والعقل والجسم من أجل دعم الأسرة وتأكيد ذاتية الشخصية الإسلامية وبناء روح الأخلاق والعقيدة وسلامة السلوك الاجتماعى . ولا ريب أن التيارات الوافدة والمؤثرات الأجنبية تعمل فى ميدانين :

١ - تدمير الأسرة والمجتمع الإسلامى بإذاعة الفساد والإهمال والتحلل والترف والإباحية .

٢ - إفساد العقل الإسلامى والنفس الإسلامية بإذاعة المفاهيم الباطنية والشعوبية والمادية والوطنية القديمة ونشر الإلحاد ، ولقد دفع الاستعمار الفكر الشيوعى والمادى والوثنى والإباحى والتلمودى إلى أرض الاسلام تحت أسماء كثيرة ، تحت إسم الفكر الحر وتحت إسم البهائية وتحت إسم الماسونية (الروتارى) وتحت إسم العلمانية .

وقد وقف الاسلام موقف المعارضة والمقاومة والمواجهة أمام كل هذه التيارات الأجنبية: غنوص الشرق فارسياً وهندياً وغنوص الغرب (الأفلاطونية الحديثة) وكذلك مذاهب الشيوعية والليبرالية والقومية الضيقة والوجودية جاهدها أشد مجاهدة وجاهدها أعنف جهاد .

ولا ريب أن التماس مفهوم الاسلام فى مجال الأدب والتاريخ والحضارة والمجتمع يغير النظرة إلى أشياء كثيرة ويكشف زيوفاً كثيرة ويحطم مسلمات قائمة جذرية (قامت بالباطل والزيف) ليست لها حقيقة أساسية أو أصالة ، لقد استطاع التغريبيون والشعوبيون ودعاة الغزو الفكرى خلال أكثر من خمسين سنة طرح كثير من المفاهيم المسمومة عن طريق الصحافة ، فهى فى حاجة إلى تصحيحها ، خاصة ما اتصل منها بالدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد وأتاتورك وفالدى والفرعونية

والقصة والمسرح واللغة العربية والقانون الوضعي . إن « الحداثة » وحدها لا تستطيع أن تقدم شيئاً ذا بال أو إضافة بناءة صحيحة إذا لم تكن مرتبطة « بالأصالة » وبوجود الأمة وحقيقة رسالتها وهدفها وأن التطلع إلى التقدم العلمي والتكنولوجي لن يكون له فائدة إيجابية إذا لم تصدر عن إيمان ببناء الأمة وأن تتحرك داخل إطار فكرها وقيمها ، كذلك فإن الحوار مع الفكر العالمي يجب أن تتم في داخل إطار « الأمانة » التي تحمل لواءها (الأمة الإسلامية) للبشرية كلها دفعاً إياه إلى الحق وحجزاً لها عن الشر :

أن مهمة الكاتب المسلم تتلخص في إضاءة الطريق أمام الإنسانية لتعرف ربها ولتعرف الطريق الخلق إلى الحـــق وفقاً لتوجيه الرسول صلوات الله عليه « اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، لا ضالين ولا مضلين . حرباً لأعدائك ، سلماً لأوليائك ، نحب بحبك من أحبك ونعادي بعداوتك من خالفك » .
وألا يكون الكاتب المسلم ممن ينطبق عليه صفة الضالين : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً » ، وقد رأينا هؤلاء الكتاب وقد حلت بهم سنة الله وهم أحياء ، فأخزاهم الله في الدنيا ولهم في الآخرة لواء غدر ، يوم ينصب لكل غادر لواء .

على الكاتب المسلم أن يعطي قراءه ما يحتاجون إليه وليس قصاراه أن يعطيهم ما يرغبون فيه ، عليه أن يرفعهم لا أن يهبط بهم ، وعلى الذي ارتفع أن لا يهبط وعلى الذي هبط أن يرتفع ويعاب عليه أن يبقى حيث كان . وعلى دعاة الفكر الإسلامي ألا يبقوا بمعزل عن التيارات والأيدلوجيات وإدراك حقائقها وما ترمي إليه ، ذلك لأن دعاة الفكر المادي يبذلون أقصى ما يستطيعون لتركيز سمومهم في طلائع الشباب المسلم المثقف موهمين إياهم أن طريقهم ومبادئهم هي وحدها الكفيلة بتحقيق ما تطمح إليه الشعوب ، وعلى المثقفين المسلمين أن يحذروا من « الالتباس » الذي يثيره التفريق بين القوى المتقابلة أو المتكاملة أو المتماثلة : كالروح والمادة والدنيا والآخرة ، والعروبة والإسلام .

على الكاتب المسلم أن يوجه المثقف المسلم إلى النظر إلى ما وراء النصوص والكلمات ، إلى أبعاد القضايا وخلفياتها ، وإلى ترابطها ، وإن لم يكن ذلك ظاهراً على سطح الأحداث .

وعلى الكاتب المسلم أن لا يعكس قيم عصره فيكون مبرراً للواقع الفاسد ، وإنما عليه أن ينقل مجتمعه من الشر إلى الخير ومن الباطل إلى الحق ومن الظلم إلى العدل وأن يفتح الطريق أمام أهل عصره إلى القيم ، وأن يربط بين واقعهم وبين المثل الأعلى ، وأن ينقلهم من الصورة القائمة في المجتمعات المعاصرة إلى المفهوم الأسمى الذي يحقق إرادة الله تبارك وتعالى في الأرض ببناء المجتمع الرباني على الكاتب المسلم أن ينقل البشرية إلى الإنسانية ، وإلى قيم الأصالة التي حجبتها المادية والوثنية والتقاليد وانحرافات الأجيال .

إن كثيراً من الكتاب يفخرون بأنهم يعكسون قيم عصرهم وهؤلاء ليسوا في الحقيقة إلا أتباع

وأولياء وعبيد ، أما المفكر المسلم فهو القادر أن ينقل مجتمعه من الواقع إلى المثال ، ومن المادة إلى القيم ، ومن المادية والوثنية وأهواء النفس إلى التكامل الجامع ، والتوحيد والحق المبين ، إن المفكر المسلم لا يقر دعوة الأغاني الخليعة والأفلام الإباحية إلى عبادة الحياة ولكنه يدعو إلى تداول الحياة والناس إلى عبادة الله تبارك وتعالى .

إن الأزمة النفسية التي يمر بها « الشباب المسلم » إنما ترجع إلى غياب الطابع الديني والروحي والمعنوي وإلى غلبة المفاهيم المادية التي تجر أهواء النفس وراءها حتى تحجبها عن القيم والمثل والأخلاق وتحمل صاحبها على أن يلتمس وسيلة لتحقيق الهدف المادي وحده ، ولو على حساب القيم والمثل إن أخطر ما يحاول التغريب والغزو الثقافي إقراره في الضمير الإسلامي هو الانعزال عن النظر في خلفيات الأمور ، فهو يستهدف تضييق دائرة الفكر وقصر النظر دون معرفة البواعث ، وقد تبين أن من خلف المخططات التي تواجه الشباب المسلم قوى وتنظيمات يجب كشفها ودحض شبهاتها . فليحذر شبابنا المثقف كتب الأحاجي وأحداث الإجرام والقتل وقصص المراهقين والسحرة وقصص الحب والهيام مما يثير رغبة العامة ليدفعهم إلى اقترافها .

وفارق بين المسلم الرباني صاحب الرسالة وبين أي إنسان آخر لا يرى إلا ما تحت قدميه ، حيث يقنع بلقمة طيبة أو مركبا فارها ، أما المسلم الرباني فهو في سباق مع الزمن لا يشغله شيء عن ربه ودينه تسمو مطامحه إلى الآمال الكبيرة ولا يتوقف عند المطامح الصغيرة ، ويرى الآفاق الواسعة ويتطلع إلى الآفاق البعيدة .

وعلى الشباب المسلم أن يتبين الفارق العميق بين حكم الهوى في مواجهة أي أمر من الأمور .

لقد حاول الإسلام أن يحطم قاعدة حكم المزاج ذي الظن والهوى للإنسان تحت اسم المبررات العقلية والمنطقية ، إن الله تبارك وتعالى لم يهب الإنسان العقل ليتمكن به من تبرير الأسباب واختلاق العلل لما يريد عمله ، وإنما ليكون مهتدياً بنور الوحي يحل حلاله ويحرم حرامه ، وليحكم شرعة الله في كل الأمور ، وإقامة حدود الله في كل المواقف وإقامة ضوابط المجتمع التي تجعل المسلم : فرداً وأسرة وجماعة على طريق الأصالة . على طريق العزائم والإرادة الصلبة القادرة على المقاومة والتفوق على الصراط المستقيم ، على الشباب المسلم أن يعلم أن « العمر » : هو رحلة سفر الإنسان إلى الله تبارك وتعالى فليحاول أن يستفيد منها لحظة لحظة ، فالوقت هو الحياة ، وأن علامة إعراض الله تبارك وتعالى عن العبد هو اشتغاله بما لا يعنيه من لهو الحديث ، أو أهواء النفس ، وأن امرؤ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له من العمل الصالح لجدير بأن تطول حسرته . وعلى الشباب المسلم أن لا يستسلم لأهواء النفس . وليجعل الإيمان حاجزاً بينه وبين الشر ، ويجعل التقوى حامية له من الإفراط والتفريط .

وأهم ما دعا إليه الاسلام : حزم الأمور وتزكية النفس .

والضعيف فى الاسلام أمير الركب .

وعلى المسلم أن يطابق بين الكلمة والسلوك .

وأبرز معطيات الاسلام : الإيجابية المتفائلة برحمة الله .

وقد جعل الاسلام ضوابطه مستهدفة عدم استهلاك الانسان لطاقاته الجسدية والمادية وذلك بالعمل على القصد لا الإسراف .

وتقوم الغاية فى الاسلام على فكرة التقوى والبذل بينما تقوم الغاية فى الفكر الوثنى على الرفاهية : هذه الرفاهية الجشعة التى تتعارض مع الرحمة والبذل والفداء .

(١٢)

أصالة التراث الاسلامى

أستطرد فى السنوات الأخيرة دعوات حول التراث الاسلامى تحاول أن تزيف جوانبه الإيجابية وتعلى من شأن جوانبه السلبية وتدعو إلى الانتقالية وتحاول أن تفسره تفسيراً مادياً أو تفسيراً اقتصادياً أو روحياً ، وهى فى هذا كله تخضع التراث الاسلامى لمناهج غير مناهجه وتتحكم فيه احكاما يخرجه عن حقيقته وجوهره .

١ - والواقع أن التراث الاسلامى لا يدرس ولا يحال إلا فى إطار الاسلام نفسه ، ويقتضى التفرقة فيه بين الأصل السماوى الذى جاء به الوحى وما يتصل به من السيرة والسنة التى صدرت عن الرسول ﷺ باعتباره المبلغ المعصوم ، وبين اجتهادات العلماء والفقهاء والمفسرين فى جوانب التراث المختلفة التى يمكن أن توصف بأنها استجابات للعصور والبيئات المختلفة .

٢ - كذلك فهناك ذلك الحوار الذى جرى بعد ترجمة الفلسفة اليونانية بين مفهوم السنة الجامع وبين الاتجاهات الكلامية والاعتزالية والفلسفية والصوفية التى جرت فى سبل مختلفة وخضعت فى مراحل منها الفكر الهلينى ثم استصفاها المفهوم الجامع وتحرر من تبعة الفلسفات الوافد .

٣ - وفى مرحلتين من مراحل تاريخ الفكر الاسلامى استعلى شأن الاعتزال ثمة وثم استعلى شأن التصوف الفلسفى ، ولم يكن هذا الاستعلاء بالحق ، بل كان انحرافاً عن مفهوم الاسلام الجامع المتكامل بين عقلانية الاعتزال ووجدانية التصوف الفلسفى ، واتضح فى الفكر الاسلامى هذه المرحلة بكتابات الأئمة الغزالى وابن تيمية وابن القيم من بعد حتى أنه لا يمكن استمرارهما إلا فى ظل هذا

الحوار الجامع وبحيث لا يمكن القول بأن أحد هذه الفروع الثلاثة يمكن أن يمثل وحده مفهوم الاسلام .

٤ — كذلك فإن تراث الأجيال المتأخرة وخاصة ما يتصل منه بالحواشي والمتون على الكتب القديمة فإنه ينظر إليه في ضوء تحديات عصره ، وكل ما يتصل بالتجميعات التي قام بها المفكرون المسلمون بعد حملة التتار على بغداد وبعد الحروب الصليبية .

ذلك أنه من خلال هذه المراحل والمواقف يجيء طلاب الشبهات فيثيرون مسألة أو يحاولوا تصوير الاسلام من خلال بعض هذه الآثار ، ولكن النظرة الصحيحة للتراث يجب أن تكون سليمة الاتجاه بأن التراث الاسلامي الصائب هو ما كان متصلا بالمفاهيم الاسلامية ، وقريباً من عهد الرسول وكان محرراً من تلك المحاورات التي كان للفكر اليوناني أثره فيها .

وإننا لنجد اليوم من يدعو إلى (تجديد الفكر العربي) بإعلاء دور الفلسفة (الفارابي وابن سينا) أو إعلاء الفكر الباطني (ابن الراوندي ورسائل إخوان الصفا) وهي من مفاهيم الحلول والاتحاد ووحدة الوجود وغيرها وكل هذا الفكر في صوره المختلفة لا يمثل التراث الاسلامي الأصيل ، وإنما هو من الفكر الدخيل الوافد الذي نقلته الترجمات الفارسية والوثنية واليونانية والمجوسية والباطنية .

وقد قاوم الفكر الإسلامي في عديد من أبحاث رجال الاعلام هذه الشبهات والسموم وكشف عن زيفها وانحرافها عن مفهوم التوحيد الخالص .

هذه الجوانب البناءة هي التي تمثل أصالة التراث الاسلامي وهي وحدها التي يجب تجديدها وإحياؤها لتكون قوة متجددة للفكر الاسلامي الحديث . أما تلك الجوانب السلبية المنحرفة التي شجبها مفكرو الاسلام من قبل فإنها ليست جديرة بالإحياء والانبعاث ، أما هؤلاء الذين يحاولون إحياءها فهم دعاة التغريب والغزو الثقافي متابعين فيها هدف الاستشراق الغربي الذي يتجه وجهة ترمي إلى القول على احتوائهم أو السيطرة عليهم ويضمنون ضوابط لهذا التفتح تحفظ لهم ذاتيتهم وشخصيتهم وطابعهم الرباني الخالص .

ولا ريب أن التعلق بالتراث ليس هروباً من العصر ، لأن هذا التراث إنما يعطي « روح » الأصالة التي لا تحول مطلقاً دون التفتح والتقدم والعصرية ، وإنما تحول دون الاحتواء والانصهار والسقوط في هوة التبعية ، وما يزال التراث الإسلامي لم يكتشف وما تزال فيه قيم نابضة بالحياة ، ولا ريب أن ما كشفه المفكرون الغربيون في ميدان الشريعة الاسلامية من نظريات وقواعد وحلول القضايا جدير بأن يؤكد هذا المعنى ويزيف دعوى خصوم العرب والاسلام ، الذين يجحدون أبحاث المسلمين والعرب من تراثهم وقيمهم التي ما زالت مدفونة في الكتب الصفراء لأن أحداً لم يستخرجها بعد ولم يستعملها في حل معضلات العصر .

ولاريب أن تراثنا فى مجال الفقه والشريعة والإسلامية لا يزال يمثل كنزاً مخبوءاً لم يتم استكشافه تماماً ، وهذا هو ماينقص منه خصوم التراث بينما يجد فيه رجال القانون فى الغرب منجماً ثراً لعشرات الأقضية والحلول والإجابات الجديدة كل الجدة على عصرنا هذا . كذلك فى مجال فهم النفس الانسانية البشرية والأخلاق والمثل فإن هناك ثروة لا تقدر . وفى الاقتصاد وعلم النفس والاجتماع والأخلاق ذخائر حية جديرة بأن تعرفها البشرية مجدداً وتنتفع بها .

أما مايتصل بالعلوم فإن إنبعاث هذا التراث هو بمثابة إقامة الحجة على الذين ينكرون الدور الضخم الذى قام به المسلمون فى مجال بناء قاعدة العلم والتكنولوجيا وخاصة فى بناء المنهج العلمى التجريبى الاسلامى . ولاريب أن أبناءنا وشبابنا فى شديد الحاجة إلى أن نضع بين أيديهم من التراث ما يتأكدون به صدق هذا الأثر الضخم ذلك أن مناهج الدراسة لم تقدم لهم هذه الحقائق وقدمت لهم العلوم الحديثة منفصلة عن أصولها الاسلامية العربية الأولى .

كذلك فنحن فى حاجة شديدة إلى إلتماس أسلوب الأصالة فى تجديد التراث وأن يكون القائمون عليه مؤمنين بأمتهم وعقيدتهم فيجعلوا منه منطلقاً للنهوض والتجديد والبناء والتقدم ولا يكونوا عاملين على إبراز شبهات الشعوبيين والباطنيين والملاحدة ، وأخطاء الزنادقة القدامى ، أو إحياء شعر شعراء المجون ، أو ما يتصل بأهل الباطل والضلال على النحو الذى عرف عن بعض من تصدوا لاحياء التراث من دعاة التغريب ورجال الغزو الثقافى .

(١٣)

الإسلام لا يقر نظريه الإستسلام لروح العصر

تجرى الآن محاولات واسعة على أقلام الكتاب لدعوة العرب والمسلمين إلى (الإستسلام لروح العصر) باعتبارها قمة التقدم الحضارى أعلى مراتب التمدين العصرى وقد أخرجت هذه العبارة ذات البريق الخادع بعض كتابنا فرددوها محاولين أن يتخذوا لها من التراث العربى الإسلامى تعبيراً مجاوباً أو متشابهاً فقالوا : (الانسان ابن عصره) ولا ريب فى الانسان ابن عصره متقدماً إلى مختلف المجالات بقدراته وقيمه وعقائده وثقافته وذاتيته الخاصة ، وليس متخلياً عنها مسلوب الإرادة ونحوها مستسلماً ذليلا لما يقدمه العصر من سيطرة اقتصادية أو إستعمار سياسى أو تبعية فكرية أو مظاهر ومنطلقات من النحلال والترف والاستسلام للشهوات والأهواء على اعتبار أن ذلك كله هو روح العصر يجب على الأجيال الجديدة أن تقبله وتذعن له ، ولذلك كان لابد أن نحذر من الانخداع بهذه العبارة البراقة المسمومة التى تتردد كثيراً فى هذه المرحلة بالذات وتحملها أقلام معروفة للناس بأنها من دعاة التغريب والتبعية والغزو الثقافى ذلك لأن الاسلام يدعو أهله دائماً إلى أن يسابقوا التقدم

ويسايروا العصر ، ولا يجمدوا فى أى مجال من مجالات التقدم العلمى أو الثقافى أو التكنولوجى والمكن . شريطة ألا يضحوا بقيمهم وحدودهم وضوابطهم فى سبيل ذلك . وليس فى تمسك المسلمين بقيمهم فى مختلف العصور مايعارض روح العصر أو روح التقدم ، وإنما يعارض الاستسلام للغواية والأهواء والشبهات .

فالاستسلام لروح العصر ليس إستسلاماً مفروضاً وليس إستسلام جبرية ، وليس إستسلام لتنصل من المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى الذى هو لب لباب المسلم الذى يضع نصب عينيه دائماً رسالته وأمانته ومسئوليته والتزامه وجزاءه الدنيوى والأخروى .

وليس فى معارضة العصر فى جوانب الانحراف والتحلل والاباحة والشهوات مايخشى فيه على الحضارة . ذلك لأن الحضارة فى مفهومها الصحيح هى تقدم مادى ومعنوى وهى عطاء الروح والنفس والحياة ولكل أشواق الانسان ورغباته جميعاً فى عملية متوازنة متكاملة وليست عطاءاً مادياً قائماً على الذات والشهوات وإرضاء الغرائز وحدها .

وهو ما يمارسه الغربيون الآن مضحين بالجزء الآخر : الحيوى المعنوى من الكيان الإنسانى سالبين إياه حاجاته وأشواقه وقاتلين فيه تلك الرغبة العليا إلى السمو والبذل والتضحية والاتصال بالله .

ولا ريب أن فى فهم المسلمين لروح العصر وجهة نظر تختلف عن فهم الفكر الغربى القائم اليوم لها ، ولذلك فإن نظرية الغرب فى الاستسلام لروح العصر تعجز عن أن تجد تقبلا صحيحاً فى أفق المجتمع الاسلامى أو الفكر الاسلامى لأنها قائمة أساساً على مفهوم مادى أساسى يفهم (الإنسان) على أنه كيان مادى ويفهم (الحضارة) على أنها عطاء مادى ويفهم (التقدم) على أنه تقدم مادى .

وليس كذلك مفهوم الإسلام الجامع بين المعنويات والماديات ، وبين الروح والجسد وبين الثوابت والمتغيرات والذى فى صميمه لا يقر هذا الانحراف الذى تسير فيه الحضارة أو الخلل الذى يوجه حركة الإنسان الغربى الذى يعترف بحقيقة مهولة قاسية هى أزمة الانسان والحضارة المتمثلة فى ذلك الصراع القوى الذى تثيره مفاهيم الاعلاء المادى وما له من آثار تكشف عنها الوجودية والهيبية وغيرها من تمزق النفس والغثيان والضياع والغربة وكلها إشارات إلى صيحة الروح الكامنة فى أعماق الانسان والتى تتجاهلها المادية وتسرف فى قتلها وإخمادها .

أما الاسلام فهو يؤمن تماماً بأن الانسان مرتبط بعصره وبيئته ولكنه ليس هذا هو رباطه الأوحد ، بل إن الانسان المسلم دائماً مرتبط بالثابت والمتغير بالزمنى والروحى . بالمطلق والنسبى

بالانهائى والمحدود بالدنيا والآخرة ، بالأرض والسماء . وله فى ذلك مفهومه الواضح العميق الجامع الذى يختلف عن مفهوم الغرب الذى بدأ منذ جاء « هيجل » بنظرية الحركة « وداورن » بنظرية التطور « وسبنسر » بالتطور الاجتماعى وكلها تجمع على الحركة التى تجرى فى نطاق حر ، ليس لها ضوابط أو ثوابت أو إطار تعمل فيه والتى كانت انقلاباً على مفهوم اليونان القديم الذى كان يقول بالثبات المطلق الذى لا حركة فيه .

أما الإسلام فإن له مفهومه الذى تقبله الفطرة ويقبله العلم ويقبله العقل جميعاً : مفهوم التكامل الجامع : بين الإطار الثابت وبين التحركات التى تتحرك فى داخل هذا الإطار المرن الواسع ، ومن ثم فهو لا يجمد ولا يتخلف ، بل يمضى قدماً إلى التقدم ولكنه لا يستسلم للعصر بل يصلحه ويغيره فى ضوء القيم الثوابت الربانية .

وقد أشار الكثيرون من الباحثين المسلمين إلى خطر دعوة (الاستسلام للعصر) وفسادها ، وإلى السم الناقع الذى تحمله فكرة (مسايرة الزمن) فيما يطلق عليه المواءمة ، وإنما تكون المواءمة بين القيم الأساسية وبين المجتمعات خضوعاً من المجتمعات للقيم ، وليس تنازلا من القيم لما تصل إليه المجتمعات ، وفى مفهوم الإسلام لا بد أن ترد إلى الثوابت حيناً بعد حين بالإصلاح والتغيير والإقامة على الحق ، هذا الحق الثابت الذى لا يعرف نسبية الأخلاق ، ولا التطور المطلق ولا النظرة المادية القاصرة بل على معرفة الأبعاد الكاملة والواسعة للحياة والكون ، أهدافها وغايتها ووسائلها وما يتصل بها من معالم الغيب ومن حقائق الآخرة .

يقول الدكتور حسين نصر : لو فعل المسلمون ذلك (أى الاستسلام لروح العصر) لأصبحوا منذ وقت بعيد غير مسلمين ، لأن الزمان يفرض عليهم أن يكونوا إمعة . وإنما نحن المسلمين نعرف كيف نصنع زماننا وظرفنا ونتسجم مع أصولنا وأحكامنا .

ويقول : نستطيع أن نستعمل وسائل العصر ولكننا لا ننسى أن لنا عقيدتنا وأدبنا وفننا ، إذ كنا نحن أصحاب حضارة مؤصلة فإننا نستطيع أن نحملها إلى سائر الأمم كما فعلت ذلك دول أخرى إن ما يتحدث به عن ضرورة تقليد الغرب بحجة مسايرة الزمن ليس إلا ضعفاً فى المعنويات وإحساساً بعقدة الحضارة التى تواجهها الأكثرية إزاء الغرب ، إننا إذا عرفنا الغرب لأدركنا ما يواجهه من مشكلات معنوية وفقر فلسفى وأخلاق . ولقد أدرك هذه المسألة الشباب الغربيون أنفسهم حتى راحوا يتوسلون بعرفان كاذب ليصبحوا « هيبيين » ولو أدركنا نحن هذا الضعف والفقر الذى يعانيه الغرب لما تلقينا فكره وكأنه وحى منزل ينبغى أن يسود ويفرض نفسه بحجة « مسايرة الزمن » .

وفى هذا المعنى يقول المنصفون : إن روح الأمة الإسلامية أعظم من روح العصر لأنها روح

متكاملة جامعة بين الخيط الممتد بين الأرض والسماء من ناحية وبين الخيط الممتد بين الزمن والبيئة من ناحية أخرى توازن بينهما وتوائم ولكنها موازنة ليست على حساب القيم الأساسية الثابتة .

أما روح الأمة : توجيه رباني كريم أثبت على مدى العصور حياطته النفس الإنسانية من الزلل والأمم من السقوط والحضارة من الهزيمة . بينما روح العصر ما هي إلا طائفة من الأهواء والأغراض والمطامع مختلطة من بعض الفروض التي قد تصلح وقد لا تصلح وهي جميعها من الفكر البشري الذي قدمه أناس مصلحون أو مفسدون .

إن المسلم ليس إمعة ولا يجري مع التيار ولا يتقبل كل ما يعرض عليه وهو ليس موالياً لغير كلمة التوحيد ولا يرضى عملية التبرير أو التأويل أو التبعية وقد علمه قرآنه ورسوله أن يكون قادراً على أن يقول (لا) وان يكون قادراً على المحافظة على ذاتيته الخاصة وكيانه المفرد ، يضحي بكل شيء في سبيل حمايته ولا يتردد أن يختار (المحافظة على الكيان) ولا يكون يوماً ما منصهراً في بوتقة الأممية أو ضائعاً تحت عناوين العالمية الكاذبة المضللة التي تستهدف سحق وجوده الخاص الذي جاء ليكون نبراساً لكلمة الحق على العالمين ما قامت السموات والارض .



خطوط عامة فى التعريف بالمؤلف

كان جدى لوالدتى قاضياً شرعياً يشتغل بتحقيق التراث ، وكنت أراه وهو يكتب على أوراق من الكاغد يجعل لها إطاراً بالحبر الصينى الأحمر ويكتب فى داخلها بالحبر الأسود ما عدا العناوين فيجعلها بالحبر الأحمر أيضاً .

وكان أبى يشتغل بتجارة القطن ولكنه كان حفياً بمتابعة الأحداث الوطنية والعالمية ، ولذلك كان بيتنا مغموراً بالصحف والمجلات وصور الأبطال أمثال عبد الكريم الخطابى زعيم حرب الريف وأنور باشا القائد التركى الذى اشترك فى حرب طرابلس الغرب .

وكنا نعيش فى سطور مقدمة ابن خلدون ، وإحياء علوم الدين للغزالى وتفسير الجلالين وفقه الإمام مالك وسيرة الشيخ أبو الحسن الشاذلى .

وقد ذهبت إلى الكتاب ثمة ثم رأى الوالد أن يستقدم لنا شيخاً أنا وإخوتى يحفظنا القرآن فى البيت وكان (بلدنا) من أجمل بلاد الصعيد حيث أحدقها ثلاثة روافد من الماء : الإبراهيمية وبحر يوسف والدهاوى ، وكنا نخرج فى المساء جماعة من الشباب نغذ السير طويلا بجوار الإبراهيمية ونتكأ هناك على بعض القوارب ، نقرأ عن ظهر قلب (رواية ماجدولين) المنفلوطى حيث ترجمها بقلمه الرائع ، ومن المنفلوطى انتقلنا إلى الزيات والرافعى (مدرسة البيان العربى الحديث) .

وكانت (ديروط) بلدة جديدة على التاريخ تحاول أن تفخر بأسماء من ولدوا فيها ، وكان فخرها جديداً بمولد شاعر النيل حافظ ابراهيم على ضفافها ، فقد كان والده مهندساً فى بناء قناطر ديروط التى يتفرع عنها (بحر يوسف) .

ولذلك فإنه عندما أعلنت مجلة (أبولو) التى كان يصدرها الدكتور أحمد زكى أبو شادى عن عدداً خاص عن شاعر النيل بمناسبة وفاته عام ١٩٣٢ (وكنت حدثاً فى السادسة عشر) جردت قلمى الكتابة كلمة عنه باسم واحد من أبناء ديروط التى ولد على ضفاف إبراهيميتها شاعر النيل ، وكان ذلك موضع فخرى بالكتابة فى جريدتى البلاغ وكوكب الشرق قطفا متناثرة ولم أكن بعد قد عرفت طريق إلى أين ، ولكنى عرفت القلم منذ ذلك السن المبكر ، وكانت هناك مقالات موضع إعجابى فى الهلال والسياسة الأسبوعية ، وكانت ديروط قد خرجت من دور تاريخى حيث اندلعت بها ثورة ١٩١٩ وشاركت فيه برجالها الذين قاتلوا الإنجليز وحوكموا وشنقوا .

ومن حيث خرجت من بيتنا الذى كان يشرف على ساحة واسعة من الحقول الخضراء يحدها شريط القطار الذى كنا ننتظره بشوق ولهف لنرى وجوه القاهريين المسافرين إلى الأقصر وأسوان

واترقب الصحف وفى مقدمتها جريدتى البلاغ والسياسة الأسبوعية ومجلة الرسالة ، وقد بدأت أجرب خطواتى فى عالم الكتابة فكنا نراسل هذه الصحف وغيرها وكان الدكتور زكى مبارك يوصينا بالتريث والقراءة والاستيعاب ، وقد مرت أيامى فى الدراسة مع العمل المبكر فى بنك مصر وواصلت الالتحاق بالجامعات الخارجية بالمراسلة حيث كانت الكتابة الأدبية والعمل الصحفى تغلب خطواتى .

وفى مطالع الشباب كانت أوقاتى مقسمة بين مجالس العلم وحلقات الذكر ، أما حلقة العلم فكانت بالمسجد الكبير من بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب حيث كان هـذا الشيـخ الجليل يحدثنا عن أصول العبادات والمعاملات ، أما حلقة الذكر فكانت تعقد بعد صلاة الفجر حيث كنا نخرج فى الغلس إلى المسجد القريب فندير الساقية التى ترفع الماء من البئر إلى الصنابير ثم نصعد إلى المأذنة فنؤدى تلك الابتهالات التى يسمونها المبادرة قبل أذان الفجر فإذا صلينا انتظمنا فى حلقة الذكر حتى تطلع الشمس .

وكنا نتطلع إلى العلماء فى بلدنا فنزورهم فى منازلهم نسأل عن الكتب فإذا اتجهنا شرقاً فإلى عيادة الدكتور أمين ابراهيم نسأل عن مقدمة ابن خلدون وإذا اتجهنا جنوباً فإلى بيت الشيخ بكر نسأل عن صحيح البخارى وإذا اتجهنا غرباً فإلى بيت الشيخ طه نسأل عن كتب الفقه .

ولكنا كنا نقرأ فلا نفهم إلا قليلا ، وكان يغلب على المزاج : الأدب والكتابة الذاتية ونحاول أن نربط أنفسنا بالقاهرة فى طموح بالغ إلى العمل بالصحافة ، وكان الأستاذ محمد ابراهيم الجزيروطى صاحب جريدة الأمانى القومية قد أغرانى بالعمل معه ، فغافلت أهلى ذات مساء لأركب قطاراً منتصف الليل إلى القاهرة لألتحق بالعمل معه لولا أن من أودعته حقيبتى وشى بى إلى الوالد الذى اقتنصنى قبل أن أم بقطع التذكرة والذى وعدنى بأن يصطحبنى إلى القاهرة فى أجازة الصيف ، وهناك التقينا بالدكتور زكى مبارك فى محل (أسدية الحلوانى) حيث حطم مطامعى فى العمل بالأدب أو الصحافة ودعانى أن أركز على دراسة علوم التجارة والاقتصاد بما يتفق مع عملى فى بنك مصر ، وكان من فضل الله تبارك وتعالى أن تأخرت فى الريف عشر سنين قبل أن ألتحق بالصحافة .

وكانت هذه الفترة قد صهرتنى وأعادت تشكيل النفسى وحولتنى من هدف وهمى إلى هدف أصيل حيث اختفت مطامع الكتابة الأدبية وزخرف الصحافة و برزت الوجهة الإسلامية الجامعة .

ثم كانت السياسة الأسبوعية قد نشرت ملخصاً لذلك الكتاب الذى أصدره هاملتون جب فى ذلك الفصل الذى كتبه الدكتور محمـــد حسين هيكل الذى كان انتهى لتوه من نشر فصول كتاب (حيـاة محمـد) فى ملاحق السياسة وكنا نتابعها منذ اليوم الأول ونهش لها ، وكان ينشرها مترجمة عن كتاب (أميل درمنجم) ولـكنه لم يلبث أن أضاف إليها وعدلها ولم تكن مترجماته عن درمنجم إلا مقدمة لها .

ولم يكن الدكتور هيكل غريباً على فقد كنت أدمن قراءة الهلال والمقتطف ، وكنت شغوفاً بمقالة له نشرها تحت عنوان (النور الجديد : أيان يكون مطلعه) تنبأ فيها بالصحوة الإسلامية التي سيشرق نورها على العالمين بعد أن فقدت الحضارة الغربية هدفها الروحي وغرقت في المادية . وكان ذلك عام ١٩٢٦ وسني قريباً من العشر سنوات ، وقد صدر بعد قليل من سقوط الخلافة الإسلامية وتطلع المسلمين إلى أفق جديد ربما تمثل في رسالة الدكتور السنهوري عن ما يسمى (كومنولث إسلامي) بديلا للخلافة ، وهو ما تطور خلال أربعين سنة إلى المؤتمر الإسلامي والتضامن الإسلامي .

ولقد هزني حقاً ما أورده في مقاله الخطير الذي لخص به كتاب (وجهة الإســــلام) الذي كتبه المستشرقون الخمسة وعلى رأسهم هاملتون جب والذي كشف خطة الاستشراق في تغريب الإسلام والمسلمين من خلال هذه الدراسة وكان هذا الكتاب هو نقطة التحول في وجهتي من الدراسات الأدبية الخالصة إلى العمل من أجل مقاومة الغزو الاستشراق والتغريب . وكان هذا كله سؤال ظللت أبحث الإجابة عنه حتى التقيت بالإمام الشهيد حسن البنا الذي صحح إسلامي وإسلام عشرات الألوف من المثقفين حين فهمنا منه ولأول مرة أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع وإننا مطالبون بأن نستعيد تطبيق شريعة الإســــلام في مجتمعنا بعد أن حجبها النفوذ الاستعماري وأن نرفض الحضارة الغربية لفسادها وإن كنا نقبل منها الجانب العلمي والتجريبي لنضمه في إطار مفهومنا الإسلامي الأصيل .

لقد وجهنا الإمام الشهيد حسن البنا إلى الدعوة إلى تصحيح المفاهيم وتحرير القيم في سبيل بناء المجتمع الإسلامي على منهج القرآن ، وعن طريق هذا الفهم استطعت أن أجد الإجابة على كل هذه الأسئلة التي كانت تملأ مشاعري ، وكان ذلك هو منطلق عملي الذي ما زلت أواصله منذ أربعين سنة ، ويعد هذا العمل الذي بين يدي القارىء هو ثمرة هذه الوجهة وهذا المفهوم ، هذا وبالله التوفيق .

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ الندوى والموسوعه

كان السيد أبو الحسن الندوى - جزاه الله خيراً وأمد فى عمره قد نوه بالموسوعة فى حفل عالمى كبير عقد فى ندوة العلماء فى لكنهو الهند عام ١٩٨٢ حيث قال ولا ننسى فى هذا الصدد المشروع العلمى الكبير والمخطط الواسع النافع الذى يقوم به صديقنا الأستاذ أنور الجندى وحده وهو موسوعة مقدمات العلوم والمناهج : المجلد الأول منه خاص بالفكر الإسلامى والمجلد الثانى فى تاريخ الإسلام والمجلد الثالث فى العالم الإسلامى المعاصر والرابع فى اللغة والثقافة والأدب ، وقد صدرت هذه المجلدات الأربعة ، أما الخامس ففى التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة ، والسادس : فى المجتمع الإسلامى ، والسابع فى الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية ، والثامن فى الإسلام وموقفه من الفلسفات والأديان ، والتاسع فى الشبهات والأخطاء الشائعة ، والعاشر فى حركة اليقظة الإسلامية .

وقال سماحته : ولو تم هذا العمل وصدر الكتاب بجميع أجزائه كانت موسوعة كبيرة فيما يتصل بالإسلام والمسلمين ومكتبة قيمة فى العلوم والآداب الإسلامية .

وها نحن بعون الله وتوفيقه وفضله نقدم المجلد العاشر ١٩٨٩ .

وبذلك تكون قد تمت هذه الموسوعة ونرجو أن نلحقها بخمس مجلدات أخرى نستكمل بها البحث الذى جرى التوسع فى عرض قضاياه على نحو ما كان يعمل علماء المسلمين السابقين فى الاستدراك والإضافة والتكملة والصلة .

مقدمات العلوم والمناهج

(مواد المجلدات العشر وتمثل محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل جامع)

المجلد الأول : الفكر الإسلامي:

- بناء الفكر الإسلامي وتطوره . مخططات غزو الفكر الإسلامي
- مؤامرات احتمات الفكر الوثني الهليني والشرقي القديم

المجلد الثاني : تاريخ الإسلام :

- من فجر الإسلام إلى العصر الحديث . عالم الإسلام وعالم الغرب
- من الوحدة الاسلامية إلى الترك والعرب .

المجلد الثالث : العالم الاسلامي المعاصر :

- العالم الاسلامي المعاصر . العالم الاسلامي والغزوة الصهيونية
- العالم الاسلامي والغزوة الشيوعية .

المجلد الرابع : اللغة والأدب والثقافة :

- اللغة العربية وقضاياها . خصائص الأدب العربي وقضية الشعوبية . منهج الثقافة العربية

المجلد الخامس : التبشير والاستشراق والدعوات الهدامة :

- التبشير والاستشراق وأثرهما في الفكر والاجتماع
- المؤامرة على تاريخ الاسلام . الدعوات الهدامة

المجلد السادس : المجتمع الاسلامي :

- نظام الاسلام . قضايا المجتمع . التربية الاسلامية ومناهج التعليم

المجلد السابع : الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية :

- مفاهيم العلوم الاجتماعية . الاسلام والحضارة . الاسلام والتكنولوجيا

المجلد الثامن : طابع الاسلام بين الأديان والايديولوجيات :

- عطاء الاسلام للبشرية . العلمانية في ضوء الاسلام . الايدلوجيات المعاصرة

المجلد التاسع : المنهج الغربي : أخطاؤه والشبهات المثارة ضد الاسلام :

- أخطاء المنهج الغربي الوافد من التبعية إلى الأصالة
- دراسة قضايا التعليم والشريعة واللغة العربية . موقف الاسلام من الفلسفات القديمة

المجلد العاشر : تاريخ اليقظة الاسلامية في مراحلها الثلاث (١٤٠٩ هـ)

الترقيم الدولى ٠ - ٠٠٨ - ٤٣٣ - ٩٧٧
رقم الإيداع ١٩٨٨/٢٣٨٩

مطبعة دار البيان بمصر
ت ٩٣٦٦١٩